د.احمد ابراهيم الفقيه

(السيرة الذاتية – الثلاثية الثانية)

ثلاثية طرابلس

الكتاب الثالث – البحث عن روح المكان (نماذج واحداث وكتب واماكن)

وكان يسكن بلدة مزده احد الاشراف يدعى عبد النبي ، قام بتشكيل فرقة من الفرسان ، يجوب بها الضواحي ويستولى على قطعان الماشية ، وخرج رجب بك لمطاردته ، فهرب مثير القلق هذا ، وآن العقاب الوحيد الذي استطاع الاتراك انزاله به هو انهم ازالوا بلدة مزده من الوجود.

شارل فيرو

(في الحوليات الليبية عن احداث وقعت حوالي عام1660)

ليبيا تصحرت . القيظ اختلس الرطوبة ، فناحت

حوريات مهدلات الشعور ، ينعين جفاف الينابيع

والبحيرات

اوفيديوس

وجد الاله ابوللو الفتاة قورينا تصارع اسدا بمفردها فانقذها منه ، واخذها الى ليبيا حيث اوجد مدينة هناك اسماها باسمها قورينا

الميثولوجيا الاغريقية

ساقته رحلته الى ليبيا ، وكانت امه فينوس قد شكت الى كبير الالهة جوبيتير ما صادف ابنها انياد من سوء الحظ ، وارادت ان تساعدته فتنكرت في ثياب الصيادين ، وجاءته في ليبيا ودلته على مدينة تحكمها امرأة جميلة اسمها ديدو ، هي مدينة قرطاج

انيادة فيرجيل

ومن حدود مصر الى بحيرة ترينون ، فان ليبيا تسكنها القبائل الجوالة ، التي يشرب ابناؤها الحليب ويأكلون لحوم الحيوانات عدا البقر ، وكذلك في قورينا ، حيث لا تلمس النساء لحم البقر تشريفا للالهة المصرية ايزيس التي يعبدها اهل البلاد

هيرودوت رآى البرق شرقيا فحن الى الشرق

ولو لاح غربيا لحن الى الغرب

فان غرامي بالبروق ولمحها

وليس غرامي بالاماكن والترب

محي الدين بن عربي

ليبيا تصحرت . القيظ اختلس الرطوبة ، فناحت حوريات
مهدلات الشعور ، ينعين جفاف الينابيع والبحيرات

اوفيديوس

قد يهون العمر الا لحظة وتهون الارض الا موضعا
احمد شوقي

ليبيا ، هي ابنة الاله ايبافوس ابن زيوس ، وقرينة بوسايدون اله البحر ، وام اجينور ملك صور واب قدموس واوروبا

الميثولوجيا الاغريقية

جففت الريح الاتية من الصحراء جميع الابار ، فتشاور الناس فيما بينهم ماذا يصنعون ، ثم زحفوا كتلة واحدة يشنون الحرب على

الرياح الجنوبية ، التي دفنتهم جميعا في رمالها

هيرودوت

الجرامنت ، هذا الشعب القوي ، الذي يزرع مناطق الملح بعد ان يغطيها بالتراب ، وفي ارضه يوجد الجاموس الذي يرعى وهو يمشي الى الوراء، لان قرونه تمنعه من التقاط العشب اذا سار الى الامام

هيرودوت

كنا باختصار نواجه اعظم متحف فني لما قبل التاريخ في العالم كله ، فقد كانت هناك صور ذات ميزة جمالية عالية ، كالصور التي بالحجم الطبيعي لنساء سافرات

هنري لوت

مكتشف لوحات تسيلى

الكتاب الاول

تحت ظل الملك الصوفي

المدينة التي رسمت لها صورة في ذهني قبل ان اراها ، احالتها الى اسطورة تختلط فيها الحقيقة بالخيال، هاهي الان واقعا امامي ،اصل اليها في بداية الصباح ، الشمس تسقط على الابنية والشرفات ، على الاشجار والعربات ، وتلفها بذلك الرداء البنفسجي الذي يضفي عليها لونا غير لونها ، ولعله يضيف اليها جمالا ليس فيها ، لكنني انظر الان الى طرابلس بعين الحب ، عين انسان يهيم بها ولها قبل ان يراها، الفضول يجعلني اكاد اقفز من النافذة لارى اكثر مما يتيحه مجال النظر من خلالها، مبهورا بكل ما اراه ، هذا الكم الهائل من السيارات ، الذي لم ار مثيلا لها اعدادا واشكالا ، انواع لا حصر لها من السيارات ، والغريب الغريب فيما اراه ان بعضها تقوده نساء حاسرات الوجوه ، هناك بطبيعة الحال تتجاور السيارات مع عربات الحنطور التي تقودها الجياد ، جميلة انيقة ، لها دندشات، وزخارف وجلسة مريحة اشبه بجلسات الصالون ، هذه كروسة تركبها عائلة رجل وامراة وطفلان او ثلاثة ، وهذه يركبنها (تستقلها) نساء سافرات ,اخرى نساء يرتدين اللحاف ، او رجال وصبيان ، وهذه عربات تحمل البضائع يجر احداها رجل، واخرى يجرها حمار، وثالثة حصان ، وهذه دراجات عادية واخرى دراجات نارية، والطريق يتسع للجميع ، ويجد فيه الجميع مكانا للمسير حسب سرعته ، ويصنع جميعهم هديرا وصخبا يختلط بهدير الناس على الارصفة ، دكاكين وعربات وباعة متجولون ، والسيارة تمخر هذا العباب ، والعم عبد الله بشير يتابع هذه الحياة بالتعليق، يذكر اسماء الاماكن ، هذه طريق السواني ، وهذه منطقة الفلاح ، وهذه منطقة ابومليانة ، وهذه منطقة الحي الغربي ، وهذه المنصورة ، وهذا سوق الثلاثاء ، ونقترب الان من وسط البلد ، من شوارع الرشيد والمأمون وعمر المختار ، لتبدا الشوارع الحديثة ، تختفي مظاهر الحياة الشعبية ، والاسواق الشعبية وندخل المنطقة الحديثة ، التي كان اكثر ما فاجاني فيها ، الاجانب ، الايطاليين ، نساء ورجالا ، تكاد تختفي الملابس الوطنية الليبية ، واحتلت الشوارع الان الملابس الافرنجية ، الفترينات الزجاجية اللامعة ،ثم النساء ، النساء ، النساء ، لاول مرة في حياتي اشاهد مثل هذه العدد من النساء يدرجن في الشوارع ، بملابس افرنجية انيقة ، احذية ذات كعوب عالية ، ملابس صيفية ، الجيب وقميص ابيض او اوزرق او مزركش ، بعضهن يحملن سلالا في ايديهن ، والبعض يدفع عربة اطفال امامه ، والبعض صحبة رجل او صحبة امراة او بمفردها ، وعمي عبد الله بشير يعبر عن سخطه لوجود هؤلاء الايطاليين ، في رايه انه كان حتما عليهم ان يلحقوا بدولتهم التي خرجت من البلاد بعد الحرب ، متسائلا عما يبقيهم هنا، يحتلون منازل ليست لهم ، ويهيمنون على اقتصاد بلاد ليست بلادهم ، ويملكون عقارات ومزارع اغتصبت من الليبيين اغتصابا، لكن كلامه المعادي لا يستطيع ان يمنعني من الاستمتاع ببهاء هذه المظاهر الحضارية الجميلة، المتاجر والواجهات الانيقة بما يعرض فيها من ملابس حديثة ، وهؤلاء النساء والرجال ذوي (ذوو) المظهر الانيق، النظيف الجميل ، حتي الاشجار بدت في المدينة ، اكثر اناقة ، وجمالا ، انها تمتد على جوانب الشوارع ، مغروسة بين الارصفة ، تم تشذيبها وتهذيبها ، فاصبحت على مقاس الشارع ، بلا زوائد ولا افرع واغصان تعيق النظر او تعيق المرور ، انه جزء من زينة المدينة ، نعم هناك ابنية كثيرة وعمارات شاهقة ومساجد لها مآذن

متعددة ، ولكنه بناء وشوارع ظهرت فيها عبقرية المهندسين الذين شيدوها على هذا الجمال وهذا التكوين المبهج الذي يجعل كل شيء يتناسب مع ما حوله وامامه وفوقه وتحته بشكل معجز في ابداعه وجمال تنسيقه وترتيبه ، هكذا تكون المدينة اذن ، هكذا تكون العاصمة ، ان طرابلس لم تصبح مدينة من فراغ ، ولم يتم اختيارها عاصمة للبلاد على توالي العصور ، عبثا ، انها فعلا تستحق هذه الهالات من المجد التي احيطت بها ، والصيت الذي حازته ، والمكانة التي احتلتها في قلوب الليبيين جميعا حضرا وبدوا واهل سهل وساحل وجبل وصحراء ، انها مدينتهم ، انها الان مدينتي التي ستكون المقر والمستقر لمستقبل ايامي .

هل تصدق؟

قال عبد الله بشير يخاطب والدي، ويهدي سرعة السيارة امام مبنى على شكل فيلا قريبا من شاعرعمر المختار

ـ هنا جاء بي والدي ، لاكمل تعليمي في المدرسة الاسلامية العليا ، ولكنني تركت المدرسة وذهبت اعمل سائقا مع الطليان ، لانني في ذلك الوقت احببت قيادة السيارات حبا اشبه بالمرض .

واضاف متحسرا

ـ كل الوزراء الان هم من خريجي المدرسة الاسلامية العليا ، لو واصلت الدراسة لكنت واحدا منهم .هل رايت في حياتك جهلا وغباء وهبلا اكثر من ذلك . بدأت سائقا منذ ثلاثين عاما ومازلت كذلك .

لاح من بعيد ميدان الشهداء

لم اكن احتاج لمن يقول لي انه ميدان الشهداء

فالصور التي وجدتها في الكتاب السياحي الملون كانت اغلبها ماخوذة من هذا المكان

القلعة التي تهيمن على الميدان ،السرايا الحمراء ، كما يسمونها، حيث مقر ملوك طرابلس وولاتها

تمثال الجياد الذي تحيط به مياه النافورة في وسط الميدان

العمودان الشهيران اللذان يلامسان السماء فوق احدهما سفينة تضرب اشرعتها الرياح رمزا لعلاقة طرابلس بالبحر ، ثغرا من ثغوره التاريخية ، وعاصمة من عواصم التجارة عبر البحر منذ فجر التاريخ البشري ، ثم التمثال الاخر للبوة الامبراطورية الرومانية ترضع شبليها ، و ليس بعيدا عنه ماذن تطل من جوامع المدينة القديمة تنافس برج المنارة في مقدمة الميناء ، يلمع ضوء المنارة الاحمر رغم وهج الصباح

كان يجب ان نصل طرابلس ظهر الامس، باعتبار ان ساعة الانطلاق من مزدة، كانت مع الضحي، وهي لا تاخذ غير ساعتين ونصف، من سائق ماهر مثله، يخبر الطريق ويعرف كيف يتجنب مشاكلها، لكنه عادة ما يقطع هذه الرحلة في اسبوع او عشرة ايام ، اذا لم يكن مكلفا بمهمة حكومية عاجلة، لانه لا

يستطيع الا ان يلبي دعوات اصحابه المتناثرين على امتداد الطريق ، فلديه اقارب لابد ان يجاملهم في وكالة الحلفاء المسماة شاطار عبد الجواد، التي لا تبعد عن مزدة غير ثلاثين كيلومترا، ثم سياتي الى مناطق غريان ومحيطها، حيث اصدقاء كثر ينتظرونه لابد ان يلبي دعوة عدد منهم، ويستقر مع احدهم يوما في منطقة "الكليبة" واخر في "ابي زيان" وثالث في "القواسم" ورابع في "الكميشات" وخامس في "اوسادن" قبل الوصول الى تغرنة ثم المركز تغسات، ولن يقدر فيما بعد على رد دعوات اصحابه في "العزيزية" و"سواني بنيادم" قريبا من طرابلس، وهي دعوات ستاخذ منه اسبوعا واكثر من اسبوع، اما في هذه الرحلة وبسبب الحاح والدي فلم تستغرق الرحلة غير يوم واحد، قام بتقسيمه الى نصفين، قضينا نصفه الاول، اي فترة القيلولة والغداء، في بيت صاحبه وصاحب والدي الشيخ على ونيس، الذي كان في زيارة الى بلدته الاصلية،تغرنة، من محل اقامته الدائم في بلدتنا مزدة، حيث دخلنا عبر السرداب الطويل الواسع ، الذي يشكل سقيفة البيت ، الممتدة تحت الارض، والتي تفضي الى بيت يشبه الكهف، منحوت في عمق الارض، لايختلف تفصيله الداخلي و شكله في هذا العمق عن اي دار من الدور الجميلة التي يسكنها علية القوم فوق سطح الارض، ردهة وسط البيت ، واسعة مفتوحة على السماء، تتوسطها عريشة عنب تتسلق جزءا من الجدران، وتظلل نصف الردهة، ودخلنا غرفة الضيوف ، او المربوعة، وهي احدى الغرف المنحوتة او المحفورة في عمق الارض ، ومع ذلك وجدنا براحا وانشراحا ونورا اكثر مما نجده في مرابيع البيوت الاسمنتية على سطح الارض، لها هي ايضا نافذة مشرعة على الشمس التي تنشر اشعتها وسط ردهة البيت، وقد تسللت عبر اغصان عريشة العنب، وجدران الغرفة مغطاة بالاكلمة والاطباق المزركشة، وفوق ارضية الغرفة، ثلاث طبقات من المفارش ، الحصران وفوقها الاكلمة وفوق الاكلمة المنادير والطنافس والحشايا والوسائد، وجاءت قصعة البازين الغرياني ، الذي تجيد نساء غريان سبكه، فيصبح اشبه بعجين الدقيق المخلوط بمادة المستكة ، شدة مع نعومة، مع سهولة الامتزاج بالادام، لتاتي النتيجة لقمة يستسيغ الفم طعمها، ويسهل عليه مضغها، ويستسيغ البلعوم ابتلاعها، وفوق البازين قطع لحم الخروف ، قبل ان تاتي الفاكهة التي تشتهر بها بساتين غريان صيفا ، عنبا وتينا وبرقوقا وبطيخا، وبعد الغداء وجدت العم عبد الله بشير ، يغمض عينيه وهو يجلس متكئاً الى الحائط، ويستغرق في غفوة لم تمتد لاكثر من خمس دقائق ، كانت هذه حصته من نوم القيلولة ، وبعد ان اكملنا الدورة الثالثة من الشاي نهضنا واستانفنا الانطلاق ، ولم يكن يستطيع العم عبد الله هذه المرة ان يستجيب لدعوات اصحابه في غريان للبقاء، لانه لابد ان يقطع جزءا من الطريق الى طرابلس ، قبل ان يستجيب لدعوة صديق اخر، ولم تات هذه الاستجابة الا بعد ان وصلنا الى مشارف طرابلس ، حيث بلدة سواني بنيادم، وراى قائد رحلتنا ان لا جدوى من دخول طرابلس ليلا ، لاننا لن نربح وقتا ولن نقضي مصلحة، واثر ان يقضي بنا الليل في مزرعة صاحب من اصحابه، فدخل بنا عبر بوابة كبيرة الى ارض المزرعة ، وجاء رجل يستقبلنا ويرحب بنا ، يركض في جلباب نومه ، ويلهج بعبارات كثيرة مدغومة توحي بمدى فرحته بقدومنا، قائلا يخاطب والدي ان العم عبد الله بشير يمثل بالنسبة له بشير خير وهناء، وان السعد ياتي دائما في ركابه ، وانه ما زاره مرة الا وجات عقبه الاخبار السارة السعيدة، علاوة على ما يستمتع به من جميل الحديث وملاحته ، وكانت مفاجاة عندما عرفت انا ووالدي ، ان صاحب المزرعة الحقيقي هو السنيور ماريوتي ، وان الرجل الذي استقبلنا ليس الا حارسا ومديرا للمزرعة ، وان السنيور ماريوتي ، صديق عبد الله بشير ، ويفرح هو الاخر بقدومه ، الا انه موجود مع العائلة في طرابلس هذه الايام ، وعرفنا ايضا ان العم عبد الله يزوره هناك وسيحمل له معه بعض اوراق وفواتير وصلت الى المزرعة في

غيابه ، وكان الرجل الذي استضافنا يتصرف كانه صاحب المزرعة، فهو يقيم بها مع اسرته ، وقام بواجب الضيافة خير قيام ، فذبح ارنبا وصنع من لحمها حساء البازلاء الخضراء، وجاء بفواكه الشمام والبطيخ، وفي الصباح حمل الى السيارة بعض صناديق البطيخ والشمام، هدية للعم عبد الله، وبريد السنيور ماريوتي، وودعنا قبيل شروق الشمس لندخل مدينة طرابلس مع الاشراقات الاولى لشمس الصباح، التي سرعان ما ظهرت معكوسة على شرفات العمارات وذوائب الاشجار.

كانت احاديث العم عبد الله بشير خليطا من ذكرياته عن حرب الحبشة التي ذهب جنديا ضمن جنودها الليبيين وعمل هناك سائقا لسيارة نقل الموتى ، ثم ينتقل من هناك الى وقوعه في الاسر اثناء الحرب العالمية الثانية حيث كان يقود السيارة بعقيد ايطالي ، ونكاية بالايطاليين ، قاد بنفسه هذا العقيد الى كمين نصبه له ليبيون متطوعون مع جيش الحلفاء، باتفاق معه، ووقع هو ايضا مع الضابط الايطالي في الاسر لينضم مباشرة الى الفيلق الليبي التابع للجيش الثامن الانجليزي، ويقول انه تقدم بطلب معاش من الجيشين الايطالي والبريطاني لانه عمل جنديا مع الاثنين وحارب مع الاثنين ، ومن حقه ان يستفيد من المنحة التي يقدمها كل جيش للمحاربين القدامي ، ويعلق والدي ساخرا انه يطلب تعويضا من جيشين حارب ضدهما، بمثل ما حارب معهما، فقال ان هناك اناسا حالهم مثل حاله يتقاضون منحة من الاثنين، وعاد لنغمة المباهاة التي لا يتركها الا ليعود اليها قائلا انه كان اول ليبي في التاريخ ، يحوز رخصة قيادة السيارة ، ويتحدي ان يكن هناك ليبي سبقه لنيل هذا الشرف .

ومباشرة قادنا العم عبد الله بشير ، الى شارع هايتي ، حيث مقر المعهد، اوقف السيارة امام بوابة حديدية كبيرة، هي مدخل المعهد، وخلف هذه البوابة مباشرة تقع غرفة مكتب يحتلها بجسمه المكتنز العريض وبنائه المتين وسحنته السمراء ، الحاج رمضان الاسود. قام من مقعده مرحبا بمجرد ان راى صاحبه عبد الله بشير ، يطل من باب المكتب، ياخذه بالاحضان، ويقوده ونحن معه الى الجلوس في صالة كبيرة للانتظار مرصوصة بكراسي الفوتيل، حيث تولى العم عبد الله تقديمنا لصديقه الذي قال انه المشرف المدرسي ، وافهمه عن الغرض من مجيئنا الى مكتبه، فوعده الحاج رمضان خيرا، ومد يده يستلم ملفا كان والدي يحمله معه ، واحضر قلما وورقا وكتب باسمي طلب الالتحاق بالمعهد وسالني ان اضع توقيعي عليه، واعدا بانه سيعمل جهده ان يفوز طلبي بالقبول. متمنيا ان يكون ادائي في امتحان القبول مرضيا للجنة الاساتذة، قائلا انه اختبار هيئة ايضا، فيجب ان يأتي الطالب بافضل هندام لديه، ولاباس من ان اكون مستعدا بحفظ ابيات من الشعر الفصيح، اتمرن على القائها تمرينا جيدا، لان بين اعضاء اللجنة شاعر معروف هو الشيخ الهادي انديشة، الذي سيكون عونا وسندا لمن يكون ضليعا في القاء الشعر. وعاود العم عبد الله تذكير المشرف المدرسي برغبتي في الانضمام للقسم التجاري وليس الصناعي، فابلغه الرجل بانه سيبذل معي جهده، وانه سيحجز لي مكانا مع اللجنة في اليوم التالي ، عند الساعة العاشرة، وانتهى اللقاء وعدنا الى السيارة وسط تاكيد العم عبد الله بان الحاج رمضان هو صاحب الكلمة الاولى والاخيرة في هذا المعهد، وانه سيفى بوعده وسيقوم باداء المهمة خير قيام ، واني استطيع ان اعتبر نفسي منذ الان طالبا في القسم الداخلي بالقسم التجاري بمعهد هايتي . وتركني مع والدي في وكالة السفر في الباب الجديد، حيث كان عدد من اهل البلدة واغلبهم تجارٌ يتواجدون هناك، وكان احدهم يجمع قروشا من الحاضرين لاعداد وجبة الغداء، فاعطاه والدي نصيبنا في الوجبة ، وكنت امني نفسي بان ياخذني الى مطعم البرعي، بدلا من غذاء الوكالة ، الا انه قرر ان يؤجل الذهاب لتناول وجبة المطعم ،

الى يوم الغد، بعد ان يعرف نتيجة امتحان القبول، ونجاحي في هذا الامتحان، لانني اذا لم انجح، كما قال لي مداعبا، فسيذهب ليرمي بي في البحر ، ويعود الى البلدة، لانه لم يعد هناك مكان أخر يقبلني . ايقظ كلامه عن البحر شوقي لان اذهب لالتقي بهذا الكون السحري من جبال الماء وحقوله الزرقاء، واشجاره التي تظهر وتختفي عند ارتطام امواجه بصخور الشاطيء،هذا الفضاء اللامتناهي ، العامر بالاساطير والعجائب وقصص الاولين وحروبهم. لقد رايت اقباسا منه او ومضات ، ونحن نمر بميدان الشهداء ، ولكنني لم اقف على شاطئه متأملا ، وارضي فضولي من بهاء منظره متنسما هواءه المشبع باليود واستقبل على وجهي رذاذ مائه المنعش للروح والقلب. كنت اريد ان اركض لالحق بالبحر، لكن والدي لمح شابا من شباب البلدة يعمل في المدينة ، ويجيد القراءة والكتابة ، فناداه واقترح عليه ان يساعدني في التمرين على امتحان الغد، وذهبنا بعد الغداء الى حديقة البلدية، ليسألني اسئلة عامة، اجبت عليها بما اعرف ، واردد امامه بعض محفوظاتي الشعرية، وثبت في اليوم التالي ، انه كان تنشيطا ضروريا للذاكرة، افادني كثيرا وانا اجد نفسي اجلس رابط الجاش في مواجهة لجنة من خمسة مدرسين، بينهم الشيخ الشاعر الهادي انديشه، بزيه الازهري، ارد بثقة على اسئلتهم، وانتهز فرصة السؤال الذي كان متوقعا من الشيخ الشاعر، بان اقرا شيئا من محفوظاتي الشعرية ، فارفع عقيرتي عاليا اقرأ مرثية شوقي في عمر المختار، الى ان جاء طلب الشيخ ان اخفض صوتي قليلا، لان رهبة الموقف، وخوفي ان اضعف عند القراءة، جعلاني ابالغ في الحماس والانفعال. وكان من تقاليد اللجنة ، ابلاغ الطالب بالنتيجة قبل انتهاء المقابلة، وكانت بالنسبة لي القبول طالبا في القسم التجاري، فخرجت فرحا ابلغ والدي الذي اصر على الحضور معي جالسا صحبة الحاج رمضان الاسود، بانتظاري، لكي يحقق وعده لي ، بتناول الطعام في مطعم البرعي الشهير بباب الحرية .

عاد والدي في نفس اليوم الى البلدة ، محملا ببعض السلع لدكانه، وذهبت الى بيت قريب لي ، هو خالي محمد ابوالقاسم التير، الذي يقطن بيتا بمنطقة ابوهريدة، ويعمل عضوا في المجلس التشريعي، وهو المجلس النيابي الخاص بولاية طرابلس ، لاقضي المدة التي تسبق بدء الدراسة والتحاقي بالقسم الداخلي، في بيته، وهي مدة لا تزيد عن عشرة ايام.

لا تبعد منطقة ابوهريدة كثيرا عن مركز المدينة ، ربما مسافة كيلو متر واحد، اقطعها مشيا، وكان البيت الذي يسكنه قريبي بالايجار بيتا صغيرا مستقلا بنفسه على عادة البيوت ذات الطابع الايطالي ، تفريقا بينه وبين مايسمى الحوش العربي ، فهو اشبه بشقة في عمارة ، الا انه ينتصب وحده فوق الارض، من طابق واحد، تلتصق به بعض البيوت، وثمة بيوت اخرى تتناثر بين الحقول واشجار النخيل ، وبه ثلاث غرف بمنافعها، غرفة لخالي وزوجته، وغرفة اخري لقريب له من الزنتان يعمل موظفا في البنك ، رفقة زوجته ، وغرفة للضيوف ، هي التي اعدوا لي فيها مهجعا، وكان تقليدا شائعا ان تسكن العائلة في غرفة مع عائلات اخرى ، ورغم وجود اقارب اخرين، فقد كان اختيار هذا الخال للاقامة معه ، حتمه وجود هذه الغرفة الاضافية في بيته التي يندر وجود مثلها لدي اية عائلة نازحة من الارياف الى المدينة، ولم اكن اعود الا ليلا لانام ، لانني امضى كل النهار في استكشاف المدينة، وقد ترك لي والدي نقودا تكفي للصرف على نفسي ، كما منحني الخال بعض القروش، فكان موجودا في جيبي، ما يكفي للفسحة وشراء وجبة غداء كل يوم، لانني اتناول وجبة الافطار والعشاء في البيت. وصار جزءا من برنامجي اليومي كل مساء ان اتجول على شاطيء البحر، متمشيا جيئة وذهابا مع كورنيش طرابلس

الجميل، ارقب حركة السفن وقوارب صيد السمك وتراكض الامواج باتجاه الشاطيء وارتطامها بصخوره، وكان ثمة جانب من الشاطيء بعد سور الميناء، وفي بداية طريق الملاحة، مخصصا للسباحة، ومقر لاحدى النوادي الراقية التي يؤمها الايطاليون اسمه "نادي الصيد والرماية"، فكنت اصل الى ذلك الجزء االذي يتحول الى مرتفع يشرف على المصيف الصغير، فاقف حيث مازل السابحون والسابحات الاجانب يتكئون على الكراسي بلباس البحر، او يتمددون على رمال الشاطيء يستقبلون اخر اشعة الشمس الغاربة ، فامتع بصري باجساد السابحات الجميلات قبل ان اعود الى المناطق القريبة من مركز المدينة، حيث اجلس عند احدى المقاهي مثل مقهى الخضراء او مقهى سيدي الشعاب، وكلاهما قريبة من البحر، قبل عودتي مع مجيء الليل الى البيت.

اثناء عودتي ليلا الى البيت ذات يوم، وجدت عاملا من عمال النظافة يمسك بالمقشة، ويقف بجوار عربته التي يجمع فيه القمامة ، يلتقط الكيس من امام عتبة البيت ، وهو يرتدي اسمالا بالية قذرة ، لان شركة النظافة لم تكن في ذلك الزمن تمنح عمالها زيا خاصا كما حدث فيما بعد، وسالني الرجل عن صلتي باصحاب البيت الذي كنت اهم بدخوله، فقلت له هذه الصلة ، وانا اتامل ملامحه السمراء التي زادتها الظلمة سوادا الى حد تعذر معه ان اراها، فاذا به يرمي بالمكنسة ويقبل نحوي يصافحني بقوة وحماس، وسالني ان كنت كما يظن احمد ابن عمه ابراهيم الفقيه، فرددت بالايجاب، ليقول انه علي ، وان والده هو العم يوسف، ابن عم والدي وشريكه اكثر من مرة في الحرث والحصاد، وظل يسالني عن افراد العائلة رجالا ونساء، ويصر على عزومتي للعشاء، اذ عرفت منه ، ان عددا من رفاقه عمال النظافة ، ياخذون استراحة لتناول العشاء ، ويتخذون من بناء لم يكتمل مكانا للجلوس وطهي الطعام ، وكان هذه الليلة حساء البطاطس، موضوع في قمع حديدي، بينما كان تسخين الشاي يتم في علبة فارغة من تلك التي يعلب فيها الطماطم، وكان الشاي يقدم في كوب زجاج صغير، كوب واحد لا وجود لغيره ، يطوف على الجميع ، ينتهي الواحد من ارتشافه ، فتعاد تعبئته وينتقل الى الثاني ، ثم الثالث ، ولم استطع ان اعبر عن نفوري،مما ارى ، واشمئزازي من الاناء الذي وضع فيه الاكل، حتى قطع الخبز يبدو انها كانت ماخوذه من بقايا الاكل الموجود في سلال القمامة، لانها كانت قطع متنوعه مختلفة الاحجام اغلبها مدهوسة كان عربات قطار مرت فوقها ، ولكنني تظاهرت بالمشاركة في الطعام وشرب الشاي ، وكان ابن العم سعيدا فيما يبدو بحصوله على عمل ثابت ، لانه كما اخبرني تشرد ونام على الارصفة وكان اذا وجد طعاما للغذاء تحير في ايجاد وجبة العشاء، واذا وجد عملا كعتال في سوق الثلاثاء ليوم او لساعة ظل اياما بلا عمل ، الا انه الان وبعد حصوله على هذا المكان في شركة النظافة، صار بامكانه ان يساهم في دفع كراء دكان ينام فيه مع عدد من زملاء مهنته ، وياكل وجبات منتظمة ،وكنت اعرف الرجل ، ولم يكن بحتاج لتعريفي بنفسه لو كان الوقت نهارا، واعرف والده عمنا يوسف، وقد شح بصره ، حتى اعجزه عن القيام باي عمل ، ولابد انه صار الان يعتمد على قروش يرسلها له ابنه من طرابلس يقيم بها اوده واود امراته.

لا ادري ان كان هذا المستوى من الحياة ، الذي رايت واحدا من ابناء بلدتي يعيشه في المدينة ، قد اسهم في تعريفي بجوانب من حياة طرابلس كانت مجهولة بالنسبة لي، الا ان خرائط البؤس لم تكن واضحة تماما في ذهني، ولم اكن استطيع ان ارى طرابلس في اي ضوء اخر غير ضوء انبهاري بها ، ولعل فهمي للبؤس لم يكن يضع في اعتباره ماذا يأكل الانسان، وماذا يشرب، وماذا يرتدي، وماذا

يعمل من اجل كسب لقمته، فهي اساليب وظروف معيشية تتفاوت وتختلف ، دون ان تتحول في ذهني الى تقسيمات طبقية ينقسم الناس بمقتضاها الى فقراء واغنياء ، وتحت خط الفقر وفوق خط الغنى ، كما صرنا نعرف فيما بعد، او اناس يستغلون، واخرون يقعون تحت الاستغلال والعكس ، ولعل الافضل هو تقسيم الناس بدلا من ذلك الى اناس سعداء واناس تعساء، وهاهو ابن العم الزبال، سعيد برغم الفقر والمعاناة، يرقص فرحا لعثوره على عمل يضمن له دخلا ثابتا في هذه المهنة. لم تكن الفروق الطبقية والاقتصادية ، قد اخذت شكلا واضحا في ذهني ، في تلك المرحلة من العمر، وتلك المرحلة من تطور الوعي السياسي لدينا، ربما لانني ايضا قادم من بيئة ريفية بدوية كان الفقر فيها اسلوب حياة ، ولم يكن ثمة احساس ، ادنى احساس لدى اي احد هناك، باي تفاوت طبقي، او تمايز اقتصادي، او غير اقتصادي بين الناس ، فكلنا كما تقول امهاتنا اولا تسعة اشهر ، وكلنا نملك اقداما نسير بها، واذانا نسمع بها، والسنة نتكلم بها، وعيونا نبصر بها، وعقولا نفكر بها ، الا من ابتلاه الله بعاهة سلبت منه هذه النعم التي وهبها الله للبشر.

لم اكن ارى قريبي محمد التير كثيرا، فهومشغول بعمله السياسي، وعمله التجاري، اذ انه بجوار ذهابه الى مقر المجلس التشريعي في شارع الاستقلال، يذهب ايضا الى مخزن للسلع يملكه مع شريك له في شارع لبيد، وكنت اجد عطفا وحنانا من السيدة زوجته ، وكانت تكلفني احيانا، وقبل خروجي صباحا من البيت ، بشراء بعض الحوائج من دكاكين البقالة والفاكهة الموجودة في الجوار، وكانت تقدم لي اثناء وجبة العشاء الوانا من الطعام لم اكن اعرفها في البلدة، وبسبب حياتها لعدة سنوات في المدينة، صارت تجيد طهي اطعمة اهل المدينة، مثل البراك والبوريك والظولمة والمبطن والملفوف وورق العنب ، وهي اطباق جانبية يقدمها اهل طرابلس مع الطبق الرئيسي .

ورغم هذه الاقامة المريحة في بيت الخال، فقد كنت اتطلع بشوق ولهفة لبدء العام الدراسي وانتقالي الى القسم الداخلي في معهد هايتي، ووجدت نفسي عندما حان هذا اليوم، استلم سريرا في عنبر رقم 1، في الدور الثالث في مبنى المدرسة ، وهو عنبر كبير ، ربما يسع ثلاثين طالبا، وهناك دولاب صغير للملابس بين كل سريرين ، يتقاسمه الطالب مع جاره في السرير المحاذي، كما وجدت ان اغلب طلاب العنبر تلاميذ قادمين من الجنوب، وكان عريف الفصل طالبا منهم قضى عامين بالمعهد هو محمد على التبو، الذي وصل الى منصب وزير في نظام القذافي ، ربما لانه عاصره في ابتدائية سبها، وكان الولد الذي يتقاسم الدولاب معي ، تلميذا من طرابلس ، جذوره من صرمان، اسمر البشرة ، هو الهادي الضبع ، الذي اشتهر فيما بعد بمغامراته التجارية في الداخل والخارج. وهناك زميلان من مدرسة مزدة الابتدائية سبقاني بعام دراسي واحد الى هذا المعهد هما عمر احمد جبريل ومفتاح مسعود الاخضر، ويصل مجمل الطلاب حسب ما اخمن الان بين ثلاثمائة واربعمائة طالب في القسمين التجاري والصناعي، يضمنا جميعا هذا المبنى للاقامة والدراسة ، اما هيئة التدريس فاغلبيتها من المصريين مع عدد قليل من جنسيات عربية ثلاث هي الاردن وفلسطين ولبنان، وخمسة اجانب هم مدير المدرسة السيد ستيفنسون البريطاني، والسيد ويليامز نائبه الهولندي، وقد كان وجودهما على راس المعهد بحسب اتفاقية تاسيسة من قبل منظمة اليونسكو التي تتولى الصرف عليه بحسب اتفاقية التعاون التربوي والتعليمي مع الحكومة الليبية. وبجوار هذين الاثنين كان ثمة ثلاثة او اربعة مدرسين للغة الانجليزية ، بريطانيون هم ايضا، اما

الليبيون فهناك عدد من مدرسين لا اعرفهم في القسم الصناعي واعرف الذين قاموا بتدريسي في القسم التجاري وهم الاستاذ سليمان على سليمان معلما للاختزال، والشيخان الهادي انديشة وعلى الشويطر للدين واللغة العربية ، وهناك اربعة شباب اكملوا تعليمهم في المعهد وواصلوا البقاء في طور تدريبي ليكونوا مساعدين للمدرسين هم السادة عبد الله السعودي وابو القاسم عبد العزيز وابراهيم المسخوط والصيد احمد الصيد، وكان هناك عدد من المشرفين تحت رئاسة الحاج رمضان الاسود، بينهم رائد فن المالوف الشهير الشيخ محمد قنيص، وكان اكثرهم احتكاكا بالتلاميذ رجل صاحب ذاكرة حديدية ، يعرف اسم كل تلميذ منذ لحظة التحاقه بالمعهد، اسمه عزالدين. والتحق بالادارة فيما بعد اثنان من رواد التعليم في ليبيا، هما الاستاذ احمد انبية، والاستاذ محمد الطاهر سيالة، نائبا له ، ليحلا محل الادارة الاجنبية ، التي ينتهي دورها في مدة قريبة تنص عليها اتفاقية التاسيس.

يحتل معهد هايتي ، الذي يتسمي رسميا معهد التدريب الفني والكتابي بطرابلس ، موقعا متميزا في قلب المدينة الحديثة ذات الطابع الايطالي ، تمييزا لها على المدينة القديمة بحواريها الشعبية وازقتها الضيقة ذات الطابع العثماني، ولم يكن قد بني ليكون معهدا فيما يبدو، وانما ثكنة عسكرية تختص ربما بجهاز للحراسات، خاصٍ بالحكام الايطاليين لقربه من مراكز السطلة بما في ذلك قصر الوالي ، واكبر الاماكن الدينية واغلب البنوك ومقارات الحكم ومساكن الحكام، وقد اخذ المعهد اسمه الدارج الشائع بين الناس من وجوده في هذا الشارع الذي اعطي اسم هايتي تكريما للبلد الذي كان لصوته تاثير في معركة استقلال ليبيا، لان هناك مشروعا سمي مشروع بيفن سفورزا ، لتقسيم البلاد وتوزيع ولاياتها الثلاث تحت وصاية دول غربية هي بريطانيا وايطاليا وفرنسا، وسقط المشروع في الامم المتحدة عند التصويت عليه في الجمعية العامة بسبب صوت واحد هو صوت مندوب هايتي السيد ايميل سان لو، وكان اسم الشارع هو شارع ماكينا الذي يتفرع من شارع ميزران وياخذ في الادبيات الشعبية مكانا مقترنا به مثل تعبير يقال للتباهي بين الشوارع والاحياء هو

"شارعنا شارع ماكينا، واللي فيه ذراع ايجينا" وياتي الرد من شارع ميزران قائلا "شارعنا شارع ميزران، واللي فيه ذراع ايبان" ، وهو شارع مركزي يخترق بالعرض اهم شوارع المدينة التي تمثل شرايينها النابعة من ميدان الشهداء بدءا من شارع ميزران جنوبا مرورا بشارع 24 ديسمبر ثم شمالا شارع الاستقلال فشارع البلدية وصولا الى شارع الكورنيش، واعتقد انهم اسموا هذا الجزء الذي يسبق وصول الشارع الى البحر باسم مندوب هايتي في الامم المتحدة الذي تحيز الى ليبيا واعطاها صوته دون اذن دولته ، وهذه الشوارع هي التي تمثل قلب العاصمة ومركز الحياة والنشاط فيها، حيث اهم المصارف والادارات والاحياء الراقية المأهولة بالايطاليين، وحيث المقاهي ودور العرض السينمائي والفنادق واجمل ميادين طرابلس معمارا وهو ميدان الكاتدرائية الذي كنت شاهدا على تغيير اسمه بميدان الجزائرعام 1958 ، عندما وقف الزعماء الخمسة، قادة حرب التحرير الجزائرية، عند زيارتهم الى طرابلس، في شرفة البلدية يحيون الجماهير التي احتشدت للترحيب بهم وسماع كلماتهم، ومن تلك الشرفة اعلن عميد البلدية ان اسم الميدان صار منذ اليوم ميدان الجزائر، وفي هذا الميدان الذي يضم مبنى البلدية وسجل النفوس فيها، توجد اعظم كاتدرائية بناها الايطاليون في ليبيا تمثلت فيها فنون المعمار الايطالي وجمالياته خاصة ذلك الذي يتجلى عادة في المباني ذات الطابع الديني ويجعلها واحدة من كاتدرائيات

العالم الزاخرة بالفنون بواجهاتها ونقوشها واللوحات المحفورة على جدرانها الخارجية، ويقابلها في الجانب الثاني من الميدان مبنى الاورورا باعمدته الرخامية العالية التي ترتفع بارتفاع عمارته التي تصل الى سبعة او ثمانية ادوار لان ثمة ساحة في الوسط ترتفع فيها هذه الاعمدة وبينها براح كبير تتوسط ارضيته ذات المستويات ارتفاعا وانخفاضا نافورة كبيرة تصنع اشجارا من المياه وعلى ارصفة ذلك البراح تتناثر كراسي وطاولات الحانة الشهيرة المسماة باسم هذا المبني مقهى الاورورا، تحاذيها في نفس الردهة مجموعة من دكاكين التحف والابسطة التي تبيع موادَ تتناسب مع جماليات المكان، ومن خلف هذه الاعمدة يظهر مشهد يضيف الى التكوين الجمالي لمسة اكثر جمالا هي حديقة البلدية بورودها واشجارها ونوافيرها، وهي التي تمتد حتى تلتصق بالكورنيش وتطل على شاطيء البحر ، فتختلط خضرتها بزرقتي البحر وزرقة الافق ، لا يفصلها عن ايقاعات الموج ورذاذه الا الكورنيش وسوره الذي لا يزيد عن متر ، وقد تفنن اهل البلدية في تصميمه بحيث يضيف هو الاخر تكوينا جماليا ينسجم مع بقية التكوينات ، وعبر فضاء حديقة البلدية واعمدة الاورورا وميدان الجزائر، يمتد شارع هايتي ليتصل بميدان الغزالة المحاذي للكورنيش تزينه اجمل تماثيل طرابلس وهو تمثال المرأة العارية تملأ جرتها من النبع وتغسل جسمها، برفقة الغزالة التي تجلس تحت قدميها، تتقي فضول المتفرجين بسبع نخلات تحيط بها، وفي حين يقود شارع الكورنيش الى السرايا الحمراء متحف طرابلس، ومركز الحكم في العهد التركي ، فان شارع الاستقلال المتفرع من ميدان الجزائر يصل بين هذا الميدان، وميدان الشهداء من ناحية، وبينه وبين قصر الملك الذي كان قصر الحاكم الايطالي بحذائقه الغناء وقبابه الذهبية، وهو الشارع الذي يتحول كل مساء الى روض عاطر يعج بنساء الجالية الايطلية ، يستعرضن جمالهن في هذا الشارع ، يرتدين ازهي ملابسهن ويتعطرن بازكى العطور وتتزين صدورهن ومعاصمهن واصابعهن بارقى واجمل انواع الحلي ، غاديات رائحات في هذا الشاعر التجاري الزاخر بالمقاهي ودكاكين الموضة والحلي الذي ينتهي بميدان الشهداء حيث نافورة الجياد وتمثال الامبراطور الروماني سيبتيموس سسافروس ، وقوس المدينة القديمة المؤدي الى جامع الباشا وسوق المشير ودكاكين العطارة ومتاجر الصناعات التقليدية. ويحلو في هذا الشارع الجلوس الى المقاهي لاستعراض الجمال الذي يتبارى في مسابقة مفتوحة ، واحتساء المشروبات الساخنة التي يصنعها عادة متخصصون ايطاليون، مقهى الجادة ومقهى الكورسو ومقهى الكافي كوميرشو ، وفي منعطف الشارع مقهى البريد ، وتجاور هذه المقاهي حانات اشهرها حانة القط الاسود ، التي تعمل في خدمتها ساقيات حسنوات من ايطاليا.

وبحماس وفرح ، اقبلت على الحياة الجديدة، واندمجت في اجواء المعهد ، وكنت اندهش من نفسي وانا احيل في ايام قليلة عددا كبيرا من طلاب المعهد الى اصدقاء اعزاء ، بدءا بزملاء العنبر ، وهو اكبر عنابر النوم في القسم الداخلي، وقد اكتسب عن جدارة اسم عنبر فزان ، نظرا لهذه الاغلبية الجنوبية من قاطنيه ، مرورا بزملاء الفصل من طلاب مستجدين ، وصولا الى اغلب تلاميذ القسم التجاري وبعض تلاميذ القسم المهني ، ومن ذوي الهوايات القريبة من هواياتي ، فقد بدأت منذ الاسبوع الاول لالتحاقي بالمعهد، احاول استكشاف مجالات النشاط الحر الموجود في المدرسة ، فاستغربت لانه لا وجود الا لجمعية واحدة للنشاط ، وهي التي تشرف على حفلات اخر العام وتنظيم رحلات سياحية في العطلات والاعياد، فصرت اسأل عن السر في عدم وجود جمعية للصحافة وأخرى للتمثيل مع ان هناك من اخبرني

باقامة مثل هذه المناشط ، وكيف لم تتكون جمعيات لنشاط يمارسه الطلاب ولهم تاريخ في القيام به، ففهمت ان مثل هذا النشاط غالبا ما يندرج تحت نشاط فرع الكشافة في المعهد، وكنت سعيدا ان اقرا في لوحة البلاغات والاعلانات، اعلانا عن اجتماع يعقده المسئول الكشفي في المعهد ، مع المستجدين، وجلست وسط الاجتماع الذي اتخذ شكل حلقة يتوسطها الموجه الكشفي ، الذي كان صبيا لطيفا وسيما انيقا يرتدي ملابسه الكشفية ، وبنطلونه القصير الذي يكشف عن ساقين اشبه بساقي امرأة ، تلمعان احمرارا ، وخاليتان من الشعر، تبادل الحديث مع الجميع ، وسالهم عن هواياتهم ، واخبرته عندما حان دوري للحديث، بانني كنت عضوا في مجموعة كشفية تحت التمرين ، في مدرسة مزدة، وذكرت له قائد المجموعة السيد بشير الشريف دنة ، فاثنى عليه باعتباره قائدا معروفا، وسمعت تشجيعا يدل على القبول والاعجاب بتجربتي الكشفية السابقة، وبعد ايام قرأت في لوحة الاعلانات لائحة باسماء الطلاب الذين تم قبولهم في الحركة الكشفية، ولم يكن اسمي موجودا بينهم ، ولم اجد سببا معقولا لحرماني من ميزة الانضمام لهذا الحراك الاجتماعي الطلابي الترفيهي التربوي ، الذي اشعر انني اكثر ملاءمة له ولانشطته من غيري. شعرت بالاسف والاسى ، واعتبرته ظلما وغبنا، بل صدمة لامالي في اعوام قادمة عامرة بالمناشط الاجتماعية والثقافية والسياحية، لانني كنت اسمع عن رحلات ينظمونها ومعسكرات يقومون بالانفاق عليها وسياحات الى خارج البلاد يرتبونها للاعضاء، وقد تعلق قلبي بهذه الحركة منذ ان رايت ذلك المنطاد يحوم في سماء الجبل الغربي ، باعتبار انه كان واحدا من انشطة معسكر كشفي دولي. كل هذا صار الان بعيد المنال بالنسبة لي ، فلماذا يحدث هذا الظلم في حقي ، وسوف لن استطيع مجرد ان اعرف السبب لحصوله ، لان كبريائي يمنعني من مراجعة الصبي صاحب الساقين الانثويتين، لاساله لماذا وماهي الاسباب التي دعته لاقصائي عن هذه الحركة، صرت فقط ابحث فيما قلته ردا على اسئلته ان كان فيها شيئا يحمل استفزازا له ، او يشي باية معارضة لكلامه او يخالف رايا قاله اثناء الجلسة ، فلم اجد ، ولم اجد تفسيرا لهذا الرفض سوى الغيرة ، فقد عرف هذا الولد المخنث ، حماسي للقيام بمناشط في ميادين الصحافة والتمثيل منذ التحاقي بالمعهد وقبل سماعي بهذا الحراك الكشفي، فاراد معاقبتي ، لانني فكرت ان اعمل خارج سيطرته ، وسيطرة الحركة الكشفية التي يحتل موقعا قياديا فيها ، ربما لعلاقة شاذة تربطه بواحد من قادتها الكبار ، لان بحثي عن نواقص الحركة وعيوبها، قادني لمعرفة ما يقوله عنها خصومها، بانه رغم اهدافها السامية النبيلة، فان الله ابتلى هذه الحركة ببعض الشواذ في قيادتها، الذين يمارسون افساد الغلمان الملتحقين بها ، وقد تكون اشاعة حاقدة روجها بعض المتنافسين على الجاه والنفوذ، لكنني رحبت بها تنفيسا لما وقع في نفسي من سخط بسبب هذا الرفض، وتكملة لهذه القصة ، اقول بانه (إنه) حدث بعد ان مر عليها عامان، ان التقيت بالولد الذي كان سببا لرفضي ، وقد تخرج قبل عام من المعهد ، وجاء في اخر العام التالي لحضور حفل اقمناه ، يهنئني بنجاح الحفل، فاستغربت لما اظهره نحوي من ود، ورايتها فرصة افهم منه سبب اعتراضه على انضمامي الى مجموعته الكشفية ، فاذا به يستغرب استغرابا شديدا لما قلته ، لانه كان يراني اكثر الحاضرين لذلك الاجتماع جدارة الانضمام، وانه استغرب لعدم التحاقي ، وظنه حدث لاسباب تخصني ، وعندما قلت له انني لم اجد اسمي في لوائح المقبولين ، اقسم انه لم يكن يعلم بهذا الخطأ الذي لابد انه ترتب عن سهو من ضارب الالة الكاتبة ، وابلغني باعتذاره الذي تاخر كثيرا لانني رتبت حياتي على العمل بعيدا عن جماعته، بل اتخذت من ذلك الرفض، او ما اعتبرته رفضا، حافزا ودافعا لان ابرهن على فعاليتي في الانشطة المدرسية التي كرست لها جهدي ووقتي ، واهتديت بسرعة لعدد من الاصدقاء الذين تجمعني بهم ذات الهوايات ، وتوجهنا الى

استاذ مصري اسمه زكريا كان يشرف على النشاط الحر في المعهد، واخبرناه بان لنا اهتمامات ادبية وفنية، فابلغنا بان الادارة خصصت صالة للنشاط، وانه يمكن ان نتقاسم الوقت مع اخرين ، بينهم المجموعةالكشفية ، التي لا تجتمع الا مرة كل اسبوع، او لجنة النشاط العام الخاصة بحفل اخر العام ، وهي لا تجتمع الا في اوقات التحضير للحفل، وكان بامكاننا ان نشغل الصالة كل يوم عدا يوم العطلة ، وقد تصادف وجود ممثل موهوب في دفعتي هو الصديق والزميل محمد عبده الفوراري، الذي استمرت علاقتي به بعد انتهاء الدراسة وانضم الى الفرقة المسرحية التي انشأتها وقدمنا سويا اعمالا مسرحية تركت بصمة في تاريخ المسرح الليبي ، اما بقية الزملاء فقد اقتصر نشاطهم على الفترة الدراسية واخذتهم الحياة العملية بعد التخرج.

كنت اثناء تلك الفترة قد شاهدت بعض العروض المسرحية ، وهي تلك التي كان بعض الشباب يقدمونها في المركز الثقافي المصري، كما ذهبت لمشاهدة افلام عربية تعرضها سينما النصر في سوق الترك، كان بينها فلم بالالوان اسمه دليلة من بطولة عبد الحليم حافظ وشادية ، وافلام اخرى غنائية للمطربين الكحلاوي وفريد الاطرش ومحمد فوزي، واحسست بان اشياء كنت لا اعرفها الا عن طريق القراءة والسماع ، صرت الان قادرا على ان اشبع منها نهمي وفضولي ، واضيف خبرة لما تحصلت عليه من معرفة ، تعينني في ان اباشر نشاطي بوعي وفهم ، وبدات باسهل هذه المناشط وهي الصحافة ، فالامر لا يحتاج لغير فرخ من الورق المقوى وبضعة اقلام ، اما الافكار والكتابات فلدي حصيلة منها ، لانني كنت لا اختلي بنفسي الا واخرج القلم واسجل خواطري ، بل انني كتبت تسجيلا ليومياتي بشكل مقتضب تناولت فيها بدء التحاقي بالمعهد، واسميت الصحيفة الامل لكي تكون امتدادا للصحيفة التي اصدرتها في مدرسة مزدة الابتدائية ، وكان يعينني صديق اسمه الازهري الهاشمي، بكتابة بعض الحكم والطرائف التي ينتقيها من الكتب، اما ما يحتاج لتاليف وابداع ، وحتى الرسم والخط والاخراج ، فقد كنت اقوم به بمفردي، وحصلت مع العدد الثاني او الثالث من هذه الصحيفة الحائطية قصة طريفة تستحق ان اتوقف عندها قليلا ، فقد كنت ناشطا من نشطاء المركز الثقافي المصري، استعير منه الكتب واشارك في بعض انشطته الموسمية متطوعا، ولو اقتصر الامر على وجودي في مجموعة صوتية تردد بعض الاغاني الوطنية التي اشتهرت في تلك المرحلة ، ولا انسى طبعا حضوري بعض المحاضرات او الامسيات الشعرية التي يقيمها المركز ويستضيف فيها كبار الادباء الليبي، وكنت أسهم في تنشيط هذه الفعاليات ، بتوزيع الدعوات ، و عمليات الاشهار ، واصل الى المشركة في احضار الجمهور وغالبا ما اسعى لاحضار زملاء من القسم الداخلي بالمعهد ولم يكن يبعد غير مسافة خمس دقائق على الاقدام ، واذكر من هؤلاء الضيوف شاعر الوحدة الوطنية كما يسمونه الاستاذ احمد قنابه ، وكان شاعرا مناوئا للحكومة لانه كان في بدء الاستقلال مطالبا بالحكم الجمهوري ، ثم عندما حصل الوفاق على الملك والملكية ، جاهر بمعاداته للنظام الفدرالي وكتب قصيدة هجائية كان يتناقلها الناس في ذلك الوقت تقول شتت الله شملهم شتتونا، وعاش يعمل في مكتبة الاوقاف ، نائيا بنفسه عن اية مشاركة سياسية ، وكان ايضا شديد الحماس للتوجهات العروبية للثورة المصرية ، فكتب قصيدة من وحي هذا الفكر العروبي الناصري ، اسماها ارواح من الشرق ، يتحدث فيها عن اليقظة العربية والوحدة التي تشكل حلم الاجيال والتي يجب ان تتضافر الجهود لتحقيقها ، وكان الجمهور الذي جاء لحضوره على قلب واحد معه ، يصفق لكل بيت وشطرة بيت تحمل هذا النفس القومي العربي الذي كان يهز الوجدان الشعبي ، وكان الضيف الثاني ، احد شباب الادباء

، صاحب اسهام في القصة القصيرة ، متبنيا لقضايا تحرر المراة في ابداعه القصصي وفي مقالته ، وقد مهد المركز للمحاضرة بان اذاع على مدى اكثر من يوم قصة من ابداعه اسمها نجلاء الحائرة في دمشق ، وكانت المحاضرة التي اعلن عنها المعهد للضيف الكبير عبد القادر ابو هروس ، تتصل بالحراك النسائي في الادب واشواق المراة في التحرر كما عبرت عنها الابداعات الشعرية للمراة العربية ، وتركزت اقتباساته من الشاعرتين الشهيرتين نازك الملائكة في العراق ، وفدوي طوقان في فلسطين ، وكان هو ايضا ممن كنت قد قرات انتاجهم وتعرفت على القصة الليبية الجديدة في كتابه الذي كان رائدا في هذا المجال والذي صدر في بدء العام 1957 بعنوان نفوس حائرة ، وكانت القصص العاطفية هي التي تحتل الحيز الاكبر من المجموعة .

حدث اثناء وجودي في هذا المركز ان وردت في حديثي مع بعض المشاركين في انشطته، اشارة الى صحيفة الامل التي احررها في معهد هايتي ، وابدي بعضهم رغبته في الاطلاع عليها، وولدت اثناء ذلك فكرة ان اقوم ، بعد انتهاء عرضها في المعهد ، بجلبها الى المركز الثقافي المصري واقوم بعرضها فيه ، كجزء من انشطة مجموعة النشاط، وكان العدد الذي اصدرته من الصحيفة ، يحمل طابعا ثوريا قوميا ، وجعلت الموضوع الرئيسي الذي يتصدر العدد، موضوعا يشيد بالدور المصري العربي تحت قيادة جمال عبد الناصر ، بعنوان "الزحف المقدس" ، واستنسخت صورة للرئيس المصري ارفقتها بالموضوع، ولم يحرك الموضوع عند عرض الصحيفة في المعهد ، حفيظة احد ، ولم تكن مثار اي تعليق سلبا او ايجابا ، وقد ظلت الصحيفة معروضة ربما لاكثر من عشرة ايام ، ورايت انه وقت كاف لمطالعتها من قبل طلاب المعهد ، ولا ضرر بعد هذه المدة ان انزع الصحيفة من لوحة العرض ، وانقلها كما هي للمركز الثقافي المصري في مقره بشارع المغاربة ، وتم وضعها فوق مسند موجود في مواجهة المدخل ، بحيث يستطيع ان يلحظها ويطالعها كل زبون يتعتب عتبة المركز ، ولم يمض يوم واحد حتى وجدت العواصف تهب في وجهي باعتباري مسئول الصحيفة ورئيس تحريرها، واستدعاء من الادارة ، ياتي لاخرج من الفصل واذهب الى احد الاداريين، يستفسر باسم المدير عن كيفية وصول هذه الصحيفة الى المركز المصري ومن اعطاني تصريحا بذلك ، ومطالبتي بسحبها من هناك ، ثم رايت ان الاستاذ زكريا المكلف بالنشاط الحر، هو ايضا يستدعيني ، الى مكتب من مكاتب الادارة ، وكان رجلا لا يظهر الا بشوشا ودودا ، لا تفارق الابتسامة شفتيه ، رغم جسمه العريض المتين ، وطوله الاستثنائي ، الى درجة ان اطلق عليه الطلاب وصف العملاق الضاحك ، ولكن الرجل تحول في تلك اللحظة، وانا التقي به منفردا، الى رجل آخر ، وتحول وجهه المشرق الى سحابة سوداء محملة بالرعد وشرارات البرق تنطلق من عينيه ، وفعلا ارعد وازبد متسائلا كيف اكتب اسمه باعتباره مشرفا وهو لايعرف شيئا عن الصحيفة ، فقلت له ان اسمه موجود، لانه هو المشرف على النشاط الحر ، وكتبته في عددين سابقين لهذا العدد دون اعتراض منه، ثم ان العدد كان منشورا امامه في لوحة المنشورات والاعلانات دون اعتراض منه لاكثر من عشرة ايام ، وعنفني قائلا انني يجب ان اتحمل بنفسي جريرة ما يحصل ، وقال انه تبرأ من العمل امام مدير المعهد ، وابلغه انه لم يصرح بالصحيفة ولم يقرأ ما فيها من مقالات ولم ياذن بنقلها خارج المعهد الى المركز المصري ، وطلب مني ان اقول هذا الكلام لكل من سيقوم بالتحقيق في الموضوع ، وان تكون عندي الشجاعة الادبية لان اقر بمسئوليتي عما كتبته عن مصر وعن عبد الناصر ، فاجبته موافقا على ما يريد ، وقد راعني ما قاله بان هناك مزيدا من التحقيقات ستجرى معها ، وخشيت ان يكون الامر قد احيل الى

شرطة سياسية او جنائية ، وانا الصبي الغر الذي لا يعرف كيف يتصرف وسط دهاليز الاجهزة الامنية السرية او مع رجالها الذين يتداول الناس الاحاديث عن قسوتهم وسوء سمعتهم في معاملة البشر كبارا وصغارا. وفعلا جاء الاستدعاء للتحقيق في اليوم التالي ، الا انه جاء من جهة ادارية حكومية هي ادارة المطبوعات ، وسالت ان كان لهذه الادارة علاقة بالشرطة ، سرية او علنية ، فعرفت انها جهاز مدني مسئول عن اصدار الصحف والترخيص لها بالصدور او التوزيع ، فذهبت الى مقر الادارة ، لاجد مديرها في انتظاري وكان في ذلك الوقت السيد احمد سيالة ، وبدا واضحا انه لم تكن هناك قضية تستحق التحقيق او المساءلة ، وانما حديث اشبه بالنصيحة ، فهو لا يجد مبررا لاتصالي بمركز ثقافي اجنبي ، لاطلب منه عرض صحيفة حائطية طلابية مكانها داخل المعهد او المدرسة التي ادرس بها ، كما استنكر هذا الاهتمام بالسياسة والحديث عن الزعامات العربية ، في وقت يجب ان انصرف فيه لدراستي ، كما قال لي ، والاهتمام بمستقبلي ، بدلا من قضايا سياسية لن تنعكس الا سلبا على دراستي ومستقبلي ، وانتظرت ان يسألني عن المحرض لي على كتابة هذه الافكار لانكر وجود اية علاقة للموضوع بالمشرف على النشاط المدرسي السيد زكريا ، ولكن السيد احمد سيالة ، لم يات على ذكر مثل هذا السؤال ، وطلب في ختام المقابلة ما سبق ان سمعته من مندوب الادراة وهو سحب الصحيفة من المركز ، وفعلا اتجهت مباشرة من مكتبه في ميدان الشهداء، الى مقر المركز الثقافي ، واردت ان استاذن المدير ، فلم يكن موجودا، ولهذا اتجهت الى المسند الذي يعلقون فوقه الصحيفة ، فانتزعت المسامير الدقيقة التي تستعمل لتثبيتها ، وطويتها وانطلقت بها الى المعهد، ولم اجد احدا هنا اشكو له ما حدث غير الحاج رمضان الاسود ، الذي اريته الصحيفة ، قائلا له بانني فعلت كل ذلك بنية حسنة ، وابلغته بما واجهته من غضب الاستاذ زكريا ، مؤكدا انه فعلا لم تكن له صلة بالموضوع الذي كتبته ، وطلب مني مهلة للالمام بالقصة ، واستدعاني بعد يومين ، قائلا إنني خيرا فعلت عندما اخبرته بما حدث، لانه كانت هناك نية لاستصدار قرار بطردي من الدراسة ، ولكن الله ستر ، فقد قبل المدير السيد ستيفنسون اعتذاره بالنيابة عني ، وابلغه انه يعرفني ويعرف والدي ، وانني لن اعود لمثل هذا السلوك ، وطلب مني ان امتنع عن تحرير الصحيفة ، وانصرف الى اي نشاط اخر اذا اردت ، لا تكون له علاقة بالسياسة ، اما الاستاذ زكريا ، فقد اخبرني الحاج رمضان ، انه يتحمل المسئولية حتى لو لم يكن يعلم بالموضوع ، لانه هو المشرف المكلف بمراقبة مثل هذا النشاط وارشاد الطلبة الى جادة الصواب اذا اخطأوا قبل استفحال الخطأ وقد اخفق في ذلك، فاستحق غضب المدير منه ، وفعلا كان ذلك العام الدراسي هو آخر عام دراسي للاستاذ زكريا في المعهد، فقد تم الغاء عقده ، وعلمت بعد ذلك متأسفا حزينا بوفاته في مدينة الاسكندرية عقب عودته اليها من ليبيا، وكان فريق التمثيل الذي شاركت في انشائه يستعد لتقديم مسرحية يتم عرضها اخر العام ، عن صلاح الدين الايوبي ، وكنت قد ساهمت في اعداد نصها مؤخوذا عن مسرحية تعليمية ، وحان الان بدء التمرين عليها لاقوم بالمساعدة في اخراجها، وعهدنا بالدور الرئيسي لطالب في الصفوف المتقدمة ، كان يملك قامة طويلة وسمتا يصلح ليكون فارسا، وتركت النشاط الصحفي ،لاتفرغ لمثل هذه الاعمال المسرحية ، لان هناك معاهد اخرى تستعد مثلنا لتقديم حفل يختمون به العام، بينهم مدرسة طرابلس الثانوية ، التي كانت تستعد لتحضير مسرحية اسمها مسمار جحا، وتحدد عرضها قبل نهاية العام الدراسي وبوقت كاف يسبق الامتحانات، وكان صديقي وزميلي الكاتب الناشيء ذلك الوقت محمود عبد السلام نافع ، طالبا من طلاب ثانوية طرابلس مشاركا في تحضير المسرحية وتمثيل دور فيها ، فاعنته باعمال الدعاية ومتابعة رسم لوحات اعلانية عنها ، كما شاركت مع زميلي في المعهد الفنان محمد عبده ، في تقديم اكثر

من عمل مسرحي لصالح جمعيات الاغاثة التي تجمع التبرعات للثورة الجزائرية وتستعين بنا لاقامة حفلات يدفع الناس ثمن تذاكرها ويذهب هذا الريع لصالح الثورة، وكان المسرح الذي اعدوه لنقدم عليه عروضنا، مسرحا متنقلا ، عبارة عن مقطورة شاحنة ، يسهل نقلها، ونصب بعض الاخشاب والاسياخ فوقها لتصير مسرحا له ستارة وله خلفية لوضع المناظر ، ووجدنا نصا عن المقاومة الشعبية ،فيه دوران رئيسيان ، واحد ضابط فرنسي ، يقوم بالتحقيق مع مناضل جزائري، وفي حين استلمت دور المناضل الجزائري ، فكان لابد ان يكون دور الضابط الفرنسي لزميلي بطل الفرقة محمد عبده ، ولانه كان ينتمي لاصحاب البشرة السوداء ، فلجانا الى تحوير الدور ، وجعلناه بدلا من فرنسي بالانتماء العرقي ، فرنسيا ماجورا، فهو رجل افريقي يعمل في الفرقة الاجنبية ، ومعروف ان ضباط تلك الفرقة هم من حثالة اهل الارض اجراما وشراسة وخسة ، وكانت فعلا تنسب اليهم كثيرا من فظائع الجيش الفرنسي في الجزائر، وفعلا استغرقني العمل في هذا الحراك المسرحي المدرسي ، الى ان حانت الفرصة لانتقل الى حراك مسرحي اخر اكثر اتساعا وتنوعا ، وجاء ذلك بعد عام ونصف العام من الانغماس في هذا الحراك الطلابي، وهو العمل في صفوف مسارح الهواة التي تمتلك فرقا وتتلقى دعما بسيطا من الحكومة ، وكان ثمة زميل في المعهد هو الصديق حسين الرويمي ، يعرف نشاطي ، ويرى ما اقوم به من جهد في هذا المجال ، وقد التقيت به صدفة في الشارع، فقال انه في طريقه الى مقر فرقة الامل للتمثيل ، ودعاني بحماس لكي اصحبه في هذا المشوار ، رغبة منه في ان اتعرف الى اعضاء الفرقة واصبح عضوا من اعضائها ، وكانت تتخذ من حانوت صغير في شاعر الساعدية مكانا لنشاطها ، وهو شارع يتفرع من شارع ميزران ، وهناك قدمني لشاب في مقتبل العمر ، يعمل موظفا في بنك باركليز، هو الشاعر والاديب عبد الحميد المجراب ، مؤسس الفرقة ومديرها، وكانت الفرقة تستعد في تلك الفترة لتقديم عرض مسرحي، في مسرح وسينما جابي ، تحت عنوان الشيخ التقي ، من تاليف واخراج وبطولة عبد الحميد المجراب، ولانه لم يكن هناك وقت لانضم الى طاقم التمثيل، فقد اشتغلت مع العاملين خلف الكواليس، واكتشفت ليلة العرض ، ان الشخص الموكول اليه الاهتمام بالاضاءة ، لم يكن الا الكاتب القصاص الاستاذ بشير الهاشمي، الذي كان قد بدأ يصنع لنفسه اسما في عالم الكتابة القصصية ، وينشر اعماله في الصحف ومجلة هنا طرابلس الغرب، ككاتب معترف به ، واكتشفت ان الفرقة لا تضم ممثلين فقط، وانما هناك مجموعة من محبي الادب بين اعضاء في الفرقة ، فبالاضافة الى مديرها الذي يقرض الشعر ويكتب المسرحية والمقالة، كان هناك القصاص بشير الهاشمي، والناقد نجم الدين الكيب ، وكاتب التمثيليات الاذاعية على مختار الحاراتي، والناقد المسرحي عبد الله هويدي، كما كان هناك اعلاميون بدأوا يشقون طريقهم في العمل الاذاعي مثل حسني صالح المدير، ومحمد المصراتي ، وهناك الكاتب الذي تخصص فيما بعد في قصص الاطفال يوسف الشريف، والكاتب الاقتصادي نوري بريون، وابن عمه الاديب محمود بريون، وهناك رسام ممن حضرت لهم معرضا للرسم هو يوسف البراملي، واستقطبني هذا الجانب الادبي بمثل ما استقطبني الجانب الفني ، وكان جميع هؤلاء الزملاء اكبر سنا مني ، واوثق صالة بمجتمع المدينة ، واكثر مني علما وثقافة وتاهيلا ، واكثر خبرة بالاوساط الادبية والفنية في طرابلس ، فكان حرصي كبيرا على ان اختار من بينهم ادلاء لي في المجال الادبي والفني ، وان استفيد من معارفهم وخبراتهم وجميعا، وكانوا ينشئون فيما بينهم جمعية لتبادل الكتب ، فصرت واحدا منهم ، اقتدي بهم فيما يقراون واسترشد بارائهم، واستفيد من افكارهم، حول هذه الكتب، الى حد استطيع ان اقول معه ، ان التقائي بهذه المجموعة كان نقطة فاصلة في حياتي، ومرحلة من مراحل التطور التي افدت منها كثيرا في

توجيه قراءاتي وتبعا لذلك توجيه وانضاج افكاري، والتعرف على موهبتي في الكتابة الادبية ، لانني التقيت في رحاب فرقة الامل باجواء اخرى ، هنا تفتح بصري وتفتح عقلي على بعض الافكار الجديدة، عن القراءة وعن الكتابة ، القراءة ليست مجرد تسلية ولا عملية عشوائية، وانما عملية تتثقيفية يقوم بها الانسان في حق نفسه ، هناك مسئولية ، وهناك اختيار وانتقاء وخطة ، فالهواية الادبية ، ليست مجرد استجابة لميل طبيعي كما كنت اراها، قبل ان التقي بهذه المجموعة، ولكنها رسالة تريد اعدادا واستعدادا، ولهذا هم يعدون انفسهم بدأب وجدية لاداء هذه الرسالة، وكنت قبل ذلك اعتبر هوايتي للادب مجرد ميل طبيعي قد لا يفترق عن اخرين بعضهم كان ميله للعب الكرة على سبيل المثال، او السباحة ، مع ان الكتابة كما فهمت شيئا اخر، وليس مجرد هواية، يترك لها الانسان نفسه تسير على سيجيتها وتقوده حيث تشاء. كان بشير الهاشمي اكثر اعضاء المجموعة انصرافا للادب، وكان ربما اكبر الجميع سنا، كما كان قد باشر النشر قبل اربعة اعوام مضت، واظنه مع جريدة الاخبار التي كان يصدرها الشيخ محمد الماعزي في طرابلس، ونشر بها لاول مرة عام 1954 ، وكان يكبرني بما يقرب من سبعة اعوام ، ورغم انه ليس فرقا كبيرا في السن، فقد اعتبرت نفسي مريدا له ، وانني استرشد بخطاه واسير بهديه، واراه فعلا استاذا لي في التنبيه لروح الادب وقوته ونبله ، وغرس في نفسي ذلك الحس بالرسالة والمسئولية ، كما ايقظ في نفسي الوعي باهمية وعظمة الناس الذين اتخذوا الادب مهنة لهم ، ولعله هو الذي جعلني الى الان انظر إلى أدباء العالم العربي الكبار الذين كانوا يهيمنون على فضاء الادب في ذلك الوقت واخص بالذكر الاهرام الثلاثة وهم طه حسين وتوفيق الحكيم وعباس محمود العقاد ، انهم يشبهون ما كنا نقرا عنهم في التراث الاغريقي ومن يسمون الهة الاولمب انهم زيوس وابوللو وبوسيدون ، انهم اشبه بتلك الكائنات المؤلهة التي تقطن قريبا من الشهب على قمم جبال الاولمب ، هكذا علمني بشير الهاشمي ان انظر لهؤلاء النوابغ وربما اضيف اليهم بعد ذلك جبران خليل جبران ومي زيادة وميخائيل نعيمة ويحي حقي ونجيب محفوظ ، واراهم جميعا من سلالة اولئك الالهة، ولابد من القول هنا انني على حداثة عهدي بالتواصل مع الحركة الليبية استطعت ان افهم ان هناك وعيا جديدا بالذات وانتباها لمعني الهوية وان ثمة تاكيدا على ضرورة ان تكون لاهل الادب والفن شخصية ليبية وطنية في كتابة القصة وفي الرسم وربما المسرح ، وكان هذا الهاجس هو الذي جعل اهل الادب يتحمسون لاول مجموعة قصصية تصدر باسم نفوس حائرة لعبد القادر ابو هروس ورغم التباين في الافكار بين هذا الكاتب وبين المجموعة التي ينتمي اليها بشير الهاشمي فانهما يجتمعان على ان تكون هناك شخصية ليبية في القصة حتى وان اختلفت مضامينها وان يوسف البراملي عندما اقام معرضا بلوحاته كان حرصه على اظهار ما يسميه مفردات المجتمع الليبي ومفردات الحضارة الليبية ولهذا كان تركيزه في لوحاته على مشاهد ليبية تظهر فيها المراة بلباسها الوطني تحمل الجرة وجوارها بئر له جناحان كما هي ابار المزارع الليبية ومن خلفها نخلة وكوخ وفي صورة اخرى فلاح وامامه بقرة تجر الدلو من ذات البئر ، واحيانا يذهب الى المدينة القديمة يعيد رسم اقواسها ومساجدها ، وكانت قصص بشير الهاشمي قصصا تنتمي الى المدينة ، ومثال ذلك قصته الحب في الازقة الضيقة ، التي تستدعي كل مكونات المدينة القديمة من خلال حلاق في زقاق ضيق يتطلع الى شرفة في البيت الذي نسميه العلي وفيه شباك عين الزرزور يطل منه وجه الفتاة التي احبها ، وعندما يذهب بشير الهاشمي الى الريف كما في قصته احزان عمي الدوكالي فهو يذهب الى المزارع التي تحيط بطرابلس ويصور حزن فلاح عجوز مشغول بتدبير معيشته وسط الازمات التي تعصف بواقع المزارع الليبي ، ونشرت صحيفة الفرقة الحائطية قصة لعلها اول قصة يكتبها يوسف الشريف اسماها

ليلة الدخلة ووضع فيها كل الطقوس والعادات والتقاليد وانواع الفلكلور الشعبي التي تصاحب ليلة دخول العروس على عروسه ، والهاجس خلف كل هذه الجهود الادبية والفنية هي ان التركيز على خصوصيات القصة الليبية ولونها ونكهتها المحلية لاننا لا نريد ان نذوب كما كان يقول بشير الهاشمي فيما يرد الينا من كتابات تعكس صورة وشخصية مجتمعات اخرى، وطابعها المحلي ولون نكهة واجواء اهلها واحيائها التي تختلف عن مناخات واجواء المجتمع الليبي، ولا نريد لقصتنا ان تكون نسخة مكررة للقصة التي يكتبها احسان عبد القدوس ويوسف السباعي وكانا في تلك المرحلة من اوخر الخمسينيات هما اكبر اسمين في القصة القصيرة في مصر وربما في الرواية ايضا ، ولم يكن الشعر استثناء من ذلك فقد اظهر على الرقيعي وزميله في الحداثة على صدقي عبد القادر اتجاها لتبني المدارس الحديثة كنوع من فك الارتباط بالمدرسة التقليدية وشعرائها الذين كانوا يهيمنون على فضاء الشعر الليبي يتقدمهم الاحمدات الاربعة احمد رفيق المهدوي واحمد قنابة واحمد الشارف واحمد الفقيه حسن وطبعا هناك اسماء اخرى غير احمد تنتمي لنفس النهج الشعري وتكتب الشعر على منوال الاقدمين ولكن القصيدة الجديدة التي يكتبها هذان الشاعران ومعهما شعراء اخرون مثل محمد المطماطي وخالد زغبية وحسن صالح، كانت تحاول ايضا ان تكون تعبيرا على البيئة والمحيط وان تستوعب هموم المواطن الليبي وتعكس شيئا من شخصيته، ولابد هنا من الاشارة الى معركة اثارتها قصيدة لشاعر كان لازال طالبا في الجامعة ذلك العام من اواخر الخمسينيات هو الشاعر خالد زغبية ، فهي لم تات فقط مخالفة للذائقة الشعرية التقليدية ، ثائرة على الوزن والقافية والروي التي عرف بها شعر تلك المرحلة ولكن لها نفسا ثوريا كان يغمر احرف وكلمات تلك القصيدة التي لم تجرؤ على نشرها صحف العاصمة، فنشرتها جريدة باشرت صدورها في اقصى الجنوب الليبي اسمها فزان ، وكانت ايضا تريد ان تكون تعبيرا عن الفكر الذي يلتصق بهموم الجماهير ، ولكنه ايضا يعادي المؤسسة الدينية برموزها التي تطلب دائما التقديس ولا ترضى بما دونه ، فكانت هذه القصيدة صادمة لهؤلاء الرموز الدينية بكلماتها التي يقول فيها بشكل مباشر وضعيف شعريا لكن فيه غضب الشباب وسخطهم

بلادنا عريقة

تاريخها مسطور

في الصدور

وفي جماجم المخضرمين

ذوي العمائم البيضاء واللحي المرسله

أولئك الذين يهرفون

بما لا يعرفون

وينفقون

أعمارهم هباء في الصلاة

لكي تقيهم

جهنم الحمراء

ويقطنون

صوامع علياء

وفيها يحلمون

بالجنة الفيحاء

ورغم ما في القصيدة من تناقض فهو يبدا الاسطر الماضية بالفخر والاكبار لبلاده وتاريخها المسطور في الصدور ثم اذا به ينسب لهذه الصدور واصحابها كل النقائص والمثالب ، وطبعا اثارت هذه القصيدة ثائرة الشيوخ الذين اعتبروا كلامها كفرا ، واعتبروا الشاعر مارقا زنديقا، وكاد يفصل من الجامعة واستقطبت المعركة خطباء المساجد الذين خاضوا حربا ضد موجة التسيب والافكار الهدامة المستوردة التي يتلقاها الشباب ، ولكننا جميعا كنا قد اتخذنا موقفنا المؤيد للشاعر واعتبرنا صحيفة فزان نافذتنا على المستقبل، وصوت الثورة التي يجب ان نتجه لها جميع بانتاجنا، واظن ان بشير الهاشمي كان اول من قاد المسيرة بارسال قصة للصحيفة مع رسالة يشكر للمحرر محمد عمر الطشاني هذا الموقف المناصر لروح الشباب وثورته، وقد نجا الشاعر خالد زغبية من الطرد من الجامعة، لانه انقذ نفسه بقصيدة ثانية يرد فيها على مهاجميه، ويؤكد فيها موقفه الثابت من الدين، ويجدد فيها عمق وقوة ايمانه، ولكنه قصد بهجائيته المظاهر الكاذبة والمشعوذين الذين يسيئون الى صحيح الدين.

وكانت قد ظهرت في سوريا دار نشر تهتم بنشر الادب المترجم، اسمها دار اليقظة، وكان من اركانها المترجم المثقف الشهير سامي الدروبي، وكانت تنشر ترجمات لامهات الكتب الادبية خاصة لعظماء الكتاب الروس، ربما للطابع التقدمي للدار ، نصوص كاملة غير مبتسرة ولا منقوصة، وترجمة امينة نزيهة، لاهل خبرة واختصاص ، حيث جاءت لنا عن طريقها اعمال ديستويفسكي وتولستوي وتشيخوف ، وجوركي ، وادباء غير روس ايضا، الا ان صديقنا بشير الهاشمي كان عاشقا متيما للادب الروسي وكل ما يتصل به، وكان يذخر اعجابه الاكبر لكاتب الطبقات المسحوقة مكسيم جوركي ، ربما يرى في عصاميته وتشرده صغيرا ، اصداء من حياته هو ، وربما جاريته في هذ الحب ، ولكنني سرعان ما وجدت ان تشيكوف اكثر قربا مني، ووجدت فيه ما صرت اسميه شجرة عائلتي الادبية ، وهي شجرة استطعت فيما بعد ان اضيف لها اسماء ، ورايت انني كاديب انتمي الى هذه السلالة وليس الى غيرها، وكانت القصة القصيرة هي اللون الادبي الذي يكتبه ادباء ليبيا فيما يتصل بالاعمال النثرية ، فلم تكن للمسرحية حضور كبير بسبب ما يعانيه المسرح من اهمال رسمي وامكانيات فقيرة، عدا تلك الاعمال الشعبية التي يكتبها اهل المسرح انفسهم باللهجة العامية في شكل اسكتشات تواكب الحياة الاجتماعية ، ولم تكن

الرواية وقد وجدت ارضية لها ربما بسبب ضعف صناعة الكتاب بل وانعدام وجود هذه الصناعة اساسا، ولم يبق في مجالات الابداع غير لونين اثنين هما القصيدة التي لها اهلها ولها عراقتها ولها روادها كما لها مجددوها، او القصة القصيرة التي صار تصنع تراثها ولها طبعا كتابها الموجودون على الساحة مثل عبد القادر ابو هروس ، وعبد الله القويري ، العائد حديثا من موطن الهجرة في مصر، ويوسف الدلنسي ، وكامل المقهور ، العائد من دراسته في القاهرة متبنيا هو ايضا القصة ذات البعد الاشتراكي الواقعي ، او ما كان يسمى الواقعية الاشتراكية ، ولم يكن الكتاب المتقدمون في السن عن هؤلاء يتفرغون لكتابتها ولكنهم يصرفون جزءا من جهدهم لها، مثل على مصطفى المصراتي وخليفة التليسي ومحمد فريد سيالة، ولم يكن هناك محاولات في كتابات اخرى عدا محاولة يتيمة في كتابة الرواية بداها في مجلة هنا طرابلس الغرب الاستاذ محمد فريد سيالة ، مقتديا باحسان عبد القدوس عندما كان ينشر الرواية مسلسلة في مجلته الاسبوعية روز اليوسف ، بينما ينشرها سيالة في مجلة شهرية ، في فصول متباعدة ، وينزع هو كما ينزع احسان عبد القدوس الى الاجواء الرومانسية العاطفية ويستهلها كما يفعل احسان بجملة يعتبرها هي خلاصة الرواية او حكمتها وفي قصة فريد سيالة كانت الحكمة تقول " من السهل ان تكون محبا ، ومن السهل ايضا ان تكون محبوبا، ولكن من الصعب ان تكون محبا ومحبوبا في وقت واحد" وهي جملة رسخت في ذهني منذ ذلك الوقت، ولم تغادره رغم بساطتها او سذاجتها ، ولم يكن امامي الا ان اقتدي بمن سبقوني في الاتجاه الى كتابة القصة القصيرة ، مهتديا بتوجيهات وارشادات بشير الهاشمي ، واباشر ايضا التعبير عن نفسي وموهبتي عبر هذا اللون الادبي، ولكنني عندما بدات النشر لم ابدأ بالقصة القصيرة، ، وانما بالمقالة والتحقيق الصحفي ، وبعد ان تركت اعداد الصحيفة المدرسية ، وانصرفت للمسرح، لم اعد للكتابة الا خواطر احتفظ بها، في شكل مقالات ، او تحقيق صحفي شاركت باعداده لصحيفة الحائط التي يصدرها اعضاء فرقة الامل، وقد خصصت أحد اعدادها للنظر في مشكلة العنصر النسائي الذي كان مفقودا في الحركة المسرحية، وكان عادة ما يقوم بالادوار النسائية رجال يرتدون ثياب النساء ، ويتكلمون بحناجر مستعارة تقتدي باصواتهن، فكان التحقيق الصحفي الذي اجريته للصحيفة يتناول هذه المشكلة، التي هي جزء من وضع المرأة في المجتمع، وتعليمها وتحررها وخروجها لمجالات العمل والانتاج، واعطى التحقيق مدة عشرة اعوام ، تكون فيها حركة المجتمع الليبي قد وصلت الى درجة من التطور عن طريق التعليم والاعلام، وتكون هذه المشكلة قد وجدت حلا لها، وانتهى عزل النساء وبقاؤهنّ بين جدران البيوت، وكانت الدعوة لخروج المراة ملمحا اساسيا من ملامح الصحافة والاذاعة، وكان هناك اثنان من الكتاب يتخذان منها قضية رئيسية هما محمد فريد سيالة الذي كنا نسميه قاسم امين المراة، اسوة بصاحب الدعوة لتحريرها في مصر، في مطلع القرن ، وكان يكتب ويتكلم في الاذاعة عن ضرورة سفور المراة وجمع مقالاته حول هذا الموضوع في كتاب صدر فيما بعد اسماه "نحو غد افضل" ، وكان الثاني هو الكاتب عبد القادر ابوهروس ، وكان يتبنى قضيتها لا عن طريق المقالات ايضا ولكن عن طريق الابداع ، فاغلب قصصه تدور حول هذا الموضوع ، وكان يذيع قصصا في الاذاعة باسم مستعار لامراة اسماها الانسة سميرة ، وكان بين عناوينه التي اعلن انه سيصدرها في كتاب لم يكتب له الصدور عناوين مثل سجينة بين الجدران ، وهكذا كان الحراك الثقافي والصحفي من اجل تحرر المراة يجد انصارا واعوانا بين الكتاب ، وكان الامل في ان تجد هذه المسالة حلا سريعا بدعم الدولة وتشجيعها، وكان هذا الحراك ياتي هو ايضا في سياق التوق الى النهضة والى تحقيق الذات وبامل ان تجد الشخصية الليبية تعبيرا عنها، على كل المستويات اجتماعيا وادبيا وفنيا، وكان عضو المجموعة الذي يعطي

اهتمامه للغناء والاغنية زميل من طرابلس ، ولعله من احدى ضواحيها ، لانه يحمل لقب "الحاراتي" وهو لقب تحمله عائلة او عشيرة من عائلات وعشائر هذه الضواحي، الاستاذ على مختار الحاراتي ، واذكره باسمه الثلاثي لان لنا زميلا شاعرا وصحفيا لم يكن من اعضاء الفرقة يحمل اسم على الحاراتي ، لكي لا يحدث خلط بين الاثنين ، فهذا رجل مسرحي ومصرفي في نفس الوقت، واسهم بكتابة بعض النصوص الاذاعية ، وكان بالنسبة لي استاذا في مادة الغناء، فكما كنا نتلهف لتاكيد الشخصية الليبية لونا ونكهة في الادب ، فان هذا الحرص على اثبات الشخصية الليبية في الغناء والموسيقى كان اكثر اهمية ، بسبب ما يقوله اهل الاختصاص ، من ثراء الفلكلور الليبيي بالالحان والانغام ، وقد افلح الملحن بشير فهمي فحيمة في ان يستخدمها في تلقيح الفنون في بلاد المغرب العربي التي عمل بها مثل تونس والمغرب بهذه الجرعة من الفن الليبي ، واطلق تلك النجمة التونسية المسماة صليحة على اجنحة من الالحان الليبية، فان هذا الفن جدير بان ينال اعتراف العالم به ، لانه للاسف الشديد فن مغمور وكل من يظهر يريد ان يقلد فنان من الشرق مثل فريد الاطرش وعبد الوهاب وعبد الحليم حافظ والكحلاوي بينما لنا فن لا يقل قوة وثراء عن فنون البلدان الاخرى، بل يبزها اذا ما وجد من يهتم به، ولهذا كان زميلنا على الحاراتي يحتفي بكل من يهتم بابراز هذه الالحان الليبية ، وكان يكثر من الثناء على الفنان محمد مرشان الذي صار يصنع الحانا من تاليفه لكنها مستوحاة من التراث الليبي ويقوم بادخال عناصر الجدة والحداثة فيه ، عن طريق التوزيع المتقن ، وعن طريق ادخال الهرموني في الاغنية الليبية وهو ما راه انجازا غير مسبوق دون ان ينتقص من مواهب مؤسسي الاغنية الحديثة مثل كاظم نديم ، ويرى في الكعبازي ايضا موهبة كبيرة ، ويقف اجلالا واحتراما لموهبة الفنان بشير فهمي فحيمة العائد من غربته التونسية الباريسية المغربية ، وكان يجلب الاسطونات ويجلب للفرقة الة غرامافون لكي يسمعنا هذه الاغاني، ويقوم بما يشبه جلسات التثقيف والتذوق الموسيقى لبقية اعضاء الفرقة، رغم انه لم يكن اطلاقا يريد التوجه إلى الغناء او التلحين، ولكنه يكتفي بان يكون احد السميعين المحترفين ، وله الفضل في تقديمي لمطربين لم اكن اعرفهم، لانهم كانوا قد اعتزلوا الغناء في تلك الفترة مثل المطرب محمد سليم ، واثار فضولي كي نذهب نصافحه في دكان البقالة الذي يديره في شارع يتفرع عن شارع عمر المختار، وقدمني لمطرب كانت اذاعة لندن تحتفي باغانيه اسمه عبد السيد الصابري ، وعلمت منه ان المطرب والملحن محمد الكعبازي يسكن في شقة تجاور الفرقة ، وهو الفنان الذي كان قد اجرى لي اختبارا في الغناء في فترة مضت، فجددت علاقتي به ، ودعانا لنشرب الشاي في شقته ، وتطورت العلاقة الى ان اجريت معه لقاء صحفيا اخذ صفحة كاملة في صحيفة الرائد اثار جدلا كثيرا فيما بعد ، ووجدت في احدى المرات ،ان هناك دورة للصحفيين الجدد اقيمت في احدى الصحف ، وان استاذ حصة التحقيقات الصحفية وكان صحفيا مصريا قد اختار هذا التحقيق لتطبيق درس التحقيقات والمقابلات الصحفية لانه راي فيه نموذجا للتحقيق الصحفي الناجح، ولم يكن اهتمام هذا الصديق يتركز في الغناء الليبي فقط ولكنه كان يبحث عن الجديد ويلفت انتباهنا له ، وهذا الجديد لابد ان يكون خارج الاطر المتداولة والمعروفة فقد كان الجميع يعرفون جديد عبد الوهاب وام كلثوم وعبد الحليم ولكنه على مختار الحاراتي كان يذهب الى ما كان بعيد المنال ، ليقوم بتنبيهنا اليه ، وجاءنا مرة باغنية صارت بالنسبة لنا نشيدا وطنيا مع انها لمطرب لم نسمع به قبل هذه اللحظة، ومن منطقة لم نسمع منها غناء ولم نعرف اسما لمطرب منها او ملحن هي منطقة الخلاج التي كانت تقع خلف ستار من النسيان ما عدا السعودية باعتبارها ارض المقدسات ، فقد جاء يحمل اغنية لمطرب كان يسمى شادي الخليج ، وكانت الاغنية ذات جمال وبها إيقاع عربي يدخل

القلب ، تقول كلماتها "احب حبيبي ، واعشق حبيبي ، حبيبي حبيبي " والحقيقة اصبحت هذه الاغنية هي الاغنية المفضلة لكل اعضاء الفرقة ولا يرتفع به صوت احدنا الا نجد انفسنا جميعا نردد معه الغناء (حصل بعد مرور عدة عقود ، ان ذهبت مدعوا الى السعودية لحضور مهرجان الجنادرية وكان المهرجان يتميز بعرض مسرحية غنائية في الافتتاح وكانت المفاجاة الجميلة حقا، ان احد ابطال هذه المسرحية لم يكن غير المطرب المسمى شادي الخليج فقد اعتزل الغناء لمدة اربعين عاما او اكثر وعاد اخيرا وكانت عودته مع هذه المسرحية ، وكان صوته مازال جميلا شجيا، وكانت فرصة في نهاية العرض، ان التقي به للتحية وابداء الاعجاب ، وتذكيره بتلك الاغنية التي صنعت له اسما في مطلع شبابه ودخوله ميدان الفن قبل سنوات الاعتزال ، فكان هذا الاطراء من رجل قادم من بلاد بعيدة هي ليبيا تعرف عليه وعلى اغانيه ومازال يذكره منذ ذلك الوقت مبعثا لبهجته وسببا لتبادل الذكريات في جلسة سادها الحنين الى الماضي وذكريات الشباب الجميلة).

اندمجت تماما في انشطة الفرقة ، وبسبب العلاقة المتميزة التي ربطت بيني وبين الصديق علي مختار الحاراتي ، رايته جاء يعرض على اخر ما كتب من تمثيليات اذاعة عنوانها "الطمع وقطع الرقبة متحاديين" وكان سائدا في ذلك الوقت ان تتخذ التمثيليات عنوانا لها مثلا شعبيا او قولا ماثورا، وتم الاتفاق بشانها مع الاذاعة على ان نقوم بتقديمها ورايت الصديق علي الحاراثي يقترح على مدير الفرقة ان اقوم انا ومازلت عضوا مستجدا لم يختبره احد في اية ادوار مهمة بدور البطولة في التمثيلية ، مع انه دور تاجر يصل به الحرص والطمع الى اغلاق بابه على امواله دون اهله وذويه ، وعقابا له يحدث حريق تضيع فيه تلك الاموال التي حرم منها اهل بيته وجعلهم وجعل نفسه يعيشون في ضنك وحرمان. ولابد من القول ان الاستاذ الحاراثي وهو يكتب هذه التمثيلية كان يستجيب لواقع ينادي بان ينصف الاغنياء الضعفاء والفقراء، فالبلد كانت تعاني فقرا في كل مناحي الحياة، وهناك بشر يعيشون البؤس في اقسى حالاته، وكان اهل الاصلاح يشنون حربا ضد الجشع، وهي حرب كانت موجودة في العالم كله، وكان الجشع فيما اذكر عنوانا لفيلم عالمي، كان افة مذمومة ملعونة وسط اكداس البؤس التي تلوح مظاهرها في كل مكان في طرابلس، خاصة في حزام الفقر المتمثل في مئات الاف اكواخ الزنك التي يسكنها النازحون من الريف ، واذكر عندما ذهبنا للاذاعة ومقرها في شارع الزاوية ان كان المسئول عن الاستوديو هو السيد عبد الحفيظ شالادي وكان هناك شابا اظن اسمه ابوشاقور هو الذي يدير اجهزة البث في الاذاعة واجهزة التسجيل ولكنه لم يكن تسجيلا نقوم به لكي تذاع التمثيلية فيما بعد، وانما كان العمل على الهواء مباشرة والبث لحظة القيام بالعمل يعني الكلمات من فم الممثل الى اذن المستمع واذا حدث خطا فلا سبيل الى اصلاحه ولابد من المضي في اداء التمثيلية حتى نهايتها، وكان مسئول التمثيليات هو السيد محمد ابوعامر، وقد انتظرناه لانه سيتولى هو بنفسه الجلوس والاستماع ومراقبة ما يجري ، وكنت اظنه رجلا متقدما في السن ، لكي يحتل هذه المهمة الاشرافية الرقابية ، فاذا به شاب صغير السن، نحيف الجسد، دائم الابتسام، وتم تقديم التمثيلية بلا مشاكل، وكنت اظن ان التمثيلية لن يتم تسجيلها، ولكنني اكتشف ان التسجيل موجود، وانها فعلا ظلت موجودة في ارشيف الاذاعة (حدث بعد ذلك باكثر من اربعين عاما، ان كان الصديق المذيع الاستاذ احمد عمران ، يقدم برنامجا من ارشيف الاذاعة وتسجيلاتها القديمة وعثر على جزء غير كامل من تمثيلية الطمع وقطع الرقبة متحاديين ، وكان اسمي موجودا مع بعض مقدميها على غلاف الشريط فاراد مفاجأتي به وجعله ضمن فقرات برنامجه واخبرني به قبل

اذاعته وحاولت الاتصال بزملاء تلك التمثيلية وعلى راسهم مؤلفها على مختار الحاراثي وكان مازال في ذلك الوقت على قيد الحياة ، وربما صديقنا المجراب اطال الله عمره، ولا ادري ان كانا قد تمكنا من الاستماع الي البرنامج ام لا ، ولكنها كانت عودة الى عالم قديم يحمل عطر البدايات ووهج ايامها اللامعة الصاخبة، واستمعت لنفسي وانا اتكلم بحنجرة فتى في السابعة عشرة من عمره محاولا ان اقلد رجلا كهلا يتخلل حواره السعال، وكنت تلك مناسبة نادرة ، لانني حاولت في ايام قبل هذا اليوم وربما بعده، ان ابحث عن مادة قديمة في ارشيف الاذاعة من تاليفي لانني اتعشم في تضمينها لكتاب من كتبي ، ولكن دون طائل اطلاقا ، خاصة خلال سنوات العهد الانقلابي اذ لا حفظ ولا اهتمام ولا اعتبار الا للمناسبات السياسية التي تتصل بصاحب الحكم وازلامه ، لانه يخشون عقابهم ويرجون ثوابهم ، اما غير ذلك فلا احد يامل في العثور على اية مادة مهما كانت ثمينة ، ولا احد من اهل الاذاعة مسموعة او مرئية يسعى لحفظها) .

وكان المشهد المسرحي في تلك الاعوام الثلاثة التي اسهمت خلالها في انشطة فرقة الامل اعوام 58-59-1960زاخرا بانشطة الهواة وكان ثمة عدد من الفرق اشهرها واكثرها اهمية الفرقة القومية التي يتجمع فيها عدد من الرواد المسرح في مرحلة ما بعد الفترة الاستعمارية مثل سعيد السراج ومصطفي الامير ومحمد شرف الدين ومحمد حقيق وكاظم نديم ومختار الاسود ، والامين ناصف والهمالي اللافي ومحمد قنيدي وعبد الهادي المزداوي، وعدد اخر كبير ممن تركوا بصمة في تاريخ المسرح الليبي عدا الفرق الاخرى التي يرودها هواة غير ثابتين مثل الفرقة الوطنية والنجم الفضي وفرق انشأتها الاندية مثل نادي الاتحاد والنادي الاهلي ونادي ابي الخير ونادي نجوم الوحدة وغيرها ، وبين هذه الفرق كانت فرقة الامل للتمثيل تحظى باهمية خاصة لكونها استقطبت عددا من اهل الكتابة والثقافة وقدمت اعمالا ذات بعد عالمي مثل مسرحية ظلام في الظهيرة الماخوذة عن رواية شهيرة لارثر كويستلر تتحدث عن السجناء السياسيين في فترة من حكم ستالين ، واساليب التحقيق التي تتم عن طريق التعذيب وكانت تمثل ادانة للسجن والسياسي والتعذيب في كل زمان ومكان وقام بالدور الرئيسي فيها زميلنا المذيع محمد المصراتي ، الذي كان يقوم ايضا بعمل صباحي غير عمله الاذاعي، زميلا لي في ادارة الجمعيات التعاونية ، كما قدمت الفرقة ايضا مسرحية ماخوذة عن يوسف وهبي هي اولاد الفقراء، وشاركت في هذه المسرحية ومسرحية قبل ذلك اسمها المتشرد، وبدات بالعمل في الجانب الاشهاري مع مسرحية الشيخ التقي ، وحضرت في تلك الفترة بدور للتدريب المسرحي اقامها الاستاذ محمد العقربي عندما تدربت معه على قطعة الزوج القاتل وقد اقام الدورة في مدرسة طرابلس الثانوية اثناء العطلة الصيفية مستفيدا من خلو المدرسة من الطلاب، واظنه بدا التدريب من خلال تقديم مسرحية من التراث الاغريقي لعلها كانت مسرحية اوديب ، وكانت الزيارات تتكرر كثيرا بين رموز الفن والثقافة في تونس وليبيا وقد حضرت اكثر من لقاء ومحاضرة اقامها الاستاذ الباحث والمؤرخ محمد المرزوقي الذي تربطه علاقة صداقة ومودة مع الاستاذ محمد حقيق واقام اكثر من مائدة على شرفه في بيته ، دعانا اليها، وهو ما فعله الوجيه الطرابلسي الاستاذ محمد الكريكشي مع صديق مسرحي اخر هو محمد الحبيب ، ولم يكن العشاء يتم لمجرد الضيافة والدردشة ، ولكن اثناءه قدم الاستاذ محمد الحبيب محاضرة عن تاريخ المسرح العربي كانت محور نقاش واثارت من التعليقات ما اضاف لمعرفة الحاضرين معارف جديدة بهذا الفن الذي اذكر انه نسب نشاته الاولى الى المنطقة العربية والى الحضارة الفرعونية بالذات التي يراها سبقت في تاسيس المسرح المرتبط بالطقوس الدينية حضارة الاغريق ، غير ان الاغريق طبعا لهم فضل الريادة في تطوير

المسرح الى نصوص وفن استقل عن المعابد والطقوس الدينية ، واثناء تلك الدورة في المدرسة الثانوية التقى حول احاديث الاستاذ العقربي كل العاملين في المسرح وكانت فرصة لان اتعرف بكل رموز المسرح ومنهم من كان متفرغا لهذا الفن في الاذاعة مثل الاساتذة اسماعيل ريحان والهمالي اللافي والبهلول الدهماني ولطفي بن موسى وكان يحضر الاساتذة سعيد السراج ومصطفى الامير ومحمد شرف الدين وشعبان القبلاوي وزملائي في فرقة التمثيل وكانت جلسات الاستاذ العقربي فائدة ومتعة ايضا فقد كان رجلا موسوعيا في ثقافته وكان عارفا بالتراث الموسيقى يجيد غناء الادوار القديمة بمثل اجادته للتمثيل ولعله قام في فترة من حياته بالتدريس في مجالي المالوف والموسيقى وفنون الغناء العربي ، وربما مارس في مطلع حياته الغناء ، بمثل ما مارس التمثيل ، رجل اراه فعلا من قلائل من رايتهم في الحياة واستطيع بارتياح ان اطلق عليهم صفة العبقري، ولعلي استخدمت مرة هذا التعبير مقرونا باسمه العقربي العبقري، واهديته واحدا من مؤلفاتي المسرحية وهو كتاب غناء النجوم ومسرحيات اخرى اهديته الى ذكرى الرجل الذي جاء من سلالة اله الفن ابوللو وكان تجسيدا له وحالة من حالات التجلي لهذا الاله الذي اسند إليه اليونانيون فضل رعاية الفنون والاداب والشعر والحدائق، وغير ذلك من اشياء جميلة في الحياة ، وكانت قصيدة الزوج القاتل التي تعلمتها منه واشتهرت خلال تلك الفترة بتقديمها على المسرح قصيدة تروي قصة درامية كتبها للمسرح محمد تيمور الشقيق الاكبر لرائد فن القصة المصري محمود تيمور، تتحدث عن زوج يروي الصدمة التي تلقاها في زوجة تزوجها عن عشق وتعاهد معها على الوفاء ، عندما وجدها تخونه مع واحد من اقرب الاصدقاء اليه، وجد نفسه مرغما وهو يفاجئهما في حالة تلبس، ان يقتل الزوجة ويقتل الصديق، ويختم قصيدته ببيت شعر شهير لابي الطيب المتنبي وهو ذلك الذي يقول فيه :

لا يسلم الشرف الرفيع من الاذى حتى يراق على جوانبه الدم

ويستهل تيمور القصيدة بهذه الطريق

احببتها حب الوليد لامه

ورعيت عهد الحب لا اتبرم

لم اكثرت لمقال اهل اللوم اذ

لا ارتضيه وان اطالوا اللوم

الى اخر القصيدة ، وكانت اول مرة اقدم فيها هذه القصيدة في مسرح مصراته ، اذ تعودت فرقة الامل للتمثيل ان تقوم برحلات خارج طرابلس لتقديم عروضها في مدن مثل زوارة والزواية وغريان ، واثناء رحلة مصراته ، وكنت اتولى الدعاية للفرقة ، وهو ما اقتضاني ان اسافر الى مصراته قبل سفر الفرقة بيوم واحد ، لاقوم باعداد لوحات الدعاية وتوزيعها في بعض ميادين المدينة ، بدءا باللوحة الرئيسية التي ستعلق امام دار العرض ، وكان هناك تنسيق مع نادي البعث المصراتي ، حيث وصلت مساء عن طريق احدى الحافلات، واتجهت الى مقر النادي، فوجدت غرفة صغيرة تفتح على شارع رئيسي ، مثبتة في

الجدار اعلى الباب يافطة باسم النادي، وكان الباب مفتوحا دون وجود احد في الغرفة، وانتبهت الى وجود صبي يرتدي قميصا وبنطلونا عربيا يمسك بمكنسة ، ويقوم بتنظيف الرصيف ، امام النادي، فسالته عن اهل النادي ، وكنت احمل معي حزمة من الورق المقوى ، التي سنكتب فوقها الاعلانات ، فسالني الصبي ان كنت مندوب فرقة الامل للتمثيل ، وعندما اجبته ، قال انه موجود هنا بانتظاري ، وابلغته انني احتاج لرسام ليرسم اللوحات، واخر يجيد الخط ليكتب العناوين واسماء الممثلين ، ففاجأني بقوله انه هو من سيقوم برسم اللوحات وكتابة العناوين ، فتاملته عن قرب ووجدت انه لم يكن صبيا حقا ، فضآلة حجمه، ورقة جسمه، جعلتني اظنه فتي صغيرا، بينما هو في الحقيقة يكبرني بعدة اعوام ، وعرفت انه طالب جامعي في بنغازي، وموجود هنا بسبب العطلة الصيفية ، ولم يكن ذلك الشاب الذي استصغرت شأنه، وانا اراه يمسك المقشة، ويكنس الرصيف، الا صديق المستقبل ورفيق رحلة العمر ، حتى وفاته بعد ذلك اليوم بخمسة عقود ونيف ، الكاتب المبدع والمفكر صاحب البصمة في تاريخ الفكر العربي، واستاذ الفلسفة الدكتور على فهمي خشيم ، وكان ذلك اول لقاء ، في علاقة وثيقة لم تنفصم عراها طوال السنين التي اعقبت ذلك اللقاء. وفعلا بدات مستريبا ان كان هذا الفتي الذي بدا لي ضعيف البنية ، ضعيف البصر ، يلوح اصغر كثيرا من سنه ، يستطيع حقا ان يقوم برسم اللوحات، وكتابة عناوين العرض، واسماء الممثلين، بخط جميل واسلوب يتفق مع فرقة قادمة من طرابلس لارضاء ذوق اهل مصراته من محبي المسرح والفن ، ولوحات اعلانية ينبغي ان تجذب الانظار وتستقطب الجمهور، وادهشني عندما باشر العمل بمدى اتقانه للرسم، واستخدام الالوان وكتابة الخط بطريقة مبتكرة، ليصبح خطا اشبه بالرسم ، تكوينات تشكيلية جمالية، وليس خطا تقليديا، كما هو الخط الديواني او خط الرقعة وانما خط عفوي يقوم على التشكيل والرسم، و تتحول فيه الكلمات الى نوع من الفن التشكيلي، ولم يتركني اشقى بنقل اللوحات الى اماكن عرضها، وانما استدعي من اعضا ء النادي من قام بالمهمة، ليتفرغ هو لمصاحبتي الى الفندق، وقضاء جزء من الوقت معي، وفي اليوم التالي جاءت الحافلة التي تحمل الفرقة ، ليباشر الاعضاء نصب الديكور استعدادا لتقديم العرض في تلك الليلة ، الذي احتوى ضمن فقراته تلك القصيدة التي اتقنت تمثيلها بعنوان الزوج القاتل ، وفعلا اكتظت صالة العرض بالجمهور ، و بشكل لم يحدث في اية مدينة من مدن الدواخل من قبل ، ربما لكثافة السكان في مصراته، ولمستواهم الثقافي المتقدم عن بقية مدن ليبيا ، وكان عرضا ناجحا، حصدنا من خلاله دخلا وافرا، وهو دخل عادة ما يذهب الى خزينة الفرقة لسداد نفقات العروض، وايجار المقر، وغير ذلك من مصاريف، عدا ما يتم اقتطاعه لصالح مصلحة الضرائب، ولكن هذه المرة تقرر ان يعوض اعضاء الفرقة على جهدهم، وتعبهم فتم صرف جزء من الدخل وتوزيعه بالتساوي على اعضاء الرحلة ، واظنها كانت اول مرة في حياتي اتقاضى مالا عن اي جهد فني، او ادبي، اقوم به في ذلك الوقت.

لم يكن حتى اواخر عام 1959 ، قد وصل شيء مما اكتبه الى النشر في الصحف السيارة، ولعلي لم اتصل باية صحيفة، ولم اعرض انتاجي قبل ذلك التاريخ على احد ، ما عدا قصة قصيرة ارسلتها الى مجلة لبنانية ، فلم افز بغير تنويه بالقصة في البريد الادبي ، يشيد باسلوبها ويعبر عن الثقة في انني اذا ثابرت على هذا النهج، فساصل الى مستوى النشر والنجاح ، ويرى انني احتاج الى استكمال بعض النواقص خاصة فيما يتصل بالحبكة القصصية كما اسماها، وحدث ان رايت طالبا معي في السنة النهاية من معهد هايتي ، ينشر مقالا في صحيفة تصدر عن اتحاد العمال اسمها الطليعة ، فبادرت بارسال مجموعة خواطر

الى الصحيفة ذاتها ، وهي صحيفة اسبوعية ، وانتظرت يوم صدورها ، لافاجأ بالمقالة موجودة في صدر الصفحة الاخيرة ، تحت عنوان يوميات الطليعة ، مضافا اليها مقال صغير استهل به المحرر تلك الخواطر تحت عنوان "ومضى عام"، اشارة الى ان الصحيفة تدخل بهذا العدد عامها الثاني ، ثم جاءت بعد هذه الفقرة ثلاث خواطر هي تلك التي ارسلتها للصحيفة ، احداها كان خليطا بين القصة والمقالة بعنوان حكاية كل يوم ، اتحدث فيها عن ماساة فتى احب فتاة واتفق معها على الزواج ، ولكن التقاليد البالية ، حكمت بتزويج الفتاة من قريب لها ، وتحطيم قلبها وقلب الشاب الذي احبها واراد ان يبني بها. المهم ان الصدمة التي كانت بانتظاري ، واضاعت فرحة ان ارى اول مقال ينشر في الصحف ، هو ان اسمي لم يكن موجودا فوق هذه المقالات ولا اسم احد غيري، فقد ظهرت الخواطر وكانها مادة منسوبة الى محرر الصحيفة ، وصممت طبعا على الاحتجاج، وارتديت ملابسي الوطنية باعتبارها افضل ما املكه، واتجهت الى مقر الصحيفة في مبنى اتحاد العمال، واستقبلني رئيس التحرير وكان اسمه على البيطار، رجل انيق في الثلاثنيات من عمره ، وكان الحاجب قد نقل له اسمي فخرج من مكتبه يرحب ، وكان واضحا انه فوجيء بهذا الكاتب الذي لم يتجاوز مرحلة الصبا ، وصار يستفسر مني ان كنت حقا كاتب تلك الخواطر المنشورة في الصفحة الاخيرة ، وعندما اكدت له ذلك ، صار يعتذر عن سقوط الاسم سهوا ، وسالني ان انتقل معه الى مكتبه ، حيث كان هناك ضيف موجود في المكتب قدمني اليه باعتبار الكاتب الشاب فلاني الفلاني ، وخرجت من مكتبه باتفاق ترضية بيني وبينه هو ان اكتب له بابا اسبوعيا، يتضمن المزيد من مثل هذه الخواطر، وبدأت فعلا اكتب له الباب الذي تواصل ظهوره عدة اسابيع تحت عنوان "خواطر وتأملات" ، هكذا بدأ تدشين الكاتب الذي سيتحول الى جزء من المشهد الادبي الثقافي في ليبيا لمدى عقود كثيرة قادمة ، وكنت قد اخترت التوقيع بالاسم الثلاثي وهو احمد ابراهيم الفقيه ، لوجود رجل من رواد الحركة الادبية ، وشاعر من اساطين الشعراء ، هو الرائد الادبي استاذنا احمد الفقيه حسن ، فلم يكن ممكنا الا يخلط الناس بيني وبينه لو اكتفيت باسم احمد الفقيه، وهكذا ولد الاسم الذي عرفني به قراء الادب والصحافة وجمهور الاذاعة والتلفاز .

كنت كما اسلفت القول ، بانني بدأت اجرب قلمي في كتابة القصة القصيرة ، تحت اشراف زميلي بشير الهاشمي الذي اشتركت معه في تاجير ركن اشبه ببيت مستقل في فندق يقطنه صيادي السمك ، اسمه فندق بعيشو، وكان يقطن معنا في نفس البيت ، شاب صغير في مثل سني ، يرتدي الملابس الوطنية دائما نسميه الشيخ ، ولا اعرف له اسما غير هذا الاسم ، لم اعرف الا في سنوات متاخرة وهو يعتلى سلطة البلاد حاكما من حكامها اوان العهد الانقلابي ، انه السيد عبد السلام جلود الرجل الثاني في البلاد، وكان هو الذي ذكرني باقامتنا المشتركة في هذا الفندق الشعبي، وكان ذهني خاليا من هذا الموضوع ، وذكر اسم الفندق، فرجعت الى زميلي في تلك الحقبة بشير الهاشمي ، اسأله ان يذكرني بمتى تجاورنا في السكن مع هذا الرجل وهل يذكر ذلك، فابلغني ان جلود ليس الا ذلك الصبي الذي نراه ملفوفا في عباءته العربية الذي نسميه الشيخ، وقد قضى فترة مقيما في ذات الفندق قبل التحاقه بالكلية العسكرية . وكنت قد كتبت قصة حازت رضا بشير الهاشمي ، وبعض زملائي في فرقة الامل اسميتها "التراب"، ونصحني الهاشمي ان اعطيها لصحيفة طرابلس الغرب للنشر، وكنت قد بدات انشر في تلك الصحيفة بعض المقالات والخواطر ، ولعلي تباهيت اما مدير التحرير بمستوى القصة التي كتبتها وانا اقدمها له وكان الصحفي المعروف الاستاذ محمد الشاوش ، فاراد ان يعطيني درسا في نفوره من مثل هذا التباهي ، وما قلته من

كلام زكيت به نفسي ، ودون ان يفصح عن هذا النفور او ينصحني بعدم العودة لمثل هذه التزكية ، اهمل نشر القصة ، احيانا بحجة انه يحتاج الى وقت للبحث عنها وسط ركام الملفات ، واحيانا يريد ان يجد لها مكانا مناسبا في الصحيفة ، رغم ان جريدة طرابلس الغرب ، في تلك الفترة كانت تعتمد اعتمادا اساسيا على المقص ، وكنا نسمي هذا المقص كبير محرري الصحيفة الاولى في البلاد، لان الاستاذ الشاوش لا يقفل العدد الا بعد ان يمسك عدة مرات بهذا المقص ، ويأخذ من صحيفة النهار مقالة ، وقصة اخبارية من صحيفة المحرر، وعمودا فنيا من الاهرام ولا يامر بقفل الجريدة واتمام موادها الا باختيار ثلاثة او اربعة مقالات عن طريق المقص في كل عدد، فاي مكان هذا الذي لا يستطيع الاستاذ الشاويش ان يجده، لقصة لم يكن حجمها يزيد عن معشار صفحة من صفحات الجريدة العريضة الشاسعة. وربما مضى شهر او شهران دون ان يتفضل السيد الشاوش بنشر القصة ، وكانت صحيفة فزان التي تصدر في عاصمة الجنوب سبها ، قد بدات تكتسب سمعة بين المثقفين لاهتمامها بالقضايا الادبية وانتصارها للمدارس الجديدة في الفن والادب، وحرفيتها العالية بسبب ان اثنين من الليبيين ، ممن اكتسبا خبرة في التحرير الصحفي اثناء اقامتهما في مصر، محمد عمر الطشاني ، وفاضل المسعودي ، هما من يتوليان مسئولية التحرير فيها (سنوات بعد ذلك ، تاتى لي ان اعرف قصة التحاقهما بجريدة فزان ، رواها لي السيد سيف النصر عبد الجليل ، وكان في ذلك الوقت الرجل الثاني في ولاية فزان رئيسا للمجلس التنفيذي ومشرفا على الجهاز الاداري بعد عمه الوالي ، فقد كان هو ايضا يقيم في القاهرة عند فترة الاستقلال وقبلها وبعده بقليل ، وكان يعرف هذين الكاتبين من اهل الحراك الصحفي والوطني في الجالية الليبية بالقاهرة، وكان الاثنان يتوليان اصدار مجلة عن طريق النادي الليبي في القاهرة اسمها "صوت ليبيا"، ويبدو انهما كتبا حول القضايا الليبية ما اثار عليهما حفيظة السلطات الجديدة الحاكمة ، ومنعت دخولهما للبلاد ، فلجآ الى هذا الصديق ، وكان ثمة استقلال لكل ولاية من الولايات ، فوعد بان يحميهما ويؤمن لهما دخول البلاد ، وكان كلما عاد عن طريق البر من مصر الى فزان عن طريق البر مر على طبرق ليرى الملك ويحمل له او منه رسالة الى الوالي في فزان وقد تناوب على منصب الوالى عمه احمد ثم عمه عمر ، وهما صديقان للملك ومن ابناء جيله ، فانتهز فرصة لقاء جمعه بالملك وابلغه عن هذين الشابين اللذين صدر في حقهما منع من دخول العاصمة او ملاحقة قضائية ، واستاذنه في ان يستعين بخبرتهما الصحفية في اصدار الصحيفة المزمع اخراجها هناك اسوة ببقية الولايتين ، فهناك طرابلس الغرب في ولاية طرابلس وهناك صحيفة برقة الجديدة، في برقة ولابد لاتمام المساواة من ان تكون هناك صحيفة في فزان اسمها على اسم الولاية ، فاذن له الملك في ذلك ، وهكذا استطاع ان يؤمن لهما اقامة في عاصمة ولاية فزان وعملا هناك ، وان سقط فيما بعد كل تحفظ سياسي في الحكومة الفدرالية ضدهما واستطاعا ان يعودا للاقامة في طرابلس ويسهمان في تطوير العمل الصحفي في العاصمة) ارسلت القصة اليهما ، وفعلا لم يمض اسبوع واحد حتى وجدتها منشورة ، ولكن ليس بنفس العنوان ، الذي بدا غامضا لمحرر الصحيفة، ربما لما راه من انعدام الصلة الواضحة باحداث القصة ، فوضع لها عنوانا من عنده راه ينسجم مع تلك الاحداث هو "هارب الى المدينة" وهي قصة كتبتها اعارض بها قصة مترجمة كان يتناولها اهل المجال الادبي باعتبارها نموذجا للقصة القصيرة في افضل وارقى صورها ، وهي قصة انطون تشيخوف المسماة "لمن اسرد احزاني"، التي تروي حكاية الحوذي الذي فقد ابنه، ولم يجد احدا يهتم بالانصات لاحزانه على موت ابنه، فيلجأ اخر الليل ، وقد اثقله الالم، الى حصانه ، فينحني على اذنه، ويسرد للحصان ما يحس به من حزن والم ، وكانت القصة التي كتبتها اعارض بها تلك القصة العالمية الشهيرة، قصة اقتبست فكرتها،

من حادث حصل في اسرتنا ، عندما خرج اخي الاكبر مغضبا من البيت ، هاربا الى المدينة، دون علم والده ، الذي صدم بهروب ابنه ، وصار يضرب كفا بكف حزينا متاسفا متألما لهذا الهروب ، فوجد تعاطفا من اهل البلدة، الى حد ان جعلت كأنّ أشجار القرية وجدرانها تتعاطف معه ، وصورته وهو يطأ الارض عائدا الى بيته، وقدماه تسوخان في التراب الناعم في منطقة من مناطق الطريق الى البيت ، كان هذا التراب ، تراب البلدة، يتعاطف معه مصافحا قدميه بكل ما فيه من ليونة وسخونة يقول له الا يحزن على الولد سيعود في يوم قريب ولهذا اعطيت القصة عنوان "التراب" الذي اعطى المحرر لنفسه حق تغييره.

كنت في هذا العام الذي نشرت فيه اول قصة قصيرة، قد انهيت بنجاح دراستي في معهد هايتي ، واخذت دبلوم القسم التجاري، بعد ثلاثة اعوام من الدراسة ، وحق لي ان انتظم في عمل رسمي ، ثابت يضمن لي دخلا شهريا اعيش منه ، واقتطع منه مبلغا ارسل به الى والدي في البلدة يعينه على مصاريف الاسرة . وكنت قبل ذلك قد اعنت والدي قليلا ، من خلال عملي اثناء الصيف، فقد مرت بي عطلتان صيفيتان اثناء الدراسة ، قضيتهما مقيما في المدينة ، ولم اعد الا لايام قليلة لعائلتي في مزدة، وقادني شاب من اقاربي من ناحية الوالدة ، اسمه موسى اربيدة، ذلك الصيف ، لان اشترك معه في مهن كان هو خبيرا بها ، فقد ترك الدراسة وتفرغ لالتقاط اعمال موسمية يحصل منها على رزقه، فقادني اول ما قادني الى مخزن يقوم اصحابه بتصدير منتوج الكاكاوية القادم من مزارع طرابلس ، الى خارج البلاد، وكانت مهمة العاملين من امثالنا ، وبيننا نساء يعملن وهن يضعن فوق وجوههن البانبوك ، الذي يتيح لهن ان يضعن عيونهن فيما يعملن دون ان يسفرن عن وجوههن، هي تنقية حبات الكاكاوية ، من كل حبة معطوبة ، وابعادها عن الكميات التي يتم تعبئتها في اشولة للتصدير ، وبعد ثلاثة اواربعة اسابيع انتهى العمل ، وكنا نتقاضي عليه اجرا يوميا يصرف لنا في نهاية الدوام، بدأ بعشرة قروش وانتهى الى خمسة عشر قرش ، فذهبنا بعدها نبحث عن عمل اخر ، وقادني هذه المرة، الى مطعم ايطالي في واحد من الشوارع الرئيسية ، لنعمل في المطبخ، ونهتم فقط بتقشير البطاطس وتقطيعه لانهم كانوا يستهلكونه بكميات كبيرة ، شكائر نقوم كل يوم بتفشيرها وتقطيعها وتقديمها للطهاة ، ولم يكن يسمح لنا اطلاقا بان نرى قاعة المطعم او نظهر انفسنا لزبائنه ، لان هناك فتيات ايطاليات حسان هن من يقمن بالخدمة وتقديم الشراب والطعام لزبائن المحل ، وكان هناك باب خلفي هو الذي نستخدمه في الخروج والدخول ، ولا ادري لماذا لم يستمر العمل لغير اسبوع او عشرة ايام ، وجدنا انفسنا بعدها نتجول في سوق الثلاثاء ، نعمل يوما في تعبئة الطماطم في صناديق ، او تعبئة غلال اخرى ، مثل البازلاء او الفاصوليا او الرطب ، وكان اطرف ما شاهدته في ذلك السوق ، ان رايت كاتبا معروفا ، ذائع الصيت هو الاستاذ محمد فريد سيالة وكنت اعرفه مدرسا ايضا تولى اصدار مجلة صوت المربي لنقابة المعلمين ، يعمل عملا اضافيا هناك ويرتدي معطفا ازرق مما يرتديه اهل السوق يشرف على البيع والشراء في دكانة مصنوعة من الزنك ، وتفاديت الالتقاء به او التماس عمل لديه ، فعلاقة الادب والثقافة يجب ، كما عن لي ذلك الوقت ، ان تبقى بعيدة عن مهنة البيع والشراء والتقاط الرزق في سوق الثلاثاء ، واستطعت قبل انتهاء العطلة توفير بعض الجنيهات ارسلتها لوالدي يستعين بها على متاعب الحياة . وكا حظي في العطلة الصيفة الثانية افضل كثيرا، فقد كنت خلال عامين من الدراسة في المعهد ، قد اتقنت الضرب على الالة الكاتبة ، عن طريق اللمس كما يقولون ، وهي الطريقة التي توفر كثيرا من الوقت لانك لا تحتاج للنظر في لوحة الحروف ، وتستطيع تركيز البصر في النص الذي تتولى كتابته على الالة ، ولهذا السبب استطاع ان يجد

لي قريبي محمد التير ، عضو المجلس التشريعي، عملا في المجلس ، حيث اجري لي اختبار سريع ، تم بموجبه قبولي ضاربا على الالة الكاتبة خلال اشهر الصيف ، كان رئيس المجلس هو السيد الطاهر العقبي ، وكان سكرتيره العام الاستاذ الكاتب عبد اللطيف الشويرف، الذي قابلته وامر باجراء الاختبار لي ، وقرر لي راتبا شهريا هو عشر جنيهات في الشهر ، ولمدة ثلاثة اشهر قضيتها اشارك في طباعة التقارير والمحاضر والرسائل الادارية الخاصة بالمجلس ، الذي يمثل برلمانا لولاية طرابلس ، وربما كانت هذه الاشهر فرصة اتعرف من خلالها على اليات اتخاذ القرار السياسي في الولاية وعمل هذه السلطة التشريعية في علاقتها بالسلطات التنفيذية والقضائية ثم علاقتها بسلطات اكبر على المستوى الفدرالي مثل الوزراء ورئيس الوراء والملك نفسه ، وبسبب حماسي للمسرح واتصالي المبكر باجوائه في طرابلس ، وتأثري بشكاوى العاملين فيه ، الذين يتذمرون دائما من اهمال الدولة لهذا الفن وازدرائها له ، طلبت من خالي عضو المجلس ، ان يثير هذه القضية امام الوالي والمجلس التنفيذي ، لكنه لم يكن فصيحا في الكلام ولم يكن ممن لهم مداخلات او مداولات ويمر العام كاملا دون ان ينطق باية كلمة غير نعم لما تقوله الحكومة باعتباره نائبا من نوابها ، يعتمد في كسب الانتخابات على قوة الولاء التي يبديها للحكومة ، ولذلك فانه لم يستطع ان يعد باثارة مثل هذا الموضوع ، ولكنه طلب مني ان اكتب مذكرة بما يريده المسرحيون ، وسوف يحيلها بدوره لادارة المجلس ولجانه المعنية بدراسة مثل هذه المقترحات دون ان يحتاج للدخول في حديث او نقاش مع حكومة الولاية ، وفعلا كتبت المذكرة ، وقدمها باسمه للمجلس ، وكان استغراب الاعضاء كبيرا ، لانهم لا يعرفون للرجل اهتماما بالمسرح ولا اية قضية من قضايا الثقافة ، فهو رجل ينتمي الى المجال التجاري من ناحية وممثل لاحدى مناطق الدواخل التي لا تعنيها الا المراعي والاعلاف والابار ، فكيف يجدونه فجاة معنيا بقضية لا يعتني بها عادة الا قلة قليلة جدا من اهل المدينة ، وذهب الاقتراح كغيره من اقتراحات تتصل بالمسائل الحضارية والثقافية لتضاف الى مخزون كبير من اشباهها لا احد يقيم لها اعتبارا ولا يهتم حتى بمطالعة ما جاء فيها. واهم ما حصل لي في هذا العطلة الصيفية التي قضيت اصبوحاتها في المجلس ، انني تعرفت على عدد كبير من الشخصيات، ورغم صغر سني ، فقد وجدت من بين اعضاء المجلس من يعتني بمناقشتي وافهامي بعض ما غمض عني من اعماله ، مثل الاستاذ محمد عراب ، وكان مدرسا من الرجبان انضم للمجلس ، وتواصلت علاقتي به صديقا احتل موقعا اداريا قياديا في المؤسسة العامة للصحافة في السبعينيات، وايضا السيد الميساوى علي نائب ترهونة ، الذي جاء هو ايضا من حقل التعليم ، وكان صاحب هواية للمطالعة وقراءة ما اكتبه من مقالات ، وقد تواصلت علاقتي به فيما بعد، وافرح به كلما تجدد بيننا اللقاء واهرع للترحيب به مبديا عميق الاحترام والتقدير، وفي هذا المجلس كان لقائي الاول بزميل كاتب هو الامين مختار مازن ، الذي كان يعمل كاتب محاضر بالمجلس، وخرجت بصديق هو العم احمد ، صاحب البوفيه في المجلس ، الذي انتقل به الى وزارة الاعلام واستمرت صداقتي له حتى وفاته بعد ذلك باكثر من ثلاثين عاما، ومن وحي هذه الاشهر الثلاثة كتبت قصة قصيرة طويلة ضمن مجموعتي "هكذا اتذكر هند" ، بعنوان "الاصدقاء الثلاثة الذين جمعتني بهم الالة الكاتبة".

اقول انه بحصولي على الدبلوم رسا قاربي على المرفأ الذي لا ابحار بعده في عالم المعاهد والمدارس، وصلت الى محطتي الاخيرة في التعليم بمقاييس ذلك الزمان ، وامامي الان العالم مفتوحا على مجالات العمل وافاقه ، لابدأ مرحلة جديدة من مراحل الحياة. لم استعجل في البحث عن عمل ، ووجدت

ذلك الصيف زملاء من ابناء دفعتي، يسعون لتاجير كابينة باحدى البلاجات لقضاء الصيف ، فانضممت اليهم نتخذ من كابينة في مصيف يحمل اسم جورجن بوبلي وهو اسم المنطقة نفسها، ازيل فيما بعد ، مقرا لاقامتنا، تعفينا من بحث عن سكن بعد ان انتهت علاقتنا بالقسم الداخلي، وتكاسلت كما تكاسل الزملاء عن الذهاب الى ادارة الخدمة المدينة ، التي تنشر الاعلانات تطالب خريجي المعاهد الحكومية بان يلتحقوا بالوظيفة العامة ، بدلا من الاتجاه الى الشركات والبنوك ، لان هناك التزاما لدى هؤلاء الدارسين على حساب الحكومة بالعمل فترة من الزمن معها، مع ان عددا كبيرا من زملاء الدفعة ، انطلقوا للبحث عن وظائف في البنوك الاجنبية مثل بنك باركليز وبنك روما، التي تدفع مرتبات اكبر من الحكومة ، ولكنني شخصيا وبسبب نفور من لغة الارقام ، التي درست جانبا منها مرغما ، لم اكن متحمسا للعمل في البنوك ، الا ان هذه الاجازة التي كنت مستمتعا بقضائها مع البحر وامواجه، قطعها اقتراح من خالي محمد التير ، وكان بطبيعة الحال هو الراعي الاول لمسيرتي الطرابلسية ، وكانت له صلة بشركة من الشركات العاملة في مجال البحث عن البترول، وهي تلك المسماة باحرفها الاولي بي بي ، اي بريتيش بيتروليوم ، ليقول لي ان الشركة اعلنت عن اجراء امتحان للشباب الليبيين، وانه سيوصي بي خيرا مع صديقه المدير اللبناني لفرع طرابلس ، وان وظيفة مع هذه الشركة ستضمن لي مرتبا يوازي ضعف المرتب الذي ساتقاضاه من الحكومة. وفعلا هيأت اوراقي وتقدمت بها الى الشركة ، وكان ذلك في صيف عام 1960 عندما حضرت اجراء الامتحان بقسميه الشفهي والكتابي، ووجدت اسمي ضمن الناجحين في الامتحان. وعند المراجعة اكتشفت ان العمل سيكون في واحد من حقول الاستكشاف التابعة للشركة في صحراء المنطقة الشرقية ، وهو ما يقتضي ان اذهب الى بنغازي لاستلم من فرع الشركة هناك العقد الذي بموجبه ساعرف تفاصيل العمل ومكانه وشروطه وما يتبع ذلك من حقوق وواجبات. واستلمت رسالة تكليف بالذهاب الى بنغازي ، وقبل ان اقرر الوسيلة التي اسافر بها، التقيت صدفة بصديق انهي دراسته في مدرسة طرابلس الثانوية ويريد الذهاب الى بنغازي للالتحاق بالجامعة هناك، هو الصديق محمد حسين كانون، الذي اصبح فيما بعد رئيسا للغرفة التجارية والذي اقنعني بان نترافق في الطريق حيث كان قد حجز في سيارة نصف حافلة ، فحجز لي معه ، وفي احدى ساعات الضحى انطلقت بنا الحافلة باتجاه المدينة التي كانت تسمى العاصمة الشرقية للبلاد.

واثناء هذه الرحلة حصلت حادثة صغيرة، كادت لولا عناية الله ، ان تضع نهاية مبكرة لرحلتي في الحياة ، فقد كان نظام هذه الحافلات الصغيرة ، هو قطع الطريق دون توقف ، عدا استراحات قليلة للوجبات الخفيفة ، حتى لو اقتضى الامر السير مسافة من الطريق في ظلام الصحراء الدامس، ويبدو ان سائق حافلتنا كان مجهدا ، لم يأخذ كفايته من النوم ، واصر على قيادة السيارة دون ان يخضع لدواعي النعاس الذي بدأ يداعب عينيه، وهو يشق بسيارته ليلا دامسا وطريقا امتزج بسواد الليل وذاب في ظلامه، فنام الرجل وهو جالس امام عجلة القيادة ، وتركت السيارة الطريق المعبد، وسارت تمخر بعجلاتها في ارض متربة كثيرة الاحجار والحصى ، دون ان ينتبه السائق او احد من الركاب الذين استغرقوا جميعهم في النوم الا عندما بدات السيارة ترتطم بالاحجار وتقفز مع ارتفاع الارض وانخفاضها تحت عجلاتها، فصحا وصحا معه الركاب يتصايحون ويتساءلون عما حدث، اسرع بايقاف سيارته وقد ابتعدت مسافة عن الطريق الرئيسي، ودون اعتذار ولكن في صمت وخجل، ادار السيارة عائدا بها الى الطريق المعبد، ليواصل الرحلة ، الا ان الركاب سالوه ان يتوقف للراحة لانهم لا يامنون الا يعود الى

النوم اثناء القيادة، ولم نستانف الرحلة الا عندما اهلت تباشير الصباح. وحول اتصالي بشركة البي بي في طرابلس كتبت قصة حملت اسم المجموعة هي "هكذا اتذكر هند" وضمنت هذه المجموعة قصة من وحي الرحلة الى بنغازي بعنوان "فوق رمال الهيشة" ، والهيشة اسم منطقة في الطريق كانت تقام بها استراحة للمسافرين .

كانت الرحلة من طرابلس الى بنغازي في تلك السيارة ، فرصة لان ارى اكبر عدد من المدن والمناطق الساحلية ، التي رايت بعضها في رحلتي سابقة الى مصراته ، والتي تقع على هذا الخط ، مثل القرابوللي والنقازة وجبال مسلاته والخمس وزليطن ، ومصراته التي يقع بعدها ذلك الفراغ الصحراوي المهول ، وهو فراغ لا ينتهي الا في بنغازي ، وتتخلله نقاط لا تكاد تبين على الخريطة ، مراكز حضرية صغيرة مثل سرت وابو نجيم واجدابية ، حيث تظهر بعض الابنية واحيانا اشجار صحراوية متناثرة ، تنتصب بجوار احداها نقطة لاستراحة المسافرين ، وكانت تتكرر كثيرا مشاهد الخيام السوداء ، التي تنتصب في المدى الصحراوي ، وتظهر بجوارها بعض قطعان الماعز والضان ، اما الرعب الاكبر لاي سائق فقد كانت الابل ، لان خطر ان يجد السائق جملا يعترض الطريق ماشيا، او جالسا فوق الاسفلت خطر طالما تسبب في حوادث قاتلة ، وقد انجانا الله في هذه الرحلة من ملاقاة هذا الخطر، واوقفنا حاجز صغير بجوار القوس الشهير الذي ينتصب في منطقة الوسط بين ولايتي طرابلس وبرقة والمسمى الاخوين فيلليني الذي يرسم الحدود بين الاقليمين ، وكان قوسا هائلا عملاقا يهيمن على فضاءات ذلك المكان كانه سقط من سماء الهة اليونان، في قوته وعظمته وجبروته وحجمه الكبير. وفي ختام الرحلة حط بي الرحال في فندق صغير اسمه فندق تونس، قيل انه تسمى بهذا الاسم بسبب ان الزعيم التونسي الحبيب بورقيبة اختاره مكانا لاقامته خلال فترة من الزمان قضاها في بنغازي ايام النضال من اجل استقلال تونس ، ويقع في الشارع الرئيسي بمدينة بنغازي، وهو شارع يتميز بجمال وحلال المعماري الايطالي في اغلب ابنيته ، وطبعا لا تختلف مباني مركز المدينة في بنغازي في ذلك الوقت عن الطابع الايطالي الذي تميزت به مباني مركز المدينة الحديثة في طرابلس ، ممتزجة في اطرافها كما في طرابلس ببقايا الطابع التركي، حيث نجد سوق الظلام في الاثنين وهو الذي نسميه في طرابلس سوق الترك ، رغم ان مدينة بنغازي كانت اصغر كثيرا من طرابلس ، ومياهها كانت مالحة وتكثر في بعض مناطقها المستنقعات االتي ترسل البعوض الى بقية احياء المدينة خاصة في هذا الوقت من العام ، بسبب شدة حرارة الصيف ، ولم تكن تحميني من هجمات (البعوض) الا الناموسية التي تعتمدها الفنادق نظاما في حجرات النوم ، فلابد لكل سرير من ناموسية تحميه من لسعات الناموس، واتصلت صباح اليوم التالي لوصولي بفرع شركة البي بي ، التي قررت لي مكافاة يومية لتغطية مصاريف المعيشة مقدارها جنيه كل يوم ، استلمتها مقدما لتغطي مصاريف الايام العشرة القادمة ، مما اوحي لي بان هذه هي المدة التي تستغرقها اجراءت التوظيف قبل ارسالي الى مقر العمل في الصحراء، ولم يكن ثمة شيء استطيع فعله خلال هذه المدة سوى الانتظار، فكنت اشترى الصحف واجلس في المقهى اقراها، او اقرا كتابا من كتب احضرتها لتكون زادا لي في اقامتي الصحراوية، وكنت لا اتردد في الذهاب الى الشركة يوما وراء الاخر للمراجعة ، دون ان اتلقى جوابا، وامتدت العشرة ايام الاولى الى عشرة ايام ثانية استلمت مكافأتها مقدما، وبسبب ما كنت اعانيه من وحشة وفراغ وقلة في الاصدقاء لانه حتى رفيق رحلتي من طرابلس يبدو انه بعد تسليم اوراقه للجامعة عاد الى طرابلس بانتظار بدء العام الدراسي ، خطر لي ان ادخل صيدلية كبيرة

في وسط المدينة ، كتب فوقها صيدلية المزداوي، لاسال عن صاحبها فهو ابن بلدتي ولعله يعرف شيئا عن بعض اقاربي المفقودين قديما في هذا الاجزاء من البلاد، الا انني ترددت واستنكفت وغلب خجلي على جرأتي وتصورت انه سيظنني اريد حاجة منه ، فتراجعت عن الدخول ، وهو امر اورثني لوم الاهل ، ولوم سيدة من سيدات العائلة كانت قد علمت بذهابي الى بنغازي وتعشمت خيرا عندما اعود الى البلدة ، بامل ان انقل لها خبرا عن والدها وشقيقها بعدما انقطعت اخبارهما في هذا الجزء من البلاد، لانني قلت لها بوجود مثل هذه الصيدلة ، ووقر في نفسها ان صاحب الصيدلية يعرف بالضرورة اخبار اهلها ان لم يكن هو نفسه واحدا من نسل ذلك الاب . وعندما وجدت ان العشرة ايام الثانية تمتد الى عشرة ايام ثالثة ، رفعت صوتي امام اهل الفرع اعبر عن سخطي ، وعن هذا العبث بمصيري، وعن هذا الصمت الذي لا اجد جوابا غيره وانا اسال عن وظيفتي التي جئت مخولا من الفرع الرئيسي في طرابلس لاستلامها، ولم اجد في مواجهة لهجة الاحتجاج والغضب التي تكلمت بها غير كلمات التهدئة تطالبني بالصبر والانتظار فتحملت انتظار الايام العشرة الاخيرة التي قضيتها اعاني من اقصى حالات الضجر، املا ان يتحقق وعد موظفي الفرع بان تكون هي خاتمة الانتظار ، وكانت المفاجاة المذهلة هي وجود عشرة جنيهات ومهلة عشرة ايام اخرى فوق شهر كامل قضيته لا افعل فيه شيئا الا لعبة الانتظار، فاخذت النقود عازما على الا انتظر يوما واحدا وانما استخدمها في تدبير رحلة العودة ، وما احتاجه من نفقات في بدء العودة الى طرابلس ، ووذهبت الى الفندق لتصفية حسابي واخذ حقيبة ملابسي وكتبي، والانتقال بها بضع خطوات الى الكورنيش وفندق النجمي الذي تقف امامه كل السيارات القادمة من مصر ، قاصدة طرابلس ، حيث هناك على الدوام مكان شاغر في سيارة على اهبة الانطلاق الى العاصمة الغربية للبلاد، وكانت هذه المرة حافلة كبيرة ، بها ضجيج وغناء، واسطوانات ام كلثوم ، فبدت الرحلة بين بنغازي وطرابلس كانها عرس متصل استغرق مسافة الف كيلومتر ونيف هي طول الطريق من العاصمتين .

ولم افهم الا عندما عدت الى طرابلس سبب هذا الابطاء في تعييني الذي امتد مدة اربعين يوما، دون فائدة، حيث وضعني خالي محمد التير في الصورة ، فقد كان هناك تنافس بين طرابلس وبنغازي على الفوز بمثل هذه الوظائف المجزية في مرتباتها مع شركات النفط، وراى اهل الفرع في بنغازي، ان الوظيفة التي رشحني الفرع الرئيسي لها، هي من حق شاب من بنغازي، ولا يجب ان يستحوذ عليها الفرع الرئيسي ويرسل لها موظفا من طرابلس ، وانه خلال مدة بقائي عاطلا في بنغازي، كانت المفاوضات تجري بين فرع بنغازي وبين الفرع الرئيسي الذي طالبهم بتمكني من استلام العمل ، وسيتم توفير وظيفة اخرى للعنصر الموعود بمثل هذا العمل من اهل المنطقة نفسها، واستغربت كيف لا يستطيع الفرع الرئيسي تنفيذ ارادته على موظفين يتبعونه ويستطيع تهديدهم بالاقالة والعزل ، فقال لي ان هناك تدخلات من شخصيات كبيرة ، وان موظفي الفرع واقعون تحت تاثير وتهديدات شخصيات في مناصب قيادية، في ادارة العمل والولاية، ووزراءوشيوخ قبائل لهم نفوذ واتصال بالملك نفسه، فلم يكن سهلا التعامل معهم بالمنطق الاداري، الذي يعطي الاوامر حسبت تراتبية الوظائف في الشركة ، ولهذا لم اجد منه لوما على قراري بان اعود الى طرابلس ، ووعدني بانه سيتدبر الامر مع الشركة ، وفي انتظار ان يتدبر الامر ، التقيف في صحيفة طرابلس الغرب ، برجل من اهل الحراك الثقافي والسياسي ، وكان اصدر كتابا عن الاقتصاد التعاوني ،ابدى لي اعجابه بما كان يقرأه لي من خواطرفي الصحف ، وعندما عرف انني حديث التخرج انتظر التعيين ، عرض ان اعمل معه في الادارة التي يتولى ادارتها هي ادارة

الجمعيات التعاونية ، لانها تحتاج الى كاتب مثلي يتولى الاشراف على قسم الاعلام التعاوني ، واعدا بانه سيفتح لي فرصة لتحسين مستواي الوظيفي مستقبلا، ودون كثير تفكير ، وجدت نفسي اوافق على العرض، واتفق معي على لقاء في الخدمة المدنية لانهاء اجراءات التوظيف ، وفعلا التقيت به هناك في الموعد المحدد، ودخلت معه الى مكتب مدير عام الخدمة المدنية بالانابة الاستاذ عمر الجليدي، وسالني صاحب المكتب عن السبب في انني تاخرت كل هذه الامة على الاتصال بالادارة ، فقلت له لانني اردت ان ارتاح خلال اجازة الصيف ، ووجدت ان اجراءات التوظيف لم تأخذ غير ساعة واحدة خاصة وانني كنت قد احضرت معي نسخا من الاراق التي تحتاجها الوظيفة ، ولعلي ذهبت الى مقر شركة البي بي ، وسحبت الملف من هناك، لاقطع كل صلة بها، لاجد نفسي اباشر العمل موظفا حكوميا في ادارة الجمعيات التعاونية ، وهي ادارة صغيرة ، يديرها الاستاذ الشريف القادم من حقل التعليم ، ولعله قضى دورة تدريبة خارج البلاد تتصل بتخصص الادارة ، انجز خلاله بحثه الموجود في الكتاب، يقدم فيه بسطة تاريخية عن الفكر التعاوني ، قبل ان يتحدث عن واقع الجمعيات التعاونية التي يراها تلبي احتياجا محليا ، وتتفق مع مفاهيم موجودة في التراث الليبي وعادات الشعب وتقاليده فيما يتصل بالتعاون والتكاثف الاجتماعي ، ولا ادري ان كان قد اورد في هذا الكتاب ، او في مكان اخر ، ما قراته عن قصة تكليفه بانشاء هذه الادارة ، فقد كتب مذكرة للدولة عن اهمية ان تتبني الحكومة الليبية هذا النوع من الاقتصاد، ووصلت المذكرة الى والي ولاية طرابلس في وقت سابق هو السيد جمال باشا آغا، واعجبته الافكار التي وردت في مذكرة الاستاذ محمد ابوزيد الشريف ، فارسل في طلبه ، ليسمع منه المزيد عن اسلوب تطبيق هذه الافكار في ولاية طرابلس ، وعن اهمية الاقتصاد التعاوني في فك الازمات التي يعاني منها المواطن الليبي في المجال المعيشي ، لانه اقتصاد يحارب الاحتكار، ويعتمد على الاسلوب التعاوني بين المواطنين في حل مشاكلهم ، وكيف تستطيع الجمعيات التجارية الاستهلاكية انقاص التكلفة والربحية ، وكيف تستطيع الجمعيات الزراعية الانتصار للمزارع الفرد وانقاذه من سيطرة ارباب السوق، ولاقى هذا الكلام هوى في قلب الوالي ، لسبب يعرفه الجميع ، وهو تذمر العناصر الوطنية من سيطرة ارباب السوق الايطاليين على مقدارت البلاد الاقتصادية ، وهم جالية بحكم اتفاقيات استقلال ليبيا وما قدمته دول الحماية من ضمانات لهم ، لم يكن ممكنا المس بامتيازاتهم عن طريق تدابير حكومية مباشرة تنال من ممتلكاتهم مثل التاميم او المصادرة، فكان الحل هو انتهاز اية فرصة لتشجيع العنصر الوطني ، وهو ما سمعته من الاستاذ محمد ابوزيد الشريف باعتباره عنصرا وطنيا يهمه صالح المواطن واسعاده ورفع الاذي عنه ، وتم انشاء هذه الادارة التي تتبع حكومة الولاية بهذا الهدف وهذا الغرض ، وعندما استلمت وظيفتي ، كانت هذه الجمعيات قد حققت انتشارا في شتى المناطق خاصة الجمعيات الزراعية التي قام بانشائها صغار المزارعين الليبيين يسوقون عن طريقها انتاجهم وينشئون عن طريقها مراكز توزيع لهم ويتعاونون في شركة للتصدير والاستيراد تابعة لهم ، وجمعيات اخرى استهلاكية بين تجار البقالة والمستهلكين ، وجمعيات اخرى لصيادي الاسماك واخرى لاصحاب سيارات الاجرة ، ومجالات كثيرة ، كان مدير الادارة يسعى لاقتحامها وانشاء جمعيات بها، وكان دور القسم الذي اتولى الاشراف عليه هو اصدار نشرات للتوعية وارشادات ونشرة باخبار الجمعيات . وكان عدد الموظفين قليلا ، والمكان صغيرا في حجم شقة ، بالطابق الارضي من مبنى الولاية ، لا يزيد حجم المساحة عن مائة وعشرين مترا، اخذ منها مكتب مستقل للمدير وصالون خاص به ثلاثين مترا ، وظل الباقي صالة كبيرة بها عدد من الطاولات ، لاربعة او خمسة موظفين، يرأس هؤلاء الموظفين باشكاتب متقدم في السن اسمه احمد دله، قصير القامة يرتدي

البذلة والطربوش ، تفصله بضع سنوات عن سن التقاعد، وسبق ان عمل في الحكم المحلي مديرا لاحدى النواحي ، كان هو الذي رحب بي ، واشار الى طاولة قال انها مكتبي ، وكان مدير الادارة قد شرح لي عملي ووعد باعانتي في بدايته عما سنقوم باصداره من نشرات ومطبوعات، واذكر زميلا كان قد باشر عملا اعلاميا في المساء هو المذيع الاستاذ محمد المصراتي وكان في نفس الوقت زميلا لي في هواية التمثيل وعضوا بفرقة الامل .

ولابد من الاعتراف بداية انني لم اكن واثقا مما هي حقيقة هذا النظام التعاوني الذي دعا اليه السيد محمد ابوزيد الشريف، وتبنته الدولة الليبية ، فهي دولة يحسبها اهل التوجهات اليسارية، ضمن مجموعة الدول العربية الرجعية المرتبطة بدول الاستعمار القديم ، فهل يثق الانسان في نظام اجتماعي واقتصادي تتبناه هذه الدولة، وكنت قد بدأت انصت لافكار تاتي من عالم اليسار والاشتراكية ، يتحدث عنها ويتبناها اصدقاء مثل بشير الهاشمي، وبقية فريق الكتاب الناشئين في فرقة الامل ، ومن سار سيرهم ، وتاثر بهذه الافكار ، وراها هي التي تعبر عن الخط الوطني الشريف النظيف ، وهي التي تقف موقفا صحيحا من التاريخ ، ولم اكن اريد وانا انضم للعمل في ادراة التعاون ان اكون عونا لطرف يناهض هذا الفكر ، وازمتي الان ، اذا كانت حقا ازمة ، هي مدى التوافق والتناقض بين هذا الفكر التعاوني الذي يدعي انتسابا للفكر الانساني المتفتح على المظلومين ، كما يريده الاستاذ الشريف حربا على عناصر الاحتكار والهيمنة من ابناء الجالية الايطالية ، وبين الافكار والنظريات الاشتراكية ، كان هذا السؤال هو الذي سيطر على ذهني وانا ابحث عن اجابة في الكتاب الوحيد المتوفر في السوق عن التعاونيات ، وهو الذي قام بتاليفه الاستاذ محمد ابوزيد الشريف ، واهداه لي ، ورايت شيئا من الريبة يتسلل الى نفسي وانا اقرا التصدير الذي اختاره المؤلف لكتابه، فقد اختار مقولة لرائد من رواد الفكر التعاوني محتواها " اننا نريد ان نبني عالما يسعد فيه جميع الناس بما في ذلك الاغنياء" ووجدت ان في مثل هذا الكلام انحرافا عن مبدأ الصراع الطبقي الذي تنادي به النظريات الاشتراكية ، خاصة الاشتراكية العلمية التي يتبناها الماركسيون ، والتي تجعل الاغنياء ضمن معسكر اهل الاستغلال في مواجهة معسكر المستضعفين من عمال وفلاحين، او طبقة البرولوتاريا كما تسميها النظرية الماركسية .

لا ادري ان كنت قد راجعت الزملاء في مثل هذه الحيرة ، ولكن الامر بالنسبة لي ، هو انه جهاز اداري من اجهزة الدولة الليبية التي يعمل فيها كل الناس بمختلف اطيافهم الفكرية والسياسية ، وانا مثلهم اعمل فيها موظفا من اجل كسب الرزق ، وبشير الهاشمي نفسه يعمل ضاربا على الالة الكاتبة في مصلحة الاوقاف، بكل ما لديه من تحفظات عليها وما يحمله من ازدراء لممارساتها ، التي يراها عتيقة قديمة مليئة بالقوالب الجامدة والافكار المحنطة ، واساليب في العمل مجلوبة من عصور سالفة ، ولا يتحدث عن مصلحة الاوقاف الا بلغة السخرية والتندر، وكانت اخر النوادر التي نقلها الينا ، انه وجد على قوائم الموظفين الذين يتقاضون راتبا يوازي راتبه حمارا، مما جعله لا يرى نفسه في وظيفته بمصلحة الاوقاف الا صنوا لهذا الحمار ، وسبب وجود الحمار على قوائم المرتبات ، انه حمار يعمل في جامع تابع للاوقاف في احدى قرى الجبل الغربي، والجامع يحتاج الى ماء ينقله هذا الحمار من عين جبلية ويجتاز اليها مع صاحبه طرقا ذات خطورة ، فتقرر منح الحمار راتبا مضافا اليه عليه خطر، ليجلب ماء الوضوء والاغتسال للمصلين . ومع ذلك ، وبرغم كل هذه الاعتراضات ، فهو راض بالعمل في هذه

المؤسسة التي تعامله مثل معاملتها للحمار، واكثر نكاية من زميلنا الهاشمي ، مدير فرقتنا عبد الحميد المجراب الذي يعمل موظفا في احدى قلاع الاقتصاد الرأسمالي وهو بنك باركليز البريطاني نفسه، فكيف اتردد في قبول وظيفة تتوافق مع حبي للصحافة ، وتنقذني من التعامل مع الارقام في مصرف من المصارف، او في قسم مالي ، وهو غالبا ما كان سيحدث لي اسوة بكل الزملاء باعتبار ما تحصلنا عليه من دبلوم في هذا التخصص المالي التجاري.

كان اصعب ما واجهني ليس العمل واستحقاقاته، بل ساعات الدوام نفسها التي سرعان ما تمردت عليها وارغمت الادارة على التعامل معي رغم هذا التمرد، فهناك سجل يحمل اسماء موظفي الادارة، وعلى الموظف ان يضع توقيعه في ساعة الحضور لدى بدء الدوام ، والتوقيع في نهايته، وهناك فترة سماح لا تزيد عن ربع ساعة يقفل بعدها السجل ويقدم الى مدير الادارة ، ومن لم يصل خلال تلك الدقائق ، يتم اعتباره في عداد الغائبين ممن يستحقون توجيه رسالة انذار، او عقوبة الخصم من المرتب. وطبعا التزمت بهذا الروتين، رغم صعوبته ، لان الليل صار بالنسبة لي ، ومنذ ان صرت التزم بالكتابة للصحف هو موعد الكتابة والقراءة، وكنت التزم ايضا بالتوقيع في نهاية الدوام الا انني بين التوقيعين ، كنت اجد عذرا للخروج بحجة انني ساراجع احدى الجمعيات او انني ساكتب مادة تستحق مراجعة المكتبة ، او غير ذلك من ذرائع، تتيح لي فرصة للفسحة والجلوس في المقهي وفي قاعة المطالعة بميدان الشهداء. ولم اكن عاجزا عن الوفاء بالالتزامات العمل رغم هذه الفسحة وهذا الهروب الدائم من اجواء المكتب ، وهو عمل يتركز في نشرة عن الجمعيات اكتب مادتها احيانا اثناء الليل ، حيث اجد نفسي اكثر لياقة من ناحية الفكر وصفاء الذهن ، رغم انني اعتمد على مراسالات تاتي من الجمعيات وعلى اوراق اتلقاها من مدير الادارة مما ساعدني تدريجيا على ان اتوقف عن التوقيع في الحضور والانصراف تحت ذريعة ان العمل الصحفي الذي اقوم به يجب ألاّ يخضع لروتين العمل الاداري. لقد صرت الان احصل على مرتب ثابت ، وصاحب وظيفة رسمية في الحكومة ، وهو راتب اخصم جزءا منه للاسرة في مزده، اذ ان هذه هي اللحظة التي ينتظرها والدي لكي يتفرغ للجامع والعبادة وقراءة القرآن، وان يترك الدكان الذي قام بتصفيته وتاجيره بكراء زهيد، لانه صار واثقا الان ان هناك دخلا ياتيه في نهاية كل شهر ، مهما كان ضئيلا فانه يكفي لحياة الزهد والكفاف التي يعيشها الناس في تلك الواحة الموغلة في الصحراء. الا ان المبلغ الزهيد اصبح كبيرا بعد فترة وجيزة، فقد صرت ارسل له المرتب كاملا وهو ما يقرب من اربعة عشر جنيها ، لانني استطيع تامين باب يومي في الاذاعة ، وفي برنامج صباح الحير ، فقرة يومية قدمتها في موسم من المواسم بعنوان مجرد راي ، وقدمتها في مواسم اذاعية اخرى بعنوان حكمة الاجيال ، حيث كنت اعتمد على مثل او قول مأثور او بيت من شعر الحكمة ، واجعل الحديث تعليقا على هذا القول او هذا البيت ، باعتباره مادة تختزل حكمة الاجيال وتضيء جانبا من عالم المعاملات والقضايا التي تواجه الانسان في حياته ، وكانت قد اخذتني حمى الكتابة وانا في سن الصبوات والحماس وتدفق الدم بقوة في الياف المخ ، فصرت ايضا اكتب بابا يوميا لصحيفة طرابلس الغرب اسمه لا تسرع الخطى، اشبه باليوميات، او الملاحظات التي اسجلها تعليقا على ما يعرض في مسيرة كل يوم ، ورايت اهتماما بما اكتب ليس فقط من الدائرة الصغيرة من الاصدقاء، وانما من دائرة اكبر تضم رجالا كبارا في الحكومة صاروا يلاحظون كتاباتي ، وحدث ان ذهبت لتسليم ما اكتبه من مادة يومية الى الاذاعة وبالذات للاستاذ عبد

العزيز الرحيبي نائب المدير، فاذا به يبلغني بان المدير الاستاذ صالح الشنطة ترك لديه توصية بان امر عليه في مكتبه ، وعندما ذهبت اليه وجدته يخرج من مكتبه يرحب بي ، ويهنئني على نجاح الباب الصباحي الذي اكتبه ، ويقول لي بان المسئول الاعلى للاذاعة والاعلام في ذلك الوقت الاستاذ احمد فهمي الهمالي ابدى اعجابه بما قرا لي في الصحف وما سمع في الاذاعة ويريد ان يراني ، وكان السيد الهمالي قد تولى هذا المنصب مع مجيء صديقه السيد محمد عثمان الصيد لرئاسة مجلس الوزراء عام 1960 ، ومعروف انه يقرب السيد الهمالي ويتخذه مستشارا له ، وقد نال هذه الحظوة لدي السيد بن عثمان من امد بعيد كان فيها السيد بن عثمان يتلقى دروسا خصوصية من السيد الهمالي يستكمل به نقصا في تعليمه الذي اقتصر على ما قضاه من سنين في مدرسة قرآنية ، وكان السيد الهمالي قد جاء الى الوظيفة الادارية من حقل التعليم ، مثله مثل زميله السابق في التعليم صالح الشنطة، ويبدو انهما تزاملا في احدى المدارس باعتبارهما ينتميان الى منطقة واحدة فالاستاذ الشنطة من الزنتان بينما ينتمي السيد الهمالي الى غريان عاصمة الجبل الغربي ، وهو ما يفسر سر تعيينه مديرا للاذاعة ، دون ان يكون في ذلك انتقاص من مكانته فهي وظيفة يستحقها الشاعر والمربي الفاضل صالح الشنطة، وكان سليل عائلة من عائلات العلم والجهاد، وشاعر له باع في قرض الشعر الفصيح والعامي وله اغان مشهورة يتغني بها المطربون مثل تلك التي يغنيها المطرب محمود الشريف وتقول كلماتها، خطم حفني شيع عيونه فيا، سلمت ما رد السلام عليا ، تلحين الموسيقار كاظم نديم، المهم ان الاستاذ صالح بعد ان قال هذا الكلام اضاف بانه سيحدد لي موعدا للقاء الاستاذ الهمالي، ومن فوره رفع سماعة التلفون، وحدد لي موعدا مع الرجل الكبير، وفعلا ذهبت اليه في الموعد المحدد، وقد اتخذ لنفسه مكتبا في الابنية ذات المعمار الايطالي التي تطل على البحر وتقع قبل مبنى الاذاعة، وكان مكتبا يتميز بالاتساع والفخامة ، فدخلت اقطع مساحة المكتب وقد بدا لي الرجل بعيدا، تلمع صلعته تحت مسقط الضوء القادم من نافذة قريبة ، وقف خلف مكتبه بانتظار ان اقطع المسافة اليه، مديد القامة يكاد يصل براسه الى سقف الغرفة ، وجلس يتحدث بود وحميمية، وخاطبني كانني ند له رغم فارق السن والمقام، او كانني من اصحاب الراي والمشورة ، ويصارحني بما يحمله من عتاب لاناس في الصحافة ينتقدون الاذاعة، ولا يفهمون ظروفها ، مثل انتقادهم لاستخدامها نساء في الفن خاصة في الكورس الذي يردد الغناء مع المطربين في قسم الموسيقى، ويتهمون هذه العناصر بسوء السمعة، ولا ادري ماذا يريدون من الاذاعة ان تفعل، ان هناك شرطة لحماية الاداب العامة معنية بملاحقة المنحرفات، ولن تستطيع الاذاعة، وهي تستعين بفتاة في الكورس، ان ترسل من يلاحقها في بيتها او في الشارع لترى ماذا تفعل؟ ولم نستعن باي عنصر ، رجلا كان او امراة الا اذا احضر شهادة خلو من السوابق، فاجبته بانني لا اذكر انني جئت في كتاباتي على سيرة هؤلاء النسوة ، فقال انه لا يقصدني ولكنه يتكلم حديثا عاما، وقد انقل عنه مثل هذا الكلام لبعض اعضاء الوسط الصحفي فهؤلاء النسوة قد يرفعن قضايا على المتقولين عليهن وعلى الاذاعة وعندئذ لن يلوم هذا الصحفي او هذه الصحيفة التي نشرت مثل هذا الكلام الا نفسه او نفسها. ودعاني قبل نهاية اللقاء بالحاح، ان اكتب مادة لمجلة الاذاعة ، التي تم انشاؤها حديثا، على يد الاستاذ محمد بشير الهوني ، وكان في ذلك الوقت رئيس تحرير لها، ولكنني تاخرت في كتابة المادة حتى انتقلت رئاسة تحريرها من بعده الى الاستاذ محمد ابوعامر، عندما وجدت الوقت لاكتب مادة صحفية لمجلة الاذاعة، اخذت وقتا طويلا في اعدادها، وجعلتها مادة منوعة ، فيها مقابلات مع اهل الفن ، وطرائف حصلت لهم ، جعلت منها ومن قضايا اخرى بابا اسميته قصة وراء هذه الاغنية ، اذكر انه من بين هذه القصص حديث للفنان كاظم نديم

عن كيف وقعت في يده كلمات اغنية سافر مازال عيني تريده، وكيف اختار المطرب سلام قدري لغنائها، وتحدث في باب اخر المذيع حسني صالح عن موقف عصيب حصل له عندما اندلق كوب الشاي فوق نشرة الاخبار التي حان وقت قراءتها، وطمس بعض الاسطر، وكان عليه ان يرتجل تلك الاسطر ارتجالا، وغير ذلك من مادة تتصل بعمل الاذاعة ، واقسامها غناء وتمثيلا ونشرات اخبار، وصنعت منها ملفا ذهبت به لرئيس التحرير الصديق محمد ابو عامر، قائلا له انني كتبت هذه الملف بتكليف من السيد احمد فهمي الهمالي ، فاخذ الملف يقوم بتقليبه وملامح وجهه تتقلب مع تنوع المادة الموجودة في الملف وابدى اعجابه بها وامتنانه لهذا الجهد الذي قد يعجز على القيام به فريق من المحررين ، وابلغني انها مادة غزيرة قد لا يستوعبها عدد واحد ، في مجلة تصدر مرة كل اسبوعين، فقلت له انني كتبت ما كتبت، وله ان ينتقي ما يشاء للنشر في اي عدد يشاء ، وتركته مع الملف ، لانتظر ماذا يصل منه الى النشر في العدد القادم، ولكن رئيس التحرير، راى ان لا حاجة به لان ينشر من ذلك الملف شيئا لا في العدد القادم ولا في العدد الذي يليه ، وكفى الله رؤساء التحرير شر القتال ودخول المعارك مع ادباء ناشئين، يريدون الاستحواذ على صفحات المجلة بكاملها. وكنت اعرف اصدقاء سيجعلونها قضية ذات اهمية تستحق ان ينشغل بها الراي العام عندما يحجب لهم المحرر مقالا، ولكنني لم اكن اعبا اطلاقا بما ينشر او لا ينشر ، ولم اكن اخلق مشكلة لاي انسان اعترض في نشر شيء لي ، ليس فقط مقالة ، بل يحدث باعتباري اتولى الجانب الصحفي في الجمعيات التعاونية واتولي الجانب الصحفي فيما تقدمه الفرقة التي انتسب اليها من اعمال مسرحية ، اذهب الى الصحيفة بعشم ان اجد دعما من الاصدقاء بنشر خبر احرره عن الادارة التي اعمل بها او عن الفرقة التي انتسب اليها والعمل المسرحي القادم الذي تسعى لعرضه ، وكنت احيانا اجد قبولا حسنا لنشر هذه الاخبار واجد زميلا او صحيفة تعرض على النشر ، فلا يرى هذا الصديق الذي رفض التعاون ، اي غضب او احتجاج مني، وطبعا تكثر في الوسط الصحفي كلمة المؤامرة والتآمر ، وان هذا يتامر ضد هذا او يحجب مقالته او يعمل على تصغير شانه او يقوم بكتابة اسمه ببنط صغير على ما يكتبه من مقالات ، ولكنني اطلاقا لم ادخل في اسواق الكلام العاطل الذي يجعل من شتم الزملاء بضاعة للترويج عندما يتصل الامر بمقال او خبر رفض احد المسئولين نشره، لانني اراه اضاعة لوقت من الاحرى ان اصرفه في كتابة مقال جديد، وقد لا اجد مشكلة في تصريف المادة التي حجبت او رفضت احدى الصحف نشرها ، وهذا الملف الذي رفضت مجلة الاذاعة نشره ، لم يلبث ان وجد طريقه الى النشر في ابواب احررها لصحف اخرى ولم افعل ذلك حرصا على مادة كتبتها، ولكن حرصا على فنانين وزملاء، اجريت مقابلات معهم وباحوا لي بشيء من اسرار عملهم، منتظرين ان ترى النور، فكان واجبا احتراما لهم ان اصل بها الى النشر، وهكذا كان لابد للفنان كاظم نديم ان يرى القصة التي رواها لي منشورة، وكان لابد للمفارقة التي حصلت للصديق المذيع حسني صالح وما ابداه من لباقة وحسن تصرف في الخروج من المازق، ان يرى ذلك كله منشورا كما وعدته.وهناك نقطة في سلوكي يحسن ان افصح عنها منذ الان ، وهي قضية التعامل مع المال ، فللحقيقة اقول ، انه اطلاقا لم يكن في يوم من الايام حافزا او دافعا او عاملا استخدمه في تحديد علاقتي بالاشياء، وكتبت اول ما كتبت لصحف كثيرة دون ان اتقاضي مليما، وعندما جاءت المكافاءات لم يكن استخدامها مسطرة للتعامل مع الصحف او عدم التعامل معها ، واشتغلت عاشقا للمسرح، ولم انتظر ان احقق من ورائه منفعة، ولم اسخر جهدي لان انتفع منه، حتى عندما حانت فرص لهذا الانتفاع، ونعم لحقيقة ان المال عصب الحياة، واهلا به اذا تيسر امر مجيئه طبيعيا، دون تعقيد او التواء في الحصول عليه، واهلا بالمرتب اذا ارتفع او تضاعف بحكم الترقية والتقدم

في الوظيفة ، واهلا بمكافاة تقررها الدولة لمقالة او قصة انشرها في الصحف او الاذاعة، لكنه لم يكن في يوم من الايام هاجسا فالهاجس الذي يملا ذهني هو ماذا اكتب لا ماذا اتقاضى عما اكتبه ، وماذا اعمل بالنسبة لفن اواعلام اوادب اوعمل اجتماعي وليس ماهو العائد منه ، اطلاقا اطلاقا ، وقد ظل هذا هو دافعي وحافزي طيلة حياتي ، كنت طبعا اعيش في حدود ما اكسب وارتاح لانني لا اعاني ضائقة ما ، ولا اعانيها لانني لم اتطلع يوما الى الحياة خارج اطار ما هو متوفر من امكانيات ، وماكان يهمني هو انني لا اجد صعوبة وانا اجلس في مقهى في ان ادفع ثمن فنجان القهوة، اواقف على بائع صحف فلا اجد صعوبة في دفع ثمن الصحيفة،ومهما تطور مستوى الدخل ، وتطورت مستويات الوظيفة ، فقد ظل تعاملي مع المال محكوماً بهذا الفهم ، لا اجعله هدفا ولا مقياسا ولا دافعا ، دون ان اسعى للحياة في ضنك، وانما بالعكس من ذلك احب ان اكون مرتاحا في حياتي ، وان اجد اسرتي في راحة واهلي في راحة ، وعندما ياتي هذا اليسر في الدخل ، كما يحدث عندما يجد الموظف نفسه مبتعثا يتعامل بحكم لائحة العمل الخارجي ، فانني بعكس من اجدهم يعملون معي ويعتبرونها فرصة للادخار ويعيشون في لندن باسلوب معيشتهم في قريتهم، فانني بالعكس من ذلك اصرف كل مليم اتقاضاه على نفسي واسرتي، وانهل من منابع الثقافة والترفيه التي يتيحها البقاء في عاصمة من عواصم العالم الغربي مثلا ، ولا اتردد في الذهاب الى المسارح واستخدام وكالات السياحة تنقلني وتنقل اسرتي معي الى اماكن الاستقطاب السياحي ، فلا القى بالا للاذخار ولا للمال الا في حدود ما يضمن لي العيشة الراضية التي اريدها ، ولا ارضى اطلاقا ان اطلب مالا ليس لي ، ولا اصرف فوق حدود إمكاناتي، واعرف انني لو كان هناك بجواري جبل من الذهب، متاحا لي ان اخذ منه شيئا ليس حقي في غيبة الرقابة ، فاني لن المس ذرة واحدة منه ، ليس حرصا على ذلك المال، ولكن حرصا على نفسي، لاني اعمل بحكمة السيد المسيح التي تقول وما اهمية ان اكسب العالم واخسر نفسي، واعرف انني اذا لمست ذرة من ذلك الجبل لا حق لي فيها، فقد خسرت شيئا من نفسي احرص على ان احتفظ به، ولا اخسره لان هذا الجزء لن اجد له تعويضا، ولا وجود في السوق لمكان يبيع قطع الغيار للضمائر التي لحقها العطب او الخراب ، هذا مع المال ، نقطة ثانية تتصل بالاكل ، وهي انني فعلا نشات في بيت اثناء طفولتي، وبيئة يعيش اهلها عيشة الكفاف والتقشف في ماكلهم ، ولا ادري ان كان هذا الزهد في الطعام جاء من هذه التربية ، ولكنني لم التفت يوما من الايام الى الطعام، الا باعتباره احتياجا ضروريا للحياة ، لابد منه ، ولا يعنيني اطلاقا الكيفية التي اسد بها هذا الاحتياج ، المهم ان اسده بشيء ترومه نفسي، ولا اقول انني ابحث على ان يكون باذخا او شهيا ، بالعكس فكلما كان سريعا وادي المهمة باسرع وقت، كلما كان ذلك احسن ، لانني مثلا اريد وانا استغرق في قراءة كتاب مثلا ، وجاء وقت الغذاء، فالحرص كل الحرص يكون دائما على انهاء المهمة، وليس ماهو الغذاء وكيف يكون، ولو وصل العلم الى وجبة تكون متاحة للناس في الاسواق، كتلك الوجبات التي يقتصر تحضيرها على رواد الفضاء، وهي ان تكون الوجبة غداء او عشاء او فطورا، مجرد حبة واحدة تتوفر فيها كل مقومات الغذاء، لما سالت عن شيء غير هذه الحبة ، ولهذا فان الاكل لم يشكل بالنسبة لي هو ايضا هاجسا، يجعلني ابحث عن اطايب الاكل، واجرى خلفها او الاعتناء بتحضيرها ، واقول، بعد ان قلت هذا الكلام، لا يعني ذلك اطلاقا، انني لا استمتع بطعام فاخر اجده امامي ، ولا اطالب عائلتي بان تعيش عيشة الكفاف، كما كانت ظروف الفقر تحتم علينا في ماضي حياتنا في قرية مزده ، ابدا، اهلا بالطعام اللذيذ الفاخر اذا كان موجودا ، ولكنني لست اطلاقا من الذين يحرصون على وجوده، او يانفون من تناول اي اكل تستسيغه المعدة ، وكنت لاعوام كثيرة اكتفي في وجبة العشاء بشيء من التمر واللبن، حتى

اضطررت بسبب مرض السكر، ان اتخلى عن هذه الوجبة المحببة الى نفسي، واستعيض عن التمر بشيء من الاجبان، مع شيء من الياغورت او غيره، من اكل غير ذلك الذي يطهى على لهب النار ، واذكر انني عشت في الخارج دون ان تكون معي عائلتي، ووجدت في هذا البلد الاجنبي الذي لا يعتني بذبح اللحوم، ان هناك اطباقا من البازلياء والفاصوليا الخضراء بلا لحم، تباع مطهية في الاسواق، فجعلت غذائي يقتصر لاشهر كثيرة على وجبة من احدى هذه الخصروات التي اتناولها مع الخبرز واجد فيها احب غذاء اتناوله، ويوفر لي ما احتاجه من سرعة، فهو ياتي من السوق جاهزا واقوم بتسخينه في دقائق قليلة، ولا تاخذ من الوجبة اكثر من سبع دقائق اعدادا واكلا . بالنسبة لي كان هذا هو ما اريده لطعامي ولكن طبعا وجودي ضمن اسرة تريد ان تجتمع حول المائدة ليس ففط لضرورات الطعام وانما لضرورات اخرى، تربوية واجتماعية، تعود بالعافية النفسية على كل الاطراف، فلم اكن اريد ان اعزف نغمة نشاز في هذا الهارموني العائلي .

لا ادري ما الذي استوجب ان ينشأ خلاف في وجهات النظر بيني وبين مدير فرقة الامل، الزميل والصديق عبد الحميد المجراب ، فقد كنت اقوم بواجبي كاملا مع الفرقة ، وقمت بادواري في مسرحيات المتشرد وظلام في الظهيرة واولاد الفقراء بكل اجتهاد ومثابرة ، ورغم انني نسيت بعض اسطر الحوار وانا اقوم بدور مع الصديق عبد الله هويدي، وكان يمثل دور الاب وانا دور ابنه، الا ان العرض انتهى تلك الليلة بنجاح واستطعنا تعويض الحوار بكلام ارتجالي يغطي فراغ الاسطر المعنية ، وبجوار ادواري في المسرحيات كنت اقوم بدور مدير الدعاية، واسعى لان انشر في الصحف اخبار العروض، واعتني بتحضير اللوحات التي تحتاج الى خط ورسم، ساعيا للبحث عمن يقوم بالرسم والخط ، وقد اذهب لهم في بيوتهم ، واشترى احيانا من جيبي الخاص الورق المقوى واقلام الحبر الشيني والالوان، وغير ذلك دون ان انتظر تعويضا ولا جزاء ولا شكورا، ومع ذلك حصل هذا الخصام، الذي جعلني امتنع عن الذهاب الى الفرقة ، وفي فترة الخصام ، جاءني صديق، كان زميلا لي في معهد هايتي وشريكي في تحرير صحيفة الامل، اسمه الازهري الهاشمي، وقال لي ان لديه زملاء يعملون معه، واظنهم كانوا جميعا ممن ينتظمون في العمل في قصر الولاية الذي اعمل فيه ، يريدون الاستعانة بي للانضمام لفرقة التمثيل ، فالتقيت بهم ، وتم الاتفاق على انشاء فرقة جديدة، جعلت اسمها فرقة المسرح الجديد، وكانت ادارة التعاون تتبع لادارة اكبر هي الشئون الاجتماعية ، المسؤولة عن اصدار التراخيص للجمعيات ، فاستعرت من هذه الادارة نموذجا لقانون انشاء الفرقة ، وحررت طلبا باسم المؤسسين الذين حمل الطلب اسماءهم مع اسمي ، وكنا ثلاثة اشخاص، ودعونا هذه المجموعة وعدد من اصدقاء اخرين لاجتماع في فندق صغير قريب من باب البحر ، كان يسكنه صديق من بنغازي، واعتبرناه اجتماعا تاسيسيا للفرقة ، وجعلوني مديرا لها وجعلوا عددا ممن شاركوا في التاسيس لجنة مديرة مؤقتة، وعهدت لي مهمات التسجيل والبحث عن مقر والنظر في العمل المسرحي الذي نبدأ به اعمالنا. ولم يكن احد يستطيع دفع اي نقود في هذه المرحلة ، وكل ما قد نحتاجه من مصاريف للتاسيس كانت قروشا قليلة اتطوع بدفعها، وامري لله ، وتم نشر اخبار عن الفرقة الجديدة التي اقوم بتاسيسها ، بعد ان اخطرت فرقة الامل بانسحابي من عضويتها، بسبب انني في سبيل انشاء فرقة جديدة، مع عدد من الاصدقاء، وفوجئت بوجود اعلان مدفوع الاجر ، منشورا في احدى الصحف ، صادرا عن فرقة الامل للتمثيل ، تعلن فيه اقالة احمد ابراهيم الفقيه واعتبار عضويته لاغية .

وهو امر اغاظني قليلا، دون ابداء اي رد فعل ، وانما حفزني لان اجتهد في البحث عن مقر، ولا ادري كيف وصل الى سمعي ان هناك ناديا ادبيا كان له نشاط ، وقد توقف النشاط منذ سنوات، وظل المقر مغلقا في باب الحرية ، قريبا من قوس الصرارعي، وسالت عن المسئول عن النادي ، فعلمت انه الكاتب والشاعر، الشيخ الكفيف الاستاذ عبد السلام محمد خليل، وكان رجلا معروفا بكتاباته في صحيفة الرائد واحاديثه في الاذاعة ، فسالت عن بيته ، وكان شقة في احدى بنايات باب الحرية ، حيث ذهبت اليه وفاتحته في امر الفرقة المسرحية التي أسهمت في تاسيسها وعشم اعضائها في ان يستضيفهم في مقر النادي الادبي طالما انه متوقف عن القيام باي نشاط، ووجدت منه ترحيبا بالفكرة ، وسالني مهلة يوم او اثنين، لاستشارة بعض الناس ، وعدت اليه حسب الموعد فوجدته يرسل معي شابا يسلمني البيت ومفاتيحه، ووجدت مكانا مدهشا وتأثيثا رائعا، وكان المقر يحتل بيتا من طابقين، وهناك صالة كبيرة في الطابق الاول وعدد من الغرف الاخرى متوزعة بين الطابقين ، ومكاتب وصالونات ومطبخ مجهز بكل ما يحتاجه المطبخ الحديث ، جعلناه بوفيها للفرقة ، وعدت اسال الشيخ ان يرسل لي الشاب الذي سلمني المفاتيح وذهب، لاقوم بجرد محتويات المكان بحضوره، واجراء عملية تسليم وتسلم حفظا لحق الشيخ وحق النادي ، فقال ببساطة انه ليس بين الخيرين حساب، وانه يثق بي ولا يرى حاجة لمثل هذا الاجراء. وكان يوم تدشين النادي باعتباره مقرا لفرقة المسرح الجديد، عيدا دعينا اليه كل من نعرف من اهل الفن والصحافة والاذاعة وباقل قدر من التكاليف ، ثمن زجاجة من رحيق الرمان للشربات وبعض شاي وقهوة وسكر وطبق او اثنين من الحلويات الشرقية ، ولم نكن نملك ترخيصا للفرقة ، ولم نسال عن ترخيص النادي ، وصرنا نعمل باعتبارنا فرقة تحت التأسيس.

وكان الحصول على مقر فرصة لان نبدأ التفكير في العمل الذي نستهل به نشاطنا، وكان فكري يذهب لشيء يتناسب مع اسم الفرقة ليكون الاسم تعبيرا عن المضمون ، اي عن شيء يتصل بروح التجديد، ويدل على توجه الفرقة وطموحها في الا تكون تكرارا واجترارا لما هو موجود وانما لاضافة لمسة ابتكار وحداثة للمشهد المسرحي، وكانت مطالعاتي في المسرح قد قادتني الى وجود مسرح يحتفي به العالم هو ما يسمى مسرح العبث ، وان درة هذا المسح هو مسرحية قرات عنها ولم اقرأها اسمها في انتظار جودو التي اصدرت احدى الدوريات المسرحية ملحقا بترجمة لنصها ، تاليف الكاتب الايرلندي صمويل بيكيت، ففرحت بهذا الملحق وقرات المسرحية ورايتها اصلح نص ندشن بها فرقتنا، ولكنها مسرحية طليعية محدودة العناصر، والفرقة استقطبت بحمد الله اناسا من مختلف المجالات الفنية ولابد من نص يستوعب هذا الزخم غير مسرحية في انتظار جودو، فقد توافد للتسجيل في الفرقة هواة للمسرح والغناء والموسيقى والتراث الشعبي مثل ابناء العجيلي ، وكانوا جيرانا للفرقة ، وجاءنا من عائلة عمران الشهيرة بمعرفتها بالتراث ، ابراهيم بن عمران ، وكنت قد تعرفت عليه عندما كان عضوا في فرقة الامل ، وانضم الينا، ومن الممثلين الكبار في السن المنشقين عن فرقة الامل على مختار الحاراتي ، ومصطفي كريمة ،وعهدنا بالديكور الى شباب كان من بينهم محمد لطفي فرحات الذي اصبح فيما بعد رئيسا للجامعة وتولى احدى الوزارت في الثمانينيات، وكان ابناء العجيلي في مطلع الشباب جاءوا هم ايضا مع ابن شارعهم ابوعجيلة محمد حركات الذي شق طريقه في مجال التلحين، وجاء الممثل الكوميدي والمنولوجست كامل الفزاني ، وبسبب اصدقاء من هواة الموسيقى ظهرت فكرة ان تحتوي الفرقة جناحا للموسيقى وانضم الينا مطرب كان قد بدا يصنع شهرته في الاذاعة من عائلة الجزيري هو الاستاذ محمد

الجزيري، شقيق كل من سلام قدري المطرب الاشهر في ليبيا و قائد احدى فرق المالوف والموشحات عبد القادر الجزيري، وتبعه عدد من هواة الغناء منهم خالد سعيد ومحمود كريم ومنير عصمان وسليم الحجاجي ، شقيق المطرب عامر الحجاجي الذي اشتهر باسم احمد فؤاد، وقد اصبح سليم فيما بعد ضابطا في الجيش له معارك ومواقف ووصل الى رتبة عميد في الجيش العراقي قبل ان يسهم في المعارضة ضد نظام الطاغية، وقد عهدنا الى زميلنا كامل الفزاني ، مهمة الاعتناء بالعنصر النسائي لانه كان على اتصال بقسم التراث في الاذاعة واستقطابه لبعض المشاركات في المجموعة الصوتية، فاستطاع استمالة بعضهن للحضور الى الفرقة ، ولم يكن غريبا ان يشجع هذا الحضور لبعض العناصر النسائية تدفق مزيد من هواة المسرح للتسجيل للفرقة ، ليس فقط لارضاء الميل الطبيعي لان يختلط الشاب بالفتاة ، ولكن لان فرص العمل والنشاط وتقديم الاعمال المسرحية مع فرقة لا تنقصها العناصر النسائية ستكون اكثر وفرة في مثل هذه الفرقة، لانه كان طبيعيا ان تبقى الفرقة من فرق الهواة لمدة عام وعامين وثلاثة اعوام لا تقدم عملا مسرحيا واحدا، وفعلا كثرت اعداد الاعضاء حتى اصبحت فرقة المسرح الجديد في قوس الصرارعي اشبه بخلية نحل، وكنا ما زلنا نتدارس الافكار عما يمكن تقديمه ويكون قادرا على استيعاب هذه الاعداد الكبيرة من الهواة وتنوع اهتماماتهم، واستقر الرأي على ان نعود الى ذلك التقليد القديم، ربما بسب وجود هذا العدد الوفير من هواة الغناء والموسيقى، وهو عرض فني يتكون من اعمال موسيقية ودرامية ، وهي صيغة تساعدني شخصيا على تقديم قصيدة الزوج القتيل التي اتقنت تقديمها ضمن العرض القادم للفرقة ، ولكن هذه القصيدة ليست بديلا لعرض مسرحي متكامل ، يكون هو المتن والاساس في ليلة العرض ، واثناء مداولاتنا في مثل هذا الشأن، وجدت شابا من اعضاء الفرقة ، اسمه احمد، يقدم لي مشروع عمل مسرحي لا تزيد مادته عن اربع صفحات ، من تاليفه ، وكدت ارد عليه وريقاته، لان ما نفكر فيه عملا مسرحيا يقضي سهرة كاملة ، وليس اسكتشا فكاهيا او مشهدا ساخرا، كما خمنت ، ولكنني مجاملة للشاب ، تفحصت الاوراق والمادة التي احتوتها ، فاذا بها ليست كما ظننت ، وليست بالطبع عملا مسرحيا متكاملا ، وانما اشبه باقتراح لمسرحية تدور احداثها عن جهاد الليبيين ضد الاستعمار الايطالي، فاوحت لي هذه الصفحات بفكرة ان يكون العمل الاول للفرقة، عرضا مسرحيا من وحي النضال الليبي، نقدمه تحية تقديرا واعترافا بالفضل لاسلافنا من ابطال معارك التحرير ، وبدانا فعلا العمل في شبه ورشة للتاليف الجماعي ، الذي اسهمت فيه بالجزء الاكبر، وجعلنا المشهد الاكبر في المسرحية هو محاكمة عمر المختار لما تحمله من الدلالات والمعاني ، ومثل دور عمر المختار الاستاذ علي مختار الحاراتي ، ومثلت شخصيا دور المدعي العام الايطالي ، وصرنا نعمل بالتوازي مع فرقة الموسيقى ، وقد صار اعضا ء فرقة الموسيقى بالاذاعة ياتون ليلا لاجراء التمارين في الطابق الثاني ، لاغان كان يؤديها محمد الجزيري، ومنولوجات يتدرب عليها زميلنا كامل الفزاني ، وفقرة استعراض راقصة بطلتها فنانة من اللواتي جاء بهن السيد كامل اسمها الحقيقي "قبلية" واعطيناها اسما فنيا هو "وردة"، وكان العمل يجري على قدم وساق ، عندما دخل الفرقة رجلان غريبان ، لهما حد وقد وطول وعرض، غير مألوف بين اعضائنا ، سرعان ما قدما نفسيهما بانهما من جهاز الامن السري، يريدان مدير الفرقة ، فدخلت بهما الى مكتبي ، لاعرف ماذا يريدان، فاذا بهما يحملان رسالة من رئيسهما السيد الصادق خشخوشة، باستدعائي للحضور في مكتبه بشارع سيدي عيسى عند الساعة العاشرة من يوم الغد، وحمدت الله انهما لم يحملا امرا باخذي مخفورا ومقبوضا علي الى سيادته في التو والحين.

كان اسم الصادق خشخوشة في ذلك الوقت ، اسما يرسل الفزع في قلب المواطن الليبي الذي تقضي ربات الحظ البائس بالمثول بين يديه، فهو الذي تنسب اليه التحقيقات المصحوبة بالتعذيب ، لاهل النشاط السياسي المعارض للدولة، ويتحدث الناس عن استخدامه لقاموس بذيء في مخاطبة البشر الذين يقعون بين يديه ، والحقيقة فقد ركبتني حالة من القلق، التي احتفظت بها لنفسي ولم اشأ ان اطلق حالة من الفزع بين اعضاء الفرقة ، واضطررت ان اقول لمن سالني من اعضاء الفرقة عن سبب وجودهما بان هناك امرا خاصا بعملي الكتابي يستفسران عنه ، وصرت بيني وين نفسي اخمن عن سبب هذا الاستدعاء لانني عند اللقاء بالرجلين المبعوثين من قبله ، حاولت استدراجهما لسبب الاستدعاء فقالا بانهما لا يعلمان عنه شيئا، واعياني البحث عن السبب ، حتى ومض في ذهني حادث حصل في بدء استلامي للوظيفة بالجمعيات التعاونية ، خمنت ان خيطا مما حدث وصل الى السيد الصادق خشخوشة هو سبب استدعائي اليه ، والحادث يتمثل في انني واثناء ذهابي الى فرقة الامل ، واكترائي اثناء ذلك لدكان متفرع عن بيت صديقي عبد الحميد المجراب ، في حي زاوية الدهماني ، لاقامتي ، تعرفت على جار له وصديق من اصدقائه واحد المترددين على الفرقة ، اسمه عبد المجيد المحجوب، وهو شاب شديد الاناقة ، لم اره الا وهو يرتدي بذلة كاملة بربطة العنق صيفا وشتاء، ولم يكن مجيئه لفرقة الامل بسبب انه من هواة التمثيل مثلنا ، ولكن بسبب صحبته لجاره مدير الفرقة ، وباعتباره شابا يطالع الصحف ، فقد كان يقرا مقالاتي ويلقاني مفعما بالثناء عليها ، وبما يراه من اراء وافكار تقدمية موجودة في ثنايا هذه المقالات ، تؤكد ان هناك تطابقا في الافكار بيني وبينه ، وفاجأني ذات يوم بانه يريد ان نلتقي في الحديقة الخضراء على انفراد، وعندما جاء للقاء ، جاء وفي جيبه ورقة تحمل كلاما ليكون منشورا سريا ضد الحكومة ، ومعه سلخة تسمى الحريرة يريد مني ان اضربه على الالة الكاتبة فوق تلك الحريرة ليقوم هو بعد ذلك بسحبها في نسخ كثيرة وتوزيعها باعتبارها منشورا سريا صادرا عن تنظيم وطني ينتمي اليه ، وتحمل الورقة كل ما كان موجودا في القاموس من كلمات الهجاء واللعنة والسباب للنظام الذي يحكم البلاد مطالبا جماهير الشعب بان تنتفض لاسقاطه باعتباره نظاما عميلا للاستعمار واحلال نظام حر وطني تقدمي بدلا منه. ولامر لا استطيع تفسيره الى هذا اليوم ، ولا ادري كيف بعبط وغباء وجهل بالعواقب ، اخذت منه المنشور ، رغم انه كان جملة من الشتائم المقذعة للنظام ورموزه وللملك شخصيا في لغة سياسية متدنية تحمل كلمات العمالة والخيانة والنذالة والسقوط والدعارة السياسية ، على ان اعود به اليه مرقونا جاهزا ليباشر مع جماعته سحبه وتوزيعه، وفعلا قمت باخذ المنشور لرقنه ، ولم اكمله في اليوم التالي ، لان شيئا اعترض طريقي ، واخبرته انه سيكون جاهزا في اليوم الذي يليه ، ولكنه اراد ان اعيد اليه المنشور دون حاجة لاتمام طباعته، لان هناك تطورات كما قال لي تستدعي اعادة النظر في صياغته او اضافة شيء اليه قبل الطباعة ، فاعدته اليه ، وفهمت بيني وبين نفسي ان المنشور لم يكن الا اختبار لمدى استجابتي للعمل في تنظيم سري والقبول بمخاطر مثل هذا العمل ، وتاكد لي هذا الظن عندما نقل لي شكر وتحيات قائده في التنظيم ، واخبرني انه يريد ان يراني ، وانه سيحدد لي موعدا معه في يوم قريب ، واشار الى دكان يبيع الاطعمة الخفيفة اسمه دكان الشارف في الرواق الرابط بين شارع عمرو بن العاص وشارع ميزران ، قائلا ان اللقاء سيكون هناك، ولكنه لقاء لم يتم ، ولم اعد ارى السيد عبد المجيد المحجوب كثيرا ، بعد ان تركت فرقة الامل ، كما تركت الدكان الذي اقيم فيه بجوار بيت الصديق المجراب. وعرفت فيما بعد ان التنظيم كان نواة تنظيم ماركسي لعله لم يكتمل تنظيما، وان القائد الذي كان عبد المجيد المحجوب يعدني بالالتقاء به لم يكن الا زميلنا الكاتب الاستاذ على ابوزقية، الذي عرفته فيما بعد

تحت قلنصوة اخرى غير قنصوة زعيم التنظيم السري، هي قلنصوة كاتب القصة والمقالة الادبية. المهم ان هذه هي الواقعة التي يمكن ان تجعل رئيس البوليس السياسي في ليبيا ، او بلغة اهل التراث كبير بصاصي الدولة، السيد الصادق خشخوشة ، يهتم بامري ويرسل في استدعائي، ولكن واقعة مثل هذه ، قلت في نفسي، لم تكن اطلاقا تستدعي ان يحدد لي موعدا للقاء، وانما ياتي من يداهم بيتي ليلا ويقوم باجراءات القبض واقتيادي الى زنزانة من زنازين التعذيب تحت الارض دون هذه الملاطفات واساليب التدليل التي لا وجود لها في هذا الجزء من العالم لمثل من يكتب منشورا كذلك المنشور، واكثر من ذلك ان هذه التجربة، كانت العينة التي اذاقتني طعم الولاء لكيان سياسي اوحزب ، سري اوعلني، لانني فعلا بعد ان تاملت الموقف واستوعبت حقيقته، وجدت في نفسي نفورا شديد من هذا التورط، ليس لانه تورط محفوف بالمخاطر واهوال السجن والتعذيب ، لان السجن والتعذيب والتضحة بالروح والدم يهون اذا كان الانسان مقتنعا ومؤمنا بما يفعل، ولكنني وجدت انني انساق وراء اناس لا اتفق معهم في تفاصيل ما يقومون به، وان كنت مقتنعا بالمبدأ العام، والشيطان كما يقولون في التفاصيل ، فقد كنت اكتب المنشور وانا اشعر بالتقزز من لغة السباب التي يستخدمونها وكنت ما زلت وان كنت ادين النظام ارى في الملك ادريس السنوسي جوانب نبيلة وايجابية في شخصيته الصفوفية، والاى هذه الاوصاف التي ينعتونه بها ، مجافية للحقيقة ، ومنذ تلك اللحظة اقتنعت ان مثل هذه الكيانات والاحزاب لا تناسبني لانها تريدني ان ارى العالم عبر منظارها ورؤيتها ، وانا اريد ان اراه من خلال رؤتي الخاص ، من خلال ضميري ، ومهما كان الهدف مشتركا، فانني اريد ان ارى هذه الهاتف بعيوني وليس بعيون الاخرين ، واصفه بمفرداتي لا مفردات يضعها الاخرون في فمي. ولهذا فهذا الاستدعاء ، اذا كانت له ادنى علاقة بهذا الموضوع فهو يخطي هدفه، لان المنشور بدل ان يقودني الى ارض المعارضة والنشاط المعادي للنظام، جعلني بالعكس انفر من اساليبه وعباراته ، واقتنع بان عالم الاحزاب السرية ليس عالمي ولا اهله هم الناس الذين اضع ارادتي تحت ارادتهم وامتثل طائعا لاوامر مهم ولم افاتح في الموضوع احدا من اصدقائي اعضاء الفرقة ، لانني اخشى لوتسرب الخبر لبقية الاعضاء وعرفوا ان مدير الفرقة مطلوب للمثول امام السيد خشخوشة ، لاختفوا جميعا في بيوتهم ، وربما هربوا الى القرى التي جاءوا منها ، طلبا للنجاة والاختفاء من جلاوزة الرجل، وقررت ان اواجه الموقف بمفردي، وانني لن استعين باحد ممن اعرف من رجال الدولة ، مثل خالي عضو المجلس التشريعي، وهو لن يبخل باصطحابي عند مقابلة هذا الرجل المخيف ، لان استحضار خالي قد يسهم في اعطاء حجم للموضوع اكبر من حجمه الحقيقي ، وهذا الخال موجود، ويمكن الاستعانة به فيما بعد، اذا اتضح ان الامر يمكن ان يتطور في اتجاه اكثر سوءا، واخبرت قريبا لا علاقة له بالفرقة ، ولا بالسياسة، بانني ساذهب في ذلك الصباح الى سيدي عيسى ، مقر الشرطة السرية ، في اطار تحقيق صحفي اقوم به ، لكي يستطيع اذا ما حصل شيء ، اعاقني عن العودة الى البيت ، ان يخبر اهلي بهذه المعلومة . فعلت ذلك على سبيل الاحتياط، وكنت في الموعد المضروب، ادخل بقلب واجف راجف، الى ذلك المبني المحاط بسوء السمعة ، ووجدت نفسي وجها لوجه امام الرجل الذي يرسل اسمه الرعشة في قلوب الرجال. خمنت انه على مشارف الاربعين ، في سمته شيء من النسبة والتناسب ، فلا نتوء في رأسه على حساب ملامح وجهه ، يميل الى الامتلاء قليلا ، دون افراط هنا اوهناك او انبعاجات فيما كان باديا من جسمه ، ولا تناقض بين طوله وعرضه وهو يستقبلني واقفا في مكتبه، مادا لي يده، بوجه خلا من التعبير ، لا يهش ولا يبش ، فيه شيء من التجهم ، احادي الاتجاه اذا صح ان نقول ذلك على وجه من الوجوه، فثمة خط يربط ما بين العينين وارنبة الانف وحافة الدقن ، كانه خط

يحدد الاتجاه الواحد، او هكذا كان انطباعي وانا اتطلع في وجهه، وجه جدير برجل شرطة وسلطة ، حيث يغطي الوجه قناع لا تظهر فيه المشاعر والاحاسيس، ولم يكن لديه وقت للمقدمات، دخل مباشرة في الموضوع، يسال عن سبب هذا الزحام الكثيف في ذلك البيت بشارع قوس الصرارعي، فاخبرته بما نقوم به من اعمل ، وفاجاني بان جاء على ذكر ثلاثة من نساء الفرقة بالاسم قبلية وخديجة وعيشة الذي قال لي معلومة اعرفها لاول مرة وهي ان اسمها سالمة وانها تونسية تقول انها من اصل ليبي ، باعتبارها تنتمي الى القبائل الحدودية، وتتكلم لهجة هي نفسها لهجة اهل ليبيا، وسالني عما يفعلنه هناك، ثم قال لي ان كنت اعلم انهن كلهن مومسات وان احداهن تاتي الى الفرقة مباشرة من شارع الكندي، حيث تقيم وتعمل في واحد من تلك البيوت التي تمارس هذا العمل بترخيص رسمي من الحكومة، فقلت له انني لا اعرف الا انهن يعملن في فرق تقدم فقرات تراثية في الاذاعة، وينتسبن الى المجموعة الصوتية لاحدى هذه الفرق، وهي نفس المجموعة من اهل الفن الاستعراضي الفلكلوري ممن تاسست بهم وبهن فرقة الفنون الشعبية فيما بعد، ولم اكن اعرف فعلا ان لهن هذه الخلفية التي يتكلم عنها، ثم قال بلهجة تحمل بعض الاتهام، انه عمل نقوم به دون ترخيص ، فكيف افسر ذلك؟ فقلت له اننا نعمل في مكان اشتهر بتقديم نشاطه الادبي منذ اواخر الاربعينيات هو النادي الادبي ، ورايانا ان نستانف ما كان يقوم به من نشاط ، انتقل من الشان الادبي الى الشان المسرحي الموسيقى ، واننا قدمنا كل الاوراق التي احتاجها الترخيص للفرقة التي اسميناها فرقة المسرح الجديد، وانني اراجع قسم الجمعيات في الشئون الاجتماعية ، فلا اجد لديهم اعتراضا ، لان الاوراق مستوفاة، ولا ينتظرون الا موافقة الجهات الامنية ، التي لا يعرفون سببا لتاخرها، فاوضح لي بعض المحاذير التي يخشاها اهل الامن ، لانهم لا يريدون نشاطا يبدو بريئا من الخارج ليكون غطاء لعمل سياسي ، وفرصة للتجمع واللقاء لعناصر لها اغراض سياسية تهدد استقرار البلاد، وعندما رأى شيئا من الكدر على ملامحي طمانني بانه لا يحمل اي شكوك بشان الفرقة ، ولكنه حذرني من ان يستغل احد عناصر الفرقة هذا العمل الفني المسرحي في اعمال الدعارة، وفعلا اصابتني رجفة لهذا الخاطر ، فلا انا ولا احد من زملائي جئنا الى هذا النشاط لنعطي فرصة ان يستخدمنا احد وسطاء في تلك المهنة ، وطمانني قبل انتهاء المقابلة ، بان الاجهزة الامنية ، لا تخشي مثل هذه الانشطة الفنية ، بل يراها نافعة لاستقطاب الشباب، وملء فراغ اوقاتهم التي يمكن ان يستغلها اصحاب النشاط السياسي الهدام، دون ان يعدني بوجود اي ترخيص في الطريق . حمدت الله انني خرجت سالما من مبنى سيدي عيسى ، وعدت الى الفرقة دون ان افتح موضوع المقابلة مع احد من الناس ، وكانت فقرات برنامجنا قد تم اعدادها، ولم يعد امامنا الا ان نحدد ليلة العرض، وليلة العرض لم يكن ممكنا تحديدها دون ترخيص ، والترخيص رغم المراجعات لا يأتي، وتيقنت بان طريقة الحصول على الترخيص ، لن تاتي الا بما اشار عليه بعض الناس ، وهي الاتصال مباشرة برئيس جهاز الشرطة في طرابلس الزعيم محمد المنصوري، وهو رجل يثني عليه الناس لوطنيته وحسن سلوكه مع جمهور المراجعين والمترددين على مكتبه، فقررت ان اقصده، وعلمت انه ياتي في مراجعات يومية الى والي طرابلس ، واوصيت احد موظفي الاستقبال في قصر الولاية ان يبلغني بساعة حضوره ، وعندما جاءت المعلومة ، اخذت ملف الفرقة وجلست في مدخل مبني الولاية ، وفي صالة صغيرة تقع مقابل المصعد المخصص لكبار الموظفين، حيث لا سبيل لخروجه دون ان اراه ، وما ان رايته خارجا من المصعد ، يرتدي بزته العسكرية الانيقة ، تغطي صدره النياشين ، حتى اعترضت طريقه وقدمت له نفسي وفي يدي الملف وطلب ترخيص بتقديم الحفلة في دار عرض الحمراء، وبسرعة قرا الطلب، ودون ان يتبادل معي كلمة

واحدة ، كتب لا مانع ، ووضع توقيعه ، وذهبت مباشرة الى دار عرض الحمراء التي تقع قريبا جدا من مبنى الولاية ، لحجز ليلة واحدة ، تتعطل فيها الدار عن عرض الافلام ، وتفسح الطريق لعرضنا المسرحي.

وفعلا كان الديكور جاهزا، والملابس كنا قد قمنا باحضارها من بيوتنا مع ما يحتاجه العمل من اكسسوارات ، وضمن من اسهموا في صنع الديكور فتى صغير هو محمد لطفي فرحات الذي تخصص بعد ذلك في الاقتصاد وصار وزيرا ورئيسا للجامعة. ولم يبق الا الاتفاق مع اهل الصوت في وزارة الانباء والارشاد ، حيث ذهبت للاستاذ احمد فهمي الهمالي ، الذي كلف ابراهيم قنيوة، فني الصوت ، بان يتكفل باحضار الاجهزة، وكان بعضها حديث الاستيراد، وعمت الفرقة الفرحة ، فقد جاء اليوم الذي طال انتظاره ، وعمل الجميع في سبيل التحضير له ، واشتعل الجميع نشاطا، لانجاز اللمسات الاخيرة في الديكور، والعرض المسرحي ، والفقرات الغنائية ، واللوحة الراقصة ، وقلنا في الدعاية ان الفرقة ستقدم مفاجأة الموسم وهي الراقصة الليبية وردة، رغبة في اغراء الجمهور ، وفعلا تقاطر الجمهور بشكل غير مسبوق، وصنعوا زحاما كبيرا للحجز ليلة العرض ، الى حد ان جزءا من شباك التذاكر تهشم بسبب التدافع والزحام ، وكان الحل هو ان نمد العرض بضعة ايام ، ولكن ذلك لم يكن متيسرا ربما لان رخصة العرض لم تكن الا لليلة واحدة ، ولان تقاليد المسرح الليبي اخذت هذا الاتجاه وهو ان تقدم المسرحية لليلة واحدة ، وقد تعود لليلة اخرى ولكن بعد مضى فترة من الزمان ، وعند الانتقال بها لمكان اخر ، وعهدنا لزميل جاء حديثا للفرقة ، وله خبرة بالحسابات في البريد، يان يتولى بيع التذاكر، وهي تذاكر تمت المصادقة عليها في مصلحة الضرائب ، لان هناك ضريبة الملاهي التي تصل لنسب مرتفعة تاكل ربما نصف الدخل ، وفعلا دفعنا للضرائب حصتها كاملة دون ان نجني كل الدخل، لان الصراف الذي وثقنا فيه لبيع التذاكر ، اخفى جزءا كبيرا من الدخل ، وادعى انه لم يستلم كل الدفاتر وانها سقطت عند النقل او ما شابه ذلك، ولهذا قصة اخري سيحين وقت سردها تاليا.

ولان البرنامج الغنائي في سهرتنا لهذه الليلة يتكون من عدة فقرات ، فقد قلنا ان افتتاح الحفل سيكون بالغناء، خاصة ان الزحام الكثيف ووجود بشر في الاورقة الممرات ، جعل الضجيج كبيرا، بحيث لن يتيح للممثلين الوصول بحوارهم الى الجمهور لو بدأنا بالعرض المسرحي ، وقلنا نبدا بالفقرات الفنية الغنائية الاستعراضية ، وسيهدا الجو بعد ان تستقر الامور في الصالة ليكون وقتا مناسبا لتقديم المسرحية، على ان يعود برنامج الغناء خلال الاستراحة بين الفصول. وفعلا بدأنا بالفقرة الغنائية الموسيقية الاستعراضية ، والبشر يزحمون كل فراغات الصالة ، وكنا اخطرنا الجمهور قبل الدخول بنفاذ الكراسي، فوافقوا على شراء التذاكر دون المطالبة بالجلوس في الكراسي، وسيقفون او يتدبرون جلوسا فوق الارض، المهم ان الستار فتح على الجزء الاول من العرض ، وكنا قد وضعنا الراقصة وردة في لوحتين راقصتين مع رقص تعبيري لبعض الشباب يصاحبونها في الرقص ، واردنا ان نستهل الحفل ببعض فقرات الغناء ولوحة الرقص الاولى للراقصة وردة، وكانت امراة بدوية ساقتها الظروف الى العمل مع بعض فرق الفنون الشعبية من الهواة وشاركت في الرقص والغناء مع بعض الزمزامات، ورغم ما تحصلت عليه من مران في الرقص الشرقي ، فقد ظل الخجل البدوي متمكنا منها ، ولا شك انها نظرت من خلف الكواليس للحشد الهائل الذي يتكدس في صالة المسرح بطابقيها، فزادها هذا الجمهور الحاشد رعبا، وفي غفلة من الجميع كانت قد خبات زجاجة من الخمور الرخيصة ربما براندي في ثيابها، تحتسي

جرعاتها في خوف ونهم ، باعتقاد انها وسيلة للتغلب على الخجل، وحانت لحظة دخولها المسرح واعلن مذيع الحفل عن فقرة الرقصة وردة في اولى استعراضاتها الراقصة ، فضجت الصالة بالهتاف والتصفيق ، لان جزءا من فئة الشباب الموجودين في الصالة ما جاءوا الا من اجل هذه الفقرة، ولم يلحظ المسؤول عن الخشبة شيئا يثير الشك في منظر الراقصة وهو يستدعيها لتقف خلف الكواليس قرب المدخل للمسرح، وما ان بدأت الموسيقى الراقصة المصاحبة للعرض تعزفها فرقة اصطفت فوق المسرح اذكر من بين عازفيها سليمان العزابي وعمنا التركي ، وهما عازفان ماهران احدهماعلى العود وثانيهماعلى الكمان مع طبعا عازفين اخرين خاصة ضابط الايقاع وضارب الطار، حتى دفع بها مدير الخشبة كي تدخل ، وما ان دخلت في بدلة الرقص الشرقي التي تتدلى بعض اطرافها على الارض، حتى ظهرت عليها حالة السكر البالغ، واذا بها تتمايل وتتعثر في اطراف ثوبها وتسقط سقوطا مريعا فوق خشبة المسرح وتحت الاضواء وامام وحش الجمهور وله الفي (الفا) عين ، ويهرع احد افراد الجوق الموسيقى يعينها على انهوض، فتقف لتستعيد توازنها وتحاول ان تعاود الرقص ، ولكن حالة السكر الظاهر كانت قد تمكنت منها وافقدتها كل قدرة على الاحتفاظ بهذا التوازن اثناء الرقص لانها من ان ارادت ان تعاود الرقص حتى سقطت من جديد ، في مشهد لا ادري اهل اسميه كوميديا اوتراجيديا ، ولكنه مشهد كارثي بكل المقاييس ، ووحش الجمهور الذي جاء سعيدا فرحا يمتليء حماسا لمشاهدة الراقصة التي تنافس راقصات الشرق في مصر من امثال تحية كاريوكا وسامية جمال، هاهو يراها تسقط في اول اختبار، ورأى في تقديمها من خلال الدعاية والاشهار غشا واستغفالا له، فتحول الى وحش حقيقي يزأر ويصيح ويعبر عن غضبه الشديد ، ولعل بعضهم رمى ببقايا ساندوتش او زجاجة فارغة على المسرح، ولم يكن ثمة بد من قفل الستارة بسرعة ، ولم يكن احد يستطيع ان يسمع كلمات الاعتذار التي حاولنا ان نتقدم بها للجمهور عبر مكبر الصوت، فالصخب كان عاليا، ورايت انني ربما اذا فتحت الستارة من جديد وخرجت بتقديم لوحة الزوج القاتل ربما استطيع السيطرة على الجمهور ، ولكن الوحش الذي يزأر في الصالة لم يعد ممكنا ان يتوقف عن الزئير ، فلا زوج قاتل ولا زوجة قتيلة بقادرين على اطفاء نهمه الى التعبير عن سخطه وغضبه.

ولم يكن ممكنا معالجة الموقف الا باعلان استراحة وفتح اضواء الصالة وكانت هناك تقاليد ان يبدأ باعة المشروبات والمكسرات والسندوتشات بالدخول اثناء الاستراحة للترويج لبضاعتهم ،عدا ما يمكن ان يكون موجودا خارج القاعة من باعة لمن يريد الخروج للتدخين او للقاء اصحابه ، وعدنا بعد الاستراحة للتنبيه على موعد رفع الستارة عن مسرحية ثمن الحرية ، بامل ان هذه المسرحية التي تستدعي زمن الجهاد ومناظره ومناخاته وصوره وشخصياته ورموزه، سوف تساعد على اعادة الهدوء الى الصالة وسوف تنجح في فرض السيطرة على الجمهور، وكان اداء الاستاذ على مختار الحاراتي في دور عمر المختار اداء مبهرا، واعتقد ان ظروف الانفلات ، حفزتني لان اقدم اداء متميزا في دور وكيل النيابة ، وكنت قد كتبت الحوار واعددت المرافعة في صياغة ادبية متينة ، وطورتها اثناء التمارين، وكان حدثا فريدا في المسرح ان تنتهي كل فقرة من فقرات المرافعة بعاصفة شديدة من التصفيق اعجابا بالاداء ، ورغما عن الكلام كان كلاما مسموما ضد الجهاد الليبي ورمزه الاكبر شيخ الشهداء عمر المختار، الذي تعتبره الاطروحة الايطالية التي برزت في المحاكمة انه مجرم متمرد على السلطة الشرعية في البلاد، ومع ذلك كان الاعجاب بالاداء يغلب على مشاعر الحقد والكراهية لمندوب الاستعمار الايطالي والمدافع عن جرائم هذا الاستعمار واباطيله.

تجاوز الحفل تلك الفقرة الكارثية ، التي صنعتها لنا وردة مزيفة مذمومة، وعاد الحفل بعد المسرحية يواصل الفقرات بعد ان ارضت المسرحية ذائقة الجمهور وتم تقديمها كاملة دون فواصل موسيقية ، واتبعناها بمنلوجات ضاحكة للفنان كامل الفزاني ، قبل ان ياتي مطرب السهرة محمد الجزيري، الذي سهر الجمهور مع فقرات الغناء الشعبي التي قدمها حتى الساعات الصغيرة من الليل.

كانت الراقصة التي فقدت وعيها وعقلها وتوازنها على المسرح، قد اختفت من الفرقة ولم تستطع العودة اليها بسبب ما سببته من حرج لاعضاء الفرقة ، وكانت الصحف قد كتبت في الايام التالية تعليقات غلب عليها الانتقاد لما حدث وربما القليل من الثناء على التمثيل . وكان هناك علاج هو ما تعتمده كل فرق العالم، وهو معالجة خطا الليل الاولى بتعديل في عرض الليلة الثانية وما يليها من ليال ، بل ان عروض البيوتات المسرحية في العالم اجمع ، تعتبر عرض الليلة الاولى اشبه بما يسمى "بروفة جنرال " واعرف من تجربتي مع المسرح القومي المصري الذي قضيت اشهرا اتدرب مع مخرجيه ، انه لم يتم دعوة الضيوف والصحفيين للعرض الاول ، لانه في اثناء تلك الليلة يتم دوزنة العرض على ضوء ردود فعل الجمهور ، واعادة تضبيط المواقف وفق هذه الردود والاصداء التي لا يمكن تلقيها الا عند هذا العرض ، فيتم في الليالي التي تلي العرض الاول تقديم العروض المعتمدة ، في الصيغة التي ترضي المخرج وترضي الممثل وبقية فناني العرض . ولكن ارتكاب خطأ في العرض الليبي يشبه ارتكاب الخطأ في تمثيلية تذاع على الهواء ، لا سبيل الى اصلاحه ، ولا وجود لفرصة ثانية ، وكان ذلك ظلما لعرض انفقنا فيه جهدا كبيرا واستوعب جهود عدد من المواهب في التمثيل والتاليف والاخراج والتلحين والعزف والاداء ، وكان للاسف الشديد قد جاء ناقصا بسبب فتاة رعناء ، وبسب حسابات خاطئة من طرفي وطرف زملاء في الفرقة اصروا على هذه الفقرة الراقصة التي لم يكن الاستغناء عنها منذ البداية ليضير الفرقة شيئا ، ولكنه حسب تلك التمثيلية التي قدمتها في الاذاعة من تأليف زميلي في العرض الاستاذ على مختار الحاراثي كان طمعا في استقطاب جمهور اكثر واتضح ان " الطمع وقطع الرقبة ، متحاديين".

ورأيت بعد ايام من هذه التجربة التي خالطها بعض من سوء الحظ، ان اقدم فرقة المسرح الجديد تقديما مختلفا ، وادركت متأخرا ان ذلك الحفل، لم يكن يعبر عن اسم الفرقة كما اردت ان يكون لا شكلا فقط ولكن بما يتفق مع الشكل من المحتوى والمضمون، فعدت الى مسرحية في انتظار جودو، واحضرت نصها المترجم الذي تضمنته تلك المطبوعة المتخصصة في المسرح، وذهبت الى اكبر اسم في التمثيل المسرحي وهو الاستاذ شعبان القبلاوي، وكان قد ورث عن والده ، دكانا في شارع الرشيد يتولى الوقوف فيه بنفسه في الفترة المسائية، فذهبت اليه في الدكان، واعطيته النص مع فكرتي عن تقديمه من خلال فرقتي المسرحية، ورجعت اليه في اليوم التالي فاذا به يمتليء عجابا بما قرأ، ويرى ببصيرته المسرحية وبالذائقة التي تربت لديه من خلال الممارسة، في كل ذلك الحوار العبثي ، الجمل التي لا معني لها يلقيها بطلي العرض ، جمالا وفكاهة ، يمكن اثناء التمثيل ان تجلب ضحك الجمهور ، وكانت المسرحية تنتهي بجملة يقولها المتشرد بطل المسرحية لرفيقه المتشرد الثاني ، " لقد حان الوقت لان نذهب" فيرد عليه ذلك الرفيق بحماس وجدية "نعم، ياللا بنا نمضي" ، وبدلا من ان ينطلقا مسرعين ، يقف الاثنان في حالة جمود. وراها نهاية قوية في تعبيرها الرمزي ، سوف يتعاطف معها الجمهور الليبي تعاطفا كبيرا وسيصفق لها كثيرا ، لانها تعبير عن حالة البلاد وحكومتها التي تتحدث عن الانطلاق الى الامام بينما هي مثال للجمود والثبات في نفس المكان. وراى في المسرحية التي كتبها كاتب ايرلندي،

يعبر عن حالة بلاده وبلاد الغرب ، وما شاب الاوضاع من عبث ولا معقول خلال اعوام الحرب وما بعدها، مادة تحتوي نقدا سياسيا لاحوال بلادنا ، يفضح دون ان يفصح ، ويقول شيئا عميقا دون ضجيج ولا صخب. وهكذا احال الممثل الكبير واستاذ المسرح القدير الفنان شعبان القبلاوي عبثية النص ولا معقوليته الى معان عامرة بالتعبير وقوته ، بحيث حفزني حديثه الى اعادة قراءة المسرحية بروح جديدة ، والانتباه الى مناطق السخرية والتماثل مع حالات في مجتمعنا، بحيث اذا قمت باخراجها او ساهمت في هذا الاخراج، ان نهتدي الى صيغة تصلح لجمهورنا وتفلح في استقطاب انتباهه وتحصل على درجة من التفاعل مع مضامين المسرحية واهدافها، ولكن تلك النهاية التي تبشر بانطلاق يتحول الى جمود، هو ما تحقق في حالتنا، فقد عزمت على الانطلاق في تنفيذ المسرحية ولكن اوقفني وجمد خطاي استدعاء تلقيته من الاستاذ عبد السلام خليل ، يطلب ان ازروه في بيته، وكنت قد دعوته لحضور الحفل ، فقال انه كان موجودا في الحفل واستمتع بالمسرحية وحوارها والغناء وتنوعه، ولانه كفيف يتلقى العرض عن طريق السماع لا النظر، لم يكن في البداية قد فهم احتجاج الجمهور، الا فيما بعد عندما شرحوه له، ورای انه لم يكن ثمة ضرورة لحشر تلك اللوحة الراقصة ، لان البرنامج كان حافلا بالفقرات ، الى حد انه لم يستطع اكمال كل البرنامج الغنائي ، وترك الحفل بعد الساعة الواحدة والبرنامج مستمر، فشكرته على ثنائه ووعدته بان المسرحية القادمة ستكون باذن الله اكثر توفيقا ، واكثر ملاءمة لامثاله من اهل الادب الفصيح، لاننا سنقدم باذن الله نصا من الادب العالمي. وسالته ان كان ثمة سبب استدعاني من اجله ، فاذا به يتحدث عن عضو من اعضاء الفرقة كان قد ادى دور مجاهد في المسرحية ، وابدع في ادائه ، هو ابراهيم عمران، وقال لي انه لم يكن يعلم ان هذا الرجل عضو في الفرقة، وانه لا يريد لهذا الرجل ان يدخل المقر ، ولابد من طرده من الفرقة ، وانه لو استمر فانه سيضطر مرغما الى سحب المقر ، هو بيته الخاص تطوع به للعمل العام ، وسيكون محتاجا لاستعماله الشخص. خرجت من بيته دون ان اعد بشيء، املا في ان الشيخ عبد السلام خليل سوف يتراجع عن هذا التهديد، ولكنه لم يكتف بما قاله لي وانما ارسل من يتابع الموضوع ويسال ان كنت قد نفذت تعليمات الشيخ، وكان سهلا معالجة الموقف ، ولا يقتضي الا استدعاء زميلنا ابراهيم عمران وابلاغه بالاحتجاج القادم من الشيخ ، وهو بالتاكيد يعرف سبب غضبته عليه ، واعتبر ان السبب لا يعنيني فهناك حالة يجب ان اتعامل معها، المهم انني كنت ساعرض على زميلنا فكرة اجراء مصالحة بينه وبين مدير فرقته القديمة فرقة الامل ، ليعود اليها ويكفينا متاعب البحث عن مقر جديد، ولكنني لم افعل ، وركبني شيطان العناد ، فقد استفزني اسلوب شيخنا الجليل ، وتهديده الذي لم يكن يعطي براحا لاي اخذ ورد، وواصل الشيخ ضغطه يطلب ردا سريعا، وكان الرد ، هو ان علقت اعلانا كبيرا على باب المقر، يقول ان هذا البيت سيخضع لعملية تجديد واصلاح ، قد تستغرق بضعة اشهر ، وستبحث الفرقة عن مقر مؤقت سيتم الاعلان عنه في اقرب وقت ، ونقلت ما يخص الفرقة من اوراق وملفات، اما ما يصعب نقله من ديكورات واخشاب فقد وضعناه في غرفة جانبية لا مفتاح لها، وابلغنا مندوب الشيخ ، باننا سنعود لاخذ هذه الديكورات فور حصولنا على مقر جديد، واسلمته المفتاح. وصرنا فرقة يلتقي مشتركوها في المقاهي و الفنادق كما كان الحال عندما بداية التاسيس . ولا اعتقد انني عدت لرؤية الشيخ الفاضل الاستاذ عبد السلام خليل بعد ذلك اليوم الى ان توفاه الله بعد ذلك العام باربعين عاما. وبالنسبة لمسرحية في انتظار جودو فقد حدث بشانها ما حدث تماما لبطليها عندما قال احدهما للاخر في حماس هيا بنا نمضي وتجمدا في مكانهما ، فقد حدث لنا هذا التجمد مرغمين، وكانت هدنة جاءت بفضل الشيخ الكفيف ، جعلتني انتبه لمناشطي الاخرى، قراءة ومشاهدة

لافلام اجنبية تعرضها سينما لوكس ، اتولى احيانا التعليق عليها في الصحف ، والمشاركة في منتديات ادبية ، ومتابعة الكتابة للمقالات والبرامج الاذاعية ، والسفر المتكرر لجزيرة مالطا، وبالاضافة الى كتابة بابي اليومي في صحيفة طرابلس الغرب، ضاعفت نشاطي الكتابي في صحيفة الرائد ، وافسحت لي مجلة الاذاعة مساحة لكتابة المقالات الفنية، واحيانا الادبية ، كما واصلت كتابة القصص القصيرة التي انشرها بين الفينة والاخرى، خاصة بعد ان يقراها الاستاذ بشير الهاشمي ويقترح ما يقترحه من تعديل او تجويد، وكانت مجموعة من مثقفي طرابلس قد انشأت جمعية اسمتها جمعية الفكر، وحصلت لها على مقر في عمارة من عمارات التامين الاجتماعي في شارع البلدية، وكان شقة واسعة فسيحة، بها ردهة تم تخصيصها لاقامة المحاضرات والندوات، واستضافت الجمعية في ذلك الوقت شخصيات ذات ثقل عالمي مثل المستشرق الفرنسي بلاشير، استاذ الدكتور طه حسين، وتضم الجمعية شخصيات سياسية مثل الاستاذ علي نور الدين العنيزي، واقتصادية مثل السيد نوري بريون، وادبية مثل الاستاذ على مصطفي المصراتي والاستاذ محمد فريد سيالة والاستاذ عبد اللطيف الشويرف، ولم اكن شخصيا عضوا بها ولكنني كنت اتابع نشاطها وتربطني علاقة صداقة مع بعض المشرفين عليها، وكان الاستاذ سيالة سكرتيرا عاما للجمعية ففاتحته في ازمة المقر التي تعاني منها فرقة المسرح الجديد ، وطلبت منه ان تستضيفنا الجمعية ، حتى نجد مقرا، فرحب بالفكرة وعرضها على مجلس الادارة الذي خصص لنا غرفة في تلك الشقة ، واستانف اعضاء الفرقة العودة اليها والتردد على مقرها الجديد، وكانت جمعية الفكر لا تشهد روادا يترددون عليها الا عند اقامة محاضرة ، ولم يكن يداوم على الحضور الا عامل مكلف بفتح الجمعية كل مساء والبقاء لمدة ثلاث ساعات ، وكان فتى من اهل السواد ، ياتي صامتا ويمضي صامتا حتى لتضنه رجلا ابكما (أبكم)، وصار شباب الفرقة يصنعون زحاما يوميا، وياتون لتدارس خطتنا القادمة ، وقد صدرت لنا رخصة رسمية وصرنا مطالبين بالنشاط الذي يبر صدور هذا الترخيص ، وحدث ان جاء منشور حكومي لادارة الجمعيات التعاونية يطالب بترشيح عنصر للابتعاث في دورة تدريبية تقام في القاهرة لدراسة التعاونيات في المعهد الدولي لتنمية المجتمع التابع لمنظمة اليونسكو، وازف لي مديري ومدير الادارة الاستاذ محمد ابوزيد الشريف بشرى اختياره لي ، لان اكون هذا المبعوث، الا انه امر خاضع لاجتياز اختبار قبل صدور القرار، لان الدراسة في المعهد دراسة عليا ، يلتحق بها خريجو الجامعات بالنسبة للاقطار العربية الاخرى ، ولكنهم جعلوا استثناء لليبيا لعدم توفر هؤلاء الخريجين بين شبابها واستعاضوا عن الشهادة الجامعية بهذا الاختبار ، واخافني هذا الشرط، فقد ظننت ان الاختبار سيكون شاقا، وله جانب تحريري وشفهي ، وسالت عن تفاصيله لكي استعد له ما استطعت لذلك سبيلا، فعرفت ان خبيرا سيأتي من المعهد، هو الذي يملك وحده تفاصيل وكيفية هذا الاختبار، ولم تمض غير بضعة ايام حتى جاءت ورقة باسمي الى ادارة الجمعيات التعاونية ، تحدد لي موعدا للقاء الخبير ، في مكتب السيد عمر الجليدي، نائب مدير الخدمة المدنية، وذهبت بنية ان اتلقى منه شرحا عن تفاصيل الاختبار وموعده ، ووجدت في انتظاري استاذا ، من اساتذة المعهد ، متوسط العمر، لم اعد اذكر اسمه، قدمه لي السيد عمر الجليدي، وسالني الرجل اسئلة عامة عما اكتبه في الصحف ، بعد ان سمع من صاحب المكتب انني اساهم (أسهم) بالكتابة للصحافة المحلية، واذكر انه سأل سؤالا بعيدا عن موضوع البعثة والدراسة في المعهد، وهو كيف يعرف الانسان الفرق بين الرجل المتزوج وغير المتزوج في ليبيا، ويبدو انه تكملة لحديث سابق لحضوري بينه وبين صاحب المكتب الذي اخبره ان نظام لبس الدبلة في اصبع اليد ليس نظاما سائدا في ليبيا، ولانني لم اكن اعرف هذه الخلفية ، فكدت اجيبة اجابة غبية، تقول

ان العازب اكثر بشاشة وحبورا وانطلاقا لانه خالي البال من اعباء ومسئوليات الاسرة التي بدأ في تكوينها، وكنت بالتاكيد سافقد البعثة بسبب هذه الاجابة التي لا يقولها الا انسان هازل عبيط، وانقذني الله عندما تفضل السيد الجليدي قائلا بان الدبلة بدات تعرف طريقها لاصابع المتزوجين من ابناء الجيل الجديد، وانه صار من السهل عن طريقها معرفة المتزوج من غير المتزوج، ثم عرفت ان المقابلة حان موعد ختامها عندما رفع السيد الجليدي سماعة الهاتف يخاطب السكرتير بتحضير سيارة الدكتور الخبير التي ستقله الى الفندق، فسالت ان كان ثمة موعد لاجراء الاختبار ومكانه ، وعما اذا كانت هناك اوراق تقتضي تعبئة وتحضيرا، فاذا بالدكتور الخبير يبتسم قائلا ان الاختبار قد انتهى وانني قد حزت على القبول ولم يبق الا ان اهيء (أهيئ) حالي للسفر بعد بضعة اسابيع وانه ينتظر ان يراني في بدء العام الدراسي في المعهد الدولي لتنمية المجتمع بقرية سرس الليان محافظة المنوفية بمشيئة الله.

اعتبرت فرصة الذهاب الى هذه البعثة التي لا تزيد عما يقرب من ثلاثة فصول دراسية ، عام دراسي ونصف ، او اكثر قليلا، انما هي هبة من السماء تفتح لي طريقا لتاهيل دراسي اعلى ، كما تفتح لي طريقا لتحسين ملكاتي ومواهبي وادواتي ككاتب ناشيء يطمح ان يكون له شأن في هذا المجال ، واخذت اجازة لبضعة اسابيع اذهب فيها الى البلدة ، لانني سافارق اهلي كل هذه المدة ، ثم اصرف جزءا منها في طرابلس لتحضير نفسي ، وكان الصيف موسم اعراس وحفلات ختان ، فانسجمت في البلدة مع تلك الاجواء ومباهجها، ولم اكن اعلم انني في انتظار مفاجاة يمكن ان تعصف بكل ما علقته من امال واحلام على هذه البعثة ، بل يمكن ان تعصف بمستقبلي الوظيفى كله ، اذ فوجئت اثناء تلك الاجازة ، وفي ظهيرة احد الايام ، ونحن نقضي قيلولة ما بعد الغذاء، بان عددا من افراد بوليس المركز يداهمون البيت، بقيادة رئيس المركز ، ويحضرون معهم شيخ البلدة ، الشيخ مسعود الفزاني، وكان والدي موجودا فكان اول من خرج لاستقبالهم متسائلا عما استدعي هذه المداهمة ، ورجع لي مخطوف الوجه، فر الدم من وجه، لا يكاد يجد كلمات يقولها لفرط الصدمة يسألني عما فعلت ، لان مدير الشرطة وجماعته جاءوا لتفتيش البيت لان هناك بلاغا جاء من طرابلس يطالبه بالقبض علي وتفتيش البيت، دون ان يفصح مدير المركز عن التهمة التي يقبض علي بسببها او عن اي شيء يريد التفتيش ، وفي اغلب الظن انه لا يعلم شيئا غير امر القبض دون شرح ولا تفسير ، وفعلا فتش البيت دون ان يعرف عن اي شيء يبحث ، ولازلت (ومازلت) اذكر ذلك الضابط وهو يملي على واحد من عناصر ، الجملة التي سيكتبها في سجل جاء به معه ، اذ سأله ان يكتب بانه تم تفتيش البيت وانه كما جاء على لسانه" لم موجود اي شيء " ، وربما اضاف كلمة تعني يوجب الشبه او يستحق التحريز. وطبعا كنت مندهشا مما يحدث ، ولعل والدي لم يصدق عندما ابلغته بانني لم افعل شيئا يستحق هذا الامر بالقبض علي ، ولا علم لي اطلاقا باية تهمة يسوقونني بها الي السجن ، وبكفالة شيخ البلدة وتحت ضمانته ، لم يقتادوني الى مركز الشرطة والاحتفاظ بي هناك لمدة يومين حتى يحين موعد الحافلة العامة لكي يتم ارسالي بواسطتها الى العاصمة ، ولا ادري هل حدث ذلك بسبب قلة السيارات وندرة وجودها في ذلك الوقت لدى كل مركز ، المهم ان رجاء الشيخ مسعود لوالدي هو الا يحدث شيء يعرضه للمساءلة امام الشرطة ، وانني يجب ان اكون بعد مرور يومين جاهزا لواحد من عناصر الشرطة ياتي ليصطحبني الى طرابلس ، وفعلا جاء الرجل في الموعد المحدد، يرتدي ملابسه الوطنية ، وليس الرسمية وركبت معه الحافلة ، واكتشفت بعد ان جلست بجواره الى المقعد ان اخرج "الكليبشة" ووضعها في معصم يدي وكان الجزء الثاني منها مربوطا بمعصم يده،

وقال انه فعل ذلك لانه لم يشا أن يراني اهل البلدة اركب معه مكلبشا، ومبالغة في اخفاء الموضوع جاء يرتدي ملابسه الوطنية ، لانه لايريد ان يظهر كانه جاء للقبض علي ، وانما توافق ان سافر في نفس الحافلة ، وهو يفعل ذلك وفق تقاليد البلدة التي تحاول تخفيف الضرر وعدم اشهار موضوع القبض على اي متهم ، ولكنني لم استطع ان اخفي انني اسافر مخفورا ومغلولا عندما ركب في محطة غريان صديق من زملاء الدراسة ولم استطع ان اصافحة بحرية وقلت له ان هناك سوء فهم اقتضى ان يحدث لي ما يراه ، ورغم تحوطات العسكري ورئيس المجلس في مزدة وشيخ القرية فانني واثق من ان الخبر قد انتشر في البلدة، بل هو قد انتشر قبل ان ارحل ، منذ ان ان جاءوا لمداهمة البيت ، رغم ان المداهمة تمت في ساعة القيلولة وهي ساعة ميتة يختفي فيها البشر من الطرقات خاصة في ايام الصيف ، ومع ذلك فان خبرا كهذا لم يكن ممكنا الا ان ينتشر بعد لحظات من حدوث المداهمة ، وطبعا كنت مشغولا بشيئين الفضيحة التي سيعاني منها والدي ، وهو رجل يعتز بانتمائه لبيت والده حامل العلم وصاحب الصيت الكبير في الفقه ، والتاجر الذي يعرفه الناس بامانته وصيته ، ولعله كان يفخر ان احدا من عائلتنا لم يصل في تاريخ العائلة الى مركز شرطة، او يكون موضع اتهام، فكيف يحدث هذا اليوم ولابنه، الذي ظنه بعلمه وباسمه الذي يرن كالطبل في طول البلاد وعرضها، باعتباره كاتبا يذيع اسمه المذياع وتنشره الصحف ، سيجلب المجد للعائلة، ويسترد لبيت الفقيه سمعته كبيت للعلم والعلماء ، يصبح هذا الابن نفسه مجلبة للعار ، اما الهاجس الثاني لهذا القلق فهو الخوف ان يحول هذا الحادث بين هذه الفرصة التي اتاحتها لي الاقدار، لاستكمال جزء من تعليمي في مصر، وفي معهد دولي عالمي، لانها فرصة اذا ضاعت فانني لن استطيع الحصول عليها الى الابد ، وكنت اتحرق اسفا انها جاءت في هذا الوقت ، واتحرق اكثر لانني لا اعرف سببا ولا دافعا من بعيد او قريب يمكن ان يضعني في مثل هذا المازق ، فما الذي حصل في طرابلس يجعلني موضع اتهام واساق بهذه المهانة ويفقتش بيت ابي بهذه الطريقة ، وطبعا كانت الهواجس تاخذني شمالا ويمينا دن ان ارسو على ضفة شيء بعينه اقول انه مبعث هذه الكارثة .

وطبعا مرت الساعات الثلاث التي تستغرقها الحافلة من مزدة الى طرابلس بكل ما يستغرقه الزمن في المحطات ، وكانه ثلاثون ساعة ، فالوقت يمضي ثقيلا بطيئا ، والعسكري بجواري صامتا كانه قد من حجر ، لانه لم يكن هناك موضوع يصلح للحديث بيننا، وحتى لو افلح في فتح موضوع، فلم اكن املك مزاجا للحديث ، وفي الختام ، وجدت نفس في مركز شرطة الاوسط ، وهو مركز شهير من مراكز طرابلس ، وفي مكتب رئيس المركز، وكان رجلا ممتليء الجسم ، مازلت اذكر اسمه ، رغم انني لم اره في حياتي سوى ذلك اليوم ، وهو مصباح الفيل ، وعرفت منه لاول مرة التهمة التي من اجلها جئت الى المركز مخفورا ومغلولا، وكان ذهني طوال الوقت يفكر في تهم لها علاقة بالسياسة، فاذا بها تهمة اخرى جنائية ، فقد حصلت عملية سطو على شي ما في جمعية الفكر ، وان السطو حصل دون تحطيم لباب المقر او نافذة من نوافذه ، مما يؤكد ان السطو حصل من احد اثنين يملكان مفتاحا للدخول الى المقر هما الشاب الاسود المكلف بفتح المقر ، وهناك مفتاح اخرهو الذي امر الاستاذ سيالة امين الجمعية، باعطائه لي، بعد ان صارت الشقة مقرا لفرقة المسرح الجديد، ويحتاج افرادها للبقاء مدة اطول من ساعات الدوام ، ويبدو ان الولد الاسود انكر علاقته باي سطو حصل، فكان الرجل الثاني في التهمة هو حامل النسخة

الثانية من المفتاح، وطبعا ابلغت رئيس المركز ان لا علاقة لي بالموضوع ، وانني منذ بضعة ايام سافرت الى البلدة ، واملك شهودا على وجودي فيها خلال هذه المدة ، لكنه ابلغني ان هناك عنصرا امنيا مكلفا بالتحقيق هو الذي سيتولى التحقيق وكتابة المحضر ، ودق الجرس للشرطي الذي جاء ياخذني الى غرفة التحقيق ، وربما الحجز، لانه قبل الوصول الى تلك الحجرة ، ساقني الى مكان في الاستقبال اخذوا متعلقاتي كلها ولم تبق معي الا الملابس التي فوق جسمي، ثم ادخلني الى غرفة عارية الجدران ، لا شيء فيها الا طاولة حديدية ، وكرسي جلست فوقه ، واخر في الطرف الذي يواجهني ، وما لبث ان جاء شخص جامد الملامح ، كان وجهه مصنوع من حديد مطلي باللون الرمادي ، وسالني عما اقول في تهمة السطو على ممتلكات الجمعية ، فاجبته بما اجبت به رئيسه ، فنهض من مكانه ووضع جملة من اوراق بيضاء امامي ، وقلم حبر جاف ، وقال لي اريدك ان تكتب اعترافاتك بالتفصيل فوق هذه الورقة، فقلت له ان لا اجابة لي غير ما قلته له، فعاد يقول بانني امام خيارين لا ثالث لهما اما الاعتراف بارادتي ودون عسف او اجبار ، وبذلك اخدم نفسي بتوفير العناء عليها على شرطة التحقيق، اما ان اعترف غصبا وقهرا، مؤكدا لي بعبارات جازمة قاطعة، تخرج من حنجرة مستعارة كانها حنجرة مصنوعة من حديد صديء، ان لديه، تحت امرته، من يملك الخبرة بكيفية انتزاع هذا الاعتراف، ولا ادري متى ولا كيف برز امامي رجلان متطابقان في الطول والهيئة، يرتدي كل منهما فانلة كاكية اللون تلتصق بجسمه ، وظهرت استدارة بطن كل منهما كانهما يعانيان من انبعاج، على زند احدهما كتابة كانها نبش الدجاج فوق التراب، والثاني تزين جبينه ندبة تصنع حاجبا ثانيا فوق احد حاجبيه، وخاطبني رجل التحقيق ، انه سيتركني لهما، لان مهمته تقضي اخذ الاعتراف بالرضا، اما غير الرضا فيقع خارج اختصاصه . غادر الغرفة وسألاني ان انتقل من الكرسي واقف معطيا ظهري الى الحائط، وبدأ الاثنان يستخدمانني كما يستخدم الملاكم زكيبة مليئة بالرمل ، ويسألانني بين اللكمات ان اقول نعم، للاعتراف، وتحت تاثير الالم اقول لهم نعم ساعترف، واكررها عاليا فيتوقفان، ينتظران الاعتراف تمهيدا لاحضر القلم والورق ، وعندما يسمعان مني حقيقة انني لا املك شيئا اعترف به ، ولا اعرف عن الموضوع شيئا ، يعودان لضربي باسلوب اكثر غلا واكثر حقدا، فاصيح بانني ساعترف، بغرض ان احصل على هدنة منهما ، وعندما احصل على الهدنة ، اعود للقول بانني لا اعرف عن الموضوع شيئا، فيقول احدهما لصاحبه ، انه لا ينتظر مني اعترافا سريعا كما يفعل شباب لم يذهبوا الى المدارس، وانني واحد من اهل المعرفة ممن يدركون خطورة الاعتراف ، فلن اكون سهلا في يديهما، فيؤكد له الثاني ان كل تعليمي لن يصمد امام المزيد من اللكمات ، وانني اخدع نفسي اذا ظننت انهما سيفشلاني في ارغامي على الاعتراف ، طال الوقت او قصر ، وهيات نفسي لحصص كثيرة قادمة من مثل هذا التعذيب ، عندما استمعت لكلامهما، واحسست انهما يتجنبان ضرب الانف لكي لا يتسببا في دم ينزف منه ، يربك هذه الجلسة وربما خوفا من تلطيخ ملابسهما ، والحقيقة فانه رغم الالم الذي تسببه لي هذه اللكمات المتعاقبة التي تنهمر على كل مكان من جسمي ، فانها لم تكن هي الاهم الاساسي

بالنسبة لي ، وانما ظل الهم هو ذلك الذي كان يشغل ذهني منذ ان وقعت الواقعة وصارت المداهمة للبيت ، انه موضوع ياتي في هذا الوقت الذي اتهيأ فيه للسفر الى القاهرة مدينة العلم والادب حيث امني النفس بلقاء كتاب ومبدعين احببت كتاباتهم وفنهم، فهل ياتي هذا الحادث ليحرمني حقا من هذه البعثة، ويسد في وجهي باب الامل . واثناء انهماكهما في مواصلة الضرب ، توقفا ينصتان لطرقات على الباب ، ويلتفتان لبعضهما ، يتبادلان نظرات الاستغراب، لانه كان واضحا ان هذه الطرقات جاءت خارج الحسابات ، فالرجل الرمادي المشرف على التحقيق يملك وسيلة الدخول والخروج دون حاجة لمثل هذه الطرقات ، فمن تراه يكون هذا القادم الجديد الذي يدخل على المعادلة دون انتظار؟ ذهب احدهما يفتح الباب ، وعاد يبلغ صاحبه بمن يكون الطارق بلغة مرموزة استطعت ان افهم منها، انه مبعوث من رئيس المركز. وتوقفت اثر ذلك اللكمات، واخذاني لاغسل وجهي في دورة المياه ، استعدادا للذهاب الى غرفة رئيس المركز كما فهمت ، ومبالغة في القيام بواجب التحضير لهذه المقابلة ، اخذ احدهما منشفة، يحاول ان يدلك بها الكدمات التي ظهرت فوق جبيني لاخفاء بروزها، وعندما جاء عسكري يقودني الى مكتبه، دخلت لاجد بصحبته الاستاذ محمد فريد سيالة، الذي نهض من مكانه ، وهرع يصافحني بحرارة ، ويشد على يدي متاسفا لما حدث، ان هناك روتيناً في مثل هذه التحقيقات، اخذ طريقه سريعا دون ان يتمهل لتبين اشياء ، سرعان ما اتضحت الان ، وافهمني انه اتضح ان الولد الاسود كان صاحب سوابق ، وان الاجرام متأصل في سلوكه ، وانه عندما تم تعيينه حارسا للجمعية ، تم ذلك دون تدقيق في اوراقه، مما يعني ان وجوده في هذا المكان كان خطأ ، لانه تاكد ان لا علاقة لي بما حدث، وان سوابق الرجل الاجرامية ، لم تتضح الا الان ، وانه يريد ان يعتذر لي عما عانيته من اجراءات مهينة،وتقدم رئيس المركز مصباح الفيل، يصافحني مصافحة الافراج ، وابلغني اعتذاره ولكن بهمهمة غير مفهومة ولا واضحه، وكان تفضله بالافراج عني في حد ذاته مكرمة يجب ان اشكره عليها ، وكان ما فعلته حال استرداد متعلقاتي ، وخروجي من المركز الاوسط، هو ان اتجهت الى وكالة السفر ، لكي اعود في اول وسيلة نقل الى البلدة، ليعرف الناس من خلال هذه العودة ، ان ما حدث مجرد خطأ، وان صفحتي بيضاء من اية تهمة، وان والدي الذي تركته يعاني احساسا بالعار والحزن، مع بعض افراد الاسرة ، يجب ان اعود بسرعة لرفع هذا الاذي ، اي هذا العار والحزن، عنهم باسرع وقت ممكن ، ولم اكن اعلم ان الامر كان يقتضي مجيء كل هذه الحشود من المهنئين بالبراءة وسلامة العودة ، وان الامر استدعي ان يذبح والدي جديا وربما اكثر من جدي ، للتعبير عن الفرح وتقديم الولائم للمهنئين ، وكانت فرحتي مضاعة ، لان هذه البراءة جاءت تزيل ما تصورت انه سيكون عائقا دون اكمال البعثة ، التي استانفت الاستعداد لها، بحماس وشوق شديدين.

ضمت البعثة اثنين من ولاية برقة ، واثنين من ولاية فزان، وثلاثة من ولاية طرابلس، لا نساء بينهم ، وهناك فقط مبعوث واحد يملك مؤهلا جامعيا، حيث تخرج من كلية الاداب اولى الكليات التي تاسست في

كما يسمونه بلغة term الجامعة الليبية، وكانت مدة البعثة عاما كاملا ، وربما قسم الى ثلاثة فصول او الاكاديميات الاجنبية، لم انقطع خلالها عن الكتابة للصحف ، وبالذات صحيفة الرائد الاسبوعية ، التي كنت ابعث لها رسائل ثقافية من القاهرة، وكان وجودي في هذه المدينة التي كانت بحق وصدق عاصمة للثقافة العربية ، فرصة لتمتين علاقتي بكتاب وادباء كثر، واوساط فنية وادبية ، كنت اعرفها عبر القراءة قبل مجيىء اليها، والان صار بامكاني ان ازور منتدياتها ومسارحها والتقي بعدد من نجومها ، وارتبط بعلاقات شخصية مع بعض الشخصيات المعروفة فيها، وهو فصل من حياتي سيكون موضوع جزء خاص في مرحلة قادمة من المذكرات .

كان من فضائل لائحة البعثات في ذلك الزمان، انها تقضي بان يستمر صرف الموظف الموفد في البعثة كانه موجود، ولانني ساتقاضي اثناء البعثة مرتبا من اليونسكو، بالاضافة الى وجودي في قسم داخلي ، فقد حق للاسرة ان تستفيد بمرتبي كاملا ، لانني لم اكن احتاج اليه او الى شيء منه اثناء وجودي في تلك البعثة، وكنت مازلت محتفظا بالمنصب الاداري الذي احتله في فرقة المسرح الجديد، وتركتها في عهدة لجنة تدير الفرقة بالانابة ، الا ان عراكا نشب بين تلك اللجنة المديرة ، ادى الى الاحتكام للجمعية العامة ، وانتخاب مدير جديد وهيئة جديدة ، وازداد الخلاف استفحالا الى حد تعطلت معه الفرقة عن تقديم اي انتاج، ولم تكن لاحد منهم علاقة باهل الادب والفكر ، ممن تضمهم جمعية الفكر، فلم يعد بامكانهم استخدام ذلك المقر، وارسل عدد منهم يطلب مني العودة الى طرابلس ولو في اجازة صغيرة للنظر فيما عصف بالفرقة من خلافات ، وانقاذ الموقف ، ولكنني واصلت اقامتي في مصر ، ولم اعد الى طرابلس الا بعد انتهاء البعثة ، فقد ذهبت في مطلع عام 1962، ورجعت في اخر عام 1963، ووجدت صديقي وزميلي في معهد هايتي محمد عبده الفوراري، قد قرر مغادرة بيت الاسرة في الظهرة، ويريد ان يستقل بسكنه بعد ان استقر في وظيفته بهيئة الكهرباء، وحيث انني لم اكن املك سكنا بعد عودتي ، واقمت في فندق صغير في شارع المأمون اسمه الجبل الاخضر بسبب ما وجدته من عون وونس من صاحبه الشيخ خليفة المزداوي، وابنه عمر، وعامل ينتمي الى بلدتنا اسمه احمد، فاتخذته مقرا مؤقتا ، انام في حجرة مشتركة ، تضم زبائن يتغيرون، اعتقد ان واحدا منهم كان الشاعر والنقابي العراقي الذي انتقل للحياة في ليبيا والزواج من اهلها، السيد عبد الحميد الشريف ، وقد تجددت صداقتي به وكنا شركاء في الاحتفاء باغلب من زار البلاد من شعراء العراق وعلى رأسهم ابو فرات شاعر الجزالة وسيد البناء الشعري الكلاسيكي محمد مهدي الجواهري ، المهم ان محمد عبده كان قد باشر البحث عن بيت ووجد بيتا كبيرا في جنان النوار ، به غرفتان وصالة كبيرة ، بمنافعه ، يتكون من طابقين، اتفقنا على تاجيره ، وتصادف ان كان صديقي وزميلي الكاتب يوسف القويري هو ايضا يبحث عن سكن ، وانضم صديق رابع اشترك معنا هو ايضا في تاجير البيت الذي لم يكن يبعد عن ميدان الشهداء سوى بضع خطوات ، وعرفنا بعد تاجيرنا له، ان البيت هو بيت قاضي قضاة طرابلس في الاربعينيات الشيخ محمود ابو رخيص ، وكنت اقدم الايجار لابنه الذي صار قاضيا يقطن شقة حديثة في شارع باندونج هو جعفر بورخيص، واشترينا الضروري من الاثاث وانتقلنا لحياة مشتركة في هذا البيت ، وعدت الى عملي السابق للبعثة ، مرشدا صحفيا في ادارة الجمعيات التعاونية ، التي كان قد تركها الاستاذ محمد ابو زيد الشريف بعد ان دخل انتخابات المجلس التشريعي وصار عضوا فيه، وتناوب على الادارة ثلاثة مدراء ، لم يدم اي منهم غير مدة لا تزيد عن عام واحد وهم محمود ابوزيان، ومحمد غنيم، ونور الدين المسعودي، وكان الاول عضوا

بارزا في جهاز الخدمة المدنية ، ورجلا صاحب ثقافة راقية وابن رجل مقاول من طرابلس وله شقيق زميل في الكتابة الصحفية اسمه احمد ، وشقيق يدرس الهندسة وصار من المع ابناء طرابلس في هذا المجال هو ابوبكر، اما الاثنان الاخران فقد جاءا من حقل التعليم ، محمد غنيم اشتهر بانه فنان في الخطوط وارتقى بعد ذلك في السلم الوظيفي وصار وكيلا مساعدا في وزارة العمل والشئون الاجتماعية ، والثاني ينتمي لعائلة المسعودي وهي عائلة علم ودين ، وكان مدرسا من قدماء المدرسين ، وكان احد تلاميذه في الفصول الابتدائية زميلي بشير الهاشمي ، وكان بشير ينقل لي نبوءة قالها له الاستاذ نور الدين بانه سيعيش حزينا طول عمره ، وربما كانت تحريضا منه لتلميذه ان يخرج من حالة السرحان التي تجعله يبدو دائما مهموما بشيء ما، فكان ان اطلق هذا القول كتعبير عن غيظه من تلميذه الشارد، متنبئا لبشير الهاشمي بالحزن الابدي، وكان هؤلاء المدراء الثلاثة يتسامحون معي في الوقت وعدم الانتظام في الحضور والالتزام بالروتين ، وكنت قد حسمت امر التعامل الاداري مع العمل منذ زمن قبل ذهابي في البعثة ، ووصلت الى اتفاق مع مؤسس هذه الادارة الاستاذ ابوزيد الشريف ، وهو ان اقدم ما يريده مني العمل دون نظر الى ساعات الدوام واوقات الحضور والانصراف ، واجتهدت في تقديم عمل اكثر جودة ، ولم اكن احضر الا لتقديم مادة النشرة التي احررها للجمعيات التعاونية ، واستلام ما يكون قد توفر من مادة لها في الادارة.

واذكر ان ادارة المطبوعات قررت انشاء مجلة شهرية ، ربما لكي تحل مكان هنا طرابلس الغرب ، التي اصبحت مجلة متخصصة في الشئون الاذاعية ، واعطيت اسم ليبيا الحديثة ، وجاءني الزميل الصحفي الذي اسندت اليه مهمة رئاسة التحرير يطلب ان اعينه في تحرير المجلة ، لانه لم يكن يستطيع ان يتوفر على طاقم متفرغ، ويريد ان يستعين بكتاب متعاونين، وكان هذا الصديق والزميل هو الاستاذ رجب لملوم ، الذي كان يكتب القصة ايضا وينشر بعض المقالات في صحيفتي الرائد وطرابلس الغرب ، وكان يعمل في واحد من القطاعات الحكومية اظنه المواصلات، وانتقل لهذه الوظيفة القيادية في العمل الصحفي ، وكان متابعا لمجلتي روز اليوسف وصباح الخير ومعجبا بهما ، متحمسا للمدرسة الصحفية التي يتبعانها، وهي مدرسة صحفية تحتفي بالرسم التوضيحي والرسم الساخر اكثر من اهتمامها بالصورة الشمسية ، فاراد ان يقتدي بهما في اعطاء شخصية متميزة لهذه المجلة الشهرية الجديدة ، واسند مهمات الرسم والاخراج والتصوير لكل من الزميلين عمر ابو عامر وصالح بن دردف، وتوليت مع اصدقاء مثل بشير الهاشمي ونجم الدين الكيب تقديم الدعم الادبي والمادة التحريرية بالتعاون مع رئيس التحرير نفسه رجب لملوم، ونشرت بها عددا من التحقيقات الصحفية كما نشرت بها بعضا من قصصي القصيرة بينها قصة الطاحونة ، وربما كتبت مادة اخرى بدون توقيع لان تقاليد الصحف كانت الا يتكرر اسم الكاتب اكثر من مرة ، فاذا نشر مقالا باسمه فلا يجوز ان ينشر مقالا ثانيا بذات الاسم واما ان يختار له اسما مستعارا او يتركه غفلا من الامضاء ، وحدثث معي مفارقة يمكن ذكرها ، فقد قلت انني كنت غافلا عما يحتدم في الحياة الادبية من صراع ، وما يمكن ان يخفيه بعض الناس من غيرة مهنية او حسد او حقد ، كما لم اكن معنيا بما تريده بعض الزعامات الادبية ، ويمكن القول انه في هذه المرحلة تبلورت مدرستان ادبيتان نشب بينهما بعض الصراع ، ربما املته المراهقة الادبية ، وقد سجل بعضا من هذا الصراع زميلنا السيد كامل عراب في كتاب اعطاه اسما يعارض به اسما لواحد من كتبي اسميته معارك الغد، فجعل اسم كتابه معارك الامس صدر عن المنشاة العامة للنشر عام 1986 سجل فيه الخصومات الادبية التي نشبت بين

فريق يقوده السيد عبد القادر ابو هروس ، يدافع عن المدارس الادبية ذات المنحى الجمالي والترفيهي ، وعن مدرسة تنتمي لافكار الاشتراكية الواقعية ، لها حضور واسع في الصحافة الادبية المصرية ، واصداء في بعض الاوساط الادبية الاخرى ، وكان السيد كامل عراب نفسه احد المشاركين في هذه المعركة مع احد قادة هذا الاتجاه الكاتب القصصي السيد كامل المقهور ، وهي فترة سابقة لدخولي المجال الادبي ، ولو انني عرفت اخبارها من خلال اصدقاء مثل بشير الهاشمي ، وكان السيد رجب لملوم قد اتخذ تقليدا في المجلة ان يدعو كاتبا لمناقشة مواد العدد الماضي لينشر في العدد الذي يليه ، وفرحت عندما قال انه اختار للعدد الذي نشرت فيه قصة الطاحونة ، كاتبا صاحب باع في هذا المجال هو السيد المقهور ، فقد تاكدت ان قصتي سوف تحظى بكاتب يعرف قيمتها ويدرك قوة ما تحمله من صياغة وحبكة واسلوب ، وهو ما عرفته من اناس كانوا قد احبوها وعبروا عن اعجابهم من زملائي الكتاب الناشئين ، وكانت صدمتي كبيرة عندما ظهر العدد يحمل رايا معاكسا لما توقعته ، بل كان رايا ظالما بكل المقاييس، ولم اكن حتى ذلك الوقت قد التقيت بالسيد المقهور او عرفته عن قرب ، ويبدو ان جماليات الاسلوب والاحتفاء بالاجواء الشعرية وخلو القصة ممن يسميه اهل الواقعية الاشتراكية، التصاقا بالجماهير الكادحة من عمال وفلاحين، لم يكن موجودا في القصة ، مما راى انني انتمي الى التيار المعاكس للمدرسة التي يتبعها ، فشن هجوما كاسحا على القصة قائلا اننها تتطابق مع قصة ليوسف ادريس الذي كنت اشيد احيانا بحبي لقصصه ، ولم يكن في القصة اي تطابق مع تلك القصة ولكنه بشيء من العسف والظلم ارادها ان تتطابق لان في قصة يوسف ادريس الة طحن للحبوب وفي قصتي مثل هذه الالة التي تصدر نفس الصوت ، وكان واضحا ان الرجل احتسبني خطأ على المعسكر المعادي وكان غبار المعارك ما زال دائرا بين الاثنين، وطبعا هناك من خصوم الكاتب من جاء يقول لي انه غيرة مهنية فقد جاء من راه يمثل خطرا على تسيده على المشهد القصصي ، لكن الصديق رجب لملوم وربما صديقي بشير الهاشمي ، اول من حذراني من الاستماع لخصوم الرجل ومن يعادون اتجاهه وبينهم اناس كبار في مثل قامته كنت قد صرت التقي بهم مثل محمد فريد سيالة وعبد القادر ابو هروس ومن قبلهما الشيخ عبد السلام خليل ، ورغم ما احسست به من صدمة لهذا التقييم ، فانني اطلاقا لم احمل ضغينة للسيد المقهور ، ولم اكتب ادني اشارة لغضبي منه ، او اكتب ردا على نقده الجارح الظالم ، كل ما فعلته في احدى زياراتي للقاهرة ان حملت النقد ليوسف ادريس نفسه ، وسالته رايه عمن يقول ان لقصتي تشابها مع قصته ، فضحك ضحكا كثيرا من مثل هذه المقارنة التي لا وجود لاي اساس لها ، وقال انه لم كان (لم يكن) قد قرأ القصة ، لانني كنت استشيره في كل ما اكتب واعرضه عليه قبل نشره ، ولم تخطر بفكره هذه الخاطرة فكيف تراها خطرت على كاتبها ، ولم اشرح له الدوافع التي خمنتها لتلك الحملة الظالمة ، وتوثقت فيما بعد صلتي بالسيد كامل المقهور ، ولم اشر في يوم من الايام لهذه القصة ووضعتها وراء ظهري لكي اتيح للحياة ان تمضى في طريقها وللصداقة ان تتوطد وتتحقق دون حاجة الى وضع العراقيل في طريقها .

ولابد من القول ان ليبيا الحديثة ، قدمت لونا جديدا في صحافة تلك المرحلة وتركت بصمة في تاريخ صحافة المنوعات في ليبيا ، الا ان مثل هذا الطابع المتميز الذي يقتدي بمدرسة روز اليوسف لم يدم طويلا، فقد جاء رئيس تحرير جديد احالها الى مجلة ذات ورق مصقول وصور ملونة وحولها الى ما يشبه كاتلوج الدعاية للحكومة ففقدت شخصيتها وتحولت الى شيء اشبه بما تصدره الشركات من اوراق

الدعاية ، وقصة هذا التحول في رئاسة التحرير حصل عندما اراد رئيس التحرير المؤسس للمجلة السيد رجب لملوم ان تحيط المجلة باخبار وشئون الوطن شرقه وغربه فذهب في رحلة الى العاصمة الشرقية للبلاد لكي يستعين بالكتاب المقيمين هناك ، لكتابة مادة تعكس حياة تلك المدينة وتصور ما تزخر به المناطق الشرقية من تراث وتاريخ ومدن اثرية ، وعاد من رحلته بمادة لنشرها في الاعداد القادمة ، كما عاد بوعود للكتابة من كتاب من هناك ، وجاء منبهرا بصحفي شاب ، قال انه يمتليء حماسا للعمل ، وانه كان دليله في هذه الرحلة وكان مضيفه الذي لم يتركه لحظة واحدة ، وتحمس زميلنا رجب لملوم لنقل هذا الصحفي للعمل معه في المجلة في طرابلس وبعث برسائل الى المؤسسات المعنية وسعى لديها باصرار والحاح حتى نجح في مسعاه ، واستلم معه الاستاذ الصالحين نتفه العمل محررا رئيسيا في المجلة ، واشاع فيها جوا من النشاط والحيوية حقا الى حد لم تعد معه المجلة تحتاج لاحد من المتعاونين ، لان السيد الصالحين قادر بنشاطه ومواهبه على ملء كل الفراغات وتحرير كل الابواب وجلب المواد من عدة مصادر بما يفيض عن حاجة المجلة ، فتركنا له الساحة شاكرين الظروف التي اعانت صديقنا رئيس التحرير بهذا المدد الذي قد يصل الى ان يبقيه هو نفسه مرتاحا في البيت ، وهو ما حصل فعلا ، فقد راينا السيد لملوم يطير من منصبه ليحتله زميله الجديد السيد صالحين نتفه، وراينا المجلة ترتدي حلة جديدة ، فقد صارت فعلا مجلة مصورة تعتني بابراز صور المسؤولين ومقابلاتهم ، وصار تركيزه على التحقيق والخبر الصحفي ، ولم يكن بحاجة لاي احد من اهل الاقلام ، فقد لجأ الى عقلية التجديد والابتكار لديه في تحويل بعض العاملين الاداريين الى صحفيين فقد كان لديه شاب قليل التاهيل يعمل ضاربا على الالة كاتبة ، وجد ان لديه من الشباب والنشاط والقدرة على الحركة ما يستفيد منه في العمل الصحفي ، فنقله من العمل جالسا على الالة الكاتبة الى ان يكون مندوبا يطوف بالدوائر الحكومية يجلب الاخبار والمادة الصحفية لتحقيقات ، لن يجد الصالحين نفسه مشكلة في وضعها في قالب صحفي ، بل وانتهى الامر بهذا الشاب واسمه مفتاح السعداوي لان يذهب مراسلا في افريقيا ويغيب فيها عدداً من السنوات ، الى حد ان عائلته كانت تخشى ان يكون قد قضى نحبه هناك لانقطاع اخباره، ثم يظهر فجاة بتحقيق صحفي او لقاء مع احد الرؤساء، واقترحت عليه عندما التقيت به بعد سنوات طويله من الغياب في افريقيا ان يكتب كتابا يسميه ضائع في افريقيا ، لانه قضى جزءا كبيرا من عقدي السبعينيات والثمانينيات غائبا في المتاهة الافريقية ، ولحق عطف زميلنا الصالحين عاملا في الصحيفة كان يعمل بها ساعيا، فاعطاه الة تصوير وطالبه ان يصبح مصورا تملا صحفه تلك المجلة التي تحولت الى مجرد صفحات ملونة من الصور والتعليقات واجزاء الشكر والمديح لرموز الدولة ، واذكر ان هذا المصور واسمه ابوعجيلة انتقل بعد ذلك للعمل في الصحف اليومية ، وكان يتلقى الملاحظات السلبية على ما يجلبه من صور ، قائلين له انها صور جامدة ، وانه يجب ان يضع شيئا من الحيوية والحركة في صوره، ولم يفهم ان المعنى هو ان يكون ثمة تعبير في الصورة ، واذكر انني طلبت منه مرة ونحن في مطار طرابلس نجري حوارا صحفيا مع الرئيس الغيني سيكاتوري الذي كان يمر مجرد مرور بليبيا واستقبله بعض موظفي الخارجية بينهم على ما اذكر مدير البروتوكول السيد احميده الزليطني ، وكنت اعرف ان به بعض التهتهة في كلامه وفوجئت بان هذه التهتهة تختفي عندما يتكلم باللغة الانجليزية ، المهم انهم ارسلوا معي ابو عجيلة لالتقاط صورة للرئيس الزائر ، وفوجئت به واقفا لا ياخذ الصورة والرجل يمكن ان ينتقل الى طائرته في اية لحظة ، وعرفت فيما بعد انه نظرا للالحاح على صور تمتلىء تعبيرا وحركة ، راي ان ينتظر الرئيس حتى يحرك يده ، وعندما لم يحدث ، رايت ابوعجيلة يتحرك نحو الرئيس الغاني ، وياخذ يده ويطالبه بان يبقى اليد

مرفوعة ، ثم تركه على هذا ومشى بظهره بضع خطوات لكي ياخذ الصورة ، وطبعا فاجأت هذه الحركة البشر المتحلقين حول الرئيس بل ان الرئيس نفسه لم يعرف ما المقصود بابقاء يده معلقة في الهواء كما طالبه هذا المصور السمين ، واستشاط السيد احميده الزليطني غيظا وعادت له التهتهة بكل اللغات ، وكان عذر السيد ابو عجيلة انه يريد صورة فيها حركة حسب طلبات رئيس التحرير. من فضائل السيد الصالحين نتفه ، انه كان قد بنى بسيدة من الوسط الادبي ، ذات موهبة في التاليف القصصي، هي السيدة مرضية النعاس ، جاء بها من بنغازي الى طرابلس لتحقق حضورا متميزا في المجال الادبي، واستطعنا ان نتعرف على انتاجها الصحفي وكتابتها الابداعية بعد فترة من اصدار السيدة خديجة الجهمي لمجلة المرأة ، وكانت هي احدى العناصرالنسائية التي انضوت تحت جناح تلك الشاعرة الشعبية والاعلامية المتميزة ، مثلها مثل سيدات من اهل الصحافة والادب، السيدة لطفية القبائلي ، والسيدة نادرة العويتي ، وكانت السيدة مرضية النعاس اول هؤلاء النسوة ممن اهتمت بكتابة الرواية بدءا من روايتها المظروف الازرق التي نشرتها مسلسلة في اواخر الستينيات ثم في كتاب بعد ذلك بثلاثة او اربعة اعوام وتوالى عطاؤها وابداعها حتى وقت كتابة هذه المذكرات.

بعد عودتي من البعثة ، جاء اعضاء فرقة المسرح الجديد، يستعينون بي لاستئناف نشاطها، فاتصلت باصدقائي في ادارة الجمعيات بالشئون الاجتماعية ، وهياوا لنا مكانا لانعقاد الجمعية العمومية ، واعدنا انتخاب الرئيس والهيئة المديرة، فاعادوا انتخابي رئيسا للفرقة ، يعينني في الادارة عدد من الشباب منهم الصديق مؤلف الاغاني مسعود القبلاوي ، الذي استخدم مواهبه في الحوار العامي ، وكتب لنا مسرحية عنوانها "قهوة الحاج منصور " قدمناها على مسرح الغزالة" من اخراجي ، مع مشاركة في البطولة ، وكنت قبل ذلك قد استطعت توفير مقر للفرقة ، وكان هذه المقر شقة في عمارة بمنطقة الظهرة، شارع النخلة ، قامت بتاجيره لنا الحكومة كنوع من المساعدة للفرقة ، حيث اجرينا التمارين ، ومثل امامي في المسرحية كل من الزميلين مسعود القبلاوى في دور الجرسون، ونوري المكي صاحب المقهي، وكنا قد توفقنا في الحصول علي سيدة ليبية اسمها سالمة ، تميل الى الامتلاء قائلا، من عائلة ليبية عادت حديثا من تونس ، نجت من كبت وقهر التقاليد الليبية وجمودها ، فسمحت العائلة لابنتها بالمشاركة في عدد من الاعمال المسرحية. كان وجودي في مسكن واحد مع زميلي في معهد هايتي محمد عبده الفوراري ، فرصة لاستئناف شراكتنا الفنية التي بدأناها في ذلك المعهد ، لاننا بعد التخرج ذهبنا الى فرقتين مختلفتين ، فقد ذهبت الى فرقة الامل ثم تاسيس فرقة المسرح الجديد، بينما انهمك هو في العمل مع فرقة ابناء منطقته في الظهرة وفشلوم حيث يقيم، وقد اسموها فرقة النجم الفضي ، يترأسها كاتب صحفي اسمه عبد الحفيظ قجوم ، ويقوم ببطولة اعمالها مع محمد عبده، مع زميلنا في المعهد السيد ابوالقاسم عبد العزيز. وتدارسنا فيما يمكن تقديمه سويا ، وكان له مشروع نص فكاهي ، قراته وجلست معه نجري عليه التعديلات حتى اكتمل وصار نصا صالحا للعرض ، وكنت متأثرا بما رايته في القاهرة ، اسعى لتأسيس مسرح دائم في عاصمة البلاد، فهي جديرة بما فيها من كثافة سكانية وما تتوفر عليه من طلائع مستنيرة تنفع جمهورا للمسرح وما تركه الايطاليون في البلاد من مسارح ، ان تحظى بوجود مسرح يقدم عروضه كل يوم، ورسمت خطة لذلك، قائلا في نفسي ان المسرح الذي ينفع لهذه المهمة لابد ان يكون مسرحا صغيرا ، لكي لا نستهلك وجود الجمهور في ليال قليلة، ويمكن توزيع جمهور الليلة الواحدة في مسرح كبير على عدة ليال ، وكان اصغر مسرح في طرابلس هو مسرح وسينما

جابي ، وكانت في تلك الفترة متوقفة عن العمل ، ربما لان معدات السينما فيها تحتاج لتجديد، فجمهور قليل دائم ، خير من جمهور كبير ياتي لليلة واحدة ويختفي بعد ذلك، وكان المسرح الصغير هو البند الاول في خطة العمل ، لتأسيس المسرح الدائم ، والبند الثاني ، في الخطة كان هو المسرحية الكوميدية القادرة على استقطاب الجمهور واضحاكه ، ووضعت نقطة ثالثة لمزيد من استقطاب الجمهور ، هو دعم المسرحية ببعض الفقرات الغنائية ، وطبعا استبعدت اطلاقا وجود راقصة كالتي صنعت لنا كارثة العرض الاول، وكان تقليد الفقرات الموسيقية تقليدا موجودا في المسرح المصري عند بداياته في شارع عماد الدين وروض الفرج وغيرها من مناطق نشأ فيها الفن وامتزج العمل الغنائي بالعمل المسرحي ، وازدهر في مطلع القرن المسرح الغنائي وكان ابطاله وصناعه من الموسيقيين مثل فرقة عكاشة التي كان توفيق الحكيم احد الكتاب لاسكتشاتها الغنائية ، وقبلها فرقة سلامة حجازي، وصولا الى مسرحيات زكريا احمد وسيد درويش وغيرهما ، ثم استطاع المسرح المصري الاستغناء عن دعم نفسه بالفقرات الغنائية ربما بدءا من ثلاثينيات القرن العشرين وانشاء المسرح القومي الذي استهل اعماله باهل الكهف لتوفيق الحكيم، وذهبت الى التاجر اليهودي الذي يملك سينما جابي ورايته يستطيع الاستغناء عن السينما وتحويلها الى تقديم العروض المسرحية ولمدة طويلة ، بايجار سنوي ، لم يكن متوفرا لدي، ولا متوفرا في خزانة الفرقة ، وهنا ذهبت الى صديق ينتمي لعائلة غنية من عائلات طرابلس، هو الصديق راسم بن عثمان ، وكان والده الحاج علي بن عثمان تاجر شهير ، ورغم ما عرفت من وجود شيء من سوء الفهم بينه وبين والده، الا ان الصديق راسم تقدم بشهامة وحماس لانقاذ الموقف وتقديم المساعدة عبر ترتيب لم اعد اذكر تفاصيله ، ربما تسديد المبلغ عن طريق اقتطاع جزء من الدخل ، واكتملت تمارين المسرحية الكوميدية التي كانت من تاليف واخراج محمد عبده ، ولكنني كنت مشاركا في اضافة المواقف واقتراح الدعابات ، واسميناها متاعب الاسطى خربوشة ، واستطيع ان اقول جازما واثقا بانني لم اشهد في حياتي المسرحية مسرحية استطاعت اضحاكي على مدى ساعتي العرض مثل هذه المسرحية ، ولامست المسرحية قضايا كثيرة كان يشعر بها الناس ملامسة صادقة ، وحية ، وواقعية ، خاصة تلك المظاهر التي تصاحب الانتخابات وما تزخر به مواسم الانتخابات من وعود كاذبة ، ومن رشاوي ومن ادعياء، لاننا جعلنا الاسطى خربوشة الامي البسيط ، يصل به طموحه وهو يرى العك والمساخر ، ان يدخل بنفسه في المنافسة الانتخابية ، ولا يمكن ان يقول انسان تابع المسارح الليبية ان ثمة مسرحية احتوت هذا الكم الهائل من المواقف الضاحكة ، وتجلت العبقرية الكوميدية للفنان محمد عبده ، بما لا سابق له في كل ما شارك فيه من تمثيليات ، وسخر له الله ممثلا لم يواصل التمثيل ،اسمر البشرة مثله ، نحيف وقصير ، اسمه فيما اعتقد المخزوم ، ليكون صبي الاسطى خربوشة فيما يشبه الفرفور في مسرحية يوسف ادريس الفرافير التي كانت الاسطى خربوشة وتابعه الصغير سابقة لها . وكان الاقبال الجماهيري على المسرحية كاسحا، واستمر العرض لمدة شهرين ، ازيد او انقص قليلا ، بمسرح كامل العدد، وبفقرات غنائية اختصرناها لحدها الادني كانت تقدمها فرقة تونسية تواجدت في طرابلس لاحياء حفل ما ، وصار من حقنا ان نقول بوجود مسرح دائم في طرابلس ، وان الفكرة التي كانت حلما قد تحولت فعلا الى حقيقة .

ولا ادري على وجه الدقة ماذا حدث ، او ماهو الخلاف الذي حصل ، وهل كان صديقنا راسم بن عثمان طرفا فيه، ولكن اذكر ان له شقيقا اسمه انور، رحمه الله، حدث نوع من الاشتباك بالكلمات بينه وبن احد العاملين في المسرح، ربما اغضب هذا الامر صديقنا راسم ، وتفاقم الموضوع حتى ادى الى ايقاف

العرض، واجهاض تجربة اول مسرح دائم تعرفه مدينة طرابلس ، وان لم يكن دائما بالمعني الصحيح، الا انه بداية لم تكتمل .

مع اخر من عملت معهم من مديري ادارة التعاون ، وهو السيد نور الدين المسعودي، تم اقتراح تقديم برنامج اذاعي يتخصص في الاقتصاد التعاوني وانشطة الجمعيات التعاونية ، توليت الاشراف على اعداده وكتابة مادته، دون ان يظهر اسمي عليه ، وانما يقدم باسم الادارة ويتولى قراءة المواد المذيع المتميز الاستاذ ناصر عبد السميع، واخترت له عنوانا جذابا هو "هاتوا ايديكم " وهي عبارة اسرف في استخدامها اصحاب انقلاب سبتمبر فيما بعد ووردت في بيانهم الاول، وكان اسمي طبعا موجودا في برامج اخرى ، احداها برنامج صباحي ، وبعضها برامج موسمية ، مثل برنامج قدمته في اكثر من رمضان ، كل يوم، بعنوان كتاب اليوم ، لمدة ثلاثين حلقة في كل عام، وهو البرنامج الذي تحول فيما بعد الى برنامج اسبوعي يقدمه الزميل محمد احمد الزوي بعنوان كتاب وكاتب، كما جربت حظي في كتابة التمثيلية الاذاعية، وقدمت احدى هذه التمثيليات بعنوان السجن الكبير، تتحدث عن حالة وجودية ، اكثر مما هي حالة سياسية ، وعن مواطن عاني مرارة السجن ، وعندما خرج الى الدنيا ليواجه هموم الحياة ، راى انها سجن كبير اكثر قسوة من السجن الصغير، ولكن رقيبا من رقباء الاذاعة ، جاهل وجبان رعديد، رايت فيه مثالا لضيق الافق والسطحية، له وجه اصفر كانه يعاني من مرض الصفراء كما يسمونه، رأى ان في ذلك انتقاد للدولة واتهام لها بانها جعلت البلاد سجنا، ولانني لم اكن اقصد هذا المعنى ، فلم اجد غضاضة في تغيير النهاية ، ويجد الرجل عندما يخرج من السجن من يساعده في الخروج من ازمة البطالة التي تعرض لها، وتحولت تعاسة البطل الى سعادة ، وتحول اسم التمثيلية الى اسم يدل على التفاول هو "الدنيا بخير" بفضل هذا الرقيب العجيب الذي اكتشفت فيه ، وخلال تجربة اخرى سقوطا اخلاقيا عندما صارحني زميل اكثر تعاملا مني مع الاذاعة في هذا المجال، انه صار يقبض ثمن اجازته للتمثيلية، نسبة من مكافأة المؤلف، والا فانه يحجب عنها الموافقة،وهو فساد اصبح فيما بعد ظاهرة عامة ، وقانونا لابد ان يمر من تحته كل متعامل مع الاذاعة، اما في ذلك الوقت فقد كان هذا الرجل ظاهرة شاذة ، ورجلا حقيرا وسط مجموعة من خيار ابناء الاعلام واكثرهم شرفا ونزاهة ولن استطيع هنا ان اعدد الشرفاء واهل الكفاءة الذين تولوا مناصب قيادية في هذا المكان بدءا من مدراء مثل صالح الشنطة ومصطفى بن شعبان وعبد العزيز الرحيبي والشارف الترهوني وحسني صالح وحسني شعبان وابراهيم الهنقاري الى مهنيين مثل ناصر عبد السميع وكامل عراب ومحمد السفاقسي وكاظم نديم وعمران المدنيني واحمد فريد ومحمد المطماطي وعبد الحميد المجراب وخبراء عرب امثال عمر على وعز الدين السراج وعباقرة في التاليف الاذاعي مثل عبد الطيف الشويرف في التمثيليات الدينية وعبد السلام خليل في التاريخية وعبده الطرابلسي في التمثيلية الساخرة ومحمد ابوعامر في التمثيلية الاجتماعية ، وكان التعامل نقيا نظيفا ، يقوم على اسس من الاحترام والزمالة والذمة المالية الطاهرة العفيفة.

كان عام 1964 عان (عام) النهوض الصحفي في ليبيا، لانه في هذا العام تصادف ان صدرت اهم المشاريع الصحفية الخاصة ، فقد ترك الاستاذ محمد عمر الطشاني صحيفة فزان الحكومية وقرر اصدار صحيفة خاصة به اسماها الحرية مستفيدا من المناخ الجديد الذي اتاح اعطاء رخص للصحافة الحرة ، كما حذا حذوه زميله

في تاسيس صحيفة فزان السيد فاضل المسعود الذي سبقه في المجيء الى طرابلس وخاض تجربة العمل محررا ومدير تحرير لعدد من الصحف بينها الرائد والليبي قبل ان يعمد هو نفسه الى تاسيس صحيفته الميدان ، وفي بنغازي صدرت الحقيقة للاخوين الهوني ، محمد بشير ورشاد، وهناك مشاريع صحفية اخرى اقل اثارة وربما اهمية ، فقد اصدر كل من السيد رجب المغربي وعبد القادر طه الطويل , وهما شهيدان لقيا حتفهما في حادثي طائرة متفرقين ، الاول في حادث الطائرة التي اسقطتها اسرائيل فوق سيناء عام1973 والثاني في حادث الطائرة التي اسقطها القذافي فوق منطقة سيدي السائح في عام 1988، اصدر الاول صحيفة في نفس العام اسماها الرقيب واصدر الثاني صحيفة اسماها الريبورتاج، وفي طرابلس اصدر السيد محمد فريد سيالة صحيفة خاصة به اسماها الفجر ، قبل ان يحيلها الى رياضية باسم الاولمبياد، واذكر ان الاستاذ عبد الله شرف الدين المحامي ، تقدم لاصدار صحيفة اسماها في البداية الوحده ، وهي الكلمة الاولى في شعار حزب البعث الذي انتمى اليه ونال حكما بالسجن مع زملائه في فترة سابقة ، وعدل عن هذا الاسم ربما لما واجهه من اعتراضات رسمية بعد اصدار اعداد تجريبية، واسمى الصحيفة الايام، غير انها لم تواصل الصدور بسبب ما كان يصر عليه زملاء سابقون في التنظيم المحظور لحزب البعث من خط متشدد اصطدم بالحكومة وكتب في مذكراته يضع اللوم على هؤلاء الزملاء المتشددين، وفتحت هذه الصحف التي صدرت حديثا افاقا جديدة للكتابة والتعبير وقدمت فرصا لامثالي من كتاب الجيل الطالع لاختبار قدراتهم وافسحت لهم براحا للنشر لم يكن موجودا قبل هذا العام ، وبتشجيع من الصديق فاضل المسعودي ، قمت بعدة رحلات الى الخارج ، خرجت منها بمادة نشرتها في صحيفة الميدان، بدأت برحلة غير مسبوقة في عالم الصحافة الى اسطنبول حيث تقطن اكبر جالية ليبية ، رحلت منذ بداية الغز الايطالي كان عمرها في ذلك الوقت خمسين عاما، وسيجد من يعود الى اعداد الميدان عام 1964 هذه المادة التي نشرتها في عدة اعداد عن شيوخ الجالية الليبية وعن افراحها وعما تريده من الوطن الام ، وقد تركت الميدان لفترة من الوقت وعدت اليها بعد انقطاع عامين او اكثر لاكتب واحرر اكثر من باب كان بعض هذه الابواب يغطي صفحة كاملة مثل صفحة كلمات وبعضها كان للمشاركة في ابواب ثابتة في الصحيفة مثل باب ساخر يحمل توقيع البهلوان وابواب اخرى بعضها كان باسمي وبعضها كان بدون اسم لتعدد المقالات التي كنت انشرها كما نشرت مقابلات صحفية كثيرة في الميدان مع رموز الثقافة والفكر في العالم العربي ، وتلبية لدعوة جاءتني من صاحب الحرية السيد محمد عمر الطشاني، انتقلت لاكون محررا اساسيا تعتمد عليه تلك الصحيفة في موادها، واعود الان الى اعداد قديمة من صحيفة الحرية ، فاجد نفسي قد كتبت العدد كاملا، من الجلدة الى الجلدة، اللهم ماعدا الاخبار القادمة من الاذاعة ، وهي اخبار النشرة المسموعة التي اذيعت ذلك اليوم ، فكيف حدث هذ الاحتكار من طرفي لكل اعمدة الصحيفة؟ حدث هذا الاحتلال لصفحات الحرية لضرورة راها رئيس التحريرواقتضتها علاقة خاصة ربطته بمصر ، التي قضى جزءا من صباه وبواكير شبابه بها ، وارتبط فيها باصدقاء واحبة واصهار، لا يستطيع ان يفارقهم طويلا، فكان لا يمر شهران اوثلاثة الا ويقتطع لنفسه اسبوعين يقيمهما في فندق ناسيونال بشارع سليمان باشا ، في وسط القاهرة، وكان ياتي قبل سفره ليتفق معي على تحضير عددين كاملين ، اكتب له مادتهما ، ويرسم قبل ذهابه في اجازته خريطة اخراجية لهما، ويتركهما لسكرتير التحرير جاهزتين للطباعة والتنفيذ ، عدا صفحتين للاخبار هما الاولى والثانية ، والاخبار هي تلك التي تاتي من الوكالة الحكومية ، وكما اذاعتها نشرات الاخبار في الاذاعة الرسمية ، لكي لا يبقى ثمة مجال للمغامرة او ظهور مادة يمكن ان تجلب له مشاكل مع الدولة ، فقد قرا المادة التي كتبتها ووثق

من اخبار الوكالة ، وتبقى خانة صغيرة هي خانة الافتتاحية التي قد يتم الاستغناء عنها ، فلا تظهر واذا ظهرت فهي مادة يمليها بالهاتف من مكان اجازته في القاهرة ، يتناول فيها حدثا في الاخبار ، كما يتصل هاتفيا لمعرفة عناوين الصفحة الاولى الماخوذة من اخبار الوكالة ، ليثق اثناء غيابه ان كل شيء تحت السيطرة، وكنت اغيب اسبوعا قبل ذهابه في اجازة لاتفرغ في بيتي لتحضير المادة ، وارجع اليه وقد كتبت كل الابواب وكل الاعمدة وكل الصفحات بما في ذلك صفحات بعيدة عن تخصصي مثل صفحة المرأة او الرياضة او الاقتصاد ، وربما حدث احيانا توفر مادة فائضة في مثل هذه التخصصات او بعض الاركان فيكفيني عناء تحريرها، ولكن العددين لابد ان يكونا تحت يده قبل السفر ، مع مساحات يجيد تقديرها ومعرفتها للمادة الاعلانية ، التي سيتضمنها العددان ، ووجدت نفسي برغم هذا الجدول المزدحم بالمهمات التحريرية مع صحيفة الحرية ، البي دعوة جاءتني من الزميل رشاد الهوني للمساهمة في صحيفته الحقيقة ، التي صارت تحظى بشعبية كاسحة لما ظهر فيها من مهنية عالية ولحرص صاحبها ورئيس تحريرها بمشاركة اخيه الاكبر محمد ، على ان تكون حالة من حالات التجلي للكفاءة والجدارة الصحفية في ليبيا ولهذا سعيا الى حشد اكبر عدد من الاقلام الليبية التي تمثل شرق البلاد وغربها وجنوبها ، لتكون ممثلة فوق صفحات الحقيقة ، فاسهمت معه بصفحة اسبوعية ذات طابع ادبي فني جعلت لها عنوان الكلمات ، كما كنت اشارك بشكل اسبوعي في كتابة اليوميات التي يتناوب على كتابتها اهم كتاب الصحيفة ، وبعد فترة اتفقت معه على تحرير باب يومي اعطيته اسم " قف دقيقة" ، ولعل هذا الاسهام المكثف كان على حساب مساهماتي في بقية الصحف والمجلات واهمها طبعا صحيفة الحرية التي لم اقطع علاقتي بها الا بعد زمن من الكتابة للحقيقة ، ولانني كنت في ذات الوقت ناشطا من نشطاء الحركة الفنية المسرحية بالذات ، وقريبا من الوسط الفني ، فقد كنت اضمن الابواب التي احررها مادة فنية ، فجاءني ذات يوم صديق فلسطيني، اسمه عيسى قاسم ، يتولى تحرير مجلة المعرفة التي تصدر عن مركز الاستعلامات الامريكي في طرابلس ، وقال انه يتولى في ذات الوقت مراسلة صحيفة في بيروت هي صحيفة المحرر لصاحبها هشام ابو ظهر، او لعله كان يعين او يساعد مراسلا من بني وطنه يقيم في ليبيا يراسل تلك الصحيفة وان رسالته الصحفية التي يبعث بها الى المحرر تفتقر للمادة الفنية ، لان اهتمامه ينصب على الجوانب السياسية والاقتصادية ، ويريدني ان اقدم له بعض ما انشره من مادة فنية ليكمل به ما يراه من نقص في رسالة طرابلس دون ان ينسى حقي في التعويض المادي الذي تمنحه الصحيفة مقابل الرسالة ، وفعلا صرت اقدم له بعض ما انشره في الصحف المحلية ، الا انني رايت هذه المادة تظهر احيانا في مجلة المعرفة التي يتولى تحريرها ، ولان هناك نفورا شعبيا من مكاتب الدعاية الامريكية ، ورغم ان اسمي لم يكن اطلاقا يظهر مع هذه المادة ، الا انني سالت الاستاذ عيسى ان يمتنع عن نشر ما اكتبه من مادة في مجلة المعرفة ، وعرف بالامر صديقي الصحفي اليساري المعروف الاستاذ فاضل المسعودي ، وتوقعت ان يستنكر ان يكون لي اتصال بمحرر المعرفة ، الا ان موقفه كان عكس ما توقعت ، فقد راى ان في اعطاء بعض القطع لهذه الصحيفة حماية لنفسي وابعادا للتهم التي تطارد الكتاب التقدميين ، فهي عملية تمويه لصالحي ، غطاء امام السلطات، وفعلا واصلت اعطاءه تلك المادة لنشرها ولكن تحت شرط واحد هو الا ينشر اسمي باي حال من الاحوال في هذه المجلة ، وفعلا فان اسمي لم يظهر اطلاقا مع هذه المادة ، وعندما ظهر فقد ظهر كمادة خبرية ومع قصتين اعادت المجلة نشرهما كما تفعل احيانا مع قطع ادبية تقتبسها لادباء محليين او اجانب ، فقد نشرت اعادة لقصة البحر لا ماء فيه بمناسبة فوز المجموعة التي تحمل هذا الاسم بالجائزة الاولى للقصة , وفعلت مثلها مجلات وصحف كثيرة بما في ذلك مجلة الاذاعة ، وعندما صدرت المجموعة عن وزارة الاعلام والثقافة

اخذت قصة اسمها هموم صغيرة واعادت نشرها ، ونشرت مع القصتين صورتي واسمي واظهارا لمشاعر الود احتفى الاستاذ عيسى القاسم بصدور كتابي الاول ونشر مقالا نقديا عنه كان قد كتبه الكاتب والناقد الفلسطيني الشهير الدكتور نقولا زيادة . هذه العلاقة مع مجلة المعرفة هي التي حاول بعض من اغاظهم نجاحي وصيتي الكيد لي بها مع النظام الانقلابي ، خاصة صحفي وناقد راحل، كنت اجاهر احيانا برأيي في ضعف مستوى كتاباته واعارض اصدقاء له يبالغون في تقدير مكانته في مجال النقد ، فلم يجد شيئا يرد به الا الكيد لي والترويج لانني كنت رئيس تحرير لمجلة المعرفة كماجاء في احدى مقالاته، وتحولت هذه العلاقة العارضة العابرة مع مجلة المعرفة ، الى نوع مما يسمى في الثقافة الغربية صيد الساحرات على يد هذا الزميل ، غفر الله له وسامحه على ما اظهره من شطط في عداء لا مبرر له

.

وظهر في حياتي ما جعلني اضاعف نشاطي مع الاذاعة لاكسب دخلا اغطي به عجزا في ميزانية الفرقة لا مسئولية لي فيه ، وهو ما يقتضي الوقوف هنا عند مفارقة مؤسفة من مفارقات مثل هذا العمل التطوعي الذي لا يكتفي بان ياكل الجهد والوقت ، وياكل معهما بعض المذخرات ، ويتسبب – كما حدث معي - في معاناة تصل الى السجن والتحقيق والملاحقة ، ولكن يحصل اكثر من ذلك ، وهو ان يتسبب في غرم يضع هذا المتطوع في تنشيط المجال من اجل اشباع هوايته ، في موقف ان يدفع مالا لا قدرة له على دفعه ، وهو غرم او قل ضريبة غالبا ما يدفعها اولئك الهواة الذين يتصدون لدور قيادي كما كنت افعل مؤسسا ومديرا لفرقة المسرح الجديد، وقبلها محركا ومنشطا للمسرح المدرسي في حملات جمع التبرعات من اجل الجزائر، وهذه الضريبة هي المساهمة بالقدر الاكبر من الانفاق على مناشط الفرقة وتغطية مصاريفها ، لان الاشتراكات البسيطة التي يتحتم على الاعضاء دفعها قد لا تصل دائما الى خزينة الفرقة ، ودخل العروض لم يكن في اي فترة يكفي لتغطية نفقات العرض ، ودعم الدولة لم يكن يتجاوز توفير المقر ، فكنت شخصيا ادفع من مرتبي ومن المكافآت التي احصل عليها من الاذاعة، المبلغ الذي نحتاجه للوصول بعرض من العروض الى المسرح ، وهو فضل لا يتاخر عن تقديمه كل من عرفت من مدراء الفرق الاهلية ، مع تفاوت امكانيتهم ومواردهم ، ما لم اكن اعمل له حسابا ، ولا يشكل جزءا من العبء الذي تتيحه مواردي وامكانياتي المالية ، هو ان تظهر فجوة كبيرة في ميزانية الفرقة ، بسبب خلل ما يقتضي القانون ان يتقدم مسئول الفرقة لدفع المال اللازم لتغطية الفجوة ، وما حدث في هذه الحالة التي واجهتني ، هي اننا نقوم بطبع عدد من دفاتر التذاكر التي نريد استعمالها في حفلات الفرقة ، ويقضى القانون ان نقدمها لمصلحة الضرائب لختمها ، لتكون صالحة للبيع ، وخاضعة لضريبة تسمى ضريبة الملاهي ، هي تقتطعها الدولة من التذاكر التي يتم بيعها , وسبق ان ذكرت ما حدث من سطو من احد الاعضاء تولى بيع التذاكر لاحدى المسرحيات وتم كشفه وفضحه وتسوية الموضوع وتكرر مثل هذا السطو بعد سنوات عدة ، وفي هذه المرة تم الاتفاق على تقديم عدد من العروض للسيدات باتفاق مع عدد من مدارس البنات ، وتم توزيع تذاكر الحفلات على ادارات هذه المدارس لبيعها للطالبات ، وتم تقديم اكثر من حفلة على مسرح الغزالة ، وعندما حان وقت التقييم المالي لموقف الفرقة ، اكتشفت ان اكثر من جذر لدفاتر التذاكر التي تم بيعها لم يكن موجودا، ومعنى ذلك ان تحصيل الايراد لم يدخل خزينة الفرقة، واذا اعتبرنا ان كل دفتر يضم مائة تذكرة بثمن جنيهين فمعني ذلك ان مجموع ثمن هذه التذاكر مفقودا واذا كان المفقود ثلاثة دفاتر فمعنى ذلك ان ستة مائة جنية قد اختفت ، واذا استطعنا تغطية لما يمكن ان يكون فضيحة في الوسط المدرسي ، واتفقنا على جمع بعض المال فربما

استطعنا جمع مائة جنية ، د ون ان نستطيع جمع بقيتها وهي خمسمائة من شباب في مقتبل العمر بعضهم مازالوا طلابا، وهب ان تحقيقا قامت به السلطات الجنائية بين هذه المدارس، ومسئولات الادارة فيها ممن استلمن هذه التذاكر التي ضاعت او سرقت ، وهب ان واحدة منهن كانت فعلا من الطمع وقلة الاخلاق الى حد ان فعلت ذلك ، فهل يصح ان نضع كل هؤلاء السيدات الفاضلات في دائرة الاتهام والتحقيق، وبعضهن كن قد بادرن بطلب هذه الحفلات حبا للفن المسرحي وتشجيعا للفرقة ، فهل يصح ان تكون هذه هي المكافاة التي نقدمها لهن ؟

وهو قرار لا يستطيع احد ان يتصدى له غير مدير الفرقة ، الذي تقتضى الاصول والمروءة والحكمة ان ياذن بوقف التحقيق مع هؤلاء السيدات ، الا ان الثمن بالنسبة له ، واعني في هذه الحالة بالنسبة لي شخصيا ، سيكون فادحا ، وفادحا جدا اذا عرفنا انني اتقاضي مرتبا لا يزيد على ثلاثين جنيها في الشهر ، وفعلا اوقفت التحقيق متحملا المسئولية وتغطية العجز في مدة محدودة لا تزيد عن بضعة اشهر ، لان هناك سنة مالية لابد ان يتم خلالها تسوية الامر مع الضرائب ولا بد ان تاتي الشئون الاجتماعية ومندوبها السيد خليفة كمال عاشور، الذي مازال موجودا عند كتابة هذه المذكرات، للتاكد من قفل الملفات ومعالجة العجز، وكان لابد ان اسعى لتقديم اعمال اضافية ، لانه لا مصدر امامي لجمع مثل هذا المال غير الاذاعة ، وكان من حظى ان جاء شهر رمضان اثناء هذه المهلة وهو شهر مبارك ويكثر فيه الطلب على مادة ادبية وثقافية، فكان ان نلت الموافقة على برنامج مدته نصف ساعة ومكافأته تصل الى عشر جنيهات للحلقة هو كتاب اليوم ، ثروة هائلة في ذلك الوقت ولعل هناك من شاهد الاستمارات ودقت طبول الحسد في قلبه بعنف وقوة، دون ان يعلم ان هذا المال الذي اسفح من اجله دم القلب ، سيذهب عطاء سمحا كريما لسد عجز ارتكبه بعض اللصوص ، وانني لن استفيد مليما واحدا بل ساضيف من مرتبي ما يكمل تغطية الجريمة التي لا علاقة لي بها الا علاقة الثقة فيمن لا يستحقها ، وضريبة عمل عام تطوعي اهدر على مذبحه الوقت والجهد والان اقدم له مالا من حق اسرتي وحق مستقبل حياتي ، فهل هناك من يلومني اذا قلت وداعا لمثل هذا العناء، ومثل هذه التضحيات ، التي سبقتها تضحيات اخرى وصلت الى حد السجن والتحقيق والملاحقة ، والحقيقة فان كل هذه المكابدات لم تجعلني انسحب من الميدان ، ولكنها زادتني قناعة بانه حان الوقت لان تتدخل الدولة واجهزتها وترفع عن امثالنا من محبي الفن ، عناء وعبء وهم ومسئولية العمل الاداري والمالي ، في هذا المجال ، لكي نتفرغ لما نحب ، وهو التمثيل والاخراج والتحصيل العلمي لتقوية انفسنا ومعارفنا وتطوير ادواتنا في هذا المجال ، واهلا بعد ذلك باي جهد يقتضيه الفن ، تجويدا وتطويرا وابداعا وتفانيا في العمل انتاجا وعرضا ، غير عبء الشئون الادارية والمالية .

كنت اكتب في الصحف احرض وزارة الانباء والارشاد ، ولا ادري متى تغيرت التسمية الى الاعلام والثقافة، لان تتبني انشاء فرقة للمسرح الوطني على غرار البلدان العربية الاخرى وبعضها احدث منا استقلالا وتملك مثل هذا الصرح الثقافي، واضرب مثلا طبعا بمصر وتونس ، واخيرا الجزائر التي تملك مثل هذا المسرح منذ بدء انشاء الدولة ، بل وقبل انشاء الدولة بما للمسرح من مشاركة في النضال ، وهو دور يقوم به الان في ظل الدولة المستقلة برئاسة المسرحي الجزائري المتميز مصطفى كاتب ، ورغم انني لم اكن اجد اية مضايقة، من رؤساء الادارة التي اعمل بها، منذ التحاقي بالعمل الحكومي مرشدا لشئون الاعلام في ادارة الجمعيات التعاونية، وهم يرونني اصرف جهدي للكتابة في صحيفة حكومية مثل طرابلس الغرب، او صحف خاصة مثل الحقيقة والرائد والحرية والميدان ، او مجلات مثل الاذاعة وليبيا الحديثة، ولا اكاد اخصص اكثر

من يوم لعملي الرسمي ، فانني وجدت انه حان الوقت لان اتفرغ تفرغا كاملا للعمل الصحفي العام ، وليس التخصصي في المجال التعاوني كما كان الحال، وكانت ادارة المطبوعات قد اعلنت عن وجود وظائف شاغرة بدرجة هي الدرجة الخامسة ، التي تقل درجة واحدة عن تلك التي تعطى لحاملي المؤهل الجامعي ، وكانوا قلة قليلة في ذلك الوقت، فقدمت اوراقي ونجحت ، وتم تعييني محررا متفرغا للعمل بجريدة طرابلس الغرب ، وكان رئيس التحرير زميل خفيف الظل ، يميل الى البدانة ، هو السيد محمد فخر الدين ، وكان نائبه هو الزميل محمد الشاوش ، ولم يكن طاقم التحرير في المجلة يزيد عن اربعة اشخاص ، صرت خامسهم، ونتبع جميعا الادارة العامة للمطبوعات التي يديرها السيد محمد بن زيتون ، وما لبث ان تركها في ذلك العام اوالذي يليها اعني بين عامي 64 و65 ليتولى انشاء وكالة الانباء الليبية، ويتولى ادارة المطبوعات من بعده رجل من بنغازي، من الحراك الصحفي لعله كان رئيسا لتحرير برقة الجديدة، هو الاستاذ احمد يونس نجم ، واقول دون ادنى مبالغة انه كان من اكثر من قابلت في حياتي نبلا وتهذيبا ورقيا في السلوك والمعاملة ، وكانت قد صدرت مراسيم اعادة الهيكلية الادارية للدولة ، وتم الغاء نظام الولايات ، ومجالسها التنفيذية ، وصارت تبعية الاجهزة كلها لادارة مركزية ، هي مجلس الوزراء، وصارت هذه الادارة التي كانت تتبع الولاية ، تتبع الان ، وزارة الانباء والارشاد، وقد تولاها منذ عام 1963، رجلٌ من اهل الادب واصحاب الاقلام ، هو الاستاذ عبد اللطيف الشويرف ، الذي جاء ضمن حكومة الدكتور محي الدين فكيني ، وكان معروفا بكتاباته ذات الطابع الديني ، خاصة برنامجه الرمضاني الشهير ، قصة واية ، كما كان يقدم دروسا في بعض المساجد، الا ان هذا التوجه الديني لم يمنع اطلاقا انه انسان محب للفنون متفتح على عوالم الطرب والفلكلور والمسرح ، وكانت الدولة قد باشرت اقامة معرض تجاري دولي ، قبل عام من تاليف وزارة فكيني، وكانت تقيم حفلا فنيا في افتتاحه اسهمت فيه بعض العناصر من بينها الحاج محمد حقيق والحاج مختار الاسود بانشاء فرقة للفلكلور ولوحات الرقص الشعبي والغناء والموسيقى المقتبس من مختلف مناطق ليبيا، مع الوان من المدائح والاذكار ، التي تعرفها طرابلس عن طريق فرق سيدي مكاري والاخرى التي تظهر في المناسبات الدينية من الزاوية الكبيرة والزاوية الصغيرة في المدينة القديمة، واثناء حضور وزير الانباء والارشاد حفل الافتتاح لاحدى دورات المعرض، انبهر بما راه من ثراء هذه الفنون، وقرر ان يتبناها رسميا، وانشا خلال فترة توليه الوزارة، وهي فترة لم تطل اكثر من عام ونيف، هذه الفرقة التي احدثت زلزالا فنيا، ليس على المستوى المحلي، ولكن على المستوى الاقليمي والدولي، عندما استطاعت في بعض الاعوام ان تحصد الجوائز الذهبية من دول تقيم اكاديميات عمرها عشرات الاعوام، لمثل هذه الفنون الشعبية الاستعراضية، مثل روسيا، وتشيكوسلوفاكيا وغيرها، وكان من عوامل نجاحها ان اسندت ادارتها لواحد من خبراء ليبيا في هذا المجال هو الحاج محمد حقيق، وتم انشاء قافلة تطوف المحافظات لاستقطاب المواهب الشعبية، وتسجيل اللوحات الفلكلورية الراقصة، والاغاني والالحان، والوان العزف والالات الموسيقية، من مناطق ذات شهرة في هذا التراث، مثل مرزق وغدامس وغات والجبل الغربي والجبل الاخضر وبعض مدن الساحل وواحات الصحراء ، وكان تراث طرابلس واحوازها حاضرا لدى اهل الفن في طرابلس ، ممن كانوا دائما عماد الحركة الفنية في ليبيا ماضيا وحاضرا، ثم جاءت فكرة اراها اليوم عبقرية حقا ، باعتبار ان هذا الثراء الفني، وهذا الزخم، وهذه الغزارة، وهذا التنوع في البيئات الشعبية من ساحل وصحراء وجبل، الذي انعكس فيما انتجته هذه البيئات من تراث وفنون ، كان موجودا يمارسه الناس ويتداولونه ويتوارثه جيلا عن جيل، بعجره وبجره، والشوائب التي ترافقه ، حتى اصبحت هذه الفنون مثل عروق الذهب الممزوجة بالرغام والطين، وكان لابد لأيد خبيرة، ذات معرفة بثقافة العصر ومكتسباته ، تقوم بتنقية هذا الكم الغزير مما يخالطه من

طين ورغام ، فلا تبقى الا عروق الذهب نقية صافية بجمال لمعانها وجلال معدنها ، وفعلا تم التعاقد مع ثلاثة من عظماء هذا المجال، وكبار اهل الخبرة في مثل هذه الفنون الاستعراضية، رقصا وموسيقى واخراجا، وتم احضارهم من لبنان ، كانوا فيما بعد وراء نجاحات مهرجانات بعلبك ومسرحيات الاخوان رحباني الغنائية واستعراضات صباح وفيروز ، فقد جاء الملحن الكبير الدكتور وليد غلمية ، ليضع هذه الاعمال الكثيرة من التراث الموسيقى الشعبي في نسق حديث ، بادخال جماليات الهارموني والتوزيع العلمي الى هذا التراث، محتفظا بروحه الشعبية واصالة الانغام والالحان ، وجاء مخرج المسرحيات الاستعراضية ، السيد ريمون لحود ، الذي كان يعود اليه الفضل في تاسيس مهرجان بعلبك في لبنان، وكان ثالث هذا الفريق مدرب للرقص الاستعراضي الشعبي ، ارمني الاصل ، هو الاستاذ سركيس ، وكنت اسمع منه شعارا يردد ه ، عليه رضوان الله ، يؤكد طموحه لتحقيق كل ما يراه الارقى والاعظم والاجمل في الفن والحياة ويقوله ضاحكا بلهجته اللبنانية المحببة وهو "يا بتشرب من راس العين يا بتظلك عطشان". جاءوا طبعا بعقود مجزية، ليقودوا وضع فرقة الفنون الشعبية في القالب العصري الذي حقق لها التفوق والامتياز ، ولم يكن غريبا بعد ذلك ان تاتي النتائج المبهرة وهي تحرز اعلى المراتب فيما ذهبت تشارك فيه من مهرجانات عالمية. وراى اهل المسرح ما حدث من احياء وتجديد في مجال التراث الشعبي وما قامت به الدولة من خطوة ايجابية لان تتبنى اقامة فرقة استعراضية غنائية راقصة ، فاتحة خير وبادرة اولى على طريق بوادر اخرى تشمل المسرح وقيام فرقة وطنية مماثلة لفرقة التراث تكون هذه المرة في مجال المسرح، وبدات المساعي مع الاستاذ الوزير عبد اللطيف الشويرف الذي كان متفهما ومرحبا ، الا ان موضوع انشاء الفرقة تاخر بسبب الاحداث الدامية التي شهدتها بنغازي في مطلع عام 1964 وعصفت بوزارة الدكتور فكيني ، وشاء حسن الطالع ان يخلف الاستاذ الشويرف في وزارة الانباء والارشاد، مثقف معروف وكاتب لامع تربطه علاقات ود ومحبة باغلب العاملين بالمجالات الادبية والفنية، هو الاستاذ خليفة التليسي، وباشر في تنفيذ خطة طموحة لتطوير واحياء القطاعات التي تدخل في اختصاص وزارته ، بادئا بالجانب الادبي مثل انشاء اللجنة العليا للاداب والفنون، التي اسند رئاستها لسلفه في الوزارة الاستاذ الشويرف ، وضمت اللجنة كاتبا متميزا هو عبد الله القويري ومسرحيا معروفا هو سعيد السراج ، واصدرت اللجنة كتابا شهريا واعلنت عن اول مسابقة لتشجيع الاباء في مجالات القصة والشعر والبحث الادبي ، وحقق للادباء حلم انشاء منبر ادبي ثقافي يكون خالصا لنشر الاعمال الادبية والفكرية ، وهو مجلة الرواد الشهرية ، ولكي يعطيها زخما وقوة في بدء انشائها احتفظ لنفسه بمهمة الاشراف عليها دون ان يظهر اسمه كرئيس تحرير، وانما ظهر اسمي واسم نجم الدين الكيب كسكرتيري تحرير ، وكنت قريبا منه ، اواصل معه الالحاح على انشاء فرقة للمسرح الوطني ، واساند جهدا يبذله الاستاذ سعيد السراج باعتبار موقعه في اللجنة العليا للفنون والاداب ممثلا لاهل هذا القطاع، وفعلا تم عن طريق ادارة الاداب والفنون، وضع التصور العملي لانشاء الفرقة الوطنية للمسرح ، وكان الرائد المسرحي التونسي استاذنا المخرج النابغة محمد العقربي قد قرر المجيء والاقامة في طرابلس ، فاصدر الوزير قرار انشاء الفرقة وانتدب الاستاذ محمد العقربي ليكون مخرجا للفرقة ومشرفا على اعمالها ، ويكون العمل باسلوب سارت عليه فرقة الفنون الشعبية وهو نصف تفرغ، وكنت واحدا من عشرة اشخاص تم اختيارهم ليكونوا نواة تاسيس هذه الفرقة ، وفي خط يوازي خط انشاء الفرقة، اقام الاستاذ العقربي دورة تدريبية للعناصر الشابة من الطامحين لدخول هذا المجال ، وهي الدورة التي كانت نواة لقسم التمثيل ، ليصبح جزءا يكمل القسم الذي باشر الاستاذ الموسيقار محمد مرشان في انشائه، وهو قسم الموسيقى، ليصبح القسمان معهدا متوسطا للتمثيل والموسيقى ، وخرجت عام 1965 نتيجة المسابقة التي

اجرتها اللجنة العليا للفنون الاداب بين الادباء ، وفاز كتاب قصصي كنت اعده للنشر بالجائزة الاولى هو البحر لا ماء فيه ، وفاز صديقي وزميلي القصاص خليفة التكبالي بالجائزة الثانية عن كتابه تمرد وكانت الثالثة من نصيب الاديب يوسف الشريف عن كتابه الجدار، وفي الشعر كانت الاولى من نصيب الشاعرعلى صدقي عبد القادر، والثانية فاز بها الشاعر علي الرقيعي ، وفي البحوث كانت من نصيب بحث في التراث للكاتب المعروف الاستاذ على مصطفي المصراتي ، وشملت المسابقة جائزة للبحوث الاكاديمية الاجتماعية فاز بها الباحث عبد الحميد الصيد الزنتاني . لعل هناك جوائز اخرى تم حجبها ، الا ان هذه الكتب كانت بداية تنشيط لحركة النشر ، خاصة وان اللجنة العليا اصدرت قرارا بان تتولى الدولة شراء عدد كبير من النسخ يصل الى الف نسخة من كل كتاب من انشاء اديب او باحث ليبي .

وقبل ان استانف الحديث عن النشاط الصحفي ، لاستكمل بعض ملمح هذاالجانب الادبي، باعتباره يشكل ضلعا ثالثا في المثلث الذي ارتكزت عليه حياتي ، ولعله يتفوق على الجانبين، اي النشاطين المسرحي والصحفي لانه اكثر بقاء ودواما وثباتا منهما، وحيث تغمر مياه الزمان ما خطته اقدام البشر فوق رمال الشواطيء التي تنزهوا فيها، والمساحات التي قطعوها، فانه لا تبقى الا رسوم نقشوها على صحاف من حجر ، قبل عصر التدوين والكتابة ، ثم بعد اختراع الابجدية صارت الاحرف التي خطوها فوق الورق باعتبارها خلقا وابداعا، هي التي لا تمحى بفعل كيمياء الزمن، ولا تفلح في ازالتها عواصف الريح والمطر، واقول انني خلال عقد الستينيات اصدرت كتابين ، هما كتابي الاول الذي سبق الحديث عنه ، ثم وفي عام 1968 اصدرت كتابا قصصيا ثانيا اسميته "اربطوا احزمة المقاعد" ، جمعت فيه اغلب ما لم يستوعبه الكتاب الاول من قصص، وظلت هناك مادة قصصية منشورة في الصحف لم انشرها حتى الان ، اذكر منها قصتان احدهما الاولى التي نشرت في صحيفة "فزان" ، والثانية في طرابلس الغرب بعنوان "عيد سعيد"، لانني لم اعثر على اصولهما ولا الصحف التي نشرت القصتين فيهما، وكنت اريد ايضا العثور على صورتين قلميتين اقرب الى الحكاية منهما الى القصة فلم اعثر عليهما، وبدلا من ان ابحث عن ناشر اقدم له الكتاب ، ارتكبت حماقة نشره على حسابي الخاص، وانطلقت مسافرا الى بيروت حاملا مخطوطة الكتاب، لاطبعه في دار لبنان كما اعتقد، وثلاثة الاف نسخة، قامت مطبعة الدار بارسالها لي في طرابلس، وكانت مهمة توزيعه مهمة لم استطيع ان اقوم بها ، باي نوع من الكفاءة، رميت ببعض النسخ لدى اكثر من صاحب كشك، وربما صاحب مكتبة، وراجعتهم مرة اومرتين ، وحدث ان حانت رحلة الى الخارج فنفضت يدي من هذه المراجعات وسلمت امري الى الله فيما خسرته من نقود ، وتعلمت درس ان لا ادخل مثل هذه المغامرة دون ترتيب واعداد .

واذا ادركنا حقيقة انه لم يكن هناك اتحاد للادباء والكتاب، ولم يكن هناك تجمعات ادبية غير جمعية الفكر، فلابد من الاشارة الى وجود بعض البدائل، التي تشكل فضاءات، يتحرك عبرها اهل الحراك الادبي والثقافي ، اذ كانت اغلب الاندية ذات الطابع الرياضي تخصص جزءا من اهتمامها للثقافة ، وهو تقليد بدأ مع اقدم الاندية الرياضية في طرابلس ، نادي الاتحاد، الذي كان حاضنة للنشاط المسرحي، وكان راعيا

للمواهب التي بدأت تمارس هذه الهواية في رحاب النادي، وكان قاعدة الانطلاق لاغلب الكوادر التي اسهمت في تاسيس الفرق المسرحية فيما بعد، واغلب الكوادر الادبية والفنية، ولنقل ان اسماء كبيرة في المسرح مثل سعيد السراج، وفي الموسيقى مثل كاظم نديم ومحمد مرشان، وفي الادب مثل خليفة التليسي،بدأت مسيرتها مع انشطة هذا النادي، ومعروف ان اول ظهور للاستاذ التليسي كان عبر محاضرة القاها ضمن موسم هذا ا لنادي عام 1948، وهناك نادي الشباب الذي ربما كان تأسيسه مواكبا لدولة الاستقلال وكان ناديا يتميز بتركيزه على الثقافة اكثر من الرياضة، واسهم فيه خلال مرحلة الخمسينيات والستينيات كل من كامل عراب وامين ميزان وتوليا تدشين هذا الحراك الثقافي الذي تميز به النادي وخصص له صديقنا الامين مازن حيزا في مذكراته المسماة مسارب، واذكر في مطلع الستينيات عندما استلم ادارته مثقف صديق هو عبد الله الساحلي، واشاع في طرابلس كلها جوا ثقافيا واطلق عددا من المناشط والفعاليات التي دعاني للمشاركة في بعضها فقد جاء بعض الندوات متوافقا مع دورة المعرض التجاري الدولي ، وادار احدى الندوات التي شاركت فيها الاستاذ الجامعي عبد المولى دغمان، ودخل مجال التوعية السينمائية وكنت طرفا في ندوة حول افلام مختارة تم عرضها بسينما الحمراء، في حفلات صباحية غير تجارية، وفي العام 1964 اطلقت وزارة الشئون الاجتماعية ، وربما كان وزيرها في ذلك الوقت المثقف الاستاذ عبد المولى لنقي، مشروعا ثقافيا للقطاع الشبابي يشمل ابناء هذه الفئة العمرية ، في الارياف ومدن الدواخل ، اسمته النشاط المتكامل، وخصصت ميزانية كبيرة، لدعم الاندية المحلية في سبيل ان تضيف الى نشاطها الرياضي الاجتماعي نشاطا ثقافيا يشمل المسرح ومعارض الرسم ومهرجانات الغناء والموسيقى والفنون الشعبية بالاضافة الى المسابقات الادبية في الشعر والقصة والبحث الادبي، ومواسم المحاضرات والندوات، وكنت واحدا من لجان المتابعة لهذا النشاط المتكامل وانتقلت مع المشرفين والمحكمين الى شتى المراكز الداخلية والارياف البعيدة، واشير الى عامل اخر كان له دور في تنشيط التواصل بين المنتمين للوسط الثقافي ، هو المقاهي، وكنت شخصيا انتمي لما يمكن ان نسميه منتدى على مصطفي المصراتي ، فقد كان الاستاذ المصراتي والى زمن قريب من كتابة هذه المذكرات عاشقا من عشاق الارجيلة او الشيشة، له جلسة يومية في واحد من مقاهي طرابلس التي تعنى بتقديم هذه الوجبة من التوباكو لعشاقها ، وقد بدأت هذه الجلسة في مقهى العمال قريبا من باب الحرية، وكان يتردد عليها اناس من الحراك الانتخابي خاصة عندما خاض الرجل غمار الانتخابات ونجح فيها عام 1960، ثم انتقلت الجلسة الى مقهى عبد الله بشارع الوادي، وصارت اقرب الى المنتدى الادبي الذي استمر عدة اعوام، وكان المصراتي دائما يمزج بين دوره الادبي، وبين دوره في الحراك السياسي، منذ ان تربى في احضان الحركة الوطنية السابقة للاستقلال بقيادة حزب المؤتمر ورئيسه الزعيم السعداوي، وظل هذا الخط الوطني الذي يمثله حزب المؤتمر متجسدا وعائشا في هذا الرجل الذي حمل راية المؤتمر لاعوام كثيرة بعد ان اغلقت ابواب هذا الحزب، وكل الاحزاب الاخرى عام 1952 ، في حركة غبية رعناء ، املاها طبعا النفوذ البريطاني الذي كان يبسط انتدابه ووصايته على البلاد قبل الاستقلال، وكان ان اجهض في ذلك العام المشروع الليبرالي للدولة الليبية، وتحولت الى دولة انغلاق وتزمت سياسي، واتخذ التاريخ بالنسبة للبلاد منعرجا كارثيا قادها الى المجهول ، وادخلها في نفق مظلم لم تخرج منه الا بعد ستين عاما، ومضى المصراتي يحمل راية المؤتمر في يد، وقلمه الذي صنع به سجله الادبي، في اليد الاخرى، على مدى العمر. وعن طريق الاستاذ المصراتي تعرفت على رموز الحركة الوطنية وبينهم الاستاذ احمد زارم ، بعد عودته من منفاه التونسي، والاستاذ الهادي المشيرقي التاجر والوطني

المعروف، وذهبت معه في سنوات لاحقة لزيارة صديقه الكبير الاستاذ المؤرخ الطاهر الزاوي بعد عودته من منفاه الطويل في مصر . ولعل جلسة قهوة عبد الله في ذلك الوقت كانت جلسة المقهى الوحيدة ذات الطابع الادبي التي تميزت بانظامها اليومي، والتي كان يؤمها غير اعضائها الدائمين كثير من زوار ليبيا مثل نيقولا زيادة وحسيب الكيالي وبالقاسم كرو وعثمان الكعاك ، غير اعضائها الدائمين والطارئين من عناصر الحراك الثقافي الليبي الذي يصعب حصرهم .

المقهى الثاني الذي عرف جلسة تنافس جلسة قهوة عبدالله ، لم تكن قهوة ، ولكنها حانة ، وهي حانة الاورورا التي يقصدها الناس لاحتساء نوع من البيرة لايباع في زجاجات ولا علب وانما يتلقاها الزبون مسكوبة من صنبور مثل صنبور المياه ، في قدح زجاجي يسمونه "الباينت"، وتتلقى حانة الاورورا البيرة في براميل خشبية قادمة من مصنع قريب، مقره منطقة الظهرة في طرابلس، هو مصنع بيرا اويا، وهي جلسة ليلية تبدا منذ ساعات الغروب الى مايقرب من منتصف الليل ، وكنت اقصد هذه الجلسة ايضا ، ليس بانتظام لانها لا تعرف الانتظام ، للاستمتاع باحديث الادباء المتحلقين حول احدى الطاولات ، ولم يكن الشراب مقتصرا على البيرة ، اذ يمكن للزبون ان يطلب مشروبا بلا كحول او مشروبا ساخنا، وكان اللقاء يضم بعض العناصر الدائمين في الجلسة اذكر منهم الاستاذ عبد الله القويري ، والشاعر على الرقيعي ، الذي رحل في حادث فاجع عام 1966، وكنت التقيت به في هذا المقهى ليلة الحادث نفسه، والناقد والاعلامي كامل عراب ، ومؤلف التمثيليات الساخرة عبدو الطرابلسي، والكاتب الصحفي والمسرحي عبد الكريم الدناع، ولم يكن ثمة وجه من وجوه الادب واصحاب الاسماء المعروفة لم يتردد على هذا المقهى، حتى لو لم يكن من محبي ابنة الكروم ، وساذكر بعضهم مثل امين مازن ، محمد احمد الزوي، يوسف القويري، فوزي البشتي، رضوان ابو شويشة، بشير الهاشمي، نجم الدين الكيب، رجب لملوم ، سليمان كشلاف ، الممثل والمخرج عمران المدنيني ، عدا من سقط من الذاكرة وهم كثر ايضا، ولابد من الاشارة الى جلسات اخرى خارج المقهى، بعضها جلسات المكاتب ، ويكاد كل صاحب صحيفة ، ان يكون مكتبه منتدى لاصدقاء الصحيفة من كتاب واعلاميين ، وهكذا كانت صحيفة الرائد في شارع لبيد، ومكتب رئيس تحريرها السيد عبد القادر ابو هروس، حيث يؤمه اصدقاء من امثال فؤاد الكعبازي، وعبد الحميد البكوش ، ورجب لملوم، عدا كتاب الصحيفة من شباب المحررين في ذلك الوقت مثل عبد اللطيف بوكر وعبد الرحمن الشاطر وعبد المجيد ابو شويشة، وكان الاستاذ فاضل المسعودي بعد ان اصدر صحيفته الخاصة الميدان، يحيل مكتبه الى منتدى من اعضائه ابراهيم الفقي حسن وجمعة نصر ومختار الزروق ويوسف

القويري وعمر حبيل ، وكذلك محمد عمر الطشاني في صحيفة

الحرية، وهناك اصحاب مهن في المحاماة وتحرير العقود تتحول مكاتبهم بعد الدوام الى جلسات ادبية كما كان يفعل كامل المقهور وزميليه في المكتب عبد المجيد القعود وبشير النجار، وايضا عبد الله شرف الدين في مكتبه بشارع الاستقلال وعامر الدغيس في مكتب اخر قريب منه ، وابراهيم الغويل ومجموعة من اصدقائه يتوزعون بين مكتبه وبين جريدة البلاغ بينهم على وريث واحمد صدقي الدجاني ومحمود الهتكي وعبد الله بانون وعياد العزابي ، وكان هناك تقليد حافظ عليه الجيل السابق ، وهي جلسات البيوت، وتقتصر غالبا على اصدقاء من الفئة العمرية التي ينتمون اليها، ولم اكن ممكنا ان احضرها لصغر سني ، اناس مثل احمد الفقي حسن وشقيقه على الفقي حسن ، واحمد الحصائري ، والامين الحافي ، وعبد

السلام خليل ، وعبد اللطيف الشويرف ، وربما بعض شيوخ الدين من علماء مدينة طرابلس وربما جلسات في بيوت الاعيان مثل محمد الكريكشي وفاضل بن زكري وطاهر باكير. ورغم القرار الذي اصبحت بموجبه امينا مشاركا للتحرير ، مع الزميل نجم الدين الكيب ، في المجلة الادبية الجديدة ، مجلة الرواد، فانني كنت كثير الانشغال بالعمل في الصحافة الخاصة ، ولهذا لم اكن اتردد في ان اترك الزميل الكيب يستأثر بالاشراف والتحرير واختيار المادة ، ورغم وجود وزير يختص بالاشراف ، ثم مجلس للتحرير ، فان الوزير ايضا ومجلس التحرير ، كانوا يتركون المهمة له، ولم اكن شخصيا ، اتفق مع طريقته في العمل ، واكنت افضل ان نضع خطة للتحرير ، وان تكون لنا السيطرة على المادة ، وان نجتهد في تكليف بعض الكتاب بمواضيع معينة تجعل للمجلة نسقا ، ونرفد هذه المادة بما ياتي من ابداع ومساهمات خارج التكليف ، لانه من خلال مثل هذا الاسلوب تظهر للمجلة شخصيتها وتكتسب تميزها وفرادتها، واختلافها عن مجلات ادبية اخرى تصدر في مناطق متعددة من العالم العربي، الا ان الزميل الذي كان قد كرس جهده ووقته للمجلة ، اكثر مما كنت افعل، لم يكن يطيق هذا الاسلوب في العمل لانه يضع قيودا على حركته، ويطالبه بالتزامات لم يكن يريد تحملها، وكان مايفعله هو ان يفتح ملفا يضم كل ما ياتي به البريد، يصنع منه مادة العدد، ويسلم المادة لمخرج المجلة، وهو زميل من لبنان يعمل في اكثر من صحيفة اسمه حسن حمود، فيقوم المخرج بتنسيقها حسب مقتضيات عمله الفني دون اعتبار لمن يكون الكاتب ، او الموضوع، ومن يعود الى تلك الحقبة سيجد ان اسمى اختفي سريعا من ترويسة المجلة ، ثم عاد اليها فيما بعد ضمن مجلس التحرير ، لان علاقتي بالمجلة لم تنتظم ، وظلت في حالة ارتباك ، واستياء من الطريقة العشوائية في لملمة المواد، واحسب ان عددا واحدا ظهرت فيه طريقتي في العمل، لان الزميل قام باجازته السنوية وتركه لي كاملا ، وعدا هذا العدد الوحيد فانني لم اكن على صلة بالتحرير واقصى ما كنت افعله ان اكتب مقالا واترك له حرية ان ينشره او لا ينشره، وظل زميلنا نجم الدين هو قائد مسيرة المجلة منذ اصدارها عام 66 والى ان جاء انقلاب 69، فقضى بان تسمى الفكر الثوري ، واستمرت لفترة قليلة ثم توقفت ، ويحسب له، لا لغيره، بغض النظر عن الاسماء التي تظهر في الترويسة كمساعدين او مستشارين، فضل تحريرها واستمرارها بكل ما حققته من نجاح، او ما شاب مسيرتها من اخفاق، وكانت بالتاكيد علامة على طريق انشاء صحافة ادبية ثقافية ، كما كانت منبرا لاقلام كثيرة ، ليبية وغير ليبية، وعلى صفحاتها ظهر لاول مرة انتاج كتاب صار لهم شان في الادب الليبي مثل خليفة حسين مصطفى ، واحمد نصر في القصة ، وسعيد المحروق في الشعر، وفوزي البشتي في النقد، كما كان لها فضل على اقلام من مصر ، بعضهم ما زال يدين لها بالفضل، مثل صديقنا الناقد السينمائي والمسرحي كمال رمزي ، وهي التي ابرزت اسم ناقد اسمع عبد العزيز مصطفى وقصاص هو الراحل ضياء الشرقاوي ، وكلاهما من مصر.

بانضمامي الى فرقة المسرح الوطني ، التي تم انشاؤها عام 66، بنصف تفرغ للمسرح، لم يعد ثمة وقت ولاجهد ولا طاقة ولا فائض من الحماس اواصل به العمل في مسرح الهواة ، وكنت سعيدا برفقة هذا الطاقم المسرحي الذي يلتقي كل مساء في مسح الغزالة، وقد تم تخصيصه مقرا للفرقة، وتحت اشراف استاذي واستاذ كل العاملين في المسرح ذلك الوفت الاستاذ محمد العقربي، واختار للفرقة نصا من نصوص شكسبير ليكون وسيلة لتدريبنا وعملا نقدم به انفسنا تقديما عزيزا وكريما وجليلا ، يليق باول فرقة مسرحية تتبناها الحكومة ، هي مسرحية عطيل ، وهي عمل تتميز مناظره بالفخامة ، ويتميز

مضمون المسرحية بقربه من الحس العربي وتمجيده لشخصية قادمة من الجزء الغربي للعامل العربي، وسخر الفنان محمد العقربي ملكاته وجهده وخبرته لاظهار العمل في الثوب القشيب الذي يبهر العالم ، وكان كل شيء ينبيء بانتاج يمكن ان يضع ليبيا على خريطة المسرح العربي كقوة ضاربة تمثيلا وانتاجا وابداعا في الديكور والموسيقى والملابس، بسبب ما تضافر من جهود،وحقيقة انها الفرقة الوطنية التي تلتقي فيها افضل مهارات وكوادر البلاد في هذا المجال ، بامكانيات الدولة ومواردها ، الا ان قدرا، كما تقول قصيدة كامل الشناوي، احمق الخطى، داهم هذه الجهود، فاطاح بها ، ونزلت بالعالم العربيّ تلك النازلة، المسماة نكسة يونيو ، وكانت الفرقة تستعد لتقديم هذا العمل الكبير، فعطلته النكسة، وملأ الافواه والعيون والآذان رماد الهزيمة ، التي لم يكن احد يستطيع معها ان يعود الى ممارسة عمله بشكل طبيعي كما كان يفعل قبل وقوع الكارثة.

ربما كان ابرز حدث في حياتي الادبية هو صدور كتابي الفائز في المسابقة ، الذي كان بحق شهادة ميلاد لي ، كواحد من مبدعي هذا اللون الادبي ، اي القصة القصيرة، في العالم العربي ، لان كتاب " البحر لا ماء فيه" عند صدوره عام 1966، نال صدى كبيرا في الوطن العربي ، حيث كتب عنه يوسف ادريس كلمة ترحيب في مجلة اخر ساعة، وخصص له رائد من رواد القصة في مصر هو فاروق منيب ما يقرب من صفحة في جريدة الجمهرية تقييما واشادة بالكتاب، وكتب عنه فاروق عبد القادر مقالا في روز اليوسف ، كما كتب محمد جبريل في صحيفة المساء مقالا عنه مصوبا بلقاء صحفي معي ، وكان الترحيب في لبنان به كبيرا ايضا، فقد رحبت به مجلةالطريق واعادت نشر قصة من المجموعة ، بما لهذه المجلة من مكانة باعتبارها لسان حال الطليعة المثقفة المنتمية للحزب الشيوعي اللبناني ، وهو ما فعلته مجلة المعرفة في دمشق عندما نشرت قصة الجراد التي تضمنتها المجموعة باعتبارها نموذجا لما وصلت اليه القصة الليبية من نضج وتفوق، وكتب استاذ الادب والتاريخ الذي عرف ليبيا وتاريخها الدكتور نيقولا زيادة مقالا يرحب فيه بالكتاب، وعمدت اذاعة صوت العرب الى اخذ قصة الجراد وحولتها الى مسلسل اذاعي من سبع حلقات ، قامت بانتاجها وشارك فيها عدد من كبار الممثلين العرب واذيعت على اثير تلك المحطة التى كانت خلال مرحلة الستينيات في اوج شهرتها واستقطابها للمستمعين العرب .

وبدأ دخلي منذ ان انتقلت للصحافة، وبسبب لوائح جديدة للانتاج، يزداد ، بحيث انتهيت من السكن المشترك وقمت بتاجير بيت خاص بي في شارع محمد على السنوسي ، الذي صار شارع الجمهورية فيما بعد، مما اتاح لعدد من افراد اسرتي في البلدة ان ينتقلوا للحياة معي في طرابلس، وبالذات اخي محمد واخي مفتاح، ليواصلا الدراسة في طرابلس قبل ان يذهب كل منهما في طريقه، احدهما في معهد داخلي، وثانيهما للالتحاق بالبحرية الليبية ودورة تقام في اليونان ، قبل ان انتقل بعد ذلك الى شقة في شارع ميزران ، تدفع كراءها وزارة الاسكان حسب نظام تخصم بموجبه علاوة السكن.

واذا كان لابد لهذه المذكرات التي تعنى اساسا بالجوانب الادبية والاعلامية في هذه المرحلة من حياتي ، ان تعرج على الجانب العاطفية ، فلاقل بداية انني نشأت وترعرعت في بيئة ذات طابع قروي ريفى رعوي صحراوي ، تحكمه تقاليد التزمت والانغلاق، محافظا الى اقصى حدود المحافظة، شديد التدين الى حد يتحول فيه الدين الى قوالب جامدة واغلال يربط بها الناس انفسهم، ويعيقون بها حركتهم الحرة الطبيعية في الحياة ، ولا يتركون في حياتهم كوة يطلون منها على فرح او متعة ، ويسدون امام المرأة المنافذ ، فلا

سبيل لان يرى الرجل اصبع امراة الا اذا كانت من نساء العائلة او ارتبط بها شرعا، وانتقلت من بيئة البلدة وانغلاقها الى طرابلس حيث ينقسم المجمتع الى اثنين، مجتمع الجالية الايطالية، مجتمع اوروبي ، متفتح على قيم العصر، كما يفهمها الاوروبيون ، واهل الديانة المسيحية، وهو مجتمع ترتفع بينه وبين المجتمع الليبي المحلي ، جدران عالية من الشك المتبادل ان لم يكن الاحتقار والكراهية، اذ لا تواصل الا على اصعد تجارية واقتصادية ، ما عدا ذلك ، فان مجتمع طرابلس الليبي لا يقل انغلاقا وتزمتا ومحافظة ورجعية في المفاهيم عن مجتمع القرية، واذا كان ثمة فرق فهومدارس البنات التي بدأت تستقطب الاهتمام وتؤمها افواج البنات الصغيرات ، من تلميذات المرحلة الابتدائية ، ثم مرحلة اعلى قليلا، تمثلت في انشاء مدرسة للمعلمات في شارع النصر، وربما وصل عنصر نسائي او اثنان الى مستوى الجامعة في بنغازي عند بدء افتتاحها ، الا ان ذلك ليس تعبيرا عن حالة انفتاح شهدتها المراة ، فقد ظلت النظرة الغالبة هي نظرة الانغلاق والتزمت، ولم يكن هناك متنفس للعواطف المكبوتة المشنوقة ، ولا فرصة لتصريف الغريزة لدى شباب الخمسينيات ومراهقي تلك المرحلة غير المنطقة الحمراء كما تسميها ادبيات الغرب ، وهي المنطقة التي تعمل فيها مجموعة من النساء بالدعارة او بيع الاوقات الطيبة بترخيص رسمي ، وهي منطقة موجودة منذ العهد العثماني ، في شارع من شوارع المدينة القديمة هو شارع سيدي عمران ، وانتقلت في اواخر العهد الايطالي الى حي جديد خلف معرض طرابلس الدولي، الى شوارع تحمل اسماء المعري والكندي والمتنبي، وكانت اغلب نساء الحي من نساءالجالية الايطالية، ولم يكن مسموحا ان تنضم الى هذا الحي امراة من النساء الليبيات، الا اذا تكرر انحرافها، وتم القبض عليها في حالة تلبس مرات عديدة ، عندها كانت تسجن ، وعندما تخرج من السجن ، وتريد الانخراط في المهنة العلنية ، تتفضل عليها الجهة المختصة بترخيص لممارسة الدعارة، وتذكر بعض القصص التي تروى عن هذا الموضوع وموضوع الحانات ومحلات بيع الخمور والملاهي الليلة ، ان ذهب بعض رموز المؤسسة الدينية، الى الملك ، يعبرون عن استغرابهم ان يكون شيخ الطريقة السنوسية ، وامامها، هو من يتولى الحكم في ليبيا ، ثم لا يأمر بمنع بيع واستهلاك الخمور، وقفل محلات الدعارة العلنية ، ومصادرة ترخيص الملاهي الليلية ، فاجابهم قائلا بانه لو كان شيخا معنيا فقط بامور الدين اوامام جامع يصلي بالناس، او معلما للقرآن في واحد من الكتاتيب ، لكان الان موجوداً بينهم، بطالب بما يطالبون به، ولكنه يتحمل الان مسئولية الحكم ، وصاحب الحكم ، لا يقتصر عمله على تغليب نظرته الدينية في الامور، لان هناك جوانب وزوايا اخرى ومقتضيات وشئون لابد من اخذها في الاعتبار، والرجوع الى ما يراه شركاء في ادارة الدولة ، ومجالس تشريعية وتنفيذية واهل خبرة وراي، وقد راى اهل المشورة والخبرة ، انه انفع للصحة النفسية والعافية الاجتماعية ودرء الامراض ، الا تظل مهنة الدعارة مثلا خارج السيطرة، ان تبقى تحت الاشراف الطبي للدولة منعا لانتشار الامراض واستفحال امر الدعارة السرية ، واهل الخبرة هم من وضعوا القواعد التي تتحكم في هذا المجال ، ومنعوا ان يكون هذا العمل ملجأ لاهل الفقر والعوز من النساء، لانه اذا كان الدافع فقرا وعوزا ، فقد وضعوا فقرات في القانون تجبر الدولة على انقاذ المراة المعوزة من هذا المصير بادراجها في بند المعونات التي تقدمها مصلحة الاوقاف ، واهل الخبرة ينظرون الى الملاهي والحانات باعتبارها مناطق جذب لسياح يأتون من ايطاليا وبلاد اخرى ، ويعرفون ان هناك شركاء في الوطن من ديانات غير الاسلام هي اليهودية والمسيحية ، تحل لهم ديانتهم شرب الكحول، والتعامل بها، ومنع القانون الليبي المسلم المتاجرة بالخمر اواخذ رخصة لبيعها، او رخصة لادارة محل للملاهي فهي امور تقتصر على من يبيح لهم دينهم مثل هذه الممارسة وهذه التجارة.

ولابد ان اهم دفاعات الملك امام هذه التظاهرة التي تتكلم باسم الدين ، انه لم يكن وحده يحكم البلاد، وانما هناك مؤسسات للحكم احداها البرلمان وتضم عناصر لا تملك رؤية الملك وتفتحه وتقديره للظروف، فقدم اهل التزمت مشروع قانون لقفل المنطقة الحمراء في طرابلس، وتجريم ممارسة هذه المهنة، وفعلا وبسبب توفر اغلبية تؤمن بهذا الرأي صدر القانون، واقفلت محلات شارع الكندي وشارع المعري، وذهبت نساء المهنة الى الشئون الاجتماعية يطالبن بالاعانات التي تعوضهن عن الدخل الذي كن يتعيشن منه، بعد حرمانهن منه ، وكنت ما زلت في ذلك الوقت ادير فرقة المسرح الجديد، وكان بعض منهن يترددن على الفرقة، واستقبلن بالم وحزن هذا القرار، وكانت احداهن واسمها خديجة ممثلة ذات موهبة ، لكن المسكينة امتهنت هذه المهنة ، ولا تعرف مهنة سواها، وكانت تتاخر احيانا عن التمارين ليوم او اثنين، فارغم نفسي على الذهاب اليها في بيتها، لاسمعها تتاسف لانشغالها بزبائنها وبابنة اعطتها لعناية احدى النساء خارج الحي ، تذهب لزيارتها، وتسألني ان انتظرها لكي ترتدي فراشيتها وتاتي معي ، ويذكر زميلي نوري المكي، عندما سالته ان يحضر لي عربة حنطور كروسة، لاستخدامها في الانتقال بهذه السيدة من الحي المشبوه الى الفرقة، فقد كنا على وشك ان نبدأ عرض مسرحية "متاعب الاسطى خربوشة" والبرنامج الفني الذي يصاحبها وكان لخديجة دور في هذا العرض وقد التزمت بحضور كل لياليه، رغم العائد الهزيل الذي تتقاضاه مقابل هذا الجهد المضني ، الذي استمر بشكل يومي لمدة شهرين .وكانت تعرف هي وصويحباتها، ان القرار معناه الحرفي بالنسبة لهن هو التشرد، وربما تشرد بعض من يتولين اعالتهم ، لان اصحاب هذه البيوت ، التي تؤجر غالبا من اصحابها الايطاليين، سوف ياتون لاستلام بيوتهم واخراجهن، وجاءت باكية تندب حظها وحظ ابنتها، وتأثرا بحالتها كتبت مقالة نشرتها لي صحيفة الميدان اثر قانون تحريم المهنة عام 1964، عنوانه الدعارة النفسية ، وعزوت لهذه الدعارة النفسية تلك الحملة التي ادت الى اصدار القانون، لان بعضا من هؤلاء النواب الذين انبروا للدفاع عن الفضيلة وسعوا لاستنفار الاغلبية التي وافقت على مشروع القانون ، هم من اكثر الناس فسقا وفجورا، واشرت بصراحة الى من كنت اراهم يعاقرون الخمر، ويعاشرون مضيفات الملاهي في الموكامبو والروز جاردن والقط الاسود والملهى الشرقي ، واستطيع ان اذكرهم بالاسم ، وكيف انهم بهذه الطريقة ، ينقلون الدعارة من هذا الحيز الصغير الذي تعيش فيه محاصرة بالقانون وتحت عناية الاطباء، الى ان تنتشر وتتفشي في كل مكان بلا سيطرة ولا رقابة قانون، فالقرار لن يوقف هذه المهنة ولن يستطيع، وهو لا يفعل اكثر مما تفعله النعمامة التي تدفن رأسها في الرمال وتظن ان الخطر الداهم قد انتهى. وكان المقال اشبه بقنبلة تتفجر في ركود الحياة الاجتماعية ، مستجلبا ردود فعل المؤسسة الدينية، فكان موضوعا اختبر فيه خطباء المساجد مهاراتهم البلاغية ، وجعلوه موضوعا لخطبة الجمعة في اغلب مساجد ليبيا ان لم يكن فيها جميعا، يصبون لعناتهم على الفاسق الفاجر المارق الزنديق كاتب المقال الذي يدافع فيه عن الدعارة، متوجهين باسئلتهم لهذا الكاتب ، قائلين ماذا لو كانت امك او ختك او امراة من نساء عائلتك هي التي تباشر العمل في هذا الحي ، وكلام ينحرف بالموضوع عن المنطق والصواب ، ويدخل في دائرة المهاترات والسباب ، كما ظهرت مقالات اكثر موضوعية تدافع عن القرار دون استعمال لغة التهديد والوعيد، مثل مقال باسم مستعار لسيدة من سيدات المجتمع ، عرفت فيما بعد انها الشاعرة كوثر نجم ، زوجة الكاتب الصديق على ابوزقية. ولم احفل بكل هذه الردود، او بالحملة التي قادها خطباء المساجد، فانا قلت كلمتي ، مدركا ان الحكومة لن تعدل عن قرارها وان النفاق الاجتماعي والتزلف للراي العام باسم الدين وحماية الفضيلة الكاذبة، سيكون هو سيد الموقف ، وانتهى عهد سيدات الاوقات الطيبة في طرابلس

، وكانت هناك دكاكين دعارة تعمل بلا ترخيص ، وتحت بصر الحكومة وسمعها ، في مدن اخرى مثل بنغازي وسبها ومرزق ، وظلت تعمل ، وبتواطؤ من بعض السلطات المحلية، ودون اية التزام من هذه السلطات بالاشراف الصحي او سلامة روادها حتى صارت اوكارا للجريمة، ومصدرا للامراض الجنسية ، وطبعا لم يفلح القرار في منع الدعارة، وانما ظهرت عصابات اشبه بعصابات المافيا تدير تجارة الجنس المحرم، واتخذت من بعض شوارع المدينة، مقرا لتجارتها، مثل شارع المأمون، الذى تحول الى مصدر رسمي لشراء هذه المتعة، حيث يذهب الزبون بسيارته لالتقاط صيده ، وتجري المساومة في الطريق ، ولا اريد ان اقول هنا ، انني لم استفد مما كان معروضا في هذا الشاع باعتباري مراهقا يشعر بضغط الغريزة عليه، او ربما اكون اكثر صدقا لو قلت انني لا اذكر انني انتفعت بهذه الاسواق، او هذه الخدمات في شكلها العلني او السري، ربما لان الله انقذني من الحاجة اليها، بان سافرت مبكرا الى مصر ، حيث كان من المتيسر لي، انشاء علاقة صداقة مع انسانة تحبني ، وتتيح متنفسا لارضا الغريزة، ثم حدث بعد عودتي من مصر ، ان فتحت طريقا على جزيرة مالطا، وكان لايمرّ شهران أو ثلاثة إلا وأنا واجد في جيبي فائضا من المال يتيح لي شراء تذكرة بالطائرة ذهابا وعودة، ولم يكن ثمنها يزيد عن سبعة جنيهات، وكنا هناك نتقاسم السكن مع اصدقاء ننتقيهم من حشود الشباب الليبيين الزاحفين على مالطا، للاستفادة من فرص الحياة الاجتماعية المفتوحة بلا حدود على الجنس اللطيف ، وزاد من وتيرة هذه الرحلات وتعددها انني في احداها تعرفت الى عاملة في احدى المعارض اذكر ان اسمها كان سنتيا، صارت ، فكانت هي الملاذ الذي الجا اليه بعواطفي والتنفيس عن girl friend"صديقة ، او بالتعبير الانجليزي " الحاجات النفسية والعضوية الذي يحتاجها فتي في العشرين من عمره او فوقها بقليل، وكانت فرصة تمرين وتدريب على مباديء اللغة الانجليزية ، التي درست ابجديتها في معهد هايتي، وقد انقدتني هذه العلاقة ذات الطابع الانساني المضمخة بعبير الحب ، من مطبات ومزالق كانت اجواء جزيرة مالطا تساعد عليها، فتبعية الجزيرة رغم استقلال صوري في منتصف الستينيات ظلت تابعة للعرش البريطاني ولم يأت الاستقلال الحقيقي وتاسيس الجمهورية إلاّ على يد حزب العمال برئاسة دوم منتوف عام 1974، ولم تكن في النصف الاول من الستينيات تزيد عن مكان لبيع الخدمات السياحية لجنود القواعد البريطانية وعساكر المارينزالامريكيين وسياح يرمي بهم البحر ربما ياتي في مقدمتهم الشباب الليبي ، وكانت الحانات التي تمتليء ببائعات المتعة هي الظاهرة التي يراها السائح مع عدد من الشباب يتعيشون من ورائهن ، يعملون في مهنة الحماية والقوادة ، واضرب مثلا صغيرا على المطبات التي وقعت فيها، انني كنت اجلس في ملهى اكبر قليلا من علب الحانات في فاليتا، ووجدت من مضيفات الحانة من تشيد بقميص ارتديه ، وتقوم بتلمس قماشه ، متساءلة ان كان من الحرير ، ورغم انه لم يكن كذلك فقد اجبت متباهيا به ، بانه من الحرير ، وتلمست سترة جلدية ارتديها فقالت هي بالتاكيد من الشموا ، ولم تكن كذلك لكنني تباهيا قلت بانها كذلك، ونظرت الى ساعة في يدي ذات لون اصفر، فسالت ان كانت ساعة ذهبية ، ولم تكن كذلك، ولكنني مباهاة وسوقا للهبل على المجانين اجبت بنعم، ويبدو ان تلك الاسئلة لم تكن الا لزيادة التاكيد بانني صيد ثمين، وبعد قليل دخلت امراة ادارت رؤوس الجميع بما بدت عليه من جمال وانوثة واغراء، وصدر لا يمثل في قدرته على الغواية الا صدر المأسوف على جمالها سيدة الاغراء في السينما الامريكية في تلك الاعوام السيدة جين مانسفيلد، واتجهت نحوي حيث كنت مع المضيفة التي كانت قد استدعتها للحضور، كما اتضح لي فيما بعد، ونهضت ارحب بها وابدي استعدادي لتقديم واجب الضيافة، بان تتفضل بطلب كاس المشروب الذي تحب، فابت وقالت انها هي التي تريد استضافتي في شقتها، وكان ذلك تقليد

من تقاليد السوق لدى نساء المتعة في مالطا، عبان (أن) ياخذن الزبائن الى بيوتهن، وكنت احد الذين ياخذون جانب الحذر فلا اذهب لمثل هذه البيوت خوف الابتزاز، فبادرت بالقول انني اريدها ان تحل ضيفة عزيزة على بيتي ، فرفضت رفضا قاطعا بانها لا تذهب الى بيوت الاخرين ، ومن يريدها فليتفضل بالمجيء معها الى شقتها، واثقة من قوة ما لديها من مؤهلات انثوية قادرة على فرض منطقها على اي رجل ، ووافقت على القيام بالمغامرة ولكن ليس دون اتخاذ خطوة احتياطية ، وهي اصطحاب واحد من رفاقي في الرحلة ، وكان موجودا في الجوار، هو الصحفي الزميل عبدالله الهاشمي رجب، ورغم انها ارادت ان اذهب بمفردي ، الا انها وافقت تحت اصراري ، ووجدنا فور خروجنا من الملهى ، وكما هي العادة ، احد القوادين يقوم بدور السائق لها، ركبنا معه في سيارته، هي بجوراه ونحن في المقعد الخلفي ليتجه الى حيث توجد شقتها، وما ان دلفنا الى سقيفة العمارة حتى وجدت السائق القواد يخرج مسدسا يهددني به ويامرني باخراج كل ما معي من نقود، وان اخلع ساعتي واعطيها له، وعرفت فعلا انني وقعت في يد عصابة تستخدم صاروخ الاغراء هذا لاصطياد من اعتبرتهم رجالا اغنياء ، وانني الان ادفع ثمن التباهي بالقميص الحرير والجاكيتة الشمواء وساعة الذهب واكاذيب الغنى المزيف، وتاسفت انني تركت صاحبي في السيارة امام العمارة، واردت ان اصرخ مستنجدا به ، الا انه بقراءة ذكية للموقف الملتبس كان قد تسلل وراءنا دون ضجيج، واذا به يقف خلف القواد الذي يحمل السلاح ويضع شيئا في ظهره ويامره بان يرمي سلاحه فورا ، والا اطلق عليه الرصاص، وفعلا رماه فوق الارض لانحني وامسك به، واجهض بطبيعة الحال مشروع الخلوة مع المرأة الفاتنة ، ولان المنطقة معزولة فقد امرنا السائق القواد ان يعود بنا الى الطريق العام ، وقريبا من مركز للشرطة ، امرناه ان يتركنا ، واعدنا له المسدس بعد مغادرة السيارة ، والى هذه اللحظة لم اعرف ان كان صديقي يحمل مسدسا حقيقيا ، او انه كان مجرد مسدس العاب يضعه احتياطا للدفاع على النفس في مثل هذه المواقف ، ورغم معرفتي بصلاته الامنية في ليبيا باعتباره صحفيا يغطي احيانا قضايا تتصل بالامن ، وانه يمكن ان يتوفر على سلاح في ليبيا ولكن كيف يستطيع تامين مثل هذا المسدس في مالطا ، طبعا لم اكن معنيا الا بان الرجل كان موجودا ، وانه كان بذكائه وحسه الامني العالي ، قادرا على انقاذي من بين يدي عصابة تريد الاستيلاء على ما معي من نقوذ ويمكن ان يتطور الموقف الى اكثر من النقود.

وطبعا كان الاهتداء الى سينتيا وما كانت تكنه لي من محبة، وما استطاعت المحافظة عليه من علاقة ثابتة مع رجل لا يقيم اقامة دائمة في الجزيرة وانما ياتي في زيارات خاطفة ، نعمة ساقتها لي ربات الحظ السعيد، في تلك المرحلة الخطيرة من العمر، انقذتني من مثل هذه الكمائن التي تجلب الهلاك. وهي علاقة لم تنته، الا عندما فتح الله بابا للخروج من دائرة التزمت والكبت في المجتمع الليبي، الى براحات الحب والتجارب الحرة في البعثة الدراسية التي حصلت عليها ونقلتني الى قلب المشهد الستيني في اوروبا ابان اكبر ثورة عرفها شباب الغرب والشرق واطاحت بعدد كبير من التقاليد والتحفظات والتابوهات ، وفتحت لابناء القارة الاوروبية باب العلاقات الحرة بين الجنسين على اتساعه وهي ثورة عام 1968، وقد سافرت الى هذه البعثة مع اثنين من زملائي الاعلاميين ، وهما الرسام محمد شعبان الفيتوري، والكاتب محمد احمد الزوي ، والتقيت هناك بعدد من الزملاء الذين يدرسون في مجالات اخرى بينهم الصديق خليفة بازيليا، والصديق عمران على العوادجي، والصديق محمد نشنوش.

وفي ليبيا قبل الرحلة، في هذه البعثة، وانا في فورة الشباب وصبواته الاولى ، لم اكن اطلاقا اتردد في ان اعيش مغامرة الحياة بكامل زخمها، فكنت استخدم ما يفيض من حاجات السكن والطعام ، والقسط المخصص للعائلة ، في مسائل الترفيه ، وكنت باستمرار ارتاد اماكن اللهو الليلي ، مثل الموكامبو، والمقهى الشرقي في سوق المشير، وهو اقدم الملاهي الليلية في طرابلس، ثم استقر بنا الحال في ملهى يديره صديق سوداني اسمه زكي، جعلنا موعد سهرتنا الليلبة ، ربما ليس كل ليلة ، بسبب التكاليف الكثيرة لمثل هذا السهر، ولكنه سهر يتكرر من ليلتين الى ثلاث ليال كل اسبوع، وكنت قد امتلكت سيارة فولفو، وهي سيارة كانت تتمتع بسمعة طيبة كاحدى اهم السيارات التي تستوردها شركة التنمية الوطنية لصاحبها السيد محمد دخيل ، ويعمل معه اثنان من اصدقائي ، هما محمد بشير المزداوي، ومحمد فاضل زيان ، فكان سهلا ان اجد خصما في الثمن وتيسيرا في دفع الاقساط، بحيث لا يشكل شراء السيارة عبئا على المرتب. وكان اقرب الزملاء واحبهم الى نفسي، هو الشاعر الصديق الاستاذ على الرقيعي ، الذي كان محبا للسهر والضحك، وكان صاحب شخصية عذبة جميلة ، ورغم فارق السن ، فقد تطابقت اذواقنا وتطابق مزاجنا وصرنا في حالة شراكة في الادب والسهر وحب الحياة ، وترافقنا رفقة مستمرة في سهرات ملهى السيد زكي المسمى روز جاردن ، او حديقة الورد، وكان الشاعر علي الرقيعي يملك سيارة صغيرة فيات 58، وكنا نستخدمها او نستخدم سيارتي او يقلنا صديق ثالث ممن يحبون قضاء سهراتهم هناك مثل صديقنا الفنان عمران راغب المدنيني، او المؤلف الاذاعي عبدو الطرابلسي، ولاشك ان هذين الزميلين وغيرهما من اصدقاء الملهى ، فوجئوا بان عمنا زكي صاحب الملهى ، صار يعاملني ويعامل على الرقيعي بشيء من المحاباة ويعتني بنا اعتناء خاصا لا يحدث عادة الا مع زبناء من علية القوم ، وهوامر مثير للغيرة والحسد، لانه لا يقتصر على المجاملات العابرة، بل هم يرونه يطلب من الجرسونات تلبية طلباتنا قبل الاخرين، ويخصص لنا طاولة بجوار مكان الرقص والراقصات والراقصين ، واعظم من ذلك واكثر مجلبة لحسد الحاسدين ، انه يطلب مني ومن صديقي ان نبقى عند انصراف الزبائن، واذا كان احد الزملاء قد احضرنا بسيارته، فكنا نستاذن منه، لان عمنا زكي ، هو من سيقوم بتوصيلنا الى بيوتنا، وهي مكرمة لا يعرف قيمتها الا من هم على علم باسرار مثل هذه الهبة ، فعمنا زكي يملك سيارة نصف حافلة، يستعملها في اعادة عدد من الراقصات الاسبانيات الى فندقهن، ومعنى ان يتبرع بتوصيلنا هو اننا سنعود في صحبة هذه المجموعة اللذيذة من الاجسام الانثوية التي تكتظ بها الحافلة ، محصورين بين زحمة المفاتن من نهود وسيقان وافخاد، لهؤلاء الراقصات الاتي (اللواتي) غالبا ما تكون الاجزاء المكشوفة من اجسامهن اكثر من المستورة. فاي مجلبة للحسد بل الحقد اكثر من هذا النعيم الارضي الذي ادخلنا اليه حارس جنائن الورد وصاحب الكلمة الاولى في مثل هذا الفردوس الدنيوي. ولم يكن احد يعرف سر هذه المعاملة ، ولم اتطوع ، لا انا ولا على الرقيعي ، بكشف سرها، مع انه سر صغير بسيط، فقد استرعى انتاهي ان التذاكر التي يدخل بها الزبائن والتي ناخذها من الشباك ليست تلك التذاكر التي اعرفها في المسرح، مصادق عليها من مصلحة الضرائب التي تخصم ما يقرب من خمسين في المائة من ثمنها للشريك النائم كما يسمونه وهو الحكومة، وبسبب هذه الضريبة المرتفعة ، لجأ عمنا زكي الى حيلة يتفادي بها دفع الضريبة، ويستحوذ على ثمن التذكرة لنفسه، وهو ان يضع بدل التذاكرة ورقا يسميه تذاكر شرفية ، اي مجانية ، ولكنه يتقاضى في هذه الورقة نفس ثمن التذكرة، دون ان يكون لهذا الثمن تسجيلا في الضرائب، وقررت انا وصديقي الرقيعي ان نستخدم هذه التذاكر ضده، وحدث ان كنت اعرف رجلا من بلدتي ومن هواة المسرح مثلي اسمه احم يسر، يعمل شرطيا او ضابط صف في مركز شرطة

الفرناج، وهي الحي الذي يقع فيه الملهى، واتفقت معه ان ياتي ليكون شاهد اثبات عند دفع الثمن في هذه التذاكرة المزورة، ليضبط الحالة ، وهو ما حدث حيث قدمنا الشكوى في المركز وتمت كتابة محضر بالحالة وتم الدفع بالقضية للعرض على المحاكم مرفوعة مني ومن على الرقيعي ضد صاحب الملهى ، وعندما عدنا لاستكمال سهرتنا بالملهى ، كنا نتوقع ان نجد معاملة في منتهى العداء ، صاحب الملهي وعماله وراقصاته، جزاء ما قمنا به من فضح لما يحدث، ولكن العكس هو الصحيح، فقد وجدنا الرجل يرحب بنا ترحيبا كبيرا، ويقدم لنا صحونااضافية على حساب المحل وينقلنا من مائدة خلفية الى احدى موائد الصدارة ، والهدف طبعا هو سحب القضية ، ولكننا بقينا نماطل ونحاول ايجاد العقبات للسحب فصار امله هو موقفنا عند عرض المحكمة حيث هناك اقوال يجب ان نقولها وفق ما يريده المحامي الخاص به، سوف تنجيه من هذه الورطة وتجلب له حكم البراءة ، ووعدنا باننا لن نتاخر في قول كل مايريده منا، وطبعا حبل الحكومة الطويلة جعل القضية تتمخطر في اروقة المحاكم ربما لعام او اكثر من عام ونحن في هذه الحظوة الوردية وهذه العناية الخاصة والمعاملة الراقية التي يحسدنا عليها اصحاب الملايين لان ملايينهم لا تجلب لهم اكثر مما نحصل عليه مثلهم ، وعندما جاء اوان المحكمة تملصنا مما وعدناه به ، الا اننا قلنا كلاما بلهجة لا تحمل اية عدائية ، وانما فيها مماطلة وربما فيها نوع من التلاعب بمشاعر عمنا زكي فنحن نعرف ان الحظوة التي نحصل عليها منه اوشكت على الانتهاء اما بانتهاء القضية لصالحه ، او ضده، ونحن نريد ان نطيل عمر تلك المعاملة وكان طريقنا هو ان يطلب محاميه التاجيل ، ربما بايعاز من عم زكي انني (أننا) سنكون في المرة القادمة اكثر ايجابية ، وفعلا استمرت الحال على ما هي عليه ،واستمر ابتزازنا لعمنا زكي ، فها احد اصحاب مهنة الابتزاز وتجار الفاحشة ، يرزقه الله بشاعر وقصاص يبتزانه وينتقمان لما يقوم به من ابتزاز لبقية البشر، وابلغناه انه كلما طالت المدة كان ذلك لصالحه لاننا نستطيع ان ننكر بعض اقوالنا في المحضر بحجة ان وقتا طويلا قد مر لا يسعفنا بان نتذكر كل ما حصل ويسهل علينا ان ناتي باقوال ووقائع جديد لتبرئته، ولكن جلسات المحكمة صار انعقادها يتواتر بسرعة اكثر ، ولم نكن نريد في النهاية ان نتنكر لاقوالنا لان ذلك سيكون عرقلة للعدالة ان تاخذ مجراها، وطالما سنخسر ما نحظى به من معاملة فلتكن الخسارة لنا ولصاحب المحل، ولكن حدث اثناء هذا الانعقاد المتسارع للمحكمة والذي كنا مازلنا نقوم فيه بدور المماطلة بحيث اغيب انا مرة ويغيب على الرقيعي مرة اخرى ، لاطالة عمر الابتزاز حصلت مفاجأة وضعت حدا لابتزازنا وللمعاملة الخاصة التي نلقاها من عمنا زكي ، وكانت المفاجأة بانتظارنا لحظة ان دخلت صحبة صديقي الى الملهى ، اذ وجدنا ان الرعاية والعناية والمحاباة التي كنا نلقاها من صاحب المحل ، قد تحولت بكاملها الى واحد من المستشارين ممن يجلسون على منصة القضاء ينظر في القضية ، وقد خصص له جناحا يداريه قليلا على الانظار ، ويحعل الاضواء اقل القا فوقه، لكي يستمتع بخصوصية الجلسة محاطا باجمل راقصات ومضيفات الملهى ، وامامه افخر انواع الشراب وافخر انواع اطباق الطعام، ولم تستطع النظارة السوداء التي ارتداها ان تخفي شخصيته ، شخصية القاضي الذي ينظر في قضية التزوير والتزييف والابتزاز التي يقوم بها زكي السوداني صاحب ملهى الروز جاردن والتي تم ضبطها في حالة تلبس ، ولابد انه القاضي الذي قام في النهاية بحفظ القضية واخذ المقابل طعاما وسكرا وجنسا.

(خمسة وثلاثون عاما بعد هذه الاحداث، التقيت صدفة في القاهرة، بصديق ليبي هو السيد محمد البوسيقى صاحب الاصدارات الصحفية باللغة الانجليزية، وجلسنا نستدعي ذكريات مشتركة بيننا على

فنجان من القهوة عندما نظر في ساعته وقال ان لديه موعدا في الزمالك لابد ان يلحق به، واردف قائلا، ان كنت اذكر السيد زكي صاحب ملهى الروزجاردن في طرابلس ، فلم اعرف سببا لاستدعاء هذا الاسم من الماضي البعيد، فقلت طبعا اذكره رحمه الله، ذاهبا في ظني ان الرجل الذي اخمن الان انه كان كبيرا في السن لابد انه لاقى وجه ربه، فقال لي يرحمنا الله جميعا فهو على قيد الحياة وان موعده في الزمالك مع هذا الرجل وفي مطعم يملكه هناك اسمه رانديفو، ولم يكن ممكنا ان اترك هذه الفرصة تضيع لزيارة الماضي واستحضار صورة منه ، عن طريق لقاء هذا الرجل ، وفعلا ذهبنا اليه، وطرقنا الباب لان الوقت كان صباحا ولم يكن المطعم قد فتح ابوابه للزبائن ، وربما كان يوم عطلة المطعم الاسبوعية ، المهم ان عاملا او غفيرا فتح الباب، وعندما سالناه عن صاحبه طلب ان نذهب الى الباب الخلفي، وكان باديا على مطعم الرانديفو الفخامة والاناقة والديكور الجميل ، وانه ينتمي الى مطاعم النجوم الخمسة، ووجدنا في الخلف ما يشبه الحديقة الصغيرة العامرة بالورود فهي روز جارن صغيرة، وفتح الباب واذا بالرجل ما شاء الله يتبدى امامي صورة لتلك الحقبة الوردية من العمر، نعم كان كبيرا في السن ، وكان قد خرج لنا برتدي روبا منزليا وطاقية فوق راسه، فهو يقيم في جناح في خلفية المطعم ، وطبعا رحب بصديقي ورحب بي ايضا، ولاشك انه وجد في وجهي الفة زادت من قوة ترحيبه بي ، لكنني لا اظن انه قادر على استحضار التفاصيل ، واهم ما فاجاني انه كانت هناك سماحة في الوجه ، ورغم سمرته الابانوسية، فقد بدا مشعا وكان هناك نورا يصدر عنه ، كانه نور رجل من اهل الله، بل واحسست بحضوره يصنع دائرة من الفرح ، وجمال روحي يفعم المكان، ولعلني استغربت لبعض الوقت ، فهل هذا ما يجب ان يكون عليه تاجر الرذيلة بعد عمر طويل افناه في هذه المهنة ، ولكنني سرعان ما تعودت بالله من الشيطان الرجيم ، خوف ان تلحقني لعنات هذا الرجل الذي يفيض بهاء وبركة وخيرا وصلاحا، وقلت لقد عاش الرجل صانعا للفرح ، وسط اجواء الفرح ، لا يوزع الا فرحا ولا يستقبل الا فرحا ولا يرى في جنائن ورده الا بشرا فرحين ، فلماذا لا يكون الفرح جزءا من نفسه وحضوره ، ولماذا لا يكون هذا النور الصادر من وجهه انعكاسا لعوالم داخلية اسعدت بشرا كثيرا وقدمت لهم لحظة من السعادة والهناء ازالت عنهم الكدر وانستهم هموم الحياة ، وفعلا فرحت بلقاء هذ القديس من صانعي الفرح الذي تحيط به هالة القديسين وهو يجلس متلفعا بالروب الحريري الجميل، وحملت فرحته لايام كثيرة معي بعد ذلك واردت ان استزيد من هذا الفرح في مناسبة اخرى ، وحاولت ان اقود سيارتي عائدا الى المكان فلم استطع الاهتداء اليه ، واكتفيت باخذ تلك الحصة التي لم تكرر مرة اخرى)

طبعا انتهى شهر العسل الذي حصلنا عليه مع ملهى الروز جارن وصاحبه ، وعدنا ننعم بود زلائنا الذين لم يعرفوا سر ذلك الحب الذي حمله لنا صاحب الملهى ولا سر الجفاء بعد ذلك، ولعلنا صرنا اقل ترددا على الملهى ، لان على الرقيعي نفسه مر بعد ذلك بفترة من التازم والقلق لانه ترك وظيفته السابقة بانتظار الحصول على وظيفة جديدة وكان يعمل مع شركة قطاع خاص في مجال المحاسبة .

وكنت موجوداً في بيتي في شارع ميزران عندما رن الهاتف ذات صباح من صباحات عام 1966، وهو صباح 24 نوفمبر من ذلك العام، وفي وقت مبكر لم اتعود فيه على استقبال الهواتف فنهضت من سريري مسرعا، يخامرني شيء من القلق، ووجدت على الطرف الثاني، صديق وكاتب صحفي هي حسن خشيم،

يقول مباشرة هل عرفت بما حدث لصديقنا على الرقيعي. لم اكن اطلاقا استطيع ان اعرف ما حدث له، ولا اتوقع ايضا ان يحدث ما حدث، لانني تركته في الليلة السابقة في مقهى الاورورا، سليما معافي ، وبانزعاج سالته ان يسرع بقول ما يريد ان يقوله، فلاشك انه لم يوقظني في هذا الصباح الباكر، ويمهد بكلام يوحي بوقوع كارثة ، على سبيل المزاح، فقال لقد وقع حادث فاجع، واحضر حالا لاننا جميعا في طريقنا للاجتماع في مقهى الاورورا. ولم يقل صراحة ان الرقيعي مات في الحادث ، ولكنني وجدت نفسي ارتعش، ووجدت الدموع تهطل بغزارة من عيني، وارتديت ملابسي على عجل ، وخرجت ، ووجدت الزميل الذي هاتفني قادما نحوي اثناء عبور شارع ميزران امام سكني، ويهرع نحوي لانه راني امضى في اتجاه معاكس للمكان الذي وضعت فيه السيارة، في حين كان هو واقفا بجوارها بانتظاري ، لانه كان يعلم حجم الصدمة التي ستصيبني ، وجاء ليعينني على تجاوزها، وفعلا جلس بجواري ، يهديء من روعي ، ويطلب مني ان اقود ببطء لان حالتي كانت سيئة، وجسمي في حالة ارتجاف، ولم يسعفني من ارتكاب حادث سير ، الا حقيقة ان المقهى لم يكن يبعد عن بيتي غير بضع دقائق، فاذا جمع من الاصدقاء بينهم زميلنا عمران المدنيني، وكان شاهدا على الحادث الذي اودى بحياة الشاعر، فقد قضى هو ايضا سهرته في الروز جاردن حيث كان على الرقيعي ايضا يقضي سهرته، وغادرا كل منهما في سيارة عند انتهاء السهرة، غير ان الرقيعي كان اسبق في المغادرة ، وفي جزء من الطريق انحرفت سيارته الفيات الصغيرة وارتطمت بجذع شجرة ، وتصادف ان جاء الارتطام حيث كان يجلس هو امام مقود السيارة، مما ادى الى وفاته في الحال. وكان صديقنا المدنيني هو الذي ابلغ عن الحادث لتاتي سيارات النجدة والاسعاف ، وتجد ان الشاعر قد فارق الحياة .وكان في ذلك الوقت متزوجا يسكن في منطقة الظهرة كلاهما اكملا تعليما عاليا وتزوجا وقد تواصل معي ابنه ،بطرابلس وقد ترك طفلا هو ابنه نزار ، وطفلة من كندا. ومن وحي هذا الحادث الذي ادى الى رحيله الفاجع والمفاجيء كتبت قصة قصيرة ضمنتها مجموعتي المسماة قصص من عالم العرفان.

اقامت الصحف مناحة شاركنا جميعا في احيائها صراخا حارقا وبكاء مؤلما، على فتى الشعر الذي رحل قبل الاوان، في حادث عبثي، واشرت في مقالة الرثاء التي نشرتها لي صحيفة الرائد، انه حادث اشبه بالانتحار، هو طبعا لم يكن انتحارا بقصد وتصميم، قام به الشاعر متعمدا، ولكن ارادة الحياة كانت قد وصلت الى مرحلة من الضعف والذبول تهدد فعلا باستلامه للموت، ورايت ان ارادة الحياة في نفس الانسان اشبه بجهاز المناعة الذي يمثل درعا ضد المهالك فاذا انتهى هذا الدرع صارت حياة الانسان مهددة في كل لحظة بالتوقف. ولخطورة واهمية هذا الشاعر في المدونة الشعرية الليبية المعاصرة، لا باس من وقفة قصيرة عند الظروف التي سبقت وفاته، واقول ان الحياة الادبية، لم تكن قادرة على استيعاب شاعر في قوة وابداع ومكانة على الرقيعي، ليحصل على وظيفة في مجال ادبي، فاشتغل منذ مطلع حياته العملية في اعمال المحاسبة بداية في وزارة الصحة، وانتقل يؤدي نفس العمل في مكان اخر يعطي مرتبا افضل من الحكومة، حتى استقر به العمل في شركة خاصة يملكها احد رجال الاعمال الليبيين، ولسبب من الاسباب ، حصل خلاف ادى الى ان يترك الوظيفة ، ولم يكن غريبا ان تكون سليقة الشاعر قد ضاقت بهذا العمل الروتيني الذي يفرض عليه تعاملا بالارقام ، خاصة بعد ان تاكدت مكانته كاحد شعراء الحداثة الكبار في البلاد، وجاء ديوانه الذي صدر اياما قبل وفاته ، اشواق صغيرة، يؤكد هذه المكانة ، ويحظى بما يستحق من احتفاء نقدي، ولعله ظن ان هذه المكانة التي احرزها في مضمار الشعر، ستتكفل

له وظيفة في المجال الادبي، وكان سيحدث ذلك بالتاكيد ، لولا شيئان اثنان، الاول طبيعة على الرقيعي، كشاعر يعتز بنفسه وكرامته، واحساسه المفرط بالكبرياء ، وما تتميز به طبيعة من شموخ، لا شبهة فيه لاي غرور، ولكنه قامة سامقة انسانيا ، رغم حجمه الهزيل الضئيل، وهو اعتزاز بالنفس يجعله يرفض ان يطرق الابواب ويعرض احتياجة للوظيفة على احد من اهل النفوذ، ولعل ازمته الخاصة ظلت في حدود ضيقة لا يعرفها احد الا الخلصاء من اصدقائه، والعامل الثاني انه رجل يعيش عيشة كريمة في حدود ما يتوفر له من دخل ، ويصرف هذا الدخل كاملا على اسرته الصغيرة، واذا حصل فائض فقد كان والده، وهو رجل فقير وبسيط ولا يحمل اي تاهيل ، يتلقى منه ما يمكن ان يفيض على مصروفه من دخل، ولهذا فقد ترك الوظيفة دون ان تكون لديه مدخرات يستطيع ان يعتمد عليها، في مرحلة العبور من عمله القديم الى عمل جديد يحتاج لبعض الانتظار والاختيار. ولعله تعشم ان ياتي هذا العمل سريعا من بعض اصحابه من اهل النفوذ، ولكن احساسه بالخذلان كان كبيرا من هؤلاءالافراد، وكنت اعرف ما يشعر به من مرارة ، دون ان اسمع كلمة تعبر عن هذا الخذلان ، او تحدث عن هؤلاء الاشخاص بما يحمل اللوم او التقريع ، او تفوه بكلمة واحدة تسيء الى احد منهم ، وهي مرارة ضاعف من امرها ان هذا الوضع ياتيه وهو مسئول عن اسرة ولديه زوجة تعاني من طفلين ، ولا احد يلومها اذا ابدت ضيقا واظهرت غضبا لهذه الحالة زادت ازمته النفسية استفحالا ، ولولا هذا الوضع العائلي لما اهتم كثيرا بانه عاطل او غير عاطل ، بل يلائمه تماما ان يكون مثل الكولوشار الفرنسي، يعيش حياة بوهيمية تلائم روح الانطلاق من كل قيد.

والمهم ان الوقت لم يكن في صالحه وهو ينتظر حلا لازمة البطالة التي يعاني منها معاناة قاسية ومؤلمة بسبب شح موارده، واسطوانة النكد الدائرة كل يوم داخل بيته، وكدليل على ضعف ارادة الحياة اسوق ثلاث نقاط، الاولى انني رايته ليلة الحادث، جالسا في مقهى الاورورا، مستغرقا استغراقا عميقا في شيء ينكب على كتابته، الى حد انه لم يكن يشعر بما يدور حوله، ولم يشعر بوجودي او ينتبه لتحيتي له الا بعد وضعت يدي على كتفه لاقول له انني ساتركه الان ، على ان اعود اليه متاخرا، حيث كنت قد باشرت العمل المسائي مع فرقة المسرح الوطني، نلتقي في مسرح الغزالة تحت اشراف الفنان العقربي، وعرفت منه ان ليس في نيته تلك الليلة الذهاب الى سهرة ملهى الروز جاردن ، وواصلت طريقي باتجاه المسرح القريب، وواصل الرقيعي اكمال الكتابة، وكان ما استقطب كل شعوره في تلك الساعات الاخيرة من حياته، تمثيلية اذاعية يكتبها لصديقه الاذاعي عبدو الطرابلس ، واتضح فيما بعد ان التمثيلية، تنقل صورة لما حدث له بالضبط، كانه يتنبأ بموته، وترسم صورة لرجل يموت موتا فجائيا ويترك زوجة وطفل وطفلة.

مما يعزز الاعتقاد بان هاجس الموت ، كان حاضرا بقوة في وجدانه، واستطاع بشفافية الشاعر الفنان، ان يترجم هذا الاحساس الكامن تحت قشرة الوعي، الى مشاهد تمثيلية وقصة تنطبق على ما حدث له ، فيما يشبه النبوءة. النقطة الثانية، ان الاصدقاء الذين قابلوه في السهرة، ورأوه يخرج ثملا من الملهى، اخبروه بان لديهم مكانا في السيارة، وعرضوا عليه ان ياخذوه الى بيته، الا انه رفض واصر على استخدام سيارته، متشبثا بالمصير الذي ينتظره، النقطة الثالثة ، هي تلك التي تقول بها بعض الدراسات المعنية بفحص حوادث السيارت من جوانبها النفسية ، ومفادها ان الانسان وهو يواجه حادثا من هذا النوع، فانه لا مجال ولا وقت للارادة الواعية، تاخذ القرارات وتدرس الاختيارات والاحتمالات وتنتقي من بينها ما يمكن ان يحقق النجاة، وانما يصبح الامر برمته موكولا الى مناطق اللاوعي، فهي التي تستطيع في تلك الثانية ، او في جزء من الثانية، ان تجترح الحلول وتهتدي الى الطريق الذي ينجي من الكارثة ، بوحي من رغبتها في الحياة وغريزة البقاء، وتستطيع في حالة وجود ادنى فرصة لتفادي الكارثة ان

تراها وان تستخدمها للخلاص من الموت، وكانت الفرص في مثل هذا الحادث كثيرة للنجاة، فهو لم يمت لان شاحنة على سبيل المثال داهمته وطوحت بسيارته الصغيرة ، ولكنه انحراف عن الطريق، واصطدام بشجرة، وكان يمكن بلمسة صغيرة على عجلة القيادة، ان يتفادي جذع الشجرة، ويحصل الحادث دون ان يكون قاتلا، اما ان ياتي الحادث تنشينا صائبا على قلب الشاعر، فلابد ان لارادة الحياة التي تضاءلت الى حد الصفر، واسلمت مهمتها لارادة العدم والفناء ، دخل في هذا المصير الفاجع المؤلم الذي لاقاه الشاعر.

استطيع ان اقول ان علي الرقيعي في تلك الفترة التي سبقت وفاته، كان اقرب الناس الى روحي وقلبي، ولم يكن صديقا فقط، ولكنه كان دليلا في الحياة ودليلا في الادب والفن ، لانني اثق في غزارة معارفه واثق ايضا في شفافيته وصدقه وامانته وجماله الروحي ، وكان قد تباطأ في كتابة الشعر ونشره ، ربما بسبب ذلك الشعور الذي تمكن احيانا من نفوس نوابغ الادباء عندما يحسون بلا جدوى ما يفعلون ولكن تأثيري عليه، اعاده فعلا الى الشعر، فقد كنت احرر صفحة ادبية لجريدة الرائد، واريد ان امنحها زخما وقوة بمكانة وثقل واسم على الرقيعي، ومستفيدا من قربي منه، صرت اداوم الالحاح عليه في ان يعود لكتابة الشعر، وربما استخدمت نفوذ اصدقاء يحبونه مثل القصاص بشير الهاشمي، ليضيف جهده الى جهدي ، واستطعت فعلا ان انتزع منه بعضا من اجمل ما كتب ، واذكر مطلع قصيدة له، ولم تكن الوحيدة، نشرتها في الصفحة التي احررها في الرائد، وكنت عندما اسمع منه كلاما يعبر فيه عن لا جدوى الكتابة ، كنت اقول له ان هذه "اللاجدوى" نفسها يمكن ان تتحول على يد مبدع مثله الى شعر ، وفعلا كتب من وحي هذا الكلام اول قصيده عاد بها الى ميدان الكتابة الشعرية والتي تقول

ما الذي تفعله الامطار في الارض البوار

يا كناري

غير شوك العوسج الملعون في هذي القفار

يختم القصيدة بشيء من الاسى لما يلقاه اهل الخطاب الابداعي من بلادة الحس والشعورقائلا

ليت هذي الأعين العمياء تهفو للنهار

ليتها تبكي. . تغني. . تتألم. . .

مرة. . يا ليتها تكشف عن هذا القناع المستعار

ولابد من القول ، اخيرا، انه كان علاوة على موهبته العالية في التعبير الادبي شعرا ونثرا، كان انسانا صاحب حس بالدعابة تجعله ملح الجلسات، وروح الحفل اذا حضر حفلا، وكان متحدثا لبقا يستحوذ على الحديث بجمال مفرداته، وسخرية تعبيراته، وما يتضمنه حديثه من عمق تمترج فيه الحكمة بالطرفة، ولم اجد وسيلة لمعالجة الفراغ الذي تركه في حياتي، الا الانهماك في دوامة العمل الصحفي، انهماكا يقضي على كل لحظات الفراغ، التي يمكن ان يتسلل منها الحس بالفقدان ولوعته.

وقبل ان ادخل في تقديم جرد لصحافة تلك الايام لابد من وقفة صغيرة امام هذا الانهماك المبكر في العمل الصحفي الكتابي، وكانت فرحة امتلاك ناصية النشر، وما اجده من اقبال الصحف على نشر كتاباتي، وما ياتيني من اصداء لها وردود فعل من القراء، تجعلني لا انتبه الى جوانب سلبية في هذا الانهماك، وعيت بها عندما وجدت كتابا اعلى كعبا مني، واكثر تاهيلا جدارة، يلومون انفسهم لانهم لم يقاوموا اغراء النشر في الصحف، في تلك المراحل المبكرة من حياتهم التي يجب ان تصرف كاملة للتكوين والتاهيل واكتساب المزيد من المعارف ، ولعل اول من سمعت منه هذا التقريع، كاتب مصري ، صاحب اسم شهير خطير، هو رجاء النقاش، مع ان تلك الكتابات المبكرة التي قام بنشرها في عقد الخمسنيات هي التي جلبت لاسمه الذيوع ، عندما كانت القاهر هي مركز الاشعاع ، وكان الكاتب مثله، يصبح فور نشر مقال له في صحيفة مثل الاخبار، نجما من نجوم الكتابة في العالم العربي ، فماذا اقول عن نفسي ، اذا كان الكاتب الكبير الذي يقول هذا الكلام ، لم يبدأ النشر الا بعد ان استكمل دراسته الجامعية، ونهل العلم على اساطين الادب ورواده في اعرق جامعات العالم العربي وهي جامعة القاهرة، وقد جئت الى حقل النشر والكتابة ولم اتجاوز في دراستي المرحلة الاعدادية، وبدات في عمر يقل عن السابعة عشرة، فكيف يستطيع اديب مثلي ان يستكمل اداواته اذا كان سخر الوقت الذي يجب ان يقضيه في التكوين والتحصيل ، في الانشغال بكتابة الخواطر في الصحف السيارة، وكنت اقول باحثا عن اعذار لنفسي ، انني لم اكن املك ترف ورفاهية اكمال تعليمي ، كما يحدث لغيري ممن هم اسعد حظا، وافر (وأوفر) مالا اوجاها ونفوذا، وينتمون في الغالب لعائلات اكثر يسرا وبسطة في الرزق من عائلتي ، هذه نقطة اولى تعفيني من (من أن) اضع اللوم على نفسي في عدم استكمال مراحل تعليم، النقطة الثانية ، هي ان الانهماك في الكتابة لم يكن يعني انشغالا عن القراءة، فلا يعادل انهماكي في الكتابة الا انهماكي في المطالعة ايضا، بل كنت احرر ابوابا تعتمد على قراءة الكتب وعرضها، والنقطة الثالثة ، هي انني اعتبر هذا النوع من الممارسة الصحفية وكتابة اعمدة الراي وعرض الكتب ، ليس الا تدريبا وتعليما ومرانا صحفيا، وعندما لا يكون هناك مجال لوجود معاهد يتعلم فيها الناس الكتابة والصحافة، تصبح التجربة العملية والمران اليومي في الصحافة هما المعهد والجامعة، والنقطة الرابعة التي كان يمكن ان تغني عن النقاط الثلاثة الماضية ، انني حتى وان كنت توقفت عن التعليم، فان التعليم لم ينته في تفكيري، فتصميمي على ان احصل على نصيبي من التعليم العالي مشروع قائم ومستمر ولم يتوقف اطلاقا، في نوع من التحدي لكل المعطيات التي تريد حرماني منه، وكانت فرحة ذهابي مبتعثا الى القاهرة في معهد يتبع اليونسكو، دليلا اكيدا على ان الكفاح مستمر من اجل تحقيق هذا الغرض، فقد حصلت على البعثة بعد ان اجتزت اختبارا، وفي المعهد كان تفوقي ملحوظا، ونافست شبابا اكملوا تعليمهم الجامعي وتفوقت عليهم ، واذا كان ثمة نقطة خامسة فهي انني لم اكن رجلا اكاديميا يتصدي لبحوث تحتاج الى التخصص ، وانما اديب يلتقط مادته من الحياة، وصحفي يعيش في حالة اشتباك مع قضايا المجتمع في الشارع ، ولعل كل منهما يكمل الاخر، فحرفة الصحافة اعطت الادب الذي اكتبه شيئا من وهج وحرارة الواقع وسخونة قضاياه واحداثه، وحسي الادبي اعطى مقالات الراي التي اكتبها ومعالجاتي الصحفية نفسا ادبيا يحقق لها القبول ، ويغنيها بجماليات التعبير الادبي ويجعلها قريبة من قلوب القراء، فلاحمد الله على نعمائه ، ولا اكون جاحدا لمكارمه وعطاياه، لواما لنفسي دون سبب وجيه لهذا اللوم ، واخلص من هذا الاستهلال عن علاقتي بالصحافة الى تفاصيل هذه العلاقة ، وابدأ بالصحيفة التي كانت تمثل صوت الدولة في طرابلس ومنبر الحكومة ، جريدة طرابلس الغرب ، وكان الرجل الذي اعطاها هذا الاسم هو الشاعر احمد قنابة، لانه اراد ان تكون امتدادا لاول صحيفة حكومة في ليبيا ، تصدر اوان الدولة

العثمانية ، بدءا من عام 1866، واستمرت تصدر بشكل اسبوعي حتى انتهاء ذلك العهد عام 1911، ورأى ان صدورها بعد زوال الاستعمار الايطالي ، يجب ان يكون استمرارا للمشروع الذي انقطع بسبب خارج عن ارادة الليبيين، وان تعاد للصدور بنفس الاسم تحت ادارة ليبية، في عهد الانتداب البريطاني الذي اعقب رحيل الايطاليين عام 1943، وهكذا كان ، وتناوب عليها عدد من رؤساء التحرير منذ انتظامها بشكل يومي بعد الاستقلال ، مثل الاساتذة منير برشان ومحمد بن صوفية وعبد القادر ابو هروس ، ثم محمد فخر الدين الذي جاء لرئاسة تحريرها من عمل لم يعد موجودا في الصحافة، وهو قسم الاستماع ، ولانه لم تكن هناك وكالة انباء في ليبيا ، ولم يكن هناك اشتراك في الوكالات العالمية، ولم تكن الات تيكرز، تغذي الصحيفة بالاشرطة الاخبارية، كانت الصحيفة تعتمد على مصادر الاخبار على المذياع ونشراته المسموعة، وقسم من المحررين، مهمتهم الاستماع ونقل ما يسمعونه من النشرات، ليتحول الى مادة اخبارية للصحيفة، تغذي الصفحات الرئيسية ، تصنع منها العناوين وتكون موضوعا للافتتاحية ، غير المصدر الثاني، وهو طبعا قرارات الحكومة ومراسيم الملك والولاة ، وقرارات الوزراء والنظار وملخصات لجلسات البرلمان والمجالس التشريعية ، وياتي بعضها مصحوبا بتعليمات بابرازها، او وضع الافتتاحية عنها والترويج لها، وفي الحقيقة فقد وجدت قسم الاستماع منقرضا عند انتسابي للصحيفة ، وتمت الاستعاضة عنه بمادة تاتي من قسم الاخبار بالاذاعة، وهو الذي تحول بعد ثلاثة اعوام الى نواة لوكالة الانباء الليبية، وطبعا كنت اعرف كل العاملين في الصحيفة قبل انتقالي اليها عام 1965، وكان التعامل يتم مع الرجل الذي يمثل عماد الصحيفة لانه موجود في مكتبه طوال ساعت النهار ، محاطا بالاوراق ، وله مكتب مفتوح لا باب له، يستقبل كل من ياتي الى مكتبه ، هو الاستاذ محمد الشاوش، وهو صحفي صاحب قلم رشيق ، يهتم بكتابة عمود قصير ، وجاء الى الصحافة من حقل التعليم، وكان رجلا صبورا، بشوشا ، صاحب بال واسع، يستوعب الجميع، ويتبسط مع الجميع ، يؤدي عمله باعتباره مهنة يعشقها ، وليس باعتباره بابا لاظهار الولاء، او التعبير عن الانتماء لنظام والدفاع عنه وعن رموزه، وهو دور كان يحب رئيس التحرير ان يظهر فيه، فهو لا ينكر اطلاقا انتماءه للنظام، ولا يتورع عن الدفاع على اطروحاته، ولديه تفسير لصالح الدولة يرد به على كل انتقاد، وكانت قمة التعبير عن هذا الولاء، عندما اتخذ موقفا صريحا في تاييده للقضية التي كانت مثار سخط الرأي العام ، وكانت هي اكبر القضايا التي تمحورت حولها واتحدث ازاءها قوى المعارضة التي تضم مختلف القوى الوطنية، وكانت سببا لبروز كتل تعارض الدولة داخل كل البرلمانات ، بما في ذلك دورات برلمانية مورس فيها التزوير الى ابلغ مداه ، ومع ذلك لم تسلم من نواب اعلنوا الموالاة للحكومة في كل شيء ماعدا هذه القضية، وهي قضية القواعد الاجنبية ، وما رافقها من اتفاقيات ، وكانت قاعدة ويلس الامريكية تستقطب سخطا وغضبا ربما اكثر من القاعدة البريطانية، التي تقع في اقصى شرق البلاد، فالامريكية هي اكبر قواعد امريكا خارج ارضها، وهي التي تقع في مواجهة كل الناس داخل حدود العاصمة طرابلس ، ولعساكرها حصانة ضد القانون الليبي تستفز اهل البلاد، وحصلت اثناء حصة من حصص التدريب، ان سقطت احدى طائرات القاعدة فوق مزرعة ليبية ، فتضررت العائلة التي تقطن المزرعة، وماتت طفلة اسمها معيتيقة، فصار اسم هذه الطفلة رمزا وشعارا رفعته المعارضة ، ولهذا اطلق الاسم بعد انهيار النظام الملكي ، على القاعدة بعد خروج الامريكيين منها ، احياء لذكرى الفتاة، وتملقا لمشاعر الجمهور الذي كان يرفعه شعارا وطنيا ، اقول ان رئيس التحرير الاستاذ محمد فخر الدين ، متماهيا مع النظام، ومنتصرا لسياساته المتحيزة لبقاء القاعدة، نشر في ذلك الوقت مجموعة مقالات وتحقيقات صحفية عن مريكا ، حصلت بترتيب من قاعدة ويلس ، واستخدم فيها

احدى طائرات القاعدة ، وكانت صورته التي صاحبت المقالات هي تلك التي يصعد فيها سلم الطائرة العسكرية الامريكية، ويرفع يده ملوحا بها، ويشيد في هذه المقالات بالعلاقات الامريكية الليبية، ويعبر عن فرحته باعطائه مفتاح احدى المدن وتسميته المواطن الاول ، وهي مقالات قد لا تستوجب غضبا ، ولا تثير ردود فعل سيئة، في اية دولة اخرى، عندما يقوم بها صحفي يلقى الترحيب من امريكا، ولكن بسبب الظروف التي تعيشها ليبيا، والنظرة الشعبية للقاعدة باعتبارها انتقاصا من استقلال البلاد، كانت هذه المقالات موضع استهجان وسخط من الاوساط الوطنية، وفي هذا السياق لابد ان اذكر قصة صغيرة حصلت لي مع رئيس التحرير ، وربما ادت الى انسحابي من الصحيفة، اقدمها على بقية الاحداث لعلاقتها بهذه المبالغة في اظهار الولاء، فقد قرر الاستاذ فخر الدين ، ان تصدر الصحيفة بمناسبة عيد الملك في السابع من مارس ، ملحقا خاصا بهذه المناسبة ، ودعا الى اجتماع حضره المحررون ، ابلغنا فيه بهذا القرار شارحا دوافعه لاصداره ، ورغم معرفتنا بانه ملك زاهد متصوف، قد لا يحبذ مثل هذه التظاهرات ، التي يحرق فيها البخور وتضرب فيها الدفوف رياء ونفاقا، فقد استمعنا اليه دون اعتراض، خاصة من طرفي باعتباري اصغر المحررين ، ولعلني انتظرت ان يبدى احد الزملاء القدامى تحفظا على الفكرة،الا انهم قابلوها جميعا بالصمت ، ولا اذكر كيف جرى تقسيم العمل، ولكننا خرجنا جميعا بشعور ان المساهمة في انجاح هذا الملحق هي الان مسئولية مشتركة يجب ان نعمل بشكل جماعي من اجل تحقيقها، وحدد لنا اسبوعا لتحضير المادة، وادركت انه لا مفر من الكتابة ، فعدت الى احدى مراحل التاريخ لاجد فيها موقفا يستحق التحية في مسيرة ملك البلاد، ووجدت ان رحلة الجهاد ضد الطليان كانت حافلة بالمواقف التي استطيع العودة اليها ، خاصة في بعض المراحل التي قاد فيه عمر المختار الجهاد، واشار فيها شيخ المجاهدين الى علاقته بشيخ الطريقة السنوسية الامير ادريس السنوسي، واعتماده على جهوده وهو في مصر لامداده بالعدة والعتاد، وفعلا رجعت الى وقائع تاريخ هذه المرحلة ، وجعلتها موضوعا لمساهمتي في الملحق ، وجعلت لمقالي عنوانا مازلت اذكره يقول "عندما حمل الادريس مشعل الثورة" ، واعطيته له، وجلست انتظره وهو يطالعه ، فاذا به يعبر عن شديد اعجابه، وفتح ملفا ليضعه ضمن المواد الخاصة بالطبع ، ثم انتبه الى شيء، فعاد يقلب صفحات المقال ، قائلا :

ــ يبدو انك نسيت ان تضع توقيعك على المقال.

فاجبته بانني لم اكن ناسيا ، وانما تعمدت ان اكتبه لكي ينشر دون توقيع ، فابدى اندهاشه واستنكاره، لانني لا اريد ان اضع اسمي على المقال ، فشرحت له وجهة نظري وهي انني باعتباري محررا اتقاضى مرتبا من عملي في الصحيفة ، فانه لايحق لي ولا يصح ان ارفض تكليفا بالكتابة ، فواجب اي محرر مثلي ان يلتزم باداء واجبه نحو الصحيفة، والا ما كان لها ان تصدر كل يوم، لو ان المحررين بقوا احرارا في رفض التكليفات او قبولها، وهو ما فعلته، وكتبت الموضوع الذي تم تكليفي بكتابته ، واحضرته في الموعد المحدد ، ولكن اسمي كاديب وكاتب، هو شيء اخر، لا علاقة للصحيفة به، استخدمه متى شئت ، وامتنع عن استخدامه متى شئت، وهو مقال سيحتاج بعد الكتابة ، الى طابع يقوم بطبعه، ومخرج يقوم باخراجه ، ومصفف يقوم بصفه، ومصحح يقوم بتصحيحه، وسوف لن يسال رئيس التحرير ايا منهم على ان يضع اسمه على المقال ، فلماذا السؤال عن كاتب المقال ، اعتبرني ، قلت له واحدا من هؤلاء الفنيين، وانشر المقال دون حاجة لك باسمي . فاذا بسحنة وجهه تكتسي بلون الغضب، وتختفي الابتسامة التي غالبا ما نراها مرسومة على وجهه البشوش، وراى في الامتناع عن كتابة الاسم عملا مناهضا للملك

وللنظام، ربما لارغامي على وضع الاسم ، ولكنني لم اتنازل اطلاقا عن حقي في اعتبار الاسم مسألة تخصني وحدي ، لا علاقة للصحيفة باملاء ارادتها في اختيار متى اضعه او لا اضعه ، ولم استغرب طبعا عندما صدر الملحق دون وجود مشاركتي بين صفحاته، ولكنني استغربت وتاسفت عندما علمت ان المقالة وصلت مع تقرير عن رفضي لوضع اسمي عليها الى جهة امنية ، ولم يكن ذلك بالضرورة يعني استعداء الامن ضدي او الحاق الاذى بشخصي ، لان مثل هذا الامر جاء في العهد الذي اعقب العهد الملكي، ولكنه ربما يعني فقط الانتباه الى انني لست من اهل الموالاة، اذا فكر احد في ترقيتي او ترشيحي لمنصب اوغيره، وطبعا عرفت من خلال تعاملي مع هذه المؤسسات الصحفية والاعلامية ، ان لعبة الاقصاء وكتابة التقارير والتنافس على اظهار الولاء لعبة رائجة للفوز بالمناصب والمزايا، دون ان اعيرها اهتماما لانني منذ وقت مبكر جدا اكتشفت انه ليس في نفسي ذرة تطلع لمنصب او رغبة في منافسة احد في هذا المضمار، فطموحي كله ينحصر فيما احققه في مضمار الانجاز الادبي الذي لا اعتمد فيه على شيء اخر سوى قلمي ، وهو ما اغناني على الدخول في سباقات التناطح والتزاحم والضرب تحت الحزام، مكتفيا بنفسي، املك كامل الثقة في كفاءتي الابداعية وجدارتي المهنية، مؤمنا بان الابداع الادبي هو الابقى، وهوالاقوى، وهوالذي يستحق الجهد والعناء، وليس المناصب، ولا ما ياتي معها من مزايا وتحكم في عباد الله، ويعلم كل من عمل معي في مكان حدث بالصدفة ان كنت فيه رئيسا ، انه لا وجود لذرة احساس بالرئاسة في نفسي، ولا عاملت في حياتي انسانا من موقع رئيس ومرؤوس، وانما من موقع الزمالة والصداقة وموقع اعضاء في اسرة واحدة ، او افراد في فريق واحد، ولسان حالي يقول قولة فولتير وما اهمية ان يكون لي تاج، اليس لي قلم؟ ولا شك ان صاحب تلك المقولة قد بلغ من المجد ارفعه ، في بيئة تعرف قيمة القلم وصاحبه ، بل اكثر من ذلك ليكن مثل هذا القلم قد كتب شوامخ الاعمال ووصل الى اعلى مراتب الفكر والابداع ، وليس كل صاحب قلم يستطيع ان يبلغ شأوه او يملك موهبة مثل موهبته، ومع ذلك فالامر لا يطرح هنا على سبيل المقارنة ، وانما على سبيل التمثل وربما الاقتداء بكاتب يعتز بقلمه ، فلا باس ان يعتز بهذا القلم من هم اقل مرتبة واصغر موهبة. هكذا استطيع ان اقول في نفسي، لاحميها من الطمع فيما يطمع فيه الاخرون، والدخول في صراع معهم ، او اضعف مثل ضعفهم ، واهلا باي ضعف انساني اخر ، فالخوف ضعف ، وهو موجود وبكميات وفيرة في مجتمعات العالم الثالث، وغياب الحريات فيها وتعدد وسائل القمع والمنع والجزر والكبح ، فلماذا نضيف اليه انواعا اخرى من الضعف واهمها واخطرها الطمع، والضعف امام الوصول الى الرئاسات، والحظوة التي تاتي من اهل النفوذ والسلطة. واعود الى موقف رئيس التحرير الاستاذ محمد فخر الدين ، فاقول انه لم ينعكس سلبا على علاقتي به ، فهو رجل يعشق مهنة الصحافة، ودفاعه عن النظام وتماهيه معه ليس بالضرورة نفاقا، ولعله يؤديه عن قناعة وايمان بما يفعل فهذا حقه، ورغم تعليمه المتواضع، فيستحق الاشادة بما فعله لتاهيل نفسه ورفع مستواه المعرفي والمهني ، وحرص الرجل على اكتساب لغة اجنبية هي اللغة الانجليزية حتى اجادها، وصار قادرا على قراءة الصحف الامريكية والانجليزية ، وارى عمنا محمد صاحب الكشك الموجود امام جامع سيدي حمودة يحتفظ له بمجلات مثل تايم ونيوزويك كل اسبوع، علاوة على مزايا شخصية عززت علاقتي به وصداقتي معه، بعد عزله وابعاده ، من النظام الانقلابي، فكنت اسعى للقائه، لانه كان مخزنا لا ينضب من الحكايات والقصص، وهي قصص استقاها من واقع الحياة ومن مخالطته لكثير من الناس ، كما كان بارعا في روايتها وفي اضفاء البهارات التي تمنحها الجاذبية والمتعة، وكنت اقول له انه يملك موهبة لا يملكها الا الروائيون العظام ، وانه اخطا طريقه الى الصحافة

بدلا من كتابة الروايات. وعندما انتسبت الى الصحيفة ، كان كادرها كالاتي ، رئيس التحرير ، ونائبه محمد الشاويش ، وكان هناك رجل يعمل في الادارة اسمه يونس ، اخذ مكانه فيما بعد زميل له ، اسمه سليمان زقلام، اما المحررون فهم صالح دراويل وحسن الشغيوي ، يتناوبان على كتابة الصفحة الرياضية، وهناك السيد احمد سليم مامي ، الذي يحرر ركن الزراعة، ثم ابراهيم الطوير ، الذي يعمل في المنوعات والتحقيقات، وطاهر النعاس وهو المتخصص في تحرير الصفحة الدينية، وجئت لاكتب مقالة الراي وزوايا يومية واسبوعية، واولى اهتماما خاصا للفن والادب، ومن الابواب التي حررتها غير الباب اليومي الذي بداته بعنوان لا تسرع الخطى قبل ان اتفرغ للعمل الصحفي ، ثم اصبح كل يوم في فترة من الفترات، هناك باب اعتز به شاركني في انجازه عبقري الرسم الساخر الاستاذ محمد الزواوي، فكنت اكتب المقالة ويرسم هو لها رسما ساخرا "كاركاتير" يتفق مع مضمون المقالة ، وكان العنوان هو "نواقيس" الذي اختاره في بعد عنوانا لواحد من المجلدات التي تحتوي رسوماته. وهناك بالتاكيد قضايا كثيرة شاركت في اثارتها ، وابوابا قمت بتحريرها وموادا بعضها دون امضاء، ولكن عملي الاساسي في الصحافة ظل منصرفا لصحف اخرى، خاصة ، ربما كان سقف الحرية فيها اكثر ارتفاعا، واهتماماتها اكثر رحابة واتساعا من اهتمام الصحيفة اليومية، التي تمثل الدولة، ورغم ما يمكن ان ياتي من مكافآت فقد كان عامل الصداقة الذي يربط بيني وبين اصحاب هذه الصحف له الاعتبار الاكبر في تعامل الكتاب معهم.

انتقلت صحيفة طرابلس الى اكثر من مقر ، ولم يكن يزيد عن شقة واحدة، وانتقلت معها عبر مقرات ثلاث هي عمارة مسجد سيدي حمودة التي ازالها العهد الانقلابي ، ثم عمارة في نفس ميدان الشهداء ، فوق قاعة المطالعة العامة، ثم نقلة اخيرة الى عمارة جديدة في ميدان 9 اغسطس الذي سمي فيما بعد ميدان السويحلي، وهناك حسبما اذكر كان تغيير اسمها الى صحيفة " العلم" ، ورغم ان طرابلس الغرب اسم تاريخي لا علاقة له بما حدث من تقسيم ليبيا الى ولايات الا ان التدبير الذي اراد ازالة اثر الولايات لحق بهذا الاسم ،وتحول الى هذا الاسم الجديد، وانتقلت رئاسة التحرير الى الاستاذ محمد الشاوش ، بعد انتقال الاستاذ فخر الدين الى وكالة الانباء الليبية، والحقيقة فانه برغم ما كان يصدر من قرارات ادارية احالني مرة الى مجلة الرواد، ومرة الى ادارة الفنون والاداب، فانني اعتبرت نفسي دائما عضوا في اسرة تحرير الصحيفة الاولى في البلاد ، وتتنوع مساهماتي فيها، كما لم تقتصر على الابواب اليومية والاسبوعية، وانما نشرت فيها كثيرا من قصصي القصيرة اذكر منها قصة الجراد، ونشرت مبكرا جدا وقبل انتقالي اليها ، واظنها في عام 1963، والبحر لا ماء فيه ، وعيد سعيد، وهي قصص ذات طول نسبي ، ياخذ صفحة كاملة ، وتنشرها الصحيفة دون تردد، واذكر مرة ، وكنت قد ذهبت الى المطبعة عندما عرفت بنشر القصة ، للمراجعة والتصحيح، واعطاني عامل المطبعة سلخة الصحيفة ، او البروفة كما تسمى، بعد ان مر عليها المصحح، لالقاء نظرة اخيرة، وتصادف وصول السيد محمد بن زيتون مدير المطبوعات ، ربما لتصحيح مقال من مقالاته ، فطاف بالمكان، وجاء يدس راسه في الصفحة التي كنت اتولى تصحيحها، ولم يكن يعرفني، واطلق صرخة ينادي زميلا مكلفا بالاشراف على الطباعة، وعندما جاء قال له غاضبا ، وهو يشير للصفحة المفروشة فوق الطاولة امامي:

ـ ماذا قلت لكم؟ لماذا لاتسمعون الكلام؟

واوقع في يد الرجل لانه لم يفهم ما بقصده مدير المطبوعات ، وصرت انا انظر باندهاش الى الصفحة متفحصا، لانه لم يكن فيها اية مادة اخرى غير القصة، لاعرف ما الذي اثار غضبه.

وردا على تعبيرات الاندهاش والحيرة التي واجه بهما المشرف الليلي صراخ المدير، عاد محمد بن زيتون الى الصراخ، يسأل الرجل ان ينظر الى الصفحة المفروشة امامي:

ـ هل يعجبك ما تراه في هذه الصفحة؟

وانحنى الرجل يدس راسه في الصفحة ربما تكون هناك لطخة سوداء ، او مساحة فارغة يجب استغلالها ، فوجد ان الصفحة جيدة التوضيف والتصفيف ، ورد بصوت خافت يقول للمدير الغاضب:

ـ لم الاحظ اي خطأ في الصفحة استاذ محمد؟

وعاد الى الصراخ شارحا:

ـ قلت الف مرة لا تنشروا هذه المقالات الطويلة التي تاكل صفحة كاملة .

فرايت ان واجبي ان اتدخل مصححا ، فقلت بصوت اكثر خفوتا من صوت المشرف :

ـ انها ليست مقالة يا استاذ ، انها قصة.

فرد بعنف وجلافة

ـ قصة او شيطان ازرق ، نبهت الف مرة ، بالا يعودوا لنشر هذه المطولات التي تشبه ليلة بلا عشاء.

قال كلمته وانصرف ، ولم يكن هناك وقت طبعا لالغاء الصفحة واستبدالها بمادة اخرى، فظهرت كما هي ، ولكن موقف السيد بن زيتون الذي يخلو من اصول المجاملة ، وضع حاجزا نفسيا بيني وبينه، ولم تزل هذا الحاجز الا ازلة (إزالة) النظام الملكي الذي انتمي اليه الرجل ، وعاد مواطنا بسيطا يعمل بالتجارة، بعد الانقلاب، وامتد به العمر ، فعاش حتى قارب النظام الانقلابي نهايته ، وانتهت حياته قبله ببضعة اعوام ، وهو على مشارف المائة، وكنت اراه وقد بلغ من العمر عتيا، فاجده يذكرني ويذكر الزملاء، ويسألني عمن لا يزال علي قيد الحياة منهم ، وبعينين كثيرا ما ترقرقت فيهما الدموع ، عليه رحمة الله.

موقف من مواقف الولاء للنظام ، كما كان يتبدى عند الاستاذ محمد فخر الدين، يتلخص في انني اوردت وصفا للفجر ، اشرت فيه الى اصطباغ الافق باللون الاحمر الارجواني ، فاذا به يترك كل القصة واحداثها وشخوصها ويقف اما هذا الوصف قائلا

ــ الفجر الاحمر ، اليس كذلك؟

ابديت انتباها ونظرت في تساؤل، كانني اقول له ان يشرح ما يعنيه ، فاضاف قائلا

ـ اليس هذا جزءا من ادبيات الشيوعيين وهم يبشرون ببزوغ الفجر الاحمر ؟

فحاولت افهامه انني اصف وصفا ادبيا مشهد الفجر ، الذي لا يمكن ان يكون له شكل اخضر او اسود او اصفر او ازرق ، ولم يخطر ببالي ما يقوله الشيوعيون، لانه يعرف انني لست واحدا منهم ، وسيظل الناس يتحدثون عن الشفق الاحمر في الافق واللون الاحمر في الورد دون ان يعني ذلك ربيع الشيوعية ، ويتكلمون عن لون الدم الاحمر دون ان يعني ذلك تبشيرا بالثورة الحمراء ، ولكن الرجل كان يريد ان يقول ان صبيا صغيرا مثلي لن يستطيع خداع دهاقنة الصحافة من امثاله ، وانه في حالة انتباه لالاعيب الصبية الصغار امثالنا المتاثرين بافكار اهل الثقافة المستوردة ، ولم اجد اسلوبا اكثر اقناعا له، الا ان اخذت القلم ، وشطبت كلمةالافق الذي يصطبغ باللون الاحمر فجرا، لكي يسمح السيد رئيس التحرير بنشر القصة ، وينزع ما رآه لغما شيوعيا سوف ينفجر في اوجه القراء عندما يقرأون الصحيفة صباحا.

لم يكن السيد محمد الشاوش يملك هذا الهاجس الامني السياسي، ولم يكن يتعامل بمنطلق المبالغة في الولاء للحكومة ، فهو كما اسلفت رجل معني بالمهنة ، والمهنة بالنسبة له هي ان تخرج الصحيفة في موعدها دون تأخير، وتخرج دون مشاكل او صداع. هذه هي اولوياته وهو ما ياتي على راس اهتماماته ، ولعله بدأ حياته الصحفية كما يبدأ غيره من الشباب، مفعما بالطموح والنشاط والرغبة في التغيير والتطوير، والوصول بالمهنة الى افاق افضل، ولكنني عندما انضممت الى الصحيفة ، كان العمل الروتيني قد دخل في طبعه ،وصار جزءا من اسلوبه، فلا وهج ولا طموح في توجهاته او تعليماته ، ما يهمه كل يوم هو ان يجد مادة يملأ بها انهر الصحيفة ، واسلم وسيلة لمعالجة اي فراغ في هذه الانهر ، هو المقص ، فرصيد الصحف العربية لا ينضب في ارفف تحيط به من كل جانب ، وهناك دائما في هذه الصحف ما ينفع لسد الفراغ حين وجوده ، هذه هي مهمته الاولى ، ومهمته الثانية، هي ان ينظر في التقويم الذي يتوافر بكثرة فوق الطاولة امامه ، وعلى الجدار خلفه ، ومن خلال اوراق هذا التقويم يعرف المناسبات الدينية والسياسية والعطلات الرسمية ، لكي لا تظهر الصحيفة دون تغطية للمناسبة ، والحقيقة فهو لم يكن يحتاج ان يكلف نفسه عناء الكتابة، او حتى اصدار تعليمات للمحررين بالكتابة، فهناك كوكبة من المتطوعين من خارج اسرة التحرير ، ممن نسميهم كتاب المناسبات ، فهم لا يظهرون ولا يكتبون الا في مثل هذه المناسبات ، ومن الواضح انهم يتربصون بها، وينتظرونها، ويعدون لها عدتها، فلا يكتبون الا اثناءها، ربما لانهم يعرفون ان حظهم ضئيل في منافسة الكتاب الاخرين ، ولكنها مناسبات غالبا ما يعافها اهل الجدارةالكتابية، فتجد هذه المجموعة فرصتها ، حيث تظهر اسماؤهم فوق الصحيفة، ولعلهم يتباهون بها امام احد يهمهم ، اويقضون بها مصلحة تتصل بوظيفة ، او يجاملون بها جهة ما، فليوم الاستقلال مقالاته ، ولذكرى جلوس الملك على العرش مقالاته ، ولعيد ميلاد الملك مقالاته ، وليوم تاسيس الجيش في 9 اغسطس مقالاته، وطبعا للمناسبات الدينية مقالاتها ، سواء كان ذلك عيد المولد اوالاضحى او عيد الفطر او عاشوراء او بداية السنة الهجرية، او موسم الحج ، او فضائل شهر الصوم بكل ايامه، حيث لكل يوم مقال ، وهناك مناسبات اخرى لا وجود لها في التقويم ، ولكن لها وجود لدى كتاب المناسبات ، فما ان يصدر على سبيل المثال مرسوم ملكي بتعيين وزارة جديدة ، حتى تنهال مقالات التمجيد في الحكومة الجديدة والاشادة برئيسها وبحكمة الملك في الاختيار وهناك كاتب لا يملك الا عنوانا واحدا وربما نفس الاسطر مع كل وزير جديد او وزارة جديدة وهو العنوان الذي يقول "اعطيت القوس باريها" وطبعا الذي اعطى هو مولانا الملك المعظم ، وباري القوس هو الوزير اورئيس الحكومةالجديد، وكان الاستاذ الشاوش يجامل الجميع ويرضي الجميع، كما كان صاحب اسلوب يعتمد على الحكمة التي

تقول ما قل ودل ، فهو يحب الكتابة بالاسلوب البرقي ، ولا صلة له بالاساليب البلاغية وبالمحسنات اللفظية ولا بانشاء الزخارف والمبالغات، كما لم يكن يميل الى الاطناب في مديح الحكام في الافتتاحيات اذا كان مضطرا لكتابتها ، ولم تنقطع علاقة الود بيني وبينه، اثناء عملي معه ، او بعد انتقالي لجهات اخرى ، واستمرت هذه العلاقة في العهد الجديد الذي اعقب سقوط النظام الملكي، فكنت ازوره في عمله الجديد في معرض طرابلس الدولي ، حيث انتقل للعمل مشرفا اعلاميا مع عدد من زملائه الذين عملوا معه في الصحافة، وكان راضيا عن نفسه ، ويكتب ما يجول بذهنه في خواطر غالبا ما يجد مكانا لنشرها فيه احيانا بدون اسم ، واحيانا في باب له طابع ديني صار يكتبه للاذاعة واستمر فيه الى وقت رحيله في اواخر التسعينيات.

ويمثل الاستاذ الشاوش واحدا من جيل الرعيل الاول للاستقلال ، وربما كانوا اكثر تقدما من جيل سابق للاستقلال وتولى في البداية ربما دون دراية ادارة الامور الاعلامية ، عندما كان الاعلام وكانت الصحافة، لا تملك الكوادر ولا الامكانيات، واحدى الطرائف انهم انشأوا ادارة للاعلام في وزارة الخارجية عند بدء تاسيسها ربما لانهم وجدوا اسم هذه الادارة في هيكلية الوزرات التي قاموا بتقليدها والاحتذاء بها ، ووفقا للكادر وضعوا للادارة مديرا يتناسب مع درجة مدير عام ، وانتقل الرجل الى الوظيفة غير عارف معنى الاعلام، واستشار بعض اهل العلم، فقالوا له ان معناها واضح فالاعلام مسالة تتصل بعلم المملكة ، وجمع العلم اعلام ، وهي تلك التي ترفرف على واجهات الابنية، فمهمتك هي ان تتفقدها، وتتاكد من وجودها، وتقدم تقريرا عن الصالح منها وغير الصالح، وطبعا لم ينتبه الذين وضعوه في المنصب الى جهله بطبيعة العمل، الا بعد ان رفع الرجل تقريرا الى رؤسائه يذكر فيه جولاته على الاماكن التي ترفرف فوقها اعلام قديمة ممزقة، تسيء الى هذا الرمز الاساسي من رموز الدولة، ولابد من تجديد هذه الاعلام ، وراى صارية تنتصب ليس فوقها العلم ، فعمل الى التنبيه الى ضرورة ان يرتفع فوقها علم البلاد، لانها ما وجدت الا لذلك، ،اما طرائف الصحافة ، وبالذات الصحيفة الرئيسية والرسمية للدولة، وهي طرابلس الغرب في اول عهدها ، فهي مرحلة عاصرها الاستاذ على مصطفى المصراتي ويذكر طرفة عاشها مع رئيس تحرير جاءت به الظروف الى هذا المركز، وهو لا يفقه في العمل الصحافي ولا الكتابة الصحفية شيئا، ولكنه لابد باعتباره رئيسا للتحرير ان يكتب افتتاحية العدد، فلجأ الى حيلة تنجيه من عناء الكتابة اليومية لهذه الافتتاحية ، واستعان بمعلم لغة عربية يجيد الانشاء كتب له افتتاحية نموذجية تصلح لكل المناسبات ، جعل عنوانها " عيد في الارض وعيد في السماء" وصنع من الافتاحية صورة زنكوغراف ثابة فيما يسمى كليشيه، لكي لا يكلف المطبعة عناء طبعها كل مرة ، فيضع هذا الكليشيه في الصفحة الاولى كلما جاءت مناسبة سياسية او دينية او وطنية ، فعيد الاستقلال لا يحتاج الا ان يكتب هذه الكلمة في اعلى الصفحة ثم يضع الكليشيه ، فتظهر الصيغة هكذا عيد الاستقلال ، عيد في الارض وعيد في السماء ، يفرح به الناس فوق البسيطة وتزغرد له الملائكة في عليين ، وتهب فيه نفحات البهجة والسلام والهناء والرخاء الى اخره من مثل هذه الكلمات ويتكرر مع كل عيد نفس الكليشيه فعيد الاضحي ، يظهر اسم العيد وتحته نفس الكليشيه ، عيد في الارض وعيد في السماء وهكذا عيد العرش وهكذا عيد تاسيس الجامعة العربية او الامم المتحدة اوعيد الشجرة او اي عيد أخر، فهو عيد يبتهج له الناس في الارض وتزغرد له الملائكة في السماء، ولانه يحتفظ بالكليشيه الذي طبع فوقه هذاالكلام في مكان امن، فقد ترصد له بعض الشباب ، بتدبير من الاستاذ المصراتي، الذي اراد ان يحيك للرجل مقلبا لفضحه، وسرقوا

في ساعة غفلة منه، هذا الكليشيه الذي يمثل راسماله الوحيد في العمل الصحفي، وجاء موعد احد الاعياد، وبحث الرجل عن كنزه الثمين لياخذ مكانه في الصفحة الاولي عند الطباعة، فاذا به قد ضاع، وطبعا لم يكن هناك وقت للبحث عن المدرس الذي يكتب ولا وقت للطابع الذي يطبع، وربما اقتضى مرور اشهر قبل تعويضه بزنكوغراف جديد، لان مثل هذه الكليشيهات لم تكن تصنع محليا ، وانما في معامل خاصة في مصر، وكانت مناسبة لكشف جهالة الرجل وانتهاء عهده بالصحيفة ومجيء من هو اكثر تاهيلا وجدارة. الا ان لوحة الزنكوغراف المحفوظة المسكوكة المسروقة، لم تكن اطلاقا تختلف عن افتتاحيات اخرى يكتبها محررون اكثر شطارة ومعرفة بمباديء المهنة، ربما لدواعي السلامة والامان ، التي ينشدها صحفيون يعملون في صحف لها شكل الصحافة دون جوهرها، اقرب الى نشرة البلاغات المحلية، منها الى صحافة الخبر والراي والتاثير وصناعة الرأي العام، فكان قدرهم ان يعملوا باعتبارهم موظفين في سلك الدولة، وتحت القوانين الصارمة التي تجبر الموظف ان يلتزم بالاوامر والتعليمات ولا يخرج عنها اطلاقا، وساذكر لاحقا، في السياق التاريخي لهذا الحدث، كيف قدمت شخصيا الى المحاكمة الادارية بناء على هذا القانون الذي يجرم خروج الموظف على تعليمات الادراة التي يعمل بها. وقبل ان انتقل لاعطاء لمحة موجزة عن تعاوني مع الصحف الاربعة الاخرى التي تعاملت معها واسلوب ادائها لمهمتها الصحفية ، وهي الرائد والحرية والميدان والحقيقة، لابد من وقفة ننظر فيها الاجواء العامة التي يعيش تحتها كتاب وصحفيو العهد الملكي ، لتصحيح الصورة التي ظهرت ابان سنوات الاستبداد والارهاب الاسود للعهد الانقلابي، واضفت مسحة من الجمال على ما قبل هذا العهد، والنظر اليه باعتباره الزمن الوردي الجميل لحرية القول والتعبير ، وهو لم يكن كذلك على الاطلاق، وابدا بالقول ان جيلا عاصر الانفجار الاعلامي والمعلوماتي، بامكانياته المهولة، التي اتاحها العصر، واتاحتتها الفتوحات العلمية المتواترة والمتلاحقة عاما وراء عام، نشرا وطباعة وبثا مرئيا ومسموعا وثقافة رقمية وما تسارع في الظهور من تطور تقني ورقمي وصل الى الانترنيت ومواقع التواصل الاجتماعي وانواع الحاسوب واجهزة الاستقبال والارسال ، وثقافة السماوات المفتوحة ومجتمع المعرفة، لا يستطيع ان يتصور فقر الوسائل والامكانيات التي كانت متاحة في الخمسينيات، يوم ان بدأت الكتابة ، او الستينيات التي شهدت ما اعتبرناه ازدهارا صحفيا، ليس في ليبيا ، ولكن في مناطق مختلفة من العالم العربي، ونعرف جميعا ماذا كان عليه حجم الامية عند بداية الاستقلال ، فقد كانت احصائية الامم المتحدة تقول بان الامية تمثل 95% من عدد السكان ، ويكفي هذه النسبة الضئيلة جدا من عارفي القراءة والكتابة، لتضع بصمتها وتفرض شرطها الانساني على اي حراك ثقافي او اعلامي، والاذاعة التي ينظر الناس اليها باعتبار الاعجاز العصري في ذلك الوقت ، لم تكن اذاعة بالمعنى المعروف ، وانما لحظات بث محدودة الانتشار ، ومدة ارسال بالدقائق لا بالساعات ، بدات في في عام 1936 في عهد بالبو كجزء من اذاعة الراي الايطالية بحصة عربية اقل من ساعة واحدة، من مقرها بمبنى المعرض في الشارع الذي صار اسمه عمر المختار، ثم تحولت في عهد الادارة البريطانية الى منطقة الصمعة الحمراء، قريبا من منطقة بن عاشور، وهي ايضا حصة محدودة الارسال ولدقائق لا تزيد عن ساعة، ثم جاء في عهد الاستقلال الانتقال الى اذاعة عمل على تاسيسها ناظر المواصلات الاستاذ فؤاد الكعبازي، والتي بدأت هي ايضا ببث محدود لا يتسع الا لمدينة طرابلس قبل ان يتم افتتاحها وطنيا لتشمل اغلب مناطق ليبيا، وعرفنا في الستينيات الارسال التليفزيوني، وجاء من خلال حصة صغيرة في محطة خاصة بقاعدة ويلس الامريكية ، وخصصت خمسين دقيقة او ما يسمونها ساعة تلفزية للارسال باللغة العربية، وجلب السيد الهادي المشيرقي بعض الاجهزة

ليقوم بعض الناس بشرائها بالتقسيط ويبدا تعرف الناس على هذا الوسيط الاعلامي الجديد، وطبعا كان بعضنا ممن سافروا الى الخارج يعرفونه ، وكنت ادمن شخصيا على مشاهدته اثناء اقامتي في مصر من خلال جهاز كان موجودا في صالة جلوس بالمعهد الذي ادرس واقيم فيه بمصر، وكانت ساعة تليفزيون ويلس اسمها القافلة واهم فقراتها فقرة رياضية ، هي التي جعلت الناس يقتنون الاجهزة ويقبلون على مشاهدتها، وعبر هذه الساعة، قدم زميلنا عبد الحميد المجراب ، برنامجا مسرحيا ، ينتقي فيه مشهدا من مسرحية ليقوم الممثلون بتجسيده ، ثم يقدم تلخيصا للمسرحية، وقد دعاني للمشاركة في تمثيل مشاهد هذه المسرحيات وكانت اغلبها مسرحيات عالمية، وبعض المسرحيات العربية، اذكر منها مسرحية "شمس النهار" لتوفيق الحكيم ، وقمت بالدور امام واحدة من جميلات المسرح الليبي، هي السيدة الفاضلة خدوجة تكيتك، التي اعتزلت التمثيل بعد زواجها وخسر فيها المسرح احدى النساء المؤهلات للشهرة والنجومية، وكنا نقدم المشهد على الهواء مباشرة ، لانه لم يكن هناك تسجيل ولا حفظ لهذه البرامج، واذا اخطا الممثل فهو خطأ لا سبيل لتصحيحه، وكان الدخول الى القاعدة، امر ليس متاحا لكل الناس، الا من يملكون ترخيصا يستخدمونه طبعا للاستفادة من شيئين ، اولهما هي خدمات طبية راقية ، ومستشفى على الطراز الامريكي ، ليس متاحا الا لقلة من اهل البلاد ممن يملكون مثل هذا الترخيص ، والامر الثاني ان بالقاعدة شارعا للترفيه لا وجود لمثله الا في بلدان اوروبا ومجتمعاتها المفتوحه، ففيه بارات تبيع الكحول باسعار رخيصة لانها لا تخضع للضريبة ، وفيه طبعا علاقات حرة مع نساء الجالية الامريكية اللاتي يترددن على هذا الشارع، كما فيه طبعا من المراقص والملاهي ما يضاهي امثاله في بلدان الغرب، وكان هناك اصدقاء يحملون تصريحا بالدخول الى حانات القاعدة والاستمتاع بصحبة جميلات الجالية، الا ان اصدقاء كثر من الوسط الصحفي والثقافي لهم موقف ثابت ومبدئي بعدم تطبيع العلاقات مع هؤلاء الامريكان باعتبارهم يمثلون نوعا من الاحتلال ، وكان موقفي لا يختلف على موقفهم وان كان اقل حدة وتزمتا ، بحيث شاركت في العمل مع صديقي صاحب البرنامج، واقتصر ذهابي الى القاعدة على هذه المشاركة المحدودة. اقول ان هذا كان وضع الاعلام، مقروءا ومسموعا ومرئيا، لا يكاد يملك واحدا على المائة من تأثيره الذي وصل اليه في مثل ايامنا هذه، حيث اتسع وانتشر وسيطر الى حد الطغيان ، والهيمنة على توجهات البشر وافكارهم، ولم تكن هناك في الحقيقة ، على مستوى الادوات المحلية، غير الصحافة وسيلة لاثارة القضايا التي تشغل الراي العام ، ولا وجود لوسائل تعبير وابداي (إبداء) راي حر، ونقل ردود فعل الناس علي السياسات التي تمارسها الدولة ، الا بعض هذه الصحف الخاصة ، التي كانت في مجملها مشاريع فردية ، الا انها تبدل المساعي والجهود لان تاخذ الطابع المؤسساتي، وربما نجح بعضها في ذلك، مثل صحيفة الحقيقة.

ولابد هنا من القول بان ثمة ظاهرة تكررت في حياة الشعب الليبي، ونلحظ حدوثها ثلاث مرات في القرن العشرين، وهي ان ازهى فترات التعبير الحر عن الاراء والافكار، تحصل في في فترات التحول، والانتقال من عهد الى عهد، عندها تشهد الحريات العامة والخاصة قفزة تصل بها الى اكثر الاسقف ارتفاعا، وحصلت المرة الاولى في مطلع القرن العشرين، عند الانتقال من العهد العثماني الى مرحلة الاستعمار الايطالي ، فقد حصل انفجار في الحريات العامة في الاعوام الثلاثة الاخيرة من عمر الاحتلال العثماني وقد بدأت علامات الانهيار والتلاشي تظهر على تلك الدولة، وقبضة السلطة العثمانية التي سميت الرجل المريض في تلك الاوانة تتراخي، وارغم الاتحاديون السلطان عبد الحميد على اصدار دستور

1908، الذي كان في ليبيا ايذانا بصدور ما لايقل عشر مطبوعات صحفية، استمرت في الصدور متوافقة مع ارهاصات حركة نشر للكتب وارهاصات حركة مسرحية ، وحركة عمالية اعلنت اضرابا في الميناء ، وانشاء النادي الادبي، وهي فترة استمرت ثلاثة اعوام ، اي حتى اكتوبر 1911 ، تاريخ بداية الغزو الايطالي . الانفراجة الثانية هي تلك الفسحة التي جاءت مع خروج الايطاليين من ليبيا ، وبداية انشاء الدولة الليبية، وهي فترة استمرت تسعة اعوام، بدءا من 1943 الى 1952، يوم ان اقفلت الاحزاب وثم طرد القادة المعارضين لحكومة الاستقلال خارج البلاد، واعتقال بعض المعارضين الاخرين، وايداعهم السجون، وهي فترة انتقالية طالت قليلا وادارت البلاد خلالها دولة الانتداب البريطاني. وكانت فترة شهدت فيها البلاد حرية الصحافة وتاسيس الاحزاب وانشاء النوادي الرياضية والثقافية والنقابات العمالية والفرق المسرحية، حالة من النشاط والازدهار لم تشهدها لاكثر من سبعين عاما بعد ذلك، وكانت الانفراجة الرابعة ، اقل مساحة في الزمن ، وادنى سقفا في الحريات العامة والخاصة، ولكنها كانت انفراجة بين عهدين، هي تلك التي جاءت عقب انهيار النظام الملكي، وقبل ان تتمكن سلطات النظام الانقلابي من احكام القبضة الحديدية على البلاد، وجد الجميع اثناءها براحا لانشطتهم الثقافية والفنية والسياسية التي كان متوقعا ان يحجبها النظام القديم بما تراكم من محرماته وتابوهاته ومواضيعه التي يمنع الاقتراب منها ، خلال عهده الذي استمر ما يقرب من عشرين عاما ، وجاء عهد لم يكن قد وضع خريطة لمحرماته وممنوعته (ممنوعاته) وزواريبه التي يمنع المرور منها، الا ان هذه الخريطة لم تتاخر كثيرا على النزول فوق رؤوس الناس مثل الصاعقة ، فاذا بها تكميم للافواه، ووضع للقيود والاغلال في الايدي وفي الاقدام ، ووبدأت تمارس قمعا وكبتا وقاهرا اكثر مما مارسه جنرالات الاستعمار الايطالي الفاشي في ليبيا ، وسياتي في السياق تفاصيل الانفراجة الصغيرة، التي اعقبها كبت وقهر وقمع الى حد التصفية والقتل.

واكمل الحديث عن صحيفة طرابلس الغرب ، التي لم يكن ممكنا الا ان تلتزم بخط الحكومة ، وان تكون صوتا لهأ وليس صوتا للوطن وقواه السياسية بمختلف الوانها واجنحتها، كما يجب لصحف الدولة التي تنفق عليها الخزينة العامة ان تكون. مع ان الدولة تحتمل وجود هذا التنوع في مجالات اخرى غير الصحافة القومية او الوطنية، فثمة اصوات لنواب معارضين يتقاضون رواتبهم من الخزانة العامة، ويتمتعون بالحصانة والحماية من الدولة بحكم مناصبهم، وهي اصوات حدث ان هزت الحكومات بل اسقطت احداها وارغمتها على الاستقالة وهي حكومة عبد المجيد كعبار عام 1960، وهناك نوع من الاستقلالية ظهرت في القضاء واستطاع حكم من الاحكام ان يبطل مرسوما اصدره الملك بنفسه، ربما لان ما نطلق عليها صحافة الدولة ، لم تكن حقا صحافة دولة ، وانما هي نشرات حكومية وليس المحرر فيها الا موظفا لا مجال لان يعامل باعتباره صاحب قلم له راي وله كيان ، وربما من هنا كان هروبي الدائم الى الصحافة الخاصة التي اجد فيها كياني باعتباري قلما وباعتباري كاتبا يمكن ان يقول رايا يخالف الدولة ، سواء نشرته باسمي او بلا اسم، وظلت سياسة طرابلس الغرب هي سياسة الحكومة حتى وهي تنتقل الى براح الدولة الاتحادية ، ويتحول اسمها الى صحيفة العلم، كما ظهر المزيد من الصحف الخاصة ، التي تتبع سياسات تختلف عن الصحيفة الحكومية ، وتملك مساحة اكثر اتساعا، وسقفا اكثر ارتفاعا، للتعبير، ولكنها ليست صحافة معارضة، وبينها صحف تعكس مصالح واراء اجنحة في الحكومة نفسها ، فمعلوم مثلا ان اتحاد العمال ، الذي يقوده السيد سالم شيتا، هو اتحاد ينضوي تحت جناح الحكومة ، ويمتثل

لارادتها ويسير بتعليماتها، ويحظى بدعمها ضد اي تكتل اخر يريد ان يقوم بتكوين كيانات بديلة لاتحاده، واصدر هذا الاتحاد صحيفة اسبوعية اسماها الطليعة بدءا من عام 1958 واستمرت بضع سنوات، فهل يمكن لهذه الصحيفة حتى وان اختلفت في توجهاتها ونبرة حديثها عن صحيفة طرابلس الغرب، ان تكون صوتا يعارض الحكومة او يقول شيئا يزعجها، طبعا لم يكن ذلك ممكنا ومع ذلك حصل نوع من الخلاف بين رئيس اتحاد العمال الذي يملكها، وبين رجل كان ينكافه (يناكفه) ويدخل في خصومات معه عندما كان رئيسا لصحيفة منافسة هو المحامي على الديب ، الذي تبوأ فجأة مركزا قياديا في حكومة الولاية ، واراد الانتقام من خصمه سالم شيتا، وبذلك اعطى للسيد سالم شيتا صورة غير صورته، عندما اوصله السيد الديب الى السجن والى تعطيل صحيفته ، بينما هو صراع اجنحة داخل نفس الحكومة وليس بين اهل الولاء والمعارضة. وهناك صحيفة اكثر قدما واكثر عراقة من صحيفة الطليعة، ولعلها اقدم الصحف الاهلية التي استمرت طوال العهد الملكي منذ سنواته الاولى الى عام بعد سقوطه ، وهي صحيفة الرائد التي صدر ترخيصها ابان وزراة السيد مصطفي بن حليم ، وصدر باسم السيد بشير الطويبي عضو مجلس النواب، واستعان هذا الرجل الذي لم يكن كاتبا ولا صحفيا، برجل من اهل المال والاعمال وعضو في لجنة البترول فيما بعد، هو السيد طاهر البشتي، حيث استلم مسئولية تحريرها مستعينا بخبرة الاستاذ فاضل المسعودي الصحفية، وكان السيد فاضل قد عاد الى الوطن من مصر عن طريق فزان، حيث باشر فيها عملا صحفيا لمدة قصيرة، وانتقل من الرائد الى العمل مع صديقه السيد على الديب صاحب جريدة الليبي ، واخيرا، في عام 1960 انتقلت رئاسة تحريرها وربما جزءا من ملكيتها الى صحفي نشط واديب صاعد هو الاستاذ عبد القادر ابو هروس ، ورافق هذا الانتقال اهتمام اكبر بالناحية الادبية والثقافية، دون ان ترافقه نقلة نوعية، في توجهات الصحيفة، او ارتفاع في مستوى المعالجة الصحفية، او ازدياد في جرعة الجراة والنقد، فقد ظلت صحيفة الرائد، رغم استفرادها في فترة من الوقت بالمجال الخاص ، اي دون وجود صحف خاصة تنافسها، مجرد تنويع على النغمة التي تعزفها صحافة الحكومة، او درجة لونية مختلفة قليلا عن اللون الحكومي ، دون ان تحاول ان تكون بديلا لها، اوصوتا ينقل وجهة النظر الوطنية والشعبية، ولم تكن حتى صوت المعارضة الرسمية الموجودة في البلاد ممثلة في المعارضة البرلمان، واذا اردنا ان نحسب لها تميزا ما، فلعه يكمن في تعاطفها مع الاصوات القادمة من مصر ، التي ترفع شعارات العروبة والقومية ، ولكنها تفعل ذلك دائما بدون ضجة وبصوت هامس ، ربما مراعاة للشعبية التي يحظى بها هذا التوجه السياسي في صفوف الشعب. هناك طبعا صحيفة الليبي لصاحبها المحامي على الديب التي استانفت صدورها بعد غياب دام عدة سنوات عام 1958، وكانت تحظى باقبال شعبي كبير، لانها كانت اكثر جرأة من كل الصحف الاخرى على تناول القضايا الحساسة لكنها لم تستتمر لغير ثلاث سنوات فقد اقفلت عام 1960.

واستطيع ان اقول انني بدأت النشر ايضا في صحيفة الرائد من عام 1960 وان علاقتي بها امتدت خلال الاعوام الاربعة التالية ، حتى ظهرت عام 64 مجموعة الصحف التي شهدت نشاطا مكثفا من طرفي ، الا ان علاقتي لم تنقطع انقطاعا كاملا مع الرائد، حتى وانا اصرف اغلب جهدي لغيرها ، لانني اذكر مقالا في رثاء الشاعر الصديق على الرقيعي ، نشرته في الرائد سنة وفاته عام 1966. ولم يقتصر ماكتبه في الرائد على المقالات والمتابعات الصحفية للحياة الثقافية وانما نشرت بها بعض القطع الادبية وبعض القصص التي ربما لقيت بعضا من الاهتمام من السيد ابوهروس ، واذكر ذات

مرة ان (أنني)تركت لديه قصة اسمها سلطانة ، موجودة في كتابي الاول "البحر لاماء فيه"، ورايته في مرة قادمة جئت فيها للصحيفة يستبقيني، وقد قرا القصة وابدى حولها ملاحظات ، وراى فيها نقصا لم اعرف كيف اعالجه، فكتبت تعديلا ساذجا ارضاء له، وكان هو اول من اعترض على هذا التعديل ، وادرك انني لم استطع فهم ما يريده، واضطر بعد ذلك الى نشرها كماكتبتها اول مرة، ولم افهم لماذا حصل انعدام التواصل بيني وبينه على مستوى الابداع القصصي ، هل لان له اسلوبا وصياغة ومدرسة بعيدة عن رؤيتي للقصة، فقد كان يحسب على المدرسة الرومانسية الانفعالية الرمزية، في مجال القصة القصيرة، بينما كنت في ذلك الوقت مفتونا بالمدرسة الواقعية في الادب، والادب القصصي بالذات ، وهو ما فسرت به العجز عن فهم ما اراد ادخاله في القصة ، ام هو مجرد التباس في الفهم والتلقي جاء بمحض الصدفة، لا ادري ، ولكن الواضح ان السيد ابو هروس ، كان قد ترك قطار الابداع وركب قطارا اخر لن يوصله الى المدينة الموعودة التي يطمح المبدعون بالوصول اليها، ربما لانه لم يعد يهتم بهذا الوصول ، ويشغله وصول الى محطة اخرى ومدينة اخرى ، فلم اكن املك الا ان اتمنى له رحلة مريحة ووصولا امنا .

انشغاله بالصحيفة كمشروع تجاري، صرفه لا عن كتابة القصة، بل الكتابة جميعها فيما اعتقد، وكدليل على زهده في الكتابة في اي مجال، اذكر انه استدعاني ذات مرة، وجلس معي على انفراد، ولم يأذن لاحد ان يقتحم تلك الجلسة، واخرج من درج مكتبه ملفا، ليقول انه مادة خاصة بجامعة محمد على السنوسي الاسلامية، وانه استجابة لدعوة من شيخها الشهير، منصور المحجوب، قام بزيارة لهذه الجامعة في مدينة البيضاء، وان الشيخ اوصاه بان يكتب كتابة تلقي الاضواء على هذا الانجاز الذي تم بناء على توجيه ملكي، ويحظى برعاية الملك وعنايته ، ويريد للرأي العام في ليبيا ان يعرف قيمة واهمية ما تم تحقيقه حتى الان، وبكلام اكثر وضوحا يريد ان تنشر الصحيفة تحقيقا صحفيا ينال الرضا الملكي، ورضا الراي العام في نفس الوقت، وكنت اجلس امام السيد ابوهروس حائرا، ابحث عن مكاني وسط هذا الكلام الذي ترد فيه اسماء كبار اهل الدولة وراسها الاعلى، وما اهمية ان يقوله لي ، فهل هو يطلب رأيي، وما اهمية ان يكون لي رأي او لا يكون ، في موضوع ، انظر اليه كما انظر لعمالقة يتقاذفون كرة في الاجواء العليا، ولكن السيد ابو هروس مد يده نحوي وهي تحمل الملف، طالبا مني ان اكتب من وحي التقارير الادارية الموجودة في الملف هذا التحقيق الصحفي الذي يريده الشيخ، وينال رضا الملك والشعب، ولا اذكر الان المادة التي كانت في الملف ، فربما كان قانون انشاء الجامعة وبعض التفاصيل عن اقسامها واختصاصات هذه الاقسام ، مع صور الجولة التي قام بها السيد ابو هروس صحبة رئيسها، وربما خريطة لمشروع بناء الجامعة التي كانت في طور الاستكمال.

انه تحقيق صحفي، يجب ان يكتبه رئيس التحرير نفسه، ليس فقط لاهمية وقوة تأثيره ، وتمتين علاقة هذه المؤسسة بالصحيفة، باعتبارها احدى مراكز القوة، وكذلك مديرها صاحب السلطان والنفوذ، ولكنه لانه هو الذي ذهب وزار الجامعة وشاهد وسمع والتقى برئيسها واهل التدريس فيها، فالمهمة بالنسبة له اكثر يسرا، والتحقيق سيكون اوفى شرحا ومعلومة مما لو كتبته انا من واقع هذا الملف الهزيل الفقير. وعندما راني مترددا لا اعرف ماذا اقول او كيف اجيب ، قال مشجعا

ـ قم وباشر الكتابة وسيكون في كتابته خير كثير لك.

ازدادت دهشتي ، اذ ما هو هذا الخير الذي سياتي في ركاب هذا التحقيق ، اضاف وهو ينهض ضاحكا

ـ الست موظفا في بداية السلم تريد درجة ارقى ومرتبا اكبر ؟؟؟

ونهض ونهضت وفي يدي الملف ، وانشغل بمن كان ينتظره امام الباب ، وخرجت لاعيد النظر والتفتيش فيما احتواه الملف من اوراق ، علني اهتدي الى طريقة اعالج بها الموقف ، لانه لم يكن في ذهني اي تصور كيف ساتناول الموضوع، ولم يتطوع هو باقتراح اي اسلوب او استهلال او تقديم عناصر للموضوع، تاركا لي حرية ان اتعامل مع الاوراق بعد ان قام بهذا الشحن ، وهذه التعبئة للعقل والوجدان ،بخطورة واهمية ما سوف اكتبه، وبوعد الخير القادم مع التحقيق ، فلعل هناك وظيفة اعلامية في الطريق ، ربما، مدركا وانا انظر في كيفية الكتابة انه تحقيق سيينظر اليه اصحاب النفوذ والسلطان والمسئوليه باعتباره اراء وانطباعات ورؤية الرجل الذي تلقى الدعوة وقام بالزيارة وبالتالي كتب التحقيق، وفعلا انقطعت بضعة ايام ، لحل الغاز الاوراق الكثيرة ، وتفنيط المادة التي احتوتها، لكي استطيع الخروج بمادة صحفية تليق باسم ومقام رئيس التحرير، وانجزته بافضل صيغة يمكن ان اصل اليها، وهي صيغة اثنى عليها رئيس التحرير ثناء قويا، وطبعا تم نشر التحقيق بما يستحق من احتفاء واحتفال وظهرت صور رئيس التحرير رمع رئيس جامعة محمد بن على السنوسي يتفقدان مرافقها، ويبتسمان للمصورين، ابتهاجا بالانجاز العلمي والتربوي والديني، الذي يحظى بعناية ورعاية مولانا الملك المعظم ، وانتظرت الخير القادم في ركاب هذا التحقيق، ولكن اياما اعقبت اياما من الانتظار ، دون ان ياتي اي شيء، ودون ان اسمع كلمة واحدة من رئيس التحرير حول الموضوع ، وطوت الايام ذلك الوعد كما طوت غيره من وعود واماال. كان التحقيق مادة تحريرية صحفية ، ولكنه في حقيقة الامر، هو عمليةعلاقات عامة بامتياز، لن يكون المقابل مالا فقط، ولكنه بالتاكيد حماية ورعاية ورضا سياسي وديني وحكومي وملكي، تفرح بانجازه وتحقيقه اية صحيفة.

ولا استطيع ان اقول انني ككاتب ناشيء، متحمس للكتابة في الاذاعة، ومتحمس للكتابة في الصحف الحكومية والخاصة، واطمح للتحقق واثبات الحضور الادبي والصحفي ، احسست بنوع من الضيق والاختناق ، لصعوبة التعبير عما اريد ان اقوله، فقد كانت صبوات الشباب الاول، والدافع القوي لاثبات الذات في هذا المجال ، والتنفيس عن ملكات الكتابة والتعبير ، تجعلني احيانا اكون صداميا، وجهوري الصوت ، ومع ذلك لم التقي (ألتقِ) بمشاكل كبيرة ، اوعثرات كالتي التقي بها شباب في مثل عمري ، جاءوا في عهد غير ذلك العهد وحاولوا ممارسة حقهم في التمرد والصدام ، فكان جزاءهم (جزاؤهم) المنع من الكتابة، ان لم يكن السجن ، وفي حالة اكثر تطرفا القتل ، ولعل ما انجاني من الصدمات حتى في العهد الملكي نفسه ، هو انني كنت دائما اقرب الى المجال الثقافي ، الفني والادبي، مني الى الجانب السياسي، خاصة في معالجاتي الصحفية اي من حيت كتابة التعليقات والملاحظات واجراء المقابلات، علاوة على كتابة التأملات الادبية والقصص القصيرة، التي تتحرك في منطقة آمنة لا مجال لتعارضها مع الحواجز والاسوار التي تضعها الرقابة ، ولهذا نجوت من ان اكون في حالة صراع ، او حالة حصار ،او حالة صدام مع الاجهزة الرقابية، وكل ما كان يحدث لي هي ملاحظات من مسئول التحرير ، كما حدث في المواقف التي اسلفت الاشارة اليها مع الاستاذ محمد فخر الدين.

كانت الصحافة تعتمد في ذلك الوقت ، على اصحاب المواهب، ممن جاءوا الى هذا الجال عن طريق الهواية ، فلم يكن هناك معاهد ولا مجامعات ولا دورات لتاهيل الشباب في هذا المجال، فهو يبدأ بالهواية والموهبة ، ثم تاتي عملية اكتساب الخبرة والمهارة بالمران العملي ، فكل من اسهم في هذا العمل ، سواء من وصل الى ان يجعل الصحافة مهنة واحترافا ، او من حافظ على عمل خارجها، مكتفيا بالكتابة من منازلهم ، كان الدافع هو عشق القلم ، ولم يكن احد من الكتاب والصحفيين ، واستثني فقط اصحاب الصحف الخاصة ، يتوقع من انخراطه في مثل هذا المجال الكسب او النفع المادي، واغلبنا بدأ الكتابة في الصحف ، تطوعا ، لا يتقاضي عن عمله مليما واجدا، حيث كانت الصحافة الحكومية وغير الحكومية لا تصرف مقابلا عن نشر المقالات او المساهمات الصحفية ، حتى لو كان بابا يوميا كما حصل معي في البداية، ولم اكن شخصيا اعرف، عندما بدأت اشق طريقي في هذا المجال، ان هناك في العالم كليات وجامعات تتخصص في تدريس هذه المهنة ، وربما سمعنا فيما بعد بوجود مثل هذه الكليات ، التي تاسست في العالم العربي متاخرا، لاننا نتابع سير كبار صحفيي العالم العربي ولم نعرف ان على امين او مصطفي امين او محمد التابعي وهم رواد الصحف في عهدنا ولا الجيل الذي كان نجوم المرحلة مثل احسان عبد القدوس وهيكل والسباعي ومصطفي محمود وبهاء الدين كانوا خريجي معاهد صحفية، ونستطيع ان نعرف ان احدهم كان في الجيش والاخر في القانون والثالث في الطب والرابع مثل هيكل دخل دون تاهيل جامعي، وعلى مستوى ليبيا بالذات فلم تكن مهنة الصحافة تعرف تاهيلا جامعيا ، اي تاهيل ، فلم يكن جيل رؤساء التحرير في ذلك الوقت امثال الشاوش وفخر الدين وفريد سيالة وابوهروس ومحمد بن صوفية، وكل عناصر الجيل السابق لنا عرف الجامعة او يحمل شيئا قريبا منها، وهو ينسحب على اكبر المناصب في ليبيا، فيمكن ان نستعرض مجلس وزراء بكامله فلا نعثر على واحد او اثنين ممن تاتى لهم بسبب هجرة عائلاتهم الى الخارج مثل وهبي البوري ومحي الدين فكيني تاهيلا جامعيا، ولم يكن قد تحصل على هذا المؤهل اي احد ممن تولوا مناصب وزارية في مجال الاعلام واو ادارة مؤسساته، كالاذاعة والصحافة، وكان هذا التأهيل الجامعي قاصرا على اهل الحرف الفنية، وهم قلة مثل المهندس او الطبيب ، اما مهن القضاء والمحاماة والتدريس ، فقد جرت التعيينات بناء على اختبارات اجريت لاناس عصاميي الثقافة ، فتحصل مثلا الشاعر على صدقي على رخصة محاماة، وتحصل على ذلك رجل في الحراك السياسي صار نقيبا هو السيد على رجب ، وجيل المعلمين الاوائل الذين دخلوا المجال قبل انشاء معهد متوسط للمعلمين هوالذي صار يغذي المدارس بكوادر التعليم الابتدائي والمتوسط، وطبعا ومنذ وقت مبكر ، ولعله منتصف الستينيات بدات دورات في المجال الاعلامي تنظمها الدولة لعدد من العناصر العاملة في الاعلام والصحافة بدات بعدد من عناصر الاذاعة التي ذهبت الى البي بي سي في لندن مثل الزميلين عبد الفتاح الوسيع وحسني صالح ، على سبيل المثال، وتطورت وتكررت هذه البعثات على مدى السنوات لتعويض الفاقد في التاهيل الفني ، ومبكرا ايضا ذهبت بعثة الى تونس بها ايضا إعلاميون من الاذاعة واهل مسرح وموسيقى كان بينهم السيدة خديجة الجهمي ومحمد مرشان وكامل عراب وعمران المدنيني ، على سبيل المثال لا الحصر. كما لم يكن غياب الثقافة التخصصية في مجال الصحافة يمنعنا من مناقشة جوانبها في ندوات وجلسات خاصة مع اناس من جيل الرواد، وفي المنتديات العامة احيانا، وكنت على سبيل المثال استفيد من ندوة تقام على رصيف مقهى عبد الله بشارع الوادي ، يعقدها الاستاذ على مصطفي المصراتي ، ويحضرها عدد من اصحابه ، الذين انصت اليهم باهتمام لاستيعاب معارف وخبرات اكتسبوها من حياتهم العملية مثل صاحب الجلسة وصديقه الحاج محمد الاسطى . وكان موضوع الصحافة

ياتي عرضا ضمن المواضيع التي تناقشها هذه الجلسة وكان الاستاذ المصراتي،الذي صار في العام 1960 , نائبا معارضا في البرلمان، دائما ما يطرح في هذه الجلسة فكرته عن انشاء صحيفة تتبنى قضايا المعارضة، وتقدم منبرا للكتلة البرلمانية التي يمثلها، وتنقل الى الراي العام الراي الاخر، الذي لا يجد له منبرا يروج له، وكان هناك في الجلسة من يستنكر ان نسمى الاعلام الحكومي اعلاما ، او الصحافة صحافة، يستجيبان لمقاصد واهداف الاعلام والصحافة كما في بقية دول العالم، ولم يكن غريبا ان تنشأ في عام 1960 لاول مرة وزارة تشرف على الصحف والاذاعة، وان يظهر اول اسم لها، وزارة الدعاية، قبل ان ترتفع اصوات من داخل الحكومة باستهجان الاسم فيتم تعديل الاسم الى وزارة الانباء والارشاد. وكان بعض اعضاء الجلسة من المدرسين المصريين،الذين يشاركون الشيخ المصراتي حبه لتدخين الشيشة، يرون بعض الجوانب الايجابية في الاعلام الحكومي الليبي، التي نعجز نحن اهل البلاد عن رؤيتها، فهم يكبرون في الصحافة الليبية والاذاعة الليبية ، انها لا تستعمل اطلاقا لغة تخوينية عدائية ضد الاصوات التي تعارض الحكومة في البرلمان او خارجه ، ولا وجود لمقالات الهجوم الضاري ضد اعضاء الكتلة البرلمانية من امثال الشيخ المصراتي، التي تعمل على اغتيال الشخصية وتلويث السمعة ، هذا من ناحية ومن ناحية ثانية فهم يرون انه لا وجود لما كان في ذلك الوقت موجودا في بلادهم وبلاد عربية اخرى مثل تونس ، وهو اعلام عبادة الشخصية وتاليه الرؤساء والزعماء واضفاء اوصاف عليهم تكاد تجعلهم كائنات مؤلهة ، كما انهم يرون ان هناك هامشا مسموحا به من النقد لممارسات الحكومة ،ومثال ذلك الباب الذي كان يكتبه احد اعضاء الجلسة، وهو الحاج محمد الاسطى في صحيفة الرائد، ولا يكتب فيه دائما الا كلمات انتقادية وملاحظات عما يراه من سلبيات في الاداء الحكومي .

وطبعا ، لم يكن هذا الكلام يعني لنا ان نذهب فرحين راقصين في الشوارع ، للمزايا التي نتمتع بها في صحافة ليبيا واذاعتها ، ودون ان ننكر على الاصدقاء الضيوف حقهم في ابداء هذه الرؤية الايجابية ، لما بدا لهم غائبا عنا، فان هناك بالتاكيد اشياء غابت عنهم ، فهي بلاد لا تملك زخم ولا ثرات ولا قوة التقاليد التي تملكها دول اخرى مثل مصر، وهم لا يعرفون جانبا عمليا بعيدا عن حرية الراي والتعبير ، وهو ان المؤسسة الصحفية المصرية ، تملك عمارات، تؤدي العمل من خلالها ، اي مئات الكتاب والمحررين والفنيين، لان هناك قارئا يستطيع ان يمول هذه المؤسسة لتبني العمارة وتدفع مرتبا لمئات المحررين والموظفين ، وهنا فان الصحيفة اليومية الرسمية الوحيدة التي تمولها الدولة تبخل عليها بما يكفي من المكاتب ، وتبخل عليها بما يكفي من العاملين ، وتنتظر من خمسة محررين اصدار صحيفة يومية ، غالبا ما يتولى اصدارها في بلد مثل مصر الف محرر ، ولتكن الاهرام او الاخبار اوالصحيفة التي اصدرتها حكومة الثورة باسم الجمهورية، فلا مجال نقول لهم عادة للمقارنة ولا امكانية لان نضع قزم الصحافة الليبية مع عملاقها في مصر او في اي بلد عربي متطور اخر . وطبعا هناك من اعضاء الجلسة من يقول اعطنى حاكما مثل عبد الناصر بتوجهاته التحررية الوطنية وبدعاواه القومية وساتنازل له عن اي حق في الحرية القول والتعبير ، لانني لا اقول الا ما يقول ، ولا انادي الا بما ينادي به.

واذا كانت صحيفة طرابلس الغرب التي صارت العلم ، قد استمرت في ثباتها وجمودها ، فان الحياة الصحفية في ليبيا شهدت زخما قويا بدءا من عام 1963 عندما صدرت صحيفتان وطنيتان لرجلين من اهل المعارضة وهما صحيفة البلاغ لصاحبها السيد على وريث وصحيفة الشعب لصاحبها على مصطفى المصراتي ، بتاريخه الشهير في الحراك الوطني ونواب المعارضة، وفي العام التالي تعزز هذا

الوضع الصحفي للقطاع الخاص بصحف مثل الحرية لصاحبها محمد عمر الطشاني والميدان للاستاذ فاضل المسعودي والايام للاستاذ عبدالله شرف الدين وفي بنغازي صدرت صحيفة الحقيقة لكل من الاستاذ محمد الهوني وشقيقه الاستاذ رشاد الهوني والرقيب لصاحبها الاستاذ رجب المغربي ، ومعلوم ان مطلع عام 1964 شهد احتقانا سياسيا كبيرا تعمد بدماء الشهداء في مظاهرات يناير من ذلك العام في بنغازي ، ولعل هذا الاحتقان كان دافعا لشيء من الانفتاح السياسي ، استجابة لضغط الشارع، ومحاولة للتنفيس عن ابخرة الغضب ضد اداء الحكومة لكي لا يتراكم ويصل الى انفجار اكبر واعظم ، وامل الدولة ان تؤدي هذه الجرعات المحسوبة من حرية التعبير الى خلق مناخ اقل احتقانا وادعى لتحقيق التوافق والتوازن بين القوى السياسية داخل المجتمع، ومراعاة ان تعطى رخص هذه الصحف لعناصر موثوق في التزامها الوطني ، وليس بالضرورة في ولائها للنظام . وكدليل على ان الانفتاح الصحفي جاء تلبية لسياسة وضعتها الدولة، وليس مبادرة فردية لبعض عناصر النظام، انه شارك فيه اثنان من رؤساء الوزارات كانا على طرفي نقيض ، فقد بدأ الانفتاح على يد رئيس وزراء محسوب على الخط الوطني التقدمي هو محي الدين افكيني، الذي غادر المنصب اثر مظاهرات يناير وحل مكانه رجل من اهل المحافظة والتزمت والولاء للعرش وصاحب التوقيع على اتفاقيات اقامة القواعد العسكرية مع الامريكيين والبريطانيين، السيد محمود المنتصر، الذي واصل بعد مجيئه اعطاء تراخيص الصحف لعدد من العناصر الوطنية، واستعان في الوزارة التي شكلها باثنين من الادباء المحسوبين على الخط الوطني ، احدهما الشاب المحامي الذي بدأ تقدميا عبد الحميد البكوش ، لوزارة العدل ، والاديب المخضرم الاستاذ خليفة التليسي لوزراة الانباء والارشاد.

كانت اقرب هذه الصحف التي صدرت حديثا الى نفسي ، هي صحيفة الميدان، ربما لان صاحبها الاستاذ فاضل المسعودي كان صديقا، معروفا باتجاهه اليساري ، وظهر في الصحيفة منذ بدايتها هذا النفس المخالف للنظرة التقليدية التي تميز صحافة البلاد، ولو ان صديقنا المسعودي اظهر شيئا من الاختلاف مع اللون اليساري المعروف في العالم العربي ، فقد كان مفارقا لليساريين في انه ينحاز الى الصين الشعبية وزعيمها ماوتسي تونج، في زمن الاختلاف الصيني ، السوفيتي الذي كان على اشده ، بل يذهب الى مناصرة المتطرفين من اطراف الصراع مثل انور خوجا واذاعة تيرانا التي تشن حملاتها ضد موسكو وتكيل المديح لحكام بكين، وكان يوازن هذا الموقف المتطرف بين الخصوم الشرقيين ، بمهادنة الحكام الليبيين، المحسوبين على التيار الرجعي من امثال رئيس الحكومة المنتصر ، ويعتبرهم حماة الخصوصية الليبية ضد تنطعات حاكم مصر الذي لا يملك كلمة طيبة في حقه بل ومستعد للوقوف مع اكثر اعدائه انغلاقا ورجعية، ضده، كما حدث وهو يتبنى قضية ما كان يسميه المناضل الاسلامي الشهيد السيد قطب صاحب الفكر الاخواني التكفيري، رغم خط فاضل المسعودي التقدمي الصيني الاممي العلماني.
ورغم هذه الخلطة التي يمكن ان نسميها "شكشوكة" من الرؤى والافكار السياسية ، فقد كان الجانب الثقافي في الصحيفة ، يحمل نفسا تقدميا حقيقيا، بسبب انه جانب في الصحيفة تولاه واشرف عليه ،محرر متفرغ مع رئيس التحرير ، الكاتب الاستاذ يوسف القويري، وقد وضع عنوانا للصفحة الثقافية التي تصدر كل اسبوع ، يمثل جوهر ايمانه في العامل الثقافي باعتباره محركا للوعي ومصدر انارة للشعب ، وهو "الثقافة للشعب"، ولم انضم لصحيفة الميدان فقط بعد صدورها، وانما كنت حاضرا اجتماعات التحضير والتجهيز التي كنا نعقدها في بيته بكازا انجس ، وان كانت مشاركتي ضعيفة ولا اذكر ان لي مساهمات

مهمة في شكل الصحيفة وتبوبها ، الا انني كنت مستمتعا بهذه الاجواء التحضيرية التي كان يحضرها محررون مثل يوسف القويري، مختار الزروق، جمعة نصر، ومن خارج اهل الصحافة، والمحسوبين على الثقافة العامة، الاستاذ ابراهيم الفقي حسن، الذي تعرفت عليه في تلك الجلسات، وحضر بعضا من هذه الاجتماعات فنان الرسم الساخر ، الاستاذ محمد الزواوي، وقد انبثقت في مرحلة من مراحل العمل في الصحيفة فكرة شخصية كاركاتيرية تعبر عن الحس الشعبي ، هي شخصية الامبراطور الروماني ، سيبتيموس سيفروس ، ذو الاصل الليبي ،الذي كان له تمثال يتربع على ناصة عريضة في ميدان الشهداء ، وكان الزواوي ينزله من منصته ويذهب به ليزاحم الناس في الاسواق لشراء الحمص والمعدنوس لشربة رمضان ، وللبحث عن عمل مع العاطلين في مكاتب وزراة العمل ، او سكن في ادارة الاسكان ،وهكذا صار سيبتيموس الميدان يماثل شخصية المصري افندي في كاريكاتير الرسامين المصرين ، او ابو العبد في كاريكاتير رسامي لبنان ، اي الشخصية التي تجسد المواطن الشعبي ومعاناته اليومية في تصريف شئون حياته ، وكان الفنان الزاوي مفتوحا للاقتراحات والافكار التي تاتيه من الزملاء، وكان المدد الاساسي ياتي من رئيس التحرير الذي كان دائما جاهزا بالمفارقة الساخرة التي يزود بها الرسام لانتاج رسم يرى فيه المواطن الليبي بعضا من مكابداته ويعكس شيئا من متاعبه مع الروتين الحكومي او جشع اهل السوق او غير ذلك من قضايا.

واذكر انني كتبت مادة منوعة لهذه الصحيفة ، بعضها جاء في شكل صفحة اسمها الكلمات، تحمل اسمي ، وشاركت في تحرير ابواب دون توقيع ، مثل باب ساخر يحمل توقيع "البهلوان" ، ومن التحقيقات المميزة التي نشرتها في الميدان تلك التي عدت بها من واقع رحلة قمت بها الى تركيا والى عاصمة الخلافة القديمة مدينة اسطنبول عام 1964، اجريت فيها مقابلات مع بعض اعضاء الجالية الليبية هناك ، وكانت جالية كبيرة ، مازالت في ذلك الوقت ظاهرة للعيان ، ولم يلحقها بعد الذوبان في الشعب التركي ، كما حدث فيما بعد، وسبب هذا الظهور ، ان بعضا من افراد العائلات الليبية المهاجرة الى هناك اثر الاجتياح الايطالي للبلاد ، كانو في سن الصبا ، وما زالوا احياء يتكلمون اللغة العربية باللهجة الليبية ويعرفون بعضهم بعضا ويحنون الى التواصل واللقاء، ويتبادلون الزيارت ، ويصنعون مجتمعا متكاثفا صغيرا، داخل المجتمع الكبير، وكانت هناك شخصيات ذات مكانة دينية واجتماعية ، تشكل نقاط استقطاب ، يتجمع حولها رؤساء العائلات ، فقد كان هناك شيخ ضرير ، من علماء الدين، اسمه الشيخ "نصحي" ، يتبركون بزيارته ويدعونه لكتابة عقود الزواج في اعراس ابنائهم وبناتهم ، قبل تسجيل هذا الزواج رسميا في البلدية، ورغم ان هناك قانونا يطلب من اي اجنبي يريد جنسية البلاد، ان يتخلى عن الاسم الذي جاء به من بلاده، ويتخذ لنفسه اسما تركيا، فان العائلات الليبية تعرف اسماءها الاصلية وتتعامل بها ، دون اعتبار للاسماء المتبناة التي يستخدمونها في التعامل الرسمي ، وكان هناك صحفي ، كنت تعرفت عليه اثناء زيارته لليبيا، اسمه سلامي منير ، يتابع اخبار الجالية ، ويحرص على وجود رابطة تجمع بينها، وهناك شخص ثالث لم اعد اذكر اسمه ، اخذ على نفسه ان يتولى مهمة توثيق العائلات الليبية باسمائها الاصلية ، مع الاسم الجديد، ويحتفظ بسجل يؤرخ لكل العائلات ذات الاصل الليبي في تركيا (وعرفت اثناء زيارة قمت بها اخيرا الى اسطنبول ، اي بعد 48 عاما على تلك الزيارة، ان هذا السجل مازال موجودا، وان الرجل الذي قام بالتوثيق توفي وترك السجل عند ابنته،كما اخبرني المهندس ناجي بن غرسه ، وهو ايضا من قدماء اعضاء الجالية ، ورغم انه عاد الى ليبيا، في العهد الانقلابي ، الا

انه اثر ان يرجع الى تركيا ويواصل حياته بها، وهو يخشى ان يضيع هذا السجل ، ونصح القنصلية الليبية في اسطنبول ان تهتم بتصويره او شراء الاصل من ابنة الرجل وقد صارت امراة متقدمة في السن ، عاصرت والدها وما بذله من جهد في انجاز هذا السجل ، ولو رحلت فلن يبقى احد يعرف قيمته و سيضيع وينقرض مع ضياعه كل اثر يدل على هذه الجالية)

وبدأت تلك التحقيقات بمقال عنوانه "اسطنبول المدينة العجوز" ، قدمت فيه صورة للمدينة التركية العريقة ، التي تمثل ذاكرة تاريخية مشتركة لشعوب الاقطار العربية والاسلامية التي عاشت في ظل الامبراطورية العثمانية، قبل ان اباشر في حلقات تالية مقابلاتي مع اعضاء الجالية واسجل واقع الزيارات التي قمت بها لهم كما عرجت على البعثات الدراسية الحديثة وقدمت بعض اللقاءات مع الدارسين الليبيين في تركيا. ومن خارج ليبيا ايضا قدمت مادة ثقافية كانت موضع احتفاء وتقدير من الاوساط الثقافية في ليبيا، لانها كانت نافذة يطل منها قارىء الصحيفة على الافكار التي تشغل بال عدد من رموز الفكر والثقافة في العالم العربي ، حيث حررت بابا من واقع زياراتي الى الاقطار العربية ولقاءاتي مع رواد الفكر والابداع، كان عنوانه رحلة في راس فلان ، وهذا الفلان هو الكاتب او المفكر الذي اجريت معه المقابلة في ذلك العدد، مثل يوسف ادريس وصلاح عبد الصبور ولويس عوض وسهيل ادريس وكثيرين غيرهم ، وكما اسفلت القول فانني لم اكن اقيم كبير اعتبار لما اتقاضاه عن مقالاتي وتحقيقاتي من مقابل مادي، الا ان ظروفا واجهتني جعلتني انصرف بجهدي كاملا الى صحيفة الحرية، التي كان صاحبها يقدم لي مقابلا مجزيا، فانقطعت لفترة عن الكتابة للميدان وعدت لها فيما بعد، وقد اشرت سابقا الى ظرف واجهني كنت خلاله مطالبا بتسديد اموال لا علاقة لي بها ولكن بتذاكر ضاعت من فرقة التمثيل التي اديرها، ووجب انقاذا للموقف ، ان ابحث عن مال اسدد به دينا مستحقا للضرائب مقابل التذاكر الضائعة، وهو ماجعلني مرغما ان اضع اعتبارا في تلك الفترة للمقابل المادي الذي كنت اجده عند صحيفة الحرية، واجده كذلك عند صحيفة الحقيقة ورئيس تحريرها الصديق والزميل رشاد الهوني ، الذي كان يؤمن ايمانا راسخا بحق الكاتب في نصيب من دخل الصحيفة ، وكان كريما شهما مع كل من ساهم بالكتابة في صحيفته، ولا اذكر غير هذين الصحيفتين، كان يقيم اعتبارا لما يجب ان يتقاضاه الكاتب من مكافأة ، ويخصص جزءا من ميزانية الصحيفة لهذا الغرض . وكان العذر الذي يستخدمه الاستاذ المسعودي في حجب المكافآت عن كتاب صحيفته، انه يسعى لاذخار ما يكفي من المال لتحقيق حلمه بامتلاك مطبعة خاصة بالصحيفة، لانه يرى ان حرية الصحيفة ستبقى منقوصة وستبقى دائما واقعة تحت التهديد والابتزاز، ما لم تمتلك المطبعة الخاصة بها، وهو هدف يجب ان نعينه عليه، حتى يتحقق، وطبعا اتخذت الاحداث منعرجا كارثيا فيما بعد ، سناتي على ذكره.

مما اذكره اثناء عملي مع الميدان ، رحلة متميزة في داخل البلاد، والى اكثر المناطق قربا لي ، وهي منطقة الجبل الغربي ، ومع ان القرية التي ولدت فيها ونشأت بها تقع في نطاق المحافظة المسماة بهذا الاسم ، الا ان الاجزاء التي ذهبنا لها في الرحلة كانت اجزاء من الوطن اراها لاول مرة في حياتي ، وهي رحلة جمعت عددا من اسرة التحرير بقيادة رئيس التحرير السيد فاضل المسعودي ، وثلاثة اخرين هم مختار الزروق ، وجمعة نصر ، واحمد ابراهيم الفقيه ، وبدأنا بعاصمة المنطقة وهي غريان ، حيث كان في انتظارنا صاحب اشهر فنادق المدينة واكثرها اناقة ونظافة ونظاما ،واسم الرجل السيد البنغازي، كان يدير الفندق ادارة عصرية، وكانت المفاجاة ان نجده على اتساعه وتعدد ادواره مليئا بالزوار الاجانب،

وربما لم يكن الجميع سياحا، ولكنهم اعضاء جاليات اجنبية تقيم في طرابلس وتذهب الى الجبل من اجل الفسحة وقضاء الاجازة ، وعرفت ان هناك سببا وجيها لهذا الاقبال على الفندق، عرفته من احد العمال ، فالفنادق الليبية ، خاصة بمدن الدواخل ، تتعامل مع الاجانب بتقاليد وتزمت المجتمع الليبي ، وعندما تصل سيارة تضم رجالا ونساء، من اعضاء الجالية الاجنبية للاقامة ويطلبون غرفا مشتركة ، يصر موظف الاستقبال الليبي على ان يبرزوا له ما يثبت العلاقة الشرعية التي تربط النساء بالرجال ، فينصرفون عنه ، ولكن هنا كما اخبرني هذا الموظف فانهم لا يسالون الاجانب عن مثل هذه العلاقة ، لانهم يعرفون تقاليد المجتمعات الغربية التي تعترف بعلاقة ما يسمى بوي فريند وجيرل فريند، وقلت له اذن فمثل هذا السؤال لا تتوجهون به الا للزبائن الليبيين ، فقال ضاحكا، ليس بالضرورة ، ولكن خوف الليبي ليس من اهل الفندق ، فقد يعطون له مفتاح الغرفة ، اذا قال ان المراة حريمه، دون ان يطلب منه احد اخراج عقد الزواج ، وانما خوفه من الشرطة فانهم لا يترددون في القيام بحملا ت تفتيش تستهدف مثل هذا الليبي ، اذا وشى احد الحاسدين به . وكانت محطتنا الثانية مدينة يفرن، وفندق ربما من اجمل ما رايت من فنادق في ليبيا، ويقولون ان صاحب الفضل في اقامته واختيار المكان هو الحاكم الايطالي بالبو، فهو ينتصب فوق قمة شاهقة، وتقع تحته مباشرة ، السهول العامرة بالاودية والاشجار ، قبل ان تظهر بعض رمال الصحراء التي تشكل عمقا لذلك المنظر الجميل الذي تطل عليه غرف وشرفات هذا الفندق البديع، ولقينا ترحيبا كبيرا من اهل يفرن ومن المناطق والقرى المحيطة بها ، وكان للاستاذ فاضل المسعودى وصحيفته الميدان سمعة كبيرة في التعاطف غير المحدود مع مطالب امازيغ المنطقة ، وحقوقهم التي يتبنى دائما الدفاع عنها، واهمية اظهار هويتهم الثقافية التي تمثل اضافة للثقافة العربية الليبية وتنويعا مفيدا من تنويعات تلك الثقافة ، وكانت فرصة لقبول دعوات من اعيان واشياخ الجبل الغربي والانتفاع بعلم وحكمة عدد كبير منهم ، ممن يحفظون صفحات ثرية وغنية من تواريخ المنطقة وتراثها ، تروى شفاها ، علاوة على ماهو مسطور في كتب مثل طبقات الدرجيني ، واشياخ الجبل للشماخي ، والازهار الرياضية لسليمان الباروني ، التي كان دائما هناك من قرأ مخطوطاتها ويستطيع تقديم ملخص لها، ولم اعد اذكر ان كان ثمة تقرير عن هذه الرحلة كتبه احد الزملاء ، ام انها كانت رحلة للتعرف على المنطقة ، لتكون المعلومات والانطباعات التي تحصلنا عليها خلفية لما يمكن ان يعرض من مقالات اومواضيع عن المنطقة الامازيغية.

واستمرت صحيفة الميدان في الصدور الى قيام الانقلاب ، وتعطلت اثر قيامه لعدة ايام بسبب قرار بحظر التجول اصدرته السلطات الجديدة، وبعد قيام الانقلاب ، ذهبت الى الصحيفة لاشارك في اصدار العدد الموالي، لانه لم يكن هناك قرار بتعطيل اصدار الصحف، اويلغي تراخيصها، الا ان رئيس التحرير لم يكن موجودا في البلاد، ولا ادري ان كان قد سافر قبل الانقلاب او بعده، المهم انني تركت مقالا ارحب فيه بالتغيير واشير الى عدد من الجرائم السياسة التي جلبت الهلاك لذلك النظام وهيأت الشعب للترحيب بسقوطه، واعبر عن املي في ان يتمكن النظام الجديد من اعادة الحياة السياسية الى مسارها الصحيح وبعث الحياة في الحريات العامة والخاصة التي كان النظام الملكي يخنقها، وفعلا وجدت المقال منشورا في مكان بارز من الصفحة الثانية او الثالية ، دون ان يكون اسمي موجودا على المقال. وذهبت لالتقي بالسيد فاضل بعد عودته، وكان شديد الاسف لاسقاط اسمي او سقوطه من المقال ، اثناء غيابه، ولم اقف طويلا، امام هذا الموضوع، فقد تعودت ان ارى كثيرا من نوازع الحسد والحقد والغضب، تقف وراء مثل هذا

العمل ، وحصل معي اكثر من مرة ان حضرت في المطبعة تصحيح الموضوع الذي ينشر لي، وخرجت في اخر الليل مطمئنا الى وجود المقال في الصحيفة ممهورا باسمي ، واحيانا بالاسم والصورة، وفي صباح اليوم التالي اقرا الصحيفة فاجد ان الاسم والصورة اختفيا، وعرفت فى احدى المرات ان من فعل ذلك عامل مطبعة اعرفه منذ زمن الطفولة، واحس بالغيرة وهي يراني كاتبا ، ويرى نفسه عاملا يؤدي وظيفته في الظل والصمت ، فعبر عن حقده، بالتسلل الى الصفحة واخذ الاسم ورميه بعيدا، دون ان يشعر احد بفعلته، وشككت في انه الفاعل عندما تكرر هذا الامر اثناء وجود هذا الشخص ، وابلغت عنه وجرى تحقيق معه فاعترف بما فعل، دون ان يقدم تبريرا ، عدا انه امر املاه التوضيب الفني للصفحة. وطبعا هذا غير المقالب والمكائد التي يدبرها لي اهل المهنة، خاصة انني جئت صغيرا للصحافة ، وكان هناك رجال يعملون في المجال وهم في سن والدي ، ولكنهم لا يستطيعون كتابة سطر واحد مما استطيع كتابته، لانني جئت احمل موهبتي التي لا يملكون مثلها، فكنت ارى الحسد والغيرة تتحرك في اعينهم وسلوكهم وكلماتهم، ولو انني شغلت نفسي بامثال هؤلاء، لما استطعت ان اجد وقتا للعمل، ولهذا فقد تعودت ان امضى في طريقي ، واذا وجدت ان احدا وضع حزمة اشواك في هذا الطريق ازحتها دون ان اصنع ضجيجا او ابحث عن الفاعل واشغل نفسي بالبحث عن طريقة للرد او الانتقام ، ولا أدري ان كان هذا السلوك ترفعا ونبلا او مجرد مسكنة، وايثار للسلامة وتحاشيا للاشتباك مع الخصوم، المهم ان ما كنت احمله من فرح بالتغيير وامل في ان يكون خطوة على طريق غد افضل للبلاد وبداية اصلاح ونهضة ونماء، وجدت نقيضه تماما لدى الاستاذ المسعودي، فقد كان متشائما، ناقما على الانقلابيين ، حزينا على مصير البلاد، يعتبر ان ماحدث كارثة بكل المقاييسن ، خاصة ما قالوه عن ولائهم للرئيس المصري ، مما جعله موقنا ان هذا الرئيس وراء الانقلاب وانه سيطوي ليبيا ويأخذها تحت ابطه لتحقيق طموحاته، واعتقد من وجهة نظري ان فاضل المسعودي كان قد عقد العزم على الرحيل ، وانه لا سبيل ان يعيش مع مثل هذه الافكار ولا مع اصحاب هذه التوجهات ، خاصة وانه حزب مسلح، ينتمي كل اعضائه للجيش، فلا وجود لادنى درجة من التكافؤ، ولا فرصة للتحاور والنقاش والمعارضة السياسية، وكان صعبا ان يخرج في صمت ودون اعلان موقف ما، فانتهز فرصة مقال نشره في صحيفة المصور الكاتب المصري المعروف الاستاذ احمد بهاء الدين ،يرحب فيه بما كان يسمى في الاعلام المصري والعربي الثورة الليبية، التي جاءت عقب انقلاب عسكري في السودان قام به ضابط اسمه جعفر النميري ، واسموه ايضا ثورة ، وباعتبار انهما يتفقان مع ثورة مصر، ويتخذانها قدوة ومثالا، ويجتمعان معها في شعارات "حرية اشتراكية وحدة"، فقد راه شيئا منطقيا ان يترجم هذا التوافق والتطابق في الاهداف والشعارات الى مشاريع عملية على ارض الواقع، واقترح ان يتم تكامل اقتصادي استثماري ، يعتمد على فائض من الارض الزراعية التي تحتاج الى استصلاح في السودان ، وفائض من الخبرة والعمالة في مصر ، واموال النفط الليبي، ووجد الاستاذ المسعود في هذا المقال الفرصة التي يبحث عنها للانقضاض على هذا الانقلاب واهدافه وتوجه، من خلال الرد عليه، واختار عنوانا مثيراوعدوانيا و شديد الاستفزاز، وجعله عنوان الصفحة الاولى وهو : منطق البطون الجائعة

واعتبر مقال الكاتب المصري اعلان نوايا لما يريده نظام عبد الناصر من ليبيا وهو نفطها واموال هذا النفط، واورد في مقاله نكتة تروى عن تشرشل اثناء الحرب يقول فيها بان النصر في الحرب يتحقق بثلاثة عناصر المال والرجال والصبر ، فالمال من امريكا والرجال من فرنسا والصبر من بريطانيا، وهكذا

كما قال يسفر النظام المصري عن وجهه القبيح فلا يرى في ليبيا الا حمارا يحمل اسفارا مصنوعة من اوراق البنكنوت ، وكلام يحمل تسفيها للشعارات التي يحملها الانقلابيون ، والتوجهات القومية التي ينادون بها قائلا ان ليبيا بلد فقير وشعب فقير ولابد ان يصرف كل مليم ياتي من النفط في هذا الارض وعلى هؤلاء الناس.

وطبعا كان الكلام استفزازيا الى حد ان اول رد فعل لرئيس الانقلاب عندما اطلعوه عليه، قوله بان صاحب هذا الكلام لو كان امامه لما رد عليه بغير رصاصة واحدة في راسه. كما روى الرواة بعد ذلك. واذكر انني التقيت في وزراة الاعلام التي تحولت الى ادارة الارشاد القومي ، وفي صباح صدور العدد الذي يحمل هذا الكلام، بالاستاذ فاضل الذي جاء بغرض ان يعرف رد الفعل على مقاله ، فوجد ان التعليمات قد وصلت الى الادارة، بان تقفل صحيفة الميدان ، والى الابد، كما جاء في نص التوجيه الصادرعن قيادة الانقلاب. ولعل الاستاذ فاضل راى ان اجراء قفل الصحيفة ، هو اقصى ما يمكن ان يفعله النظام ، لانه لم تكن قد تكشفت بعد الطبيعة الاجرامية الدموية لرئيس النظام ، خاصة انه جاء محاطا بالتهليل والتمجيد بانه يقود ثورة بيضاء لم تخالطها الدماء ، وهو فضل يجب ان يذهب الى العهد الملكي، الذي لم يشأ ان يخوض حربا ضد الانقلابيين، تسفك فيها الدماء، فاثر التسليم والانسحاب دون مقاومة، وقرر الاستاذ فاضل ان يبقى في البلاد حتى يرى اتجاه الريح، وحتى لو كان في ذهنه الرحيل فلاشك ان هجرة نهائية من بلاده تحتاج الى ترتيب وتدبير موارد واعداد لمثل هذه الهجرة يستغرق وقتا، الا ان تحذيرا عاجلا وصل اليه من مصدر لم يكن يتوقع ان ياتي منه التحذير ، وهو وزير الداخلية الذي كان ضابطا اكبر رتبة من رئيس الانقلاب، واكثر عقلا واتزانا، يطلب من فاضل المسعودي في تكتم وسريه، ان يغادر البلاد، لان هناك تعليمات صدرت اليه باعتقاله ، وان هذا الاعتقال قد يكون خطوة اولى نحو تصفيته، وقد تمهل في التنفيذ ليعطيه فرصة النجاة. وهو ما فعله، ليكون اول الخارجين على النظام واول المعارضين في هجرة قسرية استمرت اثنين واربعين عاما.

كانت المحطة الصحفية الاساسية في حياتي الصحفية في فترة الستينيات هي صحيفة الحرية، التي كتبت بها اكبر عدد من الخواطر والمقالات والتحقيقات، في تلك الفترة، ولم يكن السبب في انها اكثر حرية ولا بسبب ان صاحبها كان عادلا ومنصفا في معاملة الكتاب فلا ينكر عليهم حقوقهم وهي مسالة تميز بها فعلا صاحب ورئيس تحرير الحرية، ولكنه ايضا كان رجلا مهنيا حتى النخاع، ولم تكن التلوينات المذهبية الايديولوجية تدخل في تكوينه ، وكان بجوار مهنيته يدير مشروعا تجاريا لابد ان يحقق الربح وان يراعي التوازنات التي تضمن لمشروعه الاستقرار، ونيل الرضا من مختلف الاطراف، وهو ما يقتضى ان نتامل مرة اخرى الواقع الصحفي في تلك اللحظة التاريخية، وان نرى اذا ما كانت هذه المنابر الصحفية التي تعددت في منتصف الستينيات ترتفع الى مستوى اداء الرسالة المتوخاة منها، قادرة على القيام بواجبات المهنة وصيانة شرفها؟ وهي اسئلة كنا نحن كمتعاونين مع الصحف نطرحها على انفسنا، وعلى الواقع الذي حولنا ، واقول انصافا للصحافة، وانصافا للتاريخ، وانصافا للمرحلة، ان هناك ظرفا تاريخيا وعوامل اقتصادية وسياسية واجتماعية وثقافية، هي التي املت لون الصحافة ونكهتها، ووضعت لها إطارها واجندتها، فقد كنا نتحرك في شرط تاريخي وانساني في منتهى الصعوبة ، لدولة خرجت حديثا من نفق المرحلة الكولونيالية، لم تستكمل مؤهلات الدولة كاملة الاستقلال، ولم تستطع ان تقهر بعد مثلث الرعب الذي ياخذ بخناق الدول الافريقية ، اي الفقر والجهل والمرض، رغم البدء في

تصدير كميات محدودة من النفط، ولم تكمل بعد انشاء بنية تحتية للخدمات التعليمية والصحية والاتصالات والمواصلات ، وتوفير السكن اللائق للمواطنين، ومازال الطابع البدوي الرعوي القبلي هو الغالب على الحياة، ومازال جيل المؤسسين للدولة الحديثة ممن اكتسبوا تعليما بسيطا في المدارس القرآنية، اي الكتاب، هو ما كان متوفرا لهم بدءا من الملك نفسه، هم الذين يقودون البلاد بهذه المعارف ، ولم تكن وزارة من الوزارات تتوفر على اكثر من وزير او اثنين من اصحاب المؤهلات الجامعية ، ولم يتكون بعد الجيل الثاني الذي يمكن ان يدير الدولة بمؤهلات ارقى وجدارة اكبر، ولم يكن ممكنا لصحافة هذا واقعها الا ان تكون انعكاسا لهذا الواقع، ومرأة لمكوناته ومؤهلاته، فهي مازالت كلها مشاريع فردية لم تصل الى ان تكون صحافة مؤسسات ، ولم تكن اكبر صحيفة تملك اكثر من شقة وعدد محدود لا يتجاوز اصابع اليد الواحدة من المحررين بما في ذلك صحف الدولة التي تصدر يوميا، وهناك لكل صحيفة خاصة مالك ورئيس تحرير هو الذي يرسم سياستها حسب رؤيته ومصالحه ، ولا استطيع ان اقول انها صحافة وطنية ذات رسالة نضالية ، ولا استطيع ان اسلبها هذا الشرف ، اذ تتفاوت اغراض ومستويات واهداف اصحاب هذه الصحف، بحيث نستطيع ان نرى صحيفة مثل الايام تخدم هدفا عقائديا لصاحبها الاستاذ عبد الله شرف الدين، الذي يديرها لصالح عدد من رفاقه في التنظيم المحظور لحزب البعث العربي الاشتراكي، او فرعه في ليبيا، وهي لم تعمر طويلا وذكر الاستاذ شرف الدين في مذكراته ان السبب هي الضغوط التي يمارسها اعضاء التنظيم ولا يراعون الاعتبارات السياسية للبلاد ولا للصحيفة فكان لابد ورغم ما يقوله من تسامح السلطات معه اكثر من مرة، من ان تصل الامور بالصحيفة الى طريق مسدود، ومرغمة امرت السلطات بايقافها، وهناك من اصحاب الاتجاه الوطني الاستاذ على وريث صاحب ورئيس تحرير البلاغ، واستطاع بذكاء ولباقة ان يستمر في اصدار الصحيفة الى يوم وفاته في حادث سير بعد وصول الانقلابيين الى الحكم بوقت قصير، وهناك من اصحاب المواقف الوطنية ، الاستاذ على مصطفى المصراتي وصحيفته الشعب ، وهم لم يكن ينتمي لاي تنظيم، وظل وفيا للخط الوطني لحزب المؤتمر الذي اوقف عشية الاستقلال، وهي ايضا صحيفة لم تعمر طويلا، وهناك فاضل المسعودي بما عرف عنه من توجه يساري، يحمل فكرا نقديا لليسار ، ولم يكن معاديا لليمين الوطني في ليبيا رغم انتقاده لكل يمين اخر، وهناك المهنيون ، المعنيون بالمهنة دون تلوينات اخرى ، وبينهم او في مقدمتهم السيد محمد عمر الطشاني ، ومهنيته تجعله يستطيع ان يغازل القاريء ويقدم له بعضا مما يرضي مشاعره الوطنية والقومية ، ولكن بجرعات محسوبة لا تجلب له غضب الحكومة، وللحكومة كما هو معروف عون تقدمه لهذه الصحف يتخذ ثلاثة اشكال، الاول والاهم ، هو حصة من الاعلانات الحكومية، مثل تلك القادمة من لجنة العطاءات، يتم توزيعها سواسية بين الصحف، الشكل الثاني هو عدد من الاشتراكات في كل صحيفة ، ربما بثمن تشجيعي، والشكل الثالث ياتي في صيغة تسهيلات في الطباعة لدى المطبعة الحكومية ، واذا لم تكن الصحيفة تطبع في المطبعة الحكومية ، مثلما حدث في تاريخ متاخر لصحيفتي الحقيقة والحرية ، عندما جلبت كل منهما وسيلة طباعية خاصة بها، فرفع الضريبة الجمركية على الورق ، ولعل هنا بندا للمصاريف السرية ، واعتقد انه يتم في حدود ضيقة جدا، ولم يظهر له اثر حتى فيما قامت به المحكمة التي اسموها محكمة الشعب من تحقيقات ، ولم اكن شخصيا على دراية بما تقدمه الدولة من عون او حجم ما تجنيه الصحيفة التي اعمل بها من هذا العون لانني كصاحب قلم لا يعنيني الا اما اكتبه ، وما يمكن ان ينشر لي تحت السقوف الواطئة لحرية التعبير، عدا ذلك من دخول ، فان هناك الاعلانات التجارية ، كما هناك مردود البيع ، ومصدر ثالث لا ادري لاي مدى تتورط فيه

الصحف ، ومن تورط ومن امتنع، ولكنه موجود واعرف ويعرف كل من عمل في صحافة ذلك الزمان بعض العناصر التي تقوم بجلب نقود من هذاالمصدر، وهو الابتزاز، واعرف زميلا صحفيا كان يجاهر بهذا الشان ، وكانت الصحيفة تستجيب احيانا لطلباته ، وكانت احيانا ترفضها اذا رات انها تجاوزت كل ما تسمح به اخلاقيات المهنة، واكثر فئة كانت تتعرض لهذا الابتزاز هي فئة التجار ورجال الاعمال وبالذات كبار تجار الجاليتين اليهودية والايطالية، وكان هذا النموذج بطلا لاكثر من قصة قصيرة اكثرها تركيزا وتصويرا لملامحه قصة "مفتي الفضائيات" الموجودة في مجموعتي القصصة "هكذا اتذكر هند"، وربما هناك فئة ثالثة من الاجانب وقد اشار الدكتور محمد يوسف المقريف في واحد من كتبه الى تقرير للسفارة الامريكية ذكرت فيه ابتزازا نسبته الى صحيفة الحرية، خاصاً باحد رجال المخابرات الامريكية كان يعمل في السفارة وانتهت مدته، فعاد الى ليبيا في ثوب مدير علاقات عامة لاحدى شركات النفط، ويبدو ان زميلنا الصحفي اياه وجد في الرجل صيدا ثمينا للابتزاز، وكشفه امام الراي العام، ان لم يدفع للتستر عليه. ويبدأ الابتزاز بسطر في باب مثل اسرار او دبابيس ، يقول فيه ان تاجرا يهوديا من تجار ليبيا، شوهد في روما صحبة احد المسئولين في دولة معادية، او تاجر يهودي شوهد يتردد على قاعدة ويلس اثناء زيارة سرية قام بها سياسي امريكي معروف بميوله الصهيونية، وهكذا تتم بعد هذا الغمز واللمز الاتصالات مع التاجر اليهودي او التاجر الايطالي ، مهددين له بان هذه الاشارة الغامضة ، سوف تتحول الى خبر صريح بالاسم والصورة ، فيستجيب هذا التاجر للتهديد، طلبا للسلامة، ويرسل للصحيفة اعلانا عن الساعات او الثلاجات او السيارات او العطور التي يتاجر بها او يحمل توكيلا لتوزيعها في ليبيا، ويجده صاحب الصحيفة سواء علم بالابتزاز او لم يعلم به ، مصدرا للتمويل ، فيعطي لصاحبنا الذي قام بالعملية نصيبه باعتباره الوسيط ، ويمكن ان تتطور العلاقة مع هذا التاجر فيصبح رجل الخير والمبادرات وتجرى معه اللقاءت التي تصور خدماته الاقتصادية للبلاد، او اياديه البيضاء على المبرات الخيرية، ودور رعاية الايتام، وهو ابتزاز قد يصل الى تجار ليبيين خاصة فيما يتصل بمعاملاتهم مع التجار اليهود، وعدا ذلك فهناك دائما الجانب التجاري الخاص بالاعلان والاشهار والعلاقات العامة دون ابتزاز، كذلك العلاقات مع اهل النفوذ في الدولة ، فثمة سياق معروف في التعامل معهم لكسب الود والقيام بحملات دعائية لمؤسسات يرأسونها مثل المعرض التجاري او مؤسسة نفط او استيراد اوغيره، وساضرب مثلين حصلا اثناء عملي مع السيد الطشاني ، يصوران طبيعة هذه العلاقة التي تتصل بمصادر التمويل دون ابتزاز التي تلجا اليها الصحيفة، علما بانني لست متفرغا تفرغا كاملا ، واعمل دون عقد ، ودون راتب محدد وانما هي مبالغ تخضع لتقدير رئيس التحرير الذي ياتي كل شهرين اوثلاثة اشهر ويجد انني استحق مائة او مائتي دينار يقوم بصرفها لي، ولم يحدث ان جري اي نقاش بيني وبينه حول هذا الموضوع ، المهم ان السيد الطشاني جاء يبلغني انه تقرر اصدار ملحق من اربع صفحات ، من الصحيفة، ربما يصدر في حجم التابلويد بعدد ثماني صفحات، عن الذكرى الاولى ولعلها الثانية ، لوفاة المرحوم البوصيري الشلحي، ناظر الخاصة الملكية السابق، وانني يجب ان ابحث عن مصادر لتدبيج مقالة عن حياته ومآثره، اما بقية الصفحات فهي كلمات رثاء احررها باسماء شخصيات وضع لي قائمة بها ، ياتي في مقدمتها شقيقيه عمر وعبد العزيز، وصديقه عبد الله عابد السنوسي، وبعض اصهاره واصحابه من كبار رجال الجيش والجهاز المدني، وطبعا لم اكن اعرف كيف عقد رئيس التحرير الصفقة ومع من قام بعقدها وقيمة ما سيجنيه من اموال مقابل هذا الملحق ، ولم اكن معنيا بهذه الاسئلة او معرفة ايجابتها، وقمت بكتابة ما كتبته باعتباره عملا مهنيا اتولاه كما يتولى مكتب من مكاتب العلاقات

العامة تحرير استمارة او كتابة طلب باسم صاحبه لجهة رسمية ما، ودون ان يظهرلي اسم مقترن بالملحق ، وما كنت لاسمح ان يظهر اسمي مقترنا بمثل هذا العمل او بغيره من الملاحق الاعلانية ، وهو ملحق اعلاني دعائي مهما كانت التسمية او كانت المناسبة. وتكرر مثل هذا العمل المهني الذي اقوم فيه بدور التحرير والصياغة ، ولم يكن ملحقا ، ولم يكن تعاملا مع ذكرى رجل توفاه الله، او رجل صاحب مكانة في الدولة ، انما مع رجل اعمال معروف ، له حضوره الفاعل في الحياة التجارية، اسمه محمد الشيباني، وله زوجة صاحبة مدارس خاصة ، وتحتل مساحة مهمة في الحياة الاجتماعية اسمها عزيزة الشيباني ، اظنها مصرية الاصل. ويبدو انه تحصل على وسام من الجزائر مقابل ما ساهم في النشاط الاغاثي لجبهة التحرير ، فاراد الاحتفاء بالمناسبة وان يراها منشورة في الصحف مع نبذة عن حياته وفكرة عن شركاته وانشطته التجارية، وتوليت اجراء لقاء معه ، وتلقيت المعلومات التي يريد ان يتضمنها الموضوع، عن شركاته ومشاريعه، ونشاطه في دعم الثورة الجزائرية التي استحق ان يكافأ عليها بهذا الوسام ، ولكي اضع مسافة بيني وبين هذه المادة الاعلانية التي ستخرج للقاريء في قالب صحفي ، كتبت الموضوع كله بضمير المتكلم، حديث يدلي به صاحب الشان الى القاريء، واخذت المادة مع عدد من الصور التي زودني بها الرجل الى رئيس تحرير الحرية، فقرأه وارسله من جديد الى السيد الشيباني لاخذ موافقته ، ولان للسيد رئيس التحرير رغبة في ان يشمل المشروع شخصيات اخرى من عالم المال والاعمال اسماه رجل في شارع النجاح، وخرج الموضوع في صفحة كاملة من صفحات جريدة الحرية ، وكانت المفاجأة التي لم اتوقعها، ولم يجري الاتفاق بشأنها مع صاحب الصحيفة ، هي وجود اسمي في ذيل الصحفة، ولم تفدني بشيء تلك الخطوة الاحتياطية الاحترازية التي قمت بها تفاديا لمثل هذا الامر، وهي كتابة الموضوع بضمير المتكلم، وبلسان صاحب الشان، فكيف يستقيم ان ياتي اسمي مقترنا باسمه، ولم تعد هناك فائدة من الاحتجاج ، فقد انتهى الامر وخرج الموضوع يحمل اسمي ،واعتبرت هذا الخلط الشرير لاسمي بكتبة الاعلانات ، وصحفيي الارتزاق ، اساءة بالغة، ورغم انني كما قلت لم اكن اقف طويلا امام الحبائل والشراك التي ينصبها اهل هذا المجال لبعضهم بعضا، فقد تالمت كثيرا هذه المرة ، ورايت رئيس التحرير لا يقيم اعتبارا للمسألة ولا يرى فيها خرقا لاتفاق بيني وبينه ، رغم انه لم يعترف صراحة انه صاحب فكرة وضع الاسم ، ولذلك فما ان قال ان هناك موعدا مع رجل اعمال اخر ليكون الشخص الثاني في باب رجل في شارع النجاح ، حتى اعتذرت عن الذهاب وسالته ان يرسل له محررا غيري، لانني لن اواصل تحرير مادة هذا الباب ، ويبدو ان المشروع توقف نهائيا وكانت تلك هي الحلقة الاولى والاخيرة في ذلك الباب. وكان مقر صحيفة الحرية في شارع النصر اشبه بالمنتدى الادبي السياسي ، يتردد عليه كتاب وادباء ، ولا يخلو الامر من نساء لهن علاقة بالكتابة والصحافة ، مثل سيدتين مصريتين يشتغلن بالتدريس ويحررن ابواب الطفل والمرأة ووصفات الطعام وغيرها هما فتحية وشوقية،كما كان يتردد عليها تجار وموظفون وسياسيون ورجال دولة من اصحاب النفوذ، مثل وزير للدفاع كان صديقا لرئيس التحرير هو السيد حامد العبيدي، واظن ان السيد الطشاني ، بالغ ذات مرة في تقدير حظوته لدى الدولة، باعتباره صحفيا ، يماليء الحكومة ويدافع عن سياستها، فاراد ان يجرب مدى محبة الدولة له، ورغب في ان يضيف الى المكانة الاجتماعية التي تضمنها له رئاسة تحرير الصحيفة، مكانة اكثر رفعة، هي عضوية مجلس النواب ، وكان معروفا في الانتخابات الليبية، ان النجاح فيها ليس بقيمة الاصوات، التي يضعها المواطنون في الصندوق، فللحكومة رجال لا يتورعون عن كسر الصناديق ونقل هذه البطاقات من صندوق الى اخر ، لضمان النجاح لمرشحها

، وكان اعتماد السيد الطشاني على عاملين ، الاول انه صديق للحكومة ، ولن تجد في سجله ما يبرر الاعتراض على نجاحه في البرلمان، والثاني انه استعد لخوض الانتخابات بميزانية كبيرة ساعده فيها بعض مناصريه من تجار، واشقاء له، يعملون ايضا بالتجارة، وقد حضرت يوم الترشيح، ورايت مجموعة من معاونيه ، يقفون امام مراكز الاقتراع ، يلوحون ،باوراق من فئة العشر جنيهات لمن يضع صوته في الصندوق الذي يحمل رمز النخلة او السعفة ، اي العلامة التي اختارها لصندوقه ، ولا اعرف حتى الان كيف يضمنون ان من اخذ النقود سيضع البطاقة حقا في الصندق ، فلعل لهم احدا يتلصص من وراء الشقوق على الناخب وهو يضع البطاقة، ولكنه مع ذلك لم ينجح، فللحكومة حسابات اخرى ، واهلا به، صحفيا يتلقى الاعانات، ويكتب مقابلها مادة ترضى عنها، ولكن لا ان تعطيه مقعدا في البرلمان يضمن له حصانة ضد المحاسبة والمثول امام المحاكم، اذ انها مخاطرة لا تريد الحكومة القيام بها.

واقول بعد ان قلت هذا الكلام، انصافا للرجل وقد صار في دار البقاء، ان ولاءه للحكومة، لم يكن يمنعه اطلاقا من تبني قضايا وطنية وقومية، واحتضانه كتابات تنتقد الدولة، بعضها كان قاسيا في نقده، وبعضه كان يحمل اتهاما صريحا للحكومة بالتواطؤ مع الاجنبي ، واذكر انني اقترحت بابا، مررنا من خلاله أنواعاً من الانتقادات لسياسات الحكومة ،هو باب "اوقفوا هذا المخطط" وكان احيانا يلامس قضايا لها اتصال بتزييف الهوية، او بالتخلي عن القضايا العربية، او ممالأة القوى الاجنبية المعادية، كما كنت اولي اهتماما خاصا بقضايا الجنوب واجد تشجيعا من رئيس التحرير الذي يملك ارتباطا عاطفيا بمنطقة فزان لانها احتضنته واعطته فرصة ان يعمل فيها رئيس تحرير لصحيفتها، ولاعداد كثيرة كان باب الجنوب الحزين يحمل كل اوجه القصور والتقصير التي يلوم بشانها الحكومات المتعاقبة، ويدفها لانصاف اهل الجنوب الذين يعانون الاهمال وغياب العدالة .

واعطيت اهتماما خاصا في هذه الصحيفة وفي كل صحيفة شاركت في تحريرها لقضية المراة، وكتبت مقالات مباشرة تهاجم التقاليد وتدعو لفتح الابواب المغلقة والنوافذ الموصدة في وجه رياح العصر وقيمه ومفاهيمه ، واستخدمت طريقة ليست تقليدية وليست مباشرة في خدمة تحرر المراة ، عندما حررت بابا في الحرية اسميته رسالة يرد عليها احمد ابراهيم الفقيه، وكنت اعرض في كل مرة رسالة من امراة شابة تعاني محنة او ازمة من جراء عسف التقاليد ، او رسالة من شاب تمنعه التقاليد الجامدة من الاقتران بالفتاة التي احبها، واتخذت من هذا الباب فرصة لدعوة هؤلاء الشباب والشابات للثورة والتمرد وعدم الاستسلام لقهر هذه العادات الكريهة ، ومقاومة ارادة الاباء والا مهات عندما تخالف الحق والمنطق وشرع الله نفسه، وبلغة حادة وجارحة احيانا الى حد تثير حفيظة بعض الاباء والامهات ، ورايت الاعتراض على هذه اللهجة ياتيني من رجل اعلامي من الجيل الماضي هو الاستاذ محمد بن زيتون وكان في ذلك الوقت مديرا لوكالة الانباء الليبية، فابدى انتقاده الواضح لما اقول عندما التقيت به في مكتب مدير الاذاعة السيد مصطفى بن شعبان ، وعبر للحاضرين عن استغراب ان يتولى الرد على رسائل الشباب صبي مثلي كما قال يحرضهم في الصحف ضد ابائهم ، واضاف اعتراضه ان تكون ايضا هناك امرأة في الاذاعة ترد على رسائل الناس بطريقة لم يكن يستسيغها ، وكانت تلك السيدة التي لم يكن على وفاق مع افكارها وارائها هي الاعلامية الكبيرة السيدة خديجة الجهمي

.

اما اكبر قضية ساهمت في احيائها وكانت صفحات الحرية ميدانا لها، فهي بالتاكيد الدعوة لانصاف المجاهدين، والحقيقة فان موضوع المجاهدين ، ظل طوال العهد الملكي ، موضوعا شائكا، تخالط ايجابياته كثير من السلبيات ، ورغم ان الملك محسوب على حركة الجهاد، وان شيخ شهداء ليبيا المجاهد البطل عمر المختار، كان قائدا لجيش ينسب للسنوسيين، فان هناك في سياسة الملك ، نوعا من الممالأة لشخصيات هادنت الاستعمار، ويكفي تغليبه لمحمود المنتصر ، رغم كفاءته ونزاهته، وتقريبه له وهو الذي كان رجلا متعاونا مع الايطاليين ، وقام شقيقه سالم المنتصر بانشاء حزب الاستقلال، في الاربعينيات، الذي ينسب اليه المطالبة بان تأوول الوصاية على ليبيا الى الايطاليين، بينما تم تشريد اهل النضال مثل بشير السعداوي، وابعاد على واحمد الفقي حسن من المشهد السياسي كلية، وهناك شخصية خلافية ، متذبذب في مواقفه ، هو الشيخ ابو الاسعاد العالم الذي كان مفتي البلاد في عهد الايطاليين واستمر يقوم بدور المفتي بعد الاستقلال ، بالاضافة الى ابقاء املاك الايطاليين المنهوبة والمنتزعة قسرا وغصبا من اصحابها الليبيين، دون مساس في ايدي المغتصبين بعد الاستقلال، ودون تشريع يتيح لاصحاب الارض الاصليين رفع قضايا لاستردادها، مع الاعتراف بانه في اواخر العهد الملكي، وبعد حرب 67 عندما صار كثير من الايطاليين يهربون خوفا من هبات الشعب الليبي، استطاعت، بعض العناصر الوطنية وبعون من الحكومة التي فتحت باب الاقتراض من المصرف الزراعي، التوسع في شراء مزراع يملكها الايطاليون ، وكان هناك من ينكر على الملك ان رموزا تدل على الاستعمار ابقاها مثل تمثال للبوءة التي ترضع شبليها تنتصب على عمود امام ميناء طرابلس، ورموز (ورموزاً) اخرى لم يكن معنيا بازالتها، ربما لاهمال او لما تكلفه من انفاق وربما تقريبه لعدد من المتعاونين جاء بسبب حرصه على ان يسدل الستار على الماضي، لكي لا ينقسم اهل البلاد الى معسكرين ويروى عنه انه قال بالنسبة للماضي "انه حائط وسقط فوق ظله" اي ان ليبيا ستطوي صفحة الماضي وتنظر الى الامام، ولعلها سياسة حكيمة لو صاحبها انصاف لكل من ابلى في الجهاد، الا ان لجانا يتم انشاؤها ثم يتم حلها دون ان تضع صيغة وقوائم يتم وضعها ثم ياتي الطعن في انها ليست صحيحة، وفي هذه الفوضى في الاراء والافكار والاعمال ضاعت حقوق المجاهدين ، وربما كان من ضمن كتاباتي ما يقول انه وان طال الجدل حول اصحاب الاحقية وطال الجدل حول من ساهم في الجهاد، او لم يساهم، وربما هناك من حارب مع الايطاليين ثم تراجع وحارب ضدهم، وربما حدث العكس ايضا، ونعرف ان جيشا كاملا هو جيش رمضان السويحلي خرج في حملة مياني باعتبارهم من جنوده، ثم داروا عليه وعلى جنوده ، ومنهم فعلا من سبق ان حارب مع الطليان ثم نال شرف الجهاد في صف المحاربين ضدهم ، اقول انه برغم الجوانب الشائكة التي تستحق البحث هناك قضايا واضحة كان يمكن البث فيها دون ابطاء مثال ذلك تمييز من صدر عليه حكم بالاعدام وان تصدر بهم قائمة اولى لا مجال فيها للخطأ، اناس حكم عليهم المستعمر بالاعدام ونجوا بانفسهم عندما هربوا من هذا الحكم وبعضهم صدر عليهم الحكم وهم خارج البلاد بسبب سجلهم البطولي ، فهل هناك احتمال واحد في المائة لوجود خطا في صدور مثل هذه القائمة وانصاف اصحابها وفعلا كان ضمن من قابلتهم وترددوا على مكاتب الحرية اناس يحملون شرف الحكم عليهم بالاعدام ولم يصلهم اي عون او مساعدة وهم جميعا في مراحل متقدمة من العمر، وتوالت هذه التحقيقات التي هدفت منها تعميق الوعي بقضية الجهاد الليبي وابطاله ،وكانوا يفدون على الجريدة باعداد غفيرة ويعقدون اجتماعات امامها جلوسا على الارض بعباءاتهم الوطنية، الى حد صارت معه القضية فعلا مثار الراي العام في ليبيا، وفضيحة لحكومات عهد الاستقلال التي تحتفل في الاذاعة والمناسبات بذكرى عمر المختار ومعارك

القرضابية والهاني والشط وبومليانه، وتترك ابطال هذه المعارك يعانون شظف العيش فلا تخصص معاشا صغيرا يقيم اود الواحد منهم في شيخوخته ، الى حد ان احد المجاهدين ، من المنطقة الشرقية واسمه حفتر، اشتهر بقصيدة يندب فيها حظ امثاله من اهل الجهاد يقول في بيت من ابياتها:

الشجرة اللي راوينها بدمانا

بعد اثمرت ما شيء منها جانا

ولا ضرورة للقول ان المجاهد الذي وهب نفسه للجهاد، ما كان اطلاقا ينتظر مكافأة على ما بذل من جهد وما قدم من عطاء، غير مكافأة واحدة هي الحرية ، التي انعم الله بها على الوطن، الا انه امر لن يفقر خزينة الدولة ، خاصة بعد ان صار النفط ، يعود بفائض من الثورة على خزينتها ، ان تقدم رمز وفاء وتحية لشيوخ يتلقون هذه المنحة لمجرد وصولهم الى هذه السن ودون ان يكون لهم السجل الحافل بامجاد معارك التحرير مثل شيوخ ليبيا ، وكنت منذ طفولتي ارى في قريتنا امثلة لهؤلاء المجاهدين، بعضهم يتحرك بين الناس كانه اسطورة حية ، بسبب ما يروى عن بطولاته ، مثل عم من اعمامنا اسمه على ابوكم ، وقد هرب الى تونس من حكم بالاعدام اصدرته ضده محكمة ايطالية، وعاد بعد خروج الايطاليين ليمارس حياته مثل بقية المواطنين، كادحا، صابرا، راضيا بما يستطيع الحصول عليه من رزق، ينتزعه انتزاعا من تلك البيئة الشحيحة القاسية، رعيا وحرثا وحصدا، دون ان يفكر اطلاقا في المجيء الى العاصمة يطلب حقا من موارد الدولة، وما اثار هذا الحراك بين المجاهدين، جاء بعد ان بدأت موارد النفط، تخلق تأثيرا في الحياة الاقتصادية، وترفع من اقدار اناس من الوسطاء التجاريين واهل السمسرة وخدم الشركات النفطية، من متعهدي جلب العمال ، ومتعهدي النقل ، ومتعدي التغذية ، ويرى الناس الشطار والعيارين واصحاب الحيلة يستفيدون من هذه الموارد، افما كان الاولى ان يخصص جانبا بسيطا صغيرا ، لمن كان السبب في هذا الاستقلال ، ومن اشتروه لاهلهم بروح التضحية والفداء، المهم هذا كان فحوى ما كنت اقوله في تلك المقالات والتحقيقات التي شكلت اكبر حملة شهدتها صحافة ذلك الوقت ، وكان المجاهدون يتنادون ويواصلون المجيء الى مقر الصحيفة بتلك الاعداد المهولة التي تنتشر في محيط الصحيفة بعباءتهم البيضاء يجلسون في حشود مثل حشود طيور البانجوين على الشاطيء ، الى درجة احس معها بالخجل ، فلم يكن جديرا بهؤلاء الاباء المؤسسين للاستقلال البلاد ان يجلسوا على رصيف الشارع، ينتظرون صبيا من احفادهم مثلي ، وهم الاولى بان يرفعهم المجتمع فوق راسه، وكنت انتخب عددا منهم ادخلهم الى صالون رئيس التحرير الذي لم يكن اقل تعاطفا مع قضيتهم مني، ولكننا مجرد صوت ،صرخة نطلقها مع الريح ، في براري دولة لها اولويات واجندات وحسابات، واهم ما نتج عنه هذه المقالات ليس رد الحكومة ، ولكن ما نتج عن وجود هؤلاء المجاهدين امام الصحيفة من حشود، فقد انشأوا فيما بينهم لجنة لتنسيق جهودهم، وصاروا يكتبون العرائض ويتولون بانفسهم القيام بالاتصالات بين عاصمتين هما طرابلس وبنغازي وعاصمة ثالثة مرشحة لاحتلال مكانهما هي البيضاء وعاصمة فعلية هي طبرق حيث يقيم الملك.

ارتياحي للعمل في صحيفة الحرية، ياتي من كونها صحيفة تعطي مساحة للرأي ربما اكثر من القصص الاخبارية، وتملك سقفا للحرية استطاع الاستاذ الطشاني تامينه بسبب الحظوة التي يتمتع بها لدى الحكومة بحيث لا يلقى عنتا من اهل الرقابة ولا يتجسس المسئولون عن كل همسة ونأمة ينشرها ، وهي ثقة جاءت من انه كما قلت رجل مهنة تعرف الحكومة انه ليس محسوبا على يمين ولا يسار ولا ولاء لقومية ولا ارتباط باجندة عبد الناصر ولا ميشيل عفلق ولا ماوتسي تونج ولا ماركس ولينين، وهو هاجس الحكومة وخوفها الازلي، وهي ثقة استطاع ان يستغلها افضل استغلال لتوسيع هامش النقد والمقالات التي يعبر فيها الكتاب عن اراء قد لا تكون على وفاق مع السياسات الرسمية. وقد اراد فيما بعد ان يحولها من صحيفة اسبوعية الى صحيفة تصدر ثلاث مرات كل اسبوع تمهيدا ربما لاصدار يومي لم يتحقق لان الانقلاب جاء ليضع حدا لنشاطه ونشاط اصحاب الصحف الخاصة جميعا، وجاء الاصدار المتعدد كل اسبوع مع وجود مطبعة خاصة به يستطيع استغلالها في مثل هذه التطورات، بالاضافة الى وجود خدمات صحفية تاتي من الدولة لم تكون موجودة او ليس بهذا الكيف وهذا الكم، فقد تطور مشروع وكالة الانباء الليبية التي صار يرمز اليها ب(وال) وتطورت خدماتها وصارت في مصاف المؤسسات المماثلة لها في البلدان العربية ، وتتولى اصدار نشرة يومية مطولة ، مع عدد من النشرات المتخصصة ، فصار بامكانه ان يعتمد عليها في الحصول على مادة امنة جاهزة مضمونة العواقب ودون تكلفة، وفي ذات الوقت كانت الدعوة من صديقي وزميلي الاستاذ رشاد الهوني تتوالى ، بان اضاعف حجم المشاركة في صحيفته الحقيقة ، وكنت بدأت معه في نشر مقالات متفرقة ومتباعدة، ولكنه انشأ فرعا للصحيفة في طرابلس وصار يكثر من تواجده في هذا المكتب، وكنت اراه انسانا قريبا من قلبي ، والتقي معه فكريا ، كما انه اديب يكتب القصة ويكتب الشعر مما يجعلنا شركاء في هذا الاهتمام ، علاوة على انه ليس بعيدا عن جيلي فهو لا يكبرني الا بخمس سنوات ، وكنت سابقا اتعامل مع رؤساء تحرير كلهم من جيل الاباء، علاوة على انه حريص تماما على انصاف الكتاب في صحيفته ، ويقدم المكافاة اولا باول ودون تاخير، مما شجعني على ان اصرف اغلب جهدي لصحيفة الحقيقة، وقد كتبت لها بابا يوميا عنوانه "قف دقيقة"، مع يوميات اسبوعية ، وتطور الامر الى المساهمة احيانا بصفحة اسمها الكلمات ، وهي صفحة كنت قد اسهمت بها في مرات سابقة وفي صحف اخرى، وساعد التخطيط الجديد لصحيفة الحرية في ان اتحرر من التزاماتي السابقة معها ، لان الاصدار الثلاثي كان يقتضي وضعا جديدا واسلوب عمل جديد، ساعد في ان افك ارتباطي تدريجيا بها، خاصة وان لا وجود لاي عقد يربط بيننا، واكرس جهدي للحقيقة ، واذا وجد فائض فقد عدت به الى صحيفة الميدان الذي كان الحنين يشدني اليها ، رغم فترة الانقطاع الطويلة عنها، وعدت لاساهم في ابوابها التي لا تحمل اسما، علاوة على مقال واحد ممهور باسمي في كل عدد.

بدأت صحيفة الحقيقة ،مشروعا فرديا، كغيرها من الصحف الخاصة التي تصدر في طرابلس وبنغازي، الا ان اسلوب تعاملها مع الكتاب كان اقرب الى روح المؤسسة، بل وكان هناك هاجس في اذهان اصحابها، اي عائلة الهوني، ان تصبح فعلا مؤسسة، وبدأوا فعلا يعملون باتجاه تحويلها حقا الى مؤسسة، فانشأوا لها قسما خاصا بتوزيعها، وانشأوا لها مع الادارة في بنغازي فرعا رئيسيا في طرابلس كما اسلفت القول وكل هذا ضمن لها مستوى مهنيا راقيا، وضمن لها استقطاب صفوة الادباء والكتاب في ليبيا،علاوة على ان رئيس تحريرها رشاد الهوني كان قلما جميلا يحظى بشعبية كبيرة لدى القراء، وفي

عام 1966 لحق به القلم الذي جلب للصحيفة مزيدا من القراء لما استطاع احرازه من نجاح وما كان لاسلوبه من قبول لدى مختلف القراء ، قلم الاستاذ صادق النيهوم، مما جعل الحقيقة تسجل نقاط امتياز وقوة على بقية الصحف التي سبقتها وتاخذ مكانتها المتفوقة كاهم وانجح صحيفة عرفتها ليبيا في ذلك الوقت ، وعلاوة على الاقلام الليبية استعانت الصحيفة بعدد من الاساتذة العرب المتواجدين في الجامعة الليبية، كما تعاقدت على صحفي ناجح من لبنان هو الاستاذ سمير عطا الله، الذي بقى عدة اشهر للاسهام في وضع خطة لتطويرها والرفع من مستوى الخدمة الاخبارية فيها وزملاء له جاءوا من لبنان لتاسيس اصدار جديد يصدر عن مؤسسة الحقيقة هو نسخة من الصحيفة باللغة الانجليزية.

وحدث ذات مرة ان كتبت يوميات الصحفية وضمنتها فقرة تحمل هجوما حادا وكاسحا على الحكومة ، اثار حفيظتها وحرك نية الانتقام لديها ، وسبب الهجوم هو ماكنت اسمعه منذ الصغر عما يحدث لبعض اهلنا في المناطق الصحراوية التابعة لبلدة مزدة، من حالات الجوع والمسغبة التي تصل حتى الموت، وكان الامر مثار الم وحزن لكل من يعرفه، ويحصل عادة في مواسم القحط والجفاف واحتجاب مياه الامطار ، وغالبا ما استنفر وقوع هذه الحالة قوى الخير في البلاد ، فتصل مواكب الاغاثة من تجار طرابلس وجهات اخري تنقل المؤن والغلال لاسعاف هؤلاء الضحايا لمواسم الجفاف، وهي حملات جاء ذكرها في مذكرات الاستاذ عبد الله شرف الدين الذي ذهب عام 1956 منفيا الى مزدة، فشارك في التعاون مع بعض اهل الحراك الاغاثي، الذي وصل الى بلدة مزدة لياخذ طريقه الى المتضررين في الصحراء، وقد تكررت نفس الحالة اخيرا، دون ان ياتي الانقاذ سريعا، ولم تكن الجهود الذاتية التي بذلتها عناصر الفرع البلدي في مزدة، قادرة على احتواء الازمة، ولعل احدهم استعان بي لإثارة المسالة على مستوى الصحافة، فكتبت مقالة مفعمة بمشاعر النقمة على الحكومة ، التي تتدفق على خزائنها عوائد النفط، دون ان تخصص نزرا يسيرا جدا من هذه العوائد لانقاذ هؤلاء الضحايا، وكنت قبل كتابة المقالة قد التقيت بطبيب على اتصال بالمنطقة ، وقرا تقارير طبية عاينت بعض الحالات، واكد لي ان حالات الموت التي حصلت كانت فعلا بسبب الجوع، وان كان جوعا مقنعا، فالناس يتغذون على بعض حبات الشعير المحمص ونسميها "القلية"، او بعض حشائش الارض ان وجدت، يسكتون بها صرخات الجوع، ويظن الواحد منهم انه حصل على حصته من الطعام ، بينما يكون ما تناوله لا يكفي غذاء للجسم لانه يفتقر الى معظم عناصر الغذاء، فيحصل ان يصاب الجسم بالوهن والضعف، ويصل صاحبه الى حد الوفاة بعد ان يمر بحالة اسهال ، يظن معه اهله انه مات معلولا ، بينما جاء الموت لنقص في التغذية. وجعلت عنوان المقال "البترول والموت جوعا"، وعرفت ان رئيس الوزراء وكان ايامها السيد حسين مازق، استفسر عن كاتب المقال ، وعرف انه موظف في وزارة الاعلام، فاتصل غاضبا بالوزير ، يلومه على هذا العبث،والاهمال، وعن كيف يجرؤ موظف في الحكومة على مهاجمتها بهذا الشكل الصفيق، واذا كانوا سيسمحون لكاتب يعيش في كنف الحكومة ويتقاضى مرتبه منها ، فكيف الحال بعد ذلك مع كتاب، خارج سيطرتها، وترتب على هذه الغضبة الرئاسية، ان اصدر الوزير السيد خليفة التليسي، قراراباحالتي الى محكمة ادارية ، يتراسها احد قضاة وزارة العدل ، ومسئول القضايا الحكومية المستشار احمد امين، وكان معروفا بانه يصدر احكامه حسب الطلب، وكان اكثر ما اعجبني وشد من ازري ، هو الزميل رشاد الهوني، الذي توقعت ان يكون غاضبا لان ثقته فيما اكتب واعتماده للنشر دون مراجعه ، اوقعه في هذا

المطب، ولكنه عالج الموقف مع الحكومة بما لديه من علاقات واسعة، وابلغني بانه تلقى بعض التطمينات الا انه اذا حصل اي اذى لي فسيحيلها الى قضية راي عام وسيحرص ان يصبح الموضوع فضيحة للدولة وتشهيرا بها، وسيعلن باعلى صوت احتجاجه ورفضه والمقال الذي كتبته عن الموتي جوعا سيتحول الى سلسلة من التحقيقات يشرك فيه النواب واهل الحراك الصحي ، ولم اسمع منه اي لوم لانني تجاوزت السقف المسموح به، وظهرت اثار مساعيه عندما تاجلت المحاكمة يوما وراء الاخر، ومع الايام بردت الدماء الساخنة ، وتوالت احداث ربما اكثر سخونة واهمية، والتقيت الوزير الذي كنت اعتبره صديقا ووجدته يلقاني بترحاب ويصافحني بود، فعرفت ان الامر مجرد روتين واداء واجب ، وعندما حانت جلسة المحاكمة، لم تكن مفاجاة لي ، ان وجدتها تكتفي بتوجيه انذار لي وتسالني الا اعود لمثل هذا الهجوم، وابلغني الوزير الاستاذ التليسي فيما بعد وانا الومه على قرار احالتي للمحاكمة ، بانه لو لم يكن هو الوزير لكان الامر اتخذ منحى اخر ليس لصالحي، واعتبرت ما حدث سحابة صيف انتهت، وتعززت علاقة الود بيني وبين الاستاذ التليسي وهي علاقة بدات قبل ان يصبح وزيرا واستمرت طوال حياته.

هاندا اقترب من عام النكسة ، 1967، ويوم بداية السقوط والانهيار لما كان يسمى الحلم العربي ، او مشروع النهضة ، في الخامس من يونيو(حزيران) ، في مغامرة غير محسوبة كما يسميها البعض، او مؤامرة دولية كما يسميها البعض الاخر، او خلطة جمعت بين الاثنين وصنعت الكارثة.

احداث كثيرة سبقت هذا اليوم، واحداث كثيرة خطيرة اعقبته، وهو يقف في قلب هذه الاحداث، علامة فارقة، فاصلة، قاسية، مؤلمة، يوميء لطبيعة مرحلة من عمر الفرد، وعمر الوطن الصغير ليبيا، وعمر المنطقة العربية باسرها . كان قد استقر بي الحال في السكن ، بعد ان عشت منذ يوم تخرجي من المعهد عام1960، والى عام 1965، اتنقل بين حانوت صغير ، وفندق فقير رخيص من فنادق المدينة القديمة، في هذه الشقة في شارع ميزران بايجار تدفعه الحكومة ، انتقلت لها من بيت ايضا مستقل وواسع ادفع ايجاره من مرتبي، وصار متاحا في هذا البيت والبيت الذي قبله ان انقل ابي واخوتي من القرية للعيش معي ، وكان الحاح العائلة على زواجي موجودا ربما منذ ان صرت موظفا وانا في السابعة عشرة من عمري، والان وقد مر خمس اوست سنوات على وجودي في الوظيفة ، صار هذا الاحاح يزداد قوة وتواترا، فقد توفر لي اهم شرط للزواج وبداية تكوين اسرة خاصة بي ، وهو البيت المستقل ، علاوة على الوظيفة والدخل الذي ياتي من مصادر غير الوظيفة ، وانتقال الاب والاخوين للحياة معي، فهناك الان اربعة رجال يريدون امرأة تقوم بتدبير الحياة المنزلية ، واعداد الطعام وترتيب البيت، ولكن المراة نفسها التي اتطلع الى الاقتران بها، لم تكن موجودة، عدا علاقات نسائية عابرة ، قائمة على المكالمات الهاتفية ، لانه لا وجود في تلك الايام لامكانية اقامة علاقة سوية بين رجل وامراة، يؤسسان لحياة مشتركة على ارضية من الحب والتفاهم ، وكانت هذه العلاقات الهاتفية مجرد محاولة من طرفي لملء الفراغ العاطفي ، وفراغ الوقت ، ببعض الانشغالات الرومانسية ، اطياف نساء يظهرن في البعيد، ربما من خلف فراشية، واصوات تاتي عبر الهاتف دون ان ارى لها وجها او اعرف لها اسما حقيقيا غير الاسم الوهمي الذي تمنحه لنفسها، وغالبا ما تبدأ هذه العلاقات الهاتفية من طرف بنات يتصلن بالصحف ويسألن عن كاتب مقال اعجبهن ما كتبه ، وهكذا كان لكل صحفي من زملائنا الشباب مفكرة بمثل هذه الهواتف ، ونادرا جدا ما يحدث لقاء نتيجة هذه الهواتف ، او يعرف الانسان وجها او رسما لمن يهاتفها، ولا تنشا معرفة حقيقية تؤدي الى حب او

زواج، هكذا كان حال المجتمع، في منتصف الستينيات ، ولا وجود اطلاقا لمشهد فتاة وشاب يجلسان في المقهى، مثلا ، اقصد ليبيان، لان مثله كان قصرا على الجاليات الاجنبية وزوار البلاد فقط، ولا وجود غالبا لاي نوع من الاختلاط الا على المستوى المحدود الموجود في الجامعة الليبية، بكلياتها المحدودة ، واعداد الطلبة المحدودين، ولهذا كنت اقاوم هذا الضغط العائلي ، ولكن كل مقاومة لا بد تحت مواصلة الضغط ان تضعف كثيرا، فظهر عندها السؤال عن من هذه المراة التي سترضى بخدمة هذه العائلة من زوج ووالد للزوج واخوة له، وطبعا كان صعبا العودة الى تقاليد البلدة التي تسمح بوجود مثل هذه المراة ، فلم يكن واردا ان اعود الى بنات العم في البلدة لابحث بينهن عن زوجة المستقبل ، خاصة وان التعليم مازال في البلدة يتعثر في مراحله الاولية ، كما كان صعبا ان اجد من بنات المدينة ومن ضاربات الهواتف مثلا ، من ترضى بمثل هذا الوضع الذي يحيلها الى واحدة من عاملات السخرة، تخدم اربعة رجال وضيوف محتملين من البلدة، وانحصر البحث في فتاة من البلدة ولكنها تعيش في المدينة ونالت تعليما مثل فتيات طرابلس، فهي مواءمة بين حالتين ، تقاليد البلدة مع الحالة المدنية التي ترضى بعضا من مطالبي في المرأة التي ارتبط بها، ولم اكن املك الا شرطا واحدا ، هو ان ارى هذه الفتاة قبل الارتباط بها، وفعلا تحقق هذا الشرط ورايتها قبل الخطوبة ، بل وتكررت رؤيتي لها، لكن فترة طويلة مضت قبل ان يتحقق الارتباط بالخطبة وفترة اطول حتى يتم الزواج بسبب احتياجها لبضعة اعوام تكمل ما بدأته من مرحلة تعليمية. وحصل حادثان طريفان كادا يضيعان القصة من اولها، الاول ان فتاة من صاحبات الهواتف ، سمعت بامر الخطوبة، وهي خطوبة لم نعلن عنها ولكنها بطريقة ما عرفت ان في الامر خطبة تخصني ، فاذا بها تقيم الدنيا ولا تقعدها، لم تترك مكانا الا ووصلت اليه بهواتفها ، لتقول ان هذه الخطبة باطلة لان للرجل اي انا ارتباط بها وتعهد بينهما بالزواج وانه لا يمكن ان يفلت من تعهداته والتزاماته امامها وامام الله ولا اعرف جهة لم تصل اليها اهل الفتاة واهلي واقاربي الى ان ذهب في اذهان هؤلاء الناس ان هناك تورطا ما ، او فضيحة ما يجب ان اتفاداها حتى ولو بالغاء هذه الخطبة، وفعلا اشاعت هذه الفتاة حالة من القلق وخلط الاوراق لم ينفع معها كل ما كنت اقوله لكل الاطراف من انه لا وجود لاية ارتباط ولا تورط ولا فضيحة وانما هي فتاة مجنونة لم اكن اعرف حتى من هي ومن تكون، وتم تاجيل حفل الخطوبة بضعة ايام حتى تاكد الجميع مما اقول وتم الامر بخير ، الحادث الطريف الثاني ، انه جاء بعد عام من هذه الخطوبة ، يوم الاول من ابريل ، وهو يوم كانت الصحف تستعد له ببعض المقالب والدعابات، واراد الزملاء في صحيفة الحرية مداعبتي بنشر خبر يقولون فيه ان زميلنا احمد ابراهيم الفقيه ، يدعو الاصدقاء لحفل زفافه الذي يقام مساء اليوم ، في شارع كذا، رقم كذا، وكان الشارع وهميا والرقم وهميا ، وطبعا هناك من اصدقاء بعيدين لا يستطيعون ان يتأكدوا من الخبر بالاتصال بي ، ذهبوا ولم يجدوا شارعا ولا رقما، ووصل الخبر لعائلة الخطيبة باعتباره حقيقة وانني اخليت بالتزامي معهم وانني في حين كنت خاطبا لابنتهم اقمت عرسا مع امراة اخرى ، وذهب في اذهانهم انني خدعتهم ، وان الخطوبة لم تحدث الا تحت الحاح والدي، وعزز هذا الكلام ، قصة الفتاة التي اشاعت انني على ارتباط بها قبل حفل الخطوبة ، وطبعا صنعت هذه الدعابة لبسا وسوء تفاهم اقتضى شرحا وتفسيرا، قبل ان تعود الامور الى سابق عهدها.

كان الصديق الشاعر على الرقيعي لا زال على قيد الحياة ، وكان يعارض بقوة مثل هذا الاسلوب في الزواج، وكان هو قد تزوج زواجا تقليديا في ازمنة سابقة، ويرى ان شابا اصغر سنا منه ، وانه ياتي في

وقت اكثر انفتاحا يجب ان يسعى لان يحقق لزواجه شرطا افضل ، وطبعا كان الرقيعي رجلا رومانسيا، لم يكن يستطيع القبول بمثل هذه الصيغ العملية الاجرائية التي تنظر لمنافع العائلة والتضحية من اجلها بمثل هذا الجانب الخطير والحميم من حياة الانسان، وكان شديد التحذير لي من اخضع حياتي لمثل هذه الاعتبارات العائلية، فهناك وسائل اخرى لمعالجة احتياجات العائلة، كان تؤجر احدا يقوم بالعمل المنزلي لا ان يكون ذلك على حساب شراكة انسانية هي الرابطة الزوجية . وهو يعلم انها اعتبارات عارضة طارئة ، فقريبا كان سيغادر الشقيقان البيت احدهما لمعهد داخلي ، والاخر لبعثة خارج البلاد، فما قيمة تضحية من هذا النوع، طالما ان هناك حلولا قادمة لمثل هذا الوضع العائلي . ولعل مثل هذه الاراء من احد اصدقاء العمر قد اسهم فعلا في ان اواصل التاجيل واواصله الى ان جاء يوم لم يعد هناك امكانية للتاجيل وكان لابد مما ليس منه بد ، وان امضى طائعا او مجبرا في الطريق الذي سار فيه اغلب رجال المجتمع لاكمال ما يسمى في الادبيات العربية نصف الدين وانشاء الاسرة وانجاب الاول ، وللموضوع شرح ياتي في موقعه من السياق .

على صعيد اخر ، هو صعيد الرؤية الفكرية التي كانت تقودني في كتاباتي وتصرفاتي ، اقول بانني كنت اعتبر نفسي ملتحقا بمشروع عربي تقوده مصر ، المؤهلة ثقافة وحضارة واستنارة للعب الدور القيادي في العالم العربي ، وعلى راس القيادة في مصر عبد الناصر، الذي اكتسب شعبية كاسحة في العالم العربي ، بما في ذلك ليبيا، منذ حرب السويس وحتى النكسة، وهو رجل يملك كاريزما القائد، ويملك، كما كان يعتقد اغلب الناس، اخلاصا وامانة وجدارة ولا تنقصه الرؤية الصحيحة ولا الايمان بالاهداف الوطنية والقومية، ولكنني لم اكن بالضرورة درويشا من دراويش عبد الناصر ، كما يفعل بعض اترابي وابناء جيلي من الشباب، ممن كانوا مستعدين لاستخدام عضلاتهم مع من يقول كلمة نقد في عبد الناصر.

كان الشاب المحامي عبد الحميد البكوش، الذي وصل الى منصب وزير العدل في ليبيا قبل النكسة، ثم رئيسا للوزراء بعدها مباشرة، قد طرح ما اسماه الشخصية الليبية، وكنت احد الذين رأوا بمقاييس تلك الايام انها دعوة ليست نقية ، ترفع في مواجهة، التوجهات العروبية في الشارع الليبي وما كان يزعج النظام الملكي من زخم قومي عارم، رغم النكسة وظروفها التي صنعت صدمة انعكست اثارها على الوضع الداخلي الليبي نقمة على سياسة الدولة وغضبا مدمرا على الجالية اليهودية وايضا الجالية الايطالية ، انتهت بمحارق ومجازر وكوارث حصلت في البلاد، الى حد ان كل اليهود لادوا بالفرار وهاجروا من البلاد ، وعملوا على بيع املاكهم وبيوتهم ومزارعم ودكاكينهم وشركاتهم ، من اماكنهم في الخارج يرسلون التوكيلات لمندوبين عنهم يتولون هذا البيع الذي استفاد منه عدد كبير جدا من التجار الليبيين، ولم تكن الدعوة للشخصية الليبية محض تعزيز لقيم الولاء للوطن كما كان يقول المناصرون للدعوة التي اطلقها السيد البكوش، طبعا اختلف تقييمي للموقف بعد ذلك، واستطعت ان ارى وجاهة الفكرة ، حتى وان كانت كنوع من اليات الدفاع على المواطنة ضد ذلك الشعور الجارف المناصر لعبد الناصر ومشروعه القومي، فان الاولوية يجب ان تكون وان تبقى دائما للولاء الوطني اولا لانه ولاء ووفاء وانتماء لا يجب ان يتقدم عليه او يعلوه اي ولاء اخر ، رغم انه لا تناقض اطلاقا بينه وبين اي ولاء قومي او شعور انساني او كوني عالمي مثل اتباع دعوة برتراند راسل في ذلك الوقت الذي كان يرفع شعار الحكومة العالمية ، نعم كله جائز ولكنه لا يجب ان يجور اي من هذه الولاءات على الولاء الوطني

، هذا ما ادركته فيما بعد ، ثم ادركت ربما في وقت لاحق للادراك السابق ، انني عندما كنت الاحق بعض مقالات من احب من كتاب التيار الناصري، انني كنت اركض واهما خلف شعارات جوفاء، وعبارات طنانة ، لا معنى لها ، الا تسويق الزعيم ونظامه واسدال غطاء على استبداده وانحراف مخابراته ودولته العسكرية، واعترف انني رغم يقيني بخواء المشروع الذي قاده عبد الناصر في مصر وجلب هزيمة 67، فان بقايا تعاطف مع الرجل لم تغادرني اطلاقا ، واراه رجلا وطنيا اشتغل بادوات فاسدة، وبقصور في الرؤية وربما فقر فكري وثقافي ، وان نزاهته وامانته ونظافة ذمته لم تستطع ان تنجيه من ارتكاب حماقات تنسب الى القهر في معاملة الخصوم، وكبت للحريات ، وغياب لفهم الصراع الدولي وجهل بقواعد الاشتباك مع العدو، ولا استطيع اطلاقا ان اعفيه من مسئولية الكارثة التي حلت بمصر وفاضت على العالم العربي كله ، وزاد الطين بلة طبعا ما حدث من احتضان ودعم وتاييد من عبد الناصر ونظامه لانقلاب قام به رجل قاصر في عقله وفهمه ومعارفه ويشكو بالتاكيد من خلل نفسي وعقلي ، وكان عبد الناصر قادرا على انقاذ ليبيا من المصير البائس الذي استمر معها اربعين عاما، لو انه تدارك الموقف، وفرض على هذا العدد من الصبيان الذين قاموا بالانقلاب، البقاء في الجيش، وتسليم الحكم لعناصر اكثر عقلا ونضجا، علما بانهم كانوا يعلمون قصورهم ، ولهذا انتدبوا في البداية قائدا لهم واسلموه رئاسة الجيش هو السيد سعد الدين ابوشويرب وكان له من النضج ما يؤهله لان يتولى حقا القيادة، لو قدم له النظام المصري السند والدعم وزكاه لدى صبيان الانقلاب، واذا فاتت عبد الناصر هذه النقطة طمعا في توظيف ولاء هؤلاء الصبيان له وايمانهم به، فكان يمكن عندما طلبوا مرشدا يتولى توجيههم ان يرسل لهم رجلا من اهل الكفاءات والعلم والثورية وكان لديه الكثير مثل وزيره للثقافة فتحي رضوان الذي كان عاطلا في بيته، وقت الانقلاب الليبي، وكان يستطيع ان يعمل على توجيه هؤلاء الصبيان بالاتجاه الصحيح، ولكن عبد الناصر ارسل بدلا من مثل هذا العنصر، او اي عنصر آخر من مستواه، ضابط مخابرات هو السيد فتحي الديب الذي لم يكن لديه هاجس الا هاجس الامن والعمل المخابراتي وطبع النظام كله بهذا الطابع ، ولا اقول ذلك لالقي باللوم فيما حصل على عبد الناصر، فقد غادر الحياة بعد عام واحد من انقلا ب القذافي، الذي كانت لديه من الميول الاستبدادية والاجرامية ما كان مغروسا في جبلته ولا مجال لتغييره، ولكنه ظل يستغل كلمات الاطراء التي قالها له عبد الناصر ، اربعين عاما واسمى نفسه الامين على القومية العربية ، باعتبارها تسمية جاءته من قائد القومية العربية. المهم انني كنت فتى في الخامسة والعشرين من عمري، بعد حدوث النكسة، ولم اكن خاضعا لاية ايديولوجية لا دينية مثل الاخوان وحزب التحرير ، وكنت اعرف اصدقاء منهم على راسهم زميل كاتب واعلامي هو محمد مصطفى رمضان، وكان شديد الحماس لفكر الاخوان ، كارها لعبد الناصر، وكنت اعارضه واتصادم معه رغم الصداقة العميقة بيننا، منذ كان يعمل في الاذاعة في ليبيا ، قبل ان يسافر الى لندن ، واخذته مرة في نزهة الى مزدة، واقام هناك في البيت معي لمدة يومين او ثلاثة ايام ، وبسبب حماسه وتعصبه ، انتهت تلك الصداقة الى قطيعة، وسافر لاستلام عمله في اذاعة لندن قبل نكسة 67 ونحن على خصام استمر اعواما كثيرة ولم ينته الا بضعة اعوام قبل مقتله على يد عملاء القذافي، وعلى الطرف الاخر ، فان اصدقائي المنضوين في تنظيمات قومية مثل البعث والقوميين العرب ، كثر جدا، ربما اقربهم الى قلبي ، واحبهم لي ، استاذي الفنان الاديب يوسف هامان ، ولم يكن اطلاقا يحمل ادنى ذرة من التعصب ، وكان الغالب على احاديثه روح الدعابة، ويستطيع ان يسخر من اي شيء ، وكان منضويا تحت حزب البعث ، وطبعا تم كشف التنظيم مبكرا ، وفي ذلك الوقت عرفت بانتمائه البعثي، ورايت ان الحزبية لم تكن اطلاقا تتفق مع

طبيعته الحرة ، وهناك ايضا صديق من ابناء فئتي العمرية، هو محمود عبد السلام نافع، الذي كنت اتقاسم معه الكتابة في الصفحات الثقافية والفنية، ثم التقينا فيما بعد في لندن، وصرنا لا نكاد نفترق في جلسات المساء ابدا، كان هو ايضا من المتحمسين لفكرة البعث، المنافحين عنه بقوة، وكنت مع كل هؤلاء الاصدقاء، احتفظ باستقلالي الفكري ، واترك عقلي مفتوحا دون ان اغلقه على فكرة بعينيها او ايدولوجية بعينها، نعم كنت متعاطفا مع اهل التوجهات اليسارية عموما ذات المنحى العروبي، وربما لم اجد جماعة بعينها اقول انها هي التي تتجسد فيها افكاري وان ما احمله من تصورات ورؤى يتطابق مع منهجها وادبياتها، فقد بدت لي هذه التنظيمات ، وبالذات الحزبية منها، شيئا ينفر منه عقلي وتكويني الفكري ، بما تعنيه من تعليمات تاتي معلبة لمنتسبيها وعليهم القبول بها دون نقاش ، وما تعنيه من قوالب جامدة لما تسميه اهدافا وافكارا لا يلحقها غالبا التغيير ولا التبدل ، ودوجما تمنع التفكير الحر، وكانت اكثر هذه الاحزاب مدعاة للنفور هي العقائدية منها سواء الدينية او العقيدة القومية او عقائد الحادية اذا صح التعبير مثل الاحزاب الشيوعية وما كان منها يكتسب لونا اكثر حدة مثل التروتسكيين او الماويين او غيرهم، ولعل تربيتي في بيت عميق الايمان ، عميق الصلة بالدين هو الذي حماني من الانخراط في مثل هذه الكيانات الدوجمائية، فالدين بالنسبة لاسرة تربت على يد جدي الفقي احمد الذي قضى اكثر من ستين عاما معلما للقرآن في زاوية السني في مزده، كان علاقة بين الله وخالقه ، ولا توظيف لها من اجل التربح والمنفعة الدنيوية، والحصول على منصب او مكانة كما يسعى اصحاب الاحزاب الدينية، ولعل الحزب الوحيد الذي كنت على ثقة بالانضواء اليه هو الحزب الذي صدر امر بحظره وقفله في ليبيا حزب المؤتمر الوطني بقيادة الزعيم السعداوي، فقد كان والدي يملك سحارية تضم الاوراق التي تصله من الحزب باعتباره عضوا فيه ، والبطاقات التي يتلقاها، واعرف انه حزب سياسي كان هدفه استقلال البلاد ، واحببت جدا شخصية زعيمه السعداوي ورايت فيه المثل والقدوة ، لانه لا اجندة لديه غير استقلال ليبيا وتقدمها ونهضتها، واهمية بناء دولة مدنية دستورية، وكنت منذ بداياتي ارى في خلط الاسلام بالسياسة ، فحشا وفجورا، واستغلالا للدين ووضعه في غير مكانه ، وربما هذا الموقف هو ما صنع تلك القطيعة بيني وبين زميل وصديق عزيز هو محمد مصطفى رمضان، وقربني من اصدقاء اتصلوا باحزاب وانضووا تحتها ولكن لا وجود لهذا اللعب بالدين وخلطه بالسياسة مثل يوسف هامان وصالح الشريف ومحمود نافع وابراهيم الهنقاري ومحمد علي التبو وفيما بعد قيادات هذاالحزب، اي حزب البعث ، الاساتذه عبد الله شرف الدين وعامر الدغيس وبشير بن كورة ، وظللت في المحصلة النهائية اميل الى حياة الادب والفن والثقافة، مما كنت مع السياسة، وظل بيتي الفكري هو الوسط الادبي ، والوسط الفني ، بدءا من انتسابي لفرقة الامل ولقائي بتلك المجموعة التي لم تكن في يوم الايام ،اي حتى بعد النضج والتجربة ، تنتمي اي انتماء حزبي محافظة على استقلالها الفكري. ولا ادري اذا اعتبرت صديقي وشريكي في السكن والعمل الثقافي والصحفي يوسف القويري صاحب اتجاه ماركسي ، مع انه مر بتجربة مريرة في صباه وهو يقيم مع اسرته في بلدة سامالوط في صعيد مصر ، اي البلدة التي ولد فيها وذهب طفلا الى مدارسها، وهي تجربة انضمامه لحزب ماركسي وهو لازال في مراحل الدراسة الاولى وتم كشف الحزب المحظور وقضى فترة في السجن عطلت دراسته واورثته شيئا من الكراهية للسلطات البوليسية،وسمعته اثناء احتدام النقاش مع صديق ، يحذره في غضب بان يحترس منه فهو خريج سجن ابو زعبل ، وطبعا كان يقول ذلك تحت تاثير الشراب والغضب ، لانه انسان كريم نبيل مسالم، تصيبه حالة من الغضب الهستيري فقط اذا لمس احد كرامته ، ولا اعتقد انه واصل الاتصال باي تنظيم حزبي من هذا النوع، وظل ولاءه فقط

للمدرسة الماركسية في التحليل ، وصار تعاطيه مع هذا النوع من النظريات يقتصر على الجانب الادبي الثقافي والولاء للمدرسة الواقعية او الواقعية الاشتراكية بالذات باعتبارها مدرسة ارتبطت ارتباطا خاصا بالماركسية واهلها من احزاب واقطار.

واستطيع ان احدد جدولي العملي اليومي في الزمن الذي اعقب نكسة 67 فقد كنت اسكن في بيت شارع ميزران، واذهب صباحا الى ادارة الفنون الاداب التي تشرف على عدد من المجالات الفنية والادبية مسرحا وفنونا شعبية وتقوم باصدار كتاب شهري، زميلا لعدد من موظفي هذا الادارة امثال عبد الحميد المجراب ، نوري بازيليا ، امين مازن ، احمد النويري، وكان مديرها سالم المسلاتي ونائبه الممثل المعروف شعبان القبلاوي، ونتلهي بهجائية زجلية قالها احمد النويري في هذه الادارة وهجائية اخرى قالها في الوزير ووكيله السيد احمد سيالة، وفي تلك الفترة حدث تغيير وزاري اصبح بموجبه السيد احمد الصالحين الهوني وزيرا، وهي هجائيات لا دافع ولا سبب لها الا الاختلافات الشخصية، ولكنها تحمل جانبا فكاهيا يجعلنا جميعا ، بما في ذلك من تناولهم الهجاء ، يضحكون منها، وخلال نفس الفترة كنت عضوا في لجنة تحرير الرواد وكنت اكتب لها فصول رواية لم اكملها هي فئران بلا جحور ، لانني لم اجد عندى الرغبة للكتابة بعد تلك النكسة ، ولكنني لم اتوقف عن كتابة مقالات النقد الغاضب التي انشرها في صحيفة الميدان، وفي المساء كنت اذهب الى مسرح الغزالة الذي اختاروه مقرا لفرقة المسرح الوطني التي كانت تجري تمارين تحت اشراف الفنان العقربي ، على مسرحية عطيل التي كانت جاهزة للعرض ولكن ظروف الخراب التي اعقبت المظاهرات الغاضبة عطلت تقديم المسرحية.

انشغلت في تلك الفترة انشغالا اساسيا بازمة صحية كان يمر بها والدي، فقد ذهب ذلك العام لاداء فريضة الحج، وكان الفصل شتاء ، وكان اليوم الذي سافر فيه شديد البرد، وشاعت بعثة الحج ان يذهب الناس محرمين من المطار ، وكان عليه ان يرتدي تلك الملابس التي لا تدفيء الجسم وهو الشيخ الذي ناهز السبعين ، والانكي من ذلك ان عليه ان يستحم بحمام من الماء البارد في المطار فتعاون عليه صقيع الماء، مع صقيع الجو، مع ملابس الاحرام، مع وهن الشيخوخة ، وتمت اصابته ببرد في العظام ، وادى فريضة الحج وعاد مصابا بهذا البرد الذي اقتضى ان يتنقل ين المستشفيات الخاصة والعامة وعيادات الاطباء ، لان برد العظام لم يكن سهلا في تلك الاوقات وبما كان متوفرا من اجهزة الفحص والتشخيص التعرف عليه ، فضعنا في متاهة التشخيصات المتضاربة ، وزاد الامر استفحالا عندما اتضح ان هذا الداء ترك التهابات في الصدر والشعب الهوائية، وفي هذا الوقت جاء خبر اندلاع الحرب على الجبهات المتاخمة لاسرائيل ، واشتعل الحماس الذي يرافق مثل هذه الحرب، وانعكس هذا الحماس على الاذاعة التي وجدت نفسها في حالة استنفار لتغطية الاحداث ومواكبة المشاعر الملتهبة، بما يناسبها من الاناشيد والتعليقات الصارخة، وبعد ستة ايام من بدء المعارك صحا العالم العربي على حجم الهزيمة ، التي شكلت كارثة عظمي، ولعل احدا لم يكن قد استوعب الكارثة حقا يوم وقوعها وفوجيء الجميع بقبول مصر بوقف اطلاق النار في الامم المتحدة، لانه في ظننا ان الحرب مستمرة وان هناك مددا لم يكن قد وصل ولعل اناسا في ليبيا شاهدوا كتائب قادمة من الجزائر في طريقها الى الجبهة ، توقفت الحرب وهي لم تعبر الحدود الى مصر ، فكيف يحدث هذا الايقاف في هذا الوقت ، وعندما القى الرئيس عبد الناصر خطاب التنحي وخرج الناس يطالبونه بالبقاء في مصر اولا وفي بقية اقطار العالم العربي ، لم يكن احد في

مصر وحدها يعلم ما حصل بالضبط ولعل هذا التنحي لو حدث بعد ان وصلت فلول الحشود الضائعة في سيناء واخبروا الناس بحجم الكارثة لما خرج احد يطالب ببقائه.

لا ادري كيف اصف الشعور الذي خامرني وخامر الناس من امثالي في ذلك الوقت ، وتحديدا شريحة من الشباب التحقوا بالمشروع النهضوي الذي لم يكن غير وهم وخيال، والذي بشر به اعلام قائم على التضليل والترويج لاباطيل الحكام والدعاية لهم لتسويق برامجهم وابقائهم على قلوب الشعوب، بل ان تقاريرمؤكدة سمعتها في مصر، ومن وزير للاعلام كان موجودا في اتحاد الجمهوريات العربية، الدكتور على خشيم ، اخبرني انه سمع من عبد القادر حاتم شخصيا، ان الاعلام المصري استعان بعدد من خبراء النازي، تلاميذ جوبلز في الدعاية وفلسفته التي تقوم على تكرير الكذبة حتى يصدقها الجمهور ويقول ايضا في الترويج للنظرية النازية ليس مهما ماذا تكون النظرية ومدى قوتها او عمقها المهم كيف تسكها في عملة قابلة للتداول يستطيع ان يستخدمها ويستعملها ويفهمها الناس، وطبعا اعتقد ان الاعلام العربي تربي على تقاليد دولة الاستبداد التي لا تحتاج لان تاخذ دروسا من احد وانما هي التي تقدم الدروس في التضليل والكذب والاستهزاء بعقل المتفرج، المهم انها الة اعلامية جهنمية تقتات على الاكاذيب والشعارات الجوفاء، والعنتريات التي اسماها نزار قباني " العنتريات التي ما قتلت ذبابة" في قصيدة الهجائية التي اطلقها بعد النكسة واسماها هوامش على دفتر النكسة ، وكانت حقا تعبيرا عن شعور الصدمة ، وتلقفناها كلنا بحماس وحفظناها عن ظهرقلب، فقد ظهر كل ذلك الكذب واضحا تحت ضوء النكسة ، اذا كانت تحمل اي ضوء، وعبر ايضا عن تلك الحالة وبمفردات الناس ولهجتهم احمد فؤاد نجم، في قصيدته الشعبية التي يقول فيها "يامحلى رجعة ضباطنا من خط النار

ماتقلش سينا وماسيناشي

ما الف اوتبيس ماشي

شايلة انفار

خبطنا تحت بيطاطنا

يامحلى رجعة ضباطنا"

والحقيفة فانني لا اعتقد بوجود كلمة واحدة في القاموس تستطيع وصف احساس انسان مثلي، هل هي الصدمة، هل هو الخداع، هل هو التضليل والتعمية التي اصابنا بها الاعلام، انها اشبه بحالة انسان ترفعه الى حالق ، ثم ترمي به الارض حطاما.

أنعي لكم، يا أصدقائي، اللغةَ القديمه
والكتبَ القديمه
..أنعي لكم
..كلامَنا المثقوبَ، كالأحذيةِ القديمه

ومفرداتِ العهرِ، والهجاءِ، والشتيمه

أنعي لكم.. أنعي لكم

نهايةَ الفكرِ الذي قادَ إلى الهزيمه

2

مالحةٌ في فمِنا القصائد

مالحةٌ ضفائرُ النساء

والليلُ، والأستارُ، والمقاعد

مالحةٌ أمامنا الأشياء

هكذا كان تعبير شاعر تعلق هو ايضا بالحلم العربي ، ثم صور احساسه بالصدمة والهزيمة.

توفى والدي ، رضوان الله عليه ، واختلط الحزن العام، بالحزن الشخصي، وبقيت عدة اسابيع في البلدة اتلقى العزاء، واطلت البقاء اكثر مما تحتاجه ايام المأتم، لانني كنت اريد ان انسحب من دوامات العاصمة ، فقد عشت الحياة ركضا، دون هدنة ولا استراحة محارب ، ولا فرصة لتقييم ما افعل، ومانجزت وما الم انجز،وها قد ترافقت نكسة العرب، مع رحيل الاب ، ولابد من الوقوف، فترة لتقييم الانهيارات، واعادة ترتيب اوراق الحياة ، التي تناثرت كان عاصفة رمت بها في الفيافي.

كانت النتيجة التي وصلت اليها ، خلال ايام اعتزالي في البلدة، هي انه لابد من تغيير المشهد، لقوة الاحساس الذي داهمني بانه لا بقاء لي البلاد، لابد من الرحيل وتغيير المشهد وربما ايضا يلحق التغيير او بعضا منه هذه اللغة التي اسماها نزار قباني لغتنا المثقوبة، كالاحذية القديمة ، اريد ان ارى وجوها جديدة ، واسمع لغة جديدة ، وارقب مشهدا مغايرا للمألوف والمكرور والمعتاد، وكنت طبعا اعرف انني لا املك ما يكفي من الموارد التي استطيع ان اعتمد فيها على نفسي اذا غادرت بلادي ووظيفتي وتركت مصدر دخلي، لانني لو املك ادني امكانية لان اعيل نفسي ، او اضمن وظيفة نادل في مقهى في الخارج لما ترددت في الذهاب دقيقة واحدة، ولابد من تدبير وسيلة ما، بعثة تدريبية او دراسية ، تضمن لي السفر الذي انشده، وبمجرد عودتي الى طرابلس، جعلت هذا المسعى للسفر هو الهدف الاول الذي اضعه امامي .

كنت قد التقيت في طرابلس باستاذ جامعي عربي يعمل في جامعة جورج واشطن في امريكا اسمه عبد العزيز سعيد ،واجريت له مقابلة في صحيفة الحرية، وقيل لي انه يحظى بمكانة متميزة في الادارة الامريكية ويعتمدون عليه في استشارات تخص العالم العربي، وكان قد تحدث عن امكانية ان يجد لي قبولا او ربما منحة فاعدت الاتصال به ، وارسلت له ما املك من اوراق تعين في تحقيق هذا القبول، واحضرت اوراقا من المجلس البريطاني عما يتوفر من بعثاث في مجال المسرح ، لكي اقدمها الى ادارة الفنون والاداب التي اعمل بها، علها تقترح ارسالي في بعثة بالتنسيق مع هذا المجلس، وكنت قد توقفت عن كتابة الرواية التي بدأتها في الرواد وكتبت عدة مقالات حانقة غاضبة تتصل بالنكسة وخديعة العالم الغربي ومؤامرته ضد العرب ، في اطار الصدمة التي تسببت فيها النكسة ، وابلغت السيد عيسى قاسم الذي كان قد نشر بعض الاخبار التي استقاها مني ونقلها من صفحات اكتبها للصحف الليبية، في المجلة التي

يحررها باسم المعرفة، بانني لا اريده ان يقتبس حرفا واحدا مما اكتبه ويضعه في مجلته تعبيرا عن نفوري واشمئزازي من الموقف الامريكي من قضية فلسطين، ولعلني كتبت شيئا خارج سياق النكسة استجابة لالحاح صديقى محمد احمد الزوي، الذي كان رئيسا لتحرير مجلة الاذاعة، وكان مثلي يسعى للحصول على بعثة ، ولم يكن يهمه ان يترك منصبه في الاذاعة في سبيل الفرار من هذه الاوضاع البائسة ، وتوحدت جهودنا في الحصول على البعثة المأمولة، وجاءني رد مشجع من الدكتور عبد العزيز سعيد، لكنه بدا ان خيط تلك الدراسة الاكاديمية سيكون طويلا ، وانها تحتاج الى ان اجد من يصدر قرارا من وزارة التربية التعليم بينما كان معارفي كلهم في المجال الاعلامي الذي اعمل فيه ، وهؤلاء لا سيطرة لهم على البعثات الاكاديمية ولكنهم يستطيعون تدبير بعثة تدريبية يتجدد امرها كل عام، وفعلا وجدت العرض الذي يلقى القبول من وزارة الاعلام، واقتضى وقتا حتى صدر القرار الحكومي بايفادي في دورة دراسية تبدأ عادة بسنة قابلة للتجديد في مجال المسرح ، وصدر قرار خاص بزميلي محمد احمد الزوي بالدراسة في مجال التليفزيون ولسنة قابلة للتجديد، وفي يوم واحد وطائرة واحدة، من طائرات شركة كالادونيا البريطانية ، سافرنا، وفي مطار جاتويك هبطنا، وهناك وجدنا مندوب المجلس الثقافي البريطاني في انتظارنا وقد هيأ لنا سكنا في لندن، لفترة قصيرة من الوقت، قبل ان ننتقل الى مدينة في جنوب انجلترا، هي برايتون، لاخذ دورة في اللغة الانجليزية ، تسبق الدراسة التخصصية لكل واحد منا.

ولازلت اذكر ان شعورا جميلا من البهجة والاثارة كان يخامرني وانا ارى الطائرة تبدا التحليق في سماء طرابلس ، وتنأى عن الارض الخضراء [المحاذية للمطار، ثم تدخل بعد دقائق من طيرانها الى المدى الازرق للبحر الابيض المتوسط تاركة الشاطيء الليبي باتجاه عالم الشمال الذي يعد بحياة جديدة عامرة بالتوقعات الكبيرة ، ولحظات الدهشة والاكتشاف والمغامرة ، التي سيتضمنها جزء من هذه السيرة خاص بسنوات الاغتراب والرحيل .

الكتاب الثاني

بعد الانقلاب:الجنون يحكم البلاد

عندما تركت البلاد صيف عام 1968، ذاهبا الى بريطانيا للدراسة، كان الذهاب هروبا من مشاعر اليأس والاحساس بالخديعة والخذلان والخيبة، يخامره شيء من الاقتناع بلاجدوي ما كنا نفعله ونقوم به، عبر كتاباتنا وانشطتنا ذات التماس مع المجالين الثقافي والسياسي، مشاعر احباط تاخذ بعنقي واعناق اناس اعرفه من ابناء جيلي وابناء مجلي تولدت عن مناخ الصدمة الصاعقة التي تلقي بها الناس هزيمة 76، مع ما كشفته من رعب الواقع العربي على المستوى الاقليمي والمستوي المحلي، ولابد من القول هنا ان الحس بالرسالة الذي عادة ما يولد لدى اصحاب الاقلام كان حسا قويا، تغذيه عوامل كثيرة تحفل بها مجتمعات التخلف والامية والقحط الثقافي، ومهما كان الكاتب ضئيل الزاد في التعليم مثل كثير من ابناء جيلي، واغلبهم لم يسعفهم الحظ بنيل تعليم يتجاوز المرحلة المتوسطة، عدا قلة قليلة تجاوزوا هذه المرحلة بسبب وجودهم في المهجر، او انهم واصلوا هذا التعليم الاعلى من منازلهم فور وجوده في ليبيا، فان هذا الاحساس كان موجودا، وهو احساس يزداد رسوخا في النفوس ، بقدر وقوة الاغلال التي ترسف فيها البلاد من جهل وجهالة وفقر وبؤس، فهذا النصيب من التعليم او هذا القدر من الوعي ، وهذا المستوى من التحصيل الثقافي ، يوفر لهم قدرة على رؤية مثالب الواقع، واوجه القصور والتقصير فيه، التي يريدون اصلاحها وتعديلها، وتبعا للقول الذي يتحدث عن العمشاء في بلاد العميان باعتبارها نجلاء العينين، فان هذا الكاتب، بمستواه المحدود ثقافة وتعليما ، يصبح رسول تنوير وارشاد وتوجيه. انه المبصر الذي يقود العميان ، او هكذا تفرض عليه معطيات الواقع، واذا لم تفرضه المعطيات، فانه يفرضه بنفسه على نفسه، حتى من باب اعطاء الاهمية لما يفعله ويقوم به ، مرتديا دور الرسول الذي يتولى توعية الناس، وتبصيرهم بمفاهيم الحياة الصحيحة القويمة النظيفة، وهو احساس يتفاوت من كاتب الى اخر، ورغم ان نصيبي من هذا الاحساس كان اقل كثيرا من غيري، لانني كنت دائما ارى في الكتابة بجوار مسؤوليتها، جانبا من اللعب والتسلية، وليس مثل صديق كاتب كان اذا نشرمقالة في الصحف خرج الى الشارع ليرى وقعها على الناس، وهل اصبحوا اطول قامة، واكثر وسامة واناقة، وسلوكهم في الشارع اصبح اكثر رقيا وتهذيبا وحضارة، فهذا مايجب ان يحدث لان هذا ما استهدفه من المقالة ، بالنسبة لي فانا في الاصل كاتب حكايات، جئت للمهنة من ارض الخراريف التي تربيت على سماعها من العمات والخالات، وكنت اتلقاها لاهيا لاعبا مستمتعا بها، وكبر معي هذا الاحساس باللعب، وانا اكبر واتحول الى صياغة مثل هذه الخرافات في شكلها العصري، بغاية ان اقدم مادة لتسلية الناس وتحقيق شروط اللعب والمتعة وشغل الفراغ، الا ان هذا الاحساس باللعب يرافقه بالتاكيد احساس بالمسئولية لكي لا اقول الرسالة ، تشربته وتعلمته من ادباء حولي ، بعضهم بدأ قبلي، وبعضهم بدأ معي ،وكلهم يملكون هذا الهاجس ويعتبرون الهم الوطني جزءا من رسالتهم ومسئوليتهم ولم يكن ممكنا ان اكون استثناء لهم، واعرف ان الاحساس بالمسئولة كان يبلغ درجات متعاظمة جدا عند زملا مثل الصديق يوسف القويري، الذي لا استغرب ان اراه يمشي في الشارع بعد نشر مقالة له ذلك اليوم، لينظر مدى تأثيرها في الناس حوله، ويرى ان كانوا يسيرون في الشارع اطول قامة واكثر وسامة واعظم احساسا بكرامتهم وقوة ارادتهم وينظر اذا ما كان يسولكهم قد صار اكثر رقيا واكثر حضارة كما يريد لهم ان يكونوا وكما يريد لاحرف كلماته ان تتحول الى ترياق يسرى في الدم مع العروق فتنبض قوة وكرامة وكبرياء. اقول انني سافرت احمل معي بعض احساس من الاجدوى ، لما كنا نقوله ونكتبه ونفعله، وما نعتبره اسهاما في تطوير المجمتع ، وهناك ايضا بعض احساس بالانكسار ، لان امالا كبيرة تقوضت تماما اثر ما حدث، وهو شيء مهما كان حجم الخديعة والوهم، ففيه ايضا عشم وامل صار الان رمادا. بالنسبة لليبيا فان النكسة لم

تكن من صنع نظامها ، ولم تكن طرفا في المعركة، اوطرفا في اتخاذ قرار الحرب، او طرفا في المغامرة التي ادت الى النكسة، ولكن الاضواء الساطعة الناتجة عن الكارثة ، التي اظهرت كثيرا من العجز، واكداس القبح، واوجه التقصير، ومناحي العوار في الحياة السياسية العربية، لم تكن لتستثني ليبيا، فقد ظهر نظامها العجوز، بائسا ، مفلسا ، محتميا في خوف ورعب بارتباطاته الغربية المهينة ، وما ترتب على هذه الارتباطات من افساد للحياة السياسة ، وتدمير لاسس الدولة الحديثة ، بدءا من الغاء الاحزاب، الى تزييف كل دورة برلمانية ، تزييفا فجا حقيرا، يصل الى تحطيم الصناديق، ووضع بطاقات النائب المعارض ، في صندوق النائب الذي تريده الحكومة، وتفرض نجاحه غصبا عن ارادة الناس، ولم يقتصر هذا التزييف على الدورات الاولى ، ولكنه كان موجودا حتى في اخر انتخابات تمت قبل سقوطه، كما انه تزييف لا يتم ضد اهل التطرف في معاداتهم للنظام ، ولكن ضد عناصر شريفة من ابناء النظام نفسه، واترك للاستاذ عبد اللطيف الشويرف وكان وزيرا للانباء والارشاد في ليبيا، وبعد ان ترك المنصب الوزاري بعام او عامين ، قدم نفسه للترشيح في واحدة من مناطق طرابلس، لكن الحكومة كما يقول بالحرف الواحد التي اجرت الانتخابات في عام 1965 اقدمت على جريمة بشعة حسب تعبيره "فزورت الانتخابات بطريقة بدائية غبية هي تكسير صناديقنا وافراغ ما فيها من بطاقات الانتخابات، وصبها في صندوق المرشح" المنافس الذي تريده الحكومة.

لم تكن ليبيا تحتاج الى كل تلك الغمزات القادمة من ابطال الهزيمة في مصر، فكل الاشارات العبيطة ، التي كتبها السيد محمد حسنين هيكل في خطاب التنحي ، كما تلاه عبد الناصر، مثل توقعنا القوات من الشرق فجاءت من الغرب، وهيكل نفسه الذي يقول ان الرئيس المصري كلفه بكتابة الخطاب، واحتوى اشارة اخرى اكثر خطورة ، عندما توجه الرئيس بالشكر الى كل الاقطار العربية، واستثنى دولة عربية واحدة هي ليبيا، ربما لكي يؤكد ما غمز به في الخطاب، من تواطؤ في الهجوم، وهو تواطؤ اثبت التاريخ انه غير صحيح، وان القاعدتين البريطانية والامريكية لم يتم استخدامهما في الهجوم على مصر، ولكن الشعور الشعبي لم يكن يحكمه المنطق، في تلك الايام العصيبة، فصدق طبعا ما سمعه على لسان الرئيس الجريح، فانطلقت النقمة ساحقة ماحقة ، في صورة مظاهرات تحرق وتدمر كل شيء في طريقها، وتقتل الابرياء من ابناء الجالية اليهودية، وبدرجة اقل الجالية الايطالية، ولم تسلم طبعا جاليات اخرى مثل الامريكية من هذا الاذى، ولم يكن هذا الخطاب وما ورد فيه من اتهام للحكومة بخيانة القضية ، هو السبب الرئيسي في نقمة الناس على النظام، ولكن ممارسات كثيرة، تتصل بالفساد المالي والاداري علاوة على الفساد السياسي ، وما بدا من استهتار في ادارة شئون البلاد، مثل هذا التغيير العبثى للوزرات ، ومراسيم تعيينها وحلها ، فوزارة عبد القادر البدري سجلت رقما قياسيا في قصر المدة فقد تم تعيين حكومته في يوليو 1967 واستقالتها في اكتوبر من نفس العام، واعقبتها حكومة عبد الحميد البكوش التي لم تزد عن ثمانية اشهر، رغم تفاؤل بعض الاوساط بها، لان شابا من اهل الثقافة والوطنية ، لم يكن قد بلغ الثلاثين من عمره هو رئيسها، وعمل على تطعيمها بعناصر شاب مؤهلة، وقامت باصلاحات محدودة، وتطهير جهاز الشرطة السياسية من عناصر اشتهرت بقسوتها وانحرافها، علاوة على عملية علاقات عامة ناجحة قام بها السيد البكوش على المستوى الداخلي والخارجي، وكل هذه الجهود لم تشفع له في البقاء غير هذه الاشهر المحدودة التي تم عزله بعدها، وارسل سفيرا في باريس .

وكان احساس الناس بعد النكسة انه نظام في طريقه الى الزوال، وكان السؤال الذي يدور في دوائر سياسية واقتصادية مثل شركات النفط هو من بعد الملك، وسمعته شخصيا من اناس كثر، باعتباري صحفيا يستشعر نبض الشارع السياسي ، وربما كنت غشيما الى الحد الذي تساءلت عما استوجب حقا هذاالسؤال، ولكن العلامات كانت هناك لمن يريد ان يرى ، ويستطيع ان يرى، يعني ان لم يكن زوال النظام، فاجراء استباقي لانقاذ الاوضاع ، يحل به شخص مكان الملك، الذي كان قد بلغ مرحلة متقدمة من العمر، يعيش عيشة نائية في قصره في طبرق، معزولا عن نبض الشارع ، ولا يعرف الناس شيئا عما يفعل، ولا شيئا عن تفكيره، ولا تواصل بينه وبين الناس، الا ما يرونه في شكل مراسيم عشوائية ، تظهر بين الفينة والفينة ، وولي عهد يعيش على هامش الحياة، لا دور له ولا علاقة بما يجري في البلاد، وجوده مثل عدم وجوده، يشكك الجميع في كفاءته، وقدراته العقلية ومستواه التعليمي، وان اشتهر بطيبته ونقاء ذمته المالية وتقواه، ومؤسسات دستورية مشلولة ، اشبه بالديكور، مجرد خواء وفراغ، لشكل الدولة التي لا محتوى لها ، وفي مقدمتها البرلمان القادم من عالم التزوير والتزييف، وحكومة وصلت اخيرا الى اقل الناس كفاءة في ذلك العهد، واقصد اخر رئيس للوزراء، هو الاخر رجل كثير التهذيب والبراءة، ولكنه اعجز من ان يدير دكان بقالة لا دولة، تواجهه تحديات عصر يتفجر بالمشاكل والنكسات، وزاد الوضع السيء استفحالا ، بتلك الرحلة الغامضة، التى لا يعرف الناس شيئا عن اسرارها التي استاجر فيها الملك سفينة يونانية ، ذاهبا للسياحة والاستشفاء في مدينة بورصا التركية ، وفيما ظنه الناس رحلة علاجية قصيرة تستمر اسبوعا او عشرة ايام ، فاذا بها تستمر اربعة اشهر ، هي طبعا الاشهر الاخيرة في حكم ذلك الملك، فيما بدا لاغلب الناس انه انسحاب من الحكم والسياسة، ربما تمهيدا كما قالت الاشاعات فيما بعد، لصالح اثنين من ابناء صديقه المغدور ابراهيم الشلحي، وهما عمر وعبد العزيز الشلحي، بل عرفنا ايضا في وقت لاحق، ان رئيس مجلس الشيوخ صديقه المجاهد عبد الحميد العبار، ذهب اليه في تركيا، يرجوه ان يعود الى البلاد، كما ذهب له السيد مفتاح عريقيب رئيس البرلمان، يبحث معه في سبب الغياب الذي ترك فراغا خطيرا في السلطة، فقدم للاثنين استقالته، فرفضا استلامها، قائلين له ان الواجب يقتضي ان يعود الى البلاد، ويقدمها الى المجلسين ويرتب مع بقية اركان الحكم تنصيب بديل له، سواء ولي العهد، او التنازل عن العرش لصالح نظام جمهوري يقوم على الانتخاب.

المهم ان الترقب كان عنوان المرحلة ، خلال عام 68 وثمانية اشهر من عام 69 السابقة للانقلاب، ووجدت في لندن نفس السؤال الذي تركته في ليبيا، يتردد في اوساط صحفية في لندن ، لان هناك صديقا ، اسمه انتوني ماكدورمات، يعمل بالصحافة، محررا للشئون العربية ، يجيد اللغة العربية، واتصل بي لترجمة قصص قصيرة من تاليفي، فكان حلقة وصل بيني وبين الوسط الذي يعمل به، ووجدت لديه نفس السؤال يتردد لدى العاملين بالشأن العربي في الاعلام، وحضرت حفلا اقامته السفارة بمناسبة العيد الوطني في 24 ديسمبر ، وكان اخر اعياد ميلاد الملكية، في ليبيا، وكان السؤال هو نفس السؤال ، اي انهم جميعا ينتظرون مجهولا سيداهم البلاد، واستطيع ان اقول الان ، ما بدا واضحا بعد ذلك، وهو ان الملك قد قام بترتيب مع من يعتبرهم الرعاة الدوليين للبلاد، وقد ارسلت امريكا سفيرا صاحب سوابق في ترتيب الامور في بلاد الشرق اسمه ديفيد نيوسم، كان هو راسم الخطة مع بعض اركان البعثة الامريكية، وكان احدهم رئيس القاعدة الجوية، ومع السفير البريطاني الذي كان يلعب دور التابع، الذي وافق على تسليم المهمة للسفير الامريكي، ويبدو ان الملك اطمأن الى وعود السفيرين، بان يتم

ترتيب انقلاب من انقلابات القصر، لصالح عبد العزيز الشلحي رجل الجيش القوي، بمساعدة شقيقه عمر، المستشار السياسي للملك، باعتبار ان الانقلابات العسكرية ، كانت اداة للتغيير مقبولة من الشعوب ، وعن طريق هذا الانقلاب يتخلص الملك من التزاماته الدستورية تجاه وريثه في الحكم، وتجاه المؤسسات التي كانت صوريا هي اعمدة الحكم، وغيرها من اعتبارات دينية وعشائرية وعائلية، ويضع البلاد امام الامر الواقع، ويصدر نداء من رئاسة الانقلاب، الى الملك ادريس في منتجعه التركي ، ترجوه العودة للبلاد، باعتباره الاب الروحي ، وبطل الاستقلال ، ومؤسس ليبيا الحديثة، ليقضي في بلاده سنواته الاخيرة ، محاطا بالرعاية والعناية ، وتقديم المشورة لهذين الشقيقين، وكان يعتبرهما دائما بمثابة ولديه، ويبدو انهما اخذا مباركة الرئيس عبد الناصر، على هذا التحول ، فللعائلة روابط مع مصر ، وكان شقيقهما الاكبرالذي مات في حادث سير ، قريبا من عبد الناصر ، كثير التواصل معه. ولكن الادارة الامريكة ، ممثلة في سياسييها، وشركات النفط والسلاح فيها، ومندوب الادارة في ليبيا ديفيد نيوسم ، لم يكونوا يرون ان دورهم هو تنفيذ رغبات الملك الليبي العجوز ، وترتيب الامور لصالحه، اهلا وسهلا بمهمة الاشراف على التغيير ، ولكن حسب رغبتهم لا رغبته، ووفق مصالحهم لا مصلحته، ولم تكن هذه الرغبة وهذه المصلحة ، يخدمها استبدال ورقة ساقطة هي الملك ومعاونيه ، بورقة اخرى اكثر سقوطا هي عائلة صديقه الشلحي المكروهة شعبيا، وطبعا هم يعرفون الخلفيات التي املت هذا الاختيار على الملك، ولا بأس من اسطر قليلة لشرح العلاقة المعقدة بين الملك وعائلته، فقد كان السيد ادريس صغيرا في السن عندما مات والده السيد المهدي، رئيس الدعوة السنوسية، ولم يكن ممكنا ان يستلم الرئاسة رغم انه الوريث الشرعي، بسبب صغر سنه ، فتولاها ابن عمه المجاهد السيد احمد الشريف، وقاد الرجل الجهاد الذي كان قائما ضد الايطاليين، وارتبط بعلاقة وثيقة بدولة الخلافة العثمانية ، التي منحته لقب امير المنطقة، ودفعت به اثناء الحرب الاولى للدخول في مغامرة غير محسوبة العواقب لصالحها ، على الحدود المصرية، حيث يرابط الجيش البريطاني، وبسبب النتائج الكارثية لهذا الفعل العسكري، اضطر السيد الشريف، وتحت ضغوط محلية ودولية ان ينسحب، ويغادر البلاد الى اسطنبول، واستلم ادريس السنوسي رئاسة الدعوة وهادن الانجليز، كجزء من ضرورات المرحلة، قبل ان يدخل مفاوضاته المتكررة مع الايطاليين، ولم يكن هذا الخط يلقى بالضرورة رضا بقية اركان العائلة ، ولعل زواجه من ابنة احمد الشريف ، كان جزءا من سياسة رأب الصدع ، الا انه صدع ظل موجودا، ولعله ازداد استفحالا بعد وصول ليبيا الى الاستقلال واستلام السيد ادريس الحكم ، متربعا فوق عرش البلاد، وهو امر قد حرك الضعف الانساني في افراد العائلة الذين توقعوا ان يصبحوا امراء، هم واطفالهم كما في البيوت الملكية الحاكمة، لكن الملك الزاهد كان ينفر من هذه المظاهر، ولم يكن في البلاد امير غير امير واحد هو ولي عهده، شقيقه السيد الرضا، الذي خلفه في ولاية العهد ابنه الحسن، وكان فرع العائلة، من ابناء احمد الشريف، يريدون حصة، فهم ورثة رئيس الطريقة، فكان رد الملك عليهم، ان العرش امر اخر غير زعامة الطريقة السنوسية، ولهم حق في ارث الطريقة، ولكن لا علاقة لهم بالعرش، وكان اقرب رجل اليه في القصر هو ابراهيم الشلحي، الذي كان منذ طفولته خادما له، مجلوب من جبال الشلوح في المغرب، مقطوع الصلة من كل اهل ونسب، وتحول عبر عشرة السنين الكثيرة الى صديق ومستشار، ولان الملك لا ينجب، فكان يعتبر اولاد وبنات صديقه ومستشاره هم اولاده وبناته، وكان الشلحي الاب، رجلا حكيما ، عاقلا ، شديد الولاء للملك، فكان الملك يعتبره صفيه وموضع ثقته، وحامل اسراره، وساعده الايمن في اعباء الملك، ورأى رجال العائلة السنوسية ، ان الملك اقصاهم عن الملك، ومنع عنهم الجرايات والمخصصات ، بسبب

الشورى التي يقدمها له مستشاره الشلحي، واشعلت هذه المشاعر نقمتهم ، وعهدوا الى واحد من شبابهم ، هو محي الدين ، حفيد احمد الشريف، بقتله، بدم بارد ، ووقف دون ان يهرب ، يقول للامن انا القاتل، واعتبر الملك ، ان مستشاره دفع ثمن وفائه له، واخلاصه لعرشه، وان ابناء الشلحي وبناته هم امانة في عنقه ، فاستدعى اكبر الابناء من دراسته في لندن، لكي ياتي ويستلم مكان ابيه، وامر بان يطبق القصاص العادل ، في القاتل ، فتم اعدامه بعد محاكمة سريعة، وقطع علاقاته باغلب افراد العائلة ، عدا شقيقه وابنيه، واعتبران كل افراد العائلة السنوسية، يمثلون خطرا على حياته نفسها، بل امر بنفي بعض شباب العائلة الى قرى نائية، واعفي من كان في منصب من منصبه، وطرد من كان منهم منخرطا في الجيش، ويبدو انه راى وهو يتقدم في العمر ان ولي العهد ، اذا ورث عنه الحكم ، سيعيد العائلة التي ابعدها، الى البلاط الملكي، وقد تاخذهم العزة باثمهم فيحاولون الانتقام من عائلة الشلحي ، ومن هنا لم يكن مرتاحا لهذا الترتيب الذي يمليه الدستور، واراد ان يفعل شيئا في حياته، يضمن به بقاء تلك العائلة العاصية في المنفى ، وان يرث الحكم ابناء صفيه الشلحي ، ولا سبيل الى ذلك الا بهذا التدبير الانقلابي.

انها اعتبارات لا تعني شيئا لديفيد نيوسم، ولقومه من ورائه، فما يعنيه ويعني ادارته هي مصلحة امريكا، وقد رات هذه الادارة انها تتحقق عن طريق ضابط صغير ، مغامر،عميل، باعتراف مجلة نيوزويك في عدد شهير اصدرته عام 1982 ، يحمل صورة العقيد الليبي، وعنوان تحت الصورة ينعته بانه "اخطر رجل في العالم"، وذكرت ان مصادرها في وكالة الاستخبارات ، اكدت تجنيد الوكالة له اعواما قبل الانقلاب عن طريق مندوب لها في ليبيا يجيد العربية لانه من اصل لبناني، ولن اعيد هنا ما سقته في كتابي " القذافي ، البداية والنهاية" عن الاسباب والدوافع وراء اختياره، وكان كل ما ضمنه الراعيين الامريكي والبريطاني ، للملك الليبي العجوز ، هو الخروج الآمن له، ولزوجته ولابنة له بالتبني، بقيت في ليبيا، والتحقت به بعد ذلك، واقامة في مصر التي كانت وطن المنفي بالنسبة له لسنوات طويلة، ثم دفن في مقبرة البقاع في المدينة .

كنت موجودا في بيتي في طرابلس، اقضى اجازة الصيف في بلادي قادما من بريطانيا، عندما صحوت على اصوات تتعالي وتوقظني من نومي ، بعضها يرافقه طرق على الباب، ودوشة في الشارع، وصحوت لاسمع ان انقلابا عسكريا يطيح بالنظام الملكي في ليبيا، وفتحت الراديو لاجده يذيع المارشات العسكرية، بينما اهالي فشلوم حيث اسكن، كانوا يتناقلون الحديث عن التواجد العسكري في الشوارع، وعن منع الناس من التجول، وجلست في انتظار البيان الذي كان الراديو يعلن عن قرب صدوره، وربما اسرع المذيع وكشف بعضا مما حدث عندما استبق البيان بقوله "اذاعة الجمهورية العربية الليبية"، كما اذكرالان، المهم حانت ساعة القاء البيان الاول باسم الطلائع المسلحة التي قامت بالانقلاب، وكشفت عن انها تنظيم يسمي نفسه الضباط الوحدويون الاحرار، والقى البيان ، صوت شاب ، ينتمي الى البادية كما تخبر عنه لكنته، وطريقة نطقه للكلمات، وطبعا عرفنا فيما بعد انه ملازم اسمه معمر القذافي ، اقنع جمعا من صغار الضباط، وقاد بهم عملية السطو على السلطة، وهي معلومة لم نعرفها الا بعد ثلاثة ايام عندما سمعنا قرارا، تقول الاذاعة، انه صادر عن مجلس قيادة الثورة، يقضى بترقية الملازم الذي قاد الانقلاب الى رتبة عقيد، بسبب جهده في انجاح الثورة. واثر ذلك جرى تصحيح الانطباع الخاطيء الذي تولد عند الناس ، عندما اعلن الانقلابيون عن اسم سعد الدين

ابوشويرب ، باعتباره رئيسا للجيش ، ولم يكن ذلك الاعلان غير مناورة لكسب انصار داخل الجيش، بسبب ما يتمتع به هذاالضابط الذي استقال في وقت سابق عن الانقلاب ، من شعبية في الاوساط العسكرية، وتم بعد ذلك الاعلان عن تشكيل وزراة العهد الجديد، اختاروا لها عددا من المناهضين للنظام السابق، من المدنيين، واثنين عسكريين، من اصحاب الرتب الكبيرة ، شاركوا الانقلابيين في اللحظات الاخيرة، هما آدم الحواز للدفاع، وموسى احمد للداخلية، وكانت الفرحة عارمة ، والترحيب كبيرا ، وخرج الناس في ساعات رفع الحظر عن التجول بعشرات الالاف يملأون الشوارع ، يعبرون عن المناصرة والتاييد للتغيير، وكنت واحدا من هؤلاء الناس الذين خرجوا في الشوارع، وكتبوا في الصحف يرحبون بالتغيير، لانني كنت مناهضا للنظام الملكي ، ولعل قربي من شيوخ الحركة الوطنية مثل اهل الجهاد، وقربي من بعض اهل المعارضة البرلمانية مثل الاستاذ المصراتي ، واهل المعارضة الحزبية من امثال الاستاذ يوسف هامان ورفاقه، جعلني اقف على معانتهم، واشاركهم كرههم له ولسياسته، وان لم اكن مجندا معهم، ولكنني كنت اتعاطف معهم ومع اهل اليسار من كتاب ومثقفين ، وكنت طبعا كاتبا له حضوره في الساحة الصحفية والادبية، يرى ويسمع ويعاني مما يعانيه الشارع السياسي من قهر وكبث ، ولهذا كانت الفرحة بازاحة النظام، تغلب على كل تدبر وتفكير في طبيعة، وفكر القادمين الجدد، وحدث تحول في الخطاب الاعلامي بعد عام 1967، ربما جاء نتيجة ما ظهر من ارتباط عاطفي وسياسي بالاعلام المصري، فذهب في ظن صانعي القرار الليبي، ان البديل هو اعلام ليبي يقوم على المبالغة في اظهار الولاء للملك ، وجلب المطربين يغنون له غناء مثل ما يحدث في مصر للرئيس ، وجاء مطرب شهير مثل محرم فؤاد ليغني كلمات ركيكة جدا في تمجيد الملك ، تقول"الادريس باهي، يعيش الادريس يالهي" كما جاء الشعر الكلاسيكي الشهير عزيز باظة باشا، يحمل قصيدة تمجيد لمولانا الملك المعظم، باعتباره حفيدا من احفاد نبي الاسلام، وتم الاتصال بالموسيقار محمد عبد الوهاب لتلحينها والقيام بادائها ،كما فعل مع عبد الناصر ، ولا احد افضل من احد، وقام ملحق اعلامي شاطر باغراء رسام في تركيا، وجاء به يحمل لوحة رسمها للملك كانت بالتاكيد اكبر لوحة في العالم في ذلك الوقت، وتم عرضها على امتداد سور القلعة التركية المسماة السرايا الحمراء في قلب ميدان الشهداء، بل ظهرت اشاعة تقول ان هناك من قدم اقتراحا باعادة تسمية الدولة الليبية، بالمملكة الليبية السنوسية، اسوة بالمملكة السعودية، وقد بدا هذا النوع من الدعاية ممجوجا، رغم انه لم يكن الا تقليدا لما يحدث في مصر ، فيما اعتبرته الحكومة الليبية هجوما معاكسا ترد به على تاثير الاعلام المصري على الليبيين، الا ان النتيجة كانت عكسية تماما، وطبعا ليست الدعاية بهذا الشكل المبالغ فيه هي ما اجج النقمة على النظام، لان النقمة كانت اصلا موجودة ، نتيجة لبؤس السياسات ، وهذه الدعاية جاءت لتقدم صورة زائفة ، تبدو كانها محاولة فجة للتغطية على بؤس الواقع، مما جعلها تؤدي الى نتيجة عكسية. اقول انني استمعت الى البيان الاول ، ولم اجد شيئا اختلف معه في البيان، فقد بدا برغم ما شابه من اخطاء نحوية ، وسوء نطق للكلمات ، واضح المعاني والتوجهات، صادقا فيما قاله عن مثالب النظام المنهار، واضحا في توجهه العروبي ، ومما زاد في تعاطفي مع البيان، اللهجة البدوية لدى قاريء البيان، مما ينبيء بان هذا القاريء قادم من عمق الشعب وجذوره في الداخل ، ممن كانوا يتعرضون للكم الاكبر من المظالم وصنوف المعاناة، وارسلت فور سماع البيان رسالة تاييد ومناصرة للاذاعة ، اشيد فيها بما جاء في البيان ، واهنيء بانتصار الثورة في انهاء عهد الغش والتزوير وتزييف الحياة السياسة، نقلها احد العاملين في الاذاعة، ممن كان مسموحا لهم بتلبية نداء صادر من الاذاعة بالتواجد في مقر عملهم، رغم حظر التجول. وعرفت من زميل يعمل في

الاعلام هو السيد ابراهيم ابجاد، فور ذهابنا الى الوزراة، انه يعرف العسكري الذي القى البيان، ويعرف ايضا انه هو الذي قاد هذه العملية العسكرية، وتحدث عنه باعجاب وانبهار. وانتقلت الى الاذاعة ، حيث اتفقت على تقديم برنامج في التلفاز، يناصر حركة التغيير، ويسهم ف التوعية بدوافعه، ويفضح ممارسات العهد الملكي الزائل، واسميته كلمات الى الشعب، تناوبت على تقديمه مع اثنين من الزملاء الكتاب العاملين في الاذاعة في ذلك الوقت هما كامل عراب ويوسف الشريف.

كنت قريب الصلة بالاستاذ على مصطفي المصراتي ، وكان يملك سيارة لا يستطيع قيادتها، فاستعرتها منه اثناء الاجازة، لانني كنت التقي به يوميا قبل الانقلاب، لم يمنعنا منه الا ساعات منع التجول بعد الانقلاب، وكان هو ايضا باعتباره كاتبا معارضا ونائبا سابقا من نواب المعارضة، قد استقبل هذا التغيير بفرح وترحيب ، وكنا نشترك في النقمة على النظام الملكي، دون ان نعرف ادنى معلومات عن القادمين الجدد، الا ما اعلنوه في بيانهم وما اسموا انفسهم به من ضباط وحدويين، عدا ذلك فلا شيء عن مخططاتهم القادمة ، ولا ما ينتوون عمله بالنسبة للبناء الدستوري ومؤسسات الحكم ، وكان موعد عودتي لاستئناف الدراسة قد اقترب ، بعد ان تم تجديد البعثة الروتيني لسنة اخرى، لكنني ارجأت الذهاب قليلا بامل الاسهام في وضع اسس لحياة ثقافية ادبية جديدة، مغايرة لما كنا نراه واقعا فاسدا ، ولهذا بقيت في البلد اواصل الكتابة ، واذاعة البرنامج المرئي، ولم يحصل اي احتكاك او لقاء مع اركان النظام الجديد، عدا اجتماع او اثنين من ضباط تولوا مباشرة الاشراف على الاذاعة، يطالبون بان تكون البرامج كلها جديدة، حتى ما كان قابلا منها للاستمرار ، لابد ان ياخذ عنوانا جديدا، لاشعار المستمع والمشاهد بهذا التجديد، وكنت اتوقع ان يكون اهل الحراك السياسي المعارض في ليبيا ، شركاء في وضع التصورات ورسم السياسات لليبيا القادمة، واسال الاستاذ المصراتي، ان كان احد قد اتصل به او برفاقه من نواب المعارضة، ولكن احدا لم يتصل به اوبهم، واعلن عن تشكيل الوزارة برئاسة محمود المغربي، وقد دعا بعد ايام من تشكيله الوزارة عددا من الصحفيين كنت من بينهم، لشرح سياسة حكومته، وكان واضحا ان هناك توافقا كبيرا بينه وبين التوجهات العروبية القومية مع اصحاب الانقلاب، فقد كان منتميا للقوميين العرب بتلوينات يسارية ربما ماركسية ايضا، ولم اعد اذكر تفاصيل الحوار الذي دار بيننا وبينه، ولكنني اذكر ان صحفيا نقل اليه شكوى المساجين من اركان العهد الملكي ، من ظروف السجن ومرافقه التي تشكو من الاهمال، بما في ذلك دورات المياه، فاجابه بانها سجون هم الذين بنوها، وهم الذين تركوها بهذا الشكل ، وطبعا كان الامر يحمل مفارقة ماساوية لما تحدثه دورة الافلاك في حياة البشر، ولعله السيد المغربي، وهو يقول هذا الكلام لم يكن يعلم انه بعد ثلاثة اشهر سوف يسقط عن منصبه ، وبعد سنوات سيصبح مطاردا مطلوبا لا للسجن فقط بل للاعدام باعتباره معارضا، يخضع لنفس العقوبات التي نالت رفاقه ممن كان "الموت " كما جاء في ادبيات نظام القذافي هو"ادنى عقوبة يستحقها من يعارض الثورة". وظهر ايضا في تلك الفترة الولاء المبالغ فيه للرئيس المصري جمال عبد الناصر، واذكر جلسة في مقهى عبد الله ، دار فيها الحديث حول تصريحات نقلها الاعلام عن الرجل الثاني في النظام الرائد عبد السلام جلود، اثناء زيارة قام بها الى مصر، اظهر فيها قدرا مهولا من الاندهاش والانبهار والفرح، الى حد انه يقول انه لم يكن ليصدق نفسه انه يصافح الزعيم ، ويتحدث عنه

باكثر مما يتحدث مجدوب من مجاديب احد الاوليا بسيده، مستخدما لغة مسرفة في عاطفيتها وانفعالها، مما راى اعضاء الجلسة، انه لا يليق برجل دولة يمثل وطنا وشعبا، ان يضع نفسه في هذا الموضع المتدني جدا من رئيس دولة اخرى ، ومع ذلك فان هذا التعلق بعبد الناصر، لم يكن مكروها على مستوى الشارع ، فالناس كانوا في حالة افتتان بعبد الناصر، وكان هذا الالتصاق الذي اظهره الانقلابيون به، يكسبهم مزيدا من الشعبية، ويسهم في عملية التعمية والتضليل والتمويه التي استخدموها للتمكين والسيطرة، الا ان علامات كثيرة كانت تظهر ، وتشير الى ان شهر العسل بين النظام العسكري الجديد، وبين الشعب، يمضى حثيثا نحو نهايته، فقد اقيلت حكومة المغربي، بعد اشهر قليلة، وتم تقديم مجموعة من الضباط الذين شاركوا في الانقلاب وكانوا اكبر رتبة من زعيمه، الى المحاكمه ، بغرض تصفيتهم، واستفراده بعدد من صغار الضباط الذين يدينون له بالولاء، وقام بتشكيل محكمة عسكرية من بعض هؤلاء الضباط الصغار ، اصدرت احكاما ضدهم بالسجن، وكان يريد عقوبات اقسى سهى اعضاء المحكمة عن اصدارها ، فامر بتسيير مظاهرة شعبية ، فيما يشبه التمثيلية الكوميدية، يقول بسطاء العمال الذين جلبوهم من الميناء، وبعض الورش والمعامل، "الشعب يطالب بالعيدام"، لانهم لا يجيدون نطق كلمة الاعدام، وكان يحتاج لهذه المظاهرة المسخرة، ليستند عليها في اعادة المحاكمة، وهو حدث ضمن احداث كثيرة تعاقبت تسفر عن الوجه الاستبدادي للنظام ، احداها كان قرارا بتعليق يوم العطلة واعتباره يوم عمل، وارد احد القانونين ، رفع قضية يتبث فيها ان ليس من حق الحاكم اصدار مثل هذاالقرار، جعل هذا القانوني ، موضوع هجوم وسخرية في خطاب عام، ولعله استهدفه بالمطاردة والسجن فيما بعد، ثم اصدر قرارا من قراراته القراقوشية، بالغاء نشرات الاخبار من المذياع والتلفاز ، واقتصارها مرة واحدة على ساعة في الفجر لا يراها ولا يسمعها احد، واظنه في تلك الفترة ايضا اصدر قرارا بايقاف الاذاعتين المرئية والمسموعة عن البث ، مما اثار حالة من الرعب لدى اصحاب الانقلاب انفسهم خوف ان يكون في الامر انقلاب ضدهم ، فاعادهما بسرعة، وهكذا مجرد نزوات هوجاء يعبر فيها عن اغتباطه بانه الحاكم الفرد القادر على فعل اي شيء في البلاد ،وطبعا ماخفي كان اعظم من هذه الهبليات التي تصل الى الراي العام، اقول بالنسبة لي شخصيا، ان الحماس للتغيير ، تحول الى نقمة واشمئزاز واحتقار للحاكم الجديد، منذ الايام الاولى ، ولا ادري ماذا قاله الحاكم الجديد في اول خطاب يظهر فيه للعالم، يوم ذكرى استشهاد البطل عمر المختار في 16 سبتمبر اي بعد اسبوعين من تاريخ الانقلاب، ولكن مشهده وهو يخطب لم يزدني الا نفورا منه ومن اساليبه ومن طريقته في الحديث ومن الشلة التي تحيط به، وجعلني هذا الظهورانفر منه نفورا شاملا كاملا، لم اجد معه الا ان احزم حقائبي واغادر البلاد عائدا الى لندن حيث مقر دراستي.

وكانت صورة هذا الحاكم في الخارج، حيث الاعلام لا يخضع لنفوذه، ولا يخاف بطشه،ولا يستطيع شراءه، صورة تنضح رعونة ونزقا ، ويظهر فيها مسخا ومسخرة، ولكنه مسخ من صنع اهل هذا الغرب الذي يسخر منه، ولكنه كما يسخر المحتال ويضحك من الاهبل الذي يحمل مالا ، فيسطو على ماله ضاحكا قالا له "العبيط اهو" كما نرى في المشاهد المسرحية الساخرة، هكذا كانت صورة هذا المسخ المشوه تظهر ، واضحة جلية في مرايا الغرب الاعلامية.

رجعت بعد عام واحد، الى وطن استتب فيه الحكم للسيد الجديد، الا انه مازال مهتما بتمتين وتثبيت قواعده في الجيش، ومؤسسات الحكم الادارية والسياسية، وبناء اجهزته الامنية، وتحالفاته القبلية، التي لم تترك له وقتا لتضييق الخناق على المجالات الاخرى، التي لا تشكل تهديدا له، خاصة المجال الفني والادبي، حتى الصحافة الخاصة، التي اظهرت لنظامه الولاء، ظلت مستمرة في الصدور، قبل التأميم الذي جاء لاحقا، وكما اسلفت القول عن الفترات الانتقالية التي تنتعش فيها الحياة الثقافية فقد حصل حقا هذا النوع من الانتعاش ، الا انه كان قصير العمر، حقا، وانقل هنا فقرة من مقال عن الثورة ولابداع ، كتبته بتكليف من مجلة الهلال:

((اتاح انهيار النظام القديم، وسيولة الحالة الجديدة للنظام العسكري الذي لم يحكم قبضته بعد، ظهور فترة وجيزة من استرخاء الاجهزة الرقابية، خرجت فيها ابداعات في الرسم والموسيقى والمسرح والادب ، وظهرت فيها مشاريع ادبية وفنية مثل المهرجان الاول للمسرح ، ومهرجال معهد جمال الدين الميلادي للمسرح والموسيقى ، وفازت خلال تلك الفترة فرقة الفنون الشعبية الليبية بالجائزة الذهبية في احدى المهرجانات العالمية ، وظهرت فيها منابر صحفية ثقافية مثل الاسبوع الثقافي والثقافة العربية ، الا ان هذا المشهد المريح الى حد ما، لم تلبث ان اجتاحته رياح الطغيان العاتية التي باشرت هبوبها بدءا من شهر ابريل عام 1973 ، عندما اعلن رئيس النظام في خطاب القاه في مدينة زوار عن خطة للمرحلة الجديدة اسماها النقاط الخمس، والتي عطل بموجبها كل القوانين، و فتح السجون لعدد من المثقفين ، واحرق الكتب في الميادين العامة ، وانشأ اللجان الشعبية التي استولت على الادارة في المؤسسات والادارات الحكومية والشركات العامة ، تدشينا لعصر الغوغاء والفوضى وانهيار الاسس والقواعد التي تعمل بها الدولة المدنية، وتكريس حكم الفرد الواحد الاحد، وبدأ يعلن عما اسماه النظرية الجماهيرية في الحكم ، التي صاغها في كتاب ضم سيالاته الذهنية المريضة، اصدره بعد هذا التاريخ بثلاثة اعوام، اسماه الكتاب الاخضر، وضاقت في ليبيا مساحة التعبير والقول الحر الى حدها الادني، واغلقت الافاق اما الحريات الخاصة والعامة، ولم يعد ثمة مجال الا لصوت واحد ولون واحد وراي واحد وفكر واحد ، ورجل واحد يدير الكون في تلك المنطقة الجغرافية المسماة ليبيا ، طاغية مشكوك في قواه العقلية اسمه القذافي ، واحكم هذا الكائن الشائه، حلقات القهر والكبث على الشعب ، واستخدم ثروة النفط الهائلة في صنع الالجمة التي يكمم بها الافواه والاغلال التي يكبل بها الناس ، متمثله في اجهزة امنية سرية وعلنية ، تلاحق افرد الشعب في الليل والنهار))

اقول ان هذا البراح القصير ، وفي هذه الحالة من السيولة، بدات عملي ، وجدت مكانا شاغرا في المعهد الوطني للتمثيل والموسيقى، مديرا له، استلمته من مدير سابق ، رجل موسيقى، درس الموسيقى، ووصل في الدراسة الى اعلى مراحلها، حاصلا على الدكتوراه، من تركيا، وهناك من شهد له بالنبوغ الذي تجلى في بعض السيمفونيات التي قام بتأليفها، وهي قليلة جدا، ولا شيوع لها، نتيجة ان الاذاعة الليبية لم تكن تقبل على اذاعة هذا النوع من الموسقى الصامتة، وهناك انتقاد من بعض الاداريين في الوزراة لسلوكه، ربما لوجود بعض السلوك العصبي في شخصيته، جلب له الانتقاد وادى الى البحث عن بديل له، واحد هؤلاء المدراء الذين كانوا ينتقدون عصبيته

كان الممثل المعروف الاستاذ شعبان القبلاوى، وتصادف عودتي من البعثة فاصدروا قرارا من الوزير بتعييني مديرا للمعهد، وكان معهدا متوسطا يقبل مع بعض الطلاب المتفرغين، الصباحيين، طلابا ياتون في الفترة المسائية ، للدراسة الحرة، ويشكلون عصب المعهد، واكثرية الطلاب ، بيما يشترط في المتفرغين الحصول على الشهادة الاعدادية، بامل ان يتخرج الطالب بعد ثلاثة اعواما مدرسا للنشاط المدرسي، بعد ان يتحقق الاعتراف الرسمي للدبلوم ، لانه لم يكن قد حصل على الاعتراف الذي ياتي من وزارة التربية والتعليم ، فبقى كانه معهد للدورات الحرة، يتبع الثقافة، وكانت الدولة قد اوفدت له من مصر نخبة من الاساتذة بعضهم حقا اساتذه كبار، خاصة في مجال الموسيقى، واصحاب تاريخ في الفن ، مثل عالمة الاصوات ومغنية الاوبرا المصرية فيوليت مقار، والمؤرخ الموسيقى زين نصار، وعازف الكمان في فرقة ام كلثوم مصطفي هيكل، الذي اصبح مديرا لمعهد الموسيقى في مصر، وصاحب المؤلفات الموسيقية عبد الحميد مشعل، ومن فلسطين ، مؤلف موسيقى متميز هو يوسف خاشو، وطبعا اساتذة من اهل الخبرة في ليبيا مثل شيخ الموسيقيين العارف الجمل ، والمطرب نوري كمال لتعليم الموشحات، ومحمد المشاط، وكان قسم التمثيل ايضا ، يضم مجموعة من اساتذه هذا المجال في مقدمتهم نجم التمثيل في مصر زين العشماوي، وصاحب التآليف في علم الاصوات ماهر فهيم ، ومحمد شعيب ، وفي الفن الاذاعي كان هناك السيد امين بسيوني، وكان اهل الموسيقى اكثر عددا، طلابا ومدرسين، وكان نائبي في رئاسة القسم، الموسيقار الليبي الاستاذ على ماهر، وهو معهد تولى على ادارته في مراحله الاولى التاسيسية كل من الاستاذين محمد مرشان وكاظم نديم ، ولابد من القول انني استقبلت هذا التعيين بشيء من الرهبة والتوجس، فهو معهد تربوي ينتظر اعترافا رسميا ، ويؤدي مهمة اساسية تتصل بصيرورة مدنية حضارية ، لا ادري ان كنت خير من يتولى مسئوليتها، او على الاقل لم تكن تقع ضمن السياق المهني لحياتي ، فانا كاتب حر ، وصحفي بالوظيفة والمهنة، وصحيح كنت ادير فرقة مسرحية للهواة، واشارك في ادارة مطبوعة ادبية مثل مجلة الرواد، وكلها مسئوليات تعتمد على المبادرة الحرة، وتعطي صاحبها قسطا كبيرا من الحرية في ادارة الامور، وليست مركزا وظيفيا تربطه لوائح ويخضع لتعليمات وله حدود وقيود، ولكنني بعد انهماكي في التجربة، وجدت نفسي وسط البيئة التي احب ، محاطا بناس يتكلمون لغة الفن والابداع، ويمارسون الفن غناء وعزفا وتمثيلا واخراجا ورقصا ، بل كنت احضر مع الطلاب حصة التذوق الموسيقي ، التي نسمع فيها سيمفونيات بيتهوفن وموزار وهايدن، مع شرح وتوضيح من اهل التخصص، ولم اكتف بالادارة، ولكنني انغمست انغماسا قويا في ممارسة الفن ، لانني اقترحت ان نقيم مهرجانا للمسرح والموسيقى، ونعمل على توظيف واستثمار ما نملك من مهارات فنية، وموارد بشرية ومادية، لاشهار المعهد، وتقديمه تقديما جديدا للجمهور، الذي لم يكن يعرف شيئا عن انشطته ودوره في الحياة، وكان العمل الاكبر الذي اردته ان يكون قلب الرحى للمهرجان ، هو عمل مسرحي موسيقى ، اي اوبريت ، يستطيع ان يستوعب طلاب وطالبات المعهد في القسمين التمثيل والموسيقى ، والاستعانة بهيئة التدريس في القسمين ، لكي يكون جهدا ممثلا للمعهد بكل امكانياته ، ثم ياتي نشاط كل قسم في مجاله ، فاهل المسرح والتمثيل يقومون بتقديم عدد من المسرحيات، بينما يتولى قسم الموسيقى اعداد مجموعة من السهرات واللوحات الغنائية، والحفلات الفنية، وقررنا ان يمتد المهرجان لمدة اسبوعين، وان

نقدم كل ليلة عملا جديدا، مسرحية، اوحفلا فنيا، مع تخصيص ليلة للجاليات الاجنبية، اي انها حفلة تمثيل وموسيقى وغناء للناطقين باللغة الانجليزية، وتقدم كل هذه الحفلات على مسرح الكشاف .

وكانت مساهمتي في المهرجان هي عمليات الاشراف والانتاج، دون ان اتلقى مليما واحدا من الوزراة، يعني انتاج مهرجان بدون ميزانية، معتمدا على خبرتي في المسرح الاهلي والامكانيات الذاتية،وكتبت مسرحية في تلكم الاثناء ، مفصلة على امكانيات المعهد وما فيه من طلاب وطالبات ، هي المسرحية الغنائية هندا ومنصور، وعهدت الى نائب مدير المعهد الفنان على ماهر ، بتلحينها، وقمت شخصيا بعملية الاخراج ،وقمت ايضا بالاتصال بسيدة كندية كانت تعمل في ليبيا، وتملك خبرة مسرحية ، فعهدت اليها اخراج مسرحيتين قصيرتين باللغة الانجليزية من تاليفي، هما زائر المساء وصحيفة الصباح، وقدمت لوحة نثرية باللغة الانجليزي اداء وتاليفا بمصاحبة الموسيقار يوسف خاشو،لاشراك الجالية الاجنبية الناطقة باللغة الانجليزية في ليبيا في مشاهدة المهرجان، وقمت ايضا باخراج مسرحية من فصل واحد هي زائر المساء ، اي النسخة العربية من المسرحية ، وقامت بالبطولة السيدة سعاد حداد والمدرس بالمعهد الممثل محمد شعيب ، بل واكثر من ذلك بدات التحضير لتمارين مسرحية كنت معجبا بها واردت اخراجها من الثرات المسرحي اليوناني الحديث وهي جسر ارتا، ولكنني لم استطع، فقد كنت محملا باعباء لم تكن تجعلني انام غير اربع اوخمس ساعات كل يوم خلال فترة تحضير المهرجان، وبلا ميزانية رغم الحاحنا على الوزراة وكانت ذلك الوقت قد مسخت الى ادارة ، جاءوا لها بمدير من المنخرطين في الاتحاد الاشتراكي ، هو السيد جمعة الفزاني، الذي تحسنت علاقتي به في سنوات لاحقه، لكنه في ذلك الوقت كان شديد التحفظ والبرود في معاملتي، ووجدت منه رفضا للمساعدة ، وشيئا من الجفاء لم اجد له تفسيرا، الا في ضوء ما اعرفه عن مشاعر الغيرة المهنية التي يحملها كتاب محبطون لكاتب حقق نجاحا وحصل على اعتراف المجتمعات الادبية بكفاءته وجدارته محليا وعربيا،وهو ما صادفني كثيرا جدا في حياتي المهنية، ورايت منه مماحكاة كثيرة ، وفي ملفي الوظيفي اكثر من رسالة تنفع دليلا على هذه المماحكاة، واضرب مثلا واحدا لها، كانت هناك سيدة تركية تعمل مدرسة خاصة للموسيقى، ولمادة الكمان بالذات، وباعتبارها الة رئيسية في اي فرقة موسيقية، وتحتاج لعازفين كثر، فقد جرى تكليفها بمرتب صغير، وعلى سبيل العمل الاضافي بسد نقص مؤقت في مدرسي هذه المادة، وهو امر تفاهمت فيه مع مدير الادارة التي تشرف على المعهد، ولا علاقة بالمدير الذي يتولى اختصاصات الوزير، فاذا بهذا العمل يثير غضب الرجل ويعتبره تجاوزا من طرفي واعتداء على اختصاصه، وان الامر لا يتم بدون استشارة الخدمة المدنية والخزانة، فقلت له ان يتفضل بمكاتبة الخزانة والخدمة المدنية و المطافيء اذا اراد، واذا رفضوا فليعتبر الموضوع لاغيا والسيدة لا حقوق لها ، لانني منذ البداية كنت متفقا معها، على انه امر تحت الاجراء ، فاذا تعرقل الاجراء ، اعتبرت العمل تطوعا لا اكثر ولا اقل، وكان يمكن ان اترك ادارة المعهد من جراء مثل هذه المضايقات، لو لم اكن متورطا في مثل هذا المهرجان، ولكن الفرج جاء سريعا عندما تم تعيين واحد من رجالات الوطن الكبار ، هو الاستاذ صالح ابويصير وزيرا للاعلام، قادما الى هذه الوزارة من وزارة الوحدة والخارجية، وكان

الانسجام كاملا بيني وبينه، وكان مثالا للرجل المسئول القادر، والعارف باسلوب ادارة وزارة مثل الاعلام، الا اننا طبعا قدمنا المهرجان قبل هذا التغيير، وفي ظل مثل هذا المدير المناوىء لنشاطنا، وتحديا لكل الظروف والعقبات استطعنا تقديم المهرجان وعاشت معنا مدينة طرابلس اسبوعين كاملين والمسرح مكتمل العدد بل كان الناس يجلسون فوق الارض بين الصفوف، وساهم فيه كل فرد في المعهد استاذا وتلميذا، كما شارك فيه مبدعون من خارج المعهد مثل مدرب الرقص صالح العجيلي، ومثل الشاعر الغنائي احمد الحريري، الذي قدم لوحة استعراضية اسمها الارض، ووضع مجموعة من كلمات الاغاني احدها الاغنية التي تعتمد عليها مسرحية اغنية على الممر ، للمؤلف المصري علي سالم، وقام بتلحينها الفنان على ماهر الذي قام ايضا بالدور الرئيسي تمثيلا وغناء، كما اعتمدنا على عدد من الفنيين من المسرح لتحضير الديكور والاشراف على الصوت والاضاءة، وربما اعمال اخرى في ورش حكومية وسيارات نقل كنا نعتمد في علاقاتنا الشخصية كي نحصل على موافقات الادارات التي تشرف عليها، وكانت هناك مسرحية اسمها الموت يحكم المدينة ، اعترض الرقيب على اسمها، للمؤلف المعروف الدكتور عبد الغفار مكاوي، فقمنا بتغيير الاسم الى"كل شيء على مايرام"، اخرجها محمود ابو النصر، واخرى من الادب الياباني باسم "قناع السعادة" اخراج محمد ماهر فهيم، ومسرحية موليير المثري النبيل، اخرجها زين العشماوي، وكان مهرجانا ارسى سابقة تاريخية هي تقديم اول اوبريت في تاريخ المسرح الليبي، هي اوبريت "هندا ومنصور" ، وساذكر هنا مفارقتين حصلتا في بدء مباشرتنا للتمارين على تقديم كل هذه الاعمال، واثناء تقديمها، فقد اتفقت مع مدير المطبوعات والرقابة، ان اتولى بنفسي اختيار رقيب يجيز لي الاعمال التي ستقدم على المسرح، كمساعدة منه على سرعة الانجاز، بسبب كثرة الاعمال ومحدودية الوقت، فاخترت صديقا ورد ذكره كثيرا في هذه المذكرات ، ربطتني به صداقة وعشرة على مدى الجزء الذي مضى من العمر، واكبر دوره في حياتي وجهوده في اثراء الادب الليبي، هو الاستاذ بشير الهاشمي ، وكان صاحب وظيفة مركزية في ادارة الرقابة، وجاء الهاشمي يحضر معي تمارين القراءة لمسرحية هندا ومنصور، فاذا به يقف امام كل جملة في الحوار والغناء، ويرى فيها مشكلة رقابية، ويفسرها تفسيرا سياسيا، ويطالب بتغييرها، ومثال ذلك ورود حوار عن شيخ القبيلة، فاذا به يرى ان هذا الحوار يعني رئيس النظام، وعرفت ان صديقي مسكون برعب لا شفاء منه ، وبعد يومين لم نكمل في قراءة المسرحية اكثر من صفحتين ، مع الشطب والتعديل ، وفي اليوم الثالث ذهبت لمدير المطبوعات، استنجد به ان يسحب السيد بشير الهاشمي ، وان يعهد بالمهمة لاي رقيب اخر، لانني على ثقة بانه لن يكون بمثل هذا التعقيد والتزمت والرعب الذي اظهره صديقي القديم، وفعلا ارسل لي احد الرقباء بدلا من الهاشمي، اظنه ان اسمه هو محمود ابوسهمين، الذي مضى بيسر وسهولة يجيز كل الاعمال واكمل مهمته في وقت قياسي لا يزيد عن ثلاثة ايام، واخذ نصوص المسرحيات والاغاني المكتوبة واعادها وفوقها الاختام دون تاخير ولا تعقيد.

وحرصا على توثيق هذا المهرجان مرئيا، ذهبت الى صديق يعمل مدير انتاج في التليفزيون، اسمه محمد جحا، اطلب منه ان يكون شريكا في تحديد تاريخ المهرجان، ويوم البداية والنهاية، ليكون التاريخ متفقا مع وجود سيارة النقل والتصوير ، التي

اريدها لتصوير الاعمال على الفيديو، وبعد ذلك للتليفزيون حق اذاعة ما يريد، لان المهم هو ان نحفتظ بافلام مصورة لهذه الاعمال التي قد لا تتاح فرصة اعادة تقديمها على المسرح مرة اخرى ، فهذه كانت دائما تقاليد المسرح الليبي ، عرض الليلة الواحدة الذي لا تعقبه عروض اخرى ، لقلة الجمهور ، وقلة الامكانيات ، وبعد كل شيء فهي اعمال ينتجها معهد تابع للدولة ، وملكية هذه الاعمال ستئول لهذا المعهد، وللتليفزيون الليبي حرية التصرف في عرضها ، علما بانه ليس لنا في ليبيا تقاليد للتعامل مع قوانين حقوق الملكية الادبية ، فهذا حق مستباح من قبل اجهزة الدولة، وظل ملحن نشيد الله اكبر عائشا لاكثر من عشرين عاما خلال دولة الانقلاب، وهي تذيعه في اليوم الف مرة، وكان يحق له لو رفع قضية، وفق قانون حقوق الملكية، الحصول على اموال تزيد عن عشرة الاف جنيه يوميا ، اي انه كان سيتقاضي خلال سنوات عمره العشرين،دخلا من ليبيا ، لا يقل عن عشرين مليار دولار، ولكنه لم ينل من ليبيا مليما واحدا ، بل ولا وسام رمزي، كان احد الاخوة قد طالب به له، ومات عام 1990، فقيرا لم يكن يجد العلاج ، كما قال لي صديقه، الذي كتب قصة حياته محسن الخياط. المهم ان الرجل مدير الانتاج الهمام نظر الى جدوله وقرر معي التاريخ الذي يناسبه ويناسب جهازه الاعلامي، ووضع التاريخ في سجل التراخيص لتلك السيارة ذات الجلال والاحترام ، ورجعت مطمئنا الى ان جهود الشباب والشابات لن تذهب هباء، وكنت على اتصال مع مسرح الكشاف لتحديد الموعد، وفعلا تم التاكيد على الموعد الذي اتفقت عليه مع الاذاعة ، وفوجئت يوم الافتتاح ان لا وجود لسيارة ولا نقل ولا توثيق ، لماذا ياسيد جحا، واين ذهبت المواثيق والعهود التي بيننا، وطبعا كان الرد جاهزا، وكنت اعرف انه سيقوله، وهو انه جاء استدعاء للسيارة من جهة عليا فسافرت الى سرت او غيرها من مواقع السلطة، وضاع علينا توثيق او تسجيل اعمال المهرجان مرئيا ومسموعا، وطبعا لم تكن كاميرات تصوير الفيديو ذات المهنية العالية قد توفرت في السوق، وجاءت دعوة بعد نجاح المهرجان ، بان نذهب الى الاستوديو ونقوم بتسجيل تلك الاعمال ، ولكن الانهاك كان قد طال الجميع ، وكانوا جميعا يريدون اللحاق باجازاتهم الصيفية التي اضاع المهرجان جزءا منها، فبدت المسالة اشبه بمهمة مستحيلة، وطبعا ما ان تقادم الوقت قليلا حتى ضاعت الديكورات وربما ضاع الحوار من ذاكرة الممثلين والمغنين ، وتبدد المساعدون ممن جلبناهم من كل حذب وصوب للمساعدة في الديكور والاضاءة والصوت، وطبعا لم نقم بما يمكن ان يحفظ شيئا من اعمال ذلك المهرجان على مستوى التليفزيون.

وكنت خلال العام الذي انصرم ، اتابع مسألة الاعتراف الرسمي بالمعهد، وكان مجلس التخطيط الاعلى ، المخول بمنح هذا الاعتراف ،قد اعاد لي مسودة القانون طالبا تعديلها ، وتعاونت مع مستشار الاعلام القانوني ، على احداث التعديل المطلوب، وحضرت اكثر من جلسة للمجلس المذكور، احداها كانت برئاسة احد العسكرين مما كان يسمى مجلس قيادة الثورة، واظن ان اسمه كان بشير هوادي او الهوادي، ورايت عن قرب كيف يتصرف اعضاء هذا المجلس الذي يحكم ليبيا، واعتبرته بطبيعة الحال عينة من اسلوبهم في الحكم ، وكان واضحا ان ينطلق من عقدة الشعور بالنقص، فاعضاء المجلس هم اعلى الخبرات الليبية في التعليم وعلوم التربية والاجتماع، رؤساء جامعة ومراكز بحثية وادارات تخطيط في الدولة ، وكلهم من حملة الدكتوراه، وهو

الضابط الذي لم ينل تعليما اكثر من بضعة اعوام فوق الابتدائي لم يكن يتعلم فيها شيئا الا الهرولة والطابور وفك السبطانة، فماذ سيفعل وسط هذا المحفل العلمي ، كان لابد ان يظهر السلوك الذي رايته، فقد كان متعجرفا، يتكلم بمنتهى الجلافة وقلة الذوق، يرفع راسه وينظر من عليائه المفتعل الكاذب الى الناس ، يقول كلمات تتبدى فيها الحماقة والجهل ، لمجرد ان يقول ان له رايا، وفي جلسة ثانية كان رئيس الجلسة وزير مدني هو المهندس طه الشريف بن عامر، ربما لغياب الرئيس العسكري، وكان سهلا هنا اجراء المقارنة بين الاثنين، فقد كان الرجل مثالا للتواضع والادب وغزارة العلم ورحابة الصدر ، ولايقول الكلمة الا وهي تخرج من فمه مليئة بالاتزان والكلام الحكيم ، الموضوعي ، الذي تشعر انه وراءه علم ووراءه خبرة ، ولا يخاطب انسانا من الجالسين الا بمنتهى الاحترام والتوقير والتقدير والادب، وتاسفت بعد ذلك كثيرا لمقتل هذا الرجل في حادث تحطم طائرة عمودية في الصحرا الليبية ، ولا استبعد ان الميول الاجرامية للطاغية، كانت وراء ذلك الحادث ، لا استهدافا له بالذات ، ولكنه ضحى به في عملية ذات ابعاد دولية لان في نفس الطائرة مات نائب رئيس المانيا الشرقية .

وفعلا تم بعد تلك الجلسة التي ادارها المهندس طه الشريف بن عامر، التصديق على القانون الجديد، وكان قد اعطاني فرصتي للدفاع عن القانون، ولان الطعن كان قد جاء من حقيقة ان المعهد كان يعتمد على الدراسة المسائية، فضربت مثلا بجامعات في العالم ، مثل الجامعة الحرة في بريطانيا ، التي يتخرج منها الاف الطلاب كل عام ، وتقدم شهادات الماجستير والدكتوراه لاناس التحقوا بها من منازلهم ودون تاهيل سابق، صارت واحدة من اهم الانجازات التربوية التعليمية في العالم، وعشرات المعاهد التي يؤمها اناس لم ينالوا تعليما وصاروا بفضل هذه المعاهد المسائية التي تنتشر في عواصم العالم المتقدم اصحاب تاهيل وجدارة ، بما نالوه من شهادات ،فلماذا ننكر على اهلنا وابناء مجتمعنا، وهم احوج الى مثل هذه المعاهد تاهيلا ياتي عن طريق هذه الدراسة المسائية الحرة. وازرني ودافع معي دفاعا مستميتا صديقا كنت قد طلبت عونه، وكان في ذلك الوقت عميدا لمعهد جديد للدراسات النفطية، هو الدكتور امين شقليلة.

وصار من حق كل من درس في هذا المعهد وشارك في امتحانات الدبلوم، ان يلتحق بالجامعة، لانه كان يوازي الثانوية العام، خاصة كلية الفنون التي تم انشاؤها فيما بعد ، او يلتحق بالوظيفة باحدى المدارس مسئولا عن النشاط المدرسي، او عضوا في واحد من مسارح الدولة .

حدث وانا اتولى ادارة المعهد، ان استدعاني وزير الاعلام الارشاد القومي، السيد صالح ابويصير، لاجده يقول لي انه استقبل وفدا من محرري صحيفة الثورة، لانهم قاموا باعتصام يعبرون فيه عن احتجاجهم ، من وجود مدير مطبوعات يقوم برئاسة تحرير الصحيفة، صاحب خلفية عسكرية، لا يرتاحون للتعامل معه ، ويريدون رئيس تحرير من اهل المهنة، وعندما تشاور مع وفدهم حول عدد من الاسماء المقترحة للقيام بمهمة رئيس التحرير المهني الذي يرضي كل الاطراف، تم الاتفاق على اسمي، وهو فضا لهذاالخلاف بين شباب الصحيفة ورئيسهم، اعطى الرئيس اجازة متراكمه مدتها ثلاثة اشهر، ويريدني ان اتولى رئاسة تحرير صحيفة الثورة ، تكليف منه ، وسيرفع قرارا بتعينني رئيسا للتحرير لتوقيعه من رئيس مجلس قيادة الثورة،

باعتباره صاحب المنصب المخول بمثل هذا التعيين. كان الامر مفاجأة لي، وكنت مرتاحا تمام الارتياح لعملي في المعهد ، واخطط لتطويره، بل وكان له مبنى ممتاز توقف المقاول الاجنبي منذ اليوم الاول للانقلاب على اتمامه، مع انه في المراحل الاخيرة للانجاز ، وكنت بدأت في تحريك الموضوع من اجل ان تقوم احدى منشآت الدولة باكماله، علاوة على صدور القانون الذي يتيح ان نعيد هيكليته بشكل اكثر تنظيما ومهنية، حفزني نجاح المهرجان لان نؤسس له قاعدة تجعله مهرجانا سنويا يحظى بالدعم والميزانيات، ورغم اهمية المنصب الذي يعرضه الوزير، فلم اجد في نفسي حاجة، ولا رغبة، للدخول في تجربة سياسة ، اعلامية، قريبة من المناطق الساخنة في الحكم ، مثل رئيس تحرير صحيفة الدولة الاساسية ، والرسمية ، والوحيدة في ذلك الوقت، الناطقة باسمها واسم مجلسها العسكري الاعلى. انها مهمة ينطبق عليها التعبير الانجليزي حبة البطاطس الساخنة، التي تحرق اصابعك ، وتريد ان تأكلها فتحرق فمك، وكان الرد العفوي الذي جاء على ذهني هو الاعتذار، ولكن الرجل راى مشكلة امامه، يريد ان ينهيها قبل استفحالها، بل عبر لي عن مخاوفه التي لايريد ان يفصح عنها لاحد غيري، وهي انه انهى الاعتصام بسرعة، قبل ان تصل اخباره الى المجلس العسكري، فتكون ردة الفعل غضبا ونقمة، واذى يلحق بهؤلاء الشباب وربما يلحق بالمؤسسة الصحفية والاعلامية، وان قبولي للمهمة سوف يساعد على الخروج من المازق دون مضاعفات اليمة، وبعد اخذ ورد وصلنا الى الاتفاق التالي، وهو انني ساحتفظ بعملي كمدير للمعهد، واواصل القيام به، لانه هو الاساس، وساقوم بسد خانة رئيس التحرير ، وسامارس المهمة بجدية واخلاص، وساحاول العمل على تطوير الصحيفة ورفع درجة الاداء فيها بما يلبي طموح المحررين ، بامل ان اجد براحا وفهما وحرية حركة تساعد على خلق المناخ المطلوب للتجديد والتطوير، ولامانع في ان يمضى في استصدار قرار التعيين من المجلس العسكري، فاذا كان ما قمت به مرضيا، وحاز القبول ، وكان موضع اتفاق من اهل القيادة، ومن محرري الصحيفة، ومن القراء ، ومن وزارة الاعلام ، وتم صدور قرار التعيين من رئيس المجلس ، فانني عندئد ساترك وظيفة المعهد واتفرغ تفرغا كاملا للصحيفة، وخرجت من مكتبه ، لارتب امور العمل في المعهد، وتقسيم وقتي بينه وبين الصحيفة، التي باشرت العمل بها في اليوم التالي، ووجدت ان خبرا قد سبقني الى محرري الصحيفة، الذين كانوا بانتظاري ،يعبرون عن ترحيبهم بوجودي بينهم ، ويتعهدون ببذل ما في جهدهم لانجاح الصحيفة، وكان المسئول الثاني في التحرير الصديق الكاتب الصحفي الاستاذ خيرى الاسود، فاتفقت معه على ان يواصل عمله كنائب لرئيس التحرير ، واعتبرت ان وجودي وجودا مؤقتا، فلم افعل شيئا يمس روتين العمل والعاملين، فكل من كان يقوم بعمل استمر به كما كان ، بما في ذلك عدد من الصحفيين العرب ، كانوا يتولون الجوانب السياسية والاخبارية في الصحيفة بينهم الكاتب والشاعر الاردني خالد محادين ، والصحفي اليمني سالم عميران، والصحفي المصري عباس الشهاوي، الا ان وجود هذا الفريق من اهل الجدارة المهنية ، لم يكن اطلاقا قادرا ان ينقذ الصحيفة من المستوى المتدني الذي سارت فيه، ربما لبؤس السياسة والقيادة ، وجعلت همي الاول هو بث روح من الحيوية والدينامية في الصحيفة، بدءا بصفحة ثقافية كانت تظهر بشكل شبه يومي، استنفرت اصدقائي الكتاب لاثرائها بكتاباتهم، ثم انصرفت لاظهر شخصية جديدة للصحيفة في صفحتها الاخيرة، اذ الغيت الشكل القديم ورسمت شكلا جديدا للصفحة التي يبدأ اغلب الناس قراءتهم للصحيفة بها،

خاصة صحيفة لن يروا في صفحتها الاولى الا كلاما مكررا سمعوه في نشرات الراديو والتلفاز، عن السادة الجدد، وجعلت هذه الصفحة تحمل خمسة ابواب، اولها باب الاخبار الخفيفة ذات الطبيعة المتنوعة بين اخبار ادبية وفنية وذات طابع جذاب ومثير، وباب اليوميات ، وباب الكاريكاتير، وزاوية ساخرة، اما الاخبار فحرصا على هذه الاثارة والجاذبية سالت محرر الباب الزميل محمد مبروك يونس، ان يجلب لنا اخبار الحوادث التي تسجلها مراكز الشرطة، فنجح في ان يجلب للصحيفة نشرة تحمل كل ما شهدته مراكز شرطة ليبيا في اليوم السابق من حوادث ، وهي نسخة ملخصة عن تقرير يومي يرفع لوزير الداخلية باتفاق مع مكتبه، فنعيد صياغتها وقد نجد بينها خبرا يستحق المتابعة ليصبح تحقيقا يدخل في صفحة التحقيقات الصحفية، اما اليوميات فقد كانت مقالا من فقرات متعددة يكتبها كاتب من اصحاب الاسماء الكبيرة في البلاد، وسالت كل كاتب له اسم في ليبيا ان يشارك في كتابة اليوميات ، وحرصت على التنوع في الاسماء ، فاغلب الذين اعرفهم من اهل الاتجاه اليساري ، وكان لابد ان اعمل تعادلا مع كتاب من اهل المجال الديني، فسعيت للحصول على مقالات من الشيخ الكبير الجليل الاستاذ الطاهر الزاوي وكان مفتيا للديار ، والشيخ الجليل محمود صبحي وكان قد بدأ في انشاء جمعية الدعوة، علاوة على كبار الكتاب المعروفين مثل الاستاذ على مصطفي المصراتي ، وكامل المقهور، وامين مازن ومحمد احمد الزوي ،ونجم الدين الكيب، ويوسف الشريف، مع زميلي في الصحيفة خيري الاسود، كما ساهمت شخصيا في كتابة اليوميات وكانت الباب الوحيد الذي يظهر عليه اسمي لان بابين اخرين احدهما اكتبه يوميا ، والثاني شبه يومي بدون اسم ، فاما اليومي فهو زاوية ساخرة تظهر يوميا في الصفحة الاخيرة عنوانها "رمية حجر" واخترت لها هذا الاسم للتاكيد على طبيعة الزاوية المشاغبة، فمحررها واسميته سعدان ،طفل شقي يرمي حجرا على كل مشهد او انسان لا يعجبه ، اما شبه اليومي فهو الافتتاحية ، ولم اقترب من الصفحة اليومية لحساسيتها فلم اشأ ان اغير من الصيغة التي لابد ان اهل القيادة قد تعودوا عليها فلم اشأ استفزازهم بتغيير محتواها ، وتركتها لاهل المهنة الخبراء العرب، يحررون عناوينها واخبارها ، وادخلت تجديدا في صحيفة التحقيقات ، واستعنت باهل المهارة من خارج الصحيفة، مثل الصديق الصحفي محمد الزنتاني، الذي كان يملك مادة وصورا لاماكن مثيرة في ليبيا مثل بحيرة الدوادة، وصار التطوير الذي حدث في الصحيفة حديث الناس، وكثيرون ظنوا ان وراءها مخططا من اهل الثورة لاظهار روح ووجه اكثر قبولا لثورتهم ، وذكر لي اصدقاء يدرسون بالخارج بينهم ، الزميل ابراهيم الكوني ، وكان في موسكو ، وزميليه محمد التاجوري ، والصادق مرغم، انهم رؤوا في هذا الشكل الذي ظهرت به صحيفة الثورة ، ما يوحي بان تغييرا في السياسات قد حصل، واستبشروا خيرا ، ظنا منهم ان التيار الليبرالي في مجلس قيادة الثورة قد حقق انتصارا على الخط المتزمت المحافظ اليميني، ولم يكن في علمهم انها مجرد افكار طائشة في راس كاتب عينوه مسئولا على الصحيفة، ففعل ما ظنه صوابا، دون ان يكون ضروريا ان يعتبره اهل الحكم في البلاد صوابا حقا، وقد نسب الزميل امين مازن هذه الروح التي ظهرت في صحيفة الثورة ، في مذكراته مسارب التي نشرت اخيرا، انها جاءت بناء على توجيه من الوزير السيد صالح بويصير، ونعم لما لقيته من تفهم وسعة افق ودعم وتشجيع من الوزير الاستاذ صالح ابويصير، ولا اعترض على من يعيد الفضل له، فهو المسئول الاول في الاعلام، الا انني اقول ما يعرفه كل من كان حاضرا وشاهدا من المحررين ،

واغلبهم موجود على قيد الحياة وانا اكتب هذه الصفحات، انه اطلاقا لم يقترح او يتدخل اويوصي باحداث باب واحد مما استحدثه من ابواب او يوصي بكاتب واحد ممن استنفرتهم من كتاب وبينهم السيد مازن نفسه، وكان سعيدا بما يتلقاه من ردود فعل الناس من ثناء على الصحيفة، وفخور بالقفزة التي حققتها الصحيفة في التوزيع خلال تلك الفترة، بل وحدث ان زاره صديق من اصدقائه كاتب وصحفي معروف في مصر اسمه جلال كشك، وبقى في ضيافة وزارة الاعلام بضعة اسابيع ، وقابلته في مكتبه وعبر هو ايضا عن اعجابه بمستوى الصحيفة، ولكن عندما استشارني الوزير ان كنت اريد الانتفاع بخبرة السيد كشك، سالته بانه رجل عابر سبيل ، لا حاجة لان نشغله بامور صحيفة نحن قادرون على حل مشاكلها ، وكنت في الحقيقة ، شديد الحذر من الرجل ومن تحولاته الغريبة، فقد كان يساريا وتحول لمناصرة اليمين، فليس في تاريخه ما يجعلني اطمئن الى مشورته وانتهى الامر عند هذا الحد. هذا فيما يخص الوزير ، اما ما كان ياتي من اهل القيادة فهو شيء اخر ، لانهم لا ينتظرون ان تاتي تعليماتهم عن طريق الوزير، ولا يقيمون اعتبارا لهذه التراتبية، فهم يمارسون اشرافا يوميا على الصحيفة، او على الجانب السياسي منها، وكان ان فوجئت عندما استلمت مسئوليتها بوجود تعليمات من قلم رئيس مجلس القيادة، يان تعرض عليهم الصفحة الاولى من الصحيفة كل يوم ، او خريطة لها ، بما ستحتويه من عناوين وما ينزل بها من اخبار وما يكون موضوع الافتتاحية المنشورة في تلك الصفحة، فكنا نرسل احد العاملين واسمه عبد القادر جمعة، بهذه الصفحة كل ليلة الى باب العزيزية، ليعود بها وهي تحمل احدي الملاحظات احيانا او كما هي في اغلب الاحيان، فيتم التعديل وفق ما تقوله تلك الملاحظة، اما الافتتاحية فكنا نكتفي بان نضع العنوان والموضوع ، لانها اخر ما نقوم بكتابته، فجاء طلب بان نكتب ايضا اسم كاتب هذه الافتتاحية، وكانت قبل استلامي المسئولية متروكة للاخوة العرب، وكانت لي ملاحظات على اسلوب تناولهم للشان الليبي في هذه الافتتاحيات، ومن ثم قررت ومنذ استلامي لمسئوليتها ان اباشر كتابتها بنفسي ، ويتناوب معي نائب رئيس التحرير الاستاذ خيري الاسود، فكنا نكتب لهم اسم الكاتب ، الذي لا يظهر عادة للقراء ، وكان الوزير غالبا ما ياتي ليتفقد احولنا خاصة في المساء، حاملا هو الاخر بعض اراء اهل القيادة التي اباحوا بها له،وكان اكثر الابواب استقطابا لنقدهم هو باب رمية حجر، وهو باب ساخر يتناقض مع كراهيتهم للنقد والسخرية، وقد عرفنا مبكرا انهم لا يملكون ذرة حس من الدعابة، وجاء مرة يقول ان اعضاء القيادة احصوا اكثر من مائة وخمسين كلمة ليبيا وليبي وليبية، في مجمل انهر الصحيفة، وهو ما رأوا فيه روحا اقليمية جهوية ، ما تزال مترسبة في نفوس محرري الصحيفة، وكان ردي عليه ، هو هل حقا ، ان لديهم مثل هذا الفراغ القاتل، لدرجة القيام بمثل هذه الاحصائية التي لا يقدر على القيام بها الا فريق متفرغ للمسالة، خاليا من اي شغل او مشغلة، لا من في اعناقهم مسئولية مجتمع ومصيره ومقدراته واموراناسه اليومية، وشئونهم الراهنة والمستقبلية، الا ان هذه الاحصائية لم تكن هي حقا ما اغاظهم ، وانما هي ذريعة، لاظهار ضيقهم من اشياء لا يستطيعون التصريح بها، فهؤلاء الكتاب الذين استقطبتهم الصحيفة لكتابة اليوميات ، اناس من اصحاب الرأي، ولهم وزن وقيمة ، ولا يستطيعون مواجهة القاريء بكتابة مجانية هدفها التملق وممالأة النظام ، وانما كتبوا بهدف الاضافة واثراء المسيرة والتنبيه للاخطاء، وهو ما كان العقل العسكري لا يستطيع قبوله، ولا الطبيعة السايكوباتية لقائد المجموعة ، واتخذت ردود فعلهم مثل

هذا النقد الذي يحمله لنا الوزير، وفي مرة اخرى جاء رد الفعل في مقال مكتوب لا يحمل توقيعا، ولكنه يدافع عن اعضاء مجلس القيادة، ضد ما رأوه يعنيهم في اليوميات، واستقطبت زاوية رمية حجر، قدرا كبيرا من الغضب، لانها لا تكتفي بالانتقاد، وانما بالهزء والسخرية من بعض القرارات ، مثل قرار احمق تعسفي ، اصدره رئيس المجموعة، وتم تنفيذه بشكل حقير وفج ومهين للجهاز الحكومي، تسبب في خسائر ملايين الدينارات، هو قرار ازالة الصالونات من المكاتب الحكومية، وارسل المعتوه، فرق الجيش الليبي بسيارتهم العسكرية للقيام باخلاء المكاتب من هذه الصالونات ، ورايتهم شخصيا يقومون بهجمتهم التترية البربرية الهمجية على مكاتب الدولة، يرمون الاثاث الفاخر، من الطوابق العليا لينزل فوق الارض حطاما، ثم يرمونه في الشاحنة العسكرية ويذهبون به ، وكان صعبا ان ارى مظهرا كهذا، دون ان اجعله موضوعا لتلك الزاوية ، رغم معرفتي بانه قرار صادر من اعلى راس في السلطة، لانني اردت، ان اعرف ، بسبب فجاجته وحماقته، كيف صدر هذا القرار، وسالت السيد وزير الاعلام، الذي كان عضوا في وزارة يراسها العقيد نفسه، فقال انه فعلا كان حاضرا لاجتماع، اشار فيه رئيس الجلسة الى هذا القرار بطريقة سريعة وعرضية ودون ان يطلب فيه رايا من الحاضرين ، الا ان السيد ابويصير لم يستطع الصمت، لما راه من بذاءة وحقارة القرار، طالبا منه ان ياخذ فيه اراء الحاضرين ، وعندما لم يرد ، ساله الاستاذ ابويصير كما اخبرني قائلا " هل هو بمثابة القرآن الذي لا يناقش" فلم يسمع منه ردا ، سوى نظرة غاضبة ، انصرف بعدها الى موضوع اخر، هكذا كان ذلك الملازم الذي صار عقيدا بدرجة رئيس دولة يدير جلساته ، وهكذا كان يتخذ قراراته، وهكذا كان على العاملين معه ، ان يتحملوا الغصص، او ينسحبوا من المنصب ، كما حدث مع السيد ابويصير ، ومن بعده منصور الكيخيا، وقبلهما على عميش ،وغيرهم من شرفاء الليبيين. وقررت بعد معرفتي بكيفية صدور القرار، اكتب ما اراه صوابا وليحدث ما يحدث، ولم اسمع شيئا ياتي من قلم القيادة بالخصوص ، ولكنني على علم بانني صرت مصدر ازعاج لهم في هذا المنصب ، الذي جئته دون ارادتهم ولا اختيار منهم، لانني رايت مضايقات ، وتحرشات ، لم يكن لها ضرورة، ومثال ذلك ان نشرت الصحيفة ، رسما ساخرا، للفنان محمد عبية، لمريض يطلب من الممرض خدمة ما، فيرفض الممرض حتى يعطيه المريض اصبع شيكولاته، ووجدت مكتب الرقيب الادراي يتصل طالبا ان ارسل اليه الرسام للتحقيق في الواقعة، فقلت لمندوب الرقيب ، انني رئيس التحرير الذي يتحمل المسئولية ، وليست هناك واقعة يجب التحقيق فيها ، فهي مجرد نكتة عما يمكن ان يحصل في اي مستشفى ، ورجوته ان يتسع صدر الرقيب العام لمثل هذه الرسوم التي تتناول بالنقد سلوكيات ومواقف نعرف انها تحدث كل يوم، وعندما الح قلت له، انني اتبع وزير الاعلام، وهو الذي يملك صلاحية محاسبتنا، وليتفضل بالاتصال به لانه لا يريد لاي جهة ان تخاطبنا الا عن طريقه.

بعد انتهاء المكالمة ، تلقيت مكالمة من الاستاذ صالح ابويصير ، يقول لي ان الرجل الذي كان يخاطبني هو القاضي محمد الطاهر الزاوي، الذي يعمل في جهاز الرقابة ، وانه كان غاضبا من رفضي لارسال الرسام للتحقيق معه ، وهو الان يريدك انت للتحقيق، ويهدد باستخدام صلاحيته في القبض القضائي ، بمعنى انني يجب ان اذهب اليه ، والا ارسل الشرطة للقبض علي . وفعلا ذهبت ، وقد تطوع احد الزملاء بالذهاب معي ، فقد يتطور

الامر الى سجن ، او حجز ، او ما شابه ، ووجدت السيد القاضي غاضبا، مستاء، كيف لا احترم سلطة الرقيب ، ورغم ان الرجل عاش ودرس وتربي في مصر ، حيث للصحافة احترامها وقوتها، فقد تعامل معي بمنطق الموظف الاداري ، الذي خالف القواعد المعمول بها في الجهاز الحكومي.

المهم انني فهمت من اللقاء، ان الرجل لا ياتي بمبادرة من نفسه ، وانما خاضع لسيطرة رؤسائه، وكان المجلس العسكري قد اختار واحدا من اعضائه، ليكون مديرا له، واداة ضباط الانقلاب، لاضطهاد وملاحقة من يريدون ملاحقته، وكنت اعرف طبيعة العمل في صحيفة حكومية، واعرف المدى الذي يخصني ، والمدى الذي يخص الحكومة والسياسة وما يخصها، ولا اخلط بين الاثنين كما فعل رئيس تحرير قبلي ، وكان ثائرا نقيا وحقيقيا وانسانا شريفا هو الاستاذ محمد عبد الرازق مناع، الذي كان اول رئيس تحرير لهذه الصحيفة، وكان يرى ان الصحيفة منبر ثوري ، يجب ان يقول فيه ما يراه الصواب ، بما في ذلك ما يخالف سياسة الحكومة، وبسرعة وجد نفسه يتناقض مع الموقف الرسمي للدولة وسياستها الخارجية العربية ، بل اوقعها في احراج كبير ، فقد كا الرجل محبا لجمال عبد الناصر، محبا للوحدة العربية، وحدث ان جاء لزيارة ليبيا ، اثناء توليه رئاسة التحرير ، وفد من حكومة البعث في العراق، فكتب افتتاحية ، تحمل ادانة لهذا الحزب، الذي يضع الوحدة شعارا له، ثم يعمل ضدها كما حدث عندما افسد مشروع اعادة دولة الوحدة بين سوريا ومصر، وطبعا كان مأزقا ديبلوماسيا لحكومة الانقلاب ، ان تستقبل صحيفة الثورة، الناطقة باسمها وفدا رسميا جاء يعبر عن مشاعر التاييد والمناصرة لها، بكل هذا التنديد والهجوم. ولهذا فقد جعلت صفحات الرأي وحدها تحمل اراء متنوعة ، وقد تكون مفارقة لما تتبعه الدولة من سياسات ، اما اخبار الصفحة الاولى فهي مكرسة تكريسا كاملا لاخبار الدولة والاحتفاء باعملها وانشطة رئيسها والاعضاء والوزراء ، كما توخيت ان تكون الافتتاحية، ودائما، تعبيرا عن التوجه الرسمي للدولة ، تتابع الاخبار والتصريحات الرسمية ، وتنسج الافتتاحية على منوالها، لكي تكون منسجمة كل الانسجام مع مواقف الدولة وسياستها، لاننا نعرف ان سفارات الدول في طرابلس تقرا الافتتاحية وتترجمها الى لغاتها وتنقلها الى حكوماتها، باعتبارها مرآة لفكر الدولة وتوجهاتها الرسمية، عملا بالقاعدة التي تقول ما لقيصر لقيصر وما لله لله، فهذه حصة قيصر ليبيا ياخذها كما يشاء ، وتبقى حصة اخرى تتصل برسالة الصحافة ومسئوليتها في توعية وتنوير الرأي العام ، وفي ممارسة النقد الذي يسهم في توضيح الصورة للمواطن وايضا للمسئول بان تنقل له نبض الشارع ، وراي الناس، وتنشيء حوارا عاما بين اطراف المجتمع وعناصره وفئاته وشرائحه، يصب في مصلحة الوطن العليا.

وظلت الصحفة الاولى ، او خريطة لها، تذهب كل ليلة الى باب العزيزية، ولا نستطيع التصرف فيها حتى تاتي بمصادقة تلك الجهة عليها، وذات ليلة وكنت في المكتب جالسا بانتظاره، يحمل شخبطات فوق الصفحة التي ارسلناها، وكتابة بخط عريض ، تغطي كل الصفحة، ضربات غاضبة بالقلم ، يحملها الرجل المرسول باصابع مرتعشة قائلا انهم ادخلوها لمكتب الاخ العقيد وخرجت له بهذا الشكل ، فسالته ان يهدأ، وان يجلس ، واحضر له احد الزملاء كوب ماء يهدي به روعه، ورغم ما بدت عليه الخطوط والكلمات من خطوط ، فقد استطعنا بعد جهد، فك شفرتها ، وقراءة الكلمات القليلة التي تحتويها، وكانت كالاتي:

" افكار تقليدية

هذه ليست جريدة الثورة

هذه جريدة طرابلس الغرب "

وطبعا كان واضحا من هذه الكلمات ، ان السيد العقيد لا يرضيه ما نفعله في الجريدة، وانه غاضب من الاداء الصحفي الذي نقدمه، وكان العدد جاهزا للذهاب الى المطبعة، فرأينا ان تمضي الامور كما هي ، وفي اليوم التالي انتظرت مجيء الوزير، وجلست معه صحبة عدد من الزملاء، لابد ان بينهم نائب رئيس التحرير السيد خيري الاسود، ووضعنا الصفحة التي ذهبت الى باب العزيزية امامنا، نطلب منه ان يقرأ تعليق الاخ العقيد، وعندما صار يتهجاه بسبب صعوبة الكتابة، قمنا بمعاونته في القراءة قائلين، هانحن نكتشف الان ان كل ما نفعله ليس الا اعادة انتاج لصحيفة العهد الملكي، وان كل ما نقدمه من افكار لا يعدو عن افكار تقليدية، واللهم لا اعتراض على هذا الرأي، فقد اجتهدنا واخفقنا في اجتهادنا حسب هذاالكلام ، ونحن لا نطلب من الاخ العقيد غير شيء واحد، هو ان يتفضل سيادته فيرينا ما هي الطريقة التي في ذهنه او تصوره لصحافة الثورة، التي تكون شيئا مختلفا عن صحافة العهد الملكي ، وما هي الافكار التي يراها غير تقليدية، لنجعلها دستورا لهذه الصحيفة نسير على هديه. وطبعا كنا نعرف مدى تقدير واكبار الاستاذ صالح لما نقوم به من عمل ، وقال صادقا ان الاخ العقيد فيما يبدو له راي يختلف عن اراء جملة القراء، فهناك اصداء ممتازة للصحيفة، واضاف انه لا يعتمد فقط على راي القاريء العادي، ولكنه راي سمعه من اهل احرفة انفسهم، اي من صحفيين عرب يزورون البلاد ويحملون التقدير لمستوى صحيفة الثورة ، ولعله استشهد هنا بما سمعه وسمعته انا ايضا من صديقه السيد جلال كشك، ثم انتهى الى راي محدد يقول :

" ولكنني اتفق معكم ان اراء الاخ العقيد ، تقتضي توضيحا، وارى ان يتم اجتماع بينه وبين هيئة تحرير الصحيفة ، لاستيضاح وفهم هذه الافكار"

فقلت له ان ما يقوله هو عين الصواب، وان تعليقه فوق الورقة التي وردت الينا ، لم تكن غير عناوين لموضوعات يجب ان نراها كاملة ، وابنت للوزير ، انه ليس مهما ان يحدث هذا اللقاء، ولكن المهم هو ان يحدث هذا التوضيح، وهو باعتباره عضوا في الوزراة وصديقا وزميلا للاخ، يستطيع ان ينقل لنا شرحه لهذا التصور الذي يراه ، اما الاكتفاء بهذه الكلمات التي خطها بغضب، فاننا مهما اجتهدنا فسنظل ندور في اطار لا يتفق مع افكاره، بدليل ان كل ما قمنا به من تجديد ما زال في نظره ، تقليديا وسيرا في نهج صحافة العهد الملكي.

الاستاذ صالح ابويصير كان رجلا حكيما، وصاحب عقل يقدر على الفهم والاستيعاب لما يراه ويحدث امامه، وقد بدأ حياته صحفيا في بداية الاستقلال، ولذلك فهو يعرف ان هناك مهنا لها قواعد في العمل ولها مواصفات واسس ، لا علاقة لها بتغيير العهود، نعم ، تختلف الافكار والتوجهات، وهو ما يحدث في ظل العهد الواحد ايضا، لان الصحافة تقوم على التنوع والاختلاف

والتنافس بين الافكار والاراء، ولكن هناك دائما قواعد للعمل ، واثناء تلك الجلسة مع الوزير ، وردت اسماء صحف يعرفها وعاصرها في عهودها المختلفة مثل الاهرام واخبار اليوم ومجلات روز اليوسف واخر ساعة والهلال، وغيرها، بل كانت تعمل في العهدين الملكي والجمهوري بنفس الكتاب والصحفي ، مثل فكري اباظة ومحمد التابعي واحسان عبدالقدوس وكامل الشناوي ، وكانوا رؤساء تحرير يتحملون المسئولية في العهدين، بل أن حسنين هيكل الذي اعتمد عليه النظام، واعتمده الناطق باسمه، كان رئيس تحرير لاخر ساعة، يكتب عن العهد الملكي ، وله مقالات حول النظام ، وهي صحف لا تتطور لان عهدا جاء وعهدا ذهب ، ولكنها تتطور بتحديث المطابع، وتقديم الامكانيات، وانشاء شركات التوزيع، وعمليات الاشهار والعلاقات العامة، وهو ما وعد الوزير بان يسعى لانشائه، اي انه سيطالب بتخصيص ميزانيات لرفع مستوى المطابع، وانشاء جهاز التوزيع، واحداث برنامج للتدريب ، ولكن الرجل لم يطل به الزمان ليفعل ذلك، فقد انسحب من موقعه بعد ان زادت الغصص، وكنت انا ايضا انسحبت قبله من هذا الموقع اثر حدث بالغ الطرافة والغرابة، فقد تلقيت اغرب رسالة يمكن ان يتلقاها رئيس تحرير في العالم، قادمة من الرقيب العام ، وباسمه الصريح ، اي عضو المجلس العسكري المكلف بادرة الرقابة واسمه على ما ذكر، عوض حمزة، وهي موجهة باسم مدير ادارة المطبوعات التي تتبعه الصحيفة اداريا، وليس سياسيا ولا تحريريا ، للتاكيد على الطابع الاداري للمسالة، وتامر الرسالة بوجوب ايقاف باب "رمية حجر" من الظهور في الصحيفة، اعتبارا من يوم وصول الرسالة ، واضاف السيد الرقيب ، لا فض فوه، بوجوب ايقاف محرر الباب المسمى بالاسم المستعار سعدان، عن كتابة الباب، كما يمنع منعا باتا من الكتابة في الصحيفة، في اي ركن من اركانها، اوصفحة من صفحاتها، باسمه الصريح، اوباسمه المستعار، اوبلا اسم ولا توقيع. واذا عرفنا انه كان معروفا لدى الوزير ، ولدى القيادة ايضا ، ولدى الرقيب العام ، ان محرر باب رمية حجر وصاحب توقيع سعدان ليس الا رئيس تحرير الصحيفة، العبد لله، فقد اصبحت الرسالة استهدافا لي لا يقبل الشك. وهكذا اصبح بهذه الطريقة اول رئيس تحرير في العالم ، يدير صحيفة ممنوع من الكتابة فيها. طريقة غريبة وعجيبة في المماحكة، والالتفاف على الاسلوب المباشر في التعامل معي، واقول استدراكا، ان اللجوء لهذا الاسلوب الملتوي في التعامل معي، بدلا من المباشرة الصريحة ، لا يعود الى اي ثقل واو حماية من جهة ما ، فقد كان سهلا ان يصدر الامر بابعادي من الصحيفة، كما ان قائد الانقلاب ، او جماعته لم يكونوا يملكون عرق الحياء الذي يمنعهم من ارتكاب اي عمل يحمل معنى الحماقة وسوء الادب، اي يبحثون عن تبرير او ذريعة لاي اجراء يتخذونه ضد انسان، ولكن نجاح الصحيفة في تلك الفترة المحدودة التي لم تزد عن ثلاثة اشهر كان طاغيا ، الى حد بدا معه انه امر مستهجن وسخيف ان يعمد الحاكم ، الى مكافأة صاحب هذا النجاح بطرده، دون جريرة واحدة ارتكبها، ولابد من وسيلة تجعل هذا الطرد يظهر بمظهر الامتناع من طرفه عن الاستمرا ر، وقد سمعت اشادة بما حققته الصحيفة من نجاح ، من اناس كانوا قريبين جدا من رئيس الانقلاب ، ولابد انهم كانوا يتحدثون معه في مثل هذا الموضوع، مثل مدير المركز الثقافي المصري في ذلك الوقت ، وقد نسيت اسمه، ولكنه كان هو والسفير المصري العقيد صلاح السعدني، ومندول المخابرات المصرية فتحي الديب، من خلصاء الاخ العقيد، وجلسائه ، والسبب انه لم يكن يريد ان يرى الليبيون جهله، ويلجأ لاستشارة هؤلاء الضيوف، فيما يعرض له من

قضايا لا يملك دراية بها ، ويرى ان هؤلاء مصيرهم العودة الى بلادهم، ولن يظهروا للناس ما لديه من قصور وجهل، علاوة على انهم يمثلون الدولة الحامية له ظاهريا بما في ذلك حماية امنية عسكرية. وهذا كان الاسلوب الذي تعامل به بعض اعوانه ، فوزيره العسكري الذي وضعه في التعليم ، وجئت على ذكره سابقا ، كان يضع مستشارا مصريا بجواره طول المدى، ولا يفعل شيئا الا بعد اخذ مشورته، بسبب ما لديه من مركبات النقص في تعامله مع الليبيين.

لم انتظر في المكتب بعد ان وصلت الرسالة ، ولم ارجيء مفاتحة الوزير بها الى زيارته المسائية للصحيفة، وانما ذهبت اليه في مكتبه، اعرض عليه الرسالة ، مرفقا بما وصلت اليه من استنتاج، وتسهيلا لمهمة الجميع ، استاذنت في العودة الى المعهد، معهد الموسيقى والتمثيل ، حيث كنت لا ازال مديره الرسمي. وساكون في غنى عن هذه الصراعات والمماحكات التي تدور حول منصب لم اطلبه، ولم اكن اريده، او اسعى للاحتفاظ به، الا ان الاستاذ ابويصير، ارد ان امهله يوما واحدا، ليتاكد من انها رسالة تعبر حقا عن موقف القيادة ، وان المقصود بالايقاف عن الكتابة حقا رئيس التحرير ، ام ان ثمة لبسا حدث هنا اوهناك ، فقد يكون مجرد اجتهاد شخصي من العضو الذي قام بتوقيع الرسالة.

ورغم انني كنت واثقا من نتيجة ما تسفر عنه تحريات الوزير، واتفاقها مع ما قلته من تحليل لاحداث سابقة ادت الى هذه القناعة، فقد تركته ليتاكد من نفسه، وعدت اليه في اليوم التالي ، لاجد معه في المكتب صديقه جلال الكشك ، ويبدو انه كان قد غادر البلاد الى بلد قريب ربما تونس، وعاد ليستانف رحلته الى المغرب ، فقد كان كما قال في جولة الى بلاد المغرب العربي، وسرد الاستاذ صالح له المفارقة التي حصلت ،وكيف يكون جزاء النجاح مثل هذه الرسالة الغريبة، التي ذهب بها الى القيادة ، فوجد انها تعبر عن موقف القيادة، بل ان الذي قام بالتوقيع لا يفهم ملابساتها ولايفقه شيئا عنها وانما تم اتخاذه مطية ووسيلة للوصول الى الهدف الذي يريدونه ، ولم اعرف سر الابتسامة الساخرة التي كان يؤمن بها الصحفي المصرى على كلام الوزير، الا بعد زمن وعدت لقراءة ما كتب من ادبيات عن علاقته بالحكام العسكريين ونفوره من اساليبهم ، وما يعتبره دمارا للشعوب علي ايديهم. اما الاستاذ صالح فكان واضحا في نفوره من الوضع ومن المنصب ، واشار بشكل ما الى انه لم يعد حريصا على البقاء في هذا المنصب .

ولم اعد اتابع ما يحدث في صحيفة الثورة، بعد ان تركتها، وكل ما علمته ان رئيس التحرير السابق ، الذي ثار ضده المحررون ، عاد اليها، ولعله عاد بشعور المنتصر، ضد هؤلاء المحررين الذين طالبوا بتنحيته ، ونجحوا لفترة من الوقت ، ثم حصلت الانتكاسة، الا انهم ظلوا على موقفهم الرافض للتعاون معه، وان لم يأخذ صورة اعتصام او مظاهرة، مما انعكس سلبا على اجواء الصحيفة، ولم تجد الدولة بدا من اقفالها، فاتخذت ذريعة ما ، خبر نشر في غير وقته، او رسالة احتجاج من سفارة ما، اصدرت القيادة على اثرها قرارا بقفل الصحيفة.

كان الاستاذ صالح ابويصير قد انتهز فرصة الاعلان عن الانتخابات التي ستقام في ليبيا لاعضاء يمثلونها في مجلس الامة الاتحادي، وقدم نفسه مرشحا في الانتخابات ، مما اتاح له

فرصة الانسحاب من منصب وزير الاعلام ، تحت هذا الغطاء، دون ضجيج، وقبل انسحابه ، كان قد استعان بزميلنا العائد حديثا من من بريطانيا علي خشيم بعد ان حصل على شهادة الدكتوراه، ليحتل منصب وكيل الوزارة، ونجح الاستاذ صالح في الانتخابات، وترك الوزارة ليديرها الوكيل بالانابة ، واسندت بروتوكوليا لوزير الداخلية الرائد عبد المنعم الهوني ، ليقوم بالتوقيع عند الاحتياج لقرار وزاري، وكنت التقي كثيرا بوكيل الوزارة في مكتبه، وكان يستشيرني باعتباري صديقا، وصاحب اقدمية في الوزارة، وحدث ان طرأ فراغ في منصب مدير ادارة الفنون والاداب، وهي الادارة التي تشرف على معهد الموسيقى والتمثيل وتشرف على غيره من المرافق الفنية والادبية، مثل الفنون الشعبية والفنون التشكيلية وادارة النشر وادارة المسرح، وعرض ان اتولى هذه الادارة، فابديت رغبتي في ان استمر في المعهد، شارحا له الظروف التي يواجهها ووقد اعتبرت نفسي احمل مسئولية اكمال المهمة التي بدأتها بعد نجاحي في استصطار قانون الاعتراف به وبشهادته، وحاول اقناعي بان المعهد سيكون تابعا لادارتي واستطيع ان اباشر الاشراف عليه حتى وانا اقترح مديرا غيري لمباشرة العمل، الا انني اعرف صعوبة ان التزم بادارة كبيرة مثل الفنون والاداب، ثم استطيع ان اجد في وقتي وقتا لمشاغل المعهد، الا انه تركني اخرج من مكتبه مقتنعا بانه صرف النظر عن اختياري لتولي هذا المنصب ، وفوجئت به ، متواطئا مع صديق يتولى الشئون الادارية هو عياد الطاهر ، باصدار قرار وزاري، بتعييني مدارا لادارة الاداب والفنون ، وهي الادارة التي تحولت عند فصل الثقافة عن الاعلام، الى وزارة للثقافة باعتبار ان كل المرافق الثقافية كانت تقع تحت اختصاصها، ولكن طبعا بامكانيات وصلاحيات وميزانيات ادارة وليست وزارة. ولم استطع ان اقناعه بالعدول عن القرار ، وكنت اعد في ذلك الوقت لرحلة يقوم بها المعهد الى القاهرة بالتنسيق مع عدد من الهيئات الفنية هناك، بينها هيئة المسرح برئاسة سعيد خطابا، التي وافقت انت تمنح لنا مسرح الجمهورية لعرض اوبريت هنده ومنصور، والمعهد العالي للفنون المسرحية ومديره الدكتور رشاد رشدى، الذي وافق على المساعدة في اعمال الديكور والفنيات التي يتطلبها العرض ، بما يتيسر للمعهد من امكانيات، مع اتفاق على تصوير العمل ، تم بالاتفاق مع السيدة همت مصطفى مديرة التليفزيون المصري، وكل هذه المساعي اجراها اعضاء هيئة التدريس باعتبارهم جزءا من الوسط الفني والاعلامي المصري، ولهذا فقد سالت وكيل الوزارة ان اتولى الوفاء بهذا الالتزام قبل الانتقال الى المنصب الجديد، وفعلا في القاهرة قابلت الاشخاص الثلاثة الذين ذكرتهم، ووجدت منهم كل عون ومساعدة ، واستلمنا مسرح الجمهورية وسط احتفاء مصري بوجودنا، وحضر البروفات معنا عدد من نجوم الصحافة، وكان اكثرهم انبهارا بالعمل الكاتب المتخصص في الفن المسرحي الاستاذ عبد الفتاح البارودي وكان يكتب بابا يوميا في الاخبار ، خصصه اثناء وجودنا للكتابة عن هندا ومنصور طوال مدة بقائنا في مصر ، وقبل ان يحدث اي عرض رسمي لها، وكان بين الاصدقاء الصحفيين الاستاذ حازم هاشم ، احد كبار كتاب جريدة الوفد الان، وكان ايامها محررا في مجلة الكواكب، وكان السفير الليبي السيد سعد الدين ابوشويرب، ولكنه كان غائبا ويقوم مقامه السيد محمود البكوش، وكنا قد انجزنا الدعوات باسم السفارة وتم توزيعها على اكثر من الف ضيف ، من كبار القوم في مصر ، ومن مختلف المجالات، وبذلنا جهدا مضنيا ، وبذل معنا الاخوة اهل هذا المجال من فنيي هيئة المسرح ومعهد الفنون المسرحية جهدا اكثر ضنى، لانجاز عرض يشرف الفن الليبي، ويرفع

اسمه امام اساطين الفن والابداع في مصر، وكنت محاطا بعدد من كبار الاصدقاء الذين توطدت علاقتي بهم عبر السنين ، مثل يوسف ادريس وصلاح عبدالصبور ورجاء النقاش وغيرهم ممن عبروا عن شديد مناصرتهم وتاييدهم وتسخير امكانيتهم لتعميق عرى الصداقة بين اهل الفن والابداع في ليبيا ومصر، ثم جاءت الضربة القاسمة ، حملها هاتف صغير من السيد البكوش ، يقول انه السفارة تنهي الينا بانه تم الغاء العرض ، ولم يكن قد بقى غير يومين على ليلة الافتتاح، وكان امرا لا يصدق، وهرعت راكضا الى السفارة ، لانني لا اعرف الان من تلقى المكالمة في الفندق الذي نقيم فيه ، فندق كونتينتال، وكان على بعد دقيقتين من المسرح ، فجاء راكضا مكلوما ينقل الخبر، ولم يكن امامي الا ان ابحث عن سيارة اجرة تقلني الى الزمالك والى السيد صاحب هذا القرار الغريب، وقابلني الرجل وهو على سلم السفارة ، خارجا او داخلا ، ليقول لي ان البلاد في حداد، بسبب وفاة عضو من اعضاء المجلس العسكري، هو امحمد المقريف ، في حادث سيارة، ولهذا لن تستطيع السفارة ، ان تدعو لاقامة حفل فني قوامه مسرحية غنائية راقصة، في وقت الحداد. وسالته ان الامر يستحق ان يمنح بضعة دقائق لنقاشه بحثا عن حلول ، لان هناك دائما امكانية التاجيل ، فثمة اكثر من ستين عنصرا، موجودا لاداء هذه المهمة، تعبوا وسهروا الليالي ، وهناك تليفزيون يصور، واهل ديكور واضاءة وصوت استعدوا بامكانياتهم ، فلماذا تهدر كل هذه الامكانيات، ولا تحقق اية فائدة، اذا كان بالامكان استغلالها دون اخلال بطقس الحداد. والحقيقة ، اراني هذا الرجل ، الذي وجدته فيما بعد رقيقا ، وحضاريا، في ذلك اليوم وجها عابسا، مؤسفا، يبالغ في اظهار حزنه ، على رجل لا يعرفه ولم يقابله في حياته،لان موجود في السلطة، كل ما سمعته منه كان استهجانا لاي كلمة ادافع بها عن العرض ، لانني كيف لا احترم الموت ولا احترم الحداد ، ولا احترم الحزن الذي خيم على البلاد.

ولم اجد الا زميلا كان يعمل ملحقا صحفيا في السفارة هوعبد الهادي الفيتوري ، صار يهديء من روعي ، ويحاول مواساتي، ويستقبل صراخي وانا اسال اذا كان ثمة انسان لديه ذرة من عقل في هذه السفارة، ليفهم الحالة التي نحن فيها ويمنحني وقتا لاشرح له اننا نضيع فرصة تاريخية، واقول ذلك ليس مبالغة، فالناس كلهم يعرفون اوضاع المرأة في ليبيا وانها اكثر بلاد العالم تخلفا في هذا المجال، وكانت فعلا مفاجاة قوية للمصريين الذين حضروا التمارين ان يجدوا فتيات في عمر الزهور يرقصن ويغنين في اوبريت عن الحب ، وهو وجه حضاري سيغير صورة ليبيا في اذهان الناس، كما انه امر لم ياتي بالطريق السهل ، فقد اقتضاني جهدا ووقتا منذ البداية لاقناع اوليا امور الطالبات وانا استعد لتقديم المسرحية ان الامر عمل تربوي مدرسي وليس عملا تجاريا مبتذلا، ويقوم تحت اشراف اساتذة ومربيين يعتبرون انفسهم اباء لهن ، حتى استطعت اقناع هؤلاء الاباء واولياء الامور بالسماح لبناتهم في الظهور في المسرحية ، ثم جاءت فكرة عرض المسرحية على مسارح مصر وسفر البنات الى القاهرة، وتعالى قل لاب ليبي ان يترك ابنته الصبية تذهب مع زملاء طلاب في رحلة برية الى القاهرة وسيكون ذلك هو المستحيل ان تحصل على موافقة اب ليبي على ذلك ، ولكن جهدا اسطوريا بذلته وبذله معي الفنان على ماهر واستخدمنا عددا من الوساطات مع عدد من الاباء حتى حصل هذا الانجاز وهو الانتقال بمسرحية هندا ومنصور الى مصر وتقديمها بكل المشاركين فيها من اولاد وبنات على مسرح الجمهورية

لياتي قرار احمق بايقاف العمل ، بسب حادث سير يحدث مثله كل يوم بالمئات والالاف. فتاسف بان السفير في مهمة خارج مصر، وهو رجل لديه من الرقي والفهم وقوة التاثير في الحكومة، ما يمكنه من العثور على حل يرضي اعضاء الفرقة، ولكن نائبه لا يملك صلاحية الا ان يجاري الاوضاع ويتصرف برعب وخوف ان يقال له اذا سمح باقامة الحفل انه لا يراعي مشاعر الحزن على هذا القيادي الكبير من اهل الانقلاب، خاصة وان الطاغية اقام مناحة كبيرة في ليبيا من اجله وجنازة دعا اليها رؤساء بينهم السادات الذي حضرها باكيا، وقد حدث هذا بتاريخ 21 اغسطس 1972، يوم وفاة ذلك الرجل، الذي افسد بموته احتفالنا، ولا ادري الاجراء الذي اتخذته السفارة لالغاء الدعوات التي ارسلتها، ولكننا في نفس ذلك اليوم اقمنا حفلا لمن كان ياتي الينا من الاصدقاء ولكي لا يضيع كل ذلك الجهد دون فائدة، اقمنا العرض في صمت ودون ان نعلن عنه في الصحف او الاذاعة وطبعا لم يستطع التليفزيون المصرى التصوير كما كان متفقا عليه، فالسيدة همت مصطفى لا تستطيع ان تخالف تعليمات السفارة، ولم تكن هناك شركات تصوير نستطيع تكليفها بالتصوير، فاكتفينا بتقديم العرض لهؤلاء الاصدقاء،وكان الاخوة المصريون من اهل الصحافة يعبرون عن شديد المهم وصدمتهم لايقاف العرض ، وكان صديقنا حازم هاشم اكثر هؤلاء الصحفيين تاثرا ، وكان يحتج صارخا انه ظلم في حق هؤلاء الشباب الذين جاء اغلبهم في حافلة عبر الطريق البري وسيعودون بنفس الحالة وتنتهي رحلتهم الى لا شيء.

وعلى سبيل الاستدراك اقول ان عددا من الاخوة المصريين الذين شاهدوا التمارين في مسرح الجمهورية ظلوا يطالبون بان نعطي انفسنا فرصة اخرى لتقديم العرض، ولكن طبعا اختلفت الظروف كثيرا، ولم يعد سهلا اعادة المشهد لما كان عليه في تلك الايام التي اعقبت العرض الاول للمسرحية ، وكان ملحن العمل الفنان على ماهر، قد انتقل للحياة في مصر، مبعوثا في مجال الدراسات العليا، فاعدنا الكرة مرة اخرى ولكن بشكل يختلف، اخذنا عددا من عناصر المسرحية وليس كل العناصر، وبالذات اصحاب الادوار الرئيسية ، وتصدى للبطولة بدلا من الطالب والطالبة في العرض الاول، كل من نجم الغناء احمد سامي ، ونجمة المسرح الصاعدة في ذلك الوقت السيدة زهرة مصباح، وكان الغرض تقديم العمل على المسرح مستعينين بفرقة رقص استعراضية مصرية ، ويتم تصويره للتليفزيون، وهو ما تم الاتفاق عليه ، وكان العمل انتاجا مشتركا بين التليفزيون الليبي والمصري ، ولكنني وجدت ترتيبا اخر، تم مع المندوب الليبي ومدير الانتاج السيد عبد الحفيظ شلادي، وهو ان يتم تقسيم المشاهد بشكل يفي بغرض التليفزيون المصري ونصب ديكور واقعي وحقيقي ، في الاستوديو، ولا حاجة لعرض مسرحي في هذه الحالة ولكن تصوير العمل داخل الاستوديو، ولم اكن مرتاحا لهذه الترتيبات ولكن لاصحاب الانفاق السلطة الاعلى في مثل هذه المسائل ، وربما كان البديل هو الغاء العملية ، وحرصا مني على توثيق العمل وافقت عليه، وقد تم فعلا هذا التصوير ، وتمت اذاعة العمل في التلفاز، ووجدت من استطاع الحصول على شريط فيديو منه ، ولكنني عندما سعيت فيما بعد لنقل هذا التسجيل ، وجدت انه تم بالات وتقنيات لم تعد موجودة ، وان نسخه او اعادة بثه يقتضي جهدا واهل خبرة لا يتوفرون في ليبيا او بالاحري هم لا يتوفرون الا اذا كان الامر يتصل بشيء تطلبه القيادة لتسجيل يرونه تاريخيا وللقطات قليلة ليست مثل هذه المسرحية التي تصل مدة عرضها الى ثلاث ساعات.

ساعترف بداية بانني اتعامل مع المنصب اعتباري فنانا، تاركا الجانب الاداري للمعاونين، من اصحاب الشأن، وكان هذا امرا مقبولا ومعقولا مع منصب مثل مدير المعهد الوطني للتمثيل والموسيقى، او حتى مع صحيفة مثل الثورة، التي تعاملت معها باعتباري كاتبا، اما مع منصب يدير عدة قطاعات مثل الاداب والفنون، فقد كان هذا امرا لا يستقيم مع مسئوليات المنصب ولا مع رسم سياساته، لانني هنا في مهمة اشرافية، لعدد كبير من الادارات ذات الطابع الفني والادبي، دون ان اكون ممارسا او معنيا بالانغماس العملي في اية ادارة من هذه الادارات، فالمعهد الذي كنت اديره اصبح الان له مديره الذي اخذ مني المسئولية ومن حقه الا اتدخل في عمله الا من ناحية اشرافية عامة، وهكذا مع ادارة النشر ، او فرقة الفنون الشعبية، او ادارة التصوير والفنون التشكيلية، او ادارة المسرح ، او ادارة المراكز الثقافية والمكتبات، فلكل ادارة مسئول يديرها ويضع برامجها ويتولى تنفيذها، وليس لي من دور الا المساهمة في رسم السياسات وتوفير الامكانيات ، وهذا يحتاج الى تغليب الجانب الاداري على الجانب الفني ، واضرب مثلال على الخطا الجسيم الذي اوقعني فيه اهمالي للشأن المالي والاداري ، وهو خطأ جاء من انه لم يخطر لي ان اسأل عن الموازنة المخصصة للادارة، اذ انني كنت اعمل واصرف في حدود متطلبات العمل، وفوجئت في نهاية السنة المالية ، بمن يقول لي ، لائما ، معاتبا، انني ارتكب جريمة في حق ادارة الفنون والاداب ، عندما اترك اعتمادات مرصودة لبناء دور عرض مسرحي وقاعات ثقافية ، تعود الى خزينة الدولة، فذهبت مهرولا الى مدير الشئون الادارية والمالية الذي كنت اعتمد عليه ، في تنويري بهذه الجوانب ، فاخرج لي الميزانية ، واذا بي اجد ان هناك مبلغا كبيرا جدا مرصودا للانشاءات المسرحية في ميزانية التنمية، فماذا افعل به الان ولم تبق الا مدة قصيرة لا تزيد عن عشرة ايام ، على انتهاء السنة المالية ، وهي لا تسعفني اطلاقا ، على التعاقد او حتى التكليف باي شيء في هذا الخصوص ، لانه لابد من دراسات تسبق مثل هذا الاجراء، وتناقشت مع المدير المالي والاداري للوزارة ان يجد لي حلا، فقد كان اعتمادي الدائم عليه هو الذي وضعني في هذا المأزق، وانتهينا الى حل نتفادى به حرمان الحياة المسرحية والثقافية من هذا الاعتماد، بان اخرجتها من ذمة الادارة ، الى ذمة اخرى، هي ذمة السلطات المحلية، وقمت بتوزيعها بالتساوي، على عدد من المحافظات، التي رايت انها تستطيع الاستفادة منها في انشاءات مسرحية ومراكز ثقافية، وعرفت ان طرحها من ميزانية الادارة الى تلك المحافظات، يقطع الفرصة على ارجاعها الى خزينة الدولة، ويطيل عمرها لدى مؤسسات الحكم المحلي التي تملك صلاحية تدوير اموالها بطريقة اكثر مرونة من الادارات التابعة للحكومة المركزية. هذا مثل لما عانته الادارة من اوجه القصور، لضعف خبرتي الادارية ، او قل لطغيان الحس الفني على الحس الاداري، وكنت قبل هذا الاكتشاف لاموال مركونة، اسال عن امكانية العمل الفلاني ، فيقال لي نعم او لا ، مثلا وجدت ان ميزانية النشر تكاد لا توجد، ولكن بندا للعلاقات العامة كان موجودا، واعتمادا عليه تم اصدار صحيفة الاسبوع الثقافي ، وهي الصحيفة التي اصدرتها اثناء وجودي مديرا لادارة الفنون والاداب ، وكانت نتاج نقاش بيني وبين وكيل الوزارة الصديق على فهمي خشيم، حيث تم تقليب الفكرة شمالا ويمينا، وهل تكون مجلة شهرية ، او نشرة دورية، واستقر الراي على صحيفة اسبوعية ثقافية، اسميناها "الاسبوع الثقافي"، ووجدت فور صدورها ترحيبا من ادباء ليبيا، واحتفاء واستقبالا كبيرا من القراء ، ونفد ما طبعناه من كميات اولى كانت

خمسة الاف نسخة في ساعات واضيفت كمية اخرى ونفدت، لان الطلب صار يتكرر عليها من اصحاب الاكشاك والمكتبات، ووجدت بعد ايام من صدور الصحيفة استدعاء من امين الاتحاد الاشتراكي العربي في قصر الشعب، المسمى حسب ظني بشير الهوادي، ولانني لم اكن اطيق الرجل ، الذي التقيت به اكثر من مرة على مدى عملي في ادارة الفنون، وطبعا رايته مثل كل الليبيين يدير تلك المسخرة المسماة محكمة الشعب، فكان نفوري يزداد منه في كل مرة ، كما انني لم اكن اتوقع خيرا ياتي من اتحاده الاشتراكي، الذي لم اكن اراه الا جهازا لاعمال الجوسسة وذراعا اخرى للامن السياسي، ولذلك فقد ذهبت بعد ان اعطيت خبرا بانني ذاهب الى هناك تحسبا لاي طاريء، خاصة للمسئول الوزاري ، الدكتور خشيم، ووجدت الرجل بانتظاري، في القصر الملكي الذي صار قصرا للشعب، ووجدته يضع في قدمه شبشب زنوبة المصنوع من البلاستك ، ويبدي انه لاحظ نظرتي الى قدميه ، فقام من مقعده، يتمشى قائلا ، انه رجل شعبي من ايها الناس، لا يتعالى ولا يتصنع الابهة الكاذبة، وانه ياتي للمكتب ويمارس عمله على سجيته، فباركت له هذا السلوك ، محاولا ان اعرف سبب الاستدعاء، ويبدو ان شكل الصحيفة جاء على هوى رئيسه ، ولعل هناك من ابلغ الرئيس الحماس البالغ الذي استقبل به الناس الصحيفة الجديدة ، فقال لي انه يريد ان يخص الاسبوع الثقافي بتصريح صحفي ، لكنه يريد قبل ذلك ان يناقش الاوضاع الصحفية والاعلامية في البلاد، واخبرني ان هناك نوايا لاعادة تنظيم الصحافة وانشاء هيئة لاصدار الصحف ، تم الاتفاق في مجلس الثورة على اصدارها، واهمها صحيفة يومية يكون اسمها الفجر الجديد، واشاد بتجربتي في صحيفة الثورة التي يرى انها كانت متميزة، واشار تلميحا الى ان هناك دورا ينتظرني في الصحيفة الجديدة ، وفي هذه الاثناء دخل السيد جمعة الفزاني، وكان قد انتقل للعمل في الاتحاد الاشتراكي، يحمل ملفا لعرضه على صاحب المكتب، وصافحني باعتبار ما بيني وبينه من معرفة سابقة ، مازلت بالتاكيد على نفس الدرجة من البرود، وبقى واقفا دون ان يجلس ، ينتظر ان يعيد له السيد الهوادي الملف الذي وضعه امامه، وفي هذه الاثناء قال له الرجل وهو يضع عينيه في الورق

ـ هانحن مع سي الفقيه، نحاول ان نصل الى تفاهم مشترك.

وسمعت السيد جمعة الفزاني ، يرد ردا مؤسفا ، اصابني بصدمة لدا سماعه، لانني اعتبرته

استعداء للدولة العسكرية ضدي، اذ قال دون تردد:

ـ لا اعتقد ان هناك سبيلا للتفاهم بينكما.

ولم اسكت. وقفت منزعجا، ادفع عن نفسي التهمة التي اراد ان يلبسها لي،

واصابتني حالة من الذهول وربما الشلل العقلي والبدني ، فتجمدت في مكاني، فالجملة تحمل اتهاما خطيرا، بانني معارض لمن يسمون انفسهم مجلس قيادة الثورة ومعارض لثورتهم ولا سبيل للوصول الى تفاهم معهم ، وفي حالة الذهول تلك ، اخرجت ربما ابتسامة كان ما اسمعه ليس حقا وانما هو نكتة ، دعابة تستحق ان نضحك جميعا لها، ولعلني استطعت بعد ان تمالكت نفسي وكان

الرجل الذي قال الكلمة المسمومة قد خرج، ان اقول شيئا يمكن اعتباره مسحا لهذه التهمة، وهو ان كتاباتي التي نشرتها قبل الاول من سبتمبر تشهد بانني كنت ابشر بنفس المباديء والاهداف التي نادت بها ثورة الجيش، مؤكدا ان المقالات موجودة يمكن مطالعتها في صحف الرائد والميدان والحرية والحقيقة وطرابلس الغرب وغيرها، وعندئذ قال الهوادي ضاحكا ، كاشفا عن سنه الذهبية التي يزغلل اشعاعها عين الناظر اليه:

ــ انه فقط يمزح معك.

وتزاملت فيما بعد مع السيد الفزاني ، في المؤسسة العامة للصحافة، وعملنا معا في المجلس القومي للثقافة العربية ، وبعد ذلك في السلك الدبلوماسي، ورغم اقترابنا من بعض، فقد ظل دائما ثمة شعور بالحذر منه ، مع انني رايت منه خلال اعوام كثيرة وطويلة من العمل المشترك ، ما ابان لي جوانب اكثر ايجابية في شخصيته.

وصار شبه تقليد في عملي بالوزارة اثناء ادارتي للفنون والاداب، ان اعود مساء الى الوزراة، للقاء وكيلها الدكتور خشيم، لنتداول في امور العمل، وفي الشأن الثقافي العام فيما يشبه الصالون الادبي ، وكان يحضره بعض الاصدقاء والزملاء وموظفي الوزرارة، وفي يوم كنت موجودا في الوزارة، واردت قبل الدخول الى مكتب الوكيل ان اطالع عددا من الصحف وجدتها في صالون قريب من مكتبه، عندما دخل الى الصالون رجل ، يميل الى النحافة، تميل قامته الى الطول ، وكان في وجهه ايضا بعض من طول ، زاده الضعف البادي عليه طولا ، الى حد بروز عظام الحنك، وكان يرتدي ملابس كاجوال، يميزها جوبوتو رمادي اللون ، ليس فيه اناقة، ولا يبدي انه يعتني بهندامه، وهي صفة الثوريين في تلك الايام، قبل ان يصبح الشعر الاشعث المبعثر الاكرث هو الموضة، القى السلام ، وقد بدا لي وجهه الطويل مألوفا، فقد رايته في برنامج تلفزي اوفي ندوة ، وربما صورة في صحيفة ، الا انني لم اتذكره، ولم اعرف من يكون، والقى السلام ، فقمت ارد عليه سلامه ، بينما بقى واقفا يبحلق في المكان ويلتفت يمينا وشمالا، وقبل ان يبادر بالسؤال عما يريد، جاء خلفه احد السعاة، يحييه، ويقرن التحية باسمه قائلا:

ـ اهلا ، اخ ابوزيد.

فعرفت في الحال ان الرجل هوابو زيد دوردة، وقد تم انعقاد المؤتمر العام للاتحاد الاشتراكي فيما اظن، واصدر في حقه عفوا يرفع عنه عقوبة بالسجن صدرت في حقه ويامر باطلاق سراحه بعد ان قضى جزءا من العقوبة محبوسا، بسبب اعتدائه وهو محافظ لمدينة مصراته، على احد المواطنين بالضرب. واعقب هذا القرار تعيينه في المكان الذي ظل شاغرا منذ انسحاب الاستاذ صالح ابويصير منه ، اي وزير الاعلام ، فعرفت انه قادم لاستلام منصبه، وذهبت به الى مكتب وكيل الوزارة ، اقدمه له واقول له ان الوزير قد وصل وتركتهما معا وانصرفت .

نعم الاستاذ بوزيد اصبح صديقا اعتز بصداقته، ولكنه عندما جاء الى الوزارة ، كان في بدايات الانبهار بالمنصب الوزارى ، والانبهار بالسلطة، والحماس والمبالغة في الولاء لانتمائه الثوري، وبدا وضحا انه يعتبرني وربما يعتبر الاخ خشيم ، من اهل الجمود والرجعية، كما جاء بتصورات جديدة

للوزارة واعادة هيكلتها باعتبارها كانت تتبع هيكلية مورثة من عهد بائد قديم، ولابد من ازالته واحلال هيكل جديد مكانه، وربما راى ان يصحب الهيكلية الجديدة، عناصر تتولى الادارة بدلا من الوزراء السابقين ، ورغم انه كان معروفا ان ليس في الامر اجتهاد ولا ابداع ، وان هو الا وحي يوحى فكل من جاء وزيرا بعد الوزارة الاولى اي وزارة المغربي ، كان مجرد صبي عند الاخ العقيد او هكذا ينظر اليه ، ولابد ان ياخذ تعليماته من الرئيس الذي بدأ تدريجيا ياخذ صورة الزعيم الملهم، ولكن هؤلاء المنفذين ايضا بلا خبرة ، فعلاوة علا بؤس الافكار والسياسات ، فان بؤس التنفيذ لا يزيد هذه الافكار الا بؤسا وفسادا، ولم تكن لوزير الاعلام الجديد اية تجربة او خبرة ، غير بضعة ايام في العمل محافظا لمصراته، وقضى ضعفها في السجن جزاء الاسلوب الارعن والاستفزازي الذي ادار به المحافظة، اما سابق خبرته في العمل العام فهي في مجال التدريس في مدرسة ابتدائية اعدادية، في شارع المأمون ، في طرابلس، ومتساوقا مع نظرة رئيس المجلس العسكري في الازالة والاحلال ، جاء بكل زملائه المدرسن في المدرسة بمن فيهم المدرسين غير الليبيين ليضعهم في الاعلام مدراء ورؤساء اقسام ، وكانت قد حصلت لي معه خصومة، ادت الى ان كرهت العمل مديرا معه في ادارة الفنون والاداب ، هذا هو ملخصها، كنت قد سافرت الى مالطا اقود فرقة الفنون الشعبية ، وحققت الرحلة اقصى درجات النجاح كما ورد في حديث سابق، وهي رحلة حصلت قبل ان يتولى الوزير الجديد مهمته بعدة اسابيع ، وحدث اثناء وجودنا في مالطا ان جاء عنصر امني يعمل بالسفارة الى الفندق حيث يقيم اعضاء الفرقة، وكان ثملا، فاقدا للسيطرة على عقله ، وارد التحرش باحدى راقصات الفرقة، فوجد من اعترض طريقه، من اعضاء الفرقة وابعده عنها وربما استعان باحد من مشرفي الفندق للعمل على اخراجه من الفندق. ولم يشأ احد تصعيد الموقف، او ايصاله الى السفارة، او الى جهة ابعد من السفارة، وانتهى الامر عند هذا الحد، الا ان الامني وربما استباقا لاية شكوى نقدمها بخصوصه عند العودة الى طرابلس ، كتب تقريرا ، يقول فيه انه شاهد بعض اعضاء الفرقة يشربون الخمر في مالطا، ووصل التقرير الى مكتب وزير الاعلام، محالا من الجهة الامنية التي يتبعها ذلك الشرطي السري، واستشاط غيظا وغضبا ، وطلب حضوري الى مكتبه، ليسألني باستنكار واستياء، عن حقيقة ان اعضاء الفرقة ، كانوا يشربون الخمر اثناء رحلة مالطا، وسالته عن المصدر الذي استقى منه هذه المعلومة، فاشار الى التقرير الامني القادم من السفارة، وقال ذلك بكثير من التوقير والتبجيل وكانه قادم من قدس اقداس الثورة ، فلم اشأ الدخول في مجادلة حول كاتب التقرير وسلوكه المشين، واكتفيت بالقول ، انني لم اذهب مع اعضاء الفرقة لاتجسس عليهم ماذا يأكلون او يشربون، لان ماكان يهمني منهم ، هو سلوكهم المهني وقيامهم بواجبهم الفني ، وهو ما تم على ارقى صورة ممكنة، وهو ما احتواه تقرير نشرته في صحيفة الاسبوع الثقافي ، بافادات الشهود مع كلام الصحافة المالطية التي اشادت اشادات عظيمة باداء الفرقة وبرنامجها ، ويستطيع اذا اراد ان يطلب من الوزيرة المالطية ، السيدة اجاتا، التي كانت الجهة المضيفة ، تزويده بافادتها التي سيعرف منها صدق ما اقول ، واخترت التركيز على هذا الامر باعتباري اخاطب وزيرا يدرك رسالة الفرقة واهمية ما قامت به ، دون حاجة للمرور بسلوكيات كاتب التقرير ، فتلقيت ردا من الوزير، لم اكن اتوقعه، ولا يمكن ان اتصور ان اسمعه من الوزير المسئول عن الاعلام والثقافة، فحواه ان ما قلته عن برنامج الفرقة ليس هو ما يعنيه، ولا يشكل اهمية بالنسبة له، فالاهم بالنسبة له هو السلوك الشخصي لاعضاء الفرقة ، لان كل ليبي يذهب الى الخارج هو سفير الثورة ، يجب ان يتمثل مبادئها التي تحظ على الفضيلة، وتكره الخبائث مثل الاقتراب من المسكرات، ولا ادري حقا كيف واجهت هذا المنطق، ولكنني هنا فقط اشرت الى كاتب التقرير وسلوكه

الفضائحي ، الذي يستحق الاستنكار والاستهجان والمساءلة، لا عمل اهل الفرقة الذي كان تشريفا لبلادهم، واستطاعوا بجدارة وكفاءة اظهار الوجه الابداعي الحضاري الليبي، واقتنعت وانا ابارح مكتبه ، انني لن استطيع الاستمرار في العمل مديرا لهذه الادارة، او العمل اساسا في اطار الوزارة التي يديرها هذا الوزير.

وتكفلت ترتيبات جديدة جاء بها وهيكلية للوزارة بحل الاشكال، فقد تم في هذه الهيكلية الغاء ادارة الفنون والاداب ، وجاء الالغاء متوافقا مع قرار مجلس قيادة الثورة بانشاء المؤسسة العامة للصحافة، وضم صحفا اليها ، كان من بينها صحيفة الاسبوع الثقافي التي اصدرتها في الادارة وكنت رئيسا لتحريرها، فاثرت الانتقال مع الصحيفة الى المؤسسة التي تتمتع باستقلالية عن الوزير، حيث لا وجود لاي تعامل بيني وبينه، ودخل على المشهد الكاتب صادق النيهوم وكان يتقلد منصبا هو منصب امين الدعوة والتثقيف في الاتحاد الاشتراكي ، لكي يساهم في الاشراف على تاسيس هذه المؤسسة، وصار معروفا ان الوزير اختار شخصا قريبا منه، حصل حديثا على اجازة الحقوق ، وكان يدرس من منازلهم، هو السيد عمر الحامدي، ولا ادري خلفيات ما حدث بعد ذلك، فقد ابلغني النيهوم عن نيته في ان اكون رئيسا لتحرير الصحيفة اليومية التي تقرر اصدارها وهي الفجر الجديد، لكن هذا الراي فيما يبدو لم يكن متفقا مع ما يريده الوزير، فقد جاء فيما يبدو بالسيد الحامدي ليكون مديرا عاما للمؤسسة ورئيسا للتحرير ايضا، ولعله اتفق في ذلك مع رئيس النظام نفسه، ويبدو ان كلا منهما اصر على موقفه فصدر العدد الاول من صحيفة الفجر الجديد ، يحمل اسمين كرؤساء تحرير هما انا وعمر الحامدي، ولم اشأ ان اكون طرفا في اي صراع ، وحسم الامر بان يكون هو رئيس التحرير ، على ان تسمى الاسبوع الثقافي العدد الاسبوعي للفجر الجديد، تصدر يوم تعطل الصحيفة اليومية في يوم الجمعية ، يعني استمر عملي رئيسا لتحرير الاسبوع الثقافي ، واصبحت بسبب هذا المركز ، وحسبما ينص القانون، عضوا في مجلس الادارة، مسئولا مسئولية تضامنية عن تسيير المؤسسة، واسندت لي رئاسة لجنة التدريب ، اي تدريب وتاهيل صحفيي المؤسسة ، ولجنة الموظفين ، المسئولة عن النظر في الترقيات والتعيينات وتقييم المستويات والمؤهلات، وسافرت اكثر من مرة الى القاهرة مع رئيس المؤسسة لجلب ارشيف للمؤسسة الجديدة، والاستعانة بخبرات في التحرير وفي الجانب الفني ، وحظيت الاسبوع الثقافي بعدد من نوابغ فين الرسم الساخر ونوابغ الاخراج الصحفي ، فبالاضافة الى اسهامات العبقري الليبي محمد الزواوي، فقد تفرغ للعمل معنا، نابغة الرسم الساخر المصري احمد ابراهيم حجازي المشهور بالرسام حجازي، ونابغة اخر في نفس المجال هو صلاح الليثي، اما النابغة الثالث محي الدين اللباد ، فقد استلم مهمة الاخراج، وجاء نابغة رابع هو محمد حجي ، وهو دون الاخرين استمر في العمل بالصحيفة لعدة سنوات بعد ان عاد رفاقه الثلاثة الى مصر بعد عام واحد في ليبيا، واسهم معنا رائد الرسم الساخر الكبير الاستاذ احمد طوغان ببعض اللوحات، رغم انه كان متفرغا للعمل في مطبوعات اخرى ، ولم نكن نحتاج لاي جهد تحريري اضافي من خارج الكوادر الليبية، فقد كان فريق كتاب المتفرغين يتكون من خيرى الاسود، تيسير بن موسى، فوزي جلال، خليفة حسين مطفى، رضوان ابوشويشة ، جيلاني طريبشان، خليفة خبوش، وصحفي قضى صغيرا، ومنذ الايام الاولى هو هدار الديب، الذي توفى نتيجة حادث سيارة، وكان في هذا الفريق الممتاز اكثر من الكفاية لادارة وتسيير صحيفة اسبوعية ثقافية ناجحة، كما انه لم يكن هناك كاتب في ليبيا له اسم، لم ينشر بعضا من انتاجه في هذه الصحيفة، خلال السنوات الخمس الاولى

من صدورها، وكنت اعتبر صدورها اسبوعيا ، نوعا من التحدي لمعطيات بيئة فقيرة ، شحيحة ، في منتجها الثقافي ، وهي بيئة تملك تراثا في الثقافة الشعبية والدينية، ولكنه لا وجود لتقاليد ثقافية عريقة تليدة مثل مجتمعات عربية اخرى تتميز بالكثافة السكانية والتاريخ الثقافي المعاصر، مثل مصر والشام ،

وكانت الصحيفة عامل تحفيز وتنشيط للحركة الثقافية، واستمرت تؤمن هذه الخدمة لجمهور الثقافة ومنتجي الادب، وتقوم بعبء رسالتها الى ان تركتها الى وظيفة ديبلوماسية خارج البلاد، وكنت قد طلبت الايفاد في رحلة للدراسة العليا، فتعذر ارسالي متفرغا للدراسة ، واشترطوا لذهابي ان يكون مقرونا بعمل اقوم به لصالح الاعلام الخارجي، وهو ما حدث فعلا، ولا ادري كيف تاتي لحظة تتوافق فيها رغبة الطرفان، يعني رغبتي في مغادرة البلاد، ومغادرة العمل الصحفي ، ورغبة النظام، او بعض عناصره، في ان الوقت فعلا صار مهيئا للدخول في مرحلة اخرى، تحتاج لاناس اخرين، لان العد التنازلي للحكم الاستبادي الفردي قد بدأ، نعم كانت له ارهاصات وله علامات، وكانت لشخصية الطاغية الكامنة في نفس رئيس الانقلاب، اطلالات تحدث بين الفينة والاخرى ، ولكنه كان محكوما ببعض الاعتبارات التي اوصلته الى السلطة فله شركاء بدأ في محاولة الخلاص منهم ، منذ خطاب زوارة ونقاطه الخمس في عام 1973، ولكنه ظل يقيم لهم اعتبارا ضئيلا انتهى في العام 1975، وهو العام الذي غادرت في اخره العمل في ليبيا وباشرته في لندن بدءا من 1-1-1976 وتميز عام 75 بانه فعلا كرس رئيس الانقلاب حاكما فردا، يعتمد اعتمادا صريحا لا على شركاء الانقلاب، ولكن على ابناء قبيلته، فقد كانت اكثر المحاولات الانقلابية جدية ، ولم تكن مثل سابقاتها مفتعلة منه، للتخلص من بعض المنافسين ، ولكنها محاولة ضمت عددا كبيرا من تنظيم الضباط الذي شارك في الانقلاب وبرئاسة عمر المحيشي عضو لجنة الانقلاب القيادية، وتواطأ معه عدد من اعضاء تلك اللجنة، ربما بدون ان يكونوا شركاء في الانقلاب، لانه اكتفى بعزلهم، والا لكان الحقهم بعشرات العسكريين الذين امر باعدامهم، واسرف في القتل وسفك الدماء ، ليكون عاقبه للمتآمرين، رادعا لكل عسكري تسول له نفسه الاحتجاج او التمرد، واستطاع عمر المحيشي ان يهرب عن طريق الحدود التونسية ، ويؤسس لا ول مرة تنظيما معارضا للنظام الليبي يعمل من خارج الحدود.

ولم اكن نادما على تركي للاسبوع الثقافي ، رغم انني كنت راضيا عن كل يوم قضيته في ادراتها، ولكنني كنت واثقا ان ما تحقق للصحيفة في تلك الفترة ما كان اطلاقا ، ليتحقق لها في فترة قادمة ، ارتفعت فيها نغمة التمجيد للقائد البطل، وكانت الصحيفة حقا وصدقا، قد نأت بنفسها عن اي كلام من هذا النوع ، وكنت اضع اية مادة يشتم منها التمجيد او ما ياتي من قصائد المديح لشخص رئيس الانقلاب، في ملف المادة التي تحمل عنوان "غير صالح للنشر"، وهي قاعدة لم اندم على تطبيقها الا مع قصيدة واحدة ، كتبها شاعر له اسم وله موهبة، وسبق ان نشر عددا من قصائده الوطنية والعاطفية، هو الشاعر عبد المجيد القمودي، ارسلها من مدينة الزاوية ، وتحمل عنوان "كلمات حب لمعمر القذافي "، ثم جاءت الاخبار بعد بضعة اسابيع بوفاة الشاعر، وعلمت عندئذ، انه كتب هذه القصيدة ، بامل ان يلتمس عن طريقها قرارا من رئيس الدولة لايفاده للعلاج في الخارج، فقد اصابه مرض خبيث ، ولم يكن ثمة ما يعينه على الشفاء من هذا المرض في المستشفيات المحلية وامكانياتها المحدودة، وطبعا لم اكن املك علما بهذه

الخلفيات عندما امتنعت عن نشر القصيدة، لانه لم يقم باحضارها بنفسه، ومكاشفتي بما يقصده منها، او يرسلها مع صاحب ينوب عنه في هذا الشرح ، اوحتى سطر صغير يقول ما معناه ، انه يريد ارسالها مع التماس يقدمه لرئيس الدولة بالعلاج الذي يحتاجه، لانني عندئد لم اكن اطلاقا لاتاخر في نشرها، وبذل اي جهد لاسعافه وتحقيق امنيته بالذهاب في رحلة علاج في الخارج، كان يامل ان تاتيه بالشفاء. وكنت اعتمد في اقصاء مثل هذه القصائد والمواد الاخرى التي يشتم منها مملاءة النظام ورئيسه، على ما كان يقوله الرجل نفسه من انه لا يريد تمجيدا، او ما سبق ان قاله بشأن الملك السابق ، حيث كان يدين كل قصائد المديح واغاني التمجيد التي تلقى في الاذاعة حوله، ويراه ابتذالا للاعلام وللصحافة، بل انه اقام محكمة اسماها محكمة الشعب ، واحال اليها كل من كان يعمل في الاعلام والصحافة في ليبيا ممن اشتبه بانهم شاركوا فيما اسماه تضليل الراي العام، وكيل المديح للملك، وطبعا كنت اعرف ان الرجل عندما يدعي انه لا يريد تمجيدا، انما يفعل ذلك كذبا وتدجيلا، لانه كان في ذلك الوقت ينفق الاموال الطائلة من خزينة الشعب الليبي على مشاريع اعلامية، ويقيم مؤسسات للنشر والصحافة في عواصم اوروبية، وفي بيروت عاصمة النشر في العالم العربي، لتمجيده، والترويج له، والدعاية لحكمه، وسياسته، وشخصه، باعتباره مبعوث العناية الالهية لبعث القومية العربية، وزعامة الامة العربية والقائد الذي اوصى جمال عبد الناصر بان يكون وريثه الامين على الوحدة العربية .

كما وقفت كثيرا امام مقال في تمجيد العقيد ارسله من موسكو الصديق الاديب ابراهيم الكوني، وكنت اعرف محنة الرجل ومشاكله المتكررة مع النظام، الذي كان يحسبه على الخط الشيوعي، لمجرد انه ذهب طالبا الى موسكو على حساب تلك الدولة، فهو في راي النظام واصحاب الامن فيه، لا يمكن ان تصرف الا على طالب من اتباعها، وهي تهيئه لكي يكون عنصرا مواليا لفكرها الماركسي، الذي يراه رئيس النظام، كما يقول في خطبه، فكرا هداما، ومستوردا، ومعاديا للعروبة والاسلام، مع انني اعرف الكوني واعرف ان ليس في عقله ذرة ايمان واحدة بالنظام الذي يحكم الاتحاد السوفييتي، ولا فكره ولا سياساته، وكان الكوني لا ياتي الى ليبيا الا ويعاني من مضايقات البوليس الذي يصادر جواز سفره لحظة وصوله المطار ، ثم لا يسترد هذا الجواز الا بعد تسويف ومماطلة، ولا ياخذ بعد ذلك تاشيرة الخروج الا بشق الانفس. وعرفت عندما جاء هذا المقال الذي يبالغ في تمجيد القذافي ، انه يريد ان يظهر له حسن نيته ، لكي يرفع عنه الاذى ، ويتدخل لدى الشرطة لتسهيل مروره ودخوله الى البلاد، الا ان المقال كان مكتوبا بخط سيء، واحتوى تشطيبات كثيرة، ودوائر وخطوط، وتصحيحات، وعلى طريقة هوس الكوني بالافكار الفلسفية، فقد كان فيه كميات من الاقتباسات من فلاسفة الغرب والشرق، فعهدت لاحد الزملاء فك رموز هذا الخط، ونقله باحرف واضحة، وخط يسهل على اهل المطبعة قراءته، وكان يعود لي، لانه لم يفهم الاقتباس، او لم يستطع قراءته ويقترح شطبه، حتى تم وضع المقال في صيغة مقبولة ومقروءة، ونشرت المقال مضطرا، لانني اعرف ان كاتبه ايضا كتبه مضطرا، تحت الحاح الحاجة الى الوطن، والى ان يرى والدته التي كانت لا تزال على قيد الحياة، وتاسفت لانني رايت بعد نشره مبالغات كان يجب حذفها، لانني لا اعلم الحالة النفسية التي كان فيها الكاتب ، ودبج مقاله تحت تأثيرها، ولاشك انه كان واقعا تحت ضغط كبير ، بحجم المضايقات التي تعرض لها، والمكابدات التي عاناها. واظن ان العقدة التي تحكمت في علاقته بالنظام تم حلها، وصار دخوله وخروجه يحصل بلا مشاكل .

عدد من الكتاب الشباب ، دشنوا بابا جديدا في الصحيفة اسمه الضوء الاخضر، وطبعا كان هذا الضوء الذي يعني اشارة مروره مفتوحه لعالم النشر والحضور الادبي، حدث قبل ان ياتي رئيس النظام بنظرياته التي اختطفت هذا اللون، وكتابه الذي اشتهر ايضا بهذا اللون، وكان ضمن هؤلاء الكتاب الشباب، كاتب مجيد، موهوب ، صاحب اسلوب متميز في كتابة القصة القصيرة ، اسمه المهدي العدل، نشر بواكير قصصه في الصحيفة، ثم باشر كتابة فصول من قصة فيما يبدو اكثر طولا من قصصه الاولى ، وكنت اتابعها في صحفة الضوء الاخضر، لانني اعرف الشخص الحقيقي الذي نسج القصة حوله، يعيش في مزدة، وكنت اعرفه بغرابة اطواره، واختياره ان يعيش وحيدا في احدى الخرابات حتى توفاه الله، وبهرتني البراعة التي احال بها هذا النموذج الانساني الذي يرمز للبؤس والوحدة والتشرد، الى عمل فني وبناء درامي وتصاعد في الخط القصصي، شوقني للمتابعة، ولكن القصة توقفت بعد الحلقة الثانية او الثالثة ، وعدت الى المحرر المسئول معي عن متابعة الصفحة ، لاعرف منه سبب الانقطاع، فاجاب الن الكاتب توقف عن ارسال المادة، وعرفت عندما سالت ان مهدي العدل مقبوض عليه ، وموجود في احدى سجون الجبل الغربي، لانه قام مع مجموعة يغلب عليها الطابع العائلي بتشكيل تنظيم سري، مناويء للحكومة، وان خطورة الموقف تاتي من انهم وجدوا في حوزتهم سلاحا، اعترفوا بانهم يقومون بالتدريب عليه، ولا اعرف تفاصيل القضية، لانه لم ينشر شيئا عنها ، او عن المحاكمة التي عقدت لهم، وهي محاكمة انتهت باصداراحكام عليهم بالسجن، وربما كان حظهم طيبا لانها محاكمة عن طريق القضاء، وليس كما حدث بعد ذلك من محاكم استثنائية ثورية لا علاقة لها بالقضاء والقضاة، وتصدر احكامها بالاعدام كما حدث في طلاب تم شنقهم في رحاب الجامعات نفسها، المهم ان مهدي العدل اودع السجن ، وحرمت الحياة الادبية من قلم كان يمكن ان يثرى السرد القصصي في بلاده بجلائل الاعمال الادبية الابداعية، وجاء سجنه متوافقا مع مجموعة قصصية ، كان قد دفع بها الى النشر على حسابه الخاص، فلم يكن متيسرا وصولها الى السوق ولا الحصول على ترخيص بتداولها، فخرجت من المطبعة الى المصادرة وتسربت نسخ قليلة منها ، تحصلت بعد فترة من الزمن على واحدة منها، وبعد اعوام قضاها في السجن لعلها سبع سنوات او اكثر، جاء الخبر المفرح بانه انهى المدة واطلق سراحه، واسعدني الخبر لانه ايذان بعودته الى ممارسة الكتابة الابداعية ، واستئناف المسيرة التي انقطعت بشكل مؤلم ومفاجيء، ولكنني عندما سالت عنه وحاولت زيارته في بيت العائلة في مزدة، علمت بكل اسف ، ان مهدي العدل، خرج من السجن في حالة نفسية وعقلية ، لن تساعده على العمل والانتاج الادبي، وانه يجلس في ركن من اركان البيت في حالة صمت دائم، لا يكلم احدا، ولا يخرج الى الشارع، ولا يمارس اي نشاط ، وهي حالة استمرت معه بقية العمر، فلا زال موجودا على قيد الحياة عند كتابة هذه المذكرات، ولم يحصل اي تغيير او تطور في حالته، ولا يخالجني اي شك في ان حالة السجن والتحقيق والتعذيب في السجون والغرف الوحشية التي تحتويها هي المسئوولة عما حدث له.

واثناء عملي في المؤسسة العامة ، والاحتكاك مع وزير الاعلام، بدات ارى جوانب تؤكد لي ان الجانب الذي سبق ان رايته واثار في نفسي نفورا منه، لم يكن هوالجانب الغالب على شخصيته، فهو انسان شديد الولاء لاصدقائه، ولعل المشكلة التي حصلت له في مصراته، عندما صفع مواطنا في السوق، واودت به الى السجن، تفسر جزءا من شخصيته التي تهب ساخنا وباردا، وحلقات الصراع التي خلقها

حول نفسه ، فهذه الحلقات التي اوصلته الى منصب المحافظ، من مدرس حديث التعيين، هي ايضا التي اطاحت به واوصلته السجن، وهي التي عادت تدفعها رياح الحظ، لاخراجه من السجن ووضعه فوق كرسي وزير الاعلام، وكان اول ظهور له في ندوة اقامها الانقلابيون ، ربما للفرز والتعرف على توجهات الناس، اسموها ندوة الفكر الثوري، لم احضرها لوجودي خارج البلاد، ابان فيها ولاءه للاتجاه الناصري الذي كان يتبناه الانقلابيون، في ذلك الوقت، وتقول مصادر اخرى ، ان هذه الابانة عن ولائه للناصريين في تلك الندوة لم تكن وحدها المسئولة عن ارتفاعه في عالم المناصب والحظوة العسكرية، ولكنه كان على اتصال باحدى المجموعات المناوئة لاهل الحكم، وعندما وصل الى علمه ان هناك تحركا يدبرونه ، نقل ما يعرفه الى قيادة النظام، فجاءت تبعا لذلك الثقة وجاءت الحظوة ، وليس هناك ما يؤكد هذه القصة، فقد تكون مجرد اشاعة يطلقها خصومه، واشهد انني بعد تلك الجفوة، التي استهل به علاقته معي، تحول فيما بعد الى اظهار التقدير والاحترام، ولا القاه اثناء زياراته للمؤسسة العامة للصحافة الا واسمعني من كريم الثناء على ما اكتب ، ما كان كفيلا بمسح كل اثر لتلك الموجدة التي حملتها له ذات يوم، وعلاقة الود هذه التي نشأت بيني وبينه، هي التي شجعتني على ان انقل له رسالة جاءتني من صديقي الاديب عبد الله القويري، الذي كان يعيش في تونس، برغبته في العودة الى البلاد، وكان السيد عبد الله ، قد غادر ليبيا مهاجرا الى تونس بعد ان ضاق ذرعا بالحياة في ليبيا الملكية ، واستقال من وظيفة سامية كان يشغلها في وزارة الشئون البرلمانية، وحاول قبل ان يغادر ليبيا ان يكسب رزقه من كتابة المقالات لصحف مثل جريدة الحرية، ولتاسيس دار نشر صغيرة، اكترى لها مقرا في شارع ميزران، الا ان صناعة الكتاب لم تكن في ذلك الوقت ، مهنة يمكن ان تجلب دخلا يكفي صاحبها، وكان قد قاد حملة عنيفة ضد الفساد المستشرى في الدولة ، من خلال مقالاته التي ينشرها في صحيفة الحرية، واظهر بالدليل القاطع وجود فساد في مجال الكتب المدرسية ، وحضرت معه ذات مرة مؤتمرا صحفيا عقده الاستاذ طاهر باكير الذي كان يشغل منصب وزير التربية والتعليم، وهو رجل من وجهاء البلاد وشرفائها، ينحدر من عائلة علم وثقافة وعراقة، لا احد يمكن ان يشك في نزاهته وامانته، وبدأ المؤتمر الصحفي قائلا ، انه يعقده من جل توضيح الحقائق حول الاتهامات الباطلة التي اوردتها صحيفة الحرية، ثم اراد استغلال مهاراته الاسلوبية الخطابية ، وقدرته البديعة على الالقاء والتاثير، في الحديث عن معنى الحرية، وكيف ان الحرية لا تكون حرية حقا الا اذا صاحبتها المسئولية، واذا رافقها الحس الوطني والاخلاقي، لان الحرية ليست كلمة معلقة في الهواء، مفرغة من هذه المعاني الوطنية والاخلاقية، او بعيدة عن القيم والمثل، والحكم النزيه العادل على الامور والناس، وكان وضاحا انه يغمز من قناة الاستاذ عبد الله القويري ،الذي اتخذ لنفسه وانا بجواره مكانا بعيدا عن الصدارة، وتركه الاستاذ القويري يفرغ ما لديه من شحنات الغضب ، لان اركان وزارته وموظفيها من الضالعين في الفساد افهموه ان وزارته مستهدفة بحملة ظالمة، ربما لاسباب سياسة لا علاقة لها بالفساد، وانهم مثال للنزاهة والصدق والامانة ، وانه ياتي هنا مزودا بالفواتير والكشوف والعطاءات التي يتم بموجبها شراء الكتب، وثمن طباعتها، ليتحدي من يثبت بوجود ما يدعيه من فساد ومن تلاعب بالاسعار. وبمجرد ان انتهى الوزير من كلامه ، نهض الاستاذ القويري مستأذنا في الكلام، ورفع كتابا كان معه من كتب المنهج، الذي يدرس في بعض مدارس ليبيا، وقال له ان هذا كتاب موجود في السوق، وطرحه الناشر للبيع في المكتبات، وقد اشتراه شخصيا من السوق بالثمن المكتوب فوق غلافه الاخير، واضاف قائلا" ان هذا الثمن كما يعرف السيد الوزير ، محمل فوقه نسبة يأخذها تاجر الجملة الي الموزع، ونسبة يأخذها تاجر القطاعي، فيقف الثمن الذي يأخذه المصدر، على نصف الثمن او

اقل من النصف ، وعندما تكون كمية الشراء بعشرات الالاف، فان هناك نسبة يعطيها الناشر لمن يشتري هذه الكميات بحيث يصبح ثمن هذا الكتاب في حدود ..." واشار الى مبلغ صغير ربما عشرة قروش ، وهو ما يجب ان يكون ثمن شرائه بدلا من الثمن المكتوب على الغلاف وهو ثلاثون قرشا، وتوجه الاستاذ القويري برجاء الى السيد الوزير ان ينظر في ثمن هذا الكتاب الذي اشتراه قسم مشتريات الكتب في الوزارة ، ويرى الى اي مدى هو مطابق لثمنه الحقيقي، وبسرعة اشار الوزير الى مدير مكتبه ان يفتح الملف، ويطالع اسم الكتاب المذكور، وحصلت حالة اشبه بالصدمة الكهربائية في الجماعة المحيطة بالوزير، اخضرت وجوه، وانقلب لون وجوه اخرى الى الاحمرار، ولمع لهب الولاعات ، يشعل السجائر التي اسرع اغلبهم يحاول ان يغطي بها حالة الارتباك والارتعاش، والتي تعكس مدى ما اصابهم من توتر وانفعال، لان الفضيحة وصلت الى ذروتها، وزاد الاستاذ عبد الله الامر اشتعالا، بان مضى بقامته الطويلة المهيبة، في خطى واثقة ، يخترق الصفوف، حاملا في يده الكتاب او دليل الادانة ، ليضعه بين يدي الوزرير، ولم ينس ان يضع اصبعه، على المكان الذي يحمل ثمن الكتاب، واتضح ان الثمن الموجود في الملفات لهذا الكتاب يكاد يكون ضعف المبلغ الموجود على الغلاف الاخير، بدلا من ان يكون ثلث او ربع هذا الثمن ، وطوى الوزير اوراقه واعدا بان يتم التحقيق في الموضوع، ولا ادري ماذا حدث بعد ذلك، فقد استطاع القويري ان يصل الى حلقة من حلقات الفساد ويقوم بتحطيمها، ولان حلقات الفساد ترتبط ببعضها البعض، فلم يكن ممكنا ان تسكت مافيا الفساد على هذا الفارس الذي خاطر باقتحام معاقلها، او تسمح له بان يتقدم لفضح وكشف مزيد من حلقاتها ، وكان لابد ان يشتد حوله الحصار، بل لعل الصحيفة نفسها صارت تعاني نوعا من الضغط، لايقاف نشر مقالاته ، ورغم ان مقالاته لم تتوقف ماشرة بعد هذه الفضيحة، الا انني سمعت منه ما يوحي بانه لم يعد مرتاحا للتعامل الذي يلقاه من الصحيفة، ثم اذا به يتصرف في شقة المكتب، ويحزم شنطه ويذهب الى تونس، ربما قبل عامين من مجيء الانقلاب، ومن تونس تدبر لنفسه بعثة لدراسة اللغة الفرنسية في باريس، عاد بعدها الى تونس، ولم اكن قد رايته خلال هذه الفترة، سواء في تونس ، او في باريس ، اوبعد عودته الى تونس، ولعله تأمل ان يكون ما حصل من تغيير في ليبيا جاء لصالح البلاد، الا انه لم يستعجل العودة، الا بعد مرور ما يقرب من عامين ونيف على وجود النظام الجديد، فارسل طالبا ان نأخذ له اذنا بالعودة، وفاتحت السيد دورده بالموضوع، وكان الترحيب كبيرا، وكان الوعد بان يكون له منصب كبير في المجال الثقافي اذا اراد العمل في الدولة، مرافقا لهذا الترحيب، واتفقت ان نترك الحديث في الوظيفة الى حين عودته، لانه لم يكن يطلب عملا او منصبا، وكل ما اراده الاطمئنان الى انه يستطيع العودة دون مشاكل، واتصل بي فور عودته، واخطرت بذلك الوزير دورده، الذي طلب ان يراه في اقرب فرصة ممكنة، وعندما زرناه ابدى شديد ترحيبه وامتنانه بعودة السيد القويري الى اهله ووطنه، وقال له انه يتمنى عليه ان يقبل منصب مدير مركز البحوث الذي تستعد المؤسسة العامة للصحافة لانشائه، فيباشر منذ الان عملية التأسيس واستقطاب من يرى فيه الجدارة ليكون باحثا فيه ، وانه سيمنحه اعلى درجة موجودة في السلم الوظيفى في الدولة، وفعلا انتسب السيد القويري للمؤسسة، ولم يكن قد تم الاتفاق على تخصيص مبنى لمركز البحوث، فكان يتردد على المؤسسة، وياتي في زيارات يومية الى مكتبي، وفي المساء غالبا ما كان يجمعنا لقاء فني ادبي مع ضيوف ليبيا من اهل فن الرسم المصري، اي الرسام حجازي واللباد ومحمد حجي والليثي ، وكان اللقاء يتم في بيت كبير اختاروه لاقامتهم من بيوت المدينة القديمة ذات الطابع الليبي التقليدي، وجاء اليوم الذي يعتبره كثيرون من الليبيين يوما مفصليا في تاريخ الانقلاب يوم ان بدأ العد التنازلي لانفلات شخصية

الطاغية من عقالها ومن بعض الالتزامات التي تعطي الحق للتنظيم العسكري الذي اوصله لمنصبه الرئاسى بشيء من المحاسبة والمراقبة، اي يوم خطاب زواره في العام 1973 ، بمناسبة المولد النبوي الشريف، الذي اعلن فيه نقاطه الخمس، وبينها نقطة تعطيل القوانين، والمعركة الثقافية، والمعركة الادارية وغيرها، وجلسنا ليلا نسمع للخطاب الذي تتم اعادته في التليفزيون ونحاول الوصول الى بعض ما سوف يترتب عليه من تبعات واجراءات، وكان القويري يحاول طمانتنا وطمأنة نفسه ان في الخطاب رسائل الى الخارج، وان عين الرجل على ما يحدث من تغيرات دولية يريد ان يكون له تفاعل معها وتامين نفسه من جانبها، وكان اكثرنا واقعية الفنان محي الدين اللباد الذي راى في الخطاب تعبيرا عن حالة معروفة في الانظمة العسكرية الفاشية، عندما يريد الديكتاتور العسكري تاكيد نفسه، وفرض سيطرته، واخضاع العالم تحت نعليه، واحكام قبضته على رقاب الناس، ويرى ان سجوننا سوف تفتح، وعددا من اهل الحراك الثقافي والسياسي سوف يزج بهم في هذ السجون، لا لشيء الا لان هناك ديكتاتورا يريد ان يقول انا هنا، واضاف اللباد بانه موقف تكرر في كل الانظمة العسكرية ، وانه سياق لا مندوحة لاي حكم انقلابي من السير فيه ، وما قاله اللباد هو ماحدث ، ففي اليوم التالي بدات سيارات الشرط تطوف الاحياء وفي يدها قوائم الناس المطلوب القبض عليهم ، وزاد طاغية ليبيا على الطغاة الاخرين انه اقام في تلك الايام محارق للكتب ، فقد ارسل اعوانه لتنقية المكتبات من الكتب التي تحمل الافكار المستوردة، كما اسماها، لصنع جبال في الميادين وحرقها ، قبل ان يصل الامر في سنوات لاحقه ، لحرق وثائق الملكية في مكاتب السجل المدني ، وبعد ذلك محارق لالات الموسيقى وغيرها، وكنا في الاسبوع الثقافي نعد لعدد خاص، اردناه ان يكون صرخة ضد التزمت والانغلاق في ليبيا، اسميناه الترويح في حياتنا، وجعلنا شعاره الحديث النبوي الشريف الذي يقول " روحوا عن القلوب ساعة بعد ساعة، فان القلوب ، اذا كلت عميت"، وكان التركيز بطبيعة الحال على الفنون من مسرح وغناء والمنتزهات والحدائق ومدن الملاهي والعاب الاطفال ، لان النظام العسكري لم يكن له الا الهوس بالسياسة والتدريب العسكري العام وشراء صفقات السلاح، ونسى الثقافة والمسارح والفنون والملاهي والملاعب والحدائق والمنتزهات ومراكز الثقافة، وطبعا جاء هذا الخطاب الثورجي المرعب ، معاديا لمثل هذه التوجهات فهي ثورة ادارية ثقافية يريد فيها اللجان الشعبية ان تزحف على كل ادارة وكل حي، وطبعا وضعنا جانبا الملف الذي كان جاهزا بمادة الترفيه ، وكان علينا في يوم واحد ان نجد مادة تنسجم مع الحالة الثورجية التعبوية الشعبوية الجديدة، وكنا نريد مقالات تنسجم مع هذا الموقف ، وطبعا كان بين كتاب الصحيفة من اعماه الرعب وسمع بحملات القبض على زملائه فارد ان يكتب شيئا ربما ينجيه من مقصلة الطاغية، وكان اول القادمين زميلنا الاستاذ بشير الهاشمي يحمل مقالا يمجد الاتجاه الذي جاء في الخطاب اسماه فيما اذكر العودة الى منابع الاصالة، او شيئا من هذا القبيل، وكان الله رحيما به ، فلم يشأ مع هذا المديح ، ان ياتيه جلاوزة الشرطة فيقبضون عليه، وفعلا لم يكن ممن شملهم السجن، مع ان القليل القليل من اهل الثقافة ممن سلموا من هذا الحملة ، ويبدو ان وجودي كرئيس تحرير في مؤسسة الدولة قد انجاني من المصير الذي طال كل الزملاء، وصرنا نبحث في الملفات عن مقالات تلائم الموقف، فوجدنا مقالا عن فرانز فانون ودوره في ثورة الجزائر فوضعناه في خطة العدد، ولم نستطع طبعا نشر اي مقال من العدد الخاص بالترفيه ، الا ان هذا التغيير، لكي نواكب الحدث الثورجي، لم يكن كافيا، فاذا صحيفة البلاغ، ولم يكن قد طالها التأميم بعد، ولم تكن تحت مظلة المؤسسة العامة للصحافة كما سيحدث في اشهر سابقة، بادرت بالموقف العدائي لنا، ونشرت مقالا لا اذكر الان من كان كاتبه ، تستعدي السلطة الانقلابية ضدنا، لاننا

نمجد في المقال رجلا يجاهر بفكره الماركسي وهو الفكر المستورد المأفون، ولم يشفع لهذا الرجل انه كان يعمل مع الفدائيين الجزائريين ، ولم يشفع له انه عندما مات دفن في قبره ملفوفا بعلم جبهة التحرير الجزائرية ، فالمسكين ظل في عرف محرر البلاغ، ذات التوجه الاسلامي السياسي، رجلا زنديقا يحمل فكرا الحاديا، وطبعا لم يتردد كاتب المقال، في اتهام صحيفة الاسبوع الثقافي بانه بهذا المقال تتحدى مقولات الثورة التي تطالب بتنقية الفكر العربي من الافكار المستوردة ، فتاتي بعد خطاب العقيد تروج للافكار التي يحذر منها، واستشهد الكاتب بعبارات كثيرة، لانه قال في بداية المقال انه اخذ قلما ووضع خطوطا تحت الكلمات التي راها تتناقض مع التوجه الثوري الليبي ، ولم يكن ثمة مناص من الرد وبقوة، فالموقف استعداء صريح لرئيس الانقلابيين ضدنا، في لحظة من لحظات هياجه الهستيري الذي يتحول فيها الى ثور هائج، يرشق قرنيه في صدر كل من يقف في طريقه، وفعلا كتبت مقالا معاديا لصاحب المقال، ارد عليه الكيل كيلين، واتهمه بانه هو الذي يعادي النهج الثوري وليس الاسبوع الثقافي ، ووضعت عنوانا ارد به على جملته الاستفزازية التي تشير الى الخطوط التي وضعها تحت الكلمات وقلت " الاعمى الذي وضع تحت الكلمات خطوطا" واظهرت ان صحيفة الاسبوع الثقافي احتفت برمز من رموز الثورة والحرية، والى اخره من مثل هذا الكلام الذي ينصف قائدا من قائدة حرب التحرير الجزائرية. المهم انه في اثناء هذه الحملة على المثقفين ، وفي اليوم الثاني والثالث من الحملة، كان عبد الله القويري جالسا في مكتبي، عندما دخل زميل يقول ان هناك شخصين يقفان بمدخل الصحيفة، يسألان عن الاستاذ عبد الله القويري ، فابلغته ان يأذن لهما بالدخول ، فقال انهما يريدانه خارج الغرفة، وعلى الفور ، نهض الاستاذ عبد الله القويري، وكانت لديه حقيبة جلدية يدوية ،يضع فيها كتب،ه وبعض ملفات المكتب الذي يؤسسه، قائلا " لقد وصل الجماعة"، وطبعا كان معروفا من هم الجماعة ، فاخبار القبض على زملاء كتاب ، بينهم ابن عمه يوسف القويري ، قد شاعت في البلاد، ولعل تاخرهم بالقبض عليه انه لم يكن قد استقر في عنوان ثابت فقد تنقل بين اكثر من فندق، وفعلا خرج لهما ليصطحباه الى الخارج، وذهب وراءه زميلنا في الصحيفة سعيد المزوغي ، وهبط معهم السلالم ، حتى راهم يصحبونه في سيارة بيجو بيضاء ، وكانت هي النوع الذي يستخدمه شرطة المباحث العامة ، او الامن الداخلي، وجاء يبلغنا بذلك، ثم خطر علي ان اهاتف فندقه ، فقال موظف الفندق انه فعلا جاء الى الفندق مخفورا بهما ، ليفتشا غرفته ، وخرجا به . فهرعت مسرعا الى الوزير دورده، لانقل له خبر الاعتقال بعد ان تاكدت منه، قائلا له انه هو الذي اعطاه كلمة الامان ، وهو الذي يتحمل وزر عودة الرجل، واثقا في كلمة الشرف التي اعطاها له ونقلتها اليه، وعليه ان يعالج الموقف بما يضمن عودة الاستاذ عبد الله الى عالم الحرية والامان. واعتقد ان السيد ابوزيد دورده، ورغم صعوبة التعامل مع مجنون ليبيا كما كان يسميه الرئيس السادات، بدل جهدا في هذا الخصوص، واستطاع بعد بضعة اشهر، ان ينجح في ان يكون عبد الله القويري، اول من تم الافراج عنه من سجناء تلك الدفعة.

كنت وقبل ان اترك عملي في الصحافة قد قابلت رئيس الانقلاب اربع مرات، المرة الاولى اثناء حضوره مؤتمرا للشباب اقيم في غابة جود دائم التابعة لحركة كشاف ليبيا، واخذونا للسلام عليه في الخيمة التي خصصوها له، وسمعت منه كلمة ثناء على صحيفة الاسبوع الثقافي، واثناء القائه خطابا بالمناسبة ، منقولا على الهواء في التلفاز، وكنت غادرت مقر الاحتفال عائدا الى بيتي، وفتحت جهازالتفاز اسمع واشاهد خطابه، فاذا به يذكر اسمي، ويضرب المثل باحدى المقالات التي اكتبها في الاسبوع

الثقافي. هذه كانت مرة اولى، والثانية عند اجتماعه بالجانب الليبي من اعضاء اللجنة الدستورية المنوط بها كتابة دستور دولة الاتحاد المقترحة بين ليبيا ومصر عام 1973، وكان اختياري لانني في لجنة المؤسسة العامة الصحافة ، لكي اكون ممثلا لقطاع الصحفيين والاعلاميين وربما الكتاب والمثقفين، لست ادري حقيقة، لان ماحدث بالضبط هو النني كنت في بيت احد الاصدقاء، نتناول طعام العشاء، وكان التلفاز مفتوحا، على المحطة الليبية، ياخذ مكانه في جزء من الصالة التي تضم مائدة الطعام، عندما قرأ المذيع لائحة اسماء تهيأ لي انني سمعت اسمي ضمنهم ، دون ان اكون قد استمعت بانتباه الى بداية الخبر او عرفت محتواه، وعبر مكالمة هاتفية، عرفت انني صرت عضوا في لجنة الدستور، وقوامها ثلاثون عضوا من ليبيا، وسينضم الينا عند ذهابنا الى القاهرة حيث مقر مداولات اللجنة، الجزء المصري ، وهم ايضا ثلاثون عضوا تم اختيارهم من مجلس الشعب المصري، وقمنا ، نحن اعضاء الجانب الليبي، بعقد اجتماعات تمهيدية قبل السفر الى القاهرة، حضر احداها الرائد عمر المحيشي ، الذي بدا وضحا من حديثه انه لا يكن احتراما شديدا للرئيس المصري السادات، اذ وردت في حديثه اكثر من جملة تسخر منه ومن تسميته لنفسه الرئيس المؤمن، ولعله قال كلاما عاما عن العلاقات بين الشعبين التي تتجاوز الاطر الحاكمة باعتبارها اطرا طارئة وعارضة والبقاء دائما للشعوب، ولحقائق التاريخ والجغرافيا، التي ياتي الاتحاد بين البلدين ليكون تجسيدا لها وتعبيرا عنها. وحضر الاجتماع الثاني ، قائد الانقلاب نفسه ، وهي اجتماعات كنا نعقدها في القصر الملكي سابقا الذي اطلق عليه قصر الشعب، الذي حضر من اجل التوجيه واعضاء الخطوط العريضة التي سوف نسير عليها في وضع مواد الدستور، واستمع في البداية لاحد الاعضاء ، وكان يمثل الجانب الديني، عندما نهض ليقول ، وما حاجتنا لكتابة دستور ، ونحن نملك كتاب الله القرآن الكريم ، الذي هو دستور هابط من السماء، حيث لا دستور افضل منه يستطيع ان يكون منهاجنا في الحياة، فلم يعترض العقيد على كلامه، ولم يقم بتصحيح له كما توقعنا، وقال له ليتك تقول هذا الكلام اثناء اجتماعكم في الهيئة الدستورية بكامل اعضائها من ليبيا ومصر، وكان كلامه مثار استغراب لبعض منا، رايت بعض الاصدقاء يبادلونني النظرات ، فقد كان واجبه افهام هذا الرجل من اهل الدين ان الدساتير تختلف عن كتاب الله في الصياغة القانونية لمواد يمكن ان تستمد روحها وجوهرها ومضمونها من كتاب الله ، فلا تخالفه ولا تضع شيئا في موادها يتناقض معه، ليسهل بعد ذلك الاحتكام اليه ، بدل الاحتكام الى مثل عليا والى قيم روحية وتوجيهات عامة عريضة ، قد نجد فيها سندا لحكم من الاحكام ، ولكن احكاما اخرى كثيرة تريد ضبطا وتحديدا في الدستور لكي يسهل ان نجد فيها السند والمرجع، اما بهذه الطريقة فكانه يريد ان يزرع الغاما قد تفسد التوافق بين الجانبين.

وذكر لنا العقيد فيما ذكر، انه من تحصيل الحاصل ان يكون المنصب الاول ، اي رئيس الجمهورية من نصيب مصر، وان ليبيا يكون لها نائب الرئيس، واضاف موصيا بضرورة ان نحرص حرصا شديدا واكيدا على ان تكون تبعية الجيش لنائب الرئيس، وكان هذا هو اهم ما الح عليه ، وان نستعمل كل الاساليب بما في ذلك انه لا حاجة للرئيس ان يتم ارهاقه بقضايا الجيش الادارية التي قد يكون بينها التوقيع على الترقيات ، والافضل لصالح الاتحاد والبلاد، ان يتفرغ للشأن المدني تفرغا كاملا، ونظرت لبعض اخوتنا القانونيين وكان اقربهم لي الصديق على الطروق ، عله يتولى التعليق ، لانني اعرف ان رئيس الدولة هو دائما القائد الاعلى للجيش ، بما في ذلك الملكة اليزابيث في بريطانيا ، فهي تكاد تكون قاعدة دستورية سيكون صعبا الالتفاف حولها، وباعتباري لست قانونيا فقد رايت انه يمكن

لاحد القانونيين ان يتولى اثارتها معه فلعل لديه طريقة لمواجهة مثل هذا الكلام عندما يرفعه اعضاء الجانب المصري، ولكن احدا من زملائنا القانونيين لم يشأ المناقشة، ربما لقناعتهم انه ليس كل ما يقوله الاخ قابلا للوضع في الدستور ، فليقل ما يشاء وعلينا ان نعيد ما قاله في محاضر الجلسات ولكن الصياغة النهائية ثم الاعتماد والموافقة فدونها اشواط كثيرة، حيث لكل مقام مقال . ضمت اللجنة انواعا من البشر، وبعضهم ويا للغرابة ينتمي الى فئة الاميين، وبعضهم اساتذة جامعيين اذكر منهم الدكتور محمد دغيم، والدكتور ابو حميرة، هناك بعض السياسيين من اهل الحراك الشعبي، مثل محافظ درنة السابق السيد فرج بلها، ومدير هيئة البريد السابق السيد مسعود العريفي، ورسام ينتمي الى المدرسة الفطرية هو السيد على بركة، وكان الرابط المشترك بين الاميين، الذي اوصلهم الى هذه اللجنة ، وكانوا اكثر اعضاءها نفوذا وقوة وثروة ، هو انهم اقارب الضباط الذين يتحكمون في مقدرات البلاد، ممن يسمون انفسهم مجلس قيادة الثورة، وصار معروفا انك اذا كنت قريبا لواحد من هؤلاء الضباط، وتملك مؤهلا متوسطا او جامعيا ، فقد ضمن ت لنفسك مقعدا في الصفوف الاولى من اصحاب المناصب في الدولة، ومع المنصب الغطاء الذي يحميك من العقاب والمساءلة والحساب اذا اردت الاثراء السريع سرقة ونهبا، اما عما يحدث على يدك من خراب لمؤسسات الدولة، فهو امر مطلوب وممنهج، وستزدادد بسببه رفعة وعلوا، اما اذا كنت رجلا اميا يعمل عتالا في الميناء، او في سوق الخضار، او طالت بك ايام البطالة حتى صار تعيش على التسول في الطرقات، وحدث ان صار قريبك الضابط ، عضوا في القيادة، وان الوالدة باعتباره اخت هذا البطل المغوار، الذي سطا على مملكة باهلها وارضها وثرواتها واسواقها وبنوكها، ومارست الاخت ضغطا على اخيها، لان يرفع ابنها الشحاذ، الى مصاف الاثرياء وكبار رجال الدولة ، فماذا يفعل الاخ الهمام، المحب لاخته وابنها، فقد اكتشف هؤلاء الضباط ان المكان الامثل لاستيعاب اقاريهم الاميون، القادر على صنع المعجزة ، واحالة هذا الجاهل الامي من مرتبة الشحاذين، الى مصاف اهل المجد والثراء، هو اتحاد العمال، حيث صار هذا المكالن الذي غالبا ميصل اليه اناس من اهل الخلفية العمالية ، عن طريق التضحية والنضال واثبات الجدارة امام العمال ، فياخذ منهم التفويض للحديث باسمهم وتمثيلهم في المحافل العامة، يتم الوصول اليه بتعيين الاقارب وجماعة المنتفعين من طرف هؤلاء الحكام الضباط، وتم تفريغ هذا الاتحاد ونقاباته، من كل قيادبته بتهمة ان هذه القيادات من اهل الولاء للئنظام الملكي القديم، وتم كذلك ابعاد المناوئين، للنظام الملكي من اهل الحراك العمالي ، لانه لا مكان لهم مع هؤلاء الاقارب، الذين احتكروا مؤسسات الاتحاد وميزانيته وامواله ، بل لم يكن غريبا ان يمنح الانقلابيون هذا الاتحاد حق الاستيلاء على اموال الناس وشركاتهم ومصانعهم واحالة كل الممتلكات المؤممة من القطاع الخاص اليهم ، باعتباهم من اهل الثقة ، ومن اصحاب النظام، وصاروا يتمتعون بمصادر غير محدودة من الاموال والمساكن والفنادق، ويسخدمونها دون حسيب ولا رقيب ولا قانون، لان مؤسسات الاتحاد تقع خارج نطاق الاجهزة الرقابية للدولة وديوان المحاسبة وغيره، وظلت مناصب هذا الاتحاد حكرا على اقارب هؤلاء الضباط، باعتبار انك لا تستطيع ان تضع قريبا اميا وزيرا للتعليم ، او مدير لبنك ليبيا او جامعة ليبيا او هيئة التصنيع او هيئة الطاقة، ولكنك تضعه زعيما عماليا اكثر نفوذا وسطوة وثراء واكبر واعظم اهمية من اصحاب هذه المناصب مجتمعين. وكان معنا في لجنة الدستور نموذج، يصلح مثالا لكيف يصنع اهل الانقلاب من اقاربهم المتسولين ، رجال ثراء ودولة في غمضة عين، فقد كان زميلي في لجنة الدستور، عاطلا قبل الانقلاب ، يعيش على الاحسان، وعندما حلت ليلة القدر، كما يعتبرها اهل الانقلاب، ووصل عدد من الملازمين الصغار الى استلام السلطة ، واحدهم هذا

القريب ، وجد الناس يتقربون اليه، وبينهم صاحب محطة وقود، استخدمه عاملا، يحمل الخرطون ويعبيء خزانات السيارات ، واقتضى منه وقتا لتدريبه كيف يقرا الارقام الاجنبية لانه لم يكن يعرف قراءة الارقام ولا الحروف، وكان هذا قبل ان يبدأ ضباك الانقلاب يعرفون حجم قدراتهم، ويدركون انهم استباحوا بلادا على اساليب الغزو والمدن المفتوحة فكل شيء مباح وكل شيء رهن ارادتهم المطلقة. وراى هذا الضابط ما يفعله رفاقه في المجلس من انتهاكات لكل القوانين والاعراف، وممارسة كل انواع الفساد، فصار يصنع من اقاربه مراكز قوة يدينون له بالولاء، فيضع احدهم في الاسكان لكي يكون عميله في منح مساكن الدولة لمن يريد، وكمثال لفجور هذا الرجل اراني احد موظفي الاسكان، وكان من هواة الصحافة، اسمه محمود ابو ظهير، امرا من هذا الرجل باعطاء بيت او دارة من مساكن الحكومة الى احدى العاهرات ، وقد كتب الامر على قصاصة منتزعة من علبة سجائر فارغة، وقال لي ان العاهرة فعلا اخذت المسكن ، واحتفظ هو بالقصاصة كدليل على الفساد المنتشر في هذا الجهاز الذي يعمل فيه. واعطى قريبه الذي جاء معنا الى القاهرة كواحد من ممثلي قطاعات العمال، مرتبة نقيب لاحدى نقابات عمال النفط ، انتاجا او توزيعا او ما شابه، ليصبح واحدا من اباطرة هذا الزمان .

سافر وفدنا جوا في بداية شهر رمضان عام 1973، واستضافته اليلحكومة المصرية في فندق شهير بجوار الاهرام اسمه مينا هاوس، وعقدنا اجتماعا تنظيميا ضم الجانبين، انتخبنا فيه احد الاعضاء المصرييين رئيسا، هو الدكتور جمال العطيفي، وهو قانوني بارز، وصاحب مركز سياسي في مصر وفي مجلس الشعب المصري، وحضرنا اجتماعا عقده الرئيس السادات وحضره اعضاء مجلس الامة ونحن معهم ، وبدانا نباشر اعمالنا، ونقسم العمل فيما بيننا، وجئنا ببعض الدساتير لدول اتحادية وكونفدرالية، لنسترشد بها، لكن حدثا سياسيا وعسكريا كبيرا جاء كانه العاصفة، يحيدنا عن مسارنا، ففي اليوم العاشر من رمضان صحيت من غفوة الظهيرة على اصوات زملاء في الفندق ، ودوشة وتهليل وتكبير، فاذا بالمفاجاة التي تقول، ان الجيش اداع بيانا يقول بان قواته عبرت القنال، وحطمت خط بارليف، واستعادت الضفة الشرقية لقناة السويس، ولابد لكل من عاصر مثلي حرب السابع والستين، وبياناناتها الخادعة، وصيحات المذيعين التي تنادي باللقاء الكبير للجيوش العربية في تل ابيب ، ان يقف قليلا عاجزا عن تصديق مثل هذا البيان، وفعلا التقينا جميعا على موائد الافطار وجاء بعض كبار اهل القرار في مصر، سعداء مستبشرين مؤكدين النصر الذي تحقق منذ الهجمات الاولى ، وذهب غير المصدقين امثالي لاذاعة لندن ، وغيرها من اذاعات عربية واجنبية، فاذا بها تجمع على صدق ما تقوله البيانات المصرية ، وان الامر في هذه المرة ليس خداعا، وانما هو عبور تحقق بفضل الارادة والاستبسال والشجاعة، التي اظهرها جيش عاني المهانة والمذلة، وتجرع بمرارة طعم الهزيمة وقرر ان ينتقم لنفسه ولشعبه ولوطنه،فتكللت جهوده بالنصر، مع الاعتراف ببراعة الاعداد والتمهيد والتخطيط والتعبئة للمعركة.

وتوجهنا بالتهنئة للرئيس المصرى ولقائد الجيش ولرئيس مجلس الشعب ورفعنا اليهم طلبا باعتبار اعضاء الوفد الليبي في لجنة الدستور، متطوعين للقتال في خط النار، ورجوناهم احالتنا سريعا الى معسكر التدريب، لنكون في اللياقة العسكرية التي تؤهلنا لشرف المساهمة في القتال .

في اليوم الثاني ليلا كنا نتحلق حول المذياع، فقد قررت اذاعة صوت العرب، نقل الخطاب الذي سيلقيه قائد الانقلاب الليبي ، بمناسبة ما كان يسميه عيد الجلاء، وكان خطابا ككل خطبه طويلا، مملا ، ركيكا ، الا انه هذه المرة تجلت فيه كميات من الحقارة والصفاقة والسقوط الانساني ، الذي يصعب ان نجد له نظيرا، فهم لم يحترم ما كان قد ابهر العالم من انجاز حققه الجيش المصري ، بل معجزة تستحق الاشادة والاكبار ، ولم يحترم ان مصر وضعت تحت يده احدى اهم واخطر الاذاعات ، ذات القيمة التاريخية والرقي المهني ، والاقبال الشعبي العربي ، لتنقل للشعب المصري وشعوب الوطن العربي صوته بحيث يقول كلمة مجاملة لهذا الشعب في اداء جيشه ويشاركه فرحته ، ولانه كان محبطا ، وكا ساخطا لان الرئيس السادات لم يخبر ه بموعد الهجوم ولم يشركه في التخطيط للمعركة، فقد شن حملة ضد هذه الحرب، وضد هذا الانتصار، ويسميها وهي في بدايتها بحرب التحريك، لا حرب التحرير ، مع انه قال شيئا يعني انه مع ذلك يضع امكانيات بلاده في المعركة، وهي الكلمات التي صرنا نروجها مع الوفد المصرى ونحاول ان نغطي بها عار كلامه الحقير الاخر . والحقيقة فان الجانب المصري ، مع كل ذلك، تعامل معنا بمنتهى الرقي ، وبمنتهى الذوق والادب، واعتبروا ان الاجتماعات مؤجلة الى ما بعد الحرب ، وبالنسبة لما ابديناه من تطوع فقد شكروا لنا المبادرة، لكنهم اعتذروا بانه لا وقت الان للتدريب، وان هناك على خط النار ما يكفي من الجنود، وان لنا جانبا من المعركة نخوضه في ليبيا لرفع المعنويات، ودعم المجهود الحربي لوجستيكيا ومعنويا، فليبيا في النهاية هي العمق الاستراتيجي لمصر وجيش مصر، ولان المطارات كانت قد اقفلت ولا وجود لرحلات جوية بين مصر واي مكان في العالم فقد احضروا لنا اسطولا من سيارات المراسم، وضعوها تحت امرنا، لتقلنا الى بلادنا، وكان هذا اخر عهد لي بهذه اللجنة ، لان الشقاق الذي بدأه القذافي في الخطاب الذي توافق مع يوم العبور، صار يكبر ويكبر ويزداد العداء بين النظام الليبي والمصري استفحالا حتى وصل الى المواجهة العسكرية بعد بضع سنوات.

الاجتماع الثالث بالعقيد القذافي، حصل بدعوة منه، قام بتوجيهها لي ، للحضور الى مكتبه في باب العزيزية، وسالني ان احضر ومعي عدد من محرري الاسبوع الثقافي لتوجيه التهنئة لهم باصدار صحيفة ثقافية نجحت في ان تكون بديلا للصحافة الثقافية التقليدية، وكنت اعرف ان عددا من ضيوفه، من اهل الثقافة، قد اثنوا امامه على الاسبوع الثقافي، واعتبروه انجازا خطيرا ان تصدر مطبوعة ثقافية اسبوعية من ليبيا، باعتبار ان المجتمع الثقافي ، مجتمع محدود الامكانيات، فان تنجح في هذا المجتمع الصغير ، مطبوعة ثقافية اسبوعية بهذا المستوى ، وبهذا العدد من الصفحات، باكثر مما نجحت مطبوعات مثلها في عواصم ثقافية اخرى اكثر اتساعا وكثافة وغزارة في الموارد والامكانيات الثقافية، فهو عمل يحسب بالتاكيد لصالح المجموعة التي استطاعت الثبات في مثل هذه المعركة، وكان العقيد يخص الاسبوع الثقافي ، دون غيرها من مطبوعات المؤسسة، ببعض ما يعن من خطرات ، كانت احداها مقالة كتبها في ذكرى وفاة عبد الناصر ، بعنوان آخر لقاء، وارسل قبلها ، اطول حلقة في سلسلة ذكرياته التي اسماها قصة الثورة، وفي مرة ثالثة ارسل تعليقا عن حفل للفنون الشعبية، شاركت في تقديمه فرقة درنة، وراى ان ما حدث من تطوير للوحات الراقصة لم يكن تطويرا ولكنه تشويه لها، وقال في تلك المقالة انها تشبه رقصات راها تقدم في شبه جزيرة البلقان على ما اذكر، وجاء لزيارتي ، بعد صدور العدد الذي يحمل المقالة، صديقنا محمد مصطفى المازق، يدفع لي بمقالة يريد نشرها فاذا المقالة ليست الا ردا قاسيا على مقال العقيد عن فرقة درنة، الذي لم يكن يحمل توقيع العقيد، فرايت تبصيره بمصدر

المقال لكي لا يتورط في كتابة رد يجلب له المشاكل، قائلا له انه مقال جاء الينا دون توقيع من باب العزيزية، ولن اعترض شخصيا على نشر رده اذا اراد ان يستمر في النشر، فصمت بضع لحظات، ثم استأذن في الانصراف عائدا بمقاله معه، لانه راى ان ينآى عن الدخول في مثل هذه المناكفة مع اكبر راس في البلاد حول رقصة شعبية.

المهم ، انني كنت اعرف ان للرجل رأيا ايجابيا في الصحيفة، ولم استغرب ان يعبر عن هذا الاعجاب تعبيرا مباشرا، وفعلا اخطرت محرري الصحيفة بالدعوة كما اخطرت بها عددا من المتعاونين ، الذين يكتبون للصحيفة من خارجها للمضي مجتمعين الى باب العزيزية، حيث قام باستقبالنا في صالون من صالونات مكاتبه وليس الخيمة، وذكر كلاما طيبا حول الصحيفة ، وجاء باخر عدد وصار يتصفحه، ووقف امام صفحة اكتبها باسم نسائي، وقال انني اذن اكتب مقالتين، واحدة باسمي واخرى بهذا الاسم المستعار، ليلى سليمان، فضحكت وهو يذكر الاسم، ولابد انه عرف سبب هذه الضحكة، لانني كنت تكتمت على حقيقة انني كاتب هذا المقالات، واشعت في المؤسسة ربما في الوسط ان هناك فعلا امرأة بهذا الاسم، وصنعت لها عائلة وهمية عائدة من المهجر، ولها افكار تحررية جريئة، وكان بعض الناسر يراها جريئة الى حد التطرف، وهناك من جاء محذرا بان بعض ما تكتبه هذه المرأة مناقض لافكار العقيد نفسه، وكنت اقول اننا نستكتبها لهذا السبب، اي لتصحيح مفاهيم خاطئة، بعضها ما زال مترسخا في عقول المسئولين الكبار امثال الاخ العقيد، الذي كان يقول افكارا في منتهى الرجعية والتخلف عن المرأة، الى حد انه اسماها في واحد من خطاباته لعبة الرجل ، اي اداة للترفيه والتسلية على الرجال، وهي افكار اراد طرحها في خطبه وهو يلتقي بفعاليات المجتمع المصري، فوجد من يتولى الرد عليه بقسوة وقوة، ويتصدى لنقض وضحد هذه الافكار بشواهد حية من التاريخ المصرى الحديث، ويبدو انه بدأ يتبين خطل وخطأ افكاره، واعجبته جرأة ليلى سليمان، وسأل عنها رئيس المؤسسة، لانه اراد ان يستفيد بها في احدى المناصب النسائية، ولكن مدير المؤسسة لم يجزم له بحقيقة من تكون ليلى سليمان، فطلب مني ان اقدم له نبذه عن حياتها فيما يسمى سي في، وافهمني انه كلام رسمي سوف يحيله الى القيادة، فادركت ان الامر هذه المرة جد لا هزل فيه، ورجوته ان يتكتم على حقيقة ان ليلى سليمان هي اسم وهمي، اكتب تحته هذه المقالات، لبعث شيء من الحيوية والنشاط في هذه المنطقة، التي اراها تمثل جيبا من جيوب التخلف، الا وهي قضية المرأة في ليبيا، وكتبت له ردا رسميا بهذا المعنى، ولهذا فقد فهمت الاشارة، وفهم هو سر الابتسامة، ولم يقتصر الحديث عن القضايا الثقافية وانما لامس كثيرا من القضايا العامة ذات العلاقة بامور معيشية واجتماعية، فقد اشار في معرض حديثه الى مشاريع اسكانية حكومية في طرابلس ، تخصص للمحتاجين للسكن، وتوزيعها على اساس مناطقي او عشائري، بمعنى ان يخصص قاطع لاهل مصراته واخر لاهل ترهونة او سرت او لاهلى بنغازي، من قاطني طرابلس ، وافزعتني فكرة ان توزع البيوت على هذا الاساس ، بدلا من اسس اخرى تعتمدها دول العالم، فقلت له ان هناك بلادا سبقتنا في مضمار الاسكان الشعبي، وبينها مصر، تعتمد التوزيع الفئوي، وتقيم مشاريع اسكانية من خلال تسهيلات تقدم عبر الاتحادات والنقابات، فهذا مشروع للمهندسين اواخر للمحامين وثالث للاطباء او اساتذة الجامعة او اهل الصحافة والاعلام، ومشاريع اخرى تتم على اعتبار واحد هو الحالة الاقتصادية، اي توزع على الفقراء ، دون نظر للمنطقة التي جاءوا منها، ويرون ان اقامة احياء يقطنها اهل المهنة الواحدة، سيعود بالنفع على اهل المهنة ، فعندما يجد الطبيب اقرانا له يجاورونه في البيت ويخالطونه في

المقهى والنادي ، سيساعد هذا الاختلاط على تحسين مستواه المهني وهكذا للمحامي او القاضي او الصحفي، فتقبل ملاحظتي دون اصرار على رأيه، وقال ان الفكرة جاءت لاعتبارت اجتماعية، حيث سيجد صاحب البيت جارا له من ابناء بلدته، او احد اقاربه يستطيع ان يأتمنه على اسرته عندما يغيب، واضاف انه امر قابل للنقاش ويمكن ان يترك لاهل الخبرة والاختصاص يتفقون حول الصيغة الافضل،

مرة اخرى قابلت فيها العقيد حصلت في مصر، ولعلها سبقت لقائئ به صحبة محرري الاسبوع الثقافي وصحبة لجنة الدستور، اذ كنت اقضى اياما في القاهرة، تخللتها فترة علاج واجراء عملية صغيرة، وعلمت عبر الاعلام بوصول العقيد الى القاهرة، واخبرني اصدقاء لي في اتحاد الجمهوريات وفي السفارة الليبية، ان هناك لقاء تم ترتيبه له مع كتاب الاهرام، ولم يكن مطلوبا حضور احد من مرافقيه الوزراء والسفراء وغيرهم من اعضاء الوفد، ولكن دعوة وصلت لان احضر معهم باعتباري رئيس تحرير صحيفة الاسبوع الثقافي، وفي الموعد المحدد اخذت طريقي الى مبنى الاهرام في شارع الجلاء، حيث وجدت القوم في انتظاره، ويبدو ان استعلامات الاهرام ، ابلغوا رئيس تحريرالاهرام السيد هيكل بان عضوا من اعضاء الوفد الليبي وقد وصل، فاذا به يتقدم مني مرحبا، ويسألني عما اذا كان الاخ العقيد قد تحرك من قصر الضيافة قادما الى الاهرام، وابلغته انني لا اقيم في قصر الضيافة، وانني جئت مباشرة من الفندق الذي اقيم فيه قريبا من وسط البلد. ولم يلبث ان جاء العقيد ، محفوفا بحاشيته الامنية وطاقم القلم الذي يخدمه، وعلى طريقته في القيام بتصرفات غريبة، يفاجيء بها الحاضرين ، قال انه سيستأذن الحضور في اخذ اغفاءة قصيرة، وكان يرتدي بذلة صيفية من نوعية البذلة التي اشتهر بها ماوتسي تونج، واتجه مباشرة الى اريكة في الصالونات الملحقة بقاعة الاجتماع ، وتمدد فوقها، بينما اخذنا نحن مجلسنا في قاعة الجلوس في مائدة مستديرة يترأسها رئيس التحرير السيد هيكل، ويحضرها عدد كبير من اشهر كتاب مصر العاملين في الاهرام ، لم يكن بينهم توفيق الحكيم، ولكن كان هناك احمد بهاء الدين، ونجيب محفوظ، ولويس عوض ، وعدد كبير اخر لم اعد اذكرهم عدا السيد هيكل ، وكنت وحدى من الجانب الليبي الذي شارك مع العقيد، وساهم في الاجتماع الكاتب الفلسطيني الصديق الذي عاش طويلا في ليبيا وينشر مقالاته في الاهرام وكان ايامها عضو المجلس الوطني الفلسطيني، السيد احمد صدقي الدجاني، وما لبث ان جاء العقيد، لياخذ مكانه في الصداره وبجواره رئيس تحرير الاهرام، الذي قال كلمة تقديمية قصيرة ، ثم طلب من المتحلقين حول الطاولة ان يقدموا انفسهم ، وعندما قدمت نفسي ، تدخل الصديق احمد صدقي الدجاني، قائلا بانني قد خرجت لتوي من المستشفى، بعد ان ابليت من عملية جراحية ، فتتابعت كلمات التهنئة بسلامة الخروج من المستشفى استهلها العقيد، ولابد ان وقائع تلك الجلسة قد نشرت ملخصة في الاهرام، ولكنني اذكر ان اكثر الحاضرين جرأة على الحوار مع العقيد ، كان الدكتور لويس عوض رحمه الله، الذي اعترف بضعف مشاعره العربية، ويرى ان هناك رابطة اكثر عمقا وحيوية هي رابطة مصر مع دول حوض نهر النيل ، فحاول العقيد احراجه متسائلا باستنكار" هل معنى ذلك ان اوغندا اقرب اليك من اي دولة عربية؟" ولكن لويس عوض لم يعطه ريقا حلوا ، وتشبث برأيه، ملقيا باسلوبه التوضيحي العلمي ، وثقافته الموسوعية، مزيدا من الاضواء على الجوانب التاريخية والسياسية والثقافية والاقتصادية لهذه العلاقة. هذا اذن نموذج من اللقاءات التي حضرتها مع العقيد، في تلك المرحلة، من النصف الاول من السبعينيات، ولم تربطني الى تلك الفترة اية علاقة مع اعضاء مجلسه القيادي الانقلابي، عدا لقاءات عابرة جدا، مع عضو اسمه بشير هوادي، فيما

اذكر، جاء مرة ، وهو يتولى منصب وزير تعليم، لحضور افتتاح مهرجان المعهد الوطني للتمثيل والموسيقى عندما كنت مديرا له، ثم جاء بعد ذلك في زيارة ليلية الى مقر صحيفة الثورة ايام ان توليت رئاسة تحريرها، وشهدت اكثر من اجتماع لمجلس التخطيط الاعلى ، ولست عضوا فيه ولكن اثناء مناقشة قضايا تتصل بمعهد الوطني للتمثيل والموسيقى، كما حضرت معه اجتماع مدراء ادارات الاعلام وكان في فترة من الفترات يقع تحت اختصاصه، ثم استدعاني بعد ان تركت جريدة الثورة، للقاء منفرد، في الاتحاد الاشتراكي بقصر الشعب (القصر الملكي سابقا)، ولم يكن انطباعي عنه في كل هذه اللقاءات يحتوى على اي قدر من الايجابية، وارى فيه قماشة الانسان القيادي الذي يملك التأهيل والجدارة. بينما حدث بالصدفة ايضا ، لقاء في احدى حفلات مسرح الكشاف مع زميله في المجلس عبد المنعم الهوني، ورأيت تهذيبا وسلوكا راقيا ترك انطباعا ايجابيا عنه ، رغم انني لم اتبادل معه الا حديثا قصيرا ، وسافرت في رحلتين صحفيتين، مع كل من العضوين المعروفين في ذلك المجلس وهما الخويلدي الحميدي وعبد السلام جلود، مع الاول كانت رحلة في طائرة صغيرة، تضم وفدا من خمسة او ستة اشخاص، الى اوغندا، كان معي من اهل الصحافة صديقي سليمان العزابي ، رحمه الله، وضم الوفد، الشيخ محمود صبحي ، وكانت رحلة مريحة، شديدة الامتاع، كانت في بدء استلام عيدي امين للسلطة وكنا ضيوفا على موائده واجرينا لقاءات معه في قصره، قصر عنتيبي وهو يحتل اجمل المواقع في هذه البلاد الجميلة ، وجبنا عددا من حدائق الحيوانات الطبيعية التي تسمى سافاري بارك، وكانت بداية علاقة انسانية جمعتني بهذا العضو من اعضاء الانقلاب ، استمرت الى قيام ثورة 17 فبراير. ومع الثاني ، وهو الرائد عبد السلام جلود، الذي صار صديقا فيما بعد، فقد اعتزم القيام بزيارة لعدد من البلدان الاشتراكية، تنتهي بمحطة اخيرة هي مدينة باريس ، الذي يبدو انه صار محبا لها ، وغالبا ما يجعل منها محطة انطلاق وعودة في رحلاته خارج ليبيا، ووجدت نفسي ، وكنت رئيس تحرير الاسبوع الثقافي ، عضوا في الوفد الصحفي المصاحب له، وحصل خلاف حاد بيني وبينه، عند وصول الزيارة الى وارسو ، عاصمة بولندا، وقد سبقها الوقوف في براغ عاصمة تشيكوسلوفاكيا، وربما صوفيا عاصمة بلغاريا، فقد استلم اعضاء الوفد جميعا في يوم وصولهم بطاقات دعوة لحضور عرض في اوبرا المدينة سيقام على شرف الوفد الليبي ورئيسه، واستعد بعضنا لتلبية الدعوة، ورايتها فرصة لزيارة معلم من المعالم الفنية لهذه المدينة، وقبل موعد الذهاب وجدنا من يقوم بابلاغنا بالتعليمات الصادرة عن رئيس الوفد الرائد جلود، بانه يريد ان يحضر الدعوة في دار الاوبرا بنفسه مع مضيفيه من اهل السلطة، ولا يريد لاحد من اعضاء الوفد الليبي الذهاب الى العرض، ورايت في هذه التعليمات اهانة لا سبيل لقبولها من طرفي ، ولعل له سيطرة على طاقمه الامني او اعضاء الوفد الرسمي او مرافقيه الخاصين ، اما انا فانني ذاهب بصفتي الصحفية التي لا تتبعه مباشرة ولا سيطرة له على حركتي الا فيما يتصل بموعد الذهاب والعودة على الطائرة التي تقلنا معا، وفعلا اعتزمت ان اذهب، رغم تحذير الاخرين لانهم يرون ان الرجل ربما اراد ان يستمتع بصحبة نسائية لا يريد لمرافقيه في الرحلة العلم بها، فذهبت ، ولم يكن في الحقيقة يصطحب احدا غير اهل الضيافة انفسهم، ولم اخفي عنه نفسي، او اداريها وراء الجدران عندما يظهر مع مضيفيه، ولم يكن حتى ذلك الوقت يعرفني معرفة شخصية، او يعرف من يكون هذا العضو من اعضاء الفريق المرافق الذي امتنع عن تنفيذ تعليماته ، وسمعت خلال الايام التالية لهذا الحفل انه يسال عن العضو الذي ذهب لحضور حفل الاوبرا ، فكنت اقول لهم انني انا الذي ذهب، وعندما وصله الخبر ، امر عقابا لي ان اترك الوفد ، لانه لا يريد ان يبقى معه احد لا يلتزم بتعليماته، وابلغني السيد محمود البكوش وكان هو الذي يتولى هذه

البلاغات ، وحلقة الوصل بينه وبين الاخرين، بقرار الرائد بان اغادر الوفد في باريس ، حيث محطته التي سيقضى بها الوفد بضعة ايام، وابلغت بالخبر مؤسسة الصحافة في طرابلس ، فاتصلوا باحد مكاتب وزراة الاعلام هناك، ولعله مكتب وكالة الانباء باستضافتي، وفور وصولي الى باريس، تركت الوفد، وانتقلت مستقلا بنفسي ، مستمتعا بحريتي في العاصمة الفرنسية، وواجهتني عند العودة، مشكلة انني دخلت فرنسا دون سمة الدخول على جواز السفر، لانني كنت صحبة شخصية رسمية ، مشمولة برعاية خاصة، تجعله يدخل هو ومرافقوه دون هذه السمة، ولانني لم اكن ساخرج معهم، فقد كان لابد من اجراء، تولت السفارة الليبة هناك القيام به ، وتسهيل مهمة خروجي من مطار شارل ديجول.

الشخص الرابع او الخامس الذي جرى به اتصال من هذه المجموعة في تلك الفترة، كان الرائد الشهيد عمر المحيشي، فقد كان يتمتع بقسط من الثقافة ، وكان متابعا لبعض المناشط الثقافية، وحضر اكثر من فعالية اقمناها في مبنى مجلس النواب السابق، الذي تحول الى صالة لالقاء المحاضرات واقامة الندوات، وكنت كلما قابلته استمع منه الى طيب الثناء على ما كنت انشره من مقالات، واذكر ان اخر لقاء معه كان في صالة من صالات المعرض الدولي، وكان في يوم اكتشاف المؤامرة التي اتهم بتدبيرها ضد النظام، حيث كان البرنامج يقتضي ان يتحدث ، باعتباره وزيرا للتخطيط، عن وضع المرأة الليبية، من خلال ما يملكه من تقارير واحصائيات وما قامت به وزارته من دراسات وما رسمته من سياسات، وكان سهلا الانتباه الى اشارات توحي بما في قلبه من موجدة ضد زميله رئيس الانقلاب، وكانت احدى السيدات ، قد وقفت تناقشه، بعد الانتهاء من القاء كلمته، وبدء حصة النقاش مع الجمهور، فقال لها بلهجة فاجأتني، لانني اخذتها على محمل سوء النية، بينما لم تفاجيء تلك السيدة التي اضطرت لاخذها على محمل حسن النية ، فقد اشار الى العلاقة الخاصة التي تربطها بقائد الانقلاب، قائلا لها، ما معناه، انها لا تحتاج الى وسيط مثله لينقل لها ما يراه من سياسات وتوجهات تخص المرأة، فهي اكثر قربا وحميمية منه.

وتشاء الظروف ان نسمع في نفس اليوم، خبرا يتداوله الناس فيما بينهم، ودون اعلان عنه في الاذاعة، عن اكتشاف مؤامرة ضد النظام بقيادة الرائد عمر المحيشي، وانه اتجه من تلك القاعة في مقر المعرض التجاري التي القى فيها حديثه، الى الحدود التونسية، هاربا من مصير مأساوي طال الضباط المساهمين معه في المؤامرة، حيث تم اعدامهم وكان عددهم 22 ضابطا، وحبس من كان على اتصال بهم، وله شبه علاقة بما يدبرونه في الخفاء، وهو ما حدث لاعضاء في المجلس الانقلابي نفسه، ممن طالهم العزل والاقصاء مثل بشير هوادي وعوض حمزة، بينما كان عبد المنعم الهوني في مهمة خارج البلاد، فلم يستطع العودة وظل عائشا في المنفي ومنتميا الى المعارضة.

حصلت هذه المؤامرة الانقلابية المجهضة، عام 1975، وكانت لحظة فارقة في تاريخ العهد الانقلابي، فقد ازداد الهاجس الامني ، وصار جهاز المخابرات الذي اسهم في تأسيسه عبد المنعم الهوني على اسس جديدة، واعتبارات وطنية ، وعناصر مؤهلة قانونيا، جهاز حماية لراس النظام، يستهدف متابعة وملاحقة الليبيين، لانهم هم اصحاب المصلحة في تغيير النظام، فالنظام يستطيع ان يتفاهم مع الخارج، وقد جاء بمباركة من هذا الخارج، مدعوما من اطراف دولية تستطيع حمايته الى اي مدى تريد، كما تستطيع الاستغناء عن خدماته متى شاءت، لكنه بالنسبة للبلاد انشأ لنفسه نظاما مغلقا لا مجال

فيه لاي احتمال للتغيير، ولا مرجعية فيه لاي هياكل شعبية، حتى لوكانت كرتونية صورية تقوم على تفويض شعبي، حتى لوكان مموها. فقد صاغه حكما ابديا سرمديا واسمى نظامه الفاتح ربما اشارة الى ان ما قام به غزوا وفتحا يتيح له استباحة كل الحقوق، وليس الفاتح فقط بل الفاتح ابدا، فلا احد يطمع في تغيير ولا تبدل ولا تداول للحكم والسلطة، وتعددت الاجهزة البوليسية وتعاظمت، فمثل هذه الصيغة لا سبيل لابقائها الا بتغول كلاب الحراسة، وتصبح هذه الاجهزة هي ذات الحظوة والسيادة، التي تنفق عليها ثرة النفط التي فاء بها الله على الشعب الليبي، فحرمه منها، وخصصها لاغراض اخرى، بيها اجهزة حراسته، التي تصرف لها الميزانيات وتحظى بالامتيازات والاستثناءات ولا نجاح في الحياة لعنصر يعمل في ظل هذا الوطن او هذا النظام الا اذا وضع نفسه ومهاراته في خدمة هذه الاجهزة التي احدى مهماتها ان تتجسس على بعضها البعض ، وان تعتمد في بعض مناحيها على الجانب القبلي، بل صار الفرز القبلي، سمة اساسية من سمات النظام، وارتفع الخبير القبلي الاول في بلاط القذافي، ليحتل مرتبة متقدمة على اعضاء المجلس الانقلابي انفسهم، وهو ابن عم القذافي ومستشاره في القضايا القبلية خليفة حنيش،وهو مبعوثه الدائم لهذه القبائل، ومنفذ مخططاته في خلق الفتن بينها، وشراء الولاء، ومنح الثواب لمن يستحقه، او العقاب لمن يتأبي عن تقديم الولاء. وهناك قول ينسب الى السيد حنيش ، وهو انه اذا كان شيخ طاعن في السن ، لا يستطيع ان يتحكم في بوله، هو الملك ادريس ، قد احتفظ بالحكم ثمانية عشر عاما، فكيف لا نستطيع نحن ان نحتفظ به اضعافا مضاعفة . فالحكم بمثل هذا المنطق ، ليس امرا توافقيا يتم بارادة الناس واختيارهم وتفويض منهم ، وانما قهر وعسف وسطو واغتصاب، وهو طبعا منطق لا يبتعد تماما عن تقاليد البدو قديما ، حيث تقوم السيطرة على المنعة والعزة والغزو، ومنطق القوي يحكم الضعيف ويسيطر عليه، ويبدو انه كان صادقا في قوله، لان بقاءه في الحكم هو وسيده وقبيلته، وصل الى ما يقرب من ثلاثة اضعاف حكم الملك السنوسي.

قول ان رئيس الانقلاب الذي كان يدعي لنفسه نوعا من الشعبية، وانه يرتكن في حكمه الى تفويض شعبي، تمثل في الحشود الشعبية التي خرجت ترحب بانقلابه، اسفر في العام 1975 عن وجهه الحقيقي ، وانه لا ينشد تاييد الشعب وتفويضه، بل ولا يهمه رضا الناس ونقمتهم عليه، لان الامر صار قهرا واضحا مفضوحا لا مراء فيه، ولا ادعاء، وتضاء شيئا فشيئا الخطاب الذي يمالىء الناس ويتملق الطبقات الشعبية، ويحاول كسب ودها، مخاتلة وضحكا ووعودا فارغة وشعارات براقة، وعلت لهجة التهديد والوعيد والسحق والمحق والسحل، وظهرت تلك الاغاني التي تعبر عن هذا الاتجاه مثل "دوس على الرجعي والخائن"، والرجعي هنا والخائن، ليس حسب اي تعريف قانوني، او دستوري، لا نه لا وجود لدستور، وكان قد الغى العمل بالقانون بدءا من عام 73، مانحا الاولوية لكلمة تخرج من فمه وتكون هي البديل للقانون، فصارت تصنيفات العقيد ونزواته هي التي تملك حق دمغ هذا بالخيانة وذاك بالرجعية ، وتمنح الاخر صكوك الغفران، وتغمره بنعمة الولاء والاخلاص، وصار تحريك النوازع القبلية والعشائرية والمناطقية، والعبث بها، وتوظيفها في المجال السياسي، تحريكا واضحا صريحا، والاعتماد عليها كبديل للولاء الوطني، اعتمادا اساسيا في ادارة شئون البلاد، وظهرت حصص الشعر الشعبي في الاذاعة، والمهرجانات الجماهيرية، تعكس بعضا من هذا التوجه الجديد، وانبرى شاعر شعبي مقرب من النظام اسمه نور الدين العزومي، يلقى في الاذاعة قصائد تشتم قبائل ومناطق بعينها، لان معارضا للنظام ينتمي اليها، مثل مصراته التي استحوذت على قصائد هجائية شملت كل اهلها لانها

المدينة التي انجبت عمر المحيشي. وقد لقى هذا الشاعر البائس، مصرعه في حادث، ربطته الاشاعات ببعض هذه الصراعات العشائرية، التي ايقظها النظام. وفي هذا الجو الموبوء ، الملوث بجراثيم العنصرية والقبلية ، العائش تحت سياط القمع والكبث والتسلط، الححت في الدعوة في ترك العمل كرئيس تحرير بمؤسسة الصحافة، والسماح لى بالخروج في بعثة دراسية، هروبا من هذه الاجواء، ويبدو ان رغبتي في الخروج من هذا العمل، التقت مع رغبة في الدوائر العليا، ولدى رأس النظام نفسه ، في الاتجاه بالصحافة والمطبوعات التي تصدرها الدولة وجهة اخرى ، فقد بدأت بشائر الايدوليوجية البزرميطية التلفيقية التي يريد ان ينسبها الى نفسه، غرورا وخداعا للذات وللناس، تظهر بعض علاماتها في خطاباته ووسائل اعلامه، وبدات النغمة تتعالي عن قرب ظهور ما اسماه النظرية العالمية الثالثة ، وان هذه النظرية التي ستكون من ابتكار عبقريته هي الان في حالة مخاض، وهو يريد الان ضبط اوركسترا الولاء والحمد والتمجيد ، جاهزة لاستقبال الهامه الجديد، ومولوده المصبوغ باللون الاخضر، فوافق على ارسالي الى الخارج، والى لندن التي طالبت مواصلة الدراسة بها، ولكن بشرط ان اقرن الدراسة اذا اردت، بالعمل مستشارا اعلاميا في السفارة، وفعلا صدر قرار الايفاد، ناصا على ان اباشر عملي بدءا من اول يوم في السنة الجديدة ، 1976، وقبل هذا التاريخ ، وفي وقت توافق مع اعياد السيد المسيح، كنت اركب الطائرة التي حطت بي في مطار هيثرو ، لندن، لاباشر عملي في السفارة التي كان يتولى قيادتها السفير الدكتور محمود سليمان المغربي، اول رئيس وزراء في العهد الانقلابي، قبل ان يتم اقصاؤه عن هذا المنصب، وينتهي به المطاف ، سفيرا لليبيا في بلاط سانت جيمس، ورغم عمله في وظيفة يمثل فيها رئيس بلاده وصوتها لدى المملكة المتحدة، الا انه كان يجاهر بعدائه للسياسات التي يتبناها النظام في ليبيا، رافضا كل الدعوات التي تصله بالحضور الى طرابلس للتشاور، لانه صار لا يأمن على نفسه اذا عاد، وقد اوجد لنفسه صيغة للتعاون مع النظام، وهو ان يبقى في هذا الاطار الديبلوماسي الذي يكفل له بعض النشاط في المحافل السياسية، والاعلامية، لدعم القضايا العربية، ومنها قضية فلسطين، وشرح ما يستحق الشرح من مواقف ليبيا الخاصة بالسياسة الخارجية، وان يبقى على هذه الصلة ، محتفظا بمساحة من البعد عن الشأن المحلي، وعدم اقتناعه او رضاه على تعاطي الدولة مع هذا الشان ، فان قبلت الحكومة الليبية ورئيسها بهذا الوضع فهو مستمر في عمله ، وان لم تقبل فهو جاهز للانسحاب. ودخلت حياتي مع هذا الانتقال الى لندن، مرحلة جديدة، امارس لاول مرة في حياتي عملا ديبلوماسيا وادارة جانب من الاعلام الخارجي ، يشمل دائرة اوسع من لندن ، ربما كل الدول الناطقة باللغة الانجليزية، خاصة دول الكومونويلث ، التي تعتبر لندن عاصمة لغوية وثقافية لها، مرحلة مختلفة على المستوى المهنى والمستوى الانساني الاجتماعي، ومستوى التكوين والثقافة والسياسة ، مما يستحق ان اخصص له جزءا يغطي كل جوانبه في مرحلة ما من كتابة هذه السيرة الذاتية، وقسم اخصصه لاعوام الاغتراب والرحيل والحياة خارج الوطن.

وربما من المناسب وقبل ان الانتهاء من فترة العمل بالمؤسسة العامة للصحافة ، من الاشارة الى حدث ثقافي بالغ الاهمية كنت طرفا فيه ، هو تأسيس مجلة للثقافة العربية ، تصدر عن المؤسسة، وتطبع في بيروت.

كانت قد اصابت الحركة الاعلامية الخاصة بالنظام الليبي، هستيريا الظهور الاعلامي على المستوى العربي، لتكون فرصة حاكم البلاد لارضاء ذاته المتضخمة، وكانت بيروت في السنوات القليلة السابقة لتفجر الحرب الاهلية (اذا صحت تسميتها كذلك، لان اطرافا غير اهلية هي التي اشعلتها واذكت نيرانها) قد تكرست عاصمة سرية للعالم العربي ، وكان طبيعيا ان يحرص كل نظام حاكم في قطر عربي، ان يكون له حضوره السياسي والمخابراتي والاعلامي، ويتخذ له موقع قدم في هذه المدينة العامرة بالامكانيات الفنية والموارد البشرية، وبسبب التجارة الرابحة للشعارات، التي كانت دولة الانقلاب في ليبيا ترفع بعضها، وربما اكثرها جاذبية ولمعانا، وبسبب ارتفاع عوائد النفط، التي وصلت الى ارقام قياسية بعد سنوات قليلة من حرب اكتور 73 ، انهال اصحاب المشاريع الصحفية، الذين يصدرون مطبوعات تحمل عدد الصفر، تزين اغلفتها صور قائد الانقلاب، يطلبون العون، وفعلا قام النظام الليبي بتمويل عدد كبير من المشاريع الصحفية ودورالنشر، ولا ادري كيف ولدت في هذا الخضم ، فكرة ان تصدر عن مؤسسة الصحافة الليبية مطبوعة ثقافية ، تهتم بالشأن الثقافي على مستوى الوطن العربي ، ويتم نشرها في بيروت.

وكان وزير الاعلام الليبي، جاهزا باحد زملائه المدرسين في اعدادية شارع المأمون ، التي كان مدرسا فيها ، ونقل كل معلميها للعمل بالوزراة التي تقلدها حديثا، مدراء ورؤساء اقسام بمن فيهم من زملاء غير ليبيين، ليكون هذا العنصر هو مسئول هذه المجلة، وكان هذه المرة شابا في مقتبل العمر، من فلسطين، اسمه صالح ابو اصبع، وباعتباري عضوا في مجلس ادارة المؤسسة، يدير مطبوعة ثقافية، فقد ذهبت مع مدير المؤسسة الى بيروت للاسهام في التأسيس والاشراف على التصاميم، واختيار رئيس تحرير للمطبوعة، رغم وجود السيد صالح ، الذي يتاهب لاستلام مدير التحرير، كان الشاعر السوداني، محمد الفيتوري، يقطن بيروت، وجدد انتسابه لاصوله الليبية، وباعتباره صاحب اسم شهير، فقد وقع عليه الاختيار لتولى رئاسة التحرير، وان اكون عونا ليبيا، كمستشار للتحرير، ثم جاءت فكرة ان نجعل لهذه الاستشارة مجلسا يضم بعض الاسماء الشهيرة في الادب ، من مختلف الاقطار، وكان بينهم الدكاترة احسان عباس وشاكر مصطفي والسوداني عبد الله الطيب ، والتونسي ابو القاسم كرو، وصدرت المجلة واستقطبت بعض الاسماء الشهيرة، وكنت منشغلا في طرابلس بادارة الصحيفة الثقافية الاسبوعية، فلم اقترب كثيرا من مجلة الثقافة العربية بعد ان تولاها رئيس ومدير تحرير، ولم اتدخل الا فيما ابديه من اراء اثناء جلسات مستشاري التحرير، وهي جلسات قليلة تنعقد بين طرابلس وبيروت، وكنت في طرابلس، احتفي عن طريق الاسبوع الثقافي بالاعضاء، والاستفادة بوجودهم في العاصمة الليبية، فانظم لبعضهم لقاءات ثقافية ومحاضرات ولقاءات في صحيفة الاسبوع ، حيث كنت في ذلك الوقت ادير اللجنة التأسيسية لاتحاد الكتاب ، واعمل عبر هذا الاطار في تنظيم بعض المناشط والفعاليات.

والذين يعرفون الشاعر المتميز محمد الفيتوري، يعرفون انه رجل شديد التوتر والعصبية، مفرط الحساسية لاي تصرف يصدر من زميل ويرى فيه المساس بكرامته ، حتى لوكان بريئا، مما كان مصدرا لخلافات مع زملائه، والمسئولين في المؤسسة، ويبدو ان الخلاف بينه وبين هؤلاءالمسئولين، وصل الى نقطة اللاعودة، منتهيا باستقالة الشاعر الفيتوري من رئاسة تحرير المجلة، ولم اكن على علم بما يحدث، حتى فوجئت بالسيد عمر الحامدي مدير عام المؤسسة، يطلب مني ان اتدخل لانقاذ الموقف ، وسد الفراغ

الذي سيتركه الشاعر الفيتوري، بان اتولى رئاسة تحرير مجلة الثقافة العربية ، بجوار الاسبوع الثقافي، وهو عرض حري بان يرضي غرور اي كاتب يصبو لان يترك بصمة على مسار الصحافة الثقافية محليا وعربيا، ولكن العرض لم يفرحني، لانه جاء في وقت كنت قد بدات احدد لنفسي هدفا جديدا، هو الانسحاب من المشهد الصحفي الليبي، تحت ذريعة الدراسة التي اريد مواصلتها خارج البلاد، ولا تمثل الوظيفة الجديدة الا وتدا يضاف الى بقية الاوتاد التي تشدني الى واقع ونظام صرت عاجزا عن الاستمرار في استنشاق هوائه، والتفاعل مع مناخاته، خاصة ان مقر مجلة الثقافة العربية لم يكن رسميا بيروت، وانما طرابلس ، يقتصر المقر اللبناني على الطباعة والاخراج، ولا يشفع لي ان رئيس التحرير السابق كان متواجدا في بيروت، فقد جاء ذلك بحكم الضرورة، وحكم المجاملة، مراعاة لظروف اقامته المستمرة هناك، واقنعني السيد الحامدي بقبول العرض، باعتباره عملا مؤقتا لانقاذ الموقف، وسد الفراغ، الى حين البحث عن رئيس تحرير دائم في متسع من الوقت، وفعلا لم تستمر رئاستي لتحرير المجلة غير عام ونيف، وشغرت وظيفة زميل في مجلس ادارة المؤسسة عندما قفلت صحيفة كان يرأس تحريرها، فتخليت له عن رئاسة تحرير المجلة الثقافية، التي بدات تحقق حضورها كاحدى اهم المنابر الثقافية في العالم العربي، الا ان بداية تفجر الحرب في لبنان جعل صعبا ان تبقى هناك ، وتم بحث امكانية طباعتها في ليبيا، ووجد ان في بنغازي ثمة امكانية لذلك، باعتبار ان الثقل الطباعي لمطبوعات الدولة كان في طرابلس، فتم نقلها الى هناك وكان معنى هذا الانتقال ايقاف شريان الحياة الذي كان يغذي تفوقها، وسطوعها وشهرتها وقوة توزيعها في بيروت ، وبداية هبوط الخط البياني لنجاحها وارتفاع مستواها، وانسحاب الكتاب الذين تعاونوا معنا، وانطفاء الوهج الذي احاط سنوات صدورها في العاصمة اللبنانية. وكنت اثناء رئاسة تحريرها ، قد قضيت في بيروت وقتا اكثر مما قضيته في طرابلس ، واعتبرت وجودي في هذا الموقع تحديا لمهارتي في ادارة مثل هذاالمرفق ، استعنت بقامات سامقة في الادب لكي تاتي الى معاونتي ، مثل الدكتور يوسف ادريس ، والشاعر صلاح عبد الصبور، وقد امداني بمادة صحفية شهرية ذات تميز خاص ، واقترح يوسف ادريس ان يتولى اجراء مسابقة قصصية عبر المجلة ، واقترح صلاح عبد الصبور ان يقدم كتابا داخل المجلة ، كانت مساهمات عظيم شعراء العرب نزار قباني ، وغيره من ادباء وشعراء مثل معين بسيسو وغالي شكري وغيرهما علامة على ان المجلة وصلت الى افاق عالية، دون وجود ميزانيات استثنائية بل كنت اعمل بلا ميزانية واترك امرها لاهل الادارة ولم يكن اتصالي بالكتاب ابدا يحمل اي شبهة اغراء وانما ارضاء لذائقتهم الادبية واظهارا لمحبتهم لي ، ولا اعتقد ان وزيرا عراقيا شهيرا هو الشاعر شفيق الكمالي يخصني بقصيدة انشرها له في المجلة ، بسبب ان هناك مكافأة مجزية ستاتيه من طرفي ، ولقيت دعما لا محدودا من ثلاثة اصدقاء من ابناء جيلي او اكبر مني قليلا هم محي الدين صبحي وياسين رفاعية وعبد الرحمن الربيعي، فقد تكون بيننا فريق يصر على ان يجعل هذه المجلة صوت الطليعة العربية المثقفة ، ولابد هنا من وقفة ضرورية ، تدل على حجم المفارقة التي يحملها النجاح في ليبيا، وليعذرني صديقى العزيز السيد عمر الحامدي رئيس المؤسسة، لايرادها، لانه جاء يحدثني حديثا، اعرف على وجه اليقين انه لا يقوله بصوته، وانما بصوت رئيس النظام نفسه، ونحن نعرف الان حجم الظلام الذي يغمر قلبه، وحقده على النجاح والتفوق ، ورغبته في ان تبقى كل الاشياء ، في عتمة النسيان والاهمال ، الا ما يقوله ويفعله من ترهات وخزعبلات وافكار مجنونة ، فماذا جاء السيد عمر يقول لي ، او ينقله على لسان رئيسه دون تصريح منه بذلك، جاء يحمل لي نقدا، لعله اغرب نقد يمكن ان يسمعه انسان في حياته من العاملين في هذا المجال، جاء رئيس المؤسسة العامة يقول لي انني

انحرفت بالمجلة عن مسارها، واحلتها مجلة مكرسة لكبار الكتاب ونجوم الادب والابداع وملاتها بالاسماء اللامعة، بحيث لم تترك مساحة للنشء الجديد، وطبعا لم يكن هناك امكانية لان تمتليء مجلة من مائتي صفحة بمادة ينتجها العظماء فقط ، فهناك انتاج لمبدعين ، اخرين ، وقد اطلقت المجلة موجة شعراء الجنوب اللبناني الذين اصبحوا نجوما فيما بعد مثل على محمد شمس الدين وشوقي بزيع ، وكنت اعرف صديقا شاعرا رحل فيما بعد هو الاديب الرقيق وكاتب الاطفال الجميل يعتز انني نشرت له اول قصيدة في هذه المجلة ، فلم يكن النقد موجه لتقصير في تبني الاصوات الجديدة، ولكن رعبا من التفوق والنجاح الذي اصاب قلب رئيسه ، وهو نقذ اشل قدرتي على الرد والكلام ، كنت فعلا افتح عيني في الرجل مندهشا، غير مصدق ان ما اسمه من اشادة وثناء من كل المحافل الادبية، يصبح في عين الرئيس المباشر، الذي يجب ان يكون شريكا في النجاح وشريكا في الفرح بهذاالنجاح هو مصدر هذا الكلام، لانه ياتي مقطوع الصلة باي منطق ، معاكسا للحقيقة، بل سرياليا، عبثيا ، لا معقولا، ثم انني لم اطلب هذه الوظيفة ، ولم يكلف هذه النجاح المؤسسة فلسا واحدا اضافيا، بل كان هؤلاء الناس يتاخرون في استلام مكافأتهم وكان ذلك موقع عتاب قوي من كاتب كبير هو صلاح حافظ الذي كتب مقالات كثيرة دون ان تلقى مكافأته ، وكنت مرتبكا امامه لانني لم اكن معنيا بهذا الجانب ولم اعرف ردا اقوله ، فكيف الان ياتي هذا الصديق ليقول كلاما كهذا لي، وهو يعرف انني لم اطلب هذه الوظيفة ، كما انه على بان مطلبي هو ان اعود الى مقاعد الدراسة طالبا، وان اذهب في بعثة تعليمية الى لندن بعد ان استطعت تامين قبول للدراسة العليا هناك.

ورايت في هذا النقد نية مبيته لتخريب المجلة التي احتلت عن جدارة المكانة الاولى في سلم المجلات التي تنتمي لفصيلتها الثقافية، وفعلا مجلبا للاحباط والمهانة، خاصة وان المجلة جاءت في وقت مجلات من دول نفطية تشتهر بقوة الانفاق ، مثل الدوحة الصادرة عن قطر ، مجلات تصدر عن بغداد، وقد رصدت لها الموارد الطائلة، وواصلت العلم، مستعجلا ان ينتهي المدى المحدود لهذه المهمة ، واغراني بالبقاء ان بيروت كانت في ذلك الوقت ، في اوج ازدهارها وتألقها، وكانت تستقطب ادباء العالم العربي ، حيث اختارها بعضهم للاقامة ، وبعضهم لا يغيب عنا الا ليعود اليها، وكنت قد التقيت بعدد كبير جدا من ادباء العالم العربي نجومه اللامعين مثل نزار قباني ، وفاتني لقاء رتبه لي الصديق ياسين رفاعية مع استاذ من اساتذة الجيل مثل ميخائيل نعيمة، ولم استطع الذهاب الى بيته في بلدة بسكنة ، جبل صنين، ولقاء بعض اهله الا بعد رحيل ناسك الشخروب الشهير، واستفدت من المعرفة العميقة للبنان بالصديقين الحميمن ياسين ومحي الدين فكانا دليلي لمعرفة خبايا بيروت واجوائهاالساحرة ولبنان وبديع مناظره الطبيعية، والتقيت باصدقاء ادباء فقدناهم اثناء الحرب مثل الشهيد طلال رحمة والكاتب المصري الشهيد ابراهيم عامر، وثلاثة اصدقاء اخرين نجوا ـ حمدا لله ـ باعجوبة من القتل والاغتيال، هم طلال سلمان وعبد القادر غوقة وحسن صبرا، وكنت دائم الزيارة الى ثلاثة اساتذه من الجيل السابق هم الدكاترة نيقولا زياده ومحمد يوسف نجم واحسان عباس وقد ربطتني بهم اوثق العلائق واعتز بانني واحد من تلاميذهم الحريصين على الاستفادة من معين علمهم.

ولم يكن احد يعلم، او يخطر على باله، ان حالة التوهج والاشعاع والابداع التي حصلت في بيروت ، تماثل التوهج الاخير لمصباح قبل انطفائه، انه صحوة الموت التي تعقب تراجيديا الحياة الكبرى، والاخيرة. كانت المدينة في حالة احتفال دائم، كان الحياة مجرد حفل كبير، وكان واضحا لمن يريد البحث

والتقصي، ان هذا الكرنفال الفني والادبي والاعلامي ، وهذا الجو الاحتفالي ، يخفي تحت وهجه الصارخ حلات من الاحتقان ، والغليان ، وعوالم اخرى غير البهجة والفرح ، ربما الالم والمعاناة ، وكان لابد لهذا الخليط الذي يغلي في مرجل بيروت ، هذا الصراع الناتج عن اصرار كل دولة عربية ان يكون لها حصة في هذه العاصمة السرية للعالم العرب ، وهذه النتف من الاجهزة الاستخبارتية، البوليسية، المفيوزية، ان تصل الى حالة الغليان، وكان اللهب الذي اشعله الصراع الفلسطيني الاسرائيلي، في قلب لبنان ، قد ارسل السنته تحت هذا المرجل العامر بالمواد القابلة للانفجار، فانفجرت بشدة وقوة ، وانتشرت الشظايا وقطع النار والاشعاع المضر ليشمل كل بقعة من لبنان ويلتهم العاصمة بكل ما كانت تحفل به من مظاهر الاحتفال وعشق الحياة.

كنت قد تركت مجلة الثقافة العربية، وتركت بعدها ببضعة اشهر صحيفة الاسبوع الثقافي، والتحقت بعملي الجديد رئيسا لقسم الاعلام في سفارة ليبيا بالعاصمة البريطانية.

وقد توافق انتقالي لهذا العمل في بريطانيا، مع تحولات كثيرة بدأ بعضها قبل هذا الانتقال، وتفاقمت وازدادت استفحالا، فقد فقد مجلس الانقلاب اغلب اعضائه، ولم يبق غير خمسة عناصر بما فيهم رئيسهم نفسه، بدلا من 11 بدأ بهم ، وكان هذا بالنسبة له انجازا كبيرا، على طريق الاستفراد بالسلطة، فقد خرج المشاكسون والمنافسون، ولم يبق غير اهل الولاء، وقد ارضاهم بالامتيازات المادية، مقابل ان يتنازلوا له عن كل السلطات التي كانت موكولة لمجلسهم، وهي سلطات ظل يمارسها الى اخر عهده، رغم ابنية الكرتون التي يدعي زورا وكذبا انها تمثل سلطة الشعب، او مؤتمر الشعب، او اللجان الشعبية، لان ليبيا كانت طوال عهده، مسرح الرجل الواحد، ودولة الرجل الواحد، الاوحد ، الذي لا شريك له في رسم السياسات، واصدار القرارات، وقيادة البلاد الى كل ما تحقق من دمار وتخلف وخراب وتفكيك لعناصر الدولة ومؤسساتها.

وتوالت خلال هذا العام، الخطوات التي تكرس سلطة الفرد، تكريسا يقطع الفرصة على اي تهديد لسطانه، او مشاركة له في الانفراد بعرشه، واصدر عام 1976 الجزء الاول من كتاب يحمل سيالاته الذهنية المريضة، اسماه الكتاب الاخضر، ليجعله دستورا للبلاد، واسمى هذا الجزء الحل النهائي لمشكلة الديمقراطية، وبموجبه عقد في العام التالي لصدوره، مؤتمر عام في مدينة سبها ، عاصمة الجنوب، واعلن ما اسماه دولة الجماهير، وصاغ لهذه الدولة اسما مضحكا لا وجود له في قاموس اللغة العربية هو " الجماهيرية"، واضاف لهذا الاسم صفات اكثر اضحاكا، هي العربية الليبية الاشتراكية ، قبل ان يضيف اليها وصفا رابعا يرتفع بها الى مستوى المسخرة الدولية او الكوميديا السوداء العالمية هي صفة "العظمى". عته وجنون وعبث يظهر بدءا من هذا العنوان ، ليفضي الى مثله منعكسا في الواقع والتطبيق. ولكي يقوم بوضع كل شيء في البلاد ، بشرا وحشرا ومالا سائلا او في شكل اصول ، تحت نعله العسكري، تمادى في اطلاق موجات من الترويع للناس على شكل تأميمات، ومصادرات، وسطو على املاك المواطنين، والاستيلاء على بيوتهم، وثرواتهم، تحت مسميات كثيرة شعبية واشتراكية وزحف

المنتجين، وهي في الحقيقةعملية افقار وتجويع، وحرمان اناس من حواينتهم، وبيوتهم، ومزارعهم، وارضي البناء التي يملكونها، مما تسبب في اكبر حركة هروب الى الخارج شهدتها ليبيا في تاريخها الحديث، وكان الرائد المحيشي قد صنع نواة للمعارضة، انضم اليها بعض هؤلاء الهاربين، ثم بدأت تتشكل فصائل اخرى للمعارضة من هؤلاء النازحين عن الوطن، وتدريجيا بدأت تلك المنازلة بين الطاغية وبين المعارضة الخارجية، تسفر عن فصول تتبعها فصول ، وصولا الى هستيريا الاغتيالات والقتل العلني لعناصر المعارضة في اغلب حواضر العالم.

وبحكم الوظيفة ، كان لدي اتصال وتواصل مع عناصر النظام، العاملين تحت السلطة المباشرة للطاغية، ومجلسه العسكري، خلال فترة عملي في السفارة ، وقبلها وبعدها، وبحكم عملي الصحفي احيانا، او العمل النقابي في اتحاد الكتاب الليبيين. ساتي على ذكرها. المهم انني ذهبت الى هذا العمل باذن من رأس النظام، وعدت عند انتهائه، وقبل موعده الطبيعي، بامر منه ايضا، وحاولت ان افهم السبب واحتج عليه ، لان لائحة العمل الخارجي تضع حدا اذنى اربع سنوات للايفاد الى الخارج ، وجاء الامر بانهاء عملي قبل اكمال السنة الثالثة، فرأيته ظلما ان يتم اقتلاعي من وظيفة كرست لها كل وقتي وجهدي ، حققت فيها نجاحا كانت اصداؤه تصل الى الى ليبيا وتلقى ثناء من كل مراقب، خاصة فيما يتصل بخدمة القضايا العربية التي يدعي النظام الليبي انه قائد المسيرة فيها، وكان قادة فلسطينيون ، ياتون الى ليبيا والتقي بهم في لندن، واسمع منهم انهم نقلوا هذا الشكر، وهذا الثناء، لكل من قابلوه في ليبيا ، فكيف تكون المفاجاة هذا السحب المهين، الذي يتعارض مع لائحة العمل الخارجي، واللائحة نفسها لا تجيز هذا السحب، الا اذا ارتكب الموفد عملا يستحق هذا العقاب ، فما هو هذا العمل الذي استوجب عقابا كهذا، وطبعا لم يكن وزير الخارجية ، يجرؤ على القول بانه قرار بامر رئيس النظام، ولم يستطع الدفاع عن قراره باية كلمة، وتدخل بعض الاصدقاء، لرفع هذا الظلم عني ، وطالما ان وزير الخارجية مصر على قراره، فقد تم الاتجاه الى وزير اتبعه بحكم الوظيفة هو وزير الاعلام ، وليس بالضرورة عملا في السفارة التي تقتضي مصادقة ذلك الوزير، وانما في احدى الجهات الاعلامية، التي تقع تحت الاختصاص الحصري لوزير الاعلام، مثل مكاتب وكالة الانباء، اومكتب اخر ثقافي ، فقد كان لديه صلاحية اقامة مراكز ثقافية ، وكنت قد انشأت جمعية خيرية للثقافة العربية، قامت ببعض المناشط مستقلة على السفارة، واصدرت مجلة اسمها "ازيور" ، وحصلت على هبة تكفل لها استقلالا في الصرف على المناشط بشكل محدود جدا، وتحت اشراف المدقق الخاص بمثل هذه المناشط، التي تخضع لراقبة صارمة، خوفا من استخدامها للتربح والتهرب الضريبي، لانها جمعيات لا تخضع للضريبة، وقد اصدر وزير الاعلام قرارا بعودتي الى سابق عملي متفرغا لهذه المؤسسة، والمجلة الثقافية التي تصدر باللغة الانجليزية التابعة لها، دون حاجة لمرور القرار على الخارجية ، وتم بدون علم رأس النظام ،الذي استشاط غيظا عندما عرف بالامر، وصدرت فيما بعد تعليماته بالغاء القرار، وعودتي الى البلاد، وجاءت تعليماته متوافقة مع احدى احقر القرارات، واكثرها عتها التي اصدرها هذا الرجل ، عندما امر بما اسماه الزحف على السفارات، واعد لجانا امنية من اعضاء مخابراته، اسماها اللجان الثورية الشعبية، لتقوم بالاستيلاء على السفارات الليبية بالخارج وكانها مواقع معادية، وطرد الديبلوماسيين الليبيين منها، واستبدالهم بهذه الزواحف القادمة من غرف التعذيب الوحشى، ومهنة البصاصين وكلاب الحراسة، وجعل اول سفارة يستهدفها هذا الزحف هي سفارته ولندن، وجعل له علامة مميزة هو ان يكون تاريخ هذا الزحف هو تاريخ استيلائه على ليبيا في

الاول من سبتمبر عام 1979، وكان قائد هذه الفرقة من الزواحف، احد رؤسا البصاصين في المؤسسة البوليسية السرية، الذي اصبح فيما بعد رئيسهم الاعلى، سيء الذكر المعروف، ومبعوث الموت، كما كانت تسميه المعارضة، بسبب ما كان ينفذه من وامر القتل والتصفية والاغتيال، السيد موسى كوسة.

وكانت قد انقضت مدة سبعة اشهر بين سحبي من السفارة عن طريق الخارجية، ثم عودتي عن طريق الاعلام، لم يتم صرفها لي ، واحتاجت الى دورة روتينية حتى يحين موعد الصرف، فجاء الزحف يوقف استمراري في العمل بناء على القرار الجديد، ويتعطل صرف المرتبات التي لم اتقاضاها، وقد ابلغني بقرار ايقافي عن العمل رئيس الزحف نفسه، وكان لرئيس هذا الزحف ظل باهت اسمه خليفة العزابي، يبدو انه كان مدسوسا في الحراك الطلابي، وكنت اتوسم فيه خيرا، واعامله عندما كان طالبا معاملة الصديق، وعندما شارك في الزحف، نائبا لرئيسه، ووجدته جالسا فوق كرسي الرئيس، الذي كان غائبا في هذه اللحطات عن المكتب، ووجدته يتكلم باستعلاء وغرور، وتجلت امامي مركبات نقص تتبدى في الرجل، ليظهر في صورة مشوهة ممسوخة اثارت اشمئزازي، وجعلت احترامي السابق له، يتحول الى احتقار واستهجان، وخاطبني قائلا انه يمهلني اسبوعا واحدا، لاعود الى عملي في طرابلس، فافهمته ان مهمته انتهت عند ابلاغي بقرار ايقاف المرتب ، الذي كان يصرف لي من عهدة الاعلام في السفارة، اما متى اعود، فهذا رهن بارادتي وليست ارادته ، وخاطبته بحدة ان طلب المجيء للسفارة جاءني من رئيس الفريق ، وهو الذي جئت لمقابلته، ويبدو ان الرجل لم يكن بعيدا ، فاذا به يظهر من خلف باب داخلي، واجد منه ترحيبا واحتراما، واسمعه يعبر عن تقديره لي، وشكره لما قدمته من خدمات، وكلام اخر من هذا الرجل الذي التقي به لاول مرة السيد كوسة، ازال شيئا من سوء المنطق والاستقبال الذي لقيته مما كنت اعتبره صديقا واظهر، وهو يتولى دوره البائس الحقير في لجنة هي الاحقر، والاسوأ، في تاريخ التعامل بين النظام وموظفيه، هذا الاعتزاز بالاثم، وهذه الوقاحة، التي جعلتني اتعلم درسا، عن سلوك البشر، والفرق بين المظهر الخادع، والجوهر المتعفن لبعض الناس. وبسبب غيظي مما سمعته من كلام الرجل الظل، ونكاية في قوله بانه اعطاني مهلة اسبوع، قررت ان ابقى في لندن، والا اعود الا بعد عدة اشهر، وهكذا ارسلت عائلتي الى ليبيا، وكنت قد باشرت وباتفاق مع بعض الزملاء في فرقة مسرحية اهلية بريطانية، كتابة مسرحية "الغزالات"، وعرضت فكرتها على احد المشرفين الادبيين باحدى المسارح فاحب فكرتها، واراد ان يراها مكتملة، كما كان ثمة عدد من مجلة ازيور تحت التحضير، كان لابد ان انتهي منه، فاتخذت قرارا باهمال العودة هذه المدة، والانصراف الى تحقيق مشروع المسرحية واخراج المجلة.

لم اندم على ما قدمته لهذا المكتب وهذه السفارة من خدمات ، ما زلت بعد اكثر من ثلاثين عاما ، اسمع اصداءها واقرأعنها في كتابات صحفيين لهم مكانتهم واعتبارهم مثل الصديقة سوزانا تربوش ، التي ساقتبس من كلامها هذا المقطع المنشور بعد عقود من تركي العمل في لندن، والقته في محاضرة في قاعة الكافة في مطلع الالفية الثالثة:

Ahmed was a key figure on the Arab cultural scene in London in the 1970's and early 1980's when he

كان احمد احد الرجال المفاتيح في المشهد الثقافي العربي في السبعينيات والجزء الاول من الثمانينيات عندما كان رئيسا لتحرير ازيور المجلة الفاخرة الصادرة باللغة الانجليزية لتغطية كل الفنون العربية بما في ذلك المسرح والتراث والحضارة والاثار والفن والادب، وعندما عرضت مسرحيته الغزالات على مسرح برنارد شو عام 82، وكان احمد قد جاء الى لندن عام 68، وكغيره من ابناء جيله عانى بقوة صدمة 67 ومثل له الوصول الى لندن تغييرا للمشهد ، حيث درس اللغة ثم انخرط في في دراسة الدراما،

was Editor-in-Chief of Azure - a glossy English-language magazine covering all the Arab arts including theatre, heritage, civilizations, antiquities, art and literature - and when his play Gazelles was put on at the Shaw Theatre in 1982. Ahmed came to England first in 1968. Like so many others of his generation, he had been deeply shocked by the 1967 war, and coming to Britain represented a change of scene. He first went to a tutorial college and then studied drama in London. After the revolution in Libya he held various positions, including being Director of the Institute of Music and Drama and Head of the Department of Arts and Literature at the Ministry of Information and Culture. Some years later he did a doctorate at Edinburgh University on the Libyan short story.

ولكن ندمي كان على شيء واحد ،انه طيلة هذه المدة التي عملت فيها مبعوثا الى لندن ومنذ شهر ديسمبر 1975 والى شهر سبتمبر 1979 وجزءا كبيرا من السنة التالية لها، لم اكتب خلالها اي عمل ادبي حتى لو كان قصة قصيرة، ولم يزد ما كتبته عن بعض ملاحقات صحفية صغيرة لعدد من المجلات التي كنت اشرف على اعدادها باللغة الانجليزية ، وهي مجلات ثلاث تخاطب اهل البلاد بلغتهم، فلسطين الحرة، والعرب دون، والمجلة الادبية ازيور، وكنت اساهم بالاشراف على مجلة يصدرها المكتب الاعلامي للجامعة العربية ، وهو مكتب يتولى الاشراف عليه مجلس المستشارين الاعلاميين في السفارت العربية ، فكنت اصرف وقتا في اختيار المواضيع والمساهمة في التخطيط للمجلة ودعوة اصدقاء من اهل الصحافة والسياسة للمساهمة في المجلة وهي فصلية تصدر باللغة الانجليزية واسمها شئون عربية .

واصدرنا بالتعاون مع القسم الطلابي الثقافي الذي يديره زميلي وصديقى الراحل خليفة بازيليا مجلة اسمها المنتدى ، بمساهمة من الحراك الطلابي ، ولم تستمر غير فترة قليلة ولكنني ايضا اسهمت في اصدارها وضمان ظهورها في قالب صحفي متطور، دون ان اكتب لها مقالا واحدا مع انها كانت باللغة العربية .

المهم ان هذه السنوات الاربع كانت خصما من حياتي الادبية، لانني فعلا عملت بداب وصدق وايمان بالقضية العربية، التي كانت تمر باكثر مراحلها الاعلامية والدعائية خطورة، في

الغرب، وكنت اظن ان خدمتها خدمة للخط الليبي السياسي، واثراء له، وتاكيد لفعالية ليبيا، وقوة تاثيرها في مواجهة الاعلام المعادي، ولم اكن اطلاقا انتظر هذا الحقد والحسد والجزاء الذي تلقيته. ولهذا فقد خرجت من العمل بنوع من الاحتقان الادبي ، وكان الانصراف لكتابة المسرحية بداية مخطط لان اعود الى احياء هذا الجانب الاساسي الذي كرست له عمري وهو جانب الابداع الادبي .

وكان القرار الذي صدر من اللجنة بايقافي عن العمل ، قد شمل كل العاملين في السفارة بالذات، اي كل الديبلوماسيين ، الذين صدر لهم الامر بعودتهم الى ليبيا باستثناء زميل واحد ارادوا الاستعانة بخبرته في التعامل مع الجوانب الديبلوماسية التي يجهلونها، والاتصال بقسم البروتوكول وغيره ، هو الصديق صلاح مسلم، الذي كنت اداوم على الالتقاء به، فينقل لي اشمئزازه من سلوكياتهم، وفضائحهم، وجهلهم، ومؤامراتهم، قبل ان يصبح سجل هذه المجموعة في الاغتيال، وسفك الدماء، منشورا في الصحف والاعلام فيما بعد، وطال بقائي في لندن، لما يصل الى ستة اشهر دون ان انفذ قرار العودة، وجاء هذا الصديق ليقول انني صرت محسوبا على الديبلوماسيين الغاضبين، الذين قرروا الانشقاق على النظام، لان الزحف على لندن، اعقبته زحوف على سفارات اخرى، واستخدام نفس الاساليب، واجراءات الايقاف والمنع، فاعتبر بعض الناس ذلك العمل اهانة لهم ، وقرروا الانشقاق عن النظام الليبي، والدخول في فصائل المعارضة ضده، وهو ما حصل فيما بعد، من كثيرين بينهم السياسي المخضرم ووزير الخارجية السابق المرحوم منصورالكيخيا الذي حصل هذا الزحف وهو يمارس عمله مندوبا لبلاده في الامم المتحدة ثم محمد يوسف المقريف في الهند وزميله على زيدان وغيرهم كثير. بالنسبة لم تكن في نيتي اطلاقا البقاء في الخارج، ولا الانضمام الى المعارضة، وكذلك لم اكن واعيا بخطورة ان اتخلف كل هذه المدة ، وان هذا التخلف يمكن ان يكون سببا لوضعي ضمن قوائم الاغتيالات التي كان رئيس الزاحفين السيد موسى كوسا وزملائه يستعدون لتنفيذها في لندن، وعندما عدت في مطلع شهر ابريل من عام 1980 ، اي بعد ثمانية اشهر من الزحف على السفارة ، كان ذلك بناء على قراري ، ووفق حدود وضعتها لنفسي ، فقد انتهيت من اصدار واعداد عدد اخر، من مجلة ازيور، لانها كانت مجلة فصلية، وانتهيت من كتابة المسرحية وقدمتها الى فرقة التمثيل، وقمت بنشرها في المجلة قبل ان تنشر بعد ذلك في كتاب باللغة الانجليزية ثم بالعربية ، ويتم عرضها في لندن بعد ذلك بعام او عامين، وكنت التقي خلال مدة اقامتى خارج الخدمة ، في لندن ، وبشكل يومي بصديقي المغدور المحامي الليبي الشهيد ، محمود نافع، واخبرني ان رئيس الزحف على السفارة استدعاه الى مكتبه فيها، تحت ذريعة انه يريد الاستفادة من خبرته في لندن، وهو ما فعله بمغدورآخر كما اخبرني الصديق محمود ، هو المذيع الشهيد محمد مصطفى رمضان ، وفعله مع شخص ثالث حكى لي هو بنفسه ما حصل له ، وانجاه الله من مصير كمصير الشهيدين ، هو السيد احمد الصالحين الهوني صاحب جريدة العرب، وكان السبب الحقيقي لهذا الاستدعاء هو ان يتعرف القتلة المعدين للقيام بعملية الاغتيال على الضحايا الذين سيتولون قتلهم ،اذ انهم لا يعرفونهم معرفة شخصية ، وغالبا ما كانوا مجلوبين من السجون ،التي يقضون فيها احكاما، وتم تكليفهم بالاغتيال مقابل اطلاق سراحهم وربما وعد بالمكافأة، والحماية ، وهو فعلا ما حدث، لانه بعد هذا الاستدعاء بدأ مسلسل القتل ، فقد ذهب القتلة الذين تعرفوا على ملامح الشهيد محمد مصطفى رمضان يتتبعونه من بيته الى المكان الذي اختاره لصلاة الجمعة، في المركز الاسلامي، وعند خروجه من المسجد اطلقوا عليه النار، واردوه قتيلا، تنفيذا للتعليمات التي تريد ضمان الاشهار العالمي لهذا القتل، ترويعا

للمعارضين، في كل مكان من العالم، وبعد عدة ايام، جاء القاتل الذي تعرف على الشهيد محمود نافع في مكتبه الصغير، الذي يعمل به في زقاق قريب من مقر القنصلية الليبية، ودق الباب فخرج له ، يسأله ماذا يريد، فقال القاتل اريد محمود عبد السلام نافع ، فقال له تفضل انا محمود، فاخذ من جيبه المسدس، وصب ما يحتويه من الرصاص في صدره ، وفر هاربا ليقع مع زميل يتولى معاونته على الهروب، في ايدي الجيران الذي هرعوا يتعقبون القاتل، اثرسماع الرصاص. وبعد مقتل الشهيد نافع بعدة ايام ذهبت سيارة تقل القتلة، وتحمل لوحة السفارة، الى مكتب السيد احمد الصالحين الهوني ، لكنه كان قد اتعظ من الدرس ، واوجد عددا من الحراس ، يترصدونهم، وما ان هبطوا من السيارة حتى وجدوا انفسهم محاطين بهولاء الحراس ، فادركوا الفخ المنصوب لهم ، ولاذوا بالفرار، وسط ملاحقة الحراس، وبعض العاملين في صحيفة العرب، وكان السيد الهوني لا يخفي كراهيته لرئيس الزحف الذي حاول قتله، وابلغني انه كان ذات مرة في زيارة الى باب العزيزية، بعد ان مر وقت طويل، وصنع النظام صلحه مع بعض هؤلاء الناس، وكان في اجتماع مع راس النظام، عندما تم ابلاغه ان رئيس مخابراته السيد كوسه قادم للقاء رئيسه، وعندما هم السيد الهوني بالنهوض ساله الطاغية ان يبقى ، الا ان السيد الصالحين قال له صراحة ، كما ابلغني ، انه لا يريد ان يرى موسى كوسه ولا يريد ان يضع يده في يد رجل ارسل عملائه لقتله في لندن، فقبل الطاغية عذره، وهويبتسم في استهبال، لان هؤلاء القتلة، كانوا ايضا عملاء الطاغية نفسه، لكنه مد يده في صمت يودعه.

ومن غريب ما حدث للشهيد محمود نافع ، انه لم يكن يتخذ موقفا علنيا معارضا من النظام، ورغم اختياره للحياة في لندن بعد قضية خلافية لها مظهر قانوني، اكثر منه سياسا، اوصلت النظام الى التامر على شطبه من سجل المحامين، غادر طرابلس للحياة في لندن، حيث يتيح له زواجه من سيدة بريطانية حق الاقامة والعمل، ولكي يقطع النظام عليه فرصة الانظمام الى المعارضة، عرض عليه ان يبقى في وظيفة استشارية قانونية في القسم العسكري، وهو ما رضى به واستمر في عمله ، الى حين تم اقفال هذا القسم ، فتفرغ لعمل بسيط في مكتب صغير يتولى ترجمة بعض الاوراق لتي تتصل بالفيزا للاجانب، المسافرين الى ليبيا، دون ان يقطع علاقته بالبلاد ، وقبل اغتياله بيومين فقط، كان عائدا من ليبيا، بعد زيارة استغرقت اسبوعين، فهو لم يكن هاربا، وكان يمكن لصاحب النظام، وهذا الرجل موجود في ليبيا، ان يقبض عليه، ويامر بالتحقيق معه، ويتاكد من اي اتهام يدينه به، ويقتله من اجله، ولكنه لم يكن يهمه البحث عن ادانة، او براءة الرجل وانما مجرد قتله حقدا وانتقاما، وكراهية سوداء، اوجدها في قلبه، ان محمود نافع عندما كان يترافع فيما يسمى محكمة الشعب، لبى نداء زملائه المحامين الذين اتفقوا على الدفع بعدم دستورية المحكمة، وتولى هو كتابة المرافعة، والقائها، وكان التشكيك في دستورية المحكمة، تشكيكا بالضرورة في شرعية النظام نفسه، الذي جاء بالغدر والانقلاب، ونكث العهد للمحافظة على الدستور. وبعد قتل هذين الشهيدين رمضان ونافع، وربما شهيد ثالث في عاصمة اخرى ، وقف الطاغية في شرفة قصره، وسط الحشود التي يتم تجميعها له قهرا وجبرا، ليتباهي بهذا القتل ، وليقول ان يد نظامه، وثورته، يد طويلة، قادرة بان تمتد لاي معارض، في اي مكان من العالم، وتفتك به.

وكان اخر لقاء بيني وبين الصديق محمود نافع، قبل يوم من زيارته الى طرابلس ، وكنت عازما ان اعود اليها بعد اسبوع واحد من سفره ، فابلغني بانه سيقيم في فندق الشاطيء، لاسال عنه هناك، ويبدو انني تاخرت في العودة اكثر من اسبوع لانني عندما ذهبت الى الفندق لاسال عنه، كان هو قد غادر عائدا

الى لندن، وكان مقر اتحاد الكتاب ، او رابطة الادباء كما صار اسمها، قريبا جدا من هذا الفندق، فذهبت لتحية زملائي في هذه الرابطة ، ولم اكن اعلم ان هناك ترتيبا لاستقبال القذافي في تلك الساعات بنفس المبنى، وفي الطابق الذي يقع فوق شقة الاتحاد، وهو مركز دراسات الجهاد، وبعد دقائق من وصولي الى الم ، وكان الوضع فيه عاديا لان الزيارة لا تخصه، وربما لا احد يعلم بوجود زيارة للعقيد في المبنى المجاور، وجدت رجلا يدخل الى الصالة التي كنا نجلس فيها، ليقول ان الاخ العقيد في طريقه الينا، لانه قبل صعوده الى شقة مركز الجهاد، راى يافطة الرابطة ، فقرر القيام بزيارة تفقدية لها، ودخل مع حشد من مرافقيه ، ووقف وسط القاعة محاطا بالزحام ، يدير راسه بين الحاضرين ، ويمد بصره فوق رؤوسهم ، فلمحني واقفا قريبا من الباب مع كاتبه الخاص السيد ابراهيم ابجاد، فقال بصوت مرتفع:

ـ فقيه ، هل عدت من الخارج؟؟؟

كان واضحا انه فوجيء بوجودي ، وان خبر اعتزامي البقاء في الخارج، والانضمام الى المعارضة، قد وصله من سفارته في لندن، ورشحت لي اخبار عن هذا الظن، كما اسلفت القول، من زميلي صلاح مسلم، وافسح لي المتحلقون حوله طريقا للذهاب اليه، ومصافحته، وتغطية على حرج الموقف، وتغييرا للموضوع ، قدمت له طفلة اخذت بيدها ، كانت تقف بجواري عمرها تحت العاشرة، هي ابنة صديقى تيسير بن موسى، قائلا له انها تنتمي للجيل الجديد الذي تربي في عهده وتحت رعايته ، وفعلا لم يواصل الحديث حول غيابي، ولكن كانت لديه اسئلة حول سلوكي، يريد اجابة عليها، ولم يكن ممكنا طرحها في ذلك الموقف، وتلك المناسبة، وامام هذا الحشد، ولم يكن يعدم الوسيلة التي يطرح بها هذه الاسئلة، ويعرف الاجابات، حتى وان لم تكن عن طريق اللقاء الشخصي.

ولابد ان اشكر الله لانني عدت في الوقت المناسب، قبل ايام قليلة من بداية مسلسة الاغتيالات، وانه حدث هذا اللقاء بالصدفة، الذي جعل الرجل يتأكد بنفسه انني لم اكن منشقا ولا معارضا وانني، وبمحظ ارادتي، ودون انذار، وقبل ان ارى اي اغتيال ، اعود طائعا مختارا الى ارض الوطن . وقد حدث بعد ايام قليلة من هذا اللقاء، ان جاءني قرار من السيد محمد حجازي وزير الاعلام، يقضى باحالتي الى المحاكمة الادارية التأذيبية، وان هناك مجلسا قد تشكل ، يضم عددا من الناس بينهم المستشار القانوني للوزير، ورئاسة الكاتب العام للوزارة السيد رجب الصالحين. وقبل حلول موعد المحاكمة ، زرت السيد الكاتب العام لاعرف دوافع هذا القرار، وربما لانني املك عذرا شرعيا يعطل هذه الاسباب، التي استوجبت صدور القرار، فقد كانت معي تقارير طبية يمكن اتخاذها ذريعة لغيابي الطويل، وقبل ان يفتح مكتبه لاستقبالي، رايت ان حالة استنفار تمت في المكتب لاستدعاء كل من كان موجودا في الوزارة من اعضاء المحكمة، وموظفي الوزارة الثوريين، ولم اكن اعرف غير واحد او اثنين منهم، فهم نتاج الحصاد الثوري الجديد، بعد قيام التشكيلات الثورية، وانشاء مكتب رسمي لها، ولم اعرف الا شابا شديد الثورية ، تم تكليفه بادارة المراكز الثقافية التي ينتشر بعضها في القرى والارياف، وقد احالها فور استلامه هذه الادارة الى مثابات ثورية يمارس فيها التحقيق وجرائم التعذيب للمتهم، وتعطلت عن كونها مراكز للثقافة والحضارة، كما اسهم بعد ايام من تلك المحاكمة في مسيرة حرق الالات الموسيقة، ودخلت الى السيد الكاتب العام، مع حضور مثل هذا الثوري الذي تسبقه سمعته البائسة، وبدل ان اعرف سببا مقنعا لاجراء المحاكمة ، رايته يندفع في طريق المزايدات امام زملائه في اللجنة ، وخاطبني بكلام مليء بالتهديد مثل هذه الجملة التي

انقلها بالحرف الواحد"ان الثورة، لا تهادن الاعداء ، ولكنها تصفيهم"، صادرة من السيد رجب الصالحين نفسه ،الذي تخلى مع الايام عن هذاالصبغة الثورية الحماسية النارية ، وصار رجلا هادىء الاعصاب كما اصبح صديقا لي فيما بعد، وهو ما حدث لزميله صادق دهان الذي افزعني حضوره تلك الجلسة لثوريته الزائدة والحادة، التي تضاءلت مع الزمن . فادركت من كلامهم ان المحكمة ليست ادارية وانما سياسية بامتياز، وهو ماأكدته الاسئلة الموجهة لي اثناء هذه المحاكمة الكافكاوية التي جاءت تتويجا لعدد من المضايقات والمنغصات. وكانت المفاجأة التي وجدتها بانتظاري، عندما دخلت للمثول امام لجنة المحاكمة، هو وجود فريق للتصوير التليفزيوني، مصورون ومخرج وكاميرا او اكثر من كاميرا مع فنيي الصوت والاضاءة، وكانت تقليعة المداهمات، اي مداهمة عناصر مستهدفة من اللجان الثورية واجراء محاكمات ميدانية لها وتصويرها وبثها على الهواء مباشرة ، تقليعة دائرة في البلاد في تلك الفترة، وهي دائما مداهمات ومحاكمات انتقائية انتقامية ، للتاذيب والتذنيب وانزال النقمة والعقاب بكل من ابدى موقفا يدل على العصيان، وعدم الامتثال لتعليمات وسياسات الطاغية، ورغم ان المحكمة نفسها تشهير، وتحقير، وتعزير، وعمل يخلو من اي صبغة قانونية، واختراق كامل لكل قواعد واسس حقوق الانسان، فهو لا يكتفي بها، وانما ينتج عنها حكم وصل ببعض الناس الى الاعدام شنقا، وتنفيذ الحكم في وقت قياسي، مع انها محاكمات لا يتوفر فيها اي ركن من اركان المحاكمة فلا محاماة ولا دفاع، ويجريها اشخاص ثوريون، بعضهم في سن دون العشرين، بلا تاهيل ولا جدارة قانونية، فهل حقا وصلت نقمة الطاغية ضدي الى حد تلفيق التهم، وتقديمها في صورة فضائحية على الهواء؟ عرفت عندما تبادلت بعض الكلمات مع احد معارفي من طاقم التصوير ، ان المحاكمة ليست منقولة على الهواء، وانما للحفظ والتوثيق والتسجيل، فاراحني هذا الكلام قليلا، وازددت ارتياحا عندما وصل الشاعران الشعبيان الشهيران عمر المزوغي واحمد النويري، لانهما مطلوبان مثلي للمثول امام المحكمة ، واتضح فيما بعد، ان جلبهما كان مجرد غطاء للقول بان المحاكمة ادارية وليست سياسة مقصودة لشخص احمد ابراهيم الفقيه ولا احد سواه، لانني فعلا كنت المقصود، بدليل انني كنت اول من دخل للمثول امام لجنة المحكمة، وعندما انتهيت ، رايت فريق التصوير التليفزيوني يضم اجهزته وحوائجه ، ويستل الاسلاك من الكهرباء ، واضعا هذه الاجهزة في اكياسها ، ثم يغادر بكل اعضائه المكان، قبل ان تباشر اللجنة مواصلة المحاكمة للزميلين، فوجودهما كان لمجرد تقديم هذا الغطاء، دون ان يعني ذلك انه تم برضاهما او حتى معرفتهما، وتم اتخاذ اية ذريعة لوجودهما ، وكان الشاعر المرحوم عمر المزوغي رجلا حاد الطبع، وكان ساخطا غاضبا ، يعبر بصراحة عن هذا الاسلوب المزري الذي يتعامل به النظام مع الكتاب كانهم اجراء او عبيد، وارتجل في تلك اللحظة خاطرة شعرية يعبر فيها عن ندمه لانه سبق ان مدح هذا النظام السفيه ، كما كان يسميه ، قائلا في خاطرته تلك

هات النار احرق ديواني

قلت اغاني

نستاهل تقطيع لساني

وادركت ان تسجيل المقابلة، يستهدف نقلها للطاغية، وان الاسئلة هي اسئلته، وان مجموعة اعضاء اللجنة التي تحاكمني، يقومون بدور المحقق نيابة عنه، ولهذا كنت في اجابتي ديبلوماسيا، وتعاملت مع الحدث كانه امر طبيعي ان يحاكم الموظف اذا تأخر عن مباشرة عمله كما فعلت، لاعطى للمحاكمة صبغتها الادارية، وابعدها عن الصبغة الثورية السياسية ، متجاهلا ان الاسئلة كانت سياسية بامتياز، لان بعضها كان استفسارا عن تقصيري في الاشادة بالثورة، وامتناع عن الرد على ما تتعرض له من حملات في الصحف البريطانية، التي كنت معنيا بالرد عليها، وعدم مشاركتي في الحفل الفلاني او الذكرى الفلانية ، واجبت بما يدفع عني هذه التهم، ويفيد انني أودي وظيفتي دون ان اسعى لتصدر الحفلات ، او الظهور في المناسبات . كنت اتوجه باجابتي الى شخص الطاغية ، لابعد عن نفسي اية تهمة يتهمني بها ، ويجعلني موضع سخطه وانتقامه. واشار رئيس المحكمة ، خارج التسجيل الى علاقة تربطني بمعارض تم تصفيته هو المرحوم الشهيد عامر الدغيس ، ولكنه كان مجرد تهديد وابتزاز ولم يواجهني بها اثناء المحاكمة .

والحقيقة فقد كان مقتل الصديق الشهيد عامر، فاجعة فوجئت بها عند عودتي الى طرابلس، وقد سبقت بايام قليلة مسلسل الاغتيالات في الخارج، وعند عودتي في شهر ابريل، ولمناسبة من مناسبات النظام ، كانت اضواء الزينة تغمر مدينة طرابلس، وتجعلها تبدو بقعة من الالق والنور والتوهج، وكنت قد خرجت في اول يوم وصلت فيه، اتجول في الشوارع التي اشتقت لارتيادها، لانها كانت تضم المقاهي والمنتديات التي التقي فيها بالاصدقاء، وكنت اقول في نفسي وانا احس ببهجة هذه الاجواء الاحتفالية، انني اخطات في حق هذه المدينة، وانا انأى عنها، واتاخر في العودة اليها، بحجة ما تمتليء به من بؤس وتعاسة ، وها انا لا ارى بؤسا وانما بهجة ونور، وجلست في واحدة من مقاهي شارع الاستقلال ، التي الفت قديما الجلوس فيها مع الاصدقاء، خاصة انني وجدت وجها من الوجوه القديمة في المقهى جالسا يلوح لي، فاثرت الانضمام اليه، محاولا استحضار ذكرياتي في هذا المقهى والاستمتاع بها، ورايت ان ليبيا ليست بالكابوس الذي تخيلته، وحدث اثناء وجودي في المقهى، ان كان الصديق احمد زغبية يعبر الطريق، فقمت لتحيته ودعوته للجلوس، الا انه كان يعتريه شيء من القلق والاسى، ويلتفت الى الشمال واليمين، كانه يتوقع عدوا سيداهمه ، وكان يريد ان يقول شيئا الا انه لم يكن مطمئنا الى رفيقنا الثالث في الجلسة، ورايته يضيق بالجلسة ويهم بالقيام، فنهضت انا ايضا اسير معه، لاعرف سر هذا القلق والالم ، واساله عن الشيء الذي يهم بقوله ولم يفعل ، فقال بصوت هامس ، هل سمعت ما حصل لاخينا عامر الدغيس، قلت له بانني عائد لتوى من لندن، ولا علم لي بشي، وان عامر نفسه كان معي في لندن منذ بضعة اسابيع وعرفت انه عائد الى طرابلس ولابد انه الان موجود في البلاد، فقال لي قد تم قتله البارحة، اخذوه من بيته قبل يومين ، واعادوه صباح اليوم جثة الى اهله لكي يدفن في صمت، ودون مأثم. اختفت الصورة الزاهية لطرابلس باضوائها واجوائها الاحتفالية الكاذبة ، وعادت لتكون عاصمة الكوابيس ، والغيلان التي تهاجم الامنين في الظلام، وكوارث اللجان الثورية، واجترائها على الحق والعدل، وسلام المجتمع وامان الناس، وظهرت الصورة الحقيقية لطبيعة النظام الاجرامية، وسمعت في الايام التالية حالة الفزع التي شملت اصدقاء ومعارف الشهيد عامر الدغيس ، وكيف تم تهريب صديقه على ابوزقية وصديقه عبد الله شرف الدين الى الخارج قبل ان تنتبه اليهم الاجهزة ، وكيف جاء من بنغازي المحامي

محمد حمي للتعزية في صديقه الاثير عامر الدغيس ، فقامت الاجهزة الامنية بالقبض عليه ، ثم بعد ايام قتلوه والحقوه بصديقه، ثم ختمت هذه الاحداث بالمحاكمة الثورية التي انعقدت لمحاكمتي.

ولم تزدني هذه المحاكمة، والاحداث التي سبقتها، والاخرى التي تلتها، الا كراهية للنظام ورئيسه وازلامه ومريديه، وفكرت فعلا في ان انتسب الى احدى الصحف التي تصدر في لندن، وكنت قد ساهمت في الاشهر الماضية بالكتابة لها، مثل مجلة التضامن، ورئيس تحريرها الصديق فؤاد مطر، الذي استكتبني في زاية اسبوعية اسمها "هدرزة"، ومجلة الدستور ورئيس تحريرها الصديق خلدون الشمعة وقد كتبت له بابا اسبوعيا، وكان الحراك السعودي الاعلامي الذي باشر الظهور الكاسح في لندن باصداره لصحيفة الشرق الاوسط اليومية، ومجلة المجلة الاسبوعية ، قبل ان تتوالى الاصدارات الكثيرة، يغري هو ايضا بالانضمام اليه ، خاصة ان بين قادة هذا الحراك صديقي عثمان العمير ، الذي تولى رئاسة تحرير المجلة ، قبل ان ينتقل الى رئاسة تحرير الصحفة اليومية نفسها، وهناك صحف اخرى في باريس ، تربطني اوثق العلاقات برؤساء تحريرها، مثل كل العرب التي يرأسها صديق عزيز، واثير على نفسي، هو ياسر هواري، ولكن العقبة تكمن في النظام الليبي نفسه، فرغم نفوري منه ، فان فك الارتباط به، والعمل في المهجر بعيدا عنه، ستكون كارثة تحمل عواقب وخيمة، لو اقدمت عليه، فقد بدا النظام حملته لا على المعارضين الذين يعيشون في الخارج، وينتظمون في منازلة ضده ، وانما على كل من يختار الحياة في الخارج، حتى لو لم يكن معارضا ولا علاقة له بالسياسة، وسك تعبيرا حقيرا الحقه بكل مواطن يختار الحياة بعيدا عن النعيم الارضي ليبيا، كما يسميها النظام، هو "الكلب الضال" ، وهو يعكس اسلوبه الحقير، وسقوطه الاخلاقي، في التعمل مع خصومه وغير خصومه، ومعنى ان اذهب للحياة في الخارج، خاصة وانني صاحب قلم يتحسس منه النظام، حتى وهو ينخرط عاملا معه، لا يعني غير اعتباري بالضرورة في صف الخصوم والاعداء، ولذلك عدلت عن بذل اي جهد للارتباط بعمل في الصحافة العربية، ولانني لم اعد اطيق البقاء في البلاد ، تحت هذا الحكم، فلم يكن هناك من سبيل الا تجديد المساعي في الحصول على بعثة دراسية تتيح لي رخصة الخروج باذن النظام، كواحد من المبتعثين ، الدارسين على حسابه. كنت ادرك انني لن احصل على بعثة للدراسة العليا عن طريق امانة التعليم، لان تلك تتم عبر مصفاة اللجان الثورية ، والحراك الطلابي الجامعي، الذي تسيطر عليه المخابرات والثوريون، ولم يبق امامي الا استخدام لائحة ابتعات الموظفين في دورات تدريبة، وهو ذات النظام الذي استفدت منه قبل الانقلاب، وتحكمه قواعد غير لائحة البعثات الخاصة بامانة التعليم، فهو بالنسبة للموظفين ، دورة تدريبية، لا تزيد عن سنة واحدة، قابلة للتجديد، وكان الاعلام قد اصدر صحيفة باللغة الانجليزية اسمها الراية الخضراء، اعتمادا على وجود الاذاعي الفلسطيني العريق الاستاذ عز الدين السراج، الذين كان يدير القسم الانجليزي في الاذاعة، ليتولى التحرير والمراجعة، وتم اسناد رئاسة تحرير الصحيفة لي، ولكنه كان موقعا رمزيا، لانني كنت مصمما على مغادرة البلاد تحت اية ذريعة، وبسبب ما يربطني من علاقة طيبة بالمرحوم ابراهيم البشاري، نشأت عندما كان مديرا للاعلام الخارجي، اثناء عملي مستشارا اعلاميا، فقد كان متعاطفا مع رغبتي في اكمال الدراسة، وتصادف ان كان الظل الباهت لموسى كوسة الذي اكتويت بعاملته التافهة في لندن، المسمى خليفة العزابي، قد جاء به صاحبه مديرا للاعلام الخارجي، وكانت الصحيفة التي اعمل رئيس تحرير له تتبعه تبعية ادارية، فلجأ الى كل الحيل والاساليب الرخيصة لعرقلة هذه البعثة، دون وجود تفسير ولا تبرير لهذا العداء المجاني ، اللهم الا الحسد ان اذهب لاستكمال

دراسة يعرف انني سانجح فيها، بينما عاد منها هو فاشلا ، امضى عشرين عاما يسحب مرتبا من خزينة الدولة وعاد دون الشهادة العالية، بعد مشاركته في الزحف الذي قاده رئيسه موسى كوسه على السفارة، وكان يامل ان وجوده في هذه اللجنة سيتيح له تمديد بعثته وانجاز رسالة الدكتوراه التي فشل فيها اثناء دراسته في جامعة ادنبرة ، فانتقل لانجازها في جامعة سوانزي في ويلز، ولكن جرائم الاغتيال التي ارتكبتها لجنته، والتي ذهب ضحيتها الشهيدين المذكورين انفا، اثارت سخط الراي العام ، واستنفرت الضمير الدولي ،وصدر قرار الحكومة البريطانية بطرد اللجنة بكامل اعضائها بدءا من موسى كوسه وظله الباهت ، وصار ممنوعا عليه دخول بريطانيا، ولا امكانية ان يستانف اي نوع من الدراسة في جامعتها ، واوعزت وقوفه ضد البعثة التي حصلت عليها وسعيه الى عرقلتها الى هذا الفشل ، والى نوع من الحقد ينتج عن مركبات النقص والشعور بالتفاهة وضآلة الشأن، ولم يكن يستحي، رغم فشله في الحصول على شهادة الدكتوراه، من وضع حرف "د" ، امام اسمه، تزييفا وانتحالا لشخصية لا يملكها، وجاء محتميا بسيده كوسه، ليستخدم هذا التزوير جهارا نهارا، ولعل احد اسباب غيظه انني كنت استهجن هذا الاسلوب، وكنت حاضرا عندما هاتفه زميل هو الدكتور ابوبكر الصقر ، فرد علي الهاتف مستخدما لقب الدكتور ، فثار الدكتور ابوبكر في وجهه وسبه وشتمه وبصق عليه مستنكرا هذا الكذب الفاضح وهذا التباهي بالتزوير وانتحال الشخصية. المهم ان تبعيتي الوظيفية لادارته كان امرا رمزيا لا اثر له ولا فعالية، لا تعطيه حق ان يوقف قرار ايفادي، ولم اكن لاهتم به الا من باب المثل الشعبي الليبي الذي يقول ان الذبابة لا تقتل ولكنها تصيبنا بالقرف، وفعلا صدر القرار دون تاخير، وسافرت الى لندن لاباشر دراستي العليا، في جامعة ادنبره ، قسم الدراسات الشرقية، وكان وصولي الى لندن اشبه بولادة جديدة، بعد ما تعرضت له من مضايقات ومتاعب ومحاكمة، وكان امامي ان اخوض معركة جديدة فقد كانت حشرات المستنقعات الثورية قد انتشرت في الارض، واللجنة الزاحفة الاولى التي تم طردها ، اعقبتها زواحف اخرى، ووجدت واحدا من هذه الزواحف وبلا سبب ولا غاية يعترض مسيرتي الدراسية ، وكان مكلفا بالشئون الطلابية ، الا انني لم اكن اعبأ به فقد وجدت في قرار الايفاد رخصة للسفر والاقامة، واذا تاخر هو على الوفاء بالالتزام الحكومي نحو هذه البعثة فساتدبر تكاليف المعيشة عبر استئناف كتابتي للصحف التي اتعاون معها.

منذ عودتي في ابريل ونجاحي في الحصول على قرار الايفاد للدراسة مرت قرابة عام، وبعد لقائي العابر بالطاغية في بدء عودتي ، عندما جاء صدفة الى مقر اتحاد الادباء، تكرر لقائي به مرتين خلال هذا العام، لم يكن ايا منهما على انفراد، ولكن مع مجموعة من الكتاب، احداهما انه دعا لادخال رابطة الكتاب في صيغة جديدة وان تتوحد في كيان واحد مع نقابة الفنانين، وامر بعقد معسكر تثقيفي امتد لمدة اسبوع من اجل التهيئة لهذا العمل، وتمت دعوتنا للالتحاق بهذا المعسكر، وكان يتولى الاشراف عليه كل من محمد احمد الزوي ، الذي تم تصعيده امينا للرابطة، وسيد قذاف الدم ،وصادق النيهوم، بمشاركة مني ومن على مصطفى المصراتي، وعبد الله القويري وعلى فهمي خشيم، حيث تم اختيارنا لالقاء محاضرات على اعضاء المعسكر استهلها كل من القذافي والرائد جلود، وضم الحضور كل القامات الفنية والادبية الكبيرة حيث كان موجودا من مشاهير اهل الفن كاظم نديم وحسن عريبي ومحمد صدقي ، مع عدد من ابناء الجيل الجديد من طلاب المعاهد الفنية، ودارت المحاضرة التي القيتها حول مقولة شهيرة لابن خلدون فحواها ان الفنون هي مقياس الحضارة، وهي اخر ما يزدهر عند ازدهار وتقدم

المجتمعات، مثل ورود الحديقة، حيث يكون ظهورها تتويجا لاكتمال نمو هذه الحديقة ، وهذه الورود هي اول شيء يصيبه الذبول لحظة ان تنهار المجتمعات وينالها الضعف والهوان. ورحبت فيما بعد بانتخابي في عضوية مجلس الادارة للرابطة الجديدة، وسمي بعضنا وكنت بينهم امناء مساعدون، وكان وجودي امينا مساعدا في رابطة الادباء والفنانين، يعني انني مندمج في الحياة الادبية والفنية ، لا ابتعد احتجاجا، ولا يراني بعض الصغار المذعورين، منبوذا يخشون الاختلاط به، وعندما صدر قرار خروجي مبتعثا الى لندن، كنت مازلت احمل هذه الصفة، ولعلها اعطتني ذريعة للعودة الى الوطن والخروج منه دون عرقلة او كثير جهد ، تتطلبه عادة تاشيرة الخروج، كما حرصت على نوع من الالتزام بان اتواصل مع الرابطة خاصة وان الرجل الذي يديرها كان احد اقرب واعز الاصدقاء الى نفسي، يهمني نجاحه، ويعيرني اذنا صاغية عندما يكون هناك ما يجب قوله له، ولم اجد صعوبة بعد انقضاء العام الاول في التجديد لعام اخر بناء على التقارير التي حصلت عليها من الاساتذه في جامعة ادنبره، وما وجدته من عون بعض الزملاء في امانة الاعلام، وكنت دائم التردد على البلاد، بسبب انني خلال فترة الدراسة لم اشأ ان انقل اسرتي معي لكي لا اسبب ارتباكا في دراسة الاولاد، وحصل تطور على مستوى الرابطة عندما دعا الطاغية الى استيلاء الكتاب على الدار التي تحتكر النشر والتوزيع والاعلان، واستدعيت لاكون حاضرا في طرابلس خلال هذا الانجازالذي يتحقق للادباء والكتاب بان يتولوا هم امر نشر مؤلفاتهم، وجاءني رسول من الطاغية هو سكرتيره لشئون المعلومات الصديق ابراهيم ابجاد، يقول لي ان هناك توجيها بان ينتقل امين الرابطة الحالي الى ادارة الشركة ، التي يتولى ادارتها الادباء، وان مكانه الشاغر، يريدني ان اشغله ، لاكون امينا لرابطة الادباء والكتاب والفنانين، واعتذرت بحجة انني موجود في بعثة دراسية بالخارج ، فالح قائلا انه وجود رمزي، وان العمل في الرابطة لن يحول دون ان اتواصل مع جامعتي واستمر في دراستي، وكان يعرف ان مجال بحثي عن الادب القصصي الليبي ، وان دراستى الحقلية مكانها ليبيا ، فلا تعارض بين العمل في الرابطة واكمال البحث، المهم انني وجدت نفسي، ورغم وجودي مبتعثا في بريطانيا ، امينا عاما لرابطة الادباء والكتاب والفنانين. التزام لم اكن اريده، ولم اكن اسعى لنيله، ولكنه عندما جاء، رايت انه يمكن ان يذيب الجليد الذي بيني وبين النظام، ولعله يتيح لي فرصة ان اقدم خدمة للوسط الادبي والفني من خلال هذه المؤسسة، وفي حدود الامكانيات الضئيلة للرابطة، راجيا ان يكون هذا التكليف لفترة لن تستمر زمنا طويلا، واستطعت فعلا التوفيق بين دراستي وبين العمل المتواصل المتواتر الذي عرفته الرابطة في عهدها الجديد، حيث كانت رابطة للادباء والفنانين بل واضيف اليها الصحفيين والاعلاميين، وكانت الوفود تتقاطر على ليبيا من الوطن العربي مثل اليمن وتونس والمغرب ومن دول اجنبية خاصة بلدان الكتلة الشرقية، واقام اتحاد الكتاب العرب ندوة كبيرة في طرابلس عدا المشاركة في مؤتمره العام ، وكان طلاب الجامعة وبعض الجمعيات الاهلية تلجا للرابطة ليتولى تنظيم المسابقات، او المشاركة في الاشراف على المناشط، فلم نكن نتاخر في ذلك، علاوة على وجود مناسبات كانت الرابطة تحرص على احيائها مثل احياء ذكرى بعض الادباء ومهرجانات شعرية ، محلية وعربية ، ولم اكن اكتب يوميات بما حدث في تلك الفترة استطيع العودة اليها، ولا اراه الان مهما العودة الى الصحافة او ارشيف الرابطة لنقل ما حدث، فهو سياق عام لا يختلف كثيرا عما كان يحدث في كل عام منذ انشاء هذه الرابطة ، الا ان الامور ازدادت زخما، بسبب الدمج الذي حصل بين الرابطة والنقابة، واضافة الصحافة التي صارت فيما بعد نقابة مستقلة بذاتها، وساقف عند حدثين اثنين، فقد كانت لندن تشهد بعض المناشط العربية وبسبب وجودي كطالب دراسات عليا هناك، كنت حريصا على تحقيق بعض الحضور الثقافي الليبي الذي

تم بالتعاون مع هيئات بريطانية، وكنت لا ازال اتولى الجمعية الخيرية للثقافة العربية ، وعمدنا الى اقامة ايام ثقافية ليبية ، ضمت عددا من المحاضرات حول الفكر والثقافة الليبية ، وعرضا لفيلم تاقرفت ، ومعرضا للرسم للفنان الليبي المتميز الذي حقق لنفسه شهرة عالمية فيما بعد الرسام علي عمر ارميص ، ومعرضا للرسم الساخر للفنان محمد الزواوي ، مع اعادة عرض مسرحي كان قد سبق تقديمة لمسرحية من مسرحياتي التي تم عرضها في لندن، وتم كل شيء حسب ما تم التخطيط له ، موسم المحاضرات الذي شاركت فيه وشارك فيه بعض اساتذه ساوس او مدرسة الدراسات الشرقية والافريقية التابعة لجامعة لندن، ونالت الايام الثقافية الليبية صدى ممتازا في الاعلام والصحافة وفي الدوائر الاكاديمية ، وكنت قد اتفقت مع الفنان الزواؤي على الموعد الذي ياتي فيه الى لندن حاملا لوحاته معه ، فقال انه مرتبط بموعد في تونس، وسينتقل في الموعد المحدد بلوحاته من تونس الى لندن، وكان المفروض وجوده في لندن قبل اسبوع او اكثر من افتتاح المعرض للاعداد والتنظيم ، وتاخر فصرت اهاتف تونس، واهاتف السفارة التي يجب ان تكون على اتصال به ، فاجد ردودا مبهمة، ولم استطع ان اتصل به ، مع انني عرفت انه اقام المعرض فعلا وكتبت الصحافة عن افتتاحه، ثم اطبق صمت على المعرض، وعلى الزواوي، ولم اجد في السفارة نفسها من يفيدني بكيفية الاتصال به، او لماذا تاخر عن الحضور، او هل ثمة مشاكل يمكن تدليلها، ولم اكن اعلم ان الزواوي قد تعرض لمشكلة غريبة وعويصة ادت الى القبض عليه في تونس ، عندما كنت انتظر حضوره في لندن، وقد تم حجز القاعة والاعلان عن معرضه ، ولم نجد عندما ازف موعد المعرض دون وصوله، ووصول لوحاته الا ان نلجا الى كتابين، كان قد اصدرهما يحملان لوحاته ، فصنعنا من صفحات هذه الكتب لوحات، وضعناها في اطر جميلة ، وتم عرضها وتضبيطها بفضل فنانين مهرة بينهم الاستاذ على عمر ارميص نفسه ، وشاهد الناس معرضا كان الزواوي لم يغب ولوحاته المنزوعة من الكتب كانها لوحات اصلية ، وكان سبب غياب الفنان الزواوي، انه مر بمحنة مريرة، جاءت من غرابة النظام الليبي وطبيعته الاجرامية ، فقد ذهب الى تونس ضيفا كريما، لاقامة معرض في صالة افخم الفنادق هناك، فندق هيلتون، يحظى بالتبجيل والتقدير والمعاملة التي تليق بمكانته الفنية، الا ان الاجهزة البوليسية الليبية لم تر فيه الا غطاء لاستخدامه في احدى عملياتها القدرة ، وكما اخبرني هو بنفسه، فانه فوجيء وهو في السفارة بمن يقدم له شنطة يد، ويطلب منه ان ياخذها معه الى فندق الهيلتون حيث يقيم، لان هناك صديقا سوف ياتي ويستلمها منه، وامروا سائق سيارة السفارة بان يقله الى فندقه هو والشنطة ، وعندما وصل الى الفندق ، قام السائق بتسليمه الشنطة وذهب، ويقول الزواوي انه فجاة وجد في يده شنطة، اجهد نفسه في حملها الى المصعد، لانها كانت ثقيلة بشكل غير معهود في مثل هذه الحقائب، واشتبه وهو ينقلها الى غرفته انها قد تكون عملية مخابرتية لا يريد ان يكون طرفا فيها ، ولهذا وقبل ان يصل بها الى غرفته ، عاد هابطا واخذ سيارة تاكسي وعاد بالحقييبة الى السفارة ، قائلا للسفير ولعنصر مخابرات كان معه، انه يعتذر عن الاحتفاظ بمثل هذه الحقيبة ، ورغم صراخهما في وجهه، واحتجاجهما لانه يفسد عملا وطنيا كبيرا، خرج غاضبا آسفا، وعاد الى الفندق، وجلس فور دخوله اللوبي، وقد اشعل سيجارة، علها تسهم في تهدئة اعصابه الثائرة، وهنا كما قال لي تقدم منه شخص تونسي ، وساله ان يتفضل معه لدقيقة واحدة ، وسار به نحو الباب ، فظن ان هناك ضيفا قادما يريده ان يستقبله هناك، او سيدة تخشى الدخول الى الفندق وتريد ان تقول شيئا، ففوجيء عند مدخل الفندق، بباب سيارة يفتح، واكثر من يد تدفعه الى داخل السيارة وتنطلق به ، مخفورا تحت السلاح، ثم ربطوا عصابة على عينيه لكي لا يعرف اين ياخذونه، وانتهت هذه الرحلة

بوجوده في مكتب قيادي امني يساله عن الحقيبة التي سلمها اليه السفير، لانهم كانوا قد عرفوا بانها سلمت اليه، ولم يعرفوا انه اعادها في نفس الوقت، فهي تحمل قنبلة كما اتضح فيما بعد اعدتها ليبيا لتفجير اجتماع للجامعة العربية وكانت قد انتقلت الى تونس ، ولم يستطع ان يجد العقيد الليبي وسيلة يعبر بها عن لحظة غضب من الجامعة الا بتفجير مجلسها. ودفع الزواوي في هذه العملية العبثية، وهذه الجريمة التي لا علاقة له بها، والتى كانت قد اجهضت قبل ان تبدا، اكثر من عام تحت التحقيق والتعذيب ، وخرج من هذه المحنة مريضا حزينا، يائسا نادما، مضربا عن المشاركة في اية معارض تقام له خارج البلاد.

وفي اطار عملي امينا لرابطة الادباء والكتاب والفنانين اسوق هذا الحدث الطريف، فقد استوقفني في احد شوارع طرابلس صديق من الحراك الاعلامي، هو الزميل ابراهيم الخراز، لياخذني بالاحضان ويشكرني لانني انقذته من موقف حرج، دون ان اكون على علم بكيف حدث هذا الانقاذ، ولا متى ، فقد مضت سنوات لم اكن قد التقيت فيها بهذا الصديق الذي ذهب للعمل ملحقا صحفيا خارج البلاد، وقال ان ذلك حصل له منذ ايام قليلة مضت، وهو يرافق ضيفا مصريا وزعيما تاريخيا لواحد من الاحزاب الشيوعية في مصر الكاتب الاستاذ ابراهيم عبد الحليم، الذي كان في زيارة الى طرابلس بدعوة من العقيد، وتم تكليف الزميل الخراز باستقباله، وتوديعه في المطار، وعند الوداع جلس به في صالة كبار الزوار ، يشاهدان جلسة لمؤتمر الشعب العام، منقولة على الهواء، واستثارت البداية الروتينية للجلسة حفيظة الضيف الذي واصل المشاهدة ، والمتابعة لما يجري ، وهو يعلق تعليقات ساخرة هازئة، وكان الاعضاء يكررون جملة واحدة تقول ان المؤتمر الاساسي الذي جاءوا منه يبدي ارتياحه ، وراى الضيف في هذا الارتياح المتكرر شيئا يستحق الاستهجان والتنديد، وراى في الاسلوب الذي يتحدث به الاعضاء تدجينا واستسلاما وضعفا وجهلا ، تجعله ياسف للمستوى الذي ظهر به هؤلاء المندوبون عن الشعب، والممثلون له ، ولم يستطع الزميل الخراز الا ان يغرق في عرقه خجلا مما يسمع ويرى، الى ان جادت عليه الاقدار ، بشيء جعل الرجل يتحول من السخرية والتدمر ، الى الاشادة والاعجاب بما يرى، والانبهار بما تبدى امامه من فكر وراي ، كما يقول الزميل ابراهيم الذي استعاد زهوه وكبرياءه امام الرجل ، فقد كنت حاضرا تلك الجلسة مندوبا عن الرابطة، وكنت احس بما كان يحس به الضيف من سأم وضجر من اسلوب التعامل داخل المؤتمر ، واعددت نفسي ذلك اليوم ، لان اكون متميزا عن بقية الاعضاء، بما يتفق ويتكافأ مع الجهة التي امثلها ، فالادباء بما انهم الطليعة التي تمثل الثقافة والحضارة في المجتمع ، لا بد ان يكون لها دور وبصمة، واداء يختلف عن مواطنين قادمين اغلبهم من الارياف والبوادي ، وكان متوقعا ان ياتي دوري في الحديث لاقول ما يقوله الاخرون ، وهو ان المؤتمر الاساسي للادباء والفنانين يبدي ارتياحه ، فلم اقل هذه الجملة المسكوكة المكرورة التي مضغها الاعضاء عشرات او مئات المرات قبلي، وانما اعددت عناصر كلمة لم تزد مدة القائي لها عن ربع ساعة، ابديت فيها عدم الرضا عن السياسة العشوائية التى تسير عليها اجهزة الاعلام والثقافة، وانني جئت في هذا المؤتمر الموكول اليه رسم سياسات الدولة ، بملخص استراتيجية جديدة مستوحاة من احتياجات المجتمع، مربوطة بروح العصر، مستفيدة مما شهده العالم من فتوحات في هذين المجالين الاعلام والثقافة، ثم قدمت الخطوط العريضة لهذه الاستراتيجية، وهي الكلمة التي استمع اليها الضيف الموجود في صالة الشرف، فتحول من النقيض الى النقيض، ومن السخرية ، الى الاكبار والتقدير، لان هناك طرحا حضاريا ياتي من نفس

المؤتمر الذي راى سابق عروضه الهزيلة، ما لم يكن يتكهن به الضيف، بل لم يتكهن به اعضاء المؤتمر وامناء لجنته، هو رد فعل العقيد، الذي كان يستفزه اي اداء يتفوق على المستوى الهزيل الذي يريد تكريسه، وتثبيته ، فجاء في اليوم التالي ، ليسمعنا بعض سيالاته الذهنية المريضة ودون ذكر او اشارة الى كلمتي، قال ما يعني انها كانت خرقا للقاعدة التي ينتظم بها عمل المجلس فعضو المؤتمر ليس مخولا ان ينطق بافكاره او ارائه الشخصية، وانما هو هنا مجرد ناقل لما تم الاتفاق عليه في المؤتمر الذي جاء مندوبا عنه.

كان الوقت المتاح امامي لانجاز رسالة الدكتوراة هو ثلاثة اعوام ، لان هذا كان سقف المدة التي تمنحها لائحة التدريب للموظفين، التي سافرت للدراسة بمقتضاها، وفعلا في نهاية السنة الثالثة كنت قد انجزت الرسالة، وقمت بطباعتها على الالة الكاتبة، وقدمتها في عدة نسخ مجلدة الى الجامعة، لاختيار لجنة المناقشة مع المشرف الدكتور مايكل ماكدونالد، الذي تابع معي مراحل الدراسة منذ بدايتها، وعدت الى طرابلس لقضاء وقت مع الاسرة، والاستمرار في ادارة رابطة الادباء والكتاب والفنانين، الى حين تحديد موعد المناقشة، وخلال تلك الاثناء جاء نداء من العقيد، بان يقوم العاملون في الاعلام والثقافة، الذين تضمهم رابطةالادباء والفنانين، باختيار امين الاعلام والثقافة، واللجنة التي تدير هذه الامانة، وامتلأ مسرح الكشاف الذي يسع اكثر من الف كرسي، باعضاء الرابطة الذين جاء بعضهم من شرق وجنوب البلاد، لتلبية النداء واختيار اللجنة، وجاء من امانة مؤتمر الشعب ا لعام من يقوم بالاشراف على ما يسمى التصعيد، وتقدم عدد من الاعضاء بتسمية انفسهم لهذه اللجنة، وباعتباري ما زلت اواصل دراسة في الخارج ، فقد رايت الامر لا يعنيني ، ونايت بنفسي عن المشاركة في هذا السباق ، مكتفيا بالمراقبة ، الا انني وجدت اسمي يطرح على السبورة، لمنصب الامين ، اي الوزير، ورايت اغلب الايادي ترتفع تزكية لهذا الاقتراح، وانتهت الجلسة باختياري امينا للاعلام والثقافة، مع لجنة من رؤساء الادارات، تم تصعيدهم في نفس الاجتماع.

ولابد من وقفة هنا لاستكناه ما احسست به من مشاعر ازاء هذا الاختيار، والحقيقة انه اختيار لم يكن موصى به من احد، فقد ترك الامر لاختيار الصالة ، وجاء عفويا ، صادقا، يجعلني اشعر بثقة هذا العدد الكبير من ابناء القطاع الذي انتمي اليه، ولعل ثمة شيئا من الامل في انني استطيع اوانا اجلس في مقعد القيادة، تصحيح ما اره من اخطاء، وتلافي ما اراه من تقصير وقصور في الطريقة التي تدار به المرافق الاعلامية والثقافية، ورغم معرفتي بان مهمة هذه الوزارة هي تجيير كل شي لصالح الفرد الحاكم، وعدم وجود اوهام تجعلني اخطيء في امكانية ان يترك امر الاعلام والثقافة حرا لمن يديره، دون توجيهات وتدخلات وفرض ارادات، فانني لم استبعد فكرة انه يمكن، بجوار تنفيذ السياسات التي يريدها راس النظام، ضخ بعض العون والقوة في شرايين الابداع الادبي والفني، وتحريك الرياح التي تدفع بمركب الفنون الاداب الى افاق ابعد وارحب من الخلجان التي تركن اليها.

اعرف طبعا ان اغلب من يأتون الى هذه المناصب القيادية في ليبيا، ياتون لا من اجل تنفيذ اجندة وطنية، تعنى بالصالح العام، فهذه المفردة انتهت من القاموس الليبي، ولا يبقى امام القادم للعمل في هذه المناصب، الا تنفيذ اجندة خاصة وشخصية للتربح والانتفاع بالمال العام، وهو خيار لم يكن ممكنا ان اضع نفسي فيه، لانني اعرف مدى خسارة ان يكسب الانسان العالم ويخسر نفسه، واعرف ان هذا التربح

هو الفخ الذي تعده الانظمة الفاسدة لكل انسان شريف ، لاصطياده وجره الى المستنقع، وانك تستطيع ان تشتري اي قطعة غيار من السوق، الا قطعة غيار لضميرك ووجدانك وشرفك، ولهذا فقد وصلت الى قناعة، انني حتى لو وجدت نفس بجوار جبل من الذهب، لن امد يدي على ذرة واحدة منه، طالما لا حق لي فيها، حتى وانا ادرك، ان لا احد يرى او يعرف او يراقب او يحاسب. اذن فلا وجود لاغراء لي من هذه الناحية ، نقطة اخرى، قد تغري بالقبول، هي التحقق الذاتي، واثبات الجدارة امام الناس، وهو امر قد يسر به اصحاب مركبات النقص ، واصحاب السجلات الفارغة والخالية من اي انجاز، وانا لست واحدا من هذين الفئتين، فلا املك من مركبات النقص ما يجعلنى افرح بذات متضخمة بالاوهام مملوءة بالهواء الساخن الذي تمتليء به بالونات هذه المناصب، ولست صاحب سجل يخلو من الانجاز ، ففي سجلي من الاعمال الادبية والابداعية ، ما استطيع ان اضمن به مكانة لنفسي تكبر فوق المكان والزمان.

ووصلت الى نتيجة ، بيني وبين نفسي، ان هذا المنصب، مهما كانت الفوائد التي قد يجنيها الوسط الادبي والفني من وجودي فيه ، فان سلبياته اكثر من ايجابياته، وان نفوري من النظام، ومن رئيسه، يجعل امكانية الخلاص منه، افضل من الحرص على استلامه. تبقى الطريقة التي اتخلص بها دون ان اجلب النقمة على نفسي بسبب الرفض، واستفزاز الجانب العدواني لدى رأس النظام ضدي، وانتهزت فرصة ان تاخرت المصادقة ليومين اوثلاثة ايام، فاستقر رأيي على رفض المنصب، واتصلت برجل في مكتب العقيد، اعرفه، واحظى باحترامه وتقديره ، يعمل مدير مكتب له ، هو الدكتور مفتاح الاسطى عمر، وقلت له ان يستأذن لي رئيسه، في العودة الى بريطانيا، لحضور مناقشة رسالة الدكتوراه ، التي انتهيت من اعدادها، قبل استلام المنصب، حيث يصعب بعد ذلك ان اجد وقتا في زحمة المشاغل للدفاع عن رسالتي دفاعا يضمن لي النجاح. فاستاذن ان اعود لمهاتفته في اليوم التالي ، حيث سيكون قد استشار الاخ ، وعرف الرد على هذا الاستئذان. وفعلا وجدته في اليوم التالي ، يبلغني بانه حصل لي على موافقة الاخ العقيد على السفر ، ولكن بشرط الا اغيب اكثر من اسبوعين اوثلاثة اسابيع. فابديت له شكري، وسافرت في اليوم التالي عارفا انني لن اعود خلال المدة التي حددها لي، لان موعد المناقشة، لم يكن قد تحدد بعد، وقد يحتاج لعدة اشهر قبل هذا التحديد، وسافرت ، وعرفت عندما سافرت انه لم يصدر اي تصديق على قرار التصعيد ، ربما في انتظار عودتي ، ولكنني لم اعد، ولم اهاتف احدا في القيادة، اساله تمديدا، وطال غيابي وكان احيانا يتصل بي بعض الناس، بامل ان اتدخل في مسالة تختص بتلك الامانة التي يفترض ان اتولاها، وكان احدهم الصحفي الليبي الشهير الاستاذ رشاد الهوني، وكان قد ترك صحيفة العرب، واصدر بمشاركة الكاتب والفنان حسن فؤاد، مجلة اسمها الغد، وعندما راجع كبار المسئولين في ليبيا ، لانه كان موعودا بدعم في اشتراكاتها وتوزيعها، قالوا له ان الامر الان بيد صديقه احمد ابراهيم الفقيه، فقلت له والله لو قبلوا امرا مني او رسالة لما تاخرت في كتابتها، ولكنني لم استلم المنصب ، ولم احلف اليمين، ولم اباشر الوظيفة ، ولم يعتمد توقيعي واحتسابي امينا ، ولن يحدث باذن الله.

طال غيابي اكثر من ثلاثة اشهر، وسمعت وانا لازلت خارج البلاد، العقيد في الاذاعة في خطاب منقول على الهواء ، يقول لطلاب الجامعة، ان امانة الاعلام والثقافية ، خالية من اي مسئول يديرها ،وليتفضلوا بالزحف عليها لتعيين ادارة لها، وانزل مستواها من امانة عامة اي وزارة الى لجنة ادارية للاعلام ، وكان صديقنا وزميلنا الاستاذ عبد الرحمن شلقم مديرا لوكالة الانباء ، فتم ترفيعه وتكليفه

بان يكون هو امين اللجنة الادارية للاعلام والثقافة، وتنفست في مكان اقامتي البريطاني الصعداء ، فقد عرفت الان انه ان لابي حنيفة ان يمد قدميه ، وفي هذه المرة ارتياحا ، وليس استهتارا بضيف ابي حنيفة.

وحدث بعد ان تم الاتفاق على اختياري امينا للاعلام والثقافة، ان قام الاعضاء في نفس الجلسة باختيار امين للرابطة، كان هو الاستاذ الاديب على مصطفى المصراتي، وهو امر يعيد الى ذاكرتي طرفة صغيرة حصلت قبل هذا المؤتمر، الذي حل فيه السيد المصراتي مكاني. فقد حدث ان توافق وجودي في ادنبره اواصل اعداد رسالة الدكتوراه مع زيارة قام بها الاستاذ المصراتي الى بريطانيا، واتصل بي ، فدعوته الى زيارتي في مدينة ادنبره ، وجاء للاقامة معي في نفس البيت ، وقضينا معا اسبوعا جميلا لانه كان اسبوعا عامرا بالعواصف الثلجية، وكنا نحرص رغم الثلوج، على ان نزور بعض معالم اسكتلندا السياحية، مما اضفى على هذه الرحلات كثيرا من الاثارة ، وحدث ان كان يزاملني في الجامعة صديق من لبنان هو الاستاذ يوسف الخطيب، له جانب صوفي وروحاني، وعرض ان ياخذني انا والاستاذ المصراتي الى جلسة لتحضير الارواح ،تقام في جمعية روحية ينتمي اليها، حيث تقوم امراة متوسطة العمر بدور الوسيط ، بين الارواح وبين الحضور، وكنا لاول مرة نحضر مثل هذه الجلسات، فهي لا تعرفنا ولم يحدث ان رات احدا منا ، لا انا ولا الاستاذ المصراتي، ومع ذلك فقد اشارت الينا معا ،وقالت انها تحمل لنا شخص من العالم الاخر، وذكرت اسما شائعا جاء محرفا على لسانها، لم نستطع تحديد هويته، وكان المهم هو الرسالة، وليس الراسل مهما كان شخصه، وهو يقول انني انا والمصراتي ننتمي الى بلد يغمره البؤس وجفت فيه الروح، وهربت منه المسرات والافراح، وانني والمصراتي نعاني الما وحزنا لهذا المصير، الذي ال اليه الوطن، الذي يملك كل المؤهلات لان يكون وطنا سعيدا، وقالت ان هناك حدثا قادما سوف يجمعكما معا، وتتقاسمان العمل فيما بينكما، وسالتنا الا نفقد الامل في المستقبل . وفعلا وبعد اسابيع من انتهاء رحلة الاستاذ المصراتي، وجدنا انفسنا نلتقي في هذا المؤتمر الذي ينعقد في صالة مسرح الكشاف، ليستلم مني مهمة امانة الرابطة بعد اختياري لمنصب الامين.

اثناء هذا العام الاخير من تحضير رسالة الدكتوراه، ساهمت في مؤتمر دعا اليه الصديق عمر الحامدي ، باعتباره امينا لمؤتمر الشعب العربي، ثم انعقاده في تونس، تحت عنوان "مؤتمر التصدي للغزو الثقافي"، وحضره كوكبة من اهم واكبر مفكري العالم العربي ممن كانوا موجودين على قيد الحياة ذلك الوقت، وقدمت بحثا ضمن بحوثه ، عن العلاقة بين الغرب الشرق بعنوان " ابناء الماء وابناء النار"، وقد تم في ختام هذا المؤتمر ، الاعلان عن تاسيس المجلس القومي للثقافة العربية، وتم تكليفي في مرحلة من مراحله، بوضع دستور اونظام اساسي لهذا المؤتمر، كما تقرر اصدار مجلة باسمه، واذكر جلسة عقدت لاختيار عنوان المجلة، ورايت انه طالما الهدف كان واضحا من انها مجلة تعنى بنشر الدراسات عن الوحدة العربية، ان يدل العوان مباشرة على هذا الهدف، وكان زميلنا الراحل الدكتور على خشيم قد جاء بعنوان اخر هو الطارق يعطي معنى التنبيه والاداة التي توقظ الناس، مقتبسا من الاية القرانية الكريمة التي تقول " والسماء والطارق وما ادراك ما الطارق، النجم الثاقب" ، واقترح بعض الحاضرين مجموعة عناوين اخرى، الا العنوان الذي حصل على التوافق في نهاية النقاش هو " الوحدة " ليصبح اسما للمجلة التي استمرت في الصدور بشكل شهري لمدة عشرة اعوام تقريبا ، وكنت خلالها عضوا في مجلس تحريرها واشارك احيانا في مراجعة المادة التي تنشر واقرارها، وكان رئيس تحريرها

هو الدكتور محمد احمد خلف الله ، ومدير التحرير هو الصحفي اللبناني الاستاذ رياض ابو ملحم ويتولى العبء الاساسي في التخطيط والتحرير والمراجعة وكتابة الافتتاحيات الكاتبان الشهيران جورج طرابيشي ومحي الدين صبحي.

اثناء وجودي في بريطانيا نأيت تماما عن السفارة وامتنعت عن الاتصال بها وهي التي قضيت عدة اعوام اعمل بها، وذلك بعد اجتياحتها الزواحف التي اشاعت جوا من الرعب، وحولت كل السفارات الليبية الى مراكز للارهاب والقتل، رغم وجود بعض العناصر ، خاصة في لندن، ممن جمعتني بهم صداقة او زمالة سابقة، الا انهم صاروا جزءا من هذا التكوين الارهابي الاجرامي، الذي تحكم في اغلب مفاصل البلاد، في الداخل والخارج.

ولم ينقطع اتصالي ببعض الزملاء الاعلاميين الذين يعملون في وكالة الانباء الليبية، وكان قد تولى ادارتها صديق هو صالح نجم، وكنت احيانا التقي بمن يزوره قادما من ليبيا من الوسط الاعلامي، كما كنت قريبا من اصدقاء ليبيين يعملون في مرافق اعلامية اجنبية ، مثل المذيع احمد فريد الذي كان يعمل بهيئة الاذاعة البريطانية، والتقي ايضا بصديقي المرحوم رشاد الهوني ، الذي كان احد المستهدفين بالقتل ، اثناء هستيريا التصفيات ، وهرب الى مصر محتميا بنظام السادات ، الا انه بعد ذلك وجد من يتيح له زيارة ليبيا، بعد ان هدأت الخواطر، ورغم الحظوة التي كان يملكها الكاتب الراحل صادق النيهوم، مع النظام ورئيسه، الا ان شائعة ظهرت تقول انه لم يسلم من التهديد بالتصفية، قبل ان يجد هو الاخر من سعى بالخير بينه وبين الطاغية ، فرفع عنه سيف التهديد، ويبدو انه في اجواء النظام الاجرامي الانقلابي ورئيسه المخبول، واطواره الغريبة ، وتقلبات مزاجه غير المحسوبة ، لا احد في مأمن من شره واجرامه.
وحمدت الله ان حدثين اجراميين حصلا بعد مغادرتي بريطانيا وانتهائي من مناقشة الدكتوراه. الحدث الاول هو مقتل الشرطية البريطانية ايفون فليتشر، التي كانت قد وقفت امام السفارة كجزء من الحماية التي توفرها الشرطة هناك لبعض المتظاهرين الليبيين، الذين وقفوا يعبرون عن احتجاجهم واعتراضهم على ما يحدث من انتهاكات في ليبيا، وكان اعضاء المظاهرة من ابناء البلاد المقيمين في المملكة المتحدة، وقد توافدوا من مختلف المدن، وجاءت بهم حافلات الى مقر السفارة في ميدان سانت جيمس، ومن نافذة في السفارة اخرج احدهم سلاح كلاشينكوف وارسل دورة طلقات على المتظاهرين، فسقط عدد من الشباب نتيجة الرصاص الذي اصابهم ، وكانوا اغلبهم ملثمين لكي لا تلتقط وجوههم عدسات التصوير وتتم ملاحقتهم وقتلهم، وكان بينهم الصديق الصحفي عاشور الشامس، الا ان اصاباتهم لم تكن قاتلة، اما الشرطية ايفون فليتشر وكانت في مقدمة المتظاهرين وتقف حاجزا بينهم وبين الوصول الى مدخل السفارة ، فقد كانت الاصابة قاتلة، وجاءت سيارات الاسعاف لنجدة المصابين ، وجاءت الشرطة تطوق السفارة لمحاصرة القاتل ، ويأتي هذا الاجراء في سياق اعتمده النظام الليبي، يقوم على اسكات اي صوت يعارض الحكم الجائر الظالم، ومن اي مصدر ، حتى لو كان مصدرا يبعد الاف الاميال عن ليبيا، ولا يشكل ادنى خطر على الحكم، ودون اعتبار لمصالح البلاد، فقد نجم عن مقتل الجندية، وقطع العلاقات ، وقفل السفارة، ضياع املاك ليبية كانت محمية بالغطاء الدبلوماسي، بما في ذلك قصر جميل كان يسكنه السفير وسط حديقة هولاند بارك ، ومقر السفارة العتيق الذي اصبح قنصلية وقسما ثقافيا فقد عادت ملكيته للكلية الامبراطورية كما يسمونها ، وهناك بيوت ملك السفارة هي ايضا لحقها الضياع وبيعت بارخص الاثمان ، وفقدت شركة الخطوط الليبية مقرا كان يحتل موقعا استراتيجيا في شارع البيكاديللي الشهير، وحقوق

اخرى نهبت بما في ذلك قصر جديد كان قد تم شراؤه ليكون بيت ضيافة، اوبيتا للسفير، بقى مهجورا فاستولى عليه جماعة المتشردين واتخذوه مسكنا، واستثمارات ليبية تناهبها اهل النصب والاحتيال ، ربما بعون من العناصر الفاسدة في الادارة الليبية.

والحدث الثاني هو مقتل تاجر اسمه علي الجاحور، وهو رجل شبه امي، كان يعمل مخلصا جمركيا في ميناء طرابلس ، وحاز على ثروة من هذا العمل ، تضاعفت مع الايام ، حتى جاءت اجراءات التأميم والمصادرة ، فلحقه بعض الاذى، الا انه صنع سلامه مع النظام ، واخرجوه على شاشة التلفاز في لقاء مع احد الثوريين هو صادق دهان، لكي يشيد بما حدث في ليبيا، لاثبات نقاء صفحته مع النظام ولجانه الثورية، وسمحوا له بالسفر والخروج والدخول الى البلاد، وكان فيما مضى قد اختار لندن مكانا لتصريف اعماله في الخارج، واستمر بها ،حتى بعد ان تضاءلت هذه الاعمال، وكان يحب الاقامة في فندق هيلتون بارك لين، حيث كنت التقي به في المقهى التابع للفندق، وكان رجلا مذعورا، يسعى لكسب الرضا من عناصر النظام باية طريقة بما في ذلك الاذناب الصغير ، من صبيان اللجان الثورية، وكلما التقيت به ، جاء يسالني ان اكتب له عددا من برقيات التهنئة ، لكل اصحاب المناصب في ليبيا ، مقتنصا اية مناسبة ، سواء كانت هذه المناسبة عيدا دينيا ، او مناسبة من مناسبات الانقلاب التي تعددت تسمياتها، لكي يجعل منها فرصة لاظهار الولاء واجزاء الشكر والثناء، لكل عناصر النظام بدءا بالعقيد، واعضاء مجلسه العسكري، الى كل افراد البطانة، فاكتبها له باللغة الانجليزية لكي يستطيع مكتب رجال الاعمال في الفندق ارسالها في شكل برقيات مطولة يتكلف ارسالها اموالا طائلة، لا لشيء الا لاثبات ولاءه للعهد، ومع ذلك فقد قتل شر قتلة بايدي عملاء النظام، فقد ارادوا بداية استخدامه في وضع قنبلة في ملهى ليلي كان هو واحدا من رواده، اذ تركها تحت احدى الطاولات قبل خروجه، وعندما تم اكتشاف القنلة ، وتم القبض عليه ، وجرت مواجهته بالادلة على تورطه في العملية ، اعترف على نفسه وذكر انه كان مرغما على المساهمة في هذا العمل الذي جرى بتدبير الفريق الثوري الليبي التابع للسفارة، الذي احضر القنبلة، وله غرض لا يعرفه الجاحور نفسه، فافرجت عليه الشرطة بكفالة، على ان يسجل حضوره اليومي في مركز شرطة، قريب من بيت سكناه في شارع ادجوار، وعندما تخلف عن الحضور ، وبحثوا عنه وجدوا انه اختفى من بيته ايضا، حيث كان يساكن امراة ليبية ربما كانت زوجة بعقد عرفي، ولم يعرف احد مصيره، الا عندما ابلغ بعض الناس في بيكر ستريت عن رائحة كريهة تتصاعد من احدى الشقق، وهناك تم العثور على جثة الرجل مقتولا بالرصاص بعد ان تم تعذيبه، وفي يوم مقتله ، حدث ان تاخرت الطائرة التابعة للخطوط الليبية، عن الاقلاع من مطار هيثرو اكثر من ساعة ونصف، وركابها كانوا جلوسا لا يعلمون عن سبب التاخير، حتى وصل اثنان من عملاء اللجان الثورية ، من اصحاب الشعر المهووش، حيث انطلقت الطائرة تاخذهما مع بقية الركاب، وكانا هما من ارتكب جريمة قتل على الجاحور عليه رحمة الله ، كما جاء في احدى صحف المعارضة التي رصدت الحادث.

عدت من البعثة لالتحق اسميا ورمزيا بامانة الاعلام والثقافة، ولكن الجهد الحقيقي انصرف لمتابعة اشغال المجلس القومي للثقافة العربية ، لعدة اسباب منها انني اريد ان انأى بنفسي عن الشأن المحلي لما فيه من مزالق وشراك، لاعمل في حقل الثقافة العربية وافق اكثر رحابة واتساعا هو الافق العربي الذي يتفق في بعض جوانبه مع قناعاتي في وحدة الثقافة العربية وعمق الرابطة التي تربط مثقفي الاقطار العربية ، والسبب الثاني ان هناك رخصة يمنحها النظام لمؤتمر الشعب

العربي ومؤسساته مثل المجلس الثقافي ، في حرية السفر خارج ليبيا، ونتيجة للطبيعة الخاصة لعمل المجلس واتصاله بالمنظمات والاحزاب السياسية في الخارج، فقد جرى اعفاء كل من يحمل رسالة ايفاد من المجلس من كل الاشترطات المطلوبة لاخذ تاشيرة خروج من ليبيا، بينما كان الحصول على هذه التاشيرة بالنسبة للمواطن العادي قطعة من العذاب، تقتضيه ان يلبي شروطا تعجيزية لكي ينالها، من بينها احضاره اذن من جهة العمل ، واذن من التدريب العسكري يقول انه قام بهذا الالتزام ، وشهادة حضور لجلسات المؤتمرات الشعبية ، وربما كان المطلوب في بعض المراحل شهاة انتماء للجنة ثورية، بينما نموذج صغير تاخذه من مؤتمر الشعب العربي يعفيك من كل رسائل الاذن التي يصعب احيانا الحصول عليها، وكان المجلس قد باشر اصدار مجلة الوحدة التي كنت ضمن لجان تأسيسها ثم واحدا من مستشاريها، وكنت اتردد على باريس لحضور جلسات التاسيس ثم جلسات المجلس الاستشاري، بل كنت اباشر عملي بها علي غير سبيل التفرغ، بينما كان امين المجلس يلح الحاحا مستمرا على ان اتفرغ لاعمال المجلس فكنت ارفض ، وافضل ان اتعامل معه تعاملا حرا، محتفظا بتبعيتي الرسمية لامانة الاعلام والثقافة بكل ما يتيحه العمل بها من مرونة في الحضور والانصراف، الا انني وافقت على هذا التفرغ عندما رافقه عرض بان تكون اقامتي في باريس حيث المقر المؤقت للمجلة، ومكان طباعتها وتحريرها، وحدث ان دعا الطاغية بعض الادباء والفنانين، الى سهرة رمضانية في خيمته، قبل ايام من ذهابي لاستلام العمل في فرنسا، وذهبت مع مجموعة من الزملاء اعضاء الرابطة، اذكر منهم الفنان محمد الزواوي، والفنان حسن عريبي، والدكتور على خشيم، والشاعر علي الفزاني، والشاعر الغنائي مسعود القبلاوي، الشاعر على صدقي عبد القادر رحمهم الله جميعا، وكان موجودا ايضا الاديب على المصراتي اطال الله عمره، واردت ان افتح معه موضوعا رايته معطلا لنمو الحياة الفنية والادبية، هو شعاره الذي يقول "لا نجومية في المجتمع الجماهيري" ، فاراد بسرعة ان يقفل الموضوع، وقال بابتسامة عريضة، ارفقها بفتح ذراعيه كانه يحتضن الموجودين:"وهل هناك من يقول انكم لستم جميعا نجوم هذا المجتمع"، وطبعا مثل هذا الكلام الذي يحمل معنى المجاملة ، لن يتحول الى سياسة جديدة، تحل مكان السياسة المعتمدة التي تهدف الى محو كل الاسماء، واطفاء كل النجوم، المهم انه في اطار هذه الروح من المجاملة التي سادت الجلسة، وقد بدأت بعد موعد صلاة العشاء واستمرت الى موعد السحور، سال عن الخدمة التي يمكن تقديمها لنا، فطالب الفنان حسن عريبي باستكمال اجراءات تخص مجلس التراث والموسيقى ، والسيد خشيم، تدليل عقبات مالية تواجه مسلسل حرب السنوات الخمس، والسيد المصراتي تيسير مهمة نشر الاعمال الكاملة ، والسيد الزواوي استرداد حقيبة وبعض المتعلقات التي حجزت في تونس عندما تحفظوا عليه هناك ومضت فترة طويلة يماطلون في اعادتها، وسالني عن العمل الذي انتسبت له بعد عودتي من البعثة، فلم اشأ الافصاح عما انتويته من تلبية العرض الذي جاءني بالانتقال الى باريس ، وقلت له انني مازلت اعمل نفس العمل السابق للبعثة، فزاد في الالحاح، حتى اضطررت الى اخباره بان هناك عرضا بان اتفرغ للعمل في مجلة الوحدة في باريس، ففاجاني بقوله انه لا يريدني ان اذهب لهذه المهمة ، وان هناك ما يحتاج لجهدي داخل البلاد، ولم استطع اقناعة بوجاهة المهمة وضرورتها، ولان اجراءات ايفادي كانت في مراحلها النهائية، فقد بكرت بالذهاب في اليوم التالي الى السيد عمر الحامدي امين المجلس، لابلغه بايقاف اجراءات ايفادي الى باريس بسبب حق النقض الذي مارسه السيد العقيد، ففاجأني بانه تلقى توجيها بالموضوع، وطبعا ادهشتني هذه السرعة، لاننا لم نترك باب العزيزية الا قبيل الفجر، وحرصت على القيام مبكرا لتوفير الوقت الضائع في اجراءات سفر لن يحدث، فمتى ابلغ الطاقم

الاداري معه ، ومتى استطاع هذا الطاقم ايصال الرسالة ، والنقاش الذي دار بيني وبينه لم يمض عليه غير اربع او خمس ساعات، ولم استطع معرفة لاي سبب كان هذا الايقاف ، وماهو العمل الذي كان يرى ان جهودي سوف تثمر فيه بالداخل، وواصلت مع المجلس ذات الروتين ، واذهب الى مهمات الخارج كما كان يحدث في السابق، وبسبب انني امتلكت حق استعمال شقة في لندن، اسافر للاقامة بها عدة اشهر ، وواوصل الكتابة لمجلات مثل التضامن التي كانت تدفع مكافآت مجزية جدا، تصل الى الف دولار عن المقالة الاسبوعية، اي اربعة الاف دولار في الشهر ، وهو مبلغ يمكن ان يغطي نفقات اسرة تعيش في لندن، خاصة اذا كانت تملك سكنا كما املك.

—

—

شهدت تونس انعقاد مؤتمر مجابهة الغزو الثقافي الذي كان تدشينا لاعمال المجلس الذي اعلن عن تاسيسه للثقافة العربية بحضور حشد من المثقفين العرب، وبدا امين المجلس واعوانه للحصول على ترخيص لاصدار مجلة الوحدة في العاصمة التونسية واتخاذها مقرا للمجلس الجديد، ولكن الرفض جاء قاطعا جازما ، لهذا الطلب، وجاء من حكومة السيد محمد مزالي ، وكنت حاضرا عندما نقل لنا الناقد والكاتب التونسي المعروف الدكتور عبد السلام المسدي الذي تقلد فيما بعد منصبا وزاريا في الحكومة التونسية، باستحالة ان تكون تونس مقرا لهذا المجلس او مجلته لاسباب تحتفظ بها الحكومة التونسية لنفسها، ولم تنفع الوساطات التي تم تسخيرها للحصول على هذه الموافقة ، وواضح ان هذا الرفض هو موقف من الدولة الليبية التي تقوم على تمويل هذا المجلس، وخوف ان يتم استخدامه غطاء لتسريب عناصر من المخابرات الليبية للقيام باعمال جوسسة وتخريب وارهاب في تونس التي سبق ان ذاقت الويلات من شرور الحكومة الليبية ، ولم تكن احداث قفصة والدور الليبي في تلك الاحداث ببعيد، ولهذا تم الاتجاه الى باريس باعتبارها محطة مؤقتة ، تم فيها انشاء مكتب لمؤتمر الشعب العربي، وعن طريقه يتم تدبير لقاءات اعضاء المجلس القومي للثقافة العربية وتدبير مقر للمجلة وكان هناك ثلاثة عناصر يقيمون اقامة مستمرة في باريس هم محي الدين صبحي ورياض ابو ملحم وجورج طرابيشي ، واضيف اليهم السيد ابو القاسم كرو ، الكاتب التونسي الذي تم تعيينه رئيس تحرير للمجلة، لفترة قصيرة، ويبدو ان العمل في خضم الحكومة الليبية بما فيها من عشوائيات وما تتبعه من اساليب خرقاء لا تقوم على تخطيط ولا سياسات مرسومة ، يكسب الانسان مهارات وخبرات خاصة، وتنمو لديه حاسة فوق الحواس الخمس للتعامل مع هذه الحالة الليبية، فقد كانت تحدث ازمات تنضب فيها ميزانية المجلس الى حد الصفر ولكن لامين المجلس اسلوبه في ان يجعل العمل يستمر دون توقف ، ولمدة عام ونصف فيما اذكر ومجلة الوحدة تصدر في باريس دون تغطية لنفقات طباعتها الا شهامة رجل اعمال عراقي يملك مطبعة في باريس ، ووجد نفسه متورطا في طباعة المجلة ، دون ان يحصل على سداد لفواتير طبعها وهي فواتير تصل الى ما يقرب من مائة الف دولار للعدد الواحد، لانها تطبع بشكل فاخر، واعداد كثيرة تصل الى ثلاثين واربعين الف نسخة، وتباع باثمان زهيدة، ومعنى ذلك ان الثمن عندما يتراكم دون سداد لمدة عشرة اشهر

سيشرف المبلغ على مليون دولار، ولانه لم تكن هناك ميزانيات للمجلة بهذا الحجم، ولان ديون المطبعة زادت على هذا المبلغ، ولابد من سدادها قبل ان يصل الامر الى المحاكم، فقد استخدم امين المجلس خبرته ومهارته في التعامل مع الحكومة الليبية، واقنعها بان هناك قضية تحتاج الى من يرعاها ، هي قضية الجالية العربية المغاربية التي يتكون اغلبها من اعضاء الطبقة العاملة، وفجاة راى العالم اهتماما ليبيا بهذه القضية واكثر من مؤتمر يعقد لهذه الجالية ، وسط استغراب المراقبين ، الذين لا يعرفون لليبيا مثل هذه الاهتمامات المتروكة لبلد مثل المغرب او الجزائر او تونس وهي الدول التي ينتمي اليها اعضاء الجالية، اما ليبيا فان دخولها على الموضوع بدا غريبا ، وربما مستهجنا لانها لا تراث لها في التعامل مع هذه القضية ولا تفهم مداخلها ولا مخارجها، وظل هذا السرادق الليبي للعمال المغاربة منصوبا لمدة عام كامل واقامة ثلاثة او اربعة مؤتمرات ثم انتهى ، وطوي السرادق ، ولم يعد احد الى ذكر هذه القضية ، وتفسير ما حدث ان امين المجلس اقنع الحكومة الليبية باقامة هذه المهرجانات لان عن طريقها سوف ترصد له الميزانيات التي يحتاجها لا لاقامة هذه المؤتمرات ، وانما لسداد ثمن المطبعة التي تراكمت ديونها لاكثر من عام، وهو امر لن يتحقق الا من فائض ميزانية هذه المؤتمرات لانه فعلا اقام هذه المؤتمرات وتمكن من تسديد الديون ، ثم عاد الى قواعده سالما ، وتحقق له فيما بعد مقرا للمجلة وللمجلس في دولة عربية هي المغرب ، التي وافقت على استضافة المجلس بامر ملكي من الحسن الثاني، ومساهمة شخصية منه ، بل اعطى المجلس وضعا ديبلوماسيا وتمت معاملته كهيئة دولية ، وتجددت مرة اخرى فكرة تفرغي للعمل في المجلس، وسالت امين المجلس ان يأخذ لي اذنا من العقيد، وطبعا لم يكن ليفعل شيئا بدون اذنه، الا انه في هذه المرة اوصلني بالرائد جلود الذي كان يدعم المجلة ويدعم المجلس القومي للثقافة العربية ، وكان احيانا يدعو بعض اعضائه للالتقاء به في مكتبه بقصر الشعب ، وسمعت منه كلاما طيبا عن حرصه على انجاح المجلس وانجاح المجلة وما يمثلانه من زخم ثقافي وما يقدمانه من خدمة لتعميق الوعي بالفكر الوحدوي وتمتين الروابط الثقافية بين ابناء الامة الواحدة. وفعلا صدر قرار ايفادي الى المغرب ، ولقى هذا القرار ترحيبا من عائلتي ، لانه جاء في وقت (اي في عام 1987) وكان اهل البلاد يعانون شحا في السلع، وندرة في المواد الاستهلاكية المستوردة من الخارج، ولا ادري تحت اية ذريعة تم تمرير هذه السياسة التجويعية، ولعل النظام يسميها تقشفا او ربطا للحزام او ما شابه، حيث كانت الاسواق فارغة من اغلب السلع ، وحيث لا وجود مثلا في المتجر لمواد استهلاكية ضرورية مثل الاجبان، وانواع الحليب، وانواع الياغورت، وكل ما يمكن ان تصنع به الام افطارا لاطفالها، وقبل ذلك بعدة سنوات، غابت سلع تحسب في خانة الكماليات مثل الشيكولاته، وانواع من الفاكهة مثل الموز والتفاح، اما الملابس فقد غابت من الاسواق الملابس الداخلية، والجوارب ، وغابت مناديل الورق ايضا، وكانت هناك ازمة دائمة في العثور على اللحوم الا في السوق السوداء ، ولم يكن هناك تفسير الا ما يتهامس به الناس، وهو ان الغياب في السوق يطال كل سلعة كان الطاغية عاجزا عن شرائها واستخدامها عندما كان طفلا في اسرة بدوية فقيرة بائسة،، لا تستطيع توفير شيء من هذه المواد، فهو بالتاكيد لم يعرف اي نوع من انواع الحلوى في البادية، ولم يكن الناس يعرفون ملابس داخلية، او جوارب، ولم يكن احد يعرف الموز او التفاح ، وطبعا ندرة اللحم الذي لا ياكله فقراء البادية الا في عيد الاضحي، كل هذه سلع يجب ان يحرم منها الشعب الليبي، ولهذا كان الانتقال من مدينة طرابلس الى مدينة عربية مثل الرباط مدعاة لفرح كل اطفال العائلة ، وكان شبه معجزة، ونحن نسكن في شقة في منطقة اكدال في الرباط، ان نجد متجرا يقع مباشرة تحت العمارة، يبيع كل البضائع المفقودة في

ليبيا، ويمكن لبواب العمارة وخلال خمس دقائق ان يعود بسلة فيها كل ما كان مفقودا في ليبيا وتحتاج ربة البيت او رب العائلة ان يقضي اياما في البحث حتى يحصل على سلعة واحدة منه.

بالنسبة لي فقد احسست بانني خرجت من الكابوس الليبي الى فضاء يقدم فرصة للشهيق والزفير . عمل جديد، ومشهد جديد، وزخم ثقافي تميزت به المغرب ، ظل دائما موجودا بذات الحيوية وذات القوة ، رغم التقلبات التي صاحبت الحراك السياسي ، وهو حراك يراوح بين التأزم والانفراج، بين اشتداد القبضة الامنية الحكومية، وبين بسطها وانفراجها، وملك يجيد استخدام شعرة معاوية مع المعارضين ، ويملك بعضا من دهاء الملك العربي المؤسس للامبراطورية التي سعت لان ترث امبراطوريات الفرس والروم والصين، وقد راوح بين الثقافة العربية التقليدية ، وبين ثقافة فرنسية اوروبية معاصرة، ويطوع كل منهما لبقاء سلطته واستمرارها، وسط عالم عربي اجتاحته حمى التغيير والانقلابات، والثورة على انظمة الحكم التقليدية، واستطاع باعجوبة ان ينفذ، في اعوام سابقة، من محاولتين انقلابيتين، قاد احداهما اكبر جنرالاته والرجل الثاني في الحكم الجنرال اوفقير، والثانية ايضا قائد كبير من قيادات الجيش وكان انقلابا اجراميا دمويا ذهب ضحيته عدد كبير من الابرياء بينهم وزراء وضيوف اجانب كانوا يحضرون حفلا في قصر الصخيرات القصر الملكي الذي تعرض للهجوم. كما كان يملك على الرف مجموعة قلنصوات، كي يرتدي لكل حالة لبوسها، فهذه قلنصوة رجل الدين، وامير المؤمنين الذي يقف على المنبر ويقدم تفسيرا لاية من القرآن القريم، وقلنصوة الرجل العصري الذي تظهر صورته، يتزحلق على الجليد في جبال سويسرا، ويقود الفولهارمونيك اوركسترا في مسرح محمد الخامس، ومرة اخرى راكبا على جواده يستقبل البيعة من اعيان البلاد ، وكان يتعامل بحساسية مع المعارضة، وكان يستطيع ان يكون قاتلا ومجرما مع من يستهدف الاطاحة به، وكان يقول " استلمت هذا العرش من سلسلة اسلاف ميامين ، ولن اسمح بان يضيع العرش في عهدي او اكون الحلقة الاضعف التي ينتهي عندها حكم اسرتي"، بمعنى انه سيدافع بكل قوة عمن يريده ان يتخلى عن الحكم، ما دون ذلك وما بعد ذلك فهو قابل للنقاش، وهكذا كان لابد من ان تصل المعارضة نفسها الى قناعة بالتعايش مع العرش، ولكن ليكن الكفاح هو من اجل حكم ديمقراطي تحت هذا العرش الذي يجب ان يكون صاحبه يملك ولا يحكم مثل ملوك اوروبا العصر الحديث ، لا مثل ملوك اوربا في القرون الوسطى وعصور الحكم بالحق الالهي.

اسعدني ان اجد عددا من المثقفين يعملون في محيط المجلس القومي للثقافة العربي ، تحولوا كلهم الى اصدقاء حميمين، اتواصل باغلبهم، واحظى بامتن العلاقات معهم، وبينهم الصديق المبدع مبارك ربيع، والصديق المفكر مصطفى قباج، والصديق الناقد احمد اليابوري، والصديق الفيلسوف محمد سبيلا، والناقد الفني نور الدين افاية والمبدع والناقد بشير القمري، وكل من الاصدقاء كمال عبد اللطيف وعبد الله الساعف وسعيد بنسعيد، وربطتني علاقة طيبة بالراحلين العزيزين احمد السطاطي واحمد المجاطي وعرفت من غير المتعاملين مع المجلس الاساتذه الادباء محمد براده وعبد الحميد عقار والراحل عبد الجبار السحيمي وعدد من اهل الفن والصحافة والادب اكثر مما استطيع حصرهم في مثل هذا المكان. كما اعتز بعلاقة وثيقة، ربطتني بموسم اصيلة الثقافي، وشاركت في فعالياته، ربما لاكثر من عشرة مواسم، وحظيت بصداقة ومودة الراعي المؤسس لهذا الموسم الاستاذ الفنان والمثقف محمد بن عيسى. واهم ما كان موجودا هو نوع من التقاليد التي يراعيها الناس، بعكس

عشوائية الاجواء الليبية، وخضوعها الكامل لمزاج الحاكم، ففي المغرب مساحة اكثر براحا، وسقفا اكثر علوا لحرية القول التعبير والتفكير ، رغم ما هناك من ضيق وتسلط وظل ثقيل لوزير الداخلية السيد ادريس البصري، وهناك اساليب واسس لتعامل الدولة مع الواقع الثقافي والسياسي اكثر انضباطا وموضوعية، وهناك احزاب في الحكم واخرى في المعارضة ، ترعى التوازنات وتحفظ التقاليد ، وهناك قواعد للتعامل يحاول ان يلتزم بها الطرفان، الحكم والمعارضة ، وهناك ضمن هذه الاطر والقواعد والتوازنات، لعبة ديمقراطية ، في الادارة والسياسة ، لا تخلو من قصور وشوائب، ولكنها موجودة، وليست مفرغة من جوهرها ومحتواها ، واقول هذا الكلام عن الثمانيينات، وقبل سنوات الانفراج التي سبقت بقليل، وفاة الملك الحسن، وازدادت انفراجا مع وريثه محمد السادس . وهذه المساحة من الديمقراطية هي التي ضمنت وجود مناخ ازدهرفيه الفكر، ولمع وتالق فيه عدد من المفكرين ممن صار لهم حضور لا على مستوي بلادهم، وانما على مستوى ارحب واوسع اقليميا ودوليا ، مثل عبد الله العروي ومحمد عابد الجابري ومحمد جسوس ، محمد الحبابي وفاطمة المرنيسي ، علاوة على من ذكرت من المتعاونين مع المجلس، وهناك ادباء صنعوا لانفسهم اسماء شهيرة، واهل مسرح وسينما وغناء اكثر شهرة ، وهو امر يختلف عن ليبيا التي اصبحت سياسة طمس النجوم، ومحو اسمائهم، سياسة معلنة، عبر اجهزة الدولة بل اتضح فيما بعد ان هناك جهازا في امن الدولة، معني بتطبيق مقولة سياسة منع ان يصل اي اسم ليبي، مهما كانت درجة نبوغه الى الشهرة والنجومية.

قرأت أثناء وجودي في المغرب ، مقابلة صحفية مع احد الخبراء بمعهد ابحاث فرنسي معني بالمغرب العربي ، وجاء على ذكر رموز الفن والادب والفكر في كل قطر من اقطار المغرب العربي، مشيدا بالعطاء الفكري والابداعي في هذه البلدان، ذاكرا اسماء شهيرة في كل مجال، دون ان يذكر اسما واحدا من ليبيا، في اي مجال من المجالات، او يشيد بما فيها من فكر او ابداع ، وقال كتبرير لهذا الجهل والتجاهل ، ان ليبيا ما زالت وطنا يؤسس نفسه ، فاغاظني ما قرأت، ونقلت شيئا من غيظي الى سفير النظام الليبي في المغرب السيد الزوي، الذي لم يكن يخفي انتقاده للطريقة التي تدار بها البلاد، ثم جلست مع نفسي ، قائلا هل يكفي ان نشتم النظام ونلقي عليه باللائمة ، دون ان نفعل شيئا اكثر ايجابية من ذلك، وكان الصديق عثمان العمير ، رئيس تحرير الشرق الاوسط، يطلب مني كلما التقيت به ان اساهم بالكتابة في صحيفته اليومية، وكنت ارجيء هذه المساهمة الى وقت اخر، وعزمت على مهاتفته لالبي طلبه ، واحاول ان اقدم مادة تلقى الاضواء على المنجز الادبي والفني الليبي الذي اخفاه الطاغية تحت عباءته، وقلت للصديق العمير انه يسعدني ان البي طلبه بالمشاكة بالكتابة المنتظمة في الصحيفة ، وكان هناك باب يظهر كل يوم ويتناوب عليه كبار كتاب العالم العربي امثال اكرم زعيتر ويوسف ادريس وصلاح حافظ، فارادني تشريفا وتكريما منه ان اكون ضمن هذه الكوكبة المتميزة من نجوم الفكر والادب، فابديت له استعدادي ان اكتب زاوية يومية اذا كان ذلك متيسرا لانني اردت مساهمتي ان تكون طرقا يوميا على ذاكرة القاريء في اكبر صحف العالم العربي واكثرها توزيعا لان الشرق الاوسط كانت اول صحيفة عربية تستفيد من تقنيات الطباعة على بعد، ووصلت الى ان تطبع في عشرة مراكز عبر العالم في وقت واحد، ودون تردد سالني ان كنت قد اخترت عنوانا للباب فقلت له "كل يوم" ، وكان عبقري الرسم الساخر محمد الزواوي، يصلح ان يكون وجها ابداعيا في اختراق الحصار الذي يفرضه الطاغية على الابدا ع الليبي، وكنت اعرف مدى اعجاب الصديق العمير برسوم الزواوي، فابديت استعدادي ان اكون واسطة في نقل

انتاج محمد الزواوي وتقديمه للصحيفة ، وكنت اعرف رغبة الزواوي في ان يكون له حضوره في منبر صحفي على مستوى الوطن العربي، بدل ان يبقى محصورا في الصحف الثورية الليبية التي لا احد يقرأها، واتفقت مع رئيس تحرير الشرق الاوسط على تخصيص صفحة اسبوعية لرسوم الفنان الزواوي، وبغبطة وفرح لبى الزواوي الدعوة التي وجهتها اليه ، ولانه لم تكن هناك في ذلك الوقت الوسائل الحديثة لارسال المادة المرسومة مثل الايميل ، ولم يكن الفاكس نفسه قد وصل في تطوير تقنياته الى ما وصل اليه بعد ذلك، فكان لابد ان يرسل المادة المرسومة من ليبيا الى الرباط، واقوم بتسليمها الى مراسل الصحيفة الصديق طلحة جبريل، الذي يملك بريدا يوميا مع الصحيفة في لندن، ورغم مشقة المهمة ، ومشقة العثور على احد في رحلات الطيران بين طرابلس والمغرب، يؤدي المهمة بامانة ودقة، فقد داوم الزواوي على ارسال صفحته ، لكن عقبة اخرى واجهتنا، هي حرص الزواوي على ان تعود اليه الاصول لهذه الرسوم بعد نشرها في الصحيفة ، وكانت هذه اكثر صعوبة من ارسالها، فالارسال مهمة نؤديها باعتبار ان بها جانبا وطنيا وبها ما يضمن التحقق والرواج لاعمال فنان من نوابغ المبدعين الليبيين، نحرص على الوصول بانتاجه لقاعدة عريضة من القراء ، ولكن الموظف او العامل الذي سيعيد هذه المادة لا يملك نفس الدوافع، وبعد عدة اشهر من الحماس والمثابرة ونشر هذه الصفحة الاسبوعية التي كانت فتحا بالنسبة لرسوم الزواوي، وانفتاحا على قاعدة عريضة من قراء، لم يكونوا قد التقوا بعبقريته، كان لابد لهذه الصعوبات ان تصل بنا الى طريق مسدود، فتوقفت صفحة الزواوي وواصلت انا كتابة الباب اليومي، الذي كان وجودي في المغرب يجعل ايصاله سهلا ميسورا ، الصعوبة الوحيدة امامي كانت هي انجاز الباب في موعده، لانني ذهبت الى المغرب احمل مشروع رواية متعددة الاجزاء، هي الثلاثية الروائية ، ولعل وجود هذا المشروع كان دافعا اضافيا لان اقبل بحماس مهمة الذهاب الى المغرب، لانها تتيح لى فك الارتباط بما يفرضه المحيط الاجتماعي في طرابلس من التزامات عائلية واجتماعية، قد تجني على الوقت الذي يجب تكريسه، لعمل على جانب من الطول والضخامة، وهو ما كنت حريصا عليه عند انتقالي الى المغرب ، فقد كرست كل الوقت للرواية، وكنت متحررا من اي التزام بالكتابة في اي مكان اخر، حتى عملي في مجلة الوحدة، لم يكن يقتضي المساهمة بالكتابة فيها ، بقدر ما يقتضي المساهمة في التخطيط ووضع السياسات ومراجعة بعض المواد الخاصة بالملف الابداعي للحكم على صلاحيتها او عدم صلاحيتها للنشر، وهو ملف صغير جدا، باعتبارها مجلة فكرية سياسية اكثر مما هي ذات طابع ادبي ، وكنت بعد التزامي بهذا الباب اليومي لصحيفة الشرق الاوسط ، مضطرا لان احسن تقسيم الوقت واستغلاله ، وفعلا وجدت صيغة اكتب بها هذا الباب ، دون ان يتاثر الوقت الذي كنت قد كرسته لكتابة الرواية ، ونجحت لمدة عامين او ثلاثة اعوام ، وكنت ساستمرفي ذلك لولا حدث كبير هز المنطقة العربية ، واربك نظامها بمثل ما اربك النظام على مستوى اشخاص مثلي، هو غزو الرئيس العراقي صدام حسين للكويت ، فقد رات الصحيفة ، كما رات ذلك اغلب او كل صحف الخليج ، ان مهمتها الاساسية هي التركيز على هذه القضية، وتسخيرمادة الصحيفة، نحو هذا الحدث، لكي تكون جزءا من الهحوم المضاد على الغزو، واعطاء مجابهة الغزو الاولوية، على كل مادة اخرى ، فحجم الجريمة كان كبيرا، والاجتراء على الدول والشعوب كما هو الغزو الذي امر به صدام حسين ، تجاوز كل النواميس التي تحكم علاقة الاوطان ببعضها البعض، فقد اراد هذا الطاغية ان يبتلع دولة كاملة بنشيدها واعلامها وحكامها وبرلمانها ودستورها ومؤسساتها الرسمية والاهلية ، السياسة والادارية والثقافية والاجتماعية والاعلامية ، في قضمة واحدة ، من فكه المفترس، وكتبت في زاويتي ادين الغزو باقصى ما يتيحه القاموس من مفردات

الشجب والادانة واللعنة ، في مقال واثنين وثلاث واربع ، ولكن الباب كان عنوانه كل يوم، ولم يكن والكارثة ماثلة امام الاعين، مستساغا الحديث في اي موضع اخر غير هذه الجريمة ، كما لم يكن ممكنا ان اكتب كل يوم عن هذا الحدث ، ولم اكن املك طاقة ولا امكانيات ولا الملكة الشعرية التي كان يملكها الصديق الراحل غازي القصيبي الذي داوم على كتابة زاوية يومية حول الغزو، ويكتبها احيانا نثرا واحيانا شعرا واحيانا شيئا بين الشعر والنثر ، واعتذرت للصديق عثمان عن مواصلة الكتابة اليومية ، واقتصرت على مقالة اسبوعية اساهم بها في الباب الذي يتناوب على تحريره كوكبة من عظماء الكتاب العرب، اسمه فيما اذكر ، الاستراحة.

وكرست وقتي كاملا لانجاز الثلاثية الروائية، التي كنت قد باشرت كتابتها قبل انتقالي للمغرب، واردتها عملا ينتمي للروايات ذات النفس الملحمي، ربما تحديا لمعطيات البيئة الليبية المحلية التي لم تكن ، كما يقول اهل الراي، قادرة على تغذية العمل السردي الطويل ، ولكنني قررت الا يكون اعتمادي بالضرورةعلى الموارد المحدودة للواقع الاجتماعي في داخل هذه البيئة، وانما الاستعانة بموارد اخرى تستطيع تغذية العمل ، واذا كنت قد اعتمدت في جزء كامل من هذه الثلاثية على معطيات البيئة المحلية، في الجزء الذي يحمل عنوان "نفق تضيئه امرأة"، فان الجزء الاول "ساهبك مدينة اخرى" اعتمدت فيه، اعتمادا كاملا على الذاكرة في استدعاء لتجربة حياتية لمواطن ليبي خارج ليبيا ، مستعينا بخبرتي في التعاطي مع المجتمع البريطاني وخاصة في اقليم اسكتلندا وعاصمة الاقليم ادنبرة التي من جامعتها تحصلت على شهادة الدكتوراه في الادب، اما المورد الثالث فهو التراث الادبي العربي ، الذي اتكأت علي بعض تقنياته واساليبه في التعاطي مع الاحداث والوقائع، مستعينا بمناخات واجواء الف ليلة وليلة في الجزء الثاني المسمى "هذه تخوم مملكتي"، وما ان انتهيت من كتابتها حتى اعطيتها لاثنين من نوابغ النقاد العرب ، لتقييمها قبل الدفع بها الى المطبعة، هما محي الدين صبحي وجورج طرابيشي، وكانا ضمن زملاء العمل في مجلة الوحدة، واستفدت مما ابدياه من ملاحظات، وتلقيت منهما التهنئة المبكرة لما توقعاه من نجاح للرواية عند نشرها، واسهم الاثنان في كتابة اسطر قليلة تشيد باجزاء الرواية الثلاثة ، نشرتها على غلاف الكتب الثلاثة التي احتوت اجزاء الرواية، عند صدورها عن دار رياض الريس للكتب.

وحدث ان تهيأت للثلاثة ظروف ساعدت على سرعة انتقالها الى اللغة الانجليزية ونشرها عن طريق دار كبيرة تحظى بالاحترام بين ناشري المملكة المتحدة والعالم، هي دار كوارتيت بوكس، الى حد انه كان يمكن نشرها باللغة الانجليزية قبل النشر العربي ، الا انني وجدته امرا لا يستقيم مع تقاليد النشر والتاليف، فالاولوية للنص العربي نشرا وتوزيعا، وبناء على هذا النشر يتحقق اي نشر اخر باية لغة من لغات العالم غير العربية، ولهذه المسألة قصة لا باس من الوقوف عندها قليلا، وهي ان صديقا ناشرا وكاتبا وصاحب مكانة مرموقة في دنيا المال والاعمال في لندن هو الاستاذ نعيم عطا الله، كان قد شاهد مسرحية الغزالات اثناء عرضها في مسرح برنارد شو، فاعجبته اعجابا شديدا، الى حد انه عرض ان يقوم بانتاجها تجاريا، وتقديمها على مسارح الوست اند ، كما يسمى حي المسرح اللندني، ليستمر عرضها مثل مسرحيات ذلك الحي التي تستمر مدة اعوام تستقبل الجمهور، واصدر كراسا دعائيا

فاخرا، ينقل لعالم المسرح التجاري خبر هذا الحدث ، وانتدب احد المخرجين البارزين هو روجر سميث الذي سبق ان فاز بجائزة احسن مخرج في بريطانيا لاحد الاعوام عن عمل من اعماله، وكانت الغزالات تتكون من ثلاثة فصول ، واراد وفقا لما تحبذه المسارح التجارية، ويريده المخرج، دمجها في فصلين، لكي لا يحتاج العرض لغير استراحة واحدة، فانتدب كاتبا مسرحيا بريطانيا شهيرا من كتاب المسرح القومي ، هو الشاعر والمؤلف المسرحي ادريان ميتشل، فانجز المهمة بابداع ونجاح ، مما اضاف الى رصيد المسرحية وعوامل الحبكة والتشويق فيها، وباشر المخرج الاتصال باثنين من كبار نجوم المسرح والسينما، هما بيتر اوتول وعمر الشريف ، للقيام بالبطولة ، ولاعادة جمعهما في عمل مسرحي، بعد ان كان مولد نجوميتهما في عمل سينمائي مشترك هو لورانس العرب، وكانت الجهود تبذل لتامين حدث مسرحي ناجح في حي المسارح بالعاصمة البريطانية، الا ان زحفا على هذا الحي من الاعمال الغنائية ، ذات الكاست الكبير ، والانفاق الهائل، مثل القطط، وايفيتا التي تحكي قصة ايفا بيرون، وغيرها، مما جعل من الصعب الدخول الى الميدان بمسرحية جادة ذات كاست من ثلاثة ممثلين،حيث لا فرصة لتحقيق اي نجاح تجاري، وقرر المنتج وشركاؤه تاجيل المشروع، وتواصل التاجيل ، لان عرض هذه المسرحيات الموسيقية تواصل دون انقطاع لاعوام كثيرة ، وجاءني الصديق نعيم عطا الله، ليقول لي بانه كان صادقا وهو يريد الدخول بمسرحيتي الى مسرح التجارة والاحتراف، بما يعنيه لكاتب من مال وشهرة، ولكن الشركاء في الانتاج، صاروا يتراجعون ، الى حد اصبح معه متعسرا تقديمها ، كما يأسف انه شخصيا قرر الانسحاب من مثل هذه المجالات، ليقتصر جهده التجاري على النشر، ولديه دارذات سمعة عالمية هي كوارتيت بوكس، ويتمنى ان يجد فرصة لتعويضي عن الخسارة التي يعنيها لي ايقاف انتاج المسرحية، خاصة انني لم اسال عن اي مقابل، او اتقاضي اي مبلغ، اثناء توقيعى على السماح باستغلال المسرحية، مؤجلا ذلك الى النسبة التي كانت ستخصص للمؤلف عندما يبدأ عرض المسرحية، ويستطيع ان يعمل ذلك من خلال استعداده لنشر اي عمل من اعمالي الادبية، على حساب الدار ترجمة ونشرا وتوزيعا، ولانني عندما فاتحني في هذا الموضوع ، قد اوشكت على اكمال الثلاثية، فاخبرته بشأنها، واقترح ارسالها اليه ، ليعطيها لمن يقرأها من اهل الاختصاص ، ويكتب له تقريرا عنها، وفق قواعد العمل في الدار، ليباشر الترجمة والنشر. وفعلا ارسلتها اليه، وارسلت نسخة اخرى الى الصديق رياض الريس ، لكي يسبق النشر العربي نشرها باللغة الانجليزية، وفعلا حصل ذلك، لان النشر الانجليزي تسبقه مرحلة مهمة وعسرة احيانا هي الترجمة، ولان لي خبرة في التعامل مع المترجمين العاملين في هذا الحقل، فقد انشغلت بالتفكير في من يجب اختياره وترشيحه للقيام بالمهمة، واتصلت للتشاور في الموضوع مع مدير تحرير الدار وهي سيدة بريطانية من اصل عربي ، اسمها زلفا حوراني، وذهبت لانقل لها رايي في مكتبها بدار النشر، فاذا بها قد احضرت مترجما انجليزيا اسمه راسل هاريس، وقالت انها اتفقت معه على القيام بالترجمة، واسقط في يدي، فانا لا اعرف الرجل ، ولم اجد في تاريخه ما يؤهله لترجمة عمل روائي بهذا الحجم ، له طبيعة شاعرية، بسبب اسلوب البوح والاعتراف في الرواية، وفكرت ان ارفع الامر الى صاحب الدار واكاشفه بشكي في قدرات المترجم، الا انني لم افعل ، لان المترجم جاء يقول انه سينتقل للاقامة حيث اقيم، وكنت قد باشرت الانتقال الى القاهرة من الرباط، وانه سيتفرغ لترجمة الرواية اثناء وجوده في القاهرة، بحيث اراجع معه كل صفحة يقوم بترجمتها، واتفقت معه على ان يكون هناك لقاء كل اسبوع بيننا، وهو ما جعلني اطمئن الى ان ترجمة اشرف عليها، واكون قادرا على ابداء الملاحظات حولها صفحة بصفحة، هي الصيغة الافضل التي قد تضمن عملا ناجحا، ربما لا يتوفر عن طريق امهر

المترجمين. وسافرت عائدا الى القاهرة، انتظر السيد المترجم ان يلحق بي، واثناء ذلك صدرت الطبعة العربية، وكان الاستقبال عظيما، كما توقع الصديقان طرابيشي وصبحي، ولكن المترجم لم يظهر، وهاتفت لندن اسأل عنه ، فعرفت انه عدل عن المجيء والاقامة في القاهرة، لانه تلقى عرضا بعمل مترجم غير متفرغ بمحكمة لاهاي الدولية، فآثر الذهاب الى هولندا، ولا ادري المدة التي انقضت ، ربما اكثر من عام، حتى وصلني طردا بريديا ، ارسلته السيدة زلفا حوراني، يحمل ترجمة الرواية باجزائها الثلاثة.

عكفت على قراءتها، وصعقت لشيئين قام بهما المترجم، الاول انه اخذ حريته في القفز على فقرات الرواية، فما يراه عصيا على الترجمة، لان اللغة تسامت على مستواه الضئيل الضعيف، فتركه وذهب الى غيره، اما السبب الثاني لهذه الصعقة، فقد كان حجم الاخطاء التي تدل على جهله باللغة وعدم اهليته للترجمة، مهولا، وشنيعا، واسوق مثلا واحدا عليها، فقد ترجم " بناة الاهرام" الى "بنات الاهرام". وتأكد لي ان اختيار هذا المترجم لم يأت صدفة، وان السيدة حوراني كانت منذ البداية تتوخى هذه النتيجة، وعرفت عندما بدأت استقصاء الحقائق، انها عارضت ترجمة العمل، ورشحت لصاحب الدار، اعمالا اخرى لاصدقاء لها من لبنان، ولكن الرجل التزاما بكلمته معي، وتعويضا عن العمل المسرحي المجهض، اصر على اعطاء الاولوية للثلاثية، فحققت انتقامها عن طريق جلب هذا المترجم المجهول، بدلا من انتداب اصحاب الكفاءة بما يطلبونه من اجور اعلى من اجره، ولم اعرف ماذا استطيع عمله وانا اجد ترجمة بائسة ، سوف تقضي على اية فرصة لنجاح الرواية في صيغتها الانجليزية، ولعل الامر كان يحتاج الى رفض النص المترجم ،واسناد المهمة الى مترجم اكثر كفاءة، ولكنني خشيت ان تتراجع الدار عن النشر ، ولجأت الى حل تلفيقي، هو اصلاح ما افسده المترجم، واستنجدت بصديقين من اهل الاختصاص، ويقومان بتدريس الادب الانجليزي في الجامعات المصرية، هما الدكتور امين العيوطي، والدكتورة ثريا مهدي علام، لكي يتقاسما العمل بينهما، في ترجمة الاجزاء الناقصة وتصحيح الاجزاء الفاسدة، واخطرت مديرة التحرير في الدار بما وجدت عليه الترجمة والتزامي بتصحيحها، بكل ما يمكن ان تأخذه من وقت، واستعجلت الصديقين المترجمين لانجاز المهمة في اقصر وقت ممكن، واعدت بعد عدة اسابيع الترجمة الى السيدة حوراني، قائلا لها ان تترك الترجمة الاولى وان تعتمد الترجمة المنقحة، وتلقيت منها رسالة حقيرة ، تسفر عن نواياها الخبيثة المعادية للعمل، قائلة ان الدار لن تستجيب لما قمت به من تصحيح وتنقيح، وان النسخة التي جاء بها المرتجم هي النسخة المعتمدة التي ستذهب الى المطبعة، وانني اذا لم استجب لها، فانها سترفض نشر الرواية ، طالبة مني اخذها الى اي ناشر آخر، اذا اردت. وما اغضبني هو ان هناك صيغة اخرى للتعبير عن رايها اكثر ذوقا، وادبا، كان تحاول اقناعي بان الاختصار لمصلحة الرواية، وانه يمكن مراجعتها من قبل محرر خاص بالدار، وان هذه الاضافات يمكن ان تخلق حالة من الارتباك في النص واسلوبه ، مما قد لا يعود بالفائدة عليه. وكان يمكن جدا ان اقتنع بذلك، الا ان الاسلوب الاستعلائي الاستفزازي الذي خاطبتني به جعلني، احتج على اسلوبها ومنطقها ، وارفع الامر الى صاحب الدار، الذي كان شديد التفهم لغضبي، كما كان مؤمنا بصدق شكوكي في نوايا السيدة حوراني، وكان كل ما قاله لي هو ان انسى ما قالته مديرة التحرير، وان ما اريده باعتباري المؤلف هو ما سيتم العمل به ، دون اعتبار لرايها. وابلغني انه لن تدور عجلة الطباعة الا بعد ان اضع توقيعي على البروفة النهائية للعمل. وفعلا تم طبع الرواية كما اردت، وبكل ما اقترحته من تصحيح، ووضعت اسم

الدكتور امين العيوطي والدكتورة ثريا علام ، بجوار المترجم الاصلي فوق الكتاب. وكان محرر نقد الروايات في الملحق الادبي لصحيفة التايمز، نابها وصادقا، عندما اشار الى قوة العمل، وقد اساءت اليه الترجمة الرديئة، واضعفت من قيمته، لان التلفيق والتصحيح، كان بالتاكيد ظاهرا ولم يكن ممكنا ان يخفي الاصل السيء للترجمة.

كان ذلك درسا قاسيا، حاولت ان اتعلم منه، في بعض ما نشر لي باللغة الانجليزية فيما بعد، ولكن ليس مع كل ما ترجم لي من اعمال، لانني استطعت تنفيذ ذلك مع اعمال املك السيطرة على انتاجها، مثل فئران بلا جحور، واخيرا خرائط الروح، واخفقت ان استفيد من التجربة مع مجموعة اعمال اتفقت بشأنها مع ناشر اخر اسمه بيتر هوبكنز، ويدير شركة نشر عتيقة اسمها كيجان بول، وشجعني انه تعامل مع اصدقاء من الكتاب العرب قبلي مثل الراحلين الطيب صالح وغازي القصيبي، ثم خالد قشطيني، اطال الله عمره، فجمعت ما كان مترجما ومبعثرا في الصحف من انتاجي في خمسة كتب صغيرة، واعطيتها له، محذرا ايه بوجود اختلاف في مستويات الترجمة ، لان بعض هذه الاعمال تمت ترجمته في مراحل مبكرة من عمري، وعلي يد مترجمين روتينيين في وزارة او سفارة، وبعضها الاخر على يد اهل الحرفة والاختصاص، فتعهد لي انه لن ينشرها قبل ان يتولى احد المحررين من طرفه وضعها في اسلوب يضمن لها الجودة والتوازن، ويحقق لها المستوى المطلوب للنشر، وضاف انه ربما يقوم هو نفسه بهذه المهمة، لكن الرجل كما علمت فيما بعد من هؤلاء الاصدقاء الكتاب، انه شحيح بخيل، وان هذا الشح سوف يمنعه من انفاق اي مال على تحسين مستوى الترجمة ، وانه على درجة من الادمان تمنعه من ان يمسك القلم ليقوم بالمهمة، وكان سبب اقباله على نشر اعمال عربيه ، انه وجد لنفسه طريقا مع بعض معاهد وجامعات الخليج، لاقتناء الاعمال العربية المترجمة الى هذه اللغة، فكان ما يهمه هو ان ينشر ادبا عربيا، غير عابيء بالتجويد والجدارة، وعندما صدرت الكتب ، وجدت ان النصوص لم يطرأ عليها اي تصحيح او تغيير، فقد نشرها كما استلمها مني، وجاء التقييم هذه المرة من محرر ركن الكتب في صحيفة الجارديان التي كتب بالحرف الواحد عن الكتب الخمسة ما يأتي " تعطيك هذه الكتابات احساسا بعبقرية المؤلف التي انقصت منها الترجمة".

كان تحرير باب يومي اسمه "كل يوم" لعدة سنوات في اكثر الصحف توزيعا واكثرها اتصالا بالحداثة والتجديد ، كما كانت الشرق الاوسط في ذلك الوقت، قد اكسبني صيتا وسمعة بين قراء الصحيفة، على امتداد رقعة القراء العرب في قارات العالم الخمس، لان الصحيفة كانت رائدة التقنية الطباعية التي جعلتها تطبع في مراكز متعددة من العالم في وقت واحد، وكانت تصلني تعليقا القراء في رسائل عن طريق الصحيفة او اراه منشورا في بريدها، واتلقى بعضه شفاهة عن طريق الاتصال الهاتفي او مشافهة، وساشير الى حادث واحد طريف، يعبر عن قوة الصلة التي تحققت بيني وبين القراء. فقد هاتفني قارىء من المملكة العربية السعودية، في مكتبي في الرباط ، قائلا انه استاذ جامعي يقوم بانهاء دراسة عليا في امريكا، وهو موجود في بلاده ، ويهم بالعودة الى جامعته الامريكية، ويريد ان يتأكد من وجودي في الرباط، لكي يجعل طريق سفره يمر بالمغرب، ويقف ليوم ويومين فيراني خلالهما، فاخبرته بانني موجود وساكون في انتظاره في مكتبي عند مجيئه، وتوكل الرجل على الله، ووصل الى الرباط حيث كنت اعمل واقيم ذلك الوقت، وجاء الى المكتب ، وكان شابا في مطلع الثلاثينيات من عمره، شديد التهذيب ، عبر عن شديد اعجابه بما يقرأ لي، وكنت احاول ان اطرح اسئلة لتغيير الموضوع والخروج به من حديث الاطراء

لكتاباتي، لدرء احساس بالخجل يراودني كلما تعرضت لمثل هذا الموقف، ولكن الرجل ظل متمترسا بموقعه لا يريد ان يتزحزح عنه ، فقد تكبد متاعب رحلة طويلة من اجل ان يعبر عما في نفسه من اعجاب لهذا الكاتب، ولا سبيل لان يتنازل عما جاء من اجله، وصبرت مرغما على الاطراء، الا انه فاجأني بشيء اخر لم يكن ليخطرعلى بالي، اذ قال انه لا يكتفي بقراءة ما اكتبه مرة واحدة، وانما يعيد قراءته الى درجة الحفظ، وانه صار الان يحفظ كل ما قراه لي في باب كل يوم، وانطلق يسرد محفوظاته من هذه المقالات كما يفعل طالب مع محفوظات مدرسية شعرية، ولم استطع ايقافه الا بعد مرور فترة من الوقت ، اذا كان مصرا على تاكيد صدق ما قال عن هذا الحفظ، وايقنت عندئذ انه يمثل قارئا استثنائيا، يصعب ان يحظى كاتب من الكتاب، بمثله تماهيا مع كاتبه ، واعجابا به، وتواصلا قويا مع انتاجه، وطبعا كان يمكن الا يكون هناك استثناء او تعجب لو ان ما حفظه ابداعا، شعرا اوغير شعر ، ولكنه مقالات تتناول قضايا عامة، فهو السبب في ندرة هذه الحالة، وسافر الرجل الى مقر دراسته في امريكا، وحرصت على ان اعرف اسمه وعنوانه، ولكن طبيعتي التي تكره الارشفة، وتفشل في الاحتفاظ بالمفكرات والعناوين، وكثرة السفر والانتقال، اضاعت اسم وعنوان الرجل ، كما انني لم احظ باي اتصال منه بعد ذلك. لقد غاب عني ، ولكنه ترك في نفسي ذكرى لحظات لا تنسى.

هذا الاعجاب البريء الجميل الذي لاقته مقالاتي على متسوى القراء، حصل من اجله رد فعلي عكسي ، لا علاقة له بالبراءة والجمال، لدى جهة اخرى، فقد اثارت حقد وغيرة الرجل المريض الذي كان يحكم ليبيا، وكانت اجهزة الضخ الاعلامي المعنية بنشر سيالاته الذهنية، واخبار نزواته المريضة، تغمر مكتب الشرق الاوسط في الرباط، وغير الرباط بمادة يومية ، لا يصل منها الى النشر على صفحات الصحيفة شيئا، ولا تحظى ان حظيت الا باشارة سلبية احيانا، تنتقد مواقفه وسلوكياته، فكان لابد ان يوغر صدره، ان يرى مقالا يوميا لي، مصحوبا بصورة شمسية، اظهر فيها مبتسما، ولانني اقيم في المغرب، واتبع جهة يقوم بتمويلها، هي المجلس القومي للثقافة العربية ، ففوجئت برسالة من صديقي رئيس المؤسسة، تاتي دون تمهيد، ودون ان يكون الموضوع مثار نقاش او عتاب سبق الرسالة، مما اكد لي انها مملاة عليه، ليرسلها بكل ما يفرضه مصدر هذه التوجيهات من سرعة التنفيذ والالحاح في جلب النتائج، وازددت تاكيدا من ذلك عندما وجدته يرسل صورة من المراسلة الى جهة لا يجب ان تكون لها ادنى علاقة بالمجلس هي مكتب الاتصال باللجنة الثورية. وكانت الرسالة تلومني على ما انشره من كتابات في الشرق الاوسط، وتحذرني من مغبة الاستمرار في نشر هذه الكتابات التي تدعي الرسالة انها تاتي على حساب عملي في المؤسسة، ورددت على الرسالة ردا غاضبا صادما، ارفض فيه التعامل بهذا الاسلوب وهذا المنطق، وان الكتابة في الصحف هو اسلوب حياة امارسه منذ عدة عقود، وربما سبب وجودي في هذه المؤسسة هو المكانة التي احرزتها بسبب هذه الكتابات، وان كل مؤسسة ثقافية تفخر بما يساهم به اعضاؤها في النشاط العام ادبيا وثقافيا واعلاميا، وتمنح الترقيات لهم على اساس هذه المساهمات، لا ان تكون محل لوم وتثريب، وانني ساواصل كتاباتي، وليتفضل رئيس المؤسسة، بعمل ما يشاء، لانني لن اتوقف عن هذه الكتابات، ولم اتردد في ان ارسل صورة من هذا الرد الى كل الجهات التي وصلتها صور من خطاب امين المجلس، بما في ذلك مكتب الاتصال باللجان الثورية. وكانت الرسالة من القوة الى حد ان صديق يعمل في ادارة المجلس ، فوجيء بقوة لهجتها، هو الصديق الذي اصبح رئيس بعثة سياسية في الخارجية بعد ذلك، محمد الميرغني، وهاتفني من طرابلس ليسالني

ان كنت حقا مصمما على المضي في ارسالها، لانه مازال يمكنني سحبها، فصممت واصررت. وكان يمكن ان اجعل الرسالة التي وصلتني، قضية راي عام، فانشرها في الباب الذي احرره، ولكنني لم أشأ توسيع الرتق، واكتفيت بان اريتها لاثنين يهمني امرهما، الاول هو رئيس التحرير الصديق عثمان العمير، الذي ابدى استعداده لان اترك عملي في المجلس ، وانضم الى اسرة تحرير الصحيفة، والثاني هو رئيس البعثة الديبلوماسية الليبية في المغرب الصديق محمد الزوي، الذي وقف موقفا مناصرا لي، قائلا انني استطيع ان اترك المجلس، واستمر في كتاباتي ، واتقاضي مرتبي من المكتب الثقافي. وفعلا فشل هذا الهجوم الكاسح الذي يمارسه الطاغية من خلف الستار، مستخدما فيه صديقا يعمل امينا للمجلس. كان مجرد نوع من التنغيص والمضايقة انتهى بسلام، الا ان علاقتي بالمجلس اصابها نوعا من الاضطراب والاهتزاز، وانعدام الثقة في امكانية ان اجد فيها مكانا للعمل يؤمن لي الاستمرار والاستقرار، وجاءت ظروف سبق ذكرها اذنت بان اترك طواعية كتابة الباب اليومي واستعيض عنه بكتابة المقال الاسبوعي.

من بين العشوئيات الاعلامية الليبية في خارج البلاد، متمثلة في مشاريع صحفية واذاعية، مجلة اسمها الموقف العربي، اصدرها تاجر عربي ، لعله جاء من بلد خليجي، في العاصمة القبرصية ، عندما حصل الهروب الكبير من بيروت، الى عدد من مدن المحيط الجغرافي الاجنبي، مثل اثينا ونيقوسيا، ويبدو ان صاحبها كان يبحث عن صفقة ما لتوظيف المجلة او بيعها، وكانت الجهات الليبية التي تتولى مثل هذه الصفقات تتعدد وتتنوع فليس كلها جهات اعلامية، فهناك جهات امنية ايضا، تبحث عن غطاء، اوعنصر من عناصرها يبحث عن منفعة شخصية، فاذا بهذه المجلة تصبح فجاة مؤسسة تمتلكها ليبيا وتتنازع حولها مجموعة جهات ثورجية وبوليسية واعلامية، تغيرت عليها الايدي، فيما ينفع ان يكون قصة من قصص السفه، والفساد، وانفاق المال العام بلا حسيب ولا رقيب ، ربما ليس هنا مجال سردها، المهم ان المجلة واصلت اخيرا الى زميل من اهل المهنة، تولى رآسة تحريرها، واراد ان يرفع الجوانب المهنية فيها، وان يضيف الى الوانها المشرقية الخالصة لمسة لون ليبية، وخاطبني في ان اسهم معه بباب اسبوعي، باعتباري كاتبا صاحب اسم في العالم العربي ، لا يكون عبئا على المجلة ، وانما يكون اضافة تمنح هذه المجلة ذات المنشأ الليبي والدعم الليبي نكهة ذات طابع ليبي، ورايت منه حماسا للباب، وتقديرا ماديا يتكافا مع ما يمنحه من مكافآت لاكبر الاقلام التي يستعين بها، لاشهار المجلة، واكسابها مكانة وصيتا، خاصة وهو يتنافس مع كبرى المجلات الاسبوعية في العالم العربي. ثم رايت وبعد قرابة عام ونصف من الكتابة الاسبوعبة التي لم يتاخر فيها الباب مرة واحدة، ان المجلة فجاة تتوقف عن نشرالباب، وقابلت رئيس التحرير في طرابلس، الزميل محمد الشويدي ، ليصارحني بما حدث ، طالبا مني ان ابقى الامر طي الكتمان لانه لا يامن على نفسه البقاء في عمله اذا ظهر بمظهر من يفشي اسرار القيادة، وقال لي انه حصل على موعد للقاء العقيد في خيمته، من اجل تامين دعمه ورعايته للمجلة، واخذ يتفصح اخر اعدادها ، ثم توقف عند الباب الذي اكتبه، كما ابلغني السيد الشويهدي، واطال الوقوف، ثم تكلم موجها حديثه الى جليسه مشيرا الى الباب الذي يحمل اسمي وصورتي، قائلا

ـ ماذا يفعل هذا الكاتب هنا؟

فاجاب السيد الشويهدي بما يمكن ان يقال في هذا المجال بانه كاتب تحتاج المجلة الى اسهاماته، لتاكيد الوشيجة التى تربطها بليبيا، وجاء تعليق العقيد كما اخبرني الزميل الشويهدي، في غاية العصبية والضيق، قائلا:

ـ ولماذا لا يكتب في الصحف الليبية؟

وكانت هذه العبارة تكفي اشارة لرئيس التحرير ان العقيد غير راض عن وجودي في مجلته، وهو ليس مخطيء في هذا التفسير ، والعقيد بحسب فكره وعقيدته التي تعلن جهارا نهارا كرهه لاي نجاح او شهرة تتحقق لعنصر ليبي، لم يقم بتمويل هذه المجلة، لكي تكون معرضا لمهارات الكتاب الليبيين، ونشر صورهم ، وليعد كاتب مثلي الى قمقم من القماقم التي يصنعها العقيد، ربما اقتداء بنبي الله سليمان والقماقم التي يسجن فيها مردة الجن ، وليبقى اسمه سجين صحافته المحلية الهزيلة المكرسة **لعبادة شخصة والاشادة بهلوساته وجنونه. ورغم ان السيد الشويهدي، قال وهو يعتذر عن استمرار الباب ، انه يستطيع ان ينشر لي مادة على ازمنة متباعدة، الا انني لم اكن احتاج لاحراجه بنشر اية مقالة اخرى في مجلته، خاصة وانني املك ناصية النشر في اية مطبوعة عربية ، ودعوات الكتابة تاتيني من شتى الصحف والمطبوعات التي اعجز عن تلبيتها جميعا، لانني في نهاية المطاف كاتب له مشروعه الادبي وطموحة لان يواصل كتابة القصة والرواية والمسرحية التي تضمن للكاتب انجاز بصمة في الادب تبقى بعد رحيله ، ولا تمثل مقالات الرأي التي اكتبها للصحف الا هامشا صغيرا، اكرس له وقتا لا يزيد عن قسط صغير من هذا الوقت الذي ينصرف نصفه للوظيفة التي اكسب منها قوتي، والكتابة الادبية التي اصنع بها اسما لنفسي في عالم الادب، بالاضافة الى وقت الاسرة وما تحتاجه من ادارة وتخطيط وتربية وتعليم، والى ما احتاجه شخصيا من زمن لمدوامة التحصيل والقراءة ، وما احرص على الحصول عليه من نصيب في الحياة الاجتماعية والترفيه والسياحة في بلاد العالم، ومتابعة الهوايات التي تتصل بشتى انواع الفنون وملاحقتها، وياتي في مقدمتها المسرح الذي لم انقطع انقطاعا كاملا عن ممارسته بين الحين والحين ، ليس كتابة فقط ولكن اخراجا وتمثيلا.**

ورغم استخدام العقيد لوسائل غير مباشرة لحربه ضد كاتب مثلي ، الا انه كان كثيرا ما يبدو واضحا في سعيه لسد منافذ النشر امامي في المنابر الصحفية العربية ذات الشهرة والانتشار، الا انه ما ان يسد بابا، ويمنع منبرا، حتى يجدني فتحت بابا اخر، ووجدت منبرا اكثر شهرة وانتشارا ، اباشر منه اطلالتي على القاريء، ولعله فكر في اجراء اكثر حسما في ايقافي ، وهو استهدافي في حريتي او حياتي ، كما راى ذلك صديق يدرك طبيعة الرجل ويعرف نفسيته وكان معارضا له قبل ان يقترب منه ومن ابنه هو الصديق الدكتور محمد عبد المطلب الهوني، وقد حذرني من انه يمكن فعلا تصفيتي، وليس لاي سبب اخر، الا لهذا السبب، ولكنني لم اعطه ابدا ذريعة لذلك، لانني لم اكن صداميا في تعاملي معه. كنت اتعامل باقصى درجة من الديبلوماسية والمرونة، لمعرفتي بمدى شراسته وغلاظة قلبه، وقدرته على ارتكاب اية جريمة في حقي. حتى حين كنت اضيق بالحياة في ليبيا، التي احالها الى قفص لا يليق الا بالدجاج، لم اعلن رفضي باللجوء الى ما لجأ اليه اهل السياسة، من بحث عن بلد يقدم لهم الحماية واللجوء السياسي، ويتيح لهم اعلان رفضهم للنظام الاجرامي في ليبيا، ومعارضتهم له، لانني لم اعتبر نفسي مناضلا سياسيا، وانما رجل ثقافة وادب، استطيع ان اعبر عن افكاري، واكتب كتاباتي ، دون الدخول في

مواجهات مع النظام، وكانت الصيغة الامثل للتعامل مع الحالة هي ان ابحث عن وسيلة للحياة خارج اقفاص القذافي في ليبيا، بالانتقال الى مؤسسات ثقافية تعمل بالخارج، كانت احداها الالتحاق باحدى المؤسسات الدولية مثل اليونسكو، او مؤسسة عربية مثل الجامعة العربية وهيئتها الثقافية الاليكسو، ولان العمل في هذه المؤسسات يحتاج الى ترشيح غالبا ما ياتي من اوساط بعينها داخل ليبيا مثل التعليم، والخارجية، فلم انجح في الحصول عليه، ولم تبق امامي الا تلك التي تقع في اطار الوزارة او الامانة التي اعمل بها ، وهي الاعلام والثقافة، وكان كل ما حصلت عليه من عمل خارج ليبيا جاء عن طريق هذه الوزارة، بما في ذلك البعثة للدراسات العليا التي سبق الاشارة اليها، وعملي في السلك الخارجي نفسه ،كان قد بدا عبر الاعلام ، حيث كانت هي التي تتولى ارسال المشرفين على الاقسام الاعلامية والصحفية في السفارات، عن طريق ادارة، حصل فيما بعد تنازع حولها بين الخارجية والاعلام، ونجحت الخارجية في ان تجعل تبعية هذه الادارة لها، وانتقل معها بعض الاعلاميين العاملين معها، واستوعبتهم الخارجية فيما بعد، وصاروا موظفين معها على سبيل الانتداب، كما حصل معي وندمجوا مع رجال السلك فيها، وصار من حقهم تولي مناصب ديبلوماسية غير اعلامية ، كما حصل عندما توليت رئاسة بعثتنا في اثينا، ورئاسة بعثتنا في بوخارست ، قبل ان اصبح عضو الوفد الليبي في الجامعة العربية.

التأم في عام 1989 ، جمع الملوك والرؤساء العرب ، في مؤتمر قمة في الدار البيضاء، ووجدت نفسي صحبة عدد من الاعلاميين، ننتقل الى فيلا الرئيس الجزائري في ذلك الوقت الشاذلي بن جديد، الذي نجح في تدبير لقاء في مقر اقامته بين الرئيس المصري حسني مبارك ، والعقيد الليبي، لتحقيق المصالحة بينهما تنهي الخصومة التي استمرت منذ ايام السادات وزيارته الى اسرائيل . وعندما وصلت الفيلا ، وجلست مع الجالسين في الصالون، شاهدت الرئيس الجزائري يخرج من

الاجتماع ، ويترك ضيفيه لاجتماع ثنائي بينهما ،

يصلان فيه الى بلورة الاتفاق الذي يرضيهما ، بعد ان تم من حيث المبدأ الوصول بينهما الى انهاء القطيعة واعادة العلاقات الديبلوماسية. وبعد حين جاء من يطلب من احمد قذاف الديم ، وكان جالسا معنا في الصالون، ان يلبي نداء العقيد، فذهب وعاد بعد بضع دقائق ، ليقول انه تم تكليفه بان يكون مبعوث العقيد الى الرئيس المصري، في القاهرة، المكلف باعادة تاسيس السفارة الليبية هناك. وكنت انتظر ان اسمع مثل هذا الكلام ، للسفر الى القاهرة، فقد كان محرما على الليبيين الذهاب الى مصر ، وكان كل جواز سفر ليبي يحمل جملة تقول صالح للذهاب الى كل بلاد العالم ماعدا اسرائيل ومصر .

كان مهرجان المربد في ذلك الوقت على الابواب، وكنت الدعوات للذهاب الى بغداد قد بدأت تصل الى المدعوين، وكنت في قد رفضت في سنوات سابقة تلبية كل دعوة تصلني للذهاب الى بغداد لحضوره، وطوال سنوات حرب العراق مع ايران، اعتراضا على هذه الحرب، التي كتبت مرات عديدة استنكر حدوثها، واعتبرها حربا غبية لتدمير البلدين، دون ان يحقق اي منهما هدفا او غاية او نصرا، لان المنتصر منهما مهزوم. ولان الحرب حطت اوزارها ، فانه عندما حمل لي السفير العراقي في المغرب ، وكان صديقا عزيزا ورجلا عميق الثقافة، رغم صلته الشخصية بالطاغية العراقي ، الاستاذ سمير نجم، دعوة لحضور المربد ، لم اجد مبررا هذه المرة للاعتذار، وسالته ان يجعل التذكرة تمر عند العودة الى

المغرب ، على القاهرة ، وكان رفيق الرحلة الشاعر المعروف محمد الفيتوري، الذي كان يعمل في السفارة الليبية في المغرب في ذلك الوقت، وتعلمت في هذه الرحلة درسا في العلاقات العامة من هذا الشاعر الكبير، فقبل الرحلة بيومين او ثلاثة ايام، دعانا الى مأدبة غذاء،ضابط من اهل القيادة في ليبيا هو الرائد الخويلدي الحميدي، وكان في زيارة الى المغرب، وكان ضيوفه كل من الرسام محمد الزواوي، والشاعر الفيتوري وانا، وجاء ذكر الرحلة المرتقبة الى بغداد، فساله الفيتوري ان كان يوصي باي شيء من بغداد، فقال انه لا يريد سوى سلامتنا، وان نبلغ تحياته لمن نلتقي به من اهل بغداد، وفوجئت اثناء وجودنا في العاصمة العراقية، بالشاعر الفيتوري، يطلب المراسم العراقية، ويسألها ان تضع سيارة تحت امره ، لابلاغ رسالة شفهية يحملها من عضو القيادة الليبية التاريخية الرائد الخويلدي الحميدي. بادئا في

هذه الرحلة بالسيد طارق عزيز ، الذي اعرف يقينا انه حدد موعدا للقائه، واظنه طلب ايضا عزت الدوري. لقد جعل من تلك الكلمة التي قالها مضيفنا على الغداء في المغرب، على سبيل المجاملة، مناسبة لزيارة هذه القيادات، وصاغها في رسالة شفهية ينقلها اليهم ، ولم يكن واردا ان يكون الفائز بجائزة صدام في الشعر ذلك العام السيد الفيتوري ، وكانت اسماء اخرى منها البياتي ، في التداول ويقال ان هناك اعتراضا من وزير الاعلام الذي ياخذ علي البياتي انه لم يكتب مشيدا بابطال الحرب ضد المجوس، وغيره، ولعل تلك الزيارة كانت مناسبة للشاعر للتذكير بنفسه في تلك الدوائر العليا، وان قصيدة القاها كانت اشادة بالعراق وجيشها ، وايضا صدام الذي جاء ذكره باعتباره اسما لصاروخ في قصيدة اعتقد ان مطلعها يقول "لم يتركوا لك ما تقول"، ولم يكن غريبا في نهاية مهرجان المربد ذلك العام، حيث تمنح الجوائز، ان يكون ضمن الفائزين بجائزة المائة الف دولار في مجال الشعر ، صديقنا الشاعر الفيتوري، الذي سأل ان ياخذ الجائزة اوراقا نقدينة حملها معه، ونحن نستقل الطائرة الى القاهرة ، مع قلادة ذهبية ،كان يسأل كم يساوي ثمنها عندما يبيعها لاحد الصاغة في حي الحسين.

في القاهرة،التي وصلت اليها من بغداد، على سبيل الزيارة، انضممت الى الفريق الذي كان يؤسس السفارة، على سبيل الصداقة وليس انضماما رسميا، وشاركت في تنظيم حفل استقبال اقيم على شرف اعادة وصل العلاقات خاصة مع الاوساط الثقافية والادبية والفنية والاعلامية ، وكنت خلال الفترة التي اقمتها في القاهرة والتي زادت عن شهر التقي باصدقاء من اهل الصف الاول في المجال الثقافي امثال الاساتذة يوسف ادريس ورجاء النقاش ولطفي الخولي ومحي الدين اللباد، رحمة الله عليهم جميعا، وكانوا يلحون في ان انتقل من الرباط الى القاهرة، لانني ساجد نفسي في القاهرة التي كنت على تواصل دائم مع اجوائها الثقافية في ازمنة مضت. وفعلا ساعدني هذا المناخ العامر بالود والصداقة ،على اتخاذ قرار الانتقال الى القاهرة، وفور عودتي الى الرباط ، اقترحت على رئاسة المجلس القومي للثقافة العربية ، ان افتتح لهم فرعا في القاهرة، وانتقل لاباشر تاسيس هذا الفرع، خاصة وان المجلس كان قد اتخذ قرارا بانشاء شركة للانتاج الفني، تتبع الفرع الذي اتولى ادارته في المجلس ، ولا احد يتصور انه يمكن انجاز اي عمل في مؤسسة للانتاج الفني خارج عاصمة الفنون والاداب مدينة القاهرة، ولم انتظر

موافقة المجلس او عدم موافقته، فقد رتبت امر الانتقال، تحت اي ظرف ، ورتبت لاسرتي ان تنتقل معي، وقمت بتأجير مكتب مفروش، في وسط القاهرة، لابدا العمل ، في مجال النشر ، موعودا بالعون والمؤازرة من اصدقاء شتى في مصر ، ومن جهات شتى في ليبيا، تحرص على ان تباشر عملا في مجال النشر والانتاج الفني والاعلامي، بعد اعوام القطيعة، التي دامت منذ منتصف السبعينيات الى هذا العام 1990. وتقدمت بطلب الى السلطات المصرية ، بانشاء فرع للمجلس القوي للثقافة العربية في القاهرة، وبعد بضعة اسابيع جاءني استدعاء لاحد الاجهزة الامنية فيما يسمى " الازوغلي"، لالتقي باحد الضباط المكلفين بالشأن الليبي، واسمه على ما ذكر، الرائد محمود توفيق، واستقبلني الرجل استقبالا غاية في التهذيب والترحيب ، وقبل ان يدخل في الموضوع ، وفور اشارته الى طلب ان يكون لي مكتب في القاهرة، قلت له فارشا كل ما عندي من اوراق، انني اخترت الاقامة في القاهرة ، لروابط ووشائج تربطني بالعاصمة المصرية ، واصدقاء اعزاء احب ان اعيش بينهم، لكن اذا كان ثمة اعتراض امني على وجودي، فانني لن احتاج لغير يومين اثنين ، ارتب فيهما اغراضي للمغادرة، ولن يراني احد منكم باذن الله اطأ ارض مصر فيما تبقى لي من عمر. وشرحت له انني لست من محبي مثل هذه الدعوات لزيارة المقرات الامنية، واذا كانت هذه الدعوة ستتكرر فانني احب ان اعرف لارتب نفسي على مغادرة البلاد. وفاجأت الرجل بهذا المنطق الذي لا يقبل المواربة ولا المداراة، فاكد لي انني شخص مرحب به تمام الترحيب في مصر، وانه لا احد يتابع كتاباتي، الا ويعرف انني محب لمصر، وصاحب صداقات مع مثقفيها وادبائها، وتربطني بالبلاد علاقة قديمة، هي دائما محل فخر واعتزاز يظهر في كتاباتي، وصارحني بان ثمة اعتراض واحد من حكومة بلاده، على ما يسمى مؤتمر الشعب العربي ، وما يرتبط به من اجهزة مثل المجلس القومي للثقافة العربية ، لانهما قاما على ترويج الدعاية السيئة ضد النظام المصري، والامن المصري يريد ان يرى هذه الصفحة تطوى ، ولا داعي لان ننكأ الجراح من جديد، فقد خاض المؤتمر العربي حربا ضد السياسة المصرية ، خلال اعوام القطيعة بين البلدين، ولا حاجة للعلاقات المصرية الليبية التي تبنى الان على اسس جديدة، ان تعيد احياء وانتاج هذه المؤسسات. والخلاصة ان لا اعتراض على شخصي، ولا اقامتي، ولا اي نشاط ثقافي اقوم به، نشرا وانتاجا ومراسلة صحفية، والاعتراض هو على ربط هذا العمل، او النشاط، باي مؤسسة، تنتمي باية صلة، الى مؤتمر الشعب العربي، او اية مؤسسة اخرى يديرها السيد الحامدي. فهمت الرسالة، ونقلتها الى المجلس القومي للثقافة العربية ، وقررت الاعتماد على نفسي، وانشاء مكتب للنشر والانتاج الفني، وكان لابد في هذه الحالة من اخطار احد المسئولين في ليبيا، لكي لا يظهر عملي وكانه محاولة للهجرة والابتعاد عن ليبيا، ولكي لا اجلب شبهة انني قد انتميت الى معارضة النظام، الذي كان يعتبر كل من يعيش في الخارج معارضا، وطبعا اخطرت السفارة والقائمين عليها، كما احطت الرائد عبد السلام جلود بما حدث، وطلبت من امانة الاعلام التي كنت لا ازال اتبعها، احالتي الى التقاعد، وكنت سادير عملا ناجحا في المجال الذي اعرفه، اكثر من اي مجال اخر في الحياة، الا ان الجريمة البشعة التي ارتكبها النظام، عندما اسقط طائرة ركاب تابعة الى البان اميركان، فوق قرية لوكيربي، التي بلغ عدد ضحاياها 270 قتيلا، عام 1988، بدأت تتكشف اوراقها، وتتضح ملامح مرتكبيها، ويظهر جليا امام العالم ان النظام الليبي كان وراءها، وتنادى المجتمع الدولي يستنكر الجريمة، ويطالب ليبيا بتقديم المجرمين الى العدالة، وعندما تأبي وانكر تقرر فرض عقوبات، ارعبت راس النظام، وخشى ان يمتد الحظر الى النفط الذي كان عماد حياته وبقائه في الحكم، فضيق الخناق على البلاد، واحتفظ بعائدات النفط لنفسه، ليواجه به مستجدات الحصار، وصار صعبا

تسويق اي منتج ثقافي في البلاد، سواء كان كتابا او مادة مسجلة مرئية، اومادة مسجلة مسموعة، ومعنى ذلك ان مكتب النشر والانتاج الفني الذي انشأته صار مهددا بالتجمد، ورغم انني مضيت مشوارا في تاسيسه، وانتاج بعض الاعمال التي لاقت نجاحا كبيرا، ونشر بعض الكتب نشرا مشتركا بعضها مع الادارة الثقافية في منظمة التحرير الفلسطينية، فقد باشرت اسفا على تصفيته، لان كل يوم يمر يعني مزيدا من الخسائر، وسعيت لالغاء قرار احالتي على التقاعد، لاعود موظفا يعيش على مرتب اخر الشهر، ونجحت في الحصول على قرار ايفاد للعمل في السفارة في مصر ، لمدة محدودة.

عملي واقامتي خارج البلاد، لم تكن تعني اطلاقا الانقطاع عن التواصل مع الداخل الليبي، والشأن الثقافي المحلي، وتمثيل البلاد في منتديات ثقافية عربية ودولية ، وساتوقف عند ثلاثة احداث ذات طابع رسمي ، احداها اجتماع مع العقيد، ولا ادري الدافع للاجتماع ولا اسبابه، ولعله احساس منه بوطأة الحصار، اراد ان يبحث عن منفذ منه، عن طريق استنفار القوى التي يراها مؤهلة لتقديم المشورة واعمال العقل، رغم انه لم يقل ذلك صراحة، ولكن اعلانا ظهر في الصحف والاذاعات يدعو بعض الاسماء في الحقل الثقافي والاكاديمي للاجتماع به، يحتوى الاعلان على دعوة مدراء جامعات ومعاهد بحكم وظائفهم ، ثم قائمة اسماء من بينهم اسمي ، واسماء كتاب مثل المصراتي والتليسي والكوني والنيهوم وخشيم، وربما اخرين مثل كامل عراب وامين مازن ومحمد احمد الزوي وبشير الهاشمي. وسافرت من القاهرة الى طرابلس ، وحضرت الاجتماع الذي عقد في احدى قاعات باب العزيزية، اعقبته مادبة عشاء، ولا اذكر انه كان ثمة جدول اعمال، ولا اذكر الان ماذا قال هو في الحديث الطويل الذي استهل به اللقاء، ولابد انه خطاب لم يخرج عن سيالاته الذهنية المكرورة وكلماته المسكوكة، التي ابتلانا الله بسماعها طوال عهده والانصات اليها مرغمين. ما اذكره انه اشاد بعدد من الكتاب ، وكانت طبعا مسالة غريبة على طبعه وشخصيته ان يعترف باهمية او بقيمة انسان، وطالما فعل فهو لغرض خبيث، المهم انه لم يشملني بهذه الاشادة، مما يعني انه لم يكن صافيا تماما من ناحيتي، وعندما اشار نحوي بان اتكلم ، تجاهلته اشارته تلك ، لانه ابي ان يذكر اسمي، وانتهز الفرصة رجل من اهل الثورية كان يجلس بجواري، فاعتبر نفسه المقصود بالاشارة، الا ان الرجل نهره بقوة ، قائلا له بانه ليس هو المعني بالكلام، وانما الرجل الذي بجواره، ومرة اخرى يشير نحوي ، دون ان يذكر اسمي ، ودون ان اعرف لماذا هذا النكران ، في وقت اشاد فيه بكل من زملائي التليسي والمصراتي وخشيم، ولم اعرف الرسالة التي يريد ارسالها، وتجاوزت بسرعة الحديث عن نظريته التي لا ادري سبب ورودها في السياق اذ قلت بوجوب حل معضلة التوفيق بين ان يجلس الناس في المؤتمرات يحكمون، كما يقول، او بين الانشغال باعمالهم في مواقع العمل والانتاج وميادينه وحقوله، وذهبت مباشرة الى الموضوع الثقافي، ذاكرا ان ما حبى به الله ليبيا من موقع متميز بين مشرق الوطن العربي ومغربه، وما تضمه من كنوز الحضارات، التي عرفها العالم، وتراث البشرية، الذي نراه في معرض مفتوح، وتنوع البيئة الليبية وغناها بهذا الموروث، وعرجت على الراهن العربي حيث كان قد تعطل دور لبنان بسب الحرب الدائرة فوق ارضه، ورغم انفراج ازمته فامامه وقت ليستأنف مسيرته، وتعطل دور مصر بسبب تداعيات المقاطعة العربية اثر اتفاقيات كامب ديفيد، وهو ما يتيح لليبيا ان تتولى في هذه المرحلة مركز الاشعاع الحضاري ، واجادة استثمار ما لديها من معطيات، وما يحيط بها من ظروف، وما في حوزتها من موارد وامكانيات بشرية ومادية ، وكلام يصب كله في اطار تنشيط المجالات الثقافية الحضارية الابداعية. ودعانا

بعد الاجتماع الى مادبة عشاء، وكان قد التحق بنا متاخرين قليلا، كل من صادق النيهوم الذي القي كلمة اخيرة انهاها العقيد بدعوتنا للقيام الى العشاء، مبديا، بصراحة ، عدم رضاه عما سمعه ، وعرفت في ذلك الاجتماع ولاول مرة ان هناك علاقة متأزمة بين العقيد وبين الكاتب الذي كان يحظى باعجابه القوي. خاصة في الطريقة الفجة التي قاطع بها النيهوم، قائلا " اظن الاحسن ان نذهب للعشاء"، وتاكد هذا التازم في العلاقة عندما تم في اليوم التالي اذاعة شريط مسجل للقاء، تضمن كل ما قيل من مناقشات وكلمات ، وتم بتر مداخلة النيهوم ، رغم انها لم تكن تخرج عن السياق الذي دارت فيه بقية الكلمات، مما يعني ان قص الكلمة كان تعبيرا عن حالة غضب، المت بصاحب الامر والنهي، ازاء الكاتب الذي طالما ابدى الاعجاب بل والانبهار بكتاباته.

وقد لايذكر الليبيون هذا اللقاء الذي شاهدوه في التلفاز، لكثرة ما شاهدوا من مثل هذه اللقاءات، ولكن هناك علامة اكيدة سوف تذكرهم به، لان احدى البنات الثوريات ، التي لا تتكلم الا بايعاز من سيدها، حضرت اللقاء، ضمن بعض الثوريين من بنات واولاد، ذكرت كلمة في ذلك الاجتماع ، صار الشارع الليبي يتناقلها ، ويتندر بها، فقد حمل قولها اهانة مقصودة للناس ، وقاعدة مهينة يتعامل بها النظام وسيده معهم، فقد قالت تلك الفتاة الثورية ، ضمن ما قالته من كلام ، ان تجويع الشعب ضرورة ثورية للانصياع للثورة وتدابيرها عملا بالمثل الليبي الذي يقول " جوع كلبك يتبعك".

الحدث الرسمي الثاني الذي يستحق ان اقف عنده، هو توثيق الانقلاب في فيلم سينمائي روائي، وتم استنفار الجسد الثقافي في البلاد للوصول الى افضل صيغة لهذا الفيلم، بدءا بلجنة الوثائق التاريخية، مثل شهادات المشاركين في الانقلاب، وما كتبه العقيد نفسه من ترهات وادعاءات، اسماها قصة الثورة، ولم اكن طرفا في هذه اللجنة، ولكنني اعرف ان المشرف العام على العمل كان الرائد عبد السلام جلود، والمنسق العام هو الدكتور ابراهيم ابوخزام امين التعليم، وان لجنة التاريخ كانت تضم احد مدراء مركزالجهاد الدكتور وداعة الحسناوي، ومؤرخ واديب شهير هو الاستاذ التليسي ، وجاء دوري في مرحلة لاحقة، فبعد تحضير المادة التاريخية وتصفتيها وتصنيفها واعدادها في شكل قابل للاستفادة منها في تاليف القصة ، جاءت مرحلة اعداد القصة، ولا اذكر من الذي تم انتدابه لهذه المهمة ، غيري وغير الزميل ابراهيم الكوني، فقد تاخرت في العودة الى البلاد ، وعندما جئت، اقتصر الاجتماع مع عدة جلسات مع الرائد جلود ، واخرى مع لجنة مصغرة من السيدين ابراهيم ابوخزام وابراهيم الكوني، وطبعا قرأنا المادة التاريخية ، وفكرنا كثيرا في اسلوب العمل، وبعد عدة جلسات اتضح ان لاسبيل الى كتابة قصة ، بهذه الطريقة المشتركة، وكنا نعرف ان هناك مرحلة ثالثة ، هي مرحلة وضع المعالجة والسيناريو للسينما الذي سيكون مبنيا على هذه القصة، واذا كان من الضرورة ان يكون كتاب المادة التاريخية والمادة القصصية من ابناء البلاد العارفين بالظرف التاريخي، ومفردات البيئة والمجتمع، فان عملية السيناريو عملية فنية تقنية، يمكن ان يقوم بها خبير عربي واجنبي ، وان كانت هناك اسماء تم تداولها مثل اسامة انور عكاشة، ومحسن زائد، وفعلا تم الاتصال بهما فيما بعد، ورايت محسن زايد يتردد كثيرا على ليبيا، باعتباره يواصل كتابة الفيلم.

وتم حسم المسالة بالا نقوم بكتابة مشتركة وانما ياخذ كل منا المادة التاريخية ويضعها في قالب قصصي ،يسهل على كاتب السيناريو تقطيعها ووضعها في لقطات سينمائية، وربما هذا كان افضل بالنسبة

لكاتب السيناريو، لانه يمكنه الاعتماد على نصين، ينتقي منهما ويربط الاحداث بما يتفق مع الرؤيا الفينة التي يتبناها للعمل .

ولا ادري لماذا تعطل المشروع ،ولكن من الواضح ان الخلاف الذي حصل بعد فترة وجيزة بمن اكمال هذه المرحلة من العمل، بين الرائد جلود وبين رئيسه العقيد ، وما حدث من انسحاب جلود من المشهد السياسي الليبي، جعل من غير الممكن الاسمرار في مثل هذاالفيلم ، لان ما وصل من مادة تاريخية ، وما تمت كتابته من معالجات قصصية تمت تحت اشراف الرائد جلود نفسه، وكانت كل هذه الكتابات تضعه في الدور الثاني لدور بطل الانقلاب ، وهو بالتاكيد امر لم يكن ليوافق مزاج رئيس الانقلاب بعد انسحاب شريكه من هذه الشراكة.

الحدث الثالث على المستوى الرسمي الذي اريد ان اقف عنده ايضا، جاء مباشرة قبل انسحاب الرائد جلود من ساحة العمل السياسي، مع حرصه على ان يكون انسحابه وديا لا يحمل عداء سافرا لرأس النظام، ولا خروجا عليه، محتفظا ببعض الامتيازات التى كانت مخصصة له، عندما كان في الحكم، والخاصة بسكنه وحراساته واستراحة تحت تصرفه مقتطعة من المصيف البلدي، وهو انسحاب ارغم عليه ارغاما، بعد ان تعرض لمضايقات كثيرة، كان اكثرها وضوحا، عندما اخرج قسرا من المكان الذي تخذه مكتبا يصرف منه اعماله في قصر الشعب، وظل مشردا رسميا لا يملك مكتبا محددا، وراى بعض المراقبين، ان العقيد يريد ان يفسح مكانا لاولاده، الذين بلغوا سن الرشد والعمل، وباشروا لعب ادوار بتوجيه من الاب القائد كما يسميه هؤلاء الابناء، وتلقي الرجل الثاني الرسالة ، واثر ان يبادر باتخاذ خطوة الى الوراء، قبل ان تاتي بدفعة في الصدر، غير مأمونة العواقب، وربط هذا الانسحاب بموقف احتجاج مما يجري، واقتراح للاصلاح يبقى لتنفيذه، وتظاهر صاحبه العقيد بانه يريد ان يبقى، وان يقدم مشروعه الاصلاحي، وكنت قد سمعت منه في اكثر من لقاء، نقدا قاسيا للطريقة التي تسير بها البلاد، كما رايت منه قبولا للنقد وانصاتا له مني ومن اخرين غيري، واحيانا كان يخرج في لقاءات عامة معبرا عن نفوره من بعض المظاهر والممارسات، ولهذا لم استغرب عندما طرح الاقتراح بان تلتقى القوى الوطنية، القادرة على وضع خطة للاصلاح، وانقاذ البلاد من حالة التدهور والانهيار التي تواجهها، واتصلت بدعوة منه لمباشرة العمل على وضع هذه الخطة، ووجدت نفسي اجلس في قاعة، بقصر الشعب، ضمت قيادات الدولة، لا يكاد يتخلف منهم احد، مع عدد من اهل الثقافة والاكاديميين، في اجتماع تمهيدي لوضع خطة الانقاذ، وشرح لنا كيف انه عقد اجتماعا مطولا مع العقيد، وانهما اتفقا على ضرورة ان تستنفر العقول القادرة على الابتكار، في وضع هذه الخطة التي تستهدف تحقيق نقلة للبلاد، تتلافي كل ما تعانيه الحياة السياسية والادارية والاقتصادية والثقافية من قصوروتقصير، وتضعها على مشارف افق جديد، وتقرر اثناء ذلك الاجتماع العام ، تشكيل لجان تتولى كل في مجالها، وضع الخطة المستهدفة، ولم تكن لرئيس الاجتماع اية شروط، عدا ان نضع افضل صيغة تتفق مع معطيات الواقع الليبي، واسلوب حياته وقيمه الدينية والاخلاقية، وتم تكليفي بان اكون مقرر اللجنة الثقافية ، المخول اليها وضع الخطة التي تحقق للبلاد النهوض في المجال الثقافي ، بكل مناحيه، كتابا ومسرحا وادبا وسينما وموسيقى وفنونا تشكيلية، مع اهتمام خاص بثقافة الطفل وتوعية المرأة، والتوسع في المراكز الثقافية، واتاحة الفرصة للمجتمع المدني، للقيام بدور في تحقيق هذه النهضة الثقافية المرجوة، وكان قد عهد لاهل خبرة واختصاص في وضع خطة للهيكلية الادارية ، وخطة اخرى اقتصادية يضعها اصحاب الاختصاص،

ولجنة للاعلام، وثانية للشباب والرياضة والاندية، وثالثة للرفاه الاجتماعي والضمان والتأمينات، ورابعة للتعليم والتقنية والحاسوب، وخامسة للمواصلات والاتصالات، وانصرفت هذه اللجان الى عملها، وانتهى الامر بوضع مجلد يضم كل هذه الاوراق التي راعينا فيها الاختصار، والتركيز على المسائل العملية، واجتمعنا باعتبارنا رؤساء للجان مع الرائد، لوضع اللمسات الاخيرة للخطة، قبل وضعها في هذا المجلد، الذي جاء انيقا جميلا ، سهل المراجعة، فقد اتخذ كل تقرير من التقارير ، يتناول مجالا من المجالات، بلون خاص يختلف عن بقية التقرير ، فاذا اردت مثلا تقرير اللجنة الثقافية ،استطعت في دقيقة واحدة فرزه للمراجعة او القراءة دون غيره، وعدنا لعقد اجتماع عام ختامي، ووضع الرائد جلود المجلد امامه، مبديا ارتياحه للنتائج التي توصلت اليها اللجان، وقال انه اعطاها الى زميلنا صادق النيهوم، ونقل الينا مدى ما غمره من فرح واغتباط لوجود مثل هذه الخطة التي تشكل الامل في تحقيق النهضة(ولعل تلك كانت اخر استشارة قدمها السيد النيهوم الى حكومة بلاده، فقد توفي بعدها بفترة قصيرة) وكان الرائد قد اطلق عليها " سفينة نوح" التي ستكون وسيلة ليبيا للنجاة، وكان مصير الخطة ان تنقل الى العقيد لمباركتها ومباشرة تنفيذها، وكان يراودنا كبير امل بانها سوف تحظى بموافقته ، لانه اشار اليها في احدى خطاباته، وانه يتوقع نتائج اللجان التي تعمل باشراف الرجل الثاني في دولته، الا ان الاخبار جاءت بعكس ما كنا نأمل، فقد كان رد فعله في منتهى السلبية عندما اخذها الرائد جلود اليه، اذ قال له ولا ادري ان كان بعد او قبل ان يطالع الخطة، انه لا صلاحية لك او لي لاقرار هذه الخطة، فهناك شعب هو الذي يحكم من خلال المؤتمرات الشعبية ، فاجابه جلود بان لا مانع ان تعرض الخطة للمصادقة الشعبية، وهو واثق ان الليبييين لا يكرهون الخير لانفسهم، وما حدث بعد ذلك ان الخطة لم تقدم باعتبارها خطة متكاملة، وانما جرى تمييعها ، ليؤخذ كل تقرير وضعته لجنة من اللجان على حده، ليقدم ضمن اوراق القطاع باعتبارها مقترحات ضمن اكداس الاوراق الاخرى ، فهنا عشرة اوراق عن التعليم مثلا، اصبح تقرير لجنة التعليم واحدا منها، وطبعا اجهض المشروع الاصلاحي الذي توخيناه من اعداد هذه الاوراق، وذهب الرائد جلود الى منتجعه التقاعدي في المصيف البلدي، مدركا ان لاجدوي من اقناع صاحبه باية اصلاح او تغيير او انقاذ.

كانت هذه الاحداث الثلاثة، قد حصلت في النصف الاول من عقد التسعينيات، حيث لم اكن مقيما في ليبيا، اذ كان المقام قد استقر بي وباسرتي في القاهرة، وانتظم الاولاد في الدراسة هناك على مختلف مستوياتها، وكنت اتنقل بمشقة بين القاهرة وطرابلس، فقد كانت تلك هي الاعوام التي شهدت تطبيق الحظر الجوي على ليبيا، ولم تكن هناك وسيلة سفر لم اسافر بها، فقد سافرت مرات عدة الى مالطا جوا، عائدا بالبحر الى طرابلس، والعكس، كما كان مطار جربة في تونس، محطة اخرى ، نصل اليه لنباشر رحلة برية، عن طريق السيارة، تخترق الحدود بين تونس وليبيا، وجربت سفرا اكثر قسوة وتعبا، هو استخدام السيارة من القاهرة الى طرابلس ، لاقطع مسافة تزيد بمئات عن الفي كيلو متر، ذهابا وعودة، وطبعا كان هذا السفر البري بين ليبيا ومصر، وبين ليبيا ودول الجوار الاخرى، قد تسبب في عدد من ضحايا المرور، وصلت ارقاما قياسيا خلال فترة الحظر الجوي. ولم يكن ذلك الحظر، وذلك الحصار، غير ثمن يدفعه الشعب الليبي لسياسات حاكم احمق، بتفنن في اتخاذ القرارات الرعناء، وارتكاب الافعال المجنونة، التي تجلب الكرب والالم والبلاء للناس الذين يحكمهم.

كان القرار الذي اجده يهب في وجهي من حين الى اخر، هو كيف اتدبر معيشتي ومعيشة اسرتي في هذه الاقامة الخارجية، بعيدا عن الوطن، فقرار انضمامي الى العمل في البعثة السياسة الليبية، في القاهرة، الذي عالجت به مشكلة اقفال المكتب الخاص متأثرا بظروف الحظر، يقضى بان مدة العمل بالسفارة ، هي سنتان فقط، وبعدها سيفتح بالضرورة باب السؤال ، مالعمل؟ وافلحت المساعي التي قمت بها لتمديد عام ثالث ، ثم ماذا؟ لا وجود لامكانية التمديد، وهناك طبعا حل العودة الوطن، حيث لا وجود لاية مشكلة ، فانا موظف في الدولة ، وساعيش كما يعيش بقية الناس، ولكن للخارج تبعات والتزامات، غير التزامات الخارج، ولوائح العمل الديبلوماسي، التي تقضى بان يتضاعف مرتب الموفد للعمل بالخارج الى عشرين ضعفا، لم تولد من فراغ، فهذا هو الحساب الصحيح ، للفرق بين حياتك في وطنك واوطان الاخرين. وكما اسلفت فقد كان قراري هو ان اجتهد في الخروج من اقفاص الحياة بالداخل ما استطعت الى ذلك سبيلا، لاسباب كثيرة، احداها ما رأيته من احتمال ضياع الاطفال، وهم يتعرضون لنوع همجي وحشي من التعليم، سبق ان رأيت نتائجه في تلاميذ اخرين، وثانيها انني لابد ان اصدم كل دقيقة بمشهد او اجراء او خبر او تصريح يجعلني في حالة توتر دائم ، ويخلق لي من المنغصات والغصص، ما يمكن ان يعصف بعمر الانسان ، خاصة عندما تكون قدرته محدودة او مشلولة عن عمل شيء لتعديل او حتى الاحتجاج على ما يرى، زد على ذلك اعتراضي الجوهري والمبدأي على الطريقة التي تدار بها البلاد، ويتم بها اختيار الناس لتولي المناصب ، وباسلوب اصبح ممنهجا في اختيار الاسوء، واختيار المرضى النفسيين، والمصابين بامراض السادية ، حتى اذا تصادف وجود احد بينهم من اهل الكفاءة، صرنا نبحث عن العاهة النفسية الخفية الي اوصلته الى هذا المنصب. ورابع هذه الاشياء المنفرة من الحياة في الداخل، هو ما كنت اراه ينعكس على حياة الناس من سعار، وما استطاع نظام الطغيان والعته، اثارته من نوازع رخيصة في النفوس، مستثمرا الجهل والبداوة والبدائية ، فتحول عدد كبير من الناس الى تجار في اسواق النخاسة، وقوادين في سرادقات الدعارة التي اقامها، واشاع جوا موبوءا كريها، تأبى النفس السليمة التعايش معه، حتى في ابسط مظاهر الحياة واكثرها طبيعية، يكفي ان افتح جهاز التليفزيون على المحطة الليبية، وكانت ولسنوات طويلة وحدها تحتكر الاثير، وحصة للاطفال، افترض ان تكون بعيدة عن رغام الحصص الاخرى، فاذا بي بدلا من اسمع الاطفال يغنون عن العصافير والزهور ، يصيحون نموت في نيكاراجوا، لانها عبارة قالها صاحب الامر والنهي ويجب اعادتها وتعليمها للبراعم ،اما ما يغنيه هؤلاء الاطفال فهي اغنية بابا معمر يا غالي، وتليها اشارات اكثر بشاعة باعتباره داس على رقاب الكفار، وسفك دماء الاعداء، ويكفي ان نعلم ان احدى نداءاته التي يكررونها في المعسكرات التدريبية والتاهلية، جملة كررها هتافا اكثر من مرة، وهي التي خاطب بها الرئيس السوري في احدى شرفات قصره في طرابلس، تقول كلماتها التي اتبعها بشيء يشبه الرقص

" اخي حافظ لا تهتم

جوكم شرابين الدم

الجولان انغرقها دم"

فصارت شرابين الدم بعد ذلك، مادة مقررة على الصغار والكبار في معسكرات التاهيل العقائدي.

واذا كان هناك باحثون يريدون تاصيل حالة التوحش التي تعاني منها قطاعات من الشباب الليبي ،بمن فيهم من سيطروا على المشهد العسكري والسياسي من خلال الميليشيات بعد اسقاط نظام القذافي فليبحثوا عنه في هذه الثقافة التى زرعها النظام السابق في النفوس واقصد بالتوحش الكلمة الانجليزية الشهيرة وهي "Brutalization". في استخدامات علم النفس لمثل هذه السلوكيات.

كان متاحا دائما العمل مع جهات صحفية واعلامية في الخارج لا تتبع الدولة الليبية، الا انني رايته بدبيرا، لا يلبي حاجتى الى الامان والسلامة من غدر الحاكم الليبي، وجاءت ذات مرة فرصة للعمل مع اليونسكو، ولكن في وقت بلغت فيه الحمي الثورية مبلغ العاصفة الهوجاء التي تعتبر كل انسان يسعى للانفصال على الدولة خائن وزنديق ، وقد فاتحني صديق في هذا العمل في وقت كان يدير اليونسكو الرجل الذي يحظى بتاييد الافارقة والعالم الثالث، احمد مختار امبو، بل وجدت من حرر استمارة التحاق بالعمل بتلك المنظمة الدولية في باريس، مع كامل الثقة بانها سوف تحظى بالقبول بسبب العلاقة الخاصة مع مدير عام المنظمة، وفي ذات اللحظة التي حرر فيها استمارة لصديق مهندس هو الدويب الاخضر، كان مشاركا في ذات الجلسة، وفي حين وقعها الدكتور الدويب وتركها تاخذ طريقها، وضعت انا الاستمارة في جيبي، لان ظروفي تختلف عن ظروفه، حيث جاء هذا العرض، بعد تلك المقابلة التي طلب فيها مني العقيد البقاء في ليبيا، وقد تضعني الوظيفة في مواجهة غير متكافئة معه، فاثرت سحب الطلب ، بينما نال زميلي وصديق الدكتور الدويب الوظيفة.

الاختيار الثاني، هو الانضمام الى المعارضة، وقد وصل الامر، خاصة عندما وصلت المضايقات الى حد يثير القلق والاعصاب، الى التفكير في مثل هذا الامر ومفاتحة اصدقاء فيه، الا ان اصدقاء عرب ، قبل اصدقائي الليبيين، كانوا يحذرون من مثل هذا الاختيار الانتحاري، وهو انتحاري بالفعل، لانني اساسا لست سياسيا، ولن استطيع ان اتفرغ للسياسة، واتعامل بخبرة مع محاذيرها، وخبرة اكبر مع تامين حياتي وحياة اسرتي من المخاطر التي تواجه من يمضي في هذا الطريق، وفي معارضة حاكم استطاع بما يملكه من اموال ان يبسط نفوذه على كل المنظمات الارهابية في العالم، مثل بادر ماينهوف الالمانية، والبريجيتا روسو الايطالية، والباسك الاسبانية، والجيش الاجمهوري الايرلندي، وجماعة اخرى في اسيا وافريقيا مثل فرولينات التشادية، وجماعة ابي سياف الفلبينية، غير المنظمات الفلسطينية، التي تعتمد على تمويله في اعمالها التي تستهدف العرب والفلسطينيين مثل مجموعة ابو نضال، والقيادة العامة وغيرهما، وفي سجلهما قتل معارضين ليبيين. علاوة على معاملاته المعروفة مع المافيا الايطالية والامريكية، واستخدامها في استهداف المعارضين مثل ما حصل للمعارض فيصل الزقلعي الذي تعرض لمحاولة اغتيال على ايدي المافيا الامريكية، اقتحموا بيته في داخل الولايات المتحدة، وعبد الحميد البكوش على ايدي المافيا الايطالية . وكان التحذير الذي يقدمه الاصدقاء، هو ان رسالة كاتب مثلي ، ليس العمل تحت الارض، لانها رسالة توعية وتنوير، ولابد ان تكون فوق الارض وتستهدف عملا قد يتجاوز النقد المباشر لحاكم ، الى ما هو اكبر واوسع، واكثر تاثيرا وقوة في تغيير الظروف وخلق مناخ اصلح للتغيير. وكان اكثر الناس قوة وبلاغة في التعبير عن مثل هذا الموقف ، صديق اثير الى نفسي، وكاتب من قادة التيار التقدمي في مصر، اشتغل بالسياسة والمعارضة والادب ، هو المرحوم الاستاذ لطفي الخولي، الذي سعى معي للحصول على مكان اكثر امانا، وكان بترشيح من

المندوبية الليبية في الجامعة العربية في القاهرة، وهو موقع رئيس تحرير مجلة تصدر باللغة الانجليزية، وتصدرها الجامعة العربية بعنوان"شئون عربية"، ولكن امين الجامعة العربية في ذلك الوقت ، وسمه عصمت عبد المجيد، كان لا يعمل شيئا الا باسلوب المساومات وعبر صفقات لتحصيل اشتراكات الدول العربية، فاعطى حصة ليبيا من المناصب لاناس تدعمهم شخصيات لها قدرة على تامين الصكوك التي تاتي سدادا لحصة ليبيا، وكانت تاتي احيانا بالملايين، فياتي الصك ومعه الموظف المطلوب قبوله. وما اقوله موجود وموثق في ملفات الجامعة، ورسالة ترشحي سبقت اخرين ثم قبولهم دوني، مع انه تم تكليفي بوضع تقرير عن هذه المجلة وتصورات لتطويرها بل واستطعت الحصول من صديقي السفير السعودي الذي كان في نفس الوقت راعيا للشئون الليبية في لندن الدكتور غازي القصيبي على وعد بدعمها عندما اتولى الاشراف على اصدارها . وبعد وصولي مع السيد عبد المجيد الى طريق مسدود، وجدت عرضا من مؤسسة ادبية لها علاقة باحدى منظمات الامم المتحدة في جنيف، هي منظمة التبادل الحضاري ، التي تبحث عن ممثل يمثلها هناك في هيئة المنظمات غير الحكومية ، لكنها تريده ان ياتي اليها بمرتب مدفوع من دولته، وفعلا تقدمت بالطلب الى الجهات المعنية ، ربما ادارة المنظمات الدولية التي رفعته عن طريق الخارجية الى مجلس رئاسة الوزراء ، وذهبت الى المجلس ، وطلبت موعدا مع رئيسه وكان ذلك الوقت المهندس المنقوش، الذي لم يكن يمانع ولكنه راى ان الجهة المخولة بالتنفيذ بعد مصادقة المجلس وزارة الاعلام والثقافة ، لان للموضوع صلة ثقافية ، وكنت اعرف ان حظوظي ستكون ضئيلة مع السيدة التي تتولى تلك الوزارة او الامانة ، وفعلا بوصول الطلب الى تلك السيدة، انتهى امره ، ووجدته طريقا مسدودا كما كان الحال مع موقع الجامعة العربية. وكنت بسبب وجود هذه المرأة على راس تلك الوزارة ، قد تقدمت بطلب اجازة بدون مرتب ، لكي لا اعطيها فرصة ان تنال مني، وجددت هذه الاجازة عاما وراء عام حتى خرجت تلك المراة من تلك الوزارة، واستعملت هذه الاجازة حجة في رفض قرار رئيس الوزراء، قائلة انني موجود في اجازة بغير مرتب، ولا تملك ان تتخذ في شأني اي اجراء . وطبعا لم تكن تعوزها الحيلة، ولا الوسيلة، ولا الكراهية لشخصي التي تستطيع بها عرقلة مثل هذا المسار.

وسعيت خلا هذه الاجازة من الوظيفة الحكومية ، ان ابحث عن مصدر رزق، في الخارج، ووجدت ان لشركة الاستثمارات الخارجية ، مجلة اسمها الاستثمار، ورضيت ان انضم الى اسرة تحريرها بعقد مع الشركة ، خاصة وان الخطة كان اصدارها من القاهرة حيث اقيم ، الا ان الخطة لحقها تبديل ، فاستمر عقدي باعتباري رئيس تحرير متجول، وهو اشبه برئيس تحرير شرفي لانني لم اكن في الحقيقة اباشر عمل رئيس تحرير ، لتعذر ذلك تعذرا كاملا، وكل ما كنت اقوم به كتابة مادة شهرية لهاعلاقة بعمل الشركة وغالبا ما تنشر بدون اسم.

وهذا كلام اسوقه لاثبات الجهد الذي كنت ابذله لكي اتجنب الحياة تحت ظل وسيطرة نظام الطغيان، رغم عمق انتمائي لوطني ، وعمق العلاقات والوشائج التي تجمعني باناس من اهلي وزملاء مهنتي ، والمدينة التي احبها، ولازلت احبها ، وسابقى احبها اكثر من اية مدينة اخرى في العالم طرابلس، ولكنني كنت اكره ان اراها تحت حكم الطغيان ، مدينة تسكنها غيلان يصعب التعايش معهم ، واثقا انه سياتي يوم تنجلي فيه الغمة وترحل الغيلان باذن الله.

مضى وقت قبل ان اعاود التحاقي بالعمل الخارجي ، وجاء هذا الالتحاق بعد لقاء عابر مع العقيد، اثناء رحلة قام بها الى جنوب افريقيا، اواخر التسعينيات، فقد اتصل بي القلم قائلا ان القذافي يريد ان يلتقي بعدد من الادباء، اثناء زيارة سيقوم بها الى جنوب افريقيا، ويريد وفدا صغيرا من ادباء ليبيا يرافقونه ، ويشترط اجادتهم للغة الانجليزية، ويريدني ان انتقيهم له ليكونوا برفقته وانا معهم اثناء الزيارة ، واثناء نفس المكالمة ذكرت اسم كل من خليفة التليسي وعلى فهمي خشيم ، فقال السكرتير الموجود على الطرف الثاني انه سيكتفي بعرض هذين الاسمين مضافا لهما اسمي، واستقر الامر على هذا الاساس ووجدنا اثناء السفر ان الاستاذ التليسي لم يتمكن من الالتحاق لانه كان خارج البلاد ولم يستطع تامين رحلة لرجوعه اليها قبل سفر الوفد من طرابلس.

واثناء وجودنا في مدينة كيب تاون ، قام العقيد بزيارة الى الفندق الذي يقيم فيه عدد من مرافقيه في الرحلة، وسأل عني وعن الدكتور على خشيم ، وجلسنا نحن الثلاثة نتناول معه القهوة ، ولم يكن معه احد من مرافقيه سوى قريبه السيد احمد قذاف الدم، الذي ظل واقفا في الجوار، يلبي طلباته ويتلقى تعليماته، وكان الدكتور خشيم في ذلك الوقت امينا لرابطة الادباء، فاقتصر حديثه عن مشاريع الرابطة التي ينشد لها دعما من العقيد ، واقتصر حديثي عن مفهوم الثقافة ، وارتباطها بالتنمية والنهوض وبناء المجتمعات الحضارية العصرية، وعندما تناول الحديث الدولة التي تستضيفنا، حرصت على اعطائه فكرةعما اعرفه عن تقدمها العلمي ، وامكانية الاستفادة من هذا التقدم، لان الاستعانة بها في مجال غير التقنية العالية ، سيكون مكلفا لبعد المسافة مثل الصناعات والمنتجات الزراعية، ولكن لها جانبا اخر ، هو الفتوحات في مجالات الاتصالات والاقمار الصناعية ، واشرت ان ليبيا ستجد في هذا البلد اكثر بلدان العالم امكانية لاقتناء قمر صناعي مثلا، فالتقدم هنا في هذه المجالات قد لا يقل عن امريكا نفسها، كما ان المسافة في مثل هذه المجالات التقنية الرقمية ، لا حساب لها، وبعد العودة الى ليبيا ، وخلال اتصال بالصديق عبد الرحمن شلقم ، الذي كان يشغل منصب امين الخارجية ، سمعت منه عرضا العمل في البعثة السياسة الليبية في جنوب افريقيا، واستنتجت ان العرض جاء نتيجة تلك الجلسة مع العقيد، خاصة وان الدولة التي يسالني ان اعمل فيها، كانت في تلك الفترة تتبع امانة اخرى هي الوحدة الافريقية، التي يتولاها امين اخر، فاجبته بانني اذا عملت فانني اريد ان اعمل مع صديق مثله ، وليس مع الامين الاخر، وجاء الاختيار الثاني وهو اليونان، الذي رحبت به، لان اثينا لا تزيد عن مسافة ساعة ونصف من مقر اقامة العائلة في القاهرة عن طريق الجو، ثم انني اعمل باتفاق مع الامين لا يخضعني لدوام دائم في العمل ولاساعات حضور ولا انصراف ، وفعلا كنت اقضى وقتا في القاهرة يعادل الوقت الذي امضيه في اثينا، ولم يحدث مثل هذا الالتزام بالبقاء في مقر عملي، الا بعد ان حدث فراغ في مكان رئيس البعثة، وجعل الامين يرجوني ان اقبل هذه الرئاسة في صورة قائم بالاعمال ، ثم حرر رسالة يطلب ان اكون امينا اي سفيرا في اليونان ، ضمن مذكرة باسماء اخرى ، مرفوعة الى القيادة، وجاءت الموافقة عليهم جميعا وترفيعم الى منصب السفير او امين مكتب، مع انهم جميعا لا يتاوزون معي في الخبرة ولا المؤهلات ، ماعدا شخصى الضعيف الذي رجع برفض هذا الترفيع، ولابد هنا من وقفة مع هذا المربع الذي اعده لي حاكم البلاد، واراد ان يحيله الى قفص يحبسني فيه وظيفيا، فهو لا يريد ان يستفزني الى حد الثورة والعصيان والانضمام الى المعارضة، ولا يريد بحكم الغيرة ونفسيته المعادية لاي نجاح اوشهره يحققه اهل محيطه الليبي، انصافي والاعتراف بكافأتي، فحافظ على نوع من المعاملة التي

تحفظ نوعا من التوازن بين الحالتين، فمثلا لم احصل على ما يمكن ان يحصل عليه اي اديب عربي، من تشجيع تقدمه له دولته، عندما تفتح الفرص امام انتاجه للترجمة وتحقيق الحضور في المحافل الاجنبية والدولية، وقد كان الدكتور رفعت السعيد رئيس حزب التجمع ، صريحا معه، وهو يلتقي به في مصر، ، باعتباره رئيس لجنة الشئون الخارجية في مجلس الشوري ، عندما زار العقيد ذلك المجلس، عن هذا الجانب في حديث علني اشاد فيه برصيد ليبيا الادبي، ضاربا المثل بي، ثم اخبرني انه خارج الحديث الرسمي ساله عن كيف لا تستغل ليبيا مكانة هذا الاديب وتفوق كتاباته الابداعية ورواياته في الترويج لها عالميا، وتطرحه باعتباره استثمارا حضاريا وثقافيا وسياسيا للبلاد ، فلم يزد كما قال لي الدكتور السعيد على ان هز كتفيه، وقال له ان للفقيه سكة مع لندن تتيح له نشر انتاجه دون عون.

حتى العرض الذي جاءني عن طريق الوزير الصديق شلقم ، والذي اشار به العقيد، لم يكن خاليا من فكرة المربع، لان بلدا مثل جنوب افريقيا او اثينا ، لا يمكن استخدامها كقاعدة انطلاق لمزيد من الشهرة، مثلما كان يستطيع ان يحدث معي، لو كان الاختيار عاصمة من عواصم الفكر والثقافة الحديثة ، ومع ذلك شكرت له فضل ان اتاح لي هذا العمل لابقى مع اسرتي خارج قفص اكثر ضيقا هو واقع البلاد في عهده. كما ان وجودي في مثل هذه المدينة او تلك لم يكن يمنع ان تنطلق اعمالي الادبية في تحقيق الذيوع العالمي الذي لا يستطيع ان يتحكم فيه الطغاة، وان اجد دور نشر ومترجمين يبحثون عن انتاجي ويقدمونه لشعوبهم، بلغات اخرى، ومثال ذلك مستعرب صيني هو العارف رونج جيان، تخرج من جامعة ووهان في الصين الشعبية،واجرى دورات في اللغة العربية في القاهرة، والتحق بالعمل في شركة مقاولات تعمل في ليبيا، ليتولى دور المترجم وحلقة الوصل االلغوية بين الشركة وبين اهل البلاد، ولانه في الاصل استاذ جامعي، ومتخصص في ترجمة الادب العربي، فقد ظل يبحث عن نصوص ليبية ، طالما صارت ليبيا مقر اقامته وعمله، يستطيع ان يترجمها ويخدم بها تخصصه الدقيق في الترجمة الادبية. واتصل بعدد كبير من الادباء اتصالا شخصيا ، لم اكن بينهم، لانني كنت اعمل واقيم خارج البلاد، الا انه عندما اراد نصوصا ليبية يترجمها، كانت نصوصي التي اشتراها من السوق هي التي وجدها تفرض نفسها عليه، فبدأ بترجمة مجموعة قصص ليبية، في كتاب، جعل الجزء الاكبر منه مكرسا لقصصي، وقام بنشرها عن طريق دار تتبع اتحاد ادباء الصين، ثم تبعها بترجمة روايتي "حقول الرماد"، واقامت لها جامعة ووهان التي يعمل بها المترجم ندوة دعيت الى حضورها في ذات المدينة، ، واستعان في مرحلة قادمة بعدد من المستعربين الصينيين ، اسهموا في ترجمة الاجزاء الثلاثة من ثلاثية ساهبك مدينة اخرى وهذه تخوم مملكتي ونفق تضيئه امرأة، وصدرت ايضا بواسطة نفس الدار التابعة لاتحاد الادباء، وفي هذه المرة ايضا تمت اقامة ندوة حول الثلاثية عن طريق اتحاد الادباء وشاركت السفارة الليبية بجهد كبير لانجاح هذه الندوة التي حضرها، واسهم فيها، مجلس السفراءالعرب ، وجاء مستعربون اخرون يطلبون اذنا بالترجمة، الا انني لم اتابع متابعة دقيقة ما حصل بعد ذلك ولكنني علمت ان كتابا خامسا صدر في الصين يحمل هذه المرة مختارات من مقالات وتأملات وشذرات نثرية ، اما الحدث الاهم فهو ان المستعرب الصديق العارف رونغ جيان، عمد الى جمع ما نشر عن هذه الكتب في الصين في كتاب اسمه احمد ابراهيم الفقيه والادب العربي المعاصر، واصدره في كتاب عن اتحاد الادباء، وارسل لي اكثر من نسخة من هذا الكتاب، واهديت احداها الى ديبلوماسي صيني يعمل في ليبيا، قال انه سيعمد الى

ترجمة الكتاب الى العربية ، لكنني فقدت الاتصال به، وعلمت انه غادر وظيفته عائدا الى بلاده، دون ان يكتمل مشروع هذه الترجمة.

هذا مثال لكيفية حدوث الترجمة، ووصول المترجمين الى انتاج الكاتب، فلا جهد من الدولة ولا خطة ولا وجود لاي مسعى من المساعي في هذا الخصوص، بل العكس هو الصحيح، فاذا وجدت الاجهزة سبيلا الى العرقلة لما توانت عن ذلك ابدا، وعرفت اكثر من مرة ان جهات كانت تسعى لدى اجهزة رسمية من اجل ان تكون حلقة وصل بينها وبين مؤلفين ليبيين ، وتمتنع عن القيام بهذا الدور، وهو ما سمعته من موظفين في اليونسكو، واصدقاء في معهد دراسات العالم العربي في باريس، وتنتهي المناسبة وتظهر انتاجات ادباء من بقية اقطار العالم العربي ، ودور ليبيا يبقى غائبا او مغيبا بسبب سياسة الحكومة الليبية.

لا ادري على وجه التحديد، وفي اي عام ، تفتق عقل العقيد، على صيغة ما اسماه القيادات الشعبية، وكان قبل اختراع هذه القيادات، قد قام بوضع تقسيم اداري لليبيا، اسماه الشعبيات، وجعل عدد هذه الشعبيات يصل الى اربعين شعبية، بدلا من نظام المحافظات العشر الموروث عن النظام المبكي، وينسجم مع التقسيمات الادراية الموجودة في بقية دول العالم، ولكل شعبية كيان يشبه المحافظة او الولاية، فهناك لجنة تنفيذية تشبه مجلس الوزراء، ولها مؤتمر شعبي مركزي يضم مندوبين عن المؤتمرات الاساسية ، او الوحدات الاصغر لهذا المؤتمر، له امانة تمثل الجهة المقابلة للجنة التنفيذية، ووضع سلطة معنوية رمزية فوق هذه الخلطة ، هو شخص اسماه المنسق العام للقيادات الشعبية في الشعبية، له سلطة رمزية ايضا ، فوق سلطة امين اللجنة التنفيذية وامين المؤتمر، اي نظام دولة لها رئيس ورئيس وزراء ورئيس نواب، ويبدو انه تنظيم، لتبرير ما كان يطلقه على جماهيريته الشعبية الاشتراكية ، من لقب " العظمى".

وفي مستهل هذا النظام الجديد، انتخب المنسقون لهذه الشعبيات ، زميلا لهم يكون المنسق العام، وهو يكاد يكون بروتوكوليا الرجل الاول في النظام الجماهيري، ربما لا يعلوه منزلة الا رئيس الثورة نفسه، وكان هذا الزميل هو الدكتور محمد احمد الشريف ، باعتباره كان منسقا شعبيا لمنطقة تضم مطار طرابلس الدولي هي منطقة بن غشير، واحتفالا باقامة هذا النظام، لبى العقيد دعوة من الدكتور الشريف ، الذي اقام مهرجانا خطابيا ، في منطقته، منقولا على الشاشة، خاصة خطبة العقيد، ومن حوله جلس عدد من اركان دولته ، ومن اجل وضع لمسة ديكور ثقافي، دعاني صديقى دكتور الشريف ودعا الزميل الكاتب ابراهيم الكوني، وقام بتامين مكانين لنا في منطقة الشرف، واعقب المهرجان الخطابي حفل عشاء حضره علية القوم، ووسط سرادق كبير ، لابد ان امكانيات الجيش قد سخرت لاقامته، جلست انا وابراهيم الكوني في احدى الحلقات ، لاجئين لصديق من هؤلاء الوزراء والضباط الكبار، وهو صديق تربطنا به علاقة القلم بسبب ميوله الادبية، الاستاذ سيد قذاف الدم، وسالنا اهل الضيافة ان نصنع حلقات من خمسة اشخاص استعدادا لوضع القصاع ومباشرة الطعام، وكان مكان حلقتنا في طرف بعيد عن المنطقة الرئيسية التي يحتلها العقيد واهل الحاشية، وكان متوقعا طبعا ان يدعو العقيد لمشاركته القصعة اكبر شخصيتين مثل رئيس الوزراء ، او كما يسمى رئيس اللجنة الشعبية العامة ، والشخصية الاعلى في الحراك التشريعي ، امين مؤتمر الشعب العام ، بالاضافة الى المضيف

وهو منسق القيادات، ولكن العقيد ابى ان يعطي الشرف لهم، وانما ارسل من يدعوني والزميل الكوني، لان نحتل مكانا على يمينه ومكانا على شماله نشاركه الطعام، وترك اولئك الكبار ينظرون في استغراب لهذين الدخيلين المتطفلين على عالم القوة الجاه والثروة والسلطة يتصدران المجلس ، ولكنها فيما يبدو رسالة لهم، بانه لا يريد ان يعطي شانا لاحد يكبر به على الاخرين ، وانه اختار اثنين من خارج هذا السياق السلطوي، لكي لاتكون حظوة يستغلها احد ضد اخر منهم. ولكي يكتمل عدد الخمسة اشخاص فقد كان المكان الرابع للمضيف الذي كان يتولى ايضا خدمة ضيوفه، ويرحب بهم ، والمكان الخامس كان لمدير مخابراته الذي رايناه يتذوق الطعام قبله، ولا يمد يده لقطعة اللحم او لكاس المشروب ويضع الملعقة في الطعام الا بعد ان يسبقه ذلك التابع لتذوقه. وبعد ان رفعت القصعة وما يرافقها من صحون، جسلنا في نفس المكان ، حيث قدمت لنا وسائد نجلس فوقها لكي نصل الى شيء من التناسق مع العقيد الذي اختار ان يجلس فوق كرسي فوتيل بحجة انه يعاني من مرض الديسك الذي منعه من الجلوس مثلنا فوق الارض، ولم اعد اذكر الحديث الذي كان يدور، فقد كان هناك لغط ووضجة اعقبت العشاء، وحمل بقايا المائدة من صحون ورقع وطبليات وغير ذلك، وشد انتباهي شيء يتحرك، جعلني اصرف ذهني بكامله له، فقد تسللت من تحت ستار الخيمة حيث نجلس عقربة صغيرة سوداء، من ذلك النوع الذي يحمل اكثر انواع السم خطرا وفتكا كما يقول اهل الخبرة من اهلنا في البادية، وقد وصلت الى طرف يتدلى فوق الارض من عباءة السيد العقيد، لم اخبر احدا بوجود العقربة، وكنت الاحظها لاكون منتبها اذا اقتربت مني، لاضربها بحذاء او شيء صلب قريب مني حيث اجلس، ولكنني كنت اتوقع، ان تتسلق عباءة العقيد وتصل الى منطقة من جسمه ، وتنفث فيه سمها عل خلاص الشعب من شروره يكون علي يديها، جانب شرير استيقظ في نفسي ربما يبدو غريبا ان يراودني في مثل هذه اللحظات التي اظهر فيها جانبا من نفسه غير الجانب الشرير، ولكن العقربة السوداء المفعمة بالسم، ايقظت كل مخزون الالم والحزن والعذاب الذي عاناه الشعب على يد هذه الرجل، وفعلا تركت امال الخلاص في السم الزعاف الموجود في ذيل هذه العقربة . لقد حاول ليبيون كثر انجاز هذا الخلاص ، ولكنهم للاسف انتهوا نهاية ماساوية، قتلا وشنقا ونفيا وسجنا، فهل تفلح هذه العقربة الصغيرة، فيما فشلت فيه قوافل الفدائيين والمناضلين والشهداء، من ابناء ليبيا.

انصرفت عن كل شيء كان يدور في تلك الجلسة مع العقيد، وكتمت الامر حتى عن زميلي الكوني الذي لم يكن يفصل بيني وبين الا كرسي العقيد ، عارفا انها لوتحركت نحوه فسيكون هناك وقت لانقاذه منها ، اذ انها ظلت ولمدة طويلة تتحرك ببطء، وتقف احيانا فوق طرف عباءة العقيد، وتحاول ان تتسلق الثوب فتعتر في طياته الكثيرة، ويبدو انها ضجرت من محاولا الصعود، فادارت ظهرها الى مجلسنا ، ومضت باتجاه معاكس ، تتسلل خراج السرادق، فتابعتها بحسرة والم وخيبة، وانا ارى امل الذي ابرق في النجاة من ضيم هذا الرجل يتلاشى ويذوب، وقد تأثرت بمشهد تلك العقربة ، وصنعت حولها قصة قصيرة، لاقت صدى طيبا عندما نشرت في الاهرام، وصدى اكبر عندما ترجمت الى اللغة الانجليزية ، وكانت بعنوان العقرب والزعيم، ولم يكن ممكنا ان يكون الزعيم في القصة هو العقيد في حياته ، واستبدلته بشخصية طاغية افريقي ، يماثله دموية وعنفا ، هو الزعيم الاوغندي عيدى امين دادا، رابطا هذا الموقف بموقف اخر قابلت فيه الرئيس الاوغندي.

ولم اكن اعلم ، وانا اشارك في الحفل المقام لتدشين هذا النظام الجديد، نظام المنسقين الشعبيين، ان العقيد سيختارني فيما بعد لاكون واحدا منهم ، وامثل دورا في مسرحية هزلية. كان قد استقر بي المقام مستشارا ثم قائما بالاعمال في البعثة السياسسة في اثينا، وكنت قد اقتطعت من عملي بضعة ايام اقضيها في جزيرة من جزر اليونان اسمها "هيدرا" اختارتها المنظمات العالمية لكي تكون جزيرة صديقة للبيئة، خالية تماما من وجود السيارات، والتنقل يتم فيها عبر دواب مثل الحمير والبغال، او الدراجات، فلا محروقات ولا مازوت ولا عوادم ولا دخان يلوث الهواء، واغلب الفنادق فيها دارات وبيوت ، قد لا يزيد عدد الغرف عن خمسة غرف في الفندق الواحد، وكنت قد اردت ان اقضى اجازة فيها، مع بعض افراد الاسرة، وربما في اول ايام تلك الاجازة ، رن الهاتف النقال يحمل مكالمة من طرابلس ، بضرورة الحضور لامر عاجل الى طرابلس ، ولم يكن هذا الامر من الخارجية الجهة التي اتبعها، ولكن من مكتب المنسق العام للدولة الليبية، وعرفت ان هناك عرضا بان اتولى وظيفة المنسق العام لشعبية المنطقة التي شهدت مولدي، وهي شعبية مزدة، اثر وفاة المنسق العام السابق السد محمد احمد السني ، وهو رجل من اهل الصلاح ووالده من اهل الجهاد، وتعطف عليه السيد العقيد برتبة لواء شرفية، وطلبت ان اكلم المنسق العام، الذي كان في ذلك الوقت عسكريا ممن يسمونهم الضباط الاحرار، وقال لي ان هناك توجيها بان اتولى هذه المهمة ، وبادرته على الفور بالاعتذار عن قبول المنصب، فساق عددا من الاسباب تبرر هذا التوجيه وترى انني اصلح الناس لهذا المنصب، فقلت له انني استطيع ان ارشح له عشرة اسماء من ابناء المنطقة ، جميعهم اكثر خبرة مني بهذا العمل ، واكثر جدارة به، الا ان الرجل لم يكن مخولا بان يقبل اي اعتذار، واعاد على سمعي قاعدة يعمل بها العسكريون، تقضى بان الاعتراض ياتي بعد مباشرة التنفيذ اولا، واقترح ان اقبل الوظيفة، وان احضر فورا الى طرابلس لاباشرها، ثم اقدم التماسا الى العقيد بالظروف التي تمنعني من الاستمرار فيها، مفضلا ان اواصل العمل الذي اقوم به الان. وكنت اعرف طبعا مغبة ان امتنع عن التنفيذ، فسيصدر قرار فوري، بسحبي من العمل في اليونان واعادتي الى ديوان الوزارة، لابدا من جديد دوامة البحث عن عمل يناسب ما اريد. ولذلك فقد قطعت اجازتي في جزيرة هيدرا، وتوكلت على الله، واتجهت فور وصولي الى طرابلس ، الى قاعة الشعب ، حيث اعدوا لي بطاقة تحمل اسم منسق القيادات الشعبية لشعبية مزدة، واعطوني سيارة بيجو، هي نفسها التي كان يستعملها المنسق السابقه، ووعدوا بان يخصصوا لي سائقا، وعرفت من خلال استلامي للعمل ، ومن بعض ما قاله لي المنسق العام لقيادات ليبيا، ومعاونيه ، ان هناك احتقانا قبليا في المنطقة ، وان هناك نزاعات عشائرية وجهوية، وانني باعتباري من ابناء المنطقة ، وانتمي الى الحقل الثقافي ، فان اهل المنطقة ينظرون لي خارج الاطار القبلي ، ويفخورن بي ككاتب ينتمي الى منطقتهم، ولهذا فهم قد يسمعون كلامي ويقبلون مني التوجيه والمشورة، اكثر مما لو جاءهم التوجيه من منسق مدموغ بالتحيز لقبيلته غيري، ويرون ان هذا هو السبب الذي حدا بالعقيد لاختياري لهذا المنصب، وهو تفكير لا يجانبه المنطق، ولكن متى كان هذا الاخ حقا يحتكم الى المنطق او يعمل به، وكان ظني هو ان شيئا استفزه فيما كتبته او فيما راه مكتوبا حولي ، او لدا مشاهدته لي في لقاء تلفزي، او برنامجا عني، فاراد ان يغرقني في رمال الحمادة الحمراء ومشاكلها، اذ ان عاصمة مزده ، هي القريات، المقسومة الى شرقية وغربية، التي تقع في قلب تلك الحمادة، واغرق في مشاكل تلك المفازات الصحراوية ، وابقى مردوما تحت عواصفها وعجاجها ، فلا تصل لي الة تصوير تلفزي ، ولا اجد مساحة للكتابة والابداع، وكانت الصحراء بمفازاتها المرعبة في انتظاري، وانا اذهب لاباشر العمل قبل ان اقدم الالتماس باعفائي من المهمة، وكان

القصر المخصص لمكتب المنسق العام، هو قصر المتصرف منذ عهد الادارة البريطاينة، في بلدة مزدة، ولكن اجهزة العمل التنفيذية والتشريعية غيرها موجودة في القريات ، ويجب ان اباشر معهم العمل هناك ، وكان ثمة تقسيم قبلي الى حد ما ، فاكبر كتلتين هما المشاشية والزنتان ، وكان رئيس الجهاز التنفيذي ينتمي الى الزنتان ، وسبق له احتلال منصب سامي في امانة المؤتمر الاعلى في ليبيا ، وامين المؤتمر الاساسي، من ابناء المشاشية، وعضو نافذ في اللجان الثورية ، وله تاريخ متميز في معارك السابع من ابريل ضد الطلاب المناوئين للنظام، وسبق له رئاسة الجامعة الطلابية، وكان على ان اتولى ادارة هذاالخليط ، مع مكونات قبلية كثيرة فهناك اولاد بوسيف، وهناك ورنزة، وهناك عواته، وهناك قنطرار، وهناك اقليات من قبائل الاخرى بل اثنيات مثل الطوارق ، وهناك مجلس من هذه المكونات اسمه مجلس التخطيط، وهناك مجالس لكل منطقة اسمها الفعلايات المحلية، وهناك مؤتمر شعبي اساسي لكل منطقة ، وكان منصب المنسق الذي اتولاه هو الاعلى، ولكنه منصب شرفي ، فهم اهل الادراة، واهل الميزانيات والتوقيعات، ويبقى للمنسق المصادقة والاشراف . وسافرت الى مقر العاصمة ، وواجهتني منذ اليوم الاول عواصف الرمل ، ورافقتني هذه العواصف طوال الطريق من مزدة الى عمق الحمادة الحمراء ، واذا كان السفر يستغرق عادة في ساعتين، فلعله بسبب العواصف، وتعذر الرؤية، وزحف الرمال على الاسلفت، اخذ ضعف الوقت، وبسب تسمية هذه الوحة عاصمة للمنطقة ودون تمهيد او اعداد، فلم تكن هناك انشاءات جاهزة تشغلها الادارة ، وكانت هناك قرية سكنية صغيرة تابعة لاحدى الشركات الاجنبية ، افرغت من عمالها، وتم تكييفها لتكون مقرا لحكومة المنطقة ومقرا للعاملين الوافدين ليها، كما ان هناك غرفا للضيافة ، وكنت قد دعوت لاجتماع يضم كل فعاليات المنطقة وحكامها ، وشيوخ قبائلها، للتداول في اسباب الاحتقان القبلي ، لازالتها والوصول الى حالة من التفاهم والتوافق خدمة لهذه المنطقة التي ننتمي جميعا اليها، وكنت قد اجريت بعض التحريات عن هذه الاسباب واعددت بعض النقاط ، وجئت للاجتماع جاهزا بصيغة قابلة للحوار والنقاش ، وربما ارضاء جميع الاطراف، ووجدت ان سمعتي باعتباري كاتبا، كانت قد سبقتني، وانه لم تكن لي سوابق يشتم منها اي تحيز او تعصب لجهة دون اخرى ، وان ما كتبته خلال سنوات متعددة من مقالات او اعمال ادبية، مستوحاة من المنطقة، ومن تاريخها، ومن تراثها، كان لا يفرق بين مكون عشائري واخر ، مما اورثني تقديرا واحتراما لديهم، واكسبني مصداقية رايتها تتجسد في هذا الترحيب الذي استقبلوني به، وكلمات الود التي سمعتها من اكثر من خمسين رجلا قياديا، كانوا يحضرون هذه الاجتماعات، ولم يكن بينهم للاسف امراة واحدة، كعلامة اكيدة على حجم التخلف الذي تعاني منه منطقة محكومة، باشد التقاليد الصحراوية تزمتا وانغلاقا، وبرغم انني ادرك ان مهمتى في هذا المنصب مهمة مؤقتة، فانني اعرف ان الروح القبلية، والثقافة البدوية، هما ما يمكن ان يكونا عائقا لتقدم المنطقة وتحضرها، وان اي جهد ينشد تقدم الناس ، في هذه الاصقاع ، يجب ان يتجه الى محاربة التأثير السلبي الذي تمارسه الروح القبلية، العشائرية ، البدوية، البدائية على الادراة. وتكشفت اثناء النقاش ، كثيرا من الجوانب التافهة لهذه الخلافات والصراعات، الى حد يصعب الان ، وانا اعود لاستذكارها، ان اجد شيئا ملموسا استطيع اعتباره عاملا اساسيا من عوالم الخلاف، واضرب مثلا بحالة واحدة، فقد ارادت حكومة المنطقة ، اعادة تقييم اللعاملين في سلك الوظيفة العامة، واكتشفوا ان هناك نساء على سبيل المثال مسجلات على انهن مدرسات وعاملات في مركز ثقافي ، لا يلتزمن بمواعيد الحضور والانصراف ، وتمة اجراء للتعامل مع هذه الحالة قيد التنفيذ، واستكمال الجانب القانون للاستغناء عن خدماتهن، وهناك عمالة مؤقة لم تكن ثمة حاجة اليها، فهي عبارة عن بطالة مقنعة ، هناك ايضا اجراء

في الطريق للاستغناء عنها ، وان مصدر الاحتقان ليس فقط العوائل المتضررة من هذه الاجراءات ومن يتحزب معهم من اهالي قبيلتهم ، وانما لاحساسهم بان الاجراء استهدف قبيلة ، دون اخرى ، وان المعاملة لم تكن عادلة ، في التعامل مع كل الحالات بنفس المقاييس، وان ماحدث في مدرسة في القرية الفلانية ، تم التغاضي عنه في مدرسة اخرى، او مركز ثقافي في منطقة اخرى، ولم اكن استطيع ان اخترع حلا او اجترح اسلوبا لازالة الاحتقان في نفس الجلسة، رغم وجود هذا الحل واقتناعي به، الا انه يحتاج لما يمكن ان يكون جهدا دبلوماسيا مع اصحاب السلطة الفعلية، وقناعتي كانت تتلخلص في الاتي ، ان اي مرتب من هذه المرتبات التي يثور حولها النزاع، بمقياس ذلك الوقت ، لم تكن تزيد عن مائة دولار شهريا، وهو طبعا مرتب تافه جدا، ويمثل في اساسه ظلما واجراما في حق المواطن الليبي، رجلا كان او امراة ، الذي حجب عنه حاكم ظالم ثرواته، ويستخدم معه سياسة ممنهجة لاذلاله وتجويعه، عملا بالحكمة التي سبق ان سمعناها في اجتماع معه، وهي تجويع الكلب لكي يطيع سيده، فما الضرر لو ان هؤلاء البؤساء االمستهدفين بالاقالة والاستغناء ، استمروا في تقاضي مرتباتهم باعتبارها نوعا من الاعانة الاجتماعية ، حتى لو لم تسمى كذلك، انها اعانة لهذه المراة تربي بها اولادها ، بل اراه عملا وطنيا الاستمرار في صرف هذه المرتبات الهزيلة الحقيرة، وانا الذي يعرف ان بلدانا كثيرة، تصرف اضعاف هذا المبلغ لاناس لا يعملون كبدل بطالة. وعمدت بعد الاجتماع الى عقد اجتماع مع المسئولين الكبيرين من بعدي وهما امين اللجنة الشعبية وامين المؤتمر، واقنعتهما بايقاف اي اجراء يتصل بتصفية العاملين ، او الاقتراب من هذا الموصوع، وافهمتهما اننا ربما نصل الى حل على المستوى الوطني لمثل هذه القضايا العالقة التي تعاني منها *كل المناطق ، في اطار خطة لرفع المرتبات، وتنظيم العمالة، وصرف اعانات البطالة، وما يسمى اعانة* الام والطفل. ومشاكل اخرى تمت مواجهتها بمثل هذا الاسلوب الذي ادخل الفرحة على قطاعات كثيرة من اهل المنطقة وازال اسباب الغضب.

كنت خلال هذه الفترة التي توليت فيها المنصب ، اتردد على طرابلس ، ورفعت مذكرة ابديت فيها رغبتي في الاستمرار بعملي في اليونان، وقابلت اكثر من صديق في الدولة ابدى تعاطفه معي، مثل الصديق محمد ابوالقاسم الزوي، الذي كان يقول انه لا يستطيع ان يتصورني في مثل هذا العمل ، وانه يقترحني لاكون منسقا للقيادات الثقافية لا الشعبية، واعتقد ان الرجل الذي نجح حقا في ايصال صوتي الى العقيد استطاع استصدار قرار اعفائي من المهمة هو المرحوم الدكتور مفتاح الاسطى عمر، فقد صدر قرار بشأنه لكي يكون منسقا للقيادات الشعبية في منطقة درنة، البلدة التي ينتمي اليها في الجبل الاخضر، والتقيت به ، ووجدته لاعرف منه، انه يتعذرعليه تنفيذ هذا القرار، فهو يخضع لجلسات علاج في طرابلس، ولا يستطيع الاستغناء عنها ، ولا وجود لمستشفى يقدمها له في المنطقة المنقول اليها، وابلغني انه طلب تحديد مقابلة مع العقيد ، وانه سيراه في الايام القليلة القادمة ، فاسرعت باعطائه نسخة من الالتماس الذي قدمته بالاعفاء، قائلا له ان حالي يماثل حاله، وان لدي ظروفا تحتم على استمراري في عملي اسابق ، ووعدني بان يتولى هذه المهمة.

وواصلت العمل بانتظار هذا الاعفاء، الذي كان المنسق العام نفسه، قد ابلغني بانه لن يكون صعبا، اذا نجحت في تحقيق ما تريده القيادة من مصالحة بين الاطراف، وهو ما قمت بالتركيز عليه من خلال مداومة الاجتماعات في بلدة القريات . وفي طرابلس طلب مني المنسق العام ان احضر معه جلسة لمحاسبة وزير من الوزراء، ارتكب بعض المخالفات، لعله وزير المالية، ولكنني اعتذرت بحجة

ارتباطي بعمل في المنطقة، لانني سمعت عن هذه الجلسات ما جعلني انفر منها ، فهي وسيلة يخترعها العقيد لاذلال هؤلاء الوزراء، ويتولى المنسق واعوانه تنفيذ هذا الاذلال، بل علمت ان هناك كلمات وشتائم يطلب منهم توجيهها الى الوزير ، او الامين كما يسمونه، مثل انت لص وسارق وتتقاضى العمولات والرشاوي، حتى لو لم يكن هناك دليل ، بل علمت انه حدث خلال المدة التي قضيتها معهم، ان تم احضار امين مؤتمر الشعب العام، وتم التحقيق معه واهانته وابقائه في قاعة الشعب ليلة كاملة تحت التحقيق ، قبل اطلاق سراحه صباحا بعد ان سمع من المهانات والشتائم ما كتب له الله، مع انه يمثل امام الناس اعلى منصب في السلطة الشعبية المزعومة. وانابني المنسق العام لحضور حفل عام، حضره عدد من الوزراء، عقد في مركزالجهاد، وحضره السلك الديبلوماسي الاجنبي، ووجدت نفسي اقوم بدور الرجل الاول بروتوكوليا ، حيث يسبق مكاني الوزراء واصحاب الشنين والرنين، واعضاء السلك الديبلوماسي يتقدمون نحوي بالتحية، ويبدو ان المنسق العام اراد ان يذيقني من بهجة السلطة التي يتمتع بها صاحب المنصب الرفيع ، ولكنني كنت محصنا ضد هذا النوع من المباهج ، التي اعرف انها مجرد هواء ساخن كالذي يملا البالون المنفوخ ، وانني حددت لنفسي هدفا في الحياة هو رسالة القلم وموهبة الكتابة التي هي منحة من الله، وكنت مصرا اصرارا كاملا على ان اعود موظفا ، بعيدا عن النعيم الارضي الذي ينشده اهل المناصب السامية ومواقع السلطة والجاه.

وحضرت اكثر من اجتماع عقده هؤلاء المنسقون الشعبيون، وكان اهمها واكثرها قربا الى نفسي ، ذلك الاجتماع الذي عقد في مدينة المرج، وفي رحاب الجبل الاخضر، حيث كنا في ضيافة اهلها ، وهم اهل كرم ويسار ، بسبب خصوبة الارض ، وملكيتم لمزارع عامرة بانواع المحاصل، وقد احتفوا بنا ، وكانت فرصة بالنسبة لي ان اتجول عبر مواطن الجمال في هذه الربوع، ولم اكن قد تعرفت في السابق الا على جزء يسير منها، تنقلنا خلال فترة انعقاد المؤتمر بين البيضاء وسوسة وشحات، وتناولنا غذاء في احدى اجمل مناطق الجبل ، ذات الاستقطاب السياحي هي راس الهلال ، قريبا من منطقة على الشاطي تسمى حمام كليوباترا، حيث يقال ان كليوباترا، الشهيرة ذات الجمال والدلال والاسم المسكوك في التاريخ، (لان هناك اكثر من ملكة بهذا الاسم) كانت قد اختارت هذا المكان منتجعا لقضاء اجازتها.

من الافكار الجنونية التي انتجها عقل العقيد مشروعا اسماه تامين الشواطيء اللبيبة ، باسلوب يحمل كل معاني الشر والاجرام ، وهو زرع الشواطي بالالغام، واحالة سواحل البلاد الى ما يسميه التعبير العالمي حدائق الشيطان، لانه بهذه الطريقة كما يقول لن يستطيع الاعداء التسلل الى الشواطيء الليبية، وطبعا كان مشروعا يثير سخط الناس والمهم ، وكان اقرب الناس اليه يعتبره شرا واجراما، وهو ماسمعت بعضهم يقوله سرا، ولكن معارضة المشروع جهرا، كان يعني استجلاب غضب ونقمة الرجل ، وقد بدأ فعلا في زرع بعض السواحل الليبية بمثل هذه الحقول من الالغام، ويعلم الجميع ان قصة التحصين والتامين ليس الا ذريعة لمصادرة حق الاجيال القادمة في الاستفادة من هذه السواحل او استغلالها لخير البلاد، وليبقيه حتى بعد انتهاء عهده وزمانه مصدرا للخطر والموت، كما هو الحال مع الغام زرعتها قوى معادية، واطراف تحارب بعضها بعضها لايذاء الخصوم ، وليس ايذاء نفسها، وزرع الالغام في ارضها، واحسست وانا اشاهد جمال مناطق راس الهلال، وشاطي سوسة، وحمام كليوباترا، برعب ان تصل مخططات العقيد المجنونة الى هذه المناطق، وقدمت خلال جلسة المؤتمر العام لمنسقي القيادات، مرافعة كبيرة ضد هذا النوع من تحصين الشواطيء الليبية، واقترحت تحصينا حضاريا، فنحن

الاون في مناطق ذات طبيعة بالغة الجمال، واقتبست من كتب الرحالة الذين قارنوا بين جمالها وجمال الريفييرا الفرنسية ما يعزز كلامي، قائلا ان التحصين والتأمين لهذه الشواطيء، لا يمكن ان يكون بالالغام، وغرسها في هذه السواحل، وانما بحركة اعمار سياحية، وخلق منتجعات وفنادق ومراكز ترفيه وترويح ومصائف وبلاجات، يتبعها اسكان وعماله ،بحيث لن تبقى بقعة في الشاطيء خالية ، ومهجورة، وقابلة للاختراق، والحقيقة فقد وجدت هذه الدعوة استجابة من كل المنسقين، وتم تكليفى بكتابة مذكرة ترفع الى القيادة باقتراح فتح باب السياحة في هذه المناطق لتكون مصدرا من مصادر الدخل القومي ، وهو ماكتبته وقدمته للمنسق العام ، ليقدمه الى رئيسه، ولاشك ان نسخة من هذا التقرير مازالت في اضابير هذا المنسق اذا كان للدولة ارشيف وتوثيق ما زال قائما حتى الان.

استغرقت مهمتي شهرين ونيف ، قمت خلالها بهذه الرحلات المكوكية بين عاصمة البلاد، وعاصمة شعبية مزدة، وانتهت الاجتماعات مع مكونات المجتمع في تلك المناطق الصحراوية ، بمحضر للمصالحة ، وصلت فيه كل الاطراف الى توافق كامل على خطة العمل واسلوبه ، وحررت محضرا بهذا المعني يحمل توقيع كل من شارك في هذه الاجتماعات، وكل مسئول في الشعبية، واحسست ان هذا المحضر، وما اعددته من تقرير حوله، وحول المهمة التي قمت بها، هما طريقى للخلاص من هذه الورطة.

وسعيدا بما وصلت اليه من نتائج، جئت الى طرابلس لالتقي بالمنسق العام ، واطلب منه رفع التقرير الى القيادة، راجيا ان يرفقه بمعاودة اعتذاري عن مواصلة العمل ، ولان هناك هيئة قيادية اخرى اسمها امانة مؤتمر الشعب العام، تشرف على مثل هذا الحراك الشعبي، وسبق ان ارسلت عددا من الموفدين الى المنطقة لاصلاح ذات البين، واستقبلت عددا من الشكاوى، وعرائض الاحتجاج من اهل المنطقة، ومندوبين عن قبائلها ينقلون اليها ما يحسون به من ظلم ، فقد وجدت من يقول لي بضرورة ان اذهب الى سرت ، واقدم صورة من التقرير اليهم، اعزز به مركزي، وفعلا التقيت هناك بامين المؤتمر ، وعدد من اعضاء الامانة ، واستضفت نفسي عند استراحة احدهم، هو المرحوم عبد القادر البغدادي، الذي آزرني في طلب الاعفاء، ولكن بشرى الموافقة جاءتني من المرحوم مفتاح الاسطى عمر، قبل ابلاغي بها رسميا عن طريق المنسق العام، الذي كان حريصا على ان اقوم بتسليم السيارة، التي سلمتها له فور ابلاغي بالاعفاء ، كما ذهبت الى مزدة لاجراء عملية تسليم وتسلم لاحد مساعدي المنسق العام.

وانتهى فصل مثير من فصول العمل في الدوائر العليا في دولة العقيد، وهي دوائر، لا علو ولا سمو فيها، وانما مظاهر كرتونية للسلطة، التي استاثر بها وابقاها في يده، واحد فرد لا يشاركه احد في ادارةالبلاد. ولم يكن هذا الفصل اكثر الفصول سوءا، لانه لم يكن يخلو من فائدة ومتعة ، رغم احساسي طوال الوقت بغربتي عن هذه الاجواء والمجالات، كما ان تكويني الثقافي ، يظل بعيدا جدا عن روح المجتمع القبلي ومفرداته وتقاليده، فانا اراها روحا معادية للحضارة، معادية للتقدم، معادية للطبيعة الانسانية، خاصة عندما يكون المجتمع قد غادر محطة البادية، الى بناء المجتمع المتمدين، وانجاز الدولة العصرية، والعمل وفق الاسس والقواعد الحديثة، فالصدام هنا سيكون مؤسفا ومدمرا لفرص التقدم والبناء، وسيعمل هذا الطابع القبلي البدوي على ان يشد المجتمع الى الوراء.

ولا اريد ان اقف طويلا عند هذه المحطة، رغم انني استطيع طبعا ان اكتب كتابا عن تجربة هذه الاسابيع، فهو مجتمع كنت واحدا من ابنائه، وتربيت بين اهله، وعشت طفولتي وجزءا من مراهقتي فوق ارضه، ويثير عندي الان وان اعود اليه كبيرا وناضجا، جملة من المقارنات والاراء والافكار التي قد يكون مجالها كتاب يختلف عن هذه الذكريات.

نعم كان في المنصب ، رغم طبيعته البروتوكولية الرمزية ، شي من اوهام القوة والسطلة، خاصة ما يمكن ان يحيطك به الناس من مظاهر التوقير والتبجيل، المقصود بهما المركز قبل الشخص، وما يمكن ان تراه منعكسا على سلوكيات ومشاعر واحاديث الدوائر الاولى من الاقارب في القرية، فقد بدا واضحا ان وجودي في هذا المنصب، موضع فخر، وربما بمباهاة، بالنسة لهم امام الاخرين، الى حد ان بدت فكرة التخلي عنه ، والحاحي على الاستقالة منه ، تخليا وخذلانا لهؤلاء الذين رأوا في وصول مثل هذا المنصب الى ابن من ابنائهم ، انصافا تاريخيا لهم، وهو ما يشكل لي حرجا لابد ان اواجهه، وانا اواصل المساعي لفك الارتباط بهذه الموقع السلطوي الذي جاء دون ان اطلبه ، والمشكلة انهم يجدون في المنصب منافع لست واعيا بها، ولا علم لي بوجودها، فقد علموا ان هناك حصصا في بعثة الحج الحكومية، تعطى لبعض المناطق، وان هذه الحصص التي تتكرم بها الدولة على بعض الناس ، يعهد بها الى اصحاب صفات عتبارية مثل منسقي عام القيادات الشعبية، وهي مسالة لم اكن على علم بها، ولم يتصادف اثناء عملي موسم حج لاعرف، والموسم سيكون بعيدا لا اريد لمهمتي هذه ان تمتد الى ستة او سبعة اشهر حتى ياتي شهر الحج، ولكن تعالى واقنع هؤلاء الناس ان السعي لاعفاء نفسي من المهمة، ليس حرمانا لهم من هذه المزايا، التي ساقتها لهم العناية الالهية،عندما وضعتني انا ابن بلدتهم وعشيرتهم واسرتهم في هذا المكان. وهناك مفارقة عززت الاعتقاد في اذهان الناس بعظمة وقوة هذا المنصب، فقد كان المبني المخصص لي كمنسق للقيادات الشعبية ، والمكتب الذي احتله داخل هذا المبني ، هونفسه المبنى والمكتب الذي كان في عهود سابقة يحتله الرجل الذي حكم منطقة القبلة كما يسمونها ، وربما اقوى حاكم على مدى التاريخ عرفته الصحراء، العقيد تاور الضابط الانجليزي، الذي وصل بعد الحرب العالمية، وادار هذا الجزء من ليبيا، لمدة عشرة اعوام، هي اعوام الانتداب البريطاني في الاربعينيات، والى قيام الدولة الملكية المستقلة. وكان حاكماعسكريا، مطلق السلطات والصلاحيات، وكان لهذا المكتب وهذا المبنى رمزيته في اذهان الناس ، ممن عاصروا العقيد تاور، او ممن لم يعاصروه، وانما سمعوا وعرفوا تاريخه، الذي اصبح جزءا من الذاكرة الشعبية، وربما دخل في الفلكلور، باعتباره ظل دائما مضرب المثل للمستبد العادل.

ليس منصب المنسق العام على ضآلته، الا عينة اونموذجا لهذه الهالة التي تصنعها السلطة، وكنت قد جربت قبل ذلك منصب المدير العام ومنصب مدير المعهد ، والمكان الذي يدير فيه الانسان عددا كبيرا من البشر، وعرفت في نفسي هذه القدرة على مقاومة اغراء هذا النوع من السلطة، اذا لم اقل النفور منها، وفي هذا المنصب وبرغم كل الضغوط، فلم تكن هناك ذرة من عقل او وجدان ، تحتني على البقاء في المنصب، وانما الهروب منه لاعود موظفا في سفارة او صحيفة كما كنت سابقا انشغل بقراءاتي ، وكتاباتي، خاصة انني كنت منهمكا في انجاز مشروع روائي طموح، هو رواية خرائط الروح التي باشرت كتابتها في تلك الفترة. ويحضرني في مضمار الحديث عن اغراء السلطة قول صديق تبوأ اعلى المراكز، واثبت انه لم يكن اطلاقا اسير سحر المنصب الوزارى الذي وصل اليه ، او غيره من

مناصب، هو الصديق الشهيد منصور الكيخيا، فقد تامل هذا الولع الذي يصيب بعض الناس بالمنصب ، ويتركونه ، فتتحول حياتهم الى جري محموم من اجل العودة اليه ،وقال انه ليس دائما وقوعا في سحر المنصب ، بقدر ما هو رد فعل ازاء تصرفات الناس في هذه المجتمعات التي ينقصها الوعي ، فصاحب المنصب الذي يجد نفسه محاطا بالاحتفاء الى حد المبالغة والنفاق، يجد غالبا وهو يترك المنصب ، التشفي والازدراء والاحتقار ، من بعض الناس ممن يحملون موجدة له اوغيرهم ، وهنا كما يقال يولد في نفسه شعور الثار لنفسه، وشهوة العودة الى المنصب، لكسر اعين هولا ء الشامتين واغاظتهم والانتصار عليهم.

لا ادري على وجه الدقة مدى استفادتي من هذه المهمة القصيرة، في عمق الحمادة الحمراء، ولكنها بالتاكيد اسهمت في تعميق معرفتي ، بما كنت اعرفه عن التركيبة السكانية، العشائرية وما طرا عليها من تحولات، جعلتني التقي بحجم المفارقة الفاجعة الموجودة هناك ، فقد كنا نضع الرهان على التعليم باعتباره القاطرة التي ستعبر بهذه المجتمعات البشرية ، وتنقلها من تقاليد البداوة الى حياة التمدن، وتحقق الرابط الضروري مع العلم واساليب الحياة العصرية، وكانت المفارقة، انني كنت فعلا التقي واتعامل واتحاور مع عناصر نالت نصيبا وافرا من التعليم، وكل هذه الفعاليات واعضاء لجان السلطة المحلية وكوادرها، محسوبون على الموارد البشرية التي حصلت على مراكزها بسبب الشهادات التي نالتها، وانتقلت بها من مواقع الحكم في المجتمع القبلي القائم على شيخ القبيلة واعوانه، الى اعضاء لجان التخطيط والمالية ومدراء الاجهزة الادارية والفنية، والمفارقة هي ان هذا التعليم الذي ناله هؤلاء الناس، بدا وكانه يمشى في طريق متناقض مع طريق التحضر والتمدن، فقد رايتهم اكثر تشبثا بالقوالب العشائرية الجامدة، واكثر ارتباطا بها، ربما من اسلافهم شيوخ القبائل الاميين، مما اكد لي ان هناك شيئا خطا في هذه المعادلة المقلوبة، وان ثمة ما يمكن ان نسميه "فايروس" دخل في العملية التعليمية، فابطل جوهرها، التنويري، المتدن، وابقاها شكلا بلا روح ولا مضمون، ولم يكن غريبا ان تحدث هذه العملية الانقلابية في طبيعة التعليم نفسه، فمنذ ان جاء العهد الانقلابي، اعمل تجريفا وتحريفا وتخريبا في مفاهيم المدينة، وغرس القيم الهجينة التي جاء بها من الصحراء، واقحمها في كل تفاصيل ومفاصل الحياة المدنية، معززة بالعقلية العسكرية التي لا تتعامل الا بلغة القهر والاجبار واصدار الاوامر.

لا ادري الان ما هي المناسبة التي ساقتني لاكون عضوا في مجموعة صغيرة تذهب للقاء العقيد في المزرعة المخصصة له في طريق مطار طرابلس، قريبا من مركز الفروسية، والمسماة المربعات الزراعية، وكانت المجموعة تتكون من كل من الدكتور مفتاح الاسطى عمر، الذي كان في ذلك الوقت يتولى مجلس الامومة والطفولة ، بعد انتقاله من قلم القيادة، ومنسق القيادات الشعبية في ذلك الوقت عمر شكال، وامين الشئون الخارجية في مؤتمر الشعب العام سليمان الشحومي، وانا والزميل ابراهيم الكوني. كان الوقت مساء ، في يوم ربيعي من ايام شهر ابريل، حيث يغمر المكان عبق الزهور وعبير الارض الريانة الخضراء، وبدا مضيفنا في جو رائق ، يداعب الحاضرين ، والابتسامة لا تفارق شفتيه، وكانت الذكرى العاشرة فيما اظن للغارة الامريكية على طرابلس في 14 ابريل لا تفصلنا عنها غير عشرة ايام، فاقترح العقيد ان يكون هذا اليوم مناسبة لاحتفال ثقافي يدعى اليه رموز اهل الفكر

والثقافة والسياسة ، يناقشون قضايا ذات بعد عالمي، مثل العولمة، التي لم تكن قد اتضحت صورتها بعد، وعلاقتها بموضوع الهيمنة، ثم اشار لي وللزميل الكوني باعتبارنا اقرب الحاضرين تخصصا للموضوع، بتولي الاشراف على هذه الندوة، والدعوة أليها والتحضير لها فكريا، وامر الثلاثة الباقين بان يكونوا جاهزين لتسهيل الجوانب التنفيذية والاجرائية، ووضع ما يحتاجه الموضوع من موازنة ومن تعليمات لاجهزة الدولة الادارية لوضع امكانياتها في انجاح اقامة الندوة، وابدينا استعدادنا لبذل كل ما في وجهدنا لاقامة ندوة ذات مستوى عالمي ، ينشا عنها حوار يفيد التفاهم والتواصل بين البشر، على اسس اكثر عدلا وانصافا، ويبدو انني قلت ما معناه ان عاما كاملا سيكون فرصة ممتازة للتحضير، لاننا كنا في شهر ابريل ، والندوة ستكون في ابريل القادم ، ورايت عيني العقيد ينظران لي باندهاش، وقبله اعوان الاخوة الثلاثة، العاملين قريبا منه، العارفين باسلوبه في العمل والتفكير ، بل طفقوا يضحكون على ما قلته وماكان يوافقني عليه زميلي الكوني، لان الكلام ليس عن الذكرى التي ستحل بعد عام، وانما عن الذكرى التي ستحل الاسبوع القادم ، وان المهلة ليست غير اسبوع واحد لانجاز هذه الندوة الفكرية العالمية. وتبادلت انا والكوني نظرات الاندهاش والاستغراب، لكن بقية المجموعة دخلوا مباشرة في التفاصيل ومباشرة التنفيذ، ولم يكن هناك مجال للاعتراض، وغادرنا المزرعة، لكي نمضى مباشرة الى بيت الكاتب المعروف على مصطفى المصراتي، فقد مرعرضا اثناءالحديث انه يمر بوعكة صحية، فاقترح العقيد ان نذهب اليه، وننقل اليه تمنياته بالشفاء، مع عرض بالعلاج في الخارج على حساب الدولة.

ووضعت مع الزميل الكوني خطة للتعامل مع هذه الحالة الطارئة العاجلة، وهذه المهمة شبه المستحيلة التي لابد من انجازها، ولم تكن هناك امكانية لاستخدام السبل الطبيعية التقليدية المعتمدة في هذه الحالات، وهي ارسال الدعوات المكتوبة لكل من تم اعتماده من المدعوين ، وانما كان الحل والوحيد هو الاعتماد على المكالمات الهاتفية ، فوضعنا ما يرد على الذهن من اسماء واجتهدنا في البحث عن هواتف كل واحد من هذه الاسماء، ولكي لا ياتي اليوم فنجد مؤتمرا بلا اعضاء ، تم ارسال برقيات لكل البعثات الديبلوماسية لاختيار عناصر تتوفر فيهم بعض المؤهلات التي تم ذكرها لهم ، لامكانية دعوتهم للحضور في الموعد المحدد للذكرى، وتم حجز فندق المهاري بكاملة لاستقبال الضيوف، وتحقق ما كنا رايناه غير قابل للتحقق، وصل عدد كبير من الشخصيات الشهيرة بينهم المفكر الفرنسي روجيه جارود، ورئيس دولة افريقي سابق، واثنين رؤساء وزراء سابقين احدهم من باكستان والثاني من مالطا، والمؤرخ الافريقي الاشهر السيد تازربو، ومن امريكا ارسل الزعيم الاسود فركان ابنه، ووفد مرافق له من كبار رجالات الحراك السياسي المسمى قوس قزح، ووصل ايضا عضو الكونجرس السابق ، والعربي الاصل جيمس زغبي، ومن مصر وفد من الشخصيات الكبيرة على راسهم قائد الجيش السابق الذي خلف عبد الحكيم عامر ، الفريق محمد فوزي، ومعه وفد كبير من السياسيين والادباء والمفكرين ، واسرفت السفارات في استغلال تلك البرقية، فارسل بعضها هيئة التدريس لاحدى المعاهد السياسية باكملها، لان البرقية كانت مفتوحة، ولم اعد اذكر العدد الاجمالي ولكنه قارب خمسمائة ضيف من اهل الفكر والسياسة وشكل اعضاء مجالس النواب الاغلبية منهم، وتوليت شخصيا رئاسة المؤتمر وادارة اكثر الجلسات، للسيطرة على جلساته ، ولتعويض ما لم نستطع ترتيبه بناء على اوراق لم تصل قبل اصحابها، وانما كل صاحب ورقة جاء بها معه، بحيث تعذر عمل جدول للمؤتمر مقسما حول محاور الندوة عن العولمة والهيمنة، واستطعت ان استعمل الحزم في الادارة لان بعض الثوريين كانوا يريدون خدمة اجندتهم في

تقديم هذا وتاخير ذاك، من ضيوفهم ، على اعتبار الولاء والاولوية الثورية، ولكنني كنت اصر على تقديم اهل الجدارة قبل الولاء، واهل الثقل الثقافي قبل اهل المنصب وادعاء الثورية، واقترحت بسبب ضخامة الحضور، ان يحجز العقيد جناحا رئاسيا في الفندق، ويخصص وقتا يستقبل فيه الضيوف المهمين والتحاور معهم. الا اننا فوجئنا بالرجل يترك طرابلس ، ويذهب الى مكان اقامته المؤقت في مدينة سرت، على بعد اربعمائة كيلو متر.

ولن اتكلم عن وقائع الندوة ومداولاتها، ومساهمة هذه الشخصيات الكثيرة والكبيرة القادمة من مختلف مناطق العالم في اثرائها، وساكتفي بالحديث عن المفارقات المؤسفة التي صنعتها لنا شخصية العقيد ، بما تحتويه من عقد وتناقض، فقد كانت تتجلى رغبته في اهانة هؤلاء الضيوف الكبار الذين جاءوا لمناصرته وتاييده، في كل حركة من حركاته، وساوردها بشيء من الاختصار:

ـ بسبب ان ليبيا كانت خاضعة للحظر الجوي ، فكل الضيوف كانوا سياتون عن طريق مطار جربة التونسي، ثم يعبرون الحدود البرية ، بين تونس وليبيا، وصولا الى طرابلس ، ولان الاعداد كانت كبيرة ، وتلافيا لما كان سيسببه هذا الزحام من ضيق وتعطيل للضيوف، استعنت بصديق يعمل نائبا لمدير المراسم هو السيد عبد الحميد فرحات، بان يتولى بنفسه مهمة استقبال هؤلاء الزوار على الحدود، والاشراف على وضع ترتيب لسرعة مرورهم في يسر ودون متاعب، وتعهد مشكورا باداء هذه المهمة، وتركته واثقا انه سيقوم بالمهمة على اتم وجه لصدقه وكفاءته، وافاجا بانه في اليوم السابق لوصول الضيوف، يتم سحب الصديق عبد الحميد وفريق العاملين معه، من هذه المهمة وتكليفة بمهمة في سرت، وتقوض الترتيب الذي يضمن النظام وتيسير وصول الضيوف، لكي يبقوا جميعا عرضة للمعاناة وساعات الانتظار الطويلة في تلك المنطقة الصحراوية بمناخها الحار ورياحها التي تكثر في الربيع ، استجابة لنزوات السيد العقيد الذي اراد ان يقول لهم " زوروا ليبيا لكي نعذبكم".

ـ كان العقيد موجودا في طرابلس ،الى يوم بداية المؤتمر، الذي يستمر ثلاثة ايام، وابى ان يحضر الافتتاح، رغم اهمية الضيوف، ووعد انه سيحضر اثناء مداولات المؤتمر، ثم فوجئنا بانتقاله الى سرت، دون وجود مناسبة تقتضي ضرورة وجوده هناك، ويظهر عنها حديث في الاعلام، وكنت واعيا بما يمكن ان يحدث، فقلت لاعوانه، ان يعرفوا منه اذا كان في نيته دعوة اعضاء المؤتمر لزيارته في سرت ان يبلغنا منذ اليوم الاول للندوة ، لكي نتمكن من ترتيب الندوة واتاحة الوقت لها ، ويجب ان لا تتاخر هذه الزيارة عن اليومين الاولين في الندوة، لكي يبقى امام الضيوف العودة بدءا من اليوم الثالث ليلا في اخذ السيارة عودة الى طائراتهم التي ستنقلهم في الصباح التالي الى بلادهم من مطار جربة. ولم يصل اي خبر عن لقاء يتم في سرت لا في اليوم الاول ، ولا الثاني، ولا طوال اليوم الثالث والاخير، وفي اليوم الثالث ليلا، وقد انتهت اخر جلسات المؤتمر، وقضينا نحن القائمين على الندوة، الوقت في زيارات وداع للضيوف في غرفهم وفي صالات الفندق، لان اغلبهم كانوا سيغادرون من جربة في اليوم التالي ، بعضهم كان سينطلق ليلا ليصل المطار في موعد الطائرة صباحا. في تلك الليلة ياتي خبر من السيد العقيد، انه يريد لقاء الضيوف في اليوم الرابع ، اي يوم السفر من جربة ، حيث كانت شركة الخطوط الليبية قد عملت على ايجاد رحلات خاصة ربما اربع او خمس رحلات لنقل هؤلاء الضيوف الى مناطقهم اوقريبا منها حيث تتوفر طائرات تقلهم الى محطاتهم النهائية، وتغيير هذه الرحلات في حد ذاته سيكلف خسائر

كبيرة ان لم تقلع في موعدها. وكان الرد الذي ابلغناه لهؤلاء الاعوان ، ان هذا اللقاء اصبح الان في حكم المستحيل ، وان الامر تأخر كثيرا عن موعده، عذرنا انه سبق ان ابلغنا القلم بالوقت الذي كان متاحا، ولكن هؤلاء الاعوان لم يكن يرضيهم ولا يمكن ان يرضي رئيسهم هذا الرد ، وقالوا انهم يريدون ترك الخيار الى الضيوف انفسهم، فمن اراد ان ياتي للقاء العقيد في سرت فستكون هناك اكثر من طائرة جاهزة تقلهم هناك، وتعيدهم في نفس اليوم، ومن لا يريد فله حرية السفر، ولكن اشكالية الطائرة الرابضة في مطار جربة قائمة، وستتتحرك بعدد من الذين التحقوا بها، ولكن ماذا سيكون الحل لمن اختاروا تلبية الدعوة، المهم ان حالة من الارتباك والفوضى والغضب والثورة حصلت بين الضيوف، وانواعا من المعاناة ترتبت على هذا الاسلوب في التعامل، وحدث ارتباك في مطار جربة، فهناك احدى الطائرات اقلعت بمن جاء اليها ، واخرى اضطرت الى الانتظار الى اليوم التالي لقلة من وصل ، ويبقى نائما فوق الكراسي انتظارا لقيام رحلته بعد اكثر من ثلاثين واربعين ساعة، ووصلت اصداء هذه الفوضى وشكاوى هؤلاءالصيوف الى صحافة دول كثيرة وبرلمانتها ، بينما كان المؤتمر مناسبة لقول كلمة خير لصالح البلاد.

ــ كان اغلب من حضر من شخصيات كبيرة ، لايريدون ترك هذه الفرصة لرؤية العقيد، وبينهم جارودي، الذي سالني ان كنت مسافرا الى سرت، فرددت عليه بالايجاب، ووجدنا ثلاث طائرات في المطار، تم تاجيرها لنقل الضيوف الى سرت، وخلال ساعات الانتظار الطويل لمجيء العقيد، في قاعة انتظار قريبا من الفندق، اردنا تنظيم انفسنا ، فاخذنا جميع الضيوف للجلوس في القاعة، وانتقينا عددا من كبار الضيوف ليكونوا لجنة استقبال تنتظره، في مدخل القاعة ، بعد ان جاءنا خبر بقرب وصوله، كان بينهم جارودي وفوزي ورئيس وزراء باكستان واسمه غلام، وابن الزعيم الامريكي فركان، ورئيس وزراء مالطا السابق السيد بينيتشي، الا انه قبل وصوله بدقيقة او اثنين وصل بعض حراسه واتجه احدهم مباشرة الى القاعة ليصيح في الناس ان العقيد على الابواب لكي تقوموا لاستقباله ، ولم يكن ممكنا لضيوف كلهم من الخارج، الا يلبوا هذا النداء ظنا منهم ان هذه تقاليد البلاد، فاذا بهم طوفانا يكتسح مدخل القاعة ، واذا العقيد يدخل منذ لحظة وصوله في امواج هؤلاء المستقبلين وحراسه يدفعونهم بقوة ويسيؤون الادب بهم ، وهو يفتعل الضيق بهذا الحب القاسي، الذي يكتم انفاسه ، وطبعا ضاعت لجنة الاستقبال، وضاع الترتيب، وعمت الفوضى، بكل ما يمكن ان يرافق هذه الفوضى من غضب وسخط واحتجاج، قبل ان يرجع الامر الى سياقه ويعود الناس الى القاعة، ويتفضل سيادته بقول بعض هلوساته ، قبل ان ياخذ سيارته ويغادر مع مواكب المرافقين وسيارات المراسم والحراسة.

واراد قبل ان يغادر المكان، ان يجامل بعض اعضاء الوفود فالتقى ببعضهم في الركن الخلفي للقاعة وكنت، باعتباري مشرفا على الندوة، جالسا معه اثناء استقباله لهم، فتبادل كلمتي مجاملة مع جارودي عبر المترجم، وتوليت الترجمة مع الوفد الامريكي الذي يمثل حزب فركان، واقتصر الحديث على تعريفه بجهودهم التي يبذلونها للدفاع عن قضية السود وشرح دعوة الاسلام، واستمع لهم وهو يبارك لهم جهودهم، ويعدهم بالدعم والمساعدة، دون التزام محدد، وقضى دقائق اخرى مع رئيس الوزراء الباكستاني السابق ، ورئيس الوزراء المالطي السابق، وبعض العرب امثال فوزي ورفيق او اثنين من رفاقه.

ـ ما حدث في اعقاب هذا اللقاء ، كان شيئا مزريا تجسدت فيه قمة المهزلة، فقد ان ميعاد العودة الى طرابلس وانطلقت بنا الحافلات تأخذنا الى مطار سرت، وبدلا من الطائرات الثلاث الى احضرتنا وجدنا المطار خاويا لا وجود لاية طائرة فيه، وكان جميع الضيوف قد استعدوا للسفر الى بلادهم، عن طريق جربة، فور وصولهم الى طرابلس ، عائدين من هذا اللقاء، وهو ما يجعلهم جميعا في حالة قلق واستعجال للعودة الى الفندق، ولكن الوقت يمضي، ونحن نستفسر عن مجيء الطائرات ولا نتلقى غير التسويف ، وكان احساس الجميع انهم يتعرضون لمقلب اشبه مقالب الكاميرا الخفية، وغمرنا احساس بالفرح ونحن نرى طائرة تظهر في الفضاء ، تتجه الى الهبوط، ولكنها فرحة كاذبة، لان طائرة واحدة لن تستطيع ان تحل المشكلة ، فهي ستاخذ ثلث الحاضرين ، فكيف سيتم الفرز ، وكلهم في حالة استنفار للسفر ، وكان اقتراحي لاهل المطار ان الافضل ان تنتظر الطائرة في مكان بعيد الى ان تصل الطائرات الثلاث القادرة على استيعاب الحاضرين، ولكن لا معلومات لديهم الا عن مجيء هذه الطائرة التي تقدمت الى مكان الركوب ، لاخذ حمولتها، فلطاقمها مهمة اخذ اناس من سرت الى طرابلس سيقوم بتنفيذها، و كان لابد ان تنشأ بين الحاضرين حالة من الفوضى، لا يمكن السيطرة عليها ، ولان هناك سلما كان بانتظار الطائرة، فقد هرع الحاضرون الى ركوب ذلك السلم، الذي تحول الى شجرة تتكس فوقها ارتال الجراد، ولكن السلم لم يكن يستطيع ان يحتمل اكثر من ثلاثين شخصا او اكثر قليلا ضمنوا انتزاع مكان لهم في الطائرة، وطبعا تزاحم الناس ، في ماراثون مأسوي لهذه الفئة من اصحاب المكانة الرفيعة في بلدانهم، كل واحد يريد ان يفوز بمقعد دون الاخرين، مشهد اشبه بالكوميديا السوداء ، يحمل كل معاني الاهانة لهؤلاء الضيوف، وكان طوال الوقت يخامرني احساس ان صاحب المقلب السيد العقيد يراقب الموقف من مكان ما ، ربما عبر كاميرا تصور له مايحدث، ليضحك ويستمتع بهذه المهانة التي يتسبب فيها لاناس كبار، يعلم انه لولا انقلابه، ما كان يحلم بان يكون معهم في مكان واحد.

وكان ما قلته لاصدقاء يعملون مع العقيد ، مثل صديقي محمد ابوالقاسم الزوي، انها اخر مرة اضع فيها نفسي في مثل هذا الموقف، او اتصدي لتنظيم مؤتمر، او ندوة، تكون لها صلة بالسياسة، وبالجهاز القيادي والسياسي والسيادي في الدولة.

جاء هذا اللقاء وسط عدة لقاءات حضرتها معه ، واحد سابق للندوة، كنت فيه ضمن مجموعة ادباء عرب استضافهم في منطقة قاحلة من صحراء سرت، اعتاد ان ينصب فيها بعض الخيام ، ويختارها مقرا لاقامته خلال بعض اشهر العام، ليناقش معه كتاباته القصصية التي سبق ان دعاني لان اقدمها له ببضعة اسطر، وحصل ان حضرنا معه وجبة غداء في احد الخيام، جاءت فيها قصاع المكرونة، وكانت مكرونة ممزوجة بحبات الرمل التي رمت بها الرياح في طناجر الطهاة، وسبق الغداء حديث اراد ان يستهله بتحية اهل الفكر والادب، وقال ان الفكر لابد وفي كل الحالات ان يسبق العمل، وضرب مثلا بائسا، وهو انه من كان يهدف الى هدم مدينة فلابد ان يسبق هذا الهدم تفكير وخطة ، واحسست بان هذا المثل يستفزني، فقلت بدون ان يسبق كلامي اي تفكير ولا خطة، وانما تدخلت بسرعة اقاطعه قائلا

" ولماذا لا نقول بناء مدينة وليس هدمها"، لانني احسست ان ذلك ادعى الى وضع الخطط واعمال الفكر، فقام من فوره بالاستجابة لما قلت، وعدل كلامه قائلا نعم قبل بناء اية مدينة، واذكر ان زميلنا الكاتب كامل عراب كان موجودا، ونظر باسف نحوي، خوفا من جريرة هذا الاعتراض، وظل فيما بعد

يشير الى هذه المناسبة قائلا:"تلك التي نهرت خلالها الاخ القائد" ويستخدم عادة كلمة عامية، هي "كشيت عليه"، فكنت ارجوه الا يكرر هذه الدعابة، لكي لا يسمعها ممن يقتنصون الفرص لنقل مثل هذا الكلام، فقد استوعبها الرجل وتغاضى عنها، ولا حاجة للتذكير بها من جديد.

وحصل لقاء بعد مؤتمر العولمة والهيمنة، عندما كان الراحل ابراهيم البشاري، يشرف على قلم القيادة ، كما يسمون ديوان العقيد، اشهرا قبل مقتله في حادث سيارة، يقال انه كان مدبرا. واقول بداية، ان ابراهيم البشاري ظل وعلى مدى اكثر من ثلاثين عاما، واحدا من رجال الخيمة ، كما يسمون اعضاء الحلقة الاولى ، ومنذ بداية الحراك الطلابي الثوري، في مطلع السبعينيات، طالبا في كلية الحقوق، عندما قام العقيد باعفاء طلاب السنة الاخيرة من اجراء امتحان التخرج ، واعطائهم الشهادة، جميعا مكافاة لهم عن نشاط ارضاه، واعتبره يستحق هذا الاستثناء، ولابد من الاشارة الى ان ان ظروف العمل جمعتني به عبر ثلاث فترات، اولاها عندما تم تعيينه مديرا للاعلام الخارجي ، اثناء عملي تابعا لادارته مستشارا اعلاميا في لندن ، وزارني هناك وقمت معه بزيارات الى الخارج، واجتماعات اعلامية احداها كان في باريس، ثم جمعني به لقاء عمل مرة ثانية عندما استلم وزارة الاعلام، وساعدني في الايفاد الى البعثة الدراسية لنيل الدكتوراه، ومرت اعوام كثيرة ، عمل اثناءها مديرا للامن الخارجي ، قبل ان يتركه للعمل سفيرا في القاهرة اثناء التحاقي بالعمل بها، وعملت معه في السفارة والمندوبية ، واستعان بي في التعرف على رموز العمل الثقافي في مصر، واعترت علاقتي به سحابة عكرت صفوها، في تلك الفترة ، بسبب الظروف الغامضة التي اختفى فيها الصديق الشهيد منصور الكيخيا، وكان حادثا مؤلما فاجعا، وكنت احضر حلقات نقاش وبحث عن الحقيقة بامل ان نرى خيط امل في هذه المحنة، وحدث ان حضرت لقاء في بيت صديقي محمد ابويصير حضره المعارض المعروف وقريب الاستاذ منصور نوري الكيخيا، ويبدو ان اهل السوء ساقوا كلاما عني الى ابراهيم البشاري ، ورايته عندما التقيت به في مكتبه، يامر السكرتير بان يمنع عنه المقابلات، وفتح معي موضوع حادث اختفاء منصور الكيخيا وقال انه فوجيء باختفاء الرجل كما فوجي غيره، وانه مهما راجت من شائعات تربطه بالحادث ، فانها شائعات لا علاقة لها بالحقيقة ، وقال انه سفير ، تحت الاضواء، والمتابعة والملاحقة ، وليس في وسعه ان يفعل مثل هذا العمل ، ولا في وسع دولته تكليفه بمثله ، وبدا واضحا انه يقول لي هذا الكلام ردا على كلام ساقه له احد الناس بانني كنت طرفا في حلقات نقاش تتهمه بالمشاركة في هذه الجريمة، وكان هذا الحادث سبب قطيعة حصلت بيني وبينه، فقد جاء قرار نقله الى البلاد ولم اعد اراه او التقي به ، الى ان كنت مرة احضر حفل استقبال لاحدى السفارات في صالة فندق المهاري، ورايته يتقدم نحوي مصافحا ومرحبا، ويقول انه اكتشف ان هناك عضوا في السفارة، سعى لتسميم علاقاته بالناس ، وساق له كلاما كاذبا عني وعن اخرين، بينما كان يكتب التقارير عنه ، وانه سعيد بهذا الاكتشاف التي يثبت صفاء الصداقة بيننا، وكان قد باشر العمل في سرت، فرايته يهاتفني، ويقول ان هناك مناسبة تستدعي ان احضر الى سرت وستكون مناسبة للسلام على العقيد، وقال انه دعا ايضا الصديق على فهمي خشيم وانه اعد لنا سيارة لتقلنا اليه ، وسنقيم حيث يقيم في فندق قصر المؤتمرات ، وسالته عن المناسبة، فقال ان هناك فريقيا اعلاميا تليفزيونيا قادما من القاهرة برئاسة الاعلامي الشهير حمدى قنديل ، لاجراء لقاء مع العقيد، واحتفاء بالضيف ارادها السيد ابراهم اكثر من مجرد زيارة ومقابلة صحفية، وانما حديث ومؤانسة وهدرزة مع رئيسه العقيد. وفعلا قضيت انا وزميلى الدكتور خشيم ثلاثة ايام في الفندق، لان العقيد كان يقيم في ذلك

الجزء من الصحراء المسمى العتعت، وكان مضيفنا ابراهيم يغيب النهار كله، وياتي ليلا ليقضى الامسية معنا ، ثم مع الفريق الاعلامي القاهري، وحضر معنا ذات يوم شاعر من تشاد، وكان في نفس الوقت فقيها ، وحافظا للشعر القديم ويرتدي العباءة الليبية التقليدية، وعرفنا انه هو نفسه الرجل الذي يرعى ابل العقيد، ويحب ان يدردش معه حول الابل في سهراته الصحراوية، وكان قد تقرر اجراء الحديث على الهواء، في مركز المدينة ، وفي قاعة المؤتمرات الشهيرة المسماة قاعة واجا دوجو، وذهبنا الى هناك لحضور اجرائها لكي نكمل السهرة كما اخبرنا السيد البشاري في امسية صحراوية مع العقيد ، واظن ان حمدي قنديل فوجيء بترتيبات اعدها العقيد لم تكن في حسابه ، لانه جاء ببعض العسكريين يتحدثون عن قصة مبتكرة حصلت منذ اربعين عاما عن مؤامرة لخطفه عندما كان ملازما يعد للثورة، وتم تمديد الحلقة لوقت اخر واخر، وانتهى الامر في ساعة متاخرة من الليل، وبدلا من السهرة في الصحراء انتهى الامر الى جلسة صغيرة بعد البرنامج، ولم اتبادل معه اي كلام خارج التحية والسؤال عن الصحة، وللحقيقة فانني لم اشعر اطلاقا، وفي اية لحظة من اللحظات، بوجود نقمة يحملها العقيد لمدير مكتبه السيد البشاري، الذي كان يقوم بعمل يتواصل فيه الليل مع النهار، ودون هدنة الا ساعات نومه ليلا، لا يعدم ان يتخللها احيانا هاتف طاريء او رسالة عاجلة، لان طبيعة العمل تقتضي ان يكون جاهزا لاية مفاجأة، بالاضافة الى اختلاف التوقيتات في العالم ، فاي تصريح لمسئول امريكي له علاقة بالبلاد لابد ان يصل الى رئيس القلم في اية ساعة من الليل . وعندما لقى الرجل حتفه في حادث سيارة اثناء توجهه من طرابلس الى سرت مع السائق، انتشرت اشاعات كثيرة تقول انه حادث مدبر، وان هناك ظروفا قادت الى قتله اشبه بتلك التي احاطت بمقتل احد معاوني العقيد واحد اقاربه ، في زمن سابق ، هو الضابط حسن اشكال.

وفي الطريق الى سرت ، وقبل مقتل البشاري، بعدة اسابيع ، مات زميل صحفي واعلامي، اسمه عبد اللطيف بوكر، كان كاتبا عاما لوزارة الاعلام ، ولم يكن له تاثير ولا حضور في الحلقات القريبة من العقيد، فهو رجل تقني مهني ، ومع ذلك فلم يخلو هذا الحادث ايضا من شبهات ولم يسلم من موجة اشاعات اعتبرته مدبرا، اما الحادث الذي لم يكن بعيدا عن هذه الحوادث وكان ثمة شبهة اكيدة في انه مدبر، وتم قبل ايام من حادث السيد بوكر، فقد كانت ضحيته فتاة جميلة جدا، ذات هواية ادبية اعلامية، وقد اهلتها هذه الهواية لان يختارها العقيد مديرة لوكالة الانباء الليبية، بذريعة انه وضعها في هذا المنصب، وفي تجاوز صريح لكل اللوائح والاعراف التي تمنح التراتبية الوظيفة الاحقية في الوصول الى المنصب، لسببين اثنين هما تشجيعه للشباب، وتشجيعه للمراة، ذهبت هذه الفتاة في حادث مريع، بعد خروجها من قصر الحاكم في سرت ، وفور مغادرة المدينة بعدة اميال، والذين شاهدواا الحادث قالوا ان السيارة تحولت الى كرة من الحديد المعجون، وفعلا تاسفت لوفاة الفتاة التي التقيت بها اكثر من مرة ، وكانت شديدة الاعتزاز بنفسها وبجمالها، مزهوة بانوثتها، ويبدو انها قاومت محاولة منه لاغتصابها، فكان جزاؤها هذا الحادث، وخرج الرأي العام يقول انه حادث مدبر بكل تاكيد.

حوادث تتثرى امامنا تعزز الرائ الرائج عن هذه الشراسة، التي طبع عليها الرجل، وهذاالاجتراء على القتل ، ولا ثقة لاحد يعمل في دولته وتحت رئاسته ، سواء كان قريبا او بعيدا ، صغيرا اوكبيرا ، رجلا او امراة، ولهذا فانني عندما اقول ان احدى اولوياتي وانا اعيش واعمل في ظل هذا الحاكم، واكثر دقة المسألة التي اعطيها الاولوية المطلقة هي ان ابقى على قيد الحياة، وحقيقة لم اكن اطمع في عهده ان يصيبني ثراء ولا احوز منصبا ولا احظى بجاه ، الا مطلب الامان، غير ذلك فلم

اسلك للثراء طريقه ، ولا اريده اذا جاء عن اي طريق لا احفظ فيه على كرامتي، قانع بمرتبي الشهري الذي يكفي حاجتي ، ومدرك انني استطيع تحت كل الظروف ، ورغم الحروب الغبية التي يشنها النظام ورئيسه على المبدعين، ان احقق طموحي الادبي، لان غايتي لم تكن تلك الشهرة التي يحاربها، وانما قدرتي على ان احقق ذاتي ، واعبر عن نفسي، واخرج للناس ثمار موهبتي، حتى اذا كان هناك من يعتبر النجاح الادبي جاها، فلا حاجة بي لاصنع هذا الجاه بعون حاكم ، وكنت دائما اتمثل قولا ، قاله الاستاذ عباس محمود العقاد، لرئيس حزب الوفد ، مصطفى النحاس،عند نشوب خصومة معه، قال له مشيرا الى قلمه ، والى مكانته الادبية، ان هذا القلم وهذه المكانة، هي انتخاب الهي ، لا احد يستطيع ان يأخذهما منه الا خالقه ، بعكس المرتبة التي يحتلها النحاس باشا، وهي رئيس الحزب ، فهي مرتبة انتخبته لها الهيئة الوفدية، وهي التي تستطيع ان تنزعها منه.

وكنت احتاج هذا الامان ، لكي اتفرغ لانجاز مشروعي الادبي، واصرف جهدي له في سلام، دون دخول في مناكفات او مكابدات تعطل هذه المهمة ، ورغم ذلك كله، ورغم بساطة المطلب ويسره ، فلم يكن احد يضمن شيئا تحت ظلال تلك الخيمة التي غطى بها العقيد الارض الليبية. ولا اعتقد انه حصل استهداف لحياتي، رغم ان فكرة مثل هذه راودتني، بعد تخلفي عن العودة، الى البلاد، بعد زحف موسى كوسة وفريق الزواحف من زملائه على السفارة وتقديمي الى المحاكمة، الا انه في الحقيقة كان انذارا وعقابا ولم يصل اطلاقا الى حد ان يكون تهديدا لحياتي، الا اذا استثنينا مرحلة الثورة التي انهت عهد العقيد والتي التحمت بها رغم المطاردات والتهديد بالقتل.

كنت مرتاحا لعمل صوري رمزي في المكتب الليبي في اثينا، مسئولا عن الجانب الصحفي واحيانا عن الجانب الثقافي الطلابي عندما خلى مكان العنصر المسئول عن ذلك، لا التزام فيه، بساعات حضور وانصراف ، ولا بضرورة الاقامة الدائمة في اثينا، فكنت اوزع وقتي بين بيت العائلة في القاهرة، وبين بيت استاجرته في منطقة جليفادا، يطل على بحر ايجا، العامر بالاساطير والملاحم التاريخية، حيث اجلس للقراءة والكتابة امام ذلك البحر وعوالمه المطمورة في سديم التاريخ والخيال الانساني، حيث استطعت هناك انجاز المقدار الاكبر من العمل الروائي المتعدد الاجزاء خرائط الروح، واسافر الى مختلف بلاد العالم للمساهمة في مناشط ثقافية ، غير تلك التي ساهمت بتقديمها في اثينا عن طريق اتحاد الادباء اليونانيين، وعن طريق المركز الثقافي المصري، وعن طريق الجامعة الامريكية هناك، وحدث ان حصل فراغ في منصب رئيس البعثة، وكان بدرجة قائم بالاعمال ، ووجدت الصديق عبد الرحمن شلقم يطلب مني ان اتولى المهمة، وكان عارفا برغبتي في ان اتجنب القيود التي يفرضها المنصب ، الا انه لابد من حل للمشكل، كما ارادها فرصة لتلبية الرغبة اليونانية لترفيع هذا المنصب الى درحة سفير، ليتكافا مع وجود سفير يوناني في ليبيا، وكان وجودي على راس البعثة فرصة لان يخاطب الجهات الاعلى لاصدار قرار الترفيع ،وعلمت فيما بعد ان اسمي ورد في مذكرة احتوت اكثر من اسم مرشحون لمنصب سفير او امين مكتب حسب قاموس العقيد، وبعد وقت جاء الرد من السلطات الاعلى التي تخضع لراي العقيد ومشورته، يحمل الموافقة على تعيين كل الاسماء في المنصب المطلوب، ما عدا اسمي فهو الوحيد الذي تم استثناؤه، من منصب السفير ، وكلهم اقل تاهيلا وخبرة ومدة خدمتهم اقل من مدتي ، ودراجتهم في السلم الوظيفي اقل من درجتي، وذكر لي الصديق شلقم ان من بين هؤلاء الذين تضمنتهم المذكرة، رجلا بدا حياته "سنفازا" يعني فرانا، يصنع الفطائر الشعبية، تم ترفيعه سفيرا، وكنت قابلت في الخارجية ،

شابا عمل معي في بداية عمله ضاربا على الالة الكاتبة عندما كنت مستشارا، وفوجئت به وقد اصبح سفيرا في دولة العقيد، وسالته عن كيف ومتى حدث هذا ، قال لي انه حدث عن طريق التصعيد. ولذلك لم اجد في هذا الاستثناء غرابة ، ولم اعتبره ظلما، فلن تضيف هذه التسمية شيئا جديدا لي ، وانا في الحقيقة كنت امارس الوظيفة حتى اذا نقص الاسم وامارسها باسلوب لم تعهده اطلاقا السفارات التي عملت بها ، وقد ظهر هذا الفرق عندما انتقلت الى رومانيا ، لان فرصة جاءت فقمت بعمل غير مسبوق ، كما قالت الصحافة الرومانية ، في تاريخ الديبلوماسية ، وجاء الاستثناء من ترفيعي سفيرا، يضع الخارجية الليبية في حرج مع دولة اليونان التي كانت تنتظر ان يرتفع التمثيل الليبي من قائم بالاعمال الى سفير، وتم البحث عن عنصر جديد لتعبئة هذا المنصب، واختيار امين سابق للرياضة، واستصدار قرار بتعيينه سفيرا في اليونان ، وتقرر نقلي الى بلد اخر هو رومانيا، لاستلم هناك منصب رئيس البعثة بدرجة قائم بالاعمال.

ورغم ان احدا لم يقم باستشارتي ، فقد كانت فيه مراعاة لخاطري ، في ان ابقى في هذا الفضاء الاوروبي، وهو انتقال لا يحمل تغييرا كبيرا، خاصة ان لمدينة بوخارست سمعة في انها باريس الصغيرة ، لان روحها ومزاجها ومظاهر الحياة فيها كبير الشبه بباريس عاصمة الثقافة في اوروبا ومدينة النور كما يسمونها. واحببت عملي في هذه المدينة ، واقبلت على الحياة والاندماج في الاوساط الثقافية، بحب وحماس، ووجدت مستشرقا رومانيا صديقا هو الدكتور نيقولا دوبريشان- أستاذ اللغة العربية فى جامعة بوخارست، الذي كان قد سبق ان ترجم بعضا من قصصي الى اللغة الرومانية، وكان على درجة من الاريحية والكرم ، بحيث قادني الى معرفة اوساط ثقافية واكاديمية واسهم في تحقيق التواصل بيني وبين طلائع المثقفين ، كذلك وجدت شاعرا وروائيا ومثقفا فلسطينيا متميزا هو الاستاذ منير مزيد ، يعيش هناك مع زوجته الرومانية، وقد حقق لنفسه حضورا فاعلا ومؤثرا في تلك الاساط ، علاوة على اتصال تحقق لي مع مجموعة اعلامية عربية تدير اذاعة في بوخارست باللغة العربية كنت ضيفا عليها عدة مرات ، وكان اللقاء الشهري الذي يتم مع السفراء العرب واللقاء الشهري الاخر الذي يتم مع السفراء الافارقة فرصة لتوسيع دائرة الصداقات والعلاقات التي تضمن الفعالية والنجاح.

العمل الذي قمت به، واعتبرته صحافة رومانيا عملا غير مسبوق، في تاريخ الديبولوماسية العاملة في العاصمة بوخارست، هو مشاركتي باعتباري سفيرا لليبيا في المهرجان العالمي للمسرح في مدينة سيبيو، التي اختيرت عاصمة ثقافية لاوروبا ، حيث قمت بالمشاركة في هذا المهرجان بمسرحية صورة قلمية لكاتب لم يكتب شيئا، وانقل هنا اسطرا مختصرة مما نشرته الصحف ومواقع الانترنت عن هذا العرض نقلاً عن موقع ليبيا اليوم:

(في بادرة غير مسبوقة في العالم العربي يقوم بها كاتب عربي بأداء جزء من سيرته على خشبة المسرح في مهرجان عالمي مجسداً بنفسه دور الكاتب في عرض شاركت في تقديمه خبرات عالمية قام الكاتب العربي الليبي الدكتور أحمد إبراهيم الفقيه بتقديم عرض متميز لمسرحيته التي تنتمي لمسرح الممثل الواحد صورة جانبية لكاتب لم يكتب شيئاً باللغة الإنجليزية في مهرجان المسرح العالمي في مدينة سيبيو وهو الذي يعتبر ثالث أكبر مهرجان عالمي للفنون المسرحية بعد مهرجان أدنبرة ومهرجان أوفينيون، حيث بلغ عدد الدول المشاركة خمسة وسبعين دولة، وقد قام بمساعدة الكاتب في هذا العرض الذي حظى بإعجاب جماهير وفناني المهرجان أكثر من خبرة

عالمية بينهم البروفسور سورين ستارتيلات وهو مخرج من هوليوود وأستاذ للسينما والمسرح الأمريكي من أصل روماني قام بالإشراف على العمل وإنتاجه فنياً والسيدة فاسيليكا كابا وهي أيضاً صاحبة خبرة في المجال السينمائي والمسرحية وروائية لها رواية نالت سمعة كبيرة هي وجبة للضباع وتقول عن مساهمتها في إخراج المسرحية:

صورة جانبية لكاتب لم يكتب شيئاً الهمتني كثيراً، إنها مسرحية بديعة من مسرحيات الممثل الواحد، حول حرية المبدعين ليقولوا ويبدعوا ما يشاؤون. الرقابة ليست شيئاً يقتصر على بعض البلاد العربية، إنها مثال لرمز لسوء المعاملة التي يلقاها المبدعون في كل زمان ومكان من العالم. نعم هناك بعض الحريات في بعض المجتمعات ولكنها مشروطة بما يتفق مع الخطوط العريضة للسياسة في تلك المجتمعات ولذلك فإن البحث عن الحرية مستمر ومتواصل.

إنها مسرحية عن تحرير العقل والروح، وحق الإنسان في الإكتشاف والمغامرة والبحث عن الافكار الجديدة مهما كانت مخالفة للسائد، إنها أيضاً حول حقنا في الإستمتاع بوجودنا دون أن نقدم اعتذاراً عن ذلك. لقد استمتعت كثيراً بإخراج هذه المسرحية. أحمد الفقيه أحد عظماء الكتاب كما هو معروف، لكنه أيضاً ممثل مليء بالدفء والعاطفة "

اما الدكتور أحمد إبراهيم الفقيه الذي قام بتأليف وأداء هذا العمل على المسرح فقد عبر عن سعادته بهذه التجربة التي أعادته إلى المجال الذي أحبه كثيراً ومارسه في باكر شبابه منذ أن كان مديراً لفرقة المسرح الجديد في ستينيات القرن الماضي ثم مديراً للمعهد الوطني للتمثيل والموسيقى في طرابلس في مطلع السبعينيات عندما قام بإخراج وتمثيل عدد من المسرحيات ويجد في مهمته كرئيس لبعثة بلاده في رومانيا وممثلاً لها في المجال السياسي لا يتعارض مع اعتبار نفسه سفيراً لحضارة أمته العربية وثقافة بلاده وتراث أهله وحلقة وصل مع ثقافة عظيمة مثل الثقافة في رومانيا التي تشتهر بعراقة وثراء ما لديها من إبداع وفنون وتراث تراكم عبر الأجيال في مجالات الموسيقى والغناء والتمثيل والأدب والفنون التشكيلية، وقد وجد تشجيعاً في سفارته هذه من كل من التقى بهم من قيادات رومانيا بدءاً من الرئيس إلى وزير الخارجية إلى وزير الثقافة إلى المبدعين والكتاب، وقد عبر كثير ممن حضروا العرض عن انبهارهم بهذا العرض، ويقول المصور الصحفي الروماني الذي أتاحت له مهنته متابعة أغلب العروض السيد سكوت استونكا إن مسرحية صورة الكاتب الذي لم يكتب شيئاً كانت أفضل عمل تمثيلي تم تقديمه في مهرجان هذا العام مقارنة بكل العروض التمثيلية الأخرى التي تعتمد في تسويغ نفسها على الرقص والموسيقى)

ونتيجة للطبيعة الخاصة للشعب الروماني وحساسيته تجاه الفنون، فقد اكسبتني هذه المشاركة، مكانة خاصة في الاوساط الثقافية والسياسية والديبلوماسية، وجلبت للبعثة ولليبيا صيتا طيبا في الاعلام، وصلت اصداؤه الى ليبيا اذ ذكر لي اصدقاء بينهم الزميل الكاتب ابراهيم النجمي، انه كان يتابع هذه البرامج التي تتحدث عن الوجه الحضاري والثقافي لليبيا في قنوات رومانية متخصصة في الجانب الثقافي انطلاقا من هذا العرض المسرحي الذي قدمته في مهرجان سيبيو. وكان هذا الاهتمام بليبيا وثقافتها مرشحا لجذب مزيد من الاهتمام، الا ان رأيا غريبا،ارتجاليا، جاء يفرض ذاته على امانة الخارجية الليبية، يقضى بان يتم الغاء التمثيل الديبلوماسي الليبي في اغلب دول اوروبا الشرقية ، واستبداله بمزيد من

التوسع وتاسيس القنصليات في الدول الافريقية، وشمل هذا الالغاء سفارات لها تاريخ عريق وتاسست منذ ما قبل نصف قرن، من بينها السفارة الليبية في براغ وبوخارست. وحاولت اثناء زيارة الى طرابلس ان اعرف سبب هذا الالغاء ومبرراته، والتمست اجابة من الامين السيد شلقم، فوجدته متدمرا من مثل هذا التوجيه، لا يملك له حلا ولا يستطيع له رفضا، وقلت بانني قد اجد تفسيرا له عند امين مؤتمر الشعب العام ، الشيخ الزناتي، فلعله على دراية بما حدث، خاصة وان امين الخارجية ورئيس الحكومة يشكيان من طغيان سلطة هذه الامانة عليهما، فوجدته هو ايضا يراه قرارا ارتجاليا لم تسبقه اية دراسة ولم تكن له يد في اصداره او التصديق عليه، ورايت اخرين يعزون القرار الى سيطرة الفكرة الافريقية على ذهن العقيد، واعتبارها القاعدة الاساسية للزعامة العالمية التي ينشدها، وكان اكثر الناس صراحة ومباشرة معي ، هو نائب امين الخارجية الصديق محمد سيالة، الذي قال ان التعليمات جاءت من سيف الاسلام ، وانه اتصل بالخارجية مفوضا من والده لمتابعة تطبيق هذه التعليمات، التي لم يتم فيها اخذ راي الخارجية، ولا اشراكها في اتخاذ القرار. كنت قد افصحت للسيد شلقم عن رغبتي في الاستمرار، لانني زرعت شيئا، واراه الان ينمو ويؤتي ثماره، وقال ان الغاء السفارة لا يلغي التمثيل الذي ستتولاه سفارة في المنطقة، وسفير غير مقيم ، قد يكون سفيرنا في روما مثلا، ويمكن في حالة وجود مبني تملكه ليبيا ولا يقتضي صرف ميزانية ان تبقى نائبا لهذا الممثل غير المقيم، وللاسف فقد كان هناك مثل هذا المبنى، ولكن موجة الزاحفين ، اعطت نفسها حق التخريب والتدمير والتصرف في هذه الممتلكات، وكما حدث لمبنى السفارة في اثينا، الذى اضاعه الزاحفون بسبب التربح والفساد، فقد اضاعوا بيتا مماثلا له في رومانيا بسبب التربح والفساد، فقد كان مثلل هذا البيب في عهد سيطرة الحزب الشيوعي يساوي مبلغا تضاعف الف مرة بعد انتهاء ذلك الحكم، ولم يكن غريبا ان يكون احد الزاحفين وجد صفقة ضخمة تضمن له وضع الفرق بين الثمن القديم والثمن الجديد في جيبه، وقد تناوب على السفارة كثيرون ، بينهم صديق فنان ترك اثرا طيبا، وصداقات واسعة ، هو الصديق عبد الحميد فرحات الذي انزهه عن ارتكاب اي فساد.

بل ان بيع البيت وما شابه من شبهات اتحدث عنها على سبيل التخمين ، لانني لم اكن محققا جنائيا، يبحث في ماضي الفساد في السفارات التي مررت بها، وكان همي هو ان امنع وجود فساد اثناء وجودي مسئولا فيها ، لان ذلك ما اقدر عليه ،اذا قدرت ، لان الفاسدون لا يتوقفون عن المحاولة ،والتزوير والتربح يطال احيانا اشياء صغيرة يتصل بنفقات علاج الموظف الذي يزور فواتير الدواء والعلاج ليتقاضي مالا لا حق له فيه، وكان يحدث مثل هذا الفساد، الذي نكتفي فيه ، بابطال الفاتورة ، وانذار الموظف ، ولكن لم يصل الامر الى الدفع به للمحاكمة او الغاء مهمته في الخارج. وطبعا كنت اسمع عن حالات فساد، غالبا ما تكون صادرة عن عناصر ثورية ترى انها تتمتع بحماية من مكتب الاتصال، وانها فوق المحاسبة وفوق القانون، ويصبح الفساد اسلوب تعامل وحياة، في بعثة يكون رئيسها فاسدا، لانهم يقتدون به ويشكلون معه شبكة ، تتوطأ مع بعضها البعض، وكنت احضر في مكتب امين الخارجية ، حديثا تناول الفساد، وضرب الامين نفسه مثالا، بحالة فساد قام بها سفير ليبيا في باريس، فقد وجد في صالون البيت الذي يسكنه، اي بيت السفير ، صالونات من الطابع الكلاسيكي مشتراة منذ عهد قديم، وصارت لهذه الصالونات قيمة اثرية ، وارتفعت اثمانها الى ارقام كبيرة، ورای ان هناك صفقة تضمن له ثروة طويلة، يستطيع ان يقوم بها في تكتم وسرية، ولن يعرف بها احد، وجاء باحد الخبراء في الانتيكات ، لتقييم الصالونات ، واستبدالها بصالونات حديثة لها نفس الشكل ، ولكن باثمان زهيدة لا تساوي معشار ما سوف يتقاضاه، وفعلا باع الاثاث الثمين واشترى الرخيص ووضع الفرق في رصيده ولكن اخبار

الصفقة وصلت الى الخارجية، التي ارسلت بعثة للتحقيق، وتم ضبط السفير الفاسد في حالة تلبس، وصارت فضيحة تدل على مدى حجم الفساد وتداعياته في الداخل والخارج.

وبغض النظر عن الجانب الشخصي في قرار الغاء مجموعة من السفارات ، فقد كنت اشعر بالاسف لاسلوب اتخاذ القرار في ليبيا، وكيفية ان تستجيب له المؤسسات المتخصصة التي تعرف مدى الخطأ والخطل فيه، دون ان تحرك ساكنا، بل ان قرارا كهذا لم يصل الى الصحافة، او يصبح قضية عامة تحظى بالنقاش بين اهل الاختصاص، نزة للسيد الحاكم ،او لابنه واذا بها قرار تتبدل من اجله سياسات ويتدخل في حياة ومصائر افراد، وهو قائم على الارتجال والعشوائية، وليته مثلا جاء في اطار ترشيد الانفاق او تقليص التمثيل الديبلوماسي بناء على خطة مدروسة وتوزان بين الايجابيات والسلبيات وخبراء يعكفون على ذلك، علما بان لليبيا تاريخ عريق في العمل الديبلوماسي ، يمتد الى عهد يوسف باشا القرهمانلي وقناصله ومبعوثيه مثل محمد الدغيس وبيت المال وغيرهما، وكان لهذا التراث الديبلوماسي اثره في بداية تاسيس الدولة الليبية ، وانشاء البعثاث، التي عمدت الى شراء مقرات السفارات وبيوت السفراء، في تقليد لم تستطع حكومات العهد الجديد مجاراته .

ودون ان استشير احدا من اصدقائي في الحراك الديبلوماسي والسياسي، عمدت الى القيام بمحاولة شخصية تهدف الى الابقاء على سفارة ليبيا في رومانيا مستمرة في عملها، لا يطالها الالغاء، وكنت اثناء تقليبي لبعض ملفات السفارة، وما احتوته من اوراق سابقة على التحاقي بالعمل بها، قد لمحت رسالة تتحدث عن اقتراح زيارة يقوم بها الرئيس الروماني الى ليبيا، لم يحصل بشانها اي اجراء، تم التغاضي عنها، وطالها الاهمال والنسيان، فقررت ان اجعل من هذه الورقة نقطة انطلاق لهجوم معاكس، يحفظ للسفارة مكانها على خريطة العمل الخارجي الليبي، وان احرك موضوع الزيارة من جديد، لاصل بالرئيس الروماني السيد بوباسكو، الى خيمة العقيد في باب العزيزية، وفعلا نجحت في خلق حراك اعاد وضع الزيارة على الاجندة، وقبل موعد الزيارة ، سافرت الى طرابلس لاكون في استقباله هناك، وجاء مندوب العقيد، ووقفت بجواره مع امين الخارجية تحت سلم الطائرة، وكان اول الهابطين الرئيس الروماني ، فسألني الاثنان ان كان هو نفسه الرئيس او مدير مراسمه، لانهما لم يكونا يعرفانه، واثناء جلوسنا معه في صالة الشرف استعداد للذهاب به الى باب العزيزية، لاستقباله هناك من طرف العقيد، همس لي امين الخارجية، برأيه الا اذهب معهم الى هناك، لانه لا يضمن ان العقيد اذا راني قد يقول لي كلمة تربك الموقف، كان يقول لي مستغربا ماذا تفعل في رومانيا؟، وعملا بهذه النصيحة لم اذهب الى باب العزيزية، وانصرفت الى زيارة الاهل والاصدقاء في طرابلس، ولم اتابع الزيارة الا بشكل متقطع ، وعرفت انه كان صعبا من الناحية البروتوكولية ان يفاتح الرئيس الروماني صنوه الليبي في العدول عن قراره الخاص بالسفارة، الا ان الوفد المرافق له اثار قضية مستقبل التبادل الديبلوماسي مع المستويات الادنى من القيادة الليبية، وكان الجواب ان التركيز في المرحلة القادمة سيكون على العمل التجاري والاقتصادي، وان الهيئة الليبية للاستثمار الخارجي ، ستفتح فرعا لها في بوخارست، وان العلاقات مستمرة ، وسيكون هناك سفير غير مقيم، ومكتب قنصلي للاهتمام بالاجراءات القنصلية. وانتهت زيارة الرئيس دون ان تحقق ما تأملت تحقيقه من ورائها، ودون ان تؤدي الى اي تطوير ايجابي في العلاقات بين البلدين، ولم يكن التردد من رومانيا، فقد كانت مقبلة على التعاون مع ليبيا، كما اوضح لي الرئيس في المرات التي رأيته فيها، واوضح لي ذلك وزير الخارجية ووزير الثقافة، ورغم وجود اشاعة كبيرة ،

لم يقم احد بتبديدها، تقول ان العقيد ارسل مرتزقة من جنوده ، لمعاونة الطاغية شاوشيسكو، في حربه ضد شعبه، قبل القبض عليه واعدامه، فقد تجاوزت الدولة الجديدة هذه الاشاعة، واعتبرتها كانها لم تكن، خاصة وان معركة الطاغية الروماني مع شعبه كانت قصيرة، ولم يكن ثمة اثر او تداعيات لهذا العون الليبي، لو كان حقا قد حصل. وباعتبار ليبيا بلدا بتروليا ، فقد كان مهما المحافظة على علاقة قوية معها، بل لم يكن هناك مانع من البناء فوق تراث شاوشيسكو نفسه ، وكانت هناك اصوات تطالب بالا تهمل رومانيا ارث العلاقات الخارجية للطاغية، فالخلاف معه كان حول سياساته الداخلية، دون انكار لما حققه من نجاحات في الخارج، يمكن ان تكون اساسا لعلاقات جديدة.

كان لابد مما ليس منه بد، فقد حان الوقت لارسال بعثة لتصفية السفارة، وتسليم المقر ،وتخزين السجلات والمعدات والاثاث، واختيار عنصر كان يعمل رئيسا لقسم الجوازات في المراسم لتاجير شقة من غرفة اوغرفتين للقيام باعمال القنصلية، وكان ملخص ما قاله لي امين الخارجية ، هو ان قرار الغاء السفارة وابقائها ، قرار سيادي اكبر منه واكبر مني، ويجب التركيز فيما هو في استطاعتنا، وهو التفكير في المكان الانسب الذي يمكن ان انتقل اليه، واشرت الى وجود اسرتي في القاهرة، والانسب هو مكان لا يبعد عن مكان الاسرة ، دون ان اشير الى القاهرة، لانني اعرف ان هناك فيتو، من جهة ما على وجودي في بعض الاماكن والعواصم، ورايته يقترح الانتقال الى سفارتنا في القاهرة، ليس كرئيس للبعثة وانما كموظف ، ورحبت بفكرة العمل في القاهرة، ولكن في المندوبية الليبية لدى الجامعة العربية ، عضوا في الوفد الليبي ،مع اعضاء من السفراء السابقين، ورغم وجود بعض التحفظات على ما يسند لي من مهام ، تاتي في اطار خشية العقيد من ان يكون لي نفوذ على الاعلام ، يسهم في تكبير اسمي او اعطائي نفوذا يضيف رصيدا الى مكانتي، وكان المندوب الصديق عبد المنعم الهوني قد اعطاني مكتبا، وامر بسيارة تكون تحت امري، وبعض الصلاحيات، ثم تلقى تعليمات من طرابلس تقضي بان يسحب مني المكتب، والسيارة، والصلاحيات، وفقا كما قلت سابقا لمربع اراد راس النظام ان يبقيني فيه، ومع ذلك، كنت قابلا بالوضع الجديد، شاعرا بالامتنان لمن ساعدني على ان اعمل في المكان الذي استقرت فيه اسرتي، وفي منصب ومرتب ديبوماسي، ويتيح لي وقتا كافيا للمضي في مواصلة اثراء وتنمية مشروعي الادبي.

احداث كثيرة حصلت، اثناء سنوات الابتعاث في مهمات ديبلوماسية في اليونان ورومانيا ومصر، وقبلها في لندن والرباط وباريس وبيروت ، سيكون لها جزءا خاصا يتحدث عن حياتي خارج البلاد، وما يهمني هنا هو ما يتصل بتعاملي مع الشأن المحلي على المستوى السياسي اولا ، وربما الثقافي والاجتماعي، ولابد من الاشارة ، هنا على الصعيد العائلي والاجتماعي، انني اقمت ثلاثة اعراس في طرابلس خلال هذه الفترة، لاثنين من اولادي واختهم، بدءا بابني البكر ابراهيم، ثم اخته لمياء، ثم اخيهما هشام، واقول هنا انني لم اتدخل اطلاقا في اختيارت الابناء، ولم امارس اي نوع من التوصية عليهم او اقوم بما يمكن ان يكون توجيها ، بحجة القيام بدور الاب في فرض ما يراه صوابا وما يظنه يخدم مصلحة الابناء. تركت لكل منهم حقه في اختيار حياته واسلوب ادارة هذه الحياة لحظة استقلاله عن بيت العائلة، او اختيار شريك او شريكة الحياة. حتى بعد مرحلة اتخاذ القرار بالارتباط، فانني غالبا ما العب دورا هامشيا فيما يلي ذلك من احداث، اقرب الى دور المتفرج، واجد نفسي عاجزا عن المشاركة فيما يتم من مداولات بين العائلات عن التفاصيل والترتيبات والاشتراطات والالتزامات التي تدور بينهم،

لانني لا اعرفها ولم احاول ان اعرفها، واترك لغيري من رجال العائلة الانابة عني في مثل هذه المناقشات. ويقتصر دوري بالتاكيد على محاولة تدبير ميزانية الفرح، والايفاء بهذا الجانب الذي اتحمله كاملا او اجد عند الابن ما يمكن ان يكون قد وضعه جانبا من مدخراته لمثل هذه المناسبة. وهذا الموقف الذي يتجنب التدخل في قرارات الابناء، لم يكن الا استمرارا لمواقف اخرى، جاءت في سياق تربوي، يعطي الابناء حرية الاهتداء بانفسهم الى ما يرونه اصلح لهم، دون ان ابخل باي نصح اذا جاء هذا الابن او جاءت هذه الابنة تطلبه مني، عدا ذلك فانني اترك لهم اكبر مساحة في اتخاذ قراراتهم، واقوم بدوري في اضيق الحدود، التي يصبح ما دونها تفريطا واهمالا، وفي سبيل اداء هذا الدور كنت اكتفي بالاقناع والنقاش، وكنت منذ ان باشرت انشاء اسرة وبناء بيت ، قد اتخذت قرارا هو الا استخدم الضرب ، مهما كان هينا او بسيطا ، وباي شكل من اشكاله ، وسيلة للتربية، والا امد يدي بالضرب لطفل من اطفالي لاي سبب وفي اية مناسبة، ومهما اخطأ او اساء التصرف، والا يحدث ذلك اطلاقا في اية مرحلة من مراحل عمره، ولهذا فان اولادي الثلاثة وابنتاي الاثنتان ، لم يحدث اطلاقا ان مددت يدي نحو احد منهم ، ضربا، حتى لو كان نقرا على الاصابع بقلم رصاص، مدركا ان ما يصل اليه اباء اخرون بالضرب، استطيع تحقيقه بالنقاش والاقناع ، على يقين من ان الطفل حتى في اولى مراجل الطفولة له عقل يمكن ان يستوعب ويفهم، كذلك دراستهم، فلم افعل ما يفعله اباء اخرون، يقومون بتوجيه ابنائهم الى نوع يحبونه من الدراسة، وقد رأيت كوارث تحدث، تنتيجة لمثل هذا الارغام الذي يصر عليه بعض الاباء، ظنا منهم انهم يعرفون مصلحة اولادهم وبناتهم اكثر منهم، واعرف حالات وصلت ببعض الابناء والبنات الى المرض النفسي لان لهم ولهن اباء ، فرضوا عليهم دراسة الطب، وكان هذا الاب قد سعى بطرق شتى مشروعة اوغير مشروعة لضمان ان يحصل ابنه او ابنته على معدلات عالية في درجات النجاح للشهادة الثانوية، حيث يكون الانتساب لكلية الطب هو الامل المنشود الذي تريده العائلة ، وتدفع ابنها او ابنتها نحوه، ولكن هذا الابن او هذه الابنة، قد لايكونا من محبي هذه النوع من الدراسة، ولا يراها تتناسب مع نفسية او عقلية كل منهما ، من هنا ياتي الارغام بنتائجه الكارثية. ولم تكن مثل هذه الحالة هي ما دفعني لان انآى بنفسي عن هذا التدخل، ولكنه جزء من فلسفة تربوية انتهجتها، ورايتها اكثر راحة لابنائي واكثر راحة لي ايضا. لم اكن افعل ما يفعله اباء اخرون يحرصون على القيام بمتابعة دقيقة لرحلة ابنائهم الدراسية ، والذهاب الى الفصول لتفقد حالاتهم، والمشاركة في مجالس الاباء ، وخلق علاقات مع المدرسين والمدرسات، الى اخر هذا النوع من المتابعة، وهو امر جيد ، لا اعتراض عليه، ولكن مهنة الكتابة التي تطلب مني تخصيص وقت لها، فوق الوقت الذي ياكله عملي الوظيفي الذي اكسب منه رزقا، لا يترك لي فائضا من الوقت ، ومع ذلك كنت سخيا بجزء من هذا الفائض امنحه لاسرتي، فلا اتخلف مثلا عن حضور وجبات الطعام الثلاثة معهم، الا اذا كنت على سفر، ولا اذخر جهدا في اخذهم الى الملاعب والملاهي والحدائق، ولم تمض عطلة صيف دون ترتيب لقضائها في منتجع بحري او خارج البلاد، وعلاوة على ما كان يوفره العمل في الخارج، من فرص السفر الى مختلف البلاد، واكتشاف خبرة في الحياة مع مجتمعات اخرى، تعين الاولاد على النضوج، واكتساب القدرة على المقارنة، والخبرة باساليب المعيشة في بلاد العالم الاخرى ، وكنت اترك لام الاولاد، متابعتهم في مراحل التعليم الاولوية، والالتحاق بمجالس الاباء ومراجعة المدرسة، ثم الاعتماد على انفسهم في مراحل الدراسة الجامعية، وقد فازوا بتعليم لم افز به انا ولم تفز به امهم، فهم جميعا كثر منها ومني تاهيلا، ولهذا يجب ان يكونوا اكثر منها ومني قدرة على فهم متطلبات الدراسة في المراحل العالية. اما جوهر واساس هذه الفلسفة التربوية،

فهو جوهر واساس في منتهى اليسر والبساطة، وطالما انني اخترت الا افرض فكرى ومنهجي في الحياة وما اراه من مثل ومباديء وما اؤمن به من قيم وسلوكيات فرضا بالارغام والجبر، فقد كان البديل الوحيد الذي بقى بين يدي ، هو ان اجعل من نفسي مثلا وقدوة ، بما استيطع تطبيقه على نفسي من هذه القيم والمثل والمباديء والاخلاقيات، واحرص حرصا كاملا الا اعد وعدا لا افي به، ولا اتصرف امامهم تصرفا، واحاول فيما بعد ان امنعهم منه ، مثل اباء يدمنون التدخين ويغضبون عندما يجدون الابن ممسكا بسيجارة، او يسال ابنه ان يكذب وهو يرد على الهاتف ليقول لصوت يطلب الحديث مع والده ، ان والولد ليس موجودا، ثم يتالم لان ابنه تعلم الكذب واخفاء الحقائق عنه . واقول بعد ذلك انني في تمام الرضا على النتائج التي اوصلني اليها هذا الاسلوب، وهذا المنهج في التربية مع اولادي وبناتي واسرتي، واضعين في الاعتبار ان هناك دائما نوعا من الضعف الانساني الذي قد لا يصلح قياسه بالمساطر والبراجل ، ونقطة اخرى ان تربية الاولاد ، ليست دائما احتكارا للاب، وربما كلما تقدم بنا العصر وفتوحاته ، كلما ازدادت هذه القوى التي تشارك الاب وتشارك الام وتشارك بقية افراد الاسرة، وتشارك المدرسة، في هذه التربية ،هناك دائما شارع له تاثيره ، في عالم الامس ، ولكن في عالم اليوم فان هناك هذه الوسائط الاعلامية التي تخرج عن نطاق السيطرة والتحكم والرقابة ، مهما كانت قوية، لتمارس اليوم دورا اكبر من دور الاسرة في المجتمع التقليدي في هذه التربية ، وهي تزداد مع الايام قوة تاثيرا.

الاعراس الثلاثة التي اقمناها، جرت في القاعة الخاصة بالافراح في الفندق الكبير بطرابلس، خاصة حفل عقد القران، وقد كان استاذنا وصديقنا الراحل الكبير محمود صبحي يشرفني بالمشاركة في تحرير وتلاوة العقد، واقترح ذات مرة بعض اصدقائي الفنانين الشعبيين، من المنضوين تحت لواء فرقة الفنون الشعبية ، المشاركة في هذا الحفل ، كنوع من المجاملة والتعبير عن الصداقة، ولم يكن من تقاليد حفلات عقد القران في الفنادق اقامة حفل فني تتخلل المدائح وقراءة العقد، ولكنني استجابة لالحاح هؤلاء الاصدقاء، رضيت بادخال هذا التقليد الى حفلات عقد القران الفندقية، وجاء صديقنا الراحل صالح العجيلي بفرقة العجيلي الشهيرة بعازفيها وراقصيها واحيت الحفل بعد الفراغ من قراءة العقد، فكان تقليدا جديدا، تلقفه فيما بعد بعض اصحاب الاعراس، وجاءوا يحييونه بفرقة مماثلة على نفس الطريقة. وكعادة الليبيين الذين يحبون الاحتفاء بالصاحب ، حتى لو لم يكن في دائرة سياسة مطابقة لهم ، فقد كانت هذه الاعراس مناسبة تتجلى فيها التقاليد الاصيلة لليبيا عندما يلتقى اناس من مختلف الفئات، بعضهم كان يتجنب الاخر ، ولكن في مثل هذه المناسبة كانوا يلتقون، وكان صديقا مثل الرائد جلود قد ناى بنفسه عن الاختلاط بالرسميين ، ولكنه كان يفاجيء ، وقد حضر هذه الاعراس الثلاثة، باقبال كل هؤلاء الذين كانوا يخشون الاختلاط به ، لانها مناسبات يزول فيها الحرج، وتسقط فيها الحواجز، بما في ذلك الحاجز السياسي الذي يرهبه الناس.

زياراتي الى ليبيا خلال اقامتي في الخارج، لم تنقطع اطلاقا، وارتبطت دائما بانشغالات ثقافية كان اهمها في المراحل الاولي، انشغالي بانشطة رابطة الادباء والكتاب، التي ورد ذكرها، وانشطة ثقافية اخرى مثل المشاركة في لجان وحضور مهرجانات، وتركزت في المراحل الاخيرة في المشاركة في تقديم المحاضرات الثقافية بينها، عدة مرات في المركز الثقافي الثونسي، ومرات اخرى في المركز الثقافي المصري، ومرات متعددة في المركز الثقافي السوداني، وكان الغريب حقا ان نجد مركز منكفيا على نفسه وعلى مضغ افكاره العقيمة ، بسبب تخصصه في دراسات كتاب العقيد المسمى الكتاب الاخضر، ينفتح في

مرحلته الاخيرة ، ولعلها توافقت مع ذلك الحراك السياسي الذي اراد ان يعطي النظام مظهرا جديدا او نيو لوك كما تسمى، والتي تاتي في سياق ما اسموه ليبيا الغد، وارضاء واستقطاب بعض المعارضين، فاذا بهذا المركز ينشيء موسما للمحاضرات لا علاقة لها بتخصصه في الكتاب الذي يحمل اسمه، ويدعو لالقاء هذه المحاضرات عددا من المفكرين بينهم الامريكي الشهير فوكوياما، صاحب نظرية نهاية التاريخ، ومفكر عالمي من اهل اليسار هو طارق علي، ومن مصر رجل من اهل الفكر الاسلامي التنويري ، شقيق حسن البنا، ونقيضه الاستاذ جمال البنا، وولابد من القول انني تجنبت ان اكون جزءا من انشطة هذا المركز منذ انشائه، رغم الدعوات التي جاءت من اصدقاء اعزاء وقريبين من نفسي تولوا ادارته مثل المرحوم احمد الشحاتي والصديق ابراهيم ابجاد ، ومن جاء بعدهم ، فلم اشارك ولو مرة واحدة وخلال كل العقود التي كان فيها هذا المركز سلطة كبرى، داخل سلطة اكبر، في ندواته الكثيرة داخل ليبيا وخارجها، رغم ما يتوفر من اغراءات السفر المرفه لمختلف بقاع العالم، في وقت كان مثل هذا السفر الى الخارج على حساب الدولة يعني دخلا اضافيا، وفرصة لادخال الفرح على الاهل لانك تستطيع جلب سلع كان يفتقدها السوق الليبي، مثل جوارب للاطفال، غير اظهار الولاء، والحصول على الرضا، والاقامة الفاخرة في الفنادق الكبرى.
وجاء هذا البرنامج مختلفا، يسمح بمحاضرات لا علاقة لها بالكتاب الاخضر كما اسماه صاحبه ، ولم يقتصر على مفكري الخارج، وانما افسحوا مجالا لعدد من العناصر الليبية، ولبيت دعوة لالقاء ثلاث محاضرات في المركز اتبعتها بمحاضرتين في مركزين ثقافيين، وقد كتبت مقالا للاهرام المصرية، اجملت فيه هذه المناشط وجئت فيه على ذكرهذه المحاضرات واخرى القيتها في المركز المصري ثم المركزالسوداني ومشاركة في مؤتمر بالجزائر على هذا النحو:
دعاني هذا المركز لالقاء ثلاث محاضرات متتالية في موسمه لهذا العام ، بدأتها بمحاضرة ذات صبغة ذاتية تمركزت حول الظروف والخلفيات وراء كتابتي لاطول رواية في تاريخ الادب العربي الحديث هي "خرائط الروح" ، حيث اوضحت ان كتابة الرواية جاء استجابة لرغبة روادتني لفترة طويلة في الانتقال بالرواية العربية الى مرحلة الرواية النهر ، ذات النفس الملحمي والرصد الابداعي لتحولات تاريخية واجتماعية ، لا تقدر على التعامل معها بشمول واحاطة الا الرواية ، ورغم انها رواية اتكأت على التاريخ في كثير من احداثها ،الا انها لم تكن رواية تاريخية ، وانما رواية تهتم في اجزائها الاثنى عشر بالعلاقات الانسانية والتأريخ للعواطف والانفعالات والمشاعر من خلال بناء شخصيات من الخيال ، قبل الاهتمام بنقل التاريخ واحداثه الحقيقية ، وتصوير النفس البشرية وسبر اغوارها بمثل ما يشير العنوان الذي حدد بشكل قاطع هدف الرواية عندما اسماها "خرائط الروح" فهي رحلة مع هذه الروح في مختلف منعطفاتها ومعارجها وتصوير لها في مختلف اقانيمها ومنازلها وتتبع لرحلتها سقوطا وارتفاعا وضعفا وقوة وانتصارا وانكسارا ، ومجدا وهوانا.

ـ المحاضرة الثانية في نفس المركز كانت عن اقباس من التاريخ الثقافي الليبي ، التي لمعت في مرحلة حالكة الظلام من تاريخ البلاد ، هي فترة الاستعمار الايطالي التي امتدت لاكثر من ثلاثين عاما ، أي منذ بدء العقد الثاني في القرن العشرين الى مطلع العقد الخامس منه ، وهي صفحة مطوية ومنسية لان التركيز كله ذهب الى الحديث عن مخازي الاحتلال وجرائم جيش الغزو والمقاومة الباسلة التي ابداها اهل البلاد ، ولم ينتبه المؤرخون الى اهمية المقاومة الثقافية التي رافقت المقاومة المسلحة ، وجهود كبيرة وكثيرة في مجالات فنية وادبية انجزها عدد من المثقفين الليبيين ، اصدروا الصحف وانشأوا المدارس وفصول محو الامية وقاموا بتأسيس النوادي الادبية والفرق المسرحية والموسيقية وابدعوا في مجالات الشعر والقصة والمسرحية والتلحين والغناء والزجل ، وبرزت اسماء ادباء وكتاب وفنانين جئت على ذكرها اسما اسما مما لا يتسع له المقام هنا.

ـ وكانت المحاضرة الثالثة عن العلاقة بين العرب والغرب ، مستوحيا تجربتي الشخصية وخبرتي الخاصة في هذا المجال مستشهدا بوقائع وشواهد من السنوات التي عشتها منخرطا في العمل على بناء الجسور بين الثقافتين العربية والغربية ، خاصة في بريطانيا التي عملت بها مستشارا اعلاميا تابعا لسفارة بلادي ، ورئيسا لمؤسسة خيرية تعنى بتقديم الوجه الحضاري للامة العربية الى شعوب الغرب، حيث اشرت الى ان الصورة لم تكن دائما قاتمة ، وان هناك قوى غربية عملت الى جانبنا ، وكانت حريصة على التعامل بنزاهة وامانة وانصاف مع الثقافة العربية وبذلت جهدا على ان تصل وجهة النظر العربية الى الرأي العالم الغربي واشرت الى عدد من الشواهد التي عرفها تاريخ هذه العلاقة مثل مهرجان العالم الاسلامي في لندن في منتصف السبعينيات ، ومؤسسات النشر التي اعتنت بنشر الكتاب العربي مترجما الى اللغة الانجليزية مثل كوارتيت وهاينمان وغيرهما ، والقوى التي عملت في فرنسا على انشاء معهد العالم العربي ، ودون ان ننسى جهودا عربية ياتي في مقدمتها جهد المراكز الثقافية المصرية في لندن وباريس واثينا والاكاديمية المصرية في روما ، التي نجحت في استقطاب جهود المناصرين والمؤيدين للقضايا العربية ، وخوض معركة اعلاء القيم الانسانية النبيلة التي تتصل بالتبادل الثقافي والتعاون السلمي بين الشعوب واثبات ان الحضارة تكامل وتفاعل وتواصل وليس على الاطلاق صراعا واحترابا .

ـ ودعاني المركز الثقافي المصري بطرابلس للمشاركة بمحاضرة في موسمه الثقافي ارادها ان تكون حول فنون السرد الحديثه وتاريخها في ليبيا حيث عرجت على الارهاصات الاولى التي توافقت مع مثيلاتها في العالم العربي لتاسيس قصة حديثة ، في مطلع القرن العشرين ، وجاءت مرحلة النضوج والاكتمال في الثلاثينيات عن طريق قصص كتبها وهبي البوري وراسم قدري ، وواصلت القصة الليبية القصيرة تطورها خلال عقدي الاربعينيات والخمسينيات حيت تبلور ظهور عدد من التيارات ينتظم تحتها كتاب القصة هي التيار الواقعي والانفعالي والرمزي والنفسي وجاء جيل الستينيات وما تلاه ليؤسس لقصة جديدة وثيقة الصلة باسس الحداثة حيث تصير القصة معادلا ابداعيا للواقع وليست محاكاة ولا ترحيلا لهذا الواقع وانما واقع آخر له نواميسه وقوانينه التي تصنع للعمل الابداعي حياة مستقلة وتجعل للقصة كيانا مستقلا عن الواقع ، يتفاعل معه ويتغذي منه ويتاثر به ، ولكنه ايضا يؤثر فيه ويتبادل معه الادوار ولا يكتفي بمحكاته وانما يجعل الواقع احيانا يحاكي الفن ، ومن هذه المنطلقات بدأ هؤلاء المبدعون الليبيون ينتقلون من كتابة القصة القصيرة الى كتابة الرواية الحديثة المستفيدة من اخر منجزات العصر ، فولدت منذ البداية رواية قوية خصبة وضعت ليبيا على خريطة الرواية العالمية .

ـ كانت المحاضرة الخامسة تلبية لدعوة من المركز الثقافي السوداني للحديث عن رفيق من رفاق العمر وصديق امتدت صداقتي به لمدة اربعين عاما من الصفاء والنقاء والمحبة والجمال الى ان لقى وجه ربه هو المبدع السوداني الكبير وعبقري الرواية العربية الطيب صالح ، استحضارا لروحه العذبة وخصاله النبيلة وابداعه الذي وصل الى اعلى المشارف الانسانية ، وارقى مدارج النبوغ ، متصيدا من جميل الذكريات ما اعطى الحاضرين صورة قريبة عن هذا المبدع والانسان الخلاق الذي ترك ذكرا لا يموت بموته وانما يجعل من موته ولادة جديدة للكاتب الخالد الذي ستتواصل الاجيال مع تراثه الابداعي جيلا بعد جيل .

ـ المحاضرة السادسة لم تكن في طرابلس وانما في الجزائر ولم احضرها بنفسي وانما انبت من ذهب ليلقيها بدلا مني والموضوع هو التراث الشعبي الافريقي في فنون المسرح واخترت الحديث عن نوع من المسرح الارتجالي الذي يقوم به اهلنا في الواحات ، يشبه الكوميديا دي لارتي ، دون ان يكون بالضرورة اقتباسا من هذا الفن الذي شاع في اوربا وترجع جذوره الى ما قبل الميلاد ، وتم استنباته في البيئة البدوية من غرب مصر الى موريتانيا ويتمثل في ظاهرة رافقت قيام الاعراس حيث يتم انشاء دولة وهمية تستمر

لسبعة ايام سلطانها العريس وله مثل ما لرؤساء الدول القديمة وزير وسياف وقاضي القضاة وبصاصين ، تناولت تفاصيلها في هذه الظاهرة التي تمثل حالة فلكلورية سبقت المسرح الحديث واثبتت ان له جذورا في ثقافتنا الشعبية.

وربما كان صعبا ان اقدم سردا بكل ما قمت به من مناشط ، لم تقتصر كلها على المحاضرات ، فبعضها كان مشاركة في ندوات، مثل ندوة استمرت اكثر من يوم عن الرواية الليبية نظمها مركز الجهاد باشراف الدكتور علي عبد المطلب الهوني، الذي قدم ورقة عن اعمالي الروائية ودعاني لتقديم شهادة عن هذه الاعمال. كما شهدت رابطة الادباء حوارا بيني وبين الجمهور ، قدمت فيه نبذة عن سيرتي الادبية، قبل ان يفتح باب النقاش والاسئلة والاجوبة بيني وبين جمهوركان اغلبه من شباب الادباء، اداره الكاتب الزميل ابراهيم حميدان، ولقاء اخر يماثل هذا اللقاء دعتني اليه المشرفة على النشاط في النادي الثقافي بقصر الضيافة الكاتبة الزميلة رزان المغربي التي ادارت الحوار، ولبيت دعوة من الصديق المشرف على المكتبة القومية في قصرالشعب الدكتور مصطفي بديوى ، كما لم اتخلف عن المشاركة في احتفاليات مسرحية وتلقيت تكريما وشهادة تقدير في احدى المناسبات وفي اخرى كنت مدعوا لالقاء كلمة بمناسبة عيد المسرح ومشاركة في نقاش عام شهدته قاعة مسرح الكشاف وقاعات اخرى.

ساشير هنا الى موضوع يتصل بحقيقة من حقائق الحياة في جانبها الحزين الذي يتصل برحيل الشخصيات الليبية التي تركت بصمة في حياة المجتمع الليبي، ويمتنع الاعلام الليبي عن التنويه بها او الاشارة اليها ، وفقا للسياسة التي تنكر على الناس حقهم في التنويه بجهودهم حتى عند الموت، ولعل اكبر مثل على ذلك ان يرحل رجل من جيل الاباء المجاهدين، كان حاضرا على جواده يوم الهاني، عام 1911، وتصدى وحده لكتابة التاريخ الليبي الحديث، في مرحلة ما قبل الاستقلال وقبل توفر عناصر ليبية تقوم بمثل هذا العمل، كما ناصر الحق الى حد الوقوف ضد ملك البلاد والدخول معه بخصومة من اجل الوطن ، واختار المنفي على مهادنة ذلك النظام ، وتولى فيما بعد منصب المفتي ، و تخلى عنه عندما لم يستطع المجاهرة بالحق، هذا الرجل الذي مات بعد ان تجاوز التسعين، امتنعت الدولة ان تنشر اعلانا لاسرته مدفوع الثمن عن وفاته ، لاتاحة الفرصة لاحبائه ومريديه وتلاميذه من توديعه ، واعتبر نفسي واحدا منهم، لم استطع ان اقوم بهذا الواجب لانه دفن في صمت ودون تنويه به او بحياته. وهذه الحالة تكررت مع كل من كان صاحب اسم ومات ، فلا تنويه ولا ذكر له في اذاعة او صحيفة، وقد ينفذ اهله باعلان صغير اذا لم يكن هناك حضر يخصه صادر عن راس الدولة، ولذلك فقد رايته جزءا من الدفاع عن الذاكرة الوطنية ، الحرص على تابين الراحلين من مثل هؤلاء الاشخاص، فاحضر جنازاتهم واقوم بواجب الخطابة بعد صلاة الجنازة، وان لم احضر فلم اترك انسانا له شأن توفى من ابناء بلادي ، الا وكتبت مقالا في رثائه نشرته في الصحافة العربية التي انشر بها مقالاتي، والقيت كلمات التابين عند وداع كل من صديقي الكاتب محمد احمد الزوي، وصديقي الفنان حسن عريبي ، وصديقي الفنان كاظم نديم، وقريبي نقيب مهندسي ليبيا عبد الرحمن التير ، وعدد اخر لم تعد تحضرني سماؤهم ، ولكن هناك ثلاثة كتب ضمت مراثي هؤلاء الراحلين التي نشرتها في الصحف بعضها احتوى ترجمة للراحل واضواء على حياته قد لاتكون معروفة لكل الناس في ظل التعتيم الاعلامي على اهل الفضل والنبوغ في ليبيا ، مثل كتاب " وجع الرحيل " خصصته كاملا للرثاء، وكتاب اسمه حياة من حبر وورق ، وشخصيات تحت الاضواء تضمن كل منهما عددا من هذه المراثي .

على مستوى العمل الادبي الابداعي، فقد انجزت قبل انتهاء عملي في اليونان، الرواية التي انفقت عشر سنوات في كتابتها، والتي تكونت من12 رواية يربطها خيط واحد هو البطل عثمان الحبشي التي تشكل الروايات لحظات او فصولا في حياته، ورغم جسامة العمل ، وقوة الانجاز، فانه بالنسبة لي لم

يتطلب مني جهدا اضافيا او يكلفني تعبا اكثر مما يكلفني عمل اخر، كانت كتابته مهمة يسيرة، ومثل الشخص الذي يكمل اكل لحم الجمل ، فلا معجزة في ذلك عندما يحيله الى قطع صغيرة ، يتناول بعضها في كل وجبة، وهكذا فان كتابة الرواية كانت جزءا من روتين يومي، وباعتبار ان الكتابة كانت بالنسبة لي اسلوب حياة ، واكرس كل يوم بضع ساعات لها، غالبا في المساء، وهذه الساعات لم تكن مخصصة دائما لكتابة هذه الرواية، فلم اتفرغ لكتابتها تاركا من اجلها ما كنت التزم به من كتابات اخرى ، وانما كتبت اثناء انشغالي بها ، اعمالا قصصية ومسرحية، علاوة على انني لم اترك في هذه الفترة اعمدة الراي التي انشرها في صحف العالم العربي ، وتجعلني دائما في حالة تماس مع قضايا سياسة وثقافية واجتماعية ، وطنية واقليمية وذات طابع انساني ، اعالجها في هذه المقالات التي تفصح دون اقنعة عن الرؤى ووجهات النظر التي اومن بها، والتي مثلت تاريخا لما حدث لي من تطور ونمو في الفكر والتكوين الثقافي، فقد باشرت كتابة اعمدة الراي ونشرها بشكل يومي في صحيفة طرابلس الغرب منذ مطلع حياتي الادبية وانا مازلت في سن السابعة والثامنة عشر وواصلت كتابتها على مدى العمر بشكل يومي واسبوعي، في صحف متعددة محلية وعربية. ولذلك فان فترة انشغالي في كتابة الرواية الاطول في تاريخ الادب العربي، ولهذه المدة، لم تمنعني عن كتابة مقال اسبوعي لصحيفة الاهرام المصرية، اسمه كل خميس، ولذلك لم اكن مضطرا الى نشر الرواية في اجزاء متفرقة لحظة انجاز كل جزء، كما حدث مع اخرين ينشرون في كل عام جزءا، خوفا من ان تطول فترة غيابهم عن الساحة حتى ينساهم القراء، لان فترة الكتابة لم تمثل غيابا او انقطاعا عن القاريء.

وهكذا توفر لي بعد سنوات الكتابة، عملا سرديا استثنائيا ، يحق لي الاحتفاء به، والابتهاج بانجازه، الا ان الامر مع مثل هذه الاعمال الكبيرة، التي تسمى بلغة بعض الادباء الصناعات الثقيلة في الادب، لا تكفي بالنسبة لها فرحة الانجاز، اذ لا تكتمل هذه الفرحة، الا بان يأخذ مثل هذا العمل طريقه الى النشر، ليكون بين يدي القاريء، وهو في هذا الحالة مهمة صعبة دونها كما يقول التعبير الشهير، خرط القتاد، وخرطه لا بشكل رمزي، مجازي، وانما بشكل واقعي. فمن هو الناشر الذي يتصدى لنشر مثل هذا العمل الكبير؟ خاصة اذا كان بقلم كاتب ليبي ، ظلت بلاده الى زمن قريب، لا تملك حركة نشر، وعندما حصلت هذه الحركة ودخلت الدولة هذه الصناعة، كان الوصول الى نشركتاب كل شهر، انجازا يستحق الاحتفال. اذ ان رواية كهذه، تجعل الدولة تعمل عاما كاملا من اجل نشرها. نعم، اعرف ان لي اسما له حضوره خارج الاطار المحلي، ولكن وطن الكاتب يبقى عاملا اساسيا في تحريك الناشر لنشر اعماله ،مهما بلغت مكانته خارج الوطن، فعندما ينشر ناشر في لبنان للجزائرى طاهر وطار ، تبقى عينه على الجزائر ، كسوق للكاتب يحظى بالاولوية ، او العراق مع كاتب مثل الربيعي ، او سوريا مع كاتب مثل حنا مينا، او المغرب ،مع مبارك ربيع او محمد شكري. المفارقة في ليبيا، التي تختص بها دون بلاد العالم الاخرى، انك تجد الصفقات تحدث لاحضار كتب لمؤلفين غير ليبيين ، يغرق بها السوق ، وتصدر من اجلها اوامر الشراء من جهات حكومية ، بينما يبقى السوق مغلقا في وجه الكاتب الليبي، بسبب الفساد الذي يوظف التوجه الرسمي الحكومي لمحاربة المنتج الثقافي او الفني الليبي. وعندما جاءت فكرة ان تتولى وزارة الثقافة، واظن ان اسمها تحول في السنوات الاخيرة الى مؤسسة الثقافة، ان تقوم بنشر الرواية، قدمتها لهم ، ورايت العراقيل تخلق امام هذا النشر، وعندما اردت الاحتجاج، سمعت ردا من رئيس المؤسسة ، وهو اخر من تولى هذا المنصب قبل انهيار العهد، يشير فيه الى ذيوع اسمي عربيا، بمعنى انني لست في حاجة الى خدمات وزارته اومؤسسته، مثل غيري من ناشئة الادب، وتاسفت لمثل هذا الرد الغريب ، وقلت له لا اعتقد ان وزير الثقافة المصري، يمكن ان يقوله مثلا لكاتب مثل نجيب محفوظ وصل الى سقف العالمية بحصوله على جائزة نوبل ، لان اي كاتب يستحق العناية الاولى من بلاده قبل اي بلاد غيرها. واصل القصة وقبل ان اتجه الى المؤسسة الليبية، اتجهت الى ناشر صديق في لبنان ، هو صاحب دار الخيال، فكان ترحيبه بالرواية كبيرا، ولكن حساباته التجارية تقتضى ان اضمن له توزيعا لها في ليبيا، خاصة وانه لاسباب سياسية كان هناك حضر على دخول اللبنانيين الى ليبيا، ربما لتدعيات تتصل بتغييب الامام الصدر، ولهذا

اتصلت بمؤسسة الثقافة لتأمين دخول الرواية الى البلاد، اوالتعاقد على توزيعها، وان كانت هناك امكانية لشراء نسخ منها، فاذا بالرد ياتي ، انهم يفضلون القيام بعملية النشر، ورجعت الى الناشر الصديق ، انقل له ما سمعت، فوجدته متفهما مبديا ترحيبه بالفكرة، مستعدا للتنازل عن حقه في نشر الرواية، ولانه كان قد قطع خطوات في العمليات التنفيذية ، فقد كان واجب المؤسسة ان تعطيه الاولوية في ان يتولى تنفيذ المهمة الطباعية رقنا وتصميما وتصحيحا واختيارا للاغلفة واشرافا على كل مراحل الطباعة ، وهو ما تعهد به المؤسسة لاطراف اخرى، وفعلا اخذت موافقة المسئول على النشر، شرط ان يرضى بقبول الاسعار المعتمدة لديهم في مثل هذه العملية، الا ان هذا المسئول كان يترك كل شيء معلقا بموافقة رئيسه امين المؤسسة، لان هذا الامين، لا يترك لمعاونيه اي هامش للتصرف والقرار، ولا اريد ان اطيل في استعراض مسلسل المضايقات والعراقيل الذي وضع هذا المسئول الثقافي في عدم انجاز التعهد بنشر الرواية، وتاخير نشرها لمدة عامين وهي في ادراج امانته، مستخدما كل مرة حجة ،مرة لانه ينتظر تقارير المراجعين ، ومرة لانه يريد من يقراها من جانب سياسي، وكانت اخر مهازله التي اظهرت سوء مقصده ونيته، وبشهادة مدير النشر لديه ، هو طلب مني لا يمكن ان يصدر الا عن انسان يدعي الغباء اوالعته، وهو ان الرواية قد غطت في اجزائها الاثني عشر مراحل من التاريخ سابقة لثورة الفاتح، كما قال، وهو يريد اضافة جزء اخر يغطي احداث هذه الثورة. وكان يعرف انه طلب غريب و مستهجن، وليس معقولا، ولكنه قاله خبثا ومكرا، جاهزا لاستخدامه اذا جاء استفسار من راس النظام عن سبب رفضه النشر، خاصة انه يعرف انني يمكن ان التقي بالرجل وارفع له مثل هذا التظلم ، فعذره اذا سيكون ثوريا الى حد المبالغة، وهو السبب الذي لن يجلب له لوما ولا تقريعا، فقد اراد لهذا العمل، ان يفي بحق الثورة، وينصفها في هذه الرواية. وكان هذا سببا كافيا لان اقتنع بعدم جدية الرجل ، وان كل ما كان يريده تعطيل نشر الرواية او تاخير هذا النشر، وابطال اتفاقي مع الناشر اللبناني، الذي كنت اشعر بانني ظلمته، عندما سحبت منه العمل، وكان لابد من ان اعود اليه ولكنها عودة تحمل شيئا من المخاطرة، طالما انها عودة مصحوبة بخصومة مع امين الثقافة، الذي قد يحارب العمل، ولهذا فانني لم اعد اليه قبل ان اجد شريكا في ليبيا يتولى عبء النشر مناصفة معه ، وكان هذا الشريك هو دار الفرجاني للنشر، عندما ابدى سمير احد ابناء الناشر الاشهر في ليبيا الاستاذ محمد بشير الفرجاني، استعداده للدخول في هذه الشراكة ، وقام فنان مصري متميز بتصميم الاغلفة هو الاستاذ محمد ابوطالب ، لتتلقى ترحيبا من اهل النقد العربي فور صدورها في اخر عام 2007. وانصافا لرجل بات الان في ذمة الله هو السيد عبد القادر البغدادي، الذي كان امينا للتعليم وركنا من اركان المكتب الخاص باللجان الثورية ، فانني فوجئت به يلقاني ذات يوم مرحبا، ومهنئا بالرواية التي اكمل قراءة كل اجزائها ، وكانت المفاجأة انني لم اكن قد نشرت غير جزئين منها في بعض المواقع الخاصة بالادب، في الانترنيت ، فقال انه فعلا قرا هذين الجزئين واراد اكمالها، فعرف انني قدمتها للنشر في مؤسسة الثقافة، وطلبها من هناك، فاعطوه نسخة اليكترونية منها، و اراني اعراما لها في مكتبه، لانه عمد الى طباعتها على ورق بكاملها، وعندما علم بانها لا تزال قابعة في ادراج تلك الامانة لم تطبع ، ذهب بنفسه الى الامين ، وكان مدير النشر هناك، حاضرا وهو الذي ابلغني بقوة المرافعة التي قالها الرجل دفاعا عن الرواية وضروة ان تعطى الاولوية لانه شرف للثقافة الليبية ان تطبع عملا غير مسبوق في تاريخ الادب العربي ، واعطى شهادته كرجل ثوري بانه يتحمل مسئولة الموافقة على النشر اذا كان هذا هو المطلوب، ولكن ذلك الامين كان يحمل ضغينة خاصة لا علاقة لها بالسياسة ولا بالثورة، ولا بغير ذلك من الادعاءات، وكان للسيد البغدادي موقف مشرف من الرواية بعد نشرها ، فقد وجدته يتصل بي ، ويطلب اعدادها في ثلاثة اجزاء، لانه يريد ادخالها في منهج امانة التعليم وتقريرها على فصول المرحلة الثانوية الثلاثة، واعتكفت بضعة اشهر لوضعها في صيغة تناسب سن طلاب الثانوي، وتقسيمها الى ثلاثة اجزاء بدلا من الاجزاء الاثنى عشرة، وسالني ان اقابل الدكتور المسئول على المناهج، وفعلا قابلته وقدمتها اليه. ولم اعد اعرف ماذا حدث، لان الرجل ترك امانة التعليم في احدى المراحل، ولابد ان اهل

التعليم كان لهم شان اخر، ولا اعتقد ان في بالهم مثل هذه الرؤية المتطورة، التي تسعى لادخال عمل ادبي في المناهج .

وساترك تفاصيل وظرف استقبال هذا العمل من قبل القراء والنقاد، وغيره من اعمالي الادبية، الى مرحلة قادمة من هذا الجزء، واعود الى سياق الاحداث التي تعيشها البلاد وما حصل لي من تماس معها، واقول انني كنت التقي في المؤتمرات الادبية ، بمن جاءوا اليها من امريكا، من اساتذة عرب ومستشرقين، وينشطون في الحراك الثقافي العربي هناك ، مثل استاذ الادب العربي روجر الان، والدكتور وليد بركات وزميله الراحل الدكتور(((((واصدقاء مثل ادمون غريب وعلى عبد اللطيف احميده، وهما استاذان جامعيان، ويفاتحني هؤلاء الاصدقاء في امكانية دعوتي لحضور بعض الفعاليات الثقافية، ولكن ظروف المقاطعة الديبلوماسية التي استمرت منذ مطلع الثمانينيات الى ما بعد النصف الاول من العقد الاول من الالفية الثالثة، حالت دون المشاركة في اية ندوة او مؤتمر يعقد هناك، ولم استطع تلبية اية دعوة تاتي من امريكا الا بعد عودة العلاقات بين البلدين، وتوصلت بدعوتين لحضور فعاليتين ثقافيتين في امريكا، اولاهما مهرجان مسرحي ، تقدمه كلية الفنون المسرحية التابعة لجامعة نيويورك، لحضور عرض مسرحي لاحدى مسرحياتي، كان قد تم عرضها قبل ذلك من فريق اخر في كاليفورنيا، هي مسرحية "غناء النجوم"، كما توصلت بدعوة ، لحضور فعالية اخرى تعقد بعد شهر من عرض المسرحية، وتستمر لمدة اسبوعين ، وهي ايام ثقافية عربية يقدمها مركزجون كينيدي، بميزانيات ضخمة ، وعروض فنية موسيقية ومسرحية ، ودوري في هذه الايام الثقافية ، كان المشاركة في ندوة عن المشهد الادبي العربي في الزمن الحاضر. واخذت تأشيرة الدخول الى امريكا، استعدادا للذهاب في زيارة هي الثانية الى هناك ، وقبل عدة ايام من سفري، جاءني استدعاء عاجل من طرابلس للحضور على وجه السرعة لامر شديد الاهمية، وعندما اتصلت لاعرف السبب، محاولا الاعتذار عن تلبية هذا الاستدعاء ، وجدته يتصل بلجنة تم اختياري لاكون احد اعضائها، ستعمل بتنسيق مع القيادة، للمساهمة في انجاز عمل اعلامي ثقافي كبير يكون جزءا من الاحتفالية الكبرى بالعيد الاربعين للثورة ، كما ابلغوني، وافهموني انه لابد من حضوري قبل رحلتي الامريكية ، للمشاركة في الجلسات التمهيدية لعمل اللجنة، وفعلا وصلت الى طرابلس، لاجدني ضمن لجنة برئاسة احد ابناء العقيد، المسمى خميس ، والذي يتولى عملا عسكريا، ويقود جحفلا، عرفت انه عبارة عن جيش صغير ، يضم كل الاسلحة، وهذه اللجنة هي عمل اضافي، يتولاه لضمان سرعة التنفيذ وفعاليته، وكانت اللجنة تضم لجنة من زملائي الاعلاميين من ذوي الخبرة والكفاءة، بينهم كامل عراب، ومحمد احمد الزوي، ومنصور ابوشناف، مع مدير هيئة الاذاعة ونائبه، وحضرت ثلاثة اجتماعات عقدت كلها في مكتب السيد خميس، وكان الحديث يدور عن فيلم وثائقي عن مسيرة الوطن الليبي عبر التاريخ ، الى ان يتوج هذا التاريخ بالعهد الثوري الحالي، لكي يستغرق عرضه عدة حلقات، وكان رئيس اللجنة قد قام باتصالات تمهيدية عبر مساعديه الخاصين مع مؤسسات اعلامية عالمية وعرض علينا نتيجة هذه الاتصالات، حيث ابدت كبرى مؤسسات الاعلام في العالم مثل البي بي، سي، وسي ان ان، وناشينال جوغرافيك، وديسكافري وقنوات الراي الايطالية، تزويده بالارشيف الذي يريد، والذي يمكن استخدامه في هذا الفيلم، واستعداداها للمساعدة في التنفيذ، بما يمكن ان تمد به ليبيا من خبرات ، مؤكدا لنا ان ثمة ميزانية مفتوحة لانجاز العمل، وكان دور مجموعتنا هو تحضير المادة التحريرية، ووضع التصورات للحصول على افضل النتائج مع امكانية الاستعانة بمن نراه قادرا على اثراء العمل، وبسبب التزامي بالسفر في رحلتي الاميركية ، فقد اعتذرت عن متابعة هذه الاجتماعات، مؤكدا ان ذلك لن يؤثر في حجم المساهمة التي يمكن تقديمها بالنسبة للمادة التحريرية ، وتم مناقشة ما يمكن ان يسند لي في هذا الاطار ، وتم تكليفي بتحضير جزء من المادة التاريخية السابقة للعهد الراهن، التي ساراعي قابليتها لان تكون جزءا من الفيلم الوثائقي واقتراح ما يرافقها من صور واخيلة ولوحات وافلام.

استغرقت رحلتي لامريكا مدة شهرين، فقد وصلت الى واشنطن، في الليلة السابقة لتنصيب باراك اوباما، رئيسا للولايات المتحدة الامريكية، ولولا تدخل من السفارة ، لما كان متيسرا الحصول على مكان في فنادق

العاصمة التي غصت بالقادمين من مختلف العالم، مع القادمين من مختلف الولايات الامريكية للمشاركة في الاحتفالات، التي لم تقتصر على القاعات المقفولة ، ولكنها كانت تقام رغم البرد في الساحات العامة، حيث نصبت الشاشات العملاقة التي تنقل حلف اليمين ، وخطاب الرئيس، مع وجود فرق موسيقية ومظاهر الزينة في كل مكان من العاصمة.

وقد حفلت هذه المدة الطويلة نسبيا، التي قضيتها في امريكا، بكثير من المناشط، غير الفعاليتين الادبيتين، اللتان سافرت من اجلهما، لانني كنت البي دعوات لالقاء محاضرات، ولقاء بعض اهل الثقافة، مما سياتي ذكره في الجزء الخاص بمناشطي خارج البلاد، وبعد مرور هذين الشهرين، لم اعد الى ليبيا او مقر اقامتي في مصر ، وانما الى لندن حيث كانت الاسرة تنتظرني لحضور عملية قسطرة على القلب كنت قد اتفقت مع طبيب متخصص هناك على اجرائها، وبعد العملية قضيت فترة النقاهة ايضا في لندن ، وكنت قد ارسلت الى لجنة السيد خميس المادة المطلوبة مني، مرفقة باقتراحات الافلام والوثائق التي تتوافق معها، ولم اعد بعد ذلك للاتصال باللجنة ولم اعرف ماذا حدث لاعمالها.

تلبية لدعوة من المكتبة الوطنية في بنغازي للمشاركة في ندوة تقام لاحياء ذكرى الكاتب الراحل صادق النيهوم تقام يومي22 و23 ابريل عام 2009 ، سافرت الى بنغازي، لاشارك في فعالياتها، والتقيت اثناءها باحد رواد السرد القصصي الذي كتبت عنه دون ان اراه، استاذنا وهبي البوري، وكنت اتلقى تحياته وامتنانه مما كتبته عنه ، وما قمت به من جهد لاماطة اللثام عن اسهاماته الرائدة في مجال القصة الليبية القصيرة، وقد اعاده كتابي "بدايات القصة الليبية" الى هذا المجال، بعد ان هجره لمدة تزيد عن خمسين عاما، اي منذ نشره لاخر قصة في مجلة ليبيا المصورة، التي توقفت عن الصدور عام 1939، ورغم وجوده في الحراك السياسي الملكي منذ تاسيس الدولة الليبية، فلم يكن معروفا بصفته الادبية، وانما بصفته السياسية الادارية. ثم اختفى بعد انقلاب العقيد، خلف ذلك الستار الحديدي، الذي اخفى خلفه كل رموز دولة الاستقلال ، ومثقفي ليبيا الكبار، ممن اسهموا في تاسيس تلك الدولة ، من امثال الدكتور وهبي البوري ، والدكتور محي الدين فكيني، والدكتور على عتيقة، والدكتور على الساحلى ، والاساتذة عبد المولى لنقى وعبد المولى دغمان وعمر الباروني واحمد الحصائري ومصطفى العجيلي، وعلى الديب واحمد يونس نجم، وفتحي الخوجة وغيرهم كثر، مثل فؤاد الكعبازي ، الذي لم يذكره الا بعد مرور خمسة وثلاثين عاما من الاهمال، فاعطاه منصب سفير في الفاتيكان قبل رحيله ببضعة اعوام.

كان اكثر الزملاء قربا من نفسي ، هو محمد احمد الزوي، الذي وجدته قد حضر مثلي للمشاركة في الندوة، لنعاود الاقامة في مكان واحد ، بعد ان حدث هذا في مطلع الشباب عندما سافرنا سويا مبتعثين الى لندن، وكانت اقامتنا في بيت واحد مع اسرة انجليزية منذ اكثر من اربعين عاما مضت، وقضينا هذه الايام الثلاثة او الاربعة نتسامر معا في سهرات يقيمها الزملاء في ردهة الفندق، وكان مجلس الزوي يحظى باكبر عدد من الزملاء يتحلقون حوله، وكان بارعا في الحديث الذي يستقطب الانتباه، ويسحر العقول، فلا يقاطعونه، ويتيحون له الاستفراد بالحديث والدعابات، يخلط الجد بالهزل، ويرمي الكلمة الخطيرة التي تحمل معنى سياسيا يثير الفزع، الا انه يرفده بجملة تبعث الطمانينة، بتلك الصيغة التي يسميها التعبير الشعبي الليبي، " يجرح ويداوي"، وكنت احيانا اشفق عليه من صراحته، واخشى ان يكون قد نسى نفسه، فلا غرابة ان يندس بين هذا الحشد من الاصدقاء الكتاب، جاسوسا للحكومة يراقب ويسجل وينقل ، فاهمزه بمرفقي، لكي يحترس من وجود مثل هؤلاء، فيهمس لي بانه اكبر من ان يقيم اعتبارا لهم، ويواصل القاء نكاته، وفي آخر ايام الندوة، ودعني قائلا ان لديه ارتباطا في القاهرة، ولن يزيد غيابه عن يومين يعود بعدهما الى طرابلس، فقلت له بانني باق في طرابلس لكي نواصل هذا اللقاء، وكنت في اليوم الثالث لفراقنا موجود في نقابة الصحافة في طرابلس احضر لقاء هناك، عندما تفجر فينا الخبر، واحال الجلسة الى مناحة. كان الخبر الفاجع المؤلم يقول، بان الصديق والزميل والكاتب صاحب القلم الرشيق الجميل محمد احمد الزوي ، رفيقي في درب الكلمة منذ البدايات المشتركة ايام الصبا، قد مات. وكان

السؤال هو ، هل كان الموت نتيجة حادث سير ؟ لانه كان في اوج صحته ونشاطه وحيويته ، الا انه لم يكن حادث سير ، وانما موت فجائي، وان عاملة النظافة في فندق شيراتون في القاهرة ، عندما دقت باب الغرفة، ولم تسمع ردا، فتحت الباب، فوجدت النزيل مرميا على الارض ، فاخطرت الاستقبال وجاء اثر ذلك الطبيب ، الذي وجده قد توفي ، ويبدو انه عانى ذبحة صدرية وحاول خلالها ان يشق قميص النوم بحثا عن الهواء، او يفتش عنه عبر النافذة ، الا انه سقط فوق الارض.

قمت بتاجيل سفري ، انتظارا لوصول جثمانه ، وحضور يوم الصلاة على الجنازة ومراسيم الدفن ، ووقفت عند نعشه القي كلمة رثاء ، محاولا ارساء هذه الفضيلة التي صار الناس يتناسونها مع طقوس الاهمال والنكران التي ترافق رحيل الكبار من ابناء هذه البلاد، وهب احدهم في وجهي يقاطعني ، ويبدو انه من عملاء النظام، معترضا على هذه البدعة ، قائلا بان "اكرام الميت دفنه" ، وهي كلمة حق اريد بها باطل ، فلا وجود لاي تاخير او عرقلة ، ومن العار ان يموت كاتب بهذا الحجم دون كلمة وداع وانصاف ، ورددت عليه قائلا ان اكرام الميت الا يدفن بدون كلمة وداع تذكر ماثره وامجاده ، وواصلت الحديث . ثم ارفدت هذا الرثاء بمقال اقدم فيه ملخصا لترجمة حياته نشرته الصحف العربية ، ثم كان موضوع قصة قصيرة نشرتها هي الاخرى وضمنتها كتابي قصص من عالم العرفان.

لم اكن لاقف هذه الوقفة مع وفاة هذا الزميل ، الا لحضوره المتميز في حياتي وفي الحياة العامة، وساضيف هامشا عنه بمناسبة رحيله الفاجع، وتوضيحا لبعض جوانب المناخ السياسي السائد في البلاد ، وفحوى هذا الهامش ، ان المتابعين لمسيرة هذا الكاتب ، لاحظوا بالتأكيد انه كتب مدائح في العقيد، اشبه بالتسابيح او المدائح النبوية، بعضها اتخذ شكل برنامج يومي في القناة الحكومية ، وهو امر يستهجنه الناس ويأخذونه عليه، ولكنهم لا يعرفون ان الدافع لم يكن رغبة في التربح والانتفاع، وانما حماية لنفسه من القتل والاغتيال، فقد كان كما قلت حادا في نقده للنظام ورئيسه في الجلسات الخاصة ، كارها للاثنين كراهية مطلقة، ولعل هذا النقد لم يكن مسئولا وحده عن جلب النقمة الثورية عليه، ولكنه فيما يبدو دخل صراعات قاتلة مع بعض النافذين في النظام، كانوا يستطيعون بما لديهم من قوة ، الفتك به، بل وصل الامر الى محاولة واضحة لقتله، عندما تم استدراجه لاشتباك كلامي مع جرسون مغربي في احدى مقاهي طرابلس، لكي يكون هذا الاشتباك الكلامي، ذريعة لعناصر الامن كي تاتي مسرعة للقبض عليه، بطريقة اجرامية مهينة، اذ وضعوه في المستودع الخلفي للسيارة الخاص للبضائع، حتى لا يكاد يجد مجالا للالتقاط الهواء شهيقا وزفيرا، ثم ياخذونه الى نقطة شرطة في شارع جانبي، ويكلفون احد الجلاوزة بتعذيبه تعذيبا شينيعا، حيث خلعوا عنه ملابسه ، وصاروا يطفئون سجائرهم في جسمه ، واحتفظوا به ليومين او ثلاثة ايام ، وقبل ان يصل الى ان يلفظ انفاسه من اثر التعذيب ، ابلغوه بانهم سيطلقون سراحه هذه المرة، شرط الا يتفوه بشيء عما حدث له ، والا فانهم سيعودون للاجهاز عليه، الا انه لم يستجب للتهديد، فبعد ان اعاد له العلاج بعض صحته، اختار احدى المناسبات العامة ، وهي ندوة اقامتها جهة حكومية، وذهب ليقف امام جمهور الندوة، وينزع القميص عن جسمه، ويذكر ان جسمه ، قد تحول على يد الشرطة ، الى منفضة للسجائر، وحكى قصة القبض عليه وتعذيبه ، وكان لابد ان يلجأ الى رأس النظام ، عارفا ان ما حصل له كان بامر منه ، وهو وحده من يمكنه ان يرفع هذا البلاء. يطلب منه الحماية والامان، ويبالغ في مدحه لعله يحظى بالصفح ويبقيه على قيد الحياة.

وفي احدى المرات التي اشتدت عليه فيها حلقات الحصار، لجأ الى حيلة تنجيه من القتل، هي ان يفتعل حادث قتل نفسه بنفسه ، انتحارا، وهو حادث مثل لي صدمة سبقت صدمة موته الحقيقي، فقد كنت في ذلك الوقت مقيما باليونان، وكنت اخصص قبل النوم ، وفي ساعة متأخرة من الليل ، نصف ساعة انظر فيها لاخر اخبار ليبيا الموجودة في النت، واذا بي أفاجأ، لحظة ان فتحت موقعا ينقل اخبار البلاد، بخبر انتحار صديقي محمد احمد الزوي، وتصريح منقول عن ابنه يتهم فيه الدولة بانها دفعته الى الانتحار، ولم يكن الوقت مناسبا لايقاظ اي احد في طرابلس اتلمس منه عزاء او سلوى او شرحا او نفيا او تاكيدا،

رغم انه لم يكن ثمة سبب للتكذيب، الا الاحساس بالصدمة، ومعرفتي بشخصيته، المفعمة بروح الدعابة التي لا وجود فيها لقطرة دم واحدة ، من الميول الانتحارية او الشخصية السوداوية، وانتظرت بفارغ الصبر مجيء النهار ، لاتصل باصدقاء كان اغلبهم لم يصل اليهم الخبر، وعثرت اخيرا على صديق هو الشاعر محمد وريث، الذي وجدته عارفا بما حصل ، وينقل لي بشارة ان محمد الزوي حاول الانتحار وتم انقاذه وهو الان في المستشفى، يتعافي من اثار الحبوب التي تناولها بعد اجراء غسيل المعدة. ثمة اصدقاء شككوا في هذاالانتحار، قائلين انه مجرد تصنع وافتعال.ولكن لماذا يخاطر انسان بحياته حتى لو كان الامر افتعالا؟ حقيقة ما حدث انه ليس افتعالا، وانما انتحار محسوب بدقة ومهارة، لدرء خطر حقيقي يحمل نذر الموت. اراد ان يبعث لاعدائه في النظام رسالة تقول ماذا تريدون من قتل انسان، يسعى بنفسه لقتل نفسه، فهي محاولة انتحار استباقية لحادث يخشى انهم يدبرونه له، فاتصل بواحد من اعضاء الحلقة الاولى حول القذافي هو مدير الاذاعة، وابلغه ان ينقل تحياته للعقيد، وانه قرر ان يودع الدنيا غير اسف على شيء، وطبعا كان الرد من مدير الاذاعة هو ان يلعن الشيطان وان يتاكد بان هناك حلا لكل مشكلة ، ولكن الزوي قال له فات الاوان ، فاسرع الرجل بارسال سيارة الاسعاف الى بيته، وما ان راى الزوي سيارة الاسعاف امام البيت ، حتى وضع بالفعل حفنة من حبوب الاسبرين في جوفه، متاملا ان تصل السيارة الى المتسشفى، ويتم غسل المعدة ، قبل ان تبدأ في التفاعل واحداث الضرر المعروف، لتتاكد الدولة ان حادث الانتحار حادث حقيقي، وهو ماحدث فقد اوصلته السيارة الى اقرب مركز صحي يتوفر على هذا الاسعاف، ووجدوا فعلا انه تناول من الحبوب ما يؤكد حقيقة الانتحار. ولم اعرف رغم عمق وقوة الصداقة بيننا، سر هذا العداء، ومن وراءه . وحدث بعد التاميمات وما اعقبها من ملاحقات لبعض الناس، ان تم القبض على شريك لمحمد الزوي في شركة انتاج فني ، هم الراحل مسعود القبلاوي، وظل الزوي هاربا خارج البلاد خوف القبض عليه مع شريكه، وعاد بعد خروج القبلاوي من سجنه والتحقق من براءته، وسعى وقد توقف نشاطه التجاري للالتحاق بالدولة ، وساد خلالها وفاق بينه وبين اهل الحكم، وافلحت مساعي قريبه محمد ابو القاسم الزوي ، في الحاقه بالدولة، وهي الفترة التي وصل فيها الى امانة رابطة الادباء، ثم انتقاله الى منصب مدير الشركة التي تحتكر النشر والاعلان والتوزيع، ثم بدأت بعد ذلك المصاعب والحصار والمطاردة، وليس بالضرورة ان يكون السبب سياسيا، فقد عرفنا ان رأس النظام ، قتل اناسا لمجرد انهم اقتربوا من العابه النسائية، وقال لي مرة ، ان في بعض الفترات، كانت هناك سيارة شرطة تقف امام بيته، ترقب من يزوره، وتلتقط اكياس القمامة لحظة خروجها من البيت، وتفتيشها بحثا عن ذريعة لاستخدامها ضده.

لم اقف مع ما حدث للصديق الراحل محمد الزوي، الا لانني كنت شاهدا عليه، قريبا منه، ولانني رايت فيما عاناه ، اوفيما كتبه كرد فعل لهذه المعاناة سلبا وايجابا، انه يكمل الصورة لاسلوب تعامل النظام ، ورئيس النظام، مع مبدعي البلاد، واعتقد ان الزوي كان موهبة كبيرة ، تعطلت بسبب هذه المناكفات، وهذه الملاحقات والمحاصرات، ومع ذلك ترك اكثر من كتاب يتجلى فيهما اسلوبه الجميل الرشيق وبصمته التي لن تمحى من تاريخ الادب الليبي المعاصر.

نقترب الان من المراحل النهائية للعهد الانقلابي، ولم يكن يلوح في افق البلاد اي علامة تدل على مجيء الخلاص، ونهاية النظام، فقد افلح في تصوير نفسه على انه سرمدي ابدي، وان شعار "الفاتح ابدا" تنزيل سماوي واجب النفاذ، وليس مجرد خداع نفس، وجزء من شعارات كثيرة غبية، تناقض الحق والواقع والتاريخ والمنطق، لا تمثل غير سيالات ذهنية مريضة لصاحبها، اراد تثبيتها في اذهان الناس بالقوة والرعب والقتل ، كانه هو وشعارته ونظامه، حقيقة من حقائق الحياة الازلية.

رغم انني احاول التعامل مع معطيات الواقع دون صدام، واتجنب الدخول في معارك ومماحكات مع جلاوزة النظام وارادل الرجال والنساء فيه ، وهم كثر ، ويحتلون كل المواقع، ويسدون منافذ الافق، واتخذ من بيت المتنبي الذي يقول " ومن نكد الدهر على الحر ان يرى -- عدوا ليس من صداقته

بد"، اشارة مرور احاول اتباعها واتقي بها حوادث السير، واعتمدها في تعاملي مع راس النظام نفسه ، الا انني كنت احيانا اجد نفس في حالة تماس مع بعض هؤلاء الجلاوزة ، وصدام لا سبيل لتفاديه ، ربما يفرض فرضا كما حدث عدة مرات مع بعض من تولى الثقافة ، لان عملي الوظيفي كان مرتبطا بهذا القطاع، وسبق ان جئت على ذكر بعض هذه المواقف ، وكان اخر عمال العقيد في الثقافة رجلا ، اختار مناصبتي العداء ، وعرقلة كل مسعى اسعى فيه، كما حدث مع خرائط الروح، الى اخر يوم من هذا النظام، وحدث ان سمعت نفس الرجل يقول كلاما في نفاق سيده، بلغ حد الفجور والزندقة، منقولا في حفل عام، من قبيل" ويا من لم تطأ ارض البشر، قدم انسان اعظم ولا ارقى ولا اشرف ولا اكثر نبوغا وعبقرية منه، ولا ولا ولا" الى اخره من مثل هذا الكلام المرعب. فلم استطع ان امسك نفسي عن تذكيره قائلا ، واين تركت الرسل والانبياء، فقال، فاتحا فمه عن ضحكة الصفراء، لقد قالوا كل ما يمكن قوله، ولابد من زياردة الجرعة، للتميز في نظر القائد. وقد حصلت ملاسنات بيني وبينه في الصحف ومواقع الانترنيت ، كان اسوأ ما فيها انه سخر كاتبا صغيرا ناشئا، ساقه طموحه للوقوع بين براثنه، فم يتوان عن استغلاله اسوأ استغلال ،ليثبت بالتالي سوء طويته وضعف النوازع الاخلاقية لديه.

وطالما نحن في هذا السياق فلابد من ذكر بعض الوقائع التي اسوقها ليس لتصفيةحساب مع مثل هذا المسئول الذي لا ارى فيه اكبر من حقيقة انه نمط او نموذج لهذه الانماط والنماذج التي يستخدمها النظام ، مطمئنا لامانتها على القيام بالدور التخريبي الذي يريده، والتطوع في الحرب التي يشنها ضد كل خير وبناء، والتي تتولى مهمتها بفرح ودون حاجة حتى الى العودة الى القيادة العليا لهذه الحرب، بل يحدث ان نلجا الى تلك القيادة هروبا من هذه السلوكيات المتدنية التي يعاملوننا بنا، ليظهر هو، بعد ذلك، في ثوب المنقذ، وهو ماحدث معي بالضبط فيما يخص رواية خرائط الروح، ولانها العمل الذي اقتضى مني وقتا وجهدا ، فلم يكن ممكنا ان اهمل موضوعه ، كما كان بالتاكيد ستحصل مع كتاب قصصي اخر، ولهذا فقد خشيت ان تنعكس سوابق المعاملة مع مؤسسة الثقافة على عرقلة وصول الرواية الى القاريء في ليبيا ، فقد وضع لي شرطا لم استجب له ، عندما طلب جزءا اضافيا عن العهد الانقلابي، وقد يستخدمه لمصادرة الرواية ، فكان لابد ان استعين بسيده للجمه، وهكذا ما ان صدرت الرواية حتي صممت ان اصل بها الى قائد النظام واكتب اهداء عليها، واقطع الفرصة على المساعي الشريرة التي تسعى لعرقتلها، واهتبلت فرصة وجوده في زيارة الى مصر، وطلبت مقابلته في قصر الضيافة، والتقيت به في خيمته صحبة الصديق المندوب لدى الجامعة السيد الهوني، وقدمت له الرواية التي اخبرته انها تتحدث عن مراحل نضالية عاشها الشعب الليبي، فاثنى على الرواية، وامر باستدعاء مندوب الوكالة الليبية للاخبار، واصدر له تعليماته بصياغة خبر عن هذه المقابلة وثناءه على الرواية ، وقطعت بذلك الفرصة على مساعي تحطيم هذا العمل في ليبيا بل اضطر المسئول الثقافي مرغما على شراء بضع مئات منها لمكتبات الدولة.

ساقف عند حادثين يضيئان جزءا من اسلوب التعامل الذي يلقاه امثالنا من اهل الادب والفن، الحادث الاول انني دعيت في شهر ابريل من عام ++++ لحضور مهرجان الجنادرية في الرياض، ولبيت الدعوة، وحصل ان التقيت هناك بصديقي الكاتب الصحفي والاعلامي المعروف رضا نصر الله ، الذي قدمني لصديق من العائلة المالكة ويعمل بالقصر الملكي ، هو منصور بن ناصر بن عبد العزيز، الامير السعودي الذي يمثل حلقة الوصل مع ليبيا، باعتبار ان والدته تنتمي الى اسرة بشير السعداوي الليبي، وكان يعرف انني كتبت نصا مسرحيا عن جده الزعيم بشير السعدواي، طلب ان اعطيه نسخة منه، وفعلا سحبت نسخة من الكومبيوتر، اثناء وجودي في الفندق، وسلمتها له اثناء مادبة عشاء اقامها الملك عبد الله لضيوف الجنادرية، وعلمت اثناء ذلك انه متزوج من ابنة الملك وانه يعمل قريبا منه في ديوانه، وكان شابا كثير التهذيب والتواضع، ابدى ترحيبا بي ، وشكرا لجهدي في اظهار امجاد الزعيم السعداوي ، قائلا انه شخصية يجتمع العرب جميعا على اكبارها، لان له اياد بيضاء على عرب المشرق والمغرب. وانتهى اللقاء عند هذا الحد، وبعد عودتى بعدة اسابيع تلقيت اثناء وجودي في القاهرة ، اتصالا هاتفيا من السيد احمد رمضان ، مدير مكتب العقيد، يسال عن كيف اقدم عملا مسرحيا يتناول السعداوي لامير سعودي، لكي

يتولى تقديمه ، وكأن ليبيا قاصرة عن ذلك، فابلغته انني قدمت العمل بناء على طلب حفيد السعداوي، ولم اقدمه من اجل اي غرض آخر، ويمكن سؤال الامير ، كما يمكن سؤال الصديق الذي كان واسطة اللقاء بيننا، هذا اولا ، وثانيا فانني قدمت هذا العمل منذ اكثر من اربع سنوات الى امانة الثقافة ولا يزال موجودا في ادراجها. وسألني ان اكتب مذكرة بما حدث وارسالها عن طريق الفاكس ، ويبدو ان المذكرة احيلت الى امانة الثقافة للاستفسار عما حدث، ووقع مديرها في شر اعماله فهو من حيث اراد ان يخدم رئيسه بحجب مثل هذه الاعمال، جاءت التطورات بعكس ما يريد فقد ظهرت جهة تتحدى بان تخدم الادب والتاريخ الليبي، بما يشبه التعزير للجانب الليبي، واراد ان يكذب قائلا انه لم يصله النص، لانني فعلا لا املك ايصالا بانني اسلمتهم نصا، ولكنني كنت اتصلت بالمسئول على المسرح، وكان قد ترك منصبه، فقال انه قبل ان يترك المنصب، كتب محضرا بالنصوص الموجودة في الادارة، لحظة التسليم والتسلم مع نائبه، وحاصرته بهذا المعلومة فلجأ الى التزوير قائلا انه فعلا اتصل بالنص واحاله الا مراجعين اعترضوا على تقديمه، وكان ذلك كذبا صريحا، لان المعني الاول بمثل هذا الاعتراض، هو المؤلف، الذي يتم ابلاغه به، وانا لم يتم ابلاغي باي اعتراض، ومعنى ذلك انها قراءة مرتجلة، جاء بمن ارتشى ليقوم بها، ويكتب له تقريرا ويضع عليه تاريخا قديما ليبريء ذمته من انه كان يستهدفني ويمنع انتاجي من ان يرى النور . انها مجرد مثل لسلوك هذه الكائنات التي تعمل بعكس مهمتها في بلدان اخرى ، فهي هناك لتنمية الثقافة ورعاية المبدعين وهي هنا لطمس الثقافة وارهاق المبدعين . اما الحدث الثاني فهو اكثر دلالة وتعبيرا عن طبيعة مثل هؤلاء الناس وممارستهم وتلقي اضاءة كاشفة عن حقيقة الحرب

التي يشنها النظام على الفنون والاداب عموما من خلال هذه الادوات التي يستخدمها ويضعها في مواقع المسئولية، ومتأثرا بالاهمال الذي يتعرض له نوابغ اهل الفن في ليبيا، ومشاعر الاحباط التي تقود احيانا الى موتهم غبنا وظلما، عندما يرون الاحتفاء في اماكن خرى بمواهب ومبدعين اقل قيمة وقدرا، قررت اختيار واحد من نوابغ الطرب في ليبيا هو سلام قدري ، لاكتب قصة حياته في مسرحية غنائية ، نقدمها على المسرح وتكون تعويضا له عن افلام لم يقم ببطولتها مثل ابناء جيله في مصر، لان الواحد منهم كان بطلا لعشرات الافلام ، تبقى وراءه عندما تنتهي حياته ، ليتواصل مع اجيال بعده، وباعتباري لا استطيع صنع مثل هذا الفيلم او الافلام، فلا باس من القيام بما يتيسر لنا، ووجدت في كتابة هذه المسرحية فرصة احكي من خلالها، قصة الفن الليبي، واحاول انصاف رموزه في المراحل التاريخية الاخيرة. واعطيت المسرحية بطبيعة الحال الى قطاع الثقافة ، والى المسئولين على المسرح ، ولم اتلق ردا ولم اعرف مصيرها، ولكي لا يضيع الاثر ، قمت بنشرها على مواقع الانترنيت لتلقى الترحيب والحماس لضرورة عرضها، ولانني لم اجد استجابة من ليبيا، فقد ذهبت بها الى مصر لعلني اجد كوة استطيع من خلالها انصاف اهل الفن بتقديم عرض لها على المسرح هناك ، وطفت اكثر من مسرح والتقيت باكثر من منتج ، ورافقني في الرحلة فنان ليبي ، له معرفة بالوسط هناك هو الصديق حسن الصيد، وفي هذه الاثناء التقيت في طرابلس بمخرج مسرحي مصري، له اسهام في اخراج المسرحيات الغنائية ، اخذ مني النص بامل ان يكون موضوع انتاج مشترك، ثم اكتشف ان ليس لليبيا توجهات من هذا النوع، وان تتصدى مصر لانتاج عمل عن مطرب ليبي عملية ليست واردة، دون وجود شخصية كبيرة تدعم الموقف ، وهنا وجدته يسالني عن علاقتي بوزير الثقافة فاروق حسني ، فقلت له انني اعتبره صديقا، والقى منه دائما الترحيب والود، فطلب مني ان اسعى معه لتبني انتاج العمل، وفعلا تحدد لي موعد مع الوزير المصري ، وسالت المخرج ان ياتي معي، وكان فاروق حسني في منتهى الترحيب بان تتولى وزارته انتاج العمل ، ولانه ليس تجاريا ولا ينتظر منه مردودا فقد قرر ان يقدمه عن طريق صندوق التنمية الثقافية الذي يقدم اعمالا لا تتوخى الربح التجاري، وقال انه سعيد بان يقدم للجمهور المصري، فنانا ليبيا كبيرا، والتعريف به في مصر، هو سلام قدري، وان مصر تقدم اعمالا عن فنانين من عالم بعيد اجنبي، فلماذا لا تفتح نافذة يرى منها جمهور القاهرة، ابداعات فناني ليبيا، وقال انه سيخصص مسرح الاوبرا لتقديم العمل لمدة شهر كامل، ويترك لنا

ان نجعل العروض بدعوات وان ندعو مجاميع الحراك الطلابي والعمالي للمشاهدة مجانيا ، واضاف بالحرف الواحد : " ارجو اعتبار هذا العمل هدية من مصر الى شقيقه الشعب الليبي".

وتزداد قيمة ورمزية هذا الموقف الشهم، من وزير مصري، ازاء تخاذل صنوه الليبي، وما اظهره من عداء ونفور، وحجب لهذا العمل، ومنعه من الظهور في بلاد الفنان سلام قدري وبين اهله.

وفعلا وجد المخرج محمد الخولي ، الابواب مفتوحة امامه في صندوق التنمية الثقافية، والميزانية جاهزة، والطواقم الفنية تحت امره من راقصين وممثلين وفنيين لاختيار فريق العمل، وقاعة التمارين ايضا بانتظاره في اللحظة التي يريد، وكنت قد تركت القاهرة الى لندن حيث اواصل بعض الفحوصات، فكان يلح في طلب اشرطة سلام قدري واغانية، لانه يحتاجها في رسم اللوحات الراقصة الاستعراضية على هذه الموسيقى ، ورتبت ارسالها اليه على وجه السرعة ، ليباشر العمل دون تاخير، ثم صار يلح في ضرورة ان يصل سلام قدري باعتباره بطل العرض ليتولى تمرينه منذ الان على القيام بدوره، وكان المطرب ، وبسبب حالته الصحية ، ينتظر ان يرافقه ابن له يعيش في بريطانيا ، كي ياخذ اجازة ويكون معه في هذه الرحلة التي يتخللها عمل يومي، سيكون بالتاكيد علامة فارقة في تاريخ النجم الاول من نجوم الغناء الليبي.

كنت على اتصال يومي بالمخرج ،وانا سعيد بان العمل يمضى في طريقه المرسوم، واطمئنه ان سلام قدري سيكون باذن الله قريبا موجودا معه ، الا انني فوجئت بمكالمة هاتفيه ذات طابع غريب، يقول صارخا بان اتصل بسلام قدري لكي لا يستعجل بالحضور ، لان هناك شيئا حصل ، لا يجد له تفسيرا، وان امرا صدر بايقاف اي تعاون معه في انتاج العمل . وانه ليس واثقا من شيء لان هواتف المسئولين مغلقة في وجهه، ولا يستطيع ان يعطيني جوابا، وهو يشفق ان ياتي الفنان الكبير سلام قدري، مستعدا للعمل، محملا بالامال الكبيرة التي ابلغناه بها، ثم يجد نفسه في هذا الموقف المؤسف الذي يهدد بايقاف العمل .

ادركت ان الامر ليس مصريا اطلاقا ، ولا وجود لشيء يعيق الحماس والترحيب الذي رايته من وزير الثقافة، ومن مدير صندوق التنمية ومن الكوادر المصرية ، وان هناك يدا سوداء امتدت من الثقوب الليبية المظلمة، لتبعث رياح الشر، تطفيء هذه الشمعة التي رؤوها تهدد ظلامهم من قبة الاوبرا المصرية ، التي ستفتح لاول مرة في التاريخ الحديث امام مطرب ليبي يصدح فوق مسرحها لمدة شهر كامل ، ويرفع مشعل الفن الليبي الى اعلى الافاق وامام كل الناس في بلد الفن والابداع مصر .

فسالت المخرج ، هل لديك معلومات بوصول المسئول الثقافي الليبي الى القاهرة ، فاجابني على الفور ، نعم ان الاستاذ فلان موجود الان في شيراتون . فقلت له متاسفا ان الشرور الليبية تلاحق مشروعنا في القاهرة ، وانه اذا عرف السبب بطل العجب.

ويبدو ان خبرا وصل الى طرابلس بالاستعداد لانتاج المسرحية، ومنعا لحدوث هذا الخطر الداهم ، كما يتصوره مسئول ليبي مكلف بتطبيق شعار لا نجومية ولا نجوم لاي ليبي، اسرع راكضا الى مصر ، محتجا على تقديم العمل ، مطالبا وزير الثقافة المصري بايقافه، وكانت مفاجاة لم يمكن ممكنا ان يستوعبها الوزير فاروق حسني، الذي تحمل المسئولية بشجاعة وجرأة واراد تقديم خدمة للفن الليبي، ان يرى اعتراضا ياتيه من اهل هذا الفنان انفسهم، وكان يستعد كما عرفت لمواجهة اي معارضة تاتيه من اطراف مصرية ، لانه ينفق ميزانية وزارته على فنان ليبي لا العكس، ولم يكن ممكنا ايضا ان يدخل في معركة مع مسئول ليبي من اجل تقديم العمل، خاصة انه مسئول يسرف دائما في ذكر قائده والحديث عن غضبه ورضاه، فاستجاب للطلب الليبي بايقاف انتاج العمل. وحاولت عندما عدت الى مصر ان اعرف حقيقة ماحدث ، وعرفت من مدير صندوق التنمية ، ان سببا سياسيا تدخل لتجميد العمل. وفي طرابلس اصطحبت معي شاهدا، عند لقائي بهذا المسئول، ولاواجهه بهذا العمل الخسيس المشين الذي قام به ، قائلا له بحضور الصديق عمر الحامدي، ان افضل تعبير يصف هذه الحالة هو المثل الليبي الذي يقول " انه لا يرحم ولا يترك رحمة الله تنزل" ، وسالته عما يضيره اذا حصل سلام قدري في هذه المرحلة المتقدمة من عمره،

على مثل هذا التكريم يتوج به حياة عامرة بالعطاء والابداع والفن. كيف يكون وزير ثقافة مصر اكثر حرصا وحماسا له ، ويتطوع بصرف ميزانية بلاده ووزارته ، دون ان يطلب من ليبيا مليما ولا تبعات على ادارته ، ومع ذلك يقف هذا الموقف. وطبعا كان ينصت دون ان يشعرني بانه نادم او يظهر اي احساس ، او لديه اي دفاع ، وكان صعبا ان اجد في الحقيقة تفسيرا لمثل هذا الشر المجاني الذي لا يرجو صاحبه ثوابا ولا يتقي عقابا ، ولعله كان نوعا من الرهاب المرضي الذي زرعه العقيد في عقول وقلوب تابعيه الى هذا الحد الذي يبرر لهم الانسياق في مثل هذا الشر لارضائه.

وضعني وجودي موظفا في الدولة ، سواء وانا اعمل في الادارة اوفي عمل اعلامي صحفي ثقافي ديبلوماسي، في حالة تماس مع كثير من اجهزة الدولة ومن مسئولي النظام، ورايت من المهازل والمساخر والنماذج ما لا اجد حاجة لتسجيله هنا، فقد اخذ طريقه لبعض اعمالي الادبية ، قصصية ومسرحية وروائية، وشرحت كيف ان عملي في الاعلام قادني الى الخارجية ، لانني جئت اليها من المدخل الاعلامي ، ثم بعد هيمنة الخارجية على ادارة الاعلام وافتكاكها من تلك الامانة، صارت التبعية، عن طريق الانتداب كما يقول المصطلح الوظيفى ، كاملة للخارجية،

وفي هذا الاطار التقيت بعدد كبير من مسئولي هذه الامانة ، وزراء ووكلاء ومدراء، وبينهم صديق ربطتني به زمالة العمل الصحفي سنوات طويلة هو السيد عبد الرحمن شلقم ، الذى كنت احظى منه بالتقدير والاحترام، وترك العمل مندوبا لبلاده في الامم المتحدة، ليخلفه رجل له اسم كبير في مجال التصفية والجوسسة هو السيد موسى كوسة، ولم اكن في يوم من الايام على تماس معه ،عدا ذلك الموقف في لندن، اثناء الزحف ، ثم حصلت علاقة عابرة بسبب لجنة عبثية جاءت بها نزوات العقيد، عندما ظهر بفكرة انشاء لجنة قومية لادارة اجهزة الاعلام في ليبيا، واحضر لهذه اللجنة شخصيات اعلامية عربية مثل طلال سلمان وفؤاد مطر ووليد الحسيني، من لبنان واخرين من مصر وفلسطين، وجاء بعدد من الثوريين مثل احمد ابراهيم وموسى كوسه ، ورجلين من الحراك الثقافي الليبي، هما كامل عراب وانا، وعهد برئاسة اللجنة في بداية عهدها الى السيد موسى كوسه، ولعلني حضرت معه جلستين او ثلاث جلسات، هي حدود عملي معه ، الى ان فوجيء به الناس امينا ، او وزيرا للخارجية، قادما من سنوات طويلة قضاها رئيسا لجهاز المخابرات، واختلفت طبيعة العمل في هذه الامانة، فالامناء الاخرون ينظرون الى الموظف معهم من خلال ملفه الموجود لديهم في الامانة، بينما هو اول امين او وزير ينظر لموظفيه ليس من خلال الملف الموجود في الامانة، وانما من خلال ملف سري، هو الذي تحت يده في جهاز الامن الخارجي، ورغم انه امن خارجي فانه لم يكن معنيا باناس غير الليبيين في الداخل والخارج، وما بينهم من معاملات، واضرب مثلا بصديقنا وزميلنا الشاعر محمد الفقيه صالح، وكان نائبا لمدير الادارة الاوروبية، عندما استلم موسى كوسه منصبه في الخارجية، وحدث تغيير في الادارة الاوربية عندما غادر مديرها منصبه الى عمل في الخارج، وكان طبيعيا ان يحل النائب مكانه، الا ان وجود السيد كوسه امينا ، جعلنا على يقين من ان هذه الترقية لن تحدث، لانها ترقية توجبها الكفاءة والتراتبية والمؤهل، ولكن الامين هنا سيحكم من خلال الملف الامني، الذي يقول ان الشاعر الفقيه، سجين سياسي سابق، مهما بلغ التسامح معه ، فلن يقبل كبير البصاصين، بوجوده معه في منصب قيادي، وفعلا تخطاه عامدا متعمدا، وجلب الى المنصب موظف من خارج الادارة، ترشح له عبر ملفه السري.

وباعتباري موظفا ملتحقا بالمندوبية الليبية لدى الجامعة العربية، لا احتكاك بيني وبين الوزير، فللمندوبية مندوبا هو الذي اتعامل معه، الا ان توصية من طبيب في لندن ، يتولى علاجي من حالة مزمنة في الشرايين، لا تمثل خطرا ، ولكنها تقتضى متابعة، راى اذا تيسر لي الانتقال للعمل في لندن، وكان قد صدر بشاني قرار من لجنة العلاج في الخارجية ، هي لجنة تتلقى التقارير، وتصدر بشانها قرارا بالموافقة والرفض، واقتناعا منها بجدية الحالة، وافقت على ذهابي الى لندن للعلاج على حساب السفارة هناك، وما ان باشرت في العلاج ، حتى جاءت برقية اخرى، تامر بوقف هذا العلاج، وخاطبني السفير هناك، ينقل لي فحوى البرقية ويعتذر عن عدم امكانية تغطية العلاج من قبل السفارة، وعرفت ان شابا كثير المزايدة في

الثورية والرعونة ثم تعيينه وكيلا للوزارة بفضل علاقته باحد ابناء العقيد، هو الذي اصدر القرار، معاكسة لي او معاكسة لرئيسه الامين السابق السيد شلقم، الذي كان يهم بمغادرة منصبه، والذي راى ان يكون الحل ليس الذهاب في رحلة علاجية ، وانما الانتقال للعمل هناك، وكنت اعرف ان حالتي انا بالذات تحتاج الى مصادقة من جهة اعلى من الامين، وتولي المندوب الليبي في الجامعة العربية هذه المهمة، بان اخذ التقارير الطبية وكتب مذكرة الى مكتب العقيد، يستنجد فيه بان يصدر توجيهاته بتسهيل هذا المطلب الانساني، وتلقى المندوب ما يفيد بالموافقة، وان الطلب احيل الى الامين الجديد السيد كوسة المكلف بالتنفيذ.

انتظرت اشهرا دون ان يصدر الامين القرار الذي تلقى التوجيه باصداره، وحاولت مراجعته اثناء رحلة الى طرابلس، فوجدته يرفض مقابلتي، ويوصد الباب في وجهي، ويرفض حتى الاجابة على مذكرة استفسار عما صار في طلبي، الذي تحول له من مكتب العقيد، وتطوع صديق اعلى منه مرتبة ، من الجهة البروتوكولية، هو محمد ابوالقاسم الزوي ، الذي كان يحتل اعلى منصب في الجهاز الشعبي ، امينا لما يسمى مؤتمر الشعب العام، للتدخل ، وعرف منه انه فعلا جاءه الطلب بموافقة العقيد، ولكن لديه رايا في الموضوع يريد ان يناقش فيه قائده، وانه لن يصدر قرارا الا بعد اجراء هذه المناقشة، وهنا ابلغت الصديق الزوي، انني شديد الامتنان لما بذله من جهد ، ولكن من الواضح ان للسيد كوسه موقفا ضدي ، ويستطيع وهو يلتقي بقائده ان يقول شيئا يسمم الابار امامي ، وقد يعمد الى ايغار صدره ضدي ، راجيا منه ان يتوقف عن بذل مزيد من الجهد معه، وحاول من جانبه ان يزرع الطمأنينة في نفسي ، قائلا بانني لست المقصود بهذا الموقف المتعنت، وانما نالني نصيب من صراع يحتد بينه وبين المندوب الليبي لدى الجامعة، السيد الهوني الذي كتب المذكرة للعقيد، وهو يدخل معه في معركة وتحديات.

لم استطع ان استفيد من تلك الموافقة للانتقال، ولكنني جددت المطالبة بحقي في تنفيذ قرار اللجنة الطبية بمواصلة علاجي ، على حساب الدولة ، واثناء وجودي في هذه الرحلة العلاجية ترافقني اسرتي، اضاءت سماء العالم العربي تلك الشرارة التي انطلقت اول ما انطلقت من جسد قديس الثورة العربية محمد البوعزيزي، من قرية سيدي بوزيد، لتزرع الامل في قلوب البؤساء العرب ، العائشين تحت اقسى الشروط، واكثرها قسوة والما، والمحكومة باشرس الطغاة واكثرهم ظلما وفجورا.

كنت في لندن عندما تفجر الغضب التونسي يطالب برحيل عصابة الفساد التي يقودها الرئيس زين العابدين بن علي، وكنت التقي باصدقاء من الناشطين السياسيين، بينهم صحفي تونسي هو احمد زعبار، نتابع ما يحدث، ونرى فيه بادرة يقظة شعبية، في تونس ، ولكن لم يصل خيالنا الى انها جزء من حراك او حريق سوف يعم المنطقة، وعبرت لهؤلاء عن سعادتي وانا ارى الرئيس التونسي يخرج على الشاشة، مستجيبا لعدد من مطالب الثورا، في خطبته التي كان يقول فيها "يزي من الخرطوش"، ويتعهد فيها انه لن يجدد ولايته، ولن يسعى لتوريث احد من اسرته ، وسيجري تحقيقا لمعاقبة من تسبب في ايذاء الثوار، اوقتل احد منهم، وجاء باسرة البوعزيزي ، ليقول انه سيصبح هو رب هذه العائلة، التي اضير ابنها، بعد ان امر بوضع كل ما في امكانيات الطب عمله، لانقاذه من اثار الحريق، الذي اودى بحياته فيما بعد، ورايت ان ما قاله ، يحقق مطالب الثوار ، ولابد انهم سيجدون فيه ما يدفعهم الى العودة الى بيوتهم، وانهاء حالة الفوران والغضب. وكان كثير من الاصدقاء يشاركني هذا الراي، الا ان الثورا الشباب في الشارع التونسي ، كانوا يعرفون قوتهم ، ومقدار ما يستطيعون تحقيقه، اكثر مما يعرفه امثالنا من المراقبين للمشهد من مقهى لندني، فقد واصلوا ثورتهم ، وواصلوا وجودهم في شوارع العاصمة، والحواضر التونسية الاخرى، يطالبون باسقاط النظام، ويتجهون للرئيس بكلمة واحدة ، يقولونها له بملء حناجرهم ، وباكثر من لغة: "ارحل" ، "اقوش"، وكانت مفاجأة اثلجت صدور كل من كان يتابع بشوق للحرية والانعتاق، هذا الاداء الرائع لابناء وبنات تونس الثائرين، عندما جاءت الاخباربفرار الرئيس التونسي، وانطلاقه في طائرة خاصة الى جدة، وكان هذا الانتصار الساحق الماحق ، المبهر العظيم، الذي تحقق دون دخول البلاد في حالة احتراب، ولا امتشاق للسلاح من قبل الثوار ، فقط بمسيرات شعبية في

الشارع، حافزا ودافعا لان تتطلع الجماهير في بلاد عربية اخرى تعاني القمع ، ربما بدرجة اكثر سوءا ورعبا من ذلك القمع الذي عاناه الشعب التونسي، الى ان تحقق هي الاخرى، خلاصها عن طريق الاحتذاء بالتجربة التونسية ، وان تختبر هي ايضا، هذه العضلة التي اختبرها الشعب التونسي، وجاءت باكثر النتائج نجاحا وابهارا.

ولم يكن عجيبا و لاغريبا ، وان احتوى على شيء من المفاجئة ، لامثالي ممن وصلوا الى مرحلة من الياس من زحزحة هذه الاوضاع المؤسفة، وهذه الانظمة القمعية الحقيرة، ان ينطلق الشعب المصري، في مسيرة غضب واحتجاج، تشمل كل ميادين المدن المصرية، بدءا باكبر ميادين القاهرة ، ميدان التحرير، واكثرها اتساعا وقدرة على استيعاب الملايين الثائرة، تنطلق لتردد نفس الهتافات ، وعلى راسها " يسقط النظام" ، وتطالب الرئيس بالرحيل الفوري الذي لا يقبل تاجيلا ولا ارجاء ولا يحتمل مماطلة ولا تسويفا.

وقبل ان اعرف تداعيات هذه الثورة في تونس على محيطها العربي، وعلى ليبيا بالذات، باشرت اكتب مقالات التأييد المناصرة لها، وحجزت مكانا في صحيفة اليكترونية، هي اكثر الصحف العربية شهرة واستقطابا للقراء على الشبكة العنكبوتية، وسقف الحرية بها، من اكثر الاسقف ارتفاعا، وصرت اكتب المقالة تلو الاخرى تنديدا بالطغاة في العالم العربي، مبشرا بانتهاء عصر الاستبداد، وفي هذا الموقع واصلت الكتابة ، متنقلا مع ثورات الربيع العربي، واضعا قلمي في خدمة هذه الثورات من بداية المشوار الى نهايته.

كانت فترة علاجي قد انتهت، وكانت تذاكر السفر التي تخصني وتخص افراد اسرتي، تحتم العودة الى مقر اقامتي في القاهرة، وكنت رغم وجود الثورة ضد الرئيس مبارك ونظامه ، قد اعتزمت العودة الى هناك، ومعاودة التحاقي بعملي في المندوبية الليبية، وتصادف ان كان يوم السفر ، في مساء نفس اليوم الذي وقعت فيه موقعة الجمل في ميدان التحرير، كما صارت تسمى، والتي حصل على اثرها انهيار امني فس شوارع القاهرة، واجريت اتصالا باصدقائي في القاهرة اعرف منهم مدى سوء الحالة الامنية، وعرفت منهم ان زملاء لي يعملون في الاعلام ، قد غادروا الى طرابلس ينشدون امنا لم تعد تستطيع القاهرة توفيره، وينصحون بعدم المجيء الى العاصمة المصرية ، حتى انجلاء هذه الحالة، ولم يكن متيسرا استمرار البقاء في لندن، فكان لابد من التضحية بتذاكر العودة التي بحوزتنا وشراء تذاكر جديدة الى طرابلس ، ووجدت مقاعد على رحلة في نفس اليوم، اعادتني مع اسرتي الى بلادنا.

في تلك الاثناء قام العقيد، بتصرف احمق وغبي ، ولم يكن اطلاقا ليقوم به، لو لم يكن حاكما فردا لا يطيق ولا يقبل استشارة احد ولا يرضى ان يسمع رايا غير رايه، وغير ما يقوله راسه، المملوء باوهام العظمة وخداع النفس. فقد اختار ان يضع نفسه، وباختياره، في مواجهة السيل الجارف الذي كان قد طوح بعيدا بالرئيس التونسي، ورمى به الى مزابل التاريخ، وعلى وشك الاطاحة بالرئيس مبارك من عرشه ويرمي به الى عالم السجون والمحاكم والمهانة والاذلال، ليخرج السيد العقيد على الشاشة، في حالة من حالاته العصابية المجنونة، التي تجلت فيها معاني العته والغباء السياسي، يدين هذه الشعوب الثائرة ، ويلعن زحفها النبيل الكريم، واجتياحها بشجاعة وجسارة وشهامة ، اسوار القهر والقمع، تقدم الضحايا، وتبذل الارواح والدماء، تنشد العدل والحرية والكرامة. ولم يكن ينسى وهو يدين الشعوب ، ان يملأ خطابه بكلمات التمجيد والاكبار للطاغية التونسي، والطاغية المصري، ويعتبرهما فلتتي عصرهما، وهبة السماء لشعبهما، وانهما قد اشاعا العدل والرخا والهناء والنماء في ربوع القطرين الثائرين، ولم يكن العقيد العتيد، المذموغ بكل معاني السفه والغطرسة، ان لم يمزج ذلك الخطاب بكل معاني الاهانة والاحتقار لشعبه في دولة الحقراء، فطالب الشعبين العظيمين الثائرين في تونس ومصر، ان يقتديا في الطاعة والخنوع والمذلة ، والتسليم للطغاة، بالشعب الليبي الذي لم يحرك ساكنا ولم ينبس بكلمة اه واحدة، ويتحدث عنه، في طمانينة كاملة، باعتباره يتكلم عن جسد هامد اشبه بالجثة، بعد ان استل منه الروح وامات في قلبه وعروقه نبض الحياة.

حال وصولي الى طرابلس ، بدأت في الاتصال بحلقات الاصدقاء، ممن كانوا جميعا يجلسون مثلي على جمر القلق والانتظار، نراقب ما يحدث في مصر، بعد ان تابعنا بانبهار ما حصل في تونس من انجاز، ونلتقي في المقاهي نناقش تداعيات ما يحدث على ليبيا، وصرنا احيانا نعقد هذه الجلسات في البيوت، باعتبار ان المقهى لا يتيح متابعة ما يجري في مصر، وتونس عن طريق الفضائيات، كما ان هذه الجلسات تضمن ان نتحدث دون تحفظ او خوف ان يسقط كلامنا في اذن جار في المقهى يراقب ويتصنت ويكتب ، كذلك فالتطورات كانت تحدث في كل لحظة، وقد اتاح لنا وجود صديقنا الناشط السياسي محمد بويصير، في طرابلس، فرصة بيت يسكنه بمفرده في سط البلد، نستطيع ان نلتقي عنده، نشاهد تطورات الموقف المصري، ولانه جاء بامل ان يرى كوة تفتح في جدار دولة الاستبداد الليبي بعد سنوات كثيرة من الغياب عن ليبيا، فقد كان اكثرنا سعادة لانه لا يرى الان مجرد كوة في الجدار، وانما يرى ان الجدار كله ينهار ، وكان يقول، ردا على سؤال ما اذا كان ثمة امل في ان يصلح النظام نفسه في مواجهة هذه التحولات ،ويسعى لبث روح جديدة في مشروع الابن ، بان العقيد وابنه ، قد تجاوزهما الزمن وتجاوز مشروعهما ،وصارت هذه المشاريع الاصلاحية ، ما كان منها مجرد عملية تجميل او حقيقة، جزءا من الماضي. دون ان نعرف على وجه التأكيد ما سوف تسفر عنه الايام القادمة في ليبيا، كجزء من تداعيات المشهد العربي . وكنت التقي باصدقاء كثر منهم الصديق الذي اسهمت معه في اعادة تأسيس حزب المؤتمر الوطني ، دكتور مسعود الكانوني، وكذلك الدكتور فوزي عمار، والدكتور امين الميرغني، والزميلين حسين ومصباح المزداوي، والشاعر عبد الرؤوف بن الامين، وشقيقي محمد ومفتاح الفقيه، وكان السؤال الذي يحرق افئدتنا ، ماذا عن ليبيا؟ نعم ، كنا نعرف ان هذه الاحداث في شرق ليبيا وغيرها لن تمر اطلاقا دون ان يحرك الارض تحت اقدام النظام، انه زلزال هز الارض بعنف عن شمال ويمين النظام، فلا عاصم منه هنا ايضا، ولكننا نعرف ايضا الطبيعة العنيفة لرأس النظام، بل واجرامه وجنونه في حالة ظهور شيء يهدد وجوده، وندرك صعوبة ان نرى ميدان تحرير في ليبيا، بمعنى جماهير تخرج للشارع وتلتقي في الساحات العامة، لان النظام هنا لن يضربها مثل مصر وتونس ، بالقنابل المسيلة للدموع، او يرش عليها خراطيم المياه. انه لن يتورع عن ضربها بالسلاح الكيماوي، وابادتها في التو واللحظة، ولهذا فان شكلا من اشكال التحرك سيحدث لا محالة، الا ان المواجهة ستأخذ شكلا مختلفا.

كان الشباب الليبي، من اصحاب المواقع في الانترنيت، وصفحات التواصل الاجتماعي في الفيس بوك وتويتر، قد اتفقوا على تحديد موعد للاحتجاج هو يوم 17 فبراير ، ذكرى المجزرة التي ارتكبها النظام امام القنصلية الايطالية في بنغازي، قبل ستة اعوام، ورغم ذلك، ظل حديثنا عن هذا اليوم يكتنفه الغموض، وبالذات من ناحية الصيغة التي يمكن ان يتخذها هذا الاحتجاج، ولكن الثقة في ان الزلزال قادم لم يكن يخالطها اذنى شك، ما عدا بعض من كنت اتصل بهم من الدوائر الحاكمة ، والحق ليس بهم ، وانما اطراف قريبة منهم ، كانت تعكس حالة انكار تشوب موقفهم وتشبه حالة رئيسهم، واكثرهم توقعا للسوء كان لا ينتظر غير بعض مظاهر الشغب التي كان يستعد لها بتحوطات امنية ، اما ان يستجيب النظام لنداءات تطالب بسرعة ان يتلافي العاصفة او الاعصار او الزلزال بخطة للنجاة، فلم يكن واردا.

للشعوب عبقريتها التى تاتي مثل فيوضات النبوة، وتنطلق بعفوية وقوة ودون تخطيط ، كما يتفجر نبع الماء في صحراء قاحلة، وبدات بوادر تظهر هنا وهناك ربما غير ظاهرة لنا في وسط العاصمة، وبدا خوف النظام يتنامي، وجاء صديق يقول ان هناك اجتماعا عقدته اللجان الثورية في مسرح الكشاف، حتى غص بهم المسرح، الى حوافه، وسمعوا كلاما عن ضرورة الاستعداد باقامة مظاهرات مضادة، لما يتوقعونه من مظاهرات في يوم 17 فبراير، وكان الارتباك واضحا في صفوفهم، كما لم تكن هناك خطة غير هذا الكلام العام، عن مواجهة المظاهرة بمظاهرة، وتناثرت كلمات عن اللجوء لاخراج المساجين الجنائيين من السجون، وتسليحهم وامرهم بالتعامل جرحا او قتلا مع كل من يتفوه بكلمة معادية للنظام، وهو كلام افزع المجتمعين انفسهم، لانهم خشوا ان يكونوا ضحايا مثل هذه الفوضى التي تريدها القيادات الثورية، واسلوب بقر بطون المتظاهرين ، فكان هذا سببا لنفورهم وقرار بعضهم ان

ينأى بنفسه، ويبقى في بيته، وما عرفته من مثل هذا الكلام ان هناك حالة من الفزع، تنبيء بان ثمة شيئا قادما، لم تتضح ملامحه بعد، ولكنه قادم لا محالة، وراى الناس يوم 15 فبراير، شرارة صغيرة ، اوشهاب اضاء الافق للحظة قصيرة ، ولم يكن ينبيء باشتعال الحريق الكبير الذي انطلق فيما بعد، ولكنه المح الى ان حركة ما قد بدات، عندما انطلقت في ذلك اليوم مظاهرة من اسر ضحايا ابو سليم، وصل خبرها الى قناة الجزيرة، احتجاجا على احتجاز محامي هذه العائلات.

وكان السؤال الدائر هو ما العمل؟

نقوله نحن كاناس نريد ان يكون لنا دور في اسقاط النظام، ويقوله اخرون يريدون المحافظة على النظام، وجاء نداء اخطرني به الدكتور مسعود الكانوني، يقول ان هناك بادرة لحوار تتجنب به ليبيا الاحتراب والدماء، ولكن طبيعة هذه الثورة كانت تنبيء بان افاقها ابعد من اي حوار، مع نظام حان له ان يختفي من الوجود، وتبادلت حول هذا الموضوع بضع كلمات مع المسئول النفطي في ذلك الوقت المرحوم شكري غانم، وكان رايه هو الاخر بانه لات ساعة حوار، وان المجابهة ستكون عنيفة، قوية ،شرسة، تتعطل فيها لغة الكلام . وقد نقلت ما قاله لي، لاصدقاء بينهم الدكتور الكانوني، لتاكيد ان لا جدوى من قيام اي حوار مع النظام ، وانه حانت قيامة هذه النظام، الذي ذقنا منه الويلات على مدى اكثر من اربعة عقود، ولا بد ان ينتهي تحت هذا الطوفان الثوري العارم، الذي بدأ تدريجيا يتنامى هديره في كل ارجاء البلاد، وتفاقم الوضع في بنغازي في اليوم الثاني والثالث، وجاءت اخبار بوادر عاصفة تنطلق في شعاب الجبل الغربي بؤرتها الزنتان، وبدات طرابلس رغم التحوطات الامنية ، ورغم شراسة التعامل مع المتظاهرات والتجمعات التي تريد الانطلاق الى الميادين، ترفع صوتها ، ويزداد قمع النظام لها ، في العاصمة ، وهو موجودبكل ثقله فيها ، وهتافات اهلها تصل الى راس النظام، القابع في واحد من ميادينها، في ثكنة باب العزيزية. بدأت فرق القناصة تنتشر فوق السطوح، لتتجه برصاصها الى رأس كل من يبادر بالتظاهر، وبدا لي ان الحاجة الان في هذه الايام الاولى للثورة ، هي ضرورة انبثاق جسم لقيادة الحراك، يقدم نفسه للعالم كبديل للنظام وقيادته، ليبدا في استقطاب التاييد العالمي، وسحب البساط من تحت هذا الحاكم الذي ملات راسه اوهام انه الحاكم الابدي السرمدي، واردت ان اصل بالفكرة الى اي انسان في الخارج يملك حرية الاتصال، ويبلغ بها اهل الثورة في بنغازي والخارج، وجازفت بالتواصل عبر الفيس بوك ابحث عمن ابلغه بالفكرة، رغم مخاطر الرصد، الذي عني تهمة الخيانة، ووجدت صديقا يقيم في امريكا موجودا معي، في غرفة تشات على الفيس بوك هو السيد عادل بريون، واسرعت ابلغه بفكرة الجسم البديل، وهو يطلب شرحا وافصاحا، وانا احاول ان اتجنب مزيدا من التورط، قائلا له، خذ الفكرة وقلبها في راسك، وستجد الشرح، وكنت اعرف ان هناك جيشا اليكترونيا خصص له طابق كامل في مؤسسة الصحافة، غير جيوش اخرى تتصنت وتراقب في اجهزة الامن، وطبعا عرفت فيما بعد ان اناسا ضبطوا يتناقلون كلاما عبر الفيس بوك والهواتف النقالة وتم القبض عليهم واعدامهم.

واحد من فاتحتهم في الموضوع الصديق محمد ابويصير ، وكان لا زال في طرابلس ويتأهب، للرحيل الى بنغازي، ووجد فيما يبدو رفيقا وسيارة صحراوية تستطيع قطع الطريق ، عندما تنحرف عن الطريق الساحلي المعبد، حيث مواقع الاشتباك قريبا من مصراته وربما اجدابية، وخوض الطرق الرملية وصولا الى بنغازي. وذهبت للقائه لحظة سفره ، حيث انتظرته في فندق المهاري، وكانت السيارة جاهزة للانطلاق به، وافرحني انه ربما بعد يوم واحد يكون في عاصمة الثورة وينقل هذه الفكرة الى هناك، وبلورتها مع الثوار، ولكنه للاسف الشديد، لم يستطع الذهاب ، فقد عرف انه كان ملاحقا ، وانه لابد ان يخبيء نفسه في احدى المزارع خارج طرابلس ، لكي لا يقع في يد الحواجز التابعة للكتاب ، الى ان يجد خبيرا صحارويا ينفذ به ، عبر الصحراء، وهو ما اقتضاه اكثر من اسبوع في الانتظار ، وفعلا سافر فيما بعد ووصل بسلامة الله الى هناك، وكنت سعيدا وانا اراه يخرج على قناة الحرة يهاجم النظام ويتنبا بسقوطه ، من بنغازي، وكان المجلس الانتقالي في ذلك الوقت قد تحقق ، وما كنت اراه حلا، كان قد ورد في اذهان غيري، وبدأ الطريق لنجاح الثورة الوليدة ، يتاكد يوما وراء الاخر.

كنت ومنذ الايام الاولى لتفجرها، وربما قبل ذلك، الالتحام بهذه الثورة ، والمساهمة في انجاحها باية وسيلة ممكنة ، وكانت وسيلتى الاولى بطبيعة الحال هي قلمي ، وسيكون هذا القلم اداة معطلة ،اذا لم اخرج من حصار النظام في طرابلس وانطلق في التعبير عن الثورة بملء حريتي خارج حصاره، ولم يكن هذا الذهاب الى الخارج مجديا ،الا اذا اخذت معي كامل اسرتي، اي كامل اعضاء الدائرة الاولى من الاسرة، لكي لا اترك ورائي من يمكن ان يكون رهينة يبتزونني بها، وكانت الدولة التي املك مبرر السفر اليها هي مصر، باعتباري سالتحق بعملي هناك، فاشتريت تذاكر الى القاهرة عن طريق الخطوط المصرية. وكان المطار قد استقطب كل العمالة الاجنبية، فصار منذ اليوم الثالث او الرابع للثورة، كانه يوم الحشر، وكان حجم المعاناة فظيعا ونحن نحاول ان نعبر امواج البشر الى اماكن الوزن، ورغم الحجز والتذاكر ، الا ان شركة الخطوط المصرية كانت تعتذر عن اخذنا نحن الزبائن العاديين، من غير المصريين، لان كل الرحلات كانت مخصصه لترحيل العمالة المصرية فقط، وتكرر ذهابي مع اسرتي الى المطار اربعة او خمسة ايام متوالية دون فائدة، مع كل ما رافق ذلك من معاناة لان هناك في الاسرة احفاد دون العاشرة، وكانت المشكلة ان المطار مهدد بالوقوف عن العمل، لتصاعد حدة الاحتراب، وتصادف في اليوم الخامس من ترددنا على المطار ان جاء من قال ان هناك رحلة اخيرة للخطوط التركية الى اسطنبول، وانه يتوفر فيها مقاعد شاغرة، اذا كنا نملك ثمن شراء التذاكر، لانها لن تقبل تذاكرنا المصرية ، ولا ادري كيف استطعنا بقدرة قادر، ان نجمع ما كان في حوزة الجميع من نقود، غطت الثمن، وكانت الفرحة طاغية ، عندما وجدنا انفسنا امام ميزان الحقائب ، نصرف مقابل التذاكر اوراق الصعود، ونستلم ارقام بطاقات الحقائب التي سنتسلمها في مطار اسطنبول، وقبل ان ندخل قاعة الانتظار ، ونجتاز بوابة الجوازات، رايت شرطيا يطلب مني ان ارافقه الى ادارة الامن ، لانه كما قال رانى اقوم بتصوير المطار بجهاز الموبايل، وهو ما لم افعله، ولكنه تهيا له ذلك ، وسالته ان كان المطار اصبح سرا حربيا ، فقال ان التعليمات تقضى بحجز كل من يقوم بالتصوير، وفي مكتب الامن وجدت نفسي اجلس قلقا انتظر نتيجة فحص الموبايل، ثم جاء من اخذ مني جواز السفر، ولم ارتح الا عندما جاء ضابط يعيد لي الهاتف، بعد ان وجده خاليا من الصور، وكان ثمة متسع للدخول الى الحظيرة الجمركية وختم الجوازات، وعندما صعدت بنا الطائرة الى الاجواء، تنفست الصعداء، وانا على يقين كامل انني اغادر الان ارض البلاد التي تسمى الجماهيرية العظمي، ولن اعود اليها وهي تحمل هذا الاسم، ليس فقط ليقيني بنجاح الثورة، وهو يقين موجود، ولكن ايضا لان خروجي بهدف الانضمام الى الثورة، يعني قطيعة مع هذاالنظام ورموزه ومفرداته وقاموسه بحيث لن استطيع ان اعود الى بلادي في ظله، حتى لو تاخر سقوطه بضعة اعوام.

لم تكن اسطنبول الا نقطة عبور، الى المحطة، التي اقصدها، وهي القاهرة، وما ان وصلت اليها حتى باشرت الاتصال بقوى الحراك الثوري هناك، وحضرت اكثر من اجتماع كان يعقد في بيت الحاج فرحات الشرشاري ، المعارض الذي صار عضوا في المجلس الانتقالي، وكان رئيس البعثة السياسة بجامعة الدول العربية، التي اعمل بها ، السيد عبد المنعم الهوني، قد اعلن انشقاقه، واعتبار المندوبية تابعة للحراك الثوري، وتولى مهمة التنسيق مع قوى الثورة في بنغازي، فصرت اعمل قريبا منه ، وباشرنا العمل في البداية من مقر المندوبية، الا ان مصر الرسمية ورغم نجاح ثورتها ، كانت ما تزال ملتزمة مع النظام الرسمي الذي يحكم البلاد، وكان لابد ان تستجيب لارادته عندما اعلن عن تعيين امراة كانت مندوبة سابقة ، طالبت بحقها في استعمال مقر المندوبية، وبسبب اصرار الثوار على البقاء في المقر ، تقرر منعا للصدام قفل المندوبية وعدم تسليمها للطرفين. الا ان سلطات الثورة المصرية ، بما في ذلك المجلس العسكري ، ورغم عدم الاعتراف الرسمي بالثورة، كانوا لا يترددون في تقديم العون والمساعدة، واستطاع السيد الهوني ، استخدام علاقاته، مع المجلس العسكري في الحصول على صنوف من الدعم والمساعدة للثورة، في وقت كانت فيه الطلائع التي تصدت للثورة في بنغازي تعمل بلا ميزانيات، ولا قدرة على سد مصاريف العلاج ، للاعداد الكبيرة من الجرحى التي تفد الى مصر، حيث تم تامين اماكن لهم في بعض المستشفيات العسكرية ، علاوة على الحراك الاغاثي الشعبي الذي كانت تتولاه اكثر من لجنة من اعضاء

الجالية في مصر، كما كنا نكاتب المجلس العسكري باصدار تراخيص للسلاح الذي ياتي للثوار عن طريق المرافيء الجوية، ويخرج عن طريق منفذ السلام ، واحيانا اجهزة اتصلات او البسة عسكرية، او نقليات او ستر واقية من الرصاص، لان كل جهود المنخرطين في الثورة في الخارج ، وما يتم شراؤه من معدات ، كان غالبا ما يصل الى قيادة الثوار عن طريق مصر.

كان العمل مع السيد الهوني ومع الجهد الاغاثي عملا ثانويا بالنسبة لي، لان العمل الاساسي ، والمهمة التي اعرف انني استطيع ان اقوم بها اكثر من غيري، هي الكتابة ، التي اعطيتها اولوية عن كل شيء اخر، وطبعا وضعت على جنب، مشاريع ادبية، بينها مذكرات كنت قد انخرطت في كتابتها، وانصرفت انصرافا كاملا لكتابة مقالات التاييد والمناصرة للثورة ، وفضح وتعرية النظام الانقلابي، وكشف سجله الاجرامي، ووجدت صديق لي في مصر، يتولى صحيفة اخبار الادب، هو مصطفى عبد الله الذي استعان بي في اصدار اكثر من عدد من صحيفته، عن الربيع العربي ، وفي هذه الصحيفة نشرت الجزء الاكبر من كتابي عن العقيد ، الذي خرج في جزء خاص من هذه الصحيفة تحت عنوان لكي لا يظهر طاغية جديد، وكتبت في صحف الاهرام والحياة والشرق الاوسط ، اما الصحيفة التي كانت قادرة على استيعاب مقالاتي ، منذ بدء ثورات الربيع العربي ، فهي صحيفة ايلاف التي كانت تنشر لي في تواتر وانتظام ربما اكثر من مقال كل اسبوع ، تنقلها بعد ذلك بعض المواقع الاخرى ليبية وغير ليبية، وكان زملاء من اهل الصحافة المتابعين للشأن السياسي، قد اتجهوا لي لاجراء المقابلات والتحقيقات الصحفية التي تشرح الحالة الليبية ، فوضعت نفسي رهن اشارتهم ، لا اتاخر عن تقديم هذا التوضيح والشرح لكل من يريده، كما كنت التقي بعدد من المراسلين الاجانب الذين اسعى لتوضيح الصورة لهم ، تصحيحا لمعلوماتهم عن ليبيا وعن الثورة وعن النظام ، وليس بالضرورة عبر لقاء صحفي يظهر فيه اسمي ، اما الظهور التليفزيوني فقد اقتصر على القنوات المصرية ، ولم يتكرر ظهوري كثيرا في القنوات التي تبث خارج مصر، باعتبار ان هناك من يتولى التغطية بل ان بعضهم اقاموا في الدوحة او في الامارات لكي يكونوا قرب محطات اخبارية مكرسة لتغطية ثورات الربيع العربي. وحدث في مرحلة متاخرة من الثورة ان اتصل بي صديق جزائري يعمل مذيعا لبرمج المقابلات في الجزيرة، هو الاستاذ محمد++++ ، واتفق معي على اجراء ساعة حوار، وقال انه سيحتاج فقط الى اخذ مصادقة من لجنة تمر عليها الاسماء، ثم لم يعد لي ، مما فهمت معه ان اسمي موجود في لوائح الحظر في تلك الفضائية، ضاربة عرض الحائط بشعارها الشهير "الرأي والراي الاخر"، على الاقل في تعاملها معي.

وكما اسلفت فقد جاء الربيع العربي وانا منخرط في كتابة هذه المذكرات، وكنت انجزت جزءا كبيرا منها ، واصبح اصدقائي وقراء يتابعون انتاجي على علم بذلك، لانني دعيت لالقاء محاضرة عنها في المنتدى الثقافي العربي في لندن، وتناولت الصحف تلك المحاضرة ومقتطفات مما عرضته من المذكرات، ولكنني ما ان لمعت في الافق شرارة الثورة ، حتى انصرفت اليها انصرافا كاملا، وتركت المذكرات، وتركت مشروع رواية كنت قد انجزت جزءا منها، وشرعت في انجاز الجزء الثاني منها، هي جنائن العرعار، وانصرفت طيلة عام الثورة ، وربما ازيد من عام انصرافا كاملا للكتابة عنها، وتدريجيا بدات اعود الى برنامجي السابق للثورة، دون ان اتخلى عن مواكبة الحراك الذي اعقب الثورة بالمقالات التي اسهم بها في ابداء رايى فيما اراه، من ارتباك وفوضى وسوء تفكير وتدبير، وضبابة سادت المشهد السياسي الليبي بعد الثورة، املا ان اضيف فكري الى افكار غيري من اصحاب الافكار ، علنا نفلح جميعا في ان نصنع خيطا من الضوء يهدي البلاد الى طريق الخلاص. وانتقيت من مجمل هذه المادة ما تم تجميعه في عدة كتب، بدات تصدر تباعا هي "القذافي ، البداية والنهاية" و "عبقرية الثورة " و" في هجاء الطغاة" و"ليبيا بعد القذافي" وضمنت هذه المادة في كتب ليست مكرسة كلها للثورة مثل "حياة من حبر وورق" و" نحو خطاب ثقافي جديد" و "مع ايقاع العصر".

هذه المشاركة الذؤوبة في الحراك الثوري ، لم تمر دون رد فعل من النظام، وقد كان كل ابنائي واحفادي خارج البلاد، ما عدا اخوين لي هما محمد ومفتاح الفقيه ، وقد استاذنت منهما، وقلت لهما قبل

ان اعلن موقفي، بانضمامي للثورة، فلم اجد منهما الا المباركة، وقلت لهما باعتبارهما مقيمان في البلاد، بالا يتحرجا من استصدار اي استنكار لموقفي اذا طلبت منهما ذلك احدى الجهات الامنية، ولكنهما اكدا موقفهما المؤيد للثورة، وعملا ما في وسعهما لمناصرتها في صمت ودون ضجيج، وفعلا شارك اخي مفتاح في اول المظاهرات، اما اخي محمد ، فله ابن مهندس يتابع دراسته في الخارج، جاء الى ليبيا والتحق بالزنتان ، حيث تدرب على السلاح وانضم الى الثوار وبقى معهم الى يوم الدخول الى طرابلس والوصول الى باب العزيزية.

كانت التهديدات لمعارضي الخارج ، تنشر في قنوات النظام ،وكان يقول علنا بوجود فرق الاغتيال التي تستهدف اعداء النظام في بلدان يسميها بالاسم مثل مصر، بل يسمى الفرق المسئولة على الاغتيال، وكان اصدقاء كثر يحذرونني، من احتمال استهدافي بعملية اغتيال، ليس لاهميتي في المشهد النضالي، ولكن لانني صيد سهل ، فانا لا املك حراسا، ولا اتوخى اي نوع من الحذر في حياتي ، ثم ان لي بعض الصيت والسمعة التي تجعل النظام عندما يستهدفني فانه سيحقق دعاية كبيرة ليده الطويلة التي تنال الاعداء، وكانت هذا النصائح باتخاذ الحيطة والحذر تاتيني من سياسيين يعرفون بطش وغدر النظام مثل الصديق عبد الرحمن شلقم والصديق عبد المنعم الهوني. خاصة وان الاعلام التابع للنظام استهدفني بحملة لم يتعرض لها الا قادة الثورة ، وذلك في الحصة الشهيرة التي يديرها بوق من ابواق النظام السمه الصادق شاكير، وتابع له يقدمان برنامجا اسمه عشم الوطن، وخصصا حصة عني ، مليئة بالسباب والشتائم وانني انكر فضل النظام والقائد ، واراد ان يحرض الامن ضدي وضد ابن من ابنائي هو هشام احمد الفقيه، يعمل في احدى الشركات في النيجر، وكانت طبعا محطة لعملاء النظام، فركضوا اولئك العملاء يحاولون ايذائه وتمكن من الهروب باعجوبة من العاصمة النيجيرية، وشجع كلام البرنامج بعض اهل الولاء ، من اجل تحقيق مصلحة، فجاءوا تحت حماية الكتائب، لمهاجمة بيتي في طرابلس، واعطائه لاحدى العائلات ، ولكن الجيران ذهبوا لتلك العائلة، وحذروها بان لصاحب هذا البيت اعوانا بين الثوار ، وان العائلة لن تامن على اطفالها ونسائها اذا اغتصبت البيت، وسكنت فيه، وفعلا تراجع افرادها متخاذلين، ولكن بعد ان عملت الكتائب تخريبا وتفتيشا في البيت.

ورغم ضآلة عدد سكانها، ووجودها في صحراء مفتوحة لا تحميها جبال ولا غابات نخل ولا احراج، فان البلدة التي انتمي اليها، مزدة، واهلها قنطرار الذين يشكلون عائلة كبيرة ، كلهم بالنسبة لي ابناء اعمام وعمات، كانت احدى اول المواقع التي رفعت راية الاستقلال، وداهمتها اكبر كتائب النظام وهي كتيبة سحبان، وخاض الناس هناك منازلة معها بامكانيات بسيطة، واسلحة بدائية لا تزيد عن بعض البنادق، وتجلت في هذه المنازلة روح البطولة والاستبسال وسقط من مزدة عدد من الشهداء، وكانت جغرافيا تقع في الخطوط الخلفية لبلدة الزنتان، تقدم الدعم والسند لثوار الزنتان وتحمي ظهرهم، ورد ثوار الزنتان الجميل عندما رجعت كتيبة سحبان للانتقام، فردوها ، وعندما استعانت برتل من الكتائب لدك البلدة، ذهبت اشارة الى الناتو الذي ارسل قاذفة اعاقت الهجوم وحمت البلدة من الدمار.

وخلال اشهر الثورة شاركت في عدد كبير من الندوات والفعاليات التي تقام لمناصرة الثورة في مصر، اقيمت اغلبها في مقر اتحاد كتاب مصر في الزمالك، ونقابة الصحفيين في مركز المدينة، كما اقام اهل الحراك الليبي اكثر من ندوة شاركت في فعاليتها، اقيمت اكبرها في احدى قاعات جامعة الازهر، ودخلت اكثر من معركة مع رموز السياسة المصرية من مناصري النظام الليبي، الذين اصدروا البيانات وعقدوا الندوات ضد الثورة الليبية، وحملت بعض ردودي صحيفة الاهرام نفسها، وبين هؤلاء الذي كنت مضطرا للرد على الدفاع المستميت الذي دافع به عن العقيد، الصحفي الاشهر في تاريخ الصحافة العربية المعاصرة السيد هيكل، واحتفت بالرد صحف ومواقع كثيرة، اقتصرت فيه على رد ما اورده من نقاط عن فضائل النظام التي رايتها مثالب وعيوب، دون ان اتعرض لشخص السيد هيكل وتاريخه. وكان غريبا وبعد ستة اشهر من الثورة ، وسقوط ارتال من الشهداء، ان نجد من زملائنا في الحراك الثقافي ليبيين وعرب ، من مازال يريد الترويج للنظام المنهار ، ويؤيد جرائمه وفجوره ، لانني وجدت نشاطا محموما في القاهرة

لاستنفار عدد من المثقفين والادباء للذهاب الى طرابلس فيما اسموه الاحتفال بثورة يوليو هناك، ووفود تاتي من طرابلس تحمل هذه الدعوات ، وطبعا قمت بجهد في التواصل مع الذين تلقوا هذه الدعوات، اسالهم رفضها، لانهم يخاطرون بحياتهم، وان الثور هناك سيستهدفون اي حفل مثل هذا لاعتباره موقعا حربيا مناوئا، فالدعوة هي دعوة لان يلاقي حتفه هناك ، وبهذه الطريقة استطعت افشال المشروع واعتذر كثيرون كانوا قد وعدوا بالحضور عن السفر.

ولم اكن اتردد في تلبية دعوات كانت اهمها دعوة لحضور اتحاد الكتاب الافارقة في اديس ابابا، وكانت المحاضرة التي القيتها امام اعضاء الاتحاد، باللغة الانجليزية، عن دوافع واسباب الثورة الليبية، وحضرت عشاء في القصر الجمهوري، وبحضور رئيس الاتحاد، السيد اوكاي، شرحت للرئيس الاثيوبي، كل ملابسات الثورة، ورايت منه تعاطفا كبيرا، واستهجانا لسلوك الحاكم الليبي الذي يقتل شعبه، ويدمر مدن بلاده، ورفعت اليه رجاء ان ينقل هذه الصورة لزملائه رؤساء افريقيا، لان هناك من لا يزال يدافع عن هذا الجرائم التي يرتكبها النظام الليبي، وقدمت له صورة من المحاضرة التي القيتها في المؤتمر.
وكنت اريد ان اتجنب الاتصال بسفارة النظام في العاصمة الاثيوبية، رغم وجود صديق يتولى رئاسة البعثة، ورئاسة الوفد في الاتحاد الافريقي، هو السيد على عويدان، الا انني فوجئت به يتصل بي ويحضر لرؤيتي في المؤتمر، وعندما ابديت ليه استغرابي لانه لم يكن خائفا من مخالطة احد المجاهرين بالعداء للعقيد، عرفت انه اكثر عداء مني له، وانه من مناصري الثورة، الا انه تلقي نصيحة من بعض اهل الحراك الثوري الا يعلن انشقاقه، وان يحتفظ لنفسه بحق الدخول الى المنظمة الافريقية، ليستخدم موقعه في صالح الثورة، كذلك مركزه في السفارة، ورايتها فعلا سياسة اكثر نجاعة من مجرد اظهار الموقف ،دون الاهتمام بفعالية العمل وجدواه، حتي لو كان على حساب المظهر.
كذلك فقد ذهبت في رحلة الى المملكة المغربية اثناء الثورة ، ووجدت هناك رايا عاما داعما ومناصرا، خاصة في اوساط ثقافية وادبية، ربطتها بالوسط الثقافي الليبي اوثق العلائق. وكنت جاهزا لتلبية كل ما جاء من دعوات لاجراء مقابلات صحفية، تفضح وتعري جرائم النظام الليبي، وجاء وفد للترويج للثورة من طرف المجلس الوطني، الانتقالي، ووضعت نقابة المحامين مقرها تحت امرنا، ودعاني الوفد للمشاركة في ندوة سياسية ثقافية ، لمناصرة الثورة، وجمعني اثناء شهر قضيته هناك اكثر من لقاء من عدد من زملاء العمل في المجلس القومي للثقافة العربية ومجلة الوحدة، من مفكري المغرب ، وكانوا سعداء بالثورة يهنئونني بما حدث لانه اثناء عملنا في المجلس يعلمون بمدى انتقادي لمساخر النظام ومهازله، وكنت دائما صريحا معهم، في الكشف عن مثالب النظام وجرائمه ، وكنت كما كانوا جميعا، حريصين على اداء عملهم دون الوقوع في تناقض بين الوفاء لالتزامنا الفكري، والوقوع في مصانعة وممالأة النظام الاستبدادي في ليبيا، والتقينا في اكثر من ندوة على غداء او عشاء، كانت احداها في بيت الكاتب والروائي الدكتور محمد التوفيق وزير الاوقاف المغربي، الذي كان على علم بدقائق المشهد الليبي، وسبق ان استضاف بعض القياديين من اهل الحراك الثوري، واسهم في اقناع الملك والقيادات المغربية بحقيقة الموقف الدائر في ليبيا.
ووجدت بين اعضاء الجالية حراك ثوري، وهي جالية اعرف عددا من اعضائها منذ سنوات اقامتي في الرباط، فكنت موجودا بينهم في حلقات النقاش والمتابعة والتقييم والتواصل مع رموز المجتمع المغربي ، وهناك ايضا تجنبت اي اتصال بالسفارة باعتبارها ترفع الخرقة الخضراء ، تابعة للنظام الانقلابي ما تزال، ولكن المفاجئة المبهجة هي ان وجدت عددا من شباب الديبلوماسيين يتصلون بي، للتعبير عن مناصرتهم للثورة وتاييدهم لها ، وفعلا التقيت بهم لاجدهم، يتخذون من عملهم الديبلوماسي غطاء للمساعدة في الحراك الاغاثي، ويستفيدون من جواز سفرهم الديبلوماسي والحصانة الممنوحة لهم في الحركة والاتصال، بعيدا عن رقابة الرقباء، ورصد العناصر المعادية من ازلام النظام. والتقيت في الرباط، بسفير ليبيا في مالي ، هو الدكتور على الماقوري، وقد جاء الى الرباط ، لان هناك مدرسة ليبية ، تجري امتحانات شهادة

اعدادية ، للمنخرطين في التعليم بالمناهج الليبية، ولا وجود لغيرها في مالي ، احضر لها اولاده، ورغم انه لازال منخرطا في العمل سفيرا للنظام، الا انني وجدته هو الاخر قلبا وقالبا مع الثورة، وفعلا اجريت اتصالا بموافقته مع الصديق شلقم في نيويورك الذي كان مكلفا من قيادة ثورة 17 فبراير بان يكون منسق الحراك الثوري في السفارات ، واخذ علما بوجوده في صف الثورة، وانه يقوم برصد لقوائم المرتزقة الذين ذهبوا الى النظام من مالى عبر وسطاء وصفقات وبيع وشراء، ورحب به ضمن المنضوين تحت لواء النضال ضد الطغيان، واشاد باهمية المعلومات التي يملكها لحظة وضعها في يد المحكمة الجنائية، واراده ان ينتظر في سفارته الى حين صدور تعليمات له. ولم يزدني التقائي بهذه الشرائح المنخرطة في الحراك الثوري ، بمافيها ديبلوماسيون ليبيون، يعملون للثورة ، رغم وجودهم في مواقع رسمية تحت سلطة النظام، الا اقتناعا بان النظام في طريقه الى السقوط، والى هزيمة حتمية ، لن يطول مداها ، فقد اصبح رصيده من المؤيدين، يتراجع الى خانة الصفر، خاصة بين القوى الفاعلة، في الخارج والداخل.

وعدت من رحلة المغرب،لالتحم مجددا بالمشهد الذي يزداد زخما وقوة في مصر، فسفارة النظام ، تعطلت عن العمل لان الثوار يحاصرونها بشكل يومي، الى حد الاشتباك مع البوليس المصري، الملكلف بالحماية، وكان زحف الثوار على الجبهات يزداد قربا من العاصمة ، بدعم من قوات الشرعية الدولية ، التي اقتصر دعمها على المجال الجوي، وقوات النظام في تقهر وانهيار، ونحن نستعجل يوم النصر العظيم ، ورغم وجودي في قلب الحراك السياسي الداعم للثورة في القاهرة، الا ان عملي لم يقتصر عليها فقد كتبت مادة لقناة العاصمة التي انطلقت من تونس وكانت تبحث عن عناصر فاتصلت بمن اعرف من اصدقاء اعلاميين في تونس للانخراط معهم وبينهم الاعلامي القدير عزالدين عبد الكريم الذي قام بالاتصال وقدم المشورة والخبرة، وابلغني الصديق المصور محمد كرازة بانه سيسعي لاعادة اصدارجريدة طرابلس الغرب التي عملنا فيها سويا في العهد الملكي فحاولت مساعدته وتشجيعه، وكان جميلا ان اراه يقوم بلقاء صحفي مع الشاعر التونسي الذي كتب نشيد الاستقلال في اربعينيات القرن الماضي، وانه موجود على قيد الحياة، السيد بشير العريبي، وفعلا تبادلت كلمات معه عبر الهاتف وسمعت الى دعائه بالتوفيق وثقته في النصر ، وان نشيد يابلادي ، سوف يعود نشيدا ليبيا الوطني من جديد، فازددت تفاؤلا بان يوم النصر قريب جدا باذن الله.

وفعلا تحقق هذا النصر، يوم ان سقطت طرابلس على ايدي الثوار ، وانتشرت على شاشات المحطات التلفزية في بلاد العالم باجمعها ، صور زحفهم على باب العزيزية ، مقر الحاكم ، الذي كان بؤرة الفساد والاجرام، وهاهو يسقط اليوم بين ايدي الضحايا، الذين مارس عليهم هذا المعسكر وساكنيه، قمعهم واجرامهم وفجورهم على مدى اثنين واربعين عاما ، كالحة سوداء.

ارتفع العلم المثلث الالوان ، ابو نجمة وهلال، من جديد، فوق ما تبقى من اسوار باب العزيزية ، معلنا عودة النظام وعودة الاستقلال وعودة الشرعية ، الى حكم الا نظام وغياب الحرية والاستقلال وانعدام الشرعية.

وبمثل ما تفجرت الاحتفالات في طرابلس ومختلف حواضر ليبيا وقراها واريافها، تفجر ايضا في تونس وفي القاهرة ، بما فيهما من كثافة سكانية، نتيجة الاحتراب وهروبا من بطش النظام، وكانت ليلة ليلاء عشناها في القاهرة، حيث تم زحف الناس على السفارة ووضع علم الاستقلال فوقها، واقيم في حديقة السفارة حفلا ومهرجانا خطابيا وغنائيا ، ووقفت على منصة الاحتفال تلك الليلة، وجسمى ينتفض ويهتز فرحة وغبطة ، بظهور هذه اللحظة التي عاش ابناء مرحلتي العمرية من الليبيين ينتظروها بشوق وصبر وقلق على مدى اكثر من اربعة عقود،

فاستبدت بي حالة تشبه الهستيريا فرحا يصل الى حد البكاء، والكلمات تخرج مشحونة بالانفعال الى حد الصراخ، لكي تتوافق مع ما تمتليء به اللحظة من جيشان العواطف وهياجها. تلك اللحظة المصيرية ، المفصلية، التي تقع بين تخوم عصر مضى ، وعصر جديد يولد الان. عصر كان من اكثر ما عرفته ليبيا من

عصور القهر والقمع والحرمان، هاهو ينطوي الان، ونقول لايامه واعوامه وداعا بلا عودة ان شاء الله ، وننظر بتفاؤل وامل الى عهد جديد يعد بالفرح والرخاء والهناء لليبيا وابنائها جميعا بعون وتوفيق من خالق الكون، وكنت قد اخذت عهدا على نفسي امام بعض اهلى في بلدة مزدة ، على اقامة وليمة لهم ، عند سقو ط النظام، وفعلا كلفت قريبا هناك، بنحر جمل، واقامة الوليمة الموعودة، مشاركة في الابتهاج والفرح، والولائم والاعراس الشعبية التي شملت كل بقعة من البلاد.

وصلت الى نهاية هذا الجزء من السيرة الذاتية ، ولابد قبل وضع جملة الختام، من لحظة تامل صغيرة، حول الفصل الختامي من حياة النظام، الذي رافقته حرب وتضحيات ومكابدات والام، ونتجت عنه بالضرورة تلك الاثار التي اوقعت ليبيا في محنة السلاح الخارج عن الشرعية، وتسيد الميليشيات لفترة من الوقت على المشهد السياسي ، ووجود حزازات وضغائن نتجت عن اشهر الاحتراب، هل كان هذا الفصل ضروريا، وهل كان الاحتراب حتمية لا بديل عنها ولا فرار، وهل كان النظام برمته ميئوسا منه بحيث لم يكن ممكنا الوصول الى نوع من التوافق على استمرار الدولة وسقوط الحاكم فقط، او احلال بديل عنه يرضى به ويتفادي الشعب ماسي الحرب . واقول انه نظام الانقلاب الذي قاده العقيد، كان منذ يومه الاول ميئوسا منه ، غير قابل للاصلاح اطلاقا ، وهو اصلاح اقترحه اناس من داخله، ومن ابناء الحركة الانقلابية انفسها، وشهادات اعضاء المجلس الانقلابي وضباطه ، الذين انفصلوا عنه ونال بعضهم جزاء وصل الى الشنق والتصفية، تقول ان صياغات كثيرة كانت مطروحة لتعديل واصلاح النظام ، وبينها الانتقال من الشكل العسكري الى شكل الدولة التقليدي ، بفتح الباب لانتخابات برلمانية يدخلها مدنيون يصنعون حكومة، وينتخبون رئيسا، ويبقى الجيش حارسا للتجربة وحاميا لها، تحت سيطرة اهل الانقلاب انفسهم بما فيهم العقيد الذي يصبح في هذه الحالة رئيسا للجيش، وطبعا كان الرفض لهذه المحاولات ، رفضا عنيفا واتهاما بالامرة والخيانة، وصنع لنفسه صيغة مغلقة ، بحيث لا مجال ولا امكانية لاحداث اي تغيير في الحكم، بصورة سلمية ، او صورة شرعية ، وغياب اية اداة مما يعرفه الناس استفتاء او انتخابا او مرجعية شعبية، ، جعل هذا التغيير مستحيلا ان يحدث او يقوم الا بالعنف والقتل، ولهذا كان القتل مصير كل من يجرؤ على مجرد المعارضة، ولا وجود لاية صيغة لاحداث تغيير ، الا الصيغة التي حصلت والتي ماكان لنظام متشبث بالحكم الابدي، ان ينتهي بغيرها، واعود لمحاولات انقاذ النظام ، والتي تبناها رجل كان يسمى الرجل الثاني في النظام، وخطة الانقاذ او الاصلاح او سفينة نوح التي استدعى خبراء ليبيا لوضعها وكنت مسئولا فيها عن الجانب الثقافي ، والتي اثق انه لو حصل ووافق العقيد على تنفيذها لما اضطر النظام الى ان يصل بالبلاد الى الخراب والانهيار ، والاحساس بالقهر والغبن والاهانة، ولكان هناك سبيل لتجنب المواجهة بهذا الشكل الكارثي الذي حصل .

بالنسبة لي، ورغم الاحباط واليأس وخيبات الامل المتكررة ، والشعور بالا جدوى، في اي عمل يستهدف الاصلاح ، فان كتاباتي شاهد على مئات الافكار والاقتراحات التي كنت اطرحها ، غير المشاركات في الندوات التي كانت تضمن افكارا لي ولمثقفين غيري تنفع منطلقا لتصحيح او اصلاح دون فائدة،

وساشير الى مبادرة واحدة قمت بها ، وقدمتها لحكومة العقيد، ولدي شاهد عليها ، موجود اثناء كتابة هذه المذكرات على قيد الحياة، اثق في انها كانت كفيلة بمفردها ودون اي اصلاح في اي منطقة اخرى غيرها، بانقاذ النظام وتفادي قيام ثورة ضده، والبقاء في حكمه وامتيازته ، و قد حدث ذلك في لندن ، اياما قبل حلول الذكرى الاربعين للانقلاب ، وعلمت ان امين الصحة السيد محمد حجازي، قد وصل الى لندن، وانه جاء لمناقشة الاطباء النازحين الى بريطانيا للتشاور معهم في امكانية الاستعانة بهم ، وتسهيل عودة من يريد العودة منهم الى البلاد، وبسبب الصداقة التي تربطني به هاتفته، وطلبت منه ان التقي به على انفراد ، فاستجاب لطلبي ووجدته في الموعد جالسا في لوبي فندق الانتركونتينتال ينتظرني، وجلسنا وبيننا فنجاني قهوة اطرح عليه فكرتي، لم اتحدث معه عن اي شان شخصي، وانما قتراح لليبيا وللمواطن الليبي، وقلت له بانني استمده من مصدرين، هما، حالة الانهيار الصحي في ليبيا التي صارت

فوق قدرات فرد مثله على الاصلاح اوايقاف الانهيار، والمصدر الثاني هو خبرتي في الخارج ، حيث اعرف بلدانا يصعب ان تجد فيها مواطنا خارج غطاء التأمين الصحي ، وسالته ان يرفع الاقتراح الى العقيد، ليكون هديته الى الشعب في العيد الاربعين للثورة، وهو هذا الغطاء الصحي الذي يعطي كل مواطن ليبي الامان، ويعطيه افراد الاسرة لانه سوف يستفيد به الجنين في بطن امه بسبب ما سوف يتوفر من رعاية للام الى المواطن في اخر عمره ، وضربت له مثلا بالتامين الذي تقدمه بوبا، والتي يمكن التفاوض معها لهذا الاشتراك وقلت له كيف ان جزءا من الفاتورة الذي ندفعها لها يمكن ان يكون المستشفيات والمصحات والعيادات الحكومية الموجودة في البلاد، وقلت له ان نظامها هو توفير العلاج داخليا واذا استحقت الحالة علاجا خارج البلاد، حتى لو كانت في منطقة نائية مثل امريكا، فانها ستنقل صاحب الحالة اليها، ومهما كانت التكلفة كبيرة فانها ستصنع عيدا لكل الليبيين ، لانني لا ارى شيئا في حياتهم يتقدم او يتفوق اوياتي قبل الصحة، وضمان العلاج الراقي الذي يزيل هذه المخاطر التي تهدد اهلنا، بسبب سوء الحالة التي تعاني منها مؤسسات الصحة والعلاج. ركزت على شيء واحد هو ان ليبيا تستطيع بما تملكه من موارد، ويمكن الوصول مع الشركة الى تقسيط بما يمكن ان يكون معشار الدخل الليبي السنوي، واعتقد انه سيكون كافيا على مدى سنوات قليلة، على سداده واضفت، بانه يمكن ان نبدا في السنة الاولى بشرائح مثل الموظفين، ونضم اليهم في كل عام شريحة مثل العمال ثم الطلاب، قبل ان ناتي للقطاع الخاص، او نفرض عليه المساهمة في التامين عبر تسهيلات ضريبية وغيره، وسالته وكان سيعقد اجتماعا مع الاطباء الليبيين العاملين في بريطانيا ، ان يطرح الفكرة، وقد يقترحون انشاء شركة تنافس بوبا ،وتكون استثمارا اقتصاديا لليبيا، تبيع فيه بلادنا، مثل هذا التامين لشعوب اخرى علاوة على استخدام هذه الشركة، في التامين الصحي لليبيين. لم اعد اتذكر الان رد الفعل الذي وجدته لدى الصديق الوزير، والحقيقة كنت ظننته سيفرح ، وينهض وياخذني بالاحضان ، ولكنه اشعرني بانه امر ليس قابلا للتطبيق، وطبعا لم يفصح لي لماذا يراه كذلك، فقد ترك العقيد قبل سقوطه ما يقرب من مائتي مليار جرى تجميدها ، ومعروف ان قبل التجميد جرى سحب ما يعادلها، ونقله الى دول صديقه يقال انها لم تفصح عنه بعد وفاته، فهل كانت فاتور هذا التامين ستصل الى عشرة او عشرين اوثلاثين في المائة من هذا المجمد، ليكن ، فهل كانت خسارة في انقاذ نظامه او تعديله او اصلاحه بمثل هذا العمل؟ اثق ان وزير الصحة لم يسخر من الفكرة ويراها غير قابلة للتطبيق ، الا لانه كان يعرف انه ليس في بال العقيد الاعتناء بصحة الليبيين، وانه هو وراء انهيار المؤسسات العلاجية ، بل انه ، كما كان يتهمه اهل المعارضة، يجلب الامراض، وينشر الايدز، والمواد المسرطنة لاهلاكهم، بسبب ما يعانيه من امراض سادية، وميول اجرامية، فكيف حقا يمكن ان يقبل بمثل هذه الخطة.

نعم، لم تتحول ليبيا الى حديقة ورد وياسمين بعد انتهاء المنازلة، وهزيمة النظام، وتدخلت عوامل كثيرة في ان تمنع السياق الطبيعي للثورة، في صيرورة العمل والحياة، لان تتحول الى دولة ، وطالت المرحلة الانتقالية باكثر مما كنا نظن، ونتوقع ،ولم اتوقف عن متابعة الشان الليبي بالمقالات من اجل ان يتحقق حلم الدولة التي اردنا الوصول اليها، دولة العدل والامن والنهوض والنماء والحضارة، وتشييد الحياة الكريمة الحرة التي يستحقها المواطن الليبي.

الكتاب الثالث

البحث عن روح المدينة
(نماذج واحداث ، كتب واماكن)
هي في الاصل اويا التي اخذت فيما بعد اسم المدن الثلاث التي شكلت المثلث الذهبي لازدهار الحضارة الرومانية في هذا الجزء الجنوبي من البحر الابيض المتوسط، ولاهميتها واستمرار وجودها عبر العصور، احتوت في اسمها طرابلس اسمها واسم الحاضرتين الاكبر في ليبيا الرومانية لبتس ماجنا وصبراته، قبل ان يصبح اسمها هو الاسم الرسمي لهذه القاة المسماة ليبيا، حيث تحولت كل البلاد الليبية وعلى مدى خمسة قرون من حكم العثمانيين، الى ولاية طرابلس الغرب، ووسط محيطها الافريقي العربي البربري البدوي، كانت هي بوثقة الانصهار الحضاري، وهي بؤرة الاشعاع والتنوير، وهي مركز السلطة والادارة، وهي حاضرة التحديث والتجديد والانبعاث لروح العصر، عبر هذه الامتدادات في الجغرافيا التي حولها، جنوبا في العمق الافريقي ، وشرقا حتى تتصل بحضارة وادي النيل ، وتتواصل غربا مع تخوم بلاد نوميديا وارض المورعلى ضفاف المحيط، وشكلت رابطا يربط الخريطة العربية عبر العصور، من ارض الاندلس على تخوم البرانس، الى ضفاف الخليج العربي ومملكة عمان في عهود ملوكها بني نبهان الى ابوسعيد الذين تربطهم علاقة نسب ومذهب مع اهل ليبيا، ولم تاتي تسميتها ببوابة افريقيا من فراغ ، فقد صنع اهلها الطرق التي شقت الصحراء الى العمق الافريقيا في كانو وكانم وانشأوا بها المراكز التجارية والعلمية، وساهموا في انشاء جيوش تحارب الغزوات البيضاء، وكان اسهام طرابلس في حضارة حوض البحر الابيض المتوسط اسهاما ملا المجلدات عن علماء واهل فكر واهل حرب وهل صناعة وتجارة تفاعلوا مع هذا المحيط الحضاري على مدى القرون، ويكفي دليلا على ذلك ما بقى من اثار الحضارات التي مرت بطرابلس وبمحيطها الليبي ، الى حد ان ليبيا تصلح ان تكون معرضا مفتوحا لكل ما عبر هذا البحر من حضارات ، مازالت اثارها ماثلة فوق ارضها وفي متاحف مدينة طرابلس وفي كثير من احيائها القديمة، بل ان الاثريين يقولون ان طرابلس الحديثة تنام فوق رقائق حضارية لكل ما مر بها من عهود ، فقد بدأت مدينة فينيقية، ثم رومانية ثم توالى على حكمها الوندال والاسبان وفرسان الحملات الصليبية قبل ان تقع تحت حكم العثمانيين، مع كر وفر مع الممالك الاسلامية العربية منذ ان قام بفتحها القائد عمرو بن العاص قبل اربعة عشر قرنا، ولان تاريخ مدينة طرابلس يختزل في اغلبه تاريخ ليبيا فقد كنت متعطشا منذ ان وطأت قدمايا ارضها قادما اليها من بلدة تتبع لها وتقع على مائة ميل جنوبها، لان اقرا تاريخها واتعرف على المنعطفات الحاسمة والمفاصل الاساسية لهذا التاريخ ، وساحاول هنا ان اتوقف عند مقاطع من هذا التاريخ لرسم صورة قلمية للمدينة التي كرست هذا الجزء من المذكرات للحديث عنها وذكر ما مر بي من احداث وما عشته من فصول حياتي بين ظهرانيها.

اسطورة طرابلس

كانت طرابلس في الماضي مدينة غنية وسط ارض شديدة الخصوبة ، تحيط بها الانهار والبحيرات والغابات والحقول والحدائق الغناء، ويحدها البحرمن جهة الجنوب كما هو الان، وفي هذا البحر ظهرت حورية من اجمل الحور العين، تحملها زعانفها الذهبية الى شاطيء طرابلس ، حتى استقر في احدى حدائق النخيل والعنب والبرتقال والازهار ذات الرواح الزكية التي تنتشر فوق راض هذه المدنية، وتحيط بها من كل جانب، وتجعلها اشبه بالنعيم الارضي، وشاع خبر قدومها بين الناس، يتناقلونه بسرعة البرق، وسمع ابن السلطان "غاديا" سلطان المدينة بهذا الخبر، فارتدى افضل ما عنده من ملابس ذات الوان وزركشات،وتمنطق بخنجره ذي المقبض المطعم بالذهب والمرصع بالاحجار الكريمة، وركب جواده باتجاه المكان الذي اخبروه به، فلما اقتر من تلك الحديقة الغناءالتي كانت الحسناء تستظل باشجارها، صاح من شدة فرحه معبرا عن اندهاشه لجمالها، واسمعها قصيدة تشيد ببهاء منظرهاوحسن قوامها، ولكن تلك القصيدة لم تحرك فيه ساكنا وظلت على فتورها منه.

واغاظ الامير هذا الاهمال لاطرائه، وهذا البرود الذي استقبلت به كلامه المعسول، فترك العبارات الرقيقة وصار يلقي الكلام على عواهنه، مما ادى الى ازدياد نفور الحورية منه، فاستجمعت قواها وانطلقت عائدة الى الشاطيء وغابت خلف امواج البحر.

فلما رأى الامير ذلك اسقط في يده، واحتار في امره، وظل يتجول اياما في تلك الحدائق التي شاهد فيها الحورية، يندب سوء حظه واقسم لو عادت لانزلها من نفسه احسن منزلة ، ولاكرم وفادتها اعظم كرم.

وارسلت له الحورية ، تطلب ان يقسم الا يخون قواعد الضيافة، ان هي رجعت اليه، وان يرعاها ويحسن معاملتها، فاقسم الامير على ذلك بحرارة، وزاد بأنه سيجعلها دائما سعيدة ويبعد عنها كل مكروه. وهكذا رجعت الحورية الفاتنة الى بستان العنب والبرتقال واللوز والنخيل، والى منطقة المنشية في طرابلس ، التي لا تبعد عن الشاطيء، ولكن عندما رآها الامير عادت له اطماعه، ولم يستطع ضبط شهواته، وافضى لوالده السلطان بما كان من امره، طالبا نصحه، فقال له والده: اجعل لها كمينا اوقعها به، وعندما ترى نفسها اسيرة ، لابد وان تخضع للامر الواقع فستسلم لك.

وذهب الرسل الى الحسناء ، يدعونهالى حفلة يقيمها الامير احتفاء بها، وتوسل اليهاالامير الا ترفض طلبه ذاك، فقبلت الحورية تلبية تلك الدعوة، بمزيد من السرور، وبدأت رحلتها نحو الهضبة الخضراء التي ينتصب فوقها قصر السلطان.

وقبل ان تصل الحورية الفاتنية الى القصر، على بعد مسافة قليلة منه، وقعت في ذلك الكمين الدنيء الذي نصبه الامير ، وعندما اوشك على الايقاع بها ن تملصت منه كثعبان الماء، وطارت لتلقى حمايتها في البحر الذي خرجت منه ، وبذهابها ذبلت الاشجار المثمرة ، وجفت الينابيع وعيون الماء، وتحلت الارض الخصبة الى ارض قاحلة ، وتلاشت الجداول بين الصخر، ولم يبق منها سو الماء الاجاج الذي لا يصلح حتى لشرب الوحوش.

هكذا انزل الله عقابه باهل هذه البلاد التي كانت يوما ما مباركة ، وصار عليها وعلى اولادها فيما بعد ان يكدوا ويشتغلوا للابد عقابا لهم ، وان يتحمل لفح رياح القبلي الاتية من الصحراء، التي تحيط بمدينة طرابلس ، وان يتذكروا ان الجنة لا يدخلها الا من اطاع الله ، وكبح اطماعه وشروره وشهواته.

اورد هذه الاسطورة المؤرخ المالطي الموجور انتوني جوزيف كاكيا ، ليبيا في العهد العثماني الثاني ، ترجمة : يوسف حسن العسلي ، دار احياء الكتب العربية ، (طرابلس : د. ت.)

المؤرخ السيد راسم رشدي في كتابه طرابلس الغرب ، الماضي والحاضر الصادرعام1953

بعض ما قاله هيرودوت

في كتابه الرابع عن الليبيين وعاداتهم

خص هيرودوت (484 -424 ق.م.) الملقب بابي التاريخ الكتاب الرابع من مصنفاته التاريخيه بالحديث عن ليبيا ، والذي سمي بالكتاب الليبي وقد تحدث فى هذا الكتاب عن القبائل الليبية المتواجدة على المنطقة الممتدة من غرب منطقة وادي النيل وحتى سواحل المحيط الاطلسي بالإضافة إلى حديثه عن قورينا وشقيقاتها وبعض حوادث تاريخها وهنا مقتطفات قمت بترجمتها من هذا الكتاب:

الان فان الليبيين يقيمون مساكنهم كالاتي: بدءا من الاماكن المحاذية لمصر، فانهم يمارسون اقامة مساكنهم على الطريقة المصرية، ولكنهم يرتدون ملابسهم التقليدية التي يرتديها غيرهم من الليبيين، ونساءهم يضعن خلاخل من البرونز في اقدامهن ولديهن شعور طويل يتكدس جزءا منها فوق الراس وعندما يمسكن بالقمل فانهن يهرسنه بالاسنان انتقاما منه، قبل رميه، وهو فعل يقتصر على اهل هذه المناطق الحدودية وليس بقية اهل البلاد، وهم وحدهم من يعرضون على الملك ، لحظة زواج بناتهم، ليستمتع بقطف ورود عذرية الجميلة منهن.

وهؤلاء يمتدون على الشاطي الى منطقة اسمها بلينوس Plynos.

ثم تاتي المنطقة التالية من هذا المكان الى سرت وهؤلاء يمارسون كل العادات والتقاليد التي يمارسها بقية الليبيين

وعمقا بعيدا عن شواطيء البحر التي يحتلهااهل قورينا، فان البيبيين هنا يقودون العربات التي تجرها اربعة خيول وهم يقلدون في كثير من سلوكياتهم اهل قورينا

وبعهم ياتي قوم لهم اعداد وفيرة جدا هم الناسامونيون

Nasamonians,

الذين يتركون قطعان اغنامهم في فصل الصيل ترعي في المناطق القريبة من البحر ويذهبون لجمع تمار النخيل ، التي تنمو بكميات كثيرة جدا في منطقة اوجله، كذلك فهم بتربصون بارتال الجراد الصحراوي غير المجنح، ويجففونهم تحت الشمس الحارقة في تلك المناطق

ويسحقونهم باوند دي اب ويرشون فوقهم الملح ويشربون منقوع هذا الجراد،

تقاليدهم هي ان يتزوج الرجل اي عدد شاء من النساء، ويقومون بعملية المعاشرة الزوجية في العلن، وذلك بوضع فراشهم او مادة يهجعون اليها امام الباب ويقومون فوقها بالممارسة. وعندما يتزوج الرجل الناساموني امراته الاولى ، فان العادة تقتضي بان تقوم المراة في ليلة العرس الاولى بعرض نفسها على كل الضيوف لمعاشرتها وعند انتهاء المعاشرة يقدم اليها الضيف هدية مناسبة، يكون قد احضرها معه من بيته. طريقهم في حلف اليمين لمن يريدون التاكد من صدقه هي ان يصع يده على ضريح رجل من اهل الشجاعة والفروسية ، يكون معروفا للناس وقد توفاه الله، فيقسم به، هناك طريقة اخرى هي الذهاب الى الجبل والنوم هناك فوق the sepulchral mounds of their ancestors

وينامون فوقها الى الصباح واذا راى رؤيا فانه لا بد ان يثق بها صحيحه ولابد ان يقبل بها ويقوم بتنفيذ ما تقوله له. ولديهم اسلوب في التعاهد على الثقة بان يشرب احدهم الماء من كف صاحبه ويفعل الصاحب مثله اي يشرب الماء من كف الثاني واذا لم يكن هناك ما وضع الواحد شيئا من التراب ولعقه.

يجاور هؤلاء القوم قوم اخر اسمهم the Psylloi

وقد انقرض هؤلاء القوم من المناطق المجاورة لسرت وافنوا انفسهم على هذه الطريقة ،

فقد كانت الرياح العاتية الحارقة القادمة من الجنوب ، رياح القبلي، تجفف الابار ومنابع الماء ، وتحرمهم من هذا المورد الاساسي للعيش والحياة، فاتخذوا قرارا باجماع اهلهم على محاربة هذه الرياح والدهاب باسلحتهم الى منبع انطلاقها في عمق الصحراء، وعندما وصلوا الى بحار الرمل وكثبانها التي تحاكي الجبال كبرا، تحركت الريح وطمرتهم تحت اتربتها وافنتهم جميعا، وبقيت ارضهم بلا اهل ، فزحف عليها النا

والى الجنوب من هؤلاء حيث تقطن الحيوانات المفترسة، وتفصل بينهم وبين اهل الجنوب اي الجرامنت، وهؤلاء لا يملكون ادوات الحرب ولا يعرفون كيف يدافعون عن انفسهم، ولكن جيرانهم الغربيين، المجاورين للشاطي المكاي Macai,

فانهم يتركون شوشة في قمة الراس عندما يحقون شعور رؤوسهم حتى تنمو هذه الشوشة وتطول وهم اهل حرب ويصنعون دروعهم من جلود النعام، وعبر ارضهم هنا اوادي او نهر الذي ينبع من هضبة الذي يصب في البحر river Kinyps

the Charites

وهي اكثر رهضاب ليبيا كثافة غابات واشجار ، وغيرها يبدو قاحلا بالنسبة لها، يجاور هؤلاء المكاي قوم اسمهم

Gindanes,

ترتدي المرأة من نسائهم حلقات مصنوعة من جلود الحيوانات، وهي ترتدي حلقة مقابلة كل رجل اشترى معاشرتها وتعتبر اكثر من تحمل هي التي تحظى بالتقدير باعتبارها استطاعات ان تجذب اكثر الرجال وتجلعهم يحبونها. يجاور هؤلاء القوم قوم اخرون يسمونهم اكلة اللوتس وهم يعبشون على اكل هذه الزهرة او هذه الثمرة، التي تصل الى احجام كبيرة، يجاورهم قوم يشاركينهم في اكل اللوتس ولا يقتصرون عليها اسمهم Machlyans,

Triton, يجري في ارضهم نهر اسمه

يصب في بحيرة بنفس الاسم وهذا النهروهذه البحيرة يشكلان الحدود بينهم وبين قوم يسمون Auseans.

وبينما يترك الاخرون شعر الشوشة وسط الراس ينمو او خلف الراس فان هؤلاء القوم يتركونه ينمو عند مقدمة الراس، وفي احدى المناسبات السنوية تتقسم الصبايا الى فريقين، ويتعارك الفريقان بالحجارة ويقولون انهم بهذا انهمم بهذا العمل انما ينجزون الطقوس التي اعطيت لهم من ابائهم staves باعتبارها عملا مقدسا ومن تموت في هذه المعركة بسبب جراح حصلت لها الصبية المزيفة ولابد قبل المعركة ان يتم اختيار اجمل الصبايا ويضعن فوق رؤوسهن الخودات ويرتدين اللباس الحربي فوق ابدانهن وتاخذهن العربات للطواف حول البحيرة،

باعتبار ان بوسيادون اله البحيرة هو والد اثينا، التي من اجلها تقام هذه الحرب، وقد اشتكتب اثينا من ابيها الى زيوس الذي اخذها لتكون ابنته، ويختلط النساء ورجال هؤلاء القوم اختلاطا حرا في المعاشرة مثل الاغنام، وعندما تنجب المراة طفلا فانه بعد فترة من الوقت يتم عرضه في محفل من الرجال ومن كان اقرب شبها له ياخذه ليكون والده،

<u>أعظم واقدم اثر تاريخي في طرابلس</u>

**أكبر واعظم واقدم اثر تاريخي في مدينة طرابلس هو قوس الامبراطور الروماني (ماركوس اوريليوس(121- 180 A.D الفيلسوف)
وهو قوس مصنوع بكامله من الرخام تم تشييده في عام 165 للاشادة بالفتوحات والانتصارات التي حصلت في عهده على يد اخيه بالتبني لوشيوس فيرروس وحروبة المنتصرة فوق سوريا وارض الارمن فيما يسمى الحروب الرومانية البارثيانية التي دارت بين اعو 161-66**

انه الامبراطور الذي يربطه الناس بطرابلس ويجدونه جديرا بان يكون الروح المرشدة لهذه المدينة ، وعليها ان تقتدي به وان تجعله دائماالمثل الاعلى لها، فهوبشادة المؤرخين

كان من اقوى الرجال فوق هذا الموكب، في عصره، وانه كان اخر ارقى واجود خمسة اباطرة مروا على الحكم، فقد حكم الامبراطورية الرومانية، غير متاثر بما لده من ثروة ، ولا ما يلاقيه من مديحه، ولا

بالسطة التي فاقت سلطة اي انسان في العالم، وقدراته على ان يكون متواضعا، وحنونا ورحيما ومعتنيا بالاخرين،كانت الهاما للاخرين مآثر يتناقلونها عنه جيلا بعد جيل وهنا بعض الحكم التي اشتهر بها

العالم كتاب من لا يسافر فيه لا يرى سوى صفحة واحدة.

على المرء أن يكون مستقيما، لا أن يبقيه الآخرون مستقيما.

قيمة المرء لا تزيد عن طموحاته.

أفضل انتقام هو ألا تكون مثل من جار عليك.

لا يمكن للغضب أن يكون تضليلاً.

لا تضع المزيد من الوقت في النقاش عن ماهية الرجل الصالح، بل كن واحدا.

الحياة السعيدة تحتاج لأقل القليل، فهي بداخلك وتكمن في طريقة تفكيرك.

تأخذ الروح لون أفكارها.

كل ما نسمعه هو رأي وليس حقيقة، وكل ما نراه هو رؤية وليس واقعاً.

لم يُخلق الشخص الذي لا يخطئ.

لا أعني بالعقل الهادئ إلا عقلا منظما.

من يحيا متوافقا مع نفسه يحيا متوافقا مع الكون.

الثروة التي ستحتفظ بها للأبد هي تلك التي تعطيها.

العيش بسعادة، قوة من قوى الروح الكامنة.

لا يمكن للمرء أن يجد مأوى أهدأ وأكثر سكونا من روحه.

ليست الحياة خيرة أو شريرة، بل هي مجرد مكان للخير والشر.

احصر نفسك في الحاضر.

إن لم يكن الأمر صحيحا فلا تفعله، وإن لم يكن القول صادقا فلا تقله.

خُلق الناس من أجل بعضهم البعض.

طرابلس من وجهة نظر المهندس المعماري

مقتطفات مما كتبه المهندس الليبي محمد الميلودي عن طرابلس واورده في فصل بقلمه تضمنه كتاب المجتمع الليبي من اصدار مركز جهاد الليبين

(ت2005)

تضم المدينة القديمة خمسة احياء رئيسية هي كوشة الصفار، البلدية، باب البحر، الحارة الصغيرة، الحارة الكبيرة، حومة غريان، ولكل حي توصيفه الخاص به، فحي كوشة الصفار هو الحي العربي لسكان المدينة ولا يسكنه الا العرب المسلميون، وهو حي نظيف وهاديء ولا يضم اي نشاط حرفي او اسواقا ومعظم مساجده هي مساجد اوقات فقط، في حين توجد معظم الاسواق والفنادق ومحل الحرف واهم الجوامع في حي البلدية، كما تمتد الاسواق الى حي باب البحر الذي توجد به بعض الاسواق والمينا ويقطنه خليط من العرب والاتراك المسلمين ، بالاضافة الجاليات المسيحية من يونان ومالطية وايطاليين وغيرهم والعديد من بيوت القناصل ، وفي هذا الحي توجد الكنيسة الكاثوليكية وكذلك الارتذوكسية، ويتصف نشاط سكانه بالعمل كبحارة وحواته وغاطسي نشاف وعاملين بالميناء، ويحد هذا الحي الحارة الصغيرة، والحارة الكبيرة من الغرب، ويسكنهما اليهود.

ـــــــ

عندما ازدحمت المدينة القديمة، ولم يتوفر بها اي مساحات او فضاء للتوسع والعمران الجديد، خرج العمران الى خارج اسوار المدينة، مكونا مدينة عمرا ن المدينة الحارجي ، سواء في اسواق ومبان بشارع البلدية ، وشارع العزيزية (الاستقلال) كذلك في شاعر السيدي، او ركاردو(شارع الكورنيش) كذلك في ظهور حي بالخير ، حي ميزران ، وايضا مجموعة فنادق بالشارع الغربي (عمر المختار) وبشارع الوادي، هذا الانبثاق العمراني الذي انطلق من فم الباب اي المنشية ، واقتفى الطرق الداخلية الرئيسية من غرب ، وجنوب غرب، وجنوب شرق ، وكونت محاور الطرق الحديثة للمدينة وربطتها مع ضواحي طرابلس الاقدم كشارع الزاوية والظهرة وزاوية الدهماني، وشكلت في مجموعها بداية الانتشار السكني الحضري.

ـ

استهدف المخطط الايطالي الذي اعد مع العقد الاول لاحتلال المدينة ، اعطاء الطابع والمظهر الاوروبي ، فكان العمران الجديد منفصلا عن المدينة القديمة ، ابتداء من ميدان ايطاليا (ميدان الشهداء) (...) وانطلق العمران الحديث على طول الشاعر الغربي وشارع العزيزية، بدءا ببناء مسرح الميراماري، على طرف هذا الميدان ، مواجهة للسراي والبحر ، ولم يشد عن ذلك الا عمارة الاوقاف التي كانت تعرف بمبنى جامع

سيدي حمودة، احاطت بضريحه وغطته ووجد بها مسجده، بدون منار او صومعة حتى لا يظهر الميدان باي علم معماري يشير الى دين او سكان مدينة، واستكمل المظهر المعماري بطريق الكورنيش الجميل الذي شيده الوالي فولبي، مبتدئا من السراي ومستمرا حتى مجمع المباني الادارية بشارع الشط وقد شيد على هذا الطريق الجميل والعريض والذي يحمل احد معالم البلاد الطبيعية شجر النخيل، ومجموعة عمائر ومبان اشتهر منها بنك ايطاليا الفينسي العمارة والفندق الكبيير ونافورة الغزالة وما حولها من حدائق وكذلك فندق الودان المعبر في اسمه عن وعل الصحراء بدلا من وعل الغابات الاوروبية.

<u>حرب الاعوام الخمسة بين ليبيا وامريكا</u>

هي حرب بين ليبيا في عهد حاكمها يوسف باشا القره مانلي والرئيس توماس جيفرسون بدات في العام 1803 وامتدت اربع اعوام وبقي لها اثر في النشيد الوطني لقوات المارينز الذي يغنيه الجنود الامريكيين حتى اليوم والذي يقول

من قاعات مونتيزوما الى شواطيء طرابلس نحن نحارب معارك بلادنا في الجو والبر والبحر ونحارب اولا من اجل الحق والحرية وانحافظ على شرفنا نقيا وفخورين بان نكون جنود البحرية للولايات المتحدة الامريكية

**From the Halls of Montezuma,
To the shores of Tripoli;
We fight our country's battles
In the air, on land, and sea;
First to fight for right and freedom
And to keep our honor clean:
We are proud to claim the title
ںOf United States Marine**

وفي هذه المشاهد التمثيلية احاول تجسيد هذه المرحلة التاريخية

<u>1</u>

(مكتب الرئيس الامريكي توماس جيفرسون في البيت الابيض واشنطون، يدخل عليه السكرتير ليقول ان الادميرال بينبردج قد وصل. يدخل الادميرال ويقدم التحية للرئيس الذي يقف مرحبا، مادا له يده، قائلا

ـ اهلا ادميرال ، تفضل بالجلوس ، ماذا لديك من اخبار هذا الصباح؟

ـ ننعم بفترة سلام وامان، لا يكدرها الا رسالة من باشا طرابل يوسف باشا.

ـ ماذا يقول سيد قراصنة البحر الابيض المتوسط؟

ـ انه يطالب برفع الاتاوة الى الى مائتين وخمسة وعشرين الف دولار مقابل ما يقدمه من حماية لاسطولنا.

ـ يعني ان نضاعفها له مرتين، هذا هراء، رابش، انه لا يحمي اسطولنا من احد الا من القراصنة التابعين له.

ـ يقول انه في ظل غلاء الاسعار العالمي، لم يعد المبلغ السابق يفي بالغرض.

ـ الست معي انه ابتزاز؟

ـ نعم انه كذلك؟

ـ واذا استجبنا مرة فسيواصل الطلب مرة ثانية وثالثة ورابعة.

ـ اذن فانت يا سيادة الرئيس ترى الامتناع عن رفع الاتاوة؟

ـ ليس الامتناع عن رفعها وانما الامتناع عن دفعها اساسا.

ـ انها الحرب اذن.

ـ لتكن كذلك، نملك احدث الاساطيل في العالم، ثم نخضع لابتزاز قرصان بائس، هذا غير معقول، اريدك ان تذهب على راس الاسطول لتعطيه درسا، ولتكن اقوى قطعة فيه "فيلاديلفيا" ذات الا ربعين مدفعا وثلاثمائة مقاتل بحار ، هي السفينة التي تحاصر بها قلعة الباشا القرصان.

الادميرال ـ نعم سيدي الرئيس(يعطي التحية ويخرج)

<u>2</u>

(بعد شهر، نفس مكتب الرئيس جيفرسون، يدخل السكرتير)

السكرتير- رسالة عاجلة من الادميرال بينبردج.

الرئيس(يبحث عن النظارة) اين نظارتي، كانت هنا، على اية حال اقرا ماذا تقول الرسالة

السكرتير- انقل لك ببالغ الاسف هزيمة اسطولنا على يد بحارة طرابلس، واسرة السفينة فيلادلفيا وفوقها ثلاثمائة بحار مقاتل من جنودنا. تعليماتكم.

ينهض الرئيس واقفا ، منزعجا، يصرخ في سكرتيرة قائلا

ـ اعلان حالة الطواري ، الدرجة القسوى ، في الجيش والشرطة والمخابرات . دعوة الكونجرس لجلسة طارئة . مجلس الوزراء يحضرون الان الى مكتبي على الفور.

كانتا تلك هي بداية احتراب امتد اربع سنوات انتهى بمصالحة ودفع مبالغ من الخزانة الامريكية الى باشا طرابلس مقابل اطلاق سراح الاسرى.

<u>وصف طرابلس الغرب</u>

<u>كما ورد في كتاب المنهل العذب</u>

<u>للمؤرخ الليبي احمد النائب وقد صدر في اسطنبول عام1899</u>

ويستهل الكاتب هذا الوصف بقوله انها بلدة كريمة البقعة، طيبة التربة، مختصبة القاعة، بسواحل افريقية الشمالية، وتحدها من الجنوب الصحراء الكبرى، وشرقا الحدود المصرية، وشمالا البحر الرومي، وغربا تونس(وهنا ينتقل يين وصل طربلس المدينة واحيانا الوليدة، ويعود الى المدينة قائلا) حصينة معاقلها، منيعة قلاعها، حريزة استحكاماتها، ولم تخل من اشراف اماثل وعلماء اكابر، محدقة ببساتين ذات بهجة، واجنة نضرة ، كثيرة الفاكهة والنخل والزيتون، وفيها شجر الليمون السكري البديع، والرمان التاجوري الياقوتي، الذي لا نظير له، والبطيخ الاخضر كبير الحجم، زنة الواحدة قنطار، والزعفران الغرياني. وثم يختم وصف الذي يمتد عدة صحفات بقصيدة في مدح طرابلس كتبها الشاعر الصوفي احمد البهول المتوفي عام 1701 ميلادية، عندما كان غائبا عنها، يقول في مطلعها:

طرابلس الغرا، ترى لي عودة اليك، وهل يدنو الذي كان قد ذهب

سقا الجانب الشرقي منك سحابة زال فيك من رياح الصبا يهب

بلاد لها بالخلد اية شبهة، فمنها نبات الزعفران كذا العشب

ترى سوحها من فضة ، فاذا اكتست بشمس الضحى اضحت لجينتها ذهب وفي كل حول حولها حلة حلت لرؤيتها خضراء من سندس القصب

فيا حبذا ثغر، له النصر خادم ويا حبذا عين، بها الماء قد عذب

<u>يوميات كاتب زار طرابلس عام1934</u>

اسم الكاتب بونيسواف كريستين فيجايسكي وعنوان كتابه حصون على الرمال وهذه مقتطفات من نسخة صدرت بالعربية حديثا عن دار الجمل ترجمة ميخائيل عبد الله

من جديد ذهبت انا وصاحبي نتجول في المركز الاوروبي (من مدينة طرابلس) وعبر شارع يدعى لومبارديا نصل الى بورتا بينيتو البعيد الذي يقع في الاسوار المحيطة بالمدينة هذه الاسوار التي لا تلعب اليوم اي دور دفاعي كما كانت في الماضي، لكنها لفترة ليست بعيدة استغلت في حماية المدينة من هججمات العرب المتمردين.

على مقربة من الباب نرى راعيا يقود قطيعا من الماعز. يوقف احداها، يبعد قائمتيها الخلفيتين عن بعضهما ثم يجلس علىارضية الشارع ويبدأ بحلبها، اما الحليب فيجمعه في وعاء زجاجي يشبه القارورة.

ـ ابتعد من هنا . يصرخ رجل بوليس موجود على مقربة من المكان.

ـ لا استطيع . يرد الراعي بصوت هادئ.

ـ اللعنة عليك . الا تعرف ان السد الطريق ممنوع؟ عليك ان تقوم بحلب المعزة على جانب الطريق وليس في وسطه.

ـ هي ارادت هنا. يجب بهدوء الراعي العربي .

ازاء حجة كهذه ما كان على الشرطي الا ان يستسلم معترفا ان امنية العنزة يجب ان تتحقق، وعلى كل حال لم تستغرق عملية الحب سوى بضع دقائق. وبعد ان اطلق الماعز ثغاء، مضى القطيع في سبيله.

قررنا في طريق عودتنا ان نركب الباص . فيه نجد مجموعة من الاوروبيين، بينهم مدنيون وعسكريون في مقاعد الدرجة الاولى، اي في القسم الامامي من الباص ، اما في الجزء الخلفي فقد تزاحم الركاب الليبيون ، في جو من الصخب. سبب هذا التقسميم الطبقى هي الاحوال المادية فقط، وليس للاعتبارات العرقيه فيه اي دور.

في طريق عودتنا نعاين في ساحة صغيرة دولابا يستخدمونه كارجوحة دائرية تشبه في بنيتها الرحي ، ذات الاثني عشر ذراعا، تجمع حولها حشد من الكبار والصغار، يجلس بعد الحاضرين في مقاعد فوقية عند نهاية كل ذراع، والبعض الاخر يدفع الدوامة لمدة ثلاث دقائق . كل من يدفع الرحى ثلاث دورات، اي تسع دقائق، يكتسب الحق ليركبها دورة واحدة مجانا. بعد نزولنا من الباص نتوجه نحو مسجد قورجي ، الذي وجدناه مغلقا. عبر الشبكات الحديدية نشاهد في الداخل عددا من الاعمدة المرصعة بفسيفساء جميلة ، وفي العمق سلسلة من الدرج الغني بالزخارف والمغطى بسقفية معدنية على شكل قبة منتهية بهلال في قمتها ، متجه نحو مدينة مكة. على هذا الدرج يصعد المؤذن لقراءة ايات من القرآن. في دهليز المسجد ، محاذاة الجدار ، يتراءى خزان طويل مملوء بالماء، في قاعدته عدد من المواسير ، اما تحته فتعق ساقية اسمنتية لتسهيل اندفاع الماء فيها ، بجانب الساقية دكات للجلوس. هذا مكان اغتسال المؤمنين واداء طقوس الوضوء.

الشمس تميل الى الغروب . امام المسجد تلمع احمرارا منارة رشيقة في هالة اشعة الشمس المنعكسة على انقاض قوس ماركوس اوروليوس الروماني. المنارة شامخة بعزة فوق الانقاض، ينبعث منها في هذه اللحظة صوت المؤذن الذي يرن في الآذان حاملا للناس الحقيقة الكبرى العابقة بالوحي (الله اكبر ، الله اكبر).

ولتغيير الانطباعات نقصد احدى المقاهي الاوروبية التي تدعى سورلي. يقال انها مركز جديد في عالم الطرائف والحكايات والاشاعات المحلية. لحظة جلوسنا ينضم الينا شخصان كان رفيقي يعرفهما من قبل ، عندما علما انني عزمت عن الكتابة عن تريبوليتانيا، بدآ يروان بفكاهة قصة خرافية نشرها احد الالمان عن اكتشافه لخمس بحيرات في الصحراء ، بينما هي بحيرات يعرفها كل الناس ، واخر يتحدث عن فريق

السياح الايطاليين ، يتساءلون عن متى ستهاجمهم الاسود. ولا يصدقون الذي يقول لهم ان من يريد الاسود فليذهب لها في السودان.

عبد القادر ابو هروس

عندما انتقلت من قريتي للدراسة والاقامة في طرابلس عام 1957، وكنت في سن الرابعة عشرة، مسكونا بفكرة ان الادباء ينتمون لسلالة الالهة، لفرط عشقي لابداعهم الذي كنت اطالعه منذ سنواتي الاولى في المدرسة الابتدائية، كان عبد القادر ابو هروس هو فتي الادب الاول في طرابلس ، في السابعة والعشرين من عمره، انتقل لتوه من مهنته في التعليم مدرسا في احدى مدارس المدينة القديمة، ليتولى رئاسة القسم الادبي في الاذاعة الليبية حديثة الانشاء، اصدر في ذلك العام كتابه القصصي الذي وضعه في مركز الريادة باعتباره اول مجموعة قصص قصيرة تصدر في كتاب في ليبيا، باسم "نفوس حائرة" وبشغف وحماس قرأته واحببت عوالم الرومانسية التي يصورها، واحسست بالانسجام والتماهي مع شخصياته من نساء ورجال ليبيين، يتلمسون طريقهم الى عالم العشق والغرام ، والنفاذ من حصار التقاليد القاسية التي تفصل بين الرجال والنساء، وهي المجموعة التي دشنت مرحلة جديدة في الادب واهتمت بابراز الشخصية الليبية في هذا اللون الادبي ، لانه كان مؤمنا بضرورة اعطاء لون ونكهة لهذا الفن ، فكان ربما اول من استعمل اللهجة العامة في القصة ، حريصا كما كان يقول لنا فيما بعد في احاديث خاصة على ان يكتب قصة تعبر عن خصائص ومفردات البيئة المحلية الليبية ، ومع هذا الحرص والاصرار ، فانه لم يستطع في هذه المجموعة ان يتخلص من نفوذ وسلطة وتأثير كتاب المدرسة الرومانسية في مصر امثال احسان عبد القدوس ويوسف السباعي ومحمد عبد الحليم عبد الله ، وكانوا في تلك الحقبة من الزمن ، يهيمنون على الساحة الادبية العربية ويتألقون نجوما في سماء الابداع القصصي العربي .

وكانت مقالاته التي يكتبها للصحف في تلك الاونة ، واشرافه على مجلة هنا طرابلس الغرب ، وموقعه في ادارة القسم الادبي في الاذاعة ، والقائه كل اسبوع لقصة في الراديو ، بصوته وباسم نسائي مستعار هو الانسة سميرة، يجعله اكثر كتاب ليبيا شهرة في ذلك الوقت ، وكان مشهدا مثيرا بالنسبة لي ، عامرا بالانفعال ، غمرني غبطة وحماسا ، ان التقي بهذا النجم في اوج لمعانه وتألقه، محاطا بهالة من رونق وبهاء الشهرة الادبية التي يحظى بها، يتوهج كذلك بهاء ووسامة واناقة . حدث ذلك عندما بدأت عام 1959، اكتب بابا اسبوعيا بعنوان خواطر وتأملات ، لصحيفة الطليعة ، الصادرة عن اتحاد العمال، وقد مضى عام واحد على اصدارها، ويرأس تحريرها السيد على بيطار، الذي ذهبت للقائه في مكتبه كي اقوم بتسليمه مقالي للعدد القادم، وكانت المفاجاة ان وجدت في مكتبه السيد عبد القادر ابو هروس ، ولم اكن انتظر ان يقدمه لي صاحب المكتب، وعرفت في ذلك اللقاء، ان رئيس التحرير ، باعتباره كان في الاصل مترجما وليس كاتبا، كان يستعين به في كتابة افتتاحيات الصحيفة وبعض موادها، لان اسلوبه المتميز يضمن المستوى الراقي الذي تنشده الصحيفة، فهو اذن كان في تلك المرحلة من عمره الادبي الصحفي ، غزير الانتاج ، تحقق له الانتشار في عدد من المنابر الاعلامية والصحفية ، ويكتب في مختلف التخصصات ، ولم يمض الا عام او عامين بعد ذلك العام ، حتى وجدنا يتربع على سدة اهم صحيفة خاصة

تصدر في البلاد هي صحيفة الرائد، بل هو ليس فقط رئيس تحريرها ، وانما مالك الصحيفة التي كان فيما مضى يملكها رجل اعمال وكاتب صحفي هو السيد الطاهر البشتي مع شركاء له بينهم المحامي بشير الطويبي، فكيف استطاع ان يحقق ابو هروس هذه القفزة المهنية الهائلة ، من الاعلام الحكومي ، الى منافس لهذا الاعلام ، وهو بالتاكيد ما يقول الكثير عن جدارته وكفاءته وذكاءه المهني وحسن اهتباله للفرص ، ولعل معلومات ظهرت فيما بعد ، تقول بان الملكية الفعلية لظلت من وراء الستار لصاحبها القديم ، ربما لاسباب سياسية اقتصادية، كما ذكر رئيس سابق لوزراء ليبيا هو السيد مصطفي بن حليم ، وهي معلومات لا تنتقص شيئا من جدارته ووكفاءته، فقد ادار الصحيفة وقادها باعتبارها مشروعا اقتصاديا ، ومشروعا صحفيا في ذات الوقت ، بنجاح وتوفيق ، وفي حين ظهرت خلال العمر الطويل لصحيفة الرائد عشرات الصحف التي كانت تفشل في الاستمرار ، فقد استمرت صحيفته منذ ان تولى ادارتها عام ستين او واحد وستين وحتى نهاية العهد الملكي وبداية العهد الانقلابي الذي عمد الى تاميم الصحافة واجبار الصحف الخاصة على التوقف ، وكان قد انتقل بها من الاصدار الاسبوعي ، الى الاصدار اليومي في السنوات الاخيرة للعهد الملكي ، مستقطبا اهتمام القراء ، وفاتحا صفحات الجريدة لادباء ليبيا الذين تضيق احيانا صحافة الحكومة على استيعابهم ، ورغم ظهور مؤسسات صحفية تنافسه وتحظى بالدعم المادي والمعنوي ، فقد صمد للمنافسة وواصلت الصحيفة احتلال موقعها كاقدم الصحف الخاصة واكثرها اهمية وعراقة ، الا ان الجانب الادبي لدى عبد القادر ابو هروس عاني خسوفا واضمحلالا في موازاة نجاحه التجاري والمالي والصحفي ، اذا استطعنا تسميته كذلك ، لان قلمه حتى بالنسبة للصحيفة نفسها لم يكن يظهر كثيرا بعد ان اسلم مسئولية التحرير لاقلام اكثر منه شبابا وحماسا مثل عبد اللطيف بوكر وعبد الرحمن الشاطر ، وذكرت في متن المذكرات انني اسهمت كثيرا بالنشر والكتابة في هذه الصحيفة وكنت اشرف على صفحات ثقافية واركان فنية عندما كانت الكتابة الصحفية بدون اجر وانما عمل تطوعي مجاني نقدمه تعبرا عن حبنا لهذه الهواية التي ملكت علينا قلوبنا وعقولنا. وقد توفي عبد القادر ابو هروس بعد صدولا كتابه الاول باكثر من اثنين وثلاثين عاما ، لم يصدر له فيهما ولا بعد وفاته اي انتج ادبي اخر غير تحفته الفريدة اليتيمة "نفوس حائرة" ، تلك المجموعة القصصية الرائدة التي كانت بالنسبة لصاحبها بيضة الديك ، فلم يرفدها باي انتاج اخر، رغم ما كان يمكله من موهبة كبيرة ، يرافقها طموح كبير ايضا عبر صراحة في ذلك الكتاب عندما اعلن في غلافه الاخيرة عن جملة من الكتب ينوي اصدارها اعطى لبعضها عناوينا مثل " سجينة ببن الجدران " الذي قال انها رواية على وشك الصدور ، الا ان كل تلك المشاريع لم تكن الا احلاما، بما في ذلك روايته التي لم تكن قيد الانجاز كما قال ، وانما في اطار الامنيات التي لم يجد الوقت ولا العزم لكتابتها، ربما لان الرجل كان وهو يستلم مشروع الصحيفة يواجه تحديا لابد ان يثبت فيه نفسه ، فكما اسلفت القول الصحف الخاصة كانت تظهر وتختفي ، بعضها لا يستمر اكثر من عام ، فكان يريد ان يبرهن على انه جاء بعقل وموهبة وعزيمة تختلف عن الاخرين، وكان التحدي هو انجاح تلك المؤسسة او تلك الصحيفة ، ضد كل العقبات والعراقيل ، ولابد ان الصفقة التي عقدها مع اصحابها الاصليين ، حصلت بسبب ثقتهم في مهنية الرجل وموهبته وانه قادر اكثر منهم على انجاح الصحيفة والاستمرار بها، مما وضع على كاهلة مسئولية مضاعفة ، ولابد هنا من القول ، ان عالم المغامرات التي تتصل بالامال والاعمل، تحمل شيئا من المادة المسمومة القاتلة لبذرة الابداع الادبي في نفس ووجدان الاديب ، لان ذلك الشاب المبدع الطموح ، المتطلع للتعبير عن وجدان اهل بلاده، المدافع عن حقوقه ، الذي تجلي في قصصه منافحا عن حق ابناء وبنات مدينته في الاستمتاع

بمباهج الحب وتلبية نداء القلب ، محتجا اعظم احتجاج على ما تفرضه عليهم العادات البالية والتقاليد العتيقة الجامدة من حرمان وكبت ، كان لابد له ان وهو يدير مشروعا خاصا يريد له النجاح التجاري ، ان يتواءم مع رموز النظام واصحاب النفوذ في المجتمع من تجار واصحاب شركات يهيمنون على فضاء الوطن ، ويصمت على استغلالهم بل ويستفيد من عطاياهم، التي لا تمنح الا مقابل خدمات تقدمها لهم الصحيفة ، وكنت استطيع وانا اتعامل معه واقدم له انتاجي لكي ينشره في الرائد، واسمع ملاحظاته على مستوى هذا الانتاج ، بل واتلقى تكليفات منه لكتابة اوتغطية موضوع ما كما حدث مع موضوع الجامعة الاسلامية الذي اوردته في متن المذكرات، ان ارى ان حاصل الطرح كان كبيرا بين ذلك الاديب الذي قابلته في مقتبل حياتي الادبية ، وهو في اوج العطاء والابداع والشهرة، ثم صاحب المشروع الفردي الاقتصادي الصحفي المتمثل في صحيفة الرائد، ولابد ان دائرة اهتمامه والاهداف التي استقطبت حماسه عندما كان شابا قد اختلفت كثيرا يحيث توارت طموحاته واحلامه الادبية ، ولم يستطع ان يحييها في نفسه، حتى بعد انهيار البناء الاقتصادي والصحفي الذي بناه علي يد ضربات الانقلاب العسكري، وظهر الاستاذ الصحف الكبير ، بائسا تعيسا في قفص الاتهام امام ما كان يسمى محكمة الشعب، يمسك باصابع مرتعشة اوراقا كتب فيها اسطرا يدافع فيها عن نفسه ، واذكر ان رئيس المحكمة ، وكان شديد الوقاحة في التعامل مع رموز المجتمع الواقفين امامه في القفص، اراد تنبيهه الى حالته العصبية قائلا له ان يتمالك ويضبط اعصابه، فكان ذلك سببا لاحراجه وزيادة الارتعاش والانفعال ، ولعل المحكمة لم تصدر حكما عليه بالسجن، بعد ذلك، فقد اطلقت سراح اغلب من اوقفتهم في القفص من اهل الاعلام والصحافة لان الغرض لم يكن غير الاذلال والتشهير،وكان يستطيع باعتباره اديبا موهوبا ، ان يستعيد المكانة التي اضاعها ، وان يصنع لنفسه مكانة ربما اكثر اهمية وقيمة من تلك التي طوحت بها ضربات السلطة الانقلابية، بانتاجه الادبي، كما فعل صديقه وزميله وابن جيله ، الاستاذ خليفة التليسي، الذي كان وزيرا في العهد الملكي ، ووقف مثله في تلك المحكمة وعانى السجن والظلم على ايدي الانقلابيين، ولكنه بعد ثلاثة اعوام فقط من عمر الانقلاب ، استطاع بفضل انتاجه الفكري ان يتبدى عملاقا يرغم قادة الانقلاب على الاعتراف به، وصار امينا عام لاتحاد الادباء ورئيسا لاحدى اكبر دور النشر المشتركة بين ليبيا وتونس ، ورئيسا لاتحاد الناشرين العرب ، وان يعزز مكانته بمزيد الانتاج الذي صدر في كتب بلغت 46 كتابا، اصدر اكثر من اربعين منها بعد الانقلاب، ولكنني لا اذكر اطلاقا انني قرات للاستاذ ابو هروس ، الذي اعفاه الانقلاب من اي مسئولية واي عمل ، اي انتاج ادبي ، قصة كان اوغير قصة ، بل اقول انني لم اقرا له سطرا واحدا ، نشر في صحيفة ، او مجلة ، حتى تلك التي استطاع صديقه التليسي ان يؤمن له مكانا كعضو في تحريرها وهي مجلة الناشر العربي ، و هذا النشاط الكتابي كان متاحا لاناس كانوا اكثر تورطا منه مع النظام القديم ، فوزراء في ذلك النظام مثل الكعبازي والماجري والبوري وعتيقة ورئيس وزراء مثل البكوش كلهم عادوا لممارسة الكتابة والابداع ، ما عداه. واعتقد ان الدعوات التي وصلت اليه للكتابة والمساهمة لم تنقطع، ولعل دافع الاستاذ التليسي لتعيينه في مجلة الناشر العربي كان وضعه في بيئة صحفية ادبية تحفزه للعودة للانتاج، ولكن دون فائدة، وجاء بعد ذلك صك براءة من العهد الانقلابي كان جديرا بان يلغي كل احساس بالقلق والخوف من هذا النظام ، فقد حدث ان دعا القذافي ذات امسية لا اذكر ان كانت في رمضان او غيره عددا من الادباء كان بينهم عبد الله القويري والمصراتي والتليسي وعلى صدقي عبد القادروامين مازن واشار الى كل من القويري وعلي صدقي عبد القادر بان لاحدهما قصة كانت قد علقت بذهنه عندما كان صغيرا بسبب محتواها القومي ، تدور بين دمشق وطرابلس ، نفا الاثنان

ان تكون لاحدهما قصة تدور في هذا الاطار خاصة القويري بينما اشار على صدقي انه لم يكتب قصة في حياته عدا المقالات والقصائد، وانتبهنا الى انه يقصد قصة شهيرة لعبد القادر ابو هروس عنوانها نجلاء الحائرة في دمشق، وانتبهت شخصيا الى اين يمكن للرجل ان اطلع عليها لانه بالتاكيد لم يقرا كتاب عبد القادر ابو هروس الذي وردت فيه القصة نفوس حائرة الذي صدر منذ عقود كثيرة ولم يعد طبعه بعد ذلك ، وتذكرت انني شخصيا سمعت هذه القصة تذاع في ميكرفون المركز الثقافي المصري ، لعدة ايام متتالية مرفقة باعلان عن محاضرة للسيد ابو هروس يلقيها في في المعهد وكنت فعلا احد الحضور، وربما لم يحضر القذافي المحاضرة ولكنه كما يقول في ذكرياته انه كان شديد الارتباط بالمركز الثقافي المصري ومنه كان يطالع نشرات الثورة المصرية، وهناك استمع لتلك القصة القصيرة وطبعا تم تنبيه القذافي لصاحب القصة الحقيقي، وعندما جاء موعد فيما بعد لاعطاء جوائز لاهل الريادة في مختلف المجالات كان اسم عبد القادر ابو هروس على راس قائمة اهل الريادة الادبية، واذكر انني التقيت به اثناء فترة عمله في الناشر العربي، وكنت احمل في يدي مجلة مشرقية تحمل بين صحفاتها قصيدة جديدة لشاعر يحبه كثيرا هو نزار قباني ، فاخبرته بوجود القصيدة ، ورايت شيئا من حماسه القديم للشعر والادب يظهر في عينيه ، ويسأل عن كيف يستطيع الحصول على المجلة، فاعطيته العدد الذي معي ، قائلا له بانني اعرف كيف احصل على عدد غيره، ونقل اكثر من صديق وبكثير من الفرح، انهم التقوا بابي هروس ، وسمعوا حديثا جميلا عن اخر قصائد نزار قباني ، وكان احد هؤلاء الاصدقاء الناقد فوزي البشتي، الذي تفاعل بما سمع ورای فيه بشارة بقرب عودة ابوهروس لمجاله الادبي . الا ان تلك الومضة كانت اشبه بسحاب خلب.

كان الجيل الجديد من جمهور الادب في ليبيا ، قد نسى عبد القادر ابو هروس ، ولم يعد احد يأتي على ذكره، الا في معرض التأريخ لبدايات القصة القصيرة في البلاد، ولا ادري لماذا عندما تنطفيء الاضواء عن صاحب الق وشهرة وجاه ادبي او غير ادبي، وينزوي الى زوايا الظل والنسيان ، ينعكس ذلك على مستوى اداءه الفكري ، فقد قابلته عدة مرات احاول ان اثير معه بعض المواضيع الادبية واحرك كوامن المبدع في نفسه ، الا انني لا اجد شيئا من تلك اليقظة الذهنية ، وذلك الحضور المتاجج ثقافة وفكر وهو يخوض معاركة الادبية الصاخبة التي انتصر فيها لادب الجمال والامتاع واثراء الروح على ادب القضايا السياسية والمضمون الاجتماعي ، فقد بدا واضحا ان ثمة تراجعا يطال ملكات التفكير ، كذلك الذي طال ملكات الابداع واوصلها الى حد الجمود والجفاف ، واتمثل حالا ما يثار من اطروحات عن حقيقة العقل المستقيل .

وحدث ان قابلته في القاهرة ، في فترة السبعينيات ، وعرفت انه يحب قضاء اجازته في العاصمة المصرية، وانه مازال على اتصال بعدد من اهل الصحافة في مصر ، من ابناء جيله ، بل ان بعضهم عمل معه صحفيا في جريدة الرائد قبل ان تقفل ، فكان يجد منهم الترحيب والود، ويهرعون للتحلق حوله ودعوته لمجالسهم ، يقدمونه لزملائهم باعتباره الاديب ورئيس التحرير العتيد، ولاشك انه عانى كثيرا من الضيق عنما حصلت القطيعة الديبلوماسية بين ليبيا ومصر ، وفرض النظام الليبي حضرا على الليبيين يمنعهم فيه من زيارة مصر، وما ان عادت هذه العلاقة وتم رفع الحظر حتى سارع عبد القادر ابو هروس ، لاستعادة اجواء الود والتقدير الي يجدها في الوسط الصحفي القاهري، وفي هذه الزيارة الاخيرة

التي قام بها الى القاهرة ، في ديسمبرة عام 1989، عقب عودة العلاقات بوقت قصير ، لقى ما كان ينتظره من ترحيب اصدقائه القدامي ، كما حكى لي الصحفي الراحل مصطفى نبيل ، وقضى ليلة 21 ديسمبر ذلك العام، مع هولاء الزملاء ورفاق الدرب القديم ، وعاد متأخرا الى بيت يستاجره في احياء وسط المدينة ، وفوجيء مصطفي نبيل، بهاتفه يرن في ساعة متاخرة ، ونهض منزعجا يرد على صاحب المكالمة ، فاذا بها من احد رفاق ابوهروس في السكن ، يقول له ان الاستاذ عبد القادر يعاني من اعراض جلطة، وقد سأله ان يتصل بهاتفه مستنجدا، فاسرع مصطفي نبيل، كما اخبرني يهاتف صديقا طبيبا ، يوقظه من النوم ليتدبر سيارة اسعاف تذهب لاخذ ابو هروس الى المستشفى ، ولكن سهم القضاء كان قد نفذ، ولاقى الصحفي اللامع والكاتب القصصي الرائد ، صاحب صحيفة الرائد، الاستاذ عبد القادر ابو هروس وجه ربه في تلك الليلة عن عمر يناهز ستين عاما .

خطيب مسجد شائب العين

حدث في مطلع الستينيات، والاذاعة ما تزال في مقرها القديم بشارع الزاوية، ولم تنتقل الى شارع الشط بعد، ان كان برنامج ركن الهواة ، الذي سيرتبط في سنوات قادمة بالفنان الذي اشرف عليه لعقود كثيرة كاظم نديم، تحت اشراف مذيع من اهل الريادة هو محمد مختار التركي ، الذي تخصص في العقود الاخيرة في تقديم البرامج الدينية، وتصادف في تلك الفترة ان ذهبت لصلاة الجمعة في شائب جامع العين ، الموجود في جانب من شارع الترك ، بالمدينة القديمة، وكان قريبا من سكني في فندق بعيشو، واثارني ان خطيب المسجد، عرج في خطبته على برامج الاذاعة الليبية، وشن هجوما كاسحا على برنامج ركن الهواة ، ضاربا به المثل كواحد من البرامج التي تفسد عقول الصبيان، لانه برنامج كما جاء في حديثه، لا يعلم القرآن الكريم ، ولا احكام الشريعة والسنة الشريف ولا احاديث سيد الاولين والاخرين ، وانما يعلهم الفسق والفجور عن طريق تلقينهم اغينيات الحب والغرام ، مثل اغنية "خطم حفني" وما ادراك ما خطم حفني ، كما جاء في خطبته ، وكانت تلك الاغنية قد انتشرت وصارت اغنية الموسم، من تاليف صالح الشنطة وتلحين كاظم نديم وغناء محمود الشريف.

خرجت من المسجد حانقا على هذا الامام الذي يكره الغناء، وكتبت مقالة لصحيفة الرائد، ادافع فيها عن فنون الطرب التي هاجمها الشيخ، وطلبت منه ان يتعد عن مثل هذه القضايا البعيدة عن فهمه، ويقصر حديثه عن ارشاد الناس لشعائر دينهم، فهذه هي مهمته ، وليست مشكلة ركن الهواة في الاذاعة ، فلا يجب ان ينسى نفسه ، ويعلق تقصيره في التوعية بالدين والشريعة على غيره من الناس.

وجاءني بعد نشر المقال المذيع السيد محمد التركي ، شاكرا، لانني انصفته وانصفت برنامجه ودفعت عنه غلو اهل التزمت الديني ، كما جاءني في اليوم التالي ، الكاتب الصديق بشير الهاشمي ، ليقول لي ان هناك شيخا من شيوخ ادارة الاوقاف، غاضب مني ، يهدد ويتوعد بالانتقام، وقد افهمه الاستاذ الهاشمي انه يعرفني وانه يستطيع ان يحضرني اليه لازالة سوء التفاهم الذي اغضبه ، ورآني حائرا لا افهم سببا لهذا الغضب، لانه لا توجد علاقة بيني وبن احد من شيوخ ادارة الاوقاف، وقال ان الغضب فيما يبدو بسبب المقال الذي دافعت فيه عن ركن الهواة ، وذهب في ظني ان الشيخ هو نفسه الامام الخطيب، الذي

هاجم الاذاعة وهاجم فنون الموسيقى والغناء، فاردت ان اتجاهله واتجاهل تهديده ولا اعيره اي اهتمام، الا ان الهاشمي الح ان امر عليه في مقر عمله بالاوقاف، في اية ساعة فراغ اثناء فترة الدوام ، في اليوم التالي او الذي يليه، ويضمن لي بانني لن اخرج الا راضيا من لقاء الشيخ.

وفوجئت عندما التقيت بالرجل ، انه لم يكن هو الخطيب الذي قمت بالرد على الهجوم الذي شنه على الاذاعة، وانه رجل صاحب لحية بيضاء ، يرتدي لباسا وطنيا انيقا وجميلا ، وانه اكثر وقارا وبهاء وهيبة من ذلك الخطيب الكهل ، الذي كان نحيفا ، عصبي المزاج، وكانت المفارقة، التي جلبت سوء الفهم ، ان هذا الرجل هو الخطيب الرسمي الذي يؤم الناس في جامع شائب العين ، وهو الذي واجه تعليقات الناس وتساؤلاتهم بعد نشر المقال ، لانني طبعا لم اذكر اسم الخطيب ، لانني لا اعرفه ولا يعنيني ان اعرفه، واشرت اليه باعتباره امام الجامع، وكان هذا الامام ينشغل احيانا في مهمات تتصل بعمله خارج طرابلس ، فاذا حدث هذا الامر عهد بالمهمة الى من يقوم بها من رجال الدين، وهوماحدث ذلك اليوم ، وزاد الامر سوءا، انني اكتب لصحيفة اسبوعية ، مما جعل مقالي لا يصدر غداة سماعي للخطبة وانما في اسبوع بعدها كان الشيخ قد عاد لاداء مهمته ، فذهب في اذهان الناس انه المقصود بما نشرته من دفاع، ولم يكن في الحقيقة يتبني راي زميله الذي تولى الامامة والخطابة بالانابة عنه، فهو لا يكره الغناء ولا يراه ملهاة للشباب عن دينهم ، ولعله طلب مني انشر توضيحا ، الا انني سالته ان يتولى ذلك بنفسه وارسال ما يريد من توضيح الى الصحيفة ، لانني مشغول بقضايا غير هذه القضية التي انتهى امرها بالنسبة لي ، وانتهى الموضوع بيني وبينه عند ذلك الحد، وصرت التقي هذا الشيخ ، الذي سقط اسمه من ذاكرتي، كلما ذهبت لزيارة صديقي الهاشمي ، واعتقد انه دعاني الى زيارته في بيته ، في واقعة اظنني اوردتها في متن المذكرات ، حيث كان يعقد ما يشبه الندوة فيه، عليه وعلى زميلنا بشير الهاشمي رضوان الله.

الرسام على البيرة

رسام صديق من مصراته ويقيم في طرابلس التقيت به في فرقة الامل للتمثيل ، عند التحاقي به عام 1958، وكان يساهم في رس الديكورات وتصميمها وتركيبها على خشبة المسرح ، يتقن الايطالية مثل اهلها، ويرتدي فوق راسه دائما بيريه مثل البيريه الذي اشتهر به توفيق الحكيم، وكان يحب الجلوس في المقاهي ، ويحب الانتقال بينها ، وكنت ارافقه في رحلاته بينها، وكانه موكول بمهمة تفقد كل المقاهي في مدينة طرابلس ، وكان يعرف عددا كبيرا من اعضاء الجالية الايطالية في العاصمة ، لا يمر في الشارع الا ويتبادل التحية مع عدد كبير منهم ، وكان يقول انه تلقى تعليما في احدى مراكز التعليم التابعة لاحدى الكنائس ، وهو امر ربما يكون غريبا في ذلك الوقت ، الا انه لم يكن غريبا زمان الاحتلال الايطالي ، فقد اورد ذلك استاذنا الشاعر والفنان فؤاد الكعبازي، عندما لم يجده والده المربي مصطفى الكعبازي، بعد ان اقفل الايطاليون مدرسة العرفان العربية ، الا ان يعهد به لمدرسة الراهبات ، التي امضى بها عدة اعوام، دون ان تؤثر تلك الدراسة في ايمانه وولائه لدينه الاسلامي، الا ان الامر اختلف قليلا مع هذا الصديق ، واقول بداية انني لم اسمعه يجاهر بتحوله عن الدين الاسلامي الى المسيحية ، او يتكلم صراحة عن

تفضيله لدين اصاحبه الايطاليين عن دينه ودين اهله، ولكنه كان يتحدث دون حرج عن مشاركته في بعض المناسباب لاصدقائه الايطاليين التي تعقد في الكنيسة من مراسم زواج او تعميد او دفن، ودون ان يقولها صراحة ، فقد كان واضحا انه يشارك في اداء الطقوس المصاحبة لهذه المناسبة مجاملة لهؤلاء الاصدقاء وليس من باب الايمان او التحول الى تابع من اتباع الكنيسة النصرانية. ولا استطيع الان ان اذكر ما اذا كان قد اقام معرضا لرسومه في احد الاندية اوانه قامب المشاركة في احد المعارض مع فنانين اخرين ، لانني لم اشاهد المعرض بنفسي ولكنني سمعت ذلك منه او بعض اصدقاء فرقة الامل ، لانه حدث اثناء غيابي في احدى الرحلات.

لا اذكر ايضا متى اختفى على البيرة من المشهد الفني في ليبيا، واذا عدت لاستشارة ذاكرتي والالحاح عليها فانني لا اجد له اثرا في هذه الذاكرة بعد انقلاب 69، الذي ترافق مجيئه مع دعاوى طرد الجالية الايطالية من ليبيا، هذا الطرد او الاجلاء الذي تم بعد عام تقريبا من عمر العهد الانقلابي وبطريقة فيها الكثير من المخالفة لمباديءحقوق الانسان، وكان له ارتباطات كما اسلفت القول مع عدد من عناصر هذه الجالية ، ولعل مع ارتباطات الصداقة هناك ارتباط عمل ، لانني لم اكن على علم بما يمارس من وظيفة او عمل يجلب منه قوته ، واقتصرت معرفتي على هواياته الفنية وهي المسرح والرسم، ولعل هذه الارتباطات مع عناصر الجالية الايطالية، دفعت به الى مغادرة البلاد مع هذا الخرج القسري والجمعي للايطاليين من ليبيا.

انقطعت اخباره تماما عني ، ولم اجد احدا يملك اخبارا عما اليه اليه مصيره، خاصة انني غبت في دورة تعليمية في بريطانيا غطت الفترة من قبل الانقلاب بعام والى العام 71 وطبعا كان زمن فرقة الامل قد انقضى وانتهى، ولم اعد استطيع احدا يفيدني عن مصيره ، فهل تراه توفى اثناء تلك الفترة، هذا ما استبعدته لان للموت صدى لابد ان يصل الى اسماع من اشترك معهم في معرفته ، ولا ادري الان المصدر الذي قال لي ، ربما على سبيل التكهن والتخمين، ان الفنان على البيرة سافر الى روما وتحول نهائيا الى المسيحية، وانه اختار ان يعيش ويمارس هواية الرسم في موطنه الجديد ايطاليا. شائعه لا استطيع التاكد منها ، وربما ليس سهلا تصديقها، وربما كان بين اهله وعشيرته واهل منطقته من يعرف المصير الذي اليه هذا الفنان الصديق ، الذي كان ودودا ، محبا للناس ، محبا للحياة اللذيذة الجميلة ، محبا للفنون ليس الرسم فقط ولكن الادب والموسيقى وطبعا كل مفردات العمل المسرحي، كما كان يملك ثقافة في هذه الفنون ، ولاشك انه ضاق ذرعا بالبلاد وهلها، بعد سيطرة اهل اللباس الكاكي، ففر بجلده رافضا ان يشاركهم البلاد او يشاركهم العقيدة ايضا، وللاسف لم استطع ان التقي باحد من اسرته يعرف شيئا عن هذا الفنان الذي ضاع مني في زحام الحياة.

بعد كتابة هذه النبذة عن الصديق الفنان الغائب، ورد ني اتصال من الفنان الاستاذ محمد عبية الذي كان في الستينيات يؤهل نفسه للمارسة فن الرسم وقال انه سمع كثيرا عن على البيرة وشاهد في الصحف رسوما له كما تناهي الى سمعه انه قد توفي عام 1970، كما قال انه كان يعمل في المهاجرة واكد هذا صديق اخر واغلب الظن انه فعلا كان يعمل كخبير في الخط وكتابة الجوازات بالاحرف العربية واللاتينية بخط جميل ، ونفى ابن عائلة البيرة في مصراته الدكتور سليمان البيرة شائعة ان تعاطفه مع اصدقاءه من اعضاء الجالية الايطالية وتاثره بهم قد يجعله ينحاز الى دينهم واقول الان ان سبب هذه الربكة في اخبار

المصير الذي ال اليه انه فعلا ذهب عام 1970 لايطاليا ليس للهجرة وانما للعلاج ولانه خروجه جاء متوافقا مع طرد الجالية الايطالية ولانه توفي هناك اثناء العلاج تولدت لك الاشاعات التي تقول بغيابه هناك وانضمامه الى دين الايطاليين وهو ما لم يحدث.

الحاج محمد حقيق

كان الحاج محمد حقيق من اعمدة الاذاعة الليبية منذ انشائها في النصف الثاني من عقد الخمسينيات، صاحب برامج متعددة ومتنوعة في الثرات الشعبي، وصاحب اسهام في البرامج التمثيلية باعتباه احد عناصر الفرقة المسرحية الاشهر في تاريخ مسرح الهواة في طرابلس الفرقة القومية للتمثيل التي قام فيها ببطولات عدد من المسرحيات بدءا من مسرحية تحت الرماد عماد 1954 مرورا بتراث الفرقة مثل جناب المفتش واللي تظنه موسى يطلع فرعون وكل شيء يتصلح وطبيب ونصف وغيرها، وسنوات عديدة قبل الانقلاب العسكري عام 69، اشتهر ببرنامج يومي في الاذاعة ، ينصت الله الناس بشغف ، وينتظرونه عشية كل يوم ، اسمه "حديث اليوم"، يخاطب فيه جمهور الاذاعة باللهجة الدارجة ويتناول قضايا حياتهم اليومية ، اشبه بما يسمى في الصحافة عمود الراي ، لانه يتناول مختلف المواضيع الاجتماعية والسياسية والاقتصادية ، وقد ربطتني به علاقة مودة وصداقة ، منذ بدايات اتصالي بالاذاعة، خاصة ان كانت تجمعنا هواية مشتركة هي هواية التمثيل المسرحي ، وقد ضرب بسهم وافر في هذا الفن وكانت اطلالته محببة من جمهور المسرح الى حد ان المشرفين على سهرات المنوعات الغنائية على المسرح كانوا يصرون على احضار الحاج حقيق لتقديم الحفل لانه كان يستطيع باسلوبه المرح في التقديم وبقفشاته التي تجذب معها المشاهدين ان يضمن انصاتا واهتماما بفقرات العرض ، وكان يعطي كل فنان حقه وهو يقدمه ويعتني بابراز اهم صفاته ، لانه ايضا كان قريبا من الوسط الغنائي والموسيقى ، فقد كان مؤلفا للاغاني ، وكان عازفا مجيدا لالة البيانو، واكثر من هذا كان صاحب مبادرات وافكار يحرص اهل هذا المجال على الاستفادة منه ، وقد لا يعلم الناس ان اشهر لحن شعبي ليبي ، وهو ذلك الذي استعان به الفنان محمد عبد الوهاب وضمن مطلعه في اول اغنية يلحنها لام كلثوم ، لحن بعث المحبة هناش من يشريها ، هو لحن اقترحه الحاج حقيق على الاذاعة وقام بغنائه المطرب صاحب الحنجرة الذهبية محمد رشيد ، وكانت الكلمات التي تم تركيبها على اللحن القديم ومطلعه الشعبي من كلمات الحاج محمد حقيق، وكان مؤسس برامج التراث الشعبي في الاذاعة، وهي برامج اشرف عليها واقترح مادتها وكلف عناصر من تلاميذه بجمع المادة لها اذ كانت تهتم بجمع التراث الشعبي في شكل الحان وقصص واشعار وامثال، ولعل انجازه الاهم على هذا الصعيد هو تاسيسه لفرقة الفنون الشعبية ، التي عملت لفترة من الوقت باعتبارها فرقة اهلية ، تقدم حفلات في مناسبات عامة كانت اشهرها مناسبة احتفال معرض طرابلس التجاري الدولي واحياء لياليه ، وفي عهد حكومة الدكتور محي الدين فكيني ، وتولي السيد عبد اللطيف الشويرف وزارة الانباء والارشاد ، صدر القرار الحكومي بضم الفرقة الى الدولة واعتبارها الفرقة الرسمية للفنون الشعبية ، تمثل البلاد في المهرجانات العالمية ، وتقدم عروضها في مسارح ليبيا ، احتفالا بالمناسبات الوطنية ، وتحظى برعاية الدولة ، وتولى ادارتها والاشراف عليها الحاج محمد حقيق، وقد تم الاستعانة بعدد من الخبراء اللبنانيين لتطوير موسيقاها ورقصاتها وملابسها ومجمل ادائها، وشهدت الفرقة في عهد ادارة الحاج لها ، نجاحا ساحقا اوصلها الى ان تفوز بالجوائز الاولى في عدد من

المهرجانات العالمية ، قد انشئت الفرقة في مطلع الستينيات ، وتوقف نشاطه في هذا المجال مع انتهاء العهد الملكي ومجيء الانقلاب الذي اهمل العناية بالفنون والاداب، وانصرف نشاط الحاج حقيق الى مجال اخر هو جمع الامثال الشعبية ، وجمع الحكايات والخرافات الليبية ، وقد دعاني لاتولى الصياغة الادبية لعدد من القصص والمرويات الشعبية ، وفعلت ذلك مع عدد قليل من القصص التي نشرت في صحف ذلك الزمان ، وبسبب انشغالي ، استعان بزميل كاتب هو يوسف الشريف الذي واصل العمل معه ، وتخصص في مجال قصص الاطفال والكتابة لابناء هذه الفئة العمرية .

عندما توليت لفترة من الوقت ادارة الفنون الاداب ، وكانت تتبعها فرقة الفنون الشعبية ،التي بدأت تعاني تراجعا وذبولا، واردت ان ابعث فيها شيئا من النشاط، استعنت بالصديق الحاج محمد حقيق ، ورجوته ان يعود لادارتها، ولم يكن في الحقيقة راغبا في هذه العودة ، لاسباب كثيرة كانت احداها انه لايثق في لدولة الانقلا ب اية نية صادقة في احياء الفنون ، لان من جهل شيئا عاداه ، كما كان يؤكد ويدرك وهؤلاء الجهلة من اهل الانقلاب ممن لا علاقة لهم بادب او فن سيكون مستحيلا ان يلقى ادنى رعاية من قبلهم، خاصة وانه شاهد في الاذاعة المرئية وغيرها ان الفنون الشعبية لا تعني لهم الا قصيدة شهر شعبي تمدح النظام ورئيس النظام ، او اربعة يجلسون ويحملون عصيا في ايديهم يطرقن بها اناء خشبيا، مع اهزوجة مذغومة الكلمات تنتمي غالبا لذلك النوع من المديح الممجوج، هذا سبب، كان من السهل اقناعه بان تحسين مستوى الاداء يقتضى الا يهرب اهل الخبرة والكفاءة من المجال ويتركونه لاهل النفاق والسطحية ، اما السبب الاهم ، فان الحاج حقيق كان قد اختط لنفسه في الحياة ، طريقا مع اهل التصوف، وقد صار اكثر انصرافا وانشغالا بهذا المجال ، وهو تصوف لا يشوبه اي تزمت او انغلاق، كانت البداية هي التصاله ببعض الزوايا الدينية التي تمثل موئلا ومخزنا للتراث الليبي الصوفي في الاذكار والمدائح وشعر واهازيج الموالد ورقصاتها الصوفية ، ثم استهواه هذا العالم فانجذب اليه ، وانضم الى مجموعة من الفنانين والموسيقيين المصريين يكونون حلقة صوفية ، كان بينهم الشاعر الغنائي المصري وصاحب نشيد الله اكبر عبد الله شمس الدين، كما كان من اعضاء هذه الحلقة كل من عطية شرارة الموسيقار الشهير وعازف الكمان الذي عاش ردحا كبيرا من الزمن في ليبيا ، ورفيقه عبد الفتاح منسى عازف الة القانون الذي امضى بضع سنوات في ليبيا ايضا، وهناك غيرهم طبعا، وهو مسلك كان يقوده احيانا لزيارة الاولياء والصالحين والتواصل معهم في طول البلاد وعرضها ، مستفيدا من اغناء حصيلته الفنية من الاذكار والمدائح واثراء ملكاته الابداعية التي اتجهت في هذه المرحلة لمزيد من التاليف في مجال الشعر الغنائي ، وكان يرى مع هذا المجال الصوفي الذي استقطب اهتمامه ، ان هناك من شباب الفرقة من هم اكثر نشاطا وقدرة على خدمتها وقيادتها، المهم ، نه فعلا عاد لقيادة الفرقة ، واستقبله الاعضاء بفرح وحماس ، موقنين ان عودته تعني عودة الالق والتوهج الذي غاب عنها ، واذكر انني قمت بترتيب رحلة فنية قوامها فرقة الفنون الشعبية الى جزيرة مالطا وتوليت رئاسة الوفد ، وكانت الطرف المقابل الذي استقبل الفرقة واعتنى بتنظيم برنامجها وزيرة للشئون الاجتماعية هي السيدة اجاتا التي اصبحت فيما بعد رئيسة للجمهورية ، وكافاناها متطوعين بتقديم حفلة فوق حفلات البرنامج ودون اية تكاليف من جانب الحكومة المالطية ، هدية في منطقتها الانتخابية المسماة منطقة زابار، وكتبت عن هذه الرحلة تقريرا صحيفا نشرته في الاعداد الاولى للاسبوع الثقافي عن الحماس والانبهار الذي استقبل به الجمهور في مالطا هذه الفرقة ، والنجاح الذي حققته في حفلاتها ، وتصادف وجودنا في الجزيرة مع

انعقاد مؤتمر لاهل الفن الاوبرالي ، حضروا العرض الذي قدمناه في اوبرا مالطا، وكتبوا رسالة جماعية عن قوة المفاجاة التي اصابتهم عندما شاهدون المستوى الراقي لاداء اعضاء الفرقة ، وكانت تلك الرحلة هي اخر عهد تلك الفرقة بالنجاح والتالق ، فقد انتقلت مع صحيفة الاسبوع الثقافي الى المؤسسة العامة للصحافة ، وتركت ادارة الفنون الاداب التي دمجت مع ادارات اخرى في هيكلية جديدة للاعلام، واظن ان تلك الهيكلية استوجبت ايضا الا تكون فرقة الفنون احتكارا لطرابلس وانما يتوزع اعضاءها ويذهب بعضهم الى المناطق التي جاءوا منها ، وتركها الحاج محمد حقيق ، الذي لم يكن اساسا متحمسا للبقاء فيها. واذكر اننا في تلك الاعوام ، ادرنا في بيته بحي الاندلس ندوة تتكرر اكثر من مرة كل اسبوع، وكان يحضرها عدد من ضيوف ليبيا من الفنانين ، بعضهم اساتذة في المعهد الوطني للتمثيل والموسيقى، وكانت تربطه صداقات بعدد من اهل الفن في تونس ، مثل صالح المهدي ، الملقب باسم زرياب ، الباحث في التراث الاستاذ محمد المرزوقي والمؤرخ عثماك الكعاك، وهم ممن التقيت به معهم في ليبيا واحيانا في بيته ، وكان يكثر من الذهاب الى تونس حيث يلقى ترحيبا من اهل الفن وقد صدحت باغنيه التي الفها خصيصا لهم مجموعة من بلابل تونس من مطربين ومطربات مثل علية ونعمة وغيرهما.

كان ايضا يتردد على روما، لان مؤسسة السينما اعتمدت عليه بسبب اتقانه للغة الايطالية في انتقاء افلام لتوزيعها وعرضها في دور العرض الليبية ، لكي يختار ما يتمشى مع تقاليد وعادات المجتمع ولا يخدش الحياء اوخالف تعاليم الاسلام، قبل ان تتحول هذه العملية الى وكلات وعمولات وتجارة رابحة ، وحكى لي الكاتب والناقد الراحل نجم الدين الكيب ، قصة طريفة ، وهي انه كان ذات مساء يتجول في احدى الشوارع التجارية في العاصمة الايطالية ، عندما تناهي اليه عزفا جميلا للحن شعبي ليبي هو لحن بعث المحبة هناش من يشريها مع صوت جميل يصاحب العزف ، فصار يتنقل بين الحوانيت ليعرف مصدر هذه النغمة المالوفة لديه في هذا المحيط الغريب ، وراي ان ثمة حانوتا يبيع الصحف والكتب ، هو الاقرب الى مصدر الصوت ، فدخل يتفقد المكان ويفحصه بعينيه محاولا العثور على ماكرافون او مسجل او راديو يذيع الاغنية فلم يجد الا البائعة منشغلة بزبائنها ، ولكنه احس بان الصوت ليس بعيدا، فانتظر حتى فرغت البائعة من زبون امامها ليسالها عن مصدر هذه الاغنية الليبية ، فاشارت الى سلم خشبي يقود الى طابق اعلى في تلك المكتبة ، واذنت له بالصعود، فارتقى السلم منتظرا ان يجد مذياعا او مسجلا لايطالي قديم عاش في ليبيا ودفعه الحنين لسماع هذا النغم ، فاذا به يفاجأ بالحاج محمد حقيق جالسا على الة البيانو يعزف هذا اللحن الليبي الشهير ويغني الكلمات التي كان هو مؤلفها ، وطبعا توقف للترحيب بصديقه الاديب الليبي، وافهمه انه صديق لصاحب المكتبة ، وانه يجد هنا راحته جالسا على البيانوا مستعيدا ما يحب من الاغاني .

كان موسوعة في التراث الشعبي الليبي، ولكنه كان مثل سقراط، لا يتولى توثيق ما يملك من معارف وافكار وخبرات ، بل كان يلقيها شفاهة في احاديثه مع رفاقه وتلاميذه في مجالسه الخاصة ، غير تلك التي ذهبت عبر اثير الاذاعة ، وكان فنانا فنانا من قمة راسه الى اخمص قدميه ، ويتجلى هذا الفن حتى في لباسه العربي الاصيل الجميل الذي يتكون من جلابية السكروتة وطاقية الحرير والبلغة الغدامسي، وهو لباس لا يراه الناس عادة الا على ابدان العرسان ، ولكن الحاج حقيق كان يتخذه زيا دائما له بل ويضيف اليه مشموم الفل احيانا، كما كان يملك ثروة من الحكايات والقصص باعتبار هذه القصص الشعبية هي مخزون الحكمة البشرية ، ولما كانت هذه الحكمة تتجلى في اقواله واعماله فقد جمع في شخصيته بين

الحكمة والتصوف وعشق الفن وحب الناس والحياة. لقد كان بحق ثرة انسانية ، عرف العهد الملكي كيف يستفيد منها ، وعرف العهد الانقلابي كيف يعمل على اضاعتها واهدارها، ولذلك فانه لم يكن يطيق صبرا للبقاء طويلا مع هذا العهد فاختار ان يغادره ويغادر عالما عام 1980 ولم يكن قد بلغ من العمر سوى ستة وخمسين عاما . عليه رضوان الله.

الاقلام التي جف حبرها

كان ثمة عدد من المجلات الثقافية عندما بدأت اتلمس طريقي للنشر اوخر الخمسينيات ، تصدر في طرابلس اذكر ثلاث مجلات منها، هي: هنا طرابلس الغرب، وصوت المربي، ثم مجلة الاذاعة التي بدأت الصدور عام 1960 ولعلها جاءت لتحل محل هنا طرابلس الغرب التي بدات باعتبارها معبرة عن اذاعة محلية بدات في الارسال

عام 1954، ثم ليبيا الحديثة التي ساهمت في اصدارها عام 1962 ، وستصدر متاخرا بالنسبة للعهد الملكي المجلة التي كانت مكرسة تكريسا كاملة لمادتها الادبية "الرواد" التي يعود الفضل في اصدارها لوزير الاعلام والثقافة في ذلك الوقت خليفة محمد التليسي، وانتسبت الى اسرة تحريرها منذ عددها الاول، وخلال هذه السنوات وعبر هذه المنابر الثقافية ، كانت هناك اسماء كتاب ، يتكرر وجودها في هذه المجلات ، بعضها واصل الكتابة ، وان بوتيرة بطيئة مثل يوسف هامان، ومحمود بريون ومحمد التركي التاجوري، ومحمد الجفائري، وعدد كبير من تلك الاسماء توقف اصحابها عن الكتابة واختفت تماما من المشهد الادبي، ولم ار لهذه الاسماء ظهورا فوق اية صحيفة ربما منذ اربعة وخمسة عقود، رغم ان اصحاب هذه الاسماء ، او من ساذكره منهم، مازالوا موجودين على قيد الحياة اثناء كتابة هذه السيرة، اذكر منهم الاساتذة ، على الغودي، ومحمود البلعزي، ومحمود الفساطوي، والذويب الاخضر. طبعا هناك اخرون انتقلوا الى جوار ربهم، ولكنهم توقفوا عقودا قبل الرحيل عن الكتابة ، مثل احمد سليم مامي الذي زاملته لفترة من الوقت في منتصف الستينيات في صحيفة طرابلس الغرب ، ثم ومنذ ان توقفت تلك الصحيفة منذ خمسة واربعين عاما، لم ار لاسمه وجودا رغم انه لم يرحل عن عالمنا الا منذ عامين اوثلاثة اعوام، ربما في اخر اعوام العهد الانقلابي، وهناك اسماء برزت في صحيفة الحقيقة الصادرة في بنغازي، وصنع اصحابا صيتا لانفسهم ، ثم لحقوا بعد ان توقفت الحقيقة ، بطابور الصامتين اذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر ، انيس السنفاز وحسين مخلوف وكلاهما كما اعلم موجود في بنغازي.

واعرف كتابا اخرين ، ينقطعون فترة طويلة ، ثم يستانفون الكتابة، وابرز مثال لهؤلاء الكتاب الاستاذ يوسف القويري، الذي مثل له الوضع الانقلابي صدمة منعته من الكتابة قرابة ثلاثين عاما، ثم فتح الله عليه فعاد تحت الحاح اصدقاء يعرفون قيمة قلمه كنت واحدا منهم ، وكذلك فعل الزميل رجب لملوم قبل رحيله ، وهوحال ينطبق على اصدقاء في النشاط الصحفي والفني ايضا مثل صديقنا الكاتب والفنان الراحل بشير كاجيجي، وصديقنا الكاتب والفنان الذي يعيش في بنغازي صالح بن دردف، والصديق الكاتب عبد الرزاق ابو خيط، واقول ان الاسماء كثيرة ، التي كان الصمت هو الغالب على موقفها من الكتابة ، اما الذين توقفوا منذ الخمسينيات ومطلع الستينيات ولم يعودوا لممارسة الكتابة فهم ايضا كثر لم اذكر منهم الا من اعرفهم معرفة شخصية ، وبعضهم تمتد صداقتي به عشرات الاعوام ، مثل الصديق المهندس

الذويب الاخضر، او الصديق الاستاذ محمود البلعزي، ولم يكن توقفهم لنقص في الموهبة او عدم اقتدار وجدارة كما يحصل لبعض الناس في مرحلة المراهلة ، عندما يكتبو خواطر شعرية ، ثم يكتشفون بعد نضجهم انها لا ترق الى مستوى الشعر ، وانهم لا يملكون موهبة الشعراء لكي يستمروا في هذا الطريق، فيعدلون عنه، ولكنهم كتاب من اصحاب الموهبة والاصالة ، وكانوا يعالجون قضايا ادبية وفكرية واجتماعية ، ويخوضون نقاشات ذات عمق ، ويتولون عرض الكتب ونقد افكارها، ولم يكونوا يقلون مستوى عن مجايلين لهم واصلوا الكتابة وصنعوا لانفسهم اسماء في الكتابة الادبية والصحفية مثل محمد الشاوش، ومحمد فخر الدين، ورشاد الهوني ، ولا اعتقد ان احدا منهم يملك تفسيرا واعيا لما حدث له من توقف، وربما وجد احدهم ذريعة يستخدمها في الرد، مثل المهندس ذويب الاخضر، الذي كان جوابه على سؤالي هو انه كتب ما كتبه في مراحل الدراسة المبكرة، قبل ان يحدد اتجاهه في الحياة، ثم تحدد هذا الاتجاه عندما صار مهندسا وواصل الدراسة العليا في هذا المجال ، الذي استقطب جهده وتمركزت حوله حياته، وقوله فيما ارى كان تخلصا ذكيا ، يستطيع ان يقتنع به نفسه، ويرتاح لما ال اليه من ابتعاد عن الكتابة ، الا انه يبقى ردا ناقصا لانه ما اكثر الذين درسوا العلوم ، فكانت دعما وتعميقا لكتاباتهم الفكرية والادبية ، واكبر مثال يمكن ان نسوقه على ذلك، المفكر المصري الدكتور حسين فوزي، احد اباء التنوير في العصر الحديث، الذي تخصص في علوم الاحياء المائية، ولم يمنعه تخصصه العلمي الدقيق في ان يواصل طريقا بداه مع الكتابة الادبية والفكرية ، مستفيدا بعقله العلمي الرياضي في مقاربة القضايا الفكرية والثقافية. ثم ان هذا العذر اذا كان يصلح مع مهندس مثل الدكتور الاخضر، فانه لا يصلح مع ثلاثة من رفاقه لم يذهبوا مثله الى اسطنبول لدراسة الهندسة ، وانما كتبوا وهم منخرطون في الوظيفة في بلادهم وواصلوا هذا العمل الاداري الروتيني، الذي يتيح لهم وقتا وافرا للكتابة، وهي هواية تمنحهم مساحة للهروب من روتين واختناق العمل الوظيفي يمارسون فيها حرية الشهيق والزفير، ومع ذلك لم يفعلوا. وهذه الحالة التي حصلت مع كتاب بدأوا بنشر مقالاتهم في المجلات الثقافية، تكررت مع مبدعين اثبتوا جدارهم في كتابة الشعر مثل المرحوم محمد المطماطي، او كتابة القصة مثل المرحومين محمد فريد سيالة وعبد القادر ابو هروس، وقد اعتبر المطماطي من كوكبة المجددين من جيل خالد زغبية وعلى الرقيعي وحسن صالح، اما ابوهروس ، وفريد سيالة، فهما كانا قطبي الكتابة القصصية في الخمسينيات، يتصدران الصفوف ، ويحتلان موقع الريادة والتاسيس في السرد القصصي والروائي. وكلاهما توقف حتى وفاته، ابو هروس عند سن الستين، وزميله بعد ان تجاوز الثمانين، مضحيا الواحد منهم بشهرته وذيوع صيته، وهو توقف حصل لاثنين قبلهما، وبدءا هذا التاسيس منذ عقد الثلاثينيات ، هما وهبي البوري واحمد راسم قدري، فلم يعد اي منهما للكتابة القصصية بعد ذلك التاريخ رغم انهما عاشا عدة عقود منذ ان توقفا عن كتابة ونشر القصص .

ويمكن القول ان قضية التوقف ، تشكل ظاهرة في ليبيا، ولعلها تتكرر في بلدان اخرى باشكال مختلفة او متشابهة مع الحالة الليبية ، تبعا لظروف كل بلد، واستطيع ان اجزم بان للتوقف علاقة بما راود كل كاتب ينتمي لبيئة متخلفة وبلد من بلاد العالم الثالث، وهو لا جدوى الكتابة، ليس فقط على المستوى الذاتي، بمعنى انه بات في حكم القاعدة، ان الاشتغال بالادب لا ياتي في ركابه اي كسب مادي، وان مهنا لا تحتاج لاي تعليم مهما كان ضئيلا مثل بيع الاحذية ، تستطيع ان تجلب لصاحبها رزقا افضل مما تجلبه مهنة الكتابة مهما كانت معارف الكابت وكفاءته وغزارة مواهبه، اقول ليس فقط على هذا المستوى

الذاتي، ولكن ايضا على المستوى الموضوعي الذي يتصل باهداف عامة ذات ابعاد وطنية، ينشدها الكاتب من الكتابة ، باعتبارها طريقا لتحقيق الوعي وبناء البشر وصنع التقدم، فحتى هذا الهدف يبدو عصيا على التحقيق، بسبب ما تتعرض له مجتمعات البلدان النامية من نكبات، تجعلها تزداد تخلفا لا تقدما، وهو نتائج واسباب ، لا تحيل الا الى مشاعر الاحباط والعجز واليأس ، التي تؤدي بدورها الى توقف الكاتب عن الاستمرار في الكتابة، ولا حاجة بعد ذلك لذكر ما يلى هذا السبب من اساب، مثل ما تفيض به هذه المجتمعات المتخلفة من كبت وقهر وغياب للحريات العامة والخاصة وعلى راسها حرية التعبير ، فهي لا تشكل الا توابع وملحقات لنفس السبب الرئيسي.

ولن تكتمل هذه الخاطرة الا بابداء تصور ما عن لماذا يستمر اخرون في الكتابة ، وهم فعلا يستمرون رغم كل العوائق والعراقيل واسباب الاحباط واليأس، واقول من خلال تجربتي ان هذا الاستمرار يحصل لمن صارت الكتابة بالنسبة له شيئا تتمحور حوله حياته ولعل السبب وجود موهبة تملأ وجدانه وتحتل كل اروقة الوعي لديه ، فلا تترك له مجالا للنكوص او الهروب او التوقف، وتصبح الكتابة بالنسبة له اشبه بعملية الشهيق والزفير، فهو سيختنق اذا لم يكتب ، ويجد سبلا ودروبا ومسارب لموهبته تنسكب منها حتى في اكثر الظروف كبثا وقهرا وغيابا لحرية التعبير، وهو ما اراه ينطبق على اغلبية الكتاب الذين واصلوا الكتابة ، وهناك اقلية بجوار هؤلاء ، ليست بالضرورة من اصحاب المواهب الكبيرة ، ولكن من اصحاب الشطارة والحيلة، ووجدوا في الكتابة سبيلا لممارسة العاب بهلوانية تجلب لهم مع الرزق الشهرة والمكانة الاجتماعية، وترضي ميولهم الاستعراضية ، وتقدم لهم مسرحا مثل مسرح الحواة والمهرجين ، يعرضون عليه العاب القفز على الحبال وخداع البصر ، والله اعلم.

فقاعة بشرية

عرفته في مطلع حياتي الادبية شابا صغيرا في مثل عمري ، يسعى مثلنا نحن فتية مدينة طرابلس للوصول بانتاجنا الى النشر ، ولم يواته التوفيق الذي كان يواتيني ويواتي صديقا مثل محمود نافع، او محمد احمد الزوي ، او حسن خشيم ، و كان طالبا في مدرسة طرابلس الثانوية ، حصل على الشهادة التوجيهية وغاب عن المشهد الصحفي، في طرابلس ليلتحق بالجامعة الليبية في بنغازي، دون ان يتوقف عن ارسال مقالاته التي ينجح احيانا في الوصول باحداها الى النشر، وعاد بعد حصوله على الشهادة الجامعة موظفا في احدى الوزارات ، دون ان يرافق هذا النجاح الدراسي توفيق في النشر، فقد كنا نحن ابناء مرحلته العمرية قد تبوأنا مكانا ملائما في الصحافة نحرر الصفحات الاسبوعية والابواب اليومية بل ويصل بعضنا الى منصب رئيس تحرير ، وهو مازال يجهد نفسه لتامين مساحة لنشر مقال مرة كل بضعة اشهر، ويشكو لطوب الارض من ظلم المشرفين على الصفحات الثقافية ، لموهبته الكتابية والادبية ، فلا يحظى الا بالرفض لاغلب ما يكتبه. وشاعت احدى ضربات الحظ الحكومية ، ان يذهب في بعثة الى الخارج لدراسة الماجستير والدكتوراه، اخذت منه عدة سنوات ، كان يعود خلالها في زيارات الى الوطن ، وكان يروج لفكرة مفادها ان البلاد تدخل الان عصرا جديدا هي عصر اهل التاهيل الجامعي العالي الذين سوف يطردون من الساحة الثقافية ضعاف التعليم الذين يسمون انفسهم عصاميين واصحاب تثقيف ذاتي ، ويقصد طبعا نحن من ابناء مرحلته العمرية ممن تملكنا ناصية النشر في الصحافة ، ويرى انها مراكز وصلناها دون جدارة ولا تاهيل ويتاهب للانتقام والقصاص لنفسه مما عاناه من اهمال متسلحا بشهادة

الدكتوراة التي كانت في تلك الاعوام تتمتع بسحر ، كان صاحبها قد قطف الشمس والقمر ووضعهما في جيبه، وعندما عاد بتلك الشهادة، اعتبر نفسه قد جاء لغزو عالم النشر والكتابة الذي عانى كثيرا من صده وجحوده ورفضه لكتاباته. وتصادفت عودته بعد عشر سنوات قضاها في تحصيله الجامعي العالي ، ان كنت في تلك الفترة رئيس تحرير اهم منبرين ثقافيين في البلاد هما صحيفة الاسبوع الثقافي التي تصدر كل اسبوع ومجلة الثقافة العربية التي بدأنا اصدارها من بيروت كل شهر، وجاء ليجد نفسه رغم شهادة الدكتوراه نكرة من النكرات ، ولعله قام بترجمة اطروحة من اطروحاته للماجستير او الدكتوراه وقدمها لشركة النشر الحكومية فاعادتها اليه اعتراضا على ركاكة الترجمة ، وهكذا لم يجد الرجل البساط الاحمر الذي كان ينتظر ان تفرشه له الحياة الثقافية في ليبيا ، ولا الجماهير التي تقف على صفي الطريق شوقا لعودته المظفرة تستقبله بالتصفيق والترحيب والحماس، ووجد بعض حاملي الابتدائية من امثالي وزملائي ادباء الصف الاول هم الذين يتصدرون المشهد الثقافي بما ينشرونه من كتب تحظى باعتراف الاوساط الادبية العربية وربما العالمية ويقودون الوفود الى المنتديات الادبية العربية والدولية، ولعله اراد في تلك الفترة ان ينشر شيئا في المطبوعات الثقافية فلم ايكن امامه الا ان ياتي لرفيق من رفاق الامس الذين يهزا بهم يتوسط به لنشر مقاله، وكان عليه ان يرضى بنصيبه مدرسا مغمورا بين مدرسي الجامعة، الا ان احلامه بالمجد الادبي ، التي لم يجد سبيلا لتحقيقها ظلت تؤرقه وتقضي على هناءه، ولا يستطيع ان يجد درجة في سلم الارتقاء في هذا المجال يضع عليها قدمه، فظل متازما، مهموما، لا يجد سبيلا للتحقق الادبي والفكري، محروما من الشهرة التي كان يتوخاها . وعندما لاح له طريقا مفتوحا للصعود في مجال النشر والكتابة ، كان طريقا مليئا بالاوحال والقمامة، لا يخوضه الا انسان مستعد لتوسيخ نفسه شكلا ومعنى، فقد بدأ الطاغية الليبي في نشر سيالاته الذهنية المريضة التي اسماها كتابا اخضر، ونظرية عالمية ثالثة، وطريقا لانقاذ البشرية والوصول الى الحلول النهائية لمشاكل العالم ، وكان يعتمد في ترويج هذه السيالات المريضة على ابواق رخيصة تصفق لنظرية وتمجدها ويرحب باي بوق خاصة اذا كان يضع حرف الدال امام اسمه، وتوافقا مع صدور كتاب الطاغية الاخضر، صارت اللجان الثورية تتولى اصدار صحف حقيرة صفراء، رغم الاسم الاخضر لاحداها واخرى وان اتخذت اسماء الجماهيرية او اسماء نقابات واتحادات تصدر باسمها ولا تعبر الا عن صاحب النظام وازلامه مثل الطالب فهي كلها تنتسب لما اسماه الطاغية الفكر الجماهيري الاخضر، وكان صاحبنا الذي فاته قطار الادب، وتخلى عن احلامه في اكتساح الحياةالادبية بشهادته السحرية التي لا سحر فيها، قد حسم في النهاية امره بانه طالما لا وجود لطريق للصعود الا هذا الطريق الملوث المدنس بالسقوط والقذارة، بان يتنكب هذا الطريق مع زمرة اهل النفاق والتدليس وفاقدي المواهب ، من شارحي نظرية الطاغية ، ومزيفي الوعي ، فقد كان حجم الاحباط بالنسبة له كبيرا، والتجربة مريرة تحرق القلب والاعصاب، وكمية الحقد والحسد ضد من اعتبرهم حملة الشهادة الابتدائية التي يتصدرون الحياة الادبية وكان فعلا كل ادباء الصف الاول الا ماندر لا يحملون مؤهلات جامعية، ورأى في انه طريق اوحد سيختصر له المسافة وصولا الى ما اخفق فيه من تحقق وذيوع صيت وشهرة، وربما المنصب العالي الذي يتفاخر به عليهم، وفعلا بدأ اسمه يلمع في حلقة الشراح وخدام النظرية الكاذبة ، والمروجين له والمنتفعين برضا صاحب السلطان وهباته، وصار مشاركا في كل الندوات التي تعقد عن ذلك التهريج الذي تطلق عليه جوقة المنافقين الفكر الاخضر، ومشرفا عدة مرات على ندوات تعقد في عواصم الدول الاسيوية والاوروبية والافريقية وامريكا اللاتينية، وانعكس هذا ايضا على موقعه في الجامعة فانتقل من مدرس الى رئيس قسم الى عميد كلية اورئيس لاحدى الجامعات،

التي تخصص بعضها في تدريس الفكر الاخضر الذي يباع معلبا ودون تعليب، ثم وصل في نهاية المطاف الى المنصب الوزاري ، ورغم ذلك ظل مغمورا بائسا، لا يلقى احتراما ولا يحظى بشهرة او صيت، لان الطاغية يحرم ذكر اسماء الوزراء الذين يطلق عليهم امناء ولا تظهر لهم صورا ولا اخبارا، والناس كانوا علنا يحتقرون مروجي هذه النظرية وكتابها، ولم يستطع طبعا ان يصنع لنفسه اسما يصل الى معشار اسم كاتب مثل خليفة التليسي او يوسف القويري الذين كان يعيرهم بمستواهم التعليمي، حتى في مجال كبراء الشارحين لنظريات الطاغية لم يصل الى ان يصبح في مكانة رجب ابو دبوس او احمد محمد ابرهيم القذافي،ظل ذيلا في كل الحالات ولعله مات ذيلا ، فقد تلاشى وتبخر مثله مثل فقاعة طفت فوق مياه مستنقع شديد القذارة والنتانة.

رنين ورنين ومفارقة

كانت شقة انيقة جميلة واسعة ، في وسط المدينة ، وفي شارع ميزران، المتفرع من ميدان الشهداء، هي التي وجدت فيها الاستقرار والراحة بعد اعوام من الترحال والانتقال من سكن الى سكن ، بعض هذه المساكن كان مجرد غرفة على الشارع تسمى دكانا ، وباعتبار وجودها في وسط المدينة كانت تستفيد من خدمات كثيرة لم تكن تتوفر منذ العهد الايطالي الا لساكني المركز ، مثل انتظام المياه وانتظام جمع القمامة واهم هذه المزايا كان غاز المدينة الذي يصل لهذه البيوت عبر انابيب وليس عن طريق اسطوانات الغاز التي تباع في الاسواق ويشقى الناس في حملها الى بيوتهم تم اعادة تعبئتها من البائع ونقلها من جديده وهي ثقيلة ، خاصة ان الشقة تقع في بناء متعدد الطوابق ، ليس له مصعد ، وباعتبارها في الدور الثالث فلم يكن ثمة مشكلة في الصعود والهبوط، كذلك استفدت من توفر الهواتف في شبكة هاتف المدينة بحيث ضمنت توصيل هاتف الى الشقة خلال ايام قليلة جدا، بينما هناك مناطق وضواحي في طرابلس لم يدخلها الهاتف اساسا، وكانت شقة تدفع ايجارها الحكومة ، عبر ترتيب اعتمدته الدولة خلال عقد الستينيات، وهو ان يتخلى الموظف عن علاوة السكن مقابل ان ياخذ سكنا مدفوعا من الدولة ، وغالبا ما تكون صفقة رابحة للموظف لان الايجار الذي تدفعه الحكومة يصل في حالتي الى ضعف علاوة السكن، وفعلا باشرت في تاسيس مكتبة ومكتب اتفرغ فيه للكتابة بعيدا عن اي دوشة في بقية البيت، فقد جاء يشاركني فيه بعض افراد اسرتي قبل ان اقدم على تلك الخطوة التي كنت اتهيب اتخاذها لوجودي في حالة قلق وترحال ، وهي خطوة الزواج، حيث يسرت لي الشقة ان اتحول من اعزب الى متزوج بلا متاعب، وجاءت بعد اقامة اربع سنوات في هذه الشقة ، فرصة ان اذهب في بعثة دراسية الى الخارج، وكان سهلا ان احتفظ بالشقة ، لان المرتب وعلاوة السكن لا يطرا عليهما اي تغيير اثناء ذهاب الموظف في بعثة يتقاضي خلالها مكافاة في بلد الابتعاث، الا ان رايا جاء بان استفيد من نقود العلاوة، لانني لن استطيع خلال عامين اوثلاثة ، لانها بعثة سنوية قابلة للتجديد لثلاث مرات، ان احتاج لاستعمال الشقة ، خاصة وان هناك بيتا صغيرا كان على وشك ان يكتمل بناؤه، معروض للبيع في فشلوم، وانني يمكن ان ادفع قسطا من ثمنه وتقسيط الباقي بقيمة المرتب، وهو ما حدث ، وعندما عدت من البعثة وجدت نفسي محشورا في ذلك البيت الصغير، الذي اشتريته بثمن بخص لتخزين الاثاث، فانضممت باسرتي الى ذلك الاثاث بانتظار انفراج الازمة ، لانني سافرت في عام1968 وعدت في مطلع عام 1971، وكانت ازمة السكن في اوج استفحالها، لانه تدفق على ليبيا الانقلاب اعداد لا حصر من الضيوف العرب ، لان مدبر الانقلاب اراد ان

يظهر بمظهر صاحب التوجه القومي العربي الذي يفتح ليبيا لكل العرب، غشا وكذبا وتدليسا وطمعا في احتلال المكان الشاغر الذي تركه عبد الناصر، وكنت قد حرمت مما انتفع به زملاء في الصحافة حضروا خروج الايطاليين وحصلوا على مساكن كان وزير الاسكان المسمى امحمد المقريف ، قد خصص منها جزءا لاهل الصحافة عن طريق وساطة من السيدة خديجة الجهمي، ولم استطع في ذلك البيت في فشلوم ان ادخل هاتفا لانه لا وجود لخطوط تكلفي ولا طاقة لاضافة خطوط هاتفية جديدة، وكان للهاتف الذي كنت املكه في شقة شارع ميزران رنينا خاصا ، حيث تلقيت جهاز الهاتف من جارة ايطالية كانت تسكن ذات العمارة، بعد عودة لها من ايطاليا، كنت كلما اسمع شبيها له في اي مكان ، تستيقظ في نفسي مشاعر الندم لانني تركت تلك الشقة وذلك الهاتف في تلك العمارة ، ظل الرنين يمثل مصدرا للغصص، كانه تعزير لي لانني اخترت الانتقال من بهاء وسعة المسكن في ارقى مناطق المدينية الى ضيقه وبؤسه في منطقة كانت تشتهر بافتقادها حتى لانبيب الصرف الصحي، ومضت عدة سنوات وانا اقطن هذا البيت الذي كان اشبه بزنزانة في سجن، قبل ان استطيع شراء قطعة ارض والشروع في بناء بيت تسع لاسرتي، ولكن هذا البيت الذي اردت بنائه في عدة اشهر، استغرق اكثر من خمسة اعوام ، لانني وقعت في حبائل نصاب في زي مقاول ، استولى على كامل القرض الذي منحه لي البنك، باساليب يجيدها امثال هذا المحتال، قبل ان يكمل ربع مراحل البناء ، وكنت اعتمد على ان البنك لا يصرف كامل القرض الا بعد انتهاء المبنى ، خاصة وانني كنت كثير الاسفار ثم غبت في مهمة الى الخارج انقذتني من السكن الزنزانة مؤقتا الا ان البيت الجديد ظل مؤجلا ، والعودة الى سكن الزنزانة حتى بعد انتهاء مهمتى بالخارج ظل تهديدا قائما، خاصة بعد استولى المقاول النصاب على القرض وذاب في ارض الله الواسعة، وندم ترك الشقة القديمة اضفت اليه ندم الدخول في مغامرة البناء، خاصة وانني مرغما توليت بنفسي محاولة اكمال بقية مراحل اتمام البيت ، ولا اعتقد انني احسست في حياتي بمشاعر الاغتراب والجفاء من عمل اقوم به قدر احساسي وانا امارس الاشراف على هذا البناء جاهلا بكل تفاصيل هذه المهنة مفرداتها ، معرضا نفسي لكل انواع النصب والاحتيال ، هذه المرة من العمال انفسهم ومن تجار المواد التي تدخل في البناء، ولا ادري كيف استطعت اكمال البيت ، ولكنها كانت تجربة مريرة، وظل ذلك الرنين يوقظ مشاعر الحسرة الى ان ادخلت خط الهاتف وسعيت للحصول على جهاز يصدر نفس الرنين لكي اسكت به ذلك الرنين القديم القادم من مراحل زمنية سالفة.

ورنين اخر

تكررت معي قصة رنين شقة ميزران ، في لندن هذه المرة ، وانا اباشر عملي مستشارا اعلاميا في السفارة الليبية في لندن في منتصف السبعينيات، فقد اشتريت شقة ، او كما يسمونه هناك ، شراء عقد الانتفاع، وهو انتفاع يصل الى مائة عام، وبعد انتهاء فترة العمل ، قمت ببيع هذا العقد بثمن يقارب ثمن الشراء، سعيدا لان معنى هذه الصفقة هو توفير اجار المدة التي سكنتها، ثم وجدت نفسي بعد عدة اشهر اعود الى بريطانيا لاستكمال دراسة عليا ، واحتاج الى بيت لم اعد املك ملا لشرايه ، او ادفع حتى مقدم الثمن ، لان اسعار البيوت تضاعفت عدة مرات خلال غيابي ، فكنت اغاني استغلال اصحاب الوكالات العقارية التي تتحكم في سوق الايجار، وانتقل من بيت الى اخر، ثم اسمع رنين هاتف يشبه هاتف الشقة التي كنت املك، فاحس بمشاعر الندم والالم والخيبة والعجز تاتي مع ذلك الرنين لغفلتي وسوء تدبيري

عندما تصرف ببيع تلك الشقة وبثمن صار لا يزيد عن ايجار عام ادفعه في شقة اكتريها ، وارى الوكالة تطالب بعد ذلك بزيادة الايجار، لان العقد يعاد النظر فيه كل عام واما الزيادة واما الاخلاء.

ومفارقة

ولابد في ختام هذه الحكاية عن ازمة الانتقال من سكن الى سكن ان اقول انني خلال بحثي عن سكن اتخلص فيه من البيت الزنزانة في فشلوم ، وجدت تعاطفا من اصدقاء يعملون في اسكان الحكومة ، مثل المرحوم الدكتور مختار بورو وقد تولى محافظ طرابلس والمسئول عن مساكنها ، والمهندس المنقوش الذي تولى وزراة الاسكان ووكيل الوزراة قريبي عبد الرحمن التير ، وكنت قد اعددت اوراقا تطلبها هذه الجهات لتوفير سكن لرجل مثلي تولى في ذلك الوقت مديرا لاحدى الادارات ومديرا لمعهد وطني ورئيسا لتحرير صحيفة تتبع الدولة ، ولم اكن استطيع متابعة وملاحقة هذه الاوراق في اروقة المرافق الاسكانية، فطلبت من صديقي المرحوم الحاج عياد الطاهر وكان مديرا للشئون الادارية ان استعين باحد السعاة لكي يتولى هذه الملاحقة فقال لي بان الساعي فلان هو الذي يتولى نقل المراسلات الى هذه المرافق والادرات وعهدنا اليه بما املك من اوراق وكنت اردف مشاويره بمكالمات هاتفية لهؤلاء الاصدقاء، ويبدو انهم اخبروه بان هناك فرصة ثمينة للحصول على هذا البيت ، فقد حدث ان مدرسة من مدارس العاصمة اتخذوا لها مقرا اربع فيلات من تلك المستردة من الايطاليين في حي الاندلس، الى حين تجهيز بناء مدرسي ، ولان هذا البناء قد تم استكماله ، فقد قالوا لهذا الساعي بان هناك الان اربع فيلات حكومية شاغرسيتم اخلاؤها ويريدونني ان اكون جاهزا لاستلام احداها، ولعل الرجل فعلا نقل لي هذه الرسالة ، وربما فعلا فرحت بالخبر وانتظرت ان اسمع اضافة تشير الى اليوم ، فلم يحدث، ولابد ان الساعي راى ما اعتبره عدم اهتمام مني ، فقرر ان يحل مشكلته او يرفع مستواه الاجتماعي والسكني ، فعرف بموعد الاخلاء وكان جاهزا امام المدرسة بزوجته واطفاله ليقوم باحتلال احدى الفيلات، وتصبح بحكم الواقع ووضع اليد سكنا له ، ولم اعرف بالامر الا عندما قال احد الموظفين انه كان ضيفا على الساعي فلان بمناسبة الوليمة التي اقامها لسكنه الجديد، طبعا لم يخبرني ولم يعتذر لي ، ولم استطع بعد ان عرفت ان افعل شيئا ، لان اصدقائي في الاسكان كانوا يتكتمون على هذه الفيلات ولا يخبرون احدا بها ، ولابد ان شيئا من الفوضى كان يشوب مثل هذه التخصيصات والمعاملات بحيث استطاع الساعي ان يحتل مكاني في الفيلا ، دون ان يكون ثمة امكانية لتصحيح الموضوع ، ومن طرفي لم الاحقه لانني لا املك حق مثل هذه الملاحقة فهو مواطن له نفس الحقوق ويحتاج الى سكن ولعله كان يملك اوراقا مثل تلك التي املكها وكان حاضرا في المكان والزمان المحددين ، وكان الاستيلاء والمداهمة هما قانون تلك اللحظة في الحصول على سكن . فلم استطع الا التسليم بما حصل واتر الامور لظروفها واعتمد على نفسي، فقد يكون هناك عدالة مضمرة في هذا الاجراء، لانني في النهاية كنت استطيع ان اشتري ارضا واحصل على قرض وابني بيتا كبيرا في منطقة بن عاشور، فهل كان الساعي سيفعل ذلك؟

سليم الحجاجي

يصلح الحديث عن صديقي سليم الحجاجي، ان يكون حديثا عن كيف تضيع المواهب والكفاءات وكيف تهدر الموارد البشرية وغير البشرية، في مجتمعات التخلف، التي ابتلاها الله بتقلبات اجتماعية وسياسية،

تاتي مثل عواصف التسانومي، تطيح بالاحلا والامال ، وتعبث بالمصائر والمقدرات ، وتنجح في تقويض القلاع التي قد نحتمي بها، مهما ظن الناس انها قوية، متينة البنيان ، في مأمن من مثل هذا التخريب الذي تاتي به العواصف والاعاصير.

عندما انشأت عام 1960 ، فرقة المسرح الجديد، في مقرها الاول ، بشارع قوس الصرارعي، استقطبت الفرقة شباب الموهوبين في مجالات شتى ، منها الغناء والموسيقى ، وكان سليم الحجاج قد جاء صبيا في السابعة عشرة او الثامنة عشرة من عمره، يتميز بوسامته ، وشعره الناعم اللامع الفاحم السواد، الذي تتدلى خصلات منه على جبينه مثل نجوم الافلام الرومانسية، لياخذ مكانه مع شباب الكورس من محبي الغناء، وبينهم شباب اصبحوا نجوما كبارا في الغناء مثل خالد سعيد ومحمود كريم عليهما رحمة الله، وزميلهما الراحل منير عصمان الذي اتجه الى للموسيقى ثم لتقديم البرامج الاذاعية، وكانوا جميعا قد بداوا اعضاء في الكورس الذي يردد الغناء وراء مطرب كان قد صنع لنفسه اسما في ذلك الوقت هو الراحل محمد الجزيري. وعلى سبيل المران والتدريب ، كان شباب الكورس يستقلون احيانا بمقاطع يتولون غناءها صولو، ومنهم سليم الحجاجي ، الذي بدت موهبته واضحة ، وصوته طازجا جميلا، يتنبأ له اهل الموسقى في الفرقة بالنجاح وذيوع الصيت خاصة انه الله اعطاه وسامة النجوم وسمتهم، حال ان يستكمل مراحل التدريب ويجتاز فترة البدايات ويدخل مجال الغناء في الاذاعة والحفلات العامة.

ولزميلنا سليم الحجاجي ، اخ اكبر، اسمه عامر ، شق طريقه منذ ذلك الوقت في مجال الغنننناء، ولعله كان هو القدوة والمثال لاخيه الاصغر، فاحب ان يكون مطربا مثل اخيه الذي اتخذ لنفسه اسما فنيا هو "احمد فؤاد" وصارت له اغنيات يذيعها المذياع. ومما احتفظت به ذاكرتي عن تلك الايام، زيارة قام بها الى مقر الفرقة هذا الشقيق الاكبر لسليم الحجاجي ، يريد مقابلتي ، مصطحبا معه استاذه ومؤلف الالحان التي يغنيها ، الملحن الكفيف الشيخ على الحداد، واذكر انني رحبت بهما، ترحيبا كبيرا فقد كان احمد فؤاد مطربا بدأ اسمه في اللمعان ، وكان الشيخ الذي جاء يقوده، من اعلام الموسيقى وشيخا من شيوخها الكبار، وانتقل بهما بعيدا عن ضجيج التمارين الى غرفة في الطابق الثاني من المبني ، وقدم لي احمد فؤاد نفسه باعتباره عامر الحجاجي شقيق عضو الفرقة سليم، وقال لي انه طلب من استاذه الشيخ الفاضل والملحن الكبير على الحداد، من اجل استخدام ما لديه من جاه وما يتمتع به من تقدير الاوساط الفنية ، لكي استجيب لطب جاء من اجله، وشرح لي ان اخاه سليم هو الاخ الاصغر، الذي يتولى مسئوليته، وانه يواصل دراسته في المرحلة المتوسطة، وكما اعلم فهو مولع بالغناء، ويملك موهبة اكيدة لذلك، ولكن الاسرة تخشى ان يتخلى عن التعليم وينساق وراء هوايته الفنيه ، مع انها لا تمانع ان يمتهن الغناء اذا اراد ولكن ليس قبل ان يكمل مراحل التعليم التي تؤهله فيما بعد لان يدخل المجال الفني، ويتخصص فيه عن طريق التعليم وليس الموهبة فقط ، لان عصر الموهبة بلا تعليم قد بدا يتوارى، وتعهد لي بانه سيبذل جهده لان يرعى موهبة شقيقه ولن يتواني في تدبير بعثة له لدراسة الفن في واحد من المعاهد الشهيرة في تونس او مصر، ولانه فشل في ردع شقيقة من المجيء لفرقة المسرح الجديد التي اتشرف برئاستها، فانه يرجو مني ان اعينه في الامر ، واحاول اقناع سليم بان يعطي الاولوية لدروسه، والنجاح في اكمال المرحلة التعليمية المتوسطة، التي ستؤهله لدخول مرحلة اعلى ، ولازلت اذكر ان الشيخ الحداد، ولانه كان كفيفا، لم يكن يستطيع ان يرى انني كنت ايضا صغيرا في السن لا ازيد عن سن سليم الا بعامين، وتصور باعتباري المدير لهذه المؤسسة ان اكون اكبر سنا بكثير من سني ، فاشار الى حساسية المرحلة العمرية التي يمر بها سليم ، التي تحتاج الى التعامل معها بحكمة وتدبر من الكبار امثالنا، ووعدتهما خيرا ، قائلا انني افهم تماما ما دفعهما للمجيء، وسيجدان مني كل عون ومساعدة، وفي اليوم

التالي، جاء سليم الحجاجي، لابلغه بفحوى لقائي مع شقيقه والشيخ الحداد، وقلت له انهما طلبا ان يقفل باب الفرقة في وجهك، ولكنني اعرف ان هذا لايفيد لانك ستجد مكانا آخر، تذهب اليه لاشباع هوايتك، ولكنني اقول لك، ان تعطي الاولوية لمدرستك، ومذاكرة دروسك لضمان النجاح في نهاية العام، شرط ان يقتصر مجيئك للفرقة على يوم واحد في الاسبوع، لتتابع المران والاختلاط بالوسط الذي تحب. ما اذكره بعد ذلك ان الاسرة نجحت في الدفع به، لان يلتحق بالكلية العسكرية في بنغازي، وتخرج ملازما قبل عام او عامين من الحرب العربية الاسرائيلية في يونيو عام 67، واثناء تلك الحرب وجد نفسه يقود مجموعة صغيرة من الجنود، التي انتقلت مع مجاميع اخرى الى المناطق المتاخمة لمصر، استعدادا للمشاركة الليبية في الحرب ، دعما للجيش المصرى على الجبهة ، ثم اتضح ان الامر لم يكن الا عملية مسرحية لاسكات الشارع الليبي الذي انتفض يطالب بمثل هذا الدعم العسكري، وعندما اتضحت المسرحية للضباط وبينهم سليم الحجاجي ، قاموا بالتمرد على رؤسائهم ، واختاروا ساعة من الليل اخترقوا فيهاالحدود بدباباتهم وجنودهم ، ونجحوا في الوصول الى الجانب الاخر ، لالتحاق بالجبهة، الا ان الحرب كانت قد انتهت قبل وصولهم اليها، ومع ذلك لاقى هذا التمرد ترحيبا رسميا وشعبيا واعلاميا في مصر ، ووصل امره الى الشعب الليبي الذي اعتبره عملا من اعمال البطولة والشهامة، وبقى سليم الحجاجي في مصر لاجئا سياسيا وهناك التقى بفتاة ذات جمال وثقافة وانتماء لبيت عريق من بيوت العاصمة المصرية بنى بها ، وكنت جالسا ذات يوم من ايام عام 1968 في مقهى ريش الشهير، عندما فوجئت بسليم ياتي لاحتضاني ، وقد اخذ سمت فارس من فرسان السيف والقلم لانه كان قد بدا في الانجذاب الى عالم الادباء، الذين يتخذون من ذلك المقهى مكانا للقاءاتهم ، وكان يسكن شقة تقع فوق ذلك المقهى، واعطاني بعض كتاباته التي قراتها وهنأته على مستواها الراقي اسلوبا ومضمونا، معالجة شعرية لتاملات وخطرات تتناول الناس والحياة ، وظلت في هذا الاطار دون ان تتجنس بجنس الشعر او القصة فيما يمكن تسميته نصوصا مفتوحة، وحدث في سبتمبر العام التالي ان قام القذافي بانقلابه ، وعاد سليم الحجاجي وجنوده وبعض زملائه الضباط ، الى البلاد ، عودة الفوز والانتصار، واتخذ مكانه جنبا الى جنب بجوار ضباط الانقلاب ، باعتباره سابقا عليهم في الثورة والتمرد على النظام القديم، وبقى يحظى باحتفاء الجنود والضباط الثوار، لانه كان بمثابة القدوة والمثل لهم، وهو ما كان لابد ان يثير غيرة القذافي وحقده، وخوفه من ان تضيع فرصة القيادة من بين يديه ، وهو مازال في المراحل التاسيسية الاولى لحكمه الفردي الاستبدادي، فاذا بسليم الحجاجي يجد نفسه ، فجأة في السجن ضمن حملات التطهير والتصفية، التي كان القذافي يبرع في تسميتها مؤامرات ومحاولات انقلابية ، وحصل لسليم ما حصل لضباط كبار شاركوا في الانقلاب ، اصحاب رتب اكبر من القذافي ، مثل ادم الحواز وموسى احمد وغيرهما، ولانه لم يكن حقا متآمرا، ولا انقلابيا، وانما صاحب حظوة بين الضباط والعساكر خاف منها القذافي، فضمه ظلما الى المناوئين له، ولهذا افرج عنه بسرعة ، لان الهدف كان فقط ازالته من الطريق، وابعاده عن الجيش، وبناء على طلبه تم الحاقه بعد فترة اعتزال ، الى المؤسسة العامة للصحافة ، وكان ذلك عام 1973، ليلتقي طريقانا من جديد، وبعد اكثر من عقد من السنين، وفعلا جاء يحمل خواطره ذات النفس الشعري، التي عاد لكتابتها ، الا انه لم ينتظم في العمل الصحفي، ربما لان مشاعر المرارة والنفور من زملاء السلاح الذين اساءوا معاملته ، قد بدأت تلون نظرته للحياة في ليبيا ، ويحاول ان يتدبر سبيلا امنا للابتعاد عن ليبيا واجواءها ، فكان يختلق مختلف الاعذار للغياب ويحصل على اجازات لمختلف الاسباب، وكان في حالة قلق لم يفصح عنها لاحد لانه بالتاكيد يعرف مدى خطورة الرجل الذي يدير البلاد ومدى قسوته وحقده، وكانت اكثر لحظاته استرخاء عندما كنت التقي به في مصر التي كان يكثر من السفر اليها والتردد على بيت اصهاره هناك، وبدا لي واضحا انه لا يجد نفسه مع النظام الجديد، وان ما حدث له من حبس وعزل قد صنعت حاجزا بينه وبين رفاق السلاح القدامي لا يستطيع ان يتجاوزه،وكان يتحدث عن مشاريع ادبية يريد ان ينصرف اليها ويتفرغ لها، ثم انقطع انقطاعا نهائيا عن عمله في المؤسسة ، وغاب لمدة طويلة قد تزيد عن عام كامل ، جاءت بعدها الاخبار انه عاد يمارس عمله العسكري في رتبة كبيرة ، ولكن ليس مع الجيش الليبي ، ولا الجيش المصري ، وانما مع الجيش العراقي ، حيث تحصل على منصب استاذ في العلوم العسكرية بكلية

الضباط، وطبعا كان معنى ذلك القطيعة مع النظام الليبي وهجرة من البلاد، واختفى سليم الحجاجي في الغابة العسكرية العراقية تحت نظام صدام ، لم اره ينشر شيئا من كتاباته، ادبية او غير ادبية، كما لم اشاهد اثرا لما تحدث معي عنه من مشاريع ادبية، واسرعت اثناء وجوده هناك وتيرة المغامرات العسكرية التي يدخلها جيش صدام، وعرفت عندما ذهبت الى بغداد ذات مرة لحضور المربد ، عقب انتهاء الحرب العراقية الايرانية، انه كان موجودا في الجبهة ، ولم استطع لقاءه، ولكن بعض اعضاء الوفد الليبي التقوا به صدفة، ونقلوا اخبارا عن عودته سليما من خطوط النار، وانه يتمتع بموقع متميز في القيادة العسكرية العراقية ، وربما كان عضوا فيما يسمى هناك القيادة القومية، وجاء غزو الكويت ومضاعفاته التى ادت الى حرب عاصفة الصحراء، وبعد هذه الحرب ببضع سنوات ، جاءت الاخبار بان العميد سليم الحجاجي، قد ترك العراق ، واقام لفترة في الاردن، وسرعان ما اعلنت جبهةالانقاذ التي تقود المعارضة ضد القذافي، ان انضم الى جناحها العسكري، وان العميد سليم الحجاجي وزميله القائد العسكري الليبي خليفة حفتر، يشرفان على الجيش الذي تعده جبهة الانقاذ للدخول في منازلة مسلحة مع الطاغية الليبي. ثم اختفت الاخبار التي تتصل بهذا الجيش واختفى معها اسم سليم الحجاجي، الى ان جاءني صديق صحفي ، يعرف علاقتي القديمة به، وكان ذلك في اوائل التسعينيات، قائلا بان سليم الحجاجي موجود في طرابلس وقد عاد عبر مصالحة قام بها مع النظام، وكان ذلك قبل ان دخول ابن الطاغية الى ساحة العمل السياسي والعسكري، وقيامه بعمليات التجميل التي ادت الى اجراء عدد من الصفقات مع المعارضين. لم استطع تصديق الخبر لاول وهلة، فالقذافي ليس له اسلوبا في التعامل مع شخص عسكري، صاحب رتبة اكبر منه ، الا التصفية الجسدية، وكان شقيق سليم الحجاجي المرحوم عامر ، لازال على قيد الحياة، فهرعت اليه في قسم الموسيقى بالاذاعة حيث كان يعمل، لاتاكد من حقيقة الخبر، فاذا به يبلغني ، انه فعلا موجود في طرابلس ، وجاء بدون احضار عائلته معه، اما كيف جاء وماذا حدث وراء الكواليس من اجراءات ادت الى مجيئه، فقد قدمها لي في منتهى الايجاز و التلخيص ، وهي ان اخاه سليم تعرض لحالة مرضية نفسية، وان التماسا رفع للقيادة الليبية، ربما من عائلته ، لاحضار هذا الابن الغائب ليموت بين اهله ويدفن في تراب بلاده، وانهم فعلا حصلوا على هذا الاذن، وعاد سليم الحجاجي، وطبعا خضع للتحقيقات والمراجعات التي اكدت صحة ما قالته العائلة، وسالته ان كان في حالة تسمح بزيارته، فقال انه موجود في مزرعة تابعة للاسرة في منطقة تاجوراء، وان هناك بعض التحفظ على اختلاطه بالناس، وكلام اخر احسست معه ان الزيارة ليس مرحبا بها، مع انه وعدني بان يقتنص حالة يكون فيها الصفاء قد عاد لاخيه ليخطرني بامر الزيارة وهو ما لم يحدث ربما لانني لم اكن موجودا في البلاد على الدوام. واقتضى الامر ان تحدث ثورة فادحة التكاليف ، باهظة الخسائر في الارواح ، لكي تنجح في الاطاحة بالقذافي ونظامه اللعين، لكي تظهر حقيقة ان سليم الحجاجي ، كان سليم العقل والروح، وانه لم يكن مريضا او في حالة انهيار واشراف على الموت ، وانما هي حيلة دبرها مع اسرته ، بعد ان اصابه الكلل والملل من عذاب الاغتراب ، وبعد ان طال المطال ووصلت الارواح الى الحناجر، انتظارا ليوم الخلاص من القذافي الذي تربع على عرش مصنوع من الجماجم لمدة اثنين واربعين عاما. قرر العودة، ووجد من ساعده على كتابة التقارير الطبية ، ولعلها تقارير استندت الى حالة حقيقية من القلق والالم والعذاب النفسي التي لابد ان تصيب انسانا بالغ الرهافة والحساسية مثل هذا الرجل الذي بدأ حياته بالغناء ثم الشعر، الا انها مغامرة تحتوي على قدر من الخطورة ، لا يقدر عليها الا صاحب خبرة ودربة وحيلة عسكرية مثل سليم الحجاجي. ظهر بعد سقوط القذافي بشخصيته الحقيقية ، وقد فارقته حالة التمارض التي كان يدعيها، واعاد بناء حياته ، فقد فارق زوجته الاولى ، وتزوج بعد الثورة من جديد، ساعيا لتاسيس بيت وعائلة في وطنه هذه المرة وبين افراد العائلة اصيلة تاجوراء، وكنت التقي في القاهرة بابنه وسام الذي حمل لي اخبارا طيبة عن والده، كما حمل لي تحياته ،وابلغني انه يقدم الان استشاراته العسكرية لنظام ما بعد القذافي ويسعى لوضع خطة لبناء يستوعب الشتات الثوري من مقاتلي الثورة الذين توزعوا في فرق لا يحكمها ضبط ولا ربط. وكنت دائما ارى في هذا الصديق طاقة ادبية فنية عسكرية تم اهدارها ، فهل فعلا تسمح ظروف الثورة الجديدة في ليبيا بان تحصل على شيء من خبرة ومواهب هذا الانسان، قبل فوات الاوان، ربما.

رجب لملوم

عندما بدأت اتلمس طريقي ، وسط المجتمع الادبي في طرابلس ، كان رجب لملوم، شابا، انيقا، وسيما، طويل القامة، يتانق في هندامه وربطة العنق التي لا يظهر بدونها، يميل لون بشرته الى الاسمرار، يكتب في صحيفة الرائد، ويرتاد المقاهي والحانات، ولا اكاد اسير في شارع الاستقلال مساء، الا وراه جالسا في مقهي الاورورا، حيث الجعة تقدم في اقداح كبيرة "درافت"، طازجة من براميل خشبية جلبت لتوها من مصنع البيراويا، الذي يقع على مسافة قليلة من المقهى في منطقة الظهرة، او راه في مقهى الجادة في الجهة المقابلة من الاورورا، حيث اصحاب المقهى الايطاليون، يعدون افضل انواع الاكسبرسو والكوبيتشينو، واحيانا اراه يتمشى مع بعض الاصدقاء يتأملون جميلات الجالية الايطالية اللاتي يتخذن من شارع الاستقلال ودكاكينه مكانا للتبضع واستعراض جمالهن واناقة ملابسهن. رجل له حضور لا تخطئه العين ، في مجتمع طرابلس الصحفي والاعلامي ، وكان يسال من يلتقي به من الاصدقاء ان كان قد قرا مقاله في الرائد او في طرابلس الغرب ، فاذا قال انه قرأه ، فتح معه باب النقاش عن رايه في المقال،اما اذا لم يقرأ المقال، فلابد انه سيندهش ويشعر بالحرج والارتبا لما سيلقى من رد، كما حدث معي عندما سألني اذا كنت قرات مقالا له نشر في صحيفة من الصحف الصادرة ذات اليوم، وكانت المفاجأة عندما قلت انني لم اقرأه، ان بدأ يسرد امامي المقال كاملا من الذاكرة، وعرفت منذ المرة الاولى التي فعل معي ذلك، انه يحفظ كل مقال يكتبه، حتى لو كان تحقيقا صحفيا بارقامه ومعلوماته، ولهذا فانني عندما رايته ينشر فصولا من راية في مجلة هنا طرابلس الغرب ، اسمها "جنازة ابي" ، اسرعت الى قراءتها، لكي لا اجد نفسي اقول له انني لم اقرأها ، فيرغمني على سماعها منه في المقهي، وانا طبعا لم احضر الى المقهى لسماع المقالات والروايات وانما للدردشة والترويح عن النفس، فللقراءة حصتها، وللمقهى بدردشاته وقفشاته وطرائفه حصة اخرى.

كان يعمل موظفا في وزارة المواصلات ، وهو ما كان مفاجأة لي ، لانني كنت اتوقع ان اصحاب الاسماء في المجال الصحفي ، كلهم يتفرغون لعملهم الصحفي ، وكانت هذه مفاجاة اولى، المفاجأة الثانية عندما اقمت في منطقة فشلوم فاذا اعرف ان بيت عائلة رجب لملوم في الجوار، وكنت قد خرجت بانطباع من تلك الفصول التي نشرها من رواية "جنازة ابي" ، انها استوحاها من موت ابيه، فاكتشفت ان والده بسم الله ، ما شاء الله ، موجود على قيد الحياة، سليما معافي ، وصاحب حد وقد ، قوي البنيان، ممتلىء الجسم، له شارب كبير يمتد خارج اطار الوجه على الجانبين، يحمل سمت ابناء البلد بقوته وفتوته، ويمتهن مهنة من تلك التي يمتهنونها، فقد كان يملك "كروسة" او كما تسمى في مصر ، عربة حنطور، يقودها جواد، وللعربة دندشات وزينات ، يقف بها الاب بملابسه الشعبية الانيقة ، كل يوم امام السرايا الحمراء ، ليكون في خدمة السائحين والسائحات ، وكان رجب يسكن مستقلا عن ابيه في حي الظهرة، وبفضل كفاءته وسمعته الطيبة في الوسط الصحفي ، عهد اليه بانشاء صحيفة "ليبيا الحديثة" وهي مجلة شهرية جديدة، ارادتها المطبوعات ان تحل محل مجلة هنا طرابلس الغرب، التي توقفت وحلت محلها مجلة الاذاعة، فيما اعتقد، وباشرت صدورها عن هيئة الاذاعة، وكان ذلك في مطلع عقد الستينيات وكنت في ذلك الوقت اباشر الكتابة في عدة صحف فاتصل بي لاكون مساهما في المجلة التي سعى لان يتفرغ

للعمل في اصدارها بعض اصدقائه مثل الاستاذ عمر ابو عامر الذي انجز مهمة الاخراج بجوار المساهمة في التحرير ، والكاتب المعروف نجم الدين الكيب ، وساهم في مجال الترجمة زميل من مصر كان يعيش معنا ويعمل مدرسا للغة الانجليزية اسمه محمد محمد قاسم ، واستطاع استمالة بعض الكتاب الكبار للمساهمة في تحرير المجلة بينهم قلم معروف مثل المرحوم كامل المقهور ، وشاعر صاحب شهرة طاغية هو على الرقيعي ، وتوليت شخصيا كتابة عدد من التحقيقات الصحفية ونشرت في المجلة بعضا من قصصي القصيرة ، وكانت تقاليد المجلة لا تجيز ان يظهر اسمي الا على موضوع واحد ، فيظهر هذا الموضوع باسمي ومواضيع اخرى دون اسم ، واراد المرحوم رجب لملوم ان تختلف صيغة هذه المجلة عن المجلات المصورة وان تكون اقرب الى مجلتي روز اليوسف وصباح الخير حيث الاعتماد على الرسم ، ومزج هو في المجلة بين الرسم والصورة الشمسية ، وكان حريصا على ان تعكس المجلة صورة ليبيا بغربها وشرقها ، فذهب في رحلة الى بنغازي حيث استكتب عددا من الكتاب وانتقى مادة ادبية وصحفية من هناك ، وبرز في المجلة رسام بنغازي هو زميلنا صالح بن دردف، واقنع صحفيا نشطا كان لا زال ناشئا هو الاستاذ الصالحين نتفه بالانتقال الى طرابلس ليسهم متفرغا في تحرير المجلة ، وكان للصالحين اسلوبه في الكتابة التي ارضت اذواق بعض الناس ، وتقرر تحويل المجلة الى مجلة مصورة تهتم بالدعاية للحكومة ، وهو ما قضى على شخصيتها التي بدأت اميل الى الصيغة الادبية ، وتم تعيين الزميل الصالحين نتفه رئيس تحرير لها ، اظهرها في ثوب جديد ، وكانت تجربة متميزة في حياة رجب لملوم ، لم تتكرر ، ولم يكن بعد ذلك مثابرا في الكتابة والانتاج وانتقل الى وزارة العدل قبل ان يتمكن من الالتحاق بالعمل الخارجي ملحقا صحفيا في سفار ليبيا بالعاصمة الاردنية عمان، لكن فترة تالقه الصحفي ظلت تلك الاعوام القليلة التي قاد فيها مسئولية ليبيا الحديثة.

كنت اراه بين الفينة والاخرى ، خاصة قبل رحيل صديقنا المشترك عبد القادر ابو هروس الذي ربطته به علاقة زمالة بل ويعتبره استاذه في العمل الصحفي ، واختفت اطلالته الصحفية الا في مرات نادرة ، قليلة ، ورغم هذه الندرة ، فان له انتاجا تبعثر على صحف الخمسينيات والستينيات، توفي للاسف الشديد عام 2013 دون ان يجمع شيئا منه في كتاب يحفظ له ذكره بين الناس.

الشيخ الهادي انديشة

كان الشيخ الهادي محمود انديشة، موجودا في لجنة القبول التي اجرت لي امتحانا ادي الى انتسابي لمعهد هايتي والى قسمه التجاري، وكان في هذه اللجنة مسئولا عن الجانب اللغوي والادبي، وربما الدين، لان المعهد كان ينقسم الى قسم صناعي لتعليم الحرف ، واخر كتابي تجاري، وهو القسم الذي كنت ارغب في الانضمام اليه ، وكان قرار الشيخ حاسما في هذه الحالة ، واعتبرته عندما تحقق لي ذلك انه صاحب فضل على وجودي في هذا القسم ، وتاتي اهميته في حياتي ايضا، انه اول شاعر له اسم التقي به لقاء مباشرا، فقد كنت اقرأ في كتب المحفوظات والمطالعة وكتاب التربية الوطنية ، قصائد لشعراء ، ليبيين وغير ليبيين، وتنتهي القصيدة دائما بهامش يحمل نبذة في عدة كلمات عن الشاعر، ولم اكن بالضرورة قد قرات له شيئا ولكنني عرفت بعد ذلك انه واحد من شعراء ليبيا المعروفين ، وان شعره كان قد وصل الى قاعدة عريضة من الناس عن طريق الغناء، خاصة اغنية شهيرة صدرت في تلك الاعوام، من تلحين الفنان الاشهر كاظم نديم ، يقول مطلعها" حركي اوتار قلبي ، واسمعي انغام حبي " ، وكانت من تاليفه ، وكان

الشيخ انديشة الذي تولى تدريسي الدين واللغة العربية خلال الاعوام الثلاثة التي قضيتها في معهد هايتي هو اول انسان ينتمي الى هذه السلالة المتميزة من ابناء البشر ، الشعراء، الذين يستحوذون على انبهاري، اراه رؤية العين واتجاذب معه الحديث ، ولم يكن في الفصل يبخل على طلابه بمطالعة قصائده، فكانت كلما نشرت له قصيدة في صحف ذلك الزمان ، عهد الى طالب في الفصل بقراءتها لنا بصوت عال، ويتم بعد ذلك تداولها وتصل اخبارها لطلاب خارج الفصل ، وكان الشيخ الهادي شيخا معمما يرتدي الجبة والازهرية، وكان عمره عندما تعرفت اليه خمسة وخمسين عاما، وكان فيما يبدو ضعيف البصر، لانه كان يلصق الورق بوجهه عندما يقرأ شيئا من كتاب او كراس ، واستغل بعض الطلاب المشاغبين ، المحبين لمعاكسة المدرسين هذا الضعف، فكانوا يستفزونه ، مدركين انه لن يستطيع تبين الطالب الذي يستفزه خاصة اذا كانت المعاكسة على بعد كان يرميه بقطة طابشور، اوقطعة فلين، لاتؤذيه ولكنها تثير اعصابه وغضبه، وتمثل ازعاجا واستهانة به ، وكان طبعا يغضب ويحاول البحث عن الفاعل دون جدوى، حيث كان التلاميذ يتضامنون في عدم افشاء السر ، وعرف هؤلاء المشاكسون ان للاستاذ الهادي انديشة حساسية من نوع من الاصوات ، وبالذات نوع من الشخير الذي يسميه المصريون الشخير الاسكندراني، والذي يعتبره بعض الناس عيبا وخروجا على الادب، فكان هذا يصيبه بشيء يشبه الحالة الهستيرية ، بل يخرج عن طوره ويتلفظ بكلمات وعبارات فيها من السباب ما يصل الى حد السوقية، وكنت اتاسف لذلك بسبب توقيري الشديد له ولعلمه وكنت اهدد بعد خروجه الفاعلين بانني سوف اذكر اسماءهم للاستاذ اذا عادوا سلوكهم السيء ولكنني لم اجرؤ على ان اشي بهم لان ذلك مخالف لتقاليد الزمالة الطلابية، ومعرفة هذه الحساسية لدى الاستاذ ، وخرج الرجل عن هيبته ووقاره، لم تزد الامر الا استفحالا، ووصلت في احدى المرات الى ان اشتكانا الشيخ الى المدير الانجليزي السيد ستيفنسون، الذي جاء ، يطلب ان نقول له من الفاعل ، وانه اذا تاخرنا عن تقديمه ، فسيكون العقاب جماعيا، وعندما انكرنا معرفة الفاعل، علق القاء الدروس، وامرنا بالخروج الى الساحة ، والوقوف في الشمس نضع ايدينا الى اعلى ونقف على قدم واحدة ، قائلا بانه سيستمر عقابنا طوال النهار وسيتم حرماننا من وجبة الغذاء ، الا اذا ذكرنا اسم الفاعل، او تقدم هو بنفسه واعتر بفعلته، ومع ذلك لم يحصل ان تكلمنا، ولم يتطوع هو بتقديم نفسه، لانه يدرك ان الامر هذه المرة قد يصل الى الفصل من المعهد فصلا نهائيا. وانتهى الامر بعد ساعة او ساعتين من العقاب ، بانذار انه لو عدنا الى استفزاز الشيخ ، سيكون العقاب اكثر قسوة ، وقد يصل كما قال المدير، الى الغاء هذا الفصل وارسال كل طلابه الى منازلهم.

كان الشيخ الهادي عالما من علما اللغة، وعالما من علما الدين ، ولا اعتقد انني كنت قادرا على الافادة من علومه الغزيرة ، باعتباري ما ازال ذلك الوقت في مرحلية عمرية لا املك معها عمرا لاستيعاب علومه الغزيرة العميقة التي انتقل بها فيما بعد الى المعهد الديني الاسمري في زليطن وصار قيدومه وعميده الذي يشد الناس الرحال اليه ينهلون من معين علمه. كما لم افكر في الاقتراب منه اقترابا ادبيا يتمثل في ان اعرض عليه بعض ما اكتبه من خواطر، ربما بسبب ما رايته من غضبه وخلقه الذي يضيق مع الطلاب، ولكن سلاسة شرحه للغة ، واستيعانته بالشعر العربي في هذا الشرح ، وقوة ايمانه باهمية اللغة واعتبارها مظهرا من مظاهر الحضارة وصورة من صور التقدم والنهوض ، ويضرب الامثال على ان قوة اللغة يقترن دائما بقوة الامة في مضمار النهضة، وضعفها يصير مقياسا لضعفها في هذا

المضمار، وهو بالتكيد كان تنبيهامبكرا بالنسبة لاهمية وخطورة هذه الاداة التي لا اداة غيرها لمن اراد ان يتنكب طريق الابداع الادبي كما كنت ارجو واتمنى .

اصدر الاستاذ الهادي انديشة عددا من المؤلفات التي تتصل بمناهج المعهد الاسمري، كما اصدر اشعاره اثناء حياته في ديوان اسماه ينبوع الجمال ، بعضها ذات طابع رومانسي ذاتي مثل قصيدة يقول يتمثل فيها نفسه قائلا

لا يعرف الشوق الاكيد سوى فتى * مثلي يعيش مهذبا ونبيلا**
يهفو الـي المعروف طول حياتـه * متلذذا فيه العذاب وبيلا**
امـا الفضيلة فـهي مـلء اهابـه * ومقامه في العلم كان كفيلا**
مـن ينكـر الحـق المبين فإنـــه * سيعيش طول زمانه مرذولا**
وهناك قـوم اخطأوا فـي فهمهم * ورأو سواهم مخطئا وجهولا**
هم اهملوا الشمس المنيرة في الضحي * واستعملوا بدلا لها القنديلا**

ورثى في الكتاب بعض اساتذته من علماء ليبيا قائلا عند رحيل احدهم:

ابكي عليك بمدمعي الهطال

طول الحاية ولست عنك بسالي

انت الذي لولاك ما نلت المنى * وبلغت مـا ارجـوه مـن آمـال**

توفى استاذنا الشيخ الجليل والشاعر الليبي الكبير الاستاذ الهادي محمود انديشة في زليطن بلد الميلاد

والوفاة في العام1989 عن ستة وثمانين حولا .

نابغة المسرح محمد العقربي

لن اكون مخطئا اذا اسميته الادكاديمية الفنية محمد عبد العزيز العقربي ، فقد كان يتمتع بكل مؤهلات المعلم، المتعدد المواهب والكفاءات ، الموسوعي الثقافة والمعارف ، المستعد في كل لحظة ، ان يهب عطاياه لم ينشد ان ينهل من معين علمه، من ابنائه وطلابه ومريديه الكثر، وكنت واحدا منهم، ساقتني ربات الحظ السعيد، وانا في مقتبل العمر ، لان اكون ضمن الدفعات الاولى التي تلقت علي يديه المعارف الفنية ، منذ اول مرة يانتي فيها للاقامة المؤقتة في طرابلس ، في اواخر الخمسينيات ربما عام 1958 على الارجح، قبل ان يعود في العام 1965 اقامة امتدت الى عام وفاته، وكنت ما ازال طالبا في معهد هايتي ، باشرت لتوي الانتساب لفرقة الامل للتمثيل، وبعد اسابيع من هذا الانتساب ، تلقى اعضاء الفرقة دعوة لحضور جلسات مسائية ، تقام في مدرسة طرابلس الثانوية ، يتلقى خلالها اعضاء الفرقة دروسا في التمثيل مع اعضاء الفرق الاخرى، على يد المخرج التونسي واستاذ المسرح ، الفنان محمد عبد العزيز العقربي، وذهبنا لنجد رجلا في اواخر الخمسينيات من عمره ، على قدر من الامتلاء ، ليس

بافراط، متوسط الطول، يترك شعره طويلا الى حد ما، بلونه الرمادي، يخالطه شيئا من البياض، والغليون ينتقل بين يده وفمه، عرفنا انه بطل من ابطال المسرحيات في تونس , واحد كبار مخرجيها، ومدرسا في مدرسة التمثيل العربي في تونس ، ومديرا لفرقة المسرح البلدي وهي الفرقة الرسمية التي تملك مسرحا تقدم عليه عروضها في مركز المدينة، وينتمي الى احد البيوتات الاورستقراطية في العاصمة التونسية، وان لوالده السيد عبد العزيز العقربي ، مكانة كواحد من مثقفي مدينة تونس ، ووجهائها الكبار في مطلع القرن العشرين، ياتي ذكره في التقارير الصحفية المنشورة عن تونس في ذلك الوقت وفي كتب الرحالة، كما اخبرنا بذلك احد عارفيه فيما بعد، وكانت فرصة لان ارى نابغة من نوابغ الفن في تجلياته التي لم تقتصر على جلسات التدريب وهو يدي بعض الادوار لكي نتعلمها منه وانما انتقلت الى بعض الموائد التي اقامها له بعض الاصدقاء مثل المرحوم سعيد السراج، وطلب منه ان يطربنا من مخزون ما لديه من ادوار فتجلي الرجل مؤديا كما يمكن ان يفعل عظماء المؤدين ولا اذكر انني استطيع ان اقارنه باي مطرب رايته في حياتي عدا مرة واحدة شاهدتها فيما بعد، في مصر ، للشيخ زكريا احمد وهو يؤدي اغنيته الشهيرة ياصلاة الزين يا صلاة الزين ، رايته اثناء اقامتي في مصر في بداية افتتاح التليفزيون المصري، فترحمت عليه وتذكرت استاذي محمد العقربي وكان في ذلك الوقت على قيد الحياة موجودا في تونس وتوسلت الى الله ان يجمعني به مرة اخرى ، وتحقق ذلك الدعاء عندما عاد العقربي الى تونس ، وكان في الحقيقة غاضبا من شيء ما في تونس لم احاول استجلاء ما هو ، ولكنه كان يحكي لنا بعض الطرائف بينه وبين الرئيس بورقيبة ويبدو انهما تزاملا في مرحلة من مراحل الدراسية ، واحدى هذه المماحكات كما رواها لنا حصلت عندما زاره الرئيس اثناء عرض من العروض وهو يدير فرقة المسرح البلدي، ولعله جاء اثناء التمارين لانه قال ان ابورقيبة ابى كعادته الا ان يتدخل في عمله باعتباره مخرجا ويقترح عليه تعديل شيء في ميزانسين المسرحية ، فقال العقربي ، انه اوقف الرئيس قائلا، انه اذا جئت اليك في قصر قرطاج املى عليك تصرفا ما ، فانني عندئد ساوافق على ان تاتي الى مجال تخصصي وتطلب مني تعديل ما تشاء، فلكل مجاله ياسيادة الرئيس وتخصصه، واستطيع ان اقول بمنتهى الاطمئنان ان ما عرفته عن صراحة العقربي وكبريائه، يجعلني اصدق هذه الرواية ، ويبدو ان مثل هذا النقاش لم يكن يروق لرئيس مصاب بداء العظمة مثل بورقيبة ، حتى من زميل له في الدراسة ، ولعل العقربي احس بشيء من الجحود والنكران من قبل النظام التونسي ، فقد كان للعقربي تلميذا نجيبا اعطاه مهمة مساعد مخرج له عندما كان مديرا للمسرح البلدي ، ثم اذا بالرئيس بورقيبة يدني هذا الشاب منه ، ويعمل على تعيينه مديرا لمسرح البلدية ، في وجود العقربي قامة كبيرة تهيمن على فضاءات المسرح في تونس، فانتقل في العام 1965 الى طرابلس ، قائلا بانه اختار الاقامة بها واتخاذها مقرا دائما له ، وكان الوزير في ذلك الوقت السيد خليفة التليسي الذي يعرف اقدار الرجال وراءها فرصة للاستفادة من هذا العبقري من عباقرة المسرح فعهد له في الحال انجاز مشروع فرقة قومية للمسرح في ليبيا ، هي بالتاكيد اول فرقة محترفة في البلاد، وكان في الحقيقة نصف تفرغ، فقد كنت واحدا من العشرة الاوائل الذين تم اختيارهم عن طريق لجنة برئاسة المخرج الفنان محمد العقربي ، لنكون نواة هذه الفرقة ، فنذهب لمختلف الوظائف التي نمتهنها صباحا وفي المساء عند الساعة السادسة نلتحق بالفرقة التي تم تخصيص مسرح لا يقل بهاء وفخامة عن اي دار اوبرا في العالم هو مسرح الغزالة قريبا من مركز المدينة ، وهناك باشرنا التمارين والبروفات على العمل المسرح العالمي عطيل تاليف شكسبير ، وتولى الادوار الرئيسية في ذلك العمل ، شعبان القبلاوي في دور عطيل متناوبا على الدور مع لطفي بن موسى ، ودور ديدمونة للسيدة خدوجة تكيتك

التي بنى بها زميلنا فيما بعد على عطية، ودور كاسيو للسيد الطاهر القبائلي ، ودورياجو للسيد عمران راغب المدنيني ، ودور زوجة ياجو ايميليا السيدة سعاد حداد، ودور والد ديدمونة للسيد محمد شرف الدين ورودريجو للسيد صبحي المجراب ، ودور رئيس الادواج للسيد اسماعيل ريحان واخذت انا دور عضو في مجلس الادواج مع السيد ريحان، وجاء تاسيس الفرقة عام 1966 ، وكنا نستعد لتقديمها بعد ان تهيات لها الملابس والديكورات على اروع واجمل صورة في العام التالي اي عام 67 ، عندما داهمت العرب جميعا تلك الفاجعة وهي هزيمة يونيو في ذلك العام ، فابطلت تقديم المسرحية ودخلت البلاد في حالة من الهيجان واحترقت الاسواق وصارت جرائم ذهب ضحيتها بعض اعضاء الجالية اليهودية الذين غادروا البلاد في اكسدوس جماعي خوفا من فوران المشاعر ضدهم ، وتفرغ الاستاذ العقربي في تلك الفترة للعملية التعليمية ، يؤسس لقسم للتمثيل في معهد الموسيقى الذي بدأ تاسيسه الموسيقى الليبي محمد مرشان ، وصار بفضل القسم الذي انشأه الاستاذ العقربي ، المعهد الوطني للموسيقى والتمثيل ، وكان للاستاذ العقربي بجوار اهتماماته ومعارفه الفنية الموسيقية ، جانبا صوفيا ، وكان يتواصل مع بعض مراكز التصوف التي تعتني بالاذكار والمدائح ، وكان في زيارة الى زليطن حيث ضريح القطب الصوفي الكبير سيدي عبد السلام الاسمر ومعهده الديني، وللطريقة الاسمرية انتشار في تونس ايضا، وكان معه في السيارة زميل له مدرس في معهد التمثيل والموسيقى وشاب ليبي من طلاب ومريدي الاستاذ العقربي اسمه ، عندما انعطفت بهم السيارة عن الطريق وسقطت في تجويف احد الاودية فتوفي في هذا الاحداث كل من الاستاذ العقربي وزميله الاستاذ المصري . وكان ذلك عام 1968 وكان عمر استاذنا العقربي في ذلك الوقت ستة وستين عاما، وقد ترك كتابا عنوانه نظرات في المسرح والموسيقى صدر عن وزارة الاعلام والثقافة الليبية عام 1967، كما صدر في تونس اكثر من كتاب يترجم لحياته، باعتباره عميدا من عمداء المسرح التونسي ، وكان موضع اشعار اشادت بمواهبه احدها لامير البيان شكيب ارسلان الذي كتب معجبا بصوته اثر حضوره سهرة شدى فيها الفنان العقربي ببعض محفوظاته من ادوار شرقية اذ جاء في تلك القصيدة

اسمع بربك و انتبه للعقربي ** يا من تود سماع صوت مطرب**
فبصوته تحيي فؤادك عندما ** يشدو كطير فوق غصن معجب**

وللشاعر التونسي الشاذلي الخازندار ايضا قصيدة اعجاب بصوت العقربي جاء فيها

حياله كالساعات دارت بعقرب ** اذا ما تغنى العقربي رأيتنا**
على الشرق مغربي فقالوا استزد فالله قبلك زاده ** فقلت به يزهو**

محمد ابوزيد الشريف

عندما التقيت به لاول مرة، عام 1960، كان الاستاذ محمد ابوزيد الشريف، مديرا لادارة الجمعيات التعاونية، متحمسا لفلسفة الاقتصاد التعاوني ، ويربطها ربطا وثيقا بتحقيق العدالة الاجتماعية في مجتمع مازال في تلك الفترة الزمنية ، يرسف في اغلال الفقر والجهل والمرض، ويرى فيما يبذله من جهد لانشاء الجمعيات التعاونية ، والتوسع فيها ، وانتشارها حتى تشمل كل انحاء ليبيا، رسالة وطنية ، وسفينة انقاذ للمواطن من مساوىء وعيوب الانظمة الاقتصادية الاخرى، فهو كما عرفت من احتكاكي به يكره الشيوعية، ويقول ان شعبا عميق الارتباط بدينه الاسلامي، لن يقبل ولن يقتنع بالافكار التي يبشر بها بعض المؤمنين بالفكر الماركسي ، باعتباره فكرا يعد ببناء المدينة الفاضلة وينتصر للطبقات المسحوقة ، فهذه الطبقات نفسها هي اشد اعداء هذا الفكر الالحادي ، فكيف تجتمع الفضيلة مع الالحاد؟ كما كان يقول مستنكرا، بل هو يقرن الشيوعية بالظللم والجور، ويرى ما حصل ويحصل في الدول الشيوعية من مصادرة لاملاك الناس وتاميم لها ، ظلم جائر اسود ، كما ان الحجر على ان يشتغل الناس بالتجارة ، هو ظلم للمواطن وظلم للوطن واجهاض لفرص التقدم والبناء، لان الحافز الفردي ، اذا ما الغيناه من حياة البشر، فقد اضعنا عماد البناء والتقدم والنماء والحضارة، وهو يكره ايضا النظام الرأسمالي، باعتباره نظاما قائما على استغلال الطبقات الفقيرة، وسبيلا لتعميق هوة التفاوت الطبقي بين الناس وزرع الفوارق والحواجز بينهم، بل هو افساد لطبيعتهم الانسانية لانه يحظ على الاحتكار واكتناز المال والاستحواذ على الثروة، ولا حل ولا خلاص ، الا في الانظام الاقتصادي التعاوني ، كما يرى ، وهو ما اورده في كتابه الصغير الذي سبق ان اصدره في عام 1957 في طرابلس بعنوان"ليبيا والجمعيات التعاونية"، وعرفت بعد ان انتقلت للعمل معه ، انه جاء لهذه الوظيفة من حقل التعليم، كما علمت ايضا ان له محاولة فاشلة للترشح في احدى دورات البرلمان او المجلس التشريعي ، ويقل ان هناك من تآمر ضده، واعاق نجاحا يستحقه لصالح مرشح منافس لا شعبية له، وعرفت انه مؤسس هذه الادارة، بعد ان اقنع بجدواها واهميتها والي ولاية طرابلس في فترة ماضية السيد جمال الدين باشا آغا، الذي شغل منصب والي طرابلس خلال الفترة 1955م-1958، وكان رجلا صاحب حس وطني ومستوى ثقافي بسبب الاقامة الطويلة في مهجره ومهجر اسرته في مصر ، فقد كتب له مذكرة احتوت تفاصيل مشروعه لتقديم التعاونيات الى ليبيا، وايمانه بانها ستعود بالنفع على البلاد، فتأثر الوالى بما قرأ، واسرع يدعوه لوضع تصور عملي لتنفيذ المشرع، وانشأ له في قصر الولاية ادارة اسماها ادارة الجمعيات التعاونية ، وعندما التحقت بهذه الادارة كانت تشرف على عدد كبير من الجمعيات التي شملت مختلف التخصصات فهناك جمعيات زراعية وجمعيات استهلاكية واخرى لاصحاب مهن مثل صيادي السمك واصحاب سيارات الاجرة ، وعلاوة على عمله مديرا لادارة التعاون كان يشتغل داعية لهذا النوع من الاقتصاد واذكر انه قدم اكثر من محاضرة في اكثر من منتدى ومدرسة ، وكان هذا الرجل الفاضل والمربي الكبير، وراء اول بعثة دراسية، اسافر فيها لمعهد شهير في مصر يتبع منظمة اليونسكو، اسمه المعهد الدولي لتنمية المجتمع، خلال عامي 62-1963 ، وعندما عدت من البعثة وجدته ترك وظيفته في ادارة التعاون ليحقق ما كان يريده من الدخول في احد الاجسام التشريعية البرلمانية، ودخل قبل عودتي انتخابات المجلس التشريعي لولاية طرابلس وفاز بمقعد عن منطقة قصر بن غشير التي ينتمي اليه ، ورغم الفترة القصيرة التي قضاها في المجلس ، لانه تعرض للحل بسبب التعديل الدستوري الذي الغى الدولة الاتحادية ونظام

الولايات لتعود الامور الى حكومة واحدة مركزية ، فقد ترك الاستاذ محمد ابوزيد الشريف بصمة في ذلك المجلس عندما تقدم بعدد من مشاريع القوانين التي شكلت نقلة في وظائف عدد من مؤسسات الخدمة الاجتماعية في البلاد. فقد اخذ موقعه بين اعضاء المعارضة ، كما حكي لي النائب المعارض الاستاذ محمد صفر، وكان بفضل ما له من خبرة ادارية وثقافة عامة وما يتمتع به من هيبة وحضور، مؤهلا لان يكون القائد والزعيم لهذه المعارضة. ولا ادري اذا كان قد اعاد الكرة في انتخابات المجلس التشريعي الاكبر ، اي البرلمان، بعد الغاء مجالس الولاية ، ولكنني لا اعتقد، لانه لم يكن ممكنا ان يتحصل على فرصة اخرى طالما عرفت الاجهزة الامنية ، وجنود الحراسة للنظام ، بسجله في المجلس التشريعي ، فتفرغ لادارة مزرعة يملكها بمنطقة بن غشير، والتقيت به بعد الانقلاب العسكري، اسأله وقد كان محسوبا على قوى المعاضة السياسية ، ان كان على اتصال باهل الحراك الثوري الجديد، فوجدته متشائما، نافرا ، كارها لما حدث، ساخرا من هؤلاء الصبية الذين لا يمكن ان يأمنهم الانسان على حراسة مخزن ، لا ادارة بلاد ،كيف سيصنعون بهذا البلد، وقال انه لا يرى لنفسه دورا في هذا العهد الجديد، ولا يريد ان تكون له اية علاقة بهم ، وكل ما يتمناه ويرجوه ان يكفيه الله شرهم ، ويعيش في هدء بعيدا عنهم. وكان لقائي به ولعدة مرات في فندق الشاطيء ، وكان يعج بالشرطة السرية ، وحاول تنبيهه الى ان يتكلم بصوت خافت لكي لا يقع الكلام في اذانهم ، لكنه لم يكن يابه لهم ولما يمكن ان يفعلوه، فقد وصل سن التقاعد، وصار مستقبله المهني وراءه، ولا شيء يخشى عليه منهم . وربما كنت في تلك المرحلة المبكرة من عمر الانقلاب، اشاركه استهجانه لمستواهم الثقافي والتعليمي، ولكنني لم اكن اشاركه ما كان يبديه من تشاؤم وما كان يتنبأ به من كارثة سوف تحل بالبلاد على ايديهم بسبب جهلهم ورعونتهم واندفاعهم، وكنت كلما تقادم بنا الزمن استحضر اقوال هذا الاستاذ والرائد الكبير في مجال التعاونيات ، وازداد يقينا بصد تقييمه وعمق تحليله لما سيحدث للبلاد على ايدي الانقلاب وصاحبه. ولم اكن موجودا في البلاد عندما لاقي وجه خالقه، ولم اسمع برحيله الا بعد فترة زمنية من هذا الرحيل ، الا انه حاضر دائما في ضميرى ووجداني بماراياته من نبل شخصيته وعمق تفكيره واخلاصه الشديد لاهله وبلاده عليه رضوان الله.

عبد الرحمن التير

لم يكن غريبا ان يجد من يسميه "القديس" فقد كان نقيا وامينا ونزيها وجميلا في سلوكه، وحديث، وخلقه، مثل اولياء الله الصالحين، ولم يدس هذا النقاء،نقطة تلوث واحدة، رغم انه تقلد وظيفة محاطة من كل جوانبها ونواحيها بكل انواع المستنقعات والحشرات، فقد ظل لسنوات كثيرة وكيلا لوزارة الاسكان، في اوج التطور العمراني ، الذي يصح ان نسميها هستيريا، والتي جاءت بعد الطفرة الرهيبة التي شهدها النفط بعد عام 1973يوكانت الوزارة التي يتولى المهمة التنفيذية الاولى فيها هي التي تشرف على المباني في كل انحاء ليبيا تلك التي تبنى لمرافق الحكومة او لمشاريع الاسكان الشعبي او للمحليات، فكان اهل المقاولات والشطارة من الليبيين واجانب من كل حدب وصوب يتخذون هذه الوزارة سبيلا للتربح والنهب والاثراء، وكانت الميزانيات الكبيرة التي ترصد لهذه المرافق الاسكانية ، تسيل لعاب كل مسئول فيريد الوصول بطريقة ما الى نصيبه منها، واستقطبت هذه الاموال النصابين في الداخل والخارج، وصارت هذه المشاريه مصدر الاثريا السريع ، ليس لاهل البلاد ومسئوليها الكبار والصغار ، وليس فقط لشركات البناء والمقاولات، ولكن لعمال وموظفين في الوزارة، ويكفي ان يدعو المهندس المسئول وليكن

اجنبيا من اي قطر، صديقا له لان يزود المشروع الذي يشرف عليه بمصابيح الكهرباء فقط، فيصبح هذا الصديق مليونيرا في زمن قياسي، اذا اراد، بقليل من العبث في الفواتير، الذي يصعب ضبطه، اذا ضمن التواطؤ والموافقة من المشرف على المشروع، ويجمع الناس ممن يعرفون هذا الوسط في تلك الفترة ان ابعد اثنين عن الاستفادة وسط هذا المهرجان من التربح والنهب ، هما المسئول الاول السياسي اي الوزير المهندس محمد المنقوش والوكيل المهندس عبد الرحمن التير، واقول ذلك عن عبد الرحمن بالذات لانني اعرف حياته معرفة دقيقة فهو احد اقرب اقربائي ، وشقيق والدتي ، وتربطني به وباسرته علاقة حميمة فاعرف كل تفصيلة في حياته واعرف اذا كان ثمة مليم واحد زائد دخل عليه غير دخله القانوني ، وطبعا كان من الصعب السيطرة على دائرة التربح والانتفاع، فكان كل ما استطاع المحافظة عليه هو شرفه الشخصي وذمته المالية ، وكانت المفارقة الكبيرة في حياته انه بقى لعدة سنوات يقيم في شقة صغيرة بالايجار وسط كل هذا المهرجان العالمي من المنتفعين بوزارته، ولولا ان صديقا وقريبا ، وكان يشغل منصبا كبيرا ، اراد ذات يوم تغيير منزله الحكومي الى منزل اكثر سعة وبذخا، فقصد عبد الرحمن ، ربما تحت الحاح عدد من الاقارب والاصدقاء اشفقوا عليه مما عليه من زهد ورهبنة ، فابى ان يترك البيت الى بيته الجديد قبل ان يضمن ان ياتي عبد الرحمن ويشغل هذا البيت الحكومي. وهكذا انتقل وتحت الحاح هذا الصديق الذي كان وزيرا في اولى حكومات العهد الانقلابي، لما استطاع وهو من يشرف على كل مساكن ليبيا ان يؤمن لنفسه مسكنا ظل يقيم فيه الى ان لاقى وجه وربه ، عفيفا، شريفا، نظيفا، لم ينل من حطام الدنيا خارج مرتبه الا هذا البيت لاسرته .

وباعتباري قريبا من محيطه العائلي ، فمقاومته للفساد لم تقتصر على اغراء الخارج، ولكنني كنت ارى افرادا في الاسرة ، يعيرونه بزهده وتقشفه، ويسخرون من بقائه في بيت بالايجار، ويهزأون من تسديده الشهري لاقساط سيارة صغيرة هزيلة اشتراها ويضحكون منه لانه مازال اذا ما اراد الذهاب في اجازة استلف ثمن التذكرة ، ويسالونه ان يغترف من الخير الذي بين يديه، ويضربون له الامثال عن مسئولين حكوميين اصغر منه منزلة وليس بين ايديهم معشار الميزانيات التي بين يديه اغتنوا واكتنزوا الملايين ، فكان يبتسم اشفاقا روحمة بكل من يقول له هذا الكلام، خاصة اذا كانت واحدة من نساء العائلة يعرف انها امراة جاهلة امية لا تعي معنى واهمية ان يكسب الانسان العالم ويخسر نفسه، وسمعت كلاما اكيدا على انه طرد من مكتبه اكثر من مقاول جاء يعرض عليه الصفقات المليونية ، بل ولم يكن يكتفي بالطرد بل الحرص على ان يضعه في قائمة الممنوعين من التعامل مع الوزارة طيلة مدة بقائه في ذلك المنصب الذي شغره لسنوات كثيرة.

كان زهده وطهارته معروفة لدى زملائه في مهنة الهندسة فظل لدورات كثيرة هو نقيب هذه الفئة في ليبيا وكان يؤدي هذا العمل العام بحب واريحية ، فقد كان مثل هذا العمل التطوعي الذي لا يتقاضى عليه النقيب مرتبا ، عبئا اضافيا يتحمله فوق عبء العمل مسئولا كبيرا في وزراة ذات مهمات جسام ،ومع ذلك كان ياتي على نفسه ، ويتفاني في هذه الوظائف والمسئوليات التي تاكل نهاره وليله ، وهو في كامل الرضا عن نفسه وعن ادائه لعمله.

لعله كان اول شاب من اهل البلدة يذهب في بعثة الى الخارج ، في بداية الخمسينيات، حيث كانت دراسة اغلب ابناء جيله تنتهي عند المرحلة الابتدائية ، لكنه انتقل الى العاصمة ، ومنها انتقل في بعثة

دراسة الى اسطنبول بمنحة من الحكومة التركية مع عدد من المبتعثين ، بعضهم ذهبوا في المجال العسكري فتخرجوا من اكاديميات تركية ، وهو وعدد من ابناء جيله في مجال الهندسة ، وعاد بعد اكثر من عشرة اعوام ، لان اغلبهم انهوا الدراسة الثانوية هناك في بلد الابتعاث واكملوا بعد ذلك الجامعة وعادوا في منتصف الستينيات يتولون مسئوليات البناء في بلد كانت ما تزال تسعى لاعداد كوادرها وتفتقر كثيرا للموارد البشرية خاصة في المجالات العلمية وتضطر الى الاستعانة بخبرات اجنبية لشغل هذا الفراغ.

قهوة عبد الله

في الشارع الذي يحمل اسم القائد الاسلامي الذي فتح ليبيا في بداية عهد الفتوحات الاسلامية، عمرو بن العاص، والذي اعطته الذاكرةالشعبية اسما يتصل بالسيول التي كانت تقتحم مدينة طرابلس وتغرقها، شارع الوادي، اذ كان الوادي المحاذي لطرابلس وادي المجينين، يفيض شتاء فيتدفق سيله الى قلب المدينة ، في ميدان الشهداء، عن طريق هذا الشارع، وعلى ناصيته القريبة من سينما لوكس، والمقابلة لها، تنتصب قهوة عبد الله، احدى اهم مقاهي هذا الشارع واكثرها شعبية ، وربما وحدها بين هذه المقاهي من كانت تعتني بتقديم الشيشة لزبائنها، وهي القهوة التي تلتئم بها جلسة ادبية يومية، مؤسسها وعميدها الكاتب المعروف الشيخ على مصطفى المصراتي، والتي اسعدني الحظ بان التحق بها منذ بداية تاسيسها في عام 1960 على الارجح العام. وتقع القهوة في مدخل خان قديم، اوفندق من الطراز التقليدي الذي تعج به المدينة القديمة ، لانه كان موجودا منذ العهد التركي ، الا انه فيما يبدو بني بعد ان بدا الناس يتخذون سكنا ومحلات للاقامة خارج السور فكان هذا الفندق من فنادق قليلة اتخذ طابع تلك الخانات التي عرفت بها احياء الحارة وباب البحروكوشة الصفار، دون ان يكون بينها وانما خارج ذلك المحيط الاجتماعي والتاريخي الذي عرفت بها طرابلس القديمة، وعندما عرفت الفندق ، والتحقت بجلسة المقهى ، كان الفندق قد وصل الى شيخوخته، ولم يعد يصلح للاقامة الفندقية، وتحولت غرفه الى اماكن تخزين لمتاجر ومحلات قريبة، وتحولت الواجهة ، والمنطقة التي كانت ردهة الاستقبال، الى هذه القهوة التي تحتل بطاولاتها رصيف الشارع، علاوة على صالة داخلية ، مع صالات خلفية صغيرة يلعب فيها الشاب الات تسمى "الجاتوني"، واخذت القهوة اسم صاحبها عبد الله، وهو رجل من اهل البشرة السوداء، لا يباشر العمل بنفسه ، ولا نراه الا لماما ، في جولات اشرافية تفتيشية ، يرتدي ملابس عربية انيقة، نظيفة ، القميص العربي ، والنطلون العربي ، ثم الصديري او الفرملة ، بلونها الازرق او البني ، ويضع فوق راسه طاقية حمراء، تظهر من تحتها حواف الطاقية البيضاء، التي نسميها اسما مشتقا من العرق اي"المعرقة"، ويضع حول جسمه حزاما من الكتان الابيض . وتحظى جلستنا باحترام خاص منه، فهو لا يدخل المقهى الا وياتي مرحبا وقد يتقدم للسلام مصافحا الجالسين ، مطمئنا الى جودة الخدمة والاهتمام، وكانت الشيشة ، ما تزال شيئا نادرا في المقاهي الليبية، ولعل تقديمها في المقهى هو الذي جعل مؤسس الجلسة وعميدها يستخدمها مقرا لجلسته فقد كان الشيخ المصراتي من اصحاب المزاج ، لابد ان ياخذ نصيبه اليومي من النيوكوتين عن طريقها. والمصراتي رجل محب للناس، يرحب بكل من ياتي قاصدا الجلسة، دون ان يسمح لاحد بان يدفع الحساب غيره، واذا جاء الغريب فلن يجد الا الحفاوة ، وربما نكتة سريعة تذيب الجليد، تعقبها قهقهات ،والفة وصار الغريب صديقا، وكان ياتي للقائه في هذه الجلسة بعض

اصدقائه القدامي،مثل عميد الدراسات التركية ، الاستاذ محمد الاسطى ، من الجيل السابق لجيله ، ورجل من عائلة محسن ظافر المدني الصحفي القديم صاحب جريدة الوقت، كما كان يستقطب عددا من الكتاب الشباب بينهم نجم الدين الكيب، وحسن خشيم، والعبد لله، وشخصيات اخرى كثيرة ، ربما يستحق بعضها ان اتوقف عند بعضها في هذه الصفحات ، وذكر انه في سنة التحاقي بالجلسة اي عام 1960 ، جاء الحاج محمد الاسطى ليقول وهو المولود في اولى سنوات القرن ، انه قد بلغ الان سن المعاش ، ربما لان سن الستين في ذلك الوقت كانت هي سن المعاش، ويقول ان امامه الان اعواما من الراحة والنوم الصباحي. وساقف وقفات سريعة امام بعض شخصيات قهوة عبد الله بدءا من مؤسسها الشيخ على مصطفي المصراتي.

على مصطفي المصراتي

بعد استشهاد البطل سعدون السويحلي وهزيمته في معرك المشرك عام 1923، على مشارف مصراته، توزع انصاره وافراد جيشه من مجاهدين يعملون تحت قيادته ايدي سبأ، وكان الاتجاه الذي اتخذه والد المصراتي وبعض اقاربه من عائلة الضراط الشهيرة في مصراته، هو الحدود المصرية، وانتهى به المطاف الى الحي الذي اقامه الليبيون في الاسكندرية، واستخدم هناك الحس التجاري الذي يملكه اهالى مصراته، فاخذ من تاجر للجملة قالب قماش ذهب به الى السوق، ليبيعه بالقطاعي في نفس الويم ، ويعود للتاجر فياخذ قالب اخر وهكذا اصبح صاحب تجارة، ورثها احد ابنائه ،معها حانوت ظل يستخدمه هذا الاخ الاكبر للشيخ على المصراتي، الذي صار مصريا وبقي على مصريته الى ان توفاه الله منذ سنوات قليلة مضت، يمارس تجارته في سوق تسمى باسم ليبيا قريبا من منطقة اللبان الشهيرة في الاسكندرية، دون ان يفكر مثل شقيقه بالعودة الى بلاد الاصل، وهكذا كانت اسرة المصراتي اشبه بجسر يربط بين البلدين الشقيقين، فقد ولد علي مصطفى المصراتي بعد عامين من استقرار اسرته في ارض المهجر، في الاسكندرية عام 1926، ودخل ابتدائية الازهر ، وعندما بلغ سن الصبا انتقل مع الاسرة الى حي بولاق في القاهرة، وهناك اكمل دراسته الثانوية في مدرسة الجلادين ثم واصل دراسته الجامعية في كلية اصول الدين بالازهرمقيما هذه المرة في رواق المغاربة، والتحق بهيئة تحرير ليبيا التي تكونت في القاهرة على يد الزعيم بشير السعداوي ، بعون في البداية من الجامعة العربية وامينها عبد الرحمن عزام باشا، وجاء مع الزعيم السعداوي الى طرابلس عام 1948، ليصبح ، رغم صغر سنه، فاعلا من الفاعلين الاساسيين في الحراك السياسي الوطني السابق للاستقلال، ويتولى مهمة الخطيب المفوه لحزب المؤتمر الذي يرأسه السعداوي، ويقترب كثيرا من هذا الزعيم ، حتى يصير بمثابة الابن الروحي له.

عندما التحقت بمجلسه في قهوة عبد الله، كان المصراتي كاتبا معروفا، وشخصية وطنية ذات تاريخ اوصله الى الملاحقة والسجن، يحظى بتقدير الناس، لان اغلب الليبيين الذين عاصروا ميلاد دولة الاستقلال شاهدوه خطيبا في المحافل العامة، وازداد اهل الثقافة معرفة به، وهو يباشر اصدار كتبه بدءا من جحا في ليبيا ولمحات ادبية من ليبيا واعلام من طرابلس وغومة فارس الصحراء والمجتمع الليبي من خلال امثاله وصحافة ليبيا في نصف قرن وصولا الى سعدون البطل الشهيد ومجاميعه القصصية التي بدات عام 1963 بالشراع الممزق ثم مرسال وحفنة من رماد، وغيرها واغلب هذه العناوين اصدرها في تلك الفترة التي كانت تشهد لقاءاتنا مع انشغاله بالقضايا الوطنية التي يباشرها مع مجموعة من نواب

المعارضة في البرلمان وكان قد نجح في انتخابات عام 1960، وكنت اتلقى منه هذه الكتب وقدمت قراءات حول بعضها ولم يكن كامل الرضا عما اكتبه ، لانها لم تكن دائما تحتوي على المجاملة التي قد ينتظرها الصديق من صديقه خاصة اذا كان لهذا الصديق فضل الريادة والاستاذية، اذ كنت اناكفه واعمد الى اظهار ما استطيعه من الموضوعية لانني لا اريد ان يلصق بي احد شبهة المجاملة لانني اتمتع بصداقة الرجل وترحيبه واحتضانه، ولعلني في بعض هذه القراءت كنت قاسيا، حيث كنت اتشبث بما قد يراه ابناء مرحلتي العمرية شروطا ومقاييس لا يجب الاستهتار بها، لانني مثلا رايت في كتابيه القصصين حفنة من رماد والشراع الممزق ما اعتبرته عدم التزام بشروط وقواعد القصة القصيرة، فنسيت المزايا الكثيرة الاخرى في قصصه المفعمه بحسه الشعبي وقربه من النماذج الليبية التي يبرع في رسم صور صادقة لها وصرت ابحث عما يسميه النقاد بالتكثيف والتركيز والاختزال ، مما قد يورثني شيئا من غضبه الذي لا يستمر طويلا ، لانه رجل لا يحمل حقدا ولا يستطيع ان يغضب عن اي صديق اساء اليه اكثر من يوم ثم يعود باسما بل طالبا الصفح اذا راى انه بالغ في الجفاء او الخصومة ، وجئت مرة فرحا لانني ظننت انني انصفته لانني كتبت مقالا شديد التقدير لشخصه انهيته بالاشارة الى كتابه سعدون البطل الشهيد ورايت ان هناك مراحل في حياة هذا البطل اهملها ولم يستطع ان يعطيها حقه من البحث ، ولكنه لم يلتفت الى ما كتبته عن الاشادة به ومطالبتي ان يعترف المجتمع الليبي بجدارته ككاتب الشعب وصاحب السهم الاكبر في اظهار تاريخه والتنقيب عن تراثه، والتفت فقط الى الجزء الاخير من المقال الذي راى انني ظلمته لانه تناول حياة بطل واجهد نفسه في البحث والتنقيب ، لان يرتاد ارضا مجهولة فلم يكن هناك مركز للدراسات التاريخية مثلا وكان عليه هو بنفسه ان يذهب لمن بقي على قيد الحياة من رفاق سعدون ويلتقط من عدد كبير منهم ما رسخ في الذاكرة عنه، وكان له الحق فيما قال ، وكان لي الحق فيما قلت ، فالقاريء يريد عندما يقرا ترجمة لشخصية تاريخية، ان يقرأ شيئا مكتملا دون اعتبار لما كان يواجه الباحث من صعوبات ، ولكن تلك كانت ظروف بلاد تعيش اولى مراحل التدوين التي عرفها العالم ربما من قرون كثيرة مضت.

برغم انه تخرج من اصول الدين في الازهر ، لكنه لم يتربى تربيةاكاديمية صارمة متزمته، وعرف مبكرا كيف يتحرر من شخصية الشيخ ، فقد جاء الى طرابلس بالعمة والجلباب وسرعان ما تركهما وارتدى البذلة والطربوش ، ثم ترك الطربوش لينتظم في سلك الحداثة، في الملابس ، والطرح السياسي ، والمدارس الادبية، الا انه لم يستطع ان يتخلص نهائيا من تقاليد رواق المغاربة، ودراسات الفقيه في حلقات الدرس تحت الاعمدة القائمة على العنعنات، ولو انه استخدم ذلك في حقول غير حقل الفقيه والدين، مثل كتاباته التاريخية ودراساته الحقلية عن الفنون الشعبية التي كان يعتمد فيها على الرواية الشفهية لغياب الوثيقة ، كما ان نموه في اطار حراك سياسي وطني ، قائم على الخطابة، والدعوة واستثارة الحماس ، ترك اثرا في كتاباته سواء البحثية او انتاجه الادبي الابداعي، حيث يظهر في المجالين عدم التزام بالمتعارف عليه من مساطر وقواعد وشروط، يكثر من الخروج عليها ، وعدم الصبر على ضبط حركته وحركة قلمه وفق ما تريده من خطوط وما تفرضه من طرائق ونهوج، مما لا يرضي اهل المقاييس والمنهجية الاكاديمية الذين ينتقدون ما يكتبه من دراسات من هذا الجانب، كما لايرضي انتاجه الابداعي اهل الالتزام بالشروط والمقاييس ، ولا يستطيعون اخضاعها لمساطرهم ذات الاحجاب المختلفة طولا وعرضا ، ولكن لا احد يستطيع ان ينكر عليه، عينه اللاقطة لادق تفاصيل الحياة الشعبية

الليبية ، وبراعته في تصوير النماذج الموحية التي تنتمي الى قاع المجتمع واكثر الفئات تعبيرا عن روح الشعب الليبي ، كما لا ينكر عليه احد ريادته في كثير من مناطق البحث الادبي والتاريخ ومجالات الفلكلور والادب الشعبي ، وانه اول من فتح الطريق امام غيره من الباحثين في هذا المجال، ولذلك فانه ظلم شديد ان ينظر الى اعمال هذا الرائد الكبير من زاوية التزامه في كتاب من كتبه بمساطر النقاد او عدم التزامه بها، واسوق هنا مثلا على فداحة الظلم الذي قد يلحق به بسبب هذه النظرة، وخلاصته ان صديقنا الاديب الراحل علي فهمي خشيم ، كان شديد التقدير والتوقير لجهود الشيخ المصراتي ، ويعتبره استاذا له، ولهذا فقد حرص منذ التحاقه بمجمع اللغة العربية في مصر، ان يسعى لقبول على مصطفى المصراتي عضوا بالمجلس ، الذي يعتبر عمدة مجالس اللغة في العالم العربي، تمشيا مع تقليد قديم يقضي بان يحل عضو جديد من ذات المنطقة مكان عضو تنتهي عضويته بالوفاة، وكان الدكتور خشيم قد وصل الى هذه العضوية من باب انه رئيس مجمع في ليبيا، ولم ياخذ مكانا شاغرا تركه على الفقيه حسن بوفاته وكان عضوا مراسلا بالمجلس، فكان ممكنا ترشيح عضو من ليبيا مكانه، وصائبا اختار المرحوم خشيم الاستاذ المصراتي ليكون هذا الشخص، وعمل على ترشيحه وقدم كل ما اصدره هذا المرشح من كتب كما تقضى الشروط، وشكل المجلس لجنة لدراستها، وراتها هذه اللجنة لا تكفي لتاهيله لذلك، ولكن الدكتور خشيم كان يسعى لتجديد الترشيح مع كل كتاب جديد يصدر للاستاذ المصراتي ، لكن النتيجة بقيت هي نفس النتيجة وحتى وفاته لم يستطع تحقيق هذه الامنية لصاحبه، والظلم ياتي من ان كثيرا من اعضاء المجلس، لا مؤلفات لهم على الاطلاق ، ربما بحثا لغويا في مجلة او غيره، واقول ان لا ينقص شيئا من قيمة الرجل ولا يضيره ابدا، فهو لا يختزل فيما قدمه من بحوث لغوية او غيرها، بل هو اكبر حتى من مجرد كاتب او مبدع، لانه دور ، ودور في عدة مجالات، دور نضالي من اجل الاستقلال ، ودور في المعارضة من اجل اجلاء القواعد العسكرية الاجنبية ، ودور في الحقل القومي لايمانه بالرابطة العربية، ومحاضر مجلس الامة الاتحادي تصلح سجلا لنضاله في هذا المجال، ودور في التاسيس لثقافة ليبية من خلال حفرياته الرائدة في التاريخ والتراث ، ودور في الابداع الادبي والانتاج القصصي الذي تحول لوثائق اجتماعية لعادات الليبيين وتاريخ عواطفهم وانفعلاتهم عبر حقب زمنية مختلفة.

على المستوى الشخصي، فقد كنت اعتبره رفيقا لا يضاهى في جمال رفقته، سافرت مع الى عدد من الدول العربية مثل العراق وسوريا وتونس ولبنان المغرب، كما تكررت لقاءاتي معه في لندن مرات كثيرة جدا، اثناء اقامتي الطويلة في لندن ، واستضفته ذات مرة ، للاقامة معي عدة اسابيع في ادنبره، وكنت قد اقمت بها لاستكمال شهادة الدكتوراه، وكان الوقت شتاء وتصادف انه كان من اكثر المواسم هطولا للثلوج، وخشيت ان يفسد الثلج زيارته الى هذا الجزء من العالم، الا انه كان شديد الفرح والنشاط وهو يلتقي بهذه البيئة الغريبة على نسق الحياة كما نعرفه في بلادنا العربية، بل وحدث ان حاصرنا الثلج في احدى نزهاتنا خارج مدينة ادنبره، عاصمة الشمال، فلم اره يبدي انزعاجا او خوفا، واستقبل الامر بروح تحب المغامرة ولا تفقد معينها من الامل التفاؤل. وكنت سعيدا وانا اقدمه لبعض اهل النشاط الاكاديمي في قسم الدراسات الشرقية ، فيجدون فيه نبعا ثرا، غنيا ، عامرا بالخبرات والتجارب والمعارف الحية التي استقاها من خلال الخبرة الخاصة والمطالعة العميقة في التراث ، فكان فعلا محل تقديرهم العالي جدا، الذي يفوق تقديرهم لاساتذة من الشرق ، جاءوا يحملون درجاتهم العلمية العالية مثل بروفسور وغيره، ولا يملكون حيوية وحرارة الاستاذ المصراتي وتواضعه مع غزارة علمه، واذكر ممن

التقيناهم المشرف على رسالتي الراحل مايكل مكدونالد، والباحث الايراني الراحل احمد طاهري، وكل من الاستاذين صبري تبريزي استاذ كرسي الادب الايراني وكريس فرارد المتخصص في الادب التركي ، وهما صديقان ما زلت على اتصال بهما ولا القاهما الا ويذكران ما خرجا به من انطباع جميل عن هذا الرجل.

حب الشيخ المصراتي لرياضة المشي، جعلته ينفر من ركوب السيارة، ولم يتعلم قيادتها اطلاقا، وعندما اقتنى سيارة لاول مرة ، كان يستعين بي واصدقاء مثلي لاستخدامها، والتحرك به اثناء لقاءت مسائية ، قبل ان يكبر الابناء ويتولون هذه المهمة. ومن طرائفه الشهيرة، ان صديقا له ، راه يمشى على رصيف احد الشوارع، اثناء مروره بسيارته، فوقف بجواره يعرض عليه ان يركب ليوصله الى مبتغاه، فاعتذر السيد المصراتي عن الركوب قائلا بانه لا يستطيع لانه على عجل. باعتبار انه يمشي بطريقة تفوق سرعة السيارة. وفي مرة كنت اتجه معه الى مطار القاهرة راكبين سيارة اجرة، لالتحاق بطائرة تعيدنا الى طرابلس، وكان السائق من اصحاب النكتة، دخل مع الاستاذ المصراتي فيما يسمى "قافية" وبلهجة مصرية ، عاد الرجل للحديث مثل اصحابها، بعد ابتعاده عنها عدة عقود، وكان التاكسي يسير ببطء، لوجود عطب في السيارة، وكنت احاول تنبيه رفيقي الى اننا يجب ان ناخذ سيارة اخرى لاننا لن نستطيع ان نصل في موعدنا مع هذا التاكسي ، لكنه كان منهمكا في مباراة التنكيت والتبكيت ولم ينصت الى ما اقول او يوافق على تغيير التاكسي ، وعندما وصلنا المطار ، كانت الطائرة قد اقفلت ابوابها واستعدت للرحيل ، تاركة ايانا نعاني من متاعب العودة الى القاهرة ، وتدبير مصاريف اقامة جديدة الى ان يحين وجود حجز في رحلة قادمة.

الحاج محمد الاسطى

كنت اراه فارى فيه تجسيدا حيا للشخصية الليبية ، فهو رجل احتوى خصال وخصائص الانسان في ليبيا، كأن مفردات البيئة المحلية الطرابلسية ، انعكست في هذه المرح والخطوط التي ترتسم فوق وجهه، فقد تميز بوجه عامر بالخطوط والتجاعيد التي تفيض محبة وصدقا وبهاء، تعطيك فور الالتقاء بها، والابتسامة على الشفاه، واشعاع الذكاء والقه في العينين، بانك امام والدك الذي قد لا تكون رايته الا تلك اللحظة، وثمة نكهة ، او عبير ، اولون ما محلي ليبيا ، يشع منه ، ويظهر تجليا له في جانب من جوانب شخصيته ، في كلماته الليبية الطرابلسية القحة التي يضعها في جمل كانها امثال سائرة الا انها بنت لحظتها، في مضمون هذه الكلمات ومحتواها العامر بمثل وقيم وتقاليد صارت بالنسبة له دستورا في الحياة، كان يرتدي البذلة الافرنجية، لكن لمسة ليبية في هذه البذلة ، تعيدها مباشرة الى سياقها الليبي، وتنزع عنها اجنبيتها او طابعها الافرنجي، وتلك هي الطاقية الحمراء التي يضعها دائما فوق رأسه، وللبذلة صديري ينسجم معها ، من لونها وقماشها، ويبدو هذا الصديري احيانا كانه الصديري الشعبي الليبي الذي نسميه الفرملة، ويظهر هنا دون تنافر او نشجاز في اللون او خامة القماش او غيره، فقط لمزيد من اضفاء الطابع الليبي على شخصيته.

الحاج محمد الاسطى ، كان في ذلك الوقت ، قد فرغ من عمله في المتحف ، مديرا لدار المحفوظات ومترجما للوثائق المكتوبة باللغة التركية، وبعد استراحة امتدت عدة اسابيع ، استعاده المتحف ، بعقد جديد ليكون مستشاره ، الا انه واصل نفس العمل ، وكان يكتب لجريدة طرابلس مقالات

دورية ، اسمها "ملاحظات الاسطى" ، تحتوي على تعليقاته على احداث المدينة ومشاهداته لما يدور في شوارعها واسواقها، وما ينتقده من تصرفات اهلها، ويتحدث حديثا فيه الفة وحميمية، لانه كان قريبا من الناس ، يفهمونه ويفهمهم ، ويجيد التحدث اليهم بلغتهم ومفرداتهم، ويستطيع ان يقدم لهم ملاحظات تعينهم في معرفة واستيعاب ما يدور حولهم، وقد تواصلت علاقتي بالحاج محمد الاسطى ، الى ابعد من المقهى، فكنت ازوره في دار المحفوظات ، لاطالع الدوريات القديمة، واراجع مقالا اوقصة من انتاجي او انتاج غيري لا اجد اصلا للصحيفة التي نشرت هذه المادة. وعن طريقه تعرفت على رجال من خبراء المتحف، ادهشتني ثقافتهم العالية ، المامهم بالتاريخ الليبي، على راسهم استاذ نابغة هو بهجت القره مانلي، ينتمي لعائلة القره مانلي الشهيرة ، ولا ادري ان كان قد نشر شيئا من مخزنه المعرفي عن التاريخ الليبي، واكتفى بصب هذه الثقافة في البطاقات التي تشرح للزائر ما يعمر به المتحف من وثائق وتحف ، الا انني لم ار له كتبا صدرت من تاليفه ، وعرفت انه شارك قبل رحيله بسنوات قليلة فيما يسمى مشروع المدينة القديمة ، مثله مثل صنوه في المعارف والعلوم والاستيعاب لتاريخ طرابلس الاستاذ فؤاد الكعبازي ، واتقد انهما شارك في وضع بعص الكراسات الخاصة بمدينة طرابلس والتقارير التي لاشك انها لازالت في وثائق هذا المشروع ، اذا كان قد تمت المحافظة عليها، ولم يتم استباحتها من قبل البارعين في السطو على المحلات الصالحة للسكن والاستعمال في هذه المدينة. كما التقيت لدى الحاج الاسطى برجل من رجال التربية والتعليم ، هو الاستاذ نور الدين الشلي ، وكان مهتما بكتابة بحث عن البحرية الليبية، وعاش الاستاذ الشلي الى مرحلة متقدمة من العمر، اي اكثر من خمسين عاما بعد لقائي به في المتحف، الا انني للاسف الشديد لم ار اثرا لنتائج بحثه في تاريخ البحرية ، وتوفى كما اعلم دون ان يكون له كتاب واحد ، رغم غزارة علمه وسعة تجاربه ، وما قضاه من سنوات باحثا في هذا المجال ، لان لقائي الاول به اعقبته لقاءات كان خلالها يتكلم بحماس عن مشروعه الذي يواصل العمل على انجازه، ولا استبعد ان يكون للرجل كاتبا في انتظار النشر في شركة نشر اغلقت او في مركز دراسات تتاريخية تتراكم فيه مخطوطات الكتاب دون ان تجد من يعتني بها.

واعود الى الاستاذ محمد الاسطى ، فقد سعيت اليه اثناء صدور الاسبوع الثقافي في مطلع السبعينيات، اطلب منه ان يشارك في الكتابة ، فاعتذر بانه يترك الثقافة لاهلها، لانه ليس واحدا منهم، واذا كان قد كتب ما يسميه "هتشيات" لصحيفة سياره مثل طرابلس الغرب ، فهو امر لا يرقى لكتابة مادة لصحيفة ثقافية، وكان يقول ذلك تواضعا، ولا شبهة فيه لاي افتعال ولا تصنع ، مؤمنا بالتعبير الذي يقول "رحم الله امرىء عرف قدر نفسه وجلس دونه،" الا انا الحاج الاسطى يبالغ في دونه هذه، فيجلس في اسفل درجة من السلم بينما هو قادر على الجلوس في اعلى درجاته ، وطبعا كانت ارد على قوله، بانه حقا ليس مثقفا، ولكنه استاذ المثقفين، ورائد الباحثين، ولا اريده الا ان يكتب شذرات من حياته العامرة بالاحداث، وستكون الصحيفة فخورة بان تنشر ما خطر على باله من فصول وتفاصيل حياته، فكان يواجه كلامي بسيل من الضحكات ، ينهيه بقوله" ماذا تريد ان تجد في حياة رجل مثلي مهنته النجارة" مضيفا بكلمات تختلط بضحكته المميزة " دلني على نجار واحد في العالم اجمع ، نشر مذكراته ، لاقتدي به، واعرف ماذا يستطيع ان يقول النجارون عن حياتهم" واقتضاني وقتا ، وتكرار المحاولة عدة مرات ، حتى اقنعته بانه ليس بحاجة لان يكتب اي شي، وانما فقط يجيب على اسئلة صحفي سابعته لتسجيل ما يرد به على سؤال واحد يتوجه به اليه ، ليكون الجواب هو مادة الحلقة التي سننشرها في كل عدد. وكان هناك صحفي

جاء من مصر من دار اخبار اليوم ، اسمه جمعة عبد الصبور، شديد التهذيب ، الا انه لا يملك خبرة في الصحافة الثقافية ، وكان صديقا منذ زمن الطفولة للكاتب الليبي المرحوم عبد الله القويري، الذي يبدو انه ساعده في الحصول على عقد للعمل بمؤسسة الصحافة، كما ساعد في تنسيبه للاسبوع الثقافي، ورغم انني وجدت الرجل عصيا على الاستخدام، في صحيفتنا، الا انني ابقيته فيها، اكراما لزميلنا القويري، وكان جمعة هذا، هو الذي كلفته بان يذهب الى الحاج الاسطى في مكتبه ، يحمل له سؤالا في كل مرة، ويستكمل الاجابة عليه في جلسة او جلستين كل اسبوع، واذا كانت الاجابة قصيرة لا تغطي مساحة الحلقة ارفدناه بسؤال اخر، من الاسئلة التي تتوالد اثناء الحديث ، واذكر ان اول سؤال كتبته للمحرر عبد الصبور لكي ينقله الى الحاج الاسطى في اول لقاء، كان يستند على حقيقة انه مولود في العامالاول من القرن العشرين، وان عمره كان احدى عشرة عاما ، عند وصول الاسطول الايطالي الى شواطيء طرابلس غازيا، وهو اين كان لحظة ان وصلت بواخر الغزو، وماذا فعل وشاهد، وماهو الانطباع الذي استقر في ذهنه عن تلك اللحظة؟ وفعلا جاءت اجابته على السؤال باسهاب وتفصيل وتحمل مادة مثيرة للقاريء يقولها شاهد عيان للغزو، فقد اجاب بانه كان يلعب مع عدد من اترابه الاطفال فوق كتبان من الرمال قريبا من ساحة الخبزة، وشرح ان ساحة الخبزة هذه ليست الا ميدان الشهداء الان ، حيث كانت الساحة تقع مباشرة امام بوابة السور الذي يؤدي للمدينة القديمة ، وتحدث عما اثاره وصول البواخر من رعب ، وما حصل بعد ذلك من حرب ، وكيف كانت ردود الفعل لدى اسرته وجيران الاسرة ، التي كانت قد انتقلت من المدينة القديمة الى منطقة الظهرة، وهكذا بدا في سرد مذكراته التي توالى نشرها تباعا في كل عدد من اعداد الاسبوع الثقافي ، وصارت فيما بعد كتابا هو مذكرات محمد الاسطى ، اوراق مطوية من التاريخ الليبي، وكان واحدا من اجمل كتب المذكرات واكثرها اتصالا بالتاريخ الليبي الحديث الذي يعطى فكرة عن ملحمة من الكدح والكفاح عاشتها اسرة ليبية هي اسرة الحاج الاسطى التي هاجرت الى تركيا ثم سوريا والتي فقدت اكثر من شهيد كان احدهم شقيقه الذي قضى اثناء الايام الاولى للغزو الايطالي . وغير هذا الكتاب فقد اصدر كتبا كثيرة كانت اغلبها ترجمة عن التركية او كتب تحقيق في التراث الليبي مثل سلسة كتب يوميات الفقيه حسن التي تولى تحقيقها وواعدادها للنشر بمشاركة تلميذه الاستاذ عمار جحيدر.

جغدوم

من اين تأتي اسماء البشر، لا احد يستطيع ان يجزم ، بكيف بدأت تسمية الاسماء، واعطاء الانسان لقبا وكنية ، طبعا هناك اسماء كثيرة جاءت من مهنة يمتهنها صاحب الكنية واللقب، الحطاب والنجار والفران والنساج والصياد والخزاف والحداد والفحام والدباغ وغيرها، وهناك اسماء يتبرك بها الناس جاء ذكرها في نص ديني، او تسمى بها نبي او واحد من اهله او صحبه، واخرى جاءت من اثر ادبي او نص فولكلوري او من صاحب جاه وسلطان، ولدينا اسماء تقتبس مناصب اولئك الحكام فنسمي فلانا امير وفلانه اميرة، او سلطانا او سلطانة ، الا ان هناك اسماء لا نعرف لها معنى ولا نجد لها تفسيرا ولا نستطيع ان نضع ايدينا على مصدر جاءت منه، والعم جغدوم، وهذا هو لقبه الذي اشتهر به، فله اسم ينتمي لاسماء التراث هو علي، الا ان من الصعب ان نجد لهذا اللقب معنى او اصلا، بل انه حتى لا نراه يتكرر في البيئة التي نشأ فيها وجاء منها، فهو فيلسوف شعبي من الزنتان، تعرفت عليه شخصيا في سنوات طفولتي، عندما كان يقيم في بلدة مزدة التي انتمي اليها، مع اخيه صاحب دكان الخياطة، الذي تربطه بعائلتي علاقة مصاهرة، وكنت اسمع الرجال يتندرون على العم علي جغدوم، قائلين بان الوصفة

التي يقدمها لكل من يسمعه يشكو تعبا او نزلة برد، هي اللاقبي واللوز الاخضر، وطبعا كان اللاقبي الذي يقصده، ليس اللاقبي الحلو ، فهذا يجب ان يترك للاطفال ، اما لاقبي الصحة والعافية والمزاج الراقي ، فهو النوع الاخر الذي يهاجمه خطيب الجمعة ، بقوله ان الله احل اللاقبي الحلو، وحرمه عندما يصبح حامضا يذهب العقل، فجاءه الرد من رجل يحب هذا النوع الاخر ، لعله

العم علي نفسه ، قائلا له " انني اجده كله حلوا في ريقي يا سيدنا الشيخ"، فهو صاحب مزاج ، ولعل خصومته مع نظام الانقلاب العسكري، بدأت منذ ان اغلق الحانات وحرم بيع اللاقبي الحامض، ثم ترك عمنا على جغدوم مزدة، ليصبح صاحب حانوت بقالة في بلدته الزنتان في قلب الجبل الغربي، ومنها طارت شهرته لتعم سائر البلاد باعتباره فيلسوفا شعبيا ساخرا، وصاحب اسلوب في اجتراح نوع من الكوميديا السوداء نابع من عمق البيئة الشعبية ومعاناة الناس، وقد حضر عهد الطاغية القذافي، وجعل هذا العهد موضوعا لتعليقاته الساخرة، ورغم مناخ القهر والكبت وعقوبات السجن بل الاعدام التي تلاحق منتقدي النظام ورئيسه، الا انه كان قادرا على ان ينفذ من الشباك والشراك التي يقيمها النظام لمنتقديه ، ربما بروح الدعابة والسخرية التي تأتى لإنقاذه في اللحظة الحرجة وتنجيه من العقاب الذي ينتظره، وهي قصص ساخرة يطلقها ، ولا يجرؤ على الاقتراب منها واعادتها الا اكثر الناس جرأة وشجاعة ، وهؤلاء يتناقلونها في تكتم وسرية خوف ان يطالهم العقاب لمجرد ان اعادوها، وكمثال على براعته في التخلص من تبعات ما يقول، يتداول الناس دعابة تحكي كيف جاء الى دكانه زبون يبحث عن قفطان للنوم، فرد عليه العم جغدوم ساخرا، هنيئا لك يا صاحبي انك تجد النوم حتى تبحث له عن قفطان تشتريه، اما نحن فلا زلنا نبحث على النوم الذي نجد احدا يبيعه في السوق للأسف الشديد.

وطبعا يروج مثل هذا القول بين الناس باعتباره تعليقا قاسيا على ظروف الهم والغم والنكد التي يعيشها الناس في ظل النظام الى حد ان النوم صار يتعذر الحصول عليه، ويبدو ان تكليفا من وزارة الداخلية، جاء الى نقطة الشرطة في الزنتان للتحقق من مصدر هذه السخرية، التي تنسب الى الحاج على جغدوم، واستجلاء حقيقة ما حصل، فتم استدعاء العم جغدوم الى النقطة، يفتحون له محضرا ، عما لا يعجبه في الحياة، واطار النوم من عينه ويعيش حياته مسهدا، بعد ان اكدوا له ان لديهم الشهود الذين يؤكدون انه مصدر القول الذي يقول انه يبحث عن النوم فلا يجده، فاعترف بانه فعلا قائل هذا القول وانه يعيش مسهدا مؤرقا لا يجد النوم الذي يبحث له الناس عن القفاطين والجلاليب والبيجامات، وطبعا ظن كتبة التحقيق ان الرجل وقع في الفخ ، وباعتبار ان الاعتراف سيد الادلة فقد حصل المطلوب دون جهد ولا عناء، الا ان العم جغدوم بذكائه الفطري ، جعل السحر ينقلب على الساحر، وهب يؤنبهم ويعاتبهم ويلومهم ويتهمهم بنقص الشهامة والمروءة والمسئولية، ان كانوا هم ايضا لا يعيشون مسهدين قلقين حائرين ، فأخذهم العجب والاندهاش يتساءلون عن السبب الذي يجب ان يقلقهم ويؤرقهم، فزأر زئيرا عظيما قائلا لهم احقا تنامون هانئين في مهاجعكم والقدس الشريف يداس بنعال المحتلين، هل حقا انتهت النخوة وانتهت الكرامة وانتهى الايمان والاسلام من قلوب اهله، وطبعا كان يقول هذا الكلام وهو يعرف ان خطابات الطاغية تمتلئ بشعارات التحرير والنضال والفداء من اجل بيت المقدس ومن اجل فلسطين الجريحة، واعلامه يزخر بكلمات التعزير والتأنيب لامة عربية سادرة في نومها، متناسية ان جزءا من ارضها المقدسة تحت الاحتلال، وان قطار الموت الصهيوني يزحف للقضاء عليها.

ولم يجد اهل نقطة الشرطة شيئا فيما قاله يوجب العقاب او الملاحقة بحجة العيب في الذات الثورية، وحضر عمنا جغدوم معرضا مدرسيا ، تعرض فيه صحون الخزف وصحون الفضة التي نقشت فوقها صور الطاغية، فجاء تعليقه الساخر ، يعبر عما في طوية نفسه قائلا

" ما شاء الله ، ما شاء الله ، صرتم تضعونه في الصحون والقصاع، لم يبق بعد الان الا ان نرى رجلا ارتوى من حليب امه ، يضعه لنا في شيشة"

والشيشة في اللهجة الليبية هي الزجاجة، ويعني بها هنا القمقم الذي يحبس فيه النبي سليمان المردة والعفاريت . فهو يحن لقوة تأتي وترد على الناس بلاء هذا الكائن الشيطاني الابليسي.

ولن استطيع هنا رصد كل ما سمعته من الدعابات السياسية الناقدة البارعة في التقاط اللحظات الموحية وتلخيصها في جملة ذات عمق ودلالة، لان بعضها سقط من الذاكرة ويحتاج استحضاره الى عملية بحث واستقصاء، يجب ان نرى من شباب بلدة الزنتان نفسها من يتصدى لمهمة جمعها كجزء من السجل الذهبي للأدب الشعبي في نضاله ضد الطغيان، وسأكتفي هنا بإيراد دعابة اخيرة ربما هي اكثر دعاباته عمقا وقوة في التعبير عن هول المأساة التي كان يعيشها كمواطن يكره القمع والمذلة ، فقد كان دائم الانين والشكوى من هذا النظام، وفي يوم كان متكئا تحت ظل حائط في يوم قائظ، وبجواره بعض الناس، عندما مر عليه رجل من معارفه اطلق عليه السلام ذاكرا اسمه تحديدا قائلا " مساء الخير يا عمي علي"، فلم يرد عليه ، ورفع راسه يخاطب احد الجالسين بجواره قائلا

ـ هل سمعتم ما قاله هذا الغافل الذي مر من هنا، ان المسكين يطلق علي السلام ، يظنني ما زلت حيا .

ولا اعتقد ان العم جغدوم، وهو رجل امي لا يقرأ ولا يكتب، على علم بقصة احد القياصر الرومان، تتناقلها كتب الحكمة والتاريخ، تقول ان حارسا من العاملين في قصره، يعاني نوبة مرض، جاءه يطلب اعفاءه من مهمة الحراسة على اسوار القصر، في هذا الطقس البارد، لأنه يحس بانه سيموت اذا واصل العمل، فنظر القيصر الى ارتجافه جسمه وشحوب وجهه، وجحوظ عينيه ، وقال له : وهل تظن حقا يا بني ، انك ما زلت حيا؟

لكن التاريخ تناقل قول قيصر الروم، ولعله ذلك القيصر الحكيم ماركوس اوروليوس، الذي قال هذه القولة منذ اكثر من الفي عام، ولم يعبأ بنقل مقولة فيلسوف الزنتان، التي اراها اكثر قوة وبلاغة ، واكثر عمقا في توصيف المعاناة التي كان يعانيها مواطن ليبي تحت اكثر الانظمة السياسية شراسة وقمعا وقبحا

الشيخ صالح

لا اعرف له اسما الا الشيخ صالح، ياتي الى جلسة قهوة عبد الله، فيكتفي بتحية الاستاذ ثم يستاذن عائدا الى طاولة اخرى يقرا صحيفة او يجلس الى صديق، ويقدم تلك التحية لانه في مرحلة من مراحل دراسته

الازهرية ، زامل الاستاذ المصراتي في الازهر الشريف، فهو ينتمي الى نفس المرحلة العمرية ، ولكنه لم يكمل دراسته الازهرية ، وعاد الى بلاده بلا شهادة، تؤمن له موقعا متميزا في عالم الوظيفة، وانتفاعه بالاعوام القليلة التي قضاها في الازهر، تتمثل وصوله الى مرتبة امام في مسجد من مساجد الضواحي، ياخذ مرتبه من الاوقاف ، ويقضي بقية وقته متسكعا في شوارع المدينة، وعرفت ان يوم العمل الاساسي بالنسبة له هو يوم الجمعة ، التي يؤم فيها الناس للصلاة ويلقي فيها خطبة الجمعة ، ويبدو ان هناك من اهل تلك الضاحية من يقوم يتكفل بمهمة الامامة بالمصلين، لانها لا تحتاج لاية مهارات غير الطهارة والتقوى.

ولهذا السبب فان جلوسه في قهوة عبد الله لم يقتصر على حضور الجلسة الادبية التي لا تكتمل الا بوجود الشيخ المصراتي، والتي عادة ما يغادرها الى طاولته المستقلة، وانما اجده دائما في المقهى ، في الصباح والمساء، واجد منه ترحيبا ، فاجلس اليه واكتشف انه متابع لكل ما اكتبه في الصحف ، مما جعله انس اليه واستفيد من ملاحظات واراء يقولها لي، تصحيحا لفكرة او معلومة، واحيانا ارشادا لمعالجة لغوية، اوخطا لم ينتبه له مصحح الجريدة ، ويقول لي هناك من الشباب من ابناء مرحلتي العمرية، من يظنون ان النحو العربي جبل لا يستطيعون الاقتراب منه، مع ان قواعد النحو سهلة وبسيطة، ثم يقوم بتقديم فدلكة صغيرة عن اهم ما يتسبب في اخطاء ظاهرة، ويتحدث عن الفاعل والمفعول به، وظرف الزمان والمكان وكان واخواتها وان واخواتها وحروف الجر، ليقول في جلسة واحدة ان هذا هو الاساس ، ثم ياتي في جلسة ثانية ليقول ما تبقى عن الضمائر والجملة الاسمية والجملة الفعلية والمبتدا والخبر، وكان واضحا انه يريد ان يسرب معلومات كان يرى من خلال معرفته بي ، انني احتاج الى استكمالها، فيقولها بطريقة لا يبدى معها انها تعليم وتلقين وتوجيه ، وانما حديث عرضي جاء من خلال السياق، ولذلك اعتبرت ان الشيخ صالح هواحد اساتذتي في اللغة، كما انت التقي به خارج المقهى، متسكعا في شارع الوادي ، متمهلا امام عدد من المكتبات يتامل واجهاتها ، اوفي حديقة جنان النوار ، ولا يكاد يحدث نشاط ثقافي ، محاضرة او ندوة الا اجده سباقا لحضورها، متابعا لها ، ياتي قبل الجميع ولا يخرج الا بعد خروجهم. المشكلة هنا ان هناك اشاعة احاطت بالشيخ صالح، لا اعرف لها مصدرا ، ولا اجد لها سندا ، لا استطيع ان اجزم بصحتها، او ببطلانها، هي اشاعة ارتباطه بالاجهزة الامنية، وهي التي تكلفه بحضور المجالس وكتابة التقارير، والتصنت على ما يقوله اهل الحراك الثقافي ، ولا شك ان هذه المثابرة في متابعة الانشطة الثقافية ، هي التي اعطتها شيئا من المصداقية، فهي متابعة ، تصل الى حد الاحتراف، باعتبار المسالة ليست بحثا عن شغل فراغ وانما هو عمل يقوم به، بينما كنت اعزو هذا الاهتمام الى الاعوام التي قضاها الرجل في القاهرة التي تزخر بالمناشط الثقافية، فكان لابد ان يحن الى هذه الاجواء التي تفتقر اليها مدينة طرابلس ، وعندما يجد مثل هذا النشاط يهرع اليه مثلما يهرع الصادي في الصحراء الى غدير لاح له من بعيد. لم اسال عنه زميل دراسته الشيخ المصراتي ، ولكن لاحظت انه كان كلما اقترب الشيخ صالح من مجلسنا ادار الحديث بسرعة الى موضوع اخر، خاصة اذا كان الموضوع يلامس شيئا سياسيا او يحمل انتقادا للحكومة، او يركن الى الصمت فيصمت الجميع تشبها به حتى يستاذن الشيخ صالح في الانصراف فتعود الجلسة الى نشاطها ومتابعة الحديث الذي توقف، وهو ما ينبيء ان هذا الشك وصل ايضا لزميله القديم وانه يراعي الحذر معه ولا

يامن له، بل كثيرا ما امدى ضيقا من استمرار وجوده في الجلسة اذا خطر له ان يطيل الجلوس ، فكان الشيخ صالح يشعر بانه ضيف ثقيل ويبحث عن عذر لانصرافه.

رغم هذه الشائعة ، التي يؤكدها اهل الجلسة انفسهم، فان علاقتي الطيبة به استمرت كما هي ، اداوم على الجلوس معه، ولا اتحرج من الحديث دون تحفظ في اي شان من الشئون او في اي موضوع يفتحه، وهي علاقة دامت الى بواكير العهد الانقلابي، وكانت جلسة عبد الله قد استمرت لعامين اوثلاثة اعوام ي هخلال العهد الجديد، قبل ان يجور عليها الزمان ويلحقها الزوال. وقد انتشرت اشاعة تتصل بالشيخ صالح تقول ، ان السلطات الانقلابية قد قبضت عليه واودعته السجن، بسبب دوره في ملاحقة المعارضين للنظام الملكي، وما تلقاه اهل الانقلاب من شكاوى الاحرار من اعداء الوجود العسكري والثائرين ضد القاعدة الامريكية وغيرها، ممن تضرروا بسبب التقارير التي رفعها الى جماعة الامن السياسي ضدهم، لكن الاشاعة ظلت مجرد اشاعة ، لا احد ينفيها ولا احد يؤكدها، وكثرت اسفاري الى الخارج ولم ار الشيخ صالح بعد ذلك ولم اعرف طريقا اهتدي به اليه.

سعيد عمر

احد اركان جلسة قهوةعبد الله، تونسي لجأ الى البلاد، ربما من اتباع صالح بن يوسف، واتخذ ليبيا مقرا له ، لم يغادره عائدا الى بلاده تونس اطلاقا، او لعل له اصلا في الجنوب الليبي المتاخم للحدود التونسية ، قام بتجديد الصلة به ، واكتسب ربما عن طريق هذا الاصل الجنسية الليبية، هذا ما لا استطيع تأكيده، المهم ان الرجل وجد لنفسه عملا كمساعد امين مكتبة في وزارة الصناعة، او هيئة تتبعها، كما اعرف ايضا انه جاء من تونس بمفرده ، وبقي وحيدا ، لا اهل له في طرابلس ولا اقارب ولا اصدقاء خارج دائرة المجموعة التي تضمها جلسة المقهى، عميق الوفاء والولاء لفكرة القومية العربية، لا يطيق كلمة نقد في بطله القومي جمال عبد الناصر، او في احد من رموز عهده، ياتي لينقل لنا حصيلة ما سمعه من اذاعة صوت العرب التي يدمن سماعها ، ويتبنى فيما يشبه الحماس الديني القضايا التي تطرحها، ويسمع البرنامج الشهير لرئيس هذه الاذاعة السيد احمد سعيد، المسمي "اكاذيب تكشفها الحقائق" فيمتليء وجدانه بما يرد من افكار في هذا البرنامج، ويرى حقائق صوت العرب هي الحقائق التي لا تقبل الشك، وما يسيه البرنامج بالاكاذيب، هي الاكاذيب التي تروج لها شياطين الارض، والتي يجب ان يحاربها ويكشفها كل عربي صادق، واذا وجد احدا يقول ان العكس هو الصحيح، وان ما جاء على لسان صوت العرب من حقائق هي عينها الاكاذيب ، وما جاء على لسانه بانه اكاذيب، ليس الا حقائق اكيدة، هناك براهين تدل عليها ساقتها على سبيل المثال اذاعة لندن ، وطبعا لم يكن يجرؤ على مثل هذا النقد لاذاعة عبد الناصر الا زميل من مصر، لان من الصعب وجود ليبي في ذلك الوقت يخرج عن اطارالسيطرة الاعلامية لاذاعات وصحافة مصر، فان هذا المصري الصديق، وليكن صحفيا ومعلم مدرسة، مثل صديقنا محمد محمد قاسم، لم يكن يسمع من السيد سعيد عمر الا سيلا من الشتائم لاذاعة لندن ، ولمن يماليء المستعمرين الذين انشأوها لتزييف الوعي العربي ولتسميم العقول والقلوب والزيغ بها عن سماع صوت الحق القادم من قيادة مصر. ولعل هناك من اعضاء الجلسة من كان ينفر من هذه الحدة في كلامه، وهذا الايمان الساذج بكل ما تقوله اذاعة مهمتها الدعاية والترويج لنظام سياسي يسوم مواطنيه العذاب كما كان يعتقد بعض المصريين من اعضاء الجلسة، ولكنني شخصيا ، كنت انظر اليه نظرة كاتب قصصي،

يجد فيه نموذجا لمن آمن بفكرة وتماهي معها وتوحد توحدا لا فكاك منه بها ، ولا يستطيع الا ان يعيش منافحا ومدافعا عنها ، مناصرا لها ، ومهاجما لمن كان ضدها ظالما او مظلوما.

كنت كما قلت اعرف انه يعيش حياة وحدة وعزوبية، وعدا رفاقه في العمل اوفي جلسة المقهى، فلم يكن له احد ياتي على ذكره، ولم اسمعه يتحدث عن شأن من شئونه الخاصة ولا يشكو مما نشكو منه من ازمات نشتم بسببها ادارة حكومية مثل الكهرباء او الاسكان او السلع او الضرائب لاننا راينا منها تقصيرا وصل بتاثيره الى جانب من حياتنا، كما لم اسمع منه نأمة او همسة عن اهل تركهم خلفه في تونس كما لا ذكر ايضا في حديثه عن تاريخه الشخصي في النضال التونسي ، لا شيء يملأ اروقة الوعي وتلافيف المخ الا المشروع الناصري ، كانه يأس اصابه من الشان التونسي وكذلك من شان الوطن الذي انتقل اليه ليبيا، وربما من كل هذه المناطق المغربية ، وما نسميه في جلستنا بارياف العالم العربي ، واستحوذ على اهتمامه مركز العصب في الجسد العربي متمثلا في المشرق العربي ، وفي القاهرة بالذات التي بدت كانها الحسناء الساحرة التي وقع في شباكها ولا يستطيع فكاكا من حبائلها، مفتونا افتتانا خاصا بكل ما ياتي من مصر، ومن خطابات زعيمها، وتعليقات مذيعيها، وعلى راسهم مذيع صوت العرب، الذي احتل مساحة كبيرة في قلبه ، ويسرف في اقتباس كلماته، ويؤمن بما يقوله ايمان المريد بشيخه او الحواري بالسيد المسيح.

وجاءت عام 67 الضربة الساحقة الماحقة، التي تقوض بعدها جبل الاحلام والاوهام ، الذي شيده عبد الناصر، وصدم اتباع الفكرة الناصرية، تلك الصدمة التاريخية، التي زلزلت الارض تحت اقدام الجميع، واهتز ايمان الملتحقين بالمشروع القومي الوحدوي الذي كان يقوده ، جعلت بعض القوميين العرب كما حدث في بيروت يتحولون الى اتجاهات اخرى مثل الاتجاه الماركسي مثلا، وعاد الوعي الى بعضهم فابدو انكارا لما يمثله عبد الناصر ، على عهدة كتاب توفيق الحكيم عودة الوعي، وانطلق الصراخ من كل مكان ممن اعتبروا انفسهم ضحايا لعبة الخداع التي قادها الاعلام المصري ، وخطب الزعيم التي كانت تتحدث عن ابنية من الكرتون وديكور من الوهم والضلال، سقطت في اول مواجهة حقيقية مع العدو، وكنا جميعا نحمل حرقة ما حدث، ونتالم لوقع الصدمة في نفوسنا، وكانت قد تباعدت اللقاءات التي تجمعني بالسيد سعيد عمر، وكنت اظنه سيكون اكثرنا حساسا بالصدمة، وغضبا من حجم الخداع الذي وقع فيه ربما بمقدار وبصورة اكثر قوة وجسامة منا جميع، واكتشفت عندما التقيت به ان النكسة لم تؤثر قيد انملة في افكاره ولا في ايمانه بزعيمه البطل، ولا يرى ما حدث الا باعتباره مؤامرة صهيونية استعمارية لوأد الحلم العربي ، ومحاولة تحطيم الرمز الذي تجسدت فيه ارادة العرب وتوحدت حوله مشاعرهم وكان على وشك ان يقودهم لبناء صرح المجد والقوة والدولة العربية الواحدة، ولكن الاعداء كانوا اعظم قوة واكثر عددا ومددا ، فكان لابد من خلق تحالف قوي شرير لضرب هذا المارد قبل ان يستيقظ، وكان يومن بان ماحدث لم يكن الا معركة في حرب ، لا يخامره اي شك في ان الانتصار الاخير فيها لهذه الامة . وواصل علاقته بصوت العرب واحاديثه وزاد اكباره لاحمد سعيد ورفاقه من رموز الاعلام الناصري، واذكر في جلسة من هذه الجلسات المتباعدة التي حصلت بعد النكسة، انه اشار الى برهان اكيد من براهين المؤامرة، تمثلت كما قال في تلك العبارة التي وردت في خطاب عبد الناصر اعقاب النكسة عندما قال انتظرناهم من الشرق فجاءوا الينا من الغرب ، متسائلا في غضب وشراسة عن الغرب

الذي عناه عبد الناصر، ودقق النظر في عيون الحاضرين من خلال النظارة السوداء التي لا يتركها نهارا وليلا، متحديا الجميع ان يقولوا من هو هذا الغرب الذي عناه عبد الناصر. وطبعا تملك الخوف كل الحاضرين فكلنا نعرف الغرب الذي عناه، ولكن هل يجرؤ احد ان يقول في مقهى ينشر كراسيه على الرصيف ، ان ما عناه هو القواعد العسكرية الامريكية والبريطانية الرابضة فوق التراب الليبي، وارتفعت وتيرة الخوف وهو يقول بصوت اشبه بالصراخ ان هذا الغرب الذي جاء منه الهجوم ليس الا ليبيا، وهو تغيير خطير جدا في اسلوب تعامله مع الحالة الليبية، لانه كان دائما يتجنب الحديث عن ليبيا وسياستها باعتبارها دولة احتضنته عندما لجأ اليها هاربا من عسف النظام التونسي ، ولا يريد ان يتسبب لنفسه في مشاكل مع نظامها قد يرمي به الى اعدائه في البلد الذي جاء هاربا منه. الا ان محنة النكسة جعلته يتخلى عن كل تحفظاته ويرمي بنفسه الى التهلكه ، لقد هلك معبوده عبد الناصر نفسه فما اهمية ان يتبعه في هذا الهلاك؟ وغاب عن الجلسة بعد ذلك، مما اعطى فرصة لتكهنات تقول بان اتهامه للنظام الليبي بالتآمر ، وصل الى اعوان الامن ، ولعله يقبع في احدى الزنازين، الا ان تحريات اعضاء الجلسة، عادت تقول بانها تكهنات غير صحيحة، وظهر بعد ذلك بخير وصحة وعافية، وتبدد فيما بعد اهل تلك الجلسة ولم تبق الا علاقتي المستمرة مع الاستاذ المصراتي ورايت الاستاذ سعيد عمر في مرات قليلة متباعدة، وتابعت دفاعه احيانا في الصحف على دعاة الهزيمة، ورده على الحملات التي تساق احيانا ضد بعض اعوان عبد الناصر، فقد استدعت حكومة الانقلاب بعض عناصر ذلك الاعلام وبينهم السيد احمد سعيد فهاجمته احدى الصحف ، ورات فيه رمزا لاعلام النكسة ، فانبرى الاستاذ سعيد عمر يدافع في رسالة الى الصحيفة عن ذلك المذيع الذي راه رمزا من رموز النضال القومي وراية مرفوعة خفاقة في افق الوطن الذي كان وطنا واحدا ويجب ان يعود كذلك قريبا باذن الله. وفي مرة اخرى، وبعد سنوات كثيرة من هذه الاحداث، رايته في معرض طرابلس التجاري، محاطا بعدد كبير من الاولاد والبنات ، فسعدت بلقائه، ورايت في هذا الاسراف في الانجاب تعويضا عن حياته السابقة التي عاشها مقطوع الصلة بالاهل والعشيرة. ومازلت اسمع انه بخير ويعيش حياة هانئة وشيخوخة مريحة في كنف الاولاد.

نجم الدين الكيب

علاقتي بالكاتب والناقد بنجم الدين الكيب بدأت قبل الالتقاء به في مقهى عبد الله، فقد كان يسبقني في الانتساب الى فرقة الامل للتمثيل، في مقرها بشارع الساعدية، صديقا لمؤسس الفرقة عبد الحميد المجراب، يشترك معه في هواية الكتابة، وانتسب معه الى الفرقة ، دو ان يكون ممارسا مثله للعمل المسرحي لا كتابة ولا اخراجا ولا تمثيلا ، ولكنه كان محبا لهذا الفن، يدعم الفرقة بالمشورة الفنية ، والمساهمة في الجنب الترويجي والدعائي لاعماله، وربما الاشتراك في تحرير نشة او صحيفة حائطية مثل صحيفة الامل التي كنا نصدرها داخل مقر الفرقة ونعلقها على الحائط لمطالعة الاعضاء. واظنه كان سابقا لي في الوصول ببعض كتاباته الى النشر في صحف الخمسينيات ، مثل زميلينا بشير الهاشمي وعبد الحميد المجراب، الا انه تبقى لبشير الهاشمي افضلية انه ارسخ قدما واكثر قدمية منهما، وربما تملكا لناصية النشر والوصول بكل ما يكتبه من مقالات وقصص قصيرة الى النشر بسهولة ويسر خاصة في جريدة الدولة الرسمية ، طرابلس الغرب. وكان نجم الدين عضوا كثير التواجد في جلسة قهوة عبد الله، يتحلق كغيره من اعضاء الجلسة حول صاحبها الاستاذ المصراتي، وكان يشترك معه في محبة اقتناء الكتب، الى حد ان صار الامر بالنسبة لهما نوعا من الفوبيا ، اوالهوس باقتناء الكتب، وبالتاكيد فان من

يراهما لا يسيران الا وفي يد الواحد منهما سلة مليئة بالكتب اشتراها من المكتبات ، يستغرب متى حقا يجدان الوقت لقراءة كل هذه الاكوام منها، وترتفع وتيرة الشراء الى معدلات فائقة في مواسم ، يحدث فيها معرض للكتاب، وهي معارض لم تكن موسمية ولم تكن تختص دائما بالكتاب فقط وانما تحدث على هامش ندوة او معرض تجاري او الاحتفال بعيد للعلم او افتتاح عام دراسي، وهي مهمة مستحيلة ان يقرا الواحد منهما كل ما يقتنيه من كتب ، لكن الجواب ياتي منهما ، او من احدهما، او ممن يتملكه هذا الهوس مثلهما، اعترافا بهذه الاستحالة ، في البداية ، ثم ياتي تبريريا بعد ذلك مثل القول ان الانسان لا ينفق نقودا اكتسبها بالجهد والمكابدة، دون هدف، فهذه الكتب التي لن يستطيع حقا مطالعتها جميعا، يحتاجها في مهنته ككاتب، فهو سيطالع بعضها كاملا، ويرى ان في بعضها معلومة ، سيقتصر الاستخدام والانتفاع على هذه المعلومة التي قد لا تزيد على بضعة اسطر من الكتاب كله، وهناك كتب اخرى ، لا يمكن للكاتب الا ان يقتنيها، لان ثمة دائما احتمال ان يحتاج للعودة اليها واستشارتها في موضوع ما مما يقع في دائرة اهتمامه الكتابي . وهذه التبريرات والذرائع ، تساق لتغطية نوع حقيقي من امراض الاقتناء التي تصيب الكتاب، حتى لو انتفى غرض الانتفاع بها نهائيا. وكان وجودهما معا في جلسة المقهى ، يقتضي ان يكون استلالها بالحديث عن الكتب، يتبادلان اخبارها وما وصل حديثا منها الى المكتبات المعروفة في طرابلس مثل مكتبة الفرجاني ، لصاحبها الاستاذ محمد بشير الفرجاني، ومكتبة النور لصاحبها السيد البهلول نشنوش، ومكتبة الفكر لصاحبها السيد صالح الشريف، ومكتبة النجاح المجودة في المدينة القديمة ، في سوق الترك بالذات، لصاحبها المربي الفاضل الاستاذ محمد بريون، عدا ما يكون قد وصل من كتب لاهم المراكز الثقافية التابعة لدول اخرى ، واهمها المركز الثقافي المصري الموجود بشارغ المغاربة. وقد انتجت هذه العلاقة المتميزة بين الاثنين كتابا في ادب الترجمة من تاليف نجم الدين الكيب عن على مصطفى المصراتي ولعله اول كتاب يتم تسطيره عن حياة شيخ ادباء ليبيا ، وهو الكتاب التي اعتمد عليه كل من تناول ادب وحياة هذا الكاتب فيما بعد.

وينتمي نجم الدين الكيب، الى اسرة من منطقة صبراته، واب مجاهد هاجر الى تونس هربا من حكم بالاعدام اصدرته ضده سلطات الاحتلال الايطالي في ليبيا، وفي ارض المهجر، كان مسقط راس نجم الدين عام 1934 ، وعادت الاسرة في منتصف الاربعينيات الى مدينة الاصل صبراته، ولم يكن نجم الدين قد اكمل تعليمه الجامعي، فالتحق منذ بواكير الشباب بوظيفة كتابية صغيرة في احدى الادارات الحكومية، وعاش في طرابلس ، يتلمس طريقه في وسطها الادبي، واشباع هواياتاه في القراءة والكتبة، وتعرف اثناء وجوده في تلك الوظيفة الصغيرة على الكاتب المصري الكبير محمد فريد ابو حديد، الذي يعتبره ابا روحيا له، وقد اخذني ذات يوم الى مجلس هذا الطود الشامخ لاتعرف عليه ، في جلسة كان يختارها في مقهى البريد ، الذي كان مقصدا لصفوة اهل الثقافة، وزال مع زوال العهد الملكي، وهناك صافحت الرجل الذي كنت قرات له جحا في جانبولاد وكتابيه عن عنترة وعن امريء القيس، وطبعا له كتب كثيرة اخرى لم يكن قد اسعفني عمرى وكنت في ذلك الوقت دون العشرين من عمري بمطالعتها ، وازددت له حبا وانا اقرا للرجل انطباعات جميلة عن طرابلس تضوع حبا وبهاء واكبارا للمدينة واهلها. وقد اتصل الاستاذ المصراتي ايضا بهذا القامة الادبية المصرية السامقة، وحصل منه على مقدمة لكتابه لمحات ادبية من ليبيا.

وكان نجم الدين الكيب اذا غادر مقهى عبد الله ، يذهب للاختلاء بكتبه واوراقه في مقهى يقع في شارع من الشوارع الفرعية التي تربط بين الاستقلال و24 ديسمبر، صغيرا انيقا تديره امراة ايطالية في منتصف العمر ذات مهابة وجمال، تحتفي به احتفاء خاصا عندما يصل المقهى كانه ابن غائب عاد اليها، وتعد له قدح الكوبيتشينو الذي يحبه، وكنت ارافقه احيانا لهذا المقهى، لاشرب قدحا مثله واتركه ليتفرغ لما يريد ان يطالعه او يكتبه، وعندما كنت اقصد المقهى في غيابه كنت اجد ترحيبا من السيدة الايطالية بمثل ما يجده نجم الدين. ووجدته انا ايضا مقهى مناسبا للقراءة والكتابة ، حتى اصبح الجلوس في المقهى لهذا الغرض احد العادات التي استمرت معي الى الان.

عندما تاسست مجلة ليبيا الحديثه في مطلع الستينيات ، انتقل من وظيفته الادارية، ليتفرغ للعمل الصحفي الذي قاده لان يصبح رئيس تحرير لمجلة الرواد ثم ناقدا وكاتبا متفرغا في الاسبوع الثقافي ثم رئيس تحرير للمجلة التي اصدرها اتحاد الادباء الفصول الاربعة ، وفي كل هذه المواقع كان يتجدد لقاءنا فكان التعاون بيني وبينه كاملا في اصدار كل هذه المطبوعات . وكان علاوة على ادارة لهذه الصحف كاتبا متابرا جادا اصدر كتبا في التاريخ الادبي ، وتاريخ المدن مثل صبراته ولبده، واخرى عن الرحالة الذين زاروا ليبيا، علاوة على مواكبته لنقد الشعر والقصة في ليبيا، وكان يتابع ما يصدر لي من كتب ويتناوله بالنقد النزيه الذي لا يظلم ولا يجامل ، كما ان ميوله الفنية لمشاهدة السينما والمسرح بقيت معه الى اخر حياته واصدر اكثر من كتاب يتناول هذه الفنون .

لاقي نجم الدين الكيب حتفه في العام 1988، في مشهد عنيف في بيته باحدى ضواحي طرابلس، عندما اعتدى عليه شاب كان ينادمه، داخل البيت، بسكين وصار يطعنه حتى الموت، ونشرت احدى صحف النظام، التابعة للداخلية، الخبر وابرزته مظهرة عقد الطاغية وتشفيه في الادباء وحقده عليهم ، باعتبار ان نجم الدين كان يتصدر المشهد كواحد من اهم من كتب النقد والدراسة الادبية، وتم الترويج لمثلية جنسية ادعوا انه يعاني منها، لم يظهر لها اي دليل في سلوكه ، وقد عرفته على مدى ثلاثة عقود ، فلم اسمعه يتلفظ بكلمة نابية ، ولم ار منه سلوكا منحرفا او خارجا عن اللياقة، كان دائما شديد التهذيب، حسن السلوك مع زملائه، خاصة وانه عمل عدة سنوات في الاسبوع الثقافي حيث كنا على تماس يومي، وسافرت معه لعديد المؤتمرات الادبية ، بعضها كان في القاهرة التي تربطه بادبائها وفنانيها علاقة ود وصداقة، وكان مغرم بمتابعة اخبار الفنانين القدامي ربما لارضاء حسه التاريخي والكتابة عن جوانب خفية لا يعرفها الا اهل الفن، وقد رافقته لبيت امراة متقدمة في السن ، تعيش في منطقة مصر الجديدة، وقدمها لي ، فاذا بها احدى مطربات الاربعينيات ، اشتهرت باغنية "البوسطجية اشتكوا من كثر جواباتي"، اسمها رجاء عبده ، ومرة اخرى الى مطرب عجوز كانت له شهرة في ازمنة ماضية اسمه عباس البليدي، وسمعنا من الاثنين لبعض الغناء القديم الذي كان يطرب له نجم الدين، ربما اكثر من غناء المتصدرين للمشهد الفني الراهن. رحم الله الناقد والمؤرخ الادبي ، الصديق نجم الدين الكيب ، واكرم متواه في دار الخلود والبقاء.

مواصلة لنشر بعض البورتريهات

لشخصيات ليبية عرفتها وضمنتها جزءا من مذكراتي، ياتي استاذنا الكبير وشاعر ليبيا المناضل احمد قنابة على راس هذه الشخصيات ، فهو لم يكن شاعرا فقط من الرواد الوطنيين ولكنه صاحب دور ريادي في تاسيس الحركة الفنية الغنائية والموسيقية والمسرحية رحمه الله وجزاه عن اهله وبلاده كل خير ولا شك سياتي يوم ينصف هوؤلاء العمالقة الافذاذ الذين لم تنصفهم الحكومات المتعاقبه مثله مثل استانا على الفقي حسن وشقيقه الشاعر احمد الفقي حسن وغير هؤلاء كثر وهذه هي الصورة القلمية او البورتريه الذي كتبته في المذكرات عن الرائد والشاعر والاستاذ والمناضل ورجل الزهد والتوصف، الشريف ، العفيف ، النظيف ، احمد قنابه ، رضي الله عنه.

الشاعر أحمد قنابه

عرفته في مرحلة مبكرة جدا من وجودي في طرابلس، عندما كنت لا ازال حديث عهد بالمدينة ، وبدات الدراسة في معهد هايتي ، بملامحه التي تفيض حنانا وابوة، ووجهه الاسمر الذي يشع بنور خفي، هو نور التصوف والزهد وجمال الروح، فقد كان موجودا بشكل يومي في مكتبة الاوقاف، مديرا او نائبا للمدير، يقوم بمباشرة التعامل مع زبائن المكتبة والتعاطي معهم، بينما كان مديرها العام السيد على الفقي حسن، موجودا في مكتب مغلق لا يلتقي الا من جاء قاصدا لقاءه. ولانني كنت اتردد على المكتبة لمطالعة الكتب والدوريات القديمة، فقد كنت اراه كلما ذهبت الى هناك، واسأله عن مطبوعة وكتاب، فيعينني عليه في ادب واريحية ، حتى توثقت العلاقة بيني وبينه وعرف انني من هواة الادب، ففتح لي قلبه ، وجئته ذات يوم منزعجا، لانني كنت اعرف ان الشيخ احمد الشارف ، شاعر الوطنية الليبية ، وصاحب القصيدة الشهيرة التي يقرأها التلاميذ في المدارس والتي تقول :

رضينا بحتف النفوس رضينا

ولم نرض ان يعرف الضيم فينا

باعتبارها مثالا للرفض المبدأي للاحتلال والاصرار على مقاومته حتى الموت ، فوجدت لهذا الشاعر ، في مجلة ليبيا المصورة ، قصيدة ترحيب بالزعيم الفاشي بينيتو موسيلني عند زيارته الى القطر الليبي عام 1937، اسأله كيف يستقيم هذا الاطراء والمديح لكبير المستعمرين الطليان، مع قصائد الوطنية، فابتسم في اشفاق، وسألني ان اجلس لان الموضوع يحتاج الى شيء من الشرح، وافهمني ان لاحمد الشارف تاريخ مشرف في الحركة الوطنية ، وله دور في الجهاد، وصاحب اسهام اساسي في تاسيس الجمهورية الطرابلسية ، علاوة على دوره في العلم وتخريج اجيال من المتعلمين على يديه ، ودور اخر في القضاء وارساء قواعد العدالة في ليبيا، ثم جاء الى القصيدة فقال، انها ليست قصيدة مديح، وانما هي عريضة استرحام، فقد جاء موسيليني في وقت انكسرت فيه شوكة الجهاد واستتب فيه الامر للمستعمرين الايطاليين، ولم يعد هناك مجال للصدام اوالصراع، وكان الناس يموتون جوعا، والمرض يضرب اطنابه في طول البلاد وعرضها، وكان العوز والفاقة هما مشكلة الناس الاولي، وكان اقصى ما نستطيع عمله،

في هذه الفترة، هو ان نسترحم الزعيم الفاشي ان يرأف بحال الناس ، وان ينظر في امكانية رفع الاذى عنهم، وتخفيف حالة البؤس، التي يعيشونها، وتوفير الحد الادنى من الغذاء والعلاج، باعتبار انه صار يتولى مسئوليتهم ، بعد ان حرمهم من ان يتولوا مسئولية انفسهم.

ثم سكت قليلا ، ومد يده الى مجلد المجلة يفتح عن احدى الصفحات ، وقال اثناء تفتيشه :

- افتخر بانني صاحب اكبر رصيد في قصائد المقاومة والرفض للاستعمار الايطالي وهي القصائد التي كنت انشرها في كل عدد من اعداد صحيفة اللواء الطرابلسي.

ثم توقف عند الصفحة التي يبحث عنها، مضيفا:

- ومع ذلك فلا تستغرب اذا قلت لك ، ان لي ايضا قصيدة في نفس الموضوع، وتصب في نفس الغرض ، وتتشه الى نفس الشخصي. الى الدوتشي كبير المستعمرين.

وتركني اقرا التي قالها ترحيبا بالزعيم الفاشي، عند زيارته لطرابلس ، واحضر مجلد كبير يضم اعداد صحيفة اللواء الطرابلسي التي صدرت ابان قيام الجمهورية الطرابلسة ، التي كان يصدرها الصحفي المجاهد عثمان القيزاني.

وصار يفتح صفحاتها لاجد في كل عدد من اعدادها التي تتجاوز الستين عددا، قصيدة هو ناظمها، وكان التوقيع دائما باسم مستعار مثل الفتي الثائر ، ليبي متحمس ، وابن ليبيا الحرة ، وغيره ذلك من اسماء تدعو الى تحفيز الناس للنضال ، وهي القصائد التي ضمها ديوانه مع ما استجد من شعره.

وكنت اعرف ان له موقفا معارضا من الفدرالية، وكان قد كتب قصيدة معارضة لها يقول فيها

شتت الله شملهم شتتونا

انهم ظالمون مستعمرون

اوهموا الناس اننا في شقاء

فاتوا ارضنا لكي يسعدونا

قاسمونا في ارضنا كل شيء

اولم يكف انهم افقرونا

خدعونا في زعمهم يوم قالوا

انهم من عدونا حررونا

كما انه لم يكن مرتاحا للنظام الملكي ، شأنه في ذلك شأن زميله في المكتبة، الاستاذ علي الفقي حسن، وكأن وجودهما في هذه المكتبة، وهما من اكبر واشهر مثقفي طرابلس، واكثرهم نشاطا وتحريكا للمشهد الثقافي قبيل الاستقلا، لم يكن الا تجميدا لهما ، وابعادا عن مركز الفعل والقرار، وان بقيا في مكان يضمن لهما مصدرا للرزق والامان، ولكن دون فعالية او مشاركة في الحراك السياسي والثقافي ، الذي استفرد

به اهل الولاء، وكنت احيانا اسأله بشيء من الرفق عن رأيه فيما يجري من احداث ، وتعليقه على ما وصلت اليه الاحوال في البلاد، فكانت اجابته التي لم يكن يتفوه بغيرها ، لي ولغيري ، وكنت اسمعها منه على الدوام ، وهي تعليقه الذي لا تعليق سواه على كل حدث يطال الحالة الراهنة في البلاد هو:

ـ وهل يتكلم من فيه ماء؟

ثم يصمت عن اي تعليق .

ولا تعادل هذه الجملة في كثرة ترديدها الا جملة اخرى يرد بها عمن يسأله عن الشعر الحديث وهي

ـ الشعر هو الكلام الموزون المقفي.

عدا ذلك فهو لا شعر، ولا امكانية لوجوده في سياق الشعر، كما يفهمه الاستاذ احمد قنابة. ولم يكن يتحرج اطلاقا من اعلان تأييده ومناصرته للمشروع الثوري القومي الذي يقوده الرئيس المصري جمال عبد الناصر ، وايمانه بالنهج الفكري السياسي الذي يعود بالدولة العربية الاسلامية الى بعث دورها القديم المجيد، وقد اعلن المركز الثقافي المصري ، عن امسية شعرية للشاعر الكبير احمد قنابة، ربما في موسمه لعام 1961، وغصت القاعة بجمهور الشعر، وكلهم يتطلعون الى ما سوف يقوله الشاعر الذي كان دائما صامتا صمت الجبال، فجاء في سمته الجميل الجليل ، وقدمه مدير المركز الاستاذ عبد المنعم ذياب، باعتباره شاعر النضال الوطني وشاعر التوجه العروبي، ونهض الشاعر ليلقي قصيدته تناصر وتؤيد وتكبر الجهود التي تسعى لاعادة اللحمة للامة وتسعى لبناء دولتها الواحدة، ودون خسية او مواربة او خوف من نظام يهيمن على البلاد ويوالي الغرب ويقابل بالتحفظ والبرود تطلعات الشباب للالتحام بالمشروع الناصري، اعلن بصراحة في قصيدته ارواح من الشرق ، انخراطه في هذا المشروع، ولم يكن احمد قنابه شاعرا شابا صغيرا يخشى على نفسه من الملاحقة ، فقد تجاوز هذه السن ، ويستطيع فرض احترامه وهيبته على كل الاجهزة المؤسسات ، واهل طرابلس وبالاخص النخب واهل الثقافة يعرفون انه بين كل رجالات ليبيا صاحب اكبر سهام في الحراك الثقافي الصحفي الفني ، ولا احد يستطيع ان ينافسه في سجله الحافل بالانجاز، فقد كان احد مؤسسي النادي الثقافي ابان الجمهورية الطرابلسية وصحيفتها اللواء الطرابلسي مع كل من على الفقي حسن وشقيقه احمد الفقي حسن وعثمان القيزاني، وعندما اتاح الايطاليون صوتا عربيا في اذاعتهم ، كان هو الذي تولى هذه الاذاعة ليعيد للغة العربية بعضا من حضورها وسط الاهمال الذي كانت تعانيه ، فكان مذيعا ومؤلفا للاهازيج والاغاني ، كما فتح بيته منذ الثلاثينيات لتاسيس الفرق المسرحية والتاليف لها واسرع كثيرا بوتيرة هذا النشاط في الاربعينيات راعيا للنشاط المسرحي كما اعاد تاسيس النادي الادبي وتولى رئاسته واعاد احياء اول صحيفة عربية صدرت في ليبيا عام 1866، باسم طرابلس الغرب ، واشرف على اصدارها بعد رحيل الايطاليين ، وهي التي استمرت لتكون صحيفة الدولة بعد الاستقلال، واسهم في تاسيس الحراك النقابي العمالي في الاربعينيات ايضا ، وكان مع زميله على الفقي حسن مناوئا للحكم الفدرالي وكان يريد ان يترك القرار للشعب في اختيار النظام الذي يريد بدل فرض الملكية وقال قصيدته التي عارضت الوضع الفدرالي للبلاد ، فكان الابعاد من نصيبه، بعد الاستقلال ، ورضى بان يراقب المشهد دون ضجيج، فهل بعد هذا

العطاء يجرؤ احد على ان يمنعه من يكون صاحب توجه عروبي قومي اسلامي ايضا، كما لم يكن غريبا ان يحظى بهذا الاقبال وهذا الحماس وهذا التصفيق الذي قابل به الجمهور كل بيت من تلك القصيدة

هبت من الشرق ارواح تناجينا روح الرسول وعيسى والنبيينا

هبت وفي الغرب احداث مروعة في حسمها حار قاضيهم ومفتنيا

روح العروبة في قدسية ابدا اكرم بها حين تبدو في تآخينا

ماذا يقول الذي في قلبه مرض هل هذه غير ارواح المحبينا

وثنى بقصيدة اخرى اسماهاتحية طرابلس لمصر

ألا زُمّوا المطيّةَ مُدلجينا تجاهَ الشرقِ غيرَ مُغَرِّبينا

تجاهَ الشرقِ منبعِ كلِّ فضلٍ ومعدنِ جوهرِ المتنوّرينا

حماةِ شريعةِ الإسلامِ قِدْماً هُداةِ جنودِه المتأخّرينا

بني مصرَ التي حيّتْ فأحيَتْ قلوباً للأخوّة حافظينا

فإنهمُ لأنفسنا ربيعٌ هبوبُ نسيمِه يشفي الحزينا

يُسلّم بالنسيم على قلوبٍ لمصرَ ونيلها مُتشوّفينا

قلوبٌ ملؤها جَلَدٌ ووَجْدٌ لديها تُظهر الحبَّ الكمينا

ثوى سوداءها من مصرَ حُبٌّ فألزمَها التأوّهَ والحنينا

فقضّتْ حسرةً عمرَ التنائي تُكابد لوعةَ المتحسِّرينا

فأبلغَها التحيّةَ خيرُ شهمٍ لقد ولدتْه مصرُ فتىً أمينا

وكان جمهور القاعة يقابل كل بيت بعاصفة من التصفيق الحماسي تحية للشاعر وتحية لتلك الروح الوطنية القومية في وقت كانت فيه الطليعة المستنيرة في ليبيا ، بل وعامة الجمهور ، في حالة افتتان وانبهار بدعاوى عبد الناصر وبنداءته لوحدة العروبة وبناء دولة العرب الواحدة ، وكانت اعلام الجمهورية العربية المتحدة التي صارت ترتفع فوق مؤسسات مصر بدلا العلم المصري القديم تلهب المشاعر وتتمنى يوم الالتحاق بهذا المشروع الذي سوف يتحقق به حلم الاجيال في الوحدة والقوة وعودة الامجاد التليدة.

توفى استاذنا الشاعر الكبير احمد قنابة في بيته في طرابلس عام 1968 عن سبعين عاما، وقد كان الله كريما معه ، عندما اختاره لينتقل الى جواره قبل حلول الاول من ايلول الاسود في العام التالي وانقلابه المشئوم. ولعله كان سيفرح في البداية بانهيار النظام الذي ابعده وتنكر لجهوده، لوكن ما اسفر عنه بعد ذلك من تسلط وقهر واجرام ، سيكون بالتاكيد متناقضا مع طبيعته الحرة الكريمة وما جبل عليه من اباء وكبرياء وعزة نفس . وقبل وفاته بايام قليلة جدا، كان لي لقاء معه ، وكان اللقاء حول مائدة الطعام التي اقامها الاستاذ على مصطفى المصراتي ، على شرف صديقه الكاتب المصري المعروف الذي كان في زيارة الى طرابلس في تلك الايام الدكتور مصطفى محمود، وحضر الشاعر السبعيني، محفوفا بتوقير واكبار تلاميذه وابنائه، ممن حضروا العشاء ولم يكن عددهم يزيد عن خمسة او ستة اشخاص ، وادهشني ان استاذنا احمد قنابه ، كما كان يقول، كان متابعا في الثلاثينيات حيث كان الانغلاق شبه كامل، لصحيفة مثل روز اليوسف ، لانه طبعا ينتمي لعائلة كبيرة من تجار طرابلس ، وكان هؤلاء الاهل الذين تربطهم تجارة ليس بالضرورة بمصر وانما بدول اخرى غيرها، يستطيعون تامين هذه المجلة له وتامين غيرها من صحافة مصر مثل مجلة الرسالة وابللو وغيرهما، وكان التركيز على روز اليوسف باعتبار ان الدكتور محمود كان في ذلك الوقت من ابرز كتابها ، وكان سعيدا جدا وهو يتعرف على رمز من رموز الثقافة العربية في ليبيا، وكيف كان على تواصل والتحام بالثقافة العربية في مصر ، خاصة وان الاستاذ قنابة ذكر ايضا انه في الثلاثينيات باعتباره عقد الانغلاق الكامل ، كان يسمع في المذياع احاديث طه حسين والعقاد في الاذاعة المصرية ، ممزقا بذلك الحصار الذي كان يفرضه المستعمر الايطالي عل اعين واذان الليبيين.

على رجب المدني

كنت اسمع باسم الرجل دون ان اعرفه او اتصل به في ذلك الوقت المبكر من وصولي الى طرابلس، وكان بعض الناس يرسمون له صورة كاريكاتيرية، جعلتني لا اتشجع على الاقتراب منه، كغيره من الشخصيات ذات الطابع الوطني . خاصة صورته وهو يتجول في الاحياء الشعبية ، للمشاركة في احدى الحملات الانتخابية لمجلس النواب، راكبا حمارا، ربما لتعذر الدخول بالسيارة لعض المناطق التي تتكون من اكواخ الصفيح، وهو ما جعل بعض خصومه موضوعا للتشنيع، ويضيفون الى ذلك انه يدخل الى مثل هذه الاحياء المسحوقة، ويخاطب اهلها بلغة عربية متقعرة لا احد منهم يفهمها، باعتباره كان ومنذ عام

1957، عضوا مراسلا في مجمع اللغة العربية في القاهرة، بل ان بعض هؤلاء الاميين يظنون ان بعض ما يقوله شتائم وسباب، يريدهم مثلا ان ينتفضوا ضد الاوضاع القائمة، وهم لا يعرفون كلمة الانتفاض الا باعتارها ارتعاشا وحمى ، والقائمة بالنسبة لهم افضل كثيرا من القاعدة الو النائمة، فيضيع جسر التفاهم بينه وبينهم ، الا ان هؤلاء الذين ينتقدونه ويسخرون من بعض مواقفه، يعترفون بان له دورا فاعلا في مرحلة ما قبل الاستقلال، عندما انشأ حزب الاتحاد المصري الطرابلسي، والتزم جانب التشدد ، ان لم نقل التطرف ، ضد القوى المعادية للاستقلال، والمعادية للوحدة الوطنية ، وضد القوى المهادنة للايطاليين مثل حزب الاستقلال، وكان محلاكا للمظاهرات، وصاحب مشاركة في بعض اعمال العنف التي شابت ذلك الحراك. واعترف ايضا بانني عندما قابلته فيما بعد، بمحض الصدفة، فوجئت بما يملكه من ثقافة رفيعة، وما لديه من يقظة وحضور ذهني، وكان اللقاء في مكتب الصديق الراحل الاستاذ ابراهيم الفقي حسن، بصندوق الضمان الاجتماعي، فقد وجدت ، اثناء مرور عليه في مكتبه، هذا الرجل الشهير موجودا يتناول قهوته في صالون المكتب، يرتدي لباسا وطنيا انيقا جميلا، مثل الذي اشتهر به ولي عهد الملك، وقام مضيفنا بواجب التعريف ، فاذا بالاستاذ على رجب المدين، متابع لما اكتب في الصحف ، ربما منذ بداياتي، محبا لامثالي من كتاب ليبيين لا يتحرجون من الافصاح ، عن ايمانهم بالوشائج التي تربط بين الاقطار العربية. وكنت دائما احمل فضولا للسبب في تسمية حزبه الاتحاد المصري الطرابلسي ، وكيف جاء هذا الاسم والدوفع وراس التسمية، بل الدوافع وراء هذا التوجه للتوحيد بين البلدين، في تلك المرحلة المبكرة جدا، السابقة للاستقلال، عندما لم يكن لاهل البلاد هما ولا مشكلة الا فك الاستقلال من براثن قوى الهيمنة والنفوذ الاستعماري. ثم لماذا كلمة الطرابلسي وليست الاتحاد المصري الليبي؟ فاجاب بان هذه التسمية ايضا تصب في هذا المقصد التي تتضاءل بجواره كل المقاصد الاخرى ، وهلا الاستقلال. وتسمية الجزب جاءت لازاحة العقبة الكأداء التي تريد دول الاحتلال استخدامها ذريعة لابطال الاستقلال، فقد قالوا بان ليبيا ، منطقة معدمة فقيرة، صحراء بلا موارد، فلا امكانية امامها لاقامة دولة والانفاق على اجهزتها، ولن تجد ميزانية تدفع منها مرتبات للكادر الاداري واعضاء الامن والجيش، مما يريدون استخدامه سببا لابقائها تحت الوصاية، وكان رد القوى الوطنية التي ينتمي اليها السيد المدني كما يقول، هو ان يكون الاتحاد مع مصر، الوسيلة التي نرفعها في وجه هذه القوى لابطال الذريعة، ويقول ايضا بان ثمة مشاورات جرت مع السيد عبد الرحمن عزام باشا، امين الجامعة العربية ، الذي رحب بالفكرة، وقام بجس نبض الحكومة المصرية التي ابدت ترحيبا باقامة نوع من الكونفدرالية، ولم يكن الغرض توحيدا او اتحادا بالدرجة الاولى ، رغم ايمانه بالمصير المشترك للبلاد العربية ، ولكن الهدف هو ابطال تلك الذريعة. اما الطرابلسي وليس الليبي ، فليس الا عودة لاسم الكيان السياسي للبلاد ، حيث كانت كل ليبيا تسمى ولاية او يالة طرابلس ، تاريخيا وجغرافيا طوال العهد التركي.

وتوثقت علاقتي فيما بعد بهذا الشيخ من شيوخ الوطنية الليبية ، خاصة وانه يقيم فترة من وقته في القاهرة ليكون قريبا من مجمع اللغة العربية ، الذي يحرص على حضور اجتماعاته، وعرفت فصولا من جهاده ، فهو من مواليد طرابلس في مطلع العشرينيات، وثقول انه وبسبب اجتهاده وحرصه على المطالع ودخوله مبكرا للدراسة الدينية التي اكملها في جامع احمد باشا القره مانلي، صار يقدم الدروس في مساجد المدينة القديمة مثل جامع الناقة وجامع شائق العين، منذ ان كان عمره ستة عشر عاما، اي في عام 1937، ويذكر ان ثمة علاقة مثل علاقة الابن بابيه جمعته بالسيد سليمان القره مانلي ، سليل العائلة

الحاكمة الشهيرة، وكان الايطاليون قد اعطوه وضعا خاصا واسموه الامير ، ربما لاستغلاله في التماس شرعية لحكمهم ، لا وجود ولا اساس لها ، وكان الرجل كما وصفه لي السيد رجب ، مغلوبا على امره ، لايملك حولا ولاقوة، ولا مالا وجد فيه السيد رجب نافذة مشرعة على تاريخ طرابلس وايامها القديمة فقد كان ذاكرة حافلة بالمعارف والمعلومات، وكان السيد رجب في منتصف العقد الثالث من عمره عندما تصدى للقيادة، ايام الحراك السياسي السابق للاستقلال، وكان كما يقول بلا منازع زعيم شباب القطر، والمتحدث باسمهم، والقادر على تحريكهم في مظاهرات ومسيرات ، بل وتكوينات جهادية فدائية، ولم يكن يحتاج لتفعيلها، ولكنها كانت موجودة ، لممارسة الضغط، واكتساب القوة عند التفاوض والمناورة، ويحكي كيف كان محاصرا ممنوعا من السفر من قبل سلطات الانتداب البريطاني، وكانت له اكثر من مغامرة للتسلل عبر الحدود المصرية، دون وثائق سفر، وعندما تم الاتفاق على ارسال بعثة دولية لاستفتاء الشعب الليبي على الاستقلال، استبقت ايطاليا الحدث، وقامت عن طريق الجالية الايطالية في طرابلس ، بتمويل ومساعدة حزب يمالىء الايطاليين ويطالب بوصاية ايطاليا على ليبيا، وجعلته يبني السرادقات في منطقة سيدي المصري، وجلبت له الطهاة، يقدم اطباق المكرونة مجانا للشعب الجائع الفقير ، طالبا منهم التصويت لصالح الوصاية الايطالية بوعد انها ستواصل اطعامهم وامدادهم باطباق المكرونة الجاهزة، ورغم المهرجانات الخطابية التي تحذر الناس الناس من عودة الاستعمار الايطالي ، فان اغراء المكرونة كان كبيرا ، وكان اقبال الناس على هذه السرادقات اقبالا منقطع النظير، ولم يكن امام السيد على رجب الذي كان في قمة الغضب والالم لهذه الاستجابة الشعبية لموائد العار، الا حلا واحدا، هو المغامرة بكسر الحظر الذي فرضته السلطات البريطانية على سفره، والتسلل الى مصر ، واستخدام علاقاته في القاهرة، لتسهيل لقاء شيخ الازهر ، واستجلاب الفتوى التي تقول بان الشخص المسلم يكون كافرا ، خارجا عن ملة الاسلام ، وشريعه، وسنة النبي محمد بن عبد الله، اذا طالب بان تحتل بلاده المسلمة سلطة اجنبية لا تدين بدين الاسلام. وفعلا عاد بالفتوى المطلوبة التي اصدرها الازهر الشريف، التي ظل اهل المسار الوطني ، يخطبون بها في المساجد، ويتحدثون عنها في المحافل السياسية ، ويقومون بتلاوتها في المسيرات والمظاهرات ، ويوزعون صحيفة الاخبار التي قامت بنشرها بعناوين عريضة على صفحتها الاولى، فكانت هذه الفتوى هي الضربة القاضية لسرادقات المكرونة والحزب الذي اقامها. تحالف في فترة من فترات النضال السياسي مع السيد علي الفقي حسن مؤسس ورئيس حزب الكتلة الوطنية، كما لم يناوىء اكبر زعماء الحراك السياسي في طرابلس بشير السعداوي، وقال انه كثيرا ما جرى التنسيق معه على خطوات تؤمن الوصول الى دولة الاستقلال، الا انه لم يكن يوافقه على المرونة التي يتعامل بها بعض الاطراف ، والخضوع لمعطيات الواقع، التي جعلته في النهاية يؤيد الملك والملكية كبديل للنظام الجمهوري.

وكان بطبيعة الحال مناوئا للوضع السياسي الذي فرضته الظروف الدولية والمحلية ، بعد الاستقلال، خاصة اتفاقيات انشاء القواعد العسكرية، البريطانية والامريكية، الى حد انه كان مهددا بالحبس عدة مرات، وقال انه شارك في فترة الاربعينيات في امتحان لتأهيل المحامين، ونجح في الامتحان، وصار محاميا ممارسا، ومؤسسا لاول نقابة محاماة في ليبيا بعد الاستقلال، وذهب الى مؤتمر لاتحاد المحامين العرب خارج ليبيا، والقى خطابا يهاجم القواعد والاحلاف العسكرية ، وجاءته التحذيرات من العودة الى البلاد لان هناك امرا بالقبض عليه فور وصوله المطار، مما جعله ويستبدل العودة للبلاد ، بالاقامة في

مصر، وكان ذلك في وقت وصل فيه فوران المشاعر القومية الى مرحلة الاوج بعد العدون الثلاثي على مصر عام 1956، وكافاه الرئيس المصري عبد الناصر على مرقفه، باعطائه اللجوء السياسي، وارسل له عرضا بان يكون عضوا مراسلا في مجمع اللغة العربية ، فانضم اليه وكان رئيس المجمع في ذلك الوقت السد لطفي السيد، ليأخذ مكانه مع طه حسين وعباس العقاد واحمد حسن الزيات وغيرهم من كبار ادباء ومفكري مصر . ورغم ضلوعه في اللغة العربية ، فلم يكن صاحب تآليف فيها او في غيرها من ضروب الادب ، واكتفي بان يكون خطيبا ، وصاحب مرافعات بليغة في المحاكم ، وصاحب مذكرات يحفظها تاريخ القضاء في ليبيا .

مازل عند كتابة هذه المذكرات محتفظا بلياقته الذهنية، رغم انه جاوز التسعين بعام او عامين ، يعيش في بيت تحيط به مزرعة كبيرة،في طرابلس، وسط عدد كبير من الابناء والاحفاد يزيدون على الثلاثين ، ويسافر الى مصر لحضور اجتماعات مجمع اللغة العربية، حفظه الله ومنحه الصحة والعافية.

محمد الشاوش

لم اكن اراه الا جالسا وراء مكتبه ، غاطسا في جبال من الاوراق فوق مكتبه، كابيا بوجه فوق الورق، بنظارات طبية ، سميكة بيضاء، تتدلى فوق وجهه، تسندها ارنبة انفسه، ينظر عبرها ويغطيها البخار، فيتسلل بنظره من السماعة، خلفها، قبل ان يستمع همته ويخرج منديلا يمسح غبارها، في يده قلم لتصحيح ما يقرأ من اوراق امامه، فهو لا يقرأ مثلنا ، قراءة تسلية وازجاء فراغ ، وانما القراءة هنا واجب قد يكون ثقيلا، يقتضي تصحيحا وتعديلا وشطبا واضافة، ويرن الهاتف ، فيترك القلم ليرتمي بين اكداس الورق، لكي يرفع السماعة، وتنتابه بعد اكمال المكالمة ، حمى البحث عن القلم الذي لا يظهر، فيتح الدرج للبحث عن قلم جديد، يستأنف به مسيرة التصحيح، ومواصلة القراءة، ورغم وجود عشة انفار يحيطون به، بعضهم جلوسا على الكراسي ، وبعضهم وقوفا على يمنيه وشماله وخلف ظهره، فهو مستغرق في العمل ، يمنح احدهم كلمة من خلال استغراقه ، ويمنح اخر التفاته قصيرة، وكلمة اقل قصرا، وهو لا زال منشغلا بالورق الذي امامه، يدخل الناس ويخرجون، ياتون وينصرفون ، والورق باكداسه الكثيرة لا يتحرك، موجود ، دائما موجود ، وهو غاطس فيه ، لا يظهر منه الا راسه، يمارس طقوسه خلف هذه الاكداس، وبين نوبات الحمى من اجل البحث عن قلم ضاع، ومكالمة غالبا ما يستقبلها بكلمة الو، ويظل بعدها صامتا، يستمع ولا يرد الا بكلمة نعم، قبل ان يقفل السماعة، ليتلقفه احد الجالسين ، قبل معاودة الاستغراق في الورق لينتزع منه اجابة على قضية عاجلة، ربما تتعلق بمصير الصحيفة طبعا وتوزيعا وتحرير، لان كل هذه المهام تقع تحت مسئوليته، ذلك هو الصحفي المخضرم الاستاذ محمد الشاوش.

بدأ كغيره من الصحفيين النابهين من ابناء جيل الاستقلال، مثل ابوهروس وفريد سيالة ومحمد بريون، كلهم بدأوا مدرسين، وكان قد قضى فترة قصيرة في التدريس وانتقل بعدها للعمل في صحيفة طرابلس الغرب، واثناء ذلك تولى العمل والاشراف على مجلة هنا طرابلس الغرب، ربما قبل ان يستلم رئاسة تحريرها السيد عبد القادر ابوهروس، ليتفرغ هو تفرغا كاملا لصحيفة طرابلس الغرب، ويصبح عمادها الاساس، مهما تناوب عليها رؤساء تحرير ، فقد رأس تحريرها الاساتذة منير برشان، ومحمد بن

صوفية، ومحمد فخر الدين، وربما غيرهم من الصحفيين، قبل ان يصل هو الى رئاسة تحريرها بعد ان تغير اسمها الى العلم، والتغيير جاء كنوع من التداعيات الناتجة عن الغاء النظام الفدرالي ، فقد تم وفقا لذلك النظام ان تسمى الصحيفة الرسمية الاساسية باسم الولاية ، ولم تكن تسمية طرابلس الغرب مرتبطة بهذا النظام الذي جاء بعد الاستقلال وانما هو اسم تاريخي لصحيفة بداء الصدور منذ قرن مضى فجاءت المرحلة السابقة للاستقلال واستانفت الصدور بنفس الاسم التاريخي، وعندما بدات كل من ولايتي برقة وفزان تصدران صحفا ، ارادا ان تكون الصحيفة الرسمية لكل منهما باسم الولاية فصدرت برقة الجديدة في بنغازي وصدرت فزان في سبها، وعندما تم الغاء النظام الفدرالي تحولت هذه الصحف الى اسماء جديدة غير اسماء الولايات وهكذا اصبحت طرابلس الغرب العلم، الا ان محمد الشاوش كان ابان رئاسة الاخرين لتحريرها اشبه بوكيل الوزارة الدائم ، الذي يتولى العمل الفعلي في الصحيفة، ورغم ضغط العمل على صحيفة يومية لا تملك جهاز تحرير ولا ادارات اكثر مما تملكه اية مجلة شهرية، ورغم ثورة اعصاب المحررين والكتاب المتعاونين والمراجعين الذين يتوافدون باعداد كبيرة كل يوم، فقد كان يحتفظ باعصابه هادئة ، وصوته هادئا يكاد لا يتجاوز طبقة الهمس، ونادرا جدا ما كنا نراه يرفع صوته عاليا ، واو يخرج عن طوره غاضبا، او تثور اعصابه مهما تازمت الاحوال وارتفعت وثيرة الصراخ من حوله، لسبب من الاسباب، واحيانا كانت تاتي هذه الاسباب عاصفة صاعقة، مثل خطأ مطبعي في خبر لمسئول كبير، واضرب مثلا لهذه الاخطاء التي كان احداها انتقال شرح من صورة الى صورة ، اذ كانت الصورة لعدد من الثيران والابقار المستوردة، التي جلبتها الدولة لتواجه ازمة في اللحوم ، والصورة الثانية وزير الزراعة يتفقد هذه الشحنة من الثيران والابقار ، وانتقل شرح الثيران والابقار تحت صورة الوزير والوفد الذي يرافقه ، وشرح صورة الوزيروالوفد تحت صورة الثيران، ولياتي من يقول ان انتقال هذا الشرح من صورة الى اخرى لم يكن مؤامرة للسخرة والهزء من بعض المناوئين للدولة المندسين في الصحيفة، لكن اعصاب المسئول الاول على الموضوع ضل هادئا يبحث عن طريقة هادئة للخروج من المازق ، اما اكبر خطا مطبعي في تاريخ الصحيفة فهو انه اثناء الطبع انتقلت جملة وانطبعت على صورة الملك تقول لا امل فيه ولا رجاء، وتعالي وحاول اقناع اي احد في الدولة ان الامر لا يتصل بمؤامرة يستبق القائم بها قلب نظام الحكم واستهداف الرمز الاعلى للنظام وهو الملك، وكان كل احد في الصحيفة والمطبعة وادارة المطبوعات في حالة من الغليان ، الا السيد محمد الشاوش الذي عادة ما يستقبل الامور جسيمها وضئيلها باعصاب هادئة، وغالبا ما يعرف الناس انه على صواب، ولم يكن هناك هذا الداعي للفوران والغليان، فقد انتهى التحقيق في مثل هذه الغلطة التي ارعبت الكثيرين، الى براءة الجميع، وعادوا لممارسة اعمالهم التي تجمدت خوفا وهلعا، الا محمد الشاوش الذي كان يواصل عمله بين اكوام الورق ، قبل واثناء وبعد الازمة ، وكأن شيئا لم يحدث.

محمد الشاوش هو الذي يستقبل مواد الصحيفة ، المقالات والاخبار والتحقيقات، وهوالذي يصدر التكليفات لمن معه من المحررين بانجاز بعض المهام الصحفية ، وهو الذي يقرر ما ينشر او لاينشر من كل هذا الركام الذي يصل الى سطح مكتبه كل نهار، ولم اسمعه يقول لاي محرر او كاتب ان هذا الموضوع الذي كتبه لا يصلح للنشر، فهذه مسالة يعرفها الكاتب عندما لا يجد الموضوع قد نشر، مهما سعى وحاول ومهما الح او احتج ، فلن يسمع مثل هذا الجواب ، الذي يبلغه بعدم صلاحية ما كتبه للنشر، قد يسمع كلاما عن زحمة المواد، وعن ضيق المساحة، كسبب للتاجيل ، وقد يستعمل سببا بعيدا، مثل

الطقس، فقد سمعته يقول لاحد المراجعين، انه الصحيفة تراعي في فصل السيف وموسم الاجازات والعطلة الصيفية تقديم مادة خفيفة للقراء، قد لا يتناسب معها نشر الموضوع الدسم العميق الذي كتبه، هكذا هي اعذاره، لا تجرح احدا ولا تسيء الى مشاعره، وقد يكون الموضوع الذي اشار اليه، لا يعمل عمقا ولا دسامة وانه ثرثرة فارغة كتبت باسلوب ركيك ولغة هزيلة عامرة بالاخطاء النحوية والاملائية، فانه يترك ذلك للزمن يكشفه لصاحب المقالة، وقبل التحاقي محررا بصحيفة طرابلس الغرب ، متعاونا من الخارج، حملت اليه ذات يوم اول قصة قصيرة ناضجة كتبتها، واقول ناضجة لانني كتبت محاولات وعرضتها على حلقة الاصدقاء الادباء، فنصحوا بعدم النشر، حتى كتبت هذه القصة التي لاقت القبول والترحيب ،واعتبروها مؤهلة للنشر والعرض على الناس، واظن انني قلت كلاما عنها وانا اقدمها له تحمل نوعا من المباهاة بهذا الانجاز الذي يؤسس لقصة جديدة في ليبيا، وربما استشهدت باراء بعض من قرأ القصة من الاصدقاء، ويبدو ان لغة التباهي والغرور ، استفزت شيئا في طبيعته التي جبلت على التواضع ونكران الذات، وقرر قبل ان يقرأ القصة ، انه لن ينشرها، عقابا على ما قلته من كلام ازكي به نفسي.

وفعلا لم تنشر تلك القصة في صحيفة طرابلس الغرب، ولم يفصح لي اطلاقا عن نيته في عدم نشرها، رغم انه لم يكن ثمة حرج في ان يقول لشاب دون العشرين مثلي ان ما كتبته هذه المرة لا يناسب الصحيفة، بدلا من ذلك كان كلما راجعته اعتذر بزحمة المواد، رغم وجود مفارقة مضحكة في مثل هذا العذر، لانني كنت اراه امامي يستعين على فقر الصحيفة للمواد، باستخدام المقص لاخذ مقال من صحيفة المحرر او الانوار او النهار يملأ به فراغ اعمدة الصحيفة، ثم يتحدث في ذات الوقت عن زحمة المواد. المهم ، انني اخيرا ادركت ، انه لن ينشر تلك القصة ، التي ارسلت بها لكي تنشر فيما بعد في صحيفة فزان ، وكانت قصة " هارب الى المدينة" هي اول قصة قصيرة دشنت بها مسيرتي في هذا اللون الادبي .

فعل هذا معي، رغم انه هو الذي شجعني لان اكتب بابا يوميا بعنوان "لا تسرع الخطى" وكنت مازلت متعاونا من خارج الصحيفة، واحظى احيانا ببعض نصائحه، فاذا وجدني احمل مقالا مكتوبا في اكثر من صفحة، واكون نسيت ترقيم الصفحات، لفت انتباهي الى ان اهمال الترقيم امر معيب جدا، وانه من ابجديات العمل الصحفي، ويمكن ان اتصور هذا الورق امام عامل الطباعة في المطبعة ، وقد اختلطت ورقة باخرى، ماذا سيحدث. واذا رآني اعتني بالخط ، رغم وجود تصحيح وشطب ، قال لي انه لا يهم بالنسبة له ان اكتب المقال بخط جميل ، المهم هو الوضوح ، وكرر الوضوح، هو ما تريده المطبعة وليس جماليات الكتابة. وكان لا يميل الى المقالات او القصص الطويلة، واشتهر هو شخصيا بكتابة ابواب ذات نفس قصير ، وكان اشهرها باب بعنوان "اشياء صغيرة" يكتفي فيه بكتابة تعليقات قصيرة ومختصرة عن الاحداث ، او خواطر مقتضبة جدا جدا.

لم يتغير شيء في علاقتي به، او اسلوب تعامله معي، بعد ان انتقت محررا متفرغا معه، يعمل تحت رئاسته، ومع ذلك لم ار على في اي لحظة من اللحظات وجه الرئيس الروتين الذي يسألني مثلا عن ساعات الدوام والحضور والانصراف ، كما كان يحدث معي في عملي السابق، فقد كان يترك المحرر لحريته، وان يجلب المادة التي يريد ، متى يريد، الا اذا صدر تكليف بتغطية حدث ما، وهي مسالة تتم بالتناوب بين المحررين، وهناك اكثر من محرر لديهم تكليف دائم بتغطية احداث بعينها.

ونتيجة لما اجده من طلب على العمل من صحف القطاع الخاص، فقد قدمت عملا لهذه الصحف اكثر من عملي للصحيفة التي اتقاضى منها مرتبي ، دون ان اجد اعتراضا، او ينطق السيد الشاوش بنأمة احتجاج على غيابي ، خاصة انني اقوم بالحد الادني من التزاماتي من التزاماتي للصحيفة، واعتقد ان الوقت كان وقتا لترسيخ بعض القيم والمفاهيم ، وان الكاتب و الصحفي اذا احتضنته مؤسسة صحفية حكومية ، وكتب في صحف وطنية خارج تلك المؤسسة فهو في النهاية يؤدي واجبا وطنيا ولا باس ان تغطي الدولة نفقات معيشته، حتى وهويؤدي رسالته في الصحف والمنابر الخاصة.

جاء انقلاب الاول من ايلول الاسود عام 69، فوضع حدا لحياة الاستاذ محمد الشاوش مع الصحافة المكتوبة او المقرءة، وانتقل الى جهاز المعرض التجاري الدولي، للعمل في قسم الاعلام بهذا المعرض ، وهو عمل روتين لم يكن يقتضي ان يستخدم الرجل قلمه في الكتابة ، ولم يكن محتاجا لمهاراته الصحفية، في فرز المواد وتقييمها، وانما عمل اشرافي على نشرات دعائية واعلانات في الحف ترافقها بعض الصور التوضيحية وربما التعامل مع صحفيين اقتصاديين ياتون من خارج البلاد يغطون اجنحة بلدانهم . واعتقد انه وجد فيما بعد منفذا لمواهبه الكتابية في برنامج اذاعي له طابع ديني يتفق مع حياة التصوف التي صار يميل اليها، كما عرفت انه عكف على كتابة اكثر من كتاب عن تجربته في العمل الصحفي ، وانه قدم كتابين ، الى المؤسسة الرسمية التي تحتكر النشر ، احدهما عن تاريخ الصحافة الليبية من خلال تجربته الطويلة في العمل الصحفي ، والثاني عن بعض الفصول والطرائف والاحداث والحكايات التي واجهته خلال العمر الذي قضاه في الصحافة، ولكن الشركة ربما لكونه كان رئيسا للتحرير في العهد الملكي تحفظت على نشر الكتابين، ولم يكن هو يملك من الموارد ما يعينه على تحمل نفقات طبعهما من مصادره الخاصة، ومات بسبب مضاعافات مرض السكري، في منتصف التسعينيات دون ان يري ايا من كتابيه قد وصل الى مرحلة النشر، مات وسط اهمال الصحافة الليبية التي كان رائدا من روائدها وعميدا من عمدائها، وكنت في مصر فكتبت مقالا في صحافة القاهرة انعي للوسط الصحفي في العالم العربي رحيل استاذ من اساتذة المهنة محاطا بالجحود والنكران.

يوسف هامان

ربما كان اكثر اديب من الجيل السابق لجيلي، استعدادا لبذل العون والمساعدة لي ولغير من ادباء ناشئين، يهتم بقراءة ما نكتبه بعناية ودقة، ويمر بقلمه على الاخطاء النحوية يقوم بتصحيحها، والعبارات المرتبكة فيعيدها الى صيغتها الصحيحة، بمهارة واقتدار، باعتبار ما حصل عليه من تاهيل في هذا المجال، فقد امضى سنوات في القاهرة، طالبا في احدى كليات جامعة الازهر، ثم عاد ربما قبل ان يصل الى الحصول على اجازته الجامعية، وانتقى لنفسه ركنا قصيا في وزارة الزراعة ، يمارس عمليا اداريا بسيطا، لكنه يواصل نشاطه الاجتماعي والثقافي في اندية طرابلس ومقاهيها، ونشاطه الكتابي في صحفها ومجلاتها واذاعتها ، اسما له ذيوع في مدينة طرابلس وله تقدير واحترام من ادبائها. تعرفت عليه عن طريق صديق مشترك هو بشير الهاشمي، وكان موجودا في مطعم البرعي في باب الحرية، يتناول غذاءه، عندما دخلت الى المطعم مع الهاشمي، فتبادلنا التحية ، ولانه كان يصطحب عدد من اصدقائه، اقترح ان نشرب معا قهوة بعد الغذاء في مقهى الساهوكي، في شارع عمر المختار، وكنت قد قرأت بعض مقالاته التي كان ينشرها في "هنا طرابلس الغرب" ، فاسعدني ان التقي به، بسبب اعجابي الشديد بما يكتب ،

لانه كان يتميز باسلوب خاص، له جماليات لا تتوفر لدى اصحاب الاساليب الصحفية من كتاب تلك المرحلة، ممن يكتبون كتابات وصفية تقريرية، يعوزها الافق الجمالي وروح الشعر التي كان يكتب بها خواطره ، وبينها كما اذكر انطباعات سجلها عن فلم شاهده ، او كتاب قراه، او راي سمعه، وكان هناك باب يتكرر في الصحف اسمه "قرات وشاهدت وسمعت" وقد اغراني هذا الباب واستقطب تفكيري فاخترت الكتابة عدة مرات من وحيه، وهي كتابة اشبه باليوميات، وتميز الاستاذ هامان بانه لا يتنازل عن تلك اللمسة الشعرية الجمالية في اية مادة يكتبها حتى لوكانت خبرا ، المهم ان جلسة مقهى الساهوكي ، كانت بداية صداقة مع هذا العلم من اعلام الكتابة الادبية في ليبيا ، وهو لقاء تم على الارجح عام 1960، وصار بيته في منطقة الظهرة ، بصحنه المفتوح ، وطابعه العربي الشعبي، ودار الاستقبال قريبا من عتبة البيت ، مكانا للقاء ومنتدى لعدد من اصحابه يلتقون عنده ، كنت والزميل الصحفي عمر السنوسي اصغرهم سنا، واذكر ممن هم اكبر قليلا في السن صديقنا الاديب الاستاذ محمود بريون ، اطال الله عمره، وكان يلح في ان اعرض عليه انتاجي، فلا يمر يوم او يومان، الا واجده قد قرأ وتدبر وقام بالتصحيح وتكون لديه رأي فيما قرأ، فيقترح تعديلا او اضافة او انقاصا، ورغم انه كان منضويا لحزب البعث العربي الاشتراكي، الذي كان يعمل في ليبيا تحت الارض، فلم اسمع منه اطلاقا دعوة لتجنيدي في الحزب، او اره يشير في كلامه الى هذه العقيدة القومية التي يؤمن بها، من بعيد ولا من قريب، الى ان فوجئنا في عام 1962، انه كان بين من تم القبض عليهم ، من اعضاء الحزب، ودخل القفص ماثلا امام المحكمة التي عقدت في مقر معهد هايتي ، صيف ذلك العام، لان قاعات المحاكم العادية لم يكن بينها قاعة واسعة قادرة على استيعاب هذا العدد الكبير من المتهمين، والمحامين ، والجمهور، فاختاروا اكبر قاعات هذا المعهد الذي كنت اقيم وادرس فيه. ولم تزد المدة التي قضاها في المحاكمة والحجز ، عن بضعة اشهر فيما اذكر، ولكنه خرج للاسف الى اعوام من البطالة، لانه لم يكن يملك ظهرا يسنده ويعينه على العودة الى عمله الحكومي كما حدث مع رفاقه، ربما لوجود بعض المزايدين الملكيين، في ادارته، او الحاقدين عليه، الخائفين من علمه وثقافته، اتخذوا من الحبس والمحاكمة ذريعة لابعاده، ورفع امره الى القضاء الاداري، الذي اعاده اخيرا الى وظيفته، ولكن بعد ان قضى بضع سنوات دون عمل ودون دخل، ولم تكن الصحف في ذلك الوقت تدفع مكافآت لكتابها، ولم يكن يستطيع ان يقدم عملا للاذاعة باعتبارها جهازا تقليديا ورسميا وموغلا في الولاء للنظام ، ويصعب بعد سجنه ومحاكمته ان يقبل برامج من عضو في تنظيم سري مثله، فكان حجم معاناته كبيرا، وكان يجد صعوبة ، في الحصول على ثمن علبة سجائر، حتى من ارخص واسوأ الانواع. واعانه على تحمل ظروفه البائسة في تلك الفترة، انه كان يتميز بالزهد والتقشف، والحرص على حياة الكفاف التي كان يعيشها حتى في اوقات الرخاء،ولم يكن لديه سند غير ان عائلته الكبيرة في جنزور تملك بستانا، ويبدو انها تمده ببعض غلال هذا البستان بالقدر الذي يقيم اوده.

واقول صراحة ، انني لم اكن اجد شيئا في شخصيته المتسامحة النبيلة الجميلة ، وحسه الادبي الرفيع ، واسلوبه الشاعري الرقيق، الذي يعالج القضايا العامة بفكر مفتوح وتواصل مع شتى الثقافات، شيئا يوحي بذلك الجانب الحزبي في حياته ، الذي كان يعني في بيئتنا الشرقية التعصب لفكرة والانحياز لها ضد الافكار الاخرى، وهو الجانب الذي كان خفيا وكشفته المخابرات العامة ، عندما اعلنت عن ضبط هذا التنظيم الحزبي والقبض على اعضائه. اذ كنت اعرف اهل الاحزاب، وعشقهم للجدل، وحماسهم وتعصبهم لفكرتهم، والتباهي بالفكر الذي ينتمون اليه، قومجيا كان، او اسلامويا، اوماكسيا شعوبيا، ولا ادري الان

ان كنت فعلا سالته عما ساقه الى الانظمام لتنظيم حزبي، له تراتبية، وله ايديولوجية، وله شروطه في الالتزام بالتعليمات ، وهو شيء اعرف يقينا انه يتناقض مع طبيعته الحره، وعقله المفتوح على شتى الافكار، وقوة حماسه لمعاني الحداثة والتجديد وما يطرحه العالم من فتوحات في المعارف والعلوم وعالم الفكر والثقافة، وهو ما كان واضحا في نقاشه ، وربما اكثر وضوحا في كتاباته ذات المنحى التأملي الفلسفي ، التي تخوض حرة في فضاءات الفكر ، قافزة فوق سياجات الدوجما واقفاصها. وحتى لو سألته ، فلم اكن لاحظى، باية اجابة، لانه كان يريد ان ينسى الموضوع، وينسى هذه التجربة المؤلمة، وكان كما اذكر شديد النقد لاسلوب العمل ، وبعض عناصره، وليس قيادته، ممن راهم اقل من مستوى المسئولية ، وهم من اودوا الجميع في داهية كما يقول ذاكرا بعض الاسماء من اصحاب الرتب الصغيرة في الحزب.

كان صديقا للكاتب يوسف القويري، وكان يداعبه ، ويدخل معه في حديث ضاحك، لانه كان يحس حسه المصري في النكتة، وكان يوسف هامان يهمل الشعر الذي يبرز من اذنيه ، ولعل يوسف القويري راى شعرة بيضاء في ذلك الشعر البارز من الا ذن، فكان يسميه شائب شعر الاذن، على وزن شائب العين، وفي اقسى ازماته المعاشية لم يتخل عن حس الدعابة لديه، وربما هذا الحس هو الذي عبر به كل ما كان يصادفه من ازمات، واصلا بعدها الى بر الامان . ورغم ضآلة موارده، وما اصابه من ضنك بعد خروجه من السجن، فقد كان يعلم انه يملك كنزا، اوثروة نائمة هي بيته الشعبي العربي، الذي يحتل ارضا شاسعة في اقرب مناطق الظهرة الى وسط المدينة، وبسبب هذا القرب من المركز، صارت قابلة للاستثمار ، وفي الجوار لها انتصب فندق متعدد الطوابق ، هو قصر ليبيا، مما جعل اثمان الارض تقفز الى معدلات عالية جدا، وتشجع جيران له وباعوا بيوتهم التي هدمت وتحولت الى عمائر، الا انه ظل مقيما في هذا البيت، غير قابل لنصائح الاصدقاء التي تقترح البيع والاستفادة من ثمنه في تحسن احواله وشراء شقة لاسرته الصغيرة، بجزء ضئيل من ثمن الارض. وكنت اتواصل معه باستمرار، واحاول اخراجه من الكسل الذي يمنعه من الكتابة والمشاركة، وحصل ان ابدى في اواخر الستينيات نشاطا مع الاذاعة وقدم لفترة من الوقت برنامجا ادبيا مع صديقه محمود بريون، ولعله تواصل حتى فترة السبعينيات التي قضيت جزءا كبيرا منها في الخارج، وعندما التقيت به في مطلع الثمانينيات وجدته قد انجز مخطوطين ، ووجدته في طريقه ادارة الثقافة ، يريد ان تنشرهما لان في الادارة صديقا من زملاء الدراسة، وقلت له انه يذكرني باهل الكهف لان الصديق الذي جاء على ذكره كان قد غادر الادارة من امد طويل مدى ، فضحك مؤمنا على كلامي بانتمائه لاهل الكهف واردف قائلا "وهذا هو الدليل " وكان الدليل احد المخطوطين ، وهو مخطوط كتاب يحمل عنوان اهل الكهف ، الاسطورة الشهيرة وقد تناولها بمعالجة ادبية جديدة ، اما مخطوط الكتاب الثاني فكان دراسات عن عدد من الشعراء بينهم الشابي الذي كان معجبا بشعره وكان موضوع اكثر من دراسة كتبها عنه. ولا اعتقد ان ايا من هذين المخطوطين قد راى النور ، ولم ير النور ايضا اي شي من كتاباته الاخرى ، التي ظلت مهملة ، في الصحف والمجلات التي شهدت نشرها لاول مرة، وهو وان لم يكن انتاجا غزيرا الا انه جدير بان يكون موضوع عدة كتب لو كان ثمة من اعتنى بجمعها، واعتقد ان قلة انتاجه جاء انعكاسا لزهده وتقشه في الحياة ، اذ كان زاهدا في الظهور والشهرة ، لكي لا اقول عدميا ، لا يرى جدوى لان ينشر او لا ينشر او يصدر كتابا او لايصدره، وكان يعبر احيانا عن ياسه من وجود اي فائدة مما نكتبه ، في بيئة قاسية ، متزمته ، لا تنفع الا مسرحا يتجول فيها العجاج المحمل برمال الصحراء، كما كان يقول.

انقطع اتصالي به ،عندما ترك المدينة ، وانسحب الى سواني اهله ومسقط راسه في جنزور، بعد ان وصل سن التقاعد، وربما في عمق تلك البلدة الزراعية ، حيث يتعذر الوصول اليه ، ربما الا عن طريق سيارات الدفع الرباعي، ولم اره في سنواته الاخيرة ،الى ان جاءني وانا في القاهرة، في منتصف التسعينيات خبر وفاته، اثناء اقامته بين عائلته. و ذهبت ابحث عن كاتب مصري كان زميله في فترة الدراسة ، اسمه جمال سليم ، وكثيرا ما حدثني عن عمق الصداقة والعلاقة بينهما، لاخبره برحيل صديقه يوسف هامان، وسالت عن هذا الكاتب شقيقه الكاتب القصصي الصديق عبد المنعم سليم، فقال لي ان اخاه ايضا توفى في نفس الفترة، وهذا التوافق في رحيل الاصدقاء، اوحى لي بقصة قصيرة عن يوسف هامان ، نشرتها ضمن مجموعتي الاخيرة"قصص من عالم العرفان".

فؤاد الكعبازي

كان فؤاد الكعبازي ظاهرة من الظواهر التي من الصعب ان يتكرر وجودها في مجتمع مثل المجتمع الليبي، وقد توافرت مجموعة من العوامل اسهمت في صنع هذه الظاهرة ، من الصعب ان تتوفر بنفس الصيغة ونفس التركيب مرة اخرى . فقد ولد لاب من رجالات التربية والتعليم منذ هو مصطفى الكعبازي ، الذي يحفظ له التاريخ انه ابان الاستعمار الايطالي حافظ على ادارة مدرسة عربية هي مدرسة العرفان، حتى اقفلها الفاشيون بعد وصولهم الى السلطة عام 1922، وفي بيت من بيوتات طرابلس العريقة، وكانت امه ذات ارومة تركية، فخاله ، شقيق والدته، هو العلامة ، الذي سبق عصره ، الاستاذ محمد افندي داوود، مؤسس مجلة رائدة في مجال العالم ، ربما لا سابق لها في المنطقة، انشاها في طرابلس في اواخر القرن التاسع عشر، اسماها "الفنون" ، ودرس في مطلع حياته على يد والده في اواخر عهد تلك المدرسة اي العرفان ، وعندما انتهى امرها تماما، تحول الى مدرسة ايطالية كان يقصدها ابناء البعثات الاجنبية، هي مدرسة الراهبات، لانه لم يكن يتوفر تعليما حديثا بهذا المستوى الراقي الا فيها، واكتسب في تلك المدرسة بجوار لغته العربية ولغة امه التركية لغتين اضافيتين كانتا لغة ام بالنسبة له، هما الايطالية والانجليزية، واكمل هذا التعليم في ايطاليا ثم في بريطانيا، وصار شاعرا وناثرا في ثلاث من هذه اللغات ، اي العربية والايطالية والبريطانية، وشخصيا اذهلني شعره الانجليزي ، وقد اعطاني ديوانا لم يكن قد اصدره في كتاب ولكن نشر قصصه في صحف ومجلات بينها الصاندي قبلي في ليبيا، واريته لاكثر من صديق بريطاني ، فلم يكن يصدق ان مثل هذاالشعر يمكن ان يكتبه غير شاعر متمكن من اهل اللغة انفسهم ، ولو بقى فقط في هذا المجال ، واعطاه تركيزا خاصا، لكان له شان في العالم ، لان الرجل يتغذي من موارد روحية يصعب ان يحصل عليها غيره، فقد درس الدين المسيحي ودرس الدين الاسلامي ، مما كان يؤهله لان يكتب اعمق الدراسات المقارنة عن الديانتين ، وكانت ترجمته لمعاني القرآن الكريم الى الايطالية محل ثناء من مصار الفاتيكان وعلماء اللاهوت هناك ، ولكنه للاسف لم يستطع ان يصرف جهده في هذا الشعر المكتوب باللغة الانجليزية، لان اهتماماته امتدت لحقول كثيرة اخرى ، اذ كان رساما مجيدا، وكان موسيقيا عن هواية وموهبة ، واسهم في وضع افلام وشارك في افلام عالمية مثل الخيمة السوداءو"الطريق الى تمبكتو"و"غدامس جوهرة الصحراء"، وكان من ابطالها جون وين وصوفيا لورين وساهم في افلام اخرى حيث كان دليل الفرق التي صورت افلاما عن ليبيا في الخمسينيات والستينيات مثل ليبيا الجميلة وغيرها، وكان يتحدث حديث المتخصصين في كل هذه المجالات ، في

اللاهوت، والرسم والموسيقى والشعر والتراث الديني المسيحي ، والتراث الديني الاسلامي ، وعلم الاصوات ، وعندما قام في منتصف الخمسينيات بتاسيس الاذاعة الليبية ، كان ذلك تخصص جديد اضافه الى تخصصاته المختلفة الاخرى ، وسبق ان شارك في تاسيس فرق مسرحية ، واشرف على الجانب الرياضي وقام بتدريسه في مؤسسات رياضية في فترة الشباب ، واندية ثقافية ، واسهم في تاسيس مجلة المرآة وكان يرسم لها اللوحات التوضيحية، فهو اذا خبير صحفي اعلامي، ثم جاء اكتشاف البترول وصار هواول وزير بترول ، قام بتأسيس هذه الوزارة ،التي اشرف على وضع قوانينها ، ولوائح معاملتها، فصار بالتالي خبير عالميا في البترول .

وعندما جاء الانقلاب ،الذي اطاح بالحكم الملكي، لم تشفع له مواهبه ، ولا ريادته ، ولا سجله الحافل بالوان الابداع والانجاز، في ان يلقى معاملة تتناسب مع هذا السجل، وانما كان جزاؤه سجنا استمر عدة سنوات ، وشهد كتاب يتحدث عن سيرة احد كبار رجال النفط، انه كان يواجه عقبة في ليبيا، هي نزاهة وامانة وزير النفط الليبي ، الاستاذ الكعبازي، لان الطريق يكون سالكا امنا مع وزراء الدول الاخرى الذين يرحبون بالعمولات والرشاوي ، ما عداه، وحاولوا كما قال لي الصحفي الصديق مازن البندك، الذي قرأ الكتاب وعرضه في مجلته الجيل، الوصول اليه عن الطريق الادبي ، مدعين انه قراوا له موضوعا او قصة يريدون استخدامها في فيلم سينمائي عن ليبيا ، وفعلا استقبلهم ورحب بهم ، ولكنهم يستطيعوا اطلاقا التاثير في نزاهته باي اغراء . ورغم هذا فقد عانى الاقصاء ، وعانى السجن ، واجهضت مشاريع ادبية يريد انجازها وفشل في اصدار كتب يريد اصدارها ، واقتربت كثيرا منه في بعض سنوات حياته الطويلة، التقي به في المنتديات العامة ، وازوره في بيته ، واساله ان يكتب مقالاته ومساهماته في الصحف الليبية ، فيفعل ذلك احيانا، الا انه كان يصرف جهده لتلبية تكليفات بالكتابة تصله من مجلات ايطالية متخصصه في دراسة الاديان المقارنة ، فكان ذلك اجدى له علميا وماديا، وصار له اسم كبيرفي الاوساط العلمية هناك ، الى حد ان الطاغية الليبي نفسه ، كان وهو يزور ايطاليا ويلتقي بسياسيين لهم اهتمامات فكرية وادبية ، كانوا يسألونه عن نابغة من اهل ليبيا اسمه فؤاد الكعبازي، الى حد ان جاء ذات يوم ، وبعد ان اهمله اكثر من ثلاثين عاما ، وابقاه مهمشا ، منبوذا ، طوال سنوات حكمه الماضية ، يسأل عنه ويطلب خدماته ، ويرجوه ان يكون سفيره في دولةالفاتيكان ، لكي يصدق فيه قول الشاعر

وجادت بوصل حيث لا ينفع الوصل

اذ كان قد تقدم في السن ، وتضاءلت قوته البدنية، ومع ذلك قبل القيام بالمهمة ، وذهب الى الفاتيكان سفيرا، ومندوبا للثقافة العربية الاسلامية ، في قلعة اللاهوت المسيحي الكاثوليكي، الا ان كتبا كثيرة انجزها ظلت مخطوطات تسكن الادراج، لا احد يعتني بنشرها، لانه قدمها الى شركة النشرالوحيدة في ليبيا التي جعلتها دولة الانقلا تحتكر هذه المهمة ، ورفضت نشرها عندما كان اسمه على القوائم السوداء، وعندما رفع الحظر على اسمه ، تغيرت القيادات وضاعت اغلب المخطوطات وكان عليه ان يتولى جمعها وتنظيمها وتقديمها من جديد، ولعله فعل للكن الشركة افلست وتمت تصفيتها ومعها ضاعت المخطوطات مرة اخرى سواء تلك التي تخص الكعبازي او تخص كتابا غيره، وكثيرا ما يحدث هذا الضياع عن عمد، وعن منهج وسياسة من اعلى سلطة في الدولة ، لكي لا يبقى في الساحة الا المؤلف الاوحد وكتابه الفريد الذي ليس له شبيه ولا نظير.

عاش الاستاذ فؤاد الكعبازي عمرا طويلا ، ومات وهو فوق التسعين، لحظة ان كان نظام الطاغية الذي عانى علي يديه الظلم والاهمال والتهميش يتقوض وينهار، وكان له كتاب واحد تاليفه نجا من مقصلة القذافي، هو ترجماته لاشعر عدد من شعراء الغرب وتحليله لها وتعليقاته عليها باعتبار ما في شعرهم من روح شرقية ، اذ كان قد صدر سنوات قبل الانقلاب وعنوانه " الحان عربية على اوتار من الغرب " وكتاب ثان يضم قصائد اجنبية من ترجته بعنوان قراءات في الشعر العالمي " وديوان شعر باللغة الايطالي بعنوان ليبيتكو صدر في ايطاليا ، اما بقية كتبه فلا تزال مخطوطات تنتظر النشر ان يلحقها الضياع.

بشير الجواب

كان فوق الستين عندما عرفته في مطلع الستينيات، وكان شاعرا له شهرة، دون ان يكون له شعر متداول بين الناس ، لانه لا ديوان له ، وما نشره في صحف قديمة لم يعد متيسرا العثور عليها، وكان قد توقف عن قول الشعر او نشره ، اما شهرته الاكبر والاوسع فهي انه واحد من ابناء طرابلس الوارثين، اين انه كما تقول الشائعات التي تدور حوله، ورث مالا كثيرا، انفقه في السهر ومصاحبة الغانيات، وانه عاش بلا زواج، فق سرح كثيرا وطويلا وراء ملذاته، حتى نسى نفسه ونسى تكوين العائلة وبناء البيت، وعندما افاق كان الوقت قد تاخر كثيرا ، فركن الى الراحة واستهلاك رصيده من الذكريات، وكانت صحيفة طرابلس الغرب قد اسندت اليه بعد صدورها الاشراف على الجوانب الادبية، دون ان يكون متفرغا تفرغا كاملا لها ، وحكى لي كيف انه جاءه في الصحيفة ذات يوم ، صبي اسمر اللون ، ضئيل الجسم ، ممصوص الوجه ، لا ينبيء مظهره باي مهوهة في الكتابة والصحافة ، جاء يستفسر عن مصير قصيدة ارسلها للصحيفة، ويسأل عن سبب تأخر الصحيفة في نشرها ، واجلسه بشير الجواب امامه يساله عن هذه القصيدة التي يتكلم عنها ، فقال انها قصيدة من تأليفه ، ونظر بشير الجواب باستغراب ان كان لهذا الصبي حقا علاقة بالشعر، وسأله عن اسمه ، فقال انه على محمد الرقيعي، فذهب الى رف يضعون فيه البريد الادبي ،ووجد فعلا قصيدة تعمل اسم الصبي ، فاحضرها ، وصار يقرأها ، فادهشه مستوى القصيدة وقوة سبكها واسلوبها وجمال تعبيرها ، وتمكن صاحبها من بحور الشعر واوزانه، فاستغرب ان يكتب هذا الصبي الضئيل البنية ، قصيدة لها هذه الجزالة وهذه القوة في السبك والبناء، فساله ان كان حقا كاتبها ام هو معجب بشاعر عربي نقل عنه هذه الابيات، فرأى وجه الصبي يخضر ويصفر ويحمر غضبا، ويقسم انه كاتب القصيدة كلمة كلمة وحرفا حرفا وانها انتاج عقله وقريحته، فما كان من بشير الجواب ، الذي لم يكن مقتنعا ان القصيدة من تاليف الصبي ، الا ان احضر قلما وورقا ، وقال لعلي الرقيعي " اذا كنت حقا صاحب هذه القصيدة، فلن تعجز عن تاليف بضعة ابيات هنا والان ، وليكن الموضوع عن الربيع في الطبيعة والربيع في قلوب البشر، وساتركك في هذه الغرفة بمفردك، وقتا يكفي لكتابة هذه الابيات" . وفعلا يقول السيد الجواب ، انه ترك على الرقيعي الذي قبل التحدي ، مع اوراقه ، وغاب عنه بعض الوقت ، ثم عاد ليجده قد انتهى من كتابة مطلع قصيدة جديدة مليئة باشراق الربيع ووروده وعطره وعبيرة ، لا تقل حبكة وقوة وجزالة عن سابقتها، التي انكر ان تكون من تاليف، قال ، فأخذت الصبي بالاحضان ، اعتذر عن شكي في قدرته ، واهنئه بالموهبة العظيمة التي زرعها الله في وجدانه ، وعبر له عن حقيقة ما يشعر به وهو ان هذا الفتى الصغير هو امل الشعر في ليبيا ، وانه على ثقة ويقين من

المستقبل الكبير الذي ينتظره في عالم الشعر والادب. ونشر له القصيدة التي كانت شهادة ميلاد الشاعر الليبي المتميز ، الذي رحل قبل الاوان ، على محمد الرقيعي.

وسالت السيد الجواب عن سبب توقفه عن قول الشعر ، فكان رده بانه لم يتوقف عن قول الشعر، وانه لازال يكتبه ، فسالته عن حقيقة انني لم اقرا له شعرا ولم اره ينشر اي شيء من هذا الشعر، لانني اطالع صحيفة طرابلس الغرب والرائد، ولم يكن هناك وقت ان كنت التقي به غيرهما في طرابلس ، فقد ظهرت الليبي واختفت ، والطليعة واختفت ، والمساء واختفت، فاين تراه هذا الشعر؟ ام تراه يقول ذلك ساخرا؟ لانه بقى صامتا ، ولم افهم لصمته تفسيرا، وبدا لي انه يتكلم جادا، صادقا، لا هزل في طريقة كلامه ، ولا في ملامح وجهه، وشرح لي ما كان غامضا على الفهم ، وهو انه يكتفي بانه يكتب بيتا واحدا من الشعر كل عام.

ولابد انني اردت ان اضحك، الا ان جدية الرجل وسمته الوقور وهو يتجاوزني سنا باكثر من اربعين عاما، جعلني اكبح نفسي عن الضحك ، وبدلا من اي تعليق ساخر ، قلت له ان بيتا يستغرق الشاعر في كتابته عاما كاملا لابد ان يكون بيتا يستحق وزنه ذهبا، فابتسم ولم يقل شيء، فاضفت ان معنى ذلك ان قصيدة من عشرين بيتا تحتاج الى عشرين عاما ليكمل كتابتها ، فهز راسه مصدقا على ما اقول ، سارحا ربما في تامل البيت الذي كرس له السنة التي بين يدينا، وعندما تجرات وسالته ان يطلعني على اخر بيت كتبه، وجدته في الحقيقة نظما لا يستحق عناء حفظه والاهتمام بان يضيف اليه بيتااخر او لايضيف ، ولعله لم يستطع خلال ما تبقى له من اعوام ان ينتهي من كتابة قصيدته التي بدأها في اعوام عمره الاخيرة، فقد مات وحيدا في مكان اقامته واظنه بقي اياما قبل ان يكتشف الناس موته.

كان السيد الجواب واحدا من اصدقاء الشيخ على مصطفى المصراتي ، وكان هو مصدر معلوماتنا عن ماضي هذا الرجل الطريف الظريف ، وقد كتب ترجمة مختصرة لحياته في كتابه " في الزحام" واشتهر بسهراته في ملهى سوق المشير بانه كان ينافس الحاكم الايطالي بالبو على استقطاب حب عشيقاته، وكان يغري الواحدة منهن ، بان يمنحها من الليرات الذهبية ، ما يعادل ذوبان الشمعة عند مجالسته لها، بمعنى ان يضع عمودا من الليرات الذهبية بموازات الشمعة ، فاذا قضت معه وقتا يعادل الزمن الذي ذابت فيه الشمعة ، تاخذ عمود الليرات ، واذا الوقت انتهي عند منتصف الشمعة اخذت نصف العمود، وقد اعتمدت عليه في رسم صورة لاحد شخصيات رواية "خرائط الروح".

وكان السيد الجواب صاحب شخصية مرحة، ر اراه رغم الشيخوخة ، الا والابتسامة على شفتيه ، انيقا دائما، يرتدي البذلة الكاملة وفوقه الطربوش المتميز الذي لفرط قصره يشبه الطاقية الليبية، واذا كان قد مات وحيدا، فقد عاش حياته طولا وعرضا وعمقا كما اراد، او كما تسميها الاغنية الشهيرة لفرانك سيناترا، I did it my way ، وعاش هذه الحياة المتحررة في قلب المجتمع الليبي ، الذي كان في تلك العقود اي العشرينات والثلاثينيات والاربعينيات ، في اوج تزمته وانكماشه وانغلاقه ، فكان يمثل شخصا استثنائيا بكل المقاييس ، رضوان الله عليه.

كاظم نديم

قولة حق لا مراء ولا مشاحة فيها ، بان رائد التحديث والتجديد في الالحان والغناء في لبيا في العصر الحديث هو الفنان الحاج كاظم نديم، وذكرت في متن السيرة الذاتية انه اول شخصية فنية شهيرة اقابلها في حياتي، عندما ذهبت اليه في الاذاعة ، اخر الخمسينيات ، وكان رئيسا لقسم الموسيقى ، اعرض عليه ان يأخذني مطربا في الاذاعة.

وخلال مايقرب من خمسة وستين عاما من حياته، يعني منذ مطلع الاربعينيات ، الا ملاقته وجه ربه عام 2007، وكاظم نديم تحت اضواء الشهرة ، لم يناسفة في قوة الشهرة وذيوع الصيت في بلاده وفي مجاله، اي شخص اخر في البلاد، ولم تغب عنه هذه الشهرة، حتى خلال العقود التي تمحور فيها الاعلام وتركزت فيها الاضواء على رجل واحد، هو الملازم الذي قاد الانقلاب ، ورغم كل سياسات الاقصاء ومحو الاسماء، فان احدا لم يستطع ان يسحب الاضواء من فوق اسم ورسم كاظم نديم، لانه صار بالنسبة لابناء وطنه كانه اسم واحد من افراد العائلة، لا يذكر الفن، ولا تذكر الاغنية، ولا تذكر الموسيقى الليبية، ولا يذكر كل ذلك مقرونا باسم كاظم نديم ، فظل اسما عصيا عن المحو النسيان والاهمال. وبعد ان مات، لم يزده الموت الا اكتمالا، وصعد نجمه ليأخذ مكانه في سماء الله بين كوكبة الخالدين، الذي يشعون القا ونورا في سقف الكون .

كنت احبه واحرص على لقائه، واجد ترحيبا عظيما منه عندما ازوره في بيتا كعضو في سهرات فنية يقيمه لاصدقاء الاعزاء في بيته، كما كنت اثناء اقامتي في طرابلس اسعى لتاليف مجموعة متجانسة من ليبيين، واصدقاء من السلك الديبلوماسي العربي، وكنت اضع الفنان كاظم نديم على راس القائمة، لان به تحلى الجلسات ، ليس لانه دائما يضع الة العود، في سيارته، جاهزا دون من ولا تردد في احياء السهرة، ولكن ايضا حتى جلسات المقهى، دون عود ودون غناء، كان يحمل في حديثه وفي شخصيته، مادة مزيلة للكآبة، في مثل ليبيا، في عهدها الانقلابي بالدات ، عندما كان النكد ، وكانت الغصص، وكانت الكآبة، قوتا وخبزا يوميا ، لابد لكل مواطن ان ياخذ منه نصيبه ، كاملا غير منقوص، فكان وجود كاظم نديم في طرابلس، اشبه بمزيل لهذا النكد وهذا الغم، ومهما ادلهمت السماء بالسحب السوداء، وغردت غربان سوداء في اجواءالفن الليبي ، تطرد كل كروان مغرد ، وكل بلبل داح، كان كاظم نديم ، وهو المستهدف لحملات التشويه وهجمات الخفافيش والغربان ، يقابل ما يحدث بابتسامة ، وبلا غضب ولا زعل، وكانه يومن ان الغضب لا يضر الا صاحبه ، ولهذا فهو يمتليء ثقة بنفسه وبفنه وبموهبته العملاقة، وينظر ساخرا، هازئا ، من الغربان التي تحوم باجنحتهاالسوداء الكريهة ، الخفافيش التي يصدم بعضها بعضا لانها لا تستطيع ان ترى في النور، مدركا ان هي الا حادث عارض طاريء، وان سماء الفن في ليبيا، لن تصادرها هذه الخفافيش والغربان ، ستاخذ مداها القصير البائس وستنتهي وينتهي نعيقها، وستعود عنادل ليبيا المغردة لتصدح في سماء البلاد، تسعد الناس والدنيا بانشادها العذب الجميل. ابدا لم يعرف اليأس الى قلبيه سبيلا، لانه كان يحمل مخزونا من الفرح والامل والتفاؤل يواجه به الواقع وحقائقه المؤلمة ، ويعرف كيف يتعامل مع هذه الحقائق، ليس بقبولها، ولا بالاستسلام لها، ولكن بتجنب الدخول في صراع معها. انه يعرف كيف يناور ويداور بحيث يتجنب الاذى الذي يمكن ان ينتج على الاصطدام بها، دون ان يعني ذلك جبنا او خوفا. واضرب مثلا بحادث جلل على المستوى الفني ، هو حرق الالات الموسيقية ، فقد عهد لكل من امين الاعلام وكان اسمه محمد شرف الدين، ومدير الثقافة وكان اسمه صادق دهان ، بمهمة

اقامة جبال من الالات الموسيقية ، التي قالوا انها غربية مثل الات البيانو والشيللو والكمان والقيتارة، وحرقها، وفعلا ذهب هؤلاء القادة الثقافيون واتباعهم ، من اعضاء اللجان الثورية الهمجية الاجرامية، يحملون المشاعل وحرقون هذه الالات الموسيقة ، وردا على صيحات الاستنكار التي ارتفعت من كل بقعة في العالم ، اقامت القناة الليبية، ندوة للدفاع عن الحرق باعتبارهثورة ضد الغزو الثقافي الاجنبي ، ولا اذكر النكرات التي اقامت الندوة ، ولكن هناك بالتاكيد من يعرفها باعتبار انها اختارت ان تضع اسماءها في سجل العار، ولكن للاسف الشديد، كان بينهم فنان كبير من جيل الرواد هو الاستاذ حسن عريبي، الذي كان ظهوره في هذه الندوة محل موجة من اللوم السخط والتقريع ، وكنت واحدا من هؤلاء اللائمين ، واقسم لي انه كان مرغما، وانه جاءه اتصال من الاذاعة للمشاركة في الندوة فرض، الى ان جاءه اتصال من مكتب الملازم القائد، نفسه، ولم يكن امامه كما قال لي، الا ان يدعن للامر ، ويوافق على الظهور واذكر انه منظره كان حزينا بائسا وهو يضع نفسه في هذه الخانة المهينة المؤلمة. اما كاظم نديم، واشهد شهادة حق وصدق ، فقد كان يصيح باعلى صوته في كل منتدى ، وكل جلسة ، وداخل الاذاعة وخارجها، مستنكرا ما حدث ، ولا اعتقد ان واحدا من اهل المجال لم يسمع صرخات الاحتجاج ضد هذه الوحشية، وهذه البربرية، وهذه الحملة التي لا يجدر الا بتتار العصر، القيام بها ضد قيم الحضارة واهم رموزها ، الالات الموسيقية ، قائلا لكل من يجادله من اهل النظام ، انه يستطيع ان يرجع كل كالة الى اصلها العربي، او على الاقل الى جذورها في المنطقة العربية منذ عصر الفراعنة ، فهذا الكمان ليس الا الربابة العربية ، في مرحلة من مراحل تطورها، وهذا الهارب ليس الهارب المرسوم على قصور الفراعنة ، قبل التاريخ، وهذه الة اصلها المندولين ، وتلك اصلها الناي ، وهكذا دون هواده ، يجادلهم بمنطقهم ويرد على اطروحاتهم الهمجية بلغة الحضارة ولغة الفن واعتبار الموسيقى ارثا انسانيا مشتركا لا يقبل لغة الصراع وهذا غزو وهذا شرق وهذا غرب .

كاظم نديم، هو مكتشف اغلب نجوم الغناء ، مثل محمود الشريف ، وسلام قدري ، وخالد سعيد وغيرهم ، وقدم ايضا عددا من الملحنين، مثل عبد الباسط البدري، الذي كان تلميذا من تلاميذه، وكان محبا لتلحين القصائد ، وقد هداه ذوقه الراقي ، احدى اجمل قصائد الغزل فبدأ بها مسيرته الفنية وهي صلوات في هيكل الحب ، لابي القاسم الشابي ، والتي يقول مطلعها

عذبة انت كالطفولة كالاحلام كاللحن كالصباح الجديد

وكان محبا للشعر والشعراء، احرص كلما جاء شاعر عربي كبير على ان يتعرف عليه، وفعلا حصل هذا مع نزار ومع عبد الوهاب البياتي ومع صلاح عبد الصبور، وقد قام بتلحين اغنية لنزار ولم يكن هناك صعوبة في اختيار قصيدة له، كما استجاب لرغبة الاستاذ البياتي ، ان ينتقي قصيدة من اشعاره، وليعتبرها كما قال الشاعر العراقي الكبير هدية منه ، ليقوم بتلحينها ، ولان اغلب شعر البياتي ،شعرا صعبا بما فيه من تركيب وتعقيد ، فقد سالني باعتباري اكثر اطلاعا على اعمال هذا الشاعر اختيار قصيدة يقوم بتلحينها، وفعلا اخترت له قصيدة المستحيل ، التي يقول مطلعها

يطوف حول السور مستجديا

تنهشه مخالب الموت

يصيح من الاعماق

يا انت

آبارنا مسمومة وسندباد الريح لا ياتي

فوضع لها لحنا جميلا واعطاه لتلميذه النجيب خالد سعيد فاجاد الاداء والانفعال ، وغناها بصوت الرخيم لتضيف الى رصيده في الغناء الشعبي هذه القصيدة الخالدة.

وجاء حبه للشعر الفصيح وترصيع سجله بمثل هذه الدرر، من انه بدأ حياته مدرسا للغة العربية ، ونحوها وصرفها ، وكان لديه حس بالكلمات يجعله قادرا على التاليف ايضا ، وله فعلا اغنيات من تاليف والحانه ، الا انه كان يفضل ان يترك التأليف لاهله، بمثل ما ترك الغناء نفسه لاهله بعد ان بدأ حياته مغنيا، ليمنح جهده كاملا للتلحين ، كما كان منخرطا في المجال المسرحي ، منذ بدايات اتصاله بالحركة الفنية ، فقد بدأ في الاربعينيات ممثلا مع نادي الاتحاد، وقام ببطولة مسرحية خالد بن الوليد، ومسرحيات شعبية كثيرة اخرى مع الفرقة القومية، قبل ان يصبح هو نفسه مديرا لفرقة المسرح الوطني التي انشأتها الدولة ، كما اصبح مديرا لقسم التمثيل بالاذاعة.

يقول عن اول مرة اهتدى فيها لموهبته في التلحين ، انه كان في عقد الثلاثينيات ، صبيا في فرقة الانشاد في الاذاعة، اي الحصة العربية التابعة لاذاعة الراي الايطالية، تحت اشراف الشاعر المعروف احمد قنابة، وكان من عادة الاستاذ قنابه، ان يكتب الكلمات في ورقة ، ويعطيها لاكبر هؤلاء الاطفال وهو كاظم نديم ، ليقوم بتحفيظها للفريق بعد ان يدندن له اللحن، ويعود الشاعر في اليوم التالي ليجد الفريق جاهزا لدخول الاستوديو، واعطاه ذات يوم الكلمات واللحن، الا ان اخانا كاظم ، كما يقول ، احتفظ بالورقة ولكنه نسى اللحن، وكان لابد ان يجد حلا ، لانه لم يكن يستطيع ان يجد السيد قنابه ليساله عن اللحن ولا بد ان ياتي اليه في اليوم التالي مع الفريق جاهزين للاستوديو، واجتهد حتى استحضر اللحن بالصيغة التي راها ، وقام بتحفيظه للمجموعة ، وجاء وقت التسجيل ، فاذا بالاستاذ قنابه ، يفاجا بانه لحن غير الذي اعطاه له، وسال كاظم نديم فارتبك واعترف وهو خجول انه نسى اللحن وحاول ان يتذكره فلم يجد الا هذه الصيغة التي ظنها مطابقة له، فابتهج الاستاذ قنابه وعبر عن سعادته بما سمع ، واخذ كاظم نديم بالاحضان ، قائلا له بان لحنه افضل عشرات المرات من اللحن الذي اعطاه له ، وكان لحنا مقتبسا من اغنية شرقية ، وصار يترك له بعد ذلك اختيار الالحان ،وكان ذلك اليوم هو يوم تعميد مولفا للالحان وعمره لم يكن يزيد عن عشرة اعوام ، وواصل المسيرة، موهبة اشعت في سماء الفن في ليبيا ، ومازلت تملأ فضاء الفن اشعاعا والقا على مدى الزمن باذن الله.

محمد الكعبازي

كان الفنان الشهير الثاني الذي تعرفت عليه، صحبة الفنان كاظم نديم، هو محمد الكعبازي، كان مطربا وملحنا ذائع الصيت ، وان لم يكن في مثل شهرة رفيقه وصديقه ورئيسه في قسم الموسيقى، وتركزت سمعته في قوة اهتمامه وجمال ادائه للاغنية الطرابلسية الاصيلة ، وكنت دائما اردد اغنية شهيرة له ، في ذلك الوقت ، ذات لحن خفيف وايقاع سريع، تقول كلمات مطلعها

فكرتني في اللي امشي ونسيته

بلغ سلامي ليه كانك ريته

وكان هو الذي استدعاه كاظم نديم في حضورى وطلب منه في لغة مهذبه ان يتولى اجراء اختبار لي، وكان الفنان كاظم مديرا للقسم بينما الفنان الكعبازي رئيسا للفرقة الموسيقية، فقادني الى ركن في صالة التمارين ، التي كانت فارغة في ذلك الوقت، حيث يوجد جهاز البيانو، وجلس امام لوحة المفاتيح، واجلسني بجواره ، لكي يرافق بالعزف ما سوف اسمعه من محفوظاتي في الغناء، ويحكم من خلالها على صوتي ، بالاستحسان والقول ، او الاستهجان والرفض.

طبعا لم تسفر تلك الزيارة الى قسم الموسيقى في اذاعة شارع الزاوية ، عن اية نتيجة تضمن لي مستقلا في عالم الغناء، لكنها لم تترك في نفسي اية نقمة على اهل الموسيقى ، وبالذات من قاما باختباري ، او تحميلهما جريمة اجهاض احلامي في ان اكون نجما من نجوم الغناء، اقتنعت بعد فترة ان ما فعلته لم يكن الا نزوة عابرة ، وان تلك المحاولة للالتحاق باهل الموسيقى والغناء ، الا تعبيرا عن حيرتي في العثور على موهبتي وشخصيتي الفنية ، التي صرت اتلمس لها طريقا في المسرح تمثيلا واخراجا وكتابة ، وفي التعبير الادبي عموما، ونظرت لاول لقاء جمع بيني وبين كل من الاستاذين كاظم نديم ومحمد الكعبازي، باعتباره تاسيسا لعلاقة وصداقة ، وعندما تكرر اللقاء بكل منهما على انفراد، اقبلت عليه احييه كانه صديق قديم ، حدث هذا مع الفنان كاظم نديم ، الذي تعددت لقاءاتي به، لانه كان رجل منتديات واجتماعيات وحضور دائم في مقاهي العاصمة، ومتابعة لحفلات العرض المسرحي ومختلف الاماكن التي ارتادها، بينما كان الكعبازي رجلا خاصا، بيتوتيا، يذهب الى قسم الموسيقى ويعود الى بيته، وتصادف ان كان هذا البيت ملاصق تماما لمقر فرقة الامل في شارع هايتي، وكنت قد بدأت انشر مقالاتي في الصحف واتعامل معها كصحفي يجري المقابلات وينقل اخبار الاحداث الفنية والثقافية، واردت اجراء لقاء معه، الا انني تهيبت ان اقتحم عليه عزلته واطرق عليه بيته ، دون موعد، وهذا الموعد يبدو صعبا الحصول عليه ، لان الهواتف لم تكن في ذلك الوقت متوفرة لدى كل الناس، وحدث ان رايت الباب الى بيته مفتوحا لمناسبة ما، وهو بيت في الطابق الاول له مدخل خاص وسلالم تقود اليه ، ورايت اناس يدخلون ويخرجون لوجود مناسبة ما، وكانت المناسبة ان طفله المبروك وكان في الرابعة والخامسة تاه من احد افراد الاسرة في الشوارع والازقة الخلفية ، المتفرعة عن شارع الساعدية، فاثار ضياعه حالة من القلق ، ثم عثروا عليه فانقلب القلق الى فرح، والباب مفتوح للمشاركة في الفرح والتهنئة بعودة الطفل الضائع، وصعدت السلالم ، ووجدته محاطا بعدد من الافراد ، يستقبل الناس في حفاوة وفرح، وذكرته بنفسي فزاد ترحيبه بي ، وافصحت له عن رغبتي في اجراء اللقاء الصحفي، فرحب بالفكرة، وتركته لفترة من الوقت حتى يفرغ من الحديث لضيوفه ، وعدت اليه لاجراء المقابلة الصحفية ، وكنت ما ازال في بداياتي ، لم اتقن بعد بروتوكولات اللقاءات الصحفية ،وان هناك مما يقال اثناء الحديث ، في اطار المودة والثقة ، وليس للتسجيل ، خاصة اذا حمل نقدا قاسيا او تشهيرا باحد الناس، وفعلا كتبت تحقيقا صحفيا لاقيت عليه ثناء كثيرا، واثار اعجاب عدد من الناس ، ولكن الرجل تعرض لمتاعب كثيرة من زملاء في الوسط الفني ، وربما رؤساء في الاذاعة ، لانني كتبت كل ما قال ، وكان بعضه يقوله لي بشيء من العفوية ، باعتباره مكاشفة ومصارحة لي ، وليست بغرض نقلها للرأي العام ، وفعلا ذهب

يبحث عمن ينقل اعتذاره لمن اعتبروا كلامه اساءة اليهم ، ويتراجع عن بعض اقواله ، ولجا الى صحيفة الرائد التي كلفت الزميل عبد الرحمن الشاطر، يجري حديث الاعتذار والتراجع ، وربما نالني بعض النقد واللوم متهما لي بسوء التحوير والتحرير والصياغة التي اخرجت كلامه عن سياقه.

اجرت الاذاعة مسابقة في بداية الستينيات ، ونالت الاغنية العاطفية الجميلة التي صاغ كلمتها المؤلف الغنائي عبد السلام قادربوه ، وقام بتلحينها الفنان يوسف العالم ، وغناها المطرب صاحب الحنجرة الذهبية محمد صدقي الدرجة الاولي في الغناء العاطفي وهي الاغنية الخالدة " طيرين في عش الوفاء، باتن سهارى كنهن؟"، واراد الاستاذ محمد الكعبازي ان يدخل التلحين لفرع من هذه المسابقة هو النشيد، فوجد انه جاء متاخرا، لان كل كلمات الاناشيد قد اخذها بقية الملحنين ، ولم يبق الا نشيد واحد لم يقبل احد على اخذه ، لتعقيد قافيته ، وتعدد اوزانه ، وغرابة تركيبه ، فسأل ان كانت هناك كلمات نشيد غيره ، فلم يجد ، وكان موعد المسابقة قد اوشك على النفاد ، وهو يريد الا تفوته المناسبة ، ربما لان هناك مكافأة مغرية يريد ان يسد بها احتياجا ضروريا، اذا تصادف وفاز، وهو واثق من فوزه ، لانه واثق من امكانياته، ولكن ليس مع هذا النشيد، فبالتاكيد ان غيره ممن اخذوا كلمات لكتاب معروفين بيسر وسهولة وبساطة كلماتهم ، ستوفر جوا افضل للتلحين ، فماذا يفعل ، الحقيقة توكل على الله واخذ كلمات هذا النشيد الذي تقول "عهدين عهدين عهدين ، واحد بالدما عدا والثاني شع نورا "، وعكف على تلحينه مستجيبا لتحديات النص الذي تتعدد فيه القوافي ، وينتقل في كل فقرة الى بحر من بحور الشعر مغايرا لما قبله ، ونسق يختلف عن فقرات اخرى، فاذا بالكعبازي يبدع لحنا تجلت فيه عبقريته في التلحين ونال عن جدارة الجائزة الاولى في التلحين ، وبرغم انه نشيد وطني، فقد صار له من الشعبية ما نافس اكثر الاغاني العاطفية شهرة في السوق وفي الاذاعة، وكنت اسمع الحاج كاظم نديم ، يجعل عنوان النشيد اسما لمحمد الكعبازي فيناديه مداعبا ومكبرا هذا الجهد الذي بذله في تحلين النشيد، تعالى يا سيد عهدين، او هاقد جاء صديقنا عهدين ، وهكذا.

هناك علاقة قريبة تجمعه بالاستاذ فؤادى الكعبازي من جهة وعلاقة اخرى لم اتبينها ربما من ناحية الام تجمعه بالملحن الرائد الاستاذ بشير فهمي فحيمة ، ولكنه كما علمت ينتمي للفرع الفقير في عائلة الكعبازي، الى حد ان هذا الفنان نفسه بدأ حياته اسكافيا، كما يقول عارفيه قبل ان تنشأ الاذاعة وينتقل اليها عازفا وملحنا ومطربا، والتقط ثقافته عن طريق اختلاطه بالايطاليين الذين اتقن لغتهم كتابة وقراءة وحديثا وتعلم عزف الة الشيللو عن طريق استاذه الايطالي ، اسهم في تاسيس الاغنية الليبية ذات النكهة واللون الليبي، التي انتشرت بعد ان صار للبلاد اذاعة وطنية تاسست على يد احد ابناء عائلته الاستاذ فؤاد الكعبازي ، وله دور بالتاكيد في تشكيل واجدان جمهور الاغنية الليبية ، برصيد هائل من الاغاني التي قام بادائها والالحان التي قام بتاليفها بحسه الرقيق وموهبته الفذة وعمق اتصاله وتواصله مع البيئة الطرابلسية وتجذره في هذه البيئة وما يملكه من طاقة الاخلاص لها ولكل وطنه ليبيا، وكان قد غادر الحياة مبكرا وكان في الثانية والخمسين من عمره، فهو من مواليد عام 1921، وتوفي عام 1973، ورغم حياته القصيرة فقد ترك الحانه الكثيرة ، التي قدمها لاغلب مطربي ليبيا من معاصريه مثل محمود الشريف وسلام قدري ومحمد رشيد مع رصيد كبير من الاغاني التي تولى اداءها بنفسها ولازالت كلها

تطرب اجيال جديدة ولدت بعد رحيله وتلقى الاحتفاء والاهتمام في شتى مواقع الانترنيت وصفحات التواصل الاجتماعي .

عبد العزيز الرحيبي

عندما بدأت تعاملي مع الاذاعة، عام 1961، كان مديرها العام هو الشيخ صالح الشنطة، القادم من حقل التعليم، وكان نائبه هو الاستاذ عبد العزيز الرحيبي، القادم من نفس الحقل، وللمدير ونائبه، اهتمام بالشأن الثقافي العام، ففي حين كان للمدير اسهام في قرض الشعر وكتابة كلمات الاغاني، كان النائب مجرد محب للشعر والثقافة دون ان يمارس الكتابة، وكان صحبا لفتى لم يكمل سن العشرين، يتقدم للمساهمة بباب يومي في الاذاعة، ان يجد القبول والرضا ، من قبل مثل هؤلاء المدراءى ، وكنت منذ ان طرقت باب الاذاعة لاول مرة وجدت هذا الرجل يستقبلني استقبال الاب لابنه، بابتسامة تغطي كل ملامح الوجه، وكلمات دافئة حانية عطوفة، فصرت لا ارتاح لاحد اتعامل معه ، ولا اسمل مادتي لاحد غيره، ولا ارى في الاذاعة انسانا يمكن ان اتواصل معه بحب وحماس غيره، وكان يهتم بقراءة ما اقدمه له، فيجيزه ليأخذ طريقه للبث في برامج الصباح، وكانت ملاحظاته تقتصر على شيئين لا ثالث لهما، الاول هو ما كان يتكرر من اخطاء في النحو، وكان يقول متجاوزا عن هذا العيب ، ان المذيعين يملكون من التاهيل اللغوي، ما يضمن تصحيح هذه الاخطاء، والنقطة الثانية هي انني اعمد في حالة كثيرة الى استخدام كلمات عامية، وهي مسالة اقوم بها عن قصد، لانني اتعامل مع وسيلة اعلامية تخاطب كل المستويات شفاهة ، فاردت ان اكرر استخدام هذه المفردات الشعبية تبسطا وتقربا من المستمعين، وهو لا يقر هذا المزج بين المستوى الفصيح والمستوى العامي في اللغة، فهناك برامج باللسان الدارج، هي المعنية بمخاطة الناسة بلغة الاستعمال اليومي في الشارع والبيت، وهذه برامج يجب ان تبقى فصيحة ، لا يشوب فصاحتها اية تعبيرات او مفردات عامية . عدا هذين النقطتين، فلم يكن له اي تعليق ، تاركا لي ان اتناول القضايا التي تناسب فترة الصباح، وهي فترة لها تقاليد معروفة محفوظة، مثل ان يتجنب كاتب المادة الصباحية ان يذكر شيئا يجلب التشاؤم والتطير، او يحرك المواجع والالام ، وانما الاجتهاد في تقديم مادة تزرع الامل في النفوس ، ويدفعهم للذهاب لاعمالهم مستبشرين فرحين متفائلين بيومهم الجديد.

انتقل السيد الرحيبي الى مرفق اخر، من مرافق وزارة الاعلام والثقافة، كما اصبحت تسمى، هو مرفق المطبوعات ، لعله مركز النائب للمدير الاستاذ احمد يونس نجم، وانتقل اليه حاملا معه ما يتمتع به من اريحية وصفاء ونقاء، وذات الوجه البشوش الذي يستقبل القادمين عليه بالترحيب والاستعداد لقضاء المصلحة، وكانت المطبوعات في تلك الفترة، تشرف على مراقبة الصحف الاجنبية، ومصادرة بعضها، وكان اهل هذه الصحف او متعهدو توزيعها ياتون اليه عندما يحسون بان ظلما احاق بهم، فيجدون لديه ما يذهب عنهم السخط وما يضمن لهم الانصاف، خاصة وان المدير الاستاذ احمد نجم، كان لا يقل اريحية وبهاء وطيبة وفهما عن الاستاذ الرحيبي ، ولم تكن صلتي به في عمله الجديد، تشبه صلتي القديمة وهو في الاذاعة، عندما كان يجيز المادة ويامر باذاعتها، فهو هنا يتولى منصبا اداريا لا علاقة له بالصلة القائمة بين المحرر ورئيس التحرير ، ولكنني كنت احب ان اذهب اليه ، واستعين برأيه فيما يعرض لي من مشاكل سواء داخل مجال العمل او خارجه، فاجد عنده القلب العطوف والرأي السديد، واجد انني افضل حالا بعد لقائه مما كنت عليه قبل اللقاء. ولا ادري ما حصل بعد ذلك من تحولات نالته في المجال

الاداري، ولكنني اذكره سنوات بعد الانقلاب وقد تولى مهمة الاشراف على اهم مكتبات طرابلس العامة وهي مكتبة مصطفى قدرى معروف ، وهناك استانفت التردد عليه ، والاستئناس بطلاوة حديثه وبهاء شخصية ولمسة التصوف والتقوى والجمال الروحي التي يتمتع بها ، وكان يعينه في ادارة المكتبة كاتب اثر الانسحا الى مناطق الظل، وتوقف عن المشاركة في الصحافة والاذاعة بكتاباته، هو الاستاذ محمود بريون، وهو صديق اثير الى نفسي ايضا، فاجدهما مثل واحة من الظل والماء في واقع التصحر التي كانت تعيشه ليبيا في مطلع الثمانينيات . وحضرت واقعة حصلت اثناء وجودي في مكتب الاستاذ الرحيبي، فالمكتبة تفخر بانها تضم مجلدات صحيفة طرابلس الغرب، فقد ظلت ومنذ اعادة صدورها في الاربعينيات كما الاهرام في مصر هي سجل وديوان الحياة الليبية في الزمن المعاصر ، وقد جاء مبعوث من الادارة التي تتبعها المكتبة، يحمل طلبا من مديرها صادق دهان، لاستعارة اثنين او ثلاثة مجلدات من الصحيفة، فابلغه ان تقاليد المكتبة ، تسمح بخروج المجلدات ، ومن اراد الرجوع اليها فليات وينقل او يصور المادة التي يريدها، وخرج المبعوث ، وعاد يحمل امرا مكتوبا من ذلك المدير ، بضرورة تسليم المجلدات المطلوبة الى المبعوث ، وربما ارفقها بمكالمة هاتفية تفيد ان جهة اعلى تطلب هذه المجلدات، وكانت ورطة وجد فيها الرجل نفسه ، وبالم وضيق وغصة في الحلق ، امر باحضا ر المجلدات ، وكتب وصلا قام المبعوث بتوقيعه ، والتفت بعد خروجه قائلا لي بمنتهى الاسى والحزن

ـــ لقد خسرت المكتبة هذه المجلدات ، وسيبقى مكانها في الرف شاغرا الى ان يرث الله الارض ومن عليها.

ولعل المكتبة خسرت في العهد الانقلابي مزيدا من مجلداتها، ولكنني على ثقة من صدق نبوءة الاستاذ عبد العزيز الرحيبي ، وسيجد من يذهب لتفقد مكتبة مصطفى قدري معروف ، مكان ما تم سحبه من مجلدات شاغرا حتى هذا اليوم .

كامل الفزاني

لم يكن قد تجاوز مرحلة الشباب، لكنه اكبر سنا مني ومن اغلب الاعضاء في فرقة المسرح الجديد، الا انه جاء يحمل حماسا واستعدادا للعمل والتعاون اكثر من جميع الشباب الذين يصغرونه سنا، كما يحمل خبرة اكثر منا جميعا في مجال الثرات الشعبي ، ورغبة في حل مشاكل الفرقة في العنصر النسائي ، فهو صاحب خبرة من الفنانين الشعبيين الذين يقدمون برامج التراث الشعبي في الاذاعة، ولعله شارك مع اعضاء هذا البرنامج في تقديم بعض الفقرات الاستعراضية على المسرح، وظهر لي من لقائي الاول به انه لم يكن املك غير حصيلة ضئيلة من التعليم قد لا تتجاوز امكانية فك الخط، وجاء به عضو آخر من اعضاء الفرقة وقدمه لي باعتباره قادرا على حل مشكلة العنصر النسائي وانه يعرف عددا من العاملات في برامج التراث الشعبي ، حيث يشاركن في ترديد الاهازيج والاغاني ، ورغم ان جميعهن فنانات يعملن بالسليقة والفطرة ولا يملكن تعليما ولا موهبة ، وينتمين في الاغلب لمغنيات الاعراس ممن يطلق عليهن " الزمزامات" فان ايا منهن يمكن ان تسد فراغا مرعبا نعاني منه في المسرحيات التي نسعى الى تقديمها، واندمج السيد كامل في الفرقة ، واعطيته على ما اذكر دورا صغير في مسرحية ثمن الحرية التي كنا نجري تمارينها، ولكن المفاجأة التي جاء يحملها لنا ذات يوم هي حفظه وتلحينه لبعض المنولوجات الساخرة الضاحكة ،

التي كان قادرا على ان يؤديها بجدارة واقتدار ، تصل الى مستوى تلك التي نسمع ونشاهد ابطال هذا اللون الساخر يؤدونها في مصر ، مثل حسن فائق واسماعيل ياسين ومحمود شكوكو وحسن المليجي ، بل لا ابالغ اذا قلت انه يتفوق عليهم في لمسة انسانية تحيل المؤدي الى كاركاتر اكثر منه كاريكاتور، وانه لم يكن قد افسدته تقاليد التهريج والمبالغ التي عادة ما ترافق المسرح التجاري ، والتي يلجأ اليها اولئك الشرقيون لاستقطاب الجمهور، كان يؤديه بانفعال واحساس ويتمثل الدور الذي يؤديه فهو الزوج الحائر بين امه وزوجته متمزقا بين ولاءه للام وواجبه نحو زوجته قائلا في احدى هذه المنولوجات

بين امي ومراتي

ضاعت نصف حياتي

يبوا قاضي

باله فاضي

يرضيهم يوماتي

والحقيقة انه اسعدني جدا ان ارى في هذا الفنان الذي قادته الصدقة الى مركز الفرقة بشارع قوس الصرارعي، نابغة من نوابغ الاضحاك والتمثيل الساخر، وكنت اعرف من متابعتي للمشهد الفني في الخارج كيف ان اضحاك الناس ،عملة نادرة ، وعملية شديدة الصعوبة ، وان اقطار العالم تحتفي بظهر فنان ساخر لديها ، احتفالا كبيرا، سواء كان في التمثيل او الرسم او التاليف ، وكنت على يقين ان طريقه الذي يبدأ اليوم بالمنولوج لن يقف عنده، وانما سيتطور ويصعد كما حصل مع النجوم الذين نعرفهم في مصر في هذا اللون واصبحوا نجوم افلام ومسرحيات ، تماما مثلما حصل مع اسماعيل ياسين الذي كانت افلامه في ذلك القوت ، تسيطر على السوق السينمائي العربي ، اعرف طبعا انه لا وجود لصناعة سينما في ليبيا، ولكن كامل سيجد امامه المسرح وقد يبتسم له فتزدهر هذه الصناعة علي يديه في بلادنا.

لم يكن كامل الفزاني كما احاول ان اتذكر الان يملك عملا ثابتا، يجلب له رزقا، وربما اقتصر هذا الرزق على بعض استمارات الانتاج في الاذاعة ، نظير مشاركته في الاهازيج والاغاني الشعبية، ما ناحية العنصر النسائي ترددت فعلا بعض النساء اللاتي كان لوجودهن فضل اقبال مزيد من الرجال على التسجيل في الفرقة، الا انهن لم يكن ذوات جدوى ، لاننا قطعنا شوطا في التمرين على مسرحية ثمن الحرية التي لم نضع فيها دورا لاية امراة واقتصر انتفاعنا على هذه العناصر النسائيةعلى تلك التي اسمها قبلية واعطيناها اسم وردة واردنا تقديمها في فقرة راقصة فنتجت عن وجودها فوق المسرح كارثة كادت تعصف بالعمل كله لما ارتكبته من اخطاء، وكنا نساء لا يحملن موهبة ولا حبا للمسرح يبحثن عن مقابل نظير الخدمة التي يقدمنها ، فكان لابد ان يتركننا الى فرق اخرى ربما تستخدمهن في ادوار صغيرة نظير مبلغ من المال ، وكان نجاح كامل الفزاني مبهرا في اداء المنولوجات التي اداها ، وكان منلوجه الثاني

سخرية من الوقت الذي يقضيه الناس مع حلقات الشاي في حديث القيل والقال والغيبة والنميمة ، اذ يقول في هذا المنولوج

الميعاد ، الميعاد

راس ماله طاسة وبراد

صب الشاهي

خليك زاهي

وانزل في صبحي وعياد

الميعاد الميعاد

وحصلت احداث في فرقة المسرح الجديد بينها اخراجنا من مقر قوس الصرارعي وذهابي في بعثة دراسة الى مصر ، وكان كامل الفزاني خلال هذا الوقت قد عاد باهتمامه ونشاطه الى مجاله الاول وهو الفنون الشعبية والتراث الشعبي، الذي كان يقتصر في بداية على حصة صغيرة في الاذاعة، وتطورت هذه الحصة الى حصص ، كما حصلت العروض التي تم تقديمها على المسرح بتمويل معرض طرابلس الدولي وتكونت الفرقة الاهلية التي جاء قرار وزير الانباء والارشاد فيجعل منها فرقة رسمية تتبع الحكومة، وفي هذه الفرقة وجد كامل الفزاني فرصته لان ينتظم في وظيفة رسمية ذات مرتب شهري، حيث صار للفرقة عاملين متفرغين ، استلم بعضهم التدريب وبعضهم الادارة في حين هو عهد اليه بان يشرف على ملابس الفرقة ومخازنها ومخازن الاتها الشعبية ، وطبعا كانت المسئولية كبيرة ، تفرغ لها فرحا بالوظيفة والمرتب، ناسيا موهبه الاخرى في المنولوج والاضحاك ، فقد ادخلها المخرن ، ولم تخرج تلك المواهب الى النور بعد ذلك ابدا، رايته يظهر احيانا في ادوار ثانوية صغيرة في بعض التمثيليات التلفزية، ولعله شارك في احدى المشاهد المسرحية في احدى الحفلات ،وكان يظهر في سلاميات فرقة الفنون الشعبية يحمل دفا ويشارك في العزف ، ولكن ما توقعته لكامل الفزاني من نجاح وتالق واكتساح للفن الساخر وفتوحات في هذا المجال ، لم يحدث اطلاقا ولا ادري ما يمكن ان نسمى هذا القتل او بالاحرى الاغتيال للمواهب ، او من المسئول حقا، طبعا هناكل البيئة القادرة بجفافها وقسوتها على طمس وخنق اية موهبة، ولكن الى حد تقع المسئولية على صاحب الموهبة نفسه ، لانني اعتقد ان نصيبا كبيرا من المسئولية يقع على عاتق صاحب الموهبة نفسها، وفي حالة صاحبنا فانه لو سعى وكافح من اجل ابراز مواهبة لاستطاع ان يصنع لنفسه مكانة ، حتى لو سعى كما فعل غيره للانطلاق الى بلد مثل مصر او تونس حيث المجال اكثر براحا لظهور النجوم ، ولكن مع مصيبة الواقع والبيئة هناك مصيبة خمول الروح وقلة العزم والهمة ، ثم هنا وبشكل اساسي ضآلة المستوى التعليمي والثقافي الذي لا يستطيع ان يحسب المسائل حسبة دقيقة ويقوم بترتيب الاولويات ترتيبا صالحا، ولا يعطيه امكانية تقدير نفسه وتقدير مواهبه. وكنت التقي به بين الحين والاخر وارى ان ذلك الالق القديم ينسحب من عينيه وتغمر ملامحه رتابة المتقاعدين ، بل واجد ان ثمة شيخوخة مبكرة تزحف على تلك الملامح، وهي قد اصبحت الان شيخوخة حقيقية وكاملة اعانه الله على حمل اعبائها وهمومها.

سلامي منير

سمعت به قبل ان اتعرف عليه والتقي به لقاء العمل والصداقة ، فقد تناقل الوسط الصحفي خبر الكاتب الليبي المهاجر في تركيا، الستيني عمرا، الذي حقق لنفسه مكانا مرموقا في تلك البلاد، واثناء زيارة اخيرة الى اهله في طرابلس ، التقى بمسئول كبير في الولاية ، كان زميله في زمن الطفولة، ورجاه هذا المسئول ، الا يبخل بشيء من خبرته ومعارفه على بلاده ، وارسله الى صحيفة طرابلس الغرب ، مع تعليمات لاهل الصحيفة ومسئولها الاول محمد فخر الدين والثاني محمد الشاوش، استقبال الرجل بما يستحق من الحفاوة ، وان يتيحا له فرصة تطوير الجريدة بما لديه من خبرة كبيرة في هذا المجال ، وكان سلامى منير هو اسمه التركي الذي اختاره من بين اسماء تلك البلاد استجابة لقانون يمنع العرب الابقاء على اسمائهم كما هي اذا ارادوا اكتساب الجنسية، وكان اسمه الليبي الذي سافر به حسبما اذكر هو عبد السلام ناجي، وجاء الرجل الى الصحيفة ، ولم اكن بعد قد اصبحت محررا متفرغا بها وانما اتعاون من خارجها، ووضع اهل الصحيفة انفسهم تحت امره ينتظرون القفزة الهائلة التي ستتحقق على يديه، وعندما باشر بتقديم افكاره ومحاولة وضع تصورات عملية له ، تحولت القفزة الصحفية المنتظرةالى مشهد كوميدي ساخر ، لان الرجل لم تكن لديه اية فكرة على الصحافة الحديثة ، ومع ذلك انساقوا وراءه ، لا من اجل الحصول على ما انتظروه من فتوحات صحفية ، ولكن من اجل تحقيق مزيد من الضحك والفكاهات ، فالرجل مهما كان اسمه كبيرا في تركيا، في حقل من الحقول ، الا ان معلوماته صفر عن الصحافة اليومية، والصحافة الحديثة، ولا علم له بما حدث من تطوير في الطباعة، حتى اسلوبه في الكتابة العربية كان اسلوبا تخطاه الزمن ، فما زال يظن الكتابة سجعا ومحسنات لفظية متحفية قاموسية لا احد يستعملها، بل انه لو تركوا له المجال لعاد بصحيفة طرابلس الغرب لشكلها الذي صدرت به في العهد العثماني منذ مائة عام ، تحمل في شعارها مديحا للسلطان، وهو مديح ربما لم ينته تماما، ولكنه يصاغ الان بطريقة عصرية ولا يضعه الناس شعارا على صدر الصحيفة، كما كان يريد، وذهب رئيس التحرير مسرعا الى المسئول الكبير، ولعله والي الولاية نفسه، يخبره بان صاحبه لا علاقة له بالصحافة الحديثة، ويتمنى ان ياذن له بالانسحاب ، فامر هذا المسئول بصرف مكافأة للسيد سلامة منير، واذن له بان يعود الى وظيفته في تركيا قبل ان يفقدها اذا غاب عنها طويلا، اذ كانت الفكرة تحتمل لو حصل موضوع التطوير ان يبقى بعقد يتجدد لاكثر من عام، وكاسفه صديقه المسئول بوجود عقبات في قانون الخدمة المدنية تمنع مثل هذه الوظائف المؤقتة. وجاءت فرصة ان التقيت بالرجل قبل مغادرته طرابلس ، فرايت رجلا في الستين من عمره او اكثر قليلا، مكتنز الجسم ، قصير القامة، يتدحرج مثل البالونة، ابيض البشرة مثل الاجانب ، يرتدي نظارة طبية لها اطار اسود عريض، ربما ليغطي على كثافة حواجبه بما يغمرها من بياض، ووجدت فيه رجلا لا يتوقف عن الضحك، وهو ضحك يهتز معه سائر الجسد، ولا يتوقف عن قول النكات، فكل جملة في كلامه لابد ان تعقبها نكتة يلقيها بلهجة طرابلسية عتيقة منقرضة لم يعد هناك من يتكلمها الا هو ، ربما تعلمها من طرابلس التي عرفها في في طفولته اثناء الحكم العثماني ، قبل ان يسافر مع اسرته الى تركيا هروبا من الغزو الايطالي عام 1911، ومنذ ذلك الوقت لم يعد الى

ليبيا الا في زيارات قليلة وقصيرة وفي السنوات الاخيرة التي اعقبت الاستقلال، وعاد بعد هذه الزيارة الاخيرة الى تركيا، والى مدينة اسطنبول التي يقيم بها مع اسرته ، وكنت قد اخذت هواتفه وعنوان بيته ، وارسلت اليه اكثر من بطاقة بريدية ، فكان يرد عليه ببطاقات مماثلة خاصة في المناسبات الدينية، ولم يمض غير ثلاثة اعوام على لقائي به في طرابلس ، حتى ذهبت في زيارة سياحية صحفية الى اسطنبول، وكان ذلك في ربيع عام 1964، وسالت عنه اصدقاء ليبيين يدرسون في عاصمة الخلافة، بينهم قريبي عبد الرحمن التير، وعن حقيقة انه كاتب صحفي، لانه مر باختبار صغير في طرابلس ، ظهر خلاله انه لا يعي شيئا من الصحافة ، فاخبروني ان سلامي منير ، فعلا صاحب اسم كبير في هذا المجال، ليس باعتباره صحفيا ، ولكنه مترجم من العربية الى التركية ، واشهر ترجماته كانت الف ليلة وليلة، وكتب كثيرة اخرى ذات طابع تجاري، واتصلت به ، فجاء للقائي فرحا مرحبا، واراني وجها لاسطنبول لم اكن استطيع ان اراه من خلال اصدقائي الطلاب، واخذني الى المجلة التي يعمل بها ، وهي مجلة فكاهية تعتمد على الرسوم الساخرة والنقد اللاذع لمظاهر الحياة التركية ، اسمها " اكبابا" اي "القنفذ" دلالة على ما تحمله من اشواك تشك بها المظاهر السلبية في المجتمع عن طريق السخرية والدعابة، وخالطت بعض الصحفيين اثناء تناول وجبات الطعام في احدى انديتهم، وكان له ابن يعمل في السينما، فذهبنا لزيارته في الاستوديو، لاشهد تصوير احد الافلام، حيث بعض جميلات السينما التركية ، يشاركن في احدى اللقطات ، اما اجمل تجربة واكثرها اثارة بالنسبة لي ، فقد حصلت عندما اخذني الى جلسة اسبوعية تقام مساء كل يوم جمعة، لابناء جيله من المهاجرين الليبيين، وبعضم كان اكبر منه سنا، وهناك وجدت مابين عشرين الى ثلاثين شيخا من شيوخ الجالية الليبية، كلهم عاشوا اطفالا في طرابلس قبل الغزو الايطالي، وسافروا الى تركيا مع عائلاتهم ، فظلوا محتفظين بحصيلتهم اللغوية التي سافروا بها ، ويجتمعون في هذا المقهى في هذه الجلسة الاسبوعية ، فلا يتحدثون الا بلهجتهم الليبية، ربما فرصتهم الوحيدة، لان لهم عائلات عاشت وتربت في تركيا ودرست في مدارسها ، فلا صلة لهم بلغة البلاد الام، ويجدون فرصتهم هنا للتنفيس عما يعانونه من كبث لغوي ، وكلهم يتحدثون لهجة طرابلس القديمة المنقرضة بكلمات كثيرة لم يعد يستعملها احد في ليبيا الحديثة، فهم يستخرجون هذه اللغةمن مخزن احتفظوا به منذ اكثر من نصف قرن وبقى دون تجديد ولا تطوير ولا صلة بما يحدث للغة في بيتها الاصلية، ولم يكن لاحد منهم اهتمام بالسياسة ، ولا بالاحداث الجارية ، او بالسؤال عما يحدث في الوطن القديم فلم يعد يهمهم من امره شيء، اذ وجدتهم جميعا كما وجدت زميلهم سلامي منير، لا يتوقفون عن الضحك ، ولا يتوقفون عن تبادل النكات والبحث عن الجديد منها، حيث سمعت اثناء لقائي بهم اكثر عدد من النكات سمعتها في جلسة واحدة في حياتي.

اكتشفت ان لسلامي منير كتب كثيرة مترجمة ، تدر عليه دخلا، علاوة على انه من اعمدة مجلة اكبابا، يزودها بالنكت ويترجم لها من الصحف العربية ابوابا ساخرة، وطلب ان ياخذ بعضا من قصصي لكي يترجمها ، فاعطيتهاله ، ولم اتابع ما حدث لها، ولم يفدني هو بشي لانه لم يرد على بطاقاتي البريدية ، فتوقفت عن ارسالها له، وعرفت انه مر بفترة اعتل فيها قليلا، ولم اره عائدا لزيارة طرابلس ، كما لم يحدث ان عدت في تلك الاعوام الى تركيا فانقطعت علاقتي به، وعلمت فعلا ان هناك اكثر من قصة نشرت لي في صحف تركية ، واخبرني اكثر من صديق انه فعلا طالع لي شيئا في تلك الصحف ولم يحتفظ بالصحيفة، او يذكر اية صحيفة كانت، ولم اجد شخصيا فائدة او جدوى من ملاحقة تلك القصص،حتى وانا

اعود الى اسطنبول مستذكرا اجواء زيارتي الاولى ، مستحضرا ذكرى ذلك الصديق العجوز الضحوك، عليه رضوان الله.

أحمد راسم قدري

كان واحدا من الشخصيات الثقافية التي تحظى بالاحترام والتقدير، في طرابلس الخمسينيات والستينيات، ينتمي لاسرة طرابلسية عريقة ، وذات يسار وسعة في الرزق ، وينتمي لبيت من بيوت العلم الثقافة، فوالده محمد قدري المحامي كان محاميا مشهورا في مجتمع ما قبل الاحتلال الايطالي ، وصحفيا اكثر شهرة ، لانه كان يصدر صحيفة باللغة التركية اسمها تعميم حريات، ووقد دخلت صحيفته كما تقول الوقائع التارخية معركة مع واحد من الولاة الاترا ك، واستطاعت الصحيفة ان تهزم الوالي وان تكون سببا في عزله عن منصبه، كما ينسب لهذا المحامي انه مؤسس اول فرقة مسرحية، تم تكوينها من عمال الميناء، وكان هو كاتب اول مسرحية قدمتها الفرقة احتجاجا على قضية من قضيا العمال ، وعندما تعرفت على الاستاذ احمد راسم قدري ، كان يرأس جمعية اسمها جمعية الصداقة التركية الليبية، ولها مقر في شارع هايتي، شقة في الطابق الثالث او الرابع، قريبا من معهد هايتي الذي كنت اقيم وادرس فيه ، ورغبة مني في التعرف على الجمعية واهلها، قمت بزيارة المقر، ووجدتهم يقيمون دورة لتعليم اللغة الايطالية، وانضممت الى صف المبتدئين ، اتعلم بعض الكلمات التي تكثر في الاستعمال اليومي مثل التحية وسؤال ما اسمك وما بلدك واين تقيم وغيرها علي يد مدرس ايطالي، ولا ادري لماذا لم تكن الدورة لتعليم اللغة التركية، ولكن هذا ما حدث، والتقيت اكثر من مرة بالاستاذ قدري، اذ كان رجلا انيقا جدا، لا يرتدي الا ربطة عن الفراشة، ورغم سنه المتقدم الذي تجاوزالستين، فقد كان يرتدي الوانا زاهية ، مثل ان تكون الجاكيتة بيضاء على بنطلون ازرق او اسود، وقميص له الوان منسجمة مع هذين اللونين ، وحذاء اسود له ظهر ابيض، وعرفت انه ايضا يقوم بترجمة اعمال من اللغة الايطالية الى العربية ، وبالعكس لتمكنه من اللغتين ، ولم اكن عندما انتسبت الى تلك الدورة قد بدأت النشر والكتابة الادبية، ولهذا فانني لم اعرض عليه مقالات للنشر في المجلة التي تصدر عن جمعية الصداقة ، وكان اسمها افكار، واظنها كانت مجلة فصلية.

واعتقد ان لقاءاتي تكررت به بعد ان صار لي انتاجا قصصيا ينشر في الصحف ، ولكنني لم اره يذكر انه احد رواد كتابة القصة الليبية، وانه كان ينشرها في الثلاثينيات في مجلة "ليبيا المصورة"، وهو اكتشاف لم اعرفه الا متأخرا، ربما بعد ان غادر عالمنا، واظنه قبل وفاته مر بفترة طويلة من المرض ، اعاقته عن الخروج. واختفي من مجتمع مدينة طرابلس ، مشهد ذلك الرجل الانيق ، الذي حافظ على وسامته واناقته رغم الشيخوخة، وكان له حضوه في طرابلس لانه محب للجلوس في المقاهي ، محب لان يتجول في شوارع طرابلس الرئيسية، واكنت اراه يوم الاحد متمشيا في شارع الاستقلال وسط عدد من اصدقائه وصديقاته الايطاليين والايطاليات، او يجالسهم ويجالسهن في مقهى الجادة .

وردت اول اشارة لريادته للقصة الليبية في ليبيا في دراسة للناقد المصري الشهير الدكتور عبد القادر القط، كان قد نشرها على حلقات في صحيفة الحقيقة عندما كان استاذا في الجامعة الليبية عام 1998، قبل ان يضعها في كتاب من كتبه، واشاد بما قرا للاستاذ قدري واعتبره حقا اول رائد للقصة بما نشره في

ليبيا المصرة في منتصف الثلاثينيات، وفي لقاء صحفي معه اجرته الدكتورة فوزية بريون، عند تحضيرها لرسالة الماجستير عن القصة الليبية ، ذكر لها كيف انه كان معجبا بالكاتب المصري فكري اباظة كما كان متحمسا لافكار الكاتب قاسم امين عن تحرير المرأة، وبسبب هذا الاعجاب نحت لنفسه اسما مستعارا اختار ان يمهر به مقالاته في الحقبة الاستعماريه هو قاسم فكري، واعتمدت شخصيا على عدد من افكاره التي اوردها في مقال له عن الحياة الثقافية في ليبيا في تلك الفترة، عند تحضيري لرسالة الدكتوراه ، وكانت المقالة قد نشرها في مجلة افكار على عدة حلقات ، ويبقى الغريب حقا، ان رائدا من هذا الطراز لايجد بعد هذه الخدمات الجليلة التي اسداها للثقافة الليبية من يقوم بجهد ضئيل لتجميع ما نشر له في صحف المرحلة الاستعمارية ومرحلة الاستقلال ، في كتاب ينتفع به الناس ، ويبقي اسمه محفوظا في ذاكرة الاجيال .

يوسف القويري

بعد فترة قليلة من وصوله الى طرابلس عائدا اليها من مهجر اسرته في مصر، تعرفت على الكاتب الصديق يوسف القويري، وكنت قبل ان التقي به قد تابعت كل ما كان يكتبه في بابه اليومي في صحيفة طرابس الغرب"شموع"، وقد قد اذهل الوسط الصحفي والادبي، بهوذه البداية الناجحة، اذ تبدى في هذه المقالات كاتبا متين الاسلوب ، مشرق العبارة، بليغا في تعبيره، عميقا في مضامينه وافكاره ، جريئا في طرحه ، تقدميا في رؤياه، ذكيا حصيفا في معالجة القضايا الشائكة ، بحيث ينفذ بقول اخطر الافكار دون ان يثير شك ولا حفيظة سدنة التقاليد، او يصطدم مع الوضع السياسي الراهن. كل مقال اشبه بسبيكة من معدن نفيس ، ذات وهج والق واصالة . جاء الى ليبيا لا يحمل مؤهلا جامعيا مثل قريبه وشريكه في العودة من المهجر الاديب عبد الله القويري. صغير السن. في الثانية والعشرين من عمره عندما بدأ في نشر هذه الخطرات اليومية عام 1957. ومع ذلك تجلى في هذا الثوب القشيب ، ثوب الاديب العارف بصنعته، صاحب القدم الراسخة في هذا المجال. ولاشك ان ظهوره بهذاالصورة المتألقة، وظهور قريبه على منصة الشرف الادبية في نفس الوقت، مثل في اذهان بعض الناس شيئا اشبه بالغزو، خاصة وان عبد الله جاء مسبوقا بسمعة واسم صنعه في مصر عندما نشر في صحفها بعض انتاجه، واثار وجودهما معا حسد وغيرة بعض اهل المجال، وهي غيرة لم ينشغل بها يوسف القويري، او يمنحها اهتماما، ولكنها كانت مسألة محورية في كتابات عبد الله القويري، بل ودخلت في شخصيته وتكوينه ، وهو يتعامل مع الاخرين بحذر بالغ، وترقب للاساءة اكثر من ترقبه لافعال الخير ، وذكرها صراحة في مواضع كثيرة من كتاباته التي تمتح من السيرة الذاتيه ، تبدأ بها وتعود اليها ، وان لم يطلق عليها صراحة سيرة ذاتية.

باشر يوسف القويري الكتابة في طرابلس الغرب، عند اول مجيئه، ثم غادرها الى صحيفة فزان ، قبل ان يستقر في صحيفة المساء لصاحبها سليمان دهان، واستقر به المقام منذ عام 1964 والى اخر عدد من صحيفة الميدان التي توقفت بعد ايام قليلة من انقلاب الاول من سبتمبر 1969 ، وفي هذه الصحيفة نشر مقالات ودراسات باكثر مما نشر في اي مكان اخر، وكلها كانت مادة لكتبة التي اصدرها فيما بعد ومنها قطرات من حبر ، وعلى مدى البصر، ومن مفكرة رجل لم يولد، والكلمات التي تقاتل وغيرها، وكان قد تولى الاشراف على صفحة ثقافية اسبوعية اسماها الثقافة للشعب وفي هذه الصفحة نشر اغلب المقالات التي صنع بها اسما لنفسه وحفظها في كتب نالت اقبال قراء الكتب ، بعد ان حازت اعجاب قراء

الصحيفة ، وفي هذه الصفحة اجرى مقابلات مع بعض اصدقائه الكتاب العرب اذكر منهم الشاعر الذي احبه يوسف القويري وكتب عنه صورة قلمية جميلة وعميقة ، كان البياتي نفسه كثيرالاشارة اليها، وكرر نشرها في كتب تتناول انتاجه.

كان يوسف القوير كثير الاعتزاز بعلاقة جعته في صباه مع الكاتب المصري الشهير عبد الرحمن الخميسي، ويقول انه كان يعطف عليه جدا، عندما جمع بينهم السجن في مرحلة مبكرة من حياة يوسف القويري، وقد حاولت كثيرا استدراج يوسف القوير للحديث عن تجربة السجن في مصر ، ولكنه كان يكره الحديث عن هذه التجربة وتنتابه حالة نفسية سيئة ، ظل طوال حياته يحمل جرحا عميقا لهذا السجن ، ترك ندوبا لا تمحي. وعلمت انه كان في مرحلة المراهقة قد انضم الى حلقة حزبية سرية ، من حلقات الاحزاب التقدمية ، التي كانت تنتشر في تلك الفترة من اواخر الاربعينيات وبداية الخمسينات، وتم القبض على هذه الحلقة ، وبينهم يوسف القويري، الذي كان واضحا انه لم يكن واعيا بالنتائج الوخيمة لمثل هذا العمل، وفعلا نقل الى السجن ، وذكر لي قريب من اقاربه عاصر تلك المرحلة ، ان افظع شيء حصل له في ذلك السجن ، ان اضطر في احدى المرات ان ينام في زنزانة صحبة جثة سجين ، كان قد مات وتركوه بجواره في الزنزانة ، وان هذه الحادثة ، تركت اثرا سلبيا على حالته ونفسيته اكثر مما تركتها تجربة السجن في مجملها.

وحدث عام 1963 ان عدت من بعثة دراسية من القاهرة، ولم اكن املك سكنا، وكان يوسف القويري ، مثلي يبحث عن سكن ، وكان ان وجدنا بيتا كبيرا، هو بيت قاضي قضاة طرابلس محمود ابورخيص ، في منطقة ابي الخير، فاشركنا زميلا ثالثا هو الممثل محمد عبده الفورارى ، وقمنا بتاجير البيت ، وقد تحول هذا البيت بفضل وجود يوسف القويري الى ندوة مسائية يومية ، كان ابرز نجومها والعاملين على اثرائها الكاتب الكبير الاستاذ عبد الله القويري. وهي رفقة في السكن استمرت لما يقرب من عامين ، قبل ان اسعى للاستقلال بمسكني وانتقال بعض افراد اسرتي من البلدة للاقامة معي في العاصمة .

اقتصر ما يكتبه يوسف القويري ، على المقالة ، والبحث القصير احيانا، الا انه صاحب موهبة كبيرة في التصوير القصصي، وكثيرا ما ابديت له هذا الراي ، متأملا ان يستغل هذه الملكات والمواهب في الانتقال الى الكتابة السردية القصصية او الروائية ، لكنه للاسف الشديد، ظل عازفا عن مثل هذه الكتابة ، ولم ينتج في هذا المجال الا بعض الصور القلمية ، التي تشبه الاسكتش القصصي ، ولم تزد مساهمته عن ثلاثة او اربع قطع ، وابداعا كتب نصا او اثنين ينتميان لعالم الحوار، اي مسرحيات ولكننى لم اكن شخصيا ممن راوا في انتاجه المسرحي وهو كما قلت لا يرزيد عن عمل او اثنين يرتفع الى مستوى الموهبة العملاقة لهذا العبقري من عباقرة الكتابة التي تظهر تجلياتها في بعض تاملاته ومقالاته القصيرة، وفي كتابه الذي يمكن احتسابه من ادب الخيال العلمي " من مفكرة رجل لم يولد".

جاء انقلاب سبتمبر 69 واقفلت جريدة الميدان ، ومعها اقفلت نافذه الابداع الكتابة في عقل يوسف القويري. توقف تماما عن كتابة اي حرف. حالة غريبة ، توافقت مع هذا الحكم العسكري الانقلابي، الذي سيطر على حياةالليبية، ورغم ان يوسف القويري كان محسوبا على القوى الوطنية التقدمية المناوئة لتوجهات النظام الملكي وسياساته وارتباطاته الغربية، الا ان رفضه للنظام الجديد جاء اكثر عمقا وقوة

وجاء التعبير عن هذا الرفض تعبيرا عفويا نابعا من عمق اعماق الكاتب والمبدع يوسف القويري. وبعد اقفال الميدان ، تم استيعابه في جهاز الدولة ، موظفا في وزارة الاعلام ، ولم تكن له اية مسئوليات، ولا التزام بحضور وانصراف، وحاول في فترات متفاوته ان يسافر خارج ليبيا، وذهب فعلا الى اسبانيا، مع السعي لان يبقى مرتبطا بجهة ما تعطيه مرتبا، الا ان هذا الارتباطي الوظيفي ، الذي يضمن مرتبا منتظما لم يكن متيسرا ، وكان هناك مسئولون في الدولة يتعاطفون معه ، ويحاولون انقاذه من ازماته في المرتب والسكن ، وفي مقدمة هؤلاء الناس السيد محمد ابو القاسم الزوي ، الذي كان دائما يكرس منصبه الرسمي لحل ازمات يوسف القويري، منذ ان جاء مديرا للاذاعة، ثم وزيرا للاعلام ، ثم سفيرا في المغرب ،ثم وزيرا للداخلية، وكنت شاهداعلى ما يبذله من جهد مع يوسف القويري، لضمان ان يعيش حياة كريمة ، والا يتعرض للعوز والمهانة ، حتى اثناء غيابه في الخارج ، في اسبانيا ثم في المغرب . وقد ظل يوسف القويري طوال حياته عازبا، لم يتصدى لتحمل اعباء زوجة واسرة ، ومع هذا الحمل الخفيف ، فقد كان غشيما في ادارة حياته وشئونه المعيشية سكنا ودخلا ونفقات طعام وشراب ولباس. وكان الملجأ دائما محمد ابوالقاسم الزوي، الذي كان لا يتاخر في الانقاذ وتحريره من ازماته وقضاء ما يترتب عليه من التزامات ، من بينها مثلا ، انه ظل لسنوات كثيرة ينتقل من فندق الى فندق وكانت تتراكم عليه الديون ، التي لا احد يستطيع حلها الا هذا الرجل الذي سخره الله ، ليكون في عونه على الدوام.

كنت شخصيا اظن حالة التوقف عن الكتابة بالنسبة للصديق يوسف القويري حالة طارئة عارضة ، ولكنها استمرت معه عاما وعامين وعشرة اعوام وعشرين عاما، رغم انني احد الناس ممن لم يكن اطلاقا يتوقف عن تذكيره بواجبه نحو نفسه ، ونحو موهبته ولم يكن له تفسير ولا عذر يجعله لا يكتب. ولا ادري متى جاءني يبشرني بان له مسرحية انجزها اثناء فترة اقامته في اسبانيا، ولانه كان متأزما ماليا فقد ذهبت معه لكي تنشرها احد الصحف الحكومية على حلقات ، وتضمن له استمارة مكافآت تدفع مقدما وقبل النشر ليستطيع الوفاء بالتزاماته المادية ، ثم اخذنا نفس المسرحية الى شركة النشر ، لتوقع معه عقد نشرها وتدفع الثمن مقدما لكي يضيفه الى ما تقاضاه من الصحيفة ، ويستطيع بالتالي الحصول على مبلغ يستأنف به حياته في ليبيا بعد غيبة في اسبانيا. ولا اظنه استمر في الكتابة بعد ذلك، عاد لانقطاعه ، الا في السنوات الاخيرة من عمر النظام الانقلابي ،عندما توسع في انشاء صحف غير تلك النشرات البائسة الثورية ، ولها شيء من البراح في معالجة الامور واستكتاب الكتاب، وجد في الصحف الجديدة من يعتني بدعوته للكتابة مقابل مكافاة مجزية وربما عقد يلتزم كل طرف بالوفاء به، فعاد بعد انقطاع طويل ، دام كما قلت ثلاثين عاما، ثم خمسة او ستة اعوام ، ليستانف من جديد الكتابة .

نوع من النقاش

ربما كان مفيدا وانا في ذكر الصديق الكاتب النابغة يوسف القويري ان اشير الى نوع من المناقشات التي تدور بيننا ، والتي قد يشارك فيها بعض زوار البيت الذي نسكنه، وقد رسخ في ذهني حوار دار بيني وبينه حول يوسف ادريس، فهو يعرف ان نوعا من الصداقة نشأت بيني وبين الكاتب المصري الشهير، وانني لا اتحرج من اظهار اعجابي بما يكتب من ابداع قصصي وما يثيره من قضايا، وراه صاحب فتوحات في فن القصة احرص شخصيا على الاستفادة منها، خاصة فيما كان ينشره في تلك

الفترة في السنوات الاولى من عقد الستينيات، ولكن ليوسف قويري راي اخر، تحكمت فيه هذه المرة الدوجما السياسية التي يومن بها، فقد كانت فترة السجن القصيرة التي قضايا في مصر بسبب انتسابه الى خلية شيوعية ، ورغم انه كان لابد وهو في ليبيا ان يتخلى عن مصل هذه الافكار اذا اراد الاندماج في مجتمع لم يكن ، بما في ذلك وسطه الثقافي ، يرحب بانتماء لما كانوا يعتبرونه فكرا الحاديا، وكان اقصى ما يمكن قبوله هو التوجه الاشتراكي الذي كان مثله في مصر بعض الكتاب المنخرطين في المشروع الناصري، الا ان ثمة حالات في سلوك صديقنا القويري تظهر فيها النعرة الماركسية ، ومن بين هذه الحالات ، تلك التي ينحو فيها النقاش ناحية مصر ، ومثقفيها واستحضار واحد من كتابها، وكان رده عما كنت ابديه من اعجاب بكتابات تنشرها الصحف ليوسف ادريس وقصص قصيرة يتطور بها اسلوبه وتقنياته وادواته التي تتبدي في قصصه الاخيرة ، ان هذه كما يرى هي احط مراحل يوسف ادريس الفنية ، وانه خارج الحياة الريفية ، وخارج النماذج التي يبرع في رسمها من عمال وفلاحين ، يفقد نفسه ويفقد براعته، وحملني وصية انقلها ليوسف ادريس فيما اكبته له من رسائل، او عند التقائي به في زيارتي القادمة الى مصر هو عود الى الفلاحين ولا تهجر الكتابة عن العمال لان هذا هو المجال الذي تتبدى في مواهبك في كتابة القصة. وربما لم اكن لاعتني بالرد عليه لو لم يكن يوسف ادريس هو موضوع النقاش ، واتجنب بعض الحالات العصبية التي تصيبه اثناء مثل هذا النقاش واتركه يفضفض عن نفسه دون اعتراض، ولكنني تصديت له هذه المرة لانني صاحب اختصاص اكثر منه في الادب الذي يكتبه يوسف ادريس وقوي الصلة به ، كما انني اعرف الكاتب واتابع ما يكتبه وما يقوله ، وسمعت منه الى ارائه وافكاره وكان لابد ان اتصدي لما رايته رائحة تعصب مذهبي سياسي اكثر منه نقد ادبي ، فقلت له ان من يريد ان يكتب عن العمال والفلاحين ليكتب مقالات الدفاع التي تنصفهم وترفع الظلم عنهم وتسمح بانشاء النقابات والاتحادات التي تعبر عنهم ، واصدار القوانين التي تحمي حقوقهم، اما الادب فان مجاله الانسان، بغض النظر عن كونه عاملا او فلاحا ، طفلا او شيخا، سويا او مجنونا، وضربت له امثله بادباء عرب كبار وادباء عالميين اكثر كبرا ، اشتهروا باعمال لا علاقة لها بالعمال والفلاحين والبشر الكادحين من اجل لقمة العيش، فهم يمكن ان يكونوا ابطالا ولكن ليس شرطا، وضربت مثلا بنجيب محفوظ فان العمال والفلاحين في الثلاثية مثلا، واخر اعماله وربما اهمها في ذلك الوقت "اللص والكلام " التي كانت عن مجرم من مجرمي الصعيد في مصر، بل ان احدى اجمل قصص ادريس التي تحولت الى فيلم اسمه الغريب عن رئيس عصابة في مصر، واين العمال والفلاحين في الحرب والسلام ،لتولستوي، واين العمال والفلاحين في اعمال ديستويفسكي الاخوة كارامازوف او العبيط او درته التي تتحدث عن عجوز مرابية وعن قاتل وهي الجريمة والعقاب.

وقلت لن اقول ليوسف ادريس ماذا يكتب وكيف يختار ما يكتبه لانه لن يكتب الا ما يعرف، ولن يفرض على نفسه كتابة ما لا ياتي استجابة لقناعاته، وتمليه عليه ملكات الكتابة عليه، وهو نفسه ما اكده يوسف ادريس فيما بعد تعليقا على روايته القصيرة رجال وثيران، الصادرة في مطلع الستينيات وقال ان كثيرين كانوا يتوقعون ان يكون عمله القادم متعلقا باوضاع مصرية متزاحمة ومتفجرة، فقد حصلت في تلك الفترة ازمة الانفصال لاول وحدة في التاريخ العربي الحديث بين مصر وسوريا، وذهب الجيش المصرى الى حرب مدمرة في اليمن، وصدر في ذلك الوقت الميثاق الوطني الذي اكد ما اسماه النظام الناصري الطريق الاشتراكي ، واحداث اخرى لم اعد اذكرها، يقول يوسف ادريس انه نفسه استغرب من نفسه ومن اجهزة

الكتابة لديه التي استحضرت ذكريات مشاهدة ذات مرة حفلة مصارعة التيران في اسبانيا، فوجد نفسه ضد كل التوقعات،يترك زخم الاحداث في بلادها وتفجرها، ويذهب الى بلد وعيد وواقع غريب على اهل بلاده وجمهور قراءه في مصر والعالم العربي الذين قد لا يكون من بينهم من راى في حياته هذه المصارعة ليجعلها موضوعا لاحد اعماله.

هل كان جناية..؟

وتنويعا على هذا النقاش الذي دار بيني وبين زميلي وصديقي يوسف القويري، فان الانبهار بالاتجاه الاشتراكي ، كان موضة تلك الايام، وكنت شخصيا ضحية تلك الفتنة بما كان يسمى الادب الواقعي والالتصاق بالجماهير، والادب والفن والابداع الذي يحمل قضية، وكانت الكلمة السحرية التي راجت في اوساط الكتاب والادباء، هي الواقعية الاشتراكية، واذكر انني كتبت مقالا يعبر عن انبهاري بهذا الاتجاه في الادب، وقرأه يوسف ادريس في احدى جلساتنا في شرفة فندق سميراميس، ورايت علامات عدم الارتياح، لانه وان كان قد انتمي للمدرسة الواقعية، الا ان رؤيته، ليست هذه الرؤية الرائجة في ذلك الوقت، ويبدو انه شاهد حماسي ولم يشأ ان يصدمني، فلم اسمع منه تعليقا لا بالسلب ولا بالايجاب، ولم يكن هذا الحماس يمنعني من ان اكتب قصة تتعامل مع ما فوق الواقع ، استجابة لحس فني يرفض الخضوع لمثل هذه الدعاوى، وعرفت فيما بعد انها رؤية ضيقة للحياة وللادب، وكانت هناك وجهات نظر مغايرة تصل الينا، مثل كتاب روجيه جارودي الفرنسي الذي ثار على الحزب الشيوعي، وكتب كتابه الادبي الشهير واقعية بلا ضفاف ، لكن منطلقاته كانت الواقعية التي كان يجب الا يربط نفسه بها، وكان هناك تنظير يكبر الاسطور ويكبر الفانتازيا ولا يراها ترفا او تزيدا، وانما تستطيع اضاءة الواقع باكثر مما يضيئه الادب الواقعي ، ولكن مشكلتنا كانت هذه السيطرة على العقل والوجدان، لفكرة الالتصاق بالواقع والانتصار للنماذج الشعبية التي تكدح من اجل لقمة العيش، كان المنطق يقول اهلا وسهلا بادب الالتصاق بالواقع، وتصوير الشقاء الانساني، وكفاح العامل اوالفلاح او المواطن البسيط، ولكن هذا لا يكون تناقضا مع القصة التي لا تلتصق بالواقع ولا تكتفي باستكناه الارض، وانما تكون حالة كونية ، تكون برقا يضيء السماء ، ورعدا يعزف نشيده الغاضب، و يعد بالمطر والربيع ، وليكن عالمها الافق بدلا من المصنع او الحقل، وهناك بجوار الحقل حديقة وردن وعصفور يغرد، وجدول ماء ينساب في جمال وعذوبة، فليكن له هو ايضا مكانا في خريطة الادب الهادف الجميل، وطبعا انقشعت الغشاوة التي غطت لفترة من الزمن عيون امثالي من الادباء الناشئين ، ووصل الامر ببعض النقاد الحادثيين، امثال صديقى الناقد الجهبد الدكتور محي الدين صبحي ، ان كتب في صحيفة الناقد ، مقالا هجائيا في تلك المدرس التي روجت للواقعية الاشتراكية، واستهدف احد رموزها في مقال كان عنوانه قويا وصادما وهو " جناية محمود امين العالم على الادب" ، ربما لان العالم ورفيقه عبدالعظيم انيس ، اصدرا في منتصف الخمسينيات كتابا اظن ان اسمه "في الثقافة المصرية"، يروجان بقوة لهذا المذهب، ويهجوان ادب كتاب مثل السباعي واحسان وعبد الحليم عبد الله ، ووصل الامر الى ان نجيب محفوظ نفسه لم ينجو من الهجاء والتعزير واعتبار ادبه ينحصر في الطبقة البرجوازية، كما جاء في كتابيهما، ولا يتسامي الى معانقة النضال الانساني في النماج الايجابية، وغيره من كلام مسكوك مكرور، من قاموس تلك الايام، وكنت احد الذين نقلوا له احتجاجي على مثل هذا العنوان، لان ما فعله كاتب مثل محمود امين العالم ، رحم الله الجميع، لم يكن جناية ولا جريمة، وانما كان انحيازا للون من الادب، كان له انصاره ومؤيدوه في العالم ، واعتقد ان

العالم في معالجاته النقدية، كان اوسع افقا واكثر تسامحا، من تلك المدرسة التي اساءت للادب في روسيا، والتي تسمى جدانوفيةن نسبة الى ناقد اشتهر في عهد ستالين اسمه جدانوف، وهو الوجه الاخر لنموذج اكثر بشاعة، ظهر في امريكا في الخمسينيات، واطلق موجة رعب اسمه ماكارثي، وتنسب اليه المكارثية التي تشبه صيد الساحرات في القرون الوسطى ، وشن حملة ضد المبدعين من اهل الفن والادب باسم تنقية البلاد من الشيوعية والشيوعيين.

انه التطرف، الملعون، المذموم، شرقا وغربا، والذي يجسد فعلا حكمة التعبير الشعبي الشهير، ما زاد عن حده انقلب الى ضده، وخير مثال هو التعصب الديني الذي يحيل القيم الدينية السمحاء، التي جاءت لكي تمم مكارم الاخلاق، كما وصفها نبي الاسلام ، تصبح صانعة للكوابيس ومصدرا لجرائم القتل واغتيال الابرياء.

نوع من التفكير

التحقت مبكرا، وانا دون العشرين ، بالعمل الثقافي والاعلامي والفني وليبيا، مما اتاح لي ان اتعرف عن قرب وعن عمق بما تفكر فيه وما تطمح اليه النخب العاملة في هذه المجالات، وما تريده ان يتحقق لليبيا، واعتقد ان هناك عطبا في اسلوب تفكير هذه النخب، ليس في ليبيا فقط ، فليبيا فيما تفكر فيه وما تصبو اليه ، لم تكن الا صورة مصغرة لما تزخر به المنطقة العربية من رؤى وافكار، وما اسمه عطبا، لم يكن مقتصرا على نخبة دون غيرها، ولا على المنتمين لمذهب او مدرسة دون غيرها، كما لم يكن يقتصر على ابناء منطقة دون غيرها، ورما السر في هذا التوافق بين هذه النخب راجع الى حداثة عهد الاستقلال ، وخروج الاجنبي، ومجيء الانضمة الوطنية التي بدأت تبني نفسها من الصفر، وهي بدايات من واقع لم تكتمل فيه مؤهلات بناء الدولة ، ولم تكتمل فيه شروطها، ولم يتوفر فيه المناخ الذي يتيح العمل بحرية ودون عراقيل ، فالمستعمر القديم حتى وهو يرفع عصاه فوق كتفه ويخرج، غالبا ما يخرج وقد ابقى بعض الاوتاد ووضع بعض العصي تبرر له التدخل عندما يصرخ صاحب الارض طالبا العون لتنحية هذه العصي، اويعود الى تفقد تلك الاوتاد التي اقامها تماما مثل مسمار جحا التي كانت موضوع مسرحية عن الاستعمار واوداته ومساميره كتبها الكاتب المسرحي الشهيرعلى احمد باكثير ، فربما من هنا جاءت هذه الرؤى التي جمعت بين النخب العربية ، وما اسميه عطبا ياتي من اغفال هذه النخب لكل هذه الملابسات والظروف التي اعقبت مرحلة التحرر ، وشابت بناء الدول، فمضو يفكرون تفكيرا مثاليا ويضعون نموذجا للدولة التي يريدونها ويريدون ان تتوفر الان على نموذج وشاكلة جنة رضوان تتوفر فيها كل شروط التقدم والنهضة والديمقراطية في اخر طبعاتها وحقوق الانسان في اخر ما وصلت اليه في دول العالم او كما حددتها مواثيق الامم المتحدة ، وهو بلا شك طموح مشروع ، لكنه للاسف الشديد لا ينفع لوضع خريطة طريق للعمل والانجاز، انه كمن يضع في ذهنه صورة مثالية لاجمل امراة راها في السينما، ثم يضع هذه الصورة شرطا للزواج، فيقى طول العمر يبحث عن هذا النموذحج الذي لن يجده في قريته او في الحي الذي يسكنه ويحكم على نفسه بان يعيش مدى العمر بلا زواج ولا بناء اسرة واولاد، اقول ان هذه النخب كانت تنشد المحال ، وترفض ان يتحقق لها سواه ، فحصل لها مثل ذلك المنبت في الحديث الشريف، لا ارضا قطع ولا ظهرا ابقى ، وكان الحصاد مرا مؤسفا مؤلما حزينا، نعم، لم نستطيع تكييف نظرتنا للواقع الذي نعيشه، ومحاولة فهم المعطيات التي انتجت هذا الواقع، فنضع خريطتنا ليس بحسب

ما نراه من صورة في خيالنا، ولكن وفق ما هو متاح، واضرب مثلا بليبيا، فقد نشأت على انقاض دولة الاستعمار، وفترة بسيطة من الوصاية ، وفقر مدقع ، وسنوات جوع وعطش ومسغبة، دولة الاستقلال، وقد عاصرت انشائها طفلا، وبلغت سن الرشد مع احتفالها بالعيد العاشر لقيامها، وكان الحال قد تبدل الى احسن ، فقد بدأ النفط اولى شحنات التصدير الى الخارج، وتحققت بنية تحتية للتعليم ، وصارت هناك جامعة لها اكثر من كلية وتخرجت منها اكثر من دفعة ، وبعد عامين من العيد العاشر، اعلنت الحكومة عن مشروع ادريس للاسكان ، الذي كان سيعالج اعوص مشكلة لشعب قادم من البادية وحياة الخيام، يريد الاستيطان والتمدن، وكانت هناك قاعدتين عسكريتين ولجان للتفاوض على اجلائهما ، مع انهما مربوطان باتفاقية تنتهي خلال بضع سنوات ، ومع ذلك كان الرفض لهذا النظام رفضا قاطعا وجذريا، لا يقبل اي مساومات او مصالحات، ربما تنتهي باجراء اصلاحات ، كان الرفض شاملا وكاملا ، ولم اسمع يوما عن تصور مكتمل لخطة اصلاح ، ربما تبدأ بانضاج الحياة السياسية ، والقبول بعودة انشاء الاحزاب ، ورقابة قانونية ودولية على انتخابات مجلس النواب ، لم يحدث ولا وجود لاي برنامج يطالب الحكومة بمثل هذه الاصلاحات، كان الناس ينقسمون الى فئة المنخرطين في النظام كما هو باعتبار ان مصلحتهم البقاء معه والاستفادة منه واستثمار فساده لصالحهم ، وفئة نافرة، رافضة ، لا ترى تصورا الا الدولة المثلى والمثالية .

وجاءت كارثة البديل الذي جاء ليحل محل النظام الملكي ، كارثيا ، استبداديا، يعتمد القتل سبيلا الى الحكم، ويسيطر على مقدارته رجل مختل العقل وميت الضمير، لا شيء في راسه الا الحكم والتصل الى حد ان الشرفاء من رفاقه تركوه واستقالوا من المنصب او هربوا من البلاد، الا قلة خانعة دليلة، واستمر نفس التعامل معه، لم يكن هناك افاق للتعامل مع الحالة ، بطرح بدائل من داخل النظام نفسه، او بدائل يقتدي فيها الشعب بشعوب عربية اخرى ، واضرب مثلا بتجربة الشيخ زائد في الحكم ، فهاهو نظام يكاد يكون عائليا ، واذا استخدمنا اللغة السياسية القديمة يكاد يكون اقطاعيا ، ومع ذلك ولوجود حاكم من اهل الخير والنبل والكرم ، اقام في بلاده عدلا، وبنى دولة يتوفر فيها الامان ، ويتوفر فيها المستوى المعيشي الراقي وتاخذ في البناء والتنمية باحدث الاساليب العصرية ، نموذج يمكن البناء عليه ووضع تصور لحكم يتوفر فيه ما توفر لدولة الامارات من خير وسلام وحرية على المستوى الاجتماعي والشخصي والعام.

انها مجرد خاطرة ، ربما مشوبة باحساس بالذنب، وقد لا تنفع في ان تكون بذرة لنظرية ولكنها ربما تقترح رؤية للتعامل مع الواقع غابت عن ابناء جيلي ، فلعلها لا تغيب عن اجيال لاحقة .

الاستخدام العالمي لمثل ليبي

اذكر نقاشا حصل مع رجل من اهل المنازلات الفكرية على المستوى العالمي ، والمفكر اليساري الذي عرف بنضاله من اجل العدالة الاجتماعية واستقلال الشعوب، بطل الثورة الطلابية وقائدها اواخر الستينيات في بريطانيا ، الصديق الكاتب والمفكر البريطاني من اصل باكستاني طارق علي، وكان الحديث عن افغانستان وهي تحاول جاهدة ومجهدة، ان تخرج من سباخ الاحتراب والفوضى والارهاب، وكوارث اخرى كثيرة انزلتها بها القوى الكبرى برئاسة القوتين الاعظم وهما الولايات المتحدة الامريكية والاتحاد السوفييتي في حربهما الباردة الساخنة قبل تفكك قائدة الكتلة الشيوعية، وهو الصراع المدمر الذي نشأت في ظله تنظيمات ارهابية مثل القاعدة على يد وكالة الاستخبارات المركزية، والنظام الاجرامي الحاضن للقاعدة نظام طالبان، ثم بروز حراك سياسي يسعى لاقامة الدولة المدنية ، افرز شخصية وصلت الى منصب رئيس الجمهورية هو السيد حامد كرزاي، وكانت نقمة الصديق الدكتور طارق علي ، ضد كرزاي نقمة شاملة كاملة، باعتبار انه العوبة في يد الامريكيين، وانه صنيعة من صنائعهم وانهم هم الذين دفعوا به الى الواجهة، وهم الذي وراء وصوله الى منصب الرئيس، لانه العميل الذي يأتمر بامرهم ، ويتولى تنفيذ سياستهم، بينما كنت ارى في وصول كرزاي على راس تيار مدني اقرب الى العلمانية منه الى دولة التطرف الديني، امرا ايجابيا وبادرة انفراج للازمة الافغانية، ووبداية تراجع للارهاب الديني، وجماعات التكفير، والتطرف من اهل الظلام والجهل، الذين اساءوا الى الاسلام واظهروه امام العالم في هذه الصورة البشعة، التي تعلي من قيمة التوحش والتخلف، وتعادي العصر وقيمه ونواميسه، بل تعادي سماحة الاسلام و ورح العدل والخير والرحمة فيه، ورايت في انتصار التيار الذي جاء بالسيد حامد كرزاي، هزيمة للقاعدة ولطلبان وانحسارا لنفوذهما، لا في افغانستان وحدها وانما في بقية بقاع العالم ، الا ان الصديق طارق على، ظل متمترسا بموقعه المعادي لامريكا، وعميلها والقوة التي تلقى الدعم والمساندة منها، بينما لم اكن انظر شخصيا لهذا الدعم، او اعطيه اهمية على حالة السلام واحتمال انتصارها على حالة الاحترام، فهذا الدعم الامريكي كان موجودا، وكان فاعلا مع بن لادن، وفاعلا وموجودا خلف ظهور طالبان ، وكان ذلك خرابا ودمارا واجراما، ولكنه الان وهو يدعم تيارا مدنيا يصبح من حقنا ان نجد في هذا التيار المدني ، وسيلة خروج لافغانستان من مستنقعات الارهاب، وزدت لجاجة في النقاش وانا اقول له دعنا نذهب الى اكثر من ذلك ، والى التوجهات التي تدعمها وتناصرها وتمحورت حياتك خلف مساندتها، وهي التيارات اليسارية الشيوعية، وقل لي ماذا قدم لافغانستان السيد بابراك كارمل، زعيم الحزب الشيوعي الافغاني، الذي جاء الى حكم كابول على ظهر دبابة سوفييتيه، وماذا قدم خليفته السيد نجيب الله ، غير الدمار والرعب والحرب الاهلية المدمرة والدفع بامريكا لايقاظ وحش الاسلام السياسي، فاذا كانت حكومة السيد حامد كرزاي استطاعت، بمباركة امريكية، انقاذ الشعب الافغاني واخراجه من ويلات الحرب والارهاب والرعب فلتفعل ذلك بكل ترحاب واعجاب ومباركة منا نضيفها الى المباركة الامريكية، واضفت بانه لا يمكن ان نقيس الاحداث في وقت التأزم والاحتراب بنفس المقاييس التي نقيسها بها في وقت الاستقرار والامان والسلام ، وعندما وجدته مازال لا يقبل ان يكون هناك رجلا افغانيا ياتي بارادة الامريكيين يأتي الى منصب الرئاسة والقيادة، جازفت بالاستعانة بمثل ليبي، واثقا انه سوف يحسم النقاش ، لانه توصيف للحالة لا تقبل النقض او الابرام، وكان هو ذلك المثل الشعبي الذي يقول " امسك في ذيل الكلب، حتى يخرجك من الغريق"، فصار هذا المحاور القوي، ورجل المنازلات الفكرية الشرسة، يضحك بملء وجدانه، من قدرة هذا المثل على تلخيص الموقف، وتوصيف الحالة

توصيفا دقيقا ، فاذا كان لا سبيل للخروج من مناطق الخطر والنجاة من الغرق، الا عن طريق الامساك بذيل الكلب، فلنمسك به حتى نخرج الى الشاطيء ، وليكن لنا شأن اخر بعد الوصول الى ضفة البحر

محي الدين فكيني

طاقات بشرية وخبرات في مجالات مختلفة، تم عزلها وحرمان المجتمع الليبي من ثمرات جهودها، بسبب انه كان لها اسهام في ادارة احدى المؤسسات او الادارات في العهد الملكي ، فكان جزاؤها، عندما جاء النظام الانقلابي، ان وضعها في القائمة السوداء التي يحظر التعاون معها، وواحد من هؤلاء الناس من ذوي الكفاءة والجدارة والتعليم الراقي والخبرة الواسعة في الادارة والحياة الدكتور محي الدين فكيني المولود عام 1925 والمتوفي عام 1995وكان قد درس القانون في السوربون ، في عقد الاربعينيات، ونال الدكتوراه ، وعاد مع بداية دولة الاستقلال لينخرط في الدولة الناشئة، التي تقلد فيها عدة مناصب كان اهمها ناظرا للعدل في ولاية طرابلس ثم رئيسا لمجلسها التنفيذي ثم سفيرا لليبيا في مصر ووزيرا للعدل ثم تولى منصب مندوب ليبيا في الامم المتحدة قبل ان يصبح رئيسا للوزراء ووزيرا للخارجية خلال عامي 4-1963

وباعتباري صحفيا فقد كنت متابعا لمسيرة الرجل، عارفا بسجله الوطني، وخطواته الاصلاحية التي اتخذهاعندما استلم رئاسة الحكومة وسجله المشرف عندما كان مندوبا لليبيا في الهيئة الاممية . الا انني لم اتعرف عليه شخصيا ولم يحصل اي لقاء بيني وبينه الا في السنوات الاخيرة من حياته، عندما صار ياتي للجلوس للفندق الذي كنت اتخذ منه مكانا للقاء الاصدقاء، الفندق الكبير . اذ حدث ذات مرة ان دخل هذا الفندق ، وكنت اجلس مع الصديق الكاتب الاستاذ على مصطفي المصراتي ، فنهض الاستاذ المصراتي لتحيته والترحيب به، ودعاه للجلوس معنا فلبى الدعوة، وصار منذ ذلك اليوم ، يتردد على الفندق ، ليلتقي بنا ، وحيث ان الاستاذ المصراتي لم يكن يرتاد الفندق بنفس الانتظام الذي كنت اداوم به، فقد كان يلقاني فيأنس لي ويجلس لاستمتع باجمل حديث يمكن ان احظى بمثله في مثل هذا الفندق.

فالرجل كان يمتلك مخزونا من التاريخ الليبي ، ربما لا يتوفر لاحد غيره في ليبيا ، فوالده كان قائدا من قادة الجبل الغربي في الجهاد ، هو الشيخ محمد فكيني، الذي واكب حركة الجهاد منذ عام 1911 وهو يقود مجاهدي الجبل الى ميادين المواجهة في معارك الهاني وبومليانه وعين زاره في طرابلس الى معارك القبلة والجنوب والى ان بدات حالى الانحسار والتقهقر عام 1931 وهو العام الذي شنق فيه شيخ

المجاهدين عمر المختار وهاجر فيه الشيخ محمد خليفة فكيني الى تونس الذي ظلت وطن المهجر حتى وفاته عام 1950 وهناك ادخل ابنه المدارس الفرنسية واظهر تفوقا في الدراسة شجع الاسرة على ارساله الى السوربون حيث نال الاجازة في الابعينات ثم اكمل الدكتوراه التي اخذها في مطلع الخمسينيات وكان بحثه عن القضية الليبية وهيئة الامم المتحدة، وكنت بسبب اقامتي الطويلة في بريطانيا وترددي على مكتبة الدراست الشرقية التي تحتوي على قسم كبير من الكتب على ليبيا وعلى المتحف البريطاني الذي حتوي قسما اخر لا يقل عن القسم الاول ، صرت عارفا باغلب ما صدر عن ليبيا من كتب اجنبية ، خاصة باللغة الانجليزية، وادهشني انني كلما جئت على ذكر كتاب من هذه الكتب وجدت قد طالعه بل اكثر من ذلك ، يشرح لي ظروف تاليف ، ويعطيني فكرة عن مؤلفه ، لانه كما قال لي كثير من هؤلاء الناس، خاصة ممن كتبوا خلال فترة الاستقلال وما قبلها قليلا اي فترة الاربعينيات ، كانوا يعودون اليه ، ويتصلون به، ويستعينون به، فهو رجل اكاديمي، وهو يجيد اجادة تامة اللغتين الائيسيتين في العالم وهم الفرنسية والانجليزية ، علاوة على لغته العربية، ومعرفة غير هينة باللغة الايطالية، ولا ادري ان كان هناك ليبي سبقه الفوز بشهادة الدكتوراه ، وما اعرفه ان عدد خريجي الجامعات وقت فوزه بهذه الشهادة العالية كانوا 15 شخصا، غير طبعا اهل الدراسة الدينية، وكانت الشهادة الابتدائية في ذلك الوقت تضمن لصاحبها الحصول على وظيفة مدرس في المدارس الابتدائية ، لان التعليم كان قد بدأ في الانتشار ولم يكن هناك امكانية للحصول على مدرسين يستطيعون سد الفراغ دون اللجوء باصحاب هذه المستويات.
اذن فهو يقف متميزا بين ابناء جيله بقامته الثقافية السامقة، وحكي لي كيف انه عندما كان سفيرا لليبيا في امريكا ومندوبا لها في الامم المتحدة ، قام بجولة شملت كل الولايات الامريكية ، للتعريف بليبيا وتقديم محاضرات حول تاريخها وتراثها والحضارات التي مرت بها ، عبر ترتيب مع هيئة اكاديمية ، ليقدم هذه المحاضرات من خلال اهم الجامعات في كل ولاية. وحكي لي صديق هو الاستاذ احمد بن سعود عمل معه في البعثة ، وكان يجلس بجواره اثناء الجلسات الطارئة للهيئة العامة وهي تناقش الاعتداء الثلاثي على مصر عام 1956، وقال لي ان الدكتور فكيني ، طلب منه ان يذهب الى ادارة الجلسة ويسجل اسمه ضمن طالي الكلمة ، لكن السيد احمد تظاهر بانه يفعل ذلك ، لكنه لم يقم بتسجيله حقيقة، لانه وبسبب هذه الجلسات التي تمتد لمدة 24 ساعة، كان الارهاق قد نال من الجميع ، وكان الدكتور فكيني قد استعان بمشروب مهديء، لمقاومة التعب والحالة العصبية، ويبدو انه وصل الى حالة تمنعه من ان يكون في تمام لياقته الذهنية ، ولهذا يقول السيد احمد انه اشفق عليه ولم يقم بتسجيله، وانتبه الدكتور فكيني الى ذلك، وعرف ان زميله ، لم يقم بتسجيله، فقام متعثرا ، مستندا على الكراسي، يجر قدميه جرا الى المنصة حيث قام بتسجيل اسمه، وداوم على تناول المشروب المهديء للاعصاب، وكان قد وصل الى حالة من الاسترخاء وانطفاء الملامح، وكانه تحت حالة تخدير، عندما نطق مذيع القاعة اسمه، يدعوه للكلام ، قال السيد احمد ان الرجل بالكاد استطاع ان ينهض من مقعده، وبالكاد استطاع ان يجر جسمه الى المنصة ، ليقف فوقها، وقال انني شخصيا احسست بالخجل وخشيت الفضيحة فدخلت في مقعدي،احاول ان اختفي تحت الكرسي، واتكاء الدكتور فكيني على المنصة بادئا الكلام باللغة الفرنسية ، باعتبارها كانت هي والانجليزية لغة القاعة، ورغم اجادته للاخيرة لكن بلاغته وبراعته تتجليات في نطقه الفرنسي ، وباشر يقول مدام مسيو، وتفقق يخطب بصوت جهوري يجلجل في انحاء القاعة وقد ران فوقها الصمت ، انتباها واحتراما وانبهارا بهذه اللغة وهذا المنطق وهذه الافكار التي يتكلم بها المندوب الليبي ، الذي كانت ملكاته

الفكرية والخطابية في قمة التوهج والاشتعال، ونهض كما قال من مقعده متباهيا متفاخرا بزميله ورئيسه في العمل ، وضجت القاعة بتصفيق طويل بعد نهاية الكلمة وهرع مندوبو الاقطار العربية وبينهم احمد الشقيرى واخر اسمه البارودي والمصري واسمه القوني وغير هاؤلاء يحتضنونه ويهنئونه لانه كان من ابلغ واعظم المرافعات التي قالت كلاما يدين العدان ويناصر الحق المصري.

وكنت وانا اجلس معه في الفندق الكيبر، كثير ما جاء اناس لا يعرفهم، يحيونه ، وينقلون له اعجابهم بتاريخه الوطني وسجله الناصع البياض ، كرجل شريف ، نظيف اليد، بريء من اي فساد ، كما كان على انسجام مع الخط الوطني العروبي، وكانت تجمعه حلقة تتكون من عدد من الوزراء من ذوي التوجه الوطني، وكانت لهم اتصالات بالرئيس المصري، يؤكدون له يناصرون خطه العروبي الذي يسعى الى التكامل والتعاون بين الاقطار العري ووقوفها صفا واحدا ازاء التحديات والمخاطر الخارجية، ولعل هذا الخط الوطني كان مسئولا عن ابعاده من منصبه الوزاري واثارة المشاكل في وجهه، رغم نجاحه الكبير في العبور بليبيا من دولة اتحادية الى دولة مركزية مندمجة ، وكان كثيرون يحسبون ان المسالة لن تمر بسهولة ويسر، ورغم ان قرار الغاء النظام الاتحادي، كان سابقا له، الا انه هو الذي تولى تنفيذه بكثير من الحكمة والدقة والنجاح.

عاش الرجل بعد انقلاب سبتمبر 26 عاما ، لم يستعن به النظام او يسال عنه، واظنه كان قد ترك مكتبا قانونيا باشره في العهد الملكي وربما في بداية العهد الانقلابي . وكانت لديه مزرعة في طرابلس قريبة من مركز المدينة ، ارتفع سعرها فصار يعالج حاجته الى المال ، بان يقتطع هكتارا يببعه وينفق منه على اسرته، الى ان لاقي وجه ربه.

نعم ، لقد اهمل النظام الانقلابي مثل هؤلاء الساسة والمفكرين واهل العلم والخبرة، وهو ظلم لهم وظلم للبلاد، ولكن الظلم الاكبر هو ما ارتكبه هؤلاء الناس نحو انفسهم ، فلم اسمع ان هذا الرجل الموسوعي الثقافة، المتعدد اللغات ، الذي كان يملك فائضا من الوقت ، شغل نفسه بتاليف كتاب، او بحث او دراسة، وليته انشغل فقط بكتابة سيرته الذاتية ، وترجمة حياة والده، وبعض صفحات الجهاد التي عايشها طفلا ولد في فزان وكان يتنقل مع والده في المراحل الاولى من عمره، وهو يقود المعارك ويدخل المنازلات المتواصلة مع الجيش الايطالي. لم يفعل ، ولم يترك اثرا مكتوبا ، رغم ما توفر له من علم وثقافة وفكر. عليه رضوان الله.

فاضل المسعودي

ساسرد في هذه العجالة حكاية صغيرة عن زميل صحفي هو الاستاذ فاضل المسعودي، الذي حرمه نظام الاستبداد في ليبيا من ان يؤدي عمله في تنمية بلاده طوال العقود الاربعة الماضية،واضرب به مثلا على ضحايا الطغيان من اهل الفكر واصحاب الاقلام.

كان الاستاذ فاضل المسعودي قد اكمل تعليمه الجامعي في نهاية الخمسينيات وعاد ليتولى مع زميله المرحوم محمد عمر الطشاني تاسيس صحيفة في جنوب البلاد اسمياها باسم المنطقة "فزان"وجعلاها تتفوق في اسلوبها واخراجها ومواداها على صحف العاصمة طرابلس. واستقال فاضل المسعودي فيما بعد من عمله في هذه الصحيفة انتقل الى طرابلس ليعاون صديقه السيد على الديب في اصدار صحيفة الليبي، قبل ان يباشر في العام 1964 اصدار صحيفة اسبوعية مستقلة اسمها الميدان، هو صاحبها ورئيس تحريرها،وكانت صحيفة تقدمية يسارية استقطبت عددا من الكتاب كنت واحدا منهم، وكانت الصحيفة تستفيد من الهامش المتاح في انتقاد الحكومة، وكان فاضل المسعودي يعادي الانظمة الانقلابية في العالم العربي بما فيها نظام عبد الناصر، وكنا نختلف معه حول هذه النقطة، فلا يمانع من ان نعبر عن وجهة نظر تخالف رايه، ولم يكن يعلم ان ليبيا نفسها سوف يداهمها مثل هذا النظام الانقلابي الذي سيطيح بالملك ويقيم بدلا منه نظام العصبة العسكرية ورئيسها الذي اعلن نفسه حاكما فردا، مستبدا برايه، فارضا افكاره على المجتمع، وكان فاضل المسعودي اول مواطن ليبي يرفع راية العصيان ضد هذا الحاكم وكتب في الايام الاولى للانقلاب افتتاحية تقدم طرحا مخالفا لاطروحاته، وصدر الامر في ذات اليوم باغلاق الصحيفة، ثم ارسل وزير الداخلية، رسالة مع احد اصدقائه، الى فاضل المسعودي ينقل اليه تقديره الشخصي، وتحذيرا له بان امرا صدر من رئيس النظام باعتقاله، وان قرارا بهذا المعني سيتم ابلاغه لمراكزالشرطة للتنفيذ وعليه ان يغادر البلاد على الفور اذا اراد لنفسه النجاة.

غادر فاضل المسعودي البلاد الى منفاه خارج البلاد، وبقى وعلى مدى اكثر من اربعة عقود لا يفعل شيئا الا الانصات الى دبدبات الارض منتظرا متى تخرج العقب الحديدية لاهل النظام الانقلابي من البلاد،

محروما من رؤية وطنه، محروما من مزاولة مهنته الا بعض شذرات ينشرها هنا وهناك، اغلبها مرثيات لاصدقاء العمر الذين يرحلون، وفقد اثناء هذا الغياب الطويل اغلب من تركهم في ليبيا من كبار العائلة بل فقد اشقائه بمن فيهم شقيق اصغر منه هو الاستاذ اسعد المسعودي الذي كان مسجل الجامعة الليبية، ولم يكن هؤلاء الاهل يستطيعون رؤيته في المهجر خوف ان يلاحقهم النظام بتهمة الاتصال بهذا المعارض للنظام.

لم يكن الاستاذ فاضل المسعودي اديبا لكي يستطيع انتاج ابداع ادبي في مهجره، ولكنه كان صحفيا رائدا وبارعا في ادارة هذه الصحف، وصاحب لمسة ذهبية تجعل الصحيفة تنال النجاح الجماهيري وحظوة القراء

وقد حاول في المهجر ان يعيد الحياة الى الميدان في شكل مجلة شهرية، ولكن الميدان ولدت صحيفة ليبية، في تربية ليبية، ومناخ ليبيا وطقسها الحار، ولهذا كان صعبا نقل التجربة الى بلاد المهجر، فلم يكن ممكنا استمرار المجلة في ظروف المنفى وشروطه القاسية.

الان فقط وبعد ان قضى اثنين واربعين عاما في المنفى، تبرق في افق هذا الرائد من رواد العمل الصحفي الليبي، بارقة امل في العودة الى بلاده، املا ان تكون له الصحة والقدرة البدنية على استئناف اداء رسالته واصدار صحيفة الميدان من جديد لتكون منبرا من منابر الحرية .

خلالهذه الفترة الطويلة التي زادت على اربعة عقود ، لم استطع الالتقاء بالصديق والزميل فاضل المسعودي الا مرتين، لانه كان قد اختار الاقامة في سويسرا ، وهي بلاد لم تكن ضمن الدول التي اتحرك فيها او ربطتني بها علاقة عمل او دراسة مثل عواصم اخرى، ولم اذهب لها غير مرة واحدة ، ولفترة قصيرة وفي مهمة صحيفة لتغطية مؤتمر جنيف بشان القضية الفلسطينية، حدث وانا في المغرب ان ابلغني صديق من بلدعربي يعرف المسعودي ، انه موجود في فندق بالقرب من محطة الرباط الرئيسية للقطارات ، فذهبت مسرعا الى الفندق ، وعندما لم اجده ، صرت اترصده الى ان فاجاته بوجودي واسعدني ان التقي به قد مرت في ذلك الوقت قرابة ثلاثين عاما على هجرته القسرية عن بلاده، ومازال مطاردا يخشى ان يتعقبه القتلة في اي مكان من العالم ، والمرة الثانية وكانت بعد ذلك اللقاء في القاهرة، حيث عرفت عن طريق السيد عبد المنعم الهوني ، وكان وثيق الصلة به، ان الاستاذ فاضل موجود، وفعلا التقينا ، وكانت مناسبة ليلتقي بعدد كبير من الاصدقاء باعتبار ان القاهرة مكان يستقطب ربما اكبر تجمع سكاني من الليبيين خارج ليبيا. وقضينا ايام في صحبة مستمرة ، نتنقل بين بيوت عدد من الاصدقاء الذين يحبون فاضل المسعودي ويحرصون على استضافته مع اصدقائه.

وكنت وانا اراه في هذه اللقاءات لا ارى ابدا اثار السنين التي غاب فيها عني ، مرسومة على وجهه، لا اراه الا كما كنت اراه في طرابلس ، طاقة من الحيوية والنشاط والطموح والذكاء والعمل ، واراه شابا في الثلاثينات من عمره ، وقد مرت السنين على ملامحه فلم تترك اثرا، وعلى سواد الشعر في راسه فابقته اكثر سوادا، وكانها تنزلق انزلاقا كما ينزلق الثلج فوق مادة بلورية ، وليست مادة من لحم ودم.

شوقية وفتحية

سيدتان مصريتان جاءتا لنا في مقر الصحيفة الليبية الاسبوعية "الحرية"، تريدان ان تساهما في تحرير الركن الخاص بالمرأة والطفل، وربما ابواب اخرى ذات طابع اجتماعي، وقالتا انهما يعملان في التدريس ، في مدرسة مجاورة لنا خاصة بالبنات، مرحلة ما فوق الابتدائي، وكانتا تعرفان انه لا وجود للنساء في الصحافة الليبية في ذلك الوقت، ولذلك فهما يبديان استعدادهما لملء هذا الفراغ.

كانتا في مقتبل العمر، على مسحة من جمال واناقة ، يحملان اسم شوقية وفتحية، وابدى رئيس التحرير السيد محمد عمر الطشاني، ترحيبا كبيرا بهما ، ربما قبل ان يرى شيئا من انتاجهما، فقد عاش سنوات كثيره من صباه ومرحلة شبابه الاول في مصر، واستوعب الروح المصرية ، وكان ، فيما بدا من هذا الترحيب، انه سعيد بان يرى في صحيفته هذه اللمسة النسائية المصرية، ويبدو ان كلامهما لم يكن فراغ، فقد انتظما في كتابة الباب، وشجعهما هذا الترحيب من رئيس التحرير، على الاندماج في اسرة تحرير الصحية، ويقبلان بحماس ومثابرة، على قضاء ما لديهما من وقت فراغ في الصحيفة ، واشاعتا جوا من الالفة وروح الدعابة بسبب ما يملكانه من خفة دم مصرية، وشجع وجودهما كل مساء في مقر الصحيفة ، عددا من اصدقاء اخرين من معارف المحررين ومعارف رئيس التحر ، على مداومة المجيء، وتحولت الصحيفة الى منتدى اجتماعي ثقافي بسبب شوفية وفتحية وما لديهما من جاذبية وروح اجتماعية.

ولم اكن شخصيا اعرف شيئا عن حالتهما الاجتماعية ، وعما اذا كانتا تقيما في طرابلس بمفردهما ، او لكل منهما عائلة تعيش في كنفها، او هما ينتميان الى عائلة واحدة، وهي امور لم اشغل نفسي بها، ولم ار احدا يشغل نفسه بغير ان يرى شوقية وفتحية يضفيان هذه اللمسة الجميلة على المكان ، وتحظيان بالاحترام والتقدير من الجميع ، ويتصدران المجلس كل يوم في صالة التحرير ، وعامل البوفيه ، يخرج ويدخل بالمشروبات الباردة والشاي والقهوة، التي كانت الصحيفة توفرها مجانا للعاملين.

وقد استمر هذا الجو الذي اشاعته شوقية وفتحية في صحيفة الحرية لمدة تقرب من عامين، ثم فجاة، توقف مجيئهما الى الصحيفة ، كما توقف اسم شوقية او فتحية عن الظهور في الصحيفة تحت ما يكتبانه من مادة صحفية، وانسحب ذلك الالق الذي كان يضيء امسيات صحيفة الحرية ، وانفض السامر الذي انعقد حولهما.

ما السبب، هل هو حقا انتهاء عقدهما مع التعليم ، ولكن لماذا؟ ونحن نرى معلمين مصريين يستمرون لعشرة وعشرين عاما معارين الى ليبيا ومتعاقدين مع وزارة التربية والتعليم، واتضح فيما بعد، انه ليس انهاء اعارة او اقتصار مدة التعاقد على عامين ، فهما موجودتان في ليبيا تمارسان عملهما في المدرسة المجاورة، اذن لماذا؟ هل هو خلاف مع صاحب الصحيفة ، ام هو احتجاج على اساءة لحقت بهما من محرريها و ضيوفها، ولكنه ليس هذا ولا ذاك ، وانما هي جهة امنية فيما يبدو، لا ادري ان كانت سياسية او ربما شرطة المحافظة على الاداب، رات في هذا الاجتماع الذي ينعقد في الصحيفة حول المرأتين، خروجا على بعض التقاليد، او انه يدخل في اطار التجمعات غير المرحب بها امنيا، وطالما ان السبب هو هاتين المرأتين، فليكن ، امر الى صاحب الصحيفة بان وجودهما ليس مرغوبا به في الصحيفة، ويجب ان يلتزما بعملهما في التدريس فقط، وعلمت ايضا ان السيد الطشاني كان مستعدا لتحدي هذا الامر البوليسي

والامتناع عن تطبيقه ، ولكن تحذيرا فيما يبدو ذهب الى المراتين ، بانهما اذا ارادتا المحافظة على عقدهما فليلتزما بعملهما الذي توجدان من اجله في ليبيا ولا داعي للتواصل مع اوساط اخرى غير المدرسة التي يعملان فيها.

الوزير والممرضة

كان ذلك اياما قبل وقوع انقلاب سبتمبر، وكنت اجلس في فندق حديث الانشاء، هو فندق البحر الابيض المتوسط، واشار صاحبي الى رجل يجلس بمفرده الى على كرسي مستطيل، ويعلق بصره بالباب ، وعرفت فيه وزيرا عتيدا من الوزراء الدائمين في كل الوزارت، بسبب علاقة قديمة تربطه بالملك، في مطلع الستينيات من عمره ، يرتدي بذلة انيقه ، ويتميز بانه يضع مع البذلة طاقية حمراء، وخمنت كما خمن صاحبي انه بانتظار سيارته وسائقه ، لانه كان ينظر في ساعته ثم الى الباب في حالة من القلق ، الا ان هذا القلق تبخر فجاة وانبسطت اساريره عندما جاءت فتاة اجنبية ترتدي الميني جيب ، وبحثث عن المكان تجلس فيه ، ولم يكن ثمة مكان شاغر غير جانب من الكرسي الذي يجلس عليه السيد الوزير، وكان الفندق قد استقبل منذ ايام مضت مجموعة من الممرضات البريطانيات تعاقدت الدولة عليهن للعمل في مستشفيات العاصمة ، وتم الحجز لهن في عدد من الفنادق بينهم هذا الفندق ، ريما الى حين اعداد مساكن خاصة بهم. وتحول نظر الرجل الذي كان يتحرك بين ساعته وبين باب الفندق ، ابى التركيز على الجزء العاري من فخذ جارته الممرضة الانجليزية ، فقد وضعت ساقا على ساق وظهر ذلك الفخذ بهيجا ، مصقولا، يلمع تحت مسقط الضوء ، فداوم الرجل التركيز عليه منصرفا له بكل احاسيسه ، بينما المراة مشغولة عنه تقلب في بروشور دعاية بين يديها، ويبدى ان حالة التامل للفخذ العاري وصلت الى النتيجة التي اشتغل عليها راسه خلال هذا التامل الطويل، واصدر الراس امره الى يد الرجل ، فتحرك اليد ، مفتوحة الاصابع الى الفخذ المتهوج اللامع، ومرر يده بسلام وسعادة وهناء على ذلك الفخذ، وقد غطت وجه الرجل ستارة من الوداعة والسعادة والمتعة بالعمل الذي تقوم به اليد تمريرا وتدليكا ومصافحة لذلك الفخذ الانثوي الجميل . مرت لحظة قبل ان تنته المراة الى ان الذي يتحرك فوق فخذها هي يد بشرية ذات اصابع تزحف مثل رؤوس الافاعي ، وتتبعت تلك اليد فوجدتها تتصل بذراع موصول بالرجل الذي يجوارها ، نهضت من مكانها مذعورة، ووقفت اما الرجل الذي بدا مندهشا للسبب الذي جعلها تنهض من مكانها مذعورة وتقف امامه غاضبة ، وللحظة احسست انها سوف تمد يدها وتصفعه بقوة تنفيسا عن كمية الغضب التي ظهرت فوق ملامح وجهها. ولكنها اطلقت زفرة حرى ، وتحركت تبحث عن زميلة لها تلجأ اليها وتحمي بها من هذا الاجتراء على جسمها الذي كان بالنسبة لها شيئا غير محسوب ولا متوقع.

لم تجد احدا ، فاستدارت يائسة وقد تقلصت ملامح وجها فيما يشبه الاستعداد بالبكاء، بينما استمر الرجل في مكانه، تغطي ملامحه وداعة شيخ تجاوز الستين من عمره ، وقد عاد ينقل بصره بين الساعة وبين باب الفندق .

للتذكير

رمضان الاسود

رمضان الاسود

ربما كان الاستاذ رمضان الاسود، اول شخص التقي به، واتعرف اليه من اهل التاريخ الفني في طرابلس، حيث رايته عند اول يوم وصلت فيه الى طرابلس ، لحظة ان جاء بي والدي ، الى شارع هايتي، لالتحق بالمعهد الفني والكتابي، وكان هو مشرفا طلابيا في ذلك المعهد، وطبعا لم اعرف الا فيما بعد ان للرجل سجلا فنيا حافلا بجلائل الاعمال، لانه لحظة ان رأيته ثم بعد ذلك، كنت لا ارى فيه الا المشرف من مشرفي هذا المعهد ، الذي استقبل والدي واستقبلني، لان السائق المزداوي ، صاحب السيارة التي اقلتنا، على معرفة به، واراده ان يساعدني في الدخول الى المعهد، وفعلا تحقق القبول، بعد ان اجتزت امتحانا يقيمه المعهد للمستجدين، واخذ والدى وعدا من السيد رمضان ان يتعهدني ويرعاني ويرشد خطاي، وكنت فعلا احظى برعايته، وعدت اليه في اكثر من مناسبة، فكنت اجد عنده الحل لمشكلتي، وقد ذكرت في متن السيرة بعض ما واجهني من مشاكل تولى بخبرته، ومكانته لدى مدراء المعهد حلها، وتعرفت فيما بعد على تاريخه، وانه كان احد مدرسي الموسيقى في مدرسة الفنون والصنائع الاسلامية ، تخرج على يديه كثير من طلابها في المجال الفني الموسيقى والمسرحي ايضا، وبعد ان تقاعد من عمله في هذا المعهد، رجع فعلا الى مدرسة الفنون والصنائع الاسلامية ، يرعى طلابها ويقود فرقتهم في المحافل العامة، وظل يقوم بهذه المهمة لعقود كثيرة ، وقد عاش طويلا رحمه الله ، واحتفظ حتى وهو فوق التسعين بقدرته على الحركة والعمل والنشاط وحضور الحفلات مع اولاده الصغار الذين يتولى تدريسهم ، وعندما كتبت مسرحية "عندما غنى المغني" عن مسيرة نجم الاغنية الليبية الاصيلة ، الراحل سلام قدري، جعلت للاستاذ رمضان الاسود دورا مهما في هذه المسرحية ، وفي حياة سلام قدري، باعتباره احد اساتذة مدرسة الفنون والصنائع ، وابن طرابلس العارف بعائلاتها وشيوخها ، واستطاع اقناع اهل سلام قدري، بالموافقة على ان يلتحق ابنهم بدراسة الموسيقى ، بعد ان كانوا يعارضون ذلك. ويذكر الأستاذ فيصل فخري، في كتابه (تاريخ مسابقات كرة القدم الوطنيةفي مدينة طرابلس)، ان الوالي الإيطالي (بادوليو) اصدر قرارا في مطلع الثلاثينيات بتكوين فريق (الشنتوريا)، وهو عبارة عن جمعية رياضية تضم طلبة المدارس، وتم تكليف الاستاذ رمضان الأسود بتكوين هذا الفريق، وقد اهتم الاستاذ رمضان بهذا الفريق وقسمه إلي فريقين (الأزرق والأبيض) وقد تمت بمباريات كثيرة بين هذين الفريقين ، واشتركا معا في مباراة الاحتفال بافتتاح الملعب البلدي في طرابلس عام 1939.

وهناك فنانون ليبيون كبار مثل المرحوم سلام قدري، يدينون بدخولهم هذا المجال، ونجاحهم فيها، الى الرجل الذي اخذ بايديهم وهم صبية صغار يولجون مدرسة الفنون والصنائع الاسلامية ويجدون الرعاية من قبل مدرس الموسيقى في المعهد، لانه كان يدرس هذا الفن مع عدد من المدرسين الايطاليين، وكان هو الاقرب الى الطلاب ، وهو الذي كان بامكانه ان يتواصل مع عائلاتهم ويحل المشكلات التي تعترض طريقهم مع العائلة ، لما له من فهم واستيعاب لتقاليد المجتمع ولما له من قدرة على الاقناع ، وقد حل مشاكل كثيرة تسببت فيها مثلا عائلة سلام قدري ، التي كان ضمن افرادها اعمام لا يريدون لها الاستمرار في هذا المجال لانهم يرونه وريثا لبعض اسلافه من اهل المدائح والاذكار الدينية وكان الفضل للاستاذ رمضان الاسود الذي اقنعهم بان دراسة ابنهم عبد السلام للموسيقى لن يكون حائلا بين مواصلة العمل في نوبات المالوف والموشحات والمدائح والابتهلات الدينية بل هي تاهيل وتثقيف له في هذا المجال عندما ياتيه مزودا بخبرات الموسيقى الذي يدرس فن الموسيقى على ايدي معلمين وعبر مناهج مدرسية اكاديمية .

لقد لعب الرجل ادوارا في تنشيط الحياة الفنية والرياضية في مدينة طرابلس ، وكانت الاولوية دائما للفن الذي استمر الى اخر عمره يتعامل معه عبر تدريب النشء الجديد، وكنت اريد كلما التقيت به في اعوامه الاخيرة ان اسأله لماذا لم يفكر في التلحين، لانني على ثقة ان لديه دخيرة من التجارب والخبرات والمعارف، ما يؤهله الى ان يبتدع الحانا، يضيف بها رصيدا الى رصيد الموسيقى والغناء في ليبيا، خاصة وانني اعرف انه مرجع في الالحان الليبية العريقة التي تنسب الى الفزاني والمورزقاوي ، علاوة على انغماسه منذ بواكير حياته في الفن الطرابلسي الذي يتميز هو ايضا بمدارس في الالحان وانواع الغناء، وهناك طبعا المالوف والموشحات، وهو ايضا احد خبراء هذه الالوان ، وكثيرا ما وجدته يتحدث في هذه المواضيع مع زميل له في معهد هايتي، ومشرف من مشرفي الاقسام فيها، وشيخ كبير من شيوخ الموشحات والمالوف، هو الاستاذ الكبير المرحو محمد قنيص، رحمهما الله، ولم اكن في تلك المرحلة العمرية اعرف الصلة الفنية التي تجمع بينهما، ولا المواضيع التي يتحدثون عنها، كل ما عرفته انه كان يرد في حديثهم الزاوية الكبيرة والزواية الصغير وزوايا اخرى كثيرة ارتبطت في اذهان الليبيين بالتراث الصوفي مثل زاوية سيدي يعقوب، وزاوية سيدي الشعاب ، وسيدي الكتاني، وسيدي عبد الرحمن المصري، وزاوية بوغرارة، وزاوية بومشماشة. وفي كل مرة كنت انسى السؤال، لاننا لم نكن نلتقي الا في زحام احدى المناسبات التي يحضرها عدد كبير من الناس ، او الاحتفالات الرسمية حيث يتم احضاره وفرقة البراعم التي يشرف عليها لافتتاح الحفل.

عاش حتى وصل الى مشارف المائة، وهي السن التي يحدث فيها نوع من الخرف ، حيث يبدأ الانسان يفقد التعرف على الناس الذين حوله ، وقد اخبرني ابنه الكبير الذي رحل في السنوات الاخيرة ، عليه وعلى والده رضوان الله، ان وصل الحال بابيه وهو يوصله بمشوار في سيارته، ان يلتفت اليه الاب شاكرا، ثم يسأله في اعقاب الشكر الا ينسى بان يبلغ سلامه الى والده. بمعنى ان الاستاذ رمضان ينسى ان مختار هو ابنه، ويظنه ابن صديق او جار فيحمله التحية الى والده. وابديت اسفي للحاج مختار على هذه المرحلة من الخرف التي بلغها والده، لكنه قال لي ربما تكون خيرا وبركة للانسان في مثل عمره، فهو بمثل هذه الحالة ينسى حتى المصير الذي يؤول اليه الناس ، وينسى الموت ومغادرة هذا العالم وهذه الحياة، بكل ما يجلبه مثل هذا التفكير من حزن والم، فهو كما قال لطف من الله ، ان تتضاءل الذاكرة الى هذا الحد الذي تهبط فيه المخاوف والاحزان من مثل هذا المصير، الى درجة الصفر.

رحم الله استاذنا رمضان الاسود وجزاه الله عني وعن كل من اعتنى بتربيتهم وتعليمهم، والاشراف على مراحل تكوينهم، كل خير وبركة وجعلها في رصيد حسناته يوم القيامة.

بشير فهمي فحيمة

هو بالتأكيد رائد الاغنية الحديثة واقدم مبدعيها في ليبيا وربما في منطقة المغرب العربي باقطارها الخمسة، حقق شهرة واسعة في المغرب العربي، عندما لم يكن احد يعرف الشهرة، لانه كان سباقا لنشر اغانيه في اسطوانات حملت اسمه، وهي اسطوانات فهمي فون، التي كان يقوم بتسجيلها في باريس لتتولى توزيعها الشركات الفرنسية التي تتحكم في اسواق المستعمرات الفرنسية في الشمال الافريقي اي المغرب والجزائر وتونس. بينما كان يعتني هو شخصيا بتغطية السوق الليبي، رغم انه كان تعامل طوال عمره مع الفن باعتباره هواية، وكانت قاعدة العمل والانطلاق هي تونس ، رغم انه عاش دهرا في عواصم الجزائر والمغرب تبعا لبعض التعاقدات الفنية التي تقتضي منه المشاركة في حفلات في هذه العواصم .

ولنبدأ منذ المراحل الاولى في حياته فهو ابن مدينة طرابلس عائلة فحيمة ، مواليد المدينة القديمة عام 1907، وكان مخترع الراديو السيد ماركوني الايطالي قد جاء بعد احتلال بلاده لليبيا لاقامة محطة صغيرة ، كانت تذيع مع البلاغات حصة بالعربي، وكان الفتي بشير فهمي فحيمة قد باشر الدراسة في عدد من الكتاب وانتقل مع والده القاضي الى بعض المناطق الداخلية في ليبيا، التي تركت اثرا في استيعابه للتراث الشعبي الليبي، وواصل دراسة الكتاب في مدينة الزاوية ، ثم عاد الى طرابلس والتحق بمدرسة العرفان وكان مديرها مصطفى الكعبازي، وكان المعلم الذي اهتم به كما يقول الكتاب الذي اصدره الكاتب عبد الرازق ابو قرين، عن طريق الاعلام والثقافة، في مطلع السبعينيات، هو الشيخ طاهر الزنتاني ، كما ان لقريبة المثقف وصاحب المساهمات الصحفية الاستاذ محمد ظافر المدني، وشقيقه الاستاذ محسن ظافر المدني، نصيبا في تربيته وحبه للفن وتعليمه العزف على العود، حتى صار قادرا على العزف والغناء والتحق بالحصة العربية التي تقدمها الاذاعة التي يبدو انها لم تكن قد انتظمت في ذلك الوقت كما حصل في الثلاثينيات عندما صار لها مقر في معرض طرابلس التجاري، وصار لها طاقم متفرغ للقسم العربي، من اهم عناصره الشاعر احمد قنابه والاستاذ احمد الحصائري، وكان هناك في ذلك الوقت تبادل فني بين طرابلس وتونس، فانتهز فرصة هذا التبادل وسافر الى هناك ، ليشتغل كما يقول بالتجارة في البداية ، الا انه وجد اصداء لما كان يقدمه من غناء في طرابلس عن طريق تلك المحطة وخارجها في الاعراس والمحافل العامة، فلبي الدعوات للمشاركة وانطلق يعمل بهذا المجال الذي حقق فيه نجاحا جعله يتفرغ له، وانشأ شركته فهمي فون التي صار يتولى من خلال تسجيل اغانيه وتسجيل التراث الفني الليبي والتونسي، كما افتتح في تونس مركزا لتوزيع هذه الاسطوانات، التي اذاعت اسمه بين الناس وصنعت له صيتا في كل مناطق المغرب العربي .

وانجز عددا كبيرا من الاغاني التي كان يتولى تأليفها ويتولى تلحينها ويتولى ايضا اداءها، ولم يكن ينسى الجانب السياسي، فقد حدث في وقت الوالي بالبو ان اعلنت ايطاليا انها ستقدم الجنسية الايطالية للمواطنين الليبيين، وتحمس للموضوع مفتى البلاد الذي دعا الناس الى الالتحاق بمشروع الجنسية

فاصدر اسطوانة تحمل اغنية هجائية سجلها وهو في تونس من تاليفه وغنائه وتلحينه تقول

مبروك عليكم يا ناس

قاضيكم ولا بيباص

وطبعا اثارت سخط السلطات الايطالية، ولم يكن يستطيع العودة الى البلاد في تلك الفترة، ومنعت بيع اسطواناته في المحال التجارية ، وكان يتفنن في التجديد في كلماته، ويعارض السائد، ويتحداه باغان غالبا ما تأخذ طريقها الى النجاح مثل الاغنية التي يتغني فيها بامرأة سودا وتقول كلماتها

يا بنت عمي ما احلاكي

وربما كان السبب غرامه بامراة تنتمي الى ذوي الاصل الزنجي، وهو ما حملته اشهر الاغاني التي كتبها وغناها بعض المطربين ، وصنع بها مطرب حديث هو لطفي ابو شناق شهرته ، دون ان نراه يسند حق التاليف الى صاحبه ، وهي احدى الاغاني التي احتواها كتاب الاستاذ عبد الرزاق ابوقرين وصدر في حياة المرحوم بشير فهمي عام 1972 في سلسلة كتاب الشهر تحت عنوان"بشير

فهمي حياته وفنه" واستلمها منه شخصيا حيث وضعها في جزء خاص من كتابه وهي الاغنية التي اعطاها للفنان التونسي الهادي الجويني ليقوم بتلحينها وغنائها والتي تقول كلماتها

لاموني اللي غاروا منى

وقالوا لي هالطفلة إيش عجبك فيها

قلتلهم هللي جهلوا فنى

خوذوا عينى شوفوا بيها

في عينى تضوى كالقمرة اناجيها وهى في سماها

وهما يوقولى هالسمرة

إيش فيها حتى تهواها

واغنيات كثيرة اشتهرت تلك الفترة بين الناس، وكان اعظم انجازاته في تونس، هو تقديمه لارقى صوت غنائي عرفته تونس وهو صوت الفنانة صليحة، فهي فتاة بدوية، جاءت الى العاصمة، لتشتغل مع البدويات اللاتي يلتحق بالعمل كخادمات في البيوت ، ويبدو ان صديقا له يقال انه المحامي حسونة بن عمار، سمع صوتها وابدى اعجابه بها للفنان بشير فهمي ، فسعى اليها وعمل على تدريبها، وقدم لها بعض الاغاني من التراث الليبي التي نالت شهرة عظيمة، عند تسجيلها وتقديمها في الاذاعة، وكانت لحظة الاقلاع بالنسبة لها هي مشاركتها التي هيأها لها الفنان بشير فهمي في حفل تأسيس الاذاعة التونسية عام 38، وسجل لها اسطوانات تراثية في فهمي فون مثل "عمري ضاع في الغربة هواهي" " ومخنوق بنت المحاميد عيشة ، ريشة بريشة ، وعامين ما كملوش النقيشة" وسعت هي بعد ذلك لتأهيل نفسها بانخراطها في دورة تدريبية بالمعهد الرشيدى ، وغنت لكبار ملحني تلك المرحلة وصولا الى احد نجوم فن التلحين زرياب تونس الاستاذ صالح المهدي الذي لحن لها احد درر الغناء التي اشتهرت بها وهي "دار الفلك من بعد طول العشرة"
وتربعت فوق عرش الغناء التونسي حتى وفاتها المبكرة في العام 1958، عليها رضوان الله، وكان وراء نجاح عدد كبير من فناني تونس الذين نالوا الشهرة والمجد عن طريق كلماته والحانه وبينهم الفنان محمد الجموس ، والفنان الهادي الجويني، والفنان محمد الفرشيشي والفنانة عفيفة جمال التي غنت له اغنيتها الشهيرة "انا قلبي طاب".

ترك الفنان بشير فهمي فحيمة تونس، وعاد الى ليبيا عندما تحررت من الاحتلال الايطالي وقبيل اعلان الاستقلال ، ليفتح دكانا في المدينة القديمة ، ويشتغل بالتجارة، وكانت هناك عندما جاء اذاعة محلية في طرابلس يسمونها اذاعة الصمعة الحمراء ، تابعة لسلطة الانتداب البريطاني ، فلم يتصل بها ، وانتظر حتى تاسست الاذاعة الليبية بشارع الزاوية وكان هو اول رئيس يتولى قسم الموسيقى بالاذاعة، في العام 1960، ولم يستمر طويلا في عمله الموسيقى وانتقل لاعمال صحفية ، وعندما تعرفت عليه بعد تركه لقسم الموسيقى ، كان يعمل مصححا في مجلة الاذاعة التي باشرت الصدور في ذلك الوقت

، واذكر انني استنكرت هذا الوضع لفنان كبير ، وادرت حملة فاشلة لكي يردون له اعتباره الفني، وليست تحت يدي الان الصحف التي كتبت فيها هذه المقالات التي تطالب بانصافه ، وكنت التقي به ربما بشكل يومي في حانة من حانات ما يسمى رواق دي بونو، وكان ثالثنا في الجلسة عملاق من عمالقة الفن هو استاذنا السيد بو مدين، ولا ادري اذا كنت في حياتي سالتقي باثنين زاهدين في الشهرة ، ويمارسان الحياة بنوع من الزهد والبعد عن اية ادعاء ، ويتعاطيان مع الفن باعتبارهواية وقد يظن احد انني كتبت اطالب بانصافه بتحريض منه ، ولكنه لم يكن اطلاقا يعنيه ان اكتب اولا اكتب ، كل ما كان يهمه انه يتقاضي من هذا العمل مرتبا يقضي به حاجاته الضرورية في الحياة ، ولعله لم يتوقف عن التلحين فقد اشتهرت بعض الاغاني لعدد من المطربين من تلحينه مثل اغنية" ريدي اليوم باعتلي سلامه" التي غناها المطرب المعروف محمد الجزيري، ولكنه لم يكن ممارسا للفن بنفس الطريقة التي مارسها في تونس او عندما استلم رئاسة قسم الموسيقى ، في الاذاعة ، اما الاستاذ ابو مدين، فقد كانت له ذكريات كثيرة ، وكان من اطرف ما قاله انه عندما كان الايطاليون يشنقون عمر المختار كان هو موجودا ينظم الزحام باعتباره كان مجندا مع الطليان ، لكنه ليس تجنيد الحرب او تجنيد الجيش ، وانما اشبه بشرطة البلدية وهو في ذلك الوقت كما قال لي صبي لم يكن قد وصل سن العشرين من عمره ، وكنت استمتع بوجودي مع هذين الشيخين من شيوخ الفن والابداع ، وانصت لهما اكثر مما اتكلم وكل ما استحضر تلك الايام، اشعر بالندم لانني لم اكن اسجل ثمين الذكريات التي كان الاثنان ينطقان بها، وخلال تلك الفترة اشتهر الاستاذ بشير فهمي فحيمة بنشر زجله في جريدة طرابلس الغرب، التي اصبحت العلم فيما بعد، تحت عنوان الطير اللي يغني واجناحه يرد عليه، فيدور بمثل هذا الزجل حوارية حول قضية الاجتماعية ، او مشكلة يريد ان يلفت اليها نظر الحكومة بهذا الوسيلة من وسائل التعبير .

توفي الاستاذ بشير فهمي فحيمة عام 1973، وقبل وفاته كان قد اصيب بمرض اقعده عن الحركة ، ويبدو ان الحكومة لم تتحرك لتوفير العلاج اللازم له، فتنادى اهل الحركة الفنية جميعا واقاموا مهرجانا بمسرح الكشاف يكون ريعه لصالح الفنان المريض، وكان ذلك قبل رحيله بعدة اشهر، وفعلا حصل المهرجان ، وتم وضع النقود تحت تصرفه لتيسير العلاج ولكن سهم القضاء كان اسرع من اي جهد لانقاذه من وطأة المرض، ولاقى وجه ربه بعد ان ترك بصمة لا تمحى في تاريخ الحركة الفنية في بلاده وبقية بلاد المغرب العربي.

صدر عنه في حياته كتاب صغير كتبه الصحفي عبد الرزاق محمد ابوقرين بعنوان بشير فهمي حياته وفنه، نشر عن طريق سلسلة كتاب الشهر، 1972 **التي تصدرها ادارة الفنون والاداب، وقد استعنت بهذا الكتاب في اثبات بعض التواريخ.**

خاطرة عن الفنان الراحل عبد الباسط البدري

اعتبر نفسي صديقا للراحل عبد الباسط البدري ، فقد عرفته عند اول دخوله الحركة الفنية ، وهو امر حدث بسبب قربي من كبير المجددين في اللحن الليبي ، الاستاذ كاظم نديم وصداقتي به ، اقتربت ايضا من الوسط الفني ، وكان الفنان كاظم هو اول من بشر اهل المجال بان هناك شابا مبتدئا سوف يكون له شان في مجال التلحين، وذات يوم تحدث عنه واثار فضولي نحوه ، وقال انه تركه في السيارة لانه كان

مجهدا واراد ان يرتاح ، فنهضت من مكاني ، لاجده يجلس في الكرسي الخلفي متكئا براسه على مسند الراس ، مستغرقا في اغفاءة ، مما اتاح لي ان اتامله دون حرج، وكان يشبه طفلا حديث الولادة ، بحجم رجل كبير، كانت بشرته حمراء ، لا وجود لشعرة واحدى في جسمه ، بلا شعر راس ، ولا اهداب ، ولا شعر في الحواجب ، لانه كما عرفت اصيب بسقوط الشعر، لسبب لم اعد اذكر ان كان مرضا او علاجا يتناوله تسبب في انتفاء الشعر نهائيا من جسمه ،وقد استرد هذا الشعر فيما بعد، وكانت ملامح وجهه ملامح طفلية حقا ، ولابد انه كان دون العشرين بعام اوعامين، كان هذا قبل ظهوره الى الناس بلحنه المتميز الذي ادهش الوسط الفني ، ذوقي الشوق واحتاري شوية ، وكان هذا في مطلع الستينيات، وكان الحاج كاظم صاحب برنامج شهير للهواة، يستقبل فيه الموهوبين في الغناء والتلحين والتمثيل ، ويتيح لهم فرصة الظهور في الراديو، قبل ان تعرف ليبيا التليفزيون ، وواصل هذا البرنامج مرئيا بعد ذلك ، ولابد ان اكتشافه لعبد الباسط البدري جاء عن طريق هذا البرنامج ، وانطلق البدري في عالم التلحين وطبعا اشتهرت الحانه لكلمات كبار المؤلفين من امثال على السني ومسعود القبلاوي ، ثم الصقهم به واقربهم اليه احمد الحريري صاحب كلمات يالعنب ويا لعنب الله يبارك عالدالية ، التي استوحى مطلعها من اغنية شعبية فلكلورية لكن اللحن لم يكن تطويرا للاصل ولكنه ابداع جديد صنع به البدري احدى اجمل الالحان التي حفظها له الناس ، وكان هناك مؤلف خامل الموهبة نسيت اسمه الان ، يكتب كلمات تكاد تكون تقليدا للاغاني المصرية ، وكان الملحن احيانا يذهب الى القسم الفني الذي يشرف على تسجيل الالحان وتوزيع الكلمات على الملحنين فلا يجد الا هذا النوع من الكلمات ، وحدث ان وجد عبد الباسط ذات مرة اغنية اجازتها اللجنة رغم قرب كلماتها من اغنية شهيرة لعبد الحليم حافظ هي نار يا حبيبي نار ، فلم يتحرج من تلحينها ، لكنه ابدع في انتاج لحن مفارق للحن الاغنية المصرية ، وضع فيه بصمته ، وابداعه ، واضاف الاداء العبقري للمطرب نوري كمال ابداعا فكانت احدى اجمل الاغاني رغم الكلمات التي لا يمكن ان يتنصل صاحبها من تقليد الاغنية المصرية ، وفي سجل عبد الباسط البدري من الالحان الناجحة والاغاني التي يرددها الناس ما يضيق عن ذكرها هذا المكان ,.

قلت انني اعتبره صديقا ، وهي صداقة ناتجة عن وجودنا في وسط واحد نلتقي كثيرا لقاءات عابرة ونتبادل التحية ولعلني هناته احيانا بنجاح بعض الحانه ، ولكن كل هذا يتم في لقاءات خاطفة ، على الواقف ، وعلى طريقة عابرون في كلام عابر ، يتبادلون مثل هذا الكلام القصير ويمضون ، فلا وجود في ذاكرتي لمرة واحدة ضمتنا جلسة حديث هادي ء ، او نقاش حول قضايا فنية او تبادلنا حوارا جادا ناضجا ، ربما لقصور في المؤسسات الفنية واساليب التعايش بين اهل الفن والادب ، ربما لما نعانيه من انفصام بين الوان الفن والادب والابداع ، ربما لفقر الحياة الفنية والادبية الليبية وخلوها من الصالونات والتجمعات والاندية الفنية ، فهل هي حقا صداقة ، نعم ، لان الحب كان موجودا، وهو بالتاكيد موجود من طرفي ، والاعجاب بموهبة الرجل موجود، والامل في ان تجد هذه الموهبة فضاء للشهيق والزفير ، وسط ما كنا نراه من اختناقات ومن اجواء تكتم الانفاس ، كان ايضا موجودا، خاصة بعد سيطرة العهد الانقلابي ، وما نشره من عداء للابداع ، وما كان يقوم به من طعنات خبيثة في اظهر الفنانين ، ولست مؤرخا للحركة الفنية ولا متابعا دقيقا لمسيرة الفنان عبد الباسط ، ولكنني لاحظت انه ينصرف على التلحين ، وبدا يكرس جهده في العمل مخرجا بالتلفاز ، وباعتبارنا جميعا نتخذ الانتاج الادبي والفني هواية ، ونحترف مهنة نتقاضي عليها راتبا فقد ذهب في ظني ان مهنة الاخراج كانت مجرد وظيفة

يتقاضى عليها مرتبا، خاصة وانه ليس دائما اخراجا له طابعه الابداعي مثل اخراج التمثيليات او الاغاني وانما اخراج النشرة او مقابلة ، او غيره ممن يؤدي بطريقة روتينية لا تحتاج لابداع ولا اجتهاد ولا تحتمل اضافات من عقل المخرج وخياله ، ورايته في احدى اشهر رمضان يبحث عمن يؤلف له برنامج منوعات ، واظنه اتفق في ذلك مع الكاتب منصور ابو شناف ، واعتقد ان البرنامج واجه متاعب كثيرة ، ورغم ما صرف فيه من جهد وما ضاع فيه من وقت فان عقبات كثيرة حالت دون بثه وربما ظهرت بعض حلقات ، وتم حجب اغلب الحلقات ، ولم يكن ما اذيع منها يجلب الثناء ولا المديح لابداع عبد الباسط البدري فهي يتحرك في حقل ليس الحقل الذي اثبت فيه جدارته واينعت فيه زهور الابداع لديه وهو حقل التلحين ، وكنت اقول في نفسي ما اغناه عن هذا العناء ، وقد كنت اراه احيانا يتعذب في جلب الممثلين وانتظارهم وعناء النقاش مع الرقباء والبحث عن مواقع للتصوير واجهزة و مناظروملابس وديكور وميزانيات ، وكان يستطيع ان يجلس في بيته مع عوده ويبدع اجمل الالحان دون هذا الجهد وهذا العناء وهذا العذاب الذي لا طائل منه .

طبعا اعرف ما كان يواجه قضايا الابداع والمبدعين من عناء ، وما يلقونه من اهمال ، بل احيانا يجدون انفسهم في حرب سافرة مجرمة مع قوى غير متكافئة ، ولكنه عناء لم ينج منه استاذه كاظم نديم ولكنه واصل طريق الابداع الى اخر يوم في حياته ، ولم ينج منه مبدع كبير وزميل له ومن ابناء جيله مثل على ماهر ، وقبلهما الفنان يوسف العالم وزميل ثالث من نفس الجيل مثل ابراهيم اشرف ، وكثير غير هؤلاء واصلوا الابداع في مجال الموسيقى والتلحين ، رغم صعوبة المسيرة ، فلماذا لملحن ناجح موهوب اثبت جدارته واثبت قوة الهبة التي اعطاها له الله في هذا المجال ، يتوقف تماما عن التلحين ، ويتخلي عن ابداعه لما يقرب من اربعين عاما ، ويذهب الى مجالات لا تثمر فيها جهوده ، ينفق فيها الوقت والجهد ، لا استطيع ان افهم ، ولعل اناسا اكثر قربا منه ويعرفون ما اصابه من نفور من الفن يستطيعون شرح ما حدث له ، رحمه الله واجزل له العطاء في الدار الاخرة دار الانصاف الذي لم يجده في هذه الدار وانا لله وانا اليه راجعون

جمهرة المواقع

من التقاليد المضحكة التي عرفتها ليبيا في العهد الانقلابي، تقليعة اطلق عليها راس النظام "جمهرة المواقع" وهو ان يتبادل الناس مواقع العمل ، ولانه تعبير مناقض تماما لروح العصر الذي يؤمن بالتخصص والاحتراف واتقان المهنة التي يمتهنها الانسان، فقد كان صعبا استيعابها وفهمها، فلجا النظام الى جراء تطبيقي عملي ، يتجسد امام الناس على شاشة التليفزيون، يكون اشبه بالشرح التوضيحي، فرأى الناس المذيع المحترف ، الذي يظهر فوق الشاشة الصغير يقرأ النشرة ، يترك مكانه ، لمواطن اخر، معاق احيانا ، يدخل غرفة البث على كرسي المعاقين، ليقرأ النشر ، وغالبا بلغة كثيرة

الاغلاط، وسمعت شخصيا رجلا يقول انه كان يمر امام الاذاعة فتم استدعاؤه لقراءة النشرة، وشهد الناس عروضا مضحكة، اومساخر هزلية مضحكة ، نتجت عن هذا الابداع، ولم يكن احد يفهم الهدف ولا السبب، ولماذا ، وماهي الفائدة المتوخاة ،غير العبث بالاسس وتحطيم اي قاعدة معتمدة في اعلام او غير اعلام، وحركة انتقامية من المذيعين المحترفين ، لانهم وحدهم من ينافس العقيد في الخروج في الاعلام، ولهذا ضاق بهم ، و لايعرف كيف يمكن الاستغناء عنهم، ولم يجد غيرهذه الفكرة الهزلية ، للتعبير عن غيرة منهم ، وتسفيه مهنتهم ، وانتهت جمهرة المواقع بهذا المثال البائس ، واسفرت التقليعة عن اختفاء بعض المذيعين، اصحاب الكفاءة، وظهور مسوخ مذيعين ، لانهم جاءوا بلا جدارة ولا تاهيل ولا علم بابجديات العمل الاعلامي، وتميزت بينهم امرأة ثورية ، بكثرة اطائها لانها لا تكاد تنطق كلمة واحدة نطقا سليما، وسمعتها شخصيا في احدى النشرات وفي خبر حربي ، تحيل كلمة الطائرات المغيرة ، الى الطائرات الصغيرة ، التي احرقت وقتلت، وكانها تتحدث عن عصافير وليس عن طائرات حربية عسكرية. وبسبب هذه الركاكة وهذا الجهل ، تم اعتمادها قارئة اولى لنشرات الاخبار الرئيسية، وظلت في هذا الموقع الاعلامي المتقدم لمدة عام ، ولا تزيد قراءتها الا ركاكة وسوءا ، ثم فجاة اختفت هذه المذيعة، دون ان يرافق مثل هذا الاختفاء لاحدى نجمات الاعلام الجماهير، اي خبر اوتفسير في اية وسيلة اعلامية او صحيفة من الصحف ، وتعويضا عن غياب التفسير الرسمي ، جاء التفسير الشعبي الذي تقدمه الشائعات ، وهو ان المذيعة المذكورة ، قد تم اعدامها لانها تورطت ، عن علم اوعن غباء ، في التعاون مع متآمرين يريدون قلب نظام الحكم ، وانها نقلت بينهم الرسائل ، او ما شابه فكان جزاؤها المصير الذي لا مصير غيره لكل من يقترب من سدة الحكم ، وهو الاعدام.

وكانت قد مرت شهور على هذا الاختفاء المرفوق بشائعة الاعدام، لهذه المراة التي شغلت الناس، عندما كنت جالسا في مكتب مدير الشركة العامة للنشر والتوزيع والاعلان ، الصديق محمد الزوي، عندما جاء السكرتير يطلب الاذن لامراة ذكر اسمها، فاذا بمدير الشركة ، ينهض من مكتبه، وينطلق يفتح الباب مرحبا بهذه الضيفة التي جاءت ومعها امرآتان يرافقان، ودخلت امرأة مثل اولئك اللاتي نراهن في الافلام ممن يطلقون عليهن" الكوديات" ترتدي جلبابا ووعددا من الطرح على راسها ومسبحة كبيرة في يدها وشالا بزخارف خضراء عبارة عن يات قرآنية، وقدمها ليها باعتباره الشيخة فلانه ، وقد نسيت اسمها ، ولكنني ما ان دققت فيها النظر حتى عرفتها، فاذا بها تلك المذيعة الشهيرة ببراعتها في تكسير اللغة وتكسير الكلمات ، والتى اختفت من الشاشة ، لتقول الاخبار الشائعة في البلاد، انها قتلت بسبب اشتراكها في مؤامرة لقلب نظام الحكم.

كان الامر مفاجأة لم اتوقعها، لانني فعلا صدقت ان سبب الاختفاء الفجائي ، لم يكن يناسبه الا تفسيرا كالذي حصل ، خاصة وان هناك حديثا مؤكدا عن مؤامرة ما ، ذهب ضحية لها عدد من الناس، فكيف تاتي الان في هذه الشخصية الجديدة ومتى حصل هذا وكيف ، وكان صديقي يرحب بها باعتبارها من اهل البركة والصلاح ويلتفت نحوي احيانا ليشيد بسرها الباتع ، وبانها امرأة مكشوف عنها الحساب ، وكان يستبد بي الفضول لاعرف سبب اختفائها و ظروف انبثاق تلك الشائعة الكاذبة عنها ، ولكن ارتباطا اخر كان يحتم على ان استأذن في الخروج قبل اشباع فضولي لتلك الشروح، ومهمة خارج البلد انستني الموضوع فلم اعد لسؤال صاحب المكتب عما يعرفه حول خلفيات تلك المرأة ، ولكن فيما يبدو ان سبب اختفائها من الشاشة ، انه حقا شملتها التحقيقات في مؤامرة ما ، وثبت انها لم تكن تدري بانها مؤامرة ،

او ان ما قامت به كان جزءا مؤامرة ، واكتفوا ان يكون الحرمان من العمل عقابا لها، ولم تجد هي تعويضا للشهرة الهاربة الا ان ترتدي هذه الشخصية وان تتقنها وتجلب لها بعض النفوذ والشهرة والثروة وهو امر ليس صعبا في وطن محكوم بالجهل والتخلف .

محمد فريد سيالة

عرفت الكاتب الليبي الاستاذ محمد فريد سيالة عام 1960 وكان اسما لامعا مرموقا يكتب في صحيفةطرابلس الغرب ، ومجلة هنا طرابلس الغرب ، وباعتباره منتميا للتدريس في مدارس طرابلس وعضوا في نقابة المعلمين فقد عهد اليه باصدار مجلة صوت المربي التابعة للنقابة وتولي رئاسة تحريرها ، وكان ينشر المقالات الاجتماعية التي تركزت في جانب منها على قضية المراة، ولعله اول من امتشق القلم في ليبيا للدفاع عن هذه القضية في وقت لم يكن ممكنا ان يرى الانسان امراة ليبية تعمل في موقع اداري او ترتاد منتدى عاما وتجلس في مقهى او قاعة فندق، واذا اجترات امراة على الانخراط في عمل وظيفي غير مهنة التعليم في مدارس البنات فغالبا ما تكون امراة عائدة من المهجر وعاشت في مجتمع عربي اكثر انفتاحا وتحررا من ليبيا، ام النساء اللاتي عشن وتربين في ليبيا فهن في بيوتهن ولا يخرجن الا ملتحفات في اردية تسمى في المدينة فراشية تغطي الوجه والراس وكامل البدن ، والتعليم نفسه كان يقتصر على بعض المدارس الابتدائية ومعهد للمعلمات في المدينة ولم يكن له وجود في الارياف الا بنسبة لا تزيد عن ثلاثة او اثنين في المائة من عدد نساء ليبيا، ولهذا كان دوره اساسيا وجوهريا في الدعوة الى النهوض بالمراة وحقها في الخروج الى الحياة وحقها في التعليم وحقها في الانخراط في العمل والانتاج وقد اصدر هذه المقالات في كتاب اسمه " نحو غد افضل " . اما اسهمه في المجال الابداعي ، وبالذات في مجال السرد القصصي القصير والطويل فقد كان اسهاما وتميزا ، ويعتبره مؤرخو الادب رائد فن الرواية في ليبيا فهو اول من كتب رواية ونشرها على فصول في مجلة هنا طرابلس الغرب اعترافات انسان ونشر بعدها رواية ثانية في نفس المجلة ولكنه لم ينشرهما في كتاب، وكما يعلم معاصرو تلك المرحلة فنشر الكتاب كان صناعة لا وجود لها، وحاول صاحب مكتبة الفرجاني الاستاذ محمد بشير الفرجاني بدل جهد في نشر الكتاب الليبي، ونشر في مرحلة الخمسينيات ومطلع الستينيات مجموعة قليلة من العناوين، وليس متاحا عداه ، الا ان يتولى الكاتب نشر كتابه على حسابه وليس في ليبيا ، لغياب المطبعة المؤهلة لذلك ، ولكن في لبنان حيث تعود اغلب الادباء عمل ذلك، وكلهم يذكرون ان تجربة فاشلة ، لان الكتاب قبل ان يكون نشرا وطباعة فهو توزيع ، والكاتب الذي يؤلف كتابا يمكن طبعا ان ينفق على طباعته ونشره ، ولكن التوزيع تجارة ومهنة تريد تفرغا لا يستطيع القيام به الا اهل المهنة ، فلا يبقى للكاتب الا ان يخسر نقوده ويخسر ان يصل كتابه للناس، ولعل هذا ما جعل الاستاذ فريد فيما يبدو لم يبادر بمثل هذا النشر في وقته.

والتقيت به شخصيا، عندما باشرت الكتابة في صحيفة كان يصدرها اتحاد العمال بشكل اسبوعي اسمها الطليعة، حيث تعاملت في البداية مع رئيس تحرير اسمه على البيطار، ولم يكن صحفيا محترفا وانما مترجما للاتحاد وصاحب تعامل في الشان العمالي الدولي ، ويبدو ان الاتحاد استعان بالاستاذ فريد سيالة

للعمل التحريري ، كما استعان قبله بالاستاذ ابو هروس، ولا ادري ان كان استلم في مرحلة من المراحل رئاسة التحرير ، ولكنني اشهد انه كان يعمل بكفاءة، وكان يقرا المقال الذي اقدمه له وفي يده القلم ليباشر من فوره التعديل وتصحيح الاخطاء واعادة تركيب بعض الجمل، تكررت لقاءاتي به كثيرا بعد ان شارك في تاسيس جمعية الفكر التي اتخذت لها مقرا في عمارة بشارع البلدية في الطابق الاول به قاعة للمحاضرات ، وهو مقر يتبع هيئة الضمان الاجتماعي، وتميز عمل الجمعية في عهده بالنشاط المكثف ، فهناك دائما موسم للمحاضرات لا يقتصر على ادباء ومفكري البلاد وانما كانت تدعو شخصيات من الشرق والغرب وشخصيا حضرت محاضرة للمستشرق بلاشير وهو استاذ لطاه حسين عندما كان يعد للدكتوراه في فرنسا ،والعالم التركي والباحث الشهير المتخصص في علوم العرب ابان ازدهار دولتهم فؤاد سزكين والمؤرخ التونسي المعروف السيد عثمان الكعاك والشاعر الاشهر في لبنان سعيد عقل وطبعا كان السهم الاكبر لعدد من ادباء ليبيا مثل الاستاذ المصراتي والاستاذ التليسي وغيرهما.

وهو يقوم بعمل المشرف على جمعية الفكر على سبيل التطوع اذ استمر يمارس العمل الصحفي وتفرغ له وحصل على ترخيص صحيفة اسماها الاولومبياد شبابية رياضية احالها بسرعة الى صحيفة اسبوعية جامعة اسماها "الفجر" وكان ذلك قبل فترة قليلة من مجيء الانقلاب الذي اسرع منذ ايامه الاولى الى ايقاف الصحف وكتم الاصوات الحرية والغاء الصحافة الخاصة وجعل الاعلام كله مرئيا ومسمزعا ومكتوبا لا ينطق الا باسمه.

اذكر انني كنت مع الاستاذ محمد فريد سيالة ليلة حدوث هذا الانقلاب المشئوم ، معا نحضر ليلة من ليالي المهرجان العالمي للفنون الشعبية بمسرح صبراته الاثري ، وكانت ليلة مبهجة جميلة صدحت فيها الاصوات الجميلة واستمعنا فيها الى قطع موسيقية تعزف حية من تراث الشعوب وشاهدنا فيها اللوحات الراقصة ، واعتقد اننا في طريق العودة اثار انتباهنا جمال الاضواء الصادرة عن سيارات الاف المتفرجين العائدين الي طرابلس عبر طريق يتعرج وينحرف شمالا ويمينا فبدى كانه نهر من الاضواء ذات الالوان ولعلها بهجة احساسنا بالحفل والابداع الفني انعكس على مشاعرنا فتلون العالم من حولنا بلون تلك المشاعر الجميلة ونحن نرقب الطريق يسيل بهذه السيارات التي بدت مثل عالم من الالعاب المضيئة ولم نكن نعلم ان تلك البهجة سوف يعقبها ذلك الشؤم وذلك الالم وذلك الحزن الذي تفجر مع الانقلاب العسكري المشبوه المذموم الذي انتهت به تلك الليلة .

ولابد ان وقع الانقلاب كان مهولا على وجدان وروح اديب صنع مجده وشهرته في ظل النظام الملكي ، كان صدمة رهيبة اصابته بالصمت الابدي، فلا اعتقد انني قرات له حرفا منذ ذلك اليوم والى ان انتقل الى جوار ربه بعد ذلك اليوم بما يقرب من اربعين عاما، وعاش هذه العقود الاربعة الاخيرة وكانه في حالة عصيان مدني، او اعتصام، لانني لم اكن اراه يرتاد المنتديات الادبية، او يتصل حتى بادباء ممن كانوا يزورون البلاد وله شغف بهم ، فاعرف انه كان على اتصال وكان يبدى سعادته بزيارة الكاتب مصطفى محمود الى ليبيا قبل الانقلاب ، ويعرف استاذا كبيرا مثل نقولا زيادة زار البلاد عدة مرات قبل الانقلاب ، وقد تكررت زيارة هاذين الكاتبين وتكرر الاحتفاء بهما وتنظيم محاضرات لهم ، وتوقعت ان اراه في استقبالهما او عند اللقاء مع الجمهور في ندوة او محاضرة، ولعلهما اتصلا به عن طريق اصدقائه، ولكنه رابط في بيته معتزلا المجتمعات الادبية ، وقد اختار ان يسدل ستارا بينه وبين المجتمع الجديد.

وفي احيان نادرة كنت التقي به صدفة في الشارع ، فاقبل على تحيته بحرارة وحماس ، وادعوه الى المشاركة والى الحضور وانني ساسعى عن طريق احدى الجمعيات الادبية الى تكريمه باعتباره رائدا لفن الرواية واستاذا في الصحافة وصاحب دور غير مسبوق في الدعوة الى تحرير المراة، فكان ينصت ويبتسم ولا يبدى اي استعداد لقبول دعوتي اواية رغبة في ان يكون جزءا من هذا الواقع الادبي في ظل هذا النظام، والحقيقة كنت اميل الى تفسير اخر، وهو ان الرجل اصابته حالة تصوف وزهد وان هذا الطريق الذي لا يسلكه الا اهل التصوف هو الذي يجعله ينأى بنفسه عن مثل هذه الانشطة وهذا الانشغال بغير تسابيحه واوراده وعبادة ربه.

المرحوم الاستاذ محمد فريد سيالة ابن عائلة طرابلسية شهيرة هي عائلة سيالة التي اشتهرت بالعلماء والقضاة وقد ولد في طرابلس عام 1930 ولاقي وجه ربه عام 2008 عليه رضوان الله.

وعقب وفاته كتبت في الزاوية التي احررها بجريدة القاهرة المصرية كتبت ارثيه بكلمة صغيرة قلت فيها

ما زلت ارجو الا تتحول هذه الزاية الى زاية لكتابة المراثى لكثرة من يتساقط من فئة المبدعين والكتاب والادباء، بما يؤكد ان هذه الفئة هي الاكثر تضررا مما تعانية الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية في عالمنا العرب من علل واوصاب واعطاب تنعكس على ابدانهم ونفوسهم باعتبارهم اكثر ابناء الشعب اهتماما بالقضايا العامة ومصير الوطن والمواطنين . ولا ادري ان كانت هناك احصائيات رسمية ناتجة عن دراسة لنسبة الفاقد في هذه الفئة مقارنة بفئات اخرى ولكنني على ثقة من ان هذه الاحصائية ستثبت ما اقول. وساتكلم عن راحل ليبي من جيل الرواد في الادب ، مات دون ان اجد له ذكرا في الصحف السيارة او وسائل الاعلام ، لانه كان قد انصرف على الكتابة ، ربما بسبب ما عاناه في حياته من احباطات، حيث ظل ورغم عطائه الغزير في مقتبل العمر ، يعمل عملا دؤوبا يستغرق النهار كله ، في احدي الشركات ، من اجل التقاط لقمة عيشه ، ولم تسعفه الكتب الكثيرة التي اصدرها ، بتوفير اي مردود مادي يعينه على التفرغ لكتاباته حتى وهو يصل مراحل العمر المتقدمة ، فقد توفي وهو على مشارف الثمانين من عمره ، انه الكاتب الرائد الاستاذ محمد فريد سيالة الذي اعترف بانه كان واحدا ممن اتاحوا لي في مرحلة الصبا ان انشر في صحيفة كان يشرف على تحريرها هي صحيفة الطليعة التي كان يصدرها اتحاد العمال ، وكان هذا في اوخر الخمسينيات وقبل ذلك اصدر وهو يشتغل في التعليم مجلة تربوية ادبية عن طريق نقابة المعلمين باسم صوت المربي في منتصف الخمسينيات ومن خلالها عرف رواد كتابة القصة نافذة يطلون منها على القارىء بل اصدر عددا خاصة عن القصة القصيرة في ليبيا صار فيما بعد مرجعا للباحثين كما اسهم في تلك السنوات في الاشراف على المجلة الادبية الفنية التي اصدرتها الاذاعة بعنوان هنا طرابلس الغرب ، واصدر قبل فترة من توقفه عن الكتابة في اخر الستينيات ومطلع السبعينيات صحيفة رياضية جماهيرية اسمها الاولمبياد احالها الى صحيفة جامعة هي الفجر تفرغ بعدها للعمل في احدى الشركات النفطية مشرفا على التدريب باعتبار انه صاحب خبرة طويلة في التعليم.

وكنت التقيه بين الفينة والاخرى ، فادعوه للمشاركة في المنتديات التي كنت اديرها ، لكنني اراه زاهدا عازفا عن هذا العالم ، وقد رتب حياته بعيدا عن عالم الثقافة والصحافة الذي لم يجن منه الا

الاشواك ، ولم يكن دوره في الصحافة يقتصر على ادارة هذه الصحف وتوجيه شباب الصحفيين والكتاب فيها عندما يستل قلمه ، كما كان يفعل مع مقالاتي ، ويعمله تصحيحا للاخطاءالنحوية ، وازالة الجمل المرتبكة والكلمات الركيكة وابذالها بجمل سوية وكلمات يستقيم بها المعنى والاسلوب ، بل كان ايضا مجاهدا بالقلم في مجالات التحرر الاجتماعي وكان اول من فجر قضية التخلف الذي تعاني منه المراة وسعى لتحطيم القوالب الجامدة التي يحرسها سدنة المجتمع القديم وخاض اشرس المعارك معهم واصدر كتابا شهيرا جمع فيه مقالاته التحررية عن المراة عنوانه نحو غد افضل صدر في خمسينيات القرن الماضي ، كما نشر اول رواية صدرت في الادب الليبي عنوانها اعترافات انسان في ذات الفترة ورواية اخرى قراتها له مسلسلة في مجلة هنا طرابلس الغرب . وعدد من التحقيقات وادب الرحلات وضع بها بصمته في سجل الادب والثقافة قبل ان يرحل في صمت وكبرياء .

الرجل الذي وصل

بعد ان قرأ صفحة واحدة من كتاب

رجل من القياديين في الحراك الشعبي ، يعرفه المتابعون للشأن الليبي في العهد الانقلابي، عمل قبل وصول الانقلابيون الى الحكم كمساريا ، في الحافلات العامة ، وقد شاهدته في زمن الصبا، يعمل في الحافة التي تعمل على خط طرابلس مزدة، وهي مهنة لا تقتضي مؤهلا، ينخرط فيها الاميون وشبه الاميين ، وهذا الرجل منهم، ويبدو انه في الايام الاخيرة للعهد الملكي قد احتك قليلا بالنقابة التي تضم السائقين ومساعدي السائقين من امثاله ، فقدم نفسه في بداية تكوين الاتحاد الاشتراكي الذي اقامه النظام الجديد، باعتباره منتميا لهذه النقابة، وهو تنظيم كرتوني ، اراد النظام ان يقلد به ما يحصل في مصر ، ويعتمد كل ادبيات التنظيم المصري ويمضى على منواله ، وكانت هناك كتيبات ونشرات يقوم بتوزيعها المركز الثقافي المصري، تحمل العبارات المسكوكة والمكرورة التي يتداولها اهل هذا التنظيم ، واحيانا يعيد الاتحاد الاشتراكي الليبي ، الذي اتخذ لنفسه مقرا في القصر الملكي السابق ، واعادوا تسميته بقصر الشعب، نسخها وطباعتها وتوزيعها على اعضائه، وراى هذا الكمساري ان يكون سلاحه لدخل الاتحاد الاشتراكي والوصول الى موقع قيادي فه هذه العبارات التي لا زالت لم تنتشر الا بين قلة من ابناء الشعب، فعمد الى انتقاء مايعادل صفحة او صفحتين من هذه العبارات، ولعله وجد مدرسا مصريا انتقاها له ، وساعده في حفظها عن ظهر قلب، وصار في كل مؤتمر ، وكل تجمع شعبي ، وكل مكان تحضر فيها كاميرا التليفزيون تنقل وتسجل، وكل مكان يحضره رئيس الانقلاب، الا وهو موجود يرفع يده ويطلب الكلمة، ثم يقوم تلاوة هذه الصفحة التي حفظها عن ظهر قلب ، يتلوها من الذاكرة، ودون تلعتم او تردد وبلغة فصيحة، لا تداخلها كلمة واحدة عامية، ورغم انه يكررهفما ا في كل مناسبة ولا يعتني بان يزيد كلمة او ينقص منها كلمة لان ذلك قد يركب الحفظ ، فان احدا لا يعترض او يواجهه بحقيقة هذا التكرار، بل ينصتون اليها وكانها ابداع الرجل في مجال الفقه الثوري ، وفهمه العميق والدقيق لرسالة الاتحاد الاشتراكي، واستحوذ بالضرورة على اعجاب رئيس الانقلاب ، فهاهو رجل من طبقة العمال ، ومن الفئة المسحوقة في المجتمع التي جاء الاتحاد الاشتراكي للنهوض بها وتقديمها على الطبقات الايروستقراطية والبرجوازية ، واحلالها في مركز الصداره ، يقوى على التعبير بشكل لا يجيده الا اهل الخبرة والحصافة، قلة صغيرة ممن تعرفوا عليه ، وانا منهم ، كنا نناكفه ، وكنا نحضر ورقة بها تلك العبارات فنكمل معه ما

بدأ به ، وكان يتوسل الا نفضحه ، فكانت مداعبتنا تقتصر على اجتماعات ذات اهمية محدودة، وليست تلك التي يحضرها رئيس المجلس الانقلابي وتتقرر فيها مصائر الرجال ، فما ان يبدأ تلاوة ذلك الكليشيه الذي انطبع على صفائح قلبه مثل لوحة الزنكوغراف ، حتى نفاجئه بقراءتها معه ، فهو يبدأ قائلا

((ان التحالف المقدس لقوى الشعب العاملة صاحبة المصلحة الحقيقية في الثورة ، وصاحبة القدرة على حمايته وصيانتها ، لانها تاتي تعبيرا عن طموحاتها وامالها واحلامها ، وانقاذا لها من عذاباتها ومعاناتها وانصافا لها من المظالم التاريخية التي تعرضت لها ، قد وجد صيغته في هذا التنظيم العبقري ، الذي تتجلي فيه عبقرية الشعب وعبقرية الجذور الضاربة في التاريخ لهذا الشعب ، وتراثه ونضاله ، تنظيم الاتحاد الاشتراكي العربي في ليبيا الحبيبة التي انجزت مشروعا الثوري ، وانتفضت تنتقم لقهر التاريخ وظلم العصور واستعباد الغزاة))

ان هذا التنظيم اذي يملك مواصفات لا تملكها النظم الاخرى، فهو لا يقصى احدا ولا يهمش احدا وانما يتيح فرص التعبير والتحقق والمشاركة امام الجميع ، ثم انه هو قادر على تصحيح اخطائه بنفسه ، بما يسمى التصحيح الذاتي ، لما فيه من داينميكية ، واتصال وتواصل بين مختلف القيادات والفعليات وبين الجذور الشعبية للتنظيم ، ثم انه يمضى على طريق الابداع والتجديد والابتكار بسبب ما يتيحه من حرية للطاقات ان تتفتح وللمواهب ان تنمو وللبراعم والبذور ان تتحول الى اشجار تؤتي ثمارها))

ولكن ان هناك جهذا واضحا مبذولا في انتقاء الكلام ، ثم ان هناك جهدا اخر في حفظها والقائها لابد ان يبهر السامع الى صديقنا الكمسري الظريف ، وكان مهما لرئيس مجلس الثورة ، وزمرته العسكرية ، ان يجد شخصية باهتى ، كاريكاتورية ، لا راي ولا وزن ولا قدرة على الاعتراض او النقاش او الجدل ، يستطيع استخدامه بحجة انه ممثل للحركة العمالية ومعبر عنها، وهو في حقيقة الامر اداة في يده ، بل سعيد سعيدة لا حد لها ان يكون هذه الاداة، وفعلا جادت الورقة المنتزعة من نشرة الاتحاد الاشتراكي بنتائجها واذا بالسيد رئيس مجلس قيادة الثورة يقترح السيد الكمسري امينا لشئون العمال والفلاحين في امانة الاتحاد الاشتراكي ، وعضو في الامانة العامة التي تعادل درجة وزير او تتفوق عليها، وانتقل من حي الاكواح الى دوبلكس في اكبر احياء المدينة ، واذا به يتحرك في موكب من السيارات والحراسات ، صاحب جاه وقوة وسلطان ، وتغيرت فيما بعد صيغة الاتحاد الاشتراكي، ربما لانها تغيرت قبل ذلك في مصر ، ولكن الرجل كان قد نسى تلك الورقة التي حفظها من منشورات المركز الثقافي المصري، فقد حققت نتائجها واوصلته الى ما يريد ، وقد تكرس الان باعتباره قيادة في التنظيم الشعبي ، واصبح بالضرورة قيادة في التنظيم الشعبي البديل ، ولعله مع التطور ، كان مضطرا لحفظ ورقة جديدة هذه المرة من اوراق التمجيد للكتاب الذي جادت به قريحة رئيس الثورة واسماه الكتاب الاخضر دليل البشرية الى عالم الهناء والرخاء والسلام ، وخريطة طريقهم الى النعيم الارضي ، فقد اجاد صنعته ، صنعة اقتباس بعض العبارات وحفظها وترديدها ، وظل يرددها الى ان انتهى النظام الانقلابي ، ولعله الان يبحث عن ورقة جديدة تناسب ثورة 17 فبراير يحفظها ويقتحم بها الحراك الجديد ليتبوأ فيه المركز القيادي الذي يطمح اليه .

صديق من مؤتمر الشعب العربي

قضيت فترة من الوقت اتعاون فيها مع ما يسمى المجلس القومي للثقافة العربية ، الذي يضم صفوة المثقفين العرب، المؤمنين بعمق وقوة الوشائج العربية ، رغم ان المجلس هو اداة في يد الحكومة الليبية ، ومنبثق من كيان سياسي يتبع الدولة ، ولعله ذراع من اذرعة مخابراتها، اسمه مؤتمر الشعب العربي ، انشأه القذافي للتريج لسياسته ولخلق اتباع وعملاء له بين الكيانات السياسية العربية ، وكانت هذه الرابطة بين المجلس ومؤتمر الشعب العربي تجعلني اشهد احيانا بعض المسرحيات الهزلية التي تحصل داخل القاعات التي تقام فيها الاجتماعات، فهو يعمل وفق نزوات رئيس النظام الليبي وتبعا لحالته المزاجية، وللمؤتمر مجلس يتكون من كيانات شعبية ومنظمات فلسطينية واحزاب معارضة واحيانا موالاة ، تابعة لبعض الدول العربية ، وقد حضرت اكثر من جلسة ، دون ان اكلما الجلسة وانما اكتفي بالاستماع لطرف من النقاش ثم امضي، وكان هؤلاء الاعضاء،او اغلبهم ، يتعاملون مع المجلس باعتباره مصدر تمويل لا اكثر ولا اقل ، فلا يقولون الا ما يقوله الوفد الليبي الذي يعكس سياسة بلاده، واضرب مثلا على ذلك، فالنظام الليبي، تبني وقام بتمويل وربما تاسيس المنظمة المناوئة للمملكة المغربية المسماة البوليزاريو، واعطاها مكانا متميزا في هذا المؤتمر ومجلس ادارته وتسييره ، رغم ان الجميع يعرفون انه كيان مفتعل ، تابي الاعتراف به اغلب الدول والمنظمات، الا ان اعضاء المؤتمر يقبون به بل يكبرون هذا الكيان ويجلون لانه يعرفون ان رئيس النظام الليبي وراء انشائه وتمويله ، وحدث في لحظة من لحظات التقارب مع ملك المغرب ، وانشاء ما سمى اتحادا بين ليبيا والمغرب ، ان توجب على مؤتمر الشعب العربي ان يطرد البوليزاريو من بين صفوفه لان وجود هذا الكيان يتعارض مع روح التفاهم والوحدة بين البلدين، وكان لابد ان ياتي القرار من مجلس المؤتمر، حيث انعقدت الجلسة العاصفة التي تقرر فيها طرد مندوب منظمة البوليزاريو، وفعلا تم الطرد بموافقة كل الاعضاء دون احتجاج ، وبعد عامين او اكثر قليلا ، راى ملك المغرب من رزالات شريكه في الاتحاد ما اجبره على تمزيق وثيقة الاتحاد واعتبار كأنه لم يكن ، وكان بالنسبة له قد استنفذ اغراضه لانه اعترف في احدى المقابلات انه كان يريد هدنة لبناء سواتر وحصون ترد هجوم عناصر البوليزاريو على منطقة العيون، فاقام هذا الاتحاد مع ليبيا صاحبة التمويل والتسليح لجيش البوليزاريو، وعندما انجز ذلك البناء في غيبة تسليح ليبيا وتمويلها لخصومه ، فك الارتباط بنظام كان يعرف مدى تهور رئيسه وخطورة نزواته. وكان بالضرورة وفقا هذه التطورات ، ان يستعيد النظام الليبي علاقة التحالف مع البوليزاريو، ممولا لها بالسلاح والمال باعتبارها كيانا ثوريا معاديا للدولة المغربية ذات النظام الملكي الرجعي، وتسعى لتحرير قطعة عزيزة من التراب المغربي ، يجب دعمها وتاييدها، وعادت بالضرورة لاحتلال مكانها عضوا في مؤتمر الشعب العربي وعاد مندوبها الذي خرج مطرودا ، ليلقى هذه المرة الترحيب والحفاوة، دون وجود عضو واحد يحتج على هذا التلاعب وهذا التناقض في المواقف .

وحصل في مرة واحدة ويتيمة اعتراض على شيء من تجاوزات النظام الليبي، ومواقفه التي زادت في تطرفها عن كل التطرف الذي تخصصت فيه بعض المنظمات المتطرفه، وهي التي وقفت هذه المرة في جانب الاعتدال ضد التطرف الليبي ، وكنت حاضرا هذه الجلسة كمراقب او مشاهد. فقد حصل فيما يبدو نوع من تصادم الارادات او النزوات بين رئيس النظام الليبي ورئيس منظمة التحرير، وكان لابد ان يعكس مؤتمر الشعب العربي حالة الغضب والغليان التي يعاني منها العقيد الليبي، وطرح امين المؤتمر صيغة لبيان يصدر عن المؤتمر يدين سياسة عرفات الانهزامية الانبطاحية ويتهمه رئيس منظمة التحرير

الفلسطينية بالخيانة، وهنا ارتفعت ايادي مندوبي التنظيمات الفلسطينية تعترض، على كلمة واحدة هي كلمة الخيانة ، مع الموافقة على كل عبارات التنديد والسباب والادانة ، لان كلمة الخيانة كما قالوا لا تترك خط رجعة لمنظماتهم مع رئيس المنظمة ، بل تقتضي مثل هذه الكلمة السعي لتصفيته باعتباره خائنا ، وهو ما لا يوافقون عليه ولا يرون موقفه يصل الى هذا المستوى . وكان هناك في الوفد الليبي عضو تربطني به زمالة قديمة في الصحافة ، موكول اليه الدفاع عن الموقف الليبي، واجبار الاخرين على اتباعه، فانبرى يندد بالمعارضين ، ويصفهم بانهم يهادنون خائنا، هو ياسر عرفات ، باع القضية وتخلى عن المناضلين ، ويجب دمغه بالخيانة ، حتى لو ادت الى مقاطعته وعدم التعامل معه مستقبلا ، وكان يتكلم بانفعال وغضب وصوت هادر يكاد يهز جدران القاعة ويضر الطاولة التي امامه ضربات تكاد تفلقها الى نصفين ، مضيفا ان هذا المؤتمر سيجلب لنفسه العار اما جماهير الامة اذا لم يقف موقفا صللبا حاسما في مواجهة خيانة ابي عمار. ولكن كل هذه العنتريات التي اجاد العضو الليبي في عرضها لم تستطع ان تثني اعضاء المنظمات الفلسطينية عن موقفهم، فهي تعليمات فيما يبدو ثابتة لا يستطيعون الخروج عنها حتى لو ادت الى قطع التمويل الليبي ، فالموقف هنا لا يقبل المهادنة ولا التنازل . وفعلوا افشلوا تمرير البيان بالصيغة التي ارادها الليبيون ، وخرج دون ان يتضمن كلمة الخيانة، وبعد ذلك ببضعة اشهر رجع ياسر عرفات يذكر في الاعلام الليبي باعتباره المناضل العظيم ، وقائد الثورة الفلسطينية الصامد في وجه المؤامرات ، فهي نزوات وحالات مزاجية، نجح الاخوة الفلسطينيون في ردعها ذلك اليوم، ولكن المفارقة المضحكة المبكية ، انه بعد انتهاء تلك الجلسة وكنت واقفا امام مقر المؤتمر ابحث عن سيارة تقلني الى بيت ، واذا بذلك الصديق الذي انبرى لادانة ياسر عرفات ونعته بالخيانة، يعرض ان يقلني لانه ذاهب باتجاه المنطقة التي اقطن بها،

وما ان جلست واشرت الى الجلسة التي ثار فيها كل هذه الثورة، حتى انفجر صارخا غاضبا ، انه تكلم بناء على تكليف صدر اليه من رئيس الوفد الليبي ، ولكنه ليس مقتنعا بكلمة واحدة قالها ، ولا يرى في هذه المواقف المتطرفة لرئيس النظام اللي الا اجراما في حق القضية الفلسطينية ، لان هذا الرئيس نفسه ليس الا نبتة شيطانية استعمارية زرعتها قوى الشر والقهر والاجرام المناوئة للعالم العربي والمعادية لنهوضه وتقدمه ووحدته ، في تربتنا العربية ليعمل فيها تخريبا وتهديما وانه تلكمل بغضب واشمئزاز ليس حبا في الدور الذي يؤديه ولكن غضبا من نفسه ومن هذه السياسة التي تتبعها بلاده، وايضا من هذه المنظمات العميلة لمثل هذا الرجل ، وان ياسر عرفات ليس خائنا لاه باع القضية لصالح اسرائيل ن ولكنه خائن لانه باع نفسه لانسان مخبول مثل رئيس النظام الليبي، ويعرف كل الحكام العرب انه عميل ومدسوس وانه مشكوك في قواه العقلية ومع ذلك يتعاملون معه بمنتهى التوقير والاحترام ويساعده على البقاء في حكم هذا الشعب وابتزازه وقهره وتعذيبه ، وكلام لم اكن اتوقع سماعه من رجل كنت احسبه بوقا من ابواق النظام ، وتذكر مقطع صغير من قصيدة للشاعر مظفر النواب يقول فيه

قتلتنا الرده ، قتلتنا الرده

قتلتنا ان الواحد منا

يحمل في الداخل ضده.

عاشق لاشعار

عبد الباسط الصوفي

ارتبط المشهد في ذهني بالمطر والشتاء، وارتبط هذا الشتاء وبرده وامطاره وعواصفه بذكري اديب شاب جاء زائرا من بنغازي الى طرابلس ، في مطلع الستينيات ، وكان في مقتبل العمر، شديد الاناقة ، ويربي لحية صغيرة سوداء اعتنى بها تشذيبا وتهديبا ، ذات الق ولمعان ، كتلك التي يظهر بها بعض نجوم الافلام، وقد تعرفت عليه عندما جاء زائرا الى صحيفة اتعاون معها ، لعلها صحيفة الرائد، وحدث ان قرا بعض انتاجي في الصحيفة ، وراى ان هذه المعرفة بمقالاتي تصلح ان ينشيء صداقة معها محورها الادب، ودعاني الى زيارته في الفندق الذي يقيم فيه ، وكان فندقا قريبا من الميناء، في منطقة باب البحر، يعتلى الهضبة التي تواجه بوابة الميناء، وذهبت اليه هناك بسيارتي ، وكان اليوم مطيرا ، عاصفا ، والموج يصنع اشجارا عملاقة عند ارتطامه بصخور الشاطيء ، والمطر ينهمر غزيرا ، يضيف اثارة الى المشهد المثير، الذي جلسنا نرقبه من خلال الجدار الزجاجي لمقهى الفندق، وكان لهذا الاديب الشاب، الذي نسيت اسمه الان ، لانه فيما يبدو لم يواصل هذه الهواية وانقطع عنها لممارسة مهنة اخرى ، كان له ولع شديد بشاعر من الشام، مات منتحرا في بلد افريقي هو غينيا، وكانت اخبار انتحاره ما زالت تجد صدى في بعض الاركان الادبية ، في صحف المشرق العربي، فقد افتتن هذا الشاعر بافريقيا ، وسحر غاباتها ، وبكارة الطبيعة فيها ، وسعى الى الانضمام الى بعثة من مدرسي اللغة العربية ارسلتها حكومة بلاده الى عمق القارة السوداء، واقام في غينيا يعمل باحدى مدارسها، وكتب عدة قصائد يعبر فيها عن قوة اعجابه بمظاهر الحياة البدائية في غابات تلك القارة،ويبدو انه كان يعاني من انهيارات عصبية عجلت بوفاته منتحرا في كوناكري، وقد اصدرت دار الاداب ديوانا لهذا الشاعر واسمه عبد الباسط الصوفي، ديونا جمعت فيه بعض قصائده، واطلقت عليه اسم ابيات ريفية، جعله هذا الفتي القادم من بنغازي انجيله الخاص، لا يتحرك الا والديوان في جيب معطفه، طوال الاسابيع الخمسة او الستة التي قضاها فيطرابلس ، وكان لا يجلس معي في مكان الا واوجد مناسبة ياتي فيها على ذكر الشاعر، ويفتح الديوان ليقرا قصيدة اواكثر من الديوان، وهو في الحقيقة لم يكن يقرأ وانما يستعين بالكتاب على تذكر الابيات لانها كان قد حفظ اغلب القصائد عن ظهر قلب، يرددها بانفعال وحماس، ونتيجة لشراسة الطقس في ذلك الشتاء، فقد كان هذا المطر شريكا ثالثا يصحبنا في جلساتنا ويضيف بايقاعاته العنيفة اثناء انهماره فوق الاسطح واصطدامه بالجدار الزجاجي للمقهى ايقاعا لايقاعات قصائد الديوان يتلوها ذلك

الصديق، وارتسمت الصورة في ذاكرتي بهذا الشكل العامر بالاثارة وجماليات الشعر وهو يمتزج بجماليات الطبيعة في لحظات العنف والفوارن وصورة البحر لحظة ان يمرق فوق سوف البرق ليرسم تلك اللوحة المضيئة الخاطفة ويمنح الميناء وسفنه وابنيته ووينشاته شكلا سحريا كانها لوحة في حديقة الدناصير . وكنت اعيش بمفردي في طرابلس ، خاليا من الارتباطات الاسرية ، فكنت استطيع ان اقضي اليوم كاملا مع هذا الصديق نرتاد المطاعم والحانات، ونعيش هذه الحالة من التماهي والتمازج والتفاعل مع اجواء الشتاء، يرافقنا صديق ثالث مات منتحرا في كوناكري ، هو الشاعر الشامي عبد الباسط الصوفي . وكانت احدى اهم قصائده المستوحاة من رحلته الافريقية قصيدة طويلة اسمها مكادي ، هنا مقاطع م تَمْ ، تَمْ

أفريقيا نغمْ

حين يَمُدُّ الليلُ كُلَّ ثَوْبِهِ العَتيقْ

وتَرْقُدُ الغاباتُ في عُبَابِها العميقْ

بَعْضُ القِممْ

تَفِرُ في مَجَاهِل الفضاءْ

لَعَلَّها تَهُزّ كبرياءْ

لَعَلَّهُ السَّأمْ

ناءَتْ به مُجْهَدَةً ونَاءْ

فارْتَطَمَتْ بقُبَّةِ السَّماءْ

لعلّه النَغَمْ

أفريقيا نغمْ

حُبٌّ وَرَقْصٌ وجنونْ

وتقرَعُ الطبولُ للطبولْ

سَمْراءُ ، كالعاصفةِ الرَّمْليَّهْ

في جَوْفِها ، تُجلجل الأغنيّةْ

إِفريقيا ، يا صَرْخَةَ الحريةْ

وارتجتْ الغاباتُ والحقولْ

(ماو ماو) احقاد بدائيين بربرية

لَنْ يَشربَ (الأسياد) من دمائنا الزنجيّةْ

وفارَتْ الأكفُّ ترتمي على الطبولْ ...

عن معنى الانتماء للوطن

ما هو الانتماء؟ اليس شعورا يملأ الوجدان نحو الوطن، ارتباطا به، والتزاما بالوفاء له، واحساسا بقوة العلاقة التي تربطنا به، كتلك التي نحس بها نحو من جئنا عن طريقهما الى العالم، وهما الام والاب، واذا كانت العلاقة بهذين الوالدين تنشأ نشوءا طبيعيا، وتنمو وتكبر بسبب اننا غالبا ما نعيش في حضن الوالدين او حضن احدهما او حتى ان لم يحدث ذلك العيش في حضنهما، فان ثمة ما يغذي الشعور بالانتماء اليهما، وهو ما تستوعبه الذاكرة مما نسمعه من حديث الاهل عنهما، بالاضافة الى جينات موجودة في تكويننا لا يمكن الا ان تظل رباطا يربطنا بهما، وباعتباران الانتماء للوطن ايضا شعور ينمو في الوجدان، فتنميته تحتاج دائما الى من يغذيها ، وتعمد الدول الى ان تكون برامجها التعليمية، وبرامج التثقيف والتوعية، معنية بهذا الجانب ، ويسهم الابداع الادبي والفني ايضا بهذا الجانب اسهاما اساسيا وجوهريا.

واحساسا مني بواجبي ككاتب، بضرورة القيام بدور في تنمية الانتماء والولاء للوطن لدى شباب الوطن ونسائه ورجاله، فقد كتبت عددا من المسرحيات التي رايت انها تخدم هذا الجانب اكثر من غيرها، باعتبار ما تعمدت تضمينه فيها ، وما سعيت للتركيز عليه من ابعاد وطنية وقومية، تخللت الاحداث التي تناولتها هذه المسرحيات والشخصيات التي دارت حولها، والحوار الذي يشكل العمود الفقري للعمل المسرحي الدرامي وما احتواه من شحنة انفعالية عاطفية لخدمة هدف الانتماء للوطن وتعزيزه في قلب المواطن، بالاضافة الى تقديم النماذج والرموز التي تجسدت فيها هذه القيمة، لتكون نبراسا ومثلا يحتذى امام الاجيال الجديدة، وقدمت هذه المسرحيات الى المؤسسة المسئولة عن الانتاج

المسرحي، وكانت تسمى في اواخر العهد الانقلابي مؤسسة الثقافة ، وبعد سنوات من تقديمها ، رايت ان استفسر من المسئول عن هذه المؤسسة، عن مصير هذه الاعمال، فالتقيته اثناء زيارة له الى القاهرة، ووجدته في المقهى يدخن الشيشة ، ولن اذكر اسمه لان المسألة ليست شخصية وانما باعتبارها قضية عامة ، والتقيته وسالته عن هذه المسرحيات ، وكان حاضرا صديق يعمل رئيسا للمكتب الاعلامي الليبي في القاهرة ، واخبرته بان هناك اربعة نصوص قدمتها الى المؤسسة التي يرأسها، عن معركة القرضابية، وهي اكبر واشهر واخطر المعارك التي دارت بين المناضلين الليبين وجيش الغزو الايطالي، وعن الزعيم المناضل من اجل استقلال ليبيا بشير السعداوي، ثم عمل عن التراث الليبي الغنائي والموسيقى من خلال حياة الفنان النابغة سلام قدري، وقلت له ان هناك عملا رابعا يصور معاناة الليبيين المعتقلين من قبل الجزار جريسياني في معتقل العقيلة، واخبرته عن دوافعي لكتابة هذه المسرحيات ، التي استهدفت من كتابتها المساهمة في تنمية الولاء للوطن، والانتماء لرموزه وتراثه وشخصياته، وكلام كثير حول هذا المعني، فلم اكتبها بغرض ان اجني منها فائدة غير هذه الفائدة، الا ان المسئول لم يكن معنيا بمثل هذه القضايا، فلا هدف ولا غاية ولا قضية الا العمل الذي يبقيه اطول مدة في منصبه ، وهذا البقاء لا ينفع معه ثقافة وطنية، ولا مسالة ولاء للوطن ، وانما كيف يسعى لتمجيد قائده، وقال لي بالحرف الواحد، وبحضور ذلك الصديق، ان ما يريده هو مسرحيات عن الاخ القائد، فحاولت ان افهم منه ما يعنيه بمسرحيات عن الاخ القائد، فقال لي ان القائد منشغل هذه الايام بالترويج للدولة الفاطمية وتمجيدها ، ويتحدث في خطبه عن ضرورة استعادتها ، وادعوك ان تكتب مسرحية مستمدة من تاريخ الدولة الفاطمية يجسد المعنى الذي يريده القائد، ونوقع عقدا ساترك لك خانة الاجر بيضاء لتكتب فيها الرقم الذي تريده، وطبعا انتهى الحوار عند هذا الحد، ولن احتاج الى القول ان هذا المسئول ومؤسسته لم تقم باي جهد لانتاج تلك المسرحيات، وهو مثل اضربه لاقول من خلاله ان التجريف الذي حدث لمعنى الانتماء، ومعنى الولاء للوطن، والارتباط به ، لم يحدث عبثا ، وانما هو جزء من سياسة مقصودة، حتى وان لم تكن مقصودة، فهي سياسة غبية ادت الى هذا الفراغ، وهي ذات اسياسة التي واصل النظام الانقلابي تكريسها في كل اجهزة الاعلام والثقافة والتعليم، عندما جير كل شيء لشخص الحاكم، وكانت هذه السياسة سببا رئيسيا لمرض الشيزوفرينيا لدى المواطنين الذي نراه متجليا في سلوكيات وممارسات الجماعات التي تسيدت علي المشهد السياسي بعد الثورة و لحالة الانفصام بين الوطن والمواطن، التي يشكو منها الناس، في ليبيا وفي غيرها من اقطار عربية، تشابهت فيها الممارسات وتكررت فيها سياسات تنحاز للزعيم الفرد، وتقديم الولاء له على حساب الولاء للوطن.

راس تحطم فوقه الفخار

لم اكن قد وصلت سن العشرين بعد، عندما انفصلت في لحظة غضب، عن فرقة الامل للتمثيل، التي قام بتأسيسها وتولى رئاستها صديقي الاعز المرحوم عبد الحميد المجراب، واتصلت باصدقاء لي ، بعضهم اكبر مني سنا، ادعوهم لمعاونتي في تأسيس فرقة جديدة للتمثيل ، هي التي اسميتها فرقة المسرح الجديد، وتحصلت على مقر لها قريبا من باب الحرية ، في مدخل قوس الصرارعي، بيت من طابقين كان قد تبرع به الشيخ عبد السلام خليل مقرا لجمعية ادبية توقفت عن العمل، فاتخذته الفرقة الجديدة مقرا ، وتحول هذا المقر الى ما يشبه خلية النحل، لان بجوار التمثيل والتدريبات التي كنا نجريه على مسرحية تدول حول نضال شيخ الشهداء عمر المختار بعنوان ثمن الحرية ، انشأنا فرقة للموسيقى، كان يدير

شئونها مطرب صاعد ذلك الوقت هو محمد الجزيري، واستقطب عناصر من هواة الغناء، فكانت هذه الفرقة التي شهدت بدايات مطربين صاروا نجوما كبارا في الغناء مثل خالد سعيد ، وانصرف بعضهم للتليحين مثل منير عصمان، وبين هولاء الذين استقطبتهم الهواية صديق عزيز لا زال على قيد الحياة ، وصار له شان اخر في مجالات مدنية وعسكرية وادبية ، وهو عرفه الحراك المعارض للقذافي ضابطا كبيرا هو العميد سليم الحجاجي، الذي ساتوقف عند حكاية صغيرة تتصل به .

كان سليم مازال في سن الصبا، منخرطا في احدى مراحل الدراسة، لابد انها المرحلة المتوسطة، وكانت اسرته تخشى ان تأخذه هوايته الفنية من المدرسة ومطالعة المنهج، وكان له اخ اكبر منه هو المرحوم عامر الحجاجي، تنكب هو الاخر طريق الغناء وقطع فيه شوطا وصار له صيتا وسمعه باسمه الفني المستعار "أحمد فؤاد"، تحت رعايته احد شيوخ الموسيقى الاستاذ على الحداد الذي كان يباشر تاليف الحان للاغاني التي يترنم بها.

وباعتباري مديرا للفرقة، وباعتبار ان شقيقه سليم ، كان يداوم للحضور الى الفرقة يوميا، فقد ارادني هذا الشقيق الاكبر لعضو الفرقة ، ان اقنع شقيقه سليم او امنعه من المجيء للفرقة كل يوم، وجاء السيد عامر الحجاجي لزيارتي في الفرقة ، وابلاغي مشكلة العائلة مع سليم، حيث فشلت عائلته في اقناعه بالانصراف الى الدراسة . ولكي يترك اثرا في نفسي ، اصطحب معه في زيارته الى الفرقة، استاذه الشيخ على الحداد، الذي كان رجلا كفيفا، متقدما في السن، يرتدي الملابس الوطنية ، وله هيبة ووقار الشيوخ، وجلسنا في صالون المكتب نناقش الموقف، وابديت تعاطفي مع السيد عامر الحجاجي واستاذه، وتفهمي لحرص اسرة سليم الحجاجي على مواصلة دراسته في هذه المرحلة دون عرقلة ولا تشويش، وبطبيعة الحال فلم يكن الشيخ على الحداد، يدرك ان مدير الفرقة الذي يجلس امامه، فتى صغير لا يزيد عمره الا عامين او ثلاثة عن سليم نفسه، وتصور ان مديرا لمثل هذه الفرقة ذات الشنين والرنين لابد ان يكون رجلا ناضجا في منتصف العمر او اكبر، وصار يخاطبني بهذا الاعتبار، ويحثني ان اقوم بدور الاب والاستاذ الناصح للشاب الصغير، واستخدم في وصفي تعبيرا لا نسمعه عادة الا مقرونا بالخبرات والتجارب التي يكسبها الانسان بتقادم السني ، واعتباري كما قال في سياق حديثه "ممن تكسر فوق راسهم القلال" (بمعنى الفخار) ، ولا ادري اصل ولا القصة التي وراءه هذا التعبير الذي شرفني الشيخ على الحداد بالانتماء لاصحابه، ولكنني ادركت ان الشيخ يضعني في سن ومقام اكبر مني واكبر من عمري.

وهناك طرفة تروى عن الشيخ على الحداد، انه اثناء تاليف فرقة للموسيقى ، تابعة للاذاعة، دهب الى الرجل المكلف بانشائها الملحن والموسيقار الرائد ، بشير فهمي فحيمة، فعرض عليه خبرته ومؤهلاته التي تؤهله للانضمام الى الفرقة ، قائلا انه يتقن الضرب على الة العود، ويتقن الضرب على الة القانون، وكان بشير فهمي اثناء ذلك الوقت في نزاع مع زميله وصديقه محمد الكعبازي ، فقال للشيخ الحداد ان لديه وظيفة ليس لمن يتقن ضرب العود او ضرب القانون ، ولكن من يتقن ضرب محمد الكعبازي الذي احرق لها اعصابه ذلك النهار، وكان الكعبازي في مكن قريب ، وسمع ما قاله صديقه فحيمة، فجاء ضاحكا يعانق الشيخ على الحداد، الذي ساعده في حفظ بعض الموشحات ونوبات المالوف، وكان من اول الملحنين الذين تم اعتمادهم في الاذاعة وصدحت اصوات كثيرة جميلة بالحانه العذبة ذات النكهة الليبية

الطرابلسية . رحم الله رواد الموسيقى الليبية الحديثة، على الحداد والكعبازي وفحيمة ، ورحم الله الفنان عامر الحجاجي.

في منطقة الحدود

وحديث عن فوائد الطغاة

جميعنا نهيء انفسنا لحظة عبور المناطق الحدودية الارضية ، خاصة في بلداننا التي تنتمي الى العالم الثالث، لان نلتقي بمختلف انواع المضايقات وحرق الاعصاب، واقول الارضية ، وفي بلدان ذات طبيعة صحراوية مثل الحدود التي تربط ليبيا بجيرانها شرقا وغربا وجنوبا، حيث درجة الحرارة صيفا تصل الى دراجات عالية حارة ، وتصل شتاء الى درجات عالية بردا، مع احتمال ان تتحرك الزوابع والعواصف الرملية ، فتضع الجميع ، مسافرين وموظفين في هذه الاماكن في اعلى حالات التوتر والضيق، وكانت منطقة العبور بين طرابلس وتونس هي التي يكثر استخدامي لها اكثر من غيرها ، ونتيجة لقرب هذا المعبر الحدودي من العاصمة طرابلس ، فهو دائما الاكثر زحاما ،وطوابيره هي الاكثر طولا، وضباط وجنود الجمرك والمهاجرة كما تسمى ،اكثر حدة وعصبية ، بسبب الضغط الكبير عليهم. وكنت في احدى هذه الرحلات، عبر الحدود الليبية التونسية، قد تجاوزت بشق الانفس اجراءات الجانب الليبي ، بكل ما لاقيته فيها من عسف وبؤس، عارفا ان عسفا وبؤسا اكثر حدة ينتظرني على الجانب الاخر، ولذلك فقد وقفت بخشوع ودعة، اما الضابط التونسي الذي يقتضى ان اقف امامه في اولى خطوات التعامل، وكان غارقا وسط سحابة من الذباب، في يده حزمة من سعف النخيل ينشه بها دون فائدة، رغم حركة يده العصبية المكوكية امام وجهه، وانعكست حالته على اسلوب المعاملة التي باشر يعاملني بها، والاسئلة التي لا يقتضيها الموقف ولا الحاجة التي يسألني اياها، وتذكرت ان في حقيبة اليد التي تضم اوراقي، صحيفة تحمل قرارا من رئيس الجمهورية التونسية السيد زين الدين بن علي، يقضى بتعييني عضوا في في لجنة الجائزة التي اسماها جائزة المغرب العربي ، وتقدم باسمه لاحدى الشخصيات المغربية البارزة، ولكي اضع احد حدا لرزالات الضابط وتخرصاته، اخرجت الصحيفة ، واشرت الى الصفحة التي نشر بها القرار مرفقا بصورة لي ، وبقى الرجل للحظة مذهولا ينقل بصره بين الصورة وبيني وبدا، عندما تأكد من حقيقة انني الشخص المقصود، كان مسا كهربائيا اصابه، تحول ذلك الرجل الذي يجلس مشمخرا، في صورة اله للذباب، الى كائن يرتجف ويرتعش وينهض مذعورا من مكتبه ، ويتجه الى الشنطة التي كانت معي ، يختطفها مني وانا اقاوم لانني لا اريد لها مهانة ان يحملها عني ولكنه تشبث باصرار بها، طالبا مني ان اقوده الى السيارة التي تقلني مع بعض الاصدقاء، ليقوم بتسهيل مرورها واجراءاتها خارج طابور السيارات وووضع سمة الدخول على جوازات سفر ركابها متقدما بنا عن كل الطوابير، وهو يلهج بالثناء والشكر وانت شرفتنا وانستنا باعتبارك ضيف بلادنا وضيف رئيسنا ولابد ان نخدمك باعيننا، وفوجيء الصديق الذي يقود السيارة بالضابط الذي جاء باسم الرئيس يستقبلنا ، وبسرعة احضر بقية الركاب من الطوابير الطويلة التي كانوا يقفون في اخرها، فانقذهم من مشقة الانتظار والوقوف تحت

شمس الصحراء وينجزها في بضعة دقائق ، لنجد انفسنا نشق طريقنا بعيدا عن مخافر الحدود، وقبل طوابيرالسيارات التي جاءت قبلنا .

مجرد تذكرة ببعض فوائد الطغاة.

في ضيافة اتحاد الادباء

واكمالا لقصة ما حدث على الحدود، فقد دعاني الصديق الشاعر الميداني بن صالح وكان رئيسا لاتحاد الادباء التونسيين، لان اكون ضيفا في مقر الاتحاد واقامة حفل استقبال محدود بالمقر ، وكان حاضرا معي صديقي وابن بلدتي ورئيس جمعية مزدة التراث السيد عبد الله مادي، وفوجئت برئيس الاتحاد يقول انه كان على اتصال بالقصر الرئاسي وان ينقل لي تحيات السيد رئيس الجمهورية زين الدين بن علي ، ويذكر انه شديد التقدير لانتاجي الادبي ، ولم اكن اطلاقا قد التقيت بالسيد الرئيس التونسي ، ولا صلة له به، عدا القرار الذي اصدره بضمي الى لجنة جائزة المغرب العربي ، برئاسة وزير الثقافة في ذلك الاقت الدكتور الهرماسي، الا انني كنت اعرف انه يحب ان يظهر في صورة راعي الادباء ومحب الادب والفن ، ومن مظاهر الحرص على اظهار نفسه بهذه الصورة ، ان طلب اثناء زيارة له الى مصر، ان يزور الروائي المصري الشهير الاستاذ نجيب محفوظ في بيته وهو ما حدث فعلا، وكان رفيقي في الرحلة سعيدا بهذا الثناء الذي جاءني من الرئيس عن طريق رئيس اتحاد الادباء ، اذ راى فيه اعترافا بكاتب من ابناء عمومته وتقديرا له من صاحب ارفع منصب في تونس.

كامل الهادي عراب

عندما بدات اتصالي بالوسط الادبي، منذ عام 1959، تاريخ نشر اول مقال لي في الصحافة، كان الكاتب كامل الهادي عراب، قدا بدأ يصنع لنفه اسما في الفضاء الثقافي الليبي، كواحد من الاقلام الجديدة التي تنحى منحى يساريا، واعلن بقوة عن هذا التوجه اليساري، عنما شارك في معركة على صفحات جريدة طرابلس الغرب اليومية الحكومية، اواخر الخمسينيات، حول انتماء الادب للحياة ، وانحيازه للطبقات الشعبية ، وتعبيره عن الجموع الكادحة، كما يقول كامل عراب مرددا اصداء المدرسة الاشتراكية في الادب كما قراها لدى اصحاب هذا التوجه في مصر من امثال محمود العالم وعبد العظيم انيس ، معارضا التوجهات الاخرى التي تدافع عن الابعاد الجمالية للادب والفني كما عبر عنها باقتدار وعمق الكاتب المتالق شهرة وابداعا ، والذي كان يحتل موقعا متقدما في الحراك الادبي الليبي في عقد الخمسينيات الاستاذ عبد القادر ابو هروس.

ينتمي كامل عراب ، الى بيت من البيوتات العربية العريقة في الجبل الغربي ، وفي بلدة الرجبان بالذات، التي ولد فيها عام 1935، وله ابناء عمومة في ذلك الوقت اي عندما بدا مشواره الادبي، كانوا يحتلون مناصب سياسية قيادية في الدولة، عرفت منهم قريبه وزوج اخته الاستاذ محمد عراب، الذي كان عضوا في المجلس التشريعي بولاية طرابلسس، ولا ادري السبب الذي جعله لا ينال تعليما فوق المرحلة الابتدائية، عدا انه تربي يتيما ، فقد فقد والده في مرحلة مبكرة جدا من حياته، واجتهد اجتهادا خاصا في

تكوين نفسه وتحصيل ثقافته بشكل عصامي معتمدا على نفسه ومثابرته ومطالعاته الحرة، وكانت اول وظيفة انخرط فيها بسبب غياب المؤهل الذي يضمن له وظيفة افضل، هي وظيفة شرطي نفر في قوة بوليس طرابلس، وتحصل على شريط ثم شريط اخر، بسبب تميزه على اقرانه بما ظهر عليه من مستوى التحصيل والوعي، فانضم الى مدرسة ابوسته ، التي تختص بتاهيل افراد الشرطة ، ومحو اميتهم ، ليكون مشرفا ومدربا فيها ، واتاح له افتتاح الاذاعة والاعلان على وجود وظائف فيها، اواخر الخمسينيات، فرصة الانتقال اليها واجتياز اختبار للمذيعين ، بسبب طلاوة صوته وتمكنه من ضبط قواعد اللغة العربية، ليتميز بالبرامج ذات المحتوى الثقافي التي انبرى لتقديمها خلال عقد الستينيات مثل برنامج ، طابت اوقاتكم، واجنحة الكلمات، ومشاركاته في اعداد وتقديم برنامج صباح الخير، وتعليقاته السياسية وبرامجه الحوارية، علاوة على مقالاته التي ظل ينشرها تباعا في مجلة الاذاعة التي باشرت الصدور منذ مطلع الستينيات.

ومنذ العام الاول في عقد الستينيات وما يليه من اعوام باشرت كتابة ابواب يومية للبرامج الصباحية، وكان المذيع كامل عراب، يتولى قراءة هذا البرنامج، وبينها الفقرة التي اتولى كتابتها ، حيث كتبتها مرة تحت عنوان مجرد راي، وفي مرة خرى تحت عنوان حكمة الاجيال، حيث كانت مهمتي تقتصر على الكتابة. فنشأت صداقة بيني وبينه، انتقلت من علاقة العمل الى جلسات المقاهي والحانات، والالتقاء باصدقاء مشتركين بينهم يوسف القويري وبشير الهاشمي وامين مازن والشاعر على الرقيعي، ويجمعهم كلهم الانضواء تحت مظلة اليسار، بدرجات متفاوتة ، وعرفت فيما بعد ان هناك نواة لتاسيس حزب شيوعي ، كان كامل عراب، احد عناصرها، واخبرني في مرحلة متأخرة من حياتها، وكنا في جلسة في القاهرة حضرها صديقنا المشترك الصحفي مختار الزروق، انه سجل تلك الفترة في فصول من مذكراته ، وهي مذكرات توفى دون ان ترى النور، ولا ادري اذا كان احد من اهله قد اعتني، بحفظ هذه المذكرات ، بامل اعدادها للطبع لانها سوف تكشف صفحات مطوية من تاريخ العمل السياسي السري في ليبيا لم يجرؤ احد في الماضي على الاقتراب منها. وتعرفت عن طريقه الى اثنين من اشقائه، وكانا مثالا للعمق الثقافي ويقظة الذهن، شقيقه الاكبر عمر ، الذي عاش ردحا من الدهر في مالطا، في عمل له علاقة باحدى المؤسسات الليبية العاملة في تلك الجزيرة، ثم شقيقه الهادي ، الذي تسمى باسم والده ، لانه جاء الى الحياة بعد ايام من وفاة ابيه، وقد سبقه الشقيقان الى دار البقاء.

ورغم وجوده في دائرة الاتهام، ابان العهد الملكي، لتوجهاته اليسارية الواضحة ، فانني لا اعلم انه اضير في وظيفته او معيشته، او في حياته الخاصة او العامة، وظل التنظيم الماركسي الذي انتمى اليه طي الكتمان، محاطا بمنتهى السرية، ولا ادري من هم رفاقه في هذا التنظيم ، عدا ما يشاع في الوسط الثقافي بان المؤسس لهذا التنظيم الصغير هو المرحوم الكاتب الاستاذ على ابوزقية، ولا ارى ان هذا التنظيم وجد اية فرصة للاستمرار والنمو، والاغلب الاعم انه مات باسفيسكيا الاختناق، ذاتيا لانه لم يكن يستطيع ان يتنفس وينمو بشكل طبيعي حتى وهو يمارس حياته تحت الارض. الا انه هذه المرحلة اليسارية التي تجند فيها تنظيميا ، والتي لم تكن سببا في اي اذى لحق به خلال العهد الملكي ، عادت عليه تنكيلا ووبالا في العهد الانقلابي، الذي بادر بعد ان تمكن من بسط نفوذه على كامل القطاعات وكل ارجاء البلاد، الى ملاحقة كل من كان لها تاريخ سياسي، يسارا ويمينا، واجرى النظام عملية تطهير واعتقال لمثل هؤلاء

الناس في العام 1973، اثر ما اسماه الثورة الثقافية، وداهم عناصر امنه، بيوت كتاب واعلاميين، كانوا يكتبون للاذاعة تعليقات الاشادة والتمجيد بالانقلاب ، وبينهم كامل عراب، الذي كان يسخر من هذه الحادثة ، فهو لم يكن يكتب منشورا سراي يهاجم فيه الحاكمين ، ولكنه كان يكتب تعليقا للاذاعة تمجيدا لهم ، واكبارا لما كان يسمى منجزات الثورة.

وقبل هذا الاعتقال الذي استمر ، فيما اذكر عاما ونيف، تخللته جلسات تعذيب يومي بالفلقة، لجميع المعتقلين ، ليس بهدف التحقيق او الحصول على معلوما، وانما بهدف الاهانة والسيطرة، كان قد احضر الى قفص الاتهام، للمثول امام ما كان يسمى محكمة الشعب، لانه كان عنصرا عاملا في اذاعة ساهمت كما تقول التهمة في تضليل الرأي العام ، وكان الهدف، مرة اخرى ، هو الاذلال والمهانة ، لمثقفين واعلامين كان سجلهم يحمل براهين المعارضة للنظام الملكي لا الولاء ولا التمجيد له.

واذكر انه بعد هذه المحاكمة ، ترك عمله بالاذاعة، وجرى تنسيبه للعمل في المؤسة العامة للصحافة ،حديثة الانشاء ذلك الوقت، والتي كنت قد انتقلت اليها رئيسا لتحرير صحيفة الاسبوع الثقافي، وكان قد جاء الى المؤسسة ، بنتظر اسناد علمل له في احدى ادارتها او صحفها، او لعله اخطر بان له عملا في قسم تحت التاسيس هو مركز البحوث، المهم انه كان يتردد على مكتبي ، واعطاني مقالا يباشر به تعاونه مع صحف المؤسسة التي اصبح عضوا فيها، واختار الاسبوع الثقافي باعتباره كاتبا وناقدا ادبيا معروفا له تاريخ في هذا اللون الكتابي يزيد عن خمسة عشر عاما. واذكر ان المقال حمل عنوان "ذكريات لا اهمية لها" ، فنشرته باحتفاء كبير، وتنازلت له عن الصفحة الاخيرة التي انشر فيها مقالاتي، وصدر المقال ، ليحظى بكثير من الترحيب والامتنان من زملاء المهنة ، لان كامل عراب، يعود به الى النشر بعد غياب قسري، لكن هذا الامتنان والترحيب، تحول الى اسف واسى، لاننا سمعنا ان احتجاجا على نشر المقال جاء من اعلى سلطة في البلاد، واصدر صاحب هذه السلطة ، رئيس مجلس قيادة الثورة، تعليماته بمنع مقالات كامل عراب من النشر في اية وسيلة من وسائل النشر.

وكنت قد بدأت اباشر العمل مع بعض الزملاء على اصدار مجلة الثقافة العربية في بيروت ، فلم اكن قريبا من السيد عراب لاعرف شعور ازاء هذا الاضطهاد المتجدد، الذي يمارس ضده من رئيس الدولة دون سبب، واعقب هذا المنع من النشر عملية الاعتقال التي شملت عددا كبيرا من رموز الحركة الثقافية من اصحاب الانتماءات السياسية والفكرية المختلقة والتنظيمات السرية التي كانت سابقة لقيام الانقلاب، ولم يعد لها وجود بعد تغيير النظام، واعتمدت السلطات الامنية على الملفات الموجودة من النظام الملكي.

واعتقد ان القرار الذي اتخذه الكاتب كامل عراب ، عقب خروجه من السجن، هو تحسين علاقته مع النظام ، واثبات براءته له من اي انتماء ماركسي سابق، وتاكيد انضوائه تحت لواء ما يسمونه ثورة الفاتح والاندماج فيما تطرح من افكار. وكنت قد وصلت الى مرحلة متقدمة في تاسيس اتحاد الادباء ، واشهاره تحت اسم رابطة الادباء والكتاب، ودعوت لاجتماع اول جمعية عمومية اواخر عام 1975، لتسليم هذه الجمعية وثائق انشاء الاتحاد ، وهو ماحدث، في مسرح الكشاف كما تم انتخاب اول مجلس ادارة واول امين توليت تسليمه، وثائق اللجنة التاسيسية التي تشرفت بامانتها على مدى اكثر من ثلاثة

اعوام، حتى كللت جهودي بعد لاي وعنت باصدار قانون انشائه بالنظام الاساسي المعتمد من ادارة التشريع والقضايا التي توليت ضعه ومناقشته مع خبراء الادارة، وكنت مستعجلا على اتمام هذه المهمة، لانني كنت على وشك ان اغادر البلاد في عمل ديبلوماسي في لندن، فلم اكن قريبا من المساعي الذي بذلها الاستاذ كامل عراب ، لتزكية نفسه للنظام ورئيسه ، ولكنني استطيع ان اقول انه وجد نافذة اتاحها له اتحاد الادباء الجديد، ليتواصل عبره مع الحراك القيادي في دولة الانقلاب، وتولى مع الاتحاد كتابة النشرات والبيانات التي يصدرها في المناسبات المتعددة التي يحتفي بها النظام ، والتي يسميها اعياد الثورة واعياد جلاء الامريكان واعياد جلاء الانجليز واعياد جلاء الطليان، وغيرها من اعياد بمناسبة نشاط ثوري في الاوساط العمالية او الطلابية او العسكرية او عيرها، حيث يكون قلم الاستاذ كامل جاهزا لاصدار نشرات الاحتفاء والتمجيد باسم الاتحاد طبعا ودون ان تحمل اسمه، وكنت حاضرا بعض المناسبات التي قدمت فيها مجموعة من هذه النشرات والبيانات الى العقيد، مصحوبة بحديث عن صاحب الفضل في انجازها، والكاتب الذي تولى السهر على صياغتها بهذا الاسلوب الادبي الرفيع، الاستاذ كامل الهادي عراب. وفعلا اقتنع العقيد بان كاتب هذه النشرات والبيانات، صاحب اسلوب بارع، ولا مانع من كسبه الى صف الثورة كما كان يسمي انقلابه العسكري، فصار يبدي رضاه عن كامل عراب ، ويدعو لكل اجتماع يعقده مع صفوة ادباء البلاد، وفتحت امامه الصحف الثورة، لتتصدر مقالاته اهم صفحاتها، وكان مرحبا به عندما طرح اسمه ليتولى رئيس تحرير مجلة رابطة الادباء والكتاب المسماة الفصول الاربعة، وصار ما كان ماضيا محسوبا عليه ، صار ماضيا انتهى امره ، صفحة قديمة مطوية لا احد يذكرها الا من باب الذكريات الميتة، وكنت ذات مرة احضر اجتماعا دعا اليه العقيد مجموعة ادباء بينهم الاستاذ كامل عراب، وجاء على ذكر البيان الشيوعي باعتباره كان درسا في التوجه للجماهير، لانه كان واضحا بسيطا دون تعقيد ولا اسهاب، وتحدث عما يسمعه من براعة الشيوعيين في استقطاب الشباب، وتوجه بسؤال عن اهم عناصر الجذب التي يستخدمونها في استقطاب وتجنيد الاتباع، واعتبرته سؤالا عما موجها للجميع، فبادرت لكي اجيب ، ولكنه اشار الى كامل عراب قائلا لي انه يريد من يسمع اجابة السيد كامل عراب، وكانه يريد ان يؤكد بانه يعرف ماضيه مع الشيوعيين، ولكنه تقبله تحت لواء ثورته. واذا كان كامل عراب قد كتب بعض المقالات التي يمالىء بها نظاما شرسا مجرما لكي يتقي شره واجرامه، فان الحصاد الكبير الذي كتبه من مقالات نقدية ومقالات سياسية واخرى جمعها في كتب كثيرة بينها، معارك الامس، الكلمات، عين على الواقع، انتقام الغزلان المسحورة، اوقات للتأمل، بهجة الصمت، رغبة الكلام، وصل ما انفصل ، اختلاجات الزمن الساخن، بنكهة الادب احيانا. رحم الله الكاتب الليبي الذي كان عنصرا فاعلا في الحياة الثقافية الليبية اكثر من نصف قرن من الزمان.

محمد مفتاح الفيتوري

يقينا ان الشاعر محمد الفيتوري كان اصغر شاعر على قيد الحياة تدخل قصيدة من قصائده، كتب المنهج الدراسى في مدارس الدولة، فقد طالعتها شخصيا في كتب المطالعة في المرحلة الابتدائية قبل وصولى الى مرحلة الشهادة عام 1957، في بلدتي الواقعة على اطراف الصحراء جنوب طرابلس، وكانت الكتب تاتي هدية من الحكومة المصرية، وهي نفسها كتب المنهج المدرسي في مصر، وكان ذلك فتحا لشاعر صغير

مثله في بداية العشرينات من عمره ، حيث كانت مثل هذه القصائد لا نجدها، الا لقدماء الشعراء، واذا جاء المعاصرون، فالمساحة محتكرة غالبا من شعراء وزارة التربية والتعليم وبينهم شعراء فحول مثل محمود غنيم وعلى الجارم والعوضى الوكيل وغيرهم ممن يسهمون في وضع المناهج ويضمنون مكانا لانفسهم وبالكاد يعطون مساحة لعدد من اهل الشهرة كادباء المهجر ممن لا زال بعضهم على قيد الحياة مثل ميخائيل نعيمة، او اليا ابي ماضي. تلك كانت بداية تعرفي على شعر السيد الفيتوري، الذي كان اسمه قد تكرس فيما بعد كواحد من شعراء الطليعة في العالم العربي، وخلال الاعوام القليلة التي سبقت انقلاب سبتمبر، ارست صحيفة الحقيقة، التي تصدر في بنغازي، وربما بالاتفاق مع وزارة الاعلام والثقافة، دعوة نجوم الادب والشعر العرب لزيارة ليبيا، واقامة يندوات ومحاضرات في كل من بنغازي وطرابلس واذكر من هؤلاء النجوم الشاعر نزار قباني ، والشاعر عبد الوهاب البياتي، وفي هذا الاطار وصل الى طرابلس وقبل ايام قليلة من يوم الانقلاب، الشاعر محمد الفيتوري، وحدث ان قام الانقلاب وهو في طرابلس، موجودا في الفندق الكبير ضيفا على الدولة ، ليشهد مشاهدة العين، تقوض النظام الملكي وببزوغ شمس العهد الانقلابي ورئيسه ملك ملوك افريقيا فيما بعد العقيد القذافي، وطبعا ذهب في الايام الاولى للعهد الجديد، الى الاذاعة لتقديم واجب التحية للقادمين الجدد على صهوات الدبابات، ونشات علاقة مبكرة ببعض قادة الانقلاب، ولست متابعا لتاريخ حياته لاعرف الوظائف التي تقلب فيها، ولكنني اعرف ما هو معروف ، عن تركه لدراسته في دار العلوم، عندما سمع السيد كامل الشناوي قصائده الافريقية، وكان رئيسا لتحرير صحيفة الجمهورية في بدء تاسيسها وعرف ان شاب معوز، فاعطاه وظيفة محرر في جريدة الجمهورية، هذه كانت بداية حياته العملية الوظيفية، وحضرت في العام 1973 مؤتمرا ثقافيا عقدته لنا الجامعة العربية عنوانه الوحدة والتنوع في الثقافة العربية ، ووجدته موجودا في اروقة الجامعة العربية ، وعرفت حينئد انه صار موظفا من موظفي الجامعة، ثم بعد ذلك رايته في طرابلس ، ولكنه لم يكن قادما من القاهرة ، ولكن من بيروت التي انتقل اليها ليعمل محررا في مجلة اسبوعية، اسمها الديار، وصار ينشر فيها مادة عن ليبيا، غالبا ما تكون موضوع غلاف ، من بينها مقابلة اجراها للعقيد القذافي، ظهرت له فيها صور وهو في الخيمة يحاور العقيد الليبي، وامامهما موقد نار الحطب، وكانت ليبيا في ذلك الوقت، قد قررت ان يكون لها هيمنة اعلامية في بيروت ، فاشترت بعض المؤسسات الصحفية القائمة وقامت بانشاء مؤسسات اخرى بعضها دور نشر ومراكز بحوث كثيرة واعضت بعضها اسماء القومية والناصرية وغيرها، وكانت اكثر المشاريع شهرة هي تلك التي اختصت باصدار الصحف وكان من بينها بيروت المساء لصاحبها السيد امين الاعور ، والكفاح العربي لصاحبها السيد وليد الحسيني، ووجد الصحفي القادم من دار الصياد السيد طلال سلمان صيغة لانشاء صحيفة جبهة وطنية اعتمدت في تاسيسها ومراحلها المبدئية على التمويل الليبي، هي السفير، وكان لابد ان يغري هذا الوضع كاتبا وشاعرا وعاملا بمهنة الصحافة هو محمد الفيتوري ، الذي جدد اتصاله بجذوره الليبية التي لم يكن يعتني بالاشارة اليها بل وعمل على اشهارها، ان يمد بصره الى حصة في هذه المائدة الاعلامية الصحفية ، وان يطالب بان يتولى هؤ ايضا شراء مشروع صحفي باموال الخزينة الليبية ، وتقول الشائعات انه قدم عرضا بهذا الخصوص، يتلخص في ان تشتري ليبيا رخصة مجلة الديار باسمه ويتولى هو ملكيتها وادارتها، الا ان حسابات العقيد الليبي في التعامل مع اناس مثل الفيتوري ، لها بروتوكولات اخرى ، ربما لان يريد ان يبقيه تحت ضغط الحاجة ، وذلك يقتضي الا تتجاوز المنحة مرتبا شهريا وليكن مرتبا كبيرا فذلك لن يجعله غنيا، يستطيع تحقيق الاكتفاء الذي يغنيه عن الاحتفاظ بعلاقة متينة مع سيد القصر في

باب العزيزية . وانتهى المخاض على تعيينه في وظيفة ديبلوماسية، سبقتها وظيفة لم تكن ترضي طموحه هي رئاسة تحرير مجلة ثقافية، واعطائه جوز سفر ديبلوماسي، وارساله موظفا في السفار بروما. واظنه ظل على هذا الوضع الى اخر يوم في حياة العقيد القذافي ، اذ مات قتيلا في سرت، بينما الفيتور موظفا ديبلوماسيا في السفارة في المغرب، وكان قد تعرض منذ بضعة اعوام الى جلطة في المخ ، ولعله كان قد تعافي قليلا في بداية الثورة على العقيد بحيث ارسل له برقية دعم وتاييد، حسبت عليه عندما انتصر الثورة وانتهى عهد ايلول الاسود بعد ان سيطر على البلاد اثنين واربعين عاما، كان خلالها الفيتوري ، يظهر في اطلالات قليلة ، في التلفاز في قصائد يقولها في حضور سيد النظام باعتبارها تمجيدا له ولكن كثيرين يقول انها مجرد تبديل الفاظ وعبارات، مثل قصيدة كان قد نشرها في احد دواينه باسم الشهيد كان يلقيها وهو يشير بها الى العقيد وكانه كتبها لاجله وعن شخصيته الفدة مع ان المعاني واضحة فيها الا اذا كان قد قام بتغييرها من وحي اللحظة، مثل قوله

ها انت ذا فوق صغر الموت تزدهر

ربطتني علاقة قلقة بالسيد الفيتوري، فنحن بحكم الادب زملاء، وترافقنا في الانتماء لمؤسسة واحدة، فقد كنت في المغرب اعمل في مجلة الوحدة ومجلس الثقافة معارا من ليبيا واتقاضي مرتبي من السفارة وديبلوماسيا ضمن اعضائها، وكذلك كان الفيتوري ديبلوماسيا وموظفا في السفارة، وكنا احيانا نلتقي خارج العمل في المقهى وفي حلقات الاصدقاء وسهراتهم، كما كنت اراه عندما كان يعمل في السفارة في روما، لانني كنت مستشارا اعلاميا في لندن، وكان دائم التردد على تلك المدينة، ليتم اللقاء بمعرفة صديق ثالث هو السيد قذاف الدم الذي كان يحب شعر الفيتوري ويمنحه دعوة مفتوحه لزيارته في العاصمة البريطانية، وكانت اكثر الاعوام التي جمعت بيننا في اثناء عمله في القاهرة حيث كنت انا قد اخترت الاقامة في القاهرة والعمل مع مؤسسات الدولة الليبية هناك ، بين السفارة والمندوبية، وايضا كنا هناك نلتقي في المكتب وخارجه، ولكن ليست لقاءات دائمة كما يحدث بين الاصدقاء الحميمين، وانما لقاءات متقطعة، لان للفيتوري شخصية شديدة القلق والاضطراب ، ويصدق فيه قول المتنبي، قلق كان الريح تحت توجهني شمالا او جنوبا ، وكنت شخصية انعثه بان احد الشخصيات القلقة في الاسلام ، وهو عنوان كتاب للفيلسوف عبد الرحمن بدوي عن الشخصيات العربية اليت كانت تراوح بين الايمان والالحاد، ولكن الفيتوري كان يراوح بين الابيض والاسود في نفسه ، وفي قلبه وفي لون بشرته، مناطق بيضاء من بينها روح الابداع العالية لديه ، ومناطق سوداء ربما جاءت من ميراث قديم يعود الى عصور الرق، واعتقد ان الناقد محمود امين العالم ، كان بارعا في التقاط هذه العقد في نفسه ، كما راها معكوسة في شعره، واشار اليها في المقدمة التي كتبها لاول ديوان صدره الفيتوري في خمسينيات القرن الماضي .

ولدي عشرات الامثلة على هذا القلق الذي ينعكس على تصرفاته، فيثير من حوله حالة من التوتر، يضيع به صفاء الجلسات والسهرات والرحلات التي يترافق فيها مع اصحابه، وساضرب مثلا واحدا ، يغني عن اية امثلة اخرى ، واقوله وانا مفعم بالتقدير لهذا الصديق الشاعر وموهبته العملاقة وحضوره الساطع الاثير الى نفسي في مناسبات كثيرة اخري، اذ حدث ، وبعد انقطاع طويل عن حضور موسم اصيلة الذي يقام كل صيف قريبا من مقر اقامته في الرباط، ان قرر المشاركة في الموسم ، ولم يكن الوزير محمد بنعيسى يتحمس لدعوته لموقفه من الموسم، الا ان اصدقاء للسيد بنعيسي رفعوا اليه رغبة

الفيتوري في الحضور، وعفا الله عما سلف، فجاءته الدعوة، وكان يعرف بانني اداوم في تلك الفترة على حضور الموسم، فقال ونحن نجلس في مقهى باليما، انه ذاهب ويمكن ان نترافق معا، فابلغته بان بعض افراد اسرتي يريدون قضاء بضعة ايام في طنجة حيث اقامة ضيوف اصيلة ونلتقي هناك ، وكان معنا صديق مغربي اسمه، عبد الحق الزروالي، استاذن الفيتوري، في ان يسافر معه الى طنجة ، لحاجة له هناك ، وهكذا تم الاتفاق، وحدث ان التقينا في منطقة من منتصف بين الرباط وطنجة، واقترح ان اركب معه في سيارته، طالما ان هناك من يتولى قيادة السيارة من اعضاء اسرتي ، وفعلا ، ركبت معه، وهو يقود سيارته ليقلنا الى فندق من فنادق الدرجة الاولى حيث يوجد لنا حجز هناك، ومنذ لحظة وصولنا، استقبلنا على الباب احد الموظفين التابعين للموسم، يرحب بنا ويدعوننا للذهاب معه الاستقبال لاستلام مفاتيح الغرف دون تاخير، وقدم لي وللسيد الفيتوري شنطة جميلة صغيرة تحتوي برنامج الموسم استلمناهما، قبل ان يتفضل موظف الاستقبال، بالترحيب بنا واعطائنا مفتاحي غرفتينا، فاستلمته منه شاكرا، واعطى لزميل الرحلة وزميل الدعوة الى موسم اصيلة السيد محمد الفيتوري ، مفتاح غرفته، ولكنه طلب بنوع من العصبية ، مفتاحا اخر لصديقه الذي جاء معه، فاستفسر موظف الاستقبال عن اسمه ونظر في الورق، وقال بانه لا وجود لحجز باسم الرجل المذكور، وهو افتعال لمشكلة لا وجود لها لانه لا علاقة للرجل بموسم اصيلة ، فكيف وردت في ذهن السيد الفيتوري ان ينتزع له غرفة على حساب الموسم؟ لا اعرف، وهنا ازداد الفيتوري توترا وغضبا ، وقال للمظف اعطني جناحا، فرد بادب ان ليس ثمة اجنحة محجوزة للموسم ، كلها غرف لزبون واحد، وهنا ازدادت عصبية صديقنا الشاعر قائلا انه سياخذ الجناح على حسابه الخاص، وبمنتهى الادب قال موظف الاستقبال انه لا وجود لاجنحة شاغرة ، ولم اكن استطيع ان اجد فرصة انفذ منها لمحاولة اصلاح الموقف، الا انني اخيرا فعلت عندما وجدت ان الفيتوري، استنفذ جزءا من طاقته وظل صامتا لبرهة صغيرة، فسالته ان ياخذ غرفته، وابديت استغرابي للممثل المغربي ، لانه كان واقفا يرى ما يدور دون ان يستاذن ويذهب الى حال سبيلة، وهو ما فعله عندما راى استنكاري لموقفه ، واعطيت للسيد الفيتوي مفتاح غرفته ليصعد يرافقه عتال الفندق بشنطته، والتقينا بعد فترة في اللوبي، حيث يتواجد عدد من زملائنا المدعوين، فنجلس للدردشة، والتعارف بمن لم نعرف من قبل، عن طريق احد موظفي الموسم الذي يعمل على خدمتنا والقيام بواجب الترحيب والضيافة، فاذا الفيتوري يهبط من غرفته الى حيث نجلس في اللوبي، غاضبا ، قائلا لي انه قرر ان يعود الى الرباط احتجاجا على ما حدث ، فسالته منزعجا عن هذا الذي حدث، فاخرج ورقة وكانت موجودة ضمن برامج الموسم، تحمل الكلمة التي ارسلها ليقوم بالقائها، اثناء فعاليات الموسم، واشار الى اسطر الاستهلال في الورقة، قائلا انهم اسقطوا سطرا اثناء طباعة الورقة، وانه هذه رقابة يمارسونها عليه لن يرضى بها، وسينسحب احتجاجا، فافهمته ان ما بين يديه ليس كتابا ولا صحيفة ، ليقول ان هناك رقابة، انه ورقة طبعتها موظفة ، وسهت عن سطر، من السطور، وفي يدك ان تقرا السطر الناقص عند القاء الورقة ، وتنشرها بعد ذلك في الصحيفة التي تشاء، الا انه ظل غاضبا واستعنت بموظف الموسم الذي اكد ما قلت بان الامر لن يكون غير سهو من الضاربة على الالة الكاتبة ، وبادرت فاخذت قلما وسالته ان يعيد على السطر الساقط فاعاده امامي ، وقمت فورا بكتابته، وقلت له انظر الان ، هل هناك سطر ساقط، اليس كلامك كله موجودا، وفي ذات اللحظة راينا كاتبا كبيرا من الضيوف قد وصل واظنه لطفي الخولي الذي جاء يفتح احضانه للفيتوري، لانه صديق قديم ومضى زمن طويل لم يره ، فطوينا ورقة هذا الاحتجاج واستمر الفيتوري ضاحكا فرحا بوجود صديقه القديم ، وقضينا سهرتنا معا، ثم نهضنا استعدادا لصبيحة

اليوم التالي حيث يتم الافتتاح، واراد ان يذهب الى اصيلة في سيارته فرافقته في الذهاب بدلا من استخدام حافلة الموسم، ووصلنا قبل الجميع ، ودخلنا الواقع ، فاذا بالفيتوري مرة اخرى مستفزا غاضبا لامر لم انتبه اليه ، فقد كانت هناك مائدة على شكل حدوة حصان ، في واجهة الكراسي التي يجلس عليها الجمهور، اي منصة كتبت عليها اسماء المشاركين في الجلسة الاولى ، ولان ورقتي كانت ضمن اوراق هذه الجلسة فقد كان اسمي ضمن هذه الاسماء ، وسالته عن سبب الغضب، فقال ارايت كيف ان اسمك موجود، قلت لهم نعم ، هل ترى ان اسمي مكتوب هنا، قلت له اسمك ليس مكتوبا لان مداخلتك ستكون في جلسة غير هذه الجلسة ، وصار دو تدبر ولا تفكير ، يعبر عن احتجاجه، وان في الامر اهانة لن يحتملها، ولم يكن هناك صديق استعين به لتهدئته، فواصل ثورته وهيجانه، وانتفض خارجا دون ان استطيع ردعه، منطلقا باتجاه المكان الذي ترك فيه السيارة ، لياخذها ويعود الى الفندق ، فياخذ شنطته ويعود الى الرباط. وقال لي السيد بن عيسى رئيس الموسم، بعد ان عرف ما حدث، انه سلوك لا يفاجئه من الشاعر الكبير، بل هو كان يتوقع مثل هذا الموقف، ورأى منه سابقا مثل هذه المواقف العصبية ، ولهذا فمع اعترافه بقامته الشعري السامقة الا انه يفضل ان يقى شاعرا كبيرا بعيدا عن مهرجان اصيلة وفعالياته.

وسافرت معه من الرباط الى بغداد تلبية لدعوة قدمها لنا السفير العراقي في الصديق سمير ، وقبل السفر بيومين التقينا على مادبة عشاء اقامها لنا السيد الخويلدي الحميدي عضو القيادة العسكرية الليبية الذي كان يزور المغرب، واوصانا عند نصل الى بغداد ان ننقل تحياته الى عدد من القيادات هناك مثل طارق عزيز وغيره، ولم اخذ الامر على محمل الجد، ولكن السيد محمد الفيتوري، ضرورة ان يقوم بالواجب واطلع مضيفينا على انه يحمل رسالة شفهية من احد اعضاء القيادة لزملائه في القيادة العراقية وتم توفير سيارة مراسم كنا نراها تاتي لتاخذه للمواعيد الذي حددت له مع هذه الشخصيات، ولم يكن غريبا بعد ذلك ان نجد جائزة صدام للشعر ذلك العام قد صارت من نصيبه، وتوافق ان تمت مضاعفة قيمة الجائزة من ثلاثين الف دولار الى مائة الف، اخذها كما اراد ورق بنكنوت في شنطة سامسونايت ومعها الميدالية الذهبية، وقد سالني ونحن نركب الطائرة، عائدين عن طريق القاهرة ، ان كنت اعرف صائغا يشتري منه المدليا، ربما على سبيل المداعبة. وقد تالق بقصيدة القاها في مهرجان المربد جعلها تحية للعراق وحربها المتصره ضد ايران واشاد فيها بالصواريخ التي اعطيت اسم قائد المسيرة السيد صدام واظن ان عوانها كان ياتي العاشقون اليك .

فاتني ان اقول ان المجلة التي تولى رئاسة تحريرها ، هي مجلة الثقافة العربية ، التي كانت مشروعا طموحا قامت بانجازه المؤسسة العامة للصحافة ورئيسها الصديق عمر الحامدي ، وكنت حاضرا كل مراحل الاعداد لها، مساهما في انشائها ووضع الخطة التي تهتدي بها في عملها ، ورغم ان مركزها الرئيسي حيث مركز المؤسسة في طرابلس ، الا انها عمليا كانت تصدر نشرا وطباعة في بيروت ولهذا كان مناسبا ان نتفق جميعا على الشاعر الفيتوري ، رئيسا لتحريرها، ووافق هو على ذلك، على ان اتعاون معه وعدد من الاصدقاء باعتبارنا اعضاء مجلس التحرير ، واخترنا لهذا المجلس قامات سامقة من اهل الفكر والثقافة يمثلون عدة اقطار عربية، وكنت اراه احيانا في بيروت دون ان اتدخل في عمل المجلة الا عبر مجلس التحرير ، وتعرفت على صديقة كان قد ارتبط بها ارتباطا عاطفيا ولكن اختلاف الدين وربما اعتراض من عائلتها ، منع اتمام هذا الارتباط وايصاله الى مرحلة الزواج ، وكنت قد عرفت زوجته السابقة وهي ممثلة مسرحية سودانية ، اسمها اسيا، تفرغت لتربية اولادها منه واقامت في

السودان، وخلال فترة عمله في المغرب تعرف على السيدة رجات التي انجبت له انته اشرقت والتي كانت حانية عليه في فترة مرضه الطويلة جدا واستقرت معها حياته في هذه المراحل المتقدمة من العمر.

نعاه الناعي اكثر من مرة ، وفي كل مرة كانت اسرته تخرج لتقول انه خبر لا اساس له من الصحة وكان ممن كتبوا مقالة في رثائه بعد سماع الخبر صديقه الشاعر المصري المعروف الاستاذ فاروق شوشة، وكانت اخطر مرة ظننتها حقيقة عندما اتصلت بي من لندن صحيفة القدس لتطلب مني تحرير صحفة كاملة كرستها الصحيفة لوداع الشاعر الكبير، وفعلا كتبت تلك الصحفة ، لاقرا فيما بعد وقبل ان تتورط صحيفة القدس بنشرها ان الخبر لم يكن صحيحا وربما حدث بسبب ظروفه الصحية القاسية . فكان التكذيب مصدر سعادة لي لانني كنت فعلا اشعر بالم الفقدان لانسان ربطت بيني وبينه علاقة ود، كانت برغم كل ما خامرها من قلق وتوتر ، مصدر اعزاز وفخر بالنسبة لي.

بمناسبة الحديث عن قصيدة الرثاء التي كتبها الشاعر نزار قباني في طه حسين تذكرت حديثا جرى بيني وبين الشاعر الكبير محمد الفيتوري شفاه الله، فقد كنت في زيارة له في مكتبه في القاهرة، وقال لي انه مدعو للمشاركة في احتقالية تقام في القاهرة بعد بضعة ايام لاحياء ذكرى امير الشعراء احمد شوقي، وقال انه انتهى من كتابة قصيدة يريد ان يقراها في هذه الاحتفالية ، ثم باشر يقرا القصيدة حتى انتهى منها، وكانت القصيدة قد انشغلت بهموم الحاضر السياسة عن شوقي وشعره فهو يذكره في شطرة اولى ثم يباشر في بثه الشكوي مما يراه من بؤس هذا الزمن وبؤس الاحوال التي يعيشها العرب ، فاجبته متاسفا بانه وقع تحت هيمنة الامر العارض والطاريء والمتحول، من الشان العربي الراهن،بينما امامه فرصة ان يتعامل مع قضايا الفكر والابداع والخلق الفني فهو هنا لا يخاطب زعيما سياسيا كما فعل في مرثيته لعبد الناصر ، وانما يخاطب اميرا من امراء الابداع والجمال وسادة الكلمة الشاعرة، فلتكن القصيدة عن هذه النار المقدسة التي احرقت اصابعه وعن هذه الروح المتوثبة التي جعلته يتبوا سدة الامارة عن جدارة ، فقد مر شعر شوقي بمراحل حاسمة في حياته تركت اثرا عظيما في صياغته ومضمونه بدا شاعر بلاط وانتهى شاعر امة هي الامة العربية التي اعار صوته ليكون صوت حضارتها والامها واشواقها وانتقل من تعبير الصوت الواحد الى البوليوفونية الصوتيه عندما باشر كتابة المسرح الشعري بما فيه من اصوات متعددة متعارضة ومتناقضة ، وانتبه الى القصيدة الدرامية والقصيدة التي تحمل قصة والقصيدة التي تخاطب النشأ الجديد فانت امامك حديقة ابداع مزهرة ، عامرة بشتى انواع الورود واسراب الطير والجداول والينابيع، فلماذا تتركها وتركض الى صحراء الراهن العربي وسرابه، وذكرته بما كنت اذكره من قصائد احياء الذكري وكنت اذكر منها احدى الدرر التي تتقن مخاطبة شاعر عملاق من شعراء العرب هو ابو العلاء المعري، وهي القصيدة التي القاها الجواهري في الاحتفال به يقول مطلعها

قف بالمعرة وامسح خدها التربا واستوح من طوق الدنيا بما وهبا

وفعلا اجاد الجواهري محاورة المعري في ابداعه وفلسفته وعوالمه التي استوحاها من محبسه ، وشوقي نفسه كان موضوع قصيدة جميلة للاخطل الصغير هي تلك التي يقول في مستهلها

قف في ربى الخلد واهتف باسم شاعره

فسدرة المنتهى أدنى منابره

وامسح جبينك بالركن الذي

انبلجت أشعة الوحي شعراً من منائره

واشرت الى قصيدة نزار قباني في رثاء طه حسين باعتبارها نموذجا لمخاطبة عميد من عمداء الادب وسيد من اسياد القلم والكلمة المبدعة

وانهيت بانه ينظر الى شوقي نفسه ولناخذ اقرب قصائده الى نفوس ابناء ليبيا وهي مرثية عمر المختار وكيف اختار مناخاتها واجواءها ومفرداتها جميعا من اجواء ومناخات ومفردات عمر المختار وعوالمه وهذا ما طلبت منه ان يفعله ، ولا ادري ان كان قد استاء من ملاحظاتي ، الا انه لم يظهر غضبا ، وانما وعد باعادة النظر في القصيدة ان كان يستطيع ان يعيد صياغتها على هدى مما قلته له ، ولا ادري ان كان قد فعل ، ولكنني لا اعتقد لانه اراد اداء واجب وتلبية دعوة الى احتفالية تعهد بحضورها اما قصيدة نزار التي اوردتها في الادراج السابق فاراها اجادت فعلا ان تتحاور مع عميد الادب العربي بما يليق بالادب وعميده، وفي الادب الليبي اذكر قصيدة رثاء جميلة كتبها شاعرنا الحداثي الكبير على صدقي عبد القادر عند رحيل كاتب شاب في الستينات اسمه عبد السلام دنف المسلاتي فليتني اجدها لادرجها في هذه الصفحة كمثال على قوة القصيدة التي تستحضر عالم الكاتب الراحل.

على صدقي عبد القادر

هناك اغنية من الاغاني التي تعزفها فرق الجاز تقول

"ساعيش الى الابد، فانا لا اعترف بالموت"

واذا اردت ان اختار شعارا عاش به وعاش له وعاش يردده انسان في الدنيا اعرفه عن قرب وحب، هو الشاعر الليبي على صدقي عبد القادر، الذي كان يقول بهذا القول وكانه يتحدث عن قناعة وايمان، بل كتب قصائد تحمل هذا المعني مثل هذا المقطع من قصيدة يؤكد فيها عدم اعترافه بالموت

فلينتظر الموت وراء الباب

ماذا لو ظل ملايين الاعوام

خارج بابي

يتثاءب

لينفض عن عينيه غبار الدهر

ويقلم أظافره

يتلهى هناك

بمطاردة الذباب

الشاعرصاحب هذا الموقف كان ولاكثر من ستين عاما جزءا من المشهد الثقافي والسياسي والادبي في ليبيا ، فقد قرات له قطعة ادبية نشرها في صحيفة ليبيا المصورة عام 1937، وظل ينشر الشعر والخواطر النثرية حتى وفاته في في شهر سبتمبر 2008 ، ورغم ان مصادر كثيرة تذكر انه من مواليد 1924الا ان شواهد كثيرة تقول انه من مواليد اواخر العقد الثاني من القرن العشرين اي انه توفي وهو في التسعين او على مشارف التسعين من عمره، وسانقل هنا بعض ما ذكته من حقائق عن حياته كشاعر في هذه الكلمة القصيرة التي كتبتها في رثائه عشية وفاته وفيها اقول

عن عمر يناهز التسعين عاما رحل عن عالمنا شاعر ليبيا الكبير على صدقي عبد القادر ، وهو شاعر حافظ على شبابه الدائم ، فلم يسمح للشيخوخة ان تنال منه ، او من اشعاره الخضراء التي تعبق بعطر الحب وعبيره ، الى حد تسميته في الادبيات الليبية بشاعر الشباب الدائم ، وشاعر الحب ، وشاعر بلد الطيوب بسبب قصيدة تغنى بها المطربون تمجد ليبيا وتشيد بتاريخها عنوانها بلد الطيوب ، كما اشتهر بانه من الشعراء الذين اعلنوا في شعرهم ونثرهم تحديهم للموت وعدم الاعتراف به قائلا يخاطب الموت بانه ليس لديه اي حقوق عليه وعندما ياتي فانه لن ينال منه ، ولن يستطيع ان يهزمه بل انه هو الذي سوف يهزم الموت ،

فلينتظر الموت وراء الباب

ماذا لو ظل ملايين الاعوام

خارج بابي

يتثاءب

لينفض عن عينيه غبار الدهر

ويقلم أظافره

يتلهى هناك

بمطاردة الذباب

ولاشك ان الموت ينهزم امام الابداع وينهزم امام الكلمة الشاعرة التي حفرت قوس قزح في الافق سيظل مشتعلا مضيئا على مدى الزمن ، وكان برنامج الشاعر الذي يقدم به الشعر لجمهور التلفاز يحمل عنوان حفنة من قوس قزح ، كمثال على الجهد الذي قام به الشاعر في تعميق التواصل بين الادب والجمهور العريض الذي يشاهد التليفزيون ، والحقيقة فان على صدقي عبد القادر عاش حياته العريضة الطويلة في عناق دائم مع تجربة شعبه ملتحما بها ومعبرا عنها منذ صباه البعيد ، فقد اقترب كثيرا من ادباء الجيل الماضي مثل صاحب جريدة الرقيب العتيد الشيخ محمود نديم بن موسى الذي كان استاذه وشيخه منذ عشرينيات القرن الماضي ، وشارك في الكتابة لمجلة تصدر في طرابلس عنوانها ليبيا المصورة منذ عام

1936 ثم جاءت مع سنوات نضجه مرحلة الاربعينيات وخروج المستعمر الايطالي ودخول البلاد تحت الحماية البريطانية فكان من اول الشباب المثقفين الذين ساهموا في نشر الوعي السياسي وتعبئة الجماهير لخوض معركة الاستقلال وكان ناشطا من نشطاء حزب المؤتمر تحت قيادة الزعيم التاريخي بشير السعداوي ، وكان في تلك المرحلة يسخر شعره لقضية وطنه وقد ضم الشاعر كثيرا من هذا الشعر في دواوينه الاولى مثل احلام وثورة ، كما كان من اوائل من قاد مرحلة التجديد في الشعر ، وكتب شعرا متحررا من القافية ، مكتفيا بالتفعيلة منذ الاربعينيات وهي المرحلة التي ظهر فيها شعر نازك الملائكة وبدر شاكر السياب وغيرهما من شعراء الحداثة . كما نشر كثيرا من القصائد التي تقترب من المدارس الدادية والسريالية رغم عمق ايمانه بدور الادب والشعر في ايقاظ الحس الوطني وتعميق الانتماء والالتزام وتقوية الشعور بادراك الحياة والاستمتاع بها ، ولم يتخلف في يوم من الايام عن الوقوف مع القضايا الشريفة والالتزام بكل القضايا الوطنية العربية كما فعل مع قضية الجزائر التي كان منخرطا في كل التنظيمات العاملة على تاييدها ومؤازرتها ، واستمرت هذه الحالة معه فيما يخص بالقضية الفلسطينية وفتح مكتب المحاماة الذي يديره لكل قضايا سجناء الرأي وسخره لمساعدة كل من جاءه مظلوما يشكو من انتهاك لحقوقه كالانسان ، ولذلك فانه لم يكن غريبا ان يدفن في المقبرة التي خصصها الوطن للشهداء وزعماء الجهاد ، فقد ابلى في حياته من اجل الوطن والناس بمثلى ما ابلى اؤلئك الابطال الذي ووري التراب الى جوارهم . رحم الله الشاعر علي صدقي عبد القادر الذي استحق بجداره ذلك اللقب الذي اعطاه له ادباء البلاد ، وهو الاسم الحركي للوردة.

قصيدة الرثاء عند على صدقي عبد القادر

اشرت الى وجود قصيدة للشاعر الليبي الحداثي الراحل استاذنا على صدقي عبد القادر رحمه الله وهي قصة رثائه للصحفي المجيد المرحوم عبد السلام دنف المسلاتي، والحقيقة فانني اعرف ان اشعار شاعرنا الليبي الكبير تتفاوت مستوياتها ، وبعضها تصل الى حد السريالية التي يصعب فهمها واعطاء راي حولها ، ولكن هذه القصيدة ظهرت فيها مهاراته الشعرية وسيطرته على التفعيلة وقوة وخصوبة خياله ، فصديقنا الصحفي عبد السلام ، مات فيما اذكر عام 1964، في حادث غرق في بحر قرقارش حيث كان يقوم بنزهة مع صديقه المصور الراحل عبد الله الحاراتي وريما اصدقاء غيره، ووجده وقد رمته موجة على صخرة ، فكانت الصدمة في مؤخرة الراس، اوانه بعد ان مات غرقا لفظته الموجة الى ذلك الجزء الصخري من الشاطيء، وهناك من اثار شبهة شك في طريقة موته، الا ان التحقيق فيما يبدو وجد ان الفاعل هو موج البحر ، المهم ان الاستاذ عبد القادر كان محبا وصديقا للصحفي الراحل فكتب هذه القصيدة، وكنت احرر صفحة ادبية في صحيقة الرائد ، وجاء لي بها، بعد ان شارك بها في حفل تابين

كنت انا ايضا احدى المشاركين فيه اقمناه في وداع الصحفي الصديق ، فنشرتها في صفحتي بعد ان اعطيت لنفسي رخصة تغيير العنوان، فقد كان عنوان القصيدة كان عبد السلام ، ولا ادري لماذا ابدلت هذا العنوان الموحي بعنوان بائس مثير هو رحلة الموت، ومتاخر جدا ادركت سوء العنوان الذي اخترته للقصيدة وقوة عنوان الشاعر ، ولم اسمع منه كلمة احتجاج او اعتراض ، الا انني في سنوات بعيدة بعد ذلك ، اعدت على مسامعه القصيدة لانني فعلا حفظتها عن ظهر قلب واعتذرت له على تغيير العنوان وعندما وضعها في ديوانه كان قد احتفظ بالعنوان القديم ولكن اختصره الى الجزء الاول منه ، وهو "كان"، وهذه هي قصيدة الرثاء التي اعلنت القطيعة مع ذلك التراث التقليدي من قصائد الرثاء التي تتغنى بامجاد الراحل وخصاله وشخصيته ، وهو هنا يستخدم لغة مشهدية ويتحدث شعره بلغة الصورة ولا يعنيه ماذا كان الراحل وكيف كانت خصاله ولكنه في اشارات موحية يعطي فكرة عن جمال شخصيته وكيف كانت حكاياه تردد في افواه صحبه لانه كان روح تلك الجلسات التي يلتقون فيها وكيف تفتح ابواب المدينة له، لكي تخضر الشبابيك التي خضرت لانه كان رمزا للخصب والنماء والمحبة، ولننظر البراعة التي عبر بها عن موته غريقا في البحر عندما اشار الى الهة البحر التي تسبح عريانة،والحقيقة فانني اجد كل شرح اقوله سوف لن يضيف شيئا الى عذوبتها ورقتها وجمال ايحاءاتها وايقاعاتها وصورها وعباراتها الشعرية فاترك الاصدقاء مع القصيدة كما قالها الشاعر ، رحمة الله عليه وعلى الراحل الذي قيلت فيه القصيدة

كـــان

على قبرك
زرعت ثلاث حبات، على قبرك
من القمح
وحبة دمعة زرقاء، مصلوبة
ليلقى الطير إما جاء جوعانا
وعطشاناً
على قبرك، جنات، وشطئانا
ليسمعك الحكايات، التي في فم أحبابك
تردد في ليالي الصيف منقوصة
لأنك لم تتممها، فظلت بعد منقوصة
وراحت أعين حمراء، دوماً، ترتجي عودك
وترقب في ليالي الصيف، همساً من حكاياتك
وخيطاً من كتاباتك
ويمضي الصيف، بل والعمر، ليلة ليلة
ولن ترجع
وتفتح كل أبواب المدينة، من أجلك
طوال الليل، من أجلك
عساك تعود، في نسمة
عساك تعود في نجمة
مع الصيف الذي يأتي

مع البدر الذي يولد
فتخضر الشبابيك، التي يبست
ولكن أنت، لن ترجع
لأن آلهة البحر التي تسبح، عريانة
ربطت بشعرها قدرك
رأيت بعينيها، دربك
صببت بقرطها، الماضي الذي ولى
وعبر جزائر المرجان، خلف شواطئ الدنيا
وجدت خلالها، عمرك
تركت هناك مجدافك
طويت قلاعك المطلول، حيث نهاية الدنيا
على طرف الحياة، الأبعد، القاصي
وعند نهاية الدنيا
هنالك تنتهي الرحلة
هنالك وأجد نفسك
أيا عبد السلام هنالك تنتهي الرحلة

عصابات الجهل

ونماذج من كوارث جهلها

اعتمد النظام العسكري الانقلابي، في حمايته ، بعد ان تبخرت الشعبية التي فاز بها في بداية مجيئه، على عصابات يسميها في فترة الاتحاد الاشتراكي ، ثم استقر على تسميتها اللجان الثورية ، عدا اجهزته المهنية، التي لم تكن اللجان الا ذراعا ثالثة وربما رابعة وربما خامسة لهذه الاستخبارات، ويستخدم اعضاء هذه اللجان ارخص الوسائل واحقرها للتقرب واثبات الوجود والالتحاق بجمعية المنتفعين داخل هذا الحراك، وخارجه، ولا خارج له الا الاجهزة الامنية الاخرى، وكان اكثر الناس سقوطا هو الذي يرتفع في المرات اكثر من غيره ، وكما تقول اغنية مصرية قديمة ، تعود الى بداية القرن العشرين ، "علشان ما نعلى ونعلى ونعلى ، لازم نطاطي نطاطي نطاطي" الا انا المطأطاة هنا بالتاكيد اكثر فداحة منها في حكومات مطلع القرن الماضي، لانهم هنا قد يكتفون بالنفاق اللفظي، ولكنها هنا اشياء اخرى اكثر سقوطا يدخل فيها كتابة التقارير عن بقية الناس ، بما في ذلك الاهل والاصدقاء، ووسيلة اخرى اكثر رخصا عمت بين عصابات اهل الولاء، هي التوسل للحصول على رضا الطاغيى بالتغرير بالنساء في الداخل والخارج، وجلبهن الى مخدعه، واكثر وسائل التقرب والعلو في المضمار الوظيفي ، بشاعة ، كانت المشاركة في تصفية المعارضين للحاكم الليبي، ومطاردتهم، ولم يكن هذا الساقط، يعامل باعتباره ساقطا يمنح ما يريده من مال وسلطات داخل الجهاز الامني ، ولكنه يتم اختياره في الغالب ، ليحتل موقعا قياديا في الدولة ، والشواهد كثيرة على ذلك، ويكفي مثلا على ذلك، وصول رئيس مخابراته المسمى هيئة امن الجماهيرية الى منصبه، جاء مباشرة بعد تكليفة بما يسمى الزحف على سفارة ليبيا في لندن، وتم بعد هذا الزحف

سقوط عدد من المعارضين شهداء برصاص الحكومة الليبية، ولما لاعضاء اللجنة الزاحفة من دور في هذا القتل للمعارضين، قررت الحكومة البريطانية طرد رئيس اللجنة الزاحفة واعضائها من بريطانيا على خلفية ضلوعهم في ارتكاب هذه الاغتيالات، وعاد هذا الرجل ليستلم اكبر اجهزة المخابرات ، ونائبه رجع ليكون مديرا لاكبر جهاز اعلامي يتعامل مع الخارج هو جهاز الاعلام الخارجي، ومعروف ان رئيس هذه اللجنة لم يكن الا السيد موسى كوسا ونائبه اظن اسمه خليفة العزابي، ويضع حرف دال امام اسمه كذبا وزروا لانه طرد من بريطانيا قبل ان يكمل الدكتوراه الذي ظل يسحب من اجلها مرتبا شهريا من الدولة على مدى يقرب من عشرين عاما، وبجوار الجهاز الاكبر للاستخبارات منح هيئة اسمها المثابة العالمية تتمتع بموارد غير محدودة باسم مساعدة اهل النضال ومعنى ذلك مساعدة المنظمات الارهابية في العالم، وطبعا تمويها وغطاء قد يصل بعض فتاتها الى جهة ذات صلة بالنضال.

واسوق هذه المقدمة لان هذا الاسلوب في تعيين المسئولين ، جلب المهالك للنظام، بمعنى انها خطاء تراكمت واصبحت سببا ان اسباب سقوطه المريع تحت ضربات الثوار، وساروي حكايتين صغيرتين ، من حكايات كثيرة ، للخسارة التي مني بها النظام بسبب الاختيار الاجرامي للمسئولين لا بحسب الكفاءة ولكن بحسب الخدمات القذرة التي يقدمونها ، وهذه قصة لها صلة بالاعلام الخارجي الذي تولاه احد اعضاء اللجنة القاتلة في لندن، ولا ادري ان كانت في عهد هذا القاتل او في عهد صنو له في السقوط والجريمة، وصاحبها هو الصحفي الاشهر في امريكا والاكبر مكانة ، وهو بوب وودورد، صاحب السبق الصحفي الاكبر في تاريخ الصحافة في العالم ، تفجير فضحة ووتر جيت ، انجزه مع زميل له في الواشنطون بوست، ادي الى سقوط احد اقوى رؤساء امريكا ريتشارد نيكسون.

وانا هنا اعتمد على ما قاله السيد وودورد نفسه في كتاب من كتبه اظنه الحجاب، اوضح فيه انه لم يكن مطمئنا الى السياسة التي يتبعها الرئيس رونالد ريجان، ورئيس مخابراته وليام كيسي، ازاء ليبيا، وراى انهما يستخدمان ليبيا ، شبكة دخان، لمداراة مشاكل واخطاء في الادارة الامريكية، ومشجبا يعلقان عليه بعض اوجه التقصير في ادارة الشأن الامريكي، ومبالغة في تكبير الدور التخريبي لهذه الدولة العربية الصغيرة التي تقوم به على مستوى العالم، وتعززت شكوكه، عندما استقال السكرتير الصحفي للرئيس على خلفية انهم يقدمون له معلومات اكتشف زيفها عن ليبيا، وهنا قرر السيد وودورد، بناء على كل ذلك ان يقوم برحلة تقصي حقائق الى ليبيا لكشف هذه الادعاءات التي يدعيها البيت الابيض ووكالة الاستخبارات، وكانت الصحف الامريكية الكبيرة تتلقى كغيرها من مؤسسات صحفية واعلامية ، دعوات لحضور مناسبات تقام في ليبيا، فاستغل وصول مثل هذه الدعوة الى الواشنطون بوست، وسافر الى طرابلس ، ولعله حضر في اليوم الاول لوصوله، حفلا شعبيا بمناسبة ما، لا اهمية خبرية او سياسية له خارج الاطار المحلي، واعطوه غرفة في فندق باب البحر، وظل هناك ، دون برنامج، ودون تلبية لاي طلب يقدمه لزيارة هذا المكان او غيره او لاجراء مقابلة لهذا المسئول او غيره، اذ كان واضحا ان لا وجود لاحد من العناصر العاملة في الاجهزة القيادية يعرف بوب وودورد، واهمية ان يكون في ليبيا ، في رحلة لتقصي الحقائق، عارضها رونالد ريجان وعارضها وليام كيسي ولكنه اصر نكاية بهما ورغبة في فضحهما ، ولم تكن عصابات الجهل في الاعلام، وعصابات الجهل في الدولة الليبية، وعصابات الجهل في مكتب الرئيس نفسه ، تعرفه او تعرف او وجوده في هذه المرحلة في ليبيا وعودته بانطباع طيب عنها يمكن ان يشكل انقلابا لصالح ليبيا في السياسة الامريكية ولدى الراي العام الامريكي. وظل سجين الفندق، لا يرى احدا، الا شابا منتدبا لمرافقة امثاله من الصحفيين، ربما ليكون عينا عليهم، الا ان المفارقة هذه المرة، كما ذكر وودورد في كتابه، انه كان شابا ناقما على القذافي وكارها له ويسميه المجنون، مما اثار

استغراب الصحفي الامريكي، وعجبه من اختيار مثل هذا الشخص لمرافقة الصحفيين، وذهب في ظنه ان وجود الشاب ليس صدفة ، وانما محاولة من رئيس وكالة المخابرات المركزية وليام كيسي لافساد مهمته، وانه اوعز لبعض عناصر المعارضة الليبية الذين يعرفهم، بدس هذا الولد عليه. وعبر متابعته من داخل الفندق لاخبار البلاد، عرف ان هناك مساء ذلك اليوم عملية شنق لطالب معارض في الجامعة ، ولكي يستفيد من وقته، تسلل خارجا من الفندق ، واخذ سيارة اجرة ، اقلته الى الجامعة في موعد الحفلة الوحشية لشنق ذلك الشاب، واستطاع ان يلتقط بعض المعلومات عما حدث ، وعاد الى الفندق، يهاتف صحيفته، الواشنطون بوست، واملاء خبر صغير يقول بان مجموعة صبية عقدوا محكمة ، لصبي مثلهم، من الطلاب، وحكموا عليه بالاعدام شنقا، وتم تنفيذ الحكم وسط هياج وهرج ومرج في ساحة الجامعة. وعندما نشر الخبر في اليوم التالي باعتباره واردا من مندوب للصحيفة في طرابلس، اغضبت صياغته بهذا الشكل السلطات الليبية ، التي امرت بترحيل هذا المندوب وطرده من ليبيا على الفور، وجاءت سيارة بوكس تأخذ بوب وودورد الى المطار لترحيله عائدا الى بلاده.

واردت على سبيل التشفي والنكاية ، اثناء جلسة في خيمة العقيد، ان افتح الموضوع لاستخدامه وسيلة لتعزير اجهزته، وكان في الجوار بعض اعوانه، وما ان بادرت بالكلام، لالفت نظر القذافي الذي كان في تلك اللحظة يتلقى فنجان الشاي الاخضر من عامل من عماله، حتى وجدت اقدام هؤلاء المعاونين، تضرب ساقي، وهمس لى احدهم وكان بمحاذاتي، انهم لا يريدون فتح الموضوع من جديد، لان القذافي فيما يبدو قد عرف متاخرا جدا بما حصل ، واشتعل غضبا وثورة في اوجه قياداته السياسية والاعلامية ، ولا يريدون فتح الباب من جديد، فغيرت حديثي مجاملة لهم الى وجهة اخرى.

وتكرر نفس الموقف ونفس الاهمال، واضاعة الفرصة على النظام للاستفادة من زيارة الى طرابلس قامت بها شخصية عالمية ذات مكانة علمية وفكرية في الغرب وتملك تعاطفا مع ليبيا، لان عصابة الجهل في الحراك القيادي الليبي، لم يكن ممكنا ان تعرف شيئا عن مثل هذا الرجل، الذي يعرفه العالم بانه اكبر مفكر خرج من القارة الافريقية بعد المرحلة الكولونيالية، هو البروفسور على مزروعي، الذي حقق مرتبة عالية في الغرب بما انجزه من كتب، نالت شهرة واسعة في حلقات المفكرين والمثقفين في مشارق الارض ومغاربها، كما كانت له مساهمة في برامج حول القارة الافريقية تذيعها له كبرى اذاعات العالم مثل البي بي سي، والاى بي سي، وقد تأثر ببعض ما يقوله قادة افارقة من مجاملات لليبيا ، فاتخذ موقفا مؤيدا لها ، الى حد انه في احدى برامجه التي اعدها لاحدى كبرى القنوات الامريكية، ورد من القناة اعتراض على مديحه لليبيا ورئيسها، لانهم رأوا ان ماقاله السيد مزروعي، يتناقض مع شهرة ليبيا في دعم الارهاب، الا انه اصر على موقفه، مقتنعا ان تلك مجرد دعايات غربية ، وبسبب مكانته العالية، ارغم القناة على اذاعة تلك المادة.

انتهز هو الآخر فرصة دعوة وصلت الى الجامعة التي يعمل بها ، للمشاركة في ندوة ينظمها مركز في طرابلس للبحوث الافريقية ، وجاء هذا المفكر العملاق في صمت وذهب في صمت ، دون ان يذاع عنه مجرد خبر، او يحتفي به الحراك السياسي او يستقبله رئيس الدولة الذي يستقبل النصابين والصعاليك من اصحاب التملق الكاذب، ليقول له كلمة شكر على مواقفه ، وشخصيا لم اسمع بوجوده الا صدفة ، وذهبت راكضا ابحث عنه، واوصلني ركضي الى مركز البحوث الذي دعاه، لاعرف منهم الفندق الذي يقيم به ضيوفهم، فقيل لي انهم موزعون بين اكثر من فندق، فسالت عن مكان اقامة البروفسور على مزروعي، فلم اجد احدا يعرفه او يتذكر اسمه ، وقالو ان قائمة الضيوف ومقار اقامتهم عند السكرتيرة ، التي لم تكن موجودة في مكتبها وانتظرت بعض الوقت فلم ترجع.

عدت اواصل ركضي بين بعض الفنادق، ابحث عنه، لاقوم بواجب الترحيب به والمجاملة ، وربما الدعوة لمأدبة تكريمية اتفقت مع رابطة الادباء على اقامتها له، اذا سمح له الوقت، ولم اصل الى الفندق الذي يقيم فيه السيد مزروعي الا بعد ان غادر ليبيا. ولاعطاء فكرة عن هذا المفكر، انقل هنا كلمة رثاء قصيرة،

نشرتها في صحيفة القاهرة اثر وصول الاخبار بانه انتقل الى رحمة الله، واعتذر اذا تكرر هنا بعض ما اشرت اليه من معلومات عنه :

كانت مجلة انكاونتر البريطانية في اوج مجدها ، رغم الهزة التي تعرضت لها ، بسبب انها تتلقى تمويلا من منظمة امريكية تعنى بحرية الثقافة، تبث ارتباطها بالمخابرات الامريكية، مما ادى الى استقالة رئيس تحريرها الادبي الشاعر ستيفن سبندر، وظلت رغم هذا التسريب، المجلة الثقافية الفكرية الاولى حتى توقفت في مطلع التسعينيات، لان مثل هذا التمويل لم يكن يعني مشكلة كبيرة في بلد توأم لامريكا، وليس كما عناه الامر في العالم العربي وما حصل من تاثير مثل هذا التسريب على مجلة عربية تلقت دعما مماثلا هي مجلة حوار، التي ماتت بالسكتة القلبية فور ثبوت هذا التمويل المشبوه، ولم يكن الشاعر ستيفن اسبندر الذي استقال من اجل هذا التمويل، ليفعل ذلك، الا لان له ارتباطاته المعروفة باليسار البريطاني وبالحزب الشيوعي تحديدا.

ولذلك فقد كان شيئا مثيرا ان اتصفح المجلة (حدث ذلك في اواخر الستينيات) لاجد اسما عربيا هو علي امين المزروعي يكتب مقالا يتصدر الصفحات الاولى من هذه المجلة التي كان يحتكر صفحاتها اكبر واشهر الاسماء في عالم الفكر والثقافة.

وقرأت المقال فاذا به يستحوذ على اعجابي ان لم يكن انبهاري ، بجمال الاسلوب، وبراعة العرض، وقوة الموضوع، وكان عنوانه على ما اذكر، الرجل العريان يدخل المدينة، يعتمد فيه الكاتب على حادثة حقيقية، حصلت في مدينة نيروبي، العاصمة الكينية، وهي مدينة عصرية، كانت رائدة في حداثة المعمار في ذلك الوقت، تتفوق في جمال معمارها، خاصة في مركز المدينة، وبهاء تصميم فنادقها، وميادينها ومتاجرها الحديثة على مدن في اوروبا وامريكا، وليس بعيدا عنها ، وفي اجزاء من الغابات المنتشرة على امتداد مناطق السافانا الكينية، ثمة مستوطنات، تسكنها جماعات بدائية ، يعيش افرادها عراة على ضفاف الانهار والبحيرات، وقد خطر لواحد من اهل هذه المستوطنات، ان يزور قريبا له في العاصمة، فحمل ورقة تحتوي على العنوان، ودخل المدينة عاريا، حتى وصل الى قلبها، يسأل الناس عن عنوان البيت الذي يريد الوصول اليه، واثار وجوده حفيظة المجتمع المديني، واسرع بعض الناس يهاتف شرطة النجدة عن الرجل المجنون الذي يتنزه في شوارع العاصمة عاريا، والحقيقة فان الرجل لم يكن مجنونا، ولم يكن وهو يمشي عاريا يمارس شيئا عجيبا بالنسبة له، لان هذا ما تعود على فعله منذ يوم مولده.

واتخذ الكاتب علي مزروعي من هذا الحدث ، منطلقا لمناقشة الصراع بين الحداثة، وبين تقاليد المجتمع الافريقي القديم، بين التقدم والمعاصرة، وبين التخلف واشكال الحياة البدائية في حياة الرجل الافريقي.

وعرفت ان هذا الكاتب هو مفكر افريقي من كينيا ، يعيش في الغرب، وانه من اصلي عربي من مدينة موباسا الساحلية التي كانت لعقود كثيرة تحت حكم اسرة ملكية عمانية هي اسرة البوسعيدي، وبدا اسم ا هذا العالم والاستاذ في الاجتماع والعلوم السياسية ، يلمع كواحد من اعظم الاصوات التي قدمتها افريقيا الى العالم، واعتباره اعظم مفكري افريقيا فيما بعد المرحلة الكولونيالية حيث

كانت مواضيعة الاساسية تتصل بالاسلام والثقافة الافريقية ، وكان مناهضا للارث الاستعماري ، مناديا بوحدة افريقيا وداعيا الى العمل من اجل مصيرها المشترك والاستفادة من ثرواتها ومنع الراسمالية الغربية المتوحشة من استغلال هذه الثروات، واراد الا يكتفي بالكتابة وانما فعلا عاد بشخصه الى افريقيا والى اهم جامعاتها وهي جامعة ماكريري في كامبالا، التي عمل فيها رئيسا لقسم العلوم السياسية ، ثم الاجتماعية ، لعدة سنوات ، وعندما جاء الى السلطة الديكتاتور عيدي امين دادا عن طريق انقلاب عسكري ، حاول ان يواصل العمل، رغم ما حصل من تضييق على الحرية الاكاديمية، بامل ان يقنع الديكتاتور الجديد، بمصلحة القارة، ومصلحة بلاده، في اتاحة الفرصة للافكار، والمعارف الجديدة، بالنمو والانتشار، ولكنه لم يستطع، فاثر العودة الى جامعات الغرب التى وصل فيها الى مكان مرموق ، بل واقتحم قلاع الاعلام الكبيرة، ليقدم وجهة النظر الافريقية والاسلامية، بروية عصرية انسانية، قادرة على الوصول الى عقول وقلوب الطبقات المستنيرة في اوروبا وامريكا.

حاولت الالتقاء به عندما زار ليبيا بدعوة من المعهد الدولي الافريقي، ولكن وقت الزيارة كان ضيقا، فضاعت فرصة ان اتعرف عليه والتقي به لقاء شخصيا، بعد ان التقيت به من خلال الفكر والكتب.

وقد ودع المفكر الافريقي الكبير على مزروعي، هذا العالم، بعد ان ترك بصمة لا تمحي في تاريخ الفكر الانساني، واسهم برآه وافكاره، في تعميق الوعي بمشاكل القارة الافريقية ، دون ان يتخلف عن وضع الاسس لافاق بناء القارة وتقدمها.

علاقة عمر مع كتابة المقالة

باعتباري كاتبا صنع لنفسه اسما في مجال الرواية ، والقصة القصيرة ، والمسرحية ، فان كتابة المقالات تبدو بالنسبة لكاتب مثلي عبئا يجب ان يتحرر منه ، ليتفرغ لكتابة الاعمال الابداعية، وهناك دعوة متكررة لي ولامثالي من مبدعين ينشغلون بالمقالة بضرورة تركها باعتبار ان وقت كتابتها يمثل وقتا مخصوما من زمن الابداع ، لكي يصبح كل حرف نكتبه اضافة لمشروعنا الابداعى لا خصما منه لحساب مقالة تستهلك نفسها مع وقت كتابتها ونشرها ، وهي دعوة سبق ان توجهت بها اصوات كثيرة لادباء من جيل سابق لجيلي ، عند انشغالهم بكتابة المقالة عن كتابة القصة او الرواية ، ولعل اكثر من واجه مثل هذه الدعوة ، بكثير من الالحاح والقوة هو المبدع الكبير الراحل الاستاذ يوسف ادرس ، فقد كان رحمه الله ينصرف انصرافا كاملا لعدة سنوات لكتابة المقالة الاسبوعية التي كان ينشرها في الاهرام ، واحيانا يضيف الى مقالة

الاهرام مقالة اخرى ينشرها كل اسبوع في الشرق الاوسط ، وهو المحسوب لدى النقاد ، ولدى الراي العام الادبي اميرا من امراء القصة القصيرة ، وكبار مبدعيها على مدى التاريخ ، فحز في انفسهم ان يترك ابداعه في هذا المجال الذي ستحتفظ به ذاكرة الادب لاجيال واجيال ، ويستهلك وقته وموهبته في مقالة عابرة تتعاطى مع اشياء عارضة ، لا تصمد للزمن ولا تحفظها الذاكرة الادبية ، ولا تحسب في سجل الابداع لكاتبها ، وقد لا استطيع اليوم ان اتكلم عن حالة استاذنا يوسف ادريس عندما انصرف عن كتابة الادب الى كتابة المقالة الصحفية ، او اشرح وجهة نظرة التي تولى بنفسه شرح جزء منها ، لكنني اقول عن نفسي ان كتابة المقالة لم تعد بالنسبة لي اختيارا ، وانما شرط من شروط وجودي في الحياة ، فقد نشأت ونموت وتربيت في عالم الصحافة حيث كتابة المقالة سبقت كتابتي لاي لون ادبي او كتابة ابداعية ، وكانت بالنسبة لي هواية ثم مهنة ووسيلة لالتقاط الرزق، تابعت كتابتها بشكل متواتر ومستمر على مدى خمسين عاما ، حتى اصبحت عادة امارسها كما اتناول افطارى، او احلق ذقني ، ورغم انني لم اعد مطالبا بحكم المهنة او مقتضيات العيش ان اكتبها بعد ان وصلت مشارف التقاعد ، الا انني لا استطيع ان اتركها ، ولا يصدق معي قول القائلين انه بامكاني ان احيل الوقت الذي اقضيه في كتابتها الى وقت اقضيه في كتابة الابداع الادبي، لانه لا مجال لان يحل أي لون من الكتابة محل لون اخرى ، والافكار عندما تتخلق في ذهني فهي تتخلق منذ البداية على الشكل الذي تريد الخروج فيه ، انها تاتي على شكل قصة ، او على شكل مسرحية ، او تاتي فكرة تنفع استهلالا لرواية ، وتاتي بشكل اكثر تدفقا وتواترا على شكل مقالات ، باعتبار ان ملكات الكتابة عندي قد تالفت خلال عقود كثيرة مع هذا الشكل ، وصارت تتولى انتاجه واخراجه على هذا الشكل الذي لا يصلح معه تحويله الى أي شكل اخر خير المقالة ، وهكذا اصبحت اليات الكتابة لدي قريبة من شكل خطوط الانتاج في مصنع يتنوع انتاجه ، ويتخصص كل خط في لون من الانتاج ، فهذا خط لانتاج القصة واخر لانتاج المسرحية وثالث لانتاج الرواية ورابع يتخصص في انتاج المقالة وهو اكثر هذه الخطوط غزارة ، واوفرها في المادة الخام ، فمادة المقالة كما نعرف هي القضايا الساخنة العارضة والطارئة والعاجلة والمتجددة بتجدد الايام ، بل بتجدد الساعات والدقائق فكل لحظة تولد قضية تستحق المعالجة وتستجيب لها ملكات الكتابة عندي بسبب حالة الاشتباك مع المجتمع وقضاياه التي علمتني اياها الصحافة واعمدة الراي فاجد المقالة قد ظهرت ونضجت واوشكت على الخروج من اروقة المخ جاهزة بكامل عباراتها وتفاصيلها لا تحتاج الا لافراغها على الورق ، بحيث لا ينفع معها اية محاولات لان اتخلى عن كتابتها او استعاضتها بكتابة اخرى ولا امكانية للاستجابة اطلاقا للدعاوى التي تطالب بان اتركها لنوع اخر من الكتابة فهي تفرض نفسها على نفسي ولا سبيل للخلاص من هذا الحالة طالما هناك نفس يتردد وعقل قادر على العمل وانتاج الافكار .

اماكن وكتب ووجوه

بيوت

كنت قد وصلت الى مدينة طرابلس لاول مرة، قبل اسابيع من بداية العام الدراسي، حيث اجتزت اختبار القبول، والتحقت عندما حان الوقت بالدراسة في المعهد التجاري، والاقامة في القسم الداخلي، حيث اخذت سريري في عنبر كبير ، كان اسمه عنبر رقم 1، يضم ربما حوالي ثلاثين طالبا، ويخضع نظام النوم

والاستيقاظ ، الى مواعيد صارمة، ودقة في تطبيقه من قبل المشرفين، كما كانت هناك ساعات محددة لاطفاء النور ليلا، وللاستماع الى المذياع، او تبادل الاحاديث بين الزملاء في الاسرة المجاورة، ودام هذا الحلال ثلاثة اعوام دراسية من القسم الداخلي، يحدث فيها انقطاع كل عام هي اشهر العطلة الصيفية، وكانت مشكلة البحث عن سكن هي التي ستواجهني لحظة انتهاء الدراسة والفوز بالدبلوم،وكان رائجا في تلك الفترة اسلوب في السكن، هو الدكان، اي غرفة تشبه الدكان لا تحتوي اية منافع ، وغالبا ما يتم تاجيرها من قبل اكثر من ساكن، وكان اشهر مسلسل اذاعي عرفته الاذاعة ذلك الوقت ويحظى بشعبية كبيرة ، من تاليف اشهر كاتب كوميدي لهذا النوع من الاعمال الدرامية الساخرة، هو عبدو الطرابلسي، موضوعه مثل هذا المسكن وعنوانه " ثلاثة في دكان"، وحدث وانا ابحث عن سكن ان وجدت زميلي في فرقة الامل للتمثيل الكاتب بشير الهاشمي، يهم بمغادرة دكان كان يقوم بتأجيره، ويمتلك ميزة قد لا تتوفر لغيره من الدكاكين، وهو انه يقع بجوار مسجد، يتيح لساكن الدكان فرصة وجود دورة مياه وفرصة للاغتسال، فاسرعت بتأجيره، مستعينا على تحمل ايجاره بزميل من ابناء دفعتي، شاركني السكن، وتعاملنا مع الدكان كما نتعامل في حياة البادية مع الخيمة، عندما تقسم الخيمة بستار من قماش الى قسمين، ليكون لكل واحد منا خصوصيته، مع مساحة مشتركة في مقدمة المكان للموقد والطهي، اما الميزة الثانية للدكان، فان موقعه كان في قلب المدينة القديمة ، قريبا من حومة غريان، محاطا بكل مفردات التراث الشعبي لمدينة طرابلس وكل الرقائق الحضارية التي مثلت جزءا من تاريخها وتاريخ ليبيا، وليس بعيدا عن قلعتها التاريخية ومعالمها الاثرية واسواقها القديمة العريقة، حيث عبق التاريخ ، وحيث يشعر الانسان المقيم في هذا المكان انه صارا جزءا من نبض الحجر ومفردة من مفردات هذا الزخم الانساني والحضاري، ولم يكن صعبا اكتساب ثقة الجيران من اهل المنطقة، الى حد ان كانت الوجبات تاتي ساخنة من البيوت المجاورة، وكانت الدعوات، خاصة في مواسم الاعياد ومناسبات الفرح العائلي، تصل لي وزميلي في السكن، واجد وانا ادخل بيوت هؤلاء الاصدقاء، ان ضيق الدكان الذي اسكنه، لا يعكس روح المدينة القديمة ومساكنها، فالمسكن في طرابلس القديمة، يتميز بوجود براح ونور، لان ردهة وسط البيت تبقى مفتوحة لا سقف لها الا السماء، وتتوزع الغرف حول تلك الردهة في طابقين، ثم سطح فوق الطابقين ، يستخدم للمبيت في الصيف وقضاء الاماسي والليالي مستتعين بنسيم البحر، لان كل المدينة القديمة ، تقع في ارضع مرتفعة قريبا من الميناء، وكنت احب ان اتنقل في ايام الجمعة في الصلاة كل اسبوع في مسجد من مساجدها ، بسبب ما لهذه المساجد من تنوع في المعمار وجماليات الزخارف والتكوينات الفنية والمعمار، كما تتنوع اساليب الخطباء في الخطابة والمقاربة للقضايا الدينية والاجتماعية والسياسية، واقدم مساجد المدينة القديمة هو مسجد جامع الناقة، الذي يقال ان جزءا من جداره، يستند الى جدار مسجد قديم هوالاول في تاريخ ليبيا الذي بناه بعد ايام قليلة من الفتح الاسلامي للبلاد ، قائد ذلك الفتح الصحابي عمرو بن العاص، اما اكثر مساجدها فخامة، وبذخا واتساعا، فهو جامع احمد باشا القره مانلي، ويحتوى على ضريح صاحب الجامع ، المؤسس للدوة القره مانلية، وضريح بعض افراد الاسرة ، اما اكثرها اناقة وجمالا فهو جامع قريب من قوس ماركوس اوروليوس، مسجد قورجي الشهير بمالمئذنة المتميزة وبالعمار الهندسي الحديث والمختلف عن بقية المساجد في عصره.

وكان دكان المدينة القديمة هو اول مكان استأجره ، ولم تدم اقامتي به غير عامد واحد، ولم يكن غير عبتة اولى في سلسلة العتبات التي كتب عليها ان اتنقل بينها وانا اتخذ من طرابلس مكانا دائما لاقامتي ، وكان شريكي في المسكن قد غادر ليقيم مع قريب له، ابتني بيتا جديدا واسعا، ففاتحت مستشاري في السكن الكاتب الصديق بشير الهاشمي، فاذا به هو ايضا بسبيله الى تاجير بيت جديد، الا انه يحتاج لبعض الوقت، ووجدت دكانا شاغرا بجوار صديقي وزميلي في فرقة الامل الاستاذ عبد الحميد المجراب، فاقمت فيه الى حين تمكن الصديق بشير الهاشمي من الحصول على البيت المأمول، الذي مثل نقلة في حياتنا من عالم الدكاكين الى عالم البيوت الطبيعية التي تحتوى على صالون وماكن للاكل ومطبخ واكثر من دورة مياه ولكل واحد غرفته التي يستخدمها استخداما خاصا لا يشاركه فيها احد، اسمه فندق بعيشو، في الجزء المحاذي للبحر من المدينة القديمة، وكانت هذه الفنادق الشعبية تتكون من غرف، في الغالب، ثم بعض الاركان التي يجعلونها اشبه بشقة مثل هذا المسكن، وكان فندقا يفوح برائحة السمك ، فهو فندق للبحارة وصيادي السمك، وكان يجاورنا في احدى غرفه صبي يرتدي الملابس الوطنية ولا اعرفه الا باسم الشيخ، وهو الذي اتضح فيما بعد انه ليس الا عبد السلام جلود الذي اصبح بعد الانقلاب، الرجل الثاني في النظام، وهو الذي ذكرني بهذه الجيرة القديمة، وكان يلح في ان نذهب لزيارة الفندق، الا انه كان قد تهدم في معظمه واصبح جزءا من توسعات قام بها نادي المدينة قبل انتقاله الى مقره الجديد، وكانت قدماي تقودني كل مساء الى المقاهي المطلة على البحر وكان اقربها تلك التي تقع مباشرة امام البنك المركزي، وتعرفت على مقهي شعبي لعمال الميناء ربما كان اكثر قربا الا انه ليس باناقة وجمال المقهى الاخر الذي تتخلله الاشجار ويستقطب عدد كبير من سكان المدينة لسعته واطلالته على الماء ، وكان هذا الفندق العمالي ، اسمه مقهى فوزي عيون، وكنت اذهب اليه صحبة بعض الاصدقاء ، وبينهم بشير الهاشمي الذي يحبذ الاختلاط بالاوساط العمالية ويرى ان هذه الاوساط يمكن ان توحي اليه بقصص ذات طابع واقعي عمالي يؤرخ به لحياة الكدح والتعب والمعاناة التي يعيشها ابناء الطبقة العاملة، بل كان كثيرا ما اقترح ان نقوم بجولات في مناطق الاكواخ ، ويقودني مع الاصدقاء عبد الحميد المجراب ونحم الدين الكيب ، لاستلهام الادب من احزمة الفقر التي تحيط بمدينة طرابلس ، ولم اكن اتحمس لمثل هذه الجولات السياحية، فقد كان لدي اقارب يعيشون في هذه الاحزمة واذهب لا في زيارات سياحية وانما لاختلط بالناس واقيم معهم احيانا واحضر مناسباتهم السعيدة والحزينة. وقد امتدت هذه الاقامة في المدينة القديمة الى حين موعد سفري للدارسة في القاهرة منتصف عام 1962، اي لمدة عامين كاملين، وامتد اتصالي ببيت اخر من بيوت المدينة القديمة ، ولكن ليس للسكن، وانما لاتخاذه مقرا لفرقة المسرح الجديد التي قمت بتاسيسها وتحصلت على مقر بها منحه للفرقة الشيخ عبد السلام خليل، بعد ان توقف نشاط النادي الادبي، وكان بيتا اكثر اتساعا وفخامة من البيت الصغير في فندق بعيشو، وهو يقع في شارع قوس الصرارعي وفي مدخله قريبا من باب الحرية، وليس بعيدا عن مدخل شارع كوشة الصفار اكثر الاحياء عراقة واصالة ، يحمل طابع اهل طرابلس واصلاء هذه المدينة منذ اقدم العصور.

بيت القاضي

بعد عودتي من البعثة التدريبية في القاهرة، كنت املك بعض المدخرات، التي استطعت ان اكتري بها غرفة في فندق صغير، من فنادق طرابلس، شاؤع المأمون، اسمه الجبل الاخضر، اقمت فيه بضعة اشهر مستفيدا من خصم اعطاه لي صاحبه الذي تجمعني به صلة النسب الى نفس البلدة، في انتظار الحصول على سكن، وكان السكن بيتا كبيرا مهيبا من بيوت ابي الخير وجنان النوار، كان يقطنه قاضي قضاة طرابلس السيد محمود ابو رخيص، وقد قمت بتاجيره بالاشتراك مع الكاتب الصديق يوسف القويري، وفنان التمثيل الساخر محمد عبدو الفوراري ، وكان زميلا لي في معهد شارع هايتي، وكان البيت من طابقين ويمتد على مساحة كبيرة وبه ردهة واسعة تظلل احدى اركانها شجرة كروم، وكان هذا الحي من اولى الاحياء التي تكونت خارج سور طرابلس القديمة، حيث القلعة ومقار القناصل والاحياء السكنية القديمة والاسواق التقلدية، وقد استخدم اسم الشيخ محمود في اشعال فتنة بين العرب واليهود في اواخر الاربعينيات ، ويقال ان وراءها الوكالة اليهودية التي كانت تعمل على استقطاب اليهود الى فلسطين ، اذ قال لي شاهد عيان انه كان يشاهد فيلما في سينما الغزالة، عندما خرج في جانب من شرفة السينما رجل يصرخ قائلا انهضوا ايها الناس فقد قتل اليهود قاضي مدينتكم الشيخ محمود ابو رخيص، فترك الناس جميعهم السينما وخرجوا ليلتقوا بتجمعات اخرى سمعت نفس النادي وتبدا معركة بين اليهود وعرب المدينة نتج عنها عدد من القتلي ، وهجرة عدد كبير من ابناء الجالية اليهودية . بينما كان الشيخ محمود في بيته لا علم له بما حدث الا بعد وقوع الكارثة، وقد انتقل اولاده الى بيوت حديثة ، وكنت ادفع الايجار لاحد هؤلاء الابناء وقد صار هو ايضا قاضيا يسكن في شارع باندونج في احدى العمائر الايطالية، قريبا من ميدان الجزائر. وكان البيت قريبا من حديقة جنان النوار وفي جانب منها مقهى يملكه العم علي ، ويتخذه بعض الزملاء في الاذاعة والصحافة مكانا لجلستهم اليومية، وفي بيت قريب كان يسكن زميلنا الكاتب محمد احمد الزوي، وكان لوالده دكانة يستقبل فيها زبائنه من طالبي العلاج الروحي وعن طريق الرقى القرآنية ، بمحاذاة بيتنا، وكان اشهر خطاط في طرابلس وهو صبرى الامير يتخذ لنفسه دكانة لاستقبال زبائنه في نفس الحي ، كما كان هناك شيخ من شيوخ طرابلس ، نسيت اسمه، يعمل بهيئة الاوقاف، وتعرفت عليه عن طريق الصديق بشير الهاشمي الذي كان زميلا له في نفس الهيئة ، وعندما عرف انني من سكان ابي الخير، اصر على ان ازوره في بيته حيث يقيم صالونا ادبيا، وفعلا لبيت دعوته ، وذهبت الى بيته في نفس الحي، حيث كان يملك بيتا في حجم وعلى طراز بيت القاضي ، وبه صالة كبيرة هي التي يتخذها مكانا لاستقبال ضيوف الصالون، يمد فيها المنادير ، ويجلس الناس فوق الارض مستندين الى الحائط، يطوف عليهم احد ابناء الشيخ باكواب الشاي، وكلهم في سن توازي سن صاحب البيت، ويتناقشون في امور دينية، وجدتها بعيدة عن اختصاصي الادبي، فجلست صامتا تراودني الرغبة في الهروب ، ولكنني ذوقا لم افعل ، الا انها كانت المرةالاولى والاخيرة التي حضرت فيها ذلك الصالون.

عندما التقيت فيما بعد بزميلي بشير الهاشمي، وجدته يضحك مما حدث لي، فقد وقع هو في نفس المأزق، ولم يشأ ان يحذرني ، وقال انها تجربة لابد ان امر بها، لكي لا اقع في مثلها مرة اخرى، لان في طرابلس كما قال لي كثير من مثل هذه المرابيع، التي تقتصر على نوع من اهل الثقافة الدينية التقليدية، وتتفق مع اعمارهم ، ومن الصعب لاحد منا ان يجد راحته فيها.

وكان بيتنا في حي ابي الخير، يحظى بزيارة اصدقاء ادباء مثل بشير الهاشمي، وعبد الحميد المجراب ، ونجم الدين الكيب، وكامل عراب، اما الزائر الدائم بسبب علاقة القربى التي تربطه بيوسف القويري، فهم الاستاذ عبد الله القويري، وكان هو الاخر اعزبا ، لكنه وجد حلا للسكن افضل منا جميعا، فقد استطاع ان يجد غرفة في بيت تملكه عائلةايطالية، وكان يستطيع ان يجد لدى هذه العائلة من يهتم باعداد طعامه وغسل ملابسه وتنظيم وتنظيف غرفته ، وبذلك يتوفر له وقت للكتابة والقراءة. الا ان وجوده فيما يسمى الحكومة الاتحادية، كان مبعث قلق كبير فيما يتصل بالسكن الاقامة، بسبب ان الموظف بهذه الحكومة يجب ان يقضى نصف السنة في طرابلس ونصفها الثاني في بنغازي.

درس في الكتابة

لم اتعلم الكتابة الادبية في فصل دراسي اوعلى يد معلم، ولكنني ادركت بداهة ان الاديب لابد ان يعيش المعاناة ، وهو يضع الورق امامه، ويخط افكاره على الورق، ينتقي الكلمات ، ويختار الجمل ، ويعيد تحرير الجمل شطبا وتعديلا، قبل ان يستقر على الكلمة والجملة التي ترضيه. وكنت اظن ان هذا ما يفعله كل الكتاب، فلابد من كدح وتعب مع كل سطر، لكي يكون ما يكتبه الكاتب ادبا وابداعا، الا انني رأيت صيغة اخرى للكتابة، لم اكن اعرف ان احدا يستطيع ان يمارسها، فقد كانا نجلس حول طاولة في غرفة من غرف البيت، وبسبب البرد، وغياب اجهزة التدفئة، وضعنا موقد الغاز ، فوق الطاولة ، التي نتحلق حولها كيف يدفئنا، وكان الاستاذ عبد الله القويري جالسا معنا، فطلب ورقا للكتابة، واخرج قلما، وتوقف عن المشاركة في الحديث الدائر، الذي بقى دائرا دون مساهمة منه، واستغرق في الكتابة، يضع راسه في الورق، ويكتبت دون توقف ولا اعادة ولا شطب، كأن ثمة كائنا اثيريا، لا يراه ولا يسمعه الا هو، يملي عليه ما يكتبه، دون ان يعيقه الضجيج الذي نصنعه، او النقاش الدائر بيننا ونحن نجلس ملتصقين به، عن الاستمرار في الكتابة بنفس التدفق والسرعة والاستغراق، ثم رفع راسه، ووضع القلم جانبا، واتكأ بظهره على الكرسي، وهو يطلق آهة ارتياح، وفرح بانجازه، فقد اكمب كتابة قصة، ومد يده بالورق الى يوسف القويري، ليقرأ القصة، وعندما فرغ من قراءتها، اعطاها لي لاقرأها، وكنت اتحرق فضولا ، لاعرف ما الذي استطاع الكاتب انجازه في هذه النوبة الابداعية العجيبة التي داهمته، غير واثق، ان الكتابة في مثل هذا الجو، وبهذه السرعة، وهذه السهولة، يمكن ان تحقق لصاحبها نتيجة كتلك التي لا احصل عليها شخصيا الا بالعاناة والعذاب. وكانت المفاجاة، انني قرأت قصة مكتملة الاركان، توفرت لها كل مؤهلات القصة القصيرة الناجحة، وباسلوب ادبي لا تشوبه الشوائب التي نقرنها بالاستعجال والكتابة العشوائية، وكان عنوان القصة "الشريكان"، وتستحضر مشهدا من مشاهد دكان في اسواق طرابلس الشعبية،حيث صاحب دكان عطارة يستخدم صبيا يعينه في عمل الدكان، كما يعينه في قضاء حوائج البيت، وتلبية اوامر الهانم، وتتطور العلاقة بين صاحب الدكان وهذا الصبي الى ان يصبح شريكا في الدكان، مع بعض الايحاءات الجنسية التي تقول دون افصاح ان هذه الشراكة امتدت الى البيت ايضا، اذا صدقت الذاكرة، وباعتبار زميلنا يوسف القويري، معني بالنقد الادبي، فقد باشر حديثا، يشرح فيه ابعاد القصة ويفك شفرة رموزها، بشكل ادخل البهجة على قلب كاتب القصة، الذي اوضح انه كتب القصة دون ان تخطر عليه هذه الابعاد وهذه الدلالات والرموز التي يتكلم عنها صديقه يوسف. وحاولت فيما بعد ان استفيد من هذه الطريقة التي رايت صديقنا عبد الله القويري يكتب بها قصته، فلم استطع، وادركت ان المسألة استعداد فطري ، وفروق في الطبائع والاساليب والطرائق والمهارات، ولكل شيخ طريقة كما

يقول، فكما ان لعبد الله القويري شيوخ واتباع ، يجيدون اسلوبه وطريقته، فانني اعرف كتابا مثلي ، من اجيال سبقتي واخرى اصغر مني ، يتساوون معي في هذه المعاناة التي اكتب بها كل سطر في النص الذي انتجه، وربما اقول شرحا لهاتين الحالتين ، ان الحالة الاولي ، اي حالة السيد القويري، تقتضي ان ياتي الكاتب للكتابة وهو قد عاش المعاناة قبل النص، وتبلور في هذه ، ولا يصل الى لحظة الكتابة الا وقد اكتملت صورة النص لديه ، والطريقة الثانية لا تسبقها هذه المعاناة ، ولا بلورة النص بهذا الشكل ، وانما تبقى الكتابة بالنسبة له نوعا من الحرفيات ، اكتشاف ومغامرة ، ولا يستطيع ان يهتدى الى ملامح نصه الا بعد ان يتكشف امامه اثناء الكتابة كلمة كلمة وسطرا سطرا.

الاستقلال في السكن

نشب عراك في البيت ، لست طرفا فيه، ادى الى رغبة بقية الشركاء في المسكن، الى فض هذه الشراكة، فتدبر كل منا مكان جديد للاقامة

وقمنا بتسليم بيت القاضي الى اصحابه ، واظن الزميل يوسف اراد ان يقتدى بابن عمه عبد الله القويري في مساكنة عائلة ايطالية ، واعتزمت ان يكون لي بيتي الخاص ، الا انه كان يحتاج الى بعض الوقت، فاستضفت نفسي على زميلي محمد عبدو في شقة قام بايجارها في باب الحرية، وتصادف في تلك الفترة، ان قابلت موظفا في مصرف الصحاري، وكان حديث الانشاء ولي زميل يعمل فيه، جعلني افتح حسابا لدى هذا البنك، وكان الموظف يعرض بيتا للايجار، ومبلغ زهيد، كنت فعلا استطيع دفعه دون عناء، وعندما عاينته، وجدته بيتا حديثا، يقع في منطقة سكنية متفرع عن شارع حديث من شوارع طرابلس هو شارع محمد على السنوسي، وهو بيت ارضي على الطريقة التي تسمى الطريقة الافرنجية، حديث البناء هو ايضا، مازالت رائحة الطلاء تفوح منه ، واستغربت ان يكون الايجار زهيدا الى هذا الحد، وحاولت ان اسأل عن دون ان افوز بجواب، الا انني تلامحت ساكن البيت المجاور، وهو رجل معروف، من ذوي البشرة السوداء، له اتصال بالحركة الفنية،اشيع عنه انه احب امراة من نساء البيوت العامة، وانه اخرجها من ذلك الحي وبنى بها، فحزرت ان السبب في زهد الايجار يمكن في هذه القصة ، فالناس المتزوجون سوف ينفرون من ان تكون مثل هذه الزوجة تقطن في البيت المجاور، وباعتباري رجلا مازال اعزبا ، فلن تهمني مثل هذه السيرة او هذا الموضوع، وحررت العقد ودفعت الايجار ، واشتريت الضروري من الاثاث، مضافا اليه ما كنت املكه من اثاث قليل، كما انه موقعه مناسب، لا يبعد كثيرا عن وسط المدينة، وكنت قد بدأت اتلقى دروسا في القيادة تمهيدا لشراء السيارة، التي ستمنحني حرية الانتقال والتحرك في شتى الاتجاهات، واستقبل اهلي هذا الخبر ، اي وجود بيت مستقل لي ، بفرح غامر، فسيكون لوالدي ولاخوتي حرية المجيء لطرابلس والاقامة فيها كما يشاءون دون التفكير في عناء المكان الذين سيبيتون فيه، ومن جهة اخرى فقد كان مكانا للقاء الاصدقاء وسهراتهم من ابناء الوسط الصحفي والاعلامي والمسرحي، وكانت السهرات التي نعقدها تمتد الى ساعة متأخرة من الليل وغالبا ما يحضرها اناس من اهل الطرب، وتتنوع احيانا فتاخذ شكل صالون ادبي ، واحيانا لمجرد الدردشة ولعب الورق.

انه اول بيت استقل به، دون شريك يفرض رأيه، ويطالب بحقه في توفير الهدوء،كان كان يحدث في البيوت المشتركة، وكان البيت يقع في حي سكني طرابلسي، جاء قاطنوه من مناطق مختلفة وخلفيات

عشائرية او مهنية متباينة، حيث كان كل واحد يحافظ على خصوصيته، فلا اختلاط ولا اندماج والا اختلاط كما في المدينة القديمة ، او الاحياء الشعبية في الضواحي التي يميل الناس فيها الى مجاورة اقاربهم وابناء قراهم النازحين من الدواخل، ولا حي العائلات المتجانسة مثل جنان النور، ومضت بضعة اشهر قبل ان اعرف السر وراء رخص قيمة الايجار، فقد شيده صاحبه ليكون بيت الزوجية، بعد ان اختار فتاة وقام بخطبتها، وما ان انتهى البناء، بالمواصفات التي ارادها وشاركت فيها الخطيبة، حتى حصل الزفاف وتحقق حلم الخطيبة في الخطيبة في لقائهما داخل عش الزوجة الذي ساهما في التخطيط له واختيار تصميمه ومن تم تاثيثه، ولم يمض اسبوع بعد الزواج ، حتى حصلت كارثة داخل هذا البيت،فقد ذهب الرجل لعمله في بنك الصحاري ، وعاد ليجد زوجته جثة هامدة داخل الحمام، فقد انفجر اثناء قيامها بالاستحمام السخان الذي يعمل بالغاز، مما تسبب في احتراقها ووفاتها، ولم يستطع الزوج الذي كان هائما بحب عروسه ان يبقى يوما واحدا في البيت مع شبح زوجته المتوفاة، ترك البيت وقرر عرضه في السوق باي ايجار، ولم يكن ليضيرني ذاك في شيء، فقد واصلت العيش في البيت، الا انه جاءت ظروف الانتقال لسكن افضل جعلتني لا اقيم فيه اكثر من عام واحد، فقد جاء عرض حكومي يقول ان الموظف يستطيع ان يتخلى عن علاوة السكن مقابل ان توفر له الحكومة سكنا جيدا، وظهرت لي فرصة السكن في شقة واسعة في عمارة حديثة في شارع ميزران لا تبعد عن ميدان الشهداء غير خمس دقائق مشيا على الاقدام ، وحررت لمصلحة الاسكان عقدا اتنازل بموجبه على العلاوة وانتقل لهذه الشقة في عمارة يملكها الحاج على بو حلقة، وهو تاجر من تجار طرابلس الكبار، وله ابناء اعرف اكبرهم وكان ضابطا كبيرا في الجيش السيد جمعة ابو حلقة، وتركت ذلك البيت ، وجاء صاحبه يعرض البيع بثمن زهيد، وكنت املك الثمن، الا ان بسبب غياب الحس التجاري، لانه كان يمكن ان يكون استثمارا لشاب في مقتبل العمر، الا انني لم اكن معنيا بخير الصحاقة والادب والمسرح ، ولم اكن اطلاقا اعمل حسابا لاي تخطيط اقتصادي لمستقبل حياتي فهناك راتب يؤمن لي مصاريفي ، وهناك دخل اضافي من الاذاعة والصحافة تمنح لي ترف انا اسافر وان اشتري السيارة وان ارتاد المطاعم والحانات والمفاهي والفنادق الراقية، واحيانا الملاهي الليلية.

انتقلت الى عمارة ابو حلقة، ووجدت ان جيراني في الشقة المحاذية، في نفس الطابق، عائلة ايطالية، ورغم وجود جالية ايطالية كبيرة، في مدينة طرابلس، فانه لم يحصل اي اختلاط او تعامل بيني وبين احد افراد هذه الجالية امراة او رجلا، عدا التعامل الروتيني الذي يحدث بين صاحب او صاحبة مقهى او مطعم او حانة وزبائن هذا المكان، خاصة امرأة ايطاليةمتقدمة في السن ، كانت تلمك مقهى صغيرا جميلا ، قريبا من ميدان الشهداء، كان الصديق نجم الدين الكيب، قد اخذني اليه، وقام بالتعريف بيني وبين صاحبة المقهى ، فرصت كلما ذهبت بمفردي،اجد لديها ترحيبا واقبالا، وسرعة في الخدمة، فصرت اختاره احيانا لاختلي فيه بقراءة كتاب او كتابة مقالة، ولابد ان عدم اجادتي للغة الايطالية ، صنع حاجزا بيني وبين التعامل مع هذه الفئة من سكان العاصمة، وكان استعلاء هذه الجالية واعتزازها المبالغ فيه بنفسها باعتبارها تنحدر من اهل احتلال وسيادة ، جعلتهم لا يقبلون على تعلم اللغة ويقضون مصالحهم دون حاجة الى بذل الجهد في تعلمها.

واردت وانا اجد نفسي بجواري هذه العائلة، ان اغلب حسن الظن، وان ابادر بالمعاملة الحسنة، فاتبسط مع افراد الاسرة وانا التقي باحدهم خارجا او داخلا الى الشقة ، وابدأ بالتحية وباللغة الايطالية، وربما

مفردات اخرى للترحيب من محفوظات الليبين ودخل بعضها في اللهجة المحلية، الا ان ما كنت اظهره من ود، وما ابديه من تبسط وترحيب ، كان يسقط في هذه الدائرة من الكبر والاستعلاء، فلا اجد استجابة ولا قبولا ، واذا رد احدهم التحية فببرود ، ودون ادنى اهتمام، ومع ذلك كنت احاول ان اجد تفسيرا منطقيا لهذا الصدود غير الادانة بانها مشاعر الغطرسة الاستعمارية، ولان ضمن افراد العائلة امراة جميلة صغيرة السن ، لعلها زوجة احد ابناء المراة التي رايت انها كبيرة هذا البيت التي تتحكم في كل افراده، فاعتبرت هذا الصدود، نوعا من جدار الحماية ، يحمون به المراةالجميلةالتي لابد انها مطمع الرجال وخاصةمن يعرفونه من العرب، الذين يحملون فكرة خاطئة عن سهولة المراة الاجنبية التي تجرى وراء غرائزها دون ان تقيم اعتبارا للشرف وسمعة الزوج او العائلة. فتعاملوا بمضمون المثل العربي الذي يقول " الباب الذي ياتي منه الريح، سده واسترح" ، وخلال عامين كاملين من هذا التلاصق في الاقامة ، لم يحدث اي حوار او تبادل للزيارة او تبادل للتهاني في المناسبات الدينية، الى ان جاء يوم الخامس من يونيو عام 67، واندلعت الحرب بين العرب واسرائيل، وانتفض الشارع الليبي، غضبا وسخطا وممارسة للعنف ضد الجاليات الاجنبية،المؤيدة للعدو الاسرائيلي، من يهود وامريكيين وبريطانيين وايطاليين، وطبعا كان وصول الافواج الغاضبة الى اليهود والايطاليين اكثر يسرا من وصولهم الى جنود يحتمون بقواعد عسكرية مثل الامريكيين والبريطانيين، فصارت تتواتر اخبار ما يحصل عن حوادث مؤسفة لاعضاء هاتين الجاليتين، حرقا لمتاجرهم وبيوتهم، واستهدافا بالقتل لبعض من يظهر في الشارع منهم، وانتشرت كتابات تحمل معنى الموت، وعلامات ترمز لنفس الشيء، مثل علامة الجمجة والعظام، ويبدي ان شعارا اوعبارة من هذا النوع وصلت الى باب شقة هؤلاء الجيران، واذا بي استيقظ صباحا على طرق عنيف فوق الباب، وافتحه فاجد افراد العائلة الايطالية ابا واما واخوة واخوات وزوجة احد الاخوة، يتدفقون داخل الشقة يطلبون الحماية واللجوء لانهم لا يأمنون هجوما على بيتهم يحدث في اية لحظة، ورايت ان بينهم من يستطيع الحديث ببعض المفردات العربية، التي كان ينكر انه يعرفها، واستطعنا التفاهم بمفرداته العربية والاخرى الانجليزية وبعض ما اعرفه من انجليزية وقليل من مفردات ايطالية، ورحبت لهم قائلا ان البيت تحت امرهم، وانني لا استخدمه الا للنوم فهم يستطيعون استخدامه طوال الوقت، واثقا انهم بداخله سيكونون في امان، فهناك يافطة تحمل اسمي على الباب، وفعلا احتموا به خلال ما تبقى من ايام الحرب ، ولم يكن هذا المتبقى غير يومين، وربما يوم ثالث للاطمئنان على ان الحالة عادت الى طبيعتها وان الدولة سيطرت على حالة الانفلات وانتشار الغوغاء واهل الاجرام والبلطجة، وعادت الاسرة الايطالية الى شقتها، وهدأ الشارع الليبي وانطفأت الحرائق.

اسفرت حالة الفوران والغضب والفوضى التي رافقت ايام الحرب، عن مغادرة الجالية اليهودية بكاملها الاراضي الليبية، تبحث عن مكان اخر يأويها، لم تبخل عن تقديمه لها بلاد اوروبا الغربية، اما الجالية الايطالية، وبينها تلك العائلة، فقد انتهى بالنسبة لها زمن الامان والسلام الاجتماعي ، وعرفت ان حقد السنين بينها وبين الليبيين، سيتحول الى السنة من لهب ، رأوا عينة منها، ولابد انها ستعود للاشتعال من جديد، وبدا اغنياء الجالية فعلا يتخلصون من املاكهم عن طريق البيع، واستفاد التجار الاغنياء من ابناء البلاد، من هذه الوفرة في العمارات و المزارع والمتاجر والشركات ودور العرض السينمائي والورش وغيرها التي طرحها اصحابها الايطاليون للبيع، مع ما كان معروضا ايضا من ممتلكات اليهود

الذين هربوا، لكنهم حرروا توكيلات ببيعها ، لمكاتب محرري العقود والمحامين ، وبدا عدد من هؤلاء الايطاليين في مغادرة البلاد، قبل ان ياتي الانقلاب ويطرد بالقوة من تبقى منهم.

كنت فور وقوع النكسة، قد سعيت سعيا حثيثا للحصول على بعثة دراسية في الخارج، وكنت عازما على الرحيل حتى لو جانبني التوفيق في الحصول على البعثة، وذلك باخذ اجازة عام بلا مرتب، اقضيها في دراسة لغة اجنبية، ولن اعدم وسيلة لتدبير معيشتي، الى حد انني عدت الى كتابة مادة صباحية يومية للاذاعة، وباشرت تحضيرها حلقات منها ، لاخذها مكافأتها مقدما، لتغطية مصاريف الرحلة، ووجدت ان مدير الاذاعة الصديق مصطفى بن شعبان ، قد صدر قرار بترقيته الى وظيفة ادارة اكبر، كوسيلة لازاحته من الاذاعة، لانهم اتهموه بانه شارك بتهييج الراي العام عندما شارك في الجو الاعلامي الذي ساد المنطقة ، واحال الاذاعة الى اذاعة حرب مثلها مثل الاذاعات المصرية، ونال الغضب وزيره الذي لم واقفه على هذه السياسة وهو الاستاذ خليفة التليسي الذي فقد المنصب الوزاري في اول تغيير بعد النكسة ، وانتقل الى منصب مدير الاذاعة نائبا للمدير، اسمه على ما اذكر ابراهيم الطوير، وهو غير الصحفي المعروف بهذا الاسم، وكان رجلا محدود الثقافة والخبرة، لا يعرف من الاعلام الا الجانب الاداري الروتيني، ولديه حقد فيما يبدو على اصحاب المهارات الاعلامية ، ويحسدهم على المكافآت التي يتقاضونها، وكنت الحقيقة قد اتفقت على البرنامج على الخبير الاذاعي ، الاستاذ عمر علي ، وهو رجل من اصل فلسطيني لكنه عاش مع الليبيين وصاهرهم وصار واحدا منهم، وكان يعرف قيمة واقدار اهل المواهب ، وتحمس لهذا البرنامج اليومي الصباحي المنوع ، الذي اسميته لكل الناس، وجعلت مدته ربع ساعة ، واعتكفت على كتابة ما لا يقل عن ثلاثين او اربعين حلقة منه، وكتب الاستاذ عمر تقرير ممتازا عنها ، واعطاه الى المدير لكي يضع المكافاة، لانه صاحب التخويل في تقدير المكافآت، ومارس طبعا غله على امثالي من اصحاب المواهب وقرر ان تكون المكافأة جنيهين لكل حلقة، وكنت اخذ في السابق ضعف هذا المبلغ على فقرة يومية اكتبها لصباح الخير مدتها خمس دقائق، وكان السيد عمر على كثير الاسف والاسى وهو ينقل لي قرار المدير، ورغم انه لم تكن هناك محطة اذاعية اخرى، تنافس الاذاعة اتحول اليها بهذه المادة، ومع ذلك فقد رفضت ان اتعامل بهذا الاسلوب، وسحبت المادة وتنازلت عن تقديم البرنامج، عارفا ان جهدي سوف يذهب هباء لانني لم اعده ليكون مادة مكتوبة للصحافة(وقاطعت الاذاعة في عهد هذا الرجل ، وشاهدته بعد اقل من عامين في موقف دليل مهين ، وهو يدس رسه في الارض ، في اول ايام الانقلاب، وعضو المجلس العسكري ، الخويلدي الحميدي، وكان اصغر سنا منه باعوام كثيرة، يتلقاه امام الباب الداخلي للاذاعة، عندما اخبروه ان مدير الاذاعة قد وصل، فساله بلهجة غاضبة ، عن لماذا تاخر عن الالتحاق بالاذاعة منذ اليوم الاول للانقلاب، تلبية لنداء يطالب العاملين بالاذاعة بالالتحاق فورا بالعمل، فقال وهو يرتعش، بانه انتظر ان تاتيه السيارة فلم بستطع المجيء، فقال الشاب العسكري الثوري ، وبدون رحمة لسن الرجل او مكانته كان يجب ان تاتي زاحفا على قدميك . ثم تركه حيث هو وعاد ليباشر عمله من مكتب المدير ، وظل الرجل واقفا في نفس المكان ، لا يدري ماذا يفعل بنفسه ، وكان ياتي كل يوم ويقف في الباب، في موقف مهين ، ثم يبدو انهم سالوه ان ينصرف فلم يعد يظهر له اثر لا في الاذاعة ولا في اي مكان اخر، دون ان يعني ذلك انني وقفت متشفيا منه، بل تحاشيت الا يراني وانا اذهب يوميا لاقدم برنامجا عنوانه كلمات الى الشعب في التليفزيون، اشارك في تقديمه مع زميلين اخرين، بتكليف من المجلس العسكري نفسه).

المهم ان المساعي للحصول على البعثة تكللت بالنجاح، ولم يكن ممكنا ان اسافر واترك بيت ميزران مغلقا ، وان ادفع مقابل استغلاله علاوة السكن الحكومية ، فكان لابد من تركه لاستفيد بقيمة العلاوة ، واحتجت الى مكان اضع فيه الاثاث ، فوجدت بيتا صغيرا تحت الانشاء معروضا للبيع بثمن زهيد وقسط مريح ، لا يزيد عن نصف المرتب الذي اتقاضاه، دون ان احتاج اليه ، لانني ساتقاضي مرتبا اثناء الدراسة من السفارة هناك ، يسد احتياجاتي ، بالاضافة الى المرتب الذي تركته لعائلتي ، ولسد اقساط البيت الصغير الجديد، الذي كان قد تم جزء منه يتسع لتخزين الاثاث فيه، وباشر البناءون في اتمامه بعد ذلك.

وكنت اسفا على انني اغادر بيتي في شارع ميزران، فهو واحد من اعرق شوارع المدينة، وقد تسمى على اسم رب العائلة التي قامت بتشييد المسجد الكبير مسجد ميزران ويضم مدرسة قرانية ومعهدا دينيا وقسما داخليا لاقامة الدارسين، وكان احد شيوخ هذا الجامع والنائب عن المنطق في البرلمان هو الشيخ محمود صبحي الذي ربطتني به صداقة قديمة حيث عرفته عن طريق صديقه الاعز وزميله في المعارضة البرلمانية الاستاذ على مصطفى المصراتي، كما يتفرع عن هذا الشارع حومة الفقيه التي تقع فيه مجموعة بيوت اسرة الفقيه حسن ، وكنت اعرف كبراء العائلة الاستاذ الشاعر احمد الفقي حسن وشقيقه الاستاذ على الفقي حسن عضو مجمع اللغة العربية في مصر ، وابنه ابراهيم على الفقي حسن ، وهو واحد من اصدقائي الاعزاء واستمرت علاقتي به منذ التقينا اثناء المراحل التاسيسية لصحيفة الميدان عام 1964 واستمرت علاقتي به على الود والصفاء ودون انقطاع ، الى ان لاقى وجه ربه في العقد الاول من هذا القرن، وكان الشارع مقرا لاستاذي في اللغة العربية والدين الشيخ الفاضل والشاعر الكبير الاستاذ الهادي انديشة. ودخل الشاعر في الفلكلور الليبي بعدة اشعار شعبية واغنية مثل مقولة منبثقة عن فترة تقام فيها المعارك بين صبيان الاحياء ، تقول كلماتها

شارعنا شارع ميزران واللي فيه ذراع ايبان

ويتفرع عن شارع ميزران شارع ماكينة الذي اصبح اسمه شارع هايتي وكانت الاغنية تقول ايضا

شارعنا شارع ماكينه واللي فيه ذراع ايجينا

كما اشتهرت على السنة الناس اغنية تؤرخ لجريمة حصلت في عهد الايطاليين ويقال انها في مطلع العشرينيات من القرن الماضي تقول كلماتها

صارت عملة في الاوطاني في شارع ميزراني

ذبحوا جوز شياه اكبار وخريف سوداني

ومن سلالة عيلة ميزران حضرت جلسات الاستاذ الكبير مصطفى ميزران الذي سبق ان قام بتاسيس اول الاحزاب السياسية في الاربعينيات وهو الحزب الوطني الليبي ، وكنت غالبا ما اراه يرتدي الزي الوطني ويجلس اما في دكة الجامع او امام متاجر احد من اصحابه مثل متجر شمسي العجيلي او محمد المبروك رحم الله الجميع .

بيت فشلوم

المثل الفرنسي الذي يقول لا يدوم الا المؤقت ،ينطبق تماما على هذا البيت، فهو بيت اشتريته وهو تحت البناء، ليكون مقرا مؤقتا، اضع فيه اثاث البيت ، واقيم فيه عند العودة الى الوطن في اجازات قصيرة ، حتى اعود للاستقرار من جديد واتدبر بيتا اوسع، ويحتل موقعا افضل، ليكون هو مسكني الدائم ، الا ان البيت، ظل بعد ان عدت محلا لاقامتي ، رغم ضيقه ، وضآلة شأنه، وخلوه حتى من غرفة لائقة للضيوف، واستفحلت بعد عودتي ازمة السكن، ولم اكن محظوظا لاستفيد من ضربات الحظ الحكومية ، فقد كنت اثناء خلو مساكن الايطاليين اواصل الداسة في الخارج، وهي الفترة التي تم فيها توزيع امساكن على اهل الاعلام ، ثم تعقدت المشاكل، وانشغلت بوظائف في المجال الثقافي والاعلامي اعطيتها كل وقتي ، وكرست لها حياتي، فلم امنح وقتا لهذه القضية، مثل عملي مديرا للمعهد الوطني للتمثيل والموسيقى، ثم مديرا لادارة الفنون والاداب، قبل ان اعمل على تأسيس صحيفة الاسبوع الثقافي، ورئاسة تحرير ها مع مجلة الثقافة العربية والانهماك في تاسيس اتحاد الادباء الليبيين، وعهدت بالاوراق التي تؤهلني للحصول على سكن ، الى حاجب اسمه "خليفة"، وكنت موعودا من وزير الاسكان محمد المنقوش، ومحافظ اطرابلس مختار بورو، ومن معهما من كبار الموظفين ، بان حقي ثابت في الحصول على سكن وانهم سيساعدونني في ذلك، شرط ان اكون جاهزا باوراقي، فعهدت الى هذا الحاجب من العاملين معي، ان يتولى هذه المهمة، ويبدو ان هذا الحاجب كان يبحث عن فرصة ، فعندما لاحت هذه الفرصة، التي سعى هؤلاء الاصدقاء لتوفيرها لي ، راى ان يعطي نفسه الاولوية، في الحصول على البيت بدلا مني، فكان يحمل اوراقي ويتعامل مع المسئولين باسمي، وعلمت فيما بعد ان الحاجب خليفة انتقل الى دارة في حي الاندلس اعطتها له الحكومة، واستغربت كيف ينجح فيما فشلت فيه رغم وعود هؤلاء المسئولين الكبار، واتضح انه استغل الموقف لنفسه، وعرفت ما حصل وهو ان مدرسة من مدارس منطقة حي الاندلس، كانت قد منحت اربع دارات للدولة ، بني حولها سور، لتكون مقرا مؤقتا لها الى حين انجازالمبني المدرس الذي كان تحت الانشاء، وعند انتهاء المبني ، وقبل انتقال المدرسة اليه ، تقرر اعطاء احدى هذه الدارات لي ، وتم ابلاغ السيد خليفة ، الذي سارع بنقل عائلته اليها، ليجعله امرا واقعا، وابقى اوراقي عنده، لكي لا تكتب الدارة باسمي، حتى يتدبر هو امره بمن يعرف من اقارب في الدولة يساعدونه على نقلها او حتى اذا لم يساعده احد، فقد صار بحكم وضع اليد مالكا للدارة، ولم اعاتبه او الومه ، لانني لم اعرف بالحكاية الا بعد وقت طويل ، كما كنت قد عزمت على ترك البلاد والعودة الى الخارج ، واكثر من ذلك انني عدت لارى السيد خليفة فيما بعد فكان يقول لي انها تلك الدارة كانت بالنسبة له عتبة سوء ، فقد كانت له زوجة تعمل بالتدريس ، ولعلها كانت غير راضية عن زواجها من حاجب مثله، فما ان استقرت في تلك الدارة حتى عملت على تطليقه وطرده من البييت، لان لها فيما يبدو اطفال منه تحججت بتربيتهم فالطفل في العلم الجماهيري تربيه امه ، ورايته مشردا لا يجب ان ينام او يستقر ،فلعله كان يستحق ما حصل له.

ولابد من القول انه خلال وجودي في هذه المحنة السكنية، تعاطف كثيرون معي، كان احدهم قريبي، يملك منصبا في اطار الحكم المحلي بطرابلس، وجاءني ذات يوم سعيدا، لانه افلح في استصدار قرار بتخصيص دارة من الاملاك المستردة، يسكنها اجانب مؤقتا، وفعلا ذهبت لمعاينة الدارة، واتضح انها مستردة من صاحبها الليبي، وابدى مؤجروها الاجانب استعدادهم للرحيل فور وجود مسكن بديل، لكن مشاورات عائلية جرت تقرر بعدها البحث عن صاحب العقار الاصلي والتفاهم قبلي ليمكن استغلال العقار برضا

صاحبه ، ولكنه فيما يبدو كان قد ترك البلاد، لا سبيل الى الحصول عليه رضاه، فرأينا ان نواصل البحث، دون حاجة لان نستبدل ضيق السكن، بضيق اخر هو الضيق النفسي من الاقامة في بيت تم اخذه من صاحبه سطوا وسرقة. ولم اتمكن من تغيير السكن اطلاقا، وحتى خرجت من ليبيا موفدا للعمل في الخارج.

الخروج

كانت مغادرة الوطن للعمل في سفارتنا بلندن، قد جاءت بنا على الحاح شديد مني، لانني فعلا، صرت غير قادر على ان اتنفس هذا الهواء الخانق الذي يتنفسه الوطن، واريد ان اتركه للبحث هون اكثر نقاء ونظافة، وكانت تلك المغادرة بداية رحيل ، استمر وتواصل لاعوام كثيرة، تخللته فترات انقطاع، وعودة الى الوطن، لكنه رحيل لا ينقطع حتى يتصل بما انقطع، فعودتي الى الوطن لا تزيد عن بضعة اشهر، واذا زادت عن ذلك، فلابد من سفير متتابع يتخللها، يعينني على ذلك طبيعة عملي في المجال الثقافي، فهناك دائما دعوات، ومهمات صحفية، ومؤتمرات تقتضي حضوري ومشاركتي ، وهذا السفر وهذا التنقل بين الاقطار والقارات، كان يقتضي تنويعا في المساكن التي اويت اليها، بالنسبة الى ليبيا ، فمنذ ان تم انجاز الفندق الكبيرالجديد، على انقاض فندق تاريخي بنفس الاسم، صار هذا الفندق هو المقر الدائم لي، في العاصمة الليبية، اذا لم اكن ضيفا على جهة حكومية، فانني اقيم على حسابي مستفيدا من خصم تمنحه لي الادارة، ووصل في بعض الفترات الى خمسين في المائة.

الا ان هذا التنقل والارتحال والتنوع في اماكن الاقامة، لم يكن حائلا، دون ان اسعى لان يكون لي سكنا لائقا في طرابلس، واشتريت في منطقة المنشية التاريخية ، المشهورة بزكي رائحة زهورها، والمسماة الان منطقة شاعر بن عاشور، قطعة ارض، بعد توفر مزرعة رفعت عنها الدولة الصبغة الزراعية، وكنت قد اشتريت في لندن حق استعمال بيت ، بعثه لصديق من ليبيا، واخذت ثمنه بالدينار الليبي، وضعته في شراء قطعة الارض، ولجأت الى مصحف الصحاري الذي املك فيه حسابا جاريا، فمنحي من قسم القروض العقارية، قرضا لبناء البيت، واستعنت بمقاول ليبي، لكي يباشر البناء، ولا ادري كيف استطاع التحايل والنصب، بحيث جعلني اسحب له كل القرض، قبل ان ينجز عشرين في المائة من بناء البيت . ثم اختفى هاربا من طريقي، ولم اكن تلك الفترة مقيما في ليبيا لكي الاحقه واترصد له واجره الى المحاكم، عدت بعد فترة توقف، لاباشر بنفسي عمل مقاول البناء ، مستعينا باصدقاء واقارب واخوة يجيدون التعامل مع مثل هذه الاوساط وعمالا وتجارا وسوقا، واقول انني اثناء هذه الفترة التقيت بالسقوط البشري والاخلاقي بما شكل صدمة لي، وكنت اغيظ بعض اصدقائي من اهل اليسار وتربوا على تقديس الطبقة العاملة ، واعتبار اي افراد من افرادها هو الشخص الذي عناه ماركس عندما قال الانسان اثمن رأسمال، فاقول لهم يحتاج الواحد منكم ان يمر بتجربة بناء بيت ليفيق من اكذوبة هذا العامل الذي قدسه الفكر الماركسي، لانه سيلتقي ببشر تجسدت فيهم الخسة والنذالة وانعدام الضمير والغش والتحايل بما لا يمكنه وجوده في اية شريحة اخرى ، وقد لا يكون حكمي صحيحا ولكن اهل هذا الوسط ، كانوا يشاهدون رجلا مثلا غشيما ، فيعتبرون وجوده فرصة للانتقام من حيثان السوق ممن ياكلون حقوقهم، فهم ليسوا افضل حالا من المقاول الذي سرق القرض وجعلني اخوض مازق بناء البيت، دون خبرة ولا تجربة ولا استعداد نفسي، بالاضافة الى ان النظام السياسي الليبي كان لا هدف له الا صناعة الازمات للماوطنين ، وفي تلك الفترة

شحت العمالة الاجنبية وشحت في نفس الوقت مواد البناء، واضرب مثلا في عبثية المشهد، عندما ذهبت الى منشأة بنا لاشتري وصلة صغيرة لماسورة ماء، ثمنها لا يزيد عن بضعة قروش، لكنها ضرورية لاتمام البناء فموقها ياتي داخل جدار من الجدران، وفرحت عندما وجدت رجلا من الباعة يعرفني ورحب بي لكن المواسير ووصلاتها كلها مفقودة من السوق، الا انه اخذني جانبا ورايت يدس راسه في راسي ويتكلم هامسا وهو يلتفت يمينا وشملا لكي لا يسمعه احد غيري، فقلت في نفسي ان الفرج جاء وان للرجل بعض الوصلات يضعها على جنب سوف يخصني باحدها، الا ان كل هذه التحوطات لم تكن الا لانه يود ان يخبرني بالمكان الذي يمكن ان اجد فيه هذه الوصلة، اذ قال لا فض فيه " ماذا لا جربت السؤال عن الوصلة في سوق نالوت"، وبمنتهى الجدية ، كان يريدني ان اغامر، ودون يقين او تاكيد، بعبور سلسلة جبال نفوسه من مبتداها الى منتهاها، واقضى خمس اوست ساعات سائقا سيارتي، حتى اصل الى تلك المدينة الحدودية ، نالوت، لاسال ان كانت احدى منشآت البناء هناك تملك وصلة ماسورة لا يزيد ثمنها عن بضع مليمات. وقابلت في تلك الايام اناسا يغامرون من اجل مجموعة مسامير بالذهاب الى تونس في سياراتهم والعودة في نفس اليوم لكي لا يتعطل العمل. وشعرت وانا اباشر هذا العمل غربة لم اشعر بها مع اي عمل اخر في حياتي، ولذلك تركت البناء وتركت البيت هيكلا وهربت. الى ان سخر الله له من شباب العائلة من تولاه تطوعا واشفاقا على ما شاهده من معاناتي وتعبي، واخذ البيت وقتا قياسيا في البناء وصل سبع سنوات.

في موقع السلطة

ربما حان الوقت لان اشرح موقفي من تقلد مواقع تتضمن سلطة ما، ونعرف جميعا ، ان للسلطة مجانينها، رايناهم واكتوينا بنار جنونهم، اقله على مستوى رؤساء، كالذين ابتلت بهم اقطار عربية كثيرة، ويكفي مثلا عليهم ، الحاكم الليبي وعهده الانقلابي، وبمثله ابتلى الله اقطارا عربية هي سوريا والعراق واليمن والسودان ، وبنسب اقل حدة واجراما، اقطارا عربية اخرى ، حيث نستطيع ان نرى في هؤلاء الرؤساء، الدليل على كيف تصبح السلطة مرضا ، وتصبح عتها، وتصبح عقدة نفسية تتحكم في صاحبها، واذا كان هذا على مستوى المنصب الاول في البلاد، فانه يتكرر بصور متنوعة وكثيفة على مستوى السلطة الاقل، ولا يمكن لمن قطع مشوارا في الحياة العملية، الا ان يكون قد التقى بمثل هؤلاء المجانين، الذين تشكل السلطة مرضا بالنسبة لهم ، وان تفاوتت النسب والدرجات ، من مريض الى آخر، وقد التقيت بالعديد منهم، وكنت احاول الابتعاد عنهم ، واتحاشى الصدام بهم ، الى درجة انني في احدى المرات، اخذت اجازة بلا مرتب وصرت اجددها حتى انتهى عهد هذه المدير، وحل مكانه مدير اخر، المهم ان للسلطة سحرها، ولها نفوذها على قلوب وعقول الناس ، وما اكثر من عرفناه قبل الوصول الى السلطة ، انسانا ناعما، مرهفا ، سويا ، حتى وصل الى السلطة، فاذا به يتنمر ويتفرعن، ويظهر له شكل اخر، ووجه اخر، وشخصية بشعة قبيحة كانت في حالة كمون حتى كشف عنها المنصب ، وقد اجادت بعض القصص والمسرحيات تصوير مثل هذه الشخصية وكلنا نعرف الشخصية المسرحية توباز للكاتب الفرنسي مارسيل بانجول التي تم اقتباسها كمثال للرجل البسيط الساذج الذي يتحول عندما يصل الى سلطة المنصب والمال الى شيطان، وكذلك كان الحال مع رواية ومسلسل وفيلم: انا كلوديوس ، التي صاغها الكاتب البريطاني روبرت جريفز، من وحي امبراطور روماني بهذا الاسم، وعلى هذا المنوال حيث كان هذا الامبراطور، رجلا ساذجا عبيطا قبل الوصول الى الحكم، وانقلب الى العكس بعد ذلك، ولست هنا

لاقدم بحثا عن مثل هذا الجنون، ولكن الانسانية بالتاكيد عانت الكثير من الويلات، ودفعت ثمنا مرعبا لنزوات مثل هؤلاء الذي استحكمت فيهم هذه العقدة ، ولسنا بعيدي عهد، بمجانين مثل هتلر وموسيليني وستالين ، وعشرات الملايين من الضحايا الذين قضوا بسبب شهيتهم للحكم، ولم يكن سبب التوقف عند هذا الموضوع، الا بسبب البحث عن معنى السلطة في نفسي، فقد وصلت الى مواقع قيادية صغيرة وبسيطة، كنت استطيع ان التمس فيها معنى السلطة في نفسي، ولا اجد دليلا، على انها عقدة بعيدة عن نفسي، وداء انجاني الله منه ، افضل من حقيقة انني ما ان اصل مثل هذا المكان، حتى اهرب منه باسرع وقت استطيعه، ولا ابقى في اي منصب غير عام او عامين، واحدى اهم الاختبارات لجنون السلطة ، ان صاحب المنصب عندما يصل اليه لا يتركه ، لان الهدف هو المنصب ، ويستعد للتضحية باية قيمة ، والتنازل حتى عن كرامته او شرفه ، في سبيل البقاء في هذا المنصب ، والخصلة الثانية ، انه يسعي لان يستعمله في الصعود الى منصب اعلى ، ولهذا اقول انني لم اجد في نفسي اطلاقا ذرة حب لمثل هذه السلطة ، بل ضيق بها ، ومحاولة للتخلص من مسئوليتها، ربما لانني كنت املك اكتفاء بما اعطاني الله من موهبة الكتابة الادبية ، واقدمها دائما على اي عمل اداري، وهو امر ليس غريبا على اصحاب مشاريع ادبية ، فاعتقد ان النفور من السلطة كان موجودا لدى كاتب مثل توفيق الحكيم، ولدى كاتب مثل العقاد ، ولمسته شخصيا في كاتب كبير عرفته عن قرب ، هو نجيب محفوظ، الذي وصل الى مناصب كان يضيق بها، ويسعى للخروج منها، بل وكان هو نفسه يقول ذلك، ويضرب مثلا بمنصب وصل اليه، هو مدير مؤسسة السينما، وانه لم يكن يجد بهجة ولا سعادة ، وهو يدير عددا كبيرا من البشر كانوا يتبعون ادارته، واذا لم يقله هو، فانه يشهد به كل من عمل معه ، لان الانسان الزاهد في المنصب يظهر في سلوكه ، كما يظهر الجانب الاخر اذا كان سلطويا ، راغبا في ممارسة الرئاسة والتأمر على الناس ، وقد عمل معي اناس كثر في مثل هذه المناصب ، عملوا معي وانا اعمل مستشارا اعلاميا ورئيسا لعدد من المطبوعات ، وعملوا معي وانا رئيس بعثة ديبلوماسية ، وعملوا معوا وانا مدير معهد للتمثيل للموسيقى، ثم وانا رئيس تحرير صحيفة الثورة، ورئيس تحرير صحيفة الاسبوع الثقافي ، ورئيس تحرير مجلة الثقافة العربية، وعملوا معي وانا مدير ادارة الفنون والاداب ، وعملوا معي وانا امين عام رابطة الادباء والكتاب والفنانين، واتحدى ان يأتي واحد من هؤلاء الناس ، وكثير منهم مازالوا احياء، ويقول انه رأى مني ذرة حب للسلطة، او رغبة في الامر والنهي ، الا في الحد الادنى الذي يتطلبه العمل، واحاول باقصى جهدي ان اتعامل مع فريق العاملين باعتبارهم اسرة، والا اجعل احدا يشعر بادنى درجة اختلاف بيني وبينه، وان اسعى لخدمة كل واحد من العاملين واسعاده ان امكن ، واسعى قبل كل شيء، وبعد كل شيء، ان اترك المنصب واعود الى قلمي واوراقي وكتبي، باقصى ما استطيع.

بيت له شرفة على البحر

استخدمت هذه العبارة كعنوان لمقال من مقالاتي في الاسبوع الثقافي ، في مطلع السبعينيات، وكان مثار تعليق لاحد قادة النظام ، واستشهد به في لقاءة مع عدد من الادباء، كدليل على الميول البرجوازية لكتاب

البلاد، ولم يستطع احد ان يسأله عن الخطا في ان تكون هناك شقق او بيوت لها شرفات على البحر في بلد يملك شاطئا يصل الى اكثر من الفي كيلو ميتر، واين هي البرجوازية في ذلك، هذا اولا وثانيا لم يستطع احد ان يسأله وربما في هذه الحالة لن يستطيع عن التسمية الحقيقة للقصور المحاطة بالحدائق الغناء التي استولت عليها عصابة الضباط الصغار ممن استولوا على الحكم والاستراحات والمزارع، بل ماذا يسمى عملية السطو على وطن كامل بسمائه ونجومه واشجاره ومدنه ومصارفه وخزائنه وحقول نفطه وموانئه ومطاراته، وضعوه في جيوبهم، وجاء احدهم يسخر من ان كاتبا عبر عن حلم هارب من بين اصابعه، ولا يستطيع تحقيقه ، في ان يكون له في وطنه ومدينته المطلة على البحر، حق الجلوس في شرفة تطل على البحر. وفعلا كان هاجسي ان اسكن في بيت قريب من الشاطيء، وبذلت محاولات كثيرة، وكدت فعلا انتقل الى احداها، وفي عمارة كان يملكها احد التجار اليهود في طرابلس، قريبا من فندق الودان، وكان متيسرا استبدالها بتلك التي كانت تؤجرها لي الدولة في شارع ميزران، لانني وجدت في الاسكان من وافق على ان يؤجر لي شقة بنفس ثمن الشقة التي اسكنها، وكانت فعلا شقة جميلة تطل على البحر وعلى ارض خضراء تسبق البحر، واظن ان حرب67 وما رافقها من شغب ومن هجرة لليهود وتوكيل ببيع املاكهم، حال دون حصولي على هذه الشقة، وظهرت شقة اخرى يسكنها صديقي المذيع محمد التركي التاجوري، ويريد استبدالها بصفة اوسع، ووافق على ان انتقل اليها اذا تم العثور على تلك الشقة وصرت اتردد معه على مصلحة الاسكان، لاتمام استئجار الشقة الموعودة ، ولكن ظروفا لم اعد اذكرها حالت ايضا دون هذه الشقة وما اذكره هو ان اصديقي المذيع كان يشير الى فشل العملية بتذكير بعنوان كتابي الاول " البحر لا ما فيه"، ويعني به ضياع فرصة السكن قرب البحر، فكل مكان اخر بعيدا عن البحر يصبح بحرا لا ماء فيه. وتوقف المسعى نهائيا بعد الانقلاب، لان النظام الجديد جاء يحمل حقدا على البحر ويمنع اية امكانية في انشاء عمارات على على الشاطيء، الى حد ان شن حملة بالات البلدوزر ، ليهدم كل الدارات التي كانت قريبة من البحر لانه اصدر قانونا يقضى بان يكون حرم البحر مائة متر ، وكان قد اعلن في مقابلة صحفية في جريدة البلاغ يقول فيها انه يكره البحر، وربما بسب هذه الكراهية سعى لتلغيم الشواطي والسواحي بالالغمام التي غطت مساحة واسعة غير ان ثورة 17 فبراير ادركت هذا الشاطي وحالت دون اكمال المشروع ، وسعى فعلا لان يطرد البحر من طرابلس واقامة في البداية مشرع جدار بين طرابلس والبحر، باعتبار هذا الجدار سورا لجامع، وعندما تمت مواجهته باستحالة الفكرة، عمد الى فكرة ترصيف البحر لكسب الارض ، ربما اقتداء باليابان التي تحتاج لمثل هذه الارض، ولا تملك ما تملكه ليبيا من صحراء مساحتها مليون كيلو ميتر مربع ، المهم ، دفع مليارات من خزانة الدولة واخفى البحر عن اهل طرابلس لاكثر من عقد من السنين لرصفه البحر الذي تطل عليه طرابلس، وكان قد فسر كراهيته للبحر بسبب انه المكان الذي ياتي منه الغزاة، وكان تعليقنا ان الغزاة صاروا ياتون في هذا العصر عن طريق الجو، فلعله يحيل الان كراهيته الى السماء، وكان قد اقام الدنيا واقعدها للغارة الامريكية التي يقول انها استهدفت بيته، وان اسطولا جويا من اساطيل سلاح الجو الامريكي قام بها، ولكنه لم يتكلم عن تأثير تلك الغزو الجوية عن موقفه من اجواز الفضاء وعما تركته في نفسه من حقد على زرقة السماء. وعندما خابت المساعي في الحصول على مثل هذا السكن، اكتفيت بان تكون الغرفة التي اقيم بها في الفندق الكبير دائما مطلة على البحر، كما كان بامكاني وان اقيم بضع سنوات في العاصمة اليونانية ان اكتري شقة لها شرفة على البحر، كما تاتي لي اخيرا جدا الحصول على بيت ليس بعيدا عن البحر ، ولكنه يحتاج الى ادخال تعديلات للحصول على منظر للبحر يحقق ما اريد،

لانه بناء قديم بنوافذ صغيرة عالية، كان صاحبه القديم فيما يبدي من فصيلة كارهي البحر، فلم يقم باي جهد للاستفادة من هذا الجوار للبحر، وهو ما احاول في هذا العمر المتقدم تصحيحه باذن الله.

وبيوت اخرى

اقمت في مدن غير طرابلس ، ولمدد متفاوته، مثل القاهرة والرباط ولندن وادنبره وبيروت واثينا وبوخارست ، وقد زرت ولمدد متفاوته ، مدنا اخرى تتوزع على خريطة العالم، بعضها لعدة مرات، وكنت اتنقل بين اقامات فندقية، و شقق مفروشة، واجد ان لكل مدينة نكهتها ولونها المحلي، وطابعها الذي ختلف عن غيرها من المدن، ويمكن القول ايضا، انني قد اجد في المدينة الواحدة، وانا اتنقل بين احيائها ، ان لديها اكثر من شخصية واكثر من طابع ، وربما كانت القاهرة هي المدينة التي قضيت فيها اكثر مدة خارج مدينة الاقامة الدائمة وهي طرابلس ، كما انها المدينة التي تنقلت بين احيائها اكثر من اية مدينة اخرى، اذ كانت هي اول مدينة سافرت اليها خارج وطني ، وكان عمرى تسعة عشرة عاما، واقمت فيها طالبا لاكثر من سنة دراسية، خلال عامي 62 و63، وتنقلت بين اغلب احيائها الفقيرة والمتوسطة والغنية ، الغارقة في شعبيتها ، مثل شبرا ، والحديثة مثل المهندسين في بداية انشائها، مايسمي مصر الجديدة، وما يسمى مصر القديمة، وبين فنادقها الشعبية، خاصة في وسط البلد، وبين فنادق الدرجة الاولى، وارى ان هناك طابعا للقاهرة يفرض نفسه في اي حي واية زاوية من زواياها، هناك عبق يضوع من هذه الاحياء جميعا مهما تعددت وتنوعت واختلفت المستويات والحظوظ، فقرا وعشوائية او ثراء واناقة وبذخا، قدماوعراقة او حداثة وتجديدا، هناك طابع للقاهرة يمكن التماسه اينما كنت في جزء من اجزائها، وهناك روح، وهناك اسلوب في العمل والراحة في السهر والنوم ، وفي تلقي الخدمات وتقديمها لتصل الى صاحبها اينما كان، ومع ذلك ايضا، يمكن القول ، انه وسط هذه الروح العامة التي تكتنف كل المدينة ، هناك شخصية خاصة لكل حي، من احياها، وكلما ازداد الحي قدما وعرقا ظهرت الشخصية اكثر بروزا وضوحا كما في القاهرة الفاطمية والقاهرة المملوكية وقاهرة الخديوي اسماعيل ذات الطابع الاوروبي الكلاسيكي، ومنذ ان اعرفتها في مطلع الستينيات ، والى ان متلكت فيها بيتا بعد ذلك باربعين عاما، تنقلت بين عشرات البيوت، اعطتني هذا الانطباع ، بالقاهرة ذات الشخصيات المتنوعة المتعددة المعجونة في شخصية واحدة موصولة بزمن انشائها قبل الف عام، بزمن سابق عن زمن الانشاء عمره خمسة الاف عام هو زمن الاهرام والفراعنة، مرتبطا بما يحدث من ملاحقة للتطورات الحديثة وانفتاح على العصر يجعلها تحظى باخر تقليعة في الاسواق والمقاهي والمطاعم والعمائر السكنية ،التي يعطيها الاف الوجوه والاقنعة.

ولعل ما حدث معي وانا اسكن بيوت القاهرة ، حدث بصورة اقل تواترا وانا اتردد على مدن اخرى ، مثل لندن، التي تجولت بين اغلب احيائها الشهيرة، وبيروت ، وجزيرة صغيرة مثل مالطا التي كانت خلال عقد الستينيات، مقرا ثانيا لي مع طرابلس ، ولان اعتمادها في ذلك الوقت كان على السياحة فقد كان متاحا في كل مرة اذهب اليها ان اجد بيتا مفروشا معروضا للايجار بارخص الاثمان ، ولذلك كنت وانا اتردد عليها ربما خمس وست مرات كل عام ، اقيم في شقة جديدة ومنطقة جديدة وحي جديد، رغبة في التنويع والتجديد. وارجو ان اعود الى كتابة اكثر تفصيلا عن هذه المدن بما جرى لي فيها من احداث في جزء قادم من هذه السيرة.

كتب

لا اريد ان اكرر نفسي، فاتحدث عن كتب جاء ذكرها في متن السيرة، الا اذا كان ذلك بشكل عرضي ، وفي سياق غير هذا السياق ، وفي هذه الحالة فانه لن يكون تكرارا وانما حديث تمليه ضرورة ان اقف مع القاري وقفات تلقي الضوء على ظروف تاليفها. انه حديث عن الكتب ، غير انه ليس مفصولا عن مؤلف هذه الكتب، فالمؤلف هنا وبعكس النظريات التي تنسب لنقاد كثر بينهم رولان بارث ، ليس موتا للمؤلف ليبقى القاريء منفردا مع النص وتلويناته اللسانية واستراتيجية السرد اذا كان نصا روائيات او تركيباته اللغوية وحديث الصورة والرمز والدلالة اذا كان غير ذلك ، فالحديث هنا سيرة المؤلف، الحاضر المتمدد عبر اوردة وشرايين هذا النص، وعنه في حالة اشتباك حميم مع نصه، مع الكتاب الذي ينجب كما تنجب الام الجنين بدفقة من دمها، فما هذا الكتاب او هذا النص الا دفقة من دمه مخلوطة بنبضه وانفاسه، وان يكون الكتاب في هذه الصفحات هو الموجود في بؤرة الانتباه، فذلك اضفاء قيمة للكتاب والتعامل معه باعتباره كائنا حيا، يفكر ويتنفس ويعيش ويتكلم، ونستطيع ان نخاطبه ويخاطبنا، نحاوره ويحاورنا نطرح عليه اسئلتنا ونتلمس اجابته عنا، ونتعامل معه كما نتعامل مع الانسان الحي، ولا غرابة ان نراه يمشي بين الناس ويشاركم الحياة في بيوتهم ، ويجلسون اما يتعلمون منه دروس الحياة ،، دون نكران لان هناك خالقا لهذا الكائن هو المؤلف، ربما الفرق بين الكاتب والكتاب، ان الكاتب تسري عليه قوانين الحياة البشرية، ويصل الى لحظة يموت فيها موته الفيزيقي ، بعد ان يستكم دورته الزمنية المحدودة التي اعطاها له الله، لكن كتابه يعيش بعد موته، وقد تمضى القرون وراء القرون ، وهو مازال حيا، بدليل ان نقرأ اليوم اعمال مسرحي مثل سوفكليس، وقد اقضت خمسة وعشرون قرنا على وفاته، كما نقرأ اشعار عنترة وامريء القيس وقد مضى خمسة عشر قرنا على رحيلهم من عالم الاحياء، وطبعا يحدث ان تنتهى اثار كاتب بعد انتهائه مصداقا لما يراه الشاعر المتني في بيته الذي يقول فيه

تَتَخَلّفُ الآثَارُ عَنْ أصْحابِها, حِيناً وَيُدرِكُها الفَنَاءُ فَتَتْبَعُ

البحر لا ماء فيه

هذا هو عنوان الكتاب الاول، او شهادة ميلادي الادبية، اعددته ليصدر قبل ثلاثة او اربعة اعوام من صدوره، بل وصدر عنه اكثر من خبر عن قرب هذا الصدور وتحت عنوان غير هذا العنوان، حيث اخترت اكثر القصص رواجا ونجاحا وكان اسمها "الجراد"، لتكون عنوانا لهذه المجموعة الاولى من القصص القصيرة التي جمعتها في كتاب بعد ان ان اخذت طريقها الى النشر في صحف تلك الايام، وبينها صحيفة طرابلس الغرب، وعندما تاخر صدورها وجاء الاعلان عن مسابقة تشجيعية بين الادباء، اعلنت عنها وزارة الاعلام والارشاد القومي عند استلام الاستاذ خليفة التليسي لهذه الحقيبة ، عام 1965، وعن طريق اللجنة العليا للاداب والفنون، قررت المشاركة بها في هذه المباراة ، اسوة بادباء ذلك الوقت ، وكان اغلبهم اكبر مني سنا واكثر رسوخا ، امثال الاساتذة على مصطفى المصراتي، وعلي صدقي عبد القادر، وعلى الرقيعي ، وخليفة التكبالي، وكانت دفعة قوية لي، في تلك المرحلة المبكرة من العمر، وعلى بداية الطريق ،ان ياتي فوزي بالجائزة الاولى في مجال القصة القصيرة.

اعلنت نتائج المسابقة في ذات العام 1965 ، وكان عمري اثنتين وعشرين عاما، ولم ير الكتاب النور الا في مطلع العام التالي ، اي 1966، وسط احتفال نقدي واعلامي، وكانت الصحافة المحلية قد اغرقتني بالمقابلات والتعليقات، اما في المحيط العربي، فقد صدرت عن الكتاب، مقالات كثيرة احداها غطى قرابة صفحة كاملة من صحيفة الجمهورية، كتبه الرائد القصصي المعروف المرحوم فاروق منيب، وفي صحيفة المساء التي كانت تحظى بمكانة متميزة في اوساط المثقفين، كتب الاستاذ محمد جبريل ، مقالة نقدية ممزوجة بلقاء صحفي معي ، وفي روز اليوسف كتب فاروق عبد القادر، في ادب ، اشادة بالكتاب، وفي لبنان نشر الدكتور نيقولا زيادة، مقالا في احدى الصحف، متوافقا مع نشره في مجلة المعرفة التي تصدرها في ليبيا الاستعلامات الامريكية، وفي مجلة اخر ساعة كتب الدكتور يوسف ادريس مقالة ترحيب بالكتاب تحت عنوان كتاب بين يدي، وكانت صحف سوريا ولبنان قد اشادت بالكتاب، واعادت نشر قصص منها وكانت اكثر القصص حظا من هذا الترويج واعادة النشر هي قصة الجراد التي اعادت نشرها مجلة الطريق ، التابعة للحزب الشيوعي، واعادت نشرها مجلة المعرفة الثقافية الادبية التي تصدرها وزارة الثقافة السورية، ولم تكن هناك في ذلك الوقت، كما هو الحال الان ، شبكة عنكبوتية تنقل الاصداء، ولهذا لم اشر هنا الا ما وصلني عن طريق بعض الاصدقاء، ولكن دراسات عن هذه المجموعة تواترت واستقطبت انتباه كتاب ونقاد كبار امثال الدكتورعبد القادر القط، الذي كان قد جاء استاذا للادب في الجامعة الليبية، وجد كتاب البحر لا ماء فيه، فقرره على طلابه في الجامعة، والحق به كتابي الثاني "اربطوا احزمة المقاعد" وكتب عن الاثنين دراسة نشرها في صحيفة الحقيقة ، وهي موثقة في كتبه وفي كتاب للراحل بشير الهاشمي اسمه خلفيات التكوين القصصي في ليبيا، وبسبب الرواج الذي ناله كتاب البحر لا ما فيه، والنجاح الذي حظي به في الوطن العربي، وجدت اذاعة صوت العرب ، وكانت الاذاعة الاكثر شعبية لدى المستمعين العرب، تقتبس قصة الجراد، لتصنع منها مسلسلا اذاعية، هو سباعية الجراد، قامت به احدى الممثلات القديرات السيدة فاتن الشوباشي زوجة الكاتب عبد الرحمن الخميسي، وعدد كبير من نجوم مصر، وهي نفس القصة التي صنعها من التليفزيون المصري تمثيلية سهرة فيما بعد من اعداد سيد خميس واخراج محمد فاضل، وشارك فيها بعض نجوم التمثيل الليبي مثل الراحلين على القبلاوي ومختار الاسود.

اربطوا احزمة المقاعد

بعد عامين من صدور الكتاب الاول، توفر لدي عام 68 مجمةعة اخرى من القصص القصيرة، سبق نشرها في الصحف والمجلات، ورايت ان اضمها بين دفتي كتاب، ولم تكن حركة النشر قد صنعت لنفسها تقيدا ثابتا يمكن الوثوق به واللجوء اليه ، كما لم يكن النشر الحكومي قد صار له كيان او مؤسسة، وكان اغلب الكتاب الذين يطمحون لنشر انتاجهم ينشرونه على حسابهم ، وهو ما فعله ادباء سبقوا ابناء جيلي مثل الاساتذه المصراتي والتليسي وابوهروس وسيالة والقويري، او عن طريق ناشر واحد، هو الاستاذ الفرجاني ، وله دور ريادي في هذا المجال الا ان العناوين التي ينشرها كل عام لا تزيد على اصابع اليد الواحدة، اما الحكومة فقد استصدرت قرارا وزاريا يقتضي شراء الف او خمسمائة نسخة من كل كتاب لمؤلف ليبي، الا ان تطبيقه كان مرتبكا، ولم يعش طويلا، فقد جاء العهد الانقلابي، فالغاه، ولم يكتف بهذا الالغاء، بل اراد الغاء كل ما يصرف من مكافآت ضئيلة للكتاب والقى رئيس الانقلاب خطابا، مليء بتلك

العبارات العبثية الجنونية التي تتحول للاسف فور خروجها من فمه الى قوانين فاعله ، فقد راى بعبقريته الفذة ان من يتقاضى مكافاة من الحكومة على شيء يكتبه هو يبيع فكره واسماه الفكر الحكومي ، وليته قال هذا الكلام، بعد ان رفع يد الحكومة عن وسائل التعبير والنشر، وانما قاله وهو يقوم بالغاء اي مشروع خاص في هذه المجلات فقد جعل كل الصحف وكل وسائل الاعلام والنشر والتوزيع والاعلان كله احتكارا حكوميا ، وكانه بمثل هذا القرار يريد لكل صاحب قلم ان يرمي قلمه ويتوقف علن الكتابة، لان جزءا من علم القلم وهو جهد يتوجب لصاحبه ثمنا لجهده ، ليس عندما يكتب مقالة وانما كتابا بحثيا او كتابا ابداعيا او عملا دراميا للمسرح او التليفزيون او الاذاعة او السينما ، فهو يراه خطا ان يتقاضى صاحبه ثمنا.

المهم انني غامرت بالسفر الى بيروت، واستعنت بدار نشر اوصاني بها الاصدقاء، هي دار لبنان، طبعت لديها الكتاب، بواقع الف نسخة، وتوافق وصول هذه النسخ مع موعد ذهابي الى البعثة، فقمت بتوزيع اكثرها على عدد من المكتبات واصحاب الاكشاك، وسافرت دون ان اجد وقتا للقيام بما يحتاجه الكتاب من اشهار، فخرج في صمت، وخسرت النقود التي انفقتها في طباعته، لانني لم اقم باي جهد لتحصيل ثمن ما قمت بتوزيعه من نسخ، فلم اكن املك ورقا ولا توثيقا لعدد النسخ التي اعطيتها لهم بل نسيت حتى لمن اعطيت هذه النسخ، فاعتبرت انه جهد يقع في خانة جهود المحبين ذهبت هباء، وهو عنوان مسرحية لشكبير، ومع ذلك فقد صدرت بعض الدراسات عن المجموعه، احدها على المستوى المحلي للصديق الناقد نجم الدين الكيب، وشملها الناقد المصري الكبير الدكتور عبد القادر القط، في دراساته عن القصة الليبية، التي خصص احداها عني من خلال المجموعتين الموجودتين في السوق، اذا صح اعتبار ما حدث للكتاب الثاني سوقا، وكما اسلفت القول قرر دراستهما من قبل طلابه في كلية الاداب.

المهرجان

لم يصدر كتابي الثالث الا بعد مرور سبع سنوات او اكثر قليلا، من صدور الكتاب الثاني، الا ان هذه المسافة الزمنية ، الفاصلة بين الكتابين، لم تكن فراغا او بطالة ادبية ، وانما كانت حافلة باعمال ابداعية ، وانجازات عملية فوق ارض الواقع، وكتابات كثيرة اخذت طريقها للنشر في الصحف، وانشغلت عن نشر هذه الاعمال في كتب، فقد عدت من بعثيى الى لندن بعد عامين ونيف، لاكون مديرا للمعهد الوطني للتمثيل والموسيقى، في طرابلس، واستطيع ان اقول انني خلال فترة ادارتي له قمت باعادة تاسيس له، واستصدرت قانون الاعتراف به من قبل وزارة التربية والتعليم، لانني عندما توليت ادارته كان معهدا انشاته وزارة الاعلام ، باعتباره معهدا حريا ، لا يلتزم بتقديم شهادات معترف بها من التعليم، رغم وجود قسم من الطلاب متفرغ للدراسة غير فصول مسائية من غير المتفرغين، وكما جاء في متن السيرة فقد كان هذا الاعتراف يقتضي كتابة مدكرات من قبلي مرفوعة لمجلس التخطيط الاعلى الذي يمنح الاعتراف واقتضى الامر ان احضر عددا من جلسات المجلس بعد كتابة هذه المذكرات لشرحها والرد على اسئلة اعضاء المجلس عند نقاشها، واقمت بلا ميزانية او امكانيات اضافية غير الامكانيات المخصصة للتدريس ، باقامة مهرجان مسرحي وموسيقى امتد لمدة اسبوعين كان في كل ليلة يعرض عملا اما مسرحيا اوحفلا استعراضيا غنائيا، وشمل مسرحيات عالمية مثل المثرى النبيل لموليراخراج زين العشماوي، وقناع السعادة المقتبسة عن عمل ياباني اخراج محمد ماهر فهيم، الى كل شيء على مايرام

عن مسرحية الموت يحكم المدينة للدكتور عبد الغفار مكاوي اخراج محمود ابو النصر، كما تم تقديم تابلوهات استعراضية، غنائية، مثل تابلوه الارض تاليف احمد الحريري، والحان على ماهر، وتصميم الرقصات صالح العجيلي، وكنت جاهزا ، فوق ادارة المهرجان، وادارةالمعهد، بعدد من الاعمال التي توليت انجازها على الوجه الاتي، مسرحية الافتتاح والختام، وهي مسرحية غنائية ، او اوبريت ،اردت ان تظهر فيها جهود قسمي المعهد ، الموسيقى والتمثيل، وكان عملا طوله ثلاث ساعات، نال نجاحا غير مسبوق، وكان عملا رائدا في تقديم هذا النوع من المسرحان بعنوان هندا ومنصور، وهو من تاليفي واخراجي، والحان الفنان على ماهر وتصميم رقصات صالح العجيلي واداء طلاب المعهد في التمثيل ، والغناء والعزف ، طلاب المعهد في قسم الموسيقى ، كذلك كانت موسيقى حية ترافق المسرحية قام بعزفها اساتذه المعهد وبعض طلاب المراحل المتقدمة في العزف ، وقام بالبطولة مطرب وعازف هو المرحوم فوزي الهاشمي ، في دور منصور ، وامامه في دور هندا ، الطالبة سناء النفاتي، وكان القائم باعمال الديكور محمد شعبان الفيتوري ، مستعينا بورشة المسرح الوطني ، ومن تاليفي واخراجي ايضا قدمت مسرحية من نوع الفصل الواحد هي زائر المساء، قام ببطولتها المدرس المصري بالمعهد الاستاذ محمد شعيب ، وفنانة المسرح الليبي سعاد حداد، وكان المعهد وثيق الصلة بالجالية الاجنبية التي تحضر بعض الحفلات الموسيقية ، وتستضيف المدرسين في معاهده الثقافية، فقدمنا ليلة من ليالي المهرجان للاجانب والسلك الديبلوماسي المقيم في طرابلس ، باللغة الانجليزية، فقد باداء عمل درامي فردي سردي حواري ، مصحوبا بالعزف الحي على البيانو لواحد من نوابغ الموسيقى العربية ، الفلسطيني يوسف خاشو،وكانت القطيعة بعنوان ساحرك عظام اسلافي الموتى" وتضمنت السهرة مسرحية من تاليفى هي صحيفة الصباح ، قدمتها فرقة كندية كانت تعمل في مدرسة اجنبية ، واخرجتها احدى مخرجات المسرح الكنديات تصادف وجودها في طرابلس.

هندا ومنصور

رغم علاقتي القديمة بالفن المسرحي، واتصالي بالفرق العاملة في هذا المجال على مستوى الهواية والاحتراف، ودراستي الاكاديمية لهذا الفن تمثيلا واخراجا، فانه لم يكن يرد على بالي كتابة عمل استعراضي غنائي لتقديمه على المسرح، ربما لمعرفتي بفقر الامكانيات المادية والبشرية، التي تصلح لمثل هذه الاعمال الغنائية الاستعراضية التي تقوم على الابهار وتوفر العنصر النسائي، الا عندما بدأنا نفكر في خلق تقليد في المعهد، رايته متبعا في اغلب معاهد واكاديميات العالم، وهو ان يكون للمعهد مهرجان سنوي، يقدم فيه للجمهور انجح ما لديه من تجارب ، وما انتج الطلاب من مشاريع تخرج وغير ذلك، ولانه المهرجان الاول، فقد وضعنا خطة لتوظيف كل امكانيات المعهد، واقحا اساتذة التمثيل واساتذة الموسيقى ، والطلاب والطالبا في قسمي الموسيقى والتمثيل، في مشروع المهرجان، واعتبار ما يقدم جزءا من مراحل التدريب والتمرين التي يحتاجها طلاب وطالبات المعهد، وهو تمرين يدخل فيه مواجهة الجمهور والتفاعل معه، وتقديم الاعمال له، بدلا من تقديمها في فصول مغلقة، كما انه اختبار او امتحان يكون الحكم في هو هذا الجمهور، ووفقا لهذه الخطة ، اردت كتابة عمل يشترك فيه القسمان ، الموسيقى والتمثيل، بكل ما فيهما من اساتدة وطلاب، ولابد وبالضرورة ان يكن اوبريت تحتوى التمثيل والغناء والعزف، واعتمدت في كتابته على قصة قصيرة لي ، منشورة في مجموعة اربطوا احزمة المقاعد اسمها القمر الاحمر، وهي قصة حب تحمل ملامح التراث البدوي، بطلها راعي الغنم منصور، الذي يقع في

غرام ابنة شيخ القبيلة هندا ، وتبادله هي الحب ، الا ان التفاوت في المستوى الاجتماعي والاقتصادي، والعصبيات القبلية وغيرها تقف عائقا امام هذ الحب ، بل تحاربه وتسعى الى منعه بالقوة، وتتحول قصة الحب الى مأساة، كغيرها من ماسي الحب الشهيرة في الادب والتاريخ بدءا من روميو وجولييت الى قيس وليلى. عدت الى تلك القصة القصيرة ، واعدت كتابتها في قالب مسرحي، وجعلت لغة الحوار في قالب شعري غنائي، ورايت تخفيفا لوقع المحنة التي يتعرض لها العاشقان، اغناء بعض المشاهد، بمواقف كوميدية، وجعلت صديقا للبطل، شخصية مضحكة اسمه سعدان اشبه بعبيط القرية، يكون صدرا لهذه المادة الكوميدية التي تتخلل المشاهد.

وما ان بدأت اباشر العمل ، وافتح موضوع الاوبريت، مع عدد من الزملاء ، من اعضاء هيئة التدريس ، العارفين بمثل هذه المادة المسرحية، واطلع بعض اساتذة قسم الموسيقى ، على المشاهد التي انجزتها، حتى رايت بعضهم يقترح نوعا من المعالجة، ويقدم نماذج للوحات ومقدمات موسيقية، وقد حدث هذا مع الراحلين العظيمين يوسف خاشو وكمال العليمي وكلاهما جهبد في ميدانه ، بل ان ليوسف خاشوا سيفونيات لها مكانة في المشهد الموسيقى عالميا، الا ان هذه النماذج لم تزدني الا قناعة، بان هذا العمل الذي يتصل بالبئية البدوية الصحراوية ومفرداتها الغارقة في الفلكلور الليبي واللون الحلي الليبي، يحتاج الى معالجة اخرى ، رغم قوة ما انجزه الصديقان، الا انه كان يصلح لعمل اخر له طابع انساني عالمي، او عملا اخر من التراث العربي ، الا انها لم تكن تناسب العمل الذي كنت بصدد انجازه، ولذلك فانني فور ان اكملت كتابتها، وكان عمل الوقت يلاحقنا، سالت صديقى ونائبي في ادارة المعهد الموسيقار على ماهر، ان يتولى هو وضع الموسيقى للمسرحية، برغم ما كان بين يديه اعمال لكتلك التي كتبها احمد الحريري واهمها تابلوه الارض، ومسرحية اغنية على الممر التي يتولى مع التلحين بطولتها تمثيلا وغناء، الا انه قرأ العمل واحبه وتعهد بان يسهر على انجازه في الوقت الضيق المتاح، واشركته معي، باعتباري مؤلف العمل ومخرجه ايضا، في اختيار العناصر التي ستتولى الغناء ، بل وبطولة المسرحية، وتم اغتيار عازف الكمان الذي كان طالبا في المعهد فوزي الهاشمي، رحمه الله، وكان صاحب صوت جميل لاداء دور منصور، وزميلته في قسم الموسيقى سناء النفاتي بدور هندا، وكنت قد انهمكت في المهرجان ادارة واخراجا لهذا العمل واعمال اخرى اقسم بينها وقتي ، كما كنت اعمل بلا ميزانية على الاطلاق، ولا دعم من الدولة وبجهود ذاتية صرفة وكل الناس من مدرسين وطلاب يعملون على سبيل التطوع، وتاجلت اجازات هيئة التدريس بسبب المهرجان ، وكنت استغرب لنفسي لانني كنت قادرا على الاكتفاء بثلاث ساعات نوم في اليوم خلال اشهر التحضير للمهرجان، وكان النجاح الساحق الذي لاقته اوبريت هندا ومنصور، والنجاح الساق الذي لاقاه المهرجان، يتكافأ مع مع حجم التعب والعناء، والجهد الخارق الذي بذله كل عنصر من العناصر التي شاركت في المهرجان، ليبين وعربا وجانب، وتكررت الدعات فيما بعد لعرض اوبريت هندا ومنصور، مرات عديدة بعد ذلك، اثناء مؤتمرات دولية وعربية تقام في طرابلس، حيث عرضت اكثر من مرة في مسرح الودان، ومكافأة لطلاب العهد على ما حققته هذه الاوبريت من نجاح، وافقت وزارة الاعلام والثقافة، على ترتيب رحلة له الى القاهرة، على نفقتها، لعرض الاوبريت هناك، واعطت المعهد حافلة، استخدمها في الذهاب والعودة، وتم اجراء تمارين على المسرحية في مسرح الجهورية، حضرها عدد من الصحافيين، ولكن ليلة العرض الغيت للاسف الشديد، لانه في يوم قبلها مات ضابط من اعضاء مجلس الانقلاب، في حادث سيارة، فاعلنت الحكومة الحداد

عليه، واردنا ان نواصل عرضنا لكن المزايدة والكذب والنفاق، تدخلت لمنع العرض حزنا على الضابط الفقيد، ولم يكن السفير سعد الدين ابو شويرب ، موجودا، ولكن نائبا له اسمه محمود البكوش، اصدر اوامره بان نقفل المسرحن ونوقف العرض، بسبب الحداد على الفقيد، الذي لم يكن هناك احد في القاهرة يعلم برحيله، او بوجوده عندما كان على قيد الحياة.

وكانت التعليقات تترى اشادة بالمسرحية في صحف مصر، وقد جعلها الناقد الفني الكبير الاستاذ عبد الفتاح البارودي رحمه الله، موضوعا للزاوية اليومية التي كان يحررها في الاخبار لعدة ايام، لمجرد انه حضر هذه التمارين ، وكان منبهرا بالعمل، كما كتب عنها نقاد وصحفيون اخرون رغم حجب العرض الرئيسي، الذي كان مقدرا ان يصور للتليفزيون ويحضره صفوة الجتمع حيث كان العرض مخصصا لتقديمه لحاملي بطاقات الدعوة، وتشمل نخب المجتمع الادبية والفنية والسياسية .

كان الوقت مبكرا في ذلك الوقت للتعرف على الشخصية المريضة لصاحب الانقلاب، وقد ظهرت في ذلك الوقت بعض الغمزات المسمومة ، التي تبين مدى حقده على اي شيء ناجح يتم تقديمه، دون ان يظهر هو في الصورة ، او يخطر باذهاننا انه وراء مثل هذه المحبطات والدسائس، كما صرنا نعرف في مراحل لاحقة، وكانت الملاحظة المسمومة قد نشرت في صحيقة كانت تحرر في مكتبه ، اي في القلم كما يسمونه ، ناطقة باسم التنظيم العسكري، واسمها الفاتح ، ويحررها ضابط يعمل بالقلم رسميا، اذ كتبت هذه الصحيفة ، وبعد ان تكررت الاشادة بمسرحية هندا ومنصور ، واتسع مجالها من الصحافة الليبية الى الصحافة المصرية، ملاحظة تحمل الهزء والسخرية والانتقاص من قيمة العمل ، ووضعت الملاحظة تحت عنوان " الكوميديا الالهية الجديدة". وكانت هذه هي المكافاة التي وردت الينا من اعلى مكتب في ليبيا، لهذا العمل الذي كان رائدا في مجاله ، مجال المسرح الغنائي، وقدمناه تطوعا خالصا، وكنت شخصيا اصرف من جيبي الخاص لاستكمال النواقص التي لابد من شرائها من السوق، ولم يحدث ان تقاضيت انا مؤلف العمل ومخرجه، او ملحنه، وكلانا اهل احتراف ومسئوليات عائلية ولسنا طلابا كبقية العاملين في المسرحية، مليما واحدا، مقابل جهدنا ، او تكرار عرض هذا العمل فيما بعد، ليس هذا فقط، بل ولم نتقدم في يوم بطلب للدولة التي قامت فيما بعد بتصويره وعرضه في التلفاز ، نسال عن هذا الحق في المكافأة. ولم نفكر الا انه عمل نقدمه عطاء سمحا كريما للوطن ، ولتعزيز مكانة فن المسرح والموسيقى في المجتمع الليبي، الذي نطمح ان ياخذ باسباب الحضارة واهم عواملها ازدهار الفنون والاداب.

واعود الى مساهمتي في ذلك المهرجان، وهي مسرحيات هنده ومنصور، زائر المساء، تاليفا واخراجا، ثم مسرحية صحيفة الصباح باللغة الانجليزية تاليفا ، ومشهد تمثيلي له طابع شعري باللغة الانجليزية تأليفا واداء. وبالنسبة لمسرحيتي زائر المساء فقد حدث تقديمها بالعربي ، بينما هي مكتوبة اصلا باللغة الانجليزية ، وحصل لها تقديم في بريطانيا في اكاديمية لامدا للمسرح ، باخراج الكاتب والمخرج البريطاني من اصل مصري، الاستاذ عادل درويش.

اختفت النجوم، فاين انت؟

كان هذا هو الكتاب الثالث الذي ظهر لي عن الدار العربية للكتاب، ويبدو ان احد العاملين في الدار قد رأى العنوان طويلا، فالغي جزءا من العنوان ، وهكذا ظهر في الطبعة الاولى ، اختفت النجوم، بدلا من العنوان المركب بطابعه الشعري ، اختفت النجوم فاين انت؟، وجاء متشابها مع اكثر من عنوان لكتب قصصية اخرى مثل تبعثرث النجوم ، فتاسفت لمثل هذا الاجتراء على عنوان الكتاب، وكنت قد عزمت على ان ارفض الكتاب بهذا العنوان، واطالب الدار باعادة طبعه بالعنوان المتفق عليه، لولا ان حدث ان رئيس الدار كان صديقي الراحل واحد عمداء الادب في ليبيا الاستاذ خليفة التليسي، الذي اعتذر لي عن هذا العنوان، وتاسف لان هذا الاختصار للعنوان حدث دون علمه ، لان الكتاب كان يطبع بعيدا عن مقر الدار في طرابلس وتحت اشراف فرعها في تونس، وجاء هذا الخطأ في وقت كانت الدار تمر فيه بضائقة مالية، فلم استطع الا ان اسحب اعتراضي وانتظر تصحيح العنوان في طبعة تالية وهو ما حدث فعلا . وقد صدر هذا الكتاب اواخرعام 1975 ، وانا اعد نفسي للسفر الى لندن لاستلام عملي الديبلوماسي هناك، في اخر ايام السنة، وكنت قبل ان اسافر قد هيات بعض كتبي للنشر، اعطيت هذا الكتاب الى الدار العربية بينما اعطيت البقة الى شركة النشر والتوزيع والاعلان، بحكم الصداقة التي تجمعني بمدرائها ، وكان يتولى مديرها العام، المرحوم عياد الطاهر، ويتولى ادارةالنشر المرحوم نوري بازيليا، وانتظرت ان تصدر الكتب تباعا، فلم ار الا هذا الكتاب الذي صدر قبل سفري، ونال ترحيبا نقديا، على المستوى العربي، وكان موصع دراسات نقدية من ثلاثة نقاد كبار هم الدكتورمحي الدين صبحي الذي نشر دراسة عنه ، اعادت نشرها صحيفة الفصول الاربعة الليبية ، ثم صدرت في كتاب من كتب الناقد الكبير، ودراسة للدكتور صبرى حافظ نشرها في صحيفة العرب ، ثم الدكتورة سلمى الخضراء الجيوشي، صاحبة مشروع بروتا للترجمة ، وكانت تقيم ذلك الوقت في لندن، وكتبت دراسة باللغة الانجليزية لقسم الدراسات العليا في جامعة ادنبرة كنوع من دعم قبولي للداسة العليبا في تلك الحامعة، واظن ان الكتاب كان مفاجأة للنقاد الثلاثة الذين لم تكن لهم دراية عميقة بما اكتب وربما لم تكن لهم متابعة للمشهد الليبي، وكنت معروفا لديهم باعتبارى كاتب مقالة ورئيس تحرير مطبوعات ثقافية مثل الاسبوع الثقافي والثقافة العربية وان كتابتي للقصة لا تمثل خطا رئيسيا في حياتي ككاتب واديب ، واذ افترضنا جدلا اطلاع بعض النقاد على كتاباتي القصصية السابقة ، فانهم بالتاكيد سيجدون مستوى اكثر نضجا في هذا الكتاب، وسيلاحظون ان في هذه المجموعة التي ضمت عددا من القصص القصيرة، مع اكثر من نصي مسرحي قصير ، قد تاكدت شخصيتي الخاصة، واسلوبي الخاص، ومفرداتي القصصية وقاموسي الشخصي باكثر مما تحقق في المجموعتين السابقتين، فقاريء البحر لا ماء فيه، سوف يجد خليطا من الاساليب والمعالجات ، وطرق السرد ، تتوزع بين واقعي ورومانسي ورمزي، وكان واضحا انني احاول عبر هذه النصوص ان اهتدي الى شخصيتي ، واعثر على منهج في الكتابة السردية يصلح لي ويميزني عن اساليب غيري من الكتاب، ثم جاء كتاب " اربطوا احزمة المقاعد" خطوة اكثر تقدما على طريق الاهتداء الى هذه الشخصية ، وهذا الاسلوب ، ولكنه كان ايضا كتابا ممزوجا بغبش البدايات ، رغم وجود ارهاصات للرؤية التي تبلورت في المجموعة الثالثة. فيما يخص الكتب التي هيأتها للنشر واعطيتها للشركة الموكلة في ليبيا بهذا الامر وذكرت ان مدراء الدار اصدقاء، وكانوا هم من يلح على ان اجمع ما لدي من كتابات واعطيها لهم واغلبها مقالات كنت قد نشرتها في الاسبوع الثقافي وصحف تلك المرحلة، فانها ظلت لم تر النور، وكنت استغرب كيف تصدر كتب الاخرين وتتاخر كتبي عنهم، وكنت اعود الى البلاد في زيارات سريعة واذهب اذا وجدت وقتا عن سبب هذا التاخير ، فلا اسمع سوى كلمة الرقابة، بمعنى ان كتبي محجوبة في ادارة

الرقابة التي تجيز المطبوعات ، وهو امر غريب ، لان كل ما فيها هو منشور في صحف ليبية تتبع الحكومة ، ولم يعترض عليها احد فلماذا تكون اليوم موضع اعتراض، ولم اكن حقيقة اعتني كثيرا بالموضوع، الا انني بالصدفة كنت التقي بمدير المطبوعات فيقول لي ان ليس هناك مخطوطات للشركة قاموا بمنعها من النشر، ولم اعرف الا متأخرا جدا انه فعلا لا وجود لاي سبب يمنع نشر هذه الكتب سياسيا او غير سياسي ، وان مدير المطبوعات صادق فيما كان يقوله لي ، وان السبب كان يكمن في صديق من اصدقاء العمر ، واعتبره استاذ لي في مرحلة البدايات، هو الكاتب الاستاذ بشير الهاشمي رحمه الله ، فقد كان يحتل موقعا في هذه الادارة التي تعنى بالرقابة ، وكان هو الذي يتولى حجب كتبي وعدم اصدار تراخيص نشر بشئنها ، وابلغني زميل يعمل معه واظنه مازال موجودا على قيد الحياة ، بانه كان يقول لهم ضعوا هذه المخوطات في ادراج منسية لكي لا يراها احد، وكانت فيما يبدو حالة من الغيرة الشديدة تمكنت منه ، واوصلته الى هذا الموقف الذي يدل على حالة مرضية اكثر مما يدل على اي شيء اخر ، ولم اتابع الموضوع معه او مع اي احد اخر، لم اقم جديا بالاعتناء بهذه الكتب الا بعد عودتي من عملي الخارجي، حيث استطعت اخراجها من الادراج المرمية في الاقبية ، واعادتها الى الشركة التي قامت بنشرها.

إمرأة من ضوء

واستطيع ان اقول ان ما صدر لي من مجموعات بعد ذلك، تحقق فيها ما يمكن اعتباره وصولا الى مرحلة النضج، واكتمال الادوات ، وبلوغ الموهبة الى مرحلة متقدمة من استوائها وتحققها، دون ان يعني ذلك ، انغلاقا في افق التطور، وغياب مساحات للتطور وانمو امام هذا القلم وهذه الموهبة، وان ما تلى المجموعات القصصية الثلاث الاولى من كتب مثل مجموعة امراة من ضوء، لا تشكل انضج ما وصل اليه الفن القصصي، وانما انضج وافضل ما وصل اليه هذا الكاتب، ولابد من القول انني اعطيت فن القصة القصيرة كل جهدي، واخلصت اليه اخلاصا شديدا، وظل هذا الاخلاص وهذه المثابرة وهذه الروح الجادة التي اكتب بها القصة القصيرة ، ملا زمة لي ، حتى عندما تنوعت كتاباتي الابداعية بين الرواية والمسرحية، غير اعمدة الراي التي كانت اشبه بمهنة امتهنها واكسب منها عيشي، ظلت القصة القصيرة خطا اساسيا من خطوط الانتاج الادبي في حياتي، وها قد وصلت المجموعات القصصية التي انجزتها ، عند كتابتي لهذه المذكرات، 17 مجموعة قصصية، وقد صدرت مجموعتي الرابعة امرأة من ضوء، بعد ربع قرن من من نشر اول قصة لي عام 1960، وصدرتها ببعض الاسطر التي وردت في لقاء لي مع الكاتب اللبناني الاستاذ بسام منصور، محرر مجلة كل العرب في باريس بتاريخ 1984/6/20م. ، اقول فيها:

"إنني ارفض الهروب من الواقع بمثل ما ارفض ان اتورط في محاولة كاذبة لترحيله كما هو، وانا اعرف انني لا استطيع، لذلك فانه لابد من وسيلة اخرى غير هاتين الوسيليتين الاثنتين، ومن هنا بدأت محاولتي للبحث عن الاشياء الخفية وراء الاشياء التي نراها، ان يكون الفن عينا ثالثة ، نرى بها الوجود الاخر للاشياء هوذلك الوجود الذي لا نراه باعيننا. انه محاولة للكشف عن اسرار هذا الواقع ودلالاته . ان الشيء الذي اراه لا يعنيني في حد ذاته ولكن ما يعنين هو الدلالة خلف هذا الشيء، كما ان الحدث لا يعنيني في حد ذاته ما يعنيني هو الدلالة خلف هذا الحدث"

ولعل مثل هذا الكلام ينطبق على اغلب الاعمال السردية ، الا انه لا يقدم تفسيرا كاملا لرؤية الكاتب للعوالم التي ينسج حولها ابداعه ويستقي منها فنه ، نعم للدلالة خلف الحدث واهميتها، ولكن الحدث، مشهدا وعلاقات وصياغة، يجب ان تكون له اهمية لا تقل عن الدلالة، لان الدلالة في الواقع تستمد وجودها وقوتها ومدى تأثيرها من قوة هذا الحدث، والعلاقات التي تربط هذا الحدث مع مكانه وزمانه ومحيطه، ثم قوة سبكه وصياغته ودفقة الخيال التي تدخل في تكوينه وبنائه. وفور صدور هذه المجموعة قرات مقالا جميلا يزخر بالثناء عليها ، ويعبرعن قوة انبهار الكاتب بها، وما تركته من انطباع اجاد تصويره في مقالة نشرتها مجلة المجلة السعودية، بقلم مبدع عراقي ناقد وشاعر وباحث ، لم اعرفه ولم التق به بحياتي، هو الدكتور زكي الصراف، واردت ان التقي به، بعد ان علمت انه كان يعيش في لندن، وكان ذلك بعد عدة سنوات، فعلمت ان هذا الاستاذ الشاعر والناقد قد فارق الحياة بعيدا عن وطنه العراق ، في غربته البريطانية، رحمه الله، وكتب عن هذه المجموعة في ليبيا زملاء افاضل مثل الراحل كامل عراب والصديق على الشواشي ، ولكن المقال الاول الذي ظهر عنها ظلت له في قلبي مكانة خاصة ، وساسمح لنفس ان اقتبس هذا المقطع من كلام الشاعر العراقي الراحل عليه رضوان الله:

((قرأت هذه المجموعة فى سويعات ، ولكنى عشت أياماً فى أجوائها المثيرة . عشت أياماً مع أبطالها فى تنقلهم وعذابهم وهواجسهم وتصوراتهم وآلامهم ، ولعل مرد ذلك أن هذه الصفحات كتبت بصدق وأمانة ، صفحات نابعة من وجدان صادق وعواطف متأججة ، مفعم بمشاعر إنسانية ، مضمخة بعبارات الحب . صفحات إن لم تكن من الشعر فى الصميم ، فهى تحمل أرق صفاته وأعذب وأوقع مشاعره))

مرايا فينيسيا

تأخر صدور المجموعة الخامسة الى عام 2000، وكان قد استقر بي المقام في القاهرة، ووجدت انه قد توفر لي حصيلة من القصص وصلت اكثر من عشرين قصة قصيرة نشرتها في الصحف ولم تصدر في كتب او كتاب، اردت عندئذ ان اتواصل بها مع القاريء في مصر ونشرها عبر دار نشر مصرية، هي

الاكبر والاشهر في القطر المصري، وكان صاحبها الصديق ابراهيم المعلم، قد رحب ان ينشر انتاج لي، فاتفقت معه على نشر مجموعة من الكتب، بدءا بهذه القصص التي لم يسبق لها النشر في كتب ، ووجدت انها يمكن تقسيمها على كتابين ، ليس لاي سبب الا لان كل باقة من القصص رايت ان لها مناخا خاصا وتجمعها خصائص ربما تختلف عن الباقة الاخرى ، وهكذا صدرهذه في مجموعتين ، احداهما بعنوان "مرايا فينيسيا"، وكانت القصة الرئيسية تدور في احدى عواصم الفن والادب في ايطاليا هي فينيسيا، وهي اخر ما كتبت من قصص في تلك الفترة، وكنت قد تلقيت دعوة من صحيفة الاهرام ، حملها لي الكاتب القصصي المصري الصديق سليمان فياض، للمشاركة في كتاب قصصي يجمع نتاج عدد من الكتاب العرب ، مشترطين ان تكون القصة لم تنشر من قلب، فاسلمته هذه القصة ، وكان الكاتب السوداني الصديق الطيب صالح موجودا في القاهرة، فاعطى قصة جديدة لم تنشر من قبل ، لعلها احدى اجمل ما كتب من قصص، ذات مسحة صوفية شعرية ، ورايت ان اجعل عنوان هذه القصة عنوانا للمجموعة، ويجمع هذه القصة مع بقية القصص انها تتعامل مع قضايا ذات طابع انساني ، وليست مرتبطة ارتباطا اساسيا مع البيئة المحلية ، ولا يطغى العامل المحلي على القضايا التي تقع خارج هذا الاطار، وتتعاطي مع قضايا انسانية كونية، تبتعد قليلا عن قصصي الاخرى ذات النكهة واللون المحليين، ولاقت المجموعة صدى طيبا في بلد الصدور، فكتب عنها الناقد المعروف الاستاذ ابراهيم فتحي ، والناقد الراحل الدكتور عزازي علي عزازي، وادار الدكتور مدحت الجيار ندوة حولها في احدى المنتديات، ثم جاءت ندوة عن السرد القصصي في اطار الندوات الدولية التي يقيمها المجلس الاعلى للثقافة ، وعرفت ان استاذة الادب العربي في ايطاليا السيدة ايزابيلا كاميرا، ستقدم دراسة عن الادب العربي المترجم الى الايطالية واختارت ان يكون المثال لهذه الترجمة قصة "مرايا فينيسيا" وكانت تلك هي اول معلومة تصل لي عن صدور قصة مرايا فينيسيا باللغة الايطالية، وليس معنى ذلك ان القصة ترجمت دون علمي، فربما تمت بعلمي ، لان هناك رسائل تصل عن طريق الانترنيت تطلب اذنا بالترجمة ، فلا اتردد في تقديم هذا الاذن، ثم لا اتعقب الموضوع ، واحيانا انساه تماما، فتاتي الترجمة مفاجاة لي احيانا، خاصة اذا كانت الترجمة للغة غير الانجليزية ، فكلها لغات لا اجيدها ولا امل لي في ان اقرا نصي بها، ويبدو انها ترجمت ونشرت في احدى الدوريات قبل ان تصلني في كتاب باللغة الايطالية ضم ثلاث او اربع قصص لي ، مع مختارات لكاتبين اوثلاثة من كتاب القصة الليبيين.

خمس خنافس تحاكم الشجرة

وهي المجموعة التي صدرت عن دار الشروق متزامنة مع مرايا فينيسيا، وحدث ان قابلت صدفة احد عظما النقاد في العالم العربي ، الدكتور على الراعي، فاذا به يبادرني بالتهنئة لسعادته بقراءة المجموعتين، ويفاجئني بعد ذلك، بنشر مقال في الاهرام يحمل اشادة قوية جدا بالقصص، وعندما اهاتفه شاكرا اريحيته، يقول معتذرا ان محدودية المساحة لم تتح له فرصة الاسترسال في استعراض قصص اخرى غير تلك التي شملها بتنويهه، وانه لن يتوانى في فرصة قادمة عن كتابة اكثر شمولا وطولا واحاطة ، فينصف تلك القصص التي لم ياتي على ذكرها في مقاله السابق ، الا ان العمر لم يمهله طويلا، ولعل مقالته القيمة مرايا فينيسيا وخمس خنافس تحاكم الشجرة، كانت احدى اخر ما خطه قلم هذا الناقد

والكاتب النابغة. وكانت هناك ، بطبيعة الحال، مقالات اخرى ، كان مقال الدكتور الراعي مثالا لها، لان اغلبها جاء في سياق الاحتفاء والترحيب بالنهج الذي سارت عليه هذه القصص، والافاق التي ارادت استكشافها، وربما اشير الى بعضها اذا لزم الامر، واذا كان من حق القارىء معرفة الدوافع وراء كتابة العمل الابداعي، فلاقل بداية ان خمس خنافس تحاكم الشجرة' تدور، كما ينبيء العوان، حول خمس خنافس ان تحاكم شجرة زيتون كبيرة وشهيرة تنتصب فوق الجبل، رأت فيها خنافس المنطقة ، سببا لما احاق بها من بلاء، فهذه الشجرة المعمرة، الموجودة في شعاب غير ذات زرع، كانها تتحدى معطيات الطبيعة في هذا الجبل الاجرد الصخري، صارت تستقط الناس على مدى اجيال متتالية، ياتون لجني زيتونها، والاستفادة بظلها، واستخدام اوراقها في العلاج، واستخدام حبات زيتونها في الطعام واستخراج الزيت الذي يطهى به الطعام ، كما يستعمل الانارة وتغذية القناديل التي تضيء الليل وتطرد العتمة ، وهو ما استفز الحشرات التي كانت تعيش في مأمن من ارتال البشر، في احدى الشعاب المعزولة التي لا يطرقها طارق ، فكانت شجرة الزيتون ، هي التي جعلت الناس يقتحمون عزلة هذه الحشرات ويستبيحون ارضها ، فقررت جموع الحشرات ان تنتدب خمس خنافس سوداء، تتولى عقد محكمة تقاضي شجرة الزيتون وتنزل بها العقاب بسبب ما اعتبرته اضرارا الحقتها شجرة الزيتون بجماعاتها التي تشكل الخنافس الجزء الاكبر فيها.

كتبت القصة في اوج تغول اللجان الثورية التي اطلقها العهد الانقلابي تداهم البشر وتقيم المحاكمات التي لا تستند الى اية مرجعية قانونية ، ولا تتوفر فيهااركان المحاكمات، ولا يتولى القيام بدور المستشارين اهل اختصاص ، وانما اناس من العامة ، وطلاب دون سن الرشد، تسمى المحاكمات الثورية، وكانت اغلبها تذاع على التليفزيون ، لمزيد من الاهانة والتنكيل بالناس ، وكنا نرى في هذه المحاكما بعض الشخصيات ذات المكانة الاجتماعية ، واناس افاضل لا ذنب لهم الا غيرة الحاكم منهم، او نقمته عليهم لان الوشاة نقلوا له كلمة نقد قالوها في حكمه اوسلوكه، وكان الواحد من هؤلاء يضطر احيانا للاعتراف بجرائم لم يرتكبها، بسبب وسائل التعذيب التي كانت اللجان تستخدمها ، وكان النظام يرسل الجلاوزة لاحضار اكثرها فتكا ورعبا، فلا تترك الضحية الا وقد استسلم لما يريدون ان يقوله، لانه لم يعد بامكانه ان يطيق مزيدا من التعذيب . وتأثرا بهذه المحاكمات التي يقوم بها اهل اجرام وسفه لرجال من اهل الشرف واصحاب السجلات المتميزة في عملهم الاداري او السياسي او الاقتصادي او الاجتماعي، كتبت قصتي لتكون تعزيرا للعهد وسخرية من هذه المحاكمات. واقول هذا الكلام ، مظهرا نيتي ، في الدافع للكتابة، دون ان اصادر حق القاريء في ان يرى رؤية غير ما انتويته ، ويفسر تفسيرا غير ما ذهبت اليه ، فهذا حقه وواجبه ان يطرح اسئلته على النص ويعرف ما يجيب ، قبل انصاته لاجابة الكاتب.

في هجاء البشر

ومديح البهائم والحشرات

كان الكتاب القصصي الثالث الذي نشرته لي دار الشروق، الذي نشرته لي دار الشروق المصرية، ذاك ال1ي يستمد اغلب مادته من بيئة اللجان الثورية الليبية، وما خلقته من اجواء التوحش والبربرية وزرعها في نفوس اعضاء هذه الحركة والمتعاونين معها ، بحيث تسقط عنهم صفتهم البشرية وتحيلهم

الى كائنات تنافس البهائم والحشرات. وسواء كانت القصة تدور في المحيط المحلي ، او خارج ليبيا، فان جميع القصص كانت استلهاما لحالة ليبية ، يعرفها من عايشها ويعرف المهانة التي كان يحس بها الناس، وهم يشاهدون ما يحدث من اجتراء على ابسط حقوق الناس، وكان كل انسان يعيش في ليبيا هو مشروع ضحية من ضحايا هذه اللجان، بما في ذلك عناصر ارادت لنفسها ان تنجو من خطر هذه اللجان بالانضمام اليها، الا ان هذا العنصر ، سيجد نفسه في فخ اخر هو فخ الجلاد الذي يتجر من مشاعره الانسانية لكي يستطيع ان يمارس هذا الدور واذا تخاذل وتراجع فانه لا يلومن الا نفسه اذا وجد نفسه في دور الضحية. واظهرت كيف ان الحشرة التي تؤذي و الوحش الذي يفترس يمارسان طبيعتهما، لهذا فهما بالتالي اكثر شرفا من الانسان الذي

تخلى عن انسانيته ومارس دورهما في الايذاء او الافتراس. وكانت كل القصص تدور في هذا الاطار وتحاول تقديم اجابة ابداعية، عن كيف يصبح سلوك الافعى او العقرب او البعوضة ، افضل من سلوك مخلوقات منحا الله نعمة ان تكون كائنات بشرية ، ومسخت نفسها وشوهت جوهرها وابدلت كينونتها بكينونة الرخص والسقوط وحالت نفسها الى حشرات تنفث سما ، او الى وحش تستخدم براثنها في الفتك بالبشر وايذائهم.

لم اكتف بكتاب واحد، وانما كتبت كتابا قصصيا اخر ، شكل اصدارا ثانيا صغته بنفس الرؤيا واتخذ نفس السياق ، واعطيته عنوان بشر وحشرات.

بشر وحشرات

هذه المجموعة القصصية التي تصدر ضمن الاصدارات التي تتولاها دار نون، ليست الا تنويعا على نفس الموضوع الذي عالجته في كتاب هجاء البشر،واضافة لنفس النوعية من القصص التي تتلمس تصوير الشر الكامن في النفوس، وتصور بريشة القصاص واقع المجتمع الليبي وقد وقع في قبضة تلك الروح الشريرة التي سيطرت على البلاد، وما ارسلته من حشرات خسيسة كذلك الملك الاسطوري الذي كان سلاحه ارسال الحشرات السامة لاعدائه بينما يختيء هو في كهفه عاجزا عن المواجهة التي يقتضيها شرف النزال بين الرجال، وهي قصص تؤرخ لاحلك الفترات في التاريخ الليبي المعاصر واكثرها قسوة والما، ليس فقط لقسوة وقائعها وما زخرت به من جرائم القتل والسجن والملاحقة والاغتصاب لاموال واعراض الناس والاختفاء القسري، وانما لحقيقة ان يقوم بهذه الجرائم، ليس غازيا اجنبيا ، وانما حاكم من ابناء البلاد، وجلاوزته الذين انتقاهم ايضا من ابناء البلاد، لينزلوا هذا البلاء لاناس من اهلهم وبني جلدتهم، ولعل ما كشفته وقائع وسجلات ، وما شهد به شهود احياء، يفوق في غرابته ما يمكن ان تسجله ريشة اي كاتب، واذا كانت شعوب اخرى قد عانت من حكم طغاة مثل الحاكم الليبي، وعانت من ويلاتهم وجرائمهم عا، فان محنة الشعب الليبي هي ان مدة حكم الطاغية طال الى مدة قياسية يندر ان عاشها شعب في ظل طاغية مثله، وطبعا لم تكن الصورة دائما قاتمة السودا خالية من اي جانب وضي، فالبشر الخيريين لم تعقم النساء في ليبيا عن انجابهم، فهم موجودون دائما، ولابد للابداع الادبي والفني ان يسجل حضورهم ويقدم الثناء لهم ، ولابد ان قصصا غير هذه القصص التي استقطبها الظلام الذي في القلوب، قد اعتنت بتصوير المناطق المضيئة في نفوس البشر واستطاعت تصويرها ، وما هذه القصص في الختام

الا تذكير بواقع مؤسف حزين، سادت فيه هذه النماذج، لكي نحرص جميعا الا تسود والا يكون لها القياد، ولا تنتج مجتمعاتنا المناخ الذي يفرز الحاكم المستبد الذي في ظله تنتشر الحشرات، وتنمو الحشائش الضارة والخبيثة .

صورة جانبية لصانع العيد

الذين عاصروا النصف الثاني من عقد الخمسينيات وصولا الى منتصف السبعينيات، من اهل طرابلس، لابد انهم يعرفون اشهر شخصية شعبية تواجدت في وسط المدينة، صاحبها من ذوي البشرة السوداء، يعمل سائسا للسيارات ، كما يقوم بغسلها لمن يطلب منه ذلك، وطالته اشاعات، انه في بدء السبعينات، اتجه لبيع الخمور في السوق السوداء، بعد حضر تداولها منذ سبتمبر 69، اسم الشهرة، الذي ناديه به الناس هو " بايبي"، وكنت قد عرفته عن بعد منذ ان جئت الى طرابلس صغيرا في منتصف الخمسينيات، وارتبط في ذهني بمدينة ملاهي الاطفال الموسمية التي تقام في عطلات الاعياد، عيد الفطر وعيد الاضحى وعيد المولد النبوي، فياتي اصحاب المدينة، التي لا ترقى الى مدن الاطفال الحديثة، بالمراجيح والاحصنة الخشبية ، وغيرها من العاب ينصبونها في قطعة ارض فضاء قريبا من السينما التي تسمى سينما الرشيد ، فيما صار ميدانا يسمى 9 اغسطس، وكنت ارى بايبي في هذه المناسبات ينشط بين العاملين في تركيب واقامة هذه الالعاب، ثم اجده واقفا يبيع التذاكر لمستخدمي هذه الالعاب، فاشتري منه التذكرة، واستخدم باذنه اللعبة التي اريد، فارتبط في ذهني ، بصورة صانع الاعياد، واعتبرته صاحب هذه الملاهي التي تدخل الفرح على الصبية الصغار امثالي، وطبعا صرت اراه فيما بعد، في ادواره الاخرى التي يقوم بها ، وقد استوطن منطقة ابي الخير التي اقمت بها فترة من الزمن ، وكان محل عطف الاستاذ على وريث، صاحب ورئيس تحرير صحيفة البلاغ، حيث كان مقرها في ذلك الحي، وكان يأتمنه على مفاتيح سيارته والاعتناء بتنظيفها، كما كان ناشطا في الحملات الانتخابية للاستاذ وريث عندما كان يدخلها كمعارض سياسي في مجلس النواب، كما كان بايبي ناشطا في المظاهرات التي نشبت ضد الحكومة بسبب تزييف الانتخابات ضد نواب المعارضة ومنهم الاستاذ وريث، فاضفت الى الصفة القديمة التي عرفته بها وهي صانع الاعياد، صفة الوطنية ، ولذلك فقد احزنني وانا اباشر عملي في السفارة في لندن ، عام 76، ان اقرأ خبرا عن مصرع هذا البطل من ابطال الطفولة، ووجوده مرميا في خرابة مهجورة وقد ذبح من الوريد الى الوريد، دون اهتداء الى المجرم. ومن وحي هذا الرجل ، من وحي حياته ومصرعه ، كتبت هذه القصة التي جعلتها ايضا عنوانا للمجموعة، لتجاور باقة من القصص القصيرة، كتبتها في ازمنة مختلفة، ولعلها تعبر عن اجواء ومناخات متوافقة مع بعضها البعض، وتستدعي عوالم ذات طابع قريب من قصة العنوان.

ثلاثون قصة قصيرة

صدر هذا الكتاب عن مكتبة الاسرة المصرية، وهي سلسلة من الكتب، يقولون انها تطبع من كل كتاب اعداد كبيرة، ضامنين نفادها، لانها تباع باثمان رخيصة بسبب الدعم الذي تقدمه مؤسسات مصرفية ومالية تابعة للحكومة المصرية، وقد لا يساوي الثمن معشار التكلفة، ويصل الحد الادني للكتب المطبوعة اربعين الف نسخة، وهو رقم يتضاعف عدة مرات مع مؤلفات الكتاب الرواد وكتب التراث، ويأتي هذا المشروع في اطار مشروع ثقافي لتشجيع القراءة واقتناء الكتاب وجعله في متناول الجميع، وتقوم بالاشراف والتنفيذ والمتابعة لهذا المشروع، الهيئة العامة للكتاب،وتلتزم الهيئة بارسال عدد من مطبوعات هذا المشروع الى مكتبات المدارس والمعاهد على امتداد القطر المصري، وغير المدارس من مراكز ثقافية في القرى والنجوع.

وقد جاءتني فكرة نشر الكتاب، بعد ان تلقيت عرضا، من مدير الهيئة الراحل ، الدكتور سمير سرحان بان يكون لي كتاب في هذه السلسلة، فاردت الكتاب ان يكون حوصلة لما استطعت انجازه في مجال القصة القصيرة، وانتقيت هذه القصص الثلاثين من مجموع ما صدر لي حتى هذا الوقت من مجاميع قصصية، ولاقت المجموعة، استقبالا طيبا في الاعلام، وتلقيت هاتفا من الناقد الكبير رجاء النقاش، اثر صدور المجموعة، يقول انه لا زال تحت تأثير المجموعة، وانه منفعل للكتابة عنها، لا يعيقه ان شهر رمضان على الابواب، وصحيفة الاهرام التي تنشر له مقاله الاسبوعي، تمتنع عن نشر هذه المقالات في رمضان وتضيف الصفحة الخاصة بها للصفحات الدينية، ووعد ان تكون اول مقالاته بعد عطلة رمضان هو مقالة عن كتاب ثلاثين قصة، ولم يكن الصديق رجاء، ورغم العلاقة الطويلة التي جمعتني به منذ مطلع الستينيات، ورغم ما اسمعه من تعليقات ايجابية حول ما يطالعه من كتاباتي، لم تتح له الظروف فرصة ان يتناول انتاجي، وراى ان في حديثه عن هذا الكتاب الذي يضم مختارات تعكس مراحل تطوري الادبي، سيكون فرصة لتعويض ما فات، لكن المقال، ورغم كل هذه التأكيدات لم ير النور، فقد كان رجاء النقاش حساسا جدا لما يكتب عنه، وتصادف ان قرات له مقالا يكتبه لصحيفة الراية القطرية،وجدته في الانترنيت، يتحدث فيه عن توتر العلاقات بين بريطانيا وامريكا، ويعود فيه الى تعارض المواقف بينهما حول حرب قناة السويس، ورايت ان في المقال ، شيئا من اللبس حول عمق الروابط بين امريكا وبريطانيا، وان ذلك الخلاف الذي ارده، قد تجاوزته الاحداث ولا يشكل عقدة في علاقتهما كما قال، فاتخذت مقاله منطلقا لمقال اشرح فيه العلاقة شبه العضوية التي تجمع بين بريطانيا وامريكا، ورغم انني كتبت مقالي مشفوعا بكل ما احمله من تقدير وتوقير للكاتب الصديق، غير انه وبسبب حساسيته المفرطة من مثل هذه التعقيبات، وربما لخلفيات وتداعيات حصلت في الصحيفة التي نشر بها المقال، خافية عني، فقد استفزه مقالي الى حد ان عدل على كتابة او نشر المقال الذي وعد به عن هذه المجموعة، وقاطعني لبضعة اشهر، الا ان الود عاد بيننا، وكنت ازوره كثيرا في بيته في الدقي ، الا انه بعد انتقل الى بيت بعيد في حدائق الاهرام، على اطراف القاهرة ، تعذر الذهاب اليه ، ثم طبعا تكررت الزيارات بعد ان تعرض للمرض الذي طالت معاناته معه والذي اودى بحياته في آخر المطاف عليه رضوان الله.

انتشرت فيما بعد اقاويل عن مكتبة الاسرة، عن الفساد المالي الذي شابها، وعن العبث بارقام النسخ المطبوعة التي يشككون في صحة الاربعين الفا وما فوقها التي يطبعونها، لانه مجرد رقم يضعونه في الورق، لجني الفارق في الثمن ، ياتي من صندوق الدعم ويذهب الى جيوبهم، ولا ادري صحة او خطأ ، هذه الاتهامات لاننا لم نر تحقيقا يفتح حولها، واقول عن كتابي هذا، انني فعلا لم اجد مطروحا منه في السوق الا نسخا قليلة جدا لدرجة انني اردت شراء مجموعة منها، فلم استطع الحصول عليها، فقد كان مفقودا منذ اليوم التاني او الثالث بعد يوم التوزيع، الا ان الكتب في هذه السلسلة تحظى باكبر تعويض تدفعه الهيئة للكتب التي تنشرها، وهناك بطبيعة الحال كمية من النسخ تمنح للكاتب.

وكان من الصعب لاي ناقد عبر تناوله لهذا الكتاب ان يجد مدرسة او مذهبا في القص يسطيع ان يربطني به، الا انه يمكن ان يلحظ هاجس اللتجديد والتجاوز الذي يسكنني ، والتجريب الذي حاولته في بعض هذه المجموعات التي نقلت منها النماذج المجمودة في المجموعة، كما ان الكتاب يمكن ان يكون مناسبة لتتبع الخط البياني الذي انتهجته في كتاباتي السردية القصيرة حتى وصلت ما ما وصلت اليه من نضج ودراية وما حققته من تطور وما تبلور في رؤيتي القصصية من رؤى وما وصلت اليه في جماليات التناول والاسلوب والمعالجة.

وهو بالتأكيد لا يشكل محطة وقفت عندها، ولكنه يشكل محطات تجاوزتها ، افضت بي الى مطات اخرى سوف تظهر في المجاميع التالية لما صدر لي مجاميع سابقة.

هكذا اتذكر هند

يجمع بين السرد القصصي و السرد السيرذاتي

ارادت احدى الصحف التي صدرت في الاعوام الاخيرة من حكم الطاغية ، استقطاب عدد من الكتاب للمساهمة فيها، وكنت قد صرفت النظر على المشاركة في الصحافة المحلية، والانصراف بجهدي لما لما اكتبه وانشره في الصحف العربية ذات التوزيع في كل مناطق العالم، مثل الشرق الاوسط والاهرام والحياة، ولكنني تحت الحاح الاصدقاء، وغواية العقد المجزي الذي اعدته لي صحيفة اويا، والذي يريدون من خلاله ان حقوق الكاتب لن تضيع هذه المرة بعد ان كان ضياعها واردا في مراحل ماضية، فهي هنا يثبتها عقد خاضع للمراجعة القانونية وللمثول امام المحاكم لمن يخل به، وفعلا باشرت الكتابة مع اويا بشكل اسبوعي، وبعد ان كتبت عددا من المقالات، ذات الطابع المباشر، تعليقا على الاحداث ، خاصة الثقافية، رايت ان تقتصر كتاباتي عن اعمال ابداعية، وبالذات هذا النوع من الابداع الذي تستوعبه الصحيفة السيارة وهو القصة القصيرة، فالقصص هي تعليق على الاحداث والوقائع وظروف الحياة والمجتمع من خلال الاقنعة، مما يتيح هامشا من الحرية ومساحة من الامان عند تناول اية قضية من القضايات من خلال الشكل القصصي، وبالتالي فالكاتب هنا اكثر امانا وهو يقابها بالحديث المباشر عبر المقال او البحث، خاصة تحت سيطرة حكم استبداي مثل الحكم الليبي.

ولانها صحيفة يومية، معنية بالاحداث الجارية، والراهن الليبي، ووقائع الحياة الساخنة، فقد اوحى لي هذا الشرط الصحفي، الذي اخترت ان اشارك بقلمي في خوضه، ان اجعل القصص التي اكتبها قريبة من هذا السياق، باسلوبها وشرطها الفني، فكتبت في هذه المرحلة، ولهذه الصحيفة ، مجموعة من القصص هي التي ضمنتها مجموعة "هكذا اتذكر هند" ذات علاقة متينة بالواقع المعاش، مقتبسة من ميادين الحياة التي تمور بالاحداث ونبض الشارع، مستندا في كل قصص من القصص الى حدث حقيقي حصل في واقع الحياة، مضيفا اله لمسة من خيال تضمن لما اكتبه جوانبه الجمالية والاسلوبية، وتعطيه نكهة ولون وطعم الابداع، فهو ليس نقلا اوترحيلا حرفيا او نصيا عن الواقع، كالقصص الاخبارية التي تنشرها الصحيفة، وفي ذات الوقت ليس عملا مقطوع الصلة بما يحدث فوق ارض الواقع الاجتماعي في ليبيا.

هذه اذن خلفية القصص التي صدرت تحت عنوان "هكذا اتذكر هند"، وهذا هو الخيط الذي يربطها كونها حقا وصدقا تستند الى وقائع عشتها او شاهدتها، وصورت فيها شخصيات كان لها وجود حقيقي بيننا، في ليبيا، وفي طرابلس بالذات، وبعض هذه الاحداث وبعض هذه النماذج معروفة لكثير من الناس، بل واشرت في مقدمة كل قصة الى اناس كانوا شهودا على طرف من احداث القصة، قبل ان يضيف

اليها خيال الكاتب لمسات وتعديلات، تلبس هذه الاحداث والشخصية اقنعة واردية اخرى ، فتكشف بها ابعادا وصورا، قد لا تحتملها القصة الا بلمسة الخيال السحرية.

وكانت القصة التي تحمل العنوان، واحدة من هذه القصص التي نشرتها في صحيفة اويا، وكان لها اصل في قصة حب عابرة عشتها في مرحلة الصبا، واحتوتها هذه المجموعة، التي اردت عامدا، متعمدا، ان اجعل مرجعيتها في الواقع الحقيقي، وهو امر ليس غريبا عن اي عمل سردي قصيرا كان او طويلا، ولكن الصلة بالواقع في هذه المجموعة كان ظاهرا، كما انا اضافة الخيال كانت بحساب وجرعة محدودة، الا ان هذه الاضافة مهما كانت محدوديتها، هي التي تعطي للقصة اسمها ، وتفي باهم شرط من شروطها ، وتخرجها من سياق السيرة او القصة الصحفية ، الى سياق الادب والابداع، وهي اضافة لابد انها تداخلت والتحمت بالواقع الى حد يصعب معه الفصل بين الواقع والخيال، الا لمن كان واحدا من شهود ذلك الواقع، او للمؤلف صانع هذه التوليفة ، العارف بما دخل في تركيبها من عناصر ومكونات.

في اغلب ما اكتبه من قصص، اعتمد على واقع متخيل، اعمد الى مزجه بشيء من الفانتازيا، وهو ما اسميه ما فوق الواقع وما تحته وما حوله. في هذه القصص لم يكن عامل الفانتازيا، او ما فوق الواقع، دور كبير، لان هذا الدور اخذته جرعة الخيال المضافة الى الاحداث الحقيقية،واعتبرت هذه التجربة جزءا من المغامرة الفنية التي لا اتوقف عن خوضها، ولن اتوقف عن خوضها، الى اخر المدى الذي يتيحه لنا العمر وتتيحه لنا الحياة، ولكن دون افتعال، او تصنع، اورغبة كما يفعل بعض الزملاء الكتاب، في تجربة ما يسمونه الكتابةالمختبرية، انني اسير وفق ما تمليه علي ملكاتي الادبية وما اراه منسجما مع الفكرة التي انتجها مصنع الابداع في راسي ، فلا افرض شيئا ولا ارغم نفسي على شيء، باذلا اقصى ما تتيحه قدراتي من تجويد واتقان للعبة الكتابة، واخلاص وصدق وامانة .

واضيف ملاحظة ختامية ، هي انني هنا، وبعكس ما يقوله ذلك التعبير الشهير الذي يحرص كتاب القصص على تثبيته في مقدمة كل كتاب من كتبهم، والذي يوضحون به ان كل شخصية من شخصيات عالمهم القصصي، هي من وضع الخيال، واي تشابه بينها وبين شخصيات في الواقع انما هو مجرد صدفة، فانني اقول ان كل شخصيات هذا الكتاب، هي شخصيات من الواقع، ولا وجود لاية صدفة في التشابه مع شخصيات حقيقية، بل هو شيء متعمد ومقصود ، وهو ما ينطبق ايضا على مجموعة قصصية اخرى ، هي التي سا تحدث عنها مباشرة بعد هذه المجموعة.

قصص من عالم العرفان

تحتفي هذه المجموعة القصصية بتجربة فريدة، لانها مغامرة روحية صوفية ذات ابعاد عرفانية، فهي تدور في فلك الروح، والتعامل مع اصدقاء غادروا عالم الاحياء، ومع ذلك تحقق نوع من التواصل الذي تسجله هذه القصص، ولعلها ترسي به سابقة في الادب المعاصر، لان هذا النوع من السرد، موجود في سير الصوفيين وفي كتب تتحدث عن الكرامات والاسرار، ولكن المعالجة السردية الفنية بتقنيات القص الحديث،وفاهيمه المعاصرة فانه شيء ربما حصل في قصة او خاطرة او كتابة وجدانية او قطعة ذات منحى صوفي شعرا او نثرا، ولكنها لا تشكل اتجاها ولم تتوفر في كتب كاملة ذات صبغة روحية عرفانية من مثل هذه القصص، الا اذا جاء من يقول ان مثل هذه التجارب موجودة فاتني الاطلاع عليها. ليس الا عدد قليل ممن يشكلون شخصيا عامة لا اعرفها معرفة شخصية ، مثل الاستاذ العقاد، الذي اقتصرت صلتي به على العلاقةالفكرية التي تربط بين كاتب وقاريء، اما البقية فهم جميعا، استحضرت ارواحهم وتعاملت منهم ،

من خلال معرفة شخصية، وتعامل معهم اثناء حياة، توطدت خلاله الصداقة بهم ، بحيث صار تسمح بوجود هذا التواصل الروحي الذي اوحي لي بهذه القصص.

انها تجربة خارج اطار العالم الروتيني، بوقائعه واحداثه، خارج سياق الحياة الاجتماعية، التي تنهل منها الاعمال السردية مادتها، وتنهل منها الاعمال المسرحية والحوارية، احداثها، وفرادتها تتمثل في انها عوالم قصصية، تحصل احداثها ووقائعها في مستوى من التعامل فوق الواقعي وفوق الطبيعة ، يمكن نسبته الى عوالم الرؤيا، وعوالم الروح، ولا يقع بعيدا عن عالم الفانتازيا، التي تمثل هي ايضا جزءا من مفردات ومكونات هذا العالم. اما الواقع ، فهويستمد من وجوا\خخ من حقيقة ان كل قصصة من هذه القصص تتعامل مع شخص معروف ، له تاريخ وله تراث ، وكان له وجود وكيان واحداث ووقائع قبل رحيله، والقصص تذكر كل شخص من هذه الشخصيات التي تدور حولها، باسمه وتذكر طرفا من حياته، وتقدم صورة تعبيرية واحيانا واقعية عن ملامحه وواوصافه، واسلوب تعاملاته كما تلقي ضوءا على شخصيته، واغلبها تنتمي الى عالم الفن والادب والفكر، اما الرابط الذي يجمع بينها فهو العلاقة الشخصية التي تجمعني بها، والتي تولدت عنها العلاقة الروحية او البعد العرفاني في احداث هذه القصص.

واذا قلت ان المجموعة تؤسس لادب جديد في هذا المجال الروحاني العرفاني، فلابد ان اسدرك قائلا ان الادب العالمي نفسه ، ادب السوق والتجارى بالذات يمتليء بقصص ذات الوان مثيرى ، تنتمي الى عوالم الاشباح والرعب والسحر ، لكنها بالتاكيد لا تنتمي الى القصة ذات القيمة الادبية الراسخة بابعادها الاسلوبية والجمالية ، التي تؤكد انتمائها الى عالم الادب، وليس الى عالم التجارة والاثارة وتقصد الربح عبر ابتزازالقاريء، ويتحول بعضها الى افلام تستقطب الجمهور وتستغل عوالم الخوف والرعب في خلق المشاهد العنيفة التي تهز مشاعر الجمهور، ويذهب الناس لمشاهدتها من اجل حالة الفزع التي تؤكد في حياتهم معنى الامان والسلام، لان القصة هنا تؤدي وظيفة الكابوس، الذي يصحو منه الانسان منزعجا، فيكتشف انه ليس واقعا يعيشه،وانما هو وهم وخيال، فيبعث هذا الاحساس في نفسه الفرح والسعادة والشعو بالطمأنينة ، وهو بعكس ما تتوخاه هذه القصص ذات التأثير المخالف ، لان عالمها الروحاني هو عالم الصفاء والتواصل الذي لا يتوفر في العالم الواقعي، فيسعد به الانسان ويجد فيه الطمانينة والامان وسعادة اللقاء بهؤلاء الاحبة التي لا تحدث الا في هذا السياق العرفاني.

وبقدر ما تفارق، ذلك العالم الشبحي الكابوسي، عالم الفزع والرعب، فهي تقترب كثيرا من الرومانسية والمعالجة الشعرية لعالم ما بعد الرحيل، وكأن في بعض مناحيها تفسير لتلك الآية الكريمة في القرآن التي تقول "يا ايتها النفس المطمئنة ارجعي الى ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي وادخلي جنتي".

وقد لا نرى ارواح هذه الشخصيات، وهي تدرج في الجنة، وترفل في اثواب النعيم، ولكن ما انعكس من سلام وطمأنية، وما يسود الاجواء التي يحصل فيها التواصل مع هذه الارواح من وداد ومحبة، هو ما يعكس شيئا من عبق الفراديس السماية التي تذهب اليها الروح.

يقول استاذ القصة القصيرة وفيلسوفها والكاتب الرائد في هذا المجال الراحل يحي حقي، ان القصة القصيرة مخلوق بروحين، تستمد الاولى حين ترى النور، وتستمد الثانية حين تضم الى أخوات لها في

مجموعة واحدة، حينئد ستنطق باكثر مما نطقت به عند مولدها، اذ تعين سحنتها الذاتية على استجلاء طيف الشبه الغالب على افراد الاسرة كلها، واعتقد ان وجود هذه القصص بين دفتي كتاب واحد، في تجاور حميم، لاربع وعشرين حالة واربع وعشرين شخصية ، لجدير بان يعطي القاريء وهو يلتقي بهم في محفل واحد،انطباعا اكثر عمقا واكثر تكثيفا واكثر زخما مما لو التقي بكل شخصية وكل حالة على حدة.

واذا كنت قد تكلمت عن انجاز فني سردي ربما يكون قد تحقق من وراء هذا الكتاب، وهو مااتمنى ان يكون قد حصل ، فهو حقيقة لم يكن المقصد او المبتغى الذي كتبت من اجله هذه القصص، ولكنني كتبتها متوخيا الحصول على لحظة تواصل واتصال ، يكون فيها العزاء والمواساة، مع من رحل من اصدقاء وزملاء كانوا يسيرون معي في درب الكلمة، عرفتهم واحببتهم، كما احبهم بالتاكيد الاف القراء الذين يشاركونني الاعجاب بابداعهم وانتاج قرائحهم واقلامهم، وتالمت كما تألموا لفجيعة الموت الذي اختطفهم، ولاشك انه يسعدهم ، كما اسعدني، ان تتحقق لحظة تواصل مع ارواحهم عبر هذه القصص من عالم العرفان.

كتاب الوميض

ليس كل ما يضمه هذا الكتاب القصصي من قصص، كتبت في البداية باعتباره قصة ، ولكنني كتبت بعضها باعتبارها شذرات، وفصوص او نصوص من الحكمة التي اشتهر بكتابتها ادباء المهجر، مثل جبران وميخائيل نعيمة ، وابنة وطنهم وجبلهم مي زيادة، وقد كنت ولازلت معجبا بهذه المدرسة في الكتابة ، وتأثرت بها، في مستهل حياتي الادبية، وكتبت مقتديا ببعض ما قرأت لهؤلاء الكتاب في هذا النوع من الكتابة المكثفة، التي تقول ما تريد ان تقوله في سطر او سطرين، ثم ظهر فيما بعد فن ينتمي لفنون السرد، ولون قصصي اسموه القصة الومضة، ولعلنا لا نستطيع ان نقول انه ظهر لمجرد ان كاتبا استعمل هذا الاسم واصدرعام 1992 مجوعة مختارات ضمت 72قصة قصيرة جدا منحها محررها واسمه جيمس توماس هذا الاسم اي قصص الومضة، فهذا النوع من الادب موجود منذ ان عرف البشر الابجدية واهتدوا الى الكتابة الادبية، والتراث العربي كما يعرف القراء المطالعين لهذا التراث ، يزخر بنوع من الادب، نسميه حكاية وطرفة ونادرة، وهو كله وبسبب قصره ،يمكن اليوم ان يدخل تحت عنوان القصة الومضة، وقد عمدت في اكثر من مناسبة او مقابلة صحفية او اذاعية مسموعة او مرئية، الى ضرب مثل على تجذر هذا النوع في التراث ، بقصة تتوفر فيها بلاغة الايجاز والتركيز والاقتصاد في الجمل والكلمات، اقتبسها من نوادر جحا، لا تزيد على سطر واحد يأتي على لسان جحا ، اثناء بحثه عن جمله الضائع اذ يقول:

ـ من يدلني على جملي الضائع، وله مني جملان .

واعتبر هذه الطرفة من طرف جحا مثالا باهرا لقصة الومضة بكل ما فيها من زخم وتكثيف واختزال يظهر قوة الفرح التي يستشعرها الانسان عندما يجد شيئا ضائعا، فهي فرحة، تعادل ، كما يقول جحا، ان يعطي من مقابل الجمل الواحد الضائع، جملين اثنين، هبة لمن يدله عليه.

اذن فانا هنا لا اقول ظهر هذا اللون الادبي ، ولكنني اقول هناك من اعاد تقديمه بعد ان كان تائها في ثنايا الوان ادبية اخرى، واستخلص ما يمكن ا ن نسميه Flash fictionاو القصة الومضة التي صار لها كتابها، والمنابر التي تهتم بنشرها، والاصدارات التي تتوالى من دول النشر، تضم انتاج مبدعيها، وهناك كذلك المسابقات والمهرجانات والندوات التي تعقد من اجلها، فانجذبت لكتابة بعض هذه القصص، ثم اكتشفت انني املك حصيلة يمكن ان تكون كتابا، فعمدت الى جمعها في هذا الكتاب الذي اسميته كتاب الوميض، واحتوى ما يقرب من مائة قطعة ادبية يمكن ان ينطبق عليها وصف القصة الومضة، واقدمها اليوم باعتبارها جزءا من المغامرة الفينة التي اواصل خوضها، عبر ما اكتبه من انواع الكتابة النثرية.

في هجاء الطغاة

صدر هذا الكتاب عن دار الخيال في بيروت اثناء المنازلة مع الطاغية، او في الايام التالية لها، وقد احتوى قصصا كتبتها في ازج المنازلة ومن وحيها، وضمنتها قصصا تهجو الطغاة كنت كتبتها قال ذلاك ونفذت بها من شباك الرقيب ومقصه واقفاصه، وربما لن استطيع وصف هذا الكتاب اكثر مما وجدته في الارشيف من كلام ظهر عنه في احدى الصحف المصرية منسوبا الى وكالات الانباء، هي صحيفة المصري اليوم الشهيرة التي تنقل خبر صدور الكتاب الى قرائها بهذه الصيغة

(((في هجاء الطغاة) كتاب جديد من تأليف الدكتور / أحمد إبراهيم الفقيه – المستشار الإعلامي بالسفارة الليبية وعضو الوفد الليبي في الجامعة العربية . ويضم هذا الكتاب الذى صدرعن" دار الخيال " للطباعة والنشر في بيروت مجموعة قصص تهتم بشرح آليات الطغيان ، وتقدم صوراً للممارسات الاستبدادية والجرائم والمجازر التي يمارسها الطاغية ومعاملته لضحاياه ، مستوحاة من الحالة الليبية ، وما كابده الشعب الليبي خلال أربعة عقود من حكم الطاغية ، وبعض هذه القصص كتبت ونشرت في الصحف أبان ثورة 17 فبراير ومواكبة لها ، وكشفاً للجوانب التي أحاطت بها والدوافع وراء تفجرها . ومن أجل تقديم فكرة للقارئ عن هذه المجموعة القصصية التي يواصل بها الكاتب مسيرة في الإبداع ، بدأت منذ ما يقرب من خمسة عقود ، ننقل هذا التعقيب الذي وضعه الناشر "دار الخيال" على الغلاف الأخير للكتاب ، وجاء فيه " : كيف استطاع هذا الكاتب أن يصنع من الرمال حياة ... من الفقر ثراء ... من الفراغ كتلة ... من اللاشئ شيئاً ... ومن العزلة حافزاً للخروج والبحث والاكتشاف والاندماج والانتماء واللاانتماء ؟ . كيف استطاع هذا الكاتب أن يختزن تجربة أجيال صامتة ، ثم يطلقها من مختزنها كما تنطلق ينابيع الماء في قيظ الصحراء رغبة في التعلم والمعرفة ... في الدفاع عن الوجود ضد معتقلي الحياة ومغتالوها . وكما يتحرك الرمل في الصحراء متأثراً بحركة الرياح وتيارات الهواء ، تحرك الفقيه في عالمه ، حركة تلقائية باحثة واعية ، ترصد وترى وتسمع وتستمتع ، تتلقن وتلقن ، وتعلن أن الإنسان – مهما ضؤل – موجود ، ومهما اغتال أعداؤه إرادته ... قادر على استعادة إرادته ... من عالم الحلم والأسطورة ... الى عالم الحقيقة والواقع . " هكذا يكتب الناقد الدكتور عبد البديع عبد الله في الدراسة المنشورة كمقدمة للكتاب ، مؤكداً ما يقوله المؤلف نفسه عندما يصف ما كتبه من قصص ونصوص تنشر في هذا الكتاب قائلاً " : قد لا يصدق القراء أن كل هذه الهجائيات التي استهدفت الطاغية والطغيان كتبت في عهد الطاغية القذافي ، ولكن عدم مباشرتها ، أو ذكرها له بشكل واضح ، استطاع أن ينجيها من استقطاب عداء الطاغية وأجهزته ، وبالتالي ينجي كاتبها من العقاب الذي يدخره لمن يجاهر بهجائه والكتابة السلبية عنــه . "

هكذا يقول المؤلف ، ولابد للقارئ أن يقرأ الكتاب ليعرف كيف استطاعت هذه القصص النجاة من مقصلة مجنون الحكم كما نجا عنق الكاتب وهو يفضح ويعري الطاغية أثناء وجوده في أوج سلطانه وقوته وجبروته ، قبل أن يثب الشعب وثبة المجد والبطولة ، وينقض عليه وعلى أزلامه في ثورة عبقرية لم تعبأ ببطشه وآلات قتله ، حتى استطاعت تقويض حكمه وإزالة سجونه وقلاعه ومقاصله وكل مظاهر الجنون والإجرام التي تميز بها عهده))

ربما من المفيد ان اقول هنا ان هاجس الحرية كان باستمرار هاجسا يسكن كل ما كتبته منذ اول مقال خطه قلمي ، ولعلني قلت هذا في احدى كتب السيرةالذاتية واشرت الى اول مقال كتبته في حياتي وكنت طالبا في المدرسة الابتدائية وارسلته الى احدي الصحف بعنوان الحرية، والقصص الجديدة في الكتاب نشرتها لاواكب بها ثورة 17 فبراير، التي كنت اكتب المقالات عنها بشكل يتواتر كل يوم، ووجدت فرصة ايضا لكتابة بعض الاعمال الابداعية ونشرها في بداية تفجر الثورة، وقد كتبتها بشيء من العفوية، والاستجابة السريعة للاحداث، وهي تجربة لها فرادتها، لان المشاعر كانت تعيش لحظة غليان، ومثل هذه الحالة غالبا ما تنتج كتابة انفعالية تتحول فوق الورق الى حمم من لهب، فهي اذن ليست صالحة دائما الى المعالجة الادبية الابداعية، التي يقول اهل التنظير الادبي، انها تحتاج الى اختمار، ومساحة زمنية تفصل الكاتب عن الحدث لكي يستطيع ان يقاربه بروية واتزان ، وان يرى الصورة في مجملها وليس طرفا منها ، كما يكون الحال عند انهماكه فيها، حيث تكون الاداة القادرة على التعامل مع مثل هذه الحالة العاجلة ، حالة التعبئة والاستنفار، هي المقالة ، وهو ما فعلته ، وما كنت موقنا ان دورا ضروريا تؤديه هذه المقالة لا تقل اهمية عند دور المقاتل في الميدان، الا ان كتابتي لهذه القصص لم تكن حقا رد فعل فوري للاحداث ، ولكنها كانت مواضيع مرت بمرحلة الاختمار، الا انها كانت واقفة في الحلق، لان مناخ الحرية الذي يبيح الافصاح بها ، كان مفقودا، فما ان ازيل هذا الحاجز، حتى كان لابد ان تاخذ هذه الاعمال طريقها الى النور وهذا ما استطيع قوله في اجابة على سؤال كيف تاتي كتابة العمل الابداعي في فورة المشاعر واستعارها.

ميراث الفضيحة

بدءا من هذه المجموعة القصصية ، ميراث الفضيحة، تدخل كتاباتي الادبية مرحلة ما بعد قيام ثورة 17 فبراير، لان كل ما ورد فيها من قصص، انما هي نتاج مرحلة ما بعد زوال العهد الانقلاي الاستبدادي، وكنت قد نشرت القصة التي تحمل العنوان في صحيفة الحياة، بعد بضعة اشهر من قيام الثورة، وكتبت كل ما ضمته المجموعة من قصص قصيرة بعد هذا التاريخ، وكنت قد اصدرت خلال مرحلة الثورة ، مجموعة قصصية بعنوان، في هجاء الطغاة، ضمت قصصا كتبتها من وحي الثورة، كما جاء في الفقرة السابقة، كما ضمت ايضا قصصا تحمل روحا ثورية ، كانت قد كتبت ونشرت في عهد سابق لثورة 17 فبراير، ومن هنا فانه يمكن اعتبار مجموعة ميراث الفضيحة، بداية مرحلة انتاجي القصصي والروائي والمسرحي ، الذي يندرج تحت العهد الذي اعقب العهد الانقلابي، وانا اكتب هذا الكلام

ومازالت المرحلة الانتقالية ، لم تنته بعد، اوتفضي الى بناء المؤسسات الدستورية والسياسية الثابتة والدائمة للعهد الجديد.

سيجد القاريء، في هذه المجموعة ، بجوار القصص ذات الطابع الانساني العام، قصصا تكشف الغطاء عن بعض الممارسات القمعية للنظام السابق، او نجدها في حالة تماس مع المناخ الثوري ، وجو الاحتراب والقتال ضد كتائب الطاغية، وتغطي القصص الاخرة امكنة وازمنة واحداث ، خارج الزمن الحاضر ، وخارج المجتمع الليبي، وتتواصل في لحظات اخرى مع حالات وشخصيات واحداث لها بعد ادبي وفكري.

لا ادري ان كان الشكل قد استقر على سياق ما في هذه المجموعة، كما في مجاميع لاحقة لها، ولعل الناقد الادبي الذي يحمل ادواته القادرة على الرصد والفحص ، يستطيع ان يجد تباينا بين مجموعة واخرى، او بين قصة واخرى، وهو ما لا يمكنني الجزم بوجوده اوعدمه، ما استطيع تأكيده، والجزم به، هو انني اجتهد لان يكون لي صوتي الخاص، وقاموسي الخاص، واسلوبي الذي اتميز به، وطرق المعالجة والتناول، التي يمكن نسبتها لي، او على الاقل ان هناك حرصا وجهدا ، ان اظهر شخصيتي في هذا اللون من الوان الكتابة الادبية.

ولابد ختاما من القول ان العنوان "ميراث الفضيحة"، يشير الى مناخ عام لهذه القصص، وسياق واجواء ، تجعل كل قصة من هذه القصص تعكس تجليا يمت بصلة الى هذه العنوان، وتدخل تحت ما يوحيه من ايحاءات وما يلقيه من ظلال.

رجل المساحة البيضاء

قد لا يكون صعبا ان يكتشف القاريء ان هذه المجموعة القصصية ،رجل المساحة البيضاء، والمجموعة السابقة لها، ميراث الفضيحة، والتالية لها وهي هل تحبين برمودا، كلهم نتاج مزاج نفسي واحد، ومرحلة زمنية واحدة، وربما انشغالات متقاربه، واهتمامات ليست بعيدة عن بعضها البعض، لانها لا توجد مسافة كبيرة تفصل بين كتابتها. فقد كتبتها ، في نفس واحد، ودون ان يعترض كتابتها اي عمل روائي او مسرحي، يمكن ان يشغلني، او يعطلني عن الاستمرار في كتابتها ،عدا مقالات الراي القصيرة التي ارتبط مع الصحف على كتابتها بشكل اسبوعي، واضيف ايضا بان كلها نتاج هذه المرحلة الانتقالية التي اعقبت ثورة 17 فبراير في ليبيا، لمن يهمه تحليل النصوص من خلال المرحلة الزمنية التي انتجتها، وهي مرحلة عامرة بالقلق، بسبب ما كانت تمر به البلد من فوضى وارتباك ، وما يحدث من اقتتال عبثي، وما يعاني منه الناس من خيبة امل بعد انتصار الشعب في المنازلة ضد الطغيان ، فخرج هذا الطفح الذي قتل الامل واغرق البلاد ابشع انواع الفوضي ، ولابد ان شيئا ما يتصل بهذه الحالة قد وجد له انعكاسا على هذه القصص ورشح شيء منه على الورق.

ويبدو واضح في عدد كبير من القصص انها قريبة في مناخاتها واجوائها من تلك الاجواء والظروف والتداعيات التي افرزتها الثورة ضد العهد الانقلابي، وربما لامست في بعض جوانبها، المنازلة العسكرية التي خاضها الشعب الليبي ضد كتائب الطاغية، وترسانته العسكرية، وكما يحدث مع اغلب المجاميع

القصصية التي اصدرتها، يقع اختياري على عنوان قصة من القصص لاجعلها عنوانا للمجموعة، مراعيا ان يحمل العنوان معنى من المعاني يربط بين بقية القصص، او يكون معبرا عن المناخ العام للمجموعة، وهذا العنوان"رجل المساحة البيضاء" ليس استثناء من هذا التقليد، فالقصة تستحضر حياة مواطن ليبي، جنت عليه الظروف العامة، وارغمته ان يعيش بلا هدف ولا معنى، واسهمت الطريقة التي تدار بها البلاد ابان العهد الانقلابي، في افراغ حياته من محتواها. نعم، لقد توفرت للرجل ولاسرته اسباب المعيشة، ولكنها معيشة خاوية، انها تجسيد للفرق بين ان يحيا الانسان، بالمعنى الذي تسميه اللغة الانجليزية To live والاخر الذي يعني مجرد البقاء بلا موت بمعنى To survive.

وهذه بالتأكيد هي جناية انظمة العسف والقهر على البشر الذين يعيشون تحت حكمها وسيطرتها، وهذا المعنى ، قد لايكون متجسدا في كل قصص المجموعة، ولكنه موجود بشكل او اخر في روح الكتاب، وتعكس اغلب القصص هذا المناخ وتصور هذا الشرط الانساني المجحف الذي يعيش تحته ابناء المجتمعات المنكوبة بمثل هذا الاستبداد.

ومرة اخرى يمكن ان نشير الى العلاقة الجدلية بين القصة وموضوعها، وما يمكن ان يعكسه اسلوب القصة وتقنياتها واستراتيجية الكتابة التي يستخدمها الكاتب، وما تحدثه هذه التقنيات على موضوع ومحتوى ومضمون القصة، ام ان ما يحدث هو التأثير المعاكس ، اي ان الموضوع هو الذي يفرض منطقه وهو الذي يحدد تقنية القصة وهو الذي يقترح شرطها الفني، وربما يصح ان نقول ان الاسلوبين موجودان، وهناك حالات يتسامق فيها الشكل على الموضوع، وتكون التجربة الشكلانية اكثر قوة وسيطرة ، وحالات اخرى يفرض الموضوع حضوره ويتولى اقصاء القضايا الشكلية الى المرتبة الثانية، دون ان يعني ان لاحدهما الافضلية على الاخر ، على مستوى الاداء والجودة، والجاذبية، وهذه القصص التي كتبتها في فترة واحدة ، باعتبارها تتصل بجوهر الوجود الانساني، واعمق معاني الحياة واكثر جوانبها خطورة واهمية ، فانها بالضرورة تاخذ المبادرة في يدها، وتمنع المغامرة الشكلانية من ان تأخذ الاولوية على موضوعها،

هل تحببن برمودا

هناك كتاب قصة ورواية من ذوي المكانة العالمية ، اعتمدوا في رسم عوالمهم القصصية والروائية وتصوير اشخاصها واحداثها، من تجاربهم التي عاشوها خاج اوطانهم ، من بين هؤلاء الكاتب البريطاني الشهير سومرست موم، ومواطنه الذي يوازيه شهرة جراهام جرين والامريكي الاشهر ارنست هيمنجواي، دون ان يعني ذلك ان القصة التي يكتبها الكاتب من وحي هذه الرحلات وما انفعل به من وقائع واحداث وحلات انسانية صاغها ادبا، هي اكثر اهمية او اقرب الى العالمية والانسانية من القصص والروايات التي يمكن ان يكتبها من حياته المحلي، انه بالضرورة تضفي على ابداعه تنوعا وخصوبة وزخما، ولكن يبقى قيمة كل قصة تستمدها من داخلها، وليس من العوالم التي تصورها، فمثل ما يمكن ان يكتسب مثل هذا الادب المكتوب من وحي الرحلات والتجوال في العالم، فانه يمكن ان تكون لقصة او راية مغرقة في محليتها والاجواء الشعبية في وطن الكاتب، ذات قيمة انسانية ، وتحظى بمكانة رفيعة على

المستوى العالمي ايضا. ولانني احد الكتاب الذين يشكل السفر ، والطواف في العالم، منهلا من مناهل الابداع والكتابة لديه، فقد توزع ماكتبه بين اعمال ادبية مستقاة من حياتي داخل الوطن، واخرى مستقاة من حياتي في مناطق العالم المختلفة، وحصل اكثر من مرة ان كرست مجموعة قصصية كاملة او شبه كاملة لهذه الاجواء والمناخات المتنوعة التي رايتها في مناطق العالم المختلفة واستوحت منها اقاصيصي، فقصص في مرايا فينيسيا تبدا بقصة عن تلك المدينة الايطالية، وتكاد اغلب قصص المجموعة تنتمي الى عوالم السفر والسياحة ، كذلك فان القصة الاولى في اول كتاب يصدر لي في حياتي وهو البحر لا ماء فيه كانت من وحي رحلة في سفينة متجة الى اسطنبول، كذلك مجموعة اربطوا احزمة المقاعد، حيث تبدا بقصة من وحي رحلة في الطائرة، واخترت ان تكون القصة الاولي في مجموعة امرأة من ضوء، عن تمازج بين ذكريات القرية واحداث عشتها في مدينة باريس ، وهذه المجموعة " هل تحبين برمودا؟" تبدأ بقصة عن تلك الجزيرة التي تحمل القصة اسمها، وتجاورها في نفس المجموعة قصص كثيرة اخرى تدور في مثل هذه الاجواء والمناخات الاجنبية، ويبقى الهدف في هذه القصص، او الاخرى التي استوحيتها من عمق المجتمع الليبي، في الواحة والريف والصحراء والمدينة، هو الانسان، لانني بعكس الذين يغرقون باسراف في تصوير المعنى المحلي ، فانني اعتنى بالقيمة الانسانية ، واجعل هذه القيمة هي بؤرة العمل القصصي، واجعل مركز الاهتمامي، ربما في كل ما اكتبه من في هذا اللون الادبي ، هي اللحظة الانسانية الموحية ،المعبرة، التي تتجاوز بيئتها ومحيطها الزمكاني، وصولا الى الانسان في كل زمان ومكان وبيئة ومحيط، ولعل القاريء يستطيع ان يلاحط ، كيف ان القصص المأخوذة من المحيط المحلي الليبي، غالبا ما تنحى منحى سياسيا ما، حتى وان لم تكن السياسية هي محور القصة، فيما يتلاشى هذا المنحى من تلك التي التقط مادتها من عالم السفر والسياحة ، والاقامة خارج المجتمع الذي انتمي اليه، حتى وان ظهر لون سياسي في تفصيلة ما، فهي السياسة التي تعير نفسها لحالة انسانية ابعد من السياسة، مثل الخوف، او الاحساس بالملاحقة ، اوالقلق الوجودي ذاته كما في قصة مرايا فينيسيا مثلا، باعتبارها قصة مستوحاة من اجواء اجنبية، دون ان يعني ان اختلاف هذه الاجواء، يخلق بالتالي اختلافا في المعالجة او التقنيات، وقد اجد نفسي في بعض الحالات التي اصورها في الخارج،منحى عبثيا يفرض نفسه كما في قصة المرأة والكلب، في مجموعة امرأة من ضوء، الا انني اعود واقول ان هذه اللمسة العبثية قد تظهر في اية قصة اخرى تصور اجواء محلية، والحقيقة فانني لا اجلس للكتابة متقصدا حقن القصة بهذه اللمسة العبثية وهذه الاضافة الفانتازية ، وانما اترك نفسي تحت تأثير الحالة ، وما تمليه اجواء القصة وشخصياتها وعوالمها، وطبيعة العلاقات القائمة بداخلها.

==================

آخر ثلاث مجموعات قصصية يمكنن ان اشملهما في حديث واحد، هي البحث عن الاميرة، وليس للتفاهة اسم آخر، وامرأة جميلة اسمها كنزة، باعتبارها اخر ما كتبته ، ودفعت به الى النشر ، في ثلاثة كتب، ترفع عدد القصص القصيرة التي قرابة ثلاثمائة وثلاثين قصرة قصييرة، مائة منها فقط تنتمي الى قصة الومضة جمعتها كلها الا قليلا في كتاب الوميض الذي ورد الحديث عنه مما يجعل هذا المجاميع تصل الى عشرين مجموعة قصصية ، حتى وقت كتابة هذه السيرة.

وقد حرصت على الحديث بايجاز عن كل مجموعة من هذه المجاميع بدءا من العنوان حيث يراه الكثيرون احدى العتبات الاولى التي يباشر منها المتلقي الدخول الى عالم القصة، ولعل له وظائف اكثر من ذلك في الاشارة الى دلالة القصة والايحاء بمناخاتها واجوائها، وستبقى القصة القصيرة فنا، له غوايته لدى القراء، ولدى المنتجين له، وقد تحدث كتاب كثيرون عن مباهج كتابة هذا اللون السردي القصير، فالياباني المعاصر هاروكي مارا كومي، يرى ان احدى مزاياها ان كتابتها لا تحتاج الى وقت طويل وانه يستطيع انجازها في وقت قد لايزيد عن اسبوع واحد، ويسعده هذا التنوع الذي تتيحه القصة القصيرة لكاتبها والانتقال من اجواء الى اجواء وعوالم تختلف عن بعضها ، وهو يتنقل من قصة الى اخرى، والتجوال داخل نفوس شخصياتها، التي هي بذات التنوع والاختلاف.

الروايات

ما ذكرته من مجاميع قصصية، لم تضم كل ما كتبته من قصص قصيرة، لان هناك بضع قصص من بواكير اعمالي لم استطع الحصول على الصحف التي نشرت فيها اذكر منها اربع قصص احداها اول قصة نشرتها في صحيفة فزان ونشرت تحت اسم هارب الى المدينة، وثانية في صحيفة طرابلس الغرب تحت اسم عيد سعيد ، وقصتان صغيرتان ،في صحيفة الرائد نسيت عنوانيهما، وهناك قصص من انتاج المراحل الاخيرة نشرت عددا من منها في صحيفة ايلاف الاليكترونية ، تنتمي لتجربة في القصة الايروتيكية، لم تتوفر منها ما يكفي لاصدارها في كتاب، وهناك مادة كتبتها للاذاعة لم يعد ثمة امكانية للحصول عليها لان الاذاعة مرت بظروف كانت تحتاج الى استخدام الاشرطة القديمة لتسجيل مادة جديدة ، فكانت تمسح المواد مسموعة ومرئية، لهذا السبب، وبينها مادة ادبية ، وتمثيليات قصيرة ، وكلها لن اكون اسفا عليها لانني كتبتهاجميعا في بواكير حياتي الادبية ، وساعتبرها نوعا من التمارين التي ساعدت في تاهيلي للوصول الى مراحل اكثر نضجا وعمقا، وانتقل هنا لوقفات سريعة مع الرويات وفي سجلي حتى الان عشرون رواية ، مع انني بدأت كتابة الرواية متاخرا جدا ، واول رواية نشرتها في كتاب، جاءت بعد ربع قرن من ممارستى النشر والكتابة هي حقول الرماد ، الا انني قبل نشر هذه الرواية ، كنت قد بدأت محاولة لم اكملها الا متأخرا جدا، في العام 1967، هي كتابات بدايات رواية فئران بلا جحور التي ابدا بها هذه الوقفات مع الرواية في مسيرتي الادبية.

فئران بلا جحور

هي اول رواية باشرت كتابتها، ونشرت ثلاثة فصول منها، في مجلة الرواد، عام 1967، وكنت قد رأيت ، بعد ان قطعت شوطا في النشر والكتابة ، والانشغال بالمقالة والقصة القصيرة ، وبعض الاسكتشات المسرحية، انه حان الوقت لان اجرب حظي مع لون ادبي، لم يستقطب اهتمام الكتاب الليبيين الا في النادر القليل، هو فن الرواية، ورغم ما للقصة القصيرة من اعتابر ، وما لمبدعيها من مكانة تتصدر المشهد الادبي، فكرسوا حياتهم لها، مثل يحي حقي، ويوسف ادريس، ويوسف الشاروني، ومحمود البدوي، في مصر، وعبد السلام العجيلي في سوريا، ونظراء لهم في بقية الاقطار العربية، فان للرواية في ذلك الوقت، وفي مصر بالذات، نجوما اكثر لمعانا وبريقا، مثل يوسف السباعي ، واحسان عبد

القدوس، ونجيب محفوظ، ومحمد عبد الحليم عبد الله، الا ان الامر كان يختلف في ليبيا، فقد ظلت القصة القصيرة، هو اللون الابداعي الذي استقطب الادباء وسط تنظيرات تقول ان هناك محفزات كامنة في بينة المجتمع الليبي لكتابة القصة القصيرة دون الطويلة ، وهذه العوامل والمكونات البيئية الاجتماعية التاريخية، هي التي تشد المبدعين الى هذا اللون الادبي، ويستطيع القاريء ان يعود الى المقدمة التي كتبها المرحوم كامل المقهور، لكتابي البحر لا ماء فيه، ليجد تركيزا على هذه الاطروحة، وتأكيدا على ان المجتمع الليبي، بما فيه من تقاليد البداوة، وفصل بين الرجال والنساء، لا يوفر المادة التي تغذي العمل السردي الطويل، الا انني ، وبرغم وجاهة هذا الكلام، رايت انه لا يجب ان يكون قدرا لا فكاك منه ، وقررت ان ابدأ كتباة رواية مستوحاة من تجربة كنت شاهدا من شهودها خلال اعوام الطفولة، ورأيتها جديرة بالتوثيق الابداعي، وكنت اعرف انني ارغم نفسي ارغاما على دخول مجال، يراه اهل النقد والنظير، عصي على الكاتب دخوله، وان هناك ظروفا موضوعية ، خاصة فيما يتصل بالتخلف الاجتماعي، يحتاج الى وقت لكي ينضج ويصل الى مرحلة من التطور تسمح بان يتم تناوله بمثل هذه الاداة الفنية الابداعية ، وهي الرواية، مؤكدين على ان ما يكتب في مجال السرديات الطويلة، جاء مستواه ضئيل القيمة، الا انني مع كل ذلك، وبسبب كل ذلك، وضعت نفسي امام حالة امر واقع ، يصعب معها التراجع، وكانت الطريقة التي اهتديت اليها لكي اضع ضغطا على نفسي للكتابة، هي ان اقوم بنشر كل فصل انتهي من كتابته، في مجلة الرواد التي اشارك في تحريرها، ليصبح اكمال فصول الرواية التزاما امام المجلة ، وامام القاريء، لا سبيل الى الفكاك منه، وهو ما حدث فعلا، فقد كنت اكتب كل فصل وانشره، وغالبا لم اكن استطيع كتابة الفصل الذي يليه الا والمجلة في آخر مراحل الطباعة، وكنت سامضى في الكتابة بهذه الطريقة حتى اكمل الرواية، دون اي احتمال لان اتوقف على الكتابة الا اذا تدخل عامل قاهر مثل المرض او العجز بسب حادث اوغيره، وما حدث واوقف الرواية ، كان حادثا بالفعل، ولكنه لم يكن حادثا وقع لي شخصيا، ولكنه وقع للوطن العربي بكامل اقطاره، عطل فيه مسيرة كاملة من التحديث والتقدم كان ساعيا لتحقيقها، فقد جاء شهر يونيو ذلك العام، يحمل معه اكبر كارثة اصابت العرب في تاريخهم الحديث ،وهي الكارثة التي اسموها "النكسة"، وشملت آثارها بلدانا ابعد من دول المواجهة التي شاركت في الحرب ضد اسرائيل، مثل ليبيا، التي تحولت الى مرجل يغلي غضبا، واتخذ الغضب شكل حرائق وملاحقات لعناصر الجالية اليهودية، والايطالية، ومحاولات لماهمة القواعد الاجنبية، ادخلت البلاد في ازمة ادت بعد عامين الى عملية سطو على الحكم قام بها عدد من صغار الضباط قلبت الحياة في ليبيا رأسا على عقب.

ولا اذكر الان كيف كانت الصورة التي ظهر عليها العدد التالي للنكسة من مجلة الرواد، ولم استطع العودة اليه وانا اكتب هذه الذكريات لانني اكتبها خارج طرابلس ، بعيدا عن المكتبات التي تحفظ اعداد المجلة، ولكنه بالتأكيد كان لابد ان يعكس شيئا من مناخ تلك الايام واجوائها، ولم يكن ممكنا ان يأتي كاتب مثلي، وسط الغبار والدخان الذي تخلف عن تلك الاحداث، ليواصل الحديث عن جرابيع الصحراء وجحورها، ومعاركها مع النمل والخنافس والديدان، وقد اسلفت القول بانني اكتبها فصلا بفصل، فلم اكن بالبداهة املك مزاجا ولا صفاء في الذهن، في هذا الجو المتوتر العامر بمشاعر الاحباط والاحساس بالخيبة والعجز وعار الهزيمة، لمثل هذا النوع من الكتابة، ولابد من الاعتراف، انني كنت فتى غرا سادجا، لانني صدقت كل تلك الشعارت التي بثها الاعلام قبل واثناء المعركة ، والمبالغات التي يروجها

اهل السياسة عن المارد العربي ، والتي كانت طعاما لاحلام واوهام اكثر منها توصيفا لواقع بائس ، لا وجود فيه الا للخواء، ولكي لا اظلم نفسي ولا اظلم المرحلة التي سبقت هذه النكسة ، ولا اظلم الاوهام الجميلة التي تغذى عليها وعينا في مرحلة الصبا ، واخطر سنوات التكوين ، ساعود الى مقال كتبته عن بعض اناشيد ذلك الزمان يلخص هذا الموقف اسميته " نداء فجر جديد" قلت فيه:

"اود ان اتوقف عند قوة الكلمات وضعفها, وعندما يكون لها مفعول السحر في عقولنا وقلوبنا في وقت ما وعمر ما وتحت ظرف من الظروف وسأضرب مثلا ببيت من الشعر لابد ان كثيرا من ابناء جيلي وابناء مرحلتي العمرية ممن بدأ وعيهم في التفتح في مطلع خمسينيات القرن الماضي, يعرفون كيف كان هذا البيت من الشعر اشبه بتميمة سحرية تطلق في النفوس شرارات مضيئة من الثورة والايمان والقوة وكان هذا البيت الذي كنا نردده كمطلع لنشيد مدرسي يقول:

دعا الفجر هيا رجال الغد
وهبوا فإنا على موعد

فقد كان هناك مع فجر الاستقلالات التي عرفتها الاقطار العربية, نداء يدق نوافذ البيوت والقلوب ويدخل الاسماع وتراه الابصار فتطرب له وقد تبدي في شكل شعلة مقدسة تنتقل من ارض الي ارض, قائلا بلغة الوعد والامل بان هناك مرحلة جديدة قادمة اكثر بهاء واشراقا, وكان هناك وعد وموعد. واذا كان وهج هذه الكلمات قد خبا في قلبي وقلوب ابناء جيلي ومن هم أكبر قليلا او اصغر قليلا من ابناء الفئة العمرية التي انتمي اليها وتحولت حروفها الي رماد بسبب الخيبات التي عشناها والعمر الذي مضي لم نر خلاله لقاء يجمعنا ولا وعدا يتحقق ولا غدا تتحول فيه احلامنا الي حقائق, فان الجيل الجديد ممن وصل الي سن الوعي هذه الايام لن يحيا مثلنا تلك الصدمة ولن يعاني تلك الخيبة ولن يري الأنجم تنطفيء نجمة نجمة في سماء الحلم العربي, لانه اصلا لن يجد اناسا يضعون هذه الكلمات في حنجرته كما وجدنا منشدين ومعلمين يصنعون من مثل هذا البيت هدفا ويجعلونه درسا ضمن مقررات المنهج المدرسي,
واستطيع ان اقول ان هناك كتابا واقلاما ينتمون لفئة عمرية اكبر من عمري واكثر علما ونضجا وجدية في تناول القضايا كانوا قد بدأوا النشر والكتابة عندما بدأنا نحن القراءة الواعية وآمنوا قبلنا بمثل هذه المعاني التي يعبر عنها ذلك البيت من الشعر, والتحقوا بذلك المشروع الذي كان يبدو مليئا بالوعود والامال الجميلة المضيئة, يشبه شجرة عيد الميلاد تضيئها الاف المصابيح, وكانت مصيبتهم ان المصابيح في الشجرة الكبيرة العملاقة قد بدأت تعاني من ضعف المولد الكهربائي الذي يغذي مصابيحها فصارت المصابيح تشحب ويخفت فيها الضوء امام ابصار هذا الجيل من المفكرين فقد تحول ذلك المشروع الذي استولي علي عشقهم الي اطلال هو الاخر, وتكسرت احلامهم في مجتمع عربي جديد, ناهض, حقق التطور والنهوض, وكان يؤلمني كثيرا عندما كنت التقي ببعض رموز ذلك الجيل وهو يري حالة الانحدار والتقهقر, وتغلغل افكار الظلام والجهل والبدائية, رغم العمر الذي قضاه في غرس قيم التجديد والتحديث واعلاء قيمتي العقل والعلم, وعندما يغيبون اشعر بحس الفجيعة مضاعفا بسبب ما انتهت اليه جهودهم وافكارهم وكفاحهم, ثم بسبب الفراغ الذي يتركه رحيلهم ويبقي مكانهم اشبه بركن سقط من سور العقل والعلم ليترك مساحة اكبر

تتقدم من خلالها جيوش التخلف والظلام, وفعلا كان هذا هو احساسي وانا اري هذا الرحيل المؤلم الفاجع لاقلام نبيلة عزيزة وعقول كبيرة تحمل قيم التنوير والتطوير مثل الدكتور شاكر الفحام في سوريا والدكتور علي الأشهر في ليبيا والدكتور سهيل ادريس في لبنان والاستاذ رجاء النقاش والاستاذ سامي خشبة والدكتور عبد الوهاب المسيري والاستاذ سعد اردش في مصر. ممن التحقوا بدار البقاء في الايام الاخيرة, وهناك كثيرون من ابناء جيلهم رحلوا يحملون هذا الحصاد المرير قبلهم, وهم جميعا من جيل الاساتذة بالنسبة لي وشركاء الحلم العربي والمشروع الحضاري الذي يضم اقطار المنطقة في نوع من الاتحاد الذي ينعكس قوة وازدهارا ونهوضا علي ابناء الامة العربية.

وبعد ان قلت هذا الكلام اقول ايضا ان ماعاناه جيلنا من حصاد الخيبة والمرارة, لايجب ان يكون قدرا محتوما لمن سيعقب جيلنا من اجيال, فهناك عالم يتفجر بالمتغيرات والافكار والتحولات والفتوحات العلمية التاريخية, وهذا يعني ان الافق

الذي صار مغلقا امام الحلم القومي القديم, قد يعود للانفتاح بصياغة اخري واشكال اخري تحقق لشعوبنا العربي ماتطمح اليه من تطور وازدهار ورخاء وتقدم ونهوض, ولن يكون غريبا ان نسمع مع الفجر نداء جديدا يضيء في قلوب الاجيال الطالعة شعلة الامل" .

المهم في هذا السياق ان حجم الصدمة كان مهولا حقا، وان هذا الموعد للاسف الشديد الذي يدعو اليه النشيد، لم يكن الا موعدا مع الانهيار الكبير لجبال الاكاذيب، وشعارات الخواء والخداع، وعافت نفسي الكتابة، رغم انها صارت بالنسبة لي مصدرا للمعيشة والدخل، وتبعا لذلك لم يكن ممكنا ان اواصل كتابة الرواية ، وتوقفت عند الفصل الثالث، واعتبرتها عملا مجهضا، يلحق باعمال كثيرة اخرى، الفرق بينها وبين تلك الاعمال، انها ظلت طي النسيان ، بينما وصل بعض من فئران بلا جحور الى النشر. ونسيت امرها ، حتى بعد ان دملت جراح النكسة، وتراجعت اثارها ، واستعدت توازني، واستأنفت الحياة دورتها الطبيعية ، وعدت لممارسة الكتابة باشكالها المختلفة، ظل هذا العمل نسيا منسيا، حتى وانا افكر في مشاريع روائية اخذت طريقها الى النشر، وكان فعلا شيئا غريبا ان اعود الى هذا العمل المجهض بعد ثلاثين عاما من النسيان والاهمال، واذكر انني كنت ازور بلدة مزدة في احدى المناسبات، وجاء في احدى الجلسات ذكرى تلك الاعوام التي ذهب فيها عائلات من القرية لحفر جحور الفئران بحثا عن سنابل الشعير في البادية، فقلت عرضا، ان الحادثة كانت موضوع رواية شرعت منذ ثلاثين عاما في كتابة ونشر فصول منها دون اكمالها، وسمعت جملة قالها احد الجالسين، في بساطة وعفوية:

ـ وما المانع من اكمالها الآن؟

نعم، لماذا لا اكمل تلك الرواية التي تتحدث عن قصة انسانية ، كنت شاهدا على احداثها، وتؤرخ لفصل من فصول المعاناة المرعبة التي عاشها ابناء شعبنا في عقد الاربعينيات، جوعا واملاقا، وصراعا معع الفئران من اجل الحصول على لقمة العيش، نعم لماذا لا اكملها، وزاد من حماسي لاكمالها يتولى الاشراف على سلسلة روايات الهلال، عرض ان ينشر لي رواية في هذه السلسلة الشهيرة، فاعطيته روايتي التي سبق نشرها " حقول الرماد"، فاخذها، ثم اعادها قائلا بان زملاءه في دار الهلال يحبذون نشر الاعمال الجديدة، ويرجو ان اوافيه بنص روائي لم ينشر من قبل، ولم اكن املك مشروعا روائيا ناجزا او تحت الانجاز، ووعدته بان اوافيه باول نص اتوفر على كتابته، واعادت تلك الجملة التي قالها الرجل في مزدة، الى ذهني الحوار الذي جرى مع المسئول عن روايات الهلال، ووجدتها فكرة مناسبة ان تكون حقول

الرماد هي الرواية التي اعكف منذ الان على كتابتها لاقوم بتسليمها بعد اسابيع قليلة الى صديقي مسئول التحرير على روايات الهلال.

وكان اول سؤال اطرحه على نفسي هل اعيد كتابة الفصول التي انجزتها، ام اوصل الخيط من حيث تركته منذ اكثر من ثلاثين عاما، وهو امر مشروع ان اعيد الكتابة، بل ربما يكون ضروريا، بحكم ما اكتسبته من خبرة ومران خلال هذا الامد الطويل، مع صعوبة ان استعيد نفس الاجواء وادخل في السياق الذي تركته كل هذا الوقت، ولكن لامر ما، قررت ان اترك الفصول الثلاثة التي كتبتها كما هي دون تغيير كلمة واحدة، لكي تكون شيئا من عبق الماضي، ونكهة البداية بكل ما تحمله من براءة وسداجة، يمكن ان تتجلي في بعض العبارات والمشاهد، واستأنفت الكتابة من حيث توقف، في ذلك الشهر من عام 1967، وكنا قد اشرفنا على العام تسعمائة وتسعة وتسعين بعد الالف، من التاريخ الميلادي. وحقيقة فانني لم اكن استطيع ان اتذكر عما اذا كنت املك خطا قصصيا تسير عبره الاحداث ، عندما كنت انشرها في صحيفة الرواد، وكان لابد ان ارسم مسارا للاحداث، او امضي في الكتابة حسب ما يمكن ان تتطور اليه، وهو ما فعلته فعلا، فقد اسلمت نفسي للتدفق العفوي للاحداث كما تاتي كانت تتوافد على عقلي ، ولا ادري كيف استطعت ان اكتبها بيسر وبلا عناء، رغم سنوات الانقطاع، التي احسب انها لم تكن حقا انقطاعا، وانما اختمار للفكرة وانضاج لها، ورايت بشكل من الاشكال ان القصة جاهزة في ما مكان ما من العقل الباطن، ما لبثت ان تدأت تظهر وتكشف عن نفسها فصلا وراء الآخر، وكنت وانا اتابع الحفر تضاريس الماضي، كمن عثر على بناء اثري مدفون تحت التراب، جاهزا وكاملا وناجزا، ولا يحتاج الا لازالة الاتربة التي تراكمت فوقه بفعل الزمن.

واذكر انني سألت نفسي سؤالا افتراضيا، بعد انجاز الرواية ، هو عما اذا كنت اكملتها وقت نشرها في الرواد عام 67، هل ستكون مطابقة لهذه الرواية التي فرغت منها الان بعد انقطاع ثلاثة عقود ونيف، واقول صادقا ما انا على وعي به، وهي انها لن تكون مطابقة لما كتبته اليوم، لانني اثناء استئناف الكتابة سألت نفسي اسئلة فنية، لم تكن واردة في ذهني عندما بدأت كتابة فصولها الثلاثة الاولى ، لانني كتبت تلك الفصول، بعد ان قرات رواية تنتمي الى الادب الواقعي جرى الاحتفال بها في العالم العربي، هي رجال وفئران، للامريكي جون شتاينبك، وكانت احدى الروايات المترجمة التي قراتها عندما نشرت على حلقات في مجلة هنا طرابلس الغرب، ثم اقتنيتها عندما صدرت في كتاب، وتصادف في ذلك الوقت ان قرات مسرحية مترجمة لها عنوان قريب من العنوان الذي اخترته للرواية، هي ، موتى بلا قبور، وكان الترويج لما يسمى الواقعية الاشتراكية ، يتم بشكل مبالغ فيه ، في شكل حملة دعائية كتلك التي تقوم بها سلع مثل مسحوق صابون تايد الذي يغسل اكثر بياضا، وكان ذلك الشاب ، القادم من الريف، ومن اكثر طبقاته فقرا، الذي كنته، يجد انجذابا الى هذه المذاهب الادبية التي تحتفي بالكادحين وتنحاز للطبقات المسحوقة، بل يجد سحرا في هذه الدعاوى التي تطالب الادب بان يلتصق بالجماهيرويعبر عن نضالاتها، فكان كل هذا محفزا للالتزام بالواقع التزاما صارما، ويسعى لكتابة ادب منغمس فيه ، ولا يفكر حتى ان يعطي نفسه تلك الفسحة التي لا ينكره الادب الواقعي من امتدادات في الفانتازيا وشطحات الخيال وصولا الى العوالم العبثية السريالية، ولم اكن اخشى التفكير فيها جهلا بها، فقد قرات في ذلك الوقت كتابا موحيا وجميلا اسمه واقعية بلا ضفاف كتبه الرجل الذي انحاز فيما بعد للفلسفة والسياسة وهجر النقد الادبي والفني

روجيه جارودي، وصنف اعمالا كثيرا لم تكن تحسب في الاطار الواقعي مثل قصص كافكا الكابوسية العبثية التى ترمح كالجواد الوحشي في عوالم الفانتازيا ، كانت الخشية من ان اخطيء واذهب الى تلك الارض المحرمة التي يفقد فيها الادب صلته بالواقع فقدانا كاملا ويحسب على مدارس الفن للفن والادب للادب ، وهذا ما كنت احسب انه الكفر، كا يقول لنا سدنة الادب الواقعي الاشتراكي، ولهذا كله ، كنت اتصوره صعبا ان يقفز بي الخيال قفزاته الكبيرة التي حصلت وانا استأنف كتابة فئران بلا جحور في الصيغة التي خرجت فيها كاملة الى الناس في الكتاب الذي نشرت طبعته الاولى روايات الهلال. لان العقود الثلاثة التي تفصل بين الموقفين علمتني ان ما كنت اراه انحرافا عن الطريق القويم للادب، هو الادب الحقيقي، وان الادب الذي يريد ان يكون نقلا حرفيا للواقع والتزاما به الى حد تطبيقه وتصويره كما يراه في الحياة، هو اكثر اواع الادب سوءا وافقرها الى نعمة الثراء والغنى وحرمانا من الكنوز التي تقدمها شطحات الخيال ويقدمها ما فوق الواقع وما تحت الواقع وماحول الواقع والذي يتغذى على الفانتازيا والحدس والحلم والعبث واللامعقول، وهذا الفهم لدور الادب هو الذي جعلني اطرحه اسئلة فنية لم يكن ذهني يقبل طرحه في مرحلة التعصب لمدارس الواقعية الاشتراكية، وواحد من هذه الاسئلة هو : ترى ماذا سيكون شعور قاطني هذه الوهاد والسهوب والشعوب ، من كائنات غير بشرية، وهي ترى قافلة البشر تقتحم موطنها واماكن استقرارها؟ ماذا سيكون شعور الفئران التي سيباشر اعضاء هذه القافلة هدم جحورها، وماذا سيكو شعور النمال التي باشرت خفاف الابل التي جاءت بها القافلة تدمر مدنها، وهذه الضباب والحربوات والارانب وربما الضبع والذئاب، ماذا ستقول ازاء هذا الاقتحام البشري لموطنها؟ ومن هنا جاءت فكرة ان اعطى صوتا واكرس مساحة في الرواية للتعبير عن عوالم هذه الكائنات، واصورحياتها، وانقل ما ما يمكن ان تكون وجهات نظرها فيما يحدث لها من اضطهاد، واعتداء على حياتها، من قبل هذه الكائنات البشرية. وقبل ان اقدم الرواية للهلال، اردت ان اعرف رأيا نقديا حولها، وكان الصديق الناقد العراقي المعروف ، الاستاذ فاضل تامر، الذي اصبح فيما بعد رئيسا لاتحاد كتاب العراق ، يقيم في ليبيا ويعمل بها، فاعطيتها له، للقراءة، فجاء معبرا عن بالغ تقديره للرواية ، وكدليل على هذا التقديروالاعجاب، كلمة نقدية تلقي ضوءا على جماليات السرد وبراعة البناء وحيوية الشخصيات ، وتسبر اغوار عوالمها الفنية، وهي كلمة نشرت في الصحف ، واقتبست منها مؤسسة الهلال ، مقتطفا نشرته مع الرواية، التي كانت اول رواية ليبية ، تصدر في هذه السلسلة الشهيرة.

حظيت الرواية عند صدورها باستقبال حافل من النقاد، وعقدت ندوة لها في نادي القصة المصري، شارك فيها عدد من النقاد والمبدعين الكبار، بينهم الدكتور محمد حسن عبد الله، يوسف الشاروني، محمد قطب، وكتب عنها عدد كبير ايضا بينهم الدكتور احمد الخميسي والدكتور مصطفى الضبع والدكتورة فاطمة الحسن.

حقول الرماد

اما حقول الرماد فانها ، كماسلفت القول، الرواية الاولى التي ظهرت كاملة للقراء، في كتاب من نشر الشركة الليبية العامة للنشر، وكان ذلك عام 1985، بعد ان نشرتها على فصول في المجلة اللبنانية الشهيرة "الكفاح العربي"، واعتبرها الكاتب المعروف الدكتور على فهمي خشيم ، اول رواية ذات اكتمال

ونضج تصدر في ليبيا، واعتبرني باعتباري كاتبها ابا للروايةالحديثة في ليبيا كما جاء في مقالاته ومحاضراته كما نقلتها الصحف واحداها القاها في المجمع الثقافي في الامارات.

ومع الاعتراف بكل جهد سابق لهذه الرواية، مثل جهود استاذ لابناء جيلي هو محمد فريد سيالة، والاسبقية التي احرزتها كاتبة ، ربما اصغر مني عمرا وتجربة ،هي السيدة مرضية النعاس، وكتبت كما كتب الاستاذ سيالة قبها روايات تنحو منى رومانسيا عاطفيا انفعاليا، مثاليا، جعلها اشبه بروايات كثيرة سبقت رواية زينب في مصر، التي يؤرخون بها لبداية الرواية العربية، وكانت قد سبقت ظهورها بعدة سنوات روايات التاريخ الاسلامي لجرجي زيدان، وهي مسالة متروكة لاهل النقد والتأريخ الادبي، ولكنني اقول ان كتابة هذه الرواية، جاءت بطريقةعفوية ، لا اثر فيها للتصميم والقصدية وسبق الاصرار والترصد، كما كان الحالمع الرواية الاولى التي لم تكتمل ، ولم تر النور حتى ذلك الوقت مع انني جئتها بغرض ان زرع نبتة الرواية الواقعية في الادب في هذه المنطقة. حقول الرماد، جاءت استجابة طبيعية، لاحداث سمعتها وانفعلت بها، اثناء زيارتي للبلدة، فهي ، في هذه النقطة ، تشترك مع الرواية السابقة لها، مستوحاة من احداث شهدتها بلدة مزدة، وان لم اكن شخصيا طرفا فيها، او شاهدا عليها، ولكنني تأثرت بماسمعت، وذهب تفكيري بداية لكتابة تحقيق صحفي عن تطورات تمس الحياة الاجتماعية والتعامل مع عاطفة الحب وخروج المرأة الى العمل والحياة، ثم رايت ان الكتابة صحفيا عن هذه الاحداث هو اجهاض لها، وانها قماشة جيدة لعمل سردي ابداعي ينتمي الى الرواية، ورايت نفسي منذ اللحظة التي استقليت فيها سيارتي تاركا القرية ، ابني عالما في ذهني تتحرك فيه هذه الشخصيات التي كانت جزءا من الاحداث التي سمعتها، وشرعت في كتابتها فور وصولي الى البيت ، ولم تكن قد انتهى شهر واحد فقط،حتى كانت الرواية قد اكتملت، دون عناء، ودون ارغام لنفسي على الكتابة كما كنت افعل مع الفصول القليلة التي كتبتها من الرواية السابقة، ولعلها اسرع رواية كتبتها من جملة ما كتبت من اعمال روائية، ولعله يجدر به هنا ان اترك المجال لقلم ناقد يصف هذه الرواية هو صديقي الناقد واستاذ الادب الفرنسي الدكتور الهادي عبد العالي حنيش الذي كتب اول مقالة عن صدور الرواية ونشرها في احدى صحف طرابلس يقول فيها

((هى أول رواية متكاملة تبرز فيها عبقرية الفقيه علي :تحليل نفسيات الشخصيات وما ينتابها من استقرار وتغيير
كما دخل باب المقالة الصحفية والقصة القصيرة بجرأة وقوة وحقق نجاحات باهرة ، ها هو د . أحمد إبراهيم الفقيه يقتحم العمل الروائى بنفس الجرأة والقوة مضيفا نصرا أدبيا جديدا.

ليست رواية " حقول الرماد " الرواية الأولى للأديب الكبير بل هى أول رواية متكاملة تبرز فيها عبقرية الفقيه على تحليل نفسيات الشخصيات وما ينتابها من استقرار وتغيير وتحليل الاوضاع الاجتماعية والسياسية التى كانت سائدة . إذ سبق له وأن نشر فصولا من رواية لم يكملها وهى"

فئران بلا جحور. "

ومن قراءاتنا للرواية نفهم أنه يتحدث عن بلدة " مزده" التى سماها قرن الغزال . تلك القرية التى قضى فيها الفقيه طفولته وجزءا من شبابه بل ومازال يتردد عليها بين الحين والآخر

وخاصة فى المناسبات والأعياد . والواقع الذى يقدمه لنا لهذه المدينة الصغيرة هو واقع كل مدينة وقرية ليبية آنذاك. . .

ولا نجد فى الفصول الأولى الا الحديث عن هذه القرية وصفا لها من خلال استقبالها للبعثة الامريكية ، تلك البعثة التى جاءت إلى القرية برئاسة جنرال أمريكى تحت هدف دراسة إمكانية إقامة مشروع لصناعة الزجاج من رمال القرية الذهبية والذى وعدت الحكومة به الأهالى فاستبشروا خيرا بوصول هذه البعثة))

وهذا مقتطف من دراسة عن الرواية ، عمدت الى تحليل احداثها وشخصياتها ، اما اطول دراسة استغرقت فصولا كثيرة ، فهي تلك التي كتبها الناقد السوري سمر روحي الفيصل واقتصر على اسطر قليلة اقتطفها من دراسته التي نشرها بداية في مجلة الوحدة التي كانت تصدر في باريس عن المجلس القومي للثقافة العربية حيث يقول عن الرواية:

((يعتقد المرء أن بنية " حقول الرماد " الدلالية هى أن القهر الاجتماعى السياسى هو الذى قاد المجتمع العربى إلى حالة سكونية ، عمادها الإيمان بالعادات والتقاليد والغيبيات والسحر والأساطير والاعتزاز بالماضى وقبول الفقر والقهر فى الحاضر . ولا خلاص من هذا القهر بغير رفضه والثورة عليه . هذه البنية هى التى تتيح لنا فهم الظاهرة الاجتماعية السياسية التى عبر عنها أحمد إبراهيم الفقيه ، وإدراك الوحدة الداخلية للرواية ، ولكى تتضح هذه البنية لابد من الكشف عن المقومات الأساسية المكونة لها))

ويضيف قائلا:

((وهنا تتجلى المقدرة الفنية الحقيقية لأحمد ابراهيم الفقيه فهو فنان يرسم باللغة مجموعة كبيرة من الصور السردية ، يربط من خلالها السابق من الحوادث باللاحق منها ، ويحلل المشاعر ويصور المناظر ويرسم الملامح))

اما الناقد المصري الدكتور محمد غنيم فقد كتب مقالا عن المكان في فئران بلا جحور جاء فيه"

" ينحو فيها منحى جديدا في رواية الصحراء , إذا جاز هذا التعبير , وعالم الصحراء أو المكان الصحراوي في أعمال الفقيه ليس جديدا عليه , فقد سبق له أن كتب عن هذا العالم في روايته السابقة " حقول الرماد " غير أن الفقيه كان يركز فيها على البشر أكثر مما يرتكز على الصحراء / المكان , أما هنا في روايته الجديدة " فئران بلا جحور " فإن المكان يأخذ حيزا أكبر وبعدا أوسع , ولن نبالغ إذا قلنا إن المكان بمفرداته من البشر والحيوان والنبات يجسد بطولة خاصة , هي البطولة الجماعية للمكان وما يحل فيه . فالصحراء في الرواية ليست مجرد مساحة مسطحة من أرض ورجال وشمس وليل وحيوان ونبات , إنما هي صورة مصغرة لوحدة الكون , وقد حصر المؤلف هذا الكون في رقعة صغيرة من الأرض هي (وادي جندوبة)

وزمن محدود هو خمسة أيام، وعدد قليل من البشر يتمثل في قافلتين , الأولى قوامها أربعون شخصا قادمة من (مزدة , (والثانية قوامها ثمانية أشخاص قادمة من (بير حكيم) تلتقي القافلتان على غير موعد فوق أرض جندوبة , بحثا عن الرزق أو قل هربا من الجوع الذي يكاد يفتك بهما , الجدير بالذكر أن المؤلف وضع عنوانا داخليا للرواية تحت العنوان الأصلي هو " صفحة من كتاب الجوع " ومن هنا يتفجر الصراع الرئيسي في الرواية إنه الصراع من أجل البقاء أو للحفاظ على غريزة الحياة إذا جاز التعبير" .

واستطيع ان اقول ان صدور حقول الرماد كان تدشينا للمرحلة الادبية الجديدة التي دخلتها والتي انجزت فيها حتى الان عشرين نصا روائيا ، وجدت اغلبها طريقها الى اللغات الاجنبية ، وكانت حقول الرماد هي الاولى التي ترجمت الى الصينية ولاقت هناك ترحيبا نقديا ، ادى فيما بعد الى ترجمة الثلاثية ، كما اخذت طريقها ايضا الى اللغة الانجليزية مع الكتب الكثيرة الاخرى التي اسهمت في وضع بلادنا ليبيا على خريطة الادب العالمي .

الثلاثية

لابد من التنويه انني كتبت الثلاثية الروائية، التي صدرت عن دار رياض الريس عام 1991، في وقت بلغت فيه الرواية العربة شاوا كبيرا، مما عطى بعد ذلك فرصة لظهور التعبير الشهير الذي صار يتداوله النقاد والمثقفون على امتداد الوطن العربي، وهو انه زمن الرواية، ولم يعد ممكنا لكاتب مثلي، ظل يكتب الادب السردي لاكثر من ثلاثة عقيد، مقتصرا على القصة القصيرة، ان يبقى بعيدا عن الاسهام في اثراء رصيد الرواية الليبية، مكتفيا برواية وحيدة هي حقول الرماد، ولذلك فانني اقول هنا ولمرة ثانية ، انني مع الثلاثية ، تقدمت للكتابة بوعي وقصدية وتصميم على ان اضع نفسي بقوة على خريطة هذا النوع الادبي، ولاشك انني وقفت قليلا امام تلك المقولات التي تكرست وتجذت في الوجدان الادبي الليبي، التي تقول بان بلادنا ومجتمعنا مندورة للقصة القصيرة، وان الطبيعة الصحراوية لارضنا لا تصلح لانبات الاشجار الكبيرة، في الادب كما في واقع عالم الغرس والنبات، ولا وجود في صحرائنا لغير الشجيرات الصغيرة من الشيح والرتم والعجرم، وقررت بيني وبين نفسي، ان يكون مشروعي الادبي القادم، سيكون تحديا لهذه المقولة، حتى لو كانت مقولة صادقة تعبر عن معطيات البيئة والمجتمع في ليبيا ، فليكن العمل السردي الطويل الذي ساكتبه،تحديا ايضا لمعطيات هذه البيئة، وسازرع في بادية الشيح والرتم والعجرم، شجرة حور او سنديان عملاقة، ولن تكون هذه الشجرة الظليلة العظيمة الجذع والجدور والاغصان، غير عمل روائي متعدد الاجزاء، ينتمي لما يسمى الصناعة الثقيلة في الادب، واستطيع في هذا العمل، الذي اردته ان يكون احد الثلاثيات القليلة في الادب العربي، ان استفيد من موارد غير البيئة الليبية ، اذ يكفي ان اعتمد على البيئة المحلية الليبية في تغذية جزء واحد من هذه الثلاثية، ولي من تجار الحياة خارج ليبيا، ما يغذي جزءا ثانيا، وساعتمد على التراث الشعبي والمخزون السردي العربي وما يحفل به من تجارب روحية وصوفية ، في تغذية جزء ثالث، وهكذا بدأت المرحلة السديمية لهذه التجربة الادبية التي

تنتمي للنفس الطويل، والمكابدة المرهقة ، التي لا يقدر عليها ، ولا يتصدى لها الا اهل التفرغ. وليتفرغ لكتابة القصص و الرويات ، من اتاحت له ظروف الحياة، بعون ومساعدة من ربات الحظ السعيد ، ان يتفرغ لانجاز مشروعه الادبي، ولكنني لن انتظر مجيء هذه الظروف التي قد لا تأتي ، ولن اعتمد على مزاج ربات الحظ السعيد، وساقتدي بكاتب من اهل المكابدات، انجز مشروعه الادبي دون تفرغ، وكتب ثلاثيته الخالدة التي جلبت له جائزة نوبل وهو موظف يطيع الروتين، ويلتزم بدوامه الرتيب المضجر، كل يوم، نجيب محفوظ، فلن اكون اقل جلدا ومثابرة ، بل وطموحا منه . وبدأيت اخط الاسطر الاولى من الرواية ، التي اصبحت لازمة تكررت في مطلع كل جزء من الاجزاء الثلاثة

" زمن مضى

وزمن آخر لا يأتي، وبين الزمن الهارب الى الوراء، والزمن الذي يرفض المجيء ، زمن ثالث، هو زماني"

ولأقل الان صراحة، وقد زال كابوس العهد الانقلابي الاستبدادي، انني ما قصدت بالزمن بالزمن الحالي الذي اعتبرته مأزقا، الا زمن الانقلاب وعهده ، فالجميع في ليبيا، ممن هم من ابناء مرحلتي العمرية، ينتظرون بحنين الى زمن سابق لزمن الانقلاب، ويتطلعون الى زمن قادم ينتهي فيه الكابون، تأخر في المجيء، معلقين بين الزمن الذي مضى، والزمن المرتجي الذي يرفض للمجيء. هذه هي البذرة الاولى، او الخطوة الاولي في استراتيجية الحكي.

لم اضع خطة تفصيلية ولا خطوطا عريضة لاحداث الروايات الثلاث، عدا الفكرة الاولى عن الفضاءات الثلاث، للعوالم التي تدور فيها احداث الرواية ، وهي فضاء الاغتراب في المكان، وفضاء الوطن، وفضاء التراث ، فانه لا شيء كان في ذهني يتعلق بالاحداث او الشخصيات او التفاصيل . لادع، قلت في نفسي، وانا اكتب الجزء الاول ، ساهبك مدينة اخرى ، لتجربة الحياة في الخارج ان تدفع ما اختزنة في العقل الباطن من احداثها الى منطقة الوعي، ولادع في الجزء الثاني لما استوعبه الذاكرة من مخزون التراث العربي ان يقدم دعمه واسناده لهذا الجزء من اجزاء الرواية، ولادع في الجزء الثالث لراهن الحياة في طرابلس ، ان يقدم لي احداثا تتوفر فيها عناصر الدراما والصراع التي تعطي صورة عن الحياة في هذه المرحلة من التاريخ في ليبيا، هكذا كانت خطتي التي بدأت تنفيذها مع الجزء الاول.

كنت قد بدات كتابة الرواية صيف عام 1987، خلال اجازة قضيتها في منتجع ساحلي في ضواحي العاصمة الليبية، وحدث ان صدر قرار بانتقالي للعمل في المغرب ، مع المجلس القومي للثقافة العربية ، الذي استقر في الرباط ، وباشر من هناك اصدار مجلة الوحدة التي كنت عضوا في اللجنة المشرفة على تحريرها، وهناك استأنفت كتابة الرواية باجزائها الثلاثة حتى اكملتها.

وينطبق على حالتي في الرباط القول الذي يقول ان الانهماك في العمل ، طريق الى المزيد منه ، فقد وجدت نفسي خلال فترة الاستغراق في كتابة الثلاثية ، التزم بكتابة باب يومي في صحيفة الشرق الاوسط، بعنوان "كل يوم"، وكان لابد ان اقوم بتقسيم وقتي الى خمس قطع، قطعة من الوقت ، ربما اكبر هذه القطع لكتابة الرواية، وقطعة لكتابة الباب اليومي لصحيفة الشرق الاوسط التي ظهرت كاوسع الصحف

العربية توزيعا لانها كانت الرائدة في الطباعة العابرة للقارات وكانت تطبع في عشرة مراكز في وقت واحد، واستقطبت كبار كتاب العالم العربي ، بينهم مصطفى امين واحمد بهاء الدين ويوسف ادريس وصلاح حافظ واكرم زعيتر ، فالكتابة هنا تمثل تحديا وتقتضي استنفار اقوى ما لدى الكاتب لكي يكون صنوا لهؤلاء النوابغ، وقطعة ثالثة من الوقت، لابد ان تذهب الى العمل الوظيفي الذي اتقاضى عنه مرتبي، وقطعة رابعة لاداء حق الاسرة والاولاد ، وكانوا في ذلك الوقت لم يتجاوزا سن الطفولة وفي المراحل الدراسية الاولى ، يحتاجون التوجيه والرعاية، وقطعة خامسة يحتمها واجبي نحو نفسي وحقي في الترويح والاختلاط مع اقراني من اعضاء الوسط الادبي في المغرب، وبهذا الخمس من وقتي وجهدي وعقلي، كتبت الثلاثية وانتهيت من انجازها، خلال اقامتي في المغرب التي لم تزد عن ثلاثة اعوام، وتصادف ان كان زملائي في العمل في مجلة الوحدة اثنان من عتاولة النقد في العالم العربي ، هما جورج طرابيشي، ومحي الدين صبحي، وكان صبحي جارا لي في السكن، ويباشر العمل اليومي في ذات المقر، بينما كان جورج يعيش في فرنسا، ويباشر عمله من هناك ، مع زيارات متواترة الى الرباط، ولهذا كنت ما ان انتهي من تبيض احد الاجزء، حتى احمله ، كومة من الورق مكتوبة بخط اليد، الى محي الدين صبحي، واطلب منه ان يقرأه، واعطيه مهلة اسبوع ، لان هناك ناشرا ينتظر ان ارسلها اليه في اسرع وقت ممكن، وكنت اكتب بخط كبير، فكان كدس الورق الذي يحمل كل رواية من الروايات لاثلاث، يبدو جسيما ، في حجم جبل صغير، ما ان يراه محي الدين حتى يظهر رعبه ورفضه من انجاز قراءته في اسبوع واحد، وغالبا ما يكون معه مادة في ملف ، من مواد مجلة الوحدة تحتاج الى القراءة لاختيار ما يصلح للنشر، فينظر الى ملف المجلة والى الكدس الذي قدمته، له ويحتج بلهجته الدمشقية المحببة، انني اطلب منه المستحيل، فكنت اترك المخطوط معه ، وانهض دون اي تعليق، وقد تكرر نفس المشهد، مع الاجزء الثلاثة ، اطلب القراءة في مهلة قصيرة، فينفجر هو غاضبا، محتجا بما لديه من التزام ازاء المجلة يقتضي ان يعطيه الاولوية، وانه لن يفرغ من قراءة هذا المخطوط ، والمجيء براي حوله لن يكون قبل ثلاثة او اربعة اسابيع، وكنت في كل مرة اترك المخطوط ، ليفعل ما يستطيع فعله ، الا انه في كل مرة ، كان المخطوط لا يبقى عنده غير ليلة واحدة، وفي اليوم التالي يأتي محمر العينين، قائلا في غضب" الله يلعن ديك ايامك، صدقني ما عرفت انام طول الليل، لحد ما خلصت الرواية" ، وكان هذا التعليق العاجل ، كافيا لان اعرف رأيه في الرواية ، لادفع بها الى النشر مطمئنا ، انه لا بديل للنجاح الا النجاح، مدركا ان ذائقة محي الدين صبحي، ذائقة خاصة جدا، فقد تمررت اول ما تمررت عبر الشعر، وجاء لنقد الاعمال السردية من تاريخ التعامل النقدي مع نتاج اعظم الشعراء العرب المعاصرين امثال البياتي وقباني وخليل حاوي والسياب. وانتظرت حتى اكملت تبييض الاجزاء الثلاثة ، لاعطيها للصديق جورج طرابيشي، عند وجوده في الرباط، الذي لم يكن رأيه يختلف عن رأي زميله محي الدين صبحي، وكتب الاثنان مقاطع نقديه، جعلها الناشر تعريفا بالرواية في غلاف كل رواية من الروايات الثلاث.

وكان الناشر هو الصديق الكاتب والصحفي الشهير رياض الريس، الذي اختار الاقامة في لندن، خلال فترة الحرب اللبنانية، هاربا من جحيم بيروت، واصدر في منفاه اللندني، صحيفة اسبوعية تحمل اسم صحيفة كان يصدرها والده في دمشق اسمها المنار، قبل ان ينتقل من نشر الصحيفة الى نشر الكتب، في دار اسماها دار رياض الريس للكتب، وعززها بمكتبة في اشهر احياء لندن التجارية لتوزيع وبيع الكتب العربية، واصدر في نفس الوقت مجلة شهرية ادبية فكرية اسماها الناقد، وكنت قد اسهمت في

الكتابة للناقد ، قبل ان اتفق معه على نشر الثلاثية، التي صدرت لتجد في انتظاها مهرجانا حافلا للترحيب والاحتفاء بها ، وتقدم بها الناشر لنيل جائزة الابداع، وهي جائزة تمنحها سلطات معرض بيروت للكتاب ، لافضل عمل ابداعي، من جملة ما يتم المشاركة به في المعرض من كل اصناف الابداع ، شعرا وقصة ورواية ومسرحا،ونثرا فنيا وغيره، واجمعت لجان الفرز على اعطاء جائزة افضل عمل ابداعي ذلك العام وهو عام 1991، للثلاثية ، ودعيت الى بيروت لاستلم الجائزة من دولة رئيس الوزراء عمر كرامي في حفل كبير، وفي نفس الوقت ، اجرت مجلة المجلة استفتاء عن اديب العام في العالم العربي، واجمعت اغلبية القراء على منحي شرف ان كنت اديب العام في استفتاء المجلة واصدرت ملفا خاصا عني بهذه المناسبة .

من علامات حسن الطالع التي قابلت الثلاثية، هذه القصة التي اسوقها عن ظروف ترجمتها الى اللغة الانجليزية، وهي ترجمة باشرها المترجمون ، قبل صدور الثلاثية في كتاب باللغة العربية، وما حدث هو انني كنت على اتصال بواحد من ارباب صناعة النشر والمسرح والعلاقات العامة في بريطانيا، الاستاذ نعيم عطا الله، وهو اسم كبير في عالم المال والاعمال كما انه كاتب وصاحب مؤسسات تعمل في مجالات الفن والأدب، بريطاني من اصل فلسطيني، ولبى دعوتي ذات مرة لمشاهدة مسرحية الغزالات، عند عرضها في لندن، لمدة محدودة ، في مسرح برنارد شو، ضمن ايام ثقافية عربية، ووجد في المسرحية مادة فنية قابلة للمغامرة التجارية ، وتقديمها في انتاج مسرحي عالمي، وحدث ما حدث من تطورات اوردتها في متن هذه السيرة، ادت الى ترجمتها وصدور طبعتها الانجليزية عن دار كوارتيت في السنة التالية لصدورها باللغة العربية، ثم جاءت بعد ذلك ترجمتها الى اللغة الصينية، وباشرت احدى الكاتبات ترجمتها الى الفرنسية ، ووافقت دار نشر هارمتان على نشرها الا انها ظلت عالقة عند السيدة المترجمة التي تطوعت لترجمتها لكن ظروفا في عملها لم تكن فيما يبدو قد ساعدتها على اكمال عمل بمثل هذا الحجم والصعوبة وهي prof. Jacqueline Jondot

البروفسورة جاكلين جوندوت استاذة ادب انجليزي في جامعة تولوز، وقد تعرفت بها بعد ان كتبت مقالة عن مسرحيتي الغزالات التي شاهدتها اثناء علاضها في لندن. ولا استطيع ان انهي الحديث عن الثلاثية دون ان اطلع القاريء على نص رسالة ادبية جميلة كتبها لي صديقي الاعز الدكتور على فهمي خشيم اثر فراغه من قراءة الثلاثية وحمل رسالته بكل ما في قلبه من حب وعواطف نبيلة وكل ما في ذائقته الادبية من حس بالجمال وروح الشعر، وهذا هو نص الرسالة : عزيزى أحمد...

منذ عشر دقائق بالضبط التهمت الورقة الأخيرة من ثلاثيتك. أشعلت سيجارة جديدة، ورشفت ثمالة فنجان القهوة البارد، واتكأت على كرسى المكتب ...واستحضرتك. لست أعرف عنوانك، ولا أين أنت الآن فى القاهرة، تسهر فى الحسين، أم تقلب أوراقاً قديمة أو جديدة، فى بيتك، أم تتابع مسلسلاً تنتجه، أو تتفرج عليه، أم أنك تشرب قنينتك المليون مع ملائكة الرحمن. ولا أى من هذا يهم. المهم أنك جالس معى الآن، بشعرك المنفوش الذى دخلت الشيب "الجميل" ونظارتك السميكة، وضحكتك الساخرة الماكرة الساذجة فى الوقت نفسه.. وهذا من أغرب ما رأيت فى حياتى!".

ما الذى يمكننى قوله؟ بل ماذا تتوقع منى أن أقول؟ لعلك تتوقع كلمات الإطراء والثناء والمدح والتمجيد. هذا حقك، وهو أمر مفروغ منه لعلك تتوقع أن امتطى مهرة قلمى – استعارة لتعبيراتك – وأذبج مقالة نقدية –انتقادية؟–عن "الثلاثية". لن أفعل ببساطة؟ لأننى لا أستطيع. سأكتفى بأن أكتب إليك أنت بالذات.

ما هذا الذى قرأت، وما هذا الذى كتبت؟ عالم زاخر، مصطخب، ودنيا من الحقيقة والخيال، ومن الواقع والحلم، دنيا قائمة بذاتها، قاعدة بذاتها، أشهد الله أننى استمتعت، عشت، تلذذت، استوعبت، فهمت، دخت، تقلبت، انفجرت، تفجرت، فرحت، حزنت، ضحكت، بكيت، أنتشيت هذه تسمى "كتابة".. هذا عمل أدبى من الطراز الأول، عايشتك، عشت معك فى كل سطر وجملة وحرف وعبارة تداخلت المشاعر فى نفسى، وأكتبك بهجة وألما، حبوراً وعذاباً، حلاوة ومرارة. كنت أقول لنفسى – وأنا أتابع القراءة، ألتهم الصفحات– : مش معقول ...يا ابن ... حلو يا الله ..يا عينى ... يا سلام.. مسكين ... يتساهل ... حرام ....حلال .. يا ربى!

ماذا يمكن أن أسمى هذا العمل؟ أخشى أن تكون تلبستنى عباراتك. أخشى أن أجدنى أكرر كلماتك. سددت على المنافذ كلها. كل فكرة يمكن أن تخطر فى بالى أخشى أن أجدها بين ثنايا ثلاثيتك. فماذا أفعل لأتخلص مما قرأت؟

لن أكذب عليك، هذا وعد. سأقول لك مشاعرى كل ما أحسسته وأحسه نحوك؛ أشهد الله، وما شئت من الشاهدين، أننى أحببتك صديقاً وقلماً، منذ زمن طويل. شدنى إليك ما تزخر به من "إمكانيات" كبيرة وقدرة عجيبة على "الاختراق" وأشهد أننى سخطت عليك ونقمت، وشتمت، ولعنت جد جد أبيك، فقد كنت أراك "تضيع" منى، منا تلهث هنا وهناك، تتريص، وتترقب، وتجامل ...وتصمت .. ظلمتك كثيراً. خيل إلى أن هذا الجواد البرى قد روض، ودرب، وأسلس قياده. مثل كثيرين ومع مر الأيام فتر شعورى نحوك – أعترف –ولم أعد أهتم بمصيرك، أو أبالى بما تصير إليه. فقدت ذلك الفتى المندهش أبداً، المدهش أبداً. أحسست بالفجيعة والفاجعة.. وظلمتك كثيراً جداً جداً.

مرت الآن عشرون دقيقة

منذ حوالى نصف ساعة أكملت الصحفة الأخيرة. لخصت كل شئ كل شئ.. كل شئ. فما الذى يمكنى قوله؟

على أجنحة من الخيال (هل هو فعلاً خيال؟) طرت معك فى سماوات أدنبرة. وفى زورق الأحلام (هل هى أحلام؟) كنت أرافقك، وجميلتك بدور، فى مدينة المرجان. وعلى صخرة الواقع الصلبة (لن أسأل : هل هو واقع؟) كنت بجانبك فى المدينة السياحية. فما الذى فعلته بى؟

شعرت بالفرحة تغمرنى وأنا أرى كاتباً من بلادى يتحدى نواميس القهر، والتابو، والخوف، والرعدة، ويكتب بكل هذه الصراحة يسميها البعض : الوقاحة – ويجرؤ على البوح بما لا يجرؤ غيره (وأنا من هذا الغير) على البوح به. تقلبت بين الفرحة والخشية، وتروحت بين "عظيم" و"ياساتر"! أعجبت وتعجبت، تقدمت، تأخرت، أيدت، نفرت، تلذذت، استمتعت، تقززت، هربت.. هربت.. هربت ...هربت .. هرولت إلى "قناعى" القديم خوفاً، ورعباً.

يا خليل الامام ... لماذا ادخلتنى مدينة مرجانك؟

أية أجنحة من الشوق، والطلاوة، والمتعة هذه!

ولماذا جعلت حبيبتك سناء تستولى على كما استولت عليك. هل تظن أنه ليس ثمة سوى سناء واحدة؟ ما أكثر السناءات يا صاحبى.

فأية نجوم تسطع فى عباراتك، وصفك، "تصويرك". وأية دقة هذه التى صورت بها بعض ما عايشت وأعيش! هل كنت أنت أنا، أم كنت أنا أنت؟ ألا أخشى أن أعيد عبارتك وصورك الفاتنة، الممضة فى فتنتها؟

والساعة الآن الثالثة صباحاً.

غفا كل شئ إلا من صوت عربة يأتى أزيزها من بعيد، ودقات الساعة تعلن الثالثة. وأنا قابع على مكتبى. أكداس هائلة من الأوراق والقصاصات والقواميس، فى لغات ماتت من ألف عام (كلا. من خمسة آلاف عام.. قبل أن تتحد وبدورك المذهلة). أصبحت أشك فى جدوى ما أفعل. فما الذى فعلته بى يا خليل ...يا أحمد!

فرحان .. نعم.. فرح، فرحان، لأننى قرأت ثلاثيتك. يا الله، هل كان يمكن أن أموت قبل أن أقرأ هذا الشئ الفاخر، المبارك (ها أنذا أعيد كلماتك). وها أنذا الآن أعذرك. أعذر كسلك، وشطحاتك، وأندم على ظلمى الشديد لك.

على مدى أسبوع قرأتها. كان يمكننى قراءتها فى يومين. أردت أن استطعم هذه الحلاوة الرائعة على أطول مدى ممكن. كنت – لو استطعت – سأقضى سنة أقرأها على مهل، لم يطاوعنى قلبى ولا عقلى ولا روحى فى الإطالة. وعدت نفسى بأن أستعيد القراءة على مهل، لازداد استمتاعاً ودهشة وحلماً وواقعاً ومرارة عذبة، وحلاوة مرة، و...(هاأنذا أكرر عباراتك ...فمن أين برزت لى بحق الشيطان..).

وأجدنى أضع القلم، وأسترجع الصور التى أبدعت. لماذا أسترجعها، وها أنت الآن أمامى تدفن رأسك المنفوش الشعر فى ركبتك تواضعاً (أيها الوقح الرائع ..أتواضع؟ عيب). وتحاول أن تشرح لى بواعث ما كتبت. تشرح لى؟ سبحانك! فلم يكن ثمة سبيل آخر سوى أن تكتب. ليس لك خيار. أنت هنا مسير بقوة سحر ليندا وساندرا ويدور وسناء. هل أضيف اسماء جديدة/قديمة؟ كان لابد أن تكتب، فهكذا خلقت ، وتكتب بفخامة ورقة وعذوبة، رغم أنف الصحراء والقبلى وكرموس الهندى والمدينة التى تأكل أطفالها وتحول الحدائق والجنائن إلى مستودعات للشاحنات. ها أنت تكتب، رغم كل شئ رغم كل ما جاء فى الصفحة الأخيرة من ثلاثيتك. لم تستطع أن تسقط، رغم أنك تحاول السقوط فى بيوت العناكب الرهيبة. كتابك شاهد عليك لا يمكنك أن تسقط، لأنك لا تستطيع. لقد كتبت. كتبت لى، ولآلاف آخرين، مئات الآلاف، ملايين عانوا ما عانى خليل الامام، وقاسوا ما قاساه..ولم يجرؤوا على الكتابة. أنت كتبت.

هل يمكن لكاتب آخر – من بلدى – أن يحشد كل هذه الصور العجيبة المتداخلة فى مثل هذا العمل المتماسك، المحكم البناء؟ هل يمكن أن ينسى قارئ – مهما بلغ جهله–ألا يقفز طرباً لأوصافك سياحتك الرائعة فى قورنيا (المضوع المحبب إلى) مع الآلة والأرباب والحجارة والأشجار والأعشاب والأخاديد.. المتعة خالصة. وهذه الدهشة الماكرة أمام كل شئ تمثال الحسان الثلاث، والعارية أفروديت، وطيور الجبل الأخضر. شهقتك المفعمة خيالاً وحلماً أمم قوى الطبيعة فى مدينة المرجان. هذه الأجسام النورانية/النارية التى تصورها بقلم يعرف شبقاً وينزف لهفة ويزرق حنيناً وحزناً على سنوات الهجوع الباردة". فما الذى يمكننى قوله؟

و ...أصبحت حكيماً. وخط الشيب شعرك المنفوش. فى كل عبارة حكمة، تأمل، زفرة، حرقة، بكاء، عويل ...وضحكة ساخرة من كل شئ. هل ننادى بك كونفيشيوس العصر الحديث؟

هل يمكننى أن أسترجع الصور المحشودة بكل هذا الاتقان؟

لا يمكننى فإننى – أقول لك – إلا أزل أتمطق لذة كل كلمة فى روايتك. ولا تزال الحلاوة فى لسانى. حلاوة ومرة، مثل الشيكولاته الأنكليزية الأصلية ...تعرفها حتماً.

حين أريتنى ما كتبت الصحف عن ثلاثيتك فى أقطار عربية، غير قطرنا، شعرت بالفخر وبالخجل وبالأسى. تنال الثلاثية جائزة أفضل عمل روائى لسنة..! فهذا مبعث فخر. وخجلت لأننى آنذاك لم أكن قرأتها. وأحسست بالأسى أن لا تكتب كلمة واحدة عنها هنا، ولا يذكر فوزك بالجائزة. لكننى وأسيت نفسى (والأسى والمواساة من جذر واحد!) بما رددته أنت عن المدينة التى كان ينبغى أن تسمى "لامياً" آكلة الأطفال، المدينة التى تدوس البراعم والزهور، تقتل الفرحة فى العين، وتزرع الشوك فى كل قلب. مدينة مثل هذه لا تنتظر منها شيئاً جميلاً، ولم تكن أنت تتوقعه، ولم تكتب لكى تقدم لك الزهور والورود وعقود الياسمين. لقد كتبت لأنه لم يكن لك بد من الكتابة. فبارك الله تلك الروح الخيرة/الشريرة، التى جعلتك تكتب باركها الله ألف مرة، فلولاها ما كان لى أن أسترجع ذكرياتى معك، أن أستعيد زهوى بك، أن استجلب صوراً حبيبة إلى قلبى وروحى وعقلى، أن أفرح وأنا أبكى، وأسعد وأنا أشكى، وأن أندم على ظلمى الغبى لك، فأمسح من ذهنى تلك الغشاوة التى أبعدتنى عنك، وأجد أمامى – الآن – أحمد الله الذى أعرفه، مندهشاً ومدهشاً.

معذرة إن توقفت الآن عن الكتابة إليك. أشعر إننى أفرغت شيئاً مما كنت أحب قوله لك. بقى على الآن أن أبحث عن عنوانك لأرسل ما كتبت إليك.

خرائط الروح

لدي صديق جميل، ناقد ومبدع، وصاحب صيت وشهرة، رافقته في زمن الاغتراب بلندن، هو المرحوم على شلش، كان يستفزني لكتابة الرواية ، ويقول لي لا يمكن لكاتب حقق هذا النجاح، في كتابة الرواية ، ان يترك عاما يمر دون ان تظهر له رواية جديدة، وكانت مرجعيته اذ ذاك ما يحدث في بريطانيا، ولم اكن اعارضه، ولم اكن استطيع ان استجيب لالحاحه، لانني تربيت تربية تختلف عما يتلقاه الادباء من دروس وما يرسخ في وعيهم، عندما يكونوا ابنا مجتمع ادبي له تقاليده الراسخة، نشأت خارج التقاليد، وخارج البيئات الادبية الراسخة، ولم اكن استطيع ان اكتب الرواية وفق جدول زمني، ليس فقط وفق تقاليد كتاب الغرب، بل وحتى وفق تقاليد كتاب عرب يضعون انفسهم تحت نظام صارم يخضعون له في الكتابة، كما كان يفعل على سبيل المثال عميد كتاب الرواية في عالمنا العربي ، استاذنا نجيب محفوظ، وباعتبارى ان ما اكتبه ينتمي لنوع من الكتابة عابرة للاجناس، والاشكال الادبية ، فلم اكن ايضا كثير التجذر في ارض الرواية والفهم العميق لعدد من البروتوكلات التي يخضع لها كتابها، فهي تقتضي ان يتعود الانسان ويرغم نفسه على الجلوس اليومي للكتابة، مهما كان ظرفه ، وسواء يملك مشروعا بين يديه او لايملك ، ولكنها مسالة نظام وتدريب ومران نفسي وجسدي، بالنسبة لي كانت المسألة تخضع للمزاج، كما تخضع

للفكرة التي تاتي، فانا اتلقى الفكرة التي تناسب لونا من هذه الالوان ، فاكتبها في شكل قصة قصيرة ، او مسرحية ، او رواية، او اقوم باجهاضها في مقال بسببما يتطلمه العمل الصحفي ومقالة الراي من سرعة وتواتر، خاصة وان الاعمدة اليومية والاسبوعية، كانت لونا غالبا على مايعرفه القراء من انتاجي.

كنت قد باشرت فعلا في كتابة خرائط الروح، عندما تلقيت عرضا في النشر في روايات الهلال، مدركا ان خرائط الروح مشروع طويل الامد، ورواية متعدد الاجزاء، فقد احببت ان البي عرض الهلال ع بعمل روائي اعطيه الاولوية ، وكان هذا العمل كما اسلفت القول هو اكمال رواية فئران بلا جحور، التي دفعت بها الى النشر، قبل ان اعود اقلب الصفحات التي بدأت كتابتها من خرائط الروح، وتوافق هذا الامر مع التكليف الذي جاءني للعمل في البعثة الديبلوماسية الليبية في اثينا اليونان، وسافرت الى هناك قبل ايام قليلة من حلول عام 2000، لاباشر كتابتها بشكل يكاد يكون يوميا، بل اكاد امنح وقتي كاملا لها ، عدا ساعتين او اقل او اكثر،اقابل فيهما الناس في المكتب، دون ان يشكل هذا الاعتكاف ، غيابا لاسمي من الساحة، فخلال استغراقي في الكتابة، كنت اكتب بابا اسبوعيا اسمه كل خميس في صحيفة الاهرام، وصدرت في رواية فئران بلا جحور، وطبعت لي دار الشروق رواية حقول الرماد في طبعة ثانية، وطبعت لي مكتبة الاسرة منتخبات من القصص القصيرة حملت اسم ثلاثون قصة قصيرة، واصدرت لي افاق عربية التابعة لقصور الثقافة مجلد يحمل عدد كبير من المسرحيات التي تكرم الدكتور حسن عطية بكتابة مقدمة لها بعنوان الغزالات ومسرحيات اخرى ، واصدرت لي الشروق ثلاثة كتب جديدة هي مرايا فينيسيا، مجموعة قصص، ومجموعة اخرى تحت عنوان خمس خنافس تحاكم الشجرة، وكتاب يضم مجموعة مسرحيات بعنوان غناء النجوم.

عندما بدأت كتابةخرائط الروح لم اكن قد حددت عدد اجزائها ، فربما كان ذهني يميل الى رباعية، ثم صرت افكر في ان تكون عشارية، واخيرا استقر قراري على ان اجعلها اثنى عشرة رواية. وعلى عكس كتاب كثيرين ، يعمدون الى نشر كل رواية عند الانتهاء منها، فقد اتخذت قرارى بالا اعمد الى نشر اي جزء منها قبل الانتهاء منها كاملة ، فادفع بها الى السوق مكتملة ، وذلك لاكثر من سبب، اولها انني اكن اخاف من فترة الغياب الطويلة التي يقتضيها الانتهاء من الرواية ، لانني متواجد في الساحة باعمال اخرى بينها هذا الطرق الاسبوعي على ذاكرة القاريء بما اكتبه في احدى اكبر الصحف العربية ، كما ان كتبي لا تشكو تعطلا عن الوصول الى القراء، بسبب ما توفر لي من انتاج ، لم يصدر في كتب مثل تلك التي اصدرتها الشروق، اما السبب الرئيس فهو خشيتي وانا اكتب هذه الرواية المتعددة الاجزاء ان تظهر لي احداثا في الاجزاء المتأخرة منها تقتضي تعديلا في المنطلقات والبدايات ، وهو ما كان يحدث فعلا على مدى عدد من مراحل الكتابة، فعلى سبيل المثال ، وجدت في وانا اتقدم في تاليف الرواية في جزئها الثالث او الرابع ان البطل يتكلم ويفكر بمستوى ثقافي فوق المستوى الذي يجب ان يتلكم به رجل امي لم ينل اي تعليم، فعد الى الجزء الاول ، لاعطيه تعليما ومستوى من التحصيل الدراسي يؤهله للتعاطي مع الافكار التي ترقى لمستوى الانسان المتعلم، واستخدام لغة في الحوار اكبر وارقى من مستوى الرجل الامي، وهكذا في مناطق اخرى من الرواية، كما ان كتابتها لم تكن كما يفكر بعض الناس، وهم يسالون عن الجهد المبذول في مثل هذا العمل الملحمي ، المتعدد الاجزاء الذي ينتمي الى الصناعة الثقيلة في الادب، تقضى جهدا اكثر مما تقتضيه اية كتابة ادبية اخرى، فقد كنت امارس روتينا في الكتابة لا يختلف

عن الروتين العادي، والجهد الذى انتج هذا العمل انما جاء بالتراكم عبر السنين، وليس ببذل جهد خارق، او عمل اكثر مما تقتضيه كتابة قصة او مقالة او مسرحية، وهكذا فالذي وضع في ثلاجة بيته لحم جاموسة وانتهى على مدى اشهر من استهلاكه، لا يختلف عن الذي اشترى مثل هذا اللحم من السوق بمعدل نصف او ربع كيلو كل يوم، فلا سبيل لان نتساءل كيف استطاع اكل كل هذه الكمية؟ كما لا اختلاف هنا بين ان تكتب اطول رواية في العالم او اقصر قطعة ادبية، غير الوقت المكرس لكتابة كل منهما.

ولابد هنا من وقفة قصيرة مع استراتيجيات الكتابة التي استخدمتها في هذه الرواية، ولاشك ان عملا يدور حول شخصية رئيسية او واحدة عبر اثني عشر كتابا (او لعله هنا، وبتعبير روائي آخر ، هو الذي يدور حول هذه الروايات وليست هي التي تدورحوله) يمنح الكاتب فرصة لتصويره من خلال كل الزوايا والمستويات ووجهات النظر، ولكي اتيح لنفسي براحا اكبر واوسع، واكثر تفاعلا وشمولا، فلابد من تنويع العدسات التي انظر بها، وهو ما يعني تعدد ما يسمى وجهات النظر التي اكتب بها، فلا يقتصر السرد على الراوي العليم بكل شي، وانما اسستخدمت ضمير المخاطب، وضمير المتكلم، بل وضمير ثالث او تقنية ثالثة كما في الشيخ البدوي الذي يتكلم من خلال المترجم، باسلول "قل له"، بل وجعلته يتكلم باسلوب اقرب اللى اللهجة البدوية، كل ذلك لالتقاط صورة، لا تترك زاوية في خرائط الروح الا اعتنيت بتصويرها والقاء الاضواء فوقها.

نعم ، اتكأت في هذه الرواية على التاريخ، واخذت عينة من التاريخ المعاصر لليبيا، مدتها عشرون عاما، اي من مطلع الثلاثينيات ، الى مطلع الخمسينيات، من القرن العشرين، الا ان هذا البعد التاريخي لم يكن الا تكأة، وليس هدفا، ولا مقصدا من مقاصد الرواية، فالهدف هو ان تكون كل رواية من مهذه الرواية حالة من حالات التجلي للعوالم الداخلية لبطل القصة، ورحلة مع خرائط الروح ، وكان احد المقالات الاولى التي استقبلت هذه الرواية بالحماس والترحاب مقالة الاستاذ احمد زين الدين ، الناقد الادبي لمجلة الحياة الذي كتب يقول:

{{في «خرائط الروح» ينفض أحمد إبراهيم الفقيه غبار الإهمال والنسيان عن تاريخ ليبيا، ويقدم في هذه الرواية الملحمية سرداً تتزاحم فيه روح المؤرخ وروح الفنان، لينسج لنا تاريخاً انسانياً ووجدانياً حياً، في زمن الاحتكاك بين الحضارات والقوى والمصالح والأفكار، وهو احتكاك حوّل طرابلس آنذاك، الى مختبر عظيم للتيارات والمفاهيم كافة. حيث ظهر وجهها الكوزموبوليتي، الذي يقوم على وجود جاليات أجنبية من كل الأجناس والأعراق والثقافات والتقاليد والأذواق، تتعايش الى جانب أهل البلد، وتترسّب أو تتجاور فيها الطبقات الحضارية والتاريخية.

وهذا المزج عند الفقيه بين المهارة الروائية الدرامية، والمعطيات التاريخية التي تتجلى في معاينة ما يدور على أرض المعارك الحربية، في صحراء ليبيا وفي الحبشة وعلى الحدود. وما يُحاك

في داخل القنصليات وبيوت الولاة والحكام الأجانب من دسائس. إنما تخدم أفكاراً عدة تنضح بها الرواية، أهمها أن مصير الإنسان، كما هو مصير الأمم تصنعه الحروب. فالحرب هي سُنّة من سُنن التحول في الدول والمجتمعات. ورحاها هي اختبار للقوة والإرادة وإثبات الذات}}.

وكان المقال الثاني للروائي ياسين رفاعية نشره في صحيفة المستقبل اللبنانية جاء فيه

((يكتب نصاً سردياً يقف جنباً الى جنب مع شوامخ الأعمال الروائية الكبيرة التي أثرت الحياة الإنسانية على مر العصور، ويمكن اعتبارها أكبر جدارية عربية.. استخدم فيها الكاتب معرفته العميقة بالتاريخ والتراث والدين والأساطير وثقافته العصرية التي تحيط بالإنجازات التي حققها السرد الروائي، وقدم نصاً ملحمياً بتنويعات أسلوبية. ولم يهمل الواقع ولم يكتف به وإنما يغنيه ويثريه بالحدس والرؤيا والحلم والفانتازيا والذهاب الى ما فوق الواقع، بمستويات من الأداء اللغوي))

ابنة بانايوتي

باسطر قليلة قدمت صحيفة ايلاف الاليكترونية رواية ابنة بانايوتي الى قرائها، عندما تقرر نشر فصولها خلال شهر رمضان بمعدل كل يوم فصل وكان ذلك يوافق اواخرشهر اغسطس من عام2010، وجاء في هذه الاسطر ما يأتي:

بمناسبة حلول شهر رمضان الكريم، تنشر إيلاف اعتبارا من الغد، فصلا، كل يوم، من رواية الأديب الليبي احمد إبراهيم الفقيه الجديدة: "ابنة بانايوتي". وفكرة الرواية: مجتمع ينشأ وسط الخلاء، في عمق الصحراء الليبية، حول وكالة يديرها اليوناني بانايوتي لجمع الحلفاء، يتقاطر عليها عمال يشتغلون في اقتلاع نبات الحلفاء في الشعاب القريبة وبيعه للوكالة وقد وجدوا فيه منقذا من سنوات المسغبة التي اعقبت الحرب العالمية الثانية، نجع يضم مختلف العشائر والاعراق والاديان، يتعايشون ويتفاعلون مع بعضهم البعض، وتستقطب ابنة بانايوتي انجيليكا، بسبب ماحباها به الله من جمال، اهتمام الرجال الذين يتصارعون للفوز بها الى حد الاحتراب والاقتتال .
ولعلي لم اكن لاكتبها بهذه الصياغة ، وهذه الشخصيات، لولا تجربة الاقامة في اليونان، والالتقاء بهذا الاسم الشائع هناك، بانايوتي، وهو اسم له حضوره ايضا في الابداع العربي ، فقد استخدمه كتاب القصة والدراما في مصر ، استذكارا، واستحضارا، للجالية اليونانية الكبيرة ، التي عاشت في مصر قبل مجي النظام الثوري الجمهوري، الذي دخل صراعات محلية ودوليةي، ادت الى خروج هذه الجالية من مصر، كما حدث في ليبيا، عندما رحلت عنها جاليات صغيرة اجنبية، كانت تعيش في العاصمة طرابلس، من بينها الجالية اليونانية، والى هذه الجالية ينتمي السيد بانايوتي رب العائلة اليونانية، التي انتقلت الى جزء من

الصحراء الليبية، لادارة وكالة لشراء نبات الحلفاء، وهو نبات لا ينمو الا وسط الشعاب الوعرة، المبثوثة، بين الجبال على امتداد البون الصحراوي.

فرادة التجربة التي تصورها هذه الرواية ، انها تتعامل مع تجمع بشري، في عمق اعماق الصحراء، المسماة الحمادة الحمراء، له مواصفات النجع البدوي، من عزلة، وابتعاد عن اماكن الحضارة والعمران، الا انه يختلف عن نجوع البادية، في شيء جوهري، ففي يحين تكون علاقة الدم والقرابة، هي التي تجمع بين اهل النجع البدوي، والانتماء لقبيلة او عشيرة واحدة، فان هذا التجمع الصحراوي الذي تتحدث عنه الرواية ، تجمع بشري كوزموبوليتاني، بكل المقاييس، يتكون من خليط من الاجناس والاديان والثقافات واللغات، ولا يربط بينهم الا علاقة العمل، او لقمة العيش التي يكدحون لانتزاعها من بين الجبال، عن طريق جمع بنباتات الحلفاء. فكان ان التقى في هذه البقعة التي تحيط بها الفيافي والقفار والجبال، بشر اوروبيون من اليونان وايطاليا وبريطانيا، مع عناصر جاءوا من عمق افريقيا السوداء، مع جمع من اهل البادية الليبيين، الذين يشكلون غلبية قاطني الوكالة، الا انهم لا ينتمون لقبيلة واحدة، وانما جاءوا من شتى القبائل والمناطق، وبمثل ما يدور الصراع مع طبيعة قاسية هي طبيعة الصحراء بما فيها من حر وبرد، وما يسكنها من وحوش ودويبات سامة، يدور ايضا بين انواع من البشر تحركهم نوازع الغيرة والطمع والحسد والاستحواذ على ارزاق الاخرين،واحيانا على ارواحهم واجسادهم، وكان لابد لهذا الخليط البشري الذي التقى فوق هذه المنطقة المعزولة، ان يفرز تنويعات لافكار وثقافة واساليب معيشة وحياة تختلف باختلاف النماذج والشخوص والانتماءات والعقائد، الا انهم ينصهرون مرغمين في تجربة حياتية واحدة، ويجدون انفسهم محكومين بشرط انساني، يرغمهم على التعاون والتضامن والاتحاد في وجه المخاطر، والبحث عن صيغة للتعايش والحياة المشتركة تتجاوز اختلافاتهم الثقافية والدينية والاثنية.

ولابد من القول ختاما ، ان الرواية لم تنشأ في ذهني من فراغ، لأن لها بذرة تعود الى الطفولة ، فقد وصلت مع بعض افراد الاسرة الى مكان في البراري القريبة من البلدة، اسمه "شاطار عبد الجواد"، وكانت كلمة شاطار هنا تعطي معنى الوكالة وربما الوكالة الخاصة بالحلفاء بالذات، وعلمت ان الكلمة اي الشاطار ماخذة من رمانة الميزان، في الباسكولا الكبيرة التي يتم وزن رزم الحلفاء بها، وربما حصلت هذه التسمية لعظمة هذا الميزان، ولا عهد للناس به، ولا باستخدامه الا في مثل هذا المكان، وكانت الوكالة تديرها عائلة من اهل البلدة تربطنا به صلة قرابة بعيدة، وهي عائلة الحاج عبد الجواد وشقيقه الحاج عبد الرحمن، ولم نبق بها الا بضعة ايام، ولكنني خلال هذه الايام اختزنت ذاكرتي بعض المشاهد والرؤى والشخصيات، واستوعبت بعض ما كان يدور من احداث، وما يروى من قصص، هي التي كانت مرجعيتي في كتابة هذه الرواية، وابدلت اصحابها من هذه العائلة التي اعرفها من عائلات بلدتي ، الى عائلة يونانية سعيا للاستفادة من التباين في الدين والثقافات بين هذه العائلة واهل المنطقة، خاصة وان التقليد الغالب لوكالات الحلفاء في ذلك الوقت ان يديرها اجانب من الجاليات المقيمة في ليبيا اما يونان او ارمن او مالطيين، او بعض اعضاء الجالية اليهودية، وقد بدأت الكتابة في ذهني ان تكون جزءا من روايات اخرى يكون الرابط بينها ذلك المكان الذي اسميته جنائن العرعار، ولكنني لم اشأ ان افعل ما فعلته مع الاثنى عشرية، عندما كتبتها في دفعة واحدة ، ونشرتها بعد ذلك في مرة واحدة، وانما تركت امر كتابة رواية تلي هذه الرواية وترتبط بها ، امرا مفتوحا، معقودا بيد الزمن والظروف والفسحة التي يتيحها لنا العمر. ووجدت نفسي بعد هذه الرواية انشغل بكتابة مذكراتي التي اعطيتها الاولوية في الكتابة حتى اوشكت على انجاز الكتب الثلاثة التي تتصل بمرحلة الطفولة، الا ان احداث ثورة 17 فبراير، وغيرها من ثورات الربيع العربي داهمتنا، فاخذت متابعتها وكتابة المقالات التي تواكبها الاولوية على كل شيء اخر، مساهمة مني في انجاح الثورة وترسيخ مفاهيمها ووضع الاساس الفكري للدولة الجديدة المتحررة من ارث الطغيان، وعلل الماضي واوصابه واستطعت ان اجمع من نتاج هذه المرحلة مجموعة كتب هي " في هجاء الطغيان" و"القذافي البداية والنهاية" و"عبقرية الثورة الليبية " وجزء كبير من كتاب حياة من

حبر وورق. وخلال السنوات التي اعقبت هذه الثور ، استانفت كتابة المذكرات فاتممت الثلاثية الاولى والثانية ، وهي ثلاثية مرافيء الطفولة، وثلاثية طرابلس ، مؤجلا ثلاثية ثالثة هو ثلاثية السفر والاغتراب الى مهلة اخرى ، وانجزت عددا من الاعمال المسرحية والروائية والمجاميع القصصية التي جئت على ذكر بعضها ، وسيأتي ذكر الاخر البعض في سياقه الطبيعي، وكانت الروايات التي انجزتها كالاتي، الطريق الى قنطرارة، والحالة الكلبية لفيلسوف الحزب، وحكايات القصر المسحور، والعائد من موته، ليصل مجموع ما انجزته من روايات حتى الان اثنان وعشرون رواية.

الطريق الى قنطرارة

دار نون الاماراتية تصدر الأيام القادمة الرواية التي سبق نشرها في صحيفة ايلاف والتي تتحدث عن قيام وسقوط اول دولة اباضية امازيغية في التاريخ بعنوان الطريق الى قنطرارة التي كانت عاصمة جبل نفوسة في ليبيا وقد كنت قد قدمت شهادة عنها تحكي تاريخ هذه الحقبة وتفاصيل كتابة الرواية وهذا نص الشهادة الطريق الى قنطرارة

ارة متراكمة، كانت لها مكانة ...وقنطرارة قرية تاريخية في جبل نفوسة لا تزال اثارها موجودة، في شكل حج ايام الدولة الرستمية التي حكمت المنطقة من عاصمتها في جبال اوراس بالجزائر، واسمها تاهرت في الفترة من160هـ ، واستمرت إلى سنة 296هـ ، اي زاد عمرها عن قرن وثلاثة عقود، حيث كانت هذه البلدة عاصمة الاقليم لفترة من الوقت تقوده باسم الدولة الرستمية الامازيغية ،الى ان داهمها حاكم من حكام دولة الاغالبة هو ابراهيم بن الاغلب الثاني وليس المؤسس الذي يحمل نفس الاسم، ويكنى بالمجنون ، فاباد اهلها وحطم ابنيتها، وازالها من الوجود ، لتبعث بعد ذلك في منطقة الجريد في تونس قريبا من مدينة نفطة بنفس الاسم، المهم ان هذه البلدة هي التي انحدر منها اسلافي، وانتسبوا اليها وصاروا يعرفون باسم قنطرار، وعادوا لانشاء واحة في الصحراء هي مزدة، التي يسكنها سلالة قنطرار القديمة، ومنذ اعوام الطفولة، كنت اسمع حكايات عن هذا الجذر النفوسي، لاهلنا، وعن قنطرارة التي انقرضت في الجبل، ثم قنطرارة التي انقرضت في مناطق الجريد، بل وعن قنطرارة اخرى في الجزائر، وربما رابعة في المغرب، اذ كانوا يتعرضون للاجتياح في مكان فينتقلون الى مكان اخر، هذه هي القصة التي سمعت شذرات من تاريخها، وكانت تلوح بين الحقيقة والخيال، الى حد ان شيخا من اعمامنا اسمه الطاهر احنيش، كان رحالة، وراوية، وصاحب ولع براوية التاريخ لاطفال العائلة ، وكان يذكرنا بهذا التاريخ، ويقول ان اهلكم كانوا حكاما، وكانوا امراء، وكانوا ملوكا، لكن اخرين من كبار العائلة كانوا ياخذون كلامه على سبيل الاساطير، واعتبارها خرافات للتسلية، ويرونه يبالغ في نسبة هذه الامجاد لاهلنا، والحقيقة لم تشكل هذه الحكايات هاجسا بالنسبة لي ، فلم اعتن بان ابحث عن هذه الاصول والجذور الا صدفة ، وفي مرحلة متأخرة من العمر، قرات كتابا لمؤرخ تونسي هو المرحوم الدكتور صالح باجية ، عن الاباضية في بلاد الجريد، وذكر ان لبلدة قنطرارة دورا في قيادة المنطقة، وتعليم اهلها، هذا المذهب، من مذاهب الشريعة، وحدث ان سعت جميعة مزدة التراث الى اقامة مؤتمر تاريخي عن البلدة، وعن مسيرتها في موكب التاريخ، ودعت هذا المؤرخ التونسي الى المشاركة في الاعداد لهذا المؤتمر ، وفعلا جاء الى مزدة ، وتحقق اللقاء به ، الا ان المؤتمر لم يتحقق، ربما لصعوبات في تمويل ، ولعدم وجود تشجيع من السلطات على احياء مثل هذا التواريخ التي لم يكن النظام يحبذ احياءها، الا ان الدكتور صالح ارسل يدعونا الى زيارته، وكنت احد الذين تلقوا الدعوة للسفر الى هناك، وسط احتفاء من ادباء المنطقة، حيث رافقني رئيس اتحاد كتاب تونس المرحوم الشاعر الميداني بن صالح في من ابنائها، وكما شاهدت اثار قنطرارة في جبل رحلتي الى نفطة والى بلاد الجريد، والذي كان هو ايضا ابنا نفوسة ، شاهدت اثار قنطرارة، في بلاد الجريد، وزرنا اضرحة اسلاف لنا هناك، وكانت فكرة عمل روائي تتفاعل في ذهني، واخذت عهدا على نفسي، وكنت تحت المرض في لندن، انني اذا يعيد احياء هذا التاريخ،

شفيت ، فان اول شيء اقوم به وفاء لؤلئك الاسلاف ، وتلبية لنداء من اجيال جديدة من ابناء المنطقة ، واستحضارا لذكرى العم الراحل الحاج الطاهر احنيش الذي لم يكن اهله يصدقون ما يردده من تاريخ، هو كتابة قصة هذه البلدة.

هذه هي منطلقاتي لكتابة هذه الرواية، التي احتاجت تحضيرا بسبب انها راية تاريخية، بحثا وتنقيبا في التاريخ ومعرفة بخبايا تلك المرحلة التي تتحدث عنها الرواية والتي تعود الى مطلع التاريخ الهجري، بحيث اكتب رواية لا وجود فيها لاي تضارب مع حقائق التاريخ ووقائعه الدقيقة الصحيحة، وهناك بالتاكيد، اسئلة تطرحها على الكاتب مثل هذه المعالجات التي تتصل بنقل التاريخ في اعمال ابداعية مثل الرواية المسرحية ، هي مدى حرية الكاتب في التناول والمقاربة لهذه الاحداث والشخصيات، ولاشك ان المساحة التي يملكها الكاتب كثيرة، في خلق الفضاءات واتصور الحوارات واضافة الشخصيات الثانوية، او المحورية في احداث القصة وليست بالضرورة محورية في الاحداث التاريخية، فقد يرى الكاتب ان يكتب عن خادمة او صبية لا ذكر لها في الاحداث ويجعلها البطلة لقصته ، ويصنع ما شاء لها من احداث شرطها الوحيد ان تتوافق مع احداث التاريخ ويخلق لها من الصفات والتراكيب الشخصية ما يريد حسب مقتضيات العمل الابداعي الذي يكتبه، ولكنه فلا يستطيع ان عندما يتصدى لتصوير شخص له اسم في التاريخ، فهناك هنا خطوط لا يستطيع ان يتعداها، يرسم له صفات واخلاقيات غير تلك التي يتفق عليها المؤرخون ، فلا يصنع من رجل تقي رجلا فاسقا، ولا قبل موعد موته الذي ورد في تاريخه الحقيقي ، ولا باسباب غير التي مات بها حقيقة ، ولكن يستطيع ان يميته له مطلق الحرية في ان يصنع له حوارات وان يدخله في صداقات او عدوات وان يخلق ما شاء من الشخصيات التي يصادقها او يتنافس معها او يعاديها وفق السياق التاريخي .

نشر لها، في صحيفة ايلاف الاليكترونية ، وقد قدمت لها الصحيفة بهذه وقد نشرت الرواية على فصول ، اول الاسطر، واشارت الى اسم للرواية، تقرر تغيره الى صيغته الحالية:

يستحضر الروائي العربي المعروف الدكتور احمد ابراهيم الفقيه حلقة ذهبية من التاريخ الليبي ليجعلها)) موضوع روايته الجديدة " تحت سماء قنطرارة".

وقنطرارة هي البلدة التي برزت منذ الف عام ونيف في جبل نفوسه كمركز ملك وحكم وعلم تدير البلاد تلك الدولة، التي قدمت للعالم م ، 909=78بتفويض من الدولة الرسمية في تاهرت 160=296هجرية 7 نموذجا لدولة العدل والقانون وحرية المواطن، واحترام حقوقه وكرامته، وشهدت ازدهارا وتقدما وحضارة، وادارت بلدة قنطرارة العمق الليبي، بذات الحكمة والرشاد، وتقاليد النزاهة والانصاف والامانة، لاكثر من قرن من الزمان، لانها حتى في اوقات توزيع السلطة بين العمالات، كانت تحتفظ بالمركز الديني والمرجعية العلمية للمذهب الاباضي، ولم ينته هذا الدور الا عندما تحركت قوى التسلط والقهر والظلام، متمثلة في امير من امراء الجنون والاجرام هو ابراهيم بن الاغلب الثاني، الذي بدأ عهده بتصفية اشقائه واهل بيته، ثم قاد لكنه (جيشا اجتاح به النفوسيين في الجبل الغربي، فاستنفروا قواتهم لملاقاته في موقعة مانو (283هـ/896م كان اكثر نفرا، واقوى عتادا، فاستطاع هزيمتهم، وقتل اربعمائة من علماء نفوسه، لان تقاليد الدولة الرستمية، تقضي ان يقود العلماء الناس في السلم والحرب، ثم اكتسح الجبل وداهم عاصمته العلمية والحضارية بلدة قنطرارة، ووجد كبار السن من العلماء، وقادة المراكز العلمية في البلدة، فحكم باعدامهم، وعلق على اسوار قنطرارة ثمانين عالما ومرجعا علميا، من اهل البلدة، واحرق مكتبتها وهدم احدى اولى الجامعات الدينية في المنطقة ، الا ان قنطرارة لم تمت ، انتفضت مثل طائر الفينيق من رمادها، وانتقلت الى مناطق الجريد في تونس حيث مازل للرستميين السيطرة والنفوذ، وظهرت من جديد مركزا علميا وحضاريا ، كما تقول كتب التاريخ)).

"الحالة الكلبية لفيلسوف الحزب"

وهي رواية ذات منحى سياسي هجائي ساخر، اتفقت على نشرها مع مركز مؤسسة الاهرام للنشر، ولم تصدر حتى لحظة كتابة هذه السطور، الا انه لا باس من حديث قصير عن الخلفيات التي اقترحت على جهازي الفني عالم هذه الرواية وخلفياتها، وهي تبدا منذ انتقالي للعمل رئيسا للبعثة السياسية الليبية في بوخارست ، بعد مرور اكثر من عشر سنوات على الثورة الي اطاحت بالطاغية شاوشيسكو واعدامه هو وزوجته التي كانت شريكته في ظلم الناس وقهرهم ، وهي المحاكمة التي تم انجازها وتنفيذ الحكم الذي اصدرته في سرعة قياسية، ربما لم تاخذ غير نصف ساعة، وكان سبب هذا الاستعجال في المحاكمة والتنفيذ ان المعركة مع اتباع النظام ، كانت لا تزال دائرة ، وكان الخوف من ان تحصل مفاجأة تجعل هؤلاء الاتباع يهاجمون المكان الذي يحتجز فيه الرئيس ويتم انقاذه، فقادهم هذا الخوف لمحاكمته وتنفيذ حكم الاعدام فيه وفي زوجته بالسرعة التي حصل بها، لقطع الفرصة على اتباعه من اعادته او اعادة نظامه، خاصة وان الرجل اقام نظاما فرديا، لا مجال لتعويضه باخر ، يحل محله.

وكان الاغراء كبيرا، لا لان اتناول حياة وتاريخ وقصة هذه الطاغية مع شعبه، ولكن لاجراء دراسة ابداعية مقارنة بين طاغية اوروبي، في شمال العالم، وطاغية عربي في جنوب العالم، وما حصل تواصل بينهما و تفاعل بين نظاميهما ، وربما تغطية على جرائم احدهما على الاخر، بل وما حصل من تجاذب وتنازل وتحايل وخداع بين الاثنين.

ولهذا فان رواية الحالة الكلبية لفيلسوف الحزب رواية تهجو الانظمة الديكتاتورية ، بكل اشكالها وانواعها ، وانظمة الاتجاه الواحد والحزب الواحد الذي يتحول نتيجة لعدم وجود المنافسين الى ما يشبه عصابة من عصابات المافيا العالمية .

الرواية كتبت بضمير المتكلم، ويرويها ديبلوماسي ليبي يعمل في البعثة الليبية في بوخارست ، وتتشكل شخصيته النقطة التي تبدأ وتنتهي عندها احداث الرواية ، التي يتدخل الحب ليكون عامل توازن مع شرور الديكتاتورية، ويقدم نفحة ذات عبير وجمال تخفف من قتامة اجواء التسلط وعوالمه الخانقة.

العائد من موته

هذه هي آخر رواية اعددتها للنشر وجعلتها موضوع مداخلتي في المؤتمر السادس للرواية الذي عقد في القاهرة في مارس2015 ولن استطيع تقديمها باكثر مما اوردته عنها في تلك الشهادة، والتي جاء فيها:

اردت ان تنطلق هذه الشهادة من كوني قد انجزت لتوي روايتي رقم عشرين في سجل ما انجزته من اعمال روائية، وهي قيد النشر الان تحت عنوان العائد من موته، وابدأ بسؤال عما اذا كانت المهمة اكثر يسرا وسهولة وانا اكبت هذه الرواية مما كان الحال معي وانا ابدأ كتابة بواكير اعمالي الروائية التي تحمل عنوان فئران بلا جحور، ولا استطيع ان اقول انني جئت لكتابة الشهادة وانا املك اجابة جاهزة على هذا السؤال، الا انني رايت ان اطرح السؤال على نفسي، واحاول من خلال فعل الكتابة، وما يصحبها من تامل، ان استكشف حقيقة مشاعرى ازاء مثل هذا الموضوع، واضعا في اعتباري انني لن استطيع الاكتفاء بقول ان الرواية العشرين كانت فعلا اكثر يسرا وسهولة واقل معانة وصعوبة في كتابتها من كتابة روايتي الاولى، لان هناك بديهيات لا تستحق ان نقف كثيرا عندها، مثل حقيقة ان اربعة عقود نصف تقف بين لحظة الكتابة الاولى في مجال الرواية ولحظة الكتابة الاخيرة، لابد انها اكسبت الكاتب بعض الدربة والمران والخبرة والتجربة ، ولكن هذه الحقيقة التي نعرفها بالبداهة لا تعني بالضرورة اجابة على السؤال، كما لا يكفي ان يلجا الكاتب الى العبارات المكرورة المسكوكة عن المعاناة التي يشعر بها المبدع سواء وهو يكتب قصته الاولى التي يستهل بها حياته الادبية او يكتب قصته التي باشرها بعد عدة

عقود، لاننا نعرف ان لابداع ليس مهنة مثل مهنة النجارة او صنع الخزف والفخار، وما تعنيه خبرة السنوات ونضج التجربة من نتائج على سرعة الانجاز واتقا015ن العمل، فهناك بالتاكيد قضايا اكثر تعقيدا وعمقا هنا، مما تعنيه الاقدمية والدربة واكتساب الخبرة في اية مهنة اخرى غير مهن الابداع، بل كثيرا ما وجدنا ان للصبوات الاولى ، وفورة العاطفة وجيشانها في بواكير الشباب، ما عنت لبعض المبدعين، خاصة الشعراء انتاجا اكثر غنى وخصوبة وتعبيرا عن موهبتهم مما انتجته هذه المواهب في مراحل متقدمة من العمر، بل ان بعضهم لم يستطع حتى وهو يعيش سنوات النضج والرجولة ان يواصل الكتابة كما حدث مع الشاعر رامبو الذي اقتصر سجله العبقري في الشعر على ما انجزه قبل عامه الواحد والعشرين وتوقف بعدها عن الكتابة وانتهى كشاعر رغم ان حياته استمرت عدة عقود بعد ذلك.

واقول صادقا انني جئت لكتابة روايتي الاولى وجلا متهيبا خائفا، اتساءل ان كنت حقا ، مؤهلا لمثل هذه المهمة وانا لازلت في الرابعة والعشرين من عمري، ممتلئا بفكرة انني وان حققت نجاحا في السرد القصير فان هذا النوع من السرد الطويل، يحتاج، كما يقول اهل النقد والتنظير، الى حصيلة وافرة من الخبرات والتجارب ، التي لا يكتسبها الانسان الا اذا تقدم به العمر ومارس الحياة العملية لفترة طويلة من الزمن، وان مهاراتي التي ظهرت جلية في القصة القصيرة، ليست ذات جدوى في مثل هذا اللون الادبي، اذ كنت قد اصدرت قبل ذلك كتابي القصص الاول "البحر لا ماء فيه" ، ونال استقبالا نقديا حافلا ، وجنى جائزة ادبية كبيرة بمقاييس ليبيا في ذلك الوقت، وانجزت في هذا المجال كتابا ثانيا كان قيد النشر، هو " اربطوا احزمة المقاعد"، وكنت منخرطا في المسرح المدرسي والمسرح الاهلي اقوم بالكتابة والاخراج والتمثيل ، واكتب برامج للاذاعة، واعمدة رأي للصحف، واقوم بالتعبير عما يجيش في صدري عبر هذه الوسائط الادبية والاعلامية ، فلماذا، كنت اقول في نفسي، اقتحم مجالا اكبر مني ، مع وجود هذه الالوان التي تغنيني عن غيرها، اذا كان الامر هو ان اكون فاعلا وقادرا على التأثير في حركة المجتمع فليكن عبر هذه الوسائط التي امارسها دون عناء، ولكني كنت احس ان هناك شيئا استطيع ان اقوله عبر الرواية تعجز عن نقله القصة القصيرة ، وطبعا ليس مجاله المقالة او البرنامج الاذاعي او حتى الاسكتشات المسرحية التي اقدمها عبر النشاط المسرحي، واذا كنت حقا جاهزا لدخول المغامرة فماذا افعل في كوابح اخرى وضعها هذه المرة مبدعو الادب الليبي انفسهم، وانجزوا من اجلها اطروحة، يصعب نقضها، وابى احد رواد الادب القصصي في ليبيا وهو القصاص كامل حسن المقهور الا ان يجعل من هذه الاطروحة موضوعا لمقدمة كتبها لمجموعتي القصصية الاولى البحر لا ماء فيه، قال فيها ما اصبح مفهوما راسخا يتوافق عليه فرسان الحياة الادبية، ويأخذونه مأخذ الامر البديهي الذي لا يحتاج الى مراجعة ولا نقاش، وهي الاطروحة التي تقول ان المجتمع الليبي ، بجذوره الضاربة في البيئة البدوية ، الرعوية ، وحياة القرى والواحات المتناثرة فوق خريطة تزيد مساحتها على مليون ميل، وكان عدد الاميال في ذلك الوقت اكثر من عدد السكان، غير صالح لظهور فن الرواية ، ولا يملك تربة تعين على انباتها في ارضه، ولا مناخا يساعد على نموها وازدهارها، فهو مجتمع التقاليد الصارمة التي تفصل بين الرجال والنسا، والمسافات المزروعة بين اهله، التي لا تصنع ذلك التشابك في العلاقات وذلك الزخم الذي يغذي العمل السردي الطويل، وانما انفعلات اهله اشبه باهات وصرخات لا تقدر على تصويرها الا الاعمال الادبية القصيرة مثل القصيدة والاقصوصة، وان التراث الشعبي في مجال الفن والادب خير دليل على صحة هذه الاطروحة فهو لا يعرف الملاحم والخرافات الطويلة، ولا يحتفي بغير ادب النفس القصير في القصة

والقصيدة المختصرة المكثفة والاغنيات التي تسمى اغاني العلم وتتكون من سطرين وثلاثة اسطر، مما انبث في ذهني شعورا بان كتابة الرواية هي نوع من التحدي لمعطيات البيئة والتراث ، ويجب ان استعد لها في مرحلة قادمة من حياتي اذا اعطاني الله عمرا، لكي استطيع مجابهة هذا التحدي وكتابة الرواية التي اطمح لكتابتها، ويعزز هذا الاعتقاد، انه لم يكن في ذلك الوقت الذي اردت ان كتب فيه روايتي، روايات ليبية ذات قيمة يعترف بها النقاد، قد صدرت لكاتب ليبي، غير محاولة او اثنين اعتبرها اهل النقد والخبرة مجرد ارهاصات لرواية ليبية، وليس ممكنا اعتبارها جزءا من هذا اللون الادبي الذي كان قد صنع رصيده واسس قواعد لنفسه في الادب العربي على مدى العقود الماضية، وعلى راس اصحاب هذه المحاولة الاستاذ المرحوم محمد فريد سيالة ، وكان كاتبا مسرفا في العاطفية والانفعالية ، غارقا في الاجواء الرومانسية التي لم تكن تتمشى مع الخط الواقعي الذي انتهجته فيما شرعت في كتابته ذلك الوقت من اعمال سردية قصيرة، الا ان روح المغامرة، كانت اكبر من كل هذه المحبطات والعراقيل، زادها الحاحا انني كنت قد بدات استكشف العالم من حولي واسافر الى بدان الشمال في رحلات سياحية وصحفية، وكنت اقدم نفسي باعتباري كاتب قصة قصيرة، ووجدت ان مثل هذا التوصيف ليس شائعا لديهم وانما الشائع هو الكاتب الذي يطلق على نفسه "روائي"، فصممت على ان التحق بركب الروائيين، ولكي اضع لنفسي حوافز تعينني على محاربة عوامل الاحباط ، وتضعني على سكة كتابة الرواية، قررت ان ابدا بكتابة روايت الاولى على شكل فصول، وان استفيد من موقعي كمحرر في مجلة الرواد الادبية، فانشر الفصل الذي انتهي منه في هذه المجلة، وهو نشر سوف يلزمني بان اكتب للمجلة كل شهر فصلا، فلا يبقى امامي مجال للتردد او للكسل، وهو ما حصل فعلا ، واخترت عالم الرواية من البيئة التي عرفتها طفلا وتالفت معها واختزنتها في ضميري، واستطيع ان اجعل منها موردا يغذي احداث القصة التي كانت جزءا من كتاب الجوع وفصلا من فصوله في فترة الاربعينيات، وكنت قد قرات قبل هذه الرواية ، راية جون شتينبك الامريكي ، عن الرجال والفئران، وقرات مسرحية شهيرة كان الفرق الاهلية تعتني بعرضها ، اسمها موتى بلا قبور، فاخترت موضوعا وعنوانا لروايتي يحمل اصداء لهذه المناخات الادبية وكان العنوان ايضا قريبا من عناوين تلك الاعمال وهو فئ"ران بلا جحور"، ونشرت الفصل الاول من هذه الرواية في عدد شهر ابريل من مجلة الرواد عام 1967، وكنت مرغما على كتابة الفصل الثاني فور ان بدأنا في تجهيز العدد الذي يليه وهو شهر مايو، ورغم انني بدأت اشعر نفاد الحماس ، والكسل ، والاستسلام لاغراء الكتابة الصحفية اليومية والاسبوعية التي ت

هذه هي الصفحات الاولى التي تفضي فيما بعد الى تفاصيل الجهد الذي بذله الكاتب في تجاوز هذه الكوابح لكتابة روايته الاولى وماذا كانت التحديات التي استمرت تواجهه وهي يصل الى كتابة رواية العشرين في سجل اعماله السردية الطويلة .

المسرحيات

الضلع الثالث في الكتابة الابداعية التي كرست لها حياتي، هي المسرحيات، ولابد من القول هنا، ان هذه المسرحيات، لا تاتي متحررة من تأثيرات عالم شديد التعيد والتركيب والتنوع، متصل بها، هو عالم الفن المسرحي بكل مفرداته ومكوناته من فرق مسرحية واماكن عرض مسرحي، وما يقتضيه العرض من اخراج وتمثيل وموسيقى ومناظر ومكياج وملابس واكسسوارات، وصولا الى الجمهور الذي سيشاهد العرض.

ولأنني واحد من ابناء الحركة المسرحية في ليبيا، وكان لي ارتباط بها منذ سنوات الطفولة، ليس ككاتب فقط، وانما كممارس للعمل المسرحي تمثيلا واخراجا وادارة تدريسا، وما اكتبه من نصوص للمسرح ليست الا انعكاسا لظروف وامكانيات بيئة مسرحية، داخل ليبيا، او داخل المدينة التي انتمي اليها واعيش فيها وامارس نشاطي عبر استخدام وسائل العرض والتوصيل التي تملكها، يصيبها النشاط احيانا، والخمول اكثر الاحيان، ذات امكانيات قليلة محدودة، تجيد توظيفها واستعمالها احيانا وتعجز عن ذلك في احيان اخرى، تتحسن احوالها بما يطرأ على المجتمع من تطور وتقدم محدود وبطيء، كما حدث في مجال العنصر النسائي ومشاركته في هذا المجال، الذي تطور قليلا مع التحولات الاجتماعية، ولكن كان ينتكب احيانا عندما تضيق عليه حلقات الحصار لاسباب ودوافع سياسية، ولن احتاج للاسهاب في الحديث عن هذا الجانب لانه هناك عبر صفحات هذه السيرة ما يكفي لتصويره وتسجيل حضوره الثقيل في كل مناحي الحياة، ولا استطيع التسليم بان نصوصي المسرحية حافظت على المستوى الراقي الذي اتوخاه دائما، والذي وصلته في اعمال ذات طابع انساني احتفى العالم شرقا وغربا بتقديمها مثل غناء النجوم والغزالات، لان ذلك لم يكن متيسرا دائما، ولم اكن لاستطيع، وانا اكتب مسرحية لتنشيط المعهد الوطني للموسيقى والتمثيل، وتدريب الطلاب والطالبات، ان اكتب لهم شيئا يتجاوز امكانيات المعهد، او يتجاوز فهم ومستوى التلاميذ، او يعلو فوق محدودية المستوى الفني والتعليمي لطلاب المرحلة المتوسطة في التعليم التي ينتمي اليها المعهد، كما لم يكن ممكنا وانا اكتب مسرحيات صغيرة ذات الفصل الواحد او المشهد الواحد، اثناء دراستي للمسرح في بريطانيا، ان ادعي بانني اعلى مستوى واطول قامة من مجرد طالب يتلقى تدريا على ايدي اساتذة المعهد، الذين يقيسون كل شي بمساطر المعلمين ومقاييسهم، وليس بمقاييس البراكين التي يمكن تتفجر حمما، وتصنع انهارا من النار، وتتمرد على المساطر الي يعتمدها اهل التعليم وتحتويها الكتب المدرسية.

لن اقف في هذا الجزء عند كل مسرحية كتبتها، ولكنني ساشير الى ظروف انجاز بعض الاعمال، وقصة اتصالي بالمسرح، حيث كانت نقطة البداية بمسرحية مدرسية، قدمتها في مدرسة مزدة الابتدائية، وانا تلميذ من تلاميذ تلك المرحلة، وتواصلت بعد انتقالي للدراسة المتوسطة في طرابلس ، كما جاء في متن هذه السيرة، بفرقة اهلية، انتقلت منها الى فرقة قمت بتأسيسها، قبل انتسابي الى فرقة المسرح الوطني التي انشأتها الحكومة، واقول انه كانت لي يد في كل المسرحيات الشعبية التي قدمتها فرق الهواة

التي انتسبت اليها، واقتصر بعضها على اسكتشات ولوحات قدمتها مع زميلي محمد عبدو الفوراري ، في حفلات تقام للتبرع للثورة الجزائرية ، ولعلني لم ابدأ في كتابة مسرحيات ادبية قابلة للنشر، الا خلال فترة ايفادي الى الخارج ووجودي في قلب بيئة مسرحية متطورة وراسخة هي بيئة المسرح البريطاني، حيث انجزت بعض النصوص القصيرة، وعدت الى ليبيا لادارة المعهد الوطني للتمثيل والموسيقى ، واستجابة للتحدي الذي يفرضه موقعي في قيادة تلك المؤسسة ، كتبت مسرحية هندا ومنصور، التي سبق الحديث عنها، وعلى نفس المنهج، وبنفس الاسلوب، انجزت، بعد مرور اعوام كثيرة من تلك البداية ، اعمال غنائية كثيرة ، مسرحية عندما غنى المغني التي قدمنها في مسرح الهناجر بارض الاوبرا، ثم مسرحيات تؤرخ لمحطات خطية من التاريخ الليبي مثل معركة القرضابية ، ومولد الدولة الليبية من خلال مسرحية عندما جاء السعداوي، ومسرحية رابعة لم تنشر عن معسكر اعتقال العقيلة، الذي اقامه غرسياني لاهل البادية ، لمنعهم من الاتصال بجيش عمر المختار وتقديم الدعم له، ثم هناك مسرحيات ذات منحى جاد، تاتي على رأسها مسرحية الغزالات، التي كتبتها في مرحلة كان الصراع بين العرب والغرب ، قد وصل الى مرحلة شديدة التوتر، وهي تلك التي اعقبت حرب اكتوبر عام 73، ورافقتها حرب البترول، بما اعقبها من تداعيات وما اسفرت عنه من نتائج، لم تقتصر على على تلك المرحلة وانما استمرت تنتج ردود افعال وتحدث ارتدادات على شتى المستويات الاقتصادية والسياسية والفكرية، وصولا الى كتاب شهير عن صراع الحضارات، لكاتب امريكي هو صمويل هانتينجتون، واذا كان النقاد الذين تناولوا اعمالي الادبية بالنقد، يحسبون الجزء الاول من الثلاثية الروائية ، المسمى ساهبك مدينة اخرى، على الادب الروائي الذي يعالج العلاقات الملتبسة بين الشرق والغرب، فان الغزالات تدخل ايضا في الادب الذي اعتنى بهذه القضية واقترب منها بشكل اكثر تركيزا وتكثيفا، الفرق بينها وبين تلك الاعمال الروائية التي قدمت اطروحة الشرق والغرب، انها جميعا كانت تدور في الغرب، فان الغزالات اخذت هذا الصراع الى الصحراء العربية ، وجعلت تلك الصحراء هي ميدان المنازلة الثقافية والفكرية بين ممثلي الغرب في الخبير النفطي فيكتور وصاحبته هيلينا ، وبين الدليل البدوي في رحلتهما الصحراوية جابر، الممثل للرجل العربي البدوي، بتقاليده وقيمه والحمولة الثقافية والحضارية التي تتجلي في سلوكه ومواقفه،وهي المسرحية التي حظيت بعرض متميز في لندن، قدمه عدد من اهل الاحتراف والجذارة من نجوم مسرح بريطانيين، واخراج مخرج مصري متميز كان يعيش في الغرب هو الراحل فاروق الدمرداش، وقدمت لمدة اسبوعين في مسرح برنارد شو، ولاقت استقبالا نقديا متميزا هو الذي جعل المسرح التجاري الاحترافي يطلب حق عرضها وتقديمها ، وانتدب كاتبا بريطانيا شهيرا من كتاب المسرح القومي البريطاني، هو ايان ميتشل، لدمجها في فصلين دلا من ثلاثة فصول، لتتفق مع تقاليد العروض التجارية التي تعطي استراحة واحدة في العرض، وتدخلت ظروف تجارية جعلت تقديمه متعذرا بعد ذلك، كما اختارها اهم المسارح ذات البرامج الثقافية في ايطاليا وهو مسرح البيكلو ثياترو في ميلانو ليقدمها عبر مهرجان يحتفي فيه بنماذج مسرحية من الشمال الافريقي، ولكن هذه المسرحية ، ربما لصعوبتها وارتفاع مستوى القضايا التي تعالجها ، لم يتم تقديمها في ليبيا، ولا في العالم العربي.

استلهاما للتراث الشعبي الليبي وتوظيفا له ، كتبت مسرحية من ثلاثة مقاطع، اوفصول، متصلة منفصلة، جعلت موضوعها العرس الليبي، ولان العرس البدوي في ليبيا، هو عبارة عن عمل مسرحي، يشبه الكوميديا دي لارتي ، يقوم على الارتجال، وتتولد فيه الكوميديا من السياق الذي انشاه تقليد العراسة ، كما يسمون الدولة الوهمية التي تتالف برئاسة العريس عندما يتحلق حوله اصحابه وينتظمون في هذه اللعبة التي تدوم لمدة سبعة ايام، تبدا منذ اليوم التالي للزفاف، ويلعب العريس دور السلطان الذي يتحكم في رقاب العباد، وينتقى بين اعضاء اللعبة او العراسة كما تسمى ، واحدا يلعب دور الوزير وثانيا دور القاضي وثالثا دور رئيس الشرطة، ومن وحي هذا اللعبة التراثية كتبت هذا النص الذي اكتفيت بنشره منتظرا ان يجد من يتولى تقديمه في عرض مسرحي. ومن تراث الصحراء واستيحاء لقصصها واساطيرها، انجزت عملا مماثلا اسميته ثلاثية الصحراء، اردته ان يكون اضافة لادب الصحراء، الذي

انجزت فيه اعملا سردية طويلة، وقصيرة، واردت رفده بهذا العمل المسررحي، واكتفيت بنشره ليكون متوفرا لمن يريد تقديمه على المسرح.
وكانت اكثر المسرحيات حظا في الوصول الى خشبة المسرح، عربيا وعالميا، هي المسرحيات القصيرة وفي مقدمتها مسرحية "غناء النجوم"، التي قدمت في مهرجان عالمي في كاليفورنيا ، وفي مدينة سانت كروز، كما قدمها معهد مسرحي تابع لجامعة نيويورك وله مسرح في شارع برودواي، وكان مسرح جيت تياتر في لندن المتخصص في الاعمال الطليعية قد قام بعرضها باخراج مخرج من اصل لبناني هي السيدة بريدي، وعلمت من صديقي الشاعر الذي رحل اخيرالمرحوم علي الخليلي ان فرقة مسرحية فلسطينية طافت بها مدن الضفة الغربية، واختارها المخرج خليل نصيرات ليقدمها من خلال الفرقة المسرحية التابعة لوزراة الثقافة في عمان، واختارتها الفنانة الليبية المتميزة زهرة مصباح للعرض في طربلس عبر فرقة المسرح الوطني من اخراجها وبطولة اعضاء الفرقة، وانقل هنا اسطرا مما كتبته الناقدة الفنية لصحيفة سنتينال، تعليقا على عرض المسرحية في مدينة سانتا كروز: ((غناء النجوم مسرحية قصيرة مبهمة بقلم احمد ابراهيم الفقيه قامت باخراجها ويلما ماركوس شاندلير التي وازنت بين اللطف والالتزام في مواجهة الشهوة الانانية تحت ضغوط الخطر والخوف، اداء قوي من افونيدا ويلز مع اداء بنفس المستوى من ليزا هادلي بتشخيص ساخر لابطال هذه القصة الغرائبية الصغيرة التي تتحرك من بداية رومانسية إلى بلاء قادم، متوافقا مع المداهمة الصاخبة لفريق من الاعلاميين وتصاعد الغناء الجميل الصادر عن النجوم))

وقبل هذه المسرحية كان المسرح البريطاني قد قدم في فترة السبعينيات مسرحية زائر المساء من اخراج عادل درويش وانتاج مسرح لامدا، التابعة لاكاديمية مسرحيةتحمل نفس الاسم، كما تم تقديم مسرحية زائر المساء وصحيفة الصباح باللغة الانجليزية في طرابلس من خلال فرقة كندية تواجدت في طرابلس وشاركت بهما في المهرجان الذي اقامه المعهد الوطني للتمثيل والموسيقى في طرابلس في مطلع السبعينيات، كما قدمت احدى هذين المسرحيتين وهي زائر المساء باللغة العربية باداء كل من الممثلة الليبية الشهيرة سعاد حداد واستاذ مادة التمثيل في المعهد محمد شعيب. اما مسرحية صورة جانبية لكاتب لم يكتب شيئا، التي لم يكن ممكنا تقديمها في ليبيا لصراحة المعالجة وادانة الرقيب، فانها كانت من العروض التي لاقت اقبالا من الناس وترحيبا نقديا عند عرضها في احدى مواسم المسرح التجريبي في القاهرةه، وبسبب كونها تتحدث عن حياة كاتب، ويمكن اعتبارها تنقل جزءا من تجربتي ومن هواجسي مع مهنة الكتابة، فعندما تصادف وجودي رئيسا للبعثة الديبلوماسية الليبية في رومانيا، وتلقت البعثة دعوة للمشاركة في مهرجان سيبيو، قمت شخصيا بتقديمها في هذا المهرجان الذي هو واحد من اكبر ثلاثة مهرجانات مسرحية في اوروبا ، واستعنت بمخرجة يونانية هي السيد فيلسيكي كابا، وقمت بتمثيل الدور الرئيسي، حيث لا يشاركني احد في الوقوف على الخشبة لانها تنتمي الى المسرح الفردي، وانقل هنا اسطرا قليلة مما كتب عنها لاعطاء القاريء فكرة عن النجاح الذي لاقاه هذا العرض، وهي اسطر منتقاة من صحيفة اخبار التاسعة اليومية التي تصدر باللغة الانجليزية في بوخارست:
((حقق السفير اعترافا فنيا من الجمهور من خلال التصفيق الذي استمر لمدة طويلة في ختام العرض المسرحي الذي قدمه مع العلم بان الدور الذي قام بتمثيله لم يكن دورا سهلا اطلاقا، وهو النص المسرحي الذي استوحاه الفقيه من حياته الشخصية))
وكان شيئا مهما ان اتلقى التهاني من وزيري الثقافة والخارجية في رومانيا، واجد ان اصداء هذا العمل قد وصلت رئيس الدولة السيد بابيسكو عند قابلته بعد ذلك في قصر الرئاسة بالعاصمة.

ولابد من اشارة الى ما كتبته من اعمال كوميدية، ولا اتحدث هنا عن مشاهد كثيرة ساخرة تخللت اعمالا مثل هندا ومنصور وصولا الى اخر عمل مسرحي كتبته وهو السلطان في الماسورة، وانما عن مسرحيات كتبتها كاملة للمسرح الضاحك او الساخر، ولانه لا وجود في ليبيا لمسرح خاص او تجاري، ينتصر لمثل هذه الاعما، باعتبارها اكثر العروض جلبا للجمهور، وبالتالي اكثرها تحقيقا للرح الذي ينشده اصحاب هذا المسرح، فقد ظلت هذه المسرحيات موجودة في الاسفار لا احد يعتني بتقديمها ، وعندما حصل وحاول المسرح الوطني تقديم احداها باخراج الصديق الفنان طارق مادي، كانت ظروف البلاد قد تعقدت بسبب مضاعفات وتوابع ثورة 17 فبراير، والحقيقة فان المسرح بقى شبه مطفأ منذ بداية الثورة والى مرور اكثر من ثلاثة اعوام على انتصارها، وهو وقت كتابة هذه السيرة، وكانت المسرحية الكوميدية التي باشرالمسرح الوطني التمارين على تقديمها هي "دستور يا شيخ منصور"، وهناك مسرحيتان غير هذه المسرحية، احداهما حليمة وكناينها الزوز، وهي مسرحية تنتمي الى المسرح الاجتماعي الذي يتعاطى مع اوضاع عائلية وتلقي الضوء على ما يحدث من تحولات وتطورات يقتضيها الزمن وتحتمها الظروف السياسية والاقتصادية والثقافية، تسهم في اتساع الهوة بين الاجيال، مثل الهوة الموجودة في المسرحية بين الحاجة حليمة وزوجتي ابنيهامن بنات الجيل الجديد، الذي يتعامل بمفردات العصر وادواته مثل اللاب توب والايميل ومواقع الانترنيت. وقد اوحت لي بهذه المسرحية، اغنية شعبية ذات لحن جميل، وايقاع راقص، تحمل نفس العنوان وتغني في المحافل العامة والاعراس.

ثم وبسبب وجودي لمدة طويلة في مصر، ومشاهدتي لاعمال مسرحية ، كتبت مسرحية كوميدية ، بعنوان لعبة الرجل والمرأة، ووجدت الحوار ينبع من سن القلم بلهجة مصرية لم اقاوم تدفقها، وهي مسرحية توقف عندها كثيرا الناقد المصري الكبير الذي كرس جزءا من كتاباته للنقد المسرحية المرحوم احمد عباس صالح، عندما شارك في ندوة عن اعمالي المسرحية اقامها لي المجلس الاعلى للثقافة واشاد بما احتوته من امكانيات كوميدية.

والمسرحية الثالثة هي التي بدات بالحديث عنها في سياق هذا المقطع عن المسرحيات الكوميدية والتي تحمل عنوان "دستور يا شيخ منصور" وهي تسخر من المشعوذين وباعة الاوهام ممن مازال لهم نفوذ في مجتمعاتنا العربية، وبدلا من ان يتقلص هذا النفوذ بسبب انتشار العلم واتساع رقعة المعلمين وتطور مجتمع المعرفة، نجدهم للاسف الشديد يستفيدون من منجزات العلم ، ويضعون ما لديهم من اساليب الخداع والشعوذه في خدمة تجار يبيعون هذه البضاعة عن طريق الفضائيات ، مما حفزني الى ان اجعل هؤلاء المشعوذين موضوعا لمسرحية تهجوهم وتعري اساليبهم في الخداع والنصب.

مسرحية ثانية كتبتها باللهجة المصرية ، هذه المرة بتكليف من صديقي مخرج المسرح الاستعراضي الغنائي الاستاذ محمد الخولي، بعد النجاح الكبير الذي تحقق للمسرحية التي اخرجها لي في مسرح الهناجر وهي مسرحية عندليب ليبيا ، او عندما غني المغني، فقد احب ان يشارك في احياء التراث الفكري والتنوير عن طريق عمل مسرحي ، يمنح ولادة جديدة لافكار عصر التنوير، وناقشته معه الموضوع ، واستقر رأينا على ان مقهى متاتيا الذي اتخذ منه المفكر جمال الدين الملادي مكانا لندوته اليومية التي التحق بها كبار مفكري عصر النهضة امثال محمد عبده وعبد الرحمن الكواكبي وشبلي شميل وانضم اليهم الشاعر البارودي والثائر عرابي والشاب الذي كان في بداية حياته السياسية سعد زغلول، يمكن ان تكون اصلح نقطة اطلاق لاحياء هذا التراث وتقديمه في قالب مسرحي، وفعلا انجزت هذا العمل الذي مازال المخرج يرسم له خريطة الاخراج ويتخير الفرقة والمكان الاصلح لتقديم هذا العمل .

تحت الحاح الاحداث التي انتهت اليها ثورة 17 فبراير، بهزيمة كتائب الطاغية ومقتله في مجري مياه الامطار في سرت ، وعبر نقاش مع صديقي وزميلي في تقديم اول عمل مسرحي غنائي هو هندا ومنصور الفنان على ماهر، راينا المساهمة في فرحة الشعب الليبي بكتابة مسرحية عن هذا الانتصار في المنازلة ضد الطغيان يقوم الفنان على ماهر بتلحينها، وفعلا تم انجاز العمل الذي اتخذ عمل " السلطان في الماسورة " وراينا جهات كثيرة تحمست لتقديمه ، الا انه عندما ياتي التنفيذ ووضع الميزانيات لانتاجه،

في القالب الذي يشرف الثورة ، تصل الجهود الى مرحلة التوقف والجمود، وفعلا بذلت جهدا كما بذله صديقي الفنان للوصول بهذا العمل الى خشبة المسرح ولكن بسبب الاحباط واللاجدوي الذي وصلت اليه جهودنا، تركنا العمل في الادراج الى يوم ان تحين الفرصة لتقديمه ، خاصة ان البلد بدلا من ان تنعم بحد ادنى من الاستقرار بعد انتصار الثورة وجدناها لا تزداد الا ارتباكا وفوضى وارتعت وتيرة الاحتراب والنزاعات المسلحة الى حد يصبح معه السعي لتقديم مثل هذا العمل الغنائي الاستعراضي نوعا من العبث والجنون . وطبعا ذلك لم يمنعني من ان ادفع بهذه المسرحية للنشر ضمن الكتاب الذي خصصته للمسرحيات الطويلة.

وقبل ان اختتم الحديث عن هذا الجانب المسرحي في مسيرتي الادبية، لابد من ذكر المسرحية التي صنعت تاريخا في العهد الثوري الجديد، فقد اختار المخرج طارق مادي، احدى مسرحياتي القصيرة، وهي ضبع البراري، للمشاركة بها في مهرجان مسرحي بالمملكة المغربية، واحرز بها الجائزة الاولى في المهرجان، وكان هذا النجاح حافزا له كي يقدمها في عدة عروض داخل ليبيا رغم الظروف الصعبة التي اعقبت ثورة فبراير، لا في العاصمة طرابلس فقط، وانما في مدن الدواخل ايضا، وكانت تجربة صنعت تاريخا، عندما قام بترجمتها الى اللغة الامازيغية، وقدمها في اكبر مدن جبل نفوسه ، وهي مدينة يفرن،بهذه اللغة ، لتصبح اول مسرحية تقدم في ليبيا بهذه اللغة في العصر الحديث، وهي اللغة التي كان استخدامها محظورا طوال اكثر من اربعة عقود في المحافل والمنتديات والمسارح، واستهل بها هذا العرض عهدا جديدا تعود فيه هذه اللغة للظهور ، والتعبير عن تراث لساني، لغوي، نتمي الى الليبيين منذ فجر التاريخ.

أمام محكمة التاريخ

تجربتي مع الاعمال المكتوبة للاذاعتين المسموعة ثم المرئية، تجربة قديمة، تعود الى بواكير ما كتبت من اعمال، كما تعاملت تمثلا في الاذاعة مبكرا جدا مع اعمال كتاب اخرين، وبدأ هذا التعامل وانا صبي عشية التحاقي في العام 1958 بفرقة الامل للتمثيل، كما ورد في متن السيرة، واقصر الحديث هنا عن اعمال درامية ، بعضها لم يتجاوز طور الاعداد مثل مسلسل كتبت له حلقات بايعاز من جهات انتاجية تريد ان تدور في بعض المشاريع الزراعية ذات القيمة الاستراتيجية مثل مشروع الكفرة ومشاريع اخرى في الصحراء، للفت انتباه الناس الى هذه المشاريع ولتشجيع العمالة على الاتجاه للسفر الى تلك المناطق والاشتغال بهذه المشاريع، وكنت قد شاهدت اعمالا مرئية عالمية مثل ايمانويل فارم، او مزعة ايمانويل، فاغراني التعامل مع الحيوانات واستصلاح الاراضي والمواقف الضاحكة والساخرة التي تتولد من المفارقات بين الحضر والفلاحين، في مثل هذه المجتمعات الجديدة، وربما تصديقا لما كان يقال عن وجود خطة لزرع الخضرة في البلاد، تحمست لكتابة اكثر من حلقة ، ولكن لامر غامض، كما يحدث في ليبيا دائما، توقف الموضوع، وبقى دون انجاز، وبقيت اصول تلك الحلقات ورقا في الادراج. كذلك فانني لم اكتب المسرحية الساخرة"حليمة وكناينها الزوز" الا من اجل ان تكون حلقات في مسلسل ساخر، يستحق ان تخصص له ميزانية كبيرة تضمن تنفيذا سليما وراقيا للعمل، وهي عقبة ازلية تقف في وجه كل الاعمال الجادة في التلفاز، ولم يتضح لنا الا متأخرا انها سياسة ثابتة لصاحب الحكم، لانه لا يحتمل ان يرى عملا فنيا ناجحا، تنتج عنه نجومية وتألق لمبدعيه في مجال التمثيل، لكي يبقى شعاره المرفوع في وجه الفن صالحا للبقاء، وهو لا نجومية في المجتمع الجماهيري.

وكما نجحت في تقديم اعمال تمثيلية قصيرة في مرحلة الستينيات، فقد نجحت في وقت متأخر في العهد الانقلابي، وفي مطلع التسعينيات، من تقديم برنامج درامي ،وقع تحت طائلة التوجيهات التي تصدر من الحاكم بايقافه عملا بشعار ممنوح النجاح، لما وجده من صدى لدى الناس ، رغم ان تقديمه تم من خلال نجوم مصريين، مكرسين لا يستطيع الغاء نجوميتهم بينهم كبار مثل شكري سرحان، وتوقف البرنامج بعد ان قدم فكرة مبتكرة وجديدة وكان سهلا تسويقها واستخدامها في تبادل البرامج مع القنوات الاخرى، في

العالم العربي، ولكن السياسة الثابتة لمثل هذه الاجهزة الاعلامية، سياسة ثابتة، لا امكانية لاختراقها حتى من اصحاب الغيرية والضمير والرغبة في تقديم انجاز ليبي في هذه المجالات وهم كثر بين العاملين غير اصحاب القرار واصحاب النفوذ.
وكان البرنامج يقوم على اجراء مواجهات فكرية مع شخصيات تاريخية ، يستحضرها البرنامج ويقوم ممثل للعصر بطرح الاسئلة التي يجيب عليها الشخص التاريخي،وكنت قد قمت بدور المذيع او ممثل العصر الذي يقوم بالاستجواب، وجمعت نصوص هذه الحلقات وشرتها في كتاب تحت عنوان "أمام محكمة التاريخ" واعتبرتها اعمالا دراميه مسرحية ، ولا ادري ان كان اهل النقد والتنجنيس الادبي ان كان بامكانهم ان يقروني على ذلك او لا يفعلون، ويبدأ البرنامج بمشهد تمثيلي يجسد الشخصية التاريخية اثناء ممارسة عملها في الديوان او في ارض المعركة، ثم تتم المقابلة التي اطرح خلالها اسئلة اشكالية وربما اسئلة محرجة تحمل اتهاما بالتقصير او حكم من اهل التاريخ بالفشل في قضية او في عمل من الاعمال وعليه ان يدافع عن نفسه ويجيب بما يصحح به سجله اذا كان لديه هذا التصحيح، وضمت الحلقات شخصيات من مختلف المراحل التاريخية مثل كليوباترا وهانيبال من التاريخ القديم واناس مثل خالد بن الوليد طارق بن زياد من التاريخ العربي وملوك مثل هارون الرشيد وشعراء مثل طرفه بن العبد وعنترة من اهل الشعر الجاهلي والمتنبي من شعراء ما بعد الاسلام، وفلاسفة مثل ابن رشد ، وابن خلدون وبطلة من ابطال القصصة الغرامية مثل ليلى العامرية وعابدة زاهدة مثل رابعة العدوية.

كتب التأملات ومقالات الرأي

نتيجة لغياب مهنة الكاتب، المتفرغ للكتابة الادبية في العالم العربي، التي تتيح له ان يعيش من اعماله الابداعية، فقد لجأ الكتاب لاحدى مهنتين يستطيعان عن طريقهما التعيش باستخدام القلم، هما مهنة الصحافة بالدرجة الاولى، وبدرجة ثانية العمل الاكاديمي لمن تتيح له ظروفه ان يواصل تعليمه العالي، ولانني لم اكن املك تأهيلا غير دبلوم تجاري متوسط، عندما تنكبت طريق الادب، فلم يكن امامي غير الاعتماد على موهبة
التعبير التي ظهرت معي منذ سنوات الدراسة الابتدائية، لتكون هي وسيلتي للحصول على العمل ، وانتزاع لقمة العيش لي ولعائلة كانت تتطلع لاي دخل صغير احصل عليه لكي تقاسمني اياه، وبدأت النشر في الصحف منذ عام 1959 اي قبل عام من تخرجي من المعهد التجاري، وكان نشر المقالات يتم دون دفع اي مقابل، ولكنه كان يخدمني كاشهار واعلان، عندما التحق بالعمل صحفيا باحدى المؤسسات، وكانت الجهة التي تدفع مقابلا هي الاذاعة الليبية التي يمض طويل وقت حتى صرت اكتب لها بابا يوميا كل صباح مدته اقل من خمس دقائق، اتخذ اكثر من اسم ، مرة مجرد راي ، ومرة حكمةالاجيال، حيث اختار مثلا او حكمة واقدم شرحا وتعليقا عليها، ثم توالت كتابتي للصحف ، بدلا من اذهب لتغطية الاحداث وجلب الاخبار، اخترت كتابة عمود الرأي الذي بدأ معي منذ بداية التحاقي بالصحافة، متجنبا العمل الميداني في الصحافة، ولذلك فان حصيلتي من كتابة المقالة كان كبيرا جدا، بل وصارت عادة ، ودمانا لا تقل في نفوذها على عقلي وقلبي عن اي ادمان مثل التدخين، ووصلت كتابة مقالة الراي حتى وانا انتقل الى مهن ديبلوماسية ، او ادير مرفقا ثقافيا، او ادير صحافة او مجلة ، وهي مقالات، احاول ان تعكس نبض الشارع وحركة المجتمع ، وتضعني دائما في حالة اشتباك مع مستجدات الحياة وتطوراتها ووقائعها واحداثها، واستطيع من خلالها ان احقق ذاتي في التواصل مع القراء والحضور في الساحة الثقافية الاعلامية، وترضي بالنسبة الحس الوطني، لانني هنا لا اتعامل ، كما اثناء الكتابة الادبية من خلال اقنعة وبعيدا عن القضايا الساخنة، وانما هنا ، اعبر تعبيرا مباشرا صريحا دون رمزية ولا اقنعة، واسمي الاشياء باسمائها، واجد فيها فرصة لخدمة المحيط الاجتماعي، الذي اعيش فيه والوطن الذي انتمي اليه ، وانضاج ظروفه ، والمساهمة في وضعه على طريق النماء والتقدم، الا انها في ذات الوقت تضعني دائما على تماس مع دوائر حاكمة ذات خطورة ونفوذ، وتضعني في صدام مع اطراف يملكون القوة والقدرة

على الايذاء، مما اوقعني في صراعات كان لابد من خوضها، ونتج عنها مشاكل لابد من التعاطي معها، باعتبار ان تلك ضريبة تتطلبها مهنة القلم في مجتمع متخلف ، وباعتباره خدمة وطنية اشبه بخدمة العلم لابد من ادائها حتى ولوكان وصل الخطر الى حياتنا ذاتها.

ووصلت حصيلتي من هذه الكتب التي احتوت منتخبات مما كتبتة في مجال المقالة والصورة القلمية والبحث وادب الرحلات ما يقرب من اربعين كتابا، وهي موجودة في تبث باسماء الكتب موجود في اخر كل كتاب من كتبي ، واحتوت كثير منها اسطوانة مضغوطة ، سي دي، كنت اصدرتها منذ بضع سنوات ولكن الانتاج تواتر بعد ذلك مما يقتضي تجديدا لها او اصدار طبعة جديدة، ولكن ما يشغلني الان هو الطبعة الكاملة لهذا الانتاج التي عكفت عليها وباشرت باصدارها دار نون الذي تصدر عنها هذه السيرة في ثلاثيتها الاولى والثانية باذن الله.

ولا اريد ان اشغل القاريءبالحديث ان عن كل كتاب على حدة والظروف التي تكمن وراء اخراجه وانتقاء مواده، لان ذلك سوف ياخذ وقتا طويلا، وبدلا منه ساعمد الى تقسيم هذه الكتب الى عدد من المواضيع التي اهتمت بها، ولن ابدأ الحديث وفق تراتبيتها الزمنية تبعا لخط كرونولوجي تاريخي، مستهلا حديثي باول اصداراتي في هذا المجال، وانما سأبدأ من اللحظة الراهنة عائدا الى الوراء، واخر هذه الكتب هي تلك التي تؤرخ لثورة 17 فبراير وتقدم عملية مواكبة لاحداثها ، وشرحا لاهدافها ودوافعها، والعوامل الكامنة وراء تفجرها بهذه الطريقة العنيفة ، مع فضح وتعرية للنظام الذي حصلت ضده الثورة وكشف لبعض ممارساته القمعية الاجرامية التي خلقت هذه النقمة ضده في قلوب اهل البلاد، وهي كتب لم تنشرفي شكل كتب، الا بعد ان اخذت طريقها الى النشر في شكل مادة صحفية اعلامية ، على شكل مقالات وبحوث توزعت بين صحف عربية كثيرة في اوج الثورة وفورة انطلاقها ، لتكون وقودا لها، ووسيلة لتعميق الوعي بالثورة وجلب المناصرة والتأييد لها على مستوى الراي العام العربي والدولي، واول هذه الكتب، نشرا في الصحف ثم نشرا في كتاب، هو الكتاب التي اتناول فيه الطاغية نفسه بالتحليل، واتناول فيه ممارساته وممارسات نظامه على مدى اربعة عقود ونيف، ولم يكن هذا التركيز على شخص الطاغية الا لانه كان راس البلاء، وسبب الكوارث التي حصلت اثناء الحرب ، بالاضافة الى سجله الاجرامي ضد الشعب الليبي خلال مدة حكمة منذ ان جاء راكبا دبابته عام69. وكل ما احتواه الكتاب نشروهو لا زال حيا يقود حربه ضد الشعب الليبي، ولم انشره في كتاب الا بعد ان مات، فكتبت الفصل الاخير الذي يتناول مقتله على ايدي الثوار، ونشرته عبر دار الخيال تحت عنوان "القذافي البداية والنهاية". واصدق وصف للكتاب هو ما قاله له صديقي المناضل المصري ومؤسس جماعة كفاية الاستاذ جورج اسحاف، عندما بادر يهنئني بعد مطالعته للكتاب، الذي رأى فيه صورة لا يمكن ان يقدمها الا كاتب من الداخل، عارف بدقائق ودخائل ما يحدث في بلاده، واحترقت اصابعه بجمر الواقع الذي تعيشه بلاده وكان على طول المدى مادة لابداعه ، فهو كتاب طالع من وهج المعاناة وافرانها، قدمت فيه صورة قلمية للرجل الذي عرفته عن قرب، الى حد ان صحيفة كبيرة من صحف العالم العربي ، هي الشرق الاوسط، ذكرت اسمي ذات مرة في سياق يتحدث عن قادة لهم اصدقاء من الكتاب، وذكرت اسم الطاغية الليبي واسمي باعتبارنا اصدقاء، وهو تعبير تعوزه الدقة ، الا اذا كانت هذه الصداقة من قبيل ما قاله المتنبي في بيت شهير من شعره، هو:

ومن نكد الدهر على الحر ان يرى

عدوا ليس من صداقته بد

نعم، تعامل معه الليبيون، وتعاملت انا ايضا معه، باعتباره حقيقة من حقائق الواقع والحياة، لا سبيل الى تفاديه، ولم اقترب منه الا اقتراب المعاينة والتمحيص والضرورة، واختزنت له صورة في ذاكرتي، خلال اثنين واربعين عاما، من وجوده الطاغي والمهيمن على فضاء ليبيا هيمنة كاملة، ملقيا ظله الثقيل على كل منحى من مناحي الحياة فيها ، وكل ركن من اركانها، يتدخل بشكل سافر ولا تبرير له في كل شأن من شئون المجتمع وكل عمل من اعمال الدولة وكل مجال من المجالات غير المجال السياسي، الثقافي

والاعلامي والاجتماعي والاقتصادي، ويكون رأيه هو الرأي الفصل مهما كان ذلك معاكسا لكلام اهل الاختصاص، كان اشبه بكابوس، ولم اكن اشعر بان هناك ضوءا في اخر النفق لهذا النظام الذي يقوده الرجل،الا بزوال النظام نفسه، بل لم اكن ارى امكانية لحياة الشعب الليبي، او نماء للوطن الا بنهاية هذا الرجل، فلا حياة لاحد في حضور الاخر. وهكذا خطأ او صوابا، تكونت صورته في ذهني، دون ان انكر ان الخوف، او الرعب، كان هو الذي يحكم هذه العلاقة بينه وبين البشر الذين يحكمهم ، وانا واحد منهم، يسوقني هذا الرعب، من ينالني في لحظة من لحظات غضبه ما نال اخرين كانوا اكثر قربا اليه من اي احد آخر، عندما فتك بهم ، سجنا او قتلا. واقول صراحة انني رايت هذا الرعب في اعين رفاقه الذين جاءوا به الى الحكم ممن يسمون اعضاء القيادة التاريخية، او اعضاء المجموعة التي اسماها الضباط الاحرار، فلما تكن القلاقة التي تجمعهم علاقة ود وثقة ، ولكنها علاقة خوف ورعب، بسبب انه لم يكن يثق في احد ولم يكن يعترف بوسيلة للسيطرة على الاخرين غير ترويعهم، ولهذا كثر في عهده القتل تعذيبا واغتيالا واعداما بالرصاص للعسكريين وشنقا للمدنيين، ولم يكن هناك بديل للتعايش معه والتعامل باعتباره امرا واقعا، كما هو الحال مع حكام آخرين، وقد رافقت وزاملت في لندن كتابا من اغلب اقطار الوطن العربي، عراضوا الحكام واختاروا الحياة في الخارج، وكانوا يعيشون في امان في موطنهم الجديد، مع معارضتهم لطغاة من اهل الاجرام مثل حافظ الاسد، وصدام حسين، عدا من عارضوا حكاما اقل شططا مثل السادات ومن بعده مبارك في مصر، او الحسن الثاني في المغرب، او الحسين في الاردن، او زين العابدين في تونس، الا القذافي فلم يكن ممكنا ان تأمن على حياتك في اي مكان من العالم ان انت اردت ان تترك البلاد وعيش معارضا في الخارج، بل طالت يد الارهاب والاغتيال ، اناسا لا علاقة لهم بالسياسة ، لمجرد انهم اختاروا الحياة في الخارج، وكان يسمي كل من ترك البلاد وعاش خارجها كلبا ضالا، ورغم انني اكثر من غيري كنت استطيع تأمين دخل لي ولاسرتي من انضمامى الى احدى الصحف في لندن او باريس او لبنان ، او قبرص او اثينا او اي بلد آخرين ولكنني لم اكن استطيع ان اعيش امنا، ولم اكن طبعا اريد ان اعيش كما يعيش القادة السياسيين المعارضن تحت الحراسات وحياة الخفاء والتكتم، فكان الرضا بالحياة في ليبيا، او تحت مظلة النظام الليبي خيارا لم اكن اجد له بديلا. وكان ترويض النفس على التعامل مع هذا الواقع، وتطويعها للقبول بحياة الرعب امرا لا مندوحة عنه، وهو رعب قد يضعنا موضع لا نحبه لانفسنا ولا نريده لها، ولكنه موجود، ويتحكم في بعض تصرفاتنا، وحدث مرارا، ان تظاهرت بانني الجا اليه ليدفع عني ظلما، اعرف انه هو مصدره، وشرا اعرف انه من امر به، واتظاهر بان هناك اشرارا يعملون ضدي دون علمه ، وارجوه ان يدفع عني الاذى الذي لحقني منه ، ولم افعل مثلما فعل صديقنا الفنان الراحل الهادي راشد، عندما اشتكى اليه في احدى الاجتماعات ، برنامجا يقدمه في الاذاعة، اوقفوه دون مبرر، وسأله القذافي متظاهرا بانه لا علم له بهذا الايقاف، عمن فعل به ذلك، فقال له بعفوية بانهم اوقفوه "بناء على تعليمات صادرة منك"، لان الهادي راشد كان حاضرا عندما رن هاتف القيادة الاخضر عند مسئول الاذاعة، يطلب منه ايقاف البرنامج بامر العقيد، فتلكم بما سمع ورای، وادعى العقيد الغضب، واحاط زبانيته بالفنان المسكين ، الذي نال تعنيفا وتحقيرا وتهديدا باوخم النتائج، وصار يتاسف ويعتذر، ولكن ما حصل لا يكفي فيه اعتذار ولا اسف، ولا حل الا ان يقول انه رجل تعتريه حالات جنون وغيابا للعقل، قال فيها ما قاله غير واع ولا مدرك لخطورة وخطل ما قاله، وسعى الرجل جاهدا ، ان يبحثوا معه عن حل غير ادعاء الجنون الذي كان يخشى ان يقوده للاقامة في مستشفى المجانين، ولا ادري توابع هذا الموقف فلابد انه كان اخر عهده بالعمل في الاذاعة وهو الرجل الذي لم يعترف في حياته ومنذ صباه المبكر مجالا غير هذا المجال ولعل مرضه وموته بعد ذلك الا جزءا من التداعيات التي اعقبت كلمة صدق قالها، في مجال فني، لا علاقة له بالحكم والسياسة.

اذن هذا كان ثمن الصدق ، مهما كان عفويا بسيطا، فلم يكن غريبا اذن ان يشوب تعاملنا مع هذه الحالة الكابوسية شيء من التشويه، ولم يكن غريبا ان تخالطه المصانعة، لانه، كما يقول الشاعر، من لم يصانع في امور كثيرة ،

وربما يحضر هنا ايضا قول المعري عن مثل هؤلاء الطغاة في علاقتهم باهل القول او الكتابة
جلوا صارما وتلوا باطلا وقالوا صدقنا فقلنا نعم
وطبعا كنا نتجنب ان نقول نعم، وكان تجنبها لا ياتي الا بتلك المسافة التي نحاول ان نحافظ علينها بيننا وبين مثل هذا الحاكم ، فلا نقترب منه الا مرغمين، حين يطلب هو ذلك، وكنت شخصيا اعرف ربما منذ السنة الاولى لمجيئه للحكم، انه شخصية ساكوباتية، فاهتممت بقراءة ما يقوله علم النفس عن هذه الشخصية ، وزادتني القراءة مزيدا من التشاؤم ، عن البلاء الذي ستلقاه البلاد على يديه. وكانت هذه الشخصية السايكوباتية تتجلى في كل سلوك وتصرف يقوم به ، وكل خطاب يقوم بالقائه، مما يجعلني ازداد يقينا بسوء المآل وبؤس المصير. وقد اكد هذا اليقين استاذ في علم النفس ذكرته في سطور الاستهلال لكتابي عن القذافي واهديته اليه، هو الدكتور ملاك جرجس من مصر ، وكان استاذ في الجامعة الليبية، اسهم معي ببعض المقالات في مجلة الثقافة العربية عندما كنت رئيسا لتحريرها، في مطلع السبعينيات ، قائلا لاحد زملائه في كلية الطب، حقيقة المرض الذي يعاني منه الرئيس الليبي وكونه شخصية سيكوباتية، وانسحب هذا الاستاذ سريعا من ليبيا ، ليقيم مع بعض افراد اسرته الذين يعيشون في استراليا ومات هناك.

واخطا رئيس الركن الادبي في جريدة الحياة الاستاذ عبده وازن ، عندما كتب مقالا عن الكتاب ، جعل له عنوانا هجاء الطاغية بعد وفاته، لانه ظن ان الكتاب كتب بعد وفاة القذافي ، ولكنني كتبته في اوج المنازلة مع القذافي وهو حي يرزق، مقيما في باب العزيزية، هائجا ، شرسا ، يصدر تهديداته ووعيده، ويرسل القتلة الذين يطلب منهم تصفية المناوئين له في الخارج، بالتوازي مع كتائبه التي تشتبك مع المحاربين له في الداخل، ولانه كتاب صدر في اكثر اللحظات توترا، وغضبا ، اثناء التصدي لاجرامه وقذائف النار التي يرمي بها فوق المدن الليبية المناوئة له، كان لابد ان يكون الكتاب مشحونا بالغضب والالم والاصرار على كشف كل المخازي التي ارتكبها في حق اهل ليبيا، خلال اعوام حكمه، الى حد ان هناك من لا يعرف القذافي، وانكر ان يكون هناك حقا مثل هذا السجل الاجرامي، او هذا الحكم الذي يخلو من اي عمل واحد ايجابي اسنده اليه، وكنت اقول لمن يواجهني بمثل هذا الانتقاد، ان يبحث بنفسه، ويحاول ان يظهر لنا هذا الجانب الايجابي، اذا كان موجودا، وساكون اول المهنئين له لانه كشف لنا عن جانب غامضا في حكم القذافي. الا انني لا استطيع ان اختم الحديث عن هذا الكتاب، قبل ان اقول ، ان كتابته في لحظة انفعال وغضب، كان بالضرورة يجعلني اغفل عن اي جانب وضيء في عهده او في شخصيته، وكان يمكن بكثير من التمحيص ، وحسن النية، والرغبة في خلق التوازن بين الخير والشر، ان اجد له بعض هذه الجوانب على ضآلتها وقلتها ، وقد يسعفني الوقت ، الى العودة الى الكتاب، واعوض هذا الجانب في طبعة ثانية ، لانه بعد سنوات من ذهابه الى خالقه، لن افشل عن العثور على بعض الحسنات التي يمكن ان تمثل هامشا صغيرا في سجل معتم مليء بالسواد.
ر الى باب كنت احرره في صحيفة القاهرة الاسبوعية تحت عنوان حبر على ورق، كرست بعض مقالاته للحديث عن الثورة الليبية.

الكتاب الثاني الذي صدر بعد ان تحقق الانتصار للثورة ضد نظام الطغيان، كان كتاب في هجاء الطغاة، الذي سبق الحديث عنه، والثالث هو عبقرية الثورة، تأملات في ثورة الربيع الليبي، وهو ليس الا تجميعا لمنتخبات من تلك الصور القلمية والمقالات التأملية التي واكبت بها مسيرة الثورة من بداية تفجرها في فبراير 2011، بل وسبقت بها الثورة الليبية، مناصرة لثورة الياسمين في تونس ثم لثورة 25يناير في مصر، وقد كتبت هذا التاييد لثورتين كان العقيد الليبي، يشن الهجوم ضدهما في خطاباته

ومقابلاته المتلفزة، وكان سهلا لمن قرأ هذه المقالات ان يدرك انني لن اكون الا مؤيدا لهذا المسار الثوري، عندما يصل الى ليبيا كما كان متوقعا، وكما كانت صفحات التواصل الاجتماعي، تنشط في ضرب المواعيد وتحديد يوم الانطلاق، بل ان مقالاتي كانت دعوة واضحة وصريحة لضرورة ان يصل الحراك الثوري الذي انطلق في تونس ثم مصر الى ليبيا دون ابطاء، ورغم ذلك ، فانه، وحمدا لله على ذلك، لم ينتبه احد من اهل السلطة الى ذلك، لان الثورة بدات انطلاقها وانا موجود في طرابلس، وخرجت منها مصحوبا بعائلتي، ولانني كنت احمل جواز سفر ديبلوماسي، فقد وجدت وانا استعد لركوب الطائرة من يطلب الجواز لاخذ اذن له، لان هناك تعليمات بعدم السماح لحامل مثل هذا الجواز بالسفر الا بعد الرجوع للقيادات الامنية ، للحصول على هذا الاذن، وبعد انتظار دام لمدة نصف ساعة مفعمة بالقلق، ارجع لي العنصر الامني الجواز، وانه لا مانع من سفري، وباشرت منذ لحظة وصولي الى القاهرة ، كتابة هذا المقالات، واجراء المقابلات في الصحف واجهزة الاعلام، التي انتقيت منها كتاب " عبقرية الثورة"، وكتاب اخر اسمه "ليبيا بعد القذافي" والجزء الاكبر من كتاب خامس هو "حياة من حبر وورق" والعنوان يشير الى باب كنت احرره في صحيفة القاهرة الاسبوعية تحت عنوان حبر على ورق، كرست بعض مقالاته للحديث عن الثورة الليبية.

الكتب ذات المنحى الاجتماعي

كنت اكتب مقالين للصحيفة الاسبوعية التي ترأست تحريرها في النصف الاول من السبعينيات، واحد في الصفحة الاخيرة باسمي الصريح، ومقال آخر اخترت ان يكون متخصصا في قضايا المرأة، باسم مستعار اردته ان يكون باسم امرأة، هي "ليلى سليمان" ، وسبب اختياري للاسم لم يكن لانه اسم بطلة رواية الباب المفتوح تاليف السيدة لطيفة الزيات، التي تحولت الى فيلم بنفس الاسم، تتحدث فيها عن المرأة التي تنشد حريتها وحرية الوطن، ولكن لان هناك استاذا في التعليم المتوسط اسمه سليمان، كان يدرس في مصر، وتزوج سيدة مصرية من زميلاته في الدراسة، ورجع الى ليبيا ببناته اللاتي اكملن تعلميهن المتوسط، واصبحن مدرسات، في مدارس البنات، يذهبن الى العمل سافرات، في نوع من التحدي لتقاليد مجتمع الستينيات، وينشرن بين الاوساط النسائية الدعوة الي السفور، ولهذا فانني اردت باختيار هذا الاسم ان اوهم الناس ان صاحبة الكتابات تنتمي لتلك العائلة لاعطي للاسم مصداقية امام الناس، ممن لا يعرفون العائلة معرفة شخصية ولكنهم يسمعون عنها، وكان هذا ما اقوله لمن يسأل عمن تكون ليلى سليمان، وظهر الكتاب الذي يدعو صراحة الى احداث تحول اجتماعي ينقل المرأة من واقع القهر والقمع وينقل المجتمع من حالة الانفصال بين الرجال والنساء الى حالة الالتقاء والاجتماع والتواصل. ظهر من مجموع تلك المقالات التي نشرتها في الاسبوع الثقافي ، واسميته كلمات من ليلى سليمان، وفي هذه المرة باسمي الحقيقي، معترفا للقراء بانني اختفيت خلف هذا الاسم لاحداث التاثير الذي انشده، والذي سياكون ابلغ واكثر فعالية عندما يتلقاه الناس باعتباره صوتا نسائيا وليس صوتا رجاليا يتبني قضية المرأة، ونشر الكتاب من خلال الشركة الحكومية التي تحتكر النشر واسمها المنشأة العامة للنشر والتوزيع والاعلان، وكنت ارفقت الكتاب برسوم توضيحية كتبها نوابغ فن الرسم وكاريكاتير، وهم محمد الزواوي، ومحمد حجي، والليثي واللباد وحجازي، ورضا، الا ان الشركة بسبب حجم الكتاب استغنت عن نشر الرسوم واستخدمت حجة ان نقلها من الصحف لن يكون بالنقاء والصفاء الذي يحفظ للطباعة مستواها، بينما السبب كان استهوالا للنفقات والمصاريف.

واقول هنا حقيقة ، ان الذي استفزني لكتابة المقالات، لم يكن الا راس النظام نفسه، في ذلك الوقت المبكر من عمر نظامه، وقد جاء بافكار متخلفة جدا عن المرأة ، الى درجة انه لم يستح من قول ان المرأة ليست الا لعبة يتسلى بها الرجل، ورايته عارا ان نسمع مثل هذا القول ولا نفعل شيئا، وقررت ان اتخذ من الكتابة في موضوع المرأة، خطا ثابتا في عملي الكتابي والصحفي ، مع ان الكتابة عن قضايا المرأة لم تكن جديدة في سجلي الصحفي، الا انها لم تكن ضمن اولوياتي، وكنت مدركا ان الامر لن يثير حفيظة

العقيد ضدي، ولا يشكل اية خطورة تهددني، لانه لا يقول ما يقوله الا عن جهل، ولن يرى في الامر معارضة له، عندما ياتي من يقوم بشرح وتوضيح ما يعنيه احترام المرأة ، والعمل على ان تأخذ حقوقها وان تخرج الى العمل والحياة ومشاركة الرجل في مسيرة النهوض والبناء.

في مقالات الصحفة الاخيرة التي تصب مباشرة في قضايا التحول الاجتماعي، كانت هناك مقالات كثيرة تصمد للزمن هي التي انتقيت منها ما تضمنته كتب صدرت بعد ذلك، اولها كان الصحراء واشجار النفط، اشارة الى دور النفط في هذه التحولات في البيئة الصحراوية، وطبعا بمثل ما كان للنفط ايجابياته كانت له سلبياته، على المستوى الاجتماعي، اما على المستوى السياسي، فلاشك ان القوى التي وضعت ليبيا تحت مجهرها، واستخدمت نفوذها وقوتها، في جلب النظام الانقلابي الذي تتحكم فيه، وتسخره لخدمة اهدافها، لم يكن الا بسبب النفط ونتيجة من نتائجه فيما ارى. ويمكن ان اضم الى هذا الكتاب، كتبا اخرى لم يقتصر ما ضمته على مقالات الصفحة الاخيرة في الاسبوع الثقافي ، وانما مقالات كنت انشرها ربما في الثقافة العربية التي تزامن وقت رئاستي لتحريرها مع رئاستي لتحرير الاسبوع الثقافي، وهي الكتب التي حملت عناوين "معارك الغد" و"البحث عن ليلى العامرية"، وقد لامس الكتاب الاخير ايضا اثار النفط ، واستطاع المخرج العراقي المعروف الاستاذ قاسم حول ان ياخذ هذه الصورة الادبية التي جعلتها عنوانا للكتاب وصورة اخرى بعنوان رسالة الى ليلى ويصنع سيناريو لفيلم قام باخراجه اسمه "البحث عن ليلى العامرية" وكان المشهد الاول في الفيلم هو لقاء في الصحراء حيث تكون ليلى قد وصلت تنشد لقاء حبيبها المجنون قيس بن الملوح، الذي ما ان سمع صوتها حتى جاء فاتحا احضانه لاستقبالها مناديا ليلى ، وقبل ان يتحقق التواصل بينهما والعناق او تتلامس الاحضان المفتوحة وقد حان اللقاء ، يتفجر بينهما في تلك البقعة الصحراوية، بئر نفط بسخامه الاسود القذر، كانه البركان، ليقذف به بعيدا، ويقذف بها في اتجاه آخر، وتبدأ من تلك اللحظة في الفيلم رحلة البحث عن ليلى العامرية ، ثم توالت كتب تنتقي من مقالات صرت انشرها في شتى صحف العالم العربي ، وحملت العناوين التالية: تجيئين كالماء وتذهبين كالريح، تحديات عصر جديد، العودة الدائمة الى خانة الصفر، شوق الاجنحة الى الرحيل، خواطر في الادب والفن، هاجس الكتابة، شخصيات تحت الاضواء، الانسان اولا ، افق التواصل بين الشرق والغرب، المرافيء البعيدة للسلام، ما اكثر هذه النوافذ، ما اضعف هذا الضوء،المنعطف القادم، امواج الليل،وهناك الكثير من مقالات التي مازالت مبعثرة في الصحفي لم تضمها كتب بعد، وتحتاج الى فحص واختيار لانجاز اضمومات جديدة، اضيفها لهذه الكتب التي اختلطت فيها الخاطرة الادبية الشعرية ، بالصورةالقلمية القصصية ، بالبحث القصير، كما تنوعت المادة بين سياسية وادبية واجتماعية، ولكن هناك كتب اخرى ، اخذت منحى تخصصيا سياتي ذكرها في السياق مثل ادب الرحلات ، وكتب في الادب ، وكتب في السيرة ، وانتقل الان للحديث عن الكتب ذات المنحى الادبي.

كتب القضايا الادبية

واقصد هنا كتبا اخترت ان يقتصر الحديث فيها على الجانب الادبي، وابدأ بكتاب اسميته "هاجس الكتابة"، جمعت فيه ما توفر لي من تأملات في عالم الكتابة الادبية ودوافعها ومنطلقاتها، وكيف يكتب

الكتاب، والرد على اكثر من سؤال مما تتكرر ذكره، على افواه الصحفيين، وهو لماذا يكتب الادباء، ولمن يكتبون، ومن يستهدفون من القراء، وهي اسئلة، تنوعت واختلفت الردود التي تصدت لها، ولكنها عبرت في الختام عما يدور في اذهان الكتاب، حول هذه القضايا، التي وان بدت اشبه بالبديهيات، الا انها تحتاج الى تأمل وتفكير ، وقد اتفقت مع بعض ما يقوله هؤلاء الادباء، واختلفت مع البعض الاخر، وقت ما بدا لي من افكار حول الكتابة التي كرست لها اغلب سنين العمر، وقاربت اهم قضايا الكتابة والياتها واستراتيجياتها التي تختلف من كاتب الى آخر. واراه كتابا من الكتب القليلة التي اعتنت بالغوص في عالم الكتابة، مستنفرا فيه ومن خلاله، كل ما تعلمته من خبرات وتجارب، محاولا استكناه اسرار هذه الموهبة، والبحث عن جذورها في نفسي ، ساعيا الى شرح تجلياتها كما كانت تظهر، عبر حالات اعترتني اثناء الممارسة، واستطعت القبض عليها، وترجمتها الى احرف وكلمات. ويدخل مباشرة في هذا السياق الكتاب المسمى "تجربتي الادبية" ويختلف عن الكتاب الاول في رصد تجربتي الادبية من خلال شهادات قدمتها في منتديات ادبية كثيرة، وحوارات صحفية، دارت كلها حول مهنة الكتابة وهمومها واعبائها ومشاكلها، وما واجهني في هذا الطريق من مشاكل، وما تعاملت معه من قضايا، ساردا بعض القصص التي تحمل تجارب في الكتابة مررت بها، وما اراه من دروس مستفادة، خرجت بها من هذه التجارب. وخلاصة القول ان هذين الكتابين يشيران بشكل واضح الى حجم المعاناة الحقيقية التي يعرفها الادباء، الذين خبروا هذا المجال وقطعوا فيه شوطا، واحترقت ايديهم بجمر الابداع، كما يقول الروائي سهيل ادريس في روايته "اصابعنا التي تحترق"، خاصة وان اغلب التجارب التي عشتها، والكتابات التي عانيت الام اخراجها الى الناس، جاءت في ظرف زمني ومكاني، وتحت حكم يعادي الابداع جهارا ونهارا وليس فقط بالضرب تحت الحزام، كما تفعل انظمة الجهل والخرافة في البلدان الاخرى، ولذلك فحجم المعاناة اذن كان هنا كبيرا، وحجم الاجحاف والنكران الذي تقابل به مهنة الكتابة، ومهن الابداع الاخرى، وشتى الممارسات الفنية والادبية، كان موجودا بشكل اكبر من اي مكان آخر، فهي مهن لا تلقى الا الاهمال والصدود الرسمي الحكومي، وغالبا مايكون الاهمال الشعبي نتيجة طبيعية لذلك الاهمال القادم من الجهة الاعلى.

وفي هذا الاطار الادبي ، وان بشيء من التنويع ، ياتي كتاب الدخول في بهو المرايا، وفي حين كان هاجس الكتابة وتجربتي الادبية، ينهلان مباشرة من الخبرة الخاصة والتجارب التي عشتها، فهذا الكتاب يلقي اضواء على تجارب الاخرين من خلال استعراض لتواريخ ادبية، ومقاربات نقدية لانتاج زملاء ادباء، واستعراض للمشهد الثقافي والادبي في مراحل مختلفة من التاريخ الليبي ، واحيانا تشمل هذه المقاربات المشهد القصصي او الروائي في محيط جغرافي ابعد من ليبيا، وقد اخترت العنوان لهذه الاضمومة من المقالات، من عنوان وضعته لبحث صغير، كتبته بتكليف من مجلة العربي، عن واقع القصة القصيرة في بلدان المغرب العربي، ليكمل مقالات اخرى تغطي تجارب البلدان العربية المشرقية، في هذا المجال.

كتاب ثالث، يدخل في مجال البحوث الادبية، هو بدايات القصة الليبية القصيرة، ناتج عن دراستي لهذا اللون الادبي منذ نشاته في ليبيا، في اطار رسالة الدكتوراه التي اعددتها باللغة الانجليزية واخذت عنه الشهادة العالية من جامعة ادنبرة، ونشر البحث كاملا باللغة الانجليزية، ولم اترجم منه الا

هذا الجزءالذي جاء يصحح اخطاء تاريخية وضع فيهاعدد من مؤرخي الحياة الادبية لليبيا وهم يجعلون من كتاب قصصي صدر عام 1957 للكاتب عبد القادر ابو هروس بعنوان نفوس حائرة بداية القصة الليبية ، بينما نشرت ارهاصات لهذه القصة منذ بداية القرن في الصحافة التي كانت تصدر في ذلك الوقت، وجمعت في هذا الكتابة عشر نصوص لكاتب واحد هو الاستاذ المرحوم وهبي البوري، نشرت في ثلاثينيات القرن العشرين، وقبل ان ينتبه مؤلفها نفسه رحمه الله الى اهمية هذه القصص، او يذكر عنها شيئا، الا بعد صدورهذا الكتاب، وعاد في مذكراته وفي كتاب عن انتاجه القصصي يذكر تاريخ هذه البدايات في اواخر حياته وجمع كل ما كتبه من قصص في تلك الفترة المبكرة من عمره، قبل ان ينصرف الى العمل السياسي، ويصبح واحدا من اركان النظام الملكي، ليخدم بلاده في اكثر الاوقات توترا وخطورة، وترك العمل الادبي لهذه المهام الوطنية رفقة الملك ادريس رحمه الله.

وانجز كتابا عن ذكرياته، لم يصدر الا بعد عام او عامين من وفاته يوم 7 يونيو،عام 2010.

في كتاب خواطر في الادب والفن ، جمعت خطرات وشذرات، توفرت لي عبر السنين، قدمت فيها شيئا عما سمعته وشاهدته وقرأته من اعمال فنية، احتوتها صفحات هذا الكتاب الذي اراه اشبه بحديث قرب المدفأة ، تنثال فيه الافكار والخطرات بشكل عفوي، ودون التزام بقواعد النقد اوالبحث، وانما مكاشفة ومصارحة ودردشة صديق لاصدقائه، كما احتوت مثل هذه الخواطر صفحات كتاب اخر كان التركيز فيه على جوانب فنية واعلامية ، هو كتاب "ما اكثر هذه النوافذ، ما اضعف هذا النور" ولعل العنوان يشير الى هذا الغمر الذي داهم حياتنا من قنوات فضائية تصل الى الالاف ، مئات منها تبث باللغة العربية فقط، وهذا العالم اللامحدود، الذي يقدمه الفضاء الافتراضي في الانترنت وما يضمه من مواقع وصفحات التواصل الاجتماعي، ولكن المادة التي تصل الينا عبر هذه الوسائط باعدادها غير المسبوقة، وغزارتها التي تشبه الفيضان، ليست كلها مادة نافعة ، ويكاد غثها يزيد عن ثمينها، ويحتاج الامر الى حاسة انتقاء وتمييز لا تتوفر الا لعدد قليل من ذوي النضج والتجربة، ولن يختلف عن هذا الكتاب كتاب اخر عنوانه "امواج الليل" وهو عنوان اقتبسته من برنامج اذاعي بريطاني يحمل هذا الاسم يقدمه صديق من اصل افريقي استضافني للحديث عن الادب والثقافة في بلادي، منذ سنوات كثيرة مضت.

كتب لها منحى تاريخي توثيقي

ويأتي بالتأكيد كتاب عبير تلك الايام، ليكون في مقدمة الكتب التي جمعت صفحاتها من صحافة الستينيات، وما كتبته في تلك الصحف ، وما اثيرمن قضايا ساهمت فيها بشكل من الاشكال، واقدم عبر هذه الكتابات ، فكرة عن المناخ الذي كان سائدا في عقد الستينيات، واهم الافكار التي شغلت الرأي العام، خاصة في المجال الثقافي قبل السياسي، وانقل صورة عن المشهد الادبي والفني والقى الاضواء على بعض نماذجه وشخصياته، مع انعطافة صغيرة باتجاه المسائل التي تشغل الشباب من خلال باب كنت احرره في صحيفة الحرية اسمه رسالة يرد عليها احمد ابراهيم الفقيه، ثم انعطافة اخرى الى عالم الشيوخ من خلال لقاءات كنت اجريتها مع المجاهدين الذين شاركوا في المعارك

الكبرى وعاصروا قادة الجهاد امثال السويحلي وسعدون وعمر المختار وخليفة بن عسكر وسليمان الباروني وعبد النبي بالخير وغيرهم .

وفي هذا السياق يأتي كتاب شخصيات تحت الاضواء، الذي جمعت فيه تراجم شخصيات عاصرتها، وارخت لها، ووثقت لما شاهدته وعاينته من سيرتها، باعتبار انها شخصيات ربطتني بها علاقات شخصية، واثار وجودها وهي على قيد الحياة زوابع واعاصير من النقاش والخلاف، مثل الصديق الذي كتب كتبا في الاقتصاد وتولى مناصب في دولة الانقلاب هو الصديق الراحل شكري غانم، ثم مفكر صديق كان وجوده في الحياة عاملا محركا لاستفزاز العقول الخاملة وتحريكها ودعوتها للمشاركة والفعل، واثار هو ايضا من الجدل ، بعضه صائب وبعضه ليس على صواب، مما استوجب من كاتب معاصر له، وربطته به علاقة ود وصداقة، ان يضع السجل على الطريق الصحيح ، كما راه وعايشه، هو الكاتب والمفكر الليبي صادق النيهوم، وشخصيات كثيرة اخرى اغلبها شخصيات ادبية وثقافية من ليبيا وخارجها، بينها الصديق الراحل غازي القصيبي، والاديب المعروف يوسف السباعي، وادباء من زملائي الاعزاء في ليبيا مثل على فهمي خشيم، وعبد الله القويري وخليفة التليسي رضوان الله عليهم جميعا.

وهناك كتب اخرى ربما حملت جانبا توثيقيا مثل من مفكرتي الخاصة ، وحصاد الذاكرة ، ولكنني سادرجها في الكتب المستوحاة من السيرة الذاتية، لانها اقرب الى هذا المنحى من المنحى التوثيقي. واكتفي بهذا القدر لان انشغالاتي لم تكن توثيقا كما هو الحال مع ادباء كبار مثل استاذنا على مصطفى المصراتي الذي اراد بحسه الوطني العالي ان يوثق لاشياء كان يخشى عليها من الاندثار ، فخصص جهدا ووقتا وانفق من حر ماله على ما كان يجمعه من وثائق استطاع ان يتوفر على مخزون انجز منه كتبا كثيرة توثق للحياة الثقافية والسياسية في ليبيا منذ عصور قديمة، ربما لانه كان قد وصل الى البلاد اواخر الاربعينيات وكانت اشبه بصحراء قاحلة من اي اثر يوحي بالعراقة والحضارة ، وفي محيط تصل فيه الامية الى اكثر من خمسة وتسعين بالمائة ، فرآه واجبه ومسئوليته الوطنية تأسيس ارضية للفكر والثقافة والادب والفن في بلاده. وجاء جيلنا ليكون اكثر قدرة على الانصراف للكتابة الابداعية ، وكانت ميزة استاذنا المصراتي انه لم يهمل هذه الجوانب فاستطاع بجوار التوثيق للحياة الفنية ان ينصف نفسه بتقديم ابداعه للقاريء الذي صنع به اسما لنفسه، ووضع بصمة لا تمحى، في تاريخ الحياة الادبية في بلاده.

في اطار كتب السيرة والتراجم استطيع ان اضع كتاب وجع الرحيل ضمن هذا النوع من الكتب ، لانه تجميع لمراثي عدد كبير من اهل الادب والفن والثقافة بعضهم اصدقاء شخصيين، وبعضهم شخصيات عامة لا اعرفها الا عن طريق المطالعة واغلبها شخصيات عربية بينها عدد قليل من الشخصيات الاجنبية، وهي مراثي كتبتها اوان رحيل هؤلاء الناس، وسجلت فيها بعض ما اعرفه عنهم، وبعض ما استقيته من المصادر التي تتناول حياتهم، ولم التزم في هذه المقالات بحجم معين ، كما لا يعتمد حجم المقالات على اهمية الشخص اوترتيبه، في المجال الادبي او الفكري او الفني ، فما كان يتحكم في حجم الرثاء هو وسيلة النشر، لان بعض مقالات الرثاء كتبتها في زاوية صغيرة تحدد لي

الصحيفة حجمها، وبعضها في زاية اكبر حجما في صحيفة اخرى ، وكلها مقالات نشرت في الصحف وقرأها الناس في زمان كتابتها ، ورايت تجميعها باعتبارها توثيقا وتسجيلا لسير هؤلاء الناس وترجمة لحياتهم، واسميته وجع الرحيل ، لان كل انسان يموت ، هو نوع من الفقدان، على المستوى الشخصي اذا كان صديقا وعلى مستوى الوطن والشأن العام اذا كان شخصية لها باع في العمل الوطني او العمل الثقافي ادبا وفنا وفكرا.

وساضع في هذه الخانة، اي كتب المنحي التوثيقى التاريخي، كتابين عن العلاقة بين العرب والغرب، اولهما بعنوان ابناء الماء وابناء النار، وكان هذا البحث الذي اعطيته اسمه لكل الكتاب، هو البحث الذي اسهمت به في مؤتمر كبير عقد عام 1982 في تونس بترتيب ليبي، وانبثق عنه ما يسمى، المجلس القومي للثقافة العربية، الذي اصبحت احد العاملين به، واسموه مؤتمر مجابهة الغزو الثقافي، وجعلت للكتاب عنوانا فرعيا هو "ملاحظات عن العلاقة بين العرب والغرب"، وصدر البحث مع مداخلات وبحوث ومقالات اخرى حول نفس الموضوع، في كتاب بعد فترة قليلة من انعقاد ذلك المؤتمر، ثم اردفته حديثا بكتاب يدور حول نفس الموضوع ، ويحمل عنوان افق التواصل بين العرب والغرب، حيث قدمت هنا جملة من التجارب والافكار والشهادات، المستقاة من خبرات حصلت عليها اثناء معيشتي في البلاد الغربية، وتواصلي الشخصي مع رموز هذه المجتمعات، واحتكاكي باهلها، ومطالعاتي وقراءاتي ودراستي في جامعاتها، واقامتي الطويلة في بعض عواصم الغرب واهمها مدينة لندن ، ثم عاصمة سكوتلندا ادنبره ، وعملي الديبلوماسي لعدة سنوات في عاصمة اليونان اثينا، ثم عاصمة رومانيا بوخارست ، بعد التحول الذي شهدته من حكم الحزب الواحد، الى التعددية والليبرالية، ومن هذه الكتب انتقل للحديث عن كتب ليست بعيدة عن هذا المجال خاصة فيما يتصل بثقافات الشعوب والتمايز الحضاري بينها الذي سجلته في كتاباتي المستوحاة من السفر والتجوال.

ادب الرحلات

لا ادري صراحة ان كان هذا النصيب الوافر من السفر، جاء صدفة ، ام ان لي دورا في الدفع بنفسي في هذا الطريق، لا اظن انني رحالة بطبعي، ولكن المهنة التي وجدتها اقرب وانسب الى ميولي الصحفية، كانت هي الصحافة ، وبجوار الصحافة ، جاء العمل الديبلوماسي، في فترة متاخرة قليلا ، وفي اعقاب العمل الصحفي ، ومتصلة به احيانا ، ثم تكون لي هذا الاسم الادبي الذي كان يغري اصحاب المنتديات الادبية، والقائمين على ترتيب المؤتمرات، دعوتي الى حضورها، فكنت البي هذه الدعوات، ليس دائما بسبب حبي للسفر ، ولكن لان هذه المؤتمرات تتيح فرصة للقاء اصدقاء، من انحاء الوطن العربي ، تكاد فرص اللقاء بهم، تقتصر على مثل هذه المؤتمرات، دون ان اقول صراحة، انني لست هاويا للسفر، لكنني كنت بشكل ما، اقاوم السفر السياحي الذي يريد فقط، ان يلتقط صورة فوق سور الصين ، او امام الاهرام ، او البانتيوم، او بقايا معبد ابوللو، او من فوق سطح امباير ستيت، او على ضفاف نهر الدانيوب او نهر السين، اومن فوق برج ايفيل، او في ظل برج بيزا. لم يكن هذا النوع

من السياحة يستهويني، ولكنه كان يستهويني جدا ، ان اعيش فترة من الزمن في بلد ما ، محاولا ان استوعب ثقافته، وافهم اناسه، واندمج معهم، وارتبط بصداقات مع بعضهم، ممن تجمعني بهم روابط الادب والفن، وهو ما حصل في مرات كثيرة، كنت فيها مدعوا لفاعلية ثقافية تستغرق وقتا قصيرا ، فبقيت ثلاثة اشهر، او شهرين على الاقل، وتكرر هذا معي في امريكا وفي تركيا والى حد ما في الصين ، وكتبت كتابين في ادب الرحلات، احدهما كتاب ضم اغلب هذه الرحلات اسمه "سفر الاسفار" ، ولانه كان سيضيق عن استيعاب كل ما كتبته من وحي السفر، فقد وضعت المادة التي كتبتها عن الصين، والاخرى التي كتبتها عن بلدان العمق الافريقي، في كتاب خاص هو سياحات في الصين وافريقيا، ولن استطيع ان اضيف توصيفا الى ما كتبته من ادب الرحلات اكثر من الاسطر التي قدمت بها سفر الاسفار وقلت فيها من ضمن ما قلته ((بان مهمتى في هذه الاسفار لم تكن تهدف ان اكتب كتبا عن ادب الرحلات، كما كان يفعل امين الريحاني على مستوى الادب العربي، او الكاتب الهندي نايبول على مستوى الادب العالمي، فقد كنت اذهب الى هذه البلدان التي كتبت عنها، في مهمات لا علاقة لها بهاوية السفر والسياحة والترحال ، اذ سافرت كثيرا في مهمات صحفية لتغطية مؤتمر، او المشاركة فيه، او مرافقة وفد ليبي على مستوى القيادة لكتابة تغطية للرحلة ، وعدد من هذه الرحلات، كانت بسبب ما اتلقاه من دعوات لحضور منتديات ادبية واجتماعات لاتحادات الادباء العرب او الافارقة او الاسيويين، او مهرجانات ومواسم مثل اصيلة والجنادرية، او لحضور ندوات اقيمت عن كتبي وانتاجي الادبي كما حدث في عدد كبير من العواصم العربية وعواصم البلدان الاخرى ، وجزء كبيرمن حياتي خارج بلادي، جاء بسبب العمل الدبلوماسي الذي ساقني للاقامة في اقطار عربية مثل المغرب ومصر واقطار اجنبية مثل بريطانيا واليونان ورومانيا ، فهي اسفار، ساقتني اليها ظروف واحوال تتصل بموقعي ككاتب، وساقتني اليها مهنتان كنت اعتمد عليهما في الحصول على مورد للمعيشة لا تتيحه الكتابة الادبية، هما الصحافة والدبلوماسية، وقد جمعت بينهما، اثناء عملى مستشارا صحفيا في السفارة الليبية في لندن خلال عقد السبعينيات ، فكيف يمكن في هذه الحالة ان اتبين حقا موقفى الخاص من السفر، وهل هو حاصل بسبب العمل وطلب الرزق، ام بسبب الهواية، ام نتيجة حالة من الاندماج والتوحد بين الواجب والهواية ، وعودة بذاكرتي الى كيف جمعت بين الصحافة والدبلوماسية او كيف جاء اختياري لاداء مهمات صحفية خارجية، أوكد انه جاء كله باختياري، وتدبيري، ورغبتي في اقتحام العالم، والاغتراف من اوقيانوس خبراته وتجاربه ومعارفه، وما يستطيع تقديمه لكاتب يسعى لتأكيد حضوره في المجال الادبي، من مادة تغذي ملكاته، وتمنح ثراء وعمقا وزخما لابداعاته، وتضيف ابعادا اخرى لشخصيته، وتكوينه، وتحصيله، غير تلك التي اعطتها له البيئة المحلية، وتعليمها وتراثها ومواردها الروحية والمعنوية. كان هذا الهدف بالتاكيد موجودا وحاضرا وانا اسعى للخروج من الدائر المحلية الى دوائر ارحب واوسع ، وكدليل على هذا الفضول الذي يدفعنى للخروج، وهذا الشوق الذي يسوقنى لمعرفة ما يحدث على الشواطيء البعيدة من البحر غير شاطيء بلادي ، كنت انا من تقدم للعمل مستشارا اعلاميا في سفارتنا في لندن ، مضحيا بمركز كبير كنت احتله في المؤسسة العامة للصحافة))

ولا اجد مكانا غير هذا المكان يمكن ان اضعه فيه كتابين، اولهما له، بجوار انه قريب من ادب الرحلات، طبيعة قصصية لانني جعلتها رحلات يقوم بها طائر ليبي، ينتمي الى قرية من قرى منطقة

طرابلس، اسمها بئر الغنم، ويروي هذا الطائر الرحلات بلسانه ، تيمنا وتقليدا وتاسيا بطائر في التراث الشعبي، تسميه الذاكرة الشعبية الليبية " الطائر اللي يغني وجناحه يرد عليه"، فهو في حوار مع جناحية طوال الوقت ، وقد جعلت هذا الطائر يسافر الى بريطانيا، وينقل انطباعاته التي عاشها باعتباره طائرا سائحا من بلد عربي ، كان يمر بكل ما يمر به السائح العربي، وهو يذهب الى الاسواق ويزور اماكن الاستقطاب السياحي، وينتهز فرصة وجوده في عاصمة غربية تزخر بمراكز الطب المتقدمة، فيذهب للمراجعة الطبية في حي الاطباء هارلي ستريت ، وطبعا لا يفوته ان يزور المراقص والملاهي ، وجعلت عنوانا للكتاب هو "شوق الاجنحة الى الرحيل " ونشرته على حلقات في احدى المجلات العربية ، اظنها مجلة التضامن التي كانت تصدر في لندن، قبل ان اضم هذه المقالات، في كتاب بهذا العنوان الذي ذكرت. وهو كتاب احبه كثيرا الكاتب والفنان المصري الراحل محي الدين اللباد، واقترح ان يعيد تقديمه في طبعة جديدة ، مصحوبا برسوم لهذا الطائر، ويطلقه في الافق العالمي باكثر من لغة، ولعله عرض الفكرة على بعض شركات النشر التي يتعامل معها، وكان قد انشغل في الفترة الاخيرة من عمره مع اليونسكو، في بعض الاعمال الفنية لعلها صرفته عن الاهتمام بهذا المشروع، ولم يتمكن للاسف الشديد من انجازه قبل ان يحين الاجل المحتوم، ويترك دار الفناء الى دار البقاء، وربما احبه لان الاسلوب الذي تم اعتماده في الكتابة يجعل الطائر يتحدث عن هذه الرحلة الى الغرب، بطريقة عامرة بالصور الضاحكة، الساخرة، التي تتولد من مفارقة هذا الطائر القروي البدوي المحمل بتقاليد وتراث البيئة البدوية التي ينتمي اليها، في مواجهة الغرب، والتعامل مرغما مع مؤسساته التجارية والمالية، واجهزة الفحص والعلاج في الابراج الطبية، وما تحتويه من الات عملاقة، ومراكز الترفيه والتسلية بكل ما فيها من تنوع لابد ان يصيب مثل هذا الطائر بالدوخة والرعب.

الكتاب الثاني هو كتاب المنعطف القادم، وكما نعلم فالمنعطفات كثيرة في حياتنا العربية ، خاصة في جوانبها السياسية ، وهي بالتاكيد اقل ترويعا ورعبا من النكبات والنكسات، التي تاتي مرة كل بضعة عقود، بينما المنعرجات والمنعطفات، بسم الله ما شاء الله، يمكن ان تأتي كل يوم، لانه لا استقرار، و لاسياق منتظم، في الخط البياني لسياسات البلدان العربية ، ولعل اكثر التعابير تواترا وتكرارا، في كتاباتنا، هو تعبير هذه المرحلة الحاسمة التي نمر بها، فكل المراحل حاسمة، وكل المنعطفات خطيرة ، وكل اللحظات محملة ومثقلة بشتي الاهوال والمشاكل، وقد اخترت في هذا الكتاب، ان اتحدث عن لحظة التماس بين القضايا العربية والقوي الدولية، التي تهيمن على مقدرات العالم، والتي تشارك ملائكة السماء في تدوير وتسيير افلاكه، وهي التي رايت في هذا الكتاب بالشواهد، وعبر الاحداث المتتالية التي تكرر نفسها، كيف انها تأنف من الوصول الى حل للقضية الفلسطينية، وتتركها معلقة فوق الرؤوس.

ليس هذا الكتاب ليس سفرا في الجغرافيا، مثل بقية الكتب التي جرى الحديث عنها ، ولكنه سفر عبر خريطة الاحداث والوقائع دوليا واقليميا، متنقلا من خلال شبكات الطرق العامرة بالمطبات والمنعطفات، دون ان نرى اي جهد دولي حقيقي لانهاء التوتر والصراع ووضع حد للمحنة التي تعيشها شعوب المنطقة العربية وفي مقدمتها الشعب الفلسطيني بطبيعة الحال، كل ما نراه، بين فينة واخى، منعطفا

قادما يقود الى منعطف بعده، كما كان يحدث على مدى العقود الماضية، دون ان نشهد حلا يهبط بعده الستار على هذه الاحن والمحن، التي صارت جزءا من القوت اليومي للمواطن العربي

وانتقل الى جانب في الكتابة اكثر حميمية ، لم اوليه كثير اهتمام الا في المرحلة المتأخرة من حياتي ، باعتبار انه توفرت من الخبرات والتجارب ، ما تستحق ان اضعها على الورق، وبعد ان وردني من الدعوات التي تثق في انني كنت شاهدا على احداث، يجب ان اقول شهادتي فيها، وانني، استطيع نقلها لاجيال لم تكن معاصرة لها، باكثر مما يستطيع ذلك اناس لا تتوفر لهم الملكات الادبية والمهارات الاسلوبية التي تعينهم على هذا النقل، وبالوضوح والجلاء الذي استطيعه. وهو جانب السيرة الذاتية.

كتب السيرة الذاتية

وياتي على راس كتب السيرة كتابان كل منهما ثلاثية ، الاولى ثلاثية "مرافيء الطفولة" التي تتكون من ثلاثة كتب

الاول بعنوان الانتماء لاشجار النخيل

والثاني طفولة في ظل السراب

والثالث على هامش السيرة الذاتية

وابدأ بالقول انني اردت ان اكتب سيرتي الذاتية عن مرحلة الطفولة، بهذا الحجم الذي لا اراه مسبوقا في الادب العربي، لانني فعلا اريد ان اكتب سيرة وليس تاريخيا ثقافيا كما هو الحال في السيرة التي تخرج عن اطار الطفولة، واضرب مثلا باشهر السير في الادب العربي المعاصر، وهي سيرة العميد الجليل طه حسين الايام، فقيمتها التي اكتسبتها وجعلتها درة من درر الادب عبر التاريخ هي تلك التي تتعلق بحياته في قريته في الصعيد، التي تضمنها الجزء الاول من الايام، حيث نلتقي بذلك الطفل الضرير ونماذج من ابناء قريته، وافراد اسرته، لا حضور لهم في التايخ الثقافي، وانما هي نماذج انسانية نتفاعل معها على هذا الاساس، بينما رايناه وهو يتحدث عن سيرته كاتبا واديبا ويلتقي بكبار اهل الفكر والثقافة والسياسة، سواء في مصر او اثناء دراسته في فرنسا، فاننا صرنا نخرج من مناخ الانسانيات والتفاعل مع الضعف البشري، وكفاح الطفل الضرير، وما يلقاه من تعاطف انساني، نتماهى معه تعاطفا وانفعالا، الى مناخ التاريخ الثقافي والسياسي للرجل وللمرحلة التاريخية التي عاصرها، ومع اهمية هذه الجوانب، التي تنتمي الى ادب السيرة الذاتية، الا انها لا ترقى الى مستوى الابداع في الجزء الخاص بالطفولة، واعتبرت هذه السيرة، في ايام الدكتور طه حسين، درسا وانا امنح مرحلة الطفولة والاجواء التي اكتنفتها، والمناخات التي احاطت بها، هذه الاهمية، واكتب عنها بهذه القوة في استحضار الماضي، واعطائه حياة جديدة، يدفعني حافز كبير اخر، انني في هذه السيرة اعيد الحياة لعالم تقوض وانتهى، ليس على المستوى الشخصي، ولكن على المستوى الاجتماعي العام، فذلك العالم الذي عايشته طفلا ، كان قد انتهى بكل ما فيه من مظاهر وتقاليد واساليب في الحياة والعمل والانتاج، لانه كان يتصل بتلك الاساليب التي توراثها الناس منذ فجر التاريخ، وقبل ان تدخل مع الوسائل الحديثة ، فلم يكن اهل القرية

كما عرفتها يعرفون الكهرباء، ولا مواقد الغاز، ولا الثلاجات لحفظ الطعام، فالطهي كان بالحطب، وحفظ الطعام بالتجفيف، فوق السطوح خضارا او لحما او غيره، والاضاءة كانت بالفنار والقنديل، ووسائل المواصلات كانت هي الجمل والحمار، وان جاءت السيارة فهي لازالت شيئا طارئا وعارضا، يقتصر على ستخدام الخواص، وليس الاستعمال العام ، والحرث كان بالمحراث الذي يجره الجمل، والحصاد بالمنجل واليد، والماء لا ياتي عبر المواسير، وانما عن طريق سيدات ينقلن الماء باجر للبيوت، ويضعنه في الزير الذي يمثل مصدر الماء في البيت، وسقى المزروعات انما يتم بالدلو الذي تجره البقرة او يجره الحمار او الجمل احيانا، وليس المحرك الكهربائي كما هو الان، اما وسائل الترفيه فانه لم يكن فيها سينما ولا فيديو ولا مذياع ولا تليفزيون ولا اي باد ولا كومبيوتر ولا انترنت ولا بلاي ستيشن ، والعاب الاطفال في القرية لم يكن فيها مدينة الملاهي، والعابها الكهربائية،ولا شيء غير الساحات وضرب كرة مصنوعة من الخرق البالية ،والعاب نستخدم فيها الحجر والخشب، متوارثه منذ عشرات القرون . وفي المدرسة لم يكن هناك الة حاسبة، ولا وسائل سمعية وبصرية، ولا الات تسجيل مسموعة، والات تسجيل مرئية، ولا مراجعة عبر الجوجل، ولا استعانة بهذه الوسائل، وكان الاعتماد على سبورة سوداء، وطابشورة في يد المعلم، وكراس وقلم ، ان لم يكن لوح من خشب، نغسله ونعيد الكتابة فوقه، كما يحدث في الكتاب، من هنا كان كتاب السيرة الذي يتحدث عن الطفولة، يستحق الاسهاب، وانفاق الجهد والوقت، في تسجيل دقائق تلك الحياة، بعين الطفل الذي كنته، مستخدما وعي الكاتب وقاموسه في الرصد والتوثيق.

واعترف هنا، ان الكتاب الاول من هذه الثلاثية، لم اكن اقصد به ان يكون سيرة ذاتية، وانما جاء تلبية لدعوة للمشاركة في الكتابة الاسبوعية لجريد الوطن السعودية، التي صدرت في منطقة عسير، وارادت ان يسهم في كتابتها اقلام من الوطن العربي ، وفي حديث حول المادة التي تسعى اليها الصحيفة، ابلغني صديق يعمل في الاشراف على تحريرها هو الاستاذ رياض ابو ملحم، انهم يفضلون مادة تحمل عبق البلد الذي انتمي اليه، فلم اجد افضل من الكتابة عن البيئة التي جئت منها، وانتمي اليها، وهي بيئة الواحات الليبية، وهكذا بدأت في رسم الحياة في بلدتي كما عرفتها في طفولتي ، وتقديم صورة قلمية لواحة ليبية، بكل الوانها وظلالها، وعبق الماضي الذي يضوع منها، راسما صورا عن تقاليدها وعاداتها في الاحتفال باعراسها، ومناسباتها الدينية، والاجتماعية، ومواسم الحرث والحصاد والتعبير عن الاتراح ، وملاقاة الربيع، و توديع واستقبال الحجيج، وكل مفردات مجتمع الواحة، من خلال عيني الصغير الذي كنته، واضعا التركيز على حياة الواحة، وليس على حياتي الخاصة، ثم عندما انتهيت من هذا الكتاب وفكرت في كتابة السيرة، وجدته يصلح ان يكون جزء اوليا يقدم خلفية، ويصنع ارضية، لما ياتي من مذكرات، يكون فيها التركيز على الطفل بعد ان رسمت صورة وافية للمحيط وللمكان الذي شهد ولادة ونشأة ذلك الطفل، في سنوات التكوين الاولى ، وهكذا كتبت الجزء الثاني الذي اعتني بوصف تاريخي لتطور الطفل من مرحلة القماط الى مرحلة نيل الشهادة الابتدائية، ومغادرة القرية، ينشد تعليما ارقى، لم يعد موجودا في القرية ، ثم كتبت جزءا ثالثا هو قصص وومضات، واستحضار مشاهد من ذلك الزمن، وشذرات من ذلك الماضي، لم يكن سهلا رصدها، من خلال السرد التراتبي التاريخي لسيرة الطفل .

الثلاثية الثانية من السيرة الذاتية هي هذا الكتاب الذي اسميته ثلاثية طرابلس

ويحتوي الكتب الثلاثة التالية

كتاب عن حياتي منذ ان وطأت قدماي طرابلس في العام 57 وحتى نهاية العهد الملكي في الاول من سبتمبر عام 69 واسميته : في ظلال الملك الصوفي

ثم الجزء الثاني وهو الذي يمتد من ذلك العام الى نهاية العهد الانقلابي ومجيء ثورة 17فبراير واسميته : الجنون يحكم المدينة.

ثم الكتاب الثالث، الموجود بين يدي القاريء الان ، واسميته: البحث عن روح المدينة .

وسيكون تزيدا مني الحديث عن هذه الثلاثية طالما ان القاريء يطالعها الان

ورايت ان اكتب في المستقبل ثلاثية اخرى اكمل بها هذه السيرة، اذا توفر الوقت والجهد، وسمح العمر بذلك ، هي ثلاثية السفر والاغتراب ، لانني قضيت جزءا من عمري خارج ليبيا ، ربما اكثر من العمر الذي قضيته داخلها ، ولا ارى ان السيرة تكتمل بدون هذه الثلاثية . وكما اسلفت القول فانه يدخل في كتب السيرة كتب اخرى ، اخص منها ثلاثة كتب لانها تنهل مباشرة من السيرة ، التي لابد من القول ان اصداء لها موزعة في عدد من الكتب لا حاجة لوضعها في هذه الخانة ، لان السيرة تأتي فيها بطريقة عرضية ، ودون تركيز او قصدية ، وهذه الكتب الثلاثة هي تجربتي الادبية، وحصاد الذاكرة ، ومن مفكرتي الخاصة ، والكتاب الاول من هذه الكتب، يقتصر الحديث فيه عن حياتي ككاتب واديب من خلال ما كتبته من شهادات ادبية وما جرى معي من مقابلات صحفية ، وهو هنا يتقاطع مع الكتب التي تكلمت عنها في قضايا ادبية ، الا انني ادرجه هنا لان الجانب الاهم فيه يتماس مع الجانب الشخصي في تجربتي الادبية، والكتاب التاني حصاد الذاكرة وهو ينقل صورا ادبية وقلمية من احداث الماضي ، وقد تم نشره في سلسلة كتاب اليوم، في دار اخبار اليوم العريقة وقد عقدت له ندوة شارك فيها عدد من الادباء ، وساقتبس كلام ناقد هو الدكتور شريف الجيار ، الذي اورد توصيفا للكتاب يغني عن اي كلام اقوله، اذا قال الناقد المعروف ((ان من يقرأ هذا الكتاب "حصاد الذاكرة " ، سيقف من خلاله على كاتب متميز، يرصد الخبرات المتعددة في حياته، منذ ان كان صغيرا، وحتى وصل الى هذه اللحظة الراهنة التي نعيش فيها الان . اذا قلنا ان هذا الكتاب يمثل خبرات حياتية عددها 79خبرة، او كما اسميتها التجربة الحكمة، بمعنى ان كل الموضوعات ال79، تأتي لتمثل حكمة في نهاية كل موضوع ، سواء كانت حكمة الانفتاح على العالم وعدم الانغلاق على الذات او كانت حكمة تعظيم المهام الصغيرة ، حتى يشعر الانسان بنفسه ويشعر بقيمته في عالمه الاصغر ، فقد استطاع الاستاذ الدكتور احمد ابراهيم الفقيه في حقيقة الامر ، ان يعتمد عبر هذا الكتاب على ما يسمى :

او الذاكرة المثاليةPerfect memory

التي كان قادرا من خلالها ان يختار مواقف واحداثا ومحطات في حياته، منذ بداية حياته في ليبيا، وانتقاله منها الى لندن ثم القاهرة ثم غيرها من عواصم العالم التي زارها ،ولكن الجدير بالذكر ان الدكتور احمد الفقيه في هذا الكتاب ، دخل الى هذا العالم التجريبي ، اذا جاز لي ان اقول ذلك ، من خلال

عباءة القصة القصيرة ، وليس من خلال عباءة الرواية ، فمن يتعامل مع هذا الكتاب خاصة في الموضوع الاخير الذي يحمل رقم 79 في صفحة 165على سبيل التحديد ، تلك العلاقة الحميمة بينه وبين تلك المحبوبة التي قد رآها فجأة بعد تجربة طويلة معها، ولكن لم يوفق كاغلب شباب العالم العربي ، فنلاحظ ان هذا الموضوع رقم79 من السطر الاول فيه وحتى السطر الاخير هو قصة قصيرة مكتملة ، بمعنى انه رآى هذه المحبوبة فجأة فتذكر اثناء هذا اللقاء العابر، ومن خلال هذه الذاكرة المثالية، تجربته معها وفشله في تلك التجربة ليضعنا امام مفارقة ، هل انه سيظل يحمل لها في ذاكرته ذلك الحب الذي عاش يحمله حتى بعد ان فارقها، ام انه سيغير بعد هذا اللقاء رأيه ، وينتهي بنا الفقيه مع السطور الاخيرة، الى انه رغم تغير الزمن، وتغير الشكل، الا انه مستمر في حبها، لان الذاكرة اوقفته عند اللحظة الاخيرة، وبالتالي فهو يعبر من خلال هذه العبارات والجمل، في هذه القصة القصيرة ، ان جاز لي ان اقول ذلك ، عن مفارقة الزمن مع الا نسان ، واذا بنا مع هذا الكاتب المتميز، ننتقل عبر هذه الصفحات ، وبواسطة تقنية في غاية الاهمية من وجهة نظري ،وهي تقنية ضمير المخاطب الكاف ، ذلك الضمير الذي يجعلنا نستشعر، ونتساءل عبر هذا الشعور، هل يحادث الكاتب نفسه ام انه يحادث غيره ان كان صغيرا او كبيرا، بمعنى هل هو ينقل تجربته الى الاخرين عبرهذه الكاف وهي كاف الخطاب ام انه يحول بعض او غير موضع داخل هذه المجموعة الكتابية او المقالية ان جاز لي ان اقول ذلك)).

الكتاب الثالث، يكفي اسمه، توصيفا له، فهو فعلا من مفكرتي الشخصية ، حيث استحضر هنا لحظات مرت بي ، على المستوى الخاص جدا، مثل عارض مرضي، او ارق ، او اي لحظة من تلك اللحظات التي نواجهها منفردين ، ونحاول ان نتعامل معها بما يمكن ان يحقق تجاوزها، وتجاوز ما يترتب عنها، من الم او قلق او حزن ، وقد لا نجد سبيلا لاستحضار اي عون لانه لا ينفع في معالجتها احد غيرنا، فماذا بامكان انسان يواجه كابوسا، ان يفعل غير ان يقوم مفزوعا من سريره ، والعرق يتصبب منه ، يبحث عن مساحة للشهيق والزفير تعيد له نبضه الهارب.

احتوى الكتاب مشاهدات وقراءات وتأملات ذات طابع شخصي، مما يجعل اضافتها الى ادب السيرة، مبررا، وانه لا مكان لهذا الكتاب الذي يحمل عنوان، من مفكرتي الشخصية ، الا في هذا المكان رغم انه يتقاطع مع كتب الرحلات ومع كتب التوثيق ، الا ان التركيزكان خلال اغلب صفحاته، على الذات المتكلمة اكثر مما هو على الموضوع.

ما تبقى من كتب

وفيما تبقى من كتب سأكتفي باثنين، احدهما، كتاب اتسم بالمعالجة الشعرية، دون ان يكون شعرا، لانني لا اكتب الشعر، ولا ارى نفسي قادرا على تلبية شروطه، او امتلاك ادواته، ولكنني في ذات الوقت أومن ايمانا راسخا بانه لا ادب ولا تعبير ادبي فني، خارج روح الشعر بالمعنى العام ، وليس الشعر بمعناه الحرفي الدقيق، كلون ادبي مستقل عن بقية الالوان، وهي ذاتها روح الابداع، التي نجد لها حضورا في كل الوان التعبير ادبا وفنا، فهناك ما يمكن ان نسميه روح الشعر في اللوحة، وفي المسرحية ، وفي الفيلم السينمائي، وطبعا في القطعة الموسيقية، وهذه الروح هي التي احرص ان تكون

موجودة فيما اكتبه من خلق ادبي، وكثيرا ما يكون لها حضور مكثف، كما هو الحال في الثلاثية الروائية، بسبب انها رواية بوح واعتراف وعشق، وتعطي فرصة لاظهار الطاقة الشعرية ، اكثر مما تعطيه اعمال ادبية، نحتاج لان نكتبها باسلوب اكثر دقة، وسيطرة على تدفق الشعور، والفيوضات العاطفية الانفعالية، من مثل هذه الحالات التي تعرضها، وتتعرض لها الثلاثية.

وهذا الكتاب الذي جاء بصدده، الكلام عن روح الشعر، هو كتاب "صقر يطارد سحابة بيضاء"، وقد جمعت فيه ما كتبته على مدى سنوات عديدة، من شذرات ذات منحى اشبه بالشعر المنثور، او نصوص الحكمة ذات التكثيف والاقتصاد في الكلام، وربما كان اغلب هذه القطع الادبية نسجا على منوال ادب الشذرات، الذي اسس له في الادب العربي المعاصر، ادباء مثل جبران خليل جبران، وميخائل نعيمه، والاديبة مي زيادة، وقبلهما بعض تراث الصوفيين امثال المواقف للامام الصوفي محمد بن عبد الجبار النفري، وكتاب الحديقة لصوفي ليبي هو الشيخ ابو الخير الغدامسي ، وغيرهما من اهل هذا النوع من النثر الفني .

الكتاب الثاني الذي يقترب من هذا الكتاب ويقترب من هذه الكتابات ذات النفس الشعري الصوفي هو كتاب " نبي بلا اتباع خاطبته النجوم وصحبته الامواج"

وهو نسيج وحده بين الكتب التي قمت بتاليفها، لانه يترواح بين كتب التصوف، وكتب البوح والمناجاة ، وجمعت فيه بعض الخواطر والتأملات في الكون والحياة، يلامس الفلسفة الا انه ليس كتابا فلسفيا، لانه يتعامل مع القضايا باسلوب ادبي شعري، وليس باسلوب المناطقة، واهل الكلام، فهي ليست كتابة بحث عن البراهين والاسانيد ، وانما كتابة وجدانية بنفحات صوفية روحانية، عرفانية، فيها تجريب ومغامرة ، ويمكن اعتبارها مجازفة كتابية، فيما يسمى النص المفتوح، الذي تتقاطع فيه الاشكال الادبية بين الشعر والنثر وبينما وبين النص المسرحي بما فيه من حوار، النص القصصي بما في من احداث وسرد وصف، واذا كان لابد من نسبته الى عائلة ادبية ما ، فان كتاب النبي لجبران خليل جبران، وهكذا تكلم زاردشت للفيلسوف الالماني نيتشه، هما اقرب نسبا اليه من غيرهما من الكتب، وان كان كما قلت اقل تفلسفا منهما.

واذا كان لي ان اقول شيئا في ختام هذا الحديث عن الكتب التي الفتها فانها كتب مصنوعة من ورق وحبر كما يراها القاريء، ويرى فيها بطبيعة الحال صورا من الفكر والوانا من التعبير الادبي ، ولكنها بالنسبة لي اكثر من ذلك، ان ما اراه فيها هو بعضا من نبضات قلبي ، ونفثات روحي، واري ايضا قطرات من دمي ، واشهد العمر مسكوبا فوق هذه الصفحات، وقد اخذ شكل الحبر الاسود الذي تكتب به الحروف ، وارى فيها مراحل من صباي وشباب وكهولتي وسنوات الشيخوخة التي امر بها الان عند كتابة هذه الاوراق، مضيفا هنا ان الكتابة بالنسبة لي ليست مهنة، ولا هواية، ولا عملا امارسه كما يمارس النجار عمله، او صانع الخزف واواني الفخار، وانما الكتابة بالنسبة لي هي شهيق وزفير، وهي اسلوب حياة ومعيشة ، وهي صنو الحياة، ولهذا فان ممارستها هي ممارسة للحياة وسابقى امارسها حتى النفس الاخير.

فصول لن تكتب

قد يراه بعض الناس كثيرا، ان يكتب كاتب ستة اجزاء من سيرته، واقول ردا على من يرى ذلك، انني اراه قليلا جدا، وانني لو اسلمت نفسي لاغراء الكتابة، لكتبت بدل الستة ستين او سبعين جزءا، اي ان اكتب ، على الاقل ، جزءا عن كل عام من الاعوام التي مضت من حياتي ، وسأكون مقصرا، لان جزءا واحدا، لا يكفي لتغطية احداث عام، مدركين ان الكاتب عندما يتحدث عن حياته فهو يتحدث عن حياتنا جميعا ويمنح عن طريق تفسير احاسيسه صوتا لاحاسيسنا ، ويتحدث عن الم او وضع، احس به، سوف نرى فيه اوجاعا والاما نعاني منها.

واذا اردت ان استبدل التقسيم الزمني الى تقسيم حسب المواضيع ، فان هناك مواضيع لم اشر اليها اطلاقا، لانني لم امنحها اولوية في تلك التي اراها تهم القاريء، رغم ان كل المواضيع تهم القاريء لانه عاشها ، وسيرى فيما يقرأه صورة مما عاشه وعاينه وعرفه ، اذ من لا يستطيع ، على سبيل المثال ان يروي فصولا عن حكايته مع الصحة والمرض والعلاج والشفاء، اليس هذا جزءا من حياة اي انسان قطع مشوارا في هذه الحياة، او يروي فصلا عن الالم خارج الام المرض والاوصاب التي تصيب البدن، وهي تلك التي تصيب الروح، مثل الام الفقدان ورحيل الاعزاء، ومن لا يستطيع اذا فتح كتاب الصداقة، ان يروي قصصا كثيرة يقدم صورا عن وفاء الاصدقاء، او عند صدمات يكون قد تلقاها من اناس ظنهم اصدقاء، وفي جعبتي كثيرا من هذا القصص وهذه الصور عن الجانبين الايجابي والسلبي في الصداقة والاصدقاء، ثم تعالوا نفتح مناكفات مصدرها العمل، رؤساء ومدراء وزملاء ومنافسدون وحاقدون واصحاب غيرة مهنية ، اليس هذا بابا يمكن ان يغذي كتابا كاملا.

وبحكم المهنة التي امارسها وهي الكتابة، فقد تعاملت مع رؤساء تحرير صحف ومجلات ومسئولين عن النشر، وتخاصمت مع بعضهم، ولي مخزن هائل من القصص من القصص والحكايات التي اوردت منها ما كان ضروريا فقط. واذا كان الكاتب التونسي المرحوم على الدوعاجي كتب كتابا في ثلاثينيات القرن الماضي عن جولاته بين حانات البحر الابيض المتوسط، افلا يصح لي وانا الا تجولت في حانات القارات الخمس ان اكتب خمس كتب عن جولاتي في تلك الحانات، وربما خمس كتب اخرى عن المقاهي التي لو حسبت الساعات التي قضيتها جالسا على المقاهي في حواضر العالم التي اقمت بها ، لشكلت عددا من السنوات، واذا كان انيس منصور قد كتب مجلدا كثير الصفحات عن منتدى العقاد في الخمسينيات، فانني حضرت لا منتدى واحدا وانما عشرات المنتديات التي تصلح لوحدها لان تملأ عددا من المجلدات، وربما خطر لي ان اسجل وارصد مطاعم العالم التي زرتها وعندئذ فان كتابا واحدا لا يمكن ان ينصف هذه المطاعم وما دار فيها من احاديث ومن قابلت فيها من بشر، علاوة على ما يمكن ان تقوله اصناف الاطعمة عن ثقافة كل شعب من الشعوب، ولن استطيع هنا ان اقدم احصائية بهذه المواضيع وانما عينة لتلك التي تحاشيت الكلام عنها لان المسألة تخضع لاولويات ، والاهم قبل المهم، وما يتصل بالسيرة واراه اقرب اكثر حميمية لي واكثر التصاقا بحياتي .

موضوع واحد، تمنيت لو انني اعطيته مساحة ما، هو موضوع الاطباء للذين تعاملت معه، ليس فقط وهم يتولون علاجي، ولكن اثناء توليهم لعلاج افراد من اسرتي كنت مسئولا عنهم وعن عرضهم على الاطباء، او تولي الترجمة عند انتقالهم الى خارج البلاد والتعامل مع اطباء غير عرب، وبينهم ابي الذي قضيت وقتا معه وهو يصارع المرض في اخر مراحل العمر، وصولا الى اطباء عالجوه وتحول بعضهم الى اصدقاء شخصيين لي، ولكنني في هذه العجالة التي اخصصها للطب، لن اتكلم عن الاطباء لكن عن حالات المرض والالم فهي اكثر اهمية واقرب الى توصيف حالة صاحب السيرة في وجه من اوجه حياته، من صلته او صداقته بالاطباء، وساكتفي بذكرثلاثة امثلة لعوارض مرضية انتابتني وما نتج عنها من تداعيات وما يتصل بها من قصص، وحالة رابعة عن قصة صغيرة جدا تتصل بواحد من الاطباء.

<u>اربع حالات عن المرض والطبابة</u>

الحالة الاولى

حصلت الحالة الاولى في القاهرة، عام 1973، حيث كنت فيما يبدو، احضر اجتماعا هناك، لاحدى اللجان المعنية بالنشاط الوحدي الذي كان تميزت به تلك الفترة، وصحوت ليلا على الم حاد في المعد، وكان معي صديقى الموسيقار على ماهر، الذي اسرع بنقلي الى اقرب المستشفيات ، وكان بالصدفة مستشفي شجرة الدر في الزمالك، واسلمت نفسي لعناية الاطباء، ووجدت نفس ادخل غرفة العمليات لاستئصال الزائدة الدودية، وهي تلك القطعة التي وجدتها بعد ان صحوت من البنج، موضوعة فوق الكوميدينو بجوار رأسي في اناء زجاحي، وحدث انه كان بين الزوار صديقا طبيبا، لاحظ ان الزائدة، لم تكن تشكو تورما، ولم تكن في حالة تقتضي استئصالها، وتوصل بعد استشارة اكثر من زميل له، ان التشخيص كان خاطئا، وان الجراح الذي قام بالعملية قام بها من اجل الحصول على الاجرة فقط، وعلى طريقة صديقنا الراحل الدكتور خشيم ، في حماسه الشديد عندما يتصل الامر باحقاق حق، او تصحيح ممارسة خاطئة، استشاط غضبا، وكان في ذلك الوقت يعمل وزيرا في حكومة اتحاد الجمهوريات، فرفع احتجاجا شديد اللهجة الى وزير الصحة المصري، الذي اهتم اهتماما شخصيا الموضوع ، وارسل الاجهزة الرقابية في وزارته تداهم مستشفي شجرة الدر، وتدعو الجراح الذي قام بالعملية للمساءلة والتحقيق، وجاءني هذا الجراح، يطلب ان اتدخل لصالحه ، لانه في مستهل حياته العملية، وما يحدث سيكون مدمرا لمستقبله، وانه لم يكن يريد غير انقاذي من الالم، كما استنجد بي المستشفى ان ارفع غضبي عنه ، لان هذه المداهمة تضع المستشفى في حالة ضعف امام مستشفيات استثمارية اخرى ، سوف تعمل على استغلال ما حدث لتدمير سمعة المستشفى الذي كان يحظى بسمعة طيبة في الاوساط الطبية العلاجية، وفعلا بدأنا في التراجع عن الاحتجاج ، والاتجاه نحو"عفى الله عما سلف"، وتوجيه الشكر الى وزير الصحة المصري، الذي ابلغناه عن طريق الدكتور خشيم، ان الحملة جاءت بنتائجها، واننا في غاية الرضا، ولا نريد اي اجراء يلحق ضررا بالمستشفى او بالجراح الذي اجرى العملية، وانتهت هذه المسألة على خير.

الحالة الثانية

وقد حصلت هذه الحالة في اليونان، التي اقمت بها وعملت هناك رئيسا للبعثة السياسية الليبية في اثينا، وحدث لي في مطلع عام 2001 ، عندما احسست فجأة بقواي تخذلني، وكنت جالسا على مكتبي واردت ان اقوم فوجدت انني بصعوبة استطيع ان افعل ذلك وعندما نجحت في الوقوف اكتشفت انني غير قادر عن الاستمرار، ولا استطيع ان احتفظ بنفسي واقفا وانني اوشك ان اتداعى واسقط فوق الارض، فاستندت الى الطاولة وقد الم بي احساس بالدوخة، يجعلني ارى السقف يدور وتدور معه الثريا المعلقة به ، فاستنجدت بمن جاء ينقلني الى المستشفى وكنت في ذلك الوقت اكتب مقالا اسبوعيا لصحيفة الاهرام فنقلت الحالة كما حصلت لي في مقال اسمتيه ارادة الحياة ، نشر يوم 2001/3/15، هذا نصه:

وجدت نفسي، ودون سبب ظاهر، عاجزاً عن القيام من مقعدي، ومستنداً بكلتا اليدين إلى الطاولة، تحاملت على نفسي حتى استطعت الوقوف. حاولت أن أتحرك من مكاني فوجدت نفسي عاجزاً عن المشي استعنت هذه المرة بالجدار أستند إليه، فوجدت الجدار يتهاوى، والسقف يدور والعالم من حولي يتقوض وينهار، وقدماي تفقدان القدرة على حمل جسمي، ورأسي يأبى أن يبقى ثابتاً في مكانه. عدت بسرعة إلى الجلوس، أو بالأحرى ارتميت دون مقاومة على الكرسي، عاجزاً عن تفسير ما حدث لي. هدأ قليلاً زلزال المشاهد والأطياف والرؤى والظلال، واختفى من أمام ناظري غبار العالم المنهار، وحاولت أن أستعين بكل خبراتي القديمة عن المرض، فلم أجد شيئاً تسعفني به مداركي ويعينني على فهم ما حدث. عدا هاجس ضعيف يتصاعد من قاع الذاكرة قائلاً بأنه يمكن أن يكون عرضاً من أعراض جلطة المخ أو القلب. لم يكن ما حدث مصحوباً بأي وجع، في أي مكان من الجسم، والأغرب أنه لم يثر في نفسي أي إحساس بالفزع، هل تراني مشرفاً على نهاية الرحلة؟ ترددت أصداء هذا السؤال في رأسي، ولكن دون أن أشعر بأي درجة من الخوف، بل بالعكس من ذلك، ما شعرت به كان إحساساً عميقاً بالهدوء والسكينة حالة من السلام والأمان نصبت خيمتها فوق رأسي. إنتهى الدوار بعد أن جلست ولكنني ما زالت عاجزاً عن الوقوف، وجسمي تشمله حالة من الضعف والوهن، والشعور الغامر بالراحة يشملني لا يخالطه سوى شيء من الأسى الناعم الشفيف، كمن جاء موعد تسريحه النهائي من العمل، وأفرحه أن العبء سيزول عن كاهله، لكنه يأسف لمغادرة المكان الذي ألفه وتواشج معه عمراً بكامله. كنت دائماً أدور مع دورة الحياة أحاول أن أنظر أمامي، للخطوة القادمة، واليوم القادم، والعمل الذي ينتظر الإنجاز غداً ولأول مرة أحس بأنني قد تحررت من هذا العبء وأنه حان لي أن أنظر إلى الخلف دون عناء لأرى ماذا فعلت، لا ماذا سأفعل. ها قد اكتملت الدائرة لأرى نقطة النهاية موصولة بنقطة البداية، وأرى أن الحياة قد خففت بالوصول إلى هذه النقطة أقصى غاياتها ووصلت أنا إلى مشارف الراحة الأبدية.

في السيارة التي أقلتني إلى المستشفى أضحت حالتي أكثر تعباً وقواي أبلغ انهياراً، وكنت لا أقوى على أن أرفع يدي أو أحرك أطرافي، دون أن أفقد الوعي والإحساس بما حوالي. ظلت ملكات الإدراك تعمل في منتهى الكفاءة والنشاط وكنت أستطيع أن أمارس دور المراقب، وكأن ما يحدث لي، يحدث لإنسان غيري، أمارسه بلا وجل، أرى الجسد الهامد، وقواه الخائرة دون أن أشعر بأية درجة من الإنفعالات والتأثير، بل كنت أرى قلق الأصدقاء اللاثة الذين رافقوني في السيارة،

فأود أن أقول لهم إنه ليس في الأمر ما يوجب القلق والإنزعاج، فالحياة بكل ما فيها لا تساوي جناح بعوضة، ولا تستحق لحظة واحدة من القلق أو الأسف لضياعها أو ضياع أي شيء من متاعها الخادع الكاذب.

قضيت أياماً ثلاثة في المستشفى، اختفت خلالها كل أعراض الحالة التي آلمت بي، وعدت قبل إجازة العيد إلى بيتي سليماً معافى كما كنت قبل تلك الحالة.

ما الذي حدث لي؟

لم يستطع الأطباء وإلى آخر فحص من الفحوص وصورة من صور الأشعة، الإهتداء إلى سبب مباشر وراء هذه الأزمة. جسم فقد فجأة الكهرباء التي تمده بالطاقة. كما وصف الطبيب حالتي، ولكن أين يكمن السر؟ هل هو ارتفاع السكر في الدم؟ أم ارتفاع الضغط؟ أو هبوطهما معاً نتيجة الأدوية، أم قرحة المعدة؟ لا أحد يدري.

المشكلة حالة السلام والسكينة التي لازمتني أثناء الأزمة، غادرتني طبعاً بمجرد مغادرتي المستشفى وانضمامي إلى عالم الأصحاء والمعافين فقد عدت إلى الدنيا الصاخبة أدور مع سواقيها، وأدخل في روتينها، وأنضم إلى سباق المتسابقين في شوارعها وأسواقها، المخدوعين بأوهامها وسرابها، وزوال مع زوال المرض، ذلك الإحساس الذي انتباني بتفاهة الدنيا وأباطيلها ومتاعها الذي لا يساوي جناح بعوضة. لقد نظرت إليها بعين إنسان يوشك أن يرتكبها، أما الآن فأنا أنظر إليها بعين واحد من أهلها، لا بد لكي يواصل الحياة أن يكدح ويعاني ويعمل لكي يكون جديراً بها قادراً على أن يعانق أفراحها، ساعياً لتأمين وجوده فيها.

إنها إرادة الحياة التي لا بد أن تقهر دبيب الفناء في عظامنا، لكي نستطيع أن نواصل الرحلة حتى نبلغ آخر الطريق.

واحمد الله ان هذا العرض المرضي الطاريء مر بخير وسلام.

الحالة الثالثة

وهذه الحالة كانت اكثر حداثة، فقد حصلت في العام 2012 في بيتي في القاهرة، وفي اول ايام عيد الفطر، عندما استيقظت على الم ممض في منطقة المعدة، عرفت من خلال التشخيص انه التهاب في المرارة نتيجة لوجود اكثر من حصاة فيها، ويستوجب استئصالها، وتحدد الموعد في متشسفى خاص بمدينة لندن هو "لندن كلينك"، الذي نقلت اليه فور وصولي الى مطار هيثرو، وحدث يوم اجراء هذه العملية ان تعرضت لاحتقان في الصدر والرئتين، وهو مرض له اسم شعبي في ليبيا هو "ابو جنب" ، وقد اوصلني هذا المرض الى غرفة العناية القصوى ، التي بقيت بها لمدة خمسة ايام، وتأجلت عملية استئصال المرارة بضع اسابيع ، لمعالجة الاحتقان في الصدر والرئتين، وكان المرض يمثل هذه المرة تهديدا للحياة، ورحلة مع الالم استمرت ثلاثة اشهر ونيف، اوحت لي بمقال على الانسان والالم، اعطيته للنشر في صحيفة

العرب التي كنت اكتب لها بشكل منتظم، اسمته بحديث عن المرض والالم ، ولانني رايته حديثا يتصل بقضية خاصة فقد عمدت الى كتابة اسطر تقدم المقال وتبرر هذا الانتقال فيما اكتبه من العام الى الخاص قائلا في هذا المقال ما يلي:

تحتل القضايا العامة مقدمة العقول والرؤوس، لدى النخبة من المشتغلين بالهم العام ، قادة ومفكرين سياسيين واجتماعيين واهل ادب وابداع واعلام ، وتغلب الاهتمام بها ، على الاهتمام بالقضايا الشخصية ، التي تشغل السواد الاعظم من الناس ممن يبقى الانشغال بالجانب الشخصي الذي يتصل بالمسائل المعيشية، وتامين حياة الاطفال، والضمان الصحي والسكني، هو الانشغال الغالب على حياتهم، الاستثناء الوحيد، الذي تتضاءل فيه اهمية القضايا العامة، وتتاخر عن مكانها في مقدمة الرؤوس، لهؤلاء القادة السياسيين والمفكرين، هو عندما ياتي المرض، ويحتل هذه المساحة ، ولذلك ترتفع الاصوات التي تطالب رؤساء الدول، بالتنحي عن مناصبهم، في حالة حصول مرض للرئيس يعرقل اهتمامه بالشأن العام، ويشغله عنه بالمسائل الخاصة بالعلاج، واردت اليوم ومن خلال تجربة شخصية مع عارض مرضي، ان اتحدث عن هذا التداخل بين الخاص والعام في حياتنا، باعتباري كاتبا، عاش عقودا كثيرة من عمره، يلاحق الاحداث والافكار، ويعالجها في ابواب صحفية ، يومية واسبوعية، غير تلك التي تستوعبها كتب الابداع الادبي.

فحقائق كثيرة عن المرض، في مختلف حالاته القاسية وغير القاسية ، لا نستطيع فهمها واستيعابها، الا عبر التجربة والوقوع في المرض، وهو ما اقوله من خلال هذه التجربة الاخيرة التي كانت مجرد احتقان في المرارة، افهموني انها عملية صغيرة جدا، لا تحتاج لغير قضاء بضع ساعات في المستشفى، واغادر في نفس اليوم متحررا من عبء المرض، وها انا اليوم بعد مرور اربعين يوما، مازلت في المستشفى ، احاول العودة الى حالتي الطبيعية السابقة للمرض.

وبداية راى الطبيب ان العملية لا تتم اثناء حالة الاحتقان ، وانني يمكن ان اتوفر في المستشفى على رعاية، تعجل بانتهاء الاحتقان ، خلال ثلاثة ايام لاجراء العملية في اليوم الرابع، وهو ماحدث، الا انه عند دخولي الى مسرح العمليات ، اكتشف طبيب التخدير ان طارئا حدث على الجسم، يمنع اجراء العملية ، فقد حدث احتقان في الصدر والرئة، ربما كان بسبب عارض حدث للقلب ، والغيت العملية وانتقلت مباشرة الى غرفة العناية القصوى، حيث اقتصر الاهتمام على معالجة الطارىء الجديد، وخلال اربعة ايام تناقص الاحتقان في الصدر وثبتت سلامة القلب، وتركت العناية ولكن لم اترك المستشفى لان الحالة تحتاج الى متابعة واهتمام، وبعد عدة ايام، قال الطبيب بانني استطيع ان اغادر المستشفى، واتناول العلاج في البيت لمدة اسبوعين ، يقرر بعدها موعدا لاجراء عملية المرارة، يعنى العودة الى المربع الاول الذي بدأ به العارض المرضي الطارىء. وتقرر بعد مرور الاسبوعين ان ادخل المستشفى استعدادا لاجراء العملية واخذ مزيد من العلاج لتسهيلها، لان احتقان الصدر قد جعلها اكثر دقة وصعوبة، وفعلا في نهاية الاسبوع الثالث، دخلت من جديد غرفة العمليات، واثناءها كان هناك اكتشاف جديد، وهو ان ما تقوله الفحوص والات الكشف والاشعة ليس هو الحقيقة الكاملة ، وان هناك اشياء لا يستطيع الجراح ان يراها او يعرفها، الا عند فتح المعدة، فقد وجد ان المرارة والمنطقة المحيطة بها، في حالة اهتراء ، جعله يقضى في اجراء العملية ثلاثة اضعاف المدة التي يقضيها في العمليات المماثلة،

واقتضى ذلك ان اقضى مدة اطول مقيما في المستشفى تحت الرعاية ، وتغذيتي بالدم لمدة ابربعة ايام كاملة لتعويض ما افتقده الجسم اثناء العملية .

نعم هناك ما نسميه المسكنات وقاتلات الالم، وكنت كثير الامتنان ان اجد حبة اسبرين تريحني من الم الصداع، ولكن قيمة هذه المسكنات غالبا ما تتضاءل كثيرا اثناء وجودنا في حالة مرضية سريرية، واضرب امثلة كثيرة على حالات واجهتني كان فيها الالم قاسيا ولا امكانية لقتله بكل ما انتجته مصانع الدواء من مثل هذه العلاجات. فقد رافقت حالة احتقان الصدر موجة من الزكام التي تهز الجسم مثل الزلزال، ولا تتوقف ليلا ولا نهارا، ولا سبيل للقضاء عليها، ولا علاج لها باعتبار انهم يقولون ان الزكام نفسه جزء من العلاج لحالة الاحتقان، والتخلص من اثاره على الرئيتين والجهاز التنفسي. وجلبت نفس الحالة ، ضيقا في التنفس، وامتد على السرير فاشعر كان صخرا ثقيلا يسحق صدري، ولكنه ايضا جزء من صيرورة المرض والعلاج ولا سبيل الى تسكينه الا بانتهاء كورس العلاج. وخلقت حالة التخدير اثناء العملية ، تدافعات في الجسم نتج عنه وجود عضلة في الكتف تسببت لي في الم كبير ومنعت عني القدرة على النوم، ولا سبيل لمقاومتها الا بشكل جزئي، وبالحبوب المنومة التي تتضاءل فعاليتها مع الايام، وقد تدخل المريض في حالة من الادمان يصعب الخروج منها احيانا. واقول ايضا ان الطاقة نضبت في جسمي الى حد الصفر ، ورفع ملعقة الى الفم صار يتطلب جهدا ولا يحدث الا بصعوبة ومشقة مع شهية مقفولة لا تريد صحنا ولا ملعقة ، وفوق هذا وذاك لم اكن ارتاح واقفا ولا جالسا ولا نائما على السرير في وضع من الاوضاع فالالم يرافق كل حركة ونامة يقوم بها طرف من اطرافي ، وعشرات الامثلة لانواع من الالم التى لا وجود لقاتل لها . لقد كانت حالة مرضية لا اريد والا اتمنى ولا ارجو ان امر بها ثانية ، ولعلها تجربة قد تعيد صياغة رؤيتي لقضايا الحياة والموت والوضع الانساني ، وكان اشبه بالمستحيل خلال ايام المرض والمعاناة ، ان اجد في نفسى حماسا او نشاطا يساعدانني على متابعة نشرات الاخبار او قراءة الصحف وا قراءة الكتب، وصار شغلى الشاغل هو هذا الالم الذي استعجل يوم الخلاص منه.

الحالة الرابعة

اما الحالة الرابعة فهي تتصل بعلاقة اقمتها في لندن مع طبيب من المختصين في القلب، اراجعه في مرض الم بي هو ضغط الدم العالي، وحصل ذات مرة ان اجرى لي فحصا عن طريق ما يسمى القسطرة، وصار منذ اكثر من عشرين عاما، ازوره بمعدل زيارة كل عام، لمجرد المراجعة والتأكد من ان القلب وشرايينه لم تتأثر بداء الضغط، وحدث في عام من الاعوام الاخيرة ، ان جاءني الرد من عيادته بان الرجل راى نفسه وقد تجاوز الستين بعام او عام ، آن له ان يترك العيادة الى من هم اكثر شبابا منه، وانه احال نفسه الى تقاعد مبكر من مهنة الطب والطاسة، وكنت اعرف انه طبيب ناجح، وان الزبون يحتاج الى الانتظار عدة ايام لكي يجد حجزا لديه ، فاستغربت ان يترك طبيبا مثله النجاح والثروة ، ويستكين الى الراحلة في سين ما زال قادرا فيها على العمل والعطاء ، ولانه كان قد اصبح صديقا واعرف هاتف بيته وهاتفه النقال، فقد اتصلت به لابدي استغرابي لهذا التقاعد المبكر، فتأسف انه لم يعد يستطيع مباشرة علاجي ، وان سجلي موجودا في نفس العيادة التي تنازل عنها لواحد من مساعديه، وسالته عما اذا كان هناك سبب ما دعاه الى اتخاذ هذا القرار ، باعتباره كان في اوج النجاح، فقال انه لم يكن لديه اي سبب صحي او

عائلي او غيره، وان مهنة الطب مهنة تضع ضغطا كبيرا على الممارس له، وهو لا يريد ان يمنح مزيدا من اعوام عمره لهذه المهنة، وانه ان له ان يشعر بالراحة والاسترخاء، مضحا بالمال الكثير الذي ياتيه كل شهر، لان الحياة ليست كلها مالا.

وقلت له باننا طالما لن نلتقي كطبيب وزبون من مرضاه، فنستطيع بالتاكيد ان نلتقى باعتبارنا اصدقاء يعرف احدنا الاخر على مدى اكثر من عشرين عاما ، فاجاب بانه فعلا يعتبرني صديقا ، وانه يرحب بمثل هذا اللقاء، واردت ان احدد موعدا للقائه في اليوم التالي او الذي يليه ، فاجابني اجابة غريبة وهي الاعتذار بمشغولياته، فاية مشغوليات، قلت له، لانسان يقول انه تقاعد بسبب ضغط العمل وضغط المهنة وينشد الراحة والاستراخاء، فقال ان الراحة والاسترخاء بالنسبة له ، في هذه المرحلة من العمر، هي ان ينتبه لبعض الهوايات التي اهملها، والتي يريد الان ان يعود الى ممارستها، وهو لا يبحث عن مقابل ياتيه من هذه الهواية بل هو الذي يصرف من ماله عليها، وذكر لي انه مشغول جدا بالتحضير لمعرض سوف يشارك فيه بعدد من اعمال فنية تتصل بزخارف ونقوش فوق الزجاج، كان يمارسها في صباه ، وعاد الان لتمرين نفسه واستعادة التأهيل والقدرة على المنافسة، فقد انجز بعض الاعمال تحتاج الى لمسات اخيرة ، سيشارك بها في معرض يتم افتتاحه بعد ايام قليلة في احدى المدن الداخلية.

واعتذر فعلا عن اللقاء، في هذه الزيارة التي اقوم بها الى لندن، مؤجلا اياها الى زيارتي القادمة.

لم استغرب ولكنني رايت فيما فعل وفيما قاله لي درسا من رجل ينتمي الى الغرب يمكن ان يستفيد بها رجل مثلي ينتمي الى اهل الشرق .

ولا اقول في ختام هذه السيرة، انني ساصل الى نتائج وخلاصات ، لان كل ما كتبته ليس الا نتائج وخلاصات لحياة، هي حياتي، عامرة بكل ما يمكن ان يعرض لاي انسان في حياته ، وما يمكن ان يحدث له، او يبدر منه خلالها، وما يتخللها من اعمال واحلام واوهام ولحظات امل والم وحزن وفرح وقلق وراحة وسهد وكدح وتعب وانجاز . واقول لمن يريد ان يصدقني ، وهو يجب ان يصدقني، لانه لا داعي لان اذكره ان لم اكن صادقا في ذكره، انني تحريت الصدق والنزاهة والامانة والشرف في حياتي قدر ما استطيع ، ولا ادعي اية بطولات، ولا اجتراح معجزات، ولا القيام بالخارق من الاعمال. وانما اعطاني الله موهبة، سعيت لصيانتها من العبث ، واديت اماناتها، واعطاني قلما يشهد الله انني لم ابتذله، رغم رعب الواقع الذي عاشه الليبيون ،وكنت شاهدا وموجودا ، وكاتبا له حضوره خلال اثنين واربعين عاما من حكم لا يستند لاي دستور ولا قانون ، فانني لم اكتب شيئا لكي انال حظوة او ترقية او مكسبا ماديا ، بل بالعكس من ذلك لامست حدود الخطر، ولكنني في لحظات كانت حياتي مهددة ، رايت ان اتقي

القتل ، وان اتجنب سيف الظلم ، بان افدي حياتي باسطر قليلة، بالمقدار الذي يزيل الخطر، كذلك فانه رغم اغراءات كثيرة يتيحها النظام للفساد المالي والاداري والاخلاقي ، فانني والحمد لله ، لم اجد نفسي مضطرا لان امد يدي الى اي فلس لا استحقه ولا مال لم اكدح للحصول عليه ، واقدم مثلا واحدا يعرفه العاملون بالخارج، فقد كان يصل الى المكتب الاعلامي الذي ادرته في لندن ما يزيد سنويا عن مائة الف استرليني ، لما يسمى البند السياسي، وهو البند الذي يسمح لرئيس المكتب ان يصرفه كيفما شاء، دون رقابة ولا محاسبة ، ولم اصرف منه قرشا واحدا الا في اطار العمل، بينما كان زملاء لي يبلغونني انهم يصرفونه على شان خاص بهم ، او علاج قريب لهم، او اقتناء سيارة ، وكنت اقول ان حد الله بيني وبين مثل هذا المال ، متبعا طريق اناس من اهلي اعتبرهم قدوة لي في هذا المجال، هم ابي وجدي واعمامي الذين تعلمت منهم ان القرش الذي يدخل البيت عن غير طريق الحلال، هو مفسدة للرزق وللنسل، ولن يهنأ به الاهل، ولا الاسرة، وسوف ينعكس على الاولاد في سوء تربيتهم، لانهم تربوا واكلوا سحتا بسبب هذا القرش، الذي جاء عن غير طريق الحق ، ورأيت كثيرين، اعتمدوا على التحايل والسطو واستغلال المنصب ، وعندما اقارن حياتي بحياتهم ، اجد انهم رغم سرقاتهم وسطوهم، فانني اعيش مستوى افضل منهم ، موفور الكرامة ، ناجحا في عملي ، فخورا بما ربيت عليه اولادي وبناتي ، وما اوصلتهم اليه من تعليم ، وكنت اقول لهم اذا كان هناك من ترك المال والعقار، لاولاده ، وهي امور تزول وتصادر، فانني تركت لكم مالا يزول ولا يصادر وهو العلم الذي تحصلتم عليها. اذن فليس بالسطو على المال العام، ولا بالحيلة واستغلال المنصب، يبني الانسان الحياة الكريمة التى يريدها ، كما استطيع ان اقول من تجربتى الشخصية. وكنت ارى دائما ان مثل هذا السطو على المال العام، هو انتقاص من شخصية الانسان، وانه يضحي بما يمكن ان يتمتع به من رفعة الصدق وسمو النزاهة والامانة، مقابل هذا الثمن الزهيد الذي ياتيه عن طريق السطو والسرقة، مهما كان كبيرا، وهو مبدأ اتبعته في حياتي ولم اندم عليه في يوم من الايام بل ان الشواهد تؤكد لي صحة سلوكي، فما رايت احدا ممن اعرف انهم عاشوا على مثل هذا السطو واللصوصية، استطاع ان يعيش حياته افضل من حياتي ، او حقق لنفسه شيئا من المزايا التي ارى انني عشت محروما منها .

اعرف بان قرار ان اضع الاولوية في حياتي لمشروعي الادبي ، تعني بالضرورة ان اترك اهتمامات اخر، واتخلى عن جهد يصرفه الناس في التربح، وتحسين مستواهم المعيشي، واهتبال الفرص التي تتيحها لهم الحياة ، وربما استثمار تجاري هنا او هناك، مدركا انه لن يستقيم هذا المشروع، ولن ينجح ، ولن ينطلق عبر طريق الانتاج والانجاز، الا اذا رضيت بالتضحية بكل المكاسب الاخرى ، مكتفيا بالمكسب الذي يتحقق لي من خلال هذا المشروع الادبي ، الذي ليس فيه ربح مالي ، ولا مكاسب تجارية ، ولا ارتفاع في مستوى المعيشة، ولا تحقيق تقدم في المناصب والنفوذ والمهايا ، فكل ما فيه هو حصاد معنوي ، وقيمة ادبية، وبصمة يتركها الكاتب فوق خريطة الادب، ومسيرته في بلاده، وهي بصمة لا تنتهي بنهاية حياته فوق الارض، ولكنها تظل باقية بعد ان يغادر عالم الفناء الى عالم البقاء.

في كتابه المقابسات، كتب احد اسلافنا العظام ، ابو حيان التوحيدي ، رضوان الله على روحه ، وكان ، كما يقول مؤرخو الادب، حاد الطبع، عصبي المزاج ، كتب يقول " اني نقلت هذا الكتاب، والدنيا في عيني مسودة، وابواب الخير دوني منسدة، لثقل المؤونة ، ولقلة المعونة ، وفقد المؤنس، وعثار قدم بعد القدم، وانتشار الحال بعد الحال، هذا، مع ضعف الركن، واشتعال الشيب، وخمود النار، وسوء الجزع، وافول شمس الحياة، وسقوط نجم العمر، وقلة حصول الزاد، وقرب يوم الرحيل" ورغم ان الظروف التي يعيشها الاديب العربي، لم تتغير كثيرا عن احوال عصره منذ الف عام، والبيئة الحاضنة للادب والفكر والابداع مازالت غريبة عن الوطن العربي حتى اليوم، فارجو ان يكون ما حدث من تطور لامس كل مناحي الحياة ، قد جعل احوال الاديب في عصرنا افضل من هذه المعاناة القاسية التي يتحدث عنها التوحيدي، وان تكون الملابسات التي صنعت آلامه وعوزه وضيق صدره، قد اصبحت اقل وطأة مما كانت عليه في عصره، وليس في نيتي وانا انقل هذا الاقتباس، ان اتمثل ما قاله، او اراه يمثل حالتي ، لا على المستوى العام ، ولا على مستوى المزاج الشخصي وخصوصية الطباع، فانا رجل اميل الى التفاؤل، واخذ الامور باللين، وليس بالحدة والغضب، ولكنني نقلت الاقتباس لسبب واحد، هي الحصاد المر الذي يجنيه اهل العقول الكبيرة ، وافذاذ المفكرين والمبدعين في وطن ، ليس غريبا ان يتقدم الاخرون، ويظل هو يرسف في اغلال التخلف.

ولا اريد ان انهي هذا الجزء من المذكرات على هذه التعبيرات الحزينة، التي تنعي حظوظ الكاتب العربي، في العصور السالفة ، واستعين بعدد من اهل الفكر ومقتطفات عن ارائهم في مهتهم، لاقول من خلالها ان الصورة ليست دائما قاتمة، معتمة، كما يرسمها التوحيدي، وفعلا فكما يرى القارئ من خلال هذه الصفحات التي اودعتها سيرتي الذاتية، منذ مراحل العمر الاولى في ثلاثية مرافيء الطفولة ، ثم في ثلاثية طرابلس، انني خبرت الحياة بحلوها ومرها، ورايت من جوانبها السلبية والايجابية، ما يجعلني اصدّق حكمة شاعرنا ابي الطيب المتنبي، في بيته الذي يقول فيه:

ومن عرف الدنيا طويلا تقلبت

على عينه حتى راى صدقها كذبا

ولكنني مع ذلك أومن بانه لا يصح الا الصحيح ، وليس ابلغ في هذا السياق من كلام خالق الكون في محكم كتابه عندما يقول "فاما الزبد فيذهب جفاء ، واما ما ينفع الناس فيمكث في الارض" ويقول ايضا في تأكيد مبدأ العدالة الالهية بان " من يعمل مثقال ذرة خيرا يره، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره".

وارجع الى احاديث اهل الفكر التي تعيد لنا الثقة في الضمير والحس الانساني، وانتصارهما في ختام كل شيء، فهذا ابو الفلاسفة سقراط يقول "نحن نعيش في الافعال وليس في الزمان ، وفي الافكار وليس في الانسان ، وفي المشاعر وليس في الارقام ، ولذلك يجب ان نحسب الزمن بدقات القلب ، فالحياة العميقة يحياها ذلك الذي ينشغل باعمال الفكر ونبل المشاعر والعمل بافضل ما لديه من جهد"

اما الشاعر العظيم طاغور، الذي يختزل حكمة الهند، وينطق بها، فهو يقول " هذه هي الغاية القصوى للانسان ، ان يكتشف نفسه ، التي هي حقيقته، وهي روحه ، وهي بالتالي المفتاح الذي يفتح له بوابات الحياة الروحية، والاتصال بالممالك الالهية"

ولا اجد ختاما افضل من بيت المتنبي اختم به هذه الاوراق ، اخاطب به القاري، الذي ارجو ان يسعده النطق طالما ان بضاعة الكتاب هي هذه الكلمات ، مصداقا لقوله في بيته الشهير "لا خيل عندك تهديها ولا مال فليسعد النطق إن لم يسعد الحال"

الخطى التي مشيناها

وهناك بيت ممن الشعر العربي ينسب الى شاعر من اهل التصوف يقول فيه:

مشيناها خطى كتبت علينا ومن كتبت عليه خطى مشاها

وبسبب ما لهذا البيت من شعبية، وما يحمله من معنى، اختاره كتاب كثر عنوانا لسيرتهم ، واختاروا اقتباسا منه لمثل هذه الصفحات التي تتحدث عن الحياة، وانا كغيري من هؤلاء الناس معجب بهذا البيت، وحسن ديباجته وصياغته، بل ومدلوه ومحتواه، الا انني لا ادري ان كنت اوافق موافقة كلية وكاملة على هذا المعنى، بعكس المعنى في بيت لاحق له ومربوط به يقول فيه نفس الشاعر:

ومن كانت منيته بأرض .. فليس يموت في أرض سواها

وهو قول صادق، لا سبيل لان يختلف معه اي انسان، ونعود الى البيت الاول وهذه الخطى التي كتبت علينا، ولابد من ان نمشيها، وهنا تدخل موضوعة الجبر والاختيار، التي عالجها الفلاسفة منذ عهد اليونان، وواصل معالجتها اهل الفلسفة الحديثة، وضرب فيها اهل الفلسفة الاسلامية والمناطقة والمتكلمين، بسهم وافر ايضا ، ولست دارس فلسفة لانافس اهل الاختصاص في اقوالهم، حول هذه القضية، وانما سانظر اليها نظرة الكاتب والاديب الذي يستخدم حسه الادبي، وهواجسه الشخصية، في مقاربة الاشياء، واكتفي من اهل الفلسفة بانني اميل الى ما يقوله في هذا الشأن مجموعة تحسب على العقلانيين في الفكر الاسلامي، هم المعتزلة الذين يقولون بان الله لم يخلق أفعال العباد لا خيرا ولا شرا , وان إرادة الإنسان حرة والإنسان خالق أفعاله , ومن اجل هذا كان مثابا على الخير، معاقبا على الشر، فلا يمكن وفق نظرية الجبر، ان يجبر الله، وهو العادل، وهو الحق، انسانا على شيء ثم يحاسبه عليه.

اذن كيف يستقيم هذا الكلام مع ما نؤمن به نحن اهل الكتاب من اتباع الشريعة المحمدية، بان كل شيء كتبه لنا الله في لوح محفوظ، بحسب ما يقول في محكم اياته"ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها" وقوله ايضا في آية اخرى "ألم تعلم أن الله يعلم ما في السماء والأرض إن ذلك في كتاب" وطالما هو كلام الله، فهو كلام لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، الا ان علينا ان نجد

صيغة للتوافق بين هذا القول الذي يتحدث عن كتاب رصدت فيه الافعال والاقوال والسلوكيات مسبقا، ومنذ بدء الخليقة، وبين قوله "وقل اعملوا فسيرى الله اعمالكم" وقوله ايضا"ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بانفسهم" وفي الايتين يضع الله، مساحة للفعل الانساني، وينتظر من الانسان مسئولية القيام بهذا الفعل، وفي ضوء هذين الايتين يمكن ان نفسر اية ثالثة بانها ما عنت الا وضع المسئولية كاملة على الانسان عندما قال جل على "ان عرضنا الامانة

وعذري في استخدام الايات الدينية في موضوع كهذا الموضوع ، ليس عجزا عن معالجة الموضوع دون اتكاء على النص الديني ، ولكن بعض الناس يستخدمون المنطق الديني ليس محاججة الناس، من اصحاب التفكير الحر، ولكن لاخراجهم من دائرة العقيدة والايمان فاردت تحصين نفسي منهم وانا اقول بهذه المساحة التي اعطاها الخالق للفعل الانساني ، اما توافق هذا مع اللوح المحفوظ ، فهذا اللوح ياتي بان الله عليم بكل شيء، ولكنه ليس بالضرورة هو الذي يجبر المخلوقات على الاتيان بكل فعل تأتيه، وهناك مثال توضيحي ، يمكن استخدامه في هذا السياق، وعودة الى النص الديني هنا ايضا، فهذا النص يعترف بالرؤيا ، وان هناك اناسا بعضهم انبياء وبعضهم غير انبياء يستطيعون التكهن بالمستقبل ، واورد القرآن حكايات كثيرة مثل نبي الله يوسف وتفسيره لاحلام تفصح عن احداث في المستقبل ، كما اورد رحلة سيدنا الخضر مع نبي الله موسى التي قال له فيها "ألم اقل انك لن تستطيع معي صبرا" لانه قام باعمال بناء على الرؤى التي راها لما سيحدث في المستقبل وقام بتفسيرها له، وطبعا نلتقي احيانا ببعض اهل الله ممن اعطاهم الله شيئا من علمه بالمستقبل، ويصدقون في تنبوءاتهم، ولكن هل صاحب النبوءة ، وقارىء احداث المستقبل، هو الذي يصنعها، انه يراها ويرصدها ويبلغنا بها، ولكنه ليس هو صانعها، وهكذا هو الكتاب المحفوظ لقد رصد ما سوف يقع لنا قبل وقوعه دون ان يعني ذلك جبرا من الله ، نعم الله هو خالقنا وهو الذي يميتنا، وهو الذي يعلم مصائرنا واقدارنا، ولكنه يترك لنا مساحة للفعل ومساحة للعقل ومساحة للاختيار ان نكون اخيارا كما يحظنا ويريد منا ، او نكون اشرارا كما تأمرنا النفس التي وصفها بانها امارة بالسوء والاستجابة للوسواس الخناس الذي يوسوس في صدور الناس من الجنة والناس، ويأتي في هذا السياق المفهوم الاسلامي للانسان باعتباره خليفة الله في الارض، وان عهد الاستخلا الالهي كما يقول هذا المفهوم الديني، على لسان احد الكتاب" هو الوثيقة الكبرى الاساسية لفهم جوهر العلاقة بين الله والانسان" فالانسان في هذا المفهوم الديني"كائن حر، مختار، مبدع لوجوده، بفضل التفويض الالهي الممنوح له .

ووفق هذا الكلام فان من الصعب لاي انسان ان يتنصل من مسئولية افعاله، او يتنكر لدوره في ارتكاب اخطائه، ناسبا اياها الى قوة عليا هي التي تحدد ما يفعله الناس وما يقومون به من اعمال، فهذا ليس حقا وليس عدلا تجاه نفسه، وتجاه ما اعطاه الله من حرية ومسئولية وما عهده اليه من امانة، وعندما اقول هذا الكلام فلا انسى اطلاقا انه هذا الانسان ومهما بلغت حرية الارادة اليه وفرص الاختيار، ان هناك دائما ظروفا وملابسات تمنع احيانا ان يمارس هذه الارادة الحرية او يتمتع بهذا الاختيار، وتفرض عليه ان يمشى في اتجاه لا يريده، واظن الادب كان دائما قادرا على التعبير عن هذا الشرط التاريخي الاجتماعي الذي يقرر للناس مصائرهم بالنيابة عنهم ، وللنظر الى موضوعة واحدة كمثال على ذلك عالجها الادب منذ فجر التاريخ هو موضوعة المومس الفاضلة ، اي تلك المرأة التي سارت في طريق الخطيئة مرغمة ولكن الادب اظهر معدنها الاصيل الشريف ، رغم الخطيئة التي دنست حياتها والتي ارغمتها الظروف على

ارتكابها، وهناك شواهد في حياتنا ، وهذه السيرة ليست الا عينة لحياة من هذه الحيوات، عامرة بهذا الحالات التي وجد صاحب السيرة نفسه يمشي في طريق او يقول قولا او يفعل فعلا ليس منطلقا من ارادته الحرة وانما من ظرف في الزمان والمكان والتاريخ والمجتمع والوطن هو الذي فرض هذا الفعل، وهناك للاقدار ايضا تصاريف قد تتعارض مع هذه الارادة ، وتتدخل في حياتنا، دون ان ترسم لنا منهجا في هذه الحياة، بسبب التداخل بين حياة وحيوات اخرى ، فان يحين الاجل لاب او ام، فهذا قدر هذا الانسان الذي تصادف ان يكون الوالد او الوالدة لاحد منا، ولكن هذا الحدث قد تكون له نتائج وخيمة على حياتنا وحياة اخوة لنا واخوات ، وهو تداخل تفرضه الحياة وتفرضه قوانين التناسل والتوالد ، وتسهم في صنع اقدارنا دون حق لنا في الاعتراض او القبول .

نعم يبقى الهامش الاكبر في حياتنا، هو ما نصنعه نحن بهذه الحياة، وقد اوضحت في هذه الصفحات ما استطعت ان افعله بحياتي، وما فعلته الظروف بي، فلم تكن الرحلة سهلة ولم تكن الرحلة يسيرة، ولكن ما الحياة ان لم تكن هذه التحديات التي تواجهنا وهذه المصاعب التي نلقاها في طريقنا ، فنستنهض الهمة ونستنفر العزيمة ، ونستعين بالله على المضي في رحلة العمر وخوض معاركها ضد كل هذه المكابدات والصعاب، ولم يكن ما كتبته قديما خاليا من هذه المعالجات، والحديث عن اشياء كثيرة تقررت بالنيابة عنا، ولكن كنت دائما مؤمنا بان هناك صفحات هي التي تركتها لنا الاقدار والظروف لكي نكتبها بارادتنا الحرة وهو ما تناولته في مقال عنوانه الهامش الذي تبقى لنا نشرته في الاسبوع الثقافي في مطلع السبعينات عن الشرط الوجودي الذي وجدنا انفسنا فيه، فهناك صفحات كثيرة في كتاب الحياة كتبت نيابة عنا لعل اولها هو يوم ميلادنا ويوم وفاتنا وبينها صفحات اخرى ، ايضا كتبتها نيابة عنا ظروف وملابسات واكملت قائلا بان احدا لم يأخذ راي هذا الانسان عندما

"جاء إلى الدنيا. لقد وجد نفسه من حيث لا يعلم ولا يدرى، مخلوقا، يحياً ويتنفس فوق الأرض، ثم إن احداً لم يمنحه حق اختيار المكان الذى يأتى اليه، اي يولد فيه، وينشأ ويعيش فى كنفه، وأن أحداً لم يستشره اذا ما كان يفضل المدن على القرى، او الشواطئ على الصحراء،أو أكواخ الغابة على ناطحات السحاب، أو طقس افريقيا على طقس اوروبا، أو حضارة الشرق على حضارة الغرب، ثم أن أحداً لم يأت ليسأله عن اللون المفضل لديه، أو ما اذا كان يفضل لجلده لونا أسود أو أصفر أو أبيض، أو ما إذا كان يريد أن يكون امراة أو رجلاً، أو ما اذا كان يفضل أن يكون له شعر أشقر، أو عينان زرقاوان، أو قامة طويلة بمنكبين قويين عريضين، كل الذى يعرفه أنه ولد وقد تقرر له قبل أن يولد لونه وحجمه وجنسه وقبحه ووسامته بل دينه وعقيدته وجنسيته وهويته، وهو بعد كل ذلك وجد نفسه بين أبوين غنيين كانا أو فقيرين، لهما أمجاد وبطولات، أو هزائم ومخاز، سيرث عنهما مرضا اوثروة ، عارا او غارا من غارات النصر. انه لا يدى ولا يعلم ولا يملك حق الرفض أو الاحتجاج، وعليه بعد ذلك من خلال هذه المعطيات التى فرضت عليه أن يمارس دوره فى الحياة".

هذا ما كتبته منذ اربعين عاما مضت ، قبل ان اتوفر على كتابة هذه المذكرات التي اصل الى ختامها قائلا بانني عشت دائما مؤمنا بان الله لا يكلف الانسان ما لاطاقة له به، كما جاء في محكم قوله:" لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لا

تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا"

انتهت

والله ولي التوفيق

دار نون للنشر

تتشرف بنشرالمنجز الابداعي لقلم من اقلام الطليعة والتميز في الادب العربي واحد الذين تبوأوا عن جدارة واستحقاق مكانه الرفيع في خريطة الادب الحديث في العالم
الكاتب العربي الليبي الدكتور
أحمد إبراهيم الفقيه

نبذة عنه ، وشهادات حول إنتاجه

ولد الكاتب في بلدة مزدة الواقعة على ضفاف صحراء الحمادة الحمراء، جنوبي طرابلس ليبيا، في تاريخ 28-12-1942. وهو من أسرة متوسطة الحال، حيث كان والده يعمل بالتجارة، وكان جدّه الفقيه، معلماً للقرآن، وعلوم الدين في المدرسة القرآنية في البلدة.

غادر بلدته مزدة إلى مدينة طرابلس، بعد أن أكمل دراسته الابتدائية، ليبدأ مشوار الدراسة غير النظامية التي اقترنت أحياناً بالعمل حتى أفضت به هذه الجهود إلى نيل درجة الدكتوراه في الأدب العربي الحديث من جامعة أدنبره عام 1982م.

التحق بالعمل الصحفي منذ وقت مبكر، وبدأ ينشر قصصه القصيرة ومقالاته في الصحف الليبية، منذ عام 1959م، وفي عام 1965م فازت مجموعته القصصية «البحر لا ماء فيه» بالمرتبة الأولى في جوائز اللجنة العليا للآداب والفنون في ليبيا، وهي المجموعة التي حققت لصاحبها اعتراف المجتمع الأدبي، في الوطن العربي، حيت تناولها كتّاب كثيرون بالمقالات والدراسات النقدية، من بينهم د. يوسف إدريس ود. عبد القادر القط ود. نقولا زيادة، وفاروق منيب، وفاروق عبد القادر، الذين رأوا فيها إضافة جديدة لفن القصة القصيرة في العالم العربي، واعتبر الدكتور أفنان القاسم أن قصة «الجراد» التي ضمتها تلك المجموعة علامة فارقة في تاريخ القصة العربية القصيرة.

في عام 1967م نشر أحمد إبراهيم الفقيه، الفصول الأولى من روايته ((فئران بلا جحور)) في مجلة الرّواد الأدبية، وهي الرواية التي أكمل كتابة فصولها ونشرها في سلسلة روايات الهلال بعد ذلك بسنوات كثيرة، وتحديداً عام 2000م، أعقبتها رواية «حقول الرماد» الصادرة عام 1985م، وفي عام 1991م، نشر عمله الكبير المتمثل في الثلاثية الروائية التي نالت شهرة واسعة، وفازت بجائزة أفضل عمل إبداعي من معرض بيروت للكتاب، وترجمت إلى عدد من لغات العالم؛ لتضع اسم ليبيا على خريطة الأدب العالمي.

تمّ انتخابه من قبل أعضاء رابطة الأدباء والكتاب والفنانين، في اجتماع عام لمنصب أمين (وزير) الإعلام والثقافة عام 1983م، إلا أن ظروفاً شخصية وعامة حالت بينه وبين مباشرة المنصب.

أسهم أحمد إبراهيم الفقيه في تأسيس عدد من الصروح الثقافية والأدبية في بلاده، فقد عمل مديراً للمعهد الوطني للتمثيل والموسيقى، كما أسهم عام 1966م في تأسيس مجلة الرّواد الأدبية، وعمل ضمن هيئة تحريرها، وأنشأ صحيفة ((الأسبوع الثقافي)) في مطلع السبعينيات، وعمل رئيساً لتحريرها، وقدم من خلالها كتّاباً صاروا في طليعة الحركة الأدبية والشعرية مثل إبراهيم الكوني، وخليفة حسين مصطفى، وجيلاني طريبشان، ورضوان أبو شويشة، كما أسهم في إنشاء مجلة الثقافة العربية في بيروت، وعمل لفترة من الوقت رئيساً لتحريرها، واستطاع عن طريق هذه المنابر تقديم أقلام وأصوات أدبية جديدة تثري المجال الفكري والإبداعي في الوطن العربي الآن، كما سعى لإنشاء اتحاد للأدباء في ليبيا، وكان مقرر لجنته التأسيسية، وتولى منصب الأمين العالم لفترة من الوقت قبل أن يتفرغ للعمل في المجلس القومي للثقافة العربية رئيساً لشعبة الإبداع، وعضواً للهيئة المشرفة على مجلة الوحدة، كما تولى لأكثر من خمسة عشر عاماً رئاسة المؤسسة العربية الخيرية للثقافة ((ARAB CULTURUL TRUST)) التي أقامت الندوات والمعارض المعنية بتقديم الوجه الإبداعي والثقافي للأمة العربية، وإصدار المجلة التي كانت رائدة في تقديم الأدب العربي لقراء اللغة الإنجليزية، وهي مجلة الأفق ((Azure)) التي كان يرأس تحريرها كعمل تطوعي طوال سنوات صدورها في لندن، خلال فترة إقامته بهذه المدينة والتي استمرت عشرة أعوام.

اهتم بكتابة أعمدة الرأي التي كان ينشرها يومياً في صحافة الستينيات في ليبيا، ثم انتقل بهذا الباب إلى الصحافة العربية، فنشر مقالاته في مجلات الدستور، والكفاح العربي، والتضامن،

والموقف العربي، قبل أن ينتقل لنشر مقالاته اليومية بصحيفة الشرق الأوسط، ويحرر يومياً باباً بعنوان ((كل يوم)) ثم ينضم عام 1996م إلى أسرة كتّاب الأهرام، ليكتب لها أعمدة الرأي كل أسبوع.

بدأت مسيرة التكريم بالنسبة للكاتب منذ عام 1965م، عندما منحته اللجنة العليا للآداب والفنون الجائزة الأولى عن مجموعته القصصية «البحر لا ماء فيه» وفي عام 1970م، تسلّم من رئيس المجلس العسكري شهادة تقدير البلاد عن إنجازه الأدبي، وفي عام 1989م، تسلّم أعلى وسام في البلاد، كما أسمته مجلة «المجلة» عبر استفتاء أجرته مع القراء، الشخصية الأدبية لعام 1991م، كما تسلَّم من دولة الرئيس عمر كرامي في بيروت درع معرض الكتاب عن الثلاثية الروائية التي فازت بجائزة أفضل عمل إبداعي في المعرض.

صدر له عن دار الخيال خلال عام 2009م، مجموعة اعمال ادبية بدأت بالاثني عشرية الرواية "خرائط الروح" وهي الرواية الاطول في تاريخ الادب العربي، متعاونة في اصدارها مع دار نشر الفرجاني في ليبيا، ثم اصدرت له كتاب " القذافي البداية والنهاية " عقب نجاح الثورة على الطاغية ، وكتاب في هجاء الطغاة، مجموعة قصص، وكتاب عبقرية الثورة الليبية.

صدرت له في لندن مترجمة الى اللغة الانجليزية الاجزاء الثلاثة الاولى من خرائط الروح، عن دار نشر دارف اللندنية، كما صدرت قبلها بعام واحدة متوافقة مع نجاح الثورة الليبية ضد الطغيان ، رواية " فئران بلاجحور" في طبعتها الانجليزية، عن دار كوارتيت الشهيرة ، ولاقت استقبالا حافلا.

شهدت عواصم كثيرة ندوات عن إبداعه الأدبي في شمال العالم، وجنوبه، وتُرجمت أعماله للغات كثيرة، وله في اللغة الإنجليزية أربع مجلدات تجمع إنتاجه المترجم، وهي كالآتي:

5 Novels – 30 Short stories – 8 plays – The Libyan shortstory(Research and Anthology} by Ahmed Fagih

المؤلفات

1-البحر لا ماء فيه (قصص).

2-اربطوا أحزمة المقاعد (قصص).

3-اختفت النجوم فأين أنت (قصص).

4-امرأة من ضوء (قصص).

5-خمس خنافس تحاكم الشجرة (قصص).

6-مرايا فينيسيا (قصص).

7-ثلاثون قصة قصيرة (مختارات قصصية).

8-في هجاء البشر، ومديح البهائم والحشرات (قصص).

9 -حقول الرماد (رواية).

10-سأهبك مدينة أخرى (رواية) وهي الجزء الأول من الثلاثية.

11-هذه تخوم مملكتي (رواية) وهي الجزء الثاني من الثلاثية.

12-نفق تضيئه امرأة واحدة (رواية) وهي الجزء الثالث من الثلاثية.

13-فئران بلا جحور (رواية).

14-في هجاء البشر ومديح الحشرات والبهائم (قصص).

15-26 الرواية الاثنا عشرية خرائط الروح (رواية من اثني عشر جزءاً).

27-ابنة بانايوتي (رواية).

28-بشر وحشرات (قصص).

29-هكذا أتذكر هند (قصص).

30-قصص من عالم العرفان (قصص).

31 – صورة جانبية لصانع العيد (قصص).

32 – كتاب الوميض (قصص قصيرة جدا).

33- ثلاث مسرحيات ساخرة (مسرحيات).

34-المسرحيات الطويلة (مسرحيات).

35-المسرحيات الغنائية (مسرحيات).

36-المسرحيات القصيرة (مسرحيات).

37-أمام محكمة التاريخ (نصوص مسرحية تاريخية).

38-هاجس الكتابة (تأملات في الإبداع الأدبي).

39 -معارك الغد (مقالات).

40-تحديات عصر جديد (تأملات).

41 -تجيئين كالماء، وتذهبين كالريح (نصوص مفتوحة بين القصة والقصيدة).

42 -البحث عن ليلى العامرية (تأملات).

43-الصحراء، وأشجار النفط (تأملات).

44 -كلمات من ليلى سليمان (مقالات حول قضية المرأة).

45-شوق الأجنحة إلى الرحيل (رحلة طائر بئر الغنم إلى عواصم الغرب).

46-حصاد الذاكرة (من أدب السيرة).

47-العودة الدائمة إلى خانة الصفر (تأملات).

48-مع إيقاع العصر(تأملات).

49-تجربتي الأدبية (من أدب السيرة).

50- ثلاثية مرافيء الطفولة

الكتاب الاول- الانتماء لاشجار النخيل

الكتاب الثاني - طفولة في ظل السراب

الكتاب الثالث - على هامش السيرة الذاتية

51- ثلاثية طرابلس (من ادب السيرة الذاتية)

الكتاب الاول - في ظلال الملك الصوفي

الكتاب الثاني - الجنون يحكم المدينة

الكتاب الثالث - البحث عن روح المدينة

52-الدخول إلى بهو المرايا (تأملات).

53-المنعطف القادم (تأملات).

54-أمواج الليل (تأملات).

55-خواطر في الأدب والفن (مقالات).

56-شخصيات وتاريخ (أدب التراجم).

57-سفر الأسفار (أدب الرحلات).

58-الإنسان أولاً (تأملات في الوضع الإنساني).

59-أفق التواصل بين الشرق والغرب (تأملات في العلاقة بين العرب والغرب).

60-المرافئ البعيدة للسلام (تأملات في قضايا سياسية).

61-سياحات في الصين وأفريقيا (من أدب الرحلات).

62 – ما أكثر هذه النوافذ، ما أضعف هذا النور (تأملات).

63-عبير تلك الأيام (من كتب التاريخ الأدبي).

64 – وجع الرحيل (كتاب المراثي).

65-من مفكرتي الشخصية (من أدب السيرة الذاتية).

66-نحو خطاب ثقافي جديد (تأملات في الواقع الثقافي).

67-صقر يطارد سحابة سوداء (تأملات وشذرات).

68-جولة في حدائق أبوللو (تأملات في الشأن الليبي).

69-سعيداً تجري أيها النيل (تأملات في الشأن المصري).

70-نبي بلا أتباع، تصحبه الأمواج (تأملات).

71-بدايات القصة الليبية (بحث في تاريخ الأدب القصصي في ليبيا).

72-أبناء الماء، وأبناء النار (أبحاث عن العلاقة بين العرب والغرب).

73-القذافي: البداية والنهاية (كتاب يؤرخ لمرحلة القذافي في ليبيا).

74-في هجاء الطغاة (قصص).

75-حياة من حبر وورق (مقالات أدبية).

76-عبقرية الثورة الليبية ضد الطاغية (كتاب يؤرخ للثورة الليبية، ودوافعها، وأسبابها).

77-ميراث الفضيحة (قصص).

78-هل تحبين برمودا؟ (قصص).

79-رجل المساحة البيضاء (قصص).

80-الطريق إلى قنطرارة (رواية).

81-الحالة الكلبية لفيلسوف الحزب (هجائية في أنظمة الحزب الواحد) (رواية).

كتب عن المؤلف:

1-تقنيات السرد الروائي في ثلاثية أحمد إبراهيم الفقيه، للباحث الليبي نصر محمد سعد.

2-القصة في أدب الفقيه، محمد سالم القزدار.

3-نار الشرق العاشقة، د. على الراعي، وآخرون.

4-سلطة الخيال التعزيمية، د. صبري حافظ، وآخرون.

5-نافخ الرماد، عمر أحمد جبريل.

6-خرائط الروح ترسم خريطة جديدة للسرد العربي، وقائع ندوة عالمية.

7-حزمة أحلام، أمينة البارودي.

8-الاغتراب والحلم في أدب أحمد إبراهيم الفقيه، للباحث شعبان عبد الحكم.

9-الثلاثية والمأثور الشعبي، عبد الحكيم أبو عامر.

10-أحمد إبراهيم الفقيه، ودوره الرِّيادي في أدب القصة، د. رأفت حسن رستم.

11-الأبعاد الدلالية للمكان الروائي في ثلاثية الفقيه، للباحث بحر غيث أحمد علي.

12-تقنية السرد في رواية خرائط الروح، مصباح الشريف مصباح طبيقة.

13-الثلاثية الروائية لأحمد إبراهيم الفقيه في منهج التحليل الفاعلي، إبراهيم الصديق أحرير.

14-بناء الشخصية الروائية في ثلاثية الفقيه، أحمد غيث أحمد.

15-الشخصية القصصية في الأعمال السّردية، لأحمد إبراهيم الفقيه، رقية عبد الرحمن عكاشة.

16-((المتعالية القرآنية في ...رواية خرائط الروح للدكتور الأديب أحمد إبراهيم الفقيه/ دراسة في التناص)) للباحثة ابتسام إسماعيل الوافي.

17-الزمن في ثلاثية الفقيه، د. فاطمة الحاجي.

18- بحث باللغة الانجليزية عن الثلاثية ضمن بحوث اخرى للمؤلف د. على عبد اللطيف احميدة في كتابه اصوات مهمشة.

شهادات في أدب الفقيه:

يحتل الأديب الليبي الكبير د. أحمد إبراهيم الفقيه مكانة مرموقة على الساحة الأدبية العربية، منذ أن أصدر كتابه الأول «البحر لا ماء فيه» عام 1965م، وفاز عنه بالجائزة الأولى عن اللجنة العليا للآداب

والفنون، ويعدُّ الفقيه في مجموعته الأخيرة «مرايا فينيسيا» مروراً بثلاثيته الشهيرة، أحد المبدعين المعاصرين الذين قدموا إضافة حقيقية للرواية، والقصة القصيرة، بشهادة كبار النقاد والباحثين العرب، الذين واكبوا رحلته الإبداعية على مدى العقود الثلاثة الماضية، حيث كانت حصيلة هذه الرحلة ما يقرب من ثلاثين كتاباً، بين قصة ومسرحية ورواية ومقالة فنية، وبحوث أدبية وفكرية، وقد وجد الكثير من هذه الكتب طريقه إلى الترجمة إلى لغات أجنبية عدة، إلى حدّ يصدق معه القول إن الفقيه أسهم في وضع اسم بلاده على خريطة الأدب العالمي.

مجلة الشروق الإماراتية. **31-7-2000**م.

«تعرفت عليه عن كثب في بيروت، حين زارها ليستلم جائزته أثناء معرض الكتاب العربي الدولي، الذي يقيمه النادي الثقافي العربي بشكل دوري، منذ أكثر من أربعين عاماً، تحاورتُ معه حول الأدب الروائي في ليبيا والمغرب العربي، لم يذهلني حديثه عن الفن الروائي، بقدر ما أذهلتني ثقافته الموسوعية، وحداثة عبارته، تلك الحداثة التي تعطي كتابته الروائية بعداً مختلفاً عن كلاسيكية الرواية العربية الحديثة؛ أهداني ثلاثيته، وغرقتُ في دروبها وأشخاصها وحكاياتها، وتنقلتُ مع بطلها خليل الإمام؛ لاكتشف أنهما واحد، في تفاصيل كثيرة، البطل والكاتب، صوت ليبيا المثقف والأصيل».

مريم شقير أبو جودة.

مجلة المرأة اليوم-بيروت.

«رحلة طويلة وصعبة، يقطعها الفقيه وهو يرسم تراجيديا الزمن العربي، ويصوغ تجليات الأزمة فى مسلماتها الأولى، ويعيد تفكيك الوقائع والأحداث، ويدعونا للنظر فيها من جديد، للنظر فى ذاتنا، وفى أسباب أزمتنا عبر صياغة المشهد الثقافي العربي في علاقته بذاته، وعلاقته بالآخرين».

إدريس المسماري.

مجلة القاهرة.

«حقاً كتب الفقيه من خلال أجناس أدبية مختلفة، متنوعة، ولكن بصمته الخاصة ظلت واضحة في كل ما كتب، إن روحه الشاعرية تطل علينا خلال الأسطر، حتى ولو كانت كتابته من نوع النثر، ولغته سلسة، ويستطيع أن يعقد صلة مع القاريء وكأنه يجلس معه، ويحاوره في أُلفة وحميمية، لقد تحول الفقيه إلى رمز من رموز الثقافة العربية، واستطاع أن يتخطى حدود المحلية، وأن يصبح ذا حضور قوي ومميز في المحافل الوطنية والعربية، والدولية، إنه لم يقف عند حدود قريته الصغيرة، بل تشبع بالثقافة العربية السائدة في المنطقة، واستطاع أن ينضم إلى كوكبة المثقفين العرب الذين تمردوا على الحدود الجغرافية، التي اصطنعها الاستعمار وأن يثبت أنّ الثقافة تقوم على الوحدة الوجدانية بين المثقفين العرب».

د.عبد الحميد إبراهيم.

الأستاذ بجامعة لندن سابقاً، وعميد كلية الآداب بجامعة المنيا.

في افتتاحية العدد الخاص عن أدب الفقيه، من مجلة الوسطية التي يرأس تحريرها.

«حين يهتدي أحمد إبراهيم الفقيه إلى تجربة مركّزة تصلح لكي يبلور بها حدود الواقع إلى المثال الرمز، تتحول القصة عنده إلى قصيدة من الشعر القصصي، متوترة العبارات، شفافة الألفاظ، موحية الصور، يكسر فيها المعنى الواحد على عشرات من المعاني الجزئية المتكاملة، التي تحيل المألوف إلى شيء جديد، وتجعل من المعاد المستهلك شيئًا أصيلاً ومبتكرا».

د.عبد القادر القط.

الحقيقة – بنغازي.**1969/5/17**

«وإذا كان كاتبنا قد اتجه إلى الأسلوب الشعري الذي يعطيه القدرة على التحليق والخيال والشمول، فإنه قد اتجه أيضاً إلى الرمز.. إن الرمز الذي يستخدمه أحمد الفقيه ليس رمزاً مجرداً، أو مطلقاً، وإنما هو مستقى أساساً من أرض الواقع، وهو الذي يعطى التجارب امتدادها الوجداني والفكري في نفوسنا».

فاروق منيب.

صحيفة الجمهورية -القاهرة -٢٧ أكتوبر،**1966**م**.**

«والذين لم يعيشوا فترة التحدي الإبداعي في أوائل الستينات، وخلالها، يلاحظون أن النقد كان قاسياً، والاعتراف بالآخر لم يكن سهلاً، ومع هذا حظى أحمد الفقيه باحترام نقاد، لهم مكانتهم خلال تلك الفترة من أمثال الدكتور عبد القادر القط، وفاروق عبد القادر، وفاروق منيب الذي كان رائداً لفن القصة الحديثة (.....)

ولا شك أن كل هذا الإنتاج يدل على مقدرة إبداعية جيدة، ولقد قرأت فى موقع على الإنترنت مقالاً كتبته الجارديان البريطانية تصف أعماله بأن به (روحاً عبقرية) ونحن لا نشك في ذلك».

د. فتحي سلامة.

مجلة عمان.

«إنه من أكثر كتاب القصة الليبية تطوراً، ومن أقدرهم على تجاوز إنجازاته باستمرار، والإسهام بهذا التجاوز الدائم في إثراء القصة العربية، والإضافة إلى مغامراتها الحديثة، وخاصة في أعماله الأخيرة التي يقتحم فيها آفاقًا فنية، ومضمونية جديدة، ويضرب بها في أرض بكر تقع على تخوم الواقع والحلم، وتنحت قسماتها من أديم الخيال، وتؤهله لأن يكون نسيجاً وحده في عالم القصة العربية».

د. صبري حافظ.

العرب-لندن، ١٨/**1987/11**م**.**

«ولعل مردَّ ذلك أن هذه الصفحات كتبت بصدق وأمانة.. صفحات نابعة من وجدان صادق، وعواطف متأججة.. مفعمة بمشاعر إنسانية، مضخمة بعبارات الحب.. صفحات إن لم تكن من الشعر في الصميم، فهي تحمل أرقَّ صفاته، وأعذب أخيلته، وأوقع مشاعره».

د. زكى الصراف

مجلة «المجلة» السعودية.

«لعل الشكل عند أحمد إبراهيم الفقيه أميل إلى الشعر.. فيه خصائص الشعر وإيقاعه وموسيقاه، وأنت تعثر فى كثير من أعماله على نصوص يمكن اقتطاعها وتحويلها إلى قصائد، فيها شروط القصيدة، وأوزانها وتفعيلاتها، وموسيقاها».

كامل عراب

مجلة الفصول الأربعة.

«من القصّاصين العرب القلائل الأكثر إمتاعاً، والأكثر تطويعاً لرهافة فن القصة بلاغياً، وإبلاغياً في التعبير عن الذات القومية في إنسانيتها الرحيبة».

د.عبد الله أبو هيف

الأسبوع الأدبي – سوريا.

«وأعتقد أن الفقيه كتب هذه القصص وهو فى قمة تجليات الكتابة، فأنتج عملاً

يرقى إلى العالمية بلغته، وتقنياته، وأمكنته، وعوالمه».

عبد الرسول العريبي.

من حديثه في الندوة التي خصصتها صحيفة الشمس لأدب الفقيه بإدارة الشاعرة الراحلة جنينة السوكني.

«أحمد إبراهيم الفقيه شاعر كبير يكتب القصة والرواية، وقاص وروائي فذّ، يستدعى الشعر ويستلهمه، ليسيطر على إبداعه، وعلى قارئه».

محمد أحمد الزوي.

من حديثه في الندوة التي خصصتها صحيفة الشمس لأدب الفقيه.

«كاتب كبير، وعلى مستوى عالمي، وأعتبره فنانًا في كلماته، ومواقفه، ورؤيته للحياة، وهي رسالة كل فنان فى العالم، فهو يحلم بعالم أفضل، يحقق السعادة للبشرية، ويضيف للحياة شيئاً جديداً... حتى لا تتحول الحياة إلى مجرد شيء روتيني ورتيب، وكل ما كتبه الكاتب حلم لا ينتهي من أجل عالم تسود فيه العدالة والحب».

خليفة حسين مصطفى.

من حديثه في الندوة التي خصصتها صحيفة الشمس لأدب الفقيه.

«أحمد إبراهيم الفقيه هو أبو الرواية الليبية المكتملة فنياً، في روايته حقول الرماد التي كانت فاتحة لمؤلفها ليكتب بعد ذلك ثلاثيته الرائعة، التي استطاعت أن تخترق الحجب».

د. علي فهمي خشيم.

من محاضرته في المجمع الثقافي في أبو ظبي.

نقلتها صحيفة القدس العربي.

«إبداع قادر – بقوة البداهة – أن يثير الدهشة، والفرحة بهذا العالم الزاهي النبيل؛ فهو خلق مكتمل(......)

خالص الانتساب لسلالته الحكائية، التى منحته قوة البداهة، وعبقرية البساطة، وفتحت له طريق المماثلة مع أحداث تشكيلات فن الرواية، مع استقراره على أصول من تراثه العربي».

د. محمد حسن عبد الله.

من محاضرة عن أدب الفقيه، ألقاها في نادي القصة في القاهرة.ونشرها بمجلة الثقافة الجديدة.

«عالم أحمد إبراهيم الفقيه الروائي، هو عالم يحكمه الصراع الدائم للإنسان بين القديم والحديث، بين الإنسان وذاته، بين الرجل والمرأة، وبين الأبيض والأسود، عالم متمرد دائماً، يحمل أزماته على كاهله، لكنه فى نفس الوقت عالم متطور، يعيش المدينة والقرية كما يعيش الصحراء».

شوقي بدر يوسف.

مجلة عمان.

«فنان يرسم باللغة مجموعة كبيرة من الصور السردية، يربط من خلالها السابق من الحوادث، باللاحق منها، ويحلل المشاعر، ويصور المناظر، ويرسم الملامح».

سمر روحي الفيصل.

مجلة الوحدة.

«تشكل أعمال الكاتب الليبي د. أحمد إبراهيم الفقيه ثورة ضد الرتابة بكل أشكالها».

د. حسن عطية.

في المقدمة التي كتبها بتكليف من هيئة قصور الثقافة للمجلد الذي احتوى الأعمال المسرحية للفقيه، وصدر بعنوان (الغزالات ومسرحيات أخرى).

«...ولديه من الشفافية والانطلاق، والانسيابية، ما يضعه في مصاف كبار الكتّاب العرب، ليس هذا فحسب، فهو صاحب تكنيك متفرد في الكتابة، تكنيك وصل إلى مرحلة النضج والوعي، يؤهله لأن يخاطب جماهيره في غاية الهدوء، وفي غاية الشاعرية، وأيضا في غاية العمق».

محسن الخياط.

الأسبوع الثقافي.

«قبل الكتابة إليك، فكرت ملياً، وبعمق، عن جدوى الكتابة إليك، وأنت الرمز، والهرم، والنهر، والمحيط، والحقل، المكتفي بنفسه، الذي لا يحتاج لكلمات التشجيع، ولا لكلمات المديح، ولا لعبارات التبجيل، وإن كان غيرك يحتاج لمثل هذه الكلمة منك، أو لفتة، أو حتى همسة تشجيع تقال في وقتها، وتساءلت: هذا العملاق الأدبي من يكون...؟ أليس هو شخصية من شخصيات وطني الفكرية...؟ الذي رتّب لنفسه مقعداً دائماً في الامتداد العالمي بمفرده، دون معونة من أحد...؟ وبنى بيته الأدبي بعرق جبينه كما يقولون».

عمر أحمد جبريل.

من كتابه (نافخ الرماد) الذي يحاور فيه الفقيه، وأعماله الإبداعية.

«لقد استطاع المبدع أن يدوِّن سيرة، ويكتب ملحمة صحراوية لا تقل سحراً وجمالاً، لا وعذوبة عن سيرة عنترة، أو تغريبة بني هلال، وإن كانت تخلو من البطولة الفردية؛ لأن بطولتها جماعية، فليس هنالك شخصية مركزية واحدة، إذ ربما يمثل الجوع الذى أخرج الناس من ديارهم بطلاً مركزياً، وربما تمثِّل الصحراء هذا البطل».

جريدة تشرين السورية -**27/** يونيو **2000**م.

«إزاء هذه الرواية التي سيتعرف عليها قراء الإنجليزية قريباً، نعتقد أن الدكتور أحمد إبراهيم الفقيه يستحق أن يكون شخصية العام الروائية بلا منازع».

مجلة المجلة.

بمناسبة الإعلان عن نتائج الاستفتاء الذي أجرته بين القرّاء في الوطن العربي، وأسفر عن فوز الفقيه بشخصية العام الأدبية سنة 1991م عام صدور الثلاثية الروائية للكاتب.

«وتقديراً لعبقريته في مجال الإبداع الأدبي، تقرر منحه هذه الجائزة لحقوق الإنسان؛ لينضم لقائمة القيادات الفكرية، والأدبية التي فازت بها هذا العام».

د. مفتاح الأسطى عمر.

أمين عام الجائزة أثناء حفل التوسيم.

«بمناسبة الاحتفال بعيد العلم الأول في هذا العام 1970م، العام الدولي للتربية، تقرر منح الأخ أحمد إبراهيم الفقيه هذه الشهادة تقديراً لإنتاجه في مجال القصة القصيرة».

وقد سلّمه الشهادة رئيس المجلس العسكري الحاكم في تاريخ 2 سبتمبر1970م.

«وبعد احتجاب استمر خمسة عشر عاماً، تعود جائزة الإبداع التي يقدمها معرض الكتاب العربي ببيروت لأفضل عمل إبداعي تقدمت به دور النشر المشاركة في المعرض، وقد عكفت لجان كثيرة على فحصه، لينتهي الأمر إلى لجنة عليا تقرر الفائز، وكان العمل الفائز بهذه الجائزة لهذه الدورة هو الثلاثية الروائية الصادرة عن دار رياض الريس، تأليف الكاتب العربي الليبي الدكتور أحمد إبراهيم الفقيه».

مدير المعرض الأستاذ محمد قباني.

أثناء حفل توزيع الجائزة التي استلمها الكاتب من دولة الرئيس عمر كرامي، رئيس وزراء لبنان، عام صدور الرواية.

«للغة الفقيه الشعرية الساحرة، مقدرة عالية في تصوير هواجس النفس، وانفعالاتها، واستبطان أعماقها، مما يساعد على كشف الجانب الوجداني للشخصية، وعلاقة هذه المشاعر الدفينة بالحدث توتراً، وهدوءاً، وسرعة، وبطئاً».

د. شعبان عبد الحكم محمد.

من كتابه **(**الاغتراب والحلم في أدب أحمد إبراهيم الفقيه**).**

«يا سيِّد الأزمنة الجميلة، أيها البدوي المتسربل بالعباءة العربية، يا من لم تغيرك العواصم، والمدن الغربية، أيها الشاعر الحالم، يا من عفرتك مزدة برمالها، وأقمارها، الدكتور أحمد إبراهيم الفقيه: لك التحية والسلام».

أمينة البارودي.

الإهداء الذي أوردته في كتابها (حزمة أحلام -قراءة في بعض أدب أحمد إبراهيم الفقيه، الصادر في سوريا).

«هناك شيء من العبقرية في كتاباته».

الجارديان البريطانية.

تعليقاً على مجموعة الكتب الصادرة للكاتب باللغة الإنجليزية.

«إلى عبقرية قصصية، وإنسانية، لا أعترف بغيرها في عالمنا العربي»

د. يوسف إدريس.

في إهداء للكاتب أعادت نشره بخط يده صحيفة أخبار الأدب.

«لم ينل أحمد الفقيه تشجيع يوسف إدريس من أجل المجاملة، بل لاعتقاد يوسف إدريس أن الفقيه موهوب، ويمدح من مناطق الإبداع العميقة داخل النفس البشرية، ولا يخضع لقوالب مسبقة، وضعها النقاد، أو حدود إبداعية وقف عندها المبدعون، إنما القصة عند الفقيه مثلما هى عند إدريس رحلة اكتشاف».

الدكتور رأفت حسن رستم.

من كتابه (أحمد الفقيه، ودوره الرّيادي في القصة الليبية).

جزء من أطروحته للدكتوراه في جامعة المنيا.

«إنكم تقودون بلداً زاخراً بمعالم الحضارة، ورموزها، ويكفي أن نذكر من بين هذه المعالم الحضارية الحديثة   الأديب والروائي الليبي الدكتور أحمد إبراهيم الفقيه، الذي أرى فيه صنواً لكبار الكتّاب في العالم، وأحد عمالقة أدباء الرواية في العصر الحديث، من أمثال: جارسيا ماركيز، ملتمساً منكم أن تعمل ليبيا على نشر وترجمة رواياته، وإنتاجه الأدبي؛ لأنه أعظم تعبير عن روح الشعب الليبي، وأرقى رسالة يتلقاها العالم من ليبيا، عن عمق انتمائها للحضارة الحديثة».

الدكتور رفعت السعيد.

رئيس حزب التجمع، ورئيس لجنة الشئون الخارجية بمجلس الشورى المصري، عند ترحيبه بالوفد الرئاسي الليبي**.**

«كان الكاتب الراحل الدكتور يوسف إدريس يعتبرني، ويعتبر أحمد إبراهيم الفقيه أفضل كاتبين بالنسبة له من كتّاب القصة في العالم العربي، وكان يقول إنه يريد مني، ومن أحمد الفقيه أن نكمل ما لم يستطع إكماله في مجال الإنجاز القصصي، والروائي، هذه كانت وصية يوسف إدريس، وحيث إنني شخصياً صرت أميل إلى أسلوب المتقاعدين في الحياة، فإنني أقول لصديقي أحمد إبراهيم الفقيه إنني سأضم صوتي لصوت يوسف إدريس، وأقول إن المهمة موكولة له وحده، لتحقيق مزيد من التطوير، والتحديث، والتجويد على طريق الإنجاز القصصي، والروائي، وهذا الاحتفال بإصدار خمسة كتب من إبداعه إلى قرّاء اللغة الإنجليزية يؤكد أنه يسير على الطريق الصحيح».

الطيب صالح.

أثناء الاحتفال الذي أقامه النادي العربي للكاتب، بمدينة لندن، بمناسبة صدور خمسة كتب مترجمة للغة الإنجليزية من أعمال الفقيه.

«أود أن أعبر عن إعجابي الشديد بكل ما يكتبه أحمد إبراهيم، حيث بدأت علاقتي بإبداعه منذ أن شاهدت مسرحيته (الغزالات) تعرض في لندن، وفتنتني تلك المسرحية، وصرت أبحث عن أدبه، وأستمتع بقراءته، واضعه في لائحة أفضل المبدعين باللغة العربية في وقتنا الحاضر؛ فإذا كان هؤلاء المبدعون الكبار عشرة، فهو واحد منهم، وإذا كانوا ثلاثة فقط، فهو واحد منهم».

د. صلاح نيازي.

الشاعر، ورئيس تحرير الاغتراب الأدبي، أثناء الاحتفال الذي أقامه النادي العربي للكاتب بمدينة لندن.

«تعرفنا من خلال الثلاثية الروائية لأحمد إبراهيم الفقيه، كيف أنه أحد أصحاب الإنجازات الكبيرة على طريق السرد الروائي الحديث، في العالم العربي».

الشاعر أدونيس.

خلال تقديمه للكاتب، لإلقاء محاضرته عن المعتمد بن عباد في مراكش.

«اكتشفت من أسلوبك أنك كاتب غني بروح الشعر، وروح الشعر هي أعظم هبة يمنحها الله لمن يحب».

مساهمة الشاعر صلاح عبد الصبور.

في تقديم الكتاب الأول لأحمد إبراهيم الفقيه عام1965م.

«وتؤكد مسرحية الفقيه (لعبة الرجل والمرأة) أن الإبداع المسرحي في تجربة الفقيه، لا يقل عمقاً، وتألقاً، وجودةً عن إبداعه في المجالات الأخرى، فهو يكتب في كل مجال من هذه المجالات، وكأنه يكتب فيه على سبيل التخصص».

أحمد عباس صالح.

أثناء المحاضرة عن الإبداع المسرحي في تجربة الفقيه، التي ساهم بها في الندوة التي أقامها المجلس الأعلى للثقافة في القاهرة، عن أدب أحمد إبراهيم الفقيه، واستمرت لمدة يومين.

«لغة بلورية مقطرة، ونادرة بين الروائيين العرب، الذين يقع أكثرهم في النثرية، أو الإنشائية، وهي على شعريتها لغة روائية».

جورج طرابيشي.

من شهادته المثبتة في الغلاف الأخير للثلاثية الصادرة عام 1991م.

«هذا البطل رمز قوي للوعي الشقي عند الإنسان العربي المتمزّق بين هذه العوالم المتعددة، إلى درجة أنه عجز خلال قرنين من الزمان عن الانتقال من حالة السكون، إلى حالة الحركة».

د. محي الدين صبحي.

من شهادته المثبتة في الغلاف الأخير للثلاثية الصادرة عام 1991م.

«في رصيده سبع عشرة رواية، وعشر مسرحيات، وخمس وعشرون قصّة للأطفال والفتيان، وأكثر من مائة قصّة قصيرة، وآلاف المقالات الموزّعة بين ثلاثين كتاباً، ومئات البرامج المسموعة، والمرئية، ومشاركة في مئات المؤتمرات العربية والدولية، وأعداد لا تحصى من جوازات السفر التي تحمل تأشيرات دخول إلى أغلب عواصم العالم، فهو كاتب مولع بالسفر.

استهلّ رحلته السندبادية بالعمل مستشاراً إعلامياً في لندن، ومسؤولاً عن بناء قاعدة إعلامية وثقافية. وتولّى رئاسة «المجلس الثقافي العربي» في بريطانيا، ورئاسة تحرير مجلّة «أزيور» الثقافية الصادرة من بريطانيا بالإنكليزية، وتعنى بنشر الأدب العربي، و«الفجر العربي» السياسية و«فلسطين الحرّة»، وهي مطبوعات أصدرها باللغة الإنكليزية؛ كما أشرف على مجلّة تصدر بالعربية هي «الملتقى»، وأسهم في الإشراف على مجلّة يصدرها مكتب الجامعة العربية باللغة الإنكليزية، هي شؤون عربية. وعرض على مسارح لندن عدداً من المسرحيات هي «الغزالات» و«زائر المساء»، وأخيراً «غناء النجوم»، كما صدرت له خمس روايات مترجمة إلى الإنكليزية عن بعض كبريات دور النشر في لندن، ونيويورك، وخمس مجموعات قصصيّة، ومجموعة مسرحيات، وصارت لندن مقرّاً ثانياً له بعد طرابلس».

الشاعر نوري جراح.

مجلة الشاهد اللندنية.

«يمضي الفقيه بشفافية لغته؛ ليزرع في أرض الرواية العربية شجرة بآلاف الثمار».

محمد سيف الرّحبي

احتمالات **(**مقالات ونصوص**)**.مسقط -يناير **2000**م.

«فاغتراب أحمد إبراهيم الفقيه، وأحلامه لا تفترق عن اغتراب المتنبي، وأحلامه التي كلما انكسرت على شوكة الواقع، اجتهد فى أن يلملمها، ويقيم بناءها من جديد».

د.صفوت عبد الله الخطيب.
رئيس قسم اللغة العربية،

ووكيل كلية الآداب – جامعة المنيا.

في مقدمته لكتاب (الاغتراب والحلم) في أدب أحمد إبراهيم الفقيه القصصي.

«من رحم القصة القصيرة خرج د. أحمد إبراهيم الفقيه، ليبدع عملاً روائيًا كبيرًا، وفذًاً. يقدم به إضافة جديدة لإنجازات الرواية العربية الحديثة، فهذه الثلاثية الروائية هي كتاب الحياة، وجماع الحكمة المقطرة، وهي عصارة فكره، وفنه، وثقافته، وخبراته الواقعية، والحسية، والنظرية».

أحمد محمد عطية.

مجلة الموقف العربي – قبرص.

"يخيّل لي أن الفقيه في حالة اشتباك مستمرة مع المشهد الثقافالعربى، بدءاً من عموده اليومي الذي كان يكتبه تحت عنوان «نواقيس» في جريدة بطرابلس، عام ١٩٦٦م، وانتهاء بعموده اليومي الذي كان يحرره في جريدة «الشرق الأوسط» حتى عهد قريب(....) وأما «حدائق الليل» لأحمد إبراهيم الفقيه، فهي قمة من قمم اللعب الفني بألف ليلة وليلة.

د. خلدون الشمعة.

مجلة الثقافة السعودية.

«يجعل عمله محراكاً لعدد من الأنشطة العقلية، والانفعالية، تفضي إلى ما يمكن أن نسميه لذة النص، أو لذة التلقي، وهي لذة تأتي من خلال التنقل بين مستويات مختلفة من مكونات النص».

زيد الشهيد -العرب – لندن.

«وتطور أحمد إبراهيم الفقيه المستمر، جعله يخطو خطوات واسعة حتى دخل بإنتاجه القارة الأوروبية، وجعل للجماهيرية صوتًا مسموعًا، في مجال القصة، والرواية، والأدب بصورة عامة؛ وهذه مناسبة طيبة لتحيته، وأن أشد على يديه، متمنياً له دوام النجاح، والإنتاج، والتميز في دنيا الإبداع، والخلق، والإنشاء».

محمد العيساوي الشتوي.

الكاتب والوزير السابق للتعليم، في ندوة الشمس.

«ينهل أحمد الفقيه من الذاكرة الإنثروبولوجية، وأبنيتها العميقة صوراً ونماذج تكاد تلتصق بجدار ذاكرتنا العربية».

عزازي علي عزازي.

العربي.

«فالقصة لديه ليست أحداثاً مكثفة، وحشداً من المشاهد المتلاحقة وكفى، إنما هي تواصل لأنفاس القصة بجدارة الفكرة، ولهث وراء جوهر الموضوع حتى ينهي مديحه المشاكس للشخوص بضديهما، وإلى استسلام الجياد المتلهفة عند طرف المسافة الملغومة بالدهشة مرة، والحيرة / السؤال مرة أخرى».

عبد الله الماي-الفصول الأربعة.

«إنه يقتحم تضاريس جغرافية الجوع، والموت من أعرض أبوابه، ويدرج خلال ذلك الصراع الإنسانى ضمن إطار أشمل، هو الصراع الكوني لكائنات الطبيعية، وقواها الطبيعية، والحيوانية، والنباتية».

فاضل تامر.

في كلمة التقديم لرواية **(**فئران بلا جحور**)**

الصادرة عن روايات الهلال.

«لقد أمتعنا الروائي الكبير بعمل آخر جميل، يضاف إلى أعماله السابقة عامة، أثرى بها الأدب الروائي الليبي،

والأدب العربي».

د. أحمد الخميسي-أخبار الأدب.

« هي أول رواية متكاملة تبرز فيها عبقرية الفقيه، على تحليل نفسيات الشخصيات، وما ينتابها من تغيير».

د. الهادي أحنيش.

في معرض دراسته عن حقول الرماد، صحيفة المغرب العربي.

«مسرحية صورة الكاتب الذي لم يكتب شيئا كانت أفضل عمل تمثيلي تم تقديمه في مهرجان هذا العام، مقارنة بكل العروض التمثيلية الأخرى، التي لا تعتمد في تسويغ نفسها على الرقص، والموسيقى».

الصحفي الروماني سكوت أستونكا.

تعليقاً على المسرحية التي قام الكاتب بتأليفها، وتمثيلها، وشارك بها في المهرجان الدولي للمسرح برومانيا.

كما جاء في النص المترجم المنشور بصحيفة إيلاف:

The Ambassador obtaining the artistic

Acknowledgement through lengthy applause at the end ،

Although the part played by him was not easy at all. The script

Written by El Fagih is inspired from his own life

Alexandra Elias

«حقق السفير اعترافاً فنياً من الجمهور، من خلال التصفيق الذي استمر لمدة طويلة، في ختام العرض المسرحي الذي قدّمه، مع العلم بأن الدور الذي قام بتمثيله لم يكن دوراً سهلاً إطلاقاً، وهو النص المسرحي الذي استوحاه الفقيه من حياته الشخصية.

صحيفة أخبار التاسعة اليومية التي تصدر باللغة الإنجليزية في بوخارست.

تعليقاً على الحفاوة التي لقاها الفقيه من الجمهور، أثناء تمثيله للمسرحية التي قام بتقديمها، عندما كان رئيساً للبعثة الدبلوماسية لبلاده في رومانيا.

Ahmad Ibrahim al-Faqih، a novelist I had asked to see، was in town. His autobiographical trilogy (I Shall Present You with another City، These Are the Borders of My Kingdom and A Tunnel Lit by a Woman) has won him renown throughout the Arab world. Like numerous Arab writers inspired by the nationalist wave of the 1960s، he became disaffected after the Arab defeat in the Six-Day War. Many Arab intellectuals، writers and poets are alienated from both their own societies and the West. Few have embraced religion. Al-Faqih's first novel opens: 'A time has passed and another time is not coming.' The final sentence of the trilogy is: 'A time has passed and another time has not come and will not come.' He told me that he is close to finishing a ten-novel work. 'I've just been appointed ambassador to Romania. As you can imagine there is not much to do there، so I will have plenty of time to finish it.'

Tariq Ali

The new left review- London

«أحمد إبراهيم الفقيه هو الروائي الذي سألت أن أراه أثناء زيارتي إلى ليبيا، وكان موجوداً في طرابلس، في تلك الفترة، ثلاثيته ذات الصلة بالسيرة الذاتية (سأهبك مدينة أخرى، هذه تخوم مملكتي، نفق تضيئه امرأة واحدة) أكسبته شهرة على امتداد العالم العربي، وهو على غرار كتّاب عرب لا حصر لهم، تأثروا بالموجة القومية في الستينيات، أصابته مثلهم حالة انتكاس بعد هزيمة حرب الأيام الستة في عام 1967م.

كثير من المثقفين العرب، والكتّاب، والشعراء عاشوا حالة اغتراب مع مجتمعاتهم، ومع الغرب أيضاً، وقلة منهم احتضنوا الدين.

يفتتح الفقيه روايته الأولى في الثلاثية قائلاً «زمن مضى وزمن آخر لا يأتي» وآخر سطر ينهي به الثلاثية هو «زمن مضى وزمن آخر لا يأتي ولن يأتي» وأخبرني أنه في سبيله لأن ينتهي من رواية متعددة الأجزاء، تتكون من عشر روايات، وحيث إنه قد تمّ تعيينه سفيراً لبلاده في رومانيا، فإنه يقول لي بأنه لن يكون أمامه عمل كثير في مثل هذا المنصب، كما يمكن أن أتصور، ولهذا فسأملك كثيراً من الوقت لإنهاء روايتي، حسبما قال».

طارق علي.

مجلة اليسار الجديد-لندن.

«احتفى المثقفون العرب في بريطانيا بالأديب الليبي أحمد إبراهيم الفقيه، بمناسبة صدور بعض أعماله القصصية، والأدبية إلى اللغة الإنجليزية، وقد تجمع في قاعة الكوفة بلندن عشرات المثقفين، والأدباء، والشعراء العرب، والبريطانيين في احتفالية ثقافية، بأعمال الفقيه، ومسيرته الأدبية، وإنجازاته في مجالات القصة القصيرة، والرواية، والمسرح، والنقد، وركزت الكاتبة البريطانية سوزانا طربوش على قراءة مجمل أعمال الفقيه، وتقديم قراءة نقدية لها فى هذه الاحتفالية، التى احتضنتها قاعة الكوفة، ودعا إليها النادي العربي، ولسوزانا قدرة كبيرة على متابعة أعمال الكاتب، والغوص فرموزها، والدلالات المرتبطة بها حول مظاهر البيئة، والاتصال مع الغرب، والعودة إلى رموز الواقع الثقافي العربي، في مختلف أوجه الحياة».

مجلة الثقافة السعودية.

«أولى مفردات فن أحمد الفقيه، خفّة اليد القصصية، والقدرة على استدراج القارئ، وسحبه إلى حيث يريد له الكاتب أن يكون، وخفة اليد هذه كان الرومان يعرفونها بالمقولة المشهورة: «الفن هو إخفاء الفن».

أ.د. علي الراعي.

في مقالة بالأهرام، تحت عنوان أحمد إبراهيم الفقيه، ومنحى جديد في فن القصة.

«في الجزء الأول-وهو الجزء الوحيد الذي تمّ إصداره حتى الآن-ترجمت الموسوعة لثمانية عشر علماً من أعلام ليبيا، منهم من لا يزال يواصل عطاءه في ميادين الأدب والفن -أطال الله أعمارهم- وهم ستة (أحمد إبراهيم الفقيه، خليفة التليسي، علي صدقي عبد القادر، علي فهمي خشيم، علي مصطفى المصرائي، محمد الزواوى) ومنهم من قضى نحبه بعد حياة زاخرة بالبذل والعطاء، في ميدان الكلمة، والنضال».

د. عبد الله مليطان.

في مجلة الدعوة الإسلامية، ترحيباً بصدور موسوعة أعلام العرب.

«كاتب ليبي، وعربي يفرض حضور صوته، ويكسب بفنه أدب القص العربي، شاعراً مكانياً متناغماً مع

تنوعات الجغرافيا، وتقلبات زمن الحدث».

شريف الربيعي، الناقد-لندن.

«كاتب مقتدر مسيطر على أدواته، خبير بفنّه، وبموضوعه الذي يعالجه هنا. ويسمح لي الصديق الفقيه بأن أعترف بأنه يعتبر اكتشافاً بالنسبة لي. صحيح أنه كان ذائع الصيت منذ سنوات طويلة مضت،

لكنني بكل صدق وصراحة لم أكن قرأت له إلا بعض قصص قصيرة، ومقالات، وحينما استلبتني هذه الرواية، شعرت بفداحة القطيعة القائمة بين جزر الثقافة العربية».

خيري شلبي، مجلة الإذاعة.

«وبتشوق ومتعة، عكفت على قراءة هذه الثلاثية التي تمثل إنجازاً في هذا المجال (..). تمزج الرواية الوهم بالواقع، والحقيقة بالخيال، وتنتقل فى حرية بين مستويات الحلم والذاكرة، والواقع، مما يجعل هذه الرواية إحدى شوامخ الأعمال الأدبية، ويمنحها قوتها الجاذبة، التى تسيطر على القارئ، فلا يترك القراءة قبل الوصول إلى السطر الأخير، إنها معالجة جديدة، ومتألقة، وإضافة جليلة إلى رصيد الأدب العربي.

المستعرب الصيني لبرونغجيان.

مترجم أعمال الفقيه إلى الصينية.

«يعد الأديب القاص، والروائى «أحمد إبراهيم الفقيه» من أهم الأدباء الليبيين المعاصرين، فلقد ذاعت أعماله لا فى ليبيا وحدها، وإنما في مختلف العواصم العربية عبر ما قدم من قصص قصيرة، ومسرحيات، ومقالات نقدية، وروايات(......) وهذه الثلاثية تمثل درّة أعماله الإبداعية، وترتفع باسم صاحبها إلى مصاف كبار الأدباء؛ لتماهيها مع الهموم الكبرى للإنسان العربي».

شمس الدين موسى.

مجلة الثقافة الجديدة – القاهرة.

«الفقيه له قدرة على الوصف الدقيق، وعلى تكثيف الأشياء، وعلى الرؤية البعيدة للشخوص، والأماكن».

إدريس الخوري.

الشرق الأوسط، أثناء الندوة التي أقامتها الصحيفة للكاتب في الرباط.

«لا بدّ من تقديم واجب التحية لدار النشر، التي قامت بنشر هذا العمل الإبداعي العربي الكبير، والإشادة بكاتب الثلاثية الذي أسهم في وضع الرواية العربية على خريطة الأدب العالمي، واثقاً من أن هذا العمل سينقل إلى الحياة الصينية نبض، ومشاعر، وأحاسيس، المواطن العادي في الوطن العربي، ويقدم صورة صادقة عن الحياة في جزء من هذا الوطن، مما يسهم في تعريف القارئ الصيني بجانب مهم من الحياة العربية».

الدكتور مصطفى السفاريتي.

سفير فلسطين في الصين، ورئيس اللجنة الإعلامية الثقافية التابعة لمجلس السفراء العرب.

عند مشاركته في الاحتفاء بصدور ثلاثية الفقيه في الصين.

''Singing of the Stars'' is an enigmatic little playlet by Ahmed Ibrahim Al-Fagih and directed by Wilma Marcus Chandler that balances gentleness and commitment against lust and selfishness under the pressure of fear and danger.

A strong performance by Avondina Wills contrasts well with Lisa Hadley's nicely cynical characterization in this quirky little story that moves from romantic interlude to impending doom، accompanied by ubiquitously raucous news reporters and sweetly singing stars.

By ANN BENNETT

SENTINEL Theater Reviewer

"(غناء النجوم) مسرحية قصيرة، مبهمة بقلم أحمد إبراهيم الفقيه، قامت بإخراجها ويلما ماركوس شاندلير، التي وازنت بين اللطف، والالتزام في مواجهة الشهوة الأنانية تحت ضغوط الخطر، والخوف، أداء قوي من أفونيدا ويلز مع أداء بنفس المستوى من ليزا هادلي بتشخيص ساخر لأبطال هذه القصة الغرائبية الصغيرة، التي تتحرك من بداية رومانسية إلى بلاء قادم، متوافقاً مع المداهمة الصاخبة لفريق من الإعلاميين، وتصاعد الغناء الجميل الصادر عن النجوم».

الناقدة الفنية لصحيفة سينتينال.

تعليقاً على المسرحية التي قدّمها مسرح مدينة سانتا كروز في أمريكا، من تأليف أحمد إبراهيم الفقيه.

Books unlimited - Customer Rating

شهادة من موقع كتب بلا حدود

للمؤلف plays 8 لكتاب

ومنحه درجة 4 نجوم

مع نموذج لتعليق القراء الذين منحوه هذه الدرجة

Drama with a difference

Perhaps it is a very good chance to read scripts of such finesse and magnificence coming from the Arab world reflecting ideas and thoughts and visions of humanitarian nature with the subject matter of a universal outlook that can catch the interest of the reader from every corner of the world although they are translated works but you feel as if they were written originally in English I enjoyed reading the 8 plays and look forward to seeing them on stage

Omar AlianShalashy

Reviewed on 04 June 2008

fagih@hotmail.com

fagih@hotmail.com

محمد ابوالقاسم التير

رجل السياسة والصناعة والتجارة

ينتقل الى رحمة الله

عن سن تناهز الخامسة والثمانين عاما رحل عن عالمنا السيد محمد ابوالقاسم التير الذي خاض معارك الحياة من اجل المجتمع الذي ينتمي اليه ، عضوا في المجلس التشريعي لولاية طرابلس ، ثم عضوا في مجلس النواب ، ورجلا من رجال الصناعة والتجارة ، وابا وصاحب اسرة وصديقا لعدد كبير من رجالات البلاد ، والده الشيخ بالقاسم الصغير التير شيخ عشائر الزنتان في مزدة ، وابن اخته الكاتب المعروف الدكتور احمد ابراهيم الفقيه وكل من محمد ابراهيم الفقيه الامين الاداري للمجلس القومي للثقافة العربية سابقا ومفتاح ابراهيم الفقيه الممثل والمخرج المسرحي وابن عمه عثمان ابراهيم التير امين مؤتمر حي الاندلس لعدد من السنين ، وشقيقه المهندس الراحل عبدالرحمن التير كاتب عام امانة الاسكان ، وابن خاله السفير السابق بشير خليل فضل وابن عمه مسعود عبدالعالي التير الدبلوماسي المتقاعد وقريبه العميد مسعود التير الرئيس السابق لجهاز الدفاع المدني وهو ايضا خال الدبلوماسي المتقاعد محمد المهدي اللافي وعميد بلدية مزده سابقا ميلاد المهدي اللافي واولاده خالد وابوالقاسم وطارق وقد كتب الدكتور احمد ابراهيم الفقيه يتذكر خاله قائلا :

وعيت به وانا مازلت صبيا صغيرا في مطلع الخمسينيات وليبيا تعيش ضجيج ميلاد الدولة الجديدة ، يهيء نفسه لدخول الانتخابات ليكون عضوا في المجلس التشريعي لولاية طرابلس وحضرت عندما اقيمت في مزده الافراح والاعراس لحظة اعلان فوزه بالمقعد النيابي ، وعندما انتقلت الى طرابلس عام 1957اقمت بضعة اسابيع في بيته بشارع ابو هريده قبل ان ينتقل بعد ذلك للاقامة في شارع باندونج ، انتقلت بعد هذه الاقامة القصيرة معه ، الى القسم الداخلي بمعهد هايتي ، وواصلت الاتصال به حيث قطع شوطا كبيرا في تاسيس مصنع المنصورة لتعليب الطماطم مع شريكين له من الزنتان هما الشيخ الصيد والد الدكتور عبد الحميد الصيد الزنتاني والشيخ الطاهر الجروي الذي اصبح فيما بعد عضوا في مجلس الشيوخ ، مع شريك من طرابلس هو السيد الهادي المجراب الصناعي الطرابلسي الكبير الذي ظهر اسمه على منتجات المصنع ، المجراب والزنتان ، كما كان له مصنع للكبريت ، كنت مع هواياتي الادبية في مجال الكتابة اقضى وقتي للتفريج عن هوايتي الفنية في فرقة للتمثيل هي فرقة الامل ثم انشأت فرقة خاصة بي عام 1960 هي فرقة المسرح الجديد واتصلت به من اجل اصدار تشريع يعزز الحركة المسرحية وينشيء هيئة لرعايتها فكان يسالني ان اكتب له ما اريد على الورق فكتبت اكثر من مذكرة كان يقدمها للمجلس التشريعي وبعد اغلاق هذا المجلس بسبب توحيد الولايات اشترك في انتخابات المجلس النيابي واصبح عضوا في اكثر من دورة من دورات البرلمان ، وكان قريبا من السلطات التي تصنع القرار مواليا لذلك العهد ولم يكن ضمن الدائرة الصغيرة من نواب المعارضة ، وكان يفعل ذلك عن قناعة وايمان بما يفعل رغم ما نخوضه من نقاش معه في هذا الشأن مناصرة للمعارضين من زملائه واشتغل لمدة قصيرة مستشارا لشركة بي بي البريطانية

للبترول لمدة قصيرة وسعي ، عندما اكملت دراستي في معهد هايتي ، لان يضمن لي وظيفة في هذه الشركة ، ولكنني بعد فترة وجيزة لبيت نداء الخدمة المدنية التي طالبت تلك الدفعة بالالتحاق بالوظيفة الحكومية .
كان لديه ايمان بجده لوالدته السيدة منوبية وهي واحدة من اولياء الله الصالحين ، وهذا الجد هو سيدي عبد الله بن فضل ، صاحب الضريح الجليل والمولد السنوي الذي يقام له في العجيلات وكانت له كرامات كثيرة مسطورة في كتاب مخطوط ، وقد ورث اولاده وبينهما سيدي خليل وسيدي الجيلاني عنه الولاية ، فكان هو يؤمن بالجد وتربطه علاقات حميمة باخواله وورث عنهم بعض اسراره وقبل قيام الثورة في 1ــ 9ــ 1969عاد بيوم او يومين من تونس بسيارته وقد شاهد شيئا في الافق اثناء دخوله الحدود الليبية ينبيء بوقوع حدث كبير ، فجاء الى بيته وهو ينتفض قائلا ان البلاد قادمة على هزة كبيرة مكررا كلمة يا واقي يا واقي وجاءت بحمد الله ثورة بيضاء وكان يخشى ان تكون غير ذلك .
بقيام الثورة انتهي بالنسبة له دوره السياسي واعتزل العمل في هذه المجالات متفرغا للاعمال التجارية وقد افتتح لشركته فرعا في المانيا يتعامل في الغالب مع البيتروكيماويات مستفيدا من العلاقات التي بناها اثناء خدمة بشركة بريتيش بيتروليوم حيت اقام هناك بضعة سنين كما اقام بضع سنوات في المغرب ونجحت شركته ودرت عليه ربحا كثيرا ولكن نفسه المجبولة على الصدق والامانة والنزاهة وافتراض الصدق والامانة في الاخرين اوقعته في شتى المزالق التي اضاعت تلك الثروة ، وقضى السنوات الاخيرة يتنقل بين البلدان يطارد الدائنين الذين اعانهم في تجارتهم ثم تنكروا له ورفضوا تسديد الديون المستحقة له الى ان اجهده المرض فالتزم البقاء في بيته ينتظر ان يصل اليه التعويض الذي وعدته به بعض الجهات .
لقد كافح وناضل من اجل كل موقع وصل اليه فلم يكن حين ولادته في مطلع العشرينيات من القرن الما ضي مدارس يمكن ان يذهب اليها في قريته مزده غير المدرسة القرآنية التي قضى بها وقتا وربما قضى عامين او ثلاثة اعوام في مدرسة اقامها الايطاليون ، وكانت هذه كله حصيلته من التعليم التي اهلته فقط لمعرفة القراءة والكتابة ومباديء اللغة الايطالية وبهذه الحصيلة الضئيلة من التعليم استطاع ان ينقذ نفسه من مصير الكثيرين من ابناء جيله الذين ورثوا عن ابائهم قطعان الشياه يقومون برعيها او دكاكين البقالة يواصلون العمل بها مدى الحياة ، فكان واحدا من ابناء عشائر الزنتان في مزده ، الذين تركوا بصمة في الحياة واضافوا الكثير الى تاريخ الصناعة والسياسة في بلادهم .
رحم الله خالي محمد ابوالقاسم التير ورحم الله والدتي مبروكة ابو القاسم التير التي انتقلت الى دار الخلود قبله باكثر من اربعين عاما واعاننا واعان بقية اسرته على فقدانه والهمنا جميعا الصبر الجميل وانا لله وانا اليه راجعون.

اضافات

ذكرى زيارة قام بها سعيد عقل الى طرابلس

قرأت ادراجات كثيرة في الفيس بوك عن رحيل اسطورة الشعر في لبنان المرحوم سعيد عقل الذي لقى وجه ربه هذا اليوم بعد عمر امتد الى قرن وعامين من الزمان ، وكان خلال هذا العمر الطويل يتصدر المشهد اللبناني ادبا وسياسة وعلما وحضورا فاعلا في الحرب والسلام. وقد اكتفت هذه الادراجات بقول بضعة اسطر تلخص سيرته، واحتوت التعليقات على هذه الادراجات الكثير من التشويش الذي وجب وضعه في السياق الطبيعي، وقد عرفت السيد سعيد عقل خلال زيارته الى ليبيا في منتصف الستينيات ، وكان يمكن ان تتواصل هذه العلاقة، لانني سافرت بعد ذلك كثيرا الى لبنان ، ولكن بعض ارائه اليمينية

المتطرفة ، جعلتني لا احبذ تجديد هذه الصداقة التي نشأت في طرابلس ، وكان له صديقان في الوسط الادبي الليبي هما الاستاذ خليفة التليسي الذي كان وزيرا واستدعاه ابان وجوده في الوزارة، وله صديق اخر من الوسط الادبي الليبي هو استاذنا فؤاد الكعبازي، الذي ربما كان ممن حبذوا هذه الزيارة وباركها وربما طلبها من صديقه التليسي. وكنت صحفيا ، التقيت به في هذا الاطار، وطلب مني ان ازور معه بعض الاسواق والحدائق العامة ففعلت ، واستضافته جمعية الفكر لامسية ثقافية، فقال لي انه سيتحدث عن حياته وسيذكر ان ذلك بناء على طلبي باعتباري ان لقاءنا الصحفي احتوى مثل هذا السؤال فرحبت بذلك ، وفعلا بدلا من ان يباشر القاء شعره، قال سارد على سؤال توجه لي به فلان الفلاني وذكر اسمي وقال ان له اسهاما في جانبين من الحياة اللبنانية الجانب السياسي، فشرح دوره في هذا المجال، ولماذا تاخر عليه المنصب الذي اراده له كثيرون وهو منصب رئيس الجمهورية ، وتحدث طبعا عن دوره في الحياة الادبية وما اصدره من كتب وما قام بتدريسه في الجامعات وما دعا لانعقاده من مؤتمرات وما قام بتشجيعهم من اقلام شعراء وادباء، ثم تحدث عن جائزة تحمل اسمه ، ولا ادري ان كان اشار اليها باعتبارها كانت موجودة ام انها مشروع سيباشر انجازه مستقبلا، وكانت اشادته بهذا الدور وبادواره الاخرى كبيرة الى حد ان احد الحاضرين في بداية النقاش الذي اعقب حديثه ذكره بالاية التي تقول فلا تزكوا انفسكم، ولم يكن من جماعة الادباء وانما شيخ يبدو انه خطيب مسجد، اما الادباء فكان اول المعلقين شيخ الادباء السيد على مصطفى المصراتي الذي اراد التصدي لدعوة اشتهر بها هي كتابة اللغة العربية بالاحرف اللاتينية، ويبدو ان الاستاذ التليسي الذي لم يحضر المحاضرة، ساله الا يفتح هذا الباب ، ولكنه اعتذر قائلا انه لم يكن يريد ان يفتح هذا الباب ولكنه مرغم على الرد لان الذي فتحه فتحه بعنف وقوة اشارة الى سؤال الاستاذ المصراتي. وكل هذا ليس هو محل هذا التعليق ولكن نقطة اخرى تتصل بقوة حضوره وبراعة القائه للشعر، لانني على ثقة انني لا اذكر انني رايت شاعرا او قارئا للشعر في براعة الاداء والصوت والتعبير الذي تجلى تلك الامسية فيما القاه الشاعر الذي رحل هذا اليوم، ولهذا لم استغرب عندما علمت انه في لبنان يضع تسعيرة كبيرة لتذاكر الدخول لامسيته الشعرية وفعلا يدفع عشاق شعره هذا الثمن وتمتليء الصالات التي يلقي فيها شعره بالحاضرين ، واعود الان الى بيت الشعر الجاهلي ، الذي قلت انني اريد العودة اليه وهو

اتوا ناري فقلت منون

قالوا سراة الجن قلت عموا ظلاما

وقال الشاعر عقل ان هذا البيت الجاهلي يجسد رؤيته للشعر كما يجب ان يكون وكما يؤمن به ، وفاض في شرح تقنيات هذا البيت ، فالشاعر يبدا باثارة شعورك في لغة مشهدية مضيئة مبهرة ، فهو لا يقول لك اتوا داري ، وانما يقول اتوا ناري، وهنا يرسم لك لوحة انه موجود في مكان ما في بادية او خلاء او ارض زراعية يوقد نارا، فقال منون ، وهو هنا يستخدم كلمة من خارج الاستخدام اليومي المستهلك ،

كلمة لها رنين ولها معني ولها جدة، فقالوا سراة الجن، وهو هنا يرسم لك موكبا مهيبا لجمع من اهل المراتب العالية ، فلم يقول اصدقاء او جنود او عابري سبيل ، وانما وضعك في مواجهة هذه الصفوة من زوار الليل ، ثم انهم من اهل الخفاء ، والفن كما نعلم تعامل مع القوى الخفية المجهولة وكشف للغطاء عنها ، فماذا رد عليهم ، انه لم يقل السلام عليكم او اهلا بكم مما هو سائر في احاديثنا وانما اختار تحية تليق باهل الخفاء والليل قال لهم عموا ظلاما.

هذا ما وعته الذاكرة من تلك الجلسة التي قرا فيها بعض اشعاره وافاض في حديثه عن مدينته زحلة وهي المدينة التي الحقت به جملة يقولها اهل الادب في لبنان عن سعيد عقل ، فهو يريد زحللة لبنان ، ولبننة العالم .

نعم سمتعه بعد ذلك يتحدث في الاعلام ، وقرات له مقابلات في الصحافة ، وكانت اشادته بليبيا ، موجودة دائما باعتبارها مخزنا من مخازن التراث الحضاري للانسانية ، وهو قول يردده دائما. ويجدر بنا كليبيين ان نعتز به.

والحقيقة فان الحرب اللبنانية التي بدات في اواخر عام 1975 صنعت نوعا من الفرز ، كشفت للاسف عن جانب اخر في هذا الشاعر بطموحاته السياسية المهلكة ، فقد ذكرت الادراجات الكثيرة ما كتبه للسيدة فيروز من كلمات عن فلسطين وعن مكة وعن تمجيد الاسلام، ولكنه اراد ان يتزعم اثناء تلك الحرب الشارع الماروني فبالغ في منافسة زعماء الشارع الماروني مثل عائلة الجميل وعائلة شمعون وعائلة فرنجية ، وانشأ مجموعة اسماها حراس الارز، تحارب في صفوف الموارنة وتعادي الصف الوطني والصف الاسلامي والصف الفلسطيني، مما اورثه سوء السمعة ، رغم انه بعد ان انتهت تلك المرحلة اراد العودة الى الادب والتركيز على عطائه الفني والادبي ، وطبعا كان قد تقدم في العمر فهدأت العصبية والانحيازات الطائفية ولم يبق الا الشعر.

ولاشك ان الشارع السياسي في لبنان بكل الوان طيفه السياسي ، واهل المجال الادبي يمينا ويسارا اسلاما ومسيحيين، سوف يودعون هذا القامة الادبية والشعرية العملاقة بما يستحقه من تكريم وتوقير ، وسيغفرون له تلك المواقف الطائفية وعبر تلك الحقبة المؤسفة من تاريخ لبنان، علما بانه لم يتصدر المشهد الطائفي لفترة طويلة من الوقت ، وانما لزمن قصير ، اورثه هذه النقطة السوداء في ثوبه الابيض

نقاش

ليس تحت يدي اعداد صحيفة الحرية الصادرة في منتصف عقد الستينيات ففي واحد منها قمت بنشر مقابلة صحفية مع ضيف من ضيوف البلاد، كان يقطن في الفندق الكبير، قادما من المملكة العربية السعودية ، له صفة سياسية وفكرية جعلته يحل ضيفا على احدى المؤسسات الليبية، لكنه ليس مواطنا سعوديا وانما مصري يقيم في السعودية ، لا اذكر الان اسمه ولا وظيفته ولكنه كان رجلا فوق الخمسين على ما اذكر ، ويتحدث باكبار واجلال عن الملك فيصل الذي كان قد حل مكان اخيه الملك سعود بن عبد

العزيز على عرش المملكة السعودية، كما كان يتكلم ايضا عن معرفة شخصية بالملك فيصل ويردد حوارات حصلت بينه وبين الملك السعودي، ويقتبس كلمات قالها له، واعتقد انه كان قد ترك مصر بعد ما حصل من حملات ضد قادة تنظيم الاخوان المسلمين، في العام الرابع والخمسين، وارجح انه كان من قادة هذا التنظيم، وكان التنظيم محل جدل ولكنه لم يكن محل استنكار من الراي العام كما هو الان في مصر، ولم اكن شخصيا في ذلك الوقت احمل اي موقف يؤيد او يعادي الاخوان، رغم شعبية عبد الناصر وتاثرنا بهذه الشعبية، الا ان معركته مع الاخوان لم تكن بالنسبة لنا ذات اهمية مثل قضايا الوحدة العربية وقضية فلسطين وتحريرها وغيرها من القضايا القومية التي نناصره فيها ونتعاطف مع الشعارات التي يرفعها بشانها، ولعلني اعود في يوم من الايام الى تلك المقابلة، واستحضر ما حصل فيها من حوار بيني وبين هذا الرجل ، ولكن ما رسب في ذاكرتي من نقاش خاص ربما لم يكن ضمن ما تم نشره في الصحيفة كان حول قضيتين، فهذا الرجل الذي ينتسب الى نوع من الفكر السائد لدى قطاعات من العالم العربي ، كان يردد افكارا يقول انه يتفق فيها مع الملك فيصل، ويتحقق حولها اجماع لدى اهل الاسلام الوطني كما يسميه، واذكر من هذه الافكار العداء الناجز الشامل الكامل للصهيونية ، التي كان يخلط بينها وبين اليهودية ويكاد لا يفرق بينهما، مما كان موضوع نقاش بيني وبينه، انا الذي كنت متاثرا بافكار اليسار العربي والمصري بالذات في تفريقه الحاسم الجازم بين الصهيونية واليهودية، والفكرة الثانية هو العداء الناجز الشامل الكامل للشيوعية، وهنا اتخذ النقاش معه طابعا آخر، فلم يكن يعنيني كما قلت له ان يعادي التيار الذي ينتمي اليه، والملك الذي يدين له بالولاء، الشيوعية، ولكن ما كان يعنيني هو وضعها صنوا للصهيونية ، اذ قلت له ان العداء للصهيونية عداء يجتمع عليه العرب، باعتبارها نظرية عنصرية قائمة على كراهية العرب، واغتصاب ارضهم، وانشاء كيان صهيوني فوق قطعة من بلادهم، فالصهيونية يحق لنا كراهيتها واعلان العداء لها ، واعداد انفسنا للدخول في حرب دفاعية ضد الحرب التي تشنها ضدنا، والتي نتج عنها اغتصاب قطر عربي ، وتهجيره من ارضه ، وقتل الاف الضحايا من اهلنا كنتيجة للعدوان المتكرر ضدنا ، فهل يصح ان نقارن العداء ضد الصهيونية بالشيوعية التي تعني عداء لبلدان شيوعية مثل الكتلة الشرقية بزعامة الاتحاد السوفييتي، فماذا فعلت الشيوعية وماذا فعلت البلدان التي تنتمي لكتلتها ضد العرب، بل العكس هو الصحيح، فهناك اعتقاد لدى الراي العام العربي انه لولا التدخل السوفييتي ضد العدوان الثلاثي على مصر عام 56 لما حصل دحرالعدوان، وفوز مصر بقناة السويس، وجلاء القوات البريطانية والفرنسية والاسرائيلية عن ارضها، وطبعا كان دفاعه عن وجهة نظره، ونظر مليكه ان الالحاد الذي تنادي به هذه البلدان، ومعادتها للدين، ومنعها لممارسة الشرائع على المسلمين الذين يعيشون فيها يكفي سببا لهذا العداء، اما الصهيونية واليهودية فكان رغم انتسابه لعالم الفكر يبدي استغرابا من ان هناك فرقا بينهما وان الصهيونية ليست الا وجها من وجوه اليهودية، وكان هناك في الستينيات كاتب نال شهرة في العالم العربي في ذلك الوقت هو الفرد ليننتال صاحب كتاب الاخطبوط الصهيوني، فاتخذته مثلا للتفريق بين الصهيونية واليهودية.

اما حديثه عن الملك فيصل فكان يتحدث عن جوانب شخصية لم اكن اعرفها عنه، فهو يقول ان كل امراء العائلة السعودية، وعلى رأسهم اخوته من امثال الملك السابق سعود، كانوا يسيرون على نهج والدهم الملك عبد العزيز في تعدد الزوجات، وكلما تزوج اربع نساء، جاء وقت طلقهن وتزوج اربع نساء غيرهن، فصنعوا جيشا من الاولاد والبنات والاحفاد يستنزفون ميزانية الدولة بينما لم يتزوج الملك فيصل

غير زوجة واحدة هي ام اولاده التي لم يتزوج سواها ولم ينجب من احد غيرها، وقال لي انه كل ليلة كان يقوم بجولة في القصر يتولى اطفاء الانوار ويلوم كل من يبقى مصباحا كهربائيا مضيئا دون الحاجة الى ذلك لانه يراه سفها واسرافا .

ولعلني اعود الى الحديث حول هذا الموضوع لحظة ان اجد العدد الذي نشرت فيه المقابلة من صحيفة الحرية عام 1966، باذن الله .

نقاش

اعمد احيانا الى تسجيل نقاش حصل بيني وبين احد الناس في سالف الاعوام، اراه مفيدا، فاستذكره لسبب من الاسباب، واكتبه كما يكتب الانسان يومية من يومياته ولكن باثر رجعي، وقد ضمنت بعض هذه النقاشات في سيرتي الذاتية، وهذا نقاش حصل في عام ما من عقد الستينيات، عندما نشر صديقي الكاتب يوسف القويري، مقالات على صيغة لوحات قلمية في مجلة الاذاعة، كانت احداها تصويرا لمشاعر عجوز ايطالية تتهيأ للعودة الى بلادها بعد غياب استغرقها اغلب عمرها، بعنوان "ذلك الوطن البعيد" ولوحة اخرى اثارت انتباهي ، لم اعد اذكر عنوانها، تحتوى على تاملات في الطبيعة، ومقارنة بين حالة الاشجار في الريف وفي المدينة، وعندما التقيت بالكاتب الصديق، نقلت له اعجابي بتاملاته الجميلة والعميقة عن الطبيعة والريف، واضفت بانني احسست بان ما كتبه يصلح ان يكون جزءا من عمل روائي.

وعنيت حقا ان لديه مهارات كتابية تصلح ان توظف في هذا النوع من الادب، وقد اثرت هذه النقطة باحساس من يريد كسب هذا القلم لادب الرواية، لان رصيدنا في الادب الليبي كان شحيحا بالنسبة للاعمال الروائية، وليس مثل القصة القصيرة التي صنعت تراثا واستقطبت كتاب الحداثة، او الشعر الذي يتمتع برصيده التقليدي في كل البلاد العربية، وليس ايضا مثل المسرحية التي اغناها اهل المسرح الشعبي بالاعمال المكتوبة باللهجة العامية.

وعلى طريقة صديقنا يوسف القويري، في الاستفزاز الفكري والادبي، امسك بخناقي يسأل بحدة وعصبية، وكأنني ارتكبت في حقه اثما، عن كيف جاءتني هذه الفكرة، وماهي الحيثيات التي استندت عليها في الحكم الذي اصدرته بانها تنفع جزءا من عمل روائي ، وهل وجدت في القطعة عملا ناقصا الا اذا تعزز بمادة اخرى تضاف اليه، وقلت اعاتبه ساخرا على هذه الحدة التي رد بها على ملاحظة عابرة، منطلقها الاعجاب والاشادة، وليس اللوم والاساءة، انني اسحب ما قلت، وارجوه ان ينسى انني ذكرت كلمة رواية، فهي كتابة ممتازة على عادة كل ما يكتبه، راجيا اياه ان يكتفي بهذا القول، ويعتبر انها زلة لسان مني، ولن اعيد تكرار كلمة رواية ثانية اطلاقا فيما يتصل بمثل هذه الكتابة التي يكتبها.

ادرك الصديق الاديب انه تكلم بطريقة عصبية لا موجب لها، وقال انه يقول ذلك لانه يريد ان يعرف ما الذي رايته في مقالته المذكورة حتى قلت هذا الكلام، فقلت له انني لست مطالبا بشرح احساس خالجني وانا اقرأ القطعة الادبية التي كتبها، وافصحت له عنه عفو الخاطر، فليأخذه اذا شاء، ويبحث عما يمكن ان يجده فيه متوافقا او غير متوافق مع ما قلت، فان وجده ليجعله محفزا له لكتابة هذا الجنس الادبي المفتقد في الادب الليبي ، وان لم يجد فليهمل الموضوع، فهو شانه ولست مطالبا باي شرح ولا تبرير لما قلت. واحسست بانني بهذه الكلمات نفست قليلا عن شعوري بالحنق من ردة فعله العصبية التي استقبل بها كلامي. ولانه صديق احب فعلا كتاباته، واتمنى ان اراه يسخر قلمه لعمل ادبي كبير بدلا من اقتصاره على الاعمدة القصيرة والمقالات السيارة، عدت للرد على سؤاله عما رايته في تلك القطعة قريبا من روح الرواية واسلوبها، وقلت له انني رايت في القطعة لغة مشهدية ذات نفس شعري تصلح للكتابة السردية طويلة او قصيرة، الا ان ما يجعل الاسلوب اقرب الى الرواية، انه وقف طويلا يتامل الاشجار، ويتأمل الافق، ويتامل الحقول، ويقارن ذلك باشجار المدينة وما يحدث لها من تشذيب وقطع وبتر لاغصانها لكي لا تعيق مجال الرؤية لدى سائقي السيارات، بعكس الاشجار في الريف التي تنمو حرة باوراقها واغصانها في اي اتجاه تشاء، والتي لا يقترب منها مقص او منجل عامل البلدية، وهذا الاستطراد في التامل والتصوير والوصف ، امر كما قلت له، لا تستوعبه القصة القصيرة ، التي تعتمد على تصوير موقف ، او لحظة ، او على شخصية في حالة فعل، مع اقتصاد في الوصف والتصوير والتأمل، وفي ومضات قصيرة ودون اسهاب واستطراد، مما تستوعبه الرواية ، ونحن جميعا قرأنا الاستطرادات الطويلة في روايات وملاحم مثل الحرب والسلام والاخوة كارامازوف وثلاثية نجيب محفوظ، بل ان هناك رواية كاملة تنتمي الى ما يسمى الرواية الجديدة ، كتبها كاتب فرنسي اسمه الان روب جرييه، استهلك اغلب صفحاتها في وصف شرفة بيت، وهي طبعا كتابة مختبرية ، تجريبية، يستفيد منها الكتاب ولكن لا يحتذون بها ولا يتخذونها مثالا او مقياسا.

هذا ما اذكره من نقاش مضى عليه ما يقرب من خمسة عقود، وقد كتب الاستاذ يوسف القويري، بقلمه الرشيق الجميل ، ومعالجاته العميقة البارعة في اسلوبها وتحليلها، عددا كبيرا من الكتب، بينها كتابه المتميز مذكرات رجل لم يولد، ولكنه لم يكتب رواية بالمعنى الفني للرواية، واعتقد ان ذلك كان خسارة كبيرة للادب الليبي لان الاستاذ يوسف القويري كاتب من قماشة نادرة لا تتكرر كثيرا في تاريخ الادب.

حسني صالح المدير

عرفته منذ خمسة وخمسين عاما ، اي في اوخر الخمسينيات في فرقة الامل للتمثيل التي انشأها المرحوم عبد الحمبد المجراب وجمعت كوكبة من نجوم المستقبل ، عرفت فيه انسانا كان دائما مثالا للنبل وللتواضع الانساني الجميل وللوفاء للاصدقاء، كان في ذلك الوقت قد بدا يتعاون مع اذاعة شارع الزاوية مذيعا غير متفرغ وكان يذهب الى بنغازي ليلتحق بالجامعة وكان منذ ذلك الوقت مثابرا مجتهدا يطور نفسه ويواصل تحصيله العلمي والثقافي وخلال الستينيات برزت مواهبة قيادة اعلامية متميزة يدير جهاز

الاذاعة كمدير فني لها ويتولى متابعة الاخبار واقسام الانتاج وغير ذلك من شئون ، الى ان جاء العهد الانقلابي ، وافرغ الاذاعة من كل النجوم الذين رآهم رئيس الانقلاب يمثلون شخصيات لها الق وبريق يطفيء القه وبريقه كما يرى بحكم العقد التي تحكم سولكه، فابعد من الاذاعة نجومها الكبار الذي صنعوا مجدها في ذلك الوقت واذكر منهم المرحوم محمد المطماطي والمرحوم احمد فريد والاستاذ ناصر عبد السميع والاستاذ محمد السفاقسي والاستاذ عبد الفتاح الوسيع والاستاذ محمد التركي التاجوري والمرحوم كامل عراب وعلى راسهم المرحوم حسني صالح الذي ذهب بداية للعمل خلف الكاميرا كما يقول اهل الاعلام وذلك في وكالة الانباء الليبية ثم حصل له ما حصل مع زملائه الذين ابعدوا الى الخارج في مهمات ديبلوماسية ، ورغم انه ابعاد، ورغم انه حرمان من النجاح الذي كان يحققه في الاذاعة ، فقد ابدى تفوقا عظيما في وظيفة السفير ، واستمر ما يزيد عن عشر سنوات في الكويت، لاصرار الكويت على ان يبقى بها، فقد احبه اميرها واحبه الحراك السياسي هناك وارادوه ان يكون ممثلا لبلاده لديهم وكلما جاء التفكير في نقله جاءت رجاءات امير الكويت واهلها بابقائه ، ولكن العقل الشيطاني الذي يدير دولة الحقراء كما كان يسميها صاحبها ، لم يرضه هذا النجاح وهذا الرضا عن اداء السفير حسني صالح المدير، وقد روى لي هو نفسه ما حصل ، فقد جاء يوم العيد القومي الذي تقيمه السفارة، ويدعى اليه كبار شخصيات الدولة ورجال ونساء السلك الديبلوماسي، وكانت هناك اسطوانات تدور بالاغاني الليبية ، وداخل هذه الاسطوانات نفذ العقل الشيطاني المؤامرة ، ودس قصيدة هجائية للشاعر الكبير مظفر النواب بين الاغاني ، ولم يكن السفير حسني صالح واعيا بها الى ان بدا اهل الخليج يسمعون كلمات بذيئة عالية صارخة تقول خنازير هذا الخليج، وطبعا هبوا في عاصفة كبيرة خارجين من الحفل، وحسني كان واقفا في ردهة الفندق لم يكن قد سمع هذه القصيدة ، ورای الناس يخرجون غاضبين ساخطين وبعضهم يتفوه بالشتائم ضد ليبيا، وعرف فيما بعد ان عنصرا امنيا اوعزوا اليه ان يضع هذا الشريط لارغام الكويت على طرد السفير وهو ما حدث فعلا فقد تلقى المرحوم حسني صالح وعقابا على هذا الشريط اندارا من اميرها بمغادرة البلاد خلال اسبوع واحد باعتباره شخصية غير مرغوب فيها .

طبعا تالم كثيرا، وتاسف كثيرا وعشر اعوام من العلاقات والانجاز دمرها له التفكير الشيطاني الابليسي الذي كان يدير البلاد.

عاد الى ليبيا كسيرا اسفا ، وكان مرشحا ليكون امينا مساعدا للجامعة العربية ، ولكنه لم يكن صاحب قدرات بهلوانية للقفز على الفرص واستغلالها ، فذهبت لغيره ،وسافر هو قنصلا هذه المرة في اسطنبول ، وقد ذهبت له هناك فوضع نفسه وسيارته تحت تصرفي وطاف بي مناطق في تركيا بينها المنتجع السياحي بورصة وتجولنا في المكان الذي اختاره الملك ادريس لاقامته عندما كان يستشفى هناك في عام 69 عندما اطاح به الانقلاب واماكن جميلة اخرى استطاع اكتشافها في اسطنبول نفسها ، وكان يؤسس لعلاقات جميلة، باعتبار اسطنبول عاصمة من عواصم التراث التاريخي المشترك بين ليبيا وتركيا ، ووجدته يعطي اهتماما كبيرا لتأريخ وتاصيل الجالية الليبية في تركيا ، الى ان عاد ولم يذهب بعدها الى اي بعثة اخرى ، حتى قامت ثورة 17 فبراير، وتشاء مصادفات الاقدار ان يرحل رفيق عمره وصديقه الفنان الاستاذ المرحوم عبد الحميد المجراب ، قبله ببضعة اشهر، وكانهما على موعد في المجيء الى هذا العالم والبقاء سويا في علاقة جميلة ، ثم يرحلان سويا الى عالم البقاء .

نقاش

شاهدت على الشاشة الصغيرة منذ اعوام مضت ، صديقنا الراحل الطيب صالح، في لقاء تلفزي مع المذيعة المعروفة السيدة نشوى الرويني، ولفت نظري نقاش بينهما حول الفكرة التي تخطر على بال الكاتب، وفي حين قالت المذيعة بان الكاتب لابد ان يسرع الى تسجيلها قبل ان تضيع، ذكر لها الروائي السوداني المتميز رحمه الله، انه لا يفعل ذلك، لانه يثق بان الفكرة الفكرة المهمة لا تضيع من ذهن صاحبها، بمعنى انها تظل تلح على عقل الكاتب وتعاود الظهور مرة اخرى، وعندما اصرت المذيعة على اهمية التسجيل ، وابدت رايها في ان هناك افكارا تضيع ان لم يتم تسجيلها في لحظتها، ظهرالضيق على وجه المرحوم الطيب صالح، وهو رجل لا يبدي مثل هذا الضيق الا نادرا، وفي مرات استثنائية جدا، وتساءل مستنكرا ، موجها كلامه الى المذيعة ، كيف انها تريد تعديل اسلوب ومنهج في الحياة لازمه طوال عمره المهني. وعندما التقيت بعد ذلك بالصديق الراحل، انتصرت لما قالاته المذيعة السيدة نشوى الرويني، قائلا له بان الحق معها، وانها كانت مصيبة في فكرتها عن ضياع الافكار ان لم نقم بتسجيلها في لحظتها، وانه اذا كان حقا لم يتعود على مثل هذه الممارسة، فلا باس ان يباشرها الان ، لانني واثق من انه اضاع افكارا كثيرة ، وقد يتدارك مستقبلا الافكار قبل ضياعها.

واقتنعت ان سر اهماله لما يخطر عليه من افكار انه كاتب مقل في كتاباته، لا ياتي للكتابة الا بعد فترات انقطاع طويلة، اذا احس ان موضوعا الح عليه الحاحا قويا جدا، بل انه كان يفصح لي عن كراهيته للكتابة ويستغرب احيانا عندما يراني اتحمس مقبلا عليها، ولم يكن ليحصل على المكانة الرفيعة التي وصل اليها الا لانه كان من اهل النبوغ وان الروايات القليلة التي كتبها تمثل درجة عالية في نضجها ومستواها الفني، وكان نجيب محفوظ رحمه الله لا يمضى الا ونوتة وقلم معه ترافقه اثناء اليقظة ويضعها بجوار راسه اثناء النوم، ولا يترك فكرة الا وسجلها، بسبب انه كاتب غزير الانتاج ويحتاج الى ما يغذي هذه الفيوض الابداعية التي تواتيه، واقتدى به في هذه العادة المرحوم جمال الغيطاني الذي كان ايضا يحرص على تسجيل كل خاطرة شاردة تاتي على ذهنه.

بالنسبة فانني مثل صديقي الطيب صالح اضعت افكارا كثيرة ، ولم استدرك الا متاخرا اهمية تسجيل هذه الافكار، لانني كنت مثله لا انتظم في الكتابة ولا اجعل منها شغلي الشاغل، واعتقد انه الانتظام في الكتابة وتسجيل الخواطر التي تطرأ فجاة على الذهن، عادة اكتسبتها بعد ان لازمت نجيب محفوظ وانضممت الى حلقاته، وهي مسالة حصلت متأخرا في حياتي ، اي بعد ان انتهت القطيعة بين النظامين الليبي والمصري، منذ عام 1990، حيث انتظمت في حلقات نجيب محفوظ واقتداء به صرت انتظم في الكتابة وانتظم في تسجيل الافكار العارضة عندما تأتي.

نقاش

في عام 1976 على الاغلب، وكنت اعمل مستشارا صحفيا في السفارة الليبية في لندن، حدث ان حضر الي تلك المدينة الشيخ الفاضل والعالم الجليل الاستاذ على مفتاح شويطر، موفدا من الحكومة الليبية للتحضير الى مؤتمر حوار الاديان، وفي اليوم التالي لوصوله، اتصل بالسفارة يسأل عن الموظف المسئول عن تسهيل اتصالاته في العاصمة البريطانية، فاوصلوه بي، وكنت احمل له تقدير كبيرا ، فقد تشرفت بان كنت طالبا من طلابه، عندما كنت ادرس في معهد هايتي حيث كان هو عضو هيئة تدريس في ذلك المعهد، كما كنت اتردد على مسجد بن ناجي في طرابلس الذي كان يتخذه مكانا لالقاء خطبة الجمعة واماما للمصلين ، وكنت اتابع برامجه الدينية التي كان يقدمها في الاذاعة في الستينيات ثم صار نجما من نجوم المرئية يقدم برامج تحظى باهتمام الناس، وتعاطفت كثيرا معه عندما توقفت برامجه تماما واختفى الشيخ على شويطر من الاعلام، ولانني كنت من الوسط الاعلامي ، فقد عرفت ان ايقافه عن الظهور جاء بتعليمات من رئيس مجلس قيادة الانقلاب، لان السيد العقيد اغضبته اجابتان اجاب بهما الشيخ على شويطر على اسئلة المستمعين ، التي كان يرد عليها في برنامجه الديني، ولم يكن يستطيع وفق الشريعة ونصوص القران الا ان يرد بهذا الرد الذي اغاظ العقيد، فقد ساله مواطن عن حق الانسان الصائم في الاستفادة من رخصة الافطار في رمضان عندما يكون مسافرا بالسيارة سفرا يتجاوز المسافة التى حددها الشرع بواحد وثمانين كيلو مترا بحسابات هذه الايام كما اذكر، فاجابه بان الرخصة موجودة ويستطيع اذا اراد استخدامها سواء كان يركب الجمل او السيارة او الطائرة او الصاروخ الذي يوصله في دقيقة.

ولعل امثالنا يرونه شيئا غريبا ان يعتني رجل يقود دولة مثل ليبيا بمثل هذه القضايا ويزاحم اهل التخصص في افكارهم وارائهم وما الذي يضيره اذا افطروا الناس او صاموا، ولكن هذه كانت الطبيعة المهيمنة والاستبدادية للرجل الذي كان يحكم ليبيا بمزاجه الغريب، والاجابة الثانية التي اثارت ثائرة العقيد، هي سؤال جاء الى الشيخ عن شرب الخمر، فقال لصاحب السؤال ان الخمر حرام وانها معصية ويجازي صاحبها بالجزاء الذي اقرته الشريعة، وساله ان كان شرب الخمر يبطل الصيام، فقال له بان تناول اي شراب كان خمرا اوماء يبطل الصيام اذا تناوله الصائم اثناء ساعات الصيام، اما خارج ساعات الصوم فتلك معصية ، حسابها يختلف عن الصوم، لان صيام الانسان جائز طالما امتنع عن مسببات الافطار طوال ساعات الصوم.

وما ان سمع هاتين الاجابتين حتى اصدر امره بمنع العالم الجليل الشيخ على مفتاح شويطر من الظهور في الاعلام، او الرد على اسئلة المشاهدين، رغم ما كان يحظى به من شعبية ، فقد كان صاحب حضور وصاحب شخصية جذابة وصوت له رخامة وعذوبة واسلوب جميل في صياغة الخطاب ووجه سمح صبوح فيه القبول، علاوة على علم غزير وتبحر في امور الدين ويسر وسهولة ومرونة ، متبعا منهج النبي الذي اوصى بالتيسير لا التعسير وجادلهم بالتي هي احسن وليس التي هي اشد واكثر قسوة وتزمتا وضيقا.

كنت اعرف الغصص التي عاشها والحظر الذي تعرض له، ولهذا فقد اسعدني ان ياتي الى لندن موفدا في مهمة رسمية ، ممي يعني ان منعه من الظهور في الاعلام ليس مقاطعة له ولا وضعا لاسمه في القوائم السوداء التي يعاديها النظام، ورحبت به عندما خاطبني بالهاتف، ورتبت له موعدا مع السفير الدكتور

محمود سليمان المغربي، للتداول في المهمة التي جاء فضيلة الشيخ من اجلها واسلوب مساعدته في اتمامها على اكمل وجه.

واستقبله السفير بكل ما يستحق الشيخ الفاضل من احترام وتوقيروانا معه، وسأله عن المهمة، فقال بانه موفد للتحضير لمؤتمر لحوار الاديان يقام في طرابلس ويكون بين رموز الاديان السماوية من مسلمين ويهود ونصارى، ورغم ان الدكتور المغربي رجل علماني، يفرق بين اليهودية وبين الصهيونية، الا انه رجل له ارتباطاته الوثيقة بالقضية الفلسطينية التي تربى في اجوائها، لانه ولد وعاش جزءا من عمره في مدينة حيفا، التي هاجر منها مع المهجرين خلال حرب 48، فلهذا كان مهتما بالموضوع، ووجد في المؤتمر ما اثار لديه تحفظاته ضد سياسة العقيد، فلم يتحرج من ان يتكلم بصراحة مخاطبا الشيخ الفاضل قائلا له، بانه لا يشعر ان الهدف كما يظن الشيخ حوار وتقارب بين الاديان، وانما يشعر بوجود شبهة سمسرة بالقضية ، وتسول لقبول العالم الغربي بالنظام الانقلابي وتحسين صورته على حساب فلسطين، وربما تملق ونفاق لدوائر صهيونية يهودية، وعندما قال الشيخ شويطر ان المؤتمر جاء بناء على اقتراح لمؤتمر سابق بين المسيحين والمسلمين، اوصى بتوسيع الدائرة ليشمل اليهودية باعتبارها اقدم ديانة عرفتها المنطقة العربية، وان العقيد استجاب لهذا الاقتراح في اطار اهتمامه بحوار الحضارات، فظهر عرق العصبية لدى الدكتور المغربي، وقال ساخطا

ـ وهل تظن يا فضيلة الشيخ ان الرئيس الليبي له مبدأ اوعقيدة، انه رجل عدمي، فارغ من الايمان باي شيء، لا تهمه الا مصلحته، والصور التي سوف تلتقط له، والرضا الذي سيحصل عليه من الصهيونية العالمية لكي يضمن تباثه في الحكم.

وكان الأمر مفاجأة مذهلة للشيخ الذي ظن نفسه ، في حضرة ممثل رئيس الدولة ، الناطق باسم العقيد، الملتزم بتعليماته واوامره، الذي يتكلم باسمه ولا يقول الا ما يقوله العقيد، فاذا بحديث السفير تشكيك في هذا العقيد وسباب له، وواصل كلامه الذي كان كله تسفيها لافعال رئيس الانقلاب ، واعتبار المؤتمر ليس الا جزءا من هذا السياق البائس التافه .

واسقط في يد الشيخ شويطر، لا يعرف ماذا يقول وكيف يجيب، فاذا دافع عن سفاهات العقيد، وضع نفسه في خانة المتملقين الراضين بالمضي في الغلط، واذا وافق السفير وقع في خطا مهاجمة رئيس النظام الذي يعرف جبروته وتنكيله بالمناوئين له، كما لم يعد ممكنا في مثل هذه المناخ ان يناقش الخطوات العملية التي جاء لتنفيذها من اجل الدعوة الى المؤتمر، ولم يزد على ان قال محرجا بانه لو كان الامر بيده لما تحرك للعمل في هذا النشاط، ولكنه موجود في هيئة دينية، كلفته بالامر، وقال ايضا انه قرا ما يكفي من كتب النساك والزاهدين والمتفرغين للعبادة ما يحبب له الانسحاب من المناشط العامة والانزواء في بيته عابدا ناسكا زاهدا في كل ما يشغل الانسان عن عبادة خالقه، وقال انه باذن الله سيفعل هذا في يوم قريب، تاركا طرابلس عائدا الى بلدته زليطن، ليعيش حياة ناسك زاهد متعبد بين اهله في تلك البلدة.

وانتهت المقابلة، وامر السفير بسيارة تقل الشيخ على شويطر الى فندقه، وان تبقى تحت امره ليؤدي بها المهمة التي جاء من اجلها، وكانه بالتالي ينفض يده من هذا العمل ، ويتركه امرا خاصا بالشيخ يفعل بشأنه ما يريد.

في اليوم التالي جئت الى مكتبي، لاجد الشيخ الجليل على مفتاح شويطر بانتظاري، جاء مبكرا جدا ، ويبدو انه بقى مسهدا بسبب ما سمعه من كلام قوي ضد النظام ورئيسه من السفير.

ودخل المكتب معي ، طالبا ان نتحدث على انفراد، وقد بدا عليه الانزعاج الشديد، وسألني عن سر السفير، الدكتور محمود المغربي، وسبب هذا الغضب الذي يحمله للحاكم وللنظام، ويريد مني ان اشرح له هذا التناقض بين ان يكون الانسان سفيرا وممثلا لرئيس دولته، وفي نفس الوقت متناقضا ومعاديا ومعارضا لهذه الدولة، فقلت له ان الدكتور المغربي، كما يعلم، كان احد المعارضين للنظام الملكي، وجاء النظام الجديد فوجده محاصرا ملاحقا مطاردا، لم يخرج من السجن الا ليدخل اليه، فاراد استقطابه ، وقام بتنصيبه رئيسا للوزراء، الا ان صفة الثورية والتمرد والمعارضة صارت جزءا من شخصيته، وهو لا يقول هذا الكلام في السر وبين جدران الغرف المغلقة، وانما يقوله علنا ويحرر به رسائل يبعث به للعقيد نفسه في طرابلس .

فسالني الشيخ كيف لا يخاف على نفسه من الاذى ، واذا كان لا يخاف او لديه حصانة ، او وطن نفسه على البقاء في هذه البلاد، فان الاخرين يخشون الاذى على انفسهم، ولا حصانة لديهم، ولا نية لهم للبقاء خارج البلاد، ولم افهم ما يريد قوله الا بعد ان افصح لي صراحةعما يريد، لانه تمنى ان يبقى ما دار بيننا داخل مكتب السفير سرا لا يصل الى احد في طرابلس، ولابد انه ظن انني يمكن ان اكون عينا من عيون الحكومة، فطمأنته الى انني رجل يتعامل بالاعلام المسموع والمرئي والمعلن للناس، نكتب بما تقوله وسائل الاعلام نشرة الى ليبيا، ومثلها الى الاعلام البريطاني ، اما التقارير فلها من حشود الامنيين من يقومون بالواجب وازيد ، وطمأنته الى انه لم يقل شيئا يسيء الى الحكومة او النظام وكلامه كان كلام اهل الدين والتقوى والصلاح، وتركني وانا لا اعلم اذا كان قد صدق ما قلته له حقيقة عملي ام ظل يشك في انه يمكن ان يجد امامه في ليبيا تقريرا بما حدث.

كان الشيخ ، قد اعتكف منذ سنوات مضت في بيته، بحجة المرض، واعتبرت ان المرض ربما يكون ذريعة للانسحاب الذي كان يفكر فيه منذ ذلك الوقت.

وسالت عنه بعد ثورة 17 فبراير لاطمئن عليه، ولم اكن اتلقى جوابا، وتاسفت ان ارى الشيخ الذي كان ماليء الدنيا وشاغل الناس في الستينيات والسبعينيات، لم يعد احد يذكره ولا احد يعرفه، وهناك من قال لي اخيرا ،ان الشيخ على مفتاح شويطر انتقل الى رحمة الله، فتأسفت وتألمت، ان ينتقل عالم جليل ورجل من اهل النبل والشرف والايمان ، الذي تصدى للدعوة وهداية الناس بنزاهة وعلم وامانة، ينتقل الى جوار ربه، دون ان نسمع خبرا عنه، ولا كلمة رثاء في حقه، عليه رضوان الله.

نقاش

ذات جلسة في ركن فندق، ونحن نحضر مؤتمر الادباء العرب في تونس، تطرق الحديث مع الكاتب الراحل الاستاذ فتحي غانم، الى عمود يومي من اعمدة الرأي كان يكتبه، لصحيفة عربية، يتناول فيه

الشأن السياسي العربي في اغلب الاحيان، فقال يحدد الفرق بين اسلوبه في التناول واسلوب صديقه ، رفيق رحلة العمر في الفكر والصحافة ، وقبل ذلك في القانون، الاستاذ احمد بهاء الدين، باعتباره اشهر من كتب اعمدة الراي ذات المنحى السياسي، قال الاستاذ غانم، ان هناك اكثر من مدرسة واكثر من منهج في مقاربة القضايا السياسية، وان صديقه وزميله احمد بهاء الدين ينتمي الى مدرسة ، مختلفة عن تلك التي ينتمي اليها هو، فمدرسة الاستاذ بهاء ، تلك التي يحرص صاحبها على ان يكون في حالة اشتباك مع المجتمع السياسي، يتصل بالفاعلين فيه ، وينغمس في حلقات النقاش التي يقيمونها، ويكون طرفا فيها ومشاركا في الفعاليات التي يحفل بها المشهد السياسي العربي، ويستقي افكاره، ومادته لاعمدة الرأي التي يكتبها مما يرى ويسمع عبر هذه الصلة المباشرة باهل الحراك السياسي.

عن نفسه فان الاستاذ فتحي غانم يقول، انه بسبب طبيعة عمله ككاتب روائي، وبسبب تركيبته الشخصية التي لا تحب دخول الزحام، ولا ان يكون جزءا من المعترك السياسي او غير السياسي، فهو يعيش كما يقول بمنآى عن اهل هذا الحراك، ولا يسعى للاندماج معهم، ولا الاتصال بهم ، ولا يستقي افكاره من تعامله معهم، وانما يتعامل مع المشهد السياسي وابطال هذا الحراك، من مرصده البعيد، مرقبا لما يحدث، متأملا مجمل الصورة وليس تفاصيلها، يرى ابعادها ودلالاتها اكثر من اعتنائه برؤية الاشخاص، وسماع ما يقولون او متابعة ماذا يفعلون بدقة واهتمام، فيكتب عموده من واقع هذه التأملات.

واذا استخدمنا هذا القياس لوجدناه فعلا ينطبق على كثيرين ممن كانوا يكتبون المقالة والتحليل السياسي عمودا كان اوبحثا، فنجد مثلا كاتبا سياسيا كبيرا راحلا مثل الاستاذ لطفي الخولي، مولع بالانغماس في المشهد حتى ليكاد يصبح هو نفسه فاعلا سياسيا، لا مجرد محلل وكاتب اعمدة ومقالات ، بينما يكتفي فيلسوف اهتم اهتماما شديدا بالسياسة، مثل استاذنا الراحل فؤاد زكريا، بالكتابة من موقع الدراس والمتأمل الذي لا تربطه صلة وثيقة باهل السياسة، ولعله يتجنب وجود هذه الصلة، حرصا على صفاء الرؤية ووضوحها، وكأنه يقول لاهل السياسة ابتعدوا لكي اراكم اكثر وضوحا، بينما يقول صاحب المنهج الثاني اقتربوا حتى استطيع التقاط صورة اكثر تركيزا ودقة، عامرة بالعلومات والتفاصيل.

نقاش

سؤال مطروح على الساحة الادبية والفنية، ويتكرر طرحه منذ نشوء المدارس النقدية في هذه المجالات الابداعية، ويشقي اهل الفن والادب باتخاذ مواقف منه وهو ذلك الذي يتصل بقضية الفن والالتزام، ومدى ارتباط الفن بالحياة، ولا ادري ما هي المناسبة التي استوجبت بطرحة ولكن المشكلة هذه المرة ان الذي طرح السؤال زميل فنان من اهل العصامية والهواية، ممن مارسوا الفن دون تاهيل ولا مرور بمراحل التعليم التخصصي وانما هي نبتات انبثقت من الارض وعشقت الفن ومارسته كما فعل هذا الزميل اخراجا وتمثيلا، ونجح مع الجمهور في تقديم ذلك اللون الشعبي الذي يلقى القبول ، لانه قادر على مخاطبة اهل المجتمع والتواصل معهم والاقتراب من مشاكلهم واستقطاب مشاعرهم واحاسيسهم خارج الاطر الفكرية والتنظيرية وانما عبر الممارسة والحس الفني السليم واستخدام الموهبة في الاداء والتقديم والمعالجة،

وكان هذا الزميل ولن اشير هنا الى اسمه رغم انه اسم معروف في المجال المسرحي خوف ان يرى احد انني اعني انتقاصا في فهمه او في قوة ادراكه لانه كما قلت لم يكن يحتاج الى هذا التساؤل عن المفاضلة بين ما يقال عن الفن للفن والفن للحياة ومفاهيم الالتزام التي يتحدث عنها بعض الاتجاهات التقدمية، وكان يراني اكثر الحاضرين تاهيلا للتوضيح والشرح وابانة موقفي من مثل هذه القضايا، فقلت للصديق بان المعالجين لهذه القضايا غالبا ما يقتربون منها من منطلقات فلسفية اكاديمية نظرية قد لا يكون بحاجة لان يشغل نفسه بها وهو الذي يجد نفسه في الممارسة والتطبيق لفنه ويحقق النجاح مع يريده ووسط ميدانه وهو المسرحية الشعبية وبين جمهوره من عامة الناس الذين لا يعنيهم التنظير بقدر ما يعنيهم المحك العملي والوجبة الفنية التي تقدم لهم.

ولم اعد اذكر النتيجة التي انتهى النقاش وعما اذا كان ذلك الصديق قد وجد شيئا يرضيه في كلامي. ولكن نقاشا اخر نشب في ذهني بعد ذلك حول هذه المفاهيم التي وجد هذا الصديق الفنان حيرة في التعامل معها، وهو الذي حقق نجاحه في ميدان عمله قبل ان يتبلور فهمه لها ولا تحديد موقفه منها، ولعلها شكلت له عقدة لانه لم يستطع فهمها ويبحث عن زميل مثلي عله يضي له حيرته باعتباره كاتبا يتعامل مع النصوص الادبية ومعني بالنقد والتنظير بمثل اعتنائه بالجوانب العملية والتطبيقية، ولكنني برىء مثله وبعيد الى حد ما من معالجة القضايا ذات الابعاد الفلسفية، لا املك مهارة المتخصصين في المقاربات الفلسفية لمثل هذه المواضيع، تستقطبني الجوانب العملية للفن اكثر ما يستقطبني التاطير الفلسفي لها، واذا اردت ان اغامر بقول شيء حول موضوع الفن والالتزام النابع من مدارس الفن للحياة مقابل الفن للفن والمتعة والجوانب الجمالية، فانني اقول انها قضية مغلوطة، بها خلط وخطل، لا اراه يفيد الابداع فنا وادبا اكثر مما يقدم له خدمة وفائدة. واستطيع ان ارى هذا الخطل وانا ارى لوحات فنان مثل شاجال ولوحات فنان مثل سيلفادور دالي، واجدها تخاطب شيئا عميقا في نفسي وتفسر لي اشياء في محيطي وعالمي كما تفعل ذلك اشعار سان جون بيرس وادونيس ومسرحيات اللامعقول لصمويل بيكيت ويوجين يونسكو وهارولد بينتر، وبعض اعمال توفيق الحكيم مثل يا طالع الشجرة ، او قصص نجيب محفوظ ذات المنحي العبثى مثل تحت المظلة،ولا مدرسة الرواية الحديثة التي يتزعمها الان روب جرييه وناتالي ساروت والنوبلي   ولا اقول هنا الموسيقى الصامتة من اعمال سيمفونية باعتبار انه لا كلام يصحب موسيقاها ويسفرها وعلى المستمع ان يتلقاها ويفهمها بالحس والذوق دون لغة الا لغة الفني والموسيقى، ولا افلام الموجة الحديثة التي نجد تجلياتها في افلام جودار والسويدي

واقول ايضا اننا لا ارى في اعمال اخرى لكتاب مثل الذين ذكرتهم وبينهم ادونيس ونجيب محفوظ وتوفيق الحكيم او غيرهم من اهل الوضوح او تلك التي تنتمي للمدارس الكلاسيكية بدءا من المسرح الاغريقي واعمال شكسبير او امهات الاعمال الروائية لتلستوي وديستيوفسكي وبلزاك والمحدثين مثل هيمنجواي وارنست هيمنجواي وصولا الى ماركيز و جورج امادو وجراهام جرين ، اي اختلاف في تأثيرها ومخاطبتها لشيء عميق في نفسي، وتواصلي وانفعالي بها واحساسي بانها اثراء لوجداني واضافة جمالية حسية ومعنوية لواقع الحياة الذي اعيشه، مثلها مثل تلك الاعمال التي تنحى منحى تجريديا وسرياليا وتغني عولمها الفنية بالبحث عما هو فوق الواقع وتحت الواقع وحول الواقع دون ان تكتفي بالعالم الواقعي فقط.

ويكفي القول بان هناك مفارقات في افكار واعمال من يقولون بهذا الطرح الذي يقسم الفن الى فن للفن وفن للحياة، تؤكد خطل هذه التقسيم، واضرب مثلا بالكاتب الشهير اوسكار وايلد الذي شغل العالم اواخر القرن التاسع عشر بالانتصار لمفهوم الفن للفن، وكيف كانت اعماله الابداعية واشهرها صورة دوريان جراي، تناقضا صارخا مع ما يقول، فهي رواية تحظ على الفضيلة وتعمل على ادانة الشر ومرتكبية ، وتنحى منحا يكاد يكون وعظيا خالصا، تفوق عن كل ما يطلبه اهل الفن للحياة والفن للمجتمع من اهل الابداع الادبي والفني.

نقاش

كنت اقف قريبا من الكاتب الراحل الدكتور يوسف ادريس، اثناء حضورنا فعالية ثقافية عربية في بريطانيا، عندما ساله احد الموجودين عن كتبه، وعما اذا كان يصطحب نسخا منها لكي يحظى بنسخة ممهورة باهداء المؤلف، فقال له المرحوم يوسف ادريس ضاحكا، انه لا يحمل خطاياه معه، فتساءل الرجل، وكان فيما يبدو احد القراء المعجبين، بان كتب يوسف ادريس هي امجاده ، فلماذا يسميها خطاياه؟ فقال يوسف ادريس، انه لن يختلف معه اذا رآها كذلك، ولكنها تبقى خطايا، ثم انصرف لتحية بعض الاصدقاء الذين اقبلوا للترحيب به، بينما ظل هذا القاريء ملازما لي وقد راني احظى بصحبة وصداقة يوسف ادريس يطلب مني شرحا عما يقصده الكاتب الكبير، فاجتهدت في البحث عن اجابة اقولها له، كان مفادها، ان الكاتب في عالمنا العربي، لا يعيش من كتاباته، ولهذا فهو يكتبها في اوقات فراغه، اي انه وقت مخصوم من زمن الراحة ، ومخصوم من زمن التسلية ، ومخصوم من زمن الاسرة والاولاد، ولابد لمن يمتهن الكتابة الادبية ان يحرم نفسه مما يستمتع به الاخرون، فهو يكتب وهم يذهبون لقضاء الصيف سباحة في البحر، وهو يكتب وهم يذهبون للنادي يمارسون هوايات المشي ولعب البينج بونج والسكواش والجولف او غير ذلك من العاب، وهو يكتب وهم يحضرون الحفلات ويشاهدون الافلام ويرتادون المهراجانات، بل حتى السياحة التي يذهب فيها، غالبا ما يجد نفسه بسبب متطلبات مهنته، يترك متعة التبضع والسياحة، ويقفل على نفسه غرفة الفندق ليكتب ما اوحته له تلك الزيارة، اولانه شعر بوجود فكرة لا تقبل التاجيل، فكل كتاب يراه المؤلف جاء بسبب خطيئة ارتكبها في حق نفسه ، في حق متعته الشخصية ، خطيئة وأد هواياته الاخرى ، واحيانا خطيئة في حق اولاده الذين يعتدي على حصتهم من حنان الاب وعنايته ويعطيها للكتابة، ولهذا فهو صادق عندما اعتبر ان كتبه هي خطاياه حتى لو اعتبرتها انت ، واعتبرها غيرك من القراء ، امجادا.

وختاما اقول حتى لو لم يكن هذا ما عناه المرحوم يوسف ادريس بكلمة خطايا، فانني شخصيا ارى ان هناك ظلما يرتكبه الكاتب في حق نفسه، عندما يجعل هذه المهنة التي لا تطعم خبزا تجور على اوقات ليس من حقها، اوقات هي من حق الاسرة ، ومن حق الاطفال، ودعك من تلك هي من حق الكاتب نفسه، وربما لها تاثير مباشر على صحته، فالذهاب الى النادي وممارسة السباحة او المشي او رياضة من الرياضات هي في النهاية ضرورة للصحة والعافية ، وعندما يتركها ليعتكف في غرفة مغلقة يمارس الكتابة فهو اهمال لصحته ، وعمل يدفع ثمنه من لياقته البدنية وتدهور عافيته النفسية والجسدية.

نعم لمكافأة تاتي مع الكتابة فيما بعد، ربما بعد ان يتوارى الجسد خلف اللحود، ويغادر الكاتب الحياة، ولكن هل حقا تستحق هذه المكافأة، كل ما يبذله الكاتب من تضحيات؟

رحم الله يوسف ادريس وبارك الله في خطاياه.

نقاش

اذكر انني كنت امشى في احدى اروقة صحيفة الجمهورية في شارع زكريا احمد، مع الدكتور يوسف ادريس، وهو يبحث عن مكتب خال نجلس فيه، فاطل من احد الابواب، ودلف الى غرفة كبيرة بها مجموعة طاولات شاغرة، ما عدا واحدة جلس اليها الراحل الكبير عبد الرحمن الشرقاوي، منكبا على الكتابة، ولم نسمع منه الا جملة من كلمتين، يقولها ويعيد قولها، وهو يرفع راسه من فوق الورق ويعود اليه، هي "هدوء، يا جماعة" "هدوء يا جماعة"، واثناء جلوسنا اطل وجه رجل مشهور هو الكاتب المسرحي نعمان عاشور، ودخل للسلام، فبادره الدكتور يوسف ادريس بهجوم على مسرحية كانت تعرض له في تلك المرحلة من بداية عقد الستينيات، قائلا له:

ـ ايه يا نعمان، مش فيه حاجة اسمها اصول وقواعد، ينفع الكاتب ينساها خالص، مش فيه اصول لبناء الشخصية وتطور الحدث الدرامي، ولحظات التوتر والانفراج التي تحدث بسيمترية محسوبة ومرسومة، فين ده كله من المسرحية اللي شفناها اول امبارح؟ ده مافيش حاجة اسمها حبكة خالص.

واستمر في هجومه الساحق الماحق، ونعمان عاشور في حالة ذهول لا يدري ماذا يقول، وانا في حالة الم واسف، لان للرجل مظهر قديس يتعرض لوابل من رصاص طائش لا يعرف كيف يرده او يتقيه، ثم لا ادري ماذا حدث ليوسف ادريس ازاء موقف الضحية الذي استسلم لمصيره دون احتجاج، وهل هي عاطفة تحركت في قلب يوسف ادريس واشفاق على الرجل، فتحول تحولا مفاجئا من الهجوم العنيف، الى التمجيد والثناء على العمل الذي بدأ الحديث عنه بهذا الهجوم، قائلا:

لقد قلت في عقل بالي وانا اشاهد العرض ان نعمان عاشور تعمد ان يفعل ذلك، لانه فوق القواعد والاصول، التي يضعها النقاد واهل التنظير، لقد حفظها واتقن حفظها ثم قرر ان يرمي بها الى البحر، هكذا يكون الفن، لان المبدع هو الذي يضع هذه الاصول وليتفضل من يريد ان يتعلم ، باخذ دروسه من اعمال الماستر نعمان عاشور، استاذ كتابة المسرح ومهندسه العظيم.

ذهب الاستاذ عاشور ارضيا ، وغادرنا بعد لحظات الغرفة وتركنا الاستاذ الشرقاوي ينعم بالهدوء الذي يريده ، بعد الزوبعة التي داهمته فجأة، وتكرر المشهد في صحيفة الجمهورية وفي صحبة يوسف ادريس مع جمهرة من النوابغ كانوا يتواجدون في ذلك المبلغ ونلتقي بهم لقاءات عابرة حينا وطويلة احيانا اخرى امثال سعد الدين وهبة ومحمد عودة، واحمد عباس صالح، وعبد الرحمن الخميسي، والاب الروحي للجميع الشاعر والكاتب ورئيس التحرير كامل الشناوي.

ولم اكن موجودا في هذا الجوار الذي ينتمي لاهل العبقرية والنبوغ، الا لكي احمل هذه اللحظات زادا في الذاكرة، استعيدها واستحضرها ، واستمتع ببهجة نقلها الى القارء بعد اكثر من خمسين عاما من حدوثها.

نقاش

عندما انتسبت الى جامعة ادنبره،عام 1979، طالبا في الدراسات العليا بقسم الدراسات الشرقية والاسلامية، كان المستشرق الكبير البروفسور مونتجمري وات هو رئيس هذا القسم، الذي تولى قبولي، الا انه ترك القسم بعد ذلك بقليل، ليبقى استاذا شرفيا، ومنارة ثقافية ذات مكانة عالية، وكنت افرح باية فرصة تسنح لاجلس معه قليلا، بامل ان استفيد من تجربته الواسعة العريضة، ومناهل علمه الموسوعي، الذي يتجاوز التخصص في الدراسات الاسلامية، وكنت اعرف ان رسالته في الدكتوراه كانت عن الجبر والاختيار في الدين الاسلامي، وهي اطروحة لا اعتقد انها وصلت الى المكتبات في صورة كتاب، ولكنه استفاد من هذا البحث في كتبه الكثيرة التي بلغت ثلاثين كتابا تركزت حول جوانب الدين الاسلامي ودراسات اخرى مقارنة بين الاديان، واذكر انني سالته ذات مرة هل كانت نتيجة البحث الذي قمت به انه جبر ام اختيار، فاكتفى بان قال بان هناك الجبر وهناك الاختيار وكلاهما موجود ومتلازم مع الاخر في حياة البشر كما اقرها خالق الكون، وكنت اعرف ان هناك تفسيرات كثيرة قدمها الائمة وعلماء الدين لمبدا الحرية والاختيار، وبمثل ما صنع الله اقدار البشر وحدد للواحد يوم مولده ويوم مماته فانه بين هاتين النقطتين مساحة ترك فيها قدرا من الحرية للانسان، وهي التي وردت اشارات قوية لها في كثير من الايات مثل " ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بانفسهم" وهي التي وردت في حديث الله في القرآن عن الامانة التي قال فيها "انا عرضنا الامانة على السماوات والارض والجبال فابين ان يحملنها واشفقن منها وحملها الانسان انه كان ظلوما جهولا"، وهناك طبعا ما يعزز النتيجة التي ذكرها العالم الجليل مونتجمري وات في احاديث النبي واقوال الائمة، ولكنها جميعا قد لا تعرف استخدامها او لا تسعفك وانت تواجه سؤالا من ابنك الصبي عندما يسألك سؤالا من تلك الاسئلة التي تتصل بعلاقة الانسان بالكون، كما حصل معي عندما جاءني ابني بعد ان قرا اشارات في كتب المطالعة او في قراءاته الحرة عن اللوح المحفوظ، ليسأل عن كيف يتوافق الحديث عن الارادة والحرية التي وهبها الله للانسان، مع ما نقرأه في القرآن وفي الحديث علن اللوح المحفوظ الذي حفظ الله به مقادير الخلق قبل خلقهم وجعله مستودعا لمشيئته، والقول بان كل شيء يتصل بحياة اي كائن مسطر في هذا اللوح، وطبعا الصبي ياتي الى ابيه حتى لو كان هذا الاب اميا، بعشم وامل ان يجد عنده اجابة تبدد حيرته وتضع حدا للقلق الذي انتابه من القضية التي كانت موضوع سؤاله، وكنت انا احد هؤلاء الاباء الاميين في الفلسفة لان للسؤال علاقة بهذه الفلسفة في شقها الديني على الاقل، ولكنني بدأت بان قلت له عن حقيقة هذا اللوح ووروده فعلا في كلام الله وكلام نبيه بل وروده في ديانات اخرى ، ولكن التفسيرات له تتعدد وتتنوع ، الى حد ان هناك من يجد تفسيرا رمزيا لهذا اللوح خاصة في ثقافات امم غير اسلامية وليس كما يراه مفسر مثل الطبري، بان للكتاب وجودا ماديا وسطرت به الاقدار تسطيرا بالقلم الذي علم به الانسان ما لم يعلم، ولكن سواء كان هذا اللوح المحفوظ رمزيا او كان له وجود مادي، فهل معنى هذه الاقدار البشرية المسطورة ، ان الانسان يولد ويموت، ويعيش حياته بين هذين النقطتين، بلا حرية ولا ارادة لان كل شيء مسطور ومكتوب ولا

فكاك منه. ليس ذلك شرطا ، قلت لابني وليس ذلك صحيحا، وبدت الحيرة على وجه الصبي وهو يراني اقول كلاما يناقض بعضه بعضا، فكيف اذا كان كل شيء مسطور ومعروف قبل ان يولد هذا الانسان، اجد بعد ذلك امكانية لان يكون له حرية الفعل والاختيار والسير في طريق الهداية اوالضلال، قلت نعم انه معروف ومسطور دون ان يعني انه مجبور على ان يمضى مع ما هو مسطور ومعروف، والحقيقة انه هو من يصنع هذا المسطور وهذا المعروف في اللوح المحفوظ حتى وهو موجود قبل خلقه وقبل خلق الكون، لان الكتاب لا يملي على هذا الانسان ما يفعل ولكنه يسجل ما اختار هو بارادته الحرة ان يفعله، لانه يعلم به قبل ان يفعله، وزدته شرحا هنا، اقتبسته من شواهد ما يحدث في حياة البشر، فهناك كما نعلم بعض من يقرأ الطالع، او يفسر الحلم، ويقول لصاحب الطالع او صاحب الحلم انه سيعيش احداثا ويمر بحالات وتقع له وقائع، كما فعل نبي الله يوسف في تفسيره لاحلام الاخرين في القرآن، فهل كان نبي الله يوسف وهو يقول الرؤية، هو من صنع لصاحبها مصيره ومقدراته، ام انه فقط راى المستقبل وقاله له، وهذا ما يقوله الكتاب المحفوظ ، انه يرى المستقبل، ويرى ما ارتكبه الانسان بارادته الحرة من افعال، خطأ كانت او صوابا وسجلها قبل وقوعها. لقد قال سيدنا يوسف لاحدهم، انه سينال العقاب اعداما، فهل كان هذا الاعدام من صنع يوسف ام من صنع صاحب الحلم الذي فعل فعلا كان عقابه الاعدام، فما سطرته الارادة الالهية في اللوح المحفوظ ليس الا ما اختاره هذا الانسان لحياته عبر ممارسته لحريته، فقد اعطاه الله عقلا واراه الخير والشر، وبعد ان اختار طريقه، كانت الارادة الالهية قد عرفت مسبقا بماذا يكون اختياره خيرا او شرا، ثم اخذ فعله هذا طريقه في اللوح المحفوظ. انني هنا احاول ان اعطي تفسيرا للجبر والاختيار، فالجبر واقع بالضرورة في حالات لا مجال فيها للاختيار فليس هو الذي يختار يوم مولده ، ولا مكان مولده، ولا الاهل الذي انجبوه، ثم ان خالق الكون، كما يقول جل وعلا "عنده علم الساعة، وينزل الغيث ويعلم ما في الارحام وما تدري نفس ماذا تكسب غدا وما تدري نفس باي ارض تموت" .

فهناك من مقدرات البشر ما جعلها الله تاتي من عنده دون اختيار، وهناك ما ابقاه هامشا للفعل الانساني والارادة الانسانية وعقل الانسان، كي يتحرك ويفعل ويعمل بما تمليه عليه هذه الارادة الحرة وهذا العقل، "وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون" صدق الله العظيم، ورحم الله المستشرق والعالم الراحل الاستاذ مونتجمري وات، صاحب اطروحة الجبر والاختيار في الاسلام، الذي رحل يوم 24 اكتوبر عام 2006 وقد بلغ 97 عاما، قضاها في مد جسور التفاهم بين العقيدة الاسلامية وعقيدة النصاري، والذي اوحت لي ذكراه بهذه السطور.

وظيفة الفن في تجميل الحياة

ذات ندوة ثقافية في مطلع السبعينات ، حضرها الادباء والفنانون والاعلاميون ، لمناقشة مندوب من القيادة الانقلابية العسكرية هو المرحوم عمر المحيشي لشرح السياسة الجديدة في مجالا ت الاعلام والثقافة ، ولامر ما سهى هذا المسئول القيادي ان يشير الى موضوع الفنون التشكيلية وما احتوته الخطة الجديدة من اهتمام بها ، فتصدى له بغضب وحماس الفنان التشكيلي المعروف الاستاذ طاهر المغربي متسائلا عن فحوى سياسة الدولة في هذا المجال ، مستنكرا على هذا الرجل القيادي ان ينسى الفنون التشكيلية قائلا له ان الفنون التشكيلية ان كنت لا تعلم ايها السيد الوزير ، تدخل في كل منحى من مناحي الحياة ، فهذه القاعة التي تجلس

فيها هي فنون تشكيلية وهذه الطاولة التي تجلس اليها والكرسي الذي تجلس فوقه هما فنون تشكيلية وهذه البذلة العسكرية التي ترتديها برتبها ونجومها هي فنون تشكيلية، وهذه الساعة التي في معصمك فنون تشكيلية ، وهذه السيارة التي اقلتك الى هذا المكان فنون تشكيلية، والبيت التي تسكن فيه ، وغرفة النوم التي تنام بها والسرير الذي تنام فوقه، والصحن االذي تأكل فيه طعامك هوفنون تشكيلية ، ومضى يعدد له مظاهر الحياة التي يحياها والتي رافقته كما رافقت أي انسان منذ طفولته هي انواع من الفنون التشكيلية من المهد الذي تهدهده فيه امه، الى التابوت الذي سينقل فيه عندما يموت الى متواه الاخير،واللحد الذي ستوضع فيه عظامه بعد عمر طويل كلها فنون تشكيلية ، وليس مجرد اللوحة التي يراها معلقة على الجدار او الصورة التي يراها مرسومة في صحيفة او مجلة ، الى حد صار معه الرجل يرجو الفنان الكبير ان يتقبل عذره لانه ما جاء الى هذا المكان الا للحديث عن الخطوط العريضة لسياسة الدولة في هذه المجالات تاركا التفاصيل لاهل الاختصاص ، قائلا للاستاذ الطاهر المغربي ، بعد ان فتش بين اوراقه ، ان الوزراة لم تهمل الفنون التشكيلية بدليل ان هناك دائرة اسمها دائرة الفنون التشكيلية وان هناك ايضا ناديا للرسامين يستطيع ان يذهب السيد الطاهر لرئيس هذه الدائرة ورئيس هذا النادي ليشرحا له السياسة الجديدة الخاصة بهذا المجال فكانت المفارقة التي جاءت على لسان الفنان الطاهر المغربي ، في رده على هذا المسئول انه "انا يا سيادة الوزير هو رئيس دائرة الفنون التشكيلية وانا هورئيس نادي الرسامين" ، لم يكن الفنان الطاهر المغربي معنيا في هذه المواجهة بينه وبين الوزير ، بفلسفة الفن بقدر ما كان معنيا باظهار اهمية الفن في الحياة وضرورة اهتمام الحكومة الثورية في ذلك الوقت به ضمن اهتمامها بتطوير الوان الفن الاخرى ، دون ان نحتاج هنا الى ان نقول ان هذه الالوان من الفن مجتمعة تشترك في الاهداف ولاغراض ، اذ ان مهمتها دائما هي تجميل الحياة ، وجعلها اكثر احتمالا او كما يقول نيتشه " تبرير الوجود كواقع جمالي " بل هو يطالبه بان يفاجئنا دائما ويخلق بدائل لوجودنا ، ويحمله مسئولية اقناعنا بالعيش في المستقبل . اما هيجل فهو الذي يقول في كتابه حول علم الجمال ، بان جمال الفنون يرافق الانسان في حياته صديقا وفيا ليجعل لحظات وجوده اكثر لطفا وفرحا. وعودة الى كلام فناننا الكبيرالطاهر المغربي ، فان الفن بالصورة التي ذكرها ليس مجرد محطات في حياة الانسان يقف عندها للراحة والترويح ، كما يقف المسافر في البرية في يوم قائظ تحت ظل شجرة ،يجاور نبعا او بئرا ، وانما صار الفن هو النهر الذي يعوم فيه الانسان او يمتطى قاربه ويتهادي فوق امواجه، ويصدق هذا اليوم اكثر من أي يوم مضي ، بانفجار ثورة الاتصالات والسماوات المفتوحة والقنوات التي تصل لالاف المحطات يتلقاها المشاهد في بيته وشبكة الانترنت بامكانياتها الهائلة ، لتجعل الفن الذي تنقله هذه الوسائط باللون والصوت والصورة ، جماليات التشكيل والتصويروالتلوين ، مع فنون الموسيقى والغناء والرقص والاستعراض وفنون القول والحوار والتمثيل والاخراج ، كل ذلك يجعل الفنون، تشكيلية او غير تشكيلية ، جزءا من الحياة اليومية للانسان باكثر مما قال الفنان طاهر المغربي منذ اكثر من ثلاثين عاما مضت ، فهل هذا الكم الهائل ، الذي يجعل الفن في حياتنا جزءا من العادة والروتين يشكل تقوية للفن ، ام انه يضعفه ويصنع منه صورة باهتة بعيدة عن تلك المنابع القوية العميقة التي صنعت امجاد الرسم والموسقى والمسرح ، عندما كان الناس يذهبون الى هذه الفنون ، ويجعلونه احتفالا في احياتهم وهم يرتادون المعارض والمتاحف وقاعات العرض المسرحي والموسيقى ، لمشاهدة الاصل لا الصورة المأخوذة عن صورة ، هل الفن يتقدم ، ومعه تتقدم البشرية ، ام ان ما يحدث مع هذا الكم الهائل والسيل الهادر هو العكس ، لا ادري ، ولكن كل هذا لا ينفي الحقيقة الثابتة والدائمة لتلك الكلمات الجميلة التي شهدتها قاعة مجلس الامة القديمة على لسان فنان ينتصر للفن والفنانين في مواجهة وزير صار يحلق في قبة المبني وينقل بصره بينها وبين البذلة التي يرتديها مندهشا من ان هذه القبة وهذه الاعمدة وهذه البذلة التي يرتديها ، هي فنون تشكيلية ، فاجاه كلام الفنان ، فصار حاله كحال المثري النبيل في مسرحية موليير عندما رقص ذلك الغني الجديد اندهاشا وهو يسمع من احد المعلمين ان ما يقوله من كلام عادي هو ما تسميه كتب الادب النثر .

نقاش

ربما استطيع ان احدد منذ متى سيطر الكاتب على حياتي وجعلها بل وجعل عددا من المحيطين بي مسخرين لخدمته، وجعلني انا بالذات احمد ابراهيم الفقيه خادما له يكرس نهاره وليله لتلبية نزواته وتنفيذ رغباته التي قد لا تمضى دائما وبالضرورة مع النسق الذي تعود عليه الناس او العقد الذي يشكل قواعد الحياة والتعامل بينهم.

ولعل هذا الكاتب الذي يطالب صاحبه بان يخضع له، هو ما يحدث لاغلب كتاب العالم، عدا قلة تمردوا عليه، فبادروا بخنق هذا الكاتب او حبسه داخل صدورهم فلا يرى نور الشمس، او كتم انفاسه وقتله قتلا لا عودة بعده الى الحياة، بحيث انتهت مكابداتهم مع صحبته، وتاريخ الادب زاخر بكتاب هجروا الكتابة رغم انهم بدأوا كتابا ناجحين، وحققوا اعتراف مجتمعاتهم بمواهبهم ونبوغهم، لكن ثمن هذا النبوغ وثمن هذه الموهبة كان باهظا بحيت اثروا السلامة على ما تجلبه الكتابة من شهرة او مال، وفضلوا سلامة العقل وامان الحياة الخالية من نزوات الكاتب في نفوسهم، في حالة الكتاب العربي، امثالي فان الثمن الباهظ الذي يدفعه صاحب الكاتب لموهبة او نبوغ صاحبه، ثمن لا مقابل له ولا مردود ،فقد يكون امرا مقبولا لكاتب يعمل في البلاد المتقدمة ويتقاضى مقابلا كبيرا على اعماله تجعل صاحبه والدائرة الاولى من اقارب هذا الكاتب زوجة او اطفالا او ابا او اما، ينتفعون بالثروة القادمة من وراء موهبة الكاتب وابداعه، فيرضون بالتالي بتدليله وارغام انفسهم على التعايش مع رغباته ونزواته، ولكن حال الكاتب العربي، انه غالبا ما يعيش مشردا طريدا، يلاحقه الرقباء وتسجنه سلطات الامن السري، ولا يستطيع الحصول على مقابل لما يكتبه بل غالبا ما يطالب صاحبه بان يصرف عليه ويتولى الانفاق على نشر كتاباته من دخل اخر يصرف فيه جهده، وهناك قصص كثيرة تقابلنا في الحياة عن الانسان الكادح رجلا كان او امرأة الذي يبذل جهدا، مضنيا ويكدح صباحا ومساء ويمتهن عملا بالنهار واخر بالليل فلا ينال الا ساعات قليلة من النوم من اجل ان ينفق على اطفال صغار، هم اطفاله على سبيل المثال، ثم غالبا ما نرى ان جهده اثمر في ان يرى هؤلاء الاطفال وقد كبروا وتخرجوا من الجامعات وصاروا يردون الدين لهذا الاب او هذه الام ممن انفق عمره وجهده وقدم التضحيات الجليلة من اجل تربيتهم وتعليمهم، ولكن ان نقوم بمثل هذه التضحيات وننفق هذا الجهد ونكدح هذا الكدح لنرضي كاتبا يسكن تحت جلدنا، يريد ان نتدبر وقتا خارج اوقات العمل النافع الذي يدر الرزق، لتحبير تهويماته، وندفع فواتير الكهرباء والتدفئة ونسهر الليالي بلا نوم من اجل ارضاء نزواته، ثم فوق هذا الجهد وهذا الوقت وهذا الانفاق، نتدبر مالا لكي ندفعه للمطابع واهل النشر لكي يظهر في كتب للناس، فمن اين يمكن تدبير هذا المال ونحن نهدر الوقت ليلا ونهارا لملء الاوراق بما يسميه افكاره او ابداعاته التي لا مردود ماديا ولا معنويا لها، اذن فهو بالضرورة الوقت الاساسي الذي يأكل النهار ونقضيه في تحصيل الرزق، اما الوقت الذي نصرفه للكتابة فهو وقت اخر نقتطعه من الراحة والنوم، لارضاء هذا الكاتب، حتى لو كان في هذا الجهد اهدار لصحتنا وعبء على ارواحنا واجسادنا واعصابنا، ومكابدات مضنية قد تؤدي الى انقاص العمر وقصفه قبل الاوان، دون ان نتطلع الى يوم نجني فيه حصاد هذا الجهد، كما يتطلع الاب الذي شقي في تربية ابنه او ابنته، لانه جهد ضائع وطفل سيبقى مثل الطفل المانغولي لا ينمو ولايكبر ولا يشفى من تخلفه العقلي، وكنت دائما في صراع مع هذا الكاتب، احس بتأنيب الضمير لانني اجاريه والبي نزواته، واظنها حالة خاصة حتى وقعت في يدي خواطر دونها كاتب اجنبي من الأرغواي، عن الامه وعذاباته مع هذا الكاتب، في كتاب كامل اسماه 'الكتاب والاخر'، اسمه كارلوس ليسكانو، وهو مثلي يلوم نفسه على انه رهن حياته وعقله وقلبه لدى هذا الكاتب الاناني، المستبد، المتعجرف، ويحاول ان يقتدي بكتاب اكثر ذكاء وشطارة بادروا منذ

بواكير حياتهم الى فك الارتباط بهذا الكاتب وارتاحوا من متاعبه، فتلوه في نفوسهم، وانتهت بذلك ملاحقته لهم،الا انه يعود ويقول انه في الحقيقة صاحب هذا الكاتب ويريده ان يبقى لانه يدين لهذا الكاتب بانه هو من ابقاه على الحياة، فقد عانى تجربة السجن شابا لموقف سياسي من قادة بلاده في ارغواي وكان سيفقد الرغبة في الحياة ويستسلم لما يريده جلادوه من تصفية له، الا ان الكاتب فيه هو الذي قاوم، وكانت الكتابة وسيلته للمقاومة، وهو ما حفزه للاستمرار في الحياة، انه يعتز بالكاتب ولا يجد تعبا في خدمته ، ولا يستنكف من ذلك، ولكن المشكلة انه وجد هذا الكاتب في نفسه هو الذي يهجره، فجأة وجد ان الكاتب الذي امن انه قوة عظيمة قادرة على هزيمة كل الظروف الصعبة، يصبح صامتا غير قادر على الاستمرار في الحياة، جفت ينابيع الابداع لديه، وصار يقف عاجزا صامتا امام الورقة البيضاء. وهو امر اغضب صديقنا الكاتب من الأورغواي، ولكنني اقول له ان يفرح على رأي المثل الليبي الذي يقال على لسان انسان ذهب مكرها لأداء واجب ديني في المسجد ووجده مغلقا ففرح لوجود سبب يرفع عنه اللوم هاتفا ان الحمد لله جاءت منك ايها الجامع.

الجد

الفقيه العالم الناسك الزاهد الذي كان معلما للقرآن في تجمعات سكنية من الاميين، قبل قرن ونصف من الزمان، يعود الى عالم اليوم ليكون معلمي في هذا الزمان، وقد اختار ان ياتيني وانا في مرحلة متقدمة من العمر، فلم يرضى بالمجيء في مستهل حياتي ، وانا مازلت اسعى للتحصيل العلمي في سن الطفولة، ولم يحضر لتعليمي في سن الشباب، ولا في سن الكهولة، وانما اراد ان يدركني الان بعد ان اكملت كل مراحل التعليم ووصلت الى اعلاها، كما وصلت الى مراحل النضج والخبرة التي تقدمها للانسان سبعة عقود من وجوده في عالم الاحياء، واستوعبت عددا من اللغات استخدمتها في الاستفادة من كل المناهل المتاحة للعلم كتابا مسرحيا ومنتديات ثقافية ووسائل سمعية وبصرية وفتوحات جديدة في مجالات المعلومات تقدمها الشبكة العنكوبتية واسطوانات ممغنطة، واجهزة حاسوب بمختلف انواعها، ليقول لي ان هناك جانبا ناقصا في تعليمي يريد اكماله لي، وهذا الرجل هو جدي الفقي احمد عبد الله القنطراري.

لم اعرف جدي فقد ولدت بعد اربعين عاما من وفاته، ولكن حضوره كان قويا في البيت الذي اورثه لابي، الذي عاش مع امه في نفس البيت وقد عاشت تلك المرأة طويلا، بعد وفاة زوجها، حيث كان اسمه يتردد في البيت كل يوم، باعتباره المثل والقدوة للجميع وباعتبار ما كان يقوله في حياته هو القانون الذي تسير عليه اسرته بعد موته، واقول ايضا ان حضوره كان قويا في حياتي ايضا لان الجميع كان يذكرني بانني ما سميت احمد الا لاكون امتدادا له ، وحاملا لتراثه عندما اكبر، ولهذا فقد كان كل شيء في تربيتي يبدأ به وينتهي اليه، فاذا ارتكبت خطأ قالوا لى انه هذا السلوك لا يرضي جدي الفقيه، واذا اجدت في عمل شيء، او حصلت على درجة نجاح في احدى الاختبارات، قالوا لي ان جدي الفقيه سيكون فخورا بما فعلت، وفي احيان اخرى ياتي ذكره في اطار التأنيب عندما يقال لي له تعليقا على فعل لا يرضيهم بانه لا يجوز

لانسان يحمل اسم الفقي احمد ان يفعل هكذا فعل، واذا حالفني التوفيق في عمل ما يتجه الشكر مباشرة الى الجد باعتباره يباركني ويرعي خطاي ووبسبب هذه المباركة وبسبب هذه الرعاية يتحقق لي النجاح.

ومتأثرا باعمال ادبية تمنح ولادة جديدة لاشخاص لهم دلالة وقيمة تارخية ذات منحى فكري او ادبي او ديني، كما حدث مع اعمال ادبية استعادت المسيح واحضرته الى عالمنا ، او زعيم مثل عبد الناصر في اعمال ادبية عربية، واحيانا شخصيات تراثية كما حدث في اعمال درامية استحضرت الشاعر المتنبي او الشاعر الفارس عنتر، فقد ارد ان امنح ولادة عصرية في عمل من اعمالي الادبية لهذا الجد، الذي مثل لي رمزا ومثلا، لاستخدمه كقناع لافكار كان يجسدها بشخصيته التي عرفته بها ناسكا وزاهدا وفقيها ووليا من اولياء الله الصالحين، ويكون استحضاره استحضارا للقيم التي كان يمثلها وليس فقط لانه جدي الذي كان له الاثر الكبير في تربيتي، ليكون حالة من حالات التجلي لارقى واعظم ما في تراثنا الفقهي والصوفي واعظم ما تحتويه من قيم ومباديء، ليغني العمل بهذه النفحات الروحية، نفحات الصفاء والحكمة والرؤية النقية للعالم، التي نحتاج اليها في كل زمان، ومع كل جيل، وفي كل بقعة من كوكبنا الارضي، ونحتاج لتذكير انفسنا بها،

نقاش

لا ادري ماذا كانت المناسبة التي اثارت ثائرة عبقري القصة الدكتور يوسف ادريس ودعته الى ان يقول في اسف واسى "رحم الله زمانا كان فيه الواحد يلتفت يمينا فيكتب قصة ويلتفت شمالا فيكتب قصة اخرى"، ولعله كلام جاء تعليقا على قراءته لمقال يلومه على انه اهمل كتابة القصة على حساب مقالات سيارة تتناول الاحداث الجارية. ولانني كنت موجودا وهو يقول هذا الكلام بالم وحرقة، مستذكرا زمن البدايات، فقد رأيت ان اتكلم لاظهر له رأيي فيما اراه من فرق بين الكاتب مستجدا والكاتب بعد ان يقطع شوطا في النضج والتجربة، وبادرت لابداء هذا الراي قائلا بانه امر طبيعي ان يحدث هذا اليسر في الكتابة في زمن البدايات وان تتعسر الكتابة بعد ذلك باعوام، فقد كان ذلك وقت تفجر الموهبة واعلانها عن نفسها، يقودها حماس شديد لتحقيق الاعتراف بها، وكان هو يكتب ما يخطر على باله من احداث يستقيها من واقع البيئة الريفية الزراعية ، بيئة الطفولة والصبا، وقد شكلت مخزون اعوام كثيرة من المعايشة والمراقبة، صارت الان تجد تعبيرا عنها، فتظهر وقد تجلت فيها عفوية الكتابة وفطرة الكاتب وموهبته في بدء اكتشافها، هي تلك القصص التي جمعها في مجموعاته الاولى، التي صدرت في الخمسينيات مثل ارخص ليالي، واليس كذلك. وجمهورية فرحات.

كما اجده امرا طبيعيا الا تستمر معه تلك الحالة، والا تواتيه كتابة القصة بذات اليسر والسهولة، لان هناك شيئا صار يكبر في حياته ويتحول الى عبء له ثقل الجبال، هو المسئولية.

عندما كتب قصصه الاولى لم يكن هناك اسم كبير في الحياة الادبية اسمه يوسف ادريس، اما الان فقد تحول ذلك الاسم المجهول الى كاتب يصفه الناس بالكبير، وينعته آخرون بعبقري القصة، ولم يعد ممكنا

ان يقبل على كتابة القصة بنفس البساطة التي بدأ بها، لان وراءه الان اعينا ترقب، ونقادا يرصدون وينتظرون ما يضيفه الى المدرسة الابداعية التي اسهم في انشائها في هذا الفن من فنون الكتابه.